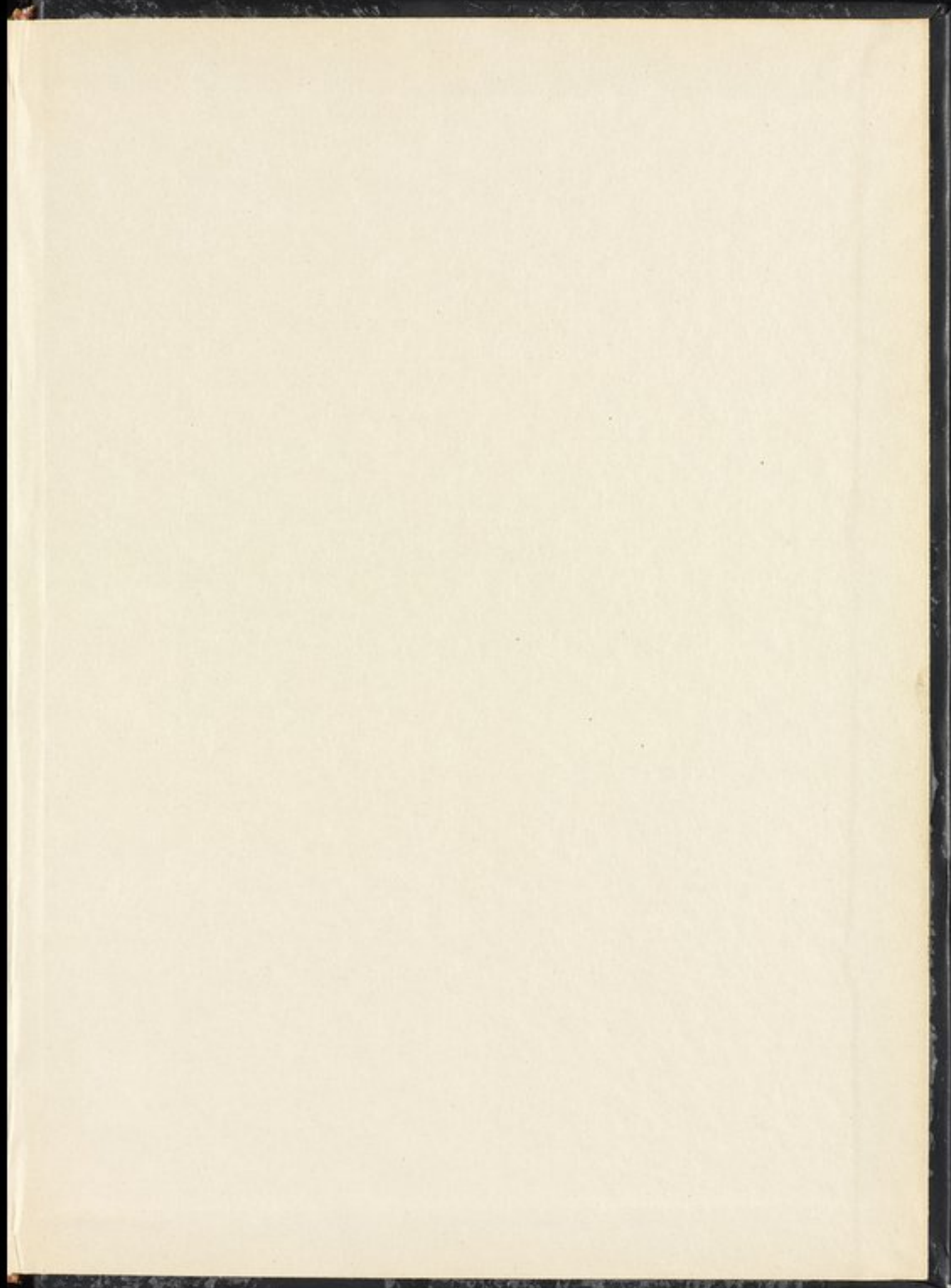


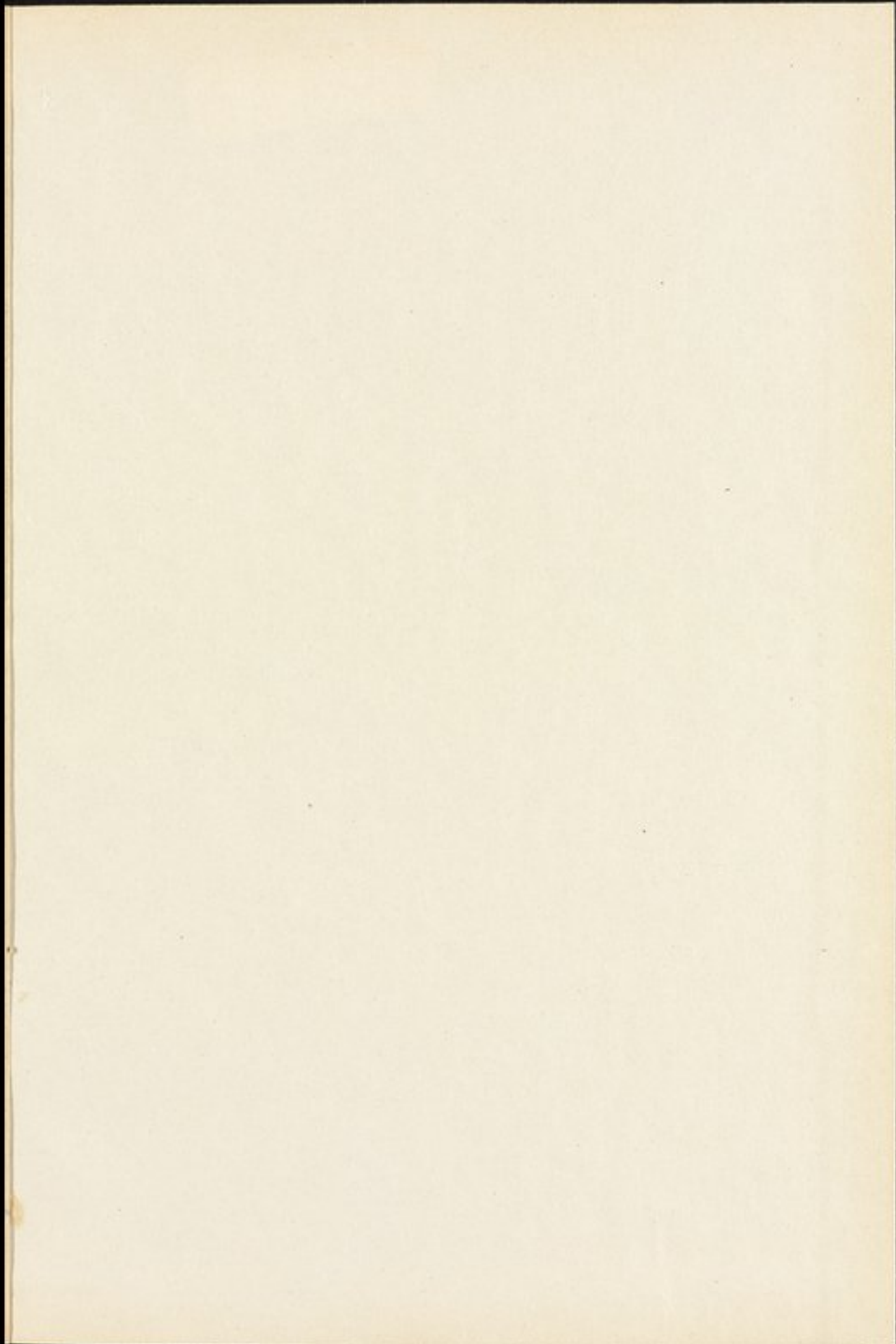
الجبوت
في تفسير
القرآن الكريم

٢٢-٢١

دار مكة للطباعة
والنشر
بمكة المكرمة







الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

المؤلف: الشيخ محمد باقر بن محمد باقر

تأليف

الأستاذ المحقق الشيخ طنطاوي جوهرى

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
معاقه السيد محمد أمين

الجزء الحادي والعشرون

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ - رقم ١٧١

حقوق الطبع محفوظة

طبع بمطبعة

مصطفى الباقى الحلبي وأولاده بمصر

بشاره محمد بن عثمان

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الدخان (هي مكة)

آياتها ٥٩ - نزلت بعد الزخرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَم * وَالكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا
يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْزًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * لَا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ * بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ * فَأَرْسَلْنَا
يَوْمَ تَمَاتِي السَّمَاءِ بَدُخَانَ مَبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا كَشِفْ هَذَا
الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ
وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِئُ الْبَاطِنَةَ

الْكُبْرَى إِنَّا مُتَّقِمُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدُوا
 إِلَيَّ عِبَادَةَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَنْ لَا تَمْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ *
 وَإِنِّي عَدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُونِ * وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعْتَزِلُونِ * فَدَمَارَبُّهُ أَنْ
 هُوَ لَأَوْ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ * فَأَمْرٌ بِمِيَادِي لَيْلٍ إِنْ كُنْتُمْ مُتَّبِعُونَ * وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ
 جُنْدٌ مُفْرَقُونَ * كَمْ تَرَكَوْا مِنْ جَنَاتٍ وَعَيْوِينَ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةً كَانُوا
 فِيهَا فَآكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَسَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ
 وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ * وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ
 كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ * وَلَقَدْ أَخْتَرْنَاَهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَءَاتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ
 مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ * إِنَّ هُوَ لَأَوْ قَوْمٌ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ *
 فَآتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِّعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكَنَاهُمْ
 إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا
 إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنْ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ
 لَا يُنْفِي مَوْتَى عَنْ مَوْتَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ
 الرَّحِيمُ * إِنْ شَجَرَتِ الرَّقُومِ * طَعَامُ الْأَيْمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلِي
 الْحَمِيمِ * خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ *
 ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ * إِنْ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ * إِنْ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامِ
 أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعَيْوِينَ * يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ * كَذَلِكَ
 وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ * يَدْخُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ * لَا يَدْخُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ
 إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *
 فَإِنَّمَا يَسْتَرْفَاهُ بِلِسَانِكَ لَمْ يَلْمُهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَبِعُونَ *



هذه السورة قسبان

(القسم الأول) في تفسير البسملة

(القسم الثاني) في تفسير السورة كلها

القسم الأول في تفسير البسملة

حضر اليوم الثلاثاء (٩) من شهر ديسمبر سنة ١٩٣٠ صديق العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير فقال : لم يبق في البسملة معنى إلا ظهر في السور السابقة . قلت : إن المعاني التي خطرت في هذه البسملة أجلّ قدرا ، وأوسع مدى ، وأعظم ذخرا ، واني قبل أن أذا كرك فيها أسألك في مقدماتها وهوماتقدم من آراء الحكماء شرقا وغربا في آية « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون » ، فان كنت ذا كرا لما تقدم هناك فليخصه الآن . فقال نعم :

إن بارتلمي سانتيلير (الذي ترجم علم الأخلاق لنيقوماخوس تاليف أرسطاطاليس من اليونانية الى الفرنسية ، وصدره بمقدمة هامة في علم الأخلاق ونقل أخيرا الى اللغة العربية) قد رتب علماء الأخلاق لجميل أرسطاطاليس الثالث وأفلاطون الأول والاستاذ كانت الألماني الثاني ، وأعما دعه الى ذلك ما رآه كل من هؤلاء في تأسيس علم الأخلاق وبيان قواعده ، وهل قواعده التامة وأساسه إلا أدلة اثبات صانع العالم ، وأفلاطون أثبت أن طهغه العوالم ذاتا قدسية منها صدرت العوالم المعنوية والمثل التي سماها الناس أفلاطونية ، وهذه المثل هي الينابيع والاصول التي على نهجها وبواسطتها صدر هذا العالم المشاهد كما أن الحوادث على الأرض والمواليد حدثت بآثار الشمس ، فهنا عالم محسوس من آثار الشمس بفعل الله تعالى وهي القائمة بهداية الحيوان منه الى السبل في الأرض ، وهناك عالم عقلي ثابت بنبات تلك الذات المقدسة ، ونسبة عيوننا الى ضوء الشمس إذ ترى آثارها كنسبة عقولنا الى الهداية الواصلة من تلك الذات القدسية لتدرك آثارها الدائمة والحقائق الثابتة كالجمال والعدل والصدق والشرف وكل ما هو بهي عجب منزعه عن المادة

هذا منحص آراء أفلاطون ، ولقد تعقبه أرسطاطاليس بأن المعاني الكلية التي سميت (مثلا) لاجود لها إلا في أذهاننا ، والتي في أذهاننا ناجم مما رأينا في المادة والسورة : وما في المادة والصورة من المعاني مجمله عقولنا كليات كالانسان والحيوان والجماد والحجر والشجر وهكذا ، فهذه أمور تصورتها عقولنا لا أمور لها وجود في أنفسها وأطال في ذلك ، فأما الاستاذ كانت الألماني فانه أثبت الذات المقدسة بقانون الأخلاق إذ رأى أن الانسان عليه أن يكون نورا للناس نافعا لهم ، ولكن الجزاء على محاسن الأخلاق وفضائل الأعمال قلما يتم في هذه الحياة . إذن لابد من بقاء الروح ودوامها ، ولابد من ذات قدسية تكفي الروح على أفعالها الجلية

هذه هي الآراء الثلاثة ، وهناك الرواقيون الذين حدثوا قبل الميلاد وبعد موت أرسطاطاليس ، فهؤلاء لهم طريقة في علم الأخلاق تشبه طريقة الصوفية في أم الاسلام ، وحدثت فرقة تسمى الأفلاطونية الحديثة بعد الميلاد بقرنين ، وهذه سارت شوطا بعيدا في العلم والحكمة وتطبيق المذاهب القديمة اليونانية ، ولقد أقر (بارتلمي) في غير ما موضع أن علماء اليونان أثبت قدما في علم الأخلاق ، وفي هذه الأدلة المتقدمة ، ولم يظهر في أوروبا إلا الاستاذ (كانت) وحده ، وأن علماء اليونان لهم القدر المعلى الى الآن والسبق والفضل بالنسبة لهذا الموضوع ، ولقد لخص فلسفة اليونان الرسام الايطالي المشهور المسمى (روفائيل) فرسم في الصورة التي جعلها تمثل مدرسة أثينا صورة سقراط رافعا يده الى السماء ، وأرسطاطاليس مشيرا بيده الى الأرض

هذا هو الذي تقدم ، ولكنك أنت لما اطلمت على آراء الأمم في (٢٥) قرنا فكرت فيها وقلت : اذا كان
 برهان أفلاطون هو آخر ما يصل له العلم في هذه الأمم فاني أعلن للآبرهانا يكون أقرب الى أذهان الأمم
 وبسطت ذلك بشرحه من نفس جسم الانسان ، وأن الحواس منظمة من أسفل الى أعلى بحيث ترى حاسة
 اللمس أدناها ، وحاسة البصر أعلاها ، والعقل هو المدرك ، وهذا العقل في القروة العليا ، واذا كانت كل حاسة
 قد اتصلت بعالم يلائمها وكانت العين أشرف الحواس وأعلاها قد اتصلت بعالم النور الذي لانعرف له حدا
 وهو أوسع من عالم الهواء المعروف حده تقريبا ، فان المدرك الذي فوق مرتبتها وهو العقل متصل بعالم الطيف
 وأوسع من النور وهو عالم كه علم وجمال ، وعلى ذلك أصبح الانسان الآن يشهد تلك العوالم العقلية بعقله كما
 يشهد الحشن والثاعم ، والثقل والخفيف بيده ، وغاية الأمر أن الذين سموهم فلاسفة ما هم إلا أناس وضعوا
 في درجاتهم في الحياة ، فن وقف عند المحسوسات بالحواس فهو رجل لم ترتق نفسه وقد غفل عن عقله والعالم
 الانساني حائرنا مقلد ، وكل امرئ يقلد من تصواله نفسه ، فالعقول الصغيرة وأرباب الشهوات اذا سمعوا
 من يقول : « إن العقل افراز المخ كما تفرز الكبد الصفراء » ، يفرحون بهذا ويقولون وصلنا الى نهاية
 الحكمة ويسفهون آراء من هم أعلم منهم ، وقد غفلوا غفلة تامة عن الفرق بين الكبد والمخ ، فالخ بترك
 الكليات وهو يشرف على الحواس والحواس لها مخزن خارج الجسم تلائمها والعقل مخزنه أوسع وأنظف كما
 تقدم ، وهذا المخزن هو عالم العقولات الذي يستمد منه العقل معقولاته كما تستمد العين صور المرقيات ، وهذا
 برهان أول ، ولك برهان ثان وهو أنك قلت ان الأرض عجزت عن أن تأتي لحيوانها ونبتاتها بحجارة
 تثير الهواء فيصير رياحا ، وتثير البخار فيصير سحباً ، وهذان يتجهان الى الأرض فيكون الزرع والضرع
 والحيوان ، وعن أن تأتي للنبت وللحيوان بضم يساعدي لإصلاح غذاء الأول وفي هداية الثاني الى ما يحتاجه
 ولاجرم أن إثارة البخار والرياح وإصلاح تغذية الحيوان وهديته الى السى في الأرض أسهل مما فوق ذلك
 من هداية الحشرات وسائر الحيوان ومن علوم الانسان ومعارفه والرجة التي تفرس في الأم لترضع ولدها ومن
 إثارة الهمم وابرار الجمال في العوالم وقتته ورقته ، فهذه المادة بججزها عن أضعف القسامين وهو الحرارة
 والنسوة برهنت على أنها أكثر مهزما وأشد ضعفا عن ابراز العقول الشريفة ، والمواطف الجيلة ، والنقوش
 البديعة ، واذن يكون جسم هذا الانسان فيه برهان يأتي من طريق قوانا العقلية ، برهان يأتي من طريق
 عواطفنا الشريفة وأخلاقنا ، فلعل منهما أصل استمدت منه ، فلو اننا مستمدة من علم أعلى وعواطفنا مستمدة
 من آثار احسان ورحمة عاتة ، إذ لا سبيل لاستلح هذه العلوم وهذه العواطف والأخلاق الى هذه المادة
 العاجزة عن احداث أحسن الأمور ، فاذن هي هي أمر فهما أمجز

ثم قال صديق العالم : هذا ما خطر لي في تلخيص ذلك المقال في تفسير قوله تعالى « إن الذين قالوا ربنا
 الله ثم استقاموا » في سورة فصلت فلعلى وقتت الى تلخيصه فذكره لمن قرأه وتبصرة لمن لم يقرأه فأرجو
 أن أسمع ما تريد من تفسير البسمة في (سورة النخان) التي جعلته مرتبا على ما حسنته الآن . فقلت :
 لقد أحسنت صنعا وأجدت تلخيصا ، والآن أقول : انني في ليلة الجمعة الماضية (٥ ديسمبر سنة ١٩٣١ م)
 فكرت في معنى البسمة في هذه السورة ، وهناك فرحت النفس فرحا كثيرا وانهجت ابتهاجا تاما ، لأنها
 انتقلت من عالم المادة الى عالم الجمال ، وأخذت ترتقي الى عوالم عرفها العقل ببرهانه ، وأخذت تسمى حشينا الى
 العلا وتحقر العوالم المادية التي قام البرهان على أنها أشبه بالخيال ، وأيقنت بأن صور العلوم والمعارف المحزونة
 في عقولنا لها عوالم وراءها جيلة وكل نقش وبهجة وعلم ورحمة وكال وجمال في عوالمنا ان هو إلا آثار من
 ذلك الجمال ، وأخذت عتلى بفكرتي تلك العوالم الجيلة التي يستمد منها ويقول : يا عجبا ! اذن كانت عجبتي للعلم
 وغرابي بالحكمة وشوقى الى تحصيلها أيام شبابي لها اتصال بحب أعلى ، اذن هذا الحب وراه حب عالم ،

وحب العلم الذي حدث في نفسي وأبهج قلبي من أيام الشباب الى الآن مستمداً من حب أعم وأعلى ، وهذه المعارف التي أعرفها مستمداً من علوم بدبعة وعواطف من الشفقة والرحمة التي أحس بها في نفسي مستمداً الى رحمة أعم ، والجمال الذي أبهج قلبي حين أنظر في القروش والجباب في هذه الدنيا إن هو إلا أثر لجمال أرقى ، وإذا لم يكن كذلك فمن أين أتى حبى للعلم ، ولرقى الانسانية ؟ ومن أين أتت عواطفى القليلة ، ورحمتى للضعفاء ، ولبن أعولهم ، أمن المادة التي أعلنت مجزها عن حرارة وضوء يقربان منها ولم تنلها إلا من الأثير الذي تؤثرفيه الشمس بإشراقها فتكون حرارة ويكون نور في نفس الأثير ، فإذا كانت المادة استعارت هذين من الأثير الذي هو أطف منها فإذا فعلت هذه المسكينة فما هو أعلى من الحرارة ومن الضوء ، ثم قلت إن هذا البرهان الذي ظهر لى والكشف الذي كشف لى هذه الأيام هو يقينى والانسانية من قبلنا لم تتضح لها كما اتضح لها الآن ، فقلى إذن أن أتأمل فى عقلى وفى عواطفى ، وإذن أهيب من هذه النفس الجيلة الشريفة ذات العقل وذات العواطف وذات الحب ، ذلك الحب الذي هو أشرف ما نالت نفسى ، ذلك الحب المفرح السار البهيج ، ذلك الحب الذي لا يذر جلالاً إلا علق به فى السماء وفى الأرض ولا عالماً إلا أحبه على مقدار ما وصل الى من علمه ، ولا حسناً رجباً إلا أحبه على مقدار احسانه ، ولا شجاعاً نافعاً إلا أعزم بسماع أخباره ، هذا الحب الذي استمد من حب عام فوجه ، وإذا كنت أنا مع ضعفى وحدوثى أبجد حبى يشمل الصور الجيلة والقول الشريفة ، والأخلاق الفاضلة عموماً بهيئة عامة إجمالا ، ويشمل البسير من ذلك العموم بهيئة خاصة تفصيلاً فكيف بمن يعلم كل معلوم : إن حبى الذي من آثاره كان حبى يشمل كل عالم شمسى وقمرى وكوكبى وجميع المجرات والسدم

هنالك صمد عقلى فوق المجرات والسدم والسموات والنجوم وأخذ يلقى نظره على هذه العوالم ويقول : « لا تكن هنا لأن سعيداً لأفرح بهذا الكشف ، لأن فى جو من النور وبحر من الرجاء وجمال وبهجة أمد الحياة ، لاموت وإنما هو انتقال فلا أفرح به ، ما أجهل الانسانية ، أنها ضعيفة ، الناس لاهون لا يعلمون لماذا خلقوا ، هاهوذا البرهان ، فمن ذا يتقنه ، هاهي ذه الأجيال الانسانية قبلنا قد غاب عن أكثرها هذا الجمال ومن عرفه منهم كتتمه ، فلا جد ولا أجل حياتى كلها جلالاً ، وأجد فى منعة الناس مادمت حيا اقتداء بتلك الذات المقدسة التي قام البرهان اليقيني الذي لا يدخله الشك على حبها العام ورحمتها وجمالها وقد أحست نفسى بذلك البرهان إحساساً لا تفتقر عنه ، فأنا إذن سعيد ، وأى سعادة أكبر من اليقين ، بثت الحياة حياة الجهل ، ونعمت الحياة حياة العلم ، هذه هى الخواطر التي خطرت لى ليلة الجمعة المذكورة ، هذه هى السراء وأعقبها :

امتحان هذه النفس بالضرراء

فى يوم الجمعة ، وفى ليلة السبت بعدها حدثتلى حادثتان : إحداهما منزلية ، والأخرى خارجية ، فالخارجية كانت يوم الجمعة ، والمنزلية كانت ليلة السبت ، فى يوم الجمعة توجهت خارج القاهرة لأقابل الحادث الخارجى ، وفى ليلة السبت عابتنى حادث دخل فى المنزل فاعترائنى غم شديد ، وههنا أخذت أفكر فى هذه النفس وأبحث عن ذلك السرور والبهجة والجمال فأجد غمها وهما ، نقلت أيتها النفس : ماذا حدث ؟ أرايت البرهان المتقن ناقصاً ؟ قالت : كلا . قلت : أليس علمك وحبك ورحمتك كل ذلك آتلك لرحمة وحب لذات مقدسة بينك وبينها صلة ما وحب ما . قالت بلى . قلت : لماذا أرى البهجة قلت والسرور هنا فنوديت فى سرى إن ذلك نعمة لا تقم ، لودام ذلك السرور لقتلك ، وهذه هى النظريات التي أنت تقولها فى التفسير كثيراً ، إن ذلك الجمال البديع أرقى من أرواح أهل الأرض ، ومتى فتح على روح فتح ودام أمداً طويلاً أهلكتها فلا يد من

التم حتى تعتدل الروح ، وأخذت أسأل نفسي أراضية بهذا فوجدتها متمتعة بنعمة الرضا تمتعا حقيقيا وقلت في نفسي : « إن هذا يراد به خبري لاشتر » وهذا الرضا أنا به موقن ، فأنا راض أن يكون هناك حجاب يحجبني عن التفكير لأني موقن بمد هذه المباحث العلمية أن ذلك كله نظري أنا ، فهو شره ظاهره خير باطنا وهذا هو سر قوله صلى الله عليه وسلم « وأن تؤمن بالقدر خير وشره من الله » وسر آية « يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي »

ولقد زارني ليلة السبت أثناء الحادث المنزلي صديق جاء يسعي لي زورني ، فأحس بذلك الحادث المنزلي ، فأخذ بأسف على أن يضع وقتي في أحوال تعكس صغوي ، فأسررت إليه أنني فرح بهذا الحادث لأن هذا هو الاعتدال والنظام فلا بد من مقوم يقوم هذه النفوس الأرضية ويعدتها ، وإذا دامت مسراتي العلمية أهلكتني فأنا الآن عندي مسرة معنوية ترجع إلى الرضا الحقيقي اليقيني ، لأن رضا الإنسان بالقضاء إما أن يكون عن تقليد إيماني خصب ، وهذا هو التسليم بلا برهان . وأما أن يكون عن يقين وبرهان ، وهذا هو الرضا الحقيقي فأنا الآن عندي الرضا الحقيقي ، ولكن لأدري هل هذه النفس في حوادث أخرى يكون عندها هذا الرضا الحقيقي ، أم تكون واجبة ؟ أنا لأعلم لي بالمستقبل فأكل أمرها إلى الله

وما جاء يوم السبت حتى خرجت من القاهرة فمحي لأتوجه إلى بلدة شين القناطر لمعالجة الحادث الخلجي في نزاع آثاره جارسوه في الحقل ، فما جلست في العربة الجارية في الطريق التي تسير بالكهرباء وهي مزدهجة ازدهلما تماما بالراكبين وتخترق المزارع حتى أحسست بأن هذه النفس قد بارحت هذا الجلق وعرجت إلى عالم السموات ، أنا جالس مع الناس وأحس بمن حولي وأحفظ قواي وموازيتي مع الراكبين ولكن سرعان ما رأيت في خيالي أن هناك سلما منصوبا بين السماء والأرض ، فأخذت روحي تعلو درجة فدرجة حتى وصلت إلى عالم السموات (كل هذا تخيلته وأنا في اليقظة والناس حولي) ولما وصلت إلى عوالم فوق هذه الطبقات الكوكبية ، خيل لي أن هناك عالما من النور يهيجها بديها ، عجب الألوان ، سريع القلب جهاله يسبي العقول ويصير الألباب ، فما قوس قزح ، وما الصور الجلية في أرضنا ، وما البساتين الأرضية ، وما الشمس والأقمار ، وما الكواكب ، هو فوقها جلالا وبهاء وحسنا ، ثم غادرت عالم الأنوار ، فألفيت نهرا متلاطم الأمواج ، صافي الماء ، سريع الجريان ، وعلى حافته قصور جيلات ، فيهن فتيات مارأت عيني أجل منهن ، قد لبسن الخلي والحلل ، وازدن بأنواع الأحجار الكريمة ، والدر والرجان والياقوت ، وبالجملة ففي عالم الأنوار ، وفي ذلك النهر ، وفي تلك القصور على حافته ما يصير الألباب ويسبي العقول

هنالك حارلي وأخذت أقول : ياليت شعري ، ما هذا الخيال ؟ أنا في العربة والركاب حولي ، فأبن الثريا وأبن الثرى ، هنالك خيل إلى أن روحا لطيفة تمثل لي بهيئة إنسان مسنوع من النور جميل الميها بهيج المنظر فسلم عليّ وحياتي وهو باسم الثغر مفرح الصدر . فقال : لعلك في حيرة مما رأيت . فقلت إني وري أنه لحن لقد جرت العادة أثناء هذا التفسير أن لا يمر بمخاطري إلا ما يناسب السورة التي يكون فيها التفسير ، فما هذه المناظر وأين هذه من تفسير البسملة في سورة الدخان ، فتبسم ضاحكا وقال هي نفس التفسير . وهأنذا أشرح ذلك المقام فهيا بنا :

لقد ضيق صدرك جزعا في هذين اليومين . فقلت نعم . فقال : وقد استحممت بالماء الحار وأبعثت بالماء البارد أمس واليوم فكان ذلك مطلقا لأحوال النفس لأن للجسم عليها تأثيرا . فقلت نعم . قال : وهأنذا اليوم خيل لك سلم صعدت عليه حتى وصلت إلى هذه المناظر البديعة . فقلت نعم . قال آتدري ما هذا السلم . قلت لا قال : إن الجنين في بطن أمه يخلق أولا بهيئة بويضة بسيطة ، ثم يسير ثانيا دودة وثالثا حلزونة ورابعا سمكة وخامسا ذبابة وسادسا قردا وسابعا إنسانا ، ولا يتوارى ذنبه إلا في الصورة الإنسانية

هذه درجات يتقلب فيها الجنين في بطن أمه ، وهناك درجات أخرى وهي المدرجات الست أعنى الحواس الخمس والعقل . إذن الانسان يقطع درجات في ارتقاء جسمه ، ودرجات أخرى في ارتقاء عقله ، وهذه الدرجات بقسمها قد مثلت لك الآن هيئة سلام عرجت عليها ، فأما الأنوار فهو العلم الذي منه استمددت علمك ، وأما هذا النهر الصافي فهو يمثل لك الرجة العاتقة ، وأما هذه الحور المقصورات البديعات وما عليهن من الخلى والحلل ، وما فيهن من رقة وشعور وحب وطهارة فهن أمثال آخر للرجة تجلت في أخلاقهن ، وثانياً مثال لأبداع الصنع وإتقانه ، وثالثاً هن يمثلن الحب بأجلى مظاهره . أنت قد اعتراك غم مضاعف وهذا الغم أشبه بقنطرة عرجت عليها روحك ، ألم تر أن هذه المثل لم تظهر لخيالك إلا بعد أن وقعت في هذا الغم وما مثل ما تجلى لك الآن في خيالك من الجمال إلا كمثل النوع الانساني عند الموت ويوم القيامة فان ذوى العقول الكبيرة ، والنفوس العظيمة اذا دهمهم الموت ، أو أصابهم الفزع الأكبر يوم القيامة لا يمر عليهم هذان الحادثان إلا كما مر عليك الحادثان المنزلي والخارجي أسس والبارحة فيتجلى لهم بعد الموت وفي يوم القيامة حقائق الأشياء ويكون الموت وتكوين القيامة قطرتين يمرّون عليهما سرعاً الى معرفة الحقائق لأقل ولا أكثر كما أن هذين الحادثين أعقبهما هذا الخيال الذي أبرز لك المعاني المجردة التي عرفها عقلك بصورة تمثيلية كما قال تعالى « فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً » . واذا كنت الساعة مخاطبك خطاباً خيالياً فان الحكيم عند موته وعند قيام الساعة تتلقاه للملائكة وبخطاب خطاباً حقيقياً كما خاطبتك أنت خطاباً خيالياً وهذا قوله تعالى : « لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون » وما هذان الحادثان لك بأول ما صادفك ، فانك ما ألقت كتاباً ، ولا أبرزت حكمة إلا بعد حادث أزججك في هذه الحياة ، فهذه قاعدة مطردة . فقلت : حقا هو ذلك . فقال : انظر في الامور الأربعة التي هي المقصود الحقيقي وهي العلم والرجة والجمال والحب

هذه هي الاصول والينابيع التي يستمد منها كل مافي الأرض ومافي السماء . ولقد درست أنت آثار هذه الأربعة في الأرض . إن قلبك يحب كل جمال ، وكل علم ، وكل حاذق ، في علم أو صنعة ، ويحب كل محسن في الأرض ، وما هذه إلا تزيير جيداً من هذا العالم النوري المعبر عن العلم والنهر والحور المعبر عن الرجة والجمال واحكام الصنع والحب . فهذه الرجعات ، وهذه العالوم ، وهذه المحبات ، وهذا الجمال لاحد لها ولا نهاية . فاذا اتجه حبيك لأهل الأرض كان محدوداً . واذا اتجه لهذه المنابع كان الحب لاحد له والسعادة لانهاية لها ، وأبن السعادة إلا في الحب ، حب لعلم ، وحب لرجة واحسان ، وحب لجمال ، وحب لاتقان ، وحب لنفس الحب العام الذي منه ينبع كل حب في الأرض كحب الأم وأنتى الطائر والأنعام للطفل والفرخ الصغير وفضيل الناقة . إن نفسك التي أدركت أن المادة (وقد عجّزت عجزاً تاماً عن أن تسكف لما عليها حرارة ونورا ظاهرين) حرة أن تجيز عن إعطاء الأم وأنتى الطيور والناقة الغرام والهيام بالابن وبالفرخ وبالفضيل . إذن هذا الحب له منبع أعلى كما أن الحرارة لها منبع وهي الشمس

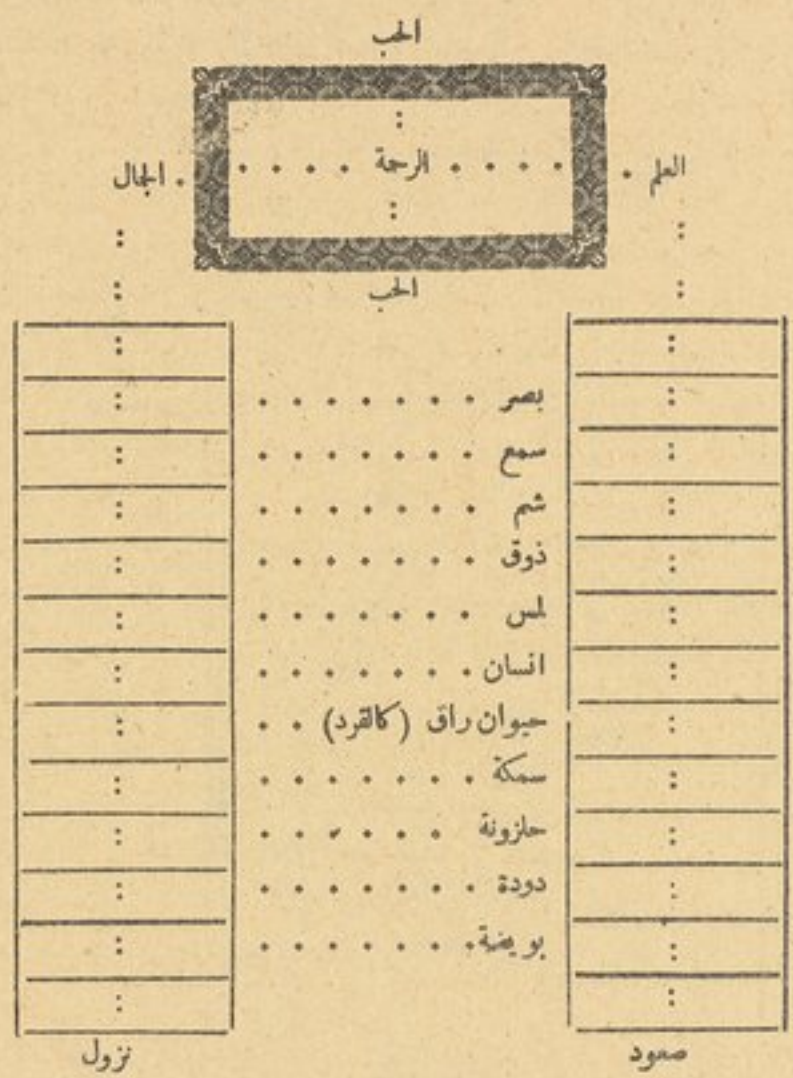
واذا كنتم يا أهل الأرض تهجون بملائكم ومخترعكم وقوادكم والمحافظين على أوطانكم وتفرحون بهم ويدهشكم جمال الصور الفان لعقولكم ، فكيف بكم اذا غادرتم هذا الجسم ، واطلعت على هذه المنابع ورأيتم الحب العام يموت تخلق لكم ، إنكم إذ ذاك تحسون بلذة نسبتها الى لذاتكم الآن كنسبة رجة الناقة لتفصيلها الى الرجة التي سمت كل طير ، وكل حوت ، وكل دابة ، وكل كوكب ، وكل بحيرة

فاذا لم تكن خيانتكم في الأرض لها هذا الأثر فانها تكون لها ولها ، وهذا قوله تعالى في هذه السورة « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما الا عينين بي ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون » والافلاما هذه الأجرام العظيمة المتحركة ، ولماذا ترون الشمس والقمر يجريان حولكما ، وهل هذه النفوس

لا تعيش إلا أيلما في نفس ثم تقدم ، وأي طوبى وأي لعب أعظم من هذا ، وإذا كان أحدكم لا يعمل عملا إلا لغاية فما الغاية لاحداث نفوس لا عمل لها إلا أن تقدم ، وحياتها ماهي إلا طوبى ولعب ، إذن لابد من حال أخرى تتجلى فيها العلوم والرحمات والجمال والحب . يقول الله في سورة الرعد « وصخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى » . أكل هذا للهو واللعب وأنتم تعملون لغايات ، وعملكم مبنى على علمكم وعلمكم نابع من عالم الأنوار التي رأيها الآن ، فهل تجدون في أعمالكم الصغيرة والله يلعب في أعماله الهائلة بشموه وأقاربه ومجراته وسدمه وكواكبه وسياراته وأراضيه . ولذلك قال تعالى : « يدبر الأمر بفصل الآيات لعلمكم بقاء ربكم توقنون » فهذا كله لأجل الايقان . أما الايمان فليس في حاجة الى كثير عناء . فما هو إلا أن يظهر للناس صادق ذو معجزة فيصدقونه وانتهى الأمر . وهذا الذي قلته لك الآن يجمع أطراف سورة الدخان فانه ذكر السموات والأرض وما بينهما في أوّل السورة وانه ربهما . وأعاد الكرة عليهما في القسم الثاني منها . وأخبر انه ليس لاحبا في خلقهما . وذكر العذاب الذي يقضى الناس يوم تأتي السماء بدخان مبين كالغنى حصل في الحرب الكبرى ويوم القيامة . وذكر البطشة الكبرى . وهذان يدخل فيهما كل حادث عظيم للناس أولافرد . والذي انفق لك هذين اليومين مثل صغير طئذ الأحوال كلها في الدنيا والآخرة وذكر قوم فرعون واغراقهم وأن السماء والأرض لم تبكيا عليهم لأن عقولهم لم تتفطن لماذا خلقت هذه العوالم . ولكن الحكيم يفتن لما ذا خلقت هذه العوالم ؟ ولماذا خلق هو ؟ فهذا لفظته وعلمه بهذه العوالم في حكم من تبكيه السموات والارض اذا فارقهما فهو يحب النظر فيهما . وكأنهما محبوبان . وكان أحباءه يكون عليه عند الفراق . وما هذا كله إلا كناية عن انه عرف وأيقن . وذكر النار والجنة . والأولى لمن عقولهم ونفوسهم لاتزال جامدة خاملة . والثانية لتلك النفوس التي أدركت الحقائق واشترأت الى العلا فهذا معنى قولى لك : إن ما خطر لك هو نفس تفسير البسملة في (سورة الدخان) وقد أحاطت باياتها . أكفالك هذا ؟ فقلت كفى . وما كنت أنطق بهذه الجملة حتى غاب عنى الخيال . فأبصرت القوم حولي جالسين في السيارة تجوب الارض جوبا . ورأيت انى وصلت الى بلدة شين القناطر . وكأننى كنت في عالم غير عالمنا

وهناك أخذت أعالج المشاكل الخارجية . فرأيت هناك معنى قوله تعالى « نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة » وكما كنت في السيارة مع الركاب قد تجلى لى العلم والحكمة ، هكذا لما وصلت الى مكان الحاجة رأيت سهيلا جيلا وقبولا وقضاء حاجة . فقلت : هذا معنى قوله تعالى « نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة » فكما أسعفت في الطريق باتمام العلم في تفسير البسملة أسعفت بقضاء حاجتى ليكون العلم والعمل تفسيرا للرحمة العامة أولا وللرحمة - حة المذكورة في آية : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون » فقال صاحبي : ما أجل هذا المنظر . وما أحسن هذا الجمال . سلام صاعدات الى العلا وفوقها مقام رفيع تتجلى فيه المعارف والجمال والحب فلوانك رسمت له شكلا يدل عليه لكان ذلك أجل بهجة وأحسن منظرا فقلت انظر الرسم الآتى في الصفحة التالية





فلما اطلع صاحبي على هذا الشكل وايضاحه . قال : اريد أن تضرب لي مثلا لهذا الموضوع كله بحيث يكون مشاهدا . فقلت : انظر حشرة ابي دقيق الطاروسي (شكل ١ في الصحيفة التالية) ليس الجمال في المنظر ودقة الصنع في احسانه واتقانه ناجمة من العلم ، أولبت الحشرة في هيئة سعيدة بالرحمة وهي ذات رحمة لنظام بيضها وهي تحافظ على ذرية لن تراها ، فهاتان رحمتان : رحمة لها هي ، ورحمة منها لذريتها المستقبلية المحبوبة في بيضها علمت أم لم تعلم ، فقد ظهر الجمال في النقش والعلم في النبات الظاهر والباطن ، والرحمة واصلة لها ولذريتها ، وهل يكون هذا إلا بحب من العالم الأعلى ، وهذا كله يورث قلوبنا حبا لمسدى هذه النعم وأن حشرة ابي دقيق هنا رمز للعالم كله ، ففيه الجمال والاتقان والرحمة ، وهو يهيئنا للعب ، وحبنا هو نهاية السعادة ، أنا لا أفهم للسعادة معنى إلا بالحب ، والحب هو السعادة ، والسعادة هي الحب ههنا قال لي صديقي العالم : هاأنذا عرفت الجمال بهذا الشكل ، فأرجو ايضاح هذه الدرجات في أصل الموضوع في السلام . فقلت : أما السلم الذي على يمينك فانه يرينا ارتقاء الجنين أولا فارتقاء العقول ثانيا ، فاذا وصل الانسان الى المستوى الذي يتصل فيه بالعلم والرحمة والجمال مثل كثير من قرآء هذا التفسير ، فانه إذ ذاك تكون روحه نورا مشرقا يضيئ على النوع الانساني مآثر وعولما واحسانا وحبنا كما ترى في السلم الذي



(شكل ١ - حشرة أبي دقيق الطاورسي)

على اليسار، فكما ارتقى من أدنى الى أعلى كما في السلم الذي على اليمين هكذا هو يلقى أشعة أنواره ورحمته وعلومه وجماله على اخواته من النوع الانساني مبتدئا بأعلاء لأنهم اليه أقرب ، وكل طبقة تعطي ماتحتها هذا هو الانسان الذي جعله الله خليفة في الأرض يسوس عبادته ويخلف صانع العالم في اسعاد خلقه وتعليمهم وتربيتهم ونشوتهم وارتقاتهم

فقال صديقي : وهل هذا الذي وصفته بخاطب الملائكة ويتصل بالملا الأعلى عيانا ؟ أم ذلك يكون بمجرد العقل والفكر ؟ قلت : ان الذي وصفته الآن انما هو الانسان الفكر الذي يرقى بما يلهمه الله من الفكر والعلم ، أما أولئك الذين يكلمون الملائكة ويحادثونهم فليس كلامي فيهم لأننا الآن نجد في أن تعلم لا أن تتكلم على غيرنا ، وهذا التفسير جاء لتربية الانسانية المحمدية . أما ذلك الذي وصفته فأمر آخر ، وأتري أن في العالم الانساني أناسا يخلقون على صفات كاملة بنظرهم ، ولم اتصال بتلك العوالم الشريفة ، وآخرون دونهم في المنزلة وهم متصلون أيضا ، ونحن لانترتب الى تلك المنزلة ، فان المفتوح عليهم من طريق الولاية وقد اتصلا بالعوالم العلية على خطر عظيم كما يقوله الشيخ الدباغ والشيخ الخواص إذ يجزمون بأن ما نحن عليه من الحجاب مع البحث العقلي أهدى سبيلا وأقوم قبلا ، أما الذين كشف عنهم الحجاب فهم دائما في خطر عظيم ، لأن نفوس الناس في هذه الأرض جاءت لتتربي فيها لا أنها تتمتع بتلك اللذات العالية في زمان هي أحوج الى العروج فيه بالتربية والعبادة والخدمة والمجاهدة . فقال : أرجو أن تصف لي أولئك الذين فطروا على الكمال والذين هم دونهم نيتهم القول في هذا المقام . قلت : اسمع ماجاء في (كتاب الابرار) في صحيفة ١٤١ وما بعدها وهذا نصه :

« إن النبوة والولاية وان اشتركتا في أن كلا منهما نور وسر من أسرار الله عز وجل ، فنور النبوة مابين لنور الولاية ، ومابه المباينة لا يدرك على الحقيقة إلا بالكشف . غير أن نور النبوة أصلى ذاتي حقيق مخلوق مع الفئات في أصل نشأتها ولذا كان النية معصوما في كل أحواله ، ونور الولاية بخلاف ذلك ، فان المفتوح

عليه اذا نظر الى ذات من يصير وليا يرى ذاتا كسائر النفوس ، واذا نظر الى ذات من يصير نبيا رأى نور النبوة في ذاته سابقا ورأى تلك النفوس مطبوعة على أجزاء النبوة السابقة التي سبقت في حديث « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » فيكون صاحبها مطبوعا على قول الحق ولو كان مرآة ، وعلى الصبر الذي لا يحسن معه بألم ولا تنكون معه كافة ، وعلى الرحمة الكاملة ، وعلى معرفة الله عز وجل على الوجه الذي ينبغي أن تكون المعرفة عليه ، وعلى الخوف التام منه عز وجل خوفا يترجم فيه الخوف الباطني بالخوف الظاهري حتى يدوم له الخوف في سائر أحواله ، وعلى بغض الباطل بفضا دأتما ، وعلى الغفو الكامل حتى يصل من قطعه وينفع من ضره » فهذه هي خصال النبوة وأجزاؤها السبعة التي قطع عليها ذات النبي قبل الفتح وبعده ، وأما ذات الولي فانها قبل الفتح من جملة النفوس ليس فيها شيء زائد ، فإذا فتح عليها جاءتها الأنوار فأنوارها عارضة ، ولذا كان الولي غير معصوم قبل الفتح وبعده ، وأما ما ذكره في الفرق بين النبي والولي من نزول الملك وعدمه فليس بسحيح لأن المفتوح عليه سواء كان نبيا أو وليا لا بد أن يشاهد الملائكة بذواتهم على ما هم عليه ، ويخاطبهم ويخاطبونه ، وكل من قال : « ان الولي لا يشاهد الملك ولا يكلمه » فذلك دليل على انه غير مفتوح عليه . قلت : وكذا قال الحاتمي رحمه الله في الفتوحات المسكية في الباب الرابع والستين وثلاثمائة غلط جماعة من أصحابنا منهم الامام ابو حامد محمد الغزالي في قولهم في الفرق بين النبي والولي « ان النبي ينزل عليه الملك ، والولي يلهم ولا ينزل عليه الملك » . قال : والصواب أن الفرق فيما ينزل به الملك فالولي اذا نزل عليه الملك ففديا أمره بالاتباع ، وقدي يخبره بصحة حديث ضعفه العلماء ، وقدي ينزل عليه بالبشرى من الله وانه من أهل السعادة والأمان كما قال تعالى : « لم البشرية في الحياة الدنيا وفي الآخرة » . قال : وسبب غلط هؤلاء ظنهم انهم عموا طرق الله بسلوكتهم بحيث لما لم ينزل عليهم ملك ظنوا انه لم ينزل على غيرهم ولا ينزل أصلا على ولي ولو سمعوا من ثقة نزوله على ولي لرجعوا عن قولهم لأنهم يصدقون بكرامات الأولياء وقد رجح لقولي جماعة كانوا يعتقدون خلافه . انتهى ملخصا من كتاب البريز

هاأنذا أيها النبي أوفيت لك المقام بقدر طاقتي ، ووصلت معك الى مقام الرحمة والعلم والجمال والحب التي يفترق منها أهل العقول والذين يوسى اليهم . فقال : الله أكبر . جل الله . إذن نحن الآن نتمتع بمعرفة الطرق الفكرية ، ووصف طرق الوحي والاطم . إذن هذا التفسير أشبه بسوق الصور التي تعرض فيه الصور يوم القيامة وكل يلبس ما يشاء منها . فقلت له : أنا أجد الله عز وجل على نعمة العلم والهداية الى طرق الكمال والى هنا تم الكلام على تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الخميس ١١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ م

مقاصد هذه السورة

- (١) إنزال القرآن ، والدلالة على التوحيد
- (٢) الإنذار بالعذاب في الدنيا والآخرة للكافرين
- (٣) ذكر قوم فرعون وهلاكهم
- (٤) ذكر اختيار الله لبي اسرائيل : رجوع الى العرب الذين في زمن النبي ﷺ وموازاتهم قوم تبع (بتشديد الباء) وأن أولئك مع عظم بطشهم هلكوا فكيف بهؤلاء مع قلة شأنهم بالنسبة لأولئك
- (٥) الاستدلال على البعث بدليل عقلي ، فيقال : « اذا لم يكن هناك بعث فهذا العالم لغولاقائدة منه »
- (٦) وصف عذاب جهنم يوم القيامة
- (٧) وصف النعيم في الجنة
- (٨) انتظار العاقبة لمن تكون ، المرسل ، أم للكافرين

﴿ التفسير اللفظي ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(حم) تقدم الكلام عليها في السور السابقة (والكتاب المبين) أي المبين ما يحتاج اليه الناس من حلال وحرام وغير ذلك ، وهذا قسم جوابه قوله (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) أي أنزلنا القرآن في ليلة القدر بأن بدأنا إنزاله فيها ، ثم أنزل بعد ذلك نجوما في عشرين سنة ، وإنما كانت مباركة لبركة ما نزل فيها من القرآن ولأنها يستجاب فيها الدعاء ، وتنزل فيها الملائكة والرحمة ، وهي ليلة مجهولة ، وأكثر الأقوال أنها في شهر رمضان ، ثم استأنف بذكر جلتين تبيينان مقتضى الانزال . فقال : (إنا كنا منذرين * فيها يفرق كل أمر حكيم) يقول إنما أنزلنا القرآن لأن من عادتنا الإنذار بالعقاب حتى يخاف الناس بطشنا ، وإنما خصصنا بهذه الليلة لأن انزال القرآن من الأمور ذات الحكمة ، وهذه الليلة فيها يفصل كل أمر محكم ، ففيها تكتب أرزاق العباد وأجالهم وأعمالهم فتعرف إلى ليلة القدر التالية ، ولما كان القرآن أهم الأمور المحسنة أنزلناه فيها . ثم قال أعني بهذا الأمر (أمرا) حاصلنا (من عندنا) كما اقتضاه علمنا وتديننا ، يريد بذلك أن هذه الأمور التي تكتب في صحائف الملائكة ليلة القدر هي التي اقتضاهها علمه القديم ، وحكمته الواسعة ، وعنايته الشاملة ، إذن هذه الأمور التي تفرق في تلك الليلة شأنها عظيم . ثم قال : وإنما يفرق فيها كل أمر حكيم من عندنا لأشأ من شأننا إرسال رحمتنا ، ولاجرم أن فصل الأمور ونظمها وتحديدها راحة من الله تعالى وهذا قوله (إنا كنا منسطين * راحة من ربك) وفي ذكر الرب تبيان مناط الرحمة ، فهي رحمة من الرب ، والربي لا يعطى إلا بقدر كما يفصل بلبين الأم ، وكما يعطى المعلم تلميذه على مقدار استعداده ، فتبين الأرزاق والأحوال وانزال القرآن في أوائل خاصة . كل هذا راحة مصحوبة بالتربية ، والرحمة متى قيدت بالتربية كانت نامة بخلاف الرحمة المهملة بلا نظام فانها ضائعة ، هذا معنى ذكر الرب ، وإنما أضاف الرب إليه إشارة إلى أنه بريك ، وعلى ذلك تكون أعماله ^{صلى الله عليه وسلم} تكون بنظام وحكمة ، ورحمته مصحوبة بتربية الأمة (الله هو السميع) لأقوال العباد (العليم) بأحوالهم (رب السموات والأرض وما بينهما) بدل من ربك (إن كنتم موقنين) أي إن كنتم من أهل الايقان فاعلموا ذلك (لا إله إلا هو) إذ لاخالق سواه (يعني ويميت) هو (ربكم ورب آبائكم الأولين) وقرئ الوصفان بالجر على البدل أيضا (بل هم في شك يلعبون) أي أنهم ليسوا موقنين لما ارتطموا فيه من الشك واللب (فارتقب) فانتظر (يوم تأتي السماء بدخان مبين) (١) يوم شدة وبجاعة فتقل الأمطار ولقلتها يظلم الهواء ويكثر الغبار (٢) أو يأتي شرّ غالب يسرعنه العرب بلفظ دخان (٣) أو أن الجائع يحيل له أن يينه وبين السماء دخانا ، ولقد قحط العرب حتى أكلوا جيف الكلاب وعظامها (٤) أو هو دخان يحجى قبل قيام الساعة ولم يأت سابقا ، وقد جاء في الحرب الكبرى التي بدت سنة ١٩١٤ ميلادية فان الدخان كان فيها من أعظم الآلات الحربية ، وقد اخترعه الألمان وصار سنة وعادة ثابتة حربية ، فيكون الدخان عند العرب الأولين قحطا ، وعند المسلمين الحاليين سوبا وهلا كما سيأتي إيضاحه ، فارتقب الدخان العرب ثم للبعثة الكبرى يوم بدر ، وينظر المسلمون اليوم حوادث كبرى ، فإن لم يرجعوا عن جهلهم وزغاتهم الجاهلية هلكوا ، وقوله (يفشى الناس) أي يحيط بهم وهو صفة لدخان وهو منطبق على دخان الحرب الماضية ، فان الدخان يدخل الخنادق ، ويحيط بالمحاربين من كل جانب ، ويكون قنعا مظلمة عظيمة كالسحب العظيمة تحيط بالناس حال كونهم قائلين (هذا عذاب أليم * ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون) أي سنؤمن إن تكشف عنا العذاب ، وهذه عادة الناس أنهم اذا وقعوا في شدة أيا كانت يعدون بالتوبة والرجوع عما هم فيه ، ولكن

الأخلاق الثابتة والملكات المتكئة تمنع أصحابها من فعل الخير ، ولذلك قال : (أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون) أى كيف يذكرون ويتعطلون ويفنون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب وقد جاءهم ما هو كافي في رجوعهم إلى الصواب فلم يرجعوا إذ أرسلنا إليهم رسولا أتى بالمعجزات فلم يؤمنوا ، يقول : التوبة إما أن تكون بما ينال الناس من النوائب ، وإما أن تكون بما يتضح لهم من الحقائق ، وهؤلاء قد ائضحت لهم الحقائق فلم يفقهوا فأخذنا نعاقيهم ، وكيف يرجعون بالعقاب وقد ذكروا بالآيات وظهور الحقائق التي هي في مجموعها أجمع أثرا من العقاب ، فأعرضوا عنها ، وقال بعضهم انما يعلمه غلام أعجمي لبعض قبيص ، وقال آخرون : انه مجنون تلقى إليه الجن هذه الكلمات حال ما يمرض له الفسى . هذه أحوال هؤلاء الكافرين ومع ذلك نكشف عنهم العذاب قليلا (إنا كاشفو العذاب) كشفا (قليلا انكم عائدون) إلى الكفر الذي كنتم فيه لما غلب على طباعكم ، ولما كان العذاب القليل لم يؤثر والاصلاح بالعلم والإيمان لم يثبت أنهلنا كم إلى يوم البطشة الكبرى حيث لا توبة بعدها فننتقم (يوم نبطش البطشة الكبرى) يوم القيامة أو يوم بدر (إنا منتقمون) أى ننتقم منهم في ذلك اليوم .

الاعتبار بأمر فرعون

وقياس أمر هؤلاء على أمره ، وقد تم ذلك كما

قال تعالى (ولقد فتنا قلوبهم قوم فرعون) امتحناهم بأمر موسى ، وتوسعة الرزق عليهم ، وإمهاهم كما امتحنا هؤلاء بأمر النبي ﷺ (وجاءهم رسول كريم) على الله وفي نفسه (أن) بمعنى أى المفسرة (أتوا إلى عباد الله) أى سلموا إلى عباد الله وهم بنو إسرائيل ولا يبقوهم في الذل والمهانة كقوله «أرسل منا بنى إسرائيل ولا تعذبهم» (إنى لكم رسول أمين) على رسائى غير منهم (وأن) هى كالأولى (لا تعلموا على الله) أى لا تستكبروا على الله بالاستهانة برسوله ووجه (انى آتيتكم بسلمة ميين) بحجة واضحة تدل على أنى نبي (وانى عنذ ربى وربكم أن ترجون) أى التجأت إليه وتوكلت عليه ان تثتمون وقولوا هذا ساحر أو ترجونى بالحجارة ، والمعنى انه عائد بر به متكل على انه يصمه منهم ومن كيدهم ، فهو غير مبال بما كانوا يتوعدونه به من الرجم والقتل والأذى (وان لم تؤمنوا لى طاعتلون) فكونوا بمنزل منى لا على ولا لى واعتزلوا أذى باليد واللسان ، ومع هذا كله لم يؤمنوا (فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون) كما جاء في آخر السورة السابقة «وقيله يارب ان هؤلاء قوم لا يؤمنون» فجاءت هذه السورة لبيان نتيجة القيل هناك ، فإذا قال هنا «أن هؤلاء قوم مجرمون» فهو تعرض بالدعاء عليهم بذكر ما يوجب وهو الاجرام ، فهكذا في السورة السابقة عدم الإيمان سبب للدعاء ، ثم قال : «فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون» ولما ذكر هنا أمر قوم فرعون ودعاء نبيهم عليهم سيقبه بذكر النتيجة ليكون تبيانا لعاقبة أولئك ، فهذه من المناسبة بين السورتين ، فقال الله ان كان الأمر كذلك (فأمر عبدا لىلا انكم متبعون) سببكم فرعون وجنوده (وأترك البحر) اذا قطعت أنت وأصحابك (رهوا) ساكنا فتركه على حاله حتى يدخله فرعون وقومه ، يقال ان موسى لما قطع البحر رجع ليضربه بعصاه ليلتم وخاف أن يتبعه فرعون بجنوده فقال لموسى اترك البحر كما هو حتى يدخلوه (لأنهم قوم مفرقون) فأخبر موسى بفرقهم ليطمأن قلبه في ترك البحر كما هو (كم تركوا) بعد الفرق (من جنات وعيون وذرورع ومقام كريم) مجلس شريف حسن (ونعمة) وعيش لين رغد (كانوا فيها) في تلك النعمة (فأكهين) أى ناعمين (كذلك) أفعل بمن عصانى من عبداى (وأورثناها قوما آخرين) عطف على تركوا ، المراد أن قوما غير بنى إسرائيل دخلوا مصر ، وذلك انه بعد هذا التاريخ تغلب على مصر الآشوريون والبابليون تارة ، والحبش مرة أخرى ، والفرس مدة ، واليونان

آونة ، والرومان أخيرا ، ثم أمة العرب ، ثم الطولونيون ، والاشيديون ، والفاطيون ، والمماليك البرية والبحرية ، والترک ، والفرنسيون ، والانجليز ، وهانحن أولاد الآن في مصر نجاهد في خروجهم منها ، أما بنو اسرائيل فلم يتغلبوا عليها (فما بكت عليهم السماء والأرض) بحاز عن عدم الاكتران ، وهذا التصير يكثر ذكره في كلام العرب فيقولون : « بكت عليهم السماء ، وكسفت لمهلكهم الشمس » كما قال الشاعر
 برني عمرو بن عبد العزيز رحمه الله تعالى :

الشمس طالعة ليست بكاسفة ❖ تبكي عليك نجوم الليل والقمر

ويروى في الأخبار أن المؤمن يبكي عليه مصلاه ، ومحل عبادته ، ومصعد عمله ، ومهبط رزقه ، فأما هؤلاء فلا بقاء عليهم ، والمعنى ما علمت وهو الاكتران وعدمه (وما كانوا منظرين) مهملين وقتا (ولقد نجينا بني اسرائيل من العذاب المهين . من) استعباد (فرعون) وقتله أبناءهم (إنه كان عاليا) جبارا متكبرا (من) المسرفين) في العتو (ولقد اخترناهم) بني اسرائيل (على علم) علمه الله تعالى فيهم (على العالمين) على زمانهم (وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين) نعمة بينة كفضل البحر ، وظليل الغمام . وازال المرق والسوى الخ أو الرخاء والشدة .

رجوع الى مشركي مكة

قال الله تعالى (إن هؤلاء ليقولون إن هي الاموتنا الأولى) أي لاموتة إلا هذه التي نموتها في الدنيا (وما نحن بمشركين) بمبعوثين بعد موتنا (فأتوا بآياتنا) خطاب لمن وعدهم بالنشور وهم النبي والمؤمنون (إن كنتم صادقين) أنا نبئت أحياء بعد الموت ، فقد طلبوا من النبي ﷺ أن يحيي لهم قصي بن كلاب

تخوف مشركي مكة بأن قوم تبع (بتشديد الباء) أقوى منهم فهل كوا ما كفروا

قال تعالى (أهم خير أم قوم تبع والذين من قبهم) كعاد وثمود ، كأنه قيل ما حالهم ؟ فقال : (أعلمكنهم) أهم كانوا مجرمين) وأعلم أن ملوك حير (بكسر الحاء وسكون الميم) طبقتان : الطبقة الأولى ملوك سبأ وريدان من سنة ١١٥ قبل الميلاد الى سنة ٢٧٥ بعد الميلاد ، والطبقة الثانية ملوك سبأ وريدان وحضرموت والشعر وغيرهما من سنة ٢٧٥ بعد الميلاد الى سنة ٥٢٥ بعد الميلاد أولهم شمر يرعش وآخرهم ذونواس ثم ذوجدن ، وهذا لم يحكم ، ومنهم ذوالقرنين أو أفر يقش وهو الثاني من ملوكهم يسمى الصعب ، وبعده عمرو زوج بلقيس وتسمى الفارعة ، ثم الهدهاد أسوها ، ثم ملكي كرب ، ثم أبو كرب أسعد ابنه ، ثم حسان بن سعد ، ثم شرحبيل ، ثم شرحبيل بنوف ، ثم معدى كرب بنم وابنه ، ثم مرثد ، ثم ذونواس

هؤلاء هم الذين نبئوا في العصر الحاضر في الآثار والتقوس القديمة ، وهؤلاء هم التباينة جمع تبع ، وهذا لقب أشبه بفرعون عند المصريين ، ويشترط لتبع أن يملك الشعر وحضرموت . وأما الطبقة الأولى فتسمى دولة سبأ وقبائلها دولة معين ، وهذه الأخيرة لم تكن معروفة في كتب أسلافنا ، وأعلم أن الذين اشتهروا من هؤلاء الملوك في كتب أجدادنا ثلاثة وهم : شمر يرعش ، وذوالقرنين أفر يقش (الصعب) ، وأسعد أبو كرب ، فذكروا في الأول انه دخل العراق وخراسان والصفد وراء جيحون فقتل العجم (شمر كند) أي شمر خرب ، وبنى مدينة هناك سميت باسمه ، وعربها العرب فصارت (سمرقند) وملك بلاد الروم ، وهذه الروايات مبالغ فيها ، ولا مانع من سميتها ، ولكن يعوزها تقوية الآثار لها وكتب الأمم المعاصرة لهم ، وذكروا في الثاني انه فاتح بلاد المغرب (أفريقية) وهو الذي قتل قبائل العرب اليها ، وهذه أيضا مبالغ فيها وربما صح بعضها ، وذكروا في الثالث انه غزا أذربيجان ولقي الترك وهزمهم وقتل وسي ، ثم رجع الى اليمن ، وهادته ملوك الهند ، ثم رجع لغزو الترك ، وبعث ابنه حسانا الى الصفد ، وابنه يفرالى الروم ، وابن

أخيه شمر الملقب بذي الجناح الى الفرس ، وأن شمرا لقي ملك الفرس فهزمه ، وهكذا ملك سمرقند ، وجاز الى الصين فوجد أخاه حسانا قد سبقه اليها ، فانتصرا ورجعا بالفتنم ، وبعث ابنه يصفرا الى القسطنطينية ، فغضبوا له ، ثم سار الى رومه وحصرها ، ووقع الطاعون في عسكره ، فهجم عليهم الروم ولم يزلت منهم أحد ثم رجع الى الصين ، وزعموا انه ترك في بلاد الصين قوما من حبرواتهم بها لهذا العهد اه
وأنت خير أن هذه أقاصيص خيالية ، وإنما ذكرت لتقف على ما كتب ، وإنما الآية في قوم تبع ولم تخص واحدا من هؤلاء ، يقول الله : هؤلاء أهل مكة الذين لامك ولم ولاسلطان ولا دولة خير أم قوم تبع الذين هم أقوى ملوك الصين ، وهم أقرب الى زمانكم ، وأخبارهم أقرب اليكم لاسيما مع المبالغات التي تروى عنكم وقد عرفنا ، فهؤلاء أهلكتناهم ، فكيف بكم أتم أيها الضعفاء بالنسبة لهم ، هذا هو مغزى القرآن الذي يفتح لنا باب التاريخ في غضون المواضع ليصكون المسلم ملما بالأحوال ، عارفا بالأخبار ، يقظا في جميع الأعمار ، فلتقرأ أيها الذكي العلم والحكمة ، ولتحمد الله ممي على جلال العلم وبهاء الحكمة الصادقة ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .

ذكر البرهان العقلي على البعث

بعد الاخافة بالمواظف التاريخية

يقول الله : أيها الناس ، أنا خلقت السموات والأرض ، وأدرت الشمس والقمر ، وأزرت السبل ، ونظمت أحوال المعاش ، ورببت كل شيء ، وجعلت الجبال باديا في جليل الامور وحقيها ، ولم أذر ذرّة إلا فظمتها ، ولا حبة إلا ربتنا ، ولا عملا إلا أحكمته ، انظروا الى آثار الحكمة في الأنوار ، وفي السموس ، وفي النبات ، وفي أجسامكم الانسانية ، والأجسام الحيوانية ، انظروا في ذلك كله ، هل فظمته عبثا ؟ وأوخلقتهم باطلا ؟ أخلق مالا مستقبل له ؟ إذن فلماذا هذا الاحكام والانعام ؟ ولماذا هذه النظم القويمة ، والهجاب العظيمة والرحمة العميمة ، أأذر هذا كله كاطباء في الهواء ، والصف في الصحراء ، والضلال في اليباء ، وعمل أرباب الرياء ، وكسر الطفل للآباء ، وتظهير بالبيضاء ، وجره في العراء ، أمهي عن الضلال وأبغيه ؟ أم آسر بالبر ؟ وأنا من مانعيه ؟ أم أمنع الشر وأقع فيه ، كلا ، أيها الناس : فلتكونوا مفكرين ، وفي أعمالكم مستبصرين ، وهذا قوله (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين) لاهين ، أنا خلقناهما وجعلنا فيهما الحياة والرزق والعلم والصدق (وما خلقناهما إلا بالحق) بالجد لا باللعب ، ومن اللب أن أخلقكم في الأرض غافلين ، ثم أعدم أرواحكم هالكين ، كمن يوقد المصباح في النهار ويطفئه ، ويقتل الخيل ويتقصه ، ويبني البناء ، وفي الحال يهدمه ، لا لسبب إلا هواء ، وللدليل إلا ما جناء ، فعل البلهاء ، والأذلة الجبناء ، الذين لا يعقلون (ولكن أكثرهم لا يعلمون) لقله نظرهم ، ولوأنهم فكروا بعقولهم لأدركوا ولعرفوا أن من يخلق الجسم الانساني وقد حافظ على حياته وبقائه أمدا طويلا في الدنيا بما دبر في صنعه من عين تبصر النافع والضار ، وأنف يشم ما يصلح للغذاء وما لا يصلح ، وذوق يميز الخبيث من الطيب ، وأذن تسمع صوت العدو المهاجم ، والصديق الملائم ، وعقل يحكم في سائر القضايا ، ويد تدفع المهاجم ، وتجلب النافع ، ورجل يكون بها الطلب والحرب ، وأحشاء تهضم الطعام وتدفع ما فضل ، وأمور أخرى لا يسع تفصيلها . إن من هذا فضل وهذه رحمة لا ينذر هذه الأرواح تخطو الى العدم بعد هذه النعم ، فلو علموا ما نطقنا ، لأيقنوا بما تكون عقبا ، ولذلك أعقبه بقوله (إن يوم الفصل) فصل الحق من الباطل ، والحق من المبطل بالجزاء (ميقاتهم أجمعين) وقت مواعدهم (يوم لا ينفي مولى عن مولى شيئا) يوم لا يدفع ولا يتفع أي قريب عن أي قريب آخر شيئا فلا يشفع له ولا يدفع عنه أي شيء من عذاب الله (ولا هم ينصرون) أي ولا الأولياء بمنعون من عذاب الله (إلا من رحم الله) من المؤمنين فإنه يشفع بعضهم في بعض ، فالعالم يشفع لمن قتل منه ، والشهيد

يشفع ، والأنبياء يشفعون ، وتلك الشفاعات في الآخرة تابعة للاقتداء في الدنيا ، فهي أثر من آثار العلم والتعليم كما أوتحناء في ﴿سورة البقرة﴾ أيما إضاح (إنه هو العزيز) لا ينصر من أراد تعذيبه (الرحيم) لمن أراد أن يرجه

وصف العذاب لأهل النار

قال الله تعالى (إن شجرة الزقوم) شجرة على صورة الشجر في الدنيا ، والزقوم ثمرها ، وتقدم الكلام عليها في ﴿سورة الصافات﴾ (طعام الأنيم) الفاجر الكثير الآثام ، وروى أن أبا الدرداء كان يقرئ رجلا فكان يقول : طعام اليتيم ، فقال قل طعام الفاجر بهذا ، وبهذا استدلوا على أن ابدال كلمة بكلمة جائزا إذا كانت مؤدبة معناها ، ولذلك أجاز أبو حنيفة رضي الله عنه القراءة بالفارسية بشرط أن يؤدى القارئ المعاني كلها على كمالها من غير أن يحرم منها شيئا . قالوا : وهذه الشريطة تشهد أنها اجازة كلا اجازة لأن كلام العرب فيه من الدقائق والنظم ما لا عمل محله لغة أخرى فيه لافارسية ولا غيرها ، ويروى رجوعه الى قول صاحبه وعليه الاعتقاد ، وقوله (كاللؤلؤ) أى مثل دردى الزيت الأسود ، ويقال كالفضة المسابة (يفلى في البطون) في بطون السكفار (كفلى الحميم) أى كالماء الحار اذا اشتد غليانه ، ثم يقول الله للزبانية (خذوه فاعتلوه) جثوه وادفعوه وسوقوه بالعنف ، والضمير للأنيم (الى سواء الجحيم) أى الى وسط النار (ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم) قيل ان خزائن النار يضرب على رأسه فينقب رأسه من دماغه ، ثم يصب فيه ماء حيا قد انتهى حره ، ثم يقال له (ذق) هذا العذاب (إنك أنت العزيز الكريم) أى عند قومك بزعمك يقال ان أبا جهل كان يقول : أنا أعز أهل الوادى وأكرمهم فيقول له ولأمثاله خزنة النار هذا على طريق الاستخفاف والتوبيخ (ان هذا ما كنتم به تمرون) تشكون فيه ولا تؤمنون به .

وصف أهل الجنة

قال الله تعالى (إن المتقين في مقام أمين) أى في مجلس آمنوا فيه من غيرهم (في جنات وعميون يلبسون من سندس واستبرق) السندس مارق من الديباج ، والاستبرق ما غلظ منه وهو معرب استبر ، حال كونهم (متقابلين) في مجالسهم وهو أتم للانس (كذلك وزوجناهم) وقرانهم (بمهور عين) والخوراء البيضاء ، والعيناء عظيمة العينين ، وهل هن نساء الدنيا أو غيرهم ؟ لا يعلم ذلك إلا الله ، وليس هذا تزويجا كتزويج الدنيا بل هو مجتمع دائم من غير كلفة (يدعون فيها) يطلبون ويأصرون (بكل فاكهة) باحضار ما يشتهون من الفواكه لا يتقيدون بزمان لا يمكن (أمين) من الضر ، ومن نفاذ الفواكه ، ومن الموت والنصب والشيطان والمرض والكبر والضعف (لا يدركون فيها الموت إلا الموتة الأولى) بل يحيون فيها أى لا يدركون في الجنة الموت لكن الموتة الأولى ذاقوها . ويقال بوجه آخر : إن الحياة الدنيا عند الأصفياء متصلة بالحياة الأخرى ، فسكانهم عند الموت دخلوا الجنة ، فهم حين يموتون يكونون في نفس الجنة ، فقوله «إلا الموتة الأولى» استثناء متصل على هذا الوجه ، وكأن الموتة المعلومة وجدت في نفس الجنة لأن الروح وقت خروجها تكون فرحة متمتع بروحها وريحانها ، وهذا المعنى الذى قاله المفسرون هو الذى نطق به الأرواح . فقالوا : «إن النفوس الشريفة التى كرهت العلاتق الدنيوية واطمأنت ولبست لباس الحكمة اذا حل بها الموت تكون متيقظة مستبشرة ، لايهمها أنها نقلت من حال الى حال ، بل ترى أنها دخلت في حظيرة السعادة ، وساحة السلامة ، أما الأرواح التى لم تنجرد من علاقتق الدنيا فانها اذا ماتت نظرت فرأت لها جسما كالجسم الذى كان لها في الأرض ، ويحصل لها دهش كدهش التائم بين اليقظة والنوم ويصبح العقل الانسانى كالغشى عليه ، فهذه الروح تبقى أيا ما أو أشهرا أو سنين وهى في بهت ودهش ، ثم تنجلي عنها

الغيايب شيئاً فشيئاً ، وتتأمل في ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، وتعرف ما الذي قطعت في هذه المرحلة الأرضية وماذا صنعت لرفيها وأسعادها وسفرها الطويل ، وهنا يكون الفرح العظيم ، أو الشقاء الطويل ، والندم والعيوب والألم الويل . إن ذكر الموت يشعر بألم ، لكن الأرواح الشريفة عند الموت لا تحسّ بذلك الألم لأنه ثبت أن الألم إنما يكون بالاحساس ، والموت هو أخذ الروح في الانفصال عن الجسم ، والانفصال عن الألم ليس ألماً ، وإذا كان التنويم المغناطيسي لا يحسّ معه المتوهم عند التنويم بألم من حيث هو تنويم ، فما بالك بالموت وهو النوم الأتمّ ، بل هو عند الناس أخوالعدم ، وإنما ألم الناس عند الموت للفراق لأنهم ظنوا أنه لا وجود إلا في هذه الأجسام فصعب عليهم فراقها ، وحزنوا على مفادرتها ، لظنهم أن لحياتها بعدها ، ولا جرم أن النفوس الشريفة لا تنهل للموت ، ولا تحزن للفراق ، لأنها ترى أنها خرجت من سجنها ، ودخلت في نعيمها ، فهي لا تألم بالموت ، بل تفرح به ، لذلك أعقب ذكر الموت المشعر بالألم بقوله (ووقاهم عذاب الجحيم) فلا يحسون بألم الفراق ، ولا يوحز الضمير الذي يشعر به من تعلق قلبه بالدنيا وهو مذنب ولا يخاف من عذاب النار الجسمية ، كما لا يخاف من النيران القلبية ، أعطوا ذلك (فضلاً) عطاء وفضلاً (من ربك ذلك) المذكور (هو الفوز العظيم) لأنه خلاص من المكروه وفوز بالمطلب . ولما أتمّ المقاصد التي أراد ذكرها في هذه السورة لخصها فقال (فإنما يسرناه بلسانك) سهلناه حيث أزلناه بلفظك (اعلمهم بتذكرون) لعلهم يتعظون ويهتمون (فارتقب) فانتظر ما يحلّ بهم كما حلّ بقوم نوح ﴿ بشدبه الباء ﴾ وقوم فرعون (انهم مرتقبون) ما يحلّ بك . انتهى التفسير اللفظي

لطائف هذه السورة

- (١) في قوله تعالى : « إنا أنزلناه في ليلة مباركة »
- (٢) في قوله تعالى : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين الخ »
- (٣) في قوله تعالى : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا عين »

اللطفة الأولى

في قوله تعالى : إنا أنزلناه في ليلة مباركة

اعلم أن الأيام والليالي وجيع الأزمنة وكذا الأمكنة لا فضل لواحد منها على الآخر من حيث هو زمان أو مكان ، وإنما فضل كل باعتبار ما حلّ به من عبادة أو عمل صالح أو علم أو ظهور حكمه ، وعلى ذلك ما جاء في هذه الآيات وتخصيصها بما جاء فيها من قسم الأرزاق أو استجابة الدعاء أمر إلهي أراد الله كما خص الوجه بالعينين ، والصدر بالقلب ، والرحم بالجنين ، واليد بالبطش ، والرجل بالمشي ، فهو الذي يخصص الأزمنة والأمكنة كبعض الأماكن المقدسة عند الناس ، ولقد أخفى تلك الليلة حتى يكون الإنسان في كل وقت مشحراً للطاعة ، متقاداً للأوامر ، كما أخفى يوم الموت ، ولذلك أراني كلما وصلت إلى تفسير سورة أجد الله إذ أبقاني حتى وصلت إليها . ومن أعجب الأمور ما سأقصه عليك من نأبأ هذه السورة وهي الدخان ، فإني منذ نحو عشرين سنة قبل الحرب الكبرى بنحو عشرين سنين كتبت رسالة طلبها مني الاستاذ ذاكر أفندي القادري لأرسلها إلى بلاد القازان ، فألقنتها وسميتها ﴿ الرسالة القازانية ﴾ وفيها نأبأ عن الدخان المذكور في هذه السورة وعن تقصير أمة الاسلام اليوم ، وعن معجزة القرآن بذلك ، وما كنت أعلم أني أعيش حتى أرى الحرب الكبرى وقد ظهر فيها الدخان بأجلى مظاهره معجزة للقرآن كما سترناه ، وما كنت بالأولى أظن أني أعيش بعد ذلك حتى أفسر القرآن أو أصل إلى هذه السورة وأقص هذا القصص وأكتب الرسالة التي نشرت

في مصر وفي بلاد الاسلام مشيرة الى هذه السورة ، كل ذلك كان مجهولا عندي ، فلما وصلت الى هذه السورة في التفسير حدث الله عز وجل إذ تجلي لي نور الحكمة في هذه السورة ، وأشرفت الأرض بنور ربها ، والحمد لله رب العالمين .

ثم اعلم أن الانسان ما عمل عملا إلا كان للمكان وللزمان مستحضر ذهني في ذلك العمل ، حتى ان الانسان اذا ذكر عملا من الأعمال ، أو اثرا من الآثار ، أو حادثا من الحوادث كان الزمان والمكان طعما معه ، فلذلك نزل القرآن على وفاق ما اعتاده الانسان من ذكر الزمان أو المكان ، وهذا من حكمة القرآن والى هنا تم الكلام على اللطيفة الأولى

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم
ليكن الكلام في هذا المقام على قسمين : القسم الأول في العذاب الذي يستحقه المذنبون ، القسم الثاني في الدخان ونزوله على المذنبين

بيان القسم الأول وهو استحقاق العذاب لأجل الذنوب

اعلم أن الذنوب على ثلاثة أقسام : سلبية ، وقلبية ، وجسمية . فالسلبية هي الآثام التي يتحملها الانسان باهماله ما يقدر عليه من عظام الامور ، وتركه ما في استعداده من المنافع العاتمة ، فكل من أعطى مالا أو ذكاه خارقا للعادة ، أو منصباً ، أو ذكرا حسنا ، أو قوة نافعة ، ثم سكت عن العمل بها أو صرفها فيما هو أقل من طاقتها عذب في الدنيا والآخرة عذابا شديدا ﴿ بيانه ﴾ أن أمة الاسلام اليوم أكثرهم من أهل الشرق وأهل الشرق هم أهل الديانات ، وأهل الفلسفة ، وأهل الحكمة ، ولقد سكتوا عن الحكمة حيناً من الدهر وناموا مئات السنين ، فانظر ماذا فعل الله فيهم ، قال الله لهم قولاً بلسان الحال : إني عبادي ، ألم أعطيكم بلاد الشرق ، ألم أضئ شمسكم ، ألم أتورقركم ، ألم أجعلكم في أرض خصبة ؟ ستقولون بلى يا ربنا ، فيقول ألم أجعلكم أذكي الأمم ، فان كنتم في شك من ذلك فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالديانات والزبر ، إن الأنبياء منكم ، والعلماء منكم ، والحكماء منكم ، خرج الأنبياء من الشام ، ومن جزيرة العرب ، وخرج الحكماء من الهند ومن الصين ، فباعبادي أتم من نلهم ، فالحقول رابحة ، والأرض خصبة والسما صافية ، والنعم متوافرة ، وأنتم يا عبادي عطلمت نعمي ، عطلمت مواهبي ، عطلمت ما وهبت لعبادي من المنافع ، فأنتم العقول ، وعكستم آية العلم والحكمة ، فبحق أقول : اني لم أخلق العالم سدى ، بل خلقت الخلق لغاية ، وأنتم وقتتم في طريقها ، فأنا الحكيم العليم ، سلطت عليكم من يسوسونكم ويسومونكم سوء العذاب ، ويستخرجون منافع أرضي ، ويفهمون سمواتي ، ويغرحون بنعمي ، ويشكرون مواهبي هذا هو العقاب الذي براه الشرق والمسلم اليوم متجلبا أمام عينه ، ولا يعلم أنه معذب ومهان ، فالناس معذبون ولا يعلمون أنهم معذبون ، هذا هو المسمى عذاب الخزي في الحياة الدنيا وللعذاب الآخرة أخزى والله هو الحكم العدل

هذه هي الذنوب السلبية وهي أسوأ الذنوب وإن كان أكثر الناس لا يعلمون ، وتسمى في ديننا فرض كفاية ، ولكن المسلمون اليوم قلما يفكرون في هذا ، واليوم سيفكرون

القسم الثاني وهو الذنوب القلبية

اعلم رعاك الله أن تلك الذنوب ترجع الى الحسد والحقد والطمع والشهه ، وبلحق بها الغيبة والنميمة

وأمثال ذلك ، وهي ترجع الى قسمين : الغضب ، والشهوة ، فكل ما يحجم عن حب الشهوات ، وعن القوة الغضبية من ذلك فهو صاد للإنسان عن المعالي ، وهذا القسم أوضحه الامام الغزالي في الاحياء في الجزء الثالث وهذه الذنوب اقسى وأشد من الذنوب الظاهرية لأنها ملازمة للقلب محيطة به

القسم الثالث : الذنوب الجسمية

وهي ضربان : ذنوب أقامت لها الشرائع الحدود والأحكام لأنها مضبوطة معلومة كالزنا والقتل والسرقة أو شرب الخمر وما أشبه ذلك ، وضرب ليس بمضبوط ولم يكن له في الشرع حدود ولا أحكام ، وهذا القسم عسر كثير الفروع وذلك كالأكل فوق الشبع ، وكتعاطي الأغذية التي لا توافق الجسم ، وكالتنوم كثيرا ، وكالتعرض للبرد ، وللمحر الشديد . وبالجملة كل ما يؤذي الانسان في جسمه أو عقله . فهذه أحوال لا ضابط لها . ولم يرد لها في الشرائع رادع ولا زاجر إلا أوامر عامة ونصائح كلية كقوله تعالى : « كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » . ومن هذا القسم الاسراف في تعاطي تجارة الأمم القوية العظيمة ، فانهم يصحكون على أذقان الأئمة الجاهلة ، ويستنفدون مالههم من المال بما يبيعون لهم من الملابس البهجة والزينة البديعة ويضنون على عقولهم ، فهذا من التجارة المباحة ، ولكنها تنتهي بخراب البلاد ، وهكذا من يكثر من التمتع بالذوات المباحة من مأكل وملبس ومشرب ونساء ، فهؤلاء يضيعون أيام حياتهم ، ونفوسهم تعيش في نقص وتموت على ما عاشت عليه

فهذه الأقسام الثلاثة من الذنوب عقابها حاضر عند الأمم والأفراد ، فمن القسم الأول ذهب أنواع العلوم والصناعات ، ونتيجة ذلك تهقر المسلمين والشرقيين . ومن القسم الثاني العداوة والحسد والبغضاء بين الأحزاب والجماعات في الشرق ، وتعدد الفرق الجاهلة القبية ، وذلك يمكن العدو منهم ويصددهم عن العلوم فان القبي يضيع وقته في مدافعة أقرانه وأعدائه لا يجد وقتا يتفرغ فيه لتكميل نفسه ، فالإنهاك في الذنوب القلبية يذبح نقص العلوم أي ان القسم الثاني من الذنوب يذبح القسم الأول منها . وأما الذنوب الجسمية كالسرقة والزنا وما أشبههما فعذابها في الدنيا ظاهر وهو الأحكام التي يقيمها القضاء بين الناس والحبس والتعزيم ، ثم احتقار الناس للجرم واهاته ، وهذا عذاب ظاهر في الدنيا . وأما الذنوب التي لا ضابط لها فهي أدهى وأمر وقد شرحت لك بعضها وبها تكون الأمراض والعلل ، وبالأمراض والعلل يختل أمر الجسم ويتبعه ضعف العقل ، وهناك نسب واتصال بين جميع الذنوب فانه يذبح بعضها بعضا وتصيح دائرة أولها آخرها

اذنايت لك هذا علمت معنى قوله تعالى : « يوم نبطش البطشة الكبرى انا منتقمون » وقوله أيضا « هذا عذاب أليم » وما روى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « ما من خدش عود ، ولا عثرة قدم ، ولا اختلاج عرق إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر » وما روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه . قال : « ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله تعالى حدثنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم وبغفو عن كثير ، وسأفسرها لكم يا علي : ما أصابكم من مصيبة أي مرض وعقوبة ، أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم الخ » . وقال عكرمة : « ما من نكبة أصابت عبدا فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله ليغفر له إلا بها » فهذه الأحاديث وأمثالها لا يمكن معرفة حقائقها إلا بمعرفة ما تقدم . انظر كيف ذكر عثرة القدم ، وعثرة القدم تكون لسوء العادة في المشي ، أو خلل في الطريق مثلا ، فسوء العادة في المشي يرجع لعدم الكمال والنظام في المشي ، وهذا من الذنوب التي ليست مضبوطة من أحد قسمي الذنوب الجسمية ، وأما الخلل في الطريق فذلك لكساد العلوم وتأخر النظام المدني ، وهذا بسبب ترك نظام الطرق فيعتبر الانسان لذلك ، وهذا ذنب عام فان اصلاح الطرق ونظام المدن من فروض الكفاية وفرض الكفاية يطبق عليه عموم الأمة ، فهذا

من عقاب الله في الحياة الدنيا ويستمر العذاب يوم القيامة ، وذلك لأن عمرة الرجل أضعف الصحة وكل ما من شأنه أن يعكسفو الذهن يؤخر الانسان عن تأدية بعض واجباته ، وذلك يعوقه عن رقي نفسه ، فاذا مات لم يرتفع الى درجات العاملين ، واذا اختلج عرق كما ذكر في الحديث فانما يكون ذلك الاختلاج بسبب اختلال في الصحة ، والاختلال في الصحة إما لسوء الغذاء نوعا أوزمانا أومكانا أومقدارا أوغير ذلك ، وكل هذا لجهل الانسان ، أوشرهه ، أوثقلة ضبطه نفسه ، والجاهل ليس بمعذور ، فبينما صلى الله عليه وسلم يشير بذلك الى أن الناس ينبغي لهم أن يدركوا حقائق الأشياء ، والا فالعقاب واقع دنيا وأخرى ، وذلك لاستخراج المسلمين من نواكلهم واتكاملهم على أنهم دخلوا الاسلام وبني دخلوه لايعاقبون ، فأفهم النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه أن المسلم يعاقب كما هو مشاهد بالمرض أوغيره ، وذلك بذنبيه ، وأما البلاء في الدنيا فهو أمر عام يشمل أنواعا كثيرة عامة وخاصة . انتهى الكلام على القسم الثالث

الدخان وارساله على المذنبين

قد عرفت فيما تقدم أن الدخان يشمل الدخان الحقيقي والدخان الوهمي كما تقدم ، والغيبار الناجم من قلة الأمطار ، وهكذا يشمل ما كانت تقوله العرب من أن الشر الغالب دخان ، والدخان يشمل ما ذكره والدخان المعهود من أشرط الساعة . قال عليه الصلاة والسلام : « أول الآيات الدخان ، ونزول عيسى ، ونار تخرج من قصر عدن أين تسوق الناس الى المحشر . قيل وما الدخان ؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية ، وقال : بلاء ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليلة ، أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكام ، وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخره وأذنيه ودره » اهـ

ويجوز أن يكون الدخان يوم القيامة . وفي حديث البخاري ان الدخان قد مضى أمره فانه أصابهم من الجوع كالظلمة في أبصارهم ، أي فهو إذن دخان وهمي . وقال غيره : هو دخان قبل قيام الساعة فيدخل أسباع الكفار والمنافقين حتى يكون الرجل رأسه كراس الخنيزع المشوي ، ويعتري المؤمن كهيئة الزكام وتكون الأرض كلها كبيت أرفد فيه ، وهذا القول لابن عباس وابن عمر والحسن

قبت لك من هذا أن العلماء في الصدر الأول جعلوها تشمل دخان الجوع ودخان الغبار والدخان الذي قبل قيام الساعة والدخان الذي سيكون يوم القيامة كما تقدم ، وأيضا تشمل كل شر غالب . فكل هذا يطلق عليه دخان ، وأظهر المعاني الدخان المحسوس الذي قبل قيام الساعة ، وأعم المعاني الذي يدخل فيه هذا وغيره الشر الغالب سواء أكان فيه دخان أم لا . هذا تحقيق المقام وجمع الأقوال

كيف كان الدخان عذابا

جعل الله الدخان عذابا وقد أنزل على قريش . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى من الناس إدارا قال اللهم سبحانه كسبح يوسف . وفي رواية لما دعا قريشا فكذبوه واستصوا عليه قال اللهم أعني عليهم بسبح كسبح يوسف فأخذتهم سنة حصدت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوع . وينظر أسددهم اني السماء فيرى كهيئة الدخان . فأتاه أبو سفيان فقال : يا محمد انك جئت تأمرنا بطاعة الله وبصلة الرحم وأن قومك قد هلكوا فدفع الله لهم . قال الله عز وجل : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين » اني قوله « عائدون » فهذا دخان مضى وانتهى أمره . فأما الدخان الآخر فقد ظهر في الحرب الكبرى . وهنا أربع بك الى أول هذا المقال والبحث في الذنوب وأقسامها . وكيف يكون العذاب بسبب الذنوب واذ كر قوله تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » فاذا فهمنا أن الدخان الذي سلق على أهل مكة بكفرهم فليكن الدخان الذي سلق على المسلمين في الحرب الماضية بجهلهم . نعم لم يم المسلمون بل كان مرسلا على عموم الساسكر المحاربين

شركيين وغيريين . والله قبل أن يخلق هذه الأجيال أنزل القرآن وأخبر أن هناك دنانا . وأخبر ﷺ أن المسلم يصيبه الدخان كهيئة الزكام ، فأما الكافر فهو كالسكران ، وأيضا تكون الأرض كلها كموقد ذلك كله إلقاء للمسلمين وتحذير ، إن الأمم اليوم دخلت في دور من الحرب عظيم ، ويتشاع أن الألمان وعدوا أن يرسلوا دنانا علما فيهلك أمتا كثيرة ، ويقال أيضا أنهم قالوا : يمكنهم إرسال دخان في الهواء فيهلك أهل الأرض جميعا وهم معهم ، قيل : أنهم قالوا لا تفعل هذا إلا إذا يؤسنا من الأمم وانصافها فانظر كيف يقول : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين » ، وكيف يقول العلماء ان الدخان يكون من أشراط الساعة ، وكيف يقال ان الألمان سيفعلون ذلك ، وكيف يقول ﷺ ان المؤمن يصيبه كهيئة الزكام وأن للكافر يكون كالسكران

إن المسلمين اليوم في أول زمن الاقواء وعذابهم بالدخان إنما يحل بهم إذا كانوا جاهلين ما به الله من العاوم ، الأثرى الى ما قدمناه أن هذا من الذنوب السلبية ، فراجع ما تقدم ، وهي الذنوب التي تشترك فيها الأمم كلها كترك العاوم النافذة ، فهاهوذا الدخان ظهر ، وهامم أولاء المسلمون تنهوا ، فليستمرّوا في العلم ، وليقرءوا كل ما عرفته الأمم الحالية حتى إذا أرسل الدخان كانوا منه محترسين وأصابهم الزكام كما في الحديث ، ولا يكونون من الأمم الغافلة التي ينزل بها البلاء وهي ساهية لاهية ، والانباء إنما يكون بدراسة العاوم كلها كما قرأناه مرارا في هذا التفسير

فصيبة الدخان المنتشرة في العاوم الحربية اليوم لن تذهب من ذهن رجال الحرب ، وسيكون لها شأن ولا يقتل مصائبها عن أمة الاسلام إلا العاوم . فبأيها المسلمون : بذنوبكم يقتلكم الدخان ، والذنوب هنا هي الذنوب السلبية للشروحة فيما مضى ، أتمم لا ترمون العاوم وهذا عقاب ربكم وصدق نبينا ﷺ « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » فإذا غلقتنا الأمم فبجهلنا ، وإذا سلطوا علينا دخان ونحن غير محترسين فبجهلنا ، فالعلم هو الباب للخروج من المآزق والله هو الولي الحميد

فإذا سمعت قوله ﷺ « وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه » وسمعت قوله : « حتى يكون الرجل كالخنيذ أي المشوى الخ » . عرفت أن ذلك الدخان هو الذي ظهر في حرب الألمان وهو من أشراط الساعة ، ولعلك تقول : أشراط الساعة تقوم القيامة بعدها ؟ أقول لك هذا خطأ فان الله يقول : « وأنه لعل للساعة » فجعل عيسى علامة على الساعة وقد مضى له ألف سنة إلا قليلا ، فألاف السنين ، بل مئات الآلاف لا تؤثر في قرب هذه الامور العظيمة « إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا »

ولقد كتبت ثلاث مقالات نشرت في بلاد روسيا مترجمة باللغة القازانية كما قدمت لك في أول هذا المقال أنذر المسلمين فيه الدخان ، وقد تمّ ما ذكر هناك ، فهاأنذا أكتب تلك الرسالة المسماة بالقازانية في التفسير معيدا تذكّر المسلمين قائلا : إن ما أنذرتم به قد تمّ وظهر الدخان في الحرب والمسلمون كانوا مطمحين الفاتحين ومرحى مدافع الاوربيين ، ومظهر المذلة والهون ، إلا قليلا منهم كأهل الأفضان وبعدهم الفرس والترك فقد خرجوا من ذلة الاستعباد وقد كشف الله العذاب قليلا ، فليحفر المسلمون النوم ، فلوقت جد وقد أخبر ﷺ أن المسلم يتره زكام وأن الكافر يكون كالسكران ، فلتكونوا أتم ذلك ، المؤمن الذي قرأ العاوم فاحترس فأصابه شرّ قليل من الحرب المستطير . إن الأرض قادمة على حروب وأحوال فاحذروا أن تكونوا طحين الرحي ، فان كان ذلك الشرّ قليلا فلتكونوا من أعلم الأمم لتنجوا من شرّه ، وإن كان بعيدا بعد مئات السنين فقد كفيتم أتم شرّه ، وليكن العلم رائدكم حتى تأخذوا مكاتكم بين الأمم ، والبك ملخصا من الرسالة القازانية ، وقد كنت كتبته في جريدة اللواء ونشرت أيضا في كتابي « نهضة الأمة وحياتها » المطبوع سنة ١٩٠٨ م وهالك نصها :

الرسالة القازانية

وهي عبارة عن إجابة سؤال وجهه الى المؤلف أحد شبان القازان يقول : « أبلغ علماء الاسلام المتقدمين النهاية فلا تفكر نحن بدهم ؟ أم بقي لنا مجال للتفكير في أمر الدين ؟ » فاجابة على هذا السؤال أقول :
 أيها الذكي : سألتني عن مبلغ ما وصل اليه علماءنا السابقون ، وهل شادوا صروح المدنية ومهدوا سبلها وأوفوا بما عهد اليهم من القيام بما يكفل للأمة نباتها ودوامها ، ويكلاً غدوها ورواحها ، سألت من أحسنت به فلنا ومن لي بأن أكون ذلك الخبر الخبير العالم بأسرارهم ، انحيط بعلومهم ، المطلع على جلياتهم وخفياتهم وما كان لي أن أقت حكماً في موقف عظيم مهيب ، طأطأت اعظمته رموس الروس ، وخضعت لجلالاته أ كابر حكماء الشرق ، وأساطين الحكمة في الغرب ، قرم يقول فيهم الاستاذ (سديوالفرنسي) في كتابه : « إن هؤلاء الأطباء الفخام ، والفلاسفة الكبار ، والمهندسين الأجلاء ، والعلماء الأعلام ، في قارة أوروبا انما هم تلاميذ علماء الأندلس المسلمين ، وبرهن على ذلك بأيات بينات ، وحجج وانحطت جليات ، قسم كتابه أبواباً . وأبان فيه أن كثيراً من مخترعات الادرويين ، واكتشاف المكتشفين ، كانت قبسات من أنوارهم ونفحات من أسرارهم ، عثر عليها الباحثون في كتبهم فنقبوا عن أسرارها ، واكتنوها كنهها ، ثم ترجوها فأحرقوها . وأسندوا الاكتشافات الى أنفسهم . ولقد فصل ذلك تفصيلاً في الفلك والطبيعة والكيمياء وذكر أسماء أناس غريبين في نحو القرن الرابع عشر ادعوا اكتشاف عجائب من الفلك ، فدحض حجةهم بأنه إذ ذلك لم تكن صروح لوصد قائمات ، ولا بروج لبوغ أسباب السماء مبنيات ، في عواصم الشرق . أناس كانوا نوراً للناس فازدانت بهم الدنيا . وأشرق بهم الأرض فأفاضوه على غيرهم من الأمم الغربية لعلك تريد بالسؤال علماء الدين كالأمّة رضوان الله عليهم فن بدهم ، أولئك كانوا مصايح الدين

وأنوار البصائر ، وشموس الحق ، في آفاق الشرق

أيها الذكي : تنحصر أعمال أولئك الأمّة العظام في أمرين : خاص وعام ، فأما الخاص فذلك تفصيل فروع الفقه اذا لم يتم غيرهم مقامهم وهي أمور ضرورية كفصل الخصومات والدياوي والميراث والعبادات ، وأما العام فأنهم قالوا : « إن عامة العلوم والصناعات التي يحتاجها الناس في حياتهم الدنيا غروض كفايات يقوم بها أناس ساعدتهم أمزجتهم ، وأسعدتهم استعدادهم لملها ، ولم يفرقوا بين علم الفقه وغيره فنكت العقول من عقلها . ونهضت الأمة من مرقدتها وانتشرت الحرارة الحيوية وأشرق شمس العلم على ربوع البلاد فظهر فيهم أمثال المنصور والرشيد والمأمون وترجوا الكتب اليونانية الى العربية وقامت الحركة الفكرية وساروا شوطاً بعيداً في ميدان الحياة والسعادة

طويت تلك القرون كطوى السجل الكتاب . وحصر علماء الدين همهم في فروع الفقه وحدها وقصروا همهم على القضايا الفقهية . وجالوا فيها جولات . وحي بينهم وطيس الجدال . في ميدان الخلاف . وتسايقوا لأصولها وفروعها ولم يعبروا غيرها التفاتة بل زادوا الطين بله ووضعوا ضغناً على ابالة إذ ذموا علماء الطبيعة والفلك والفلسفة . وقد علمت انهم نظراؤهم في قيامهم بركن من أركان الحياة وسعيهم معهم الى رقي الأمة وسعادتها . ولقد حملهم على ذلك أمران : الأول انهم رأوا الأمّة العظام رضوان الله عليهم هم الذين دونوا هذه الأحكام باجتهدهم ولم يفتنوا انهم أوجبوا العلوم على السواء ولم يفرقوا في الوجوب بين فروع الطب والزراعة وفروع الفقه وقيامهم به وحدهم لأنه أهم فتدبّع عثم وتركوا النظر في العلوم الأخرى لسواهم . الثاني انهم إذ رأوا تلك العلوم ليس فيها استتالة على الأقران ولا تولى الادارات القضائية والأحكام السلطانية نبذوها بل ذموا القائمين بها فانقسم الناس إذ ذاك فر يقين : فريق للعلوم . وفريق للدين

ثم قامت طائفة من العلماء كالشيخ الفزالي ورأوا أن السلف الصالح خلف من بعدهم خلف أضاعوا
 العلوم ، وانكبوا على فروع الفقه ، وصرفوا كثيرا من الناس عن علوم الحياة وال عمران والطبيعة والرياضة
 والفلك والفلسفة وتعلموا أن الدين يطلبها كالفقه سواء ، فأخذوا يحملون الناس على قراءتها وعدوها علوما
 دينية . ألف الامام الفزالي كتابا سماه « إحياء علوم الدين » وشرح الفقه كالحلال والحرام بهجائب الحكمة
 الإلهية كالسحاب والهواء والماء والأرض والأنهار والسماء والنجوم والشمس والقمر وهجائها ، ونواميس
 الطبيعة وفلسفة الضوء وشرح علم النفس . ولقد شرح في كتاب الشكر من الأحياء أنواع السعادات وجعلها
 (١٦) قسما وأدخل فيها العلوم أجمع ، وترى الامام الفزالي أتى بهجج عجيب في حكمه ، فتارة تراه يذم الفلاسفة
 ويكفرهم ، وأخرى يذم الفقهاء ويرميهم بالقصور والجهل ، ثم أشار في كثير من كتبه الى أنهم من العامة هم
 ورجال علم التوحيد . ولقد فكرت في ذلك كثيرا ففهمت أن الرجل رأى المسلمين قد أشربوا كراهة العلوم
 بما أوحى اليهم أولئك العلماء القاصرون ، فأنتحى على الفلاسفة في تعاليمهم وكفرهم موافقة للعامة ، ولكن
 في نحو ثلاث مسائل لاغير ، ثم رجع الى أولئك العلماء القاصرين فأوسمهم ذما وتقريرا ليطلق الناس من
 أسرهم ويفك قيود تقليدهم . ولما أعلن ذلك عمد الى مسائل الفلسفة فوضعها في قوالب اسلامية ، فتراه
 ذكر في باب الشكر نواميس كثيرة ، وفي باب الفكر هجائب الصفة الإلهية ، وتراه اقتبس أقيسة المنطق
 الأربعة في كتاب القسطاس من القرآن استثناسا لقلوب عامة المسلمين لحوز هذه العلوم واخرجا لهم من
 حظيرة الجود على أقوال العلماء الرسميين الذين اشتروا الضلالة بالهدى غرموا المسلمين العلوم العقلية والحكمة
 وأتبعه ابن رشد وناقشه في بعض القول ، وأوضح في كتابه في التوحيد ما يجب على علماء الاسلام من معرفة
 العلوم الكونية ، وأنتحى على الجامدين الجاهلين ، وأناخ بكسلكه على طريقة تعليم التوحيد ، وأشار الى من
 بعده أن يمزجوا علوم الكون بالدين ويجتدوا في اكتسابها واكتناه كنهها والتشهير في طلابها ثم خلف
 من بعده خلف رأوا وعورة الطريق وبعد الشقة ، فاستصعبوا الأمر وأوجسوا خيفة أن يصغروا في أعين
 أتباعهم فحكموا بكفر أولئك المرشدين ، وصارت تلك سنة في الفارين ، كلما جاءهم عالم بمالاتهوى أنفسهم
 من الجود والجهل استكبروا عليه ، ستمرا لجهلهم ، وحفظا لمرأى كرههم ، وضونا لمقاماتهم أن تسام بسوء ،
 ففريقا كذبوا وفريقا يقتلون ، ولئن سألتهم : لم يذم هذه العلوم ؟ قالوا قلونا غلف ، وفي آذاننا وقر
 ولعمرك اذا كفر الرازي وابن رشد والفزالي وأضرابهم وهم الذين طأطأت لهم روس الماضين والغابرين
 من العلماء فليس على وجه البسيطة مؤمن . ومن العجيب أن العلماء يعظمونهم عند ذكركهم ، واذا قلت
 لهم هؤلاء دونوا العلوم التي يقرؤها صغار التلاميذ في المدارس ، وأهل أوربا يدرسون علومهم في مدارسهم
 ينفضون اليك رؤسهم ويقولون مالنا ولهذا ، انا نقرأ الوجيز والبسيط للفزالي وماعدهاء فليس من الدين في
 شيء . وبيننا نرى هؤلاء يفضون العلماء من وجه نرى زعانف الصوفية (لا أكابره) يرحون في الأرض
 بنبرالحق ويقولون : « العلم حجاب بينك وبين الله فاجعل صورة شيخك في خيالك والله من ورائها وياك
 والعلوم » . يقولون ذلك لتلايستنضى الناس بأنوار المعارف فيفتضح أمر هؤلاء الدجالين ويفذونهم بنذ
 النواة . فإرسال الله طائفة أخرى ظالمة غشتم بغاشية من عذاب الظلم والعسف فأرهقت الأمة واستعبدها
 وأخذت تقرّب زعانف الصوفية وتصطنعهم آلات ككهر بائية تحرك بهم صوراً من الرجال وأشباحاً من
 الجهال في مراسع الحياة وتمثل بهم فصولاً في الحياة والسياسة . فلما استحكمت تلك الحلقات الثلاث ونامت
 الأمم الاسلامية أجنة في الدهر خلفاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث سلاط عليهم سيولا جارفة . وسواحق محرقة
 من أم الفرنجة فأذلوهم واستعبدوهم ومزقوهم كل ممزق وفرقوا أيدي سبأ

المقالة الثانية

أيها الذكي: إذا اختصرنا قول: «أضاع الاسلام ملك ظالم، وصوفى طامع، وفقية جاهل، انحذوا على جهالة الأمة لينالوا حظ الرئاسة، أما وربك لوأنهم رجعوا الى القرآن لرأوه سوى بين العلوم على تباين مشاربها، ليس الفقه تلك الفروع المدونة، إلا انما الفقه هو الفهم، فليس يختصا بنحوف فروع الحيز التي قد تبلغ أربعة الآلاف»

أليس القائل في الحيز: «و يسألونك عن الحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في الحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأنوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب المتطهرين» هو بذاته الذي أنزل قوله تعالى: «إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون». نعم هو الذي لم ينزل آية حيض النساء إلا بعد أن سئل النبي ﷺ وأنزل ناموس النبات ومجائبه بدون سؤال، أليس ذلك برهانا قويا، وحجة لامعة، على أن هذه العلوم الطبيعية أولى بالوجود على الأمة من تلك الفروع الفقهية التي يشيب الدهر ولا يسأل عنها سائل، لا بل أصبحت كأنها عبادة يتعبد بها الناس وهم لا يعلمون ما بها يصنعون، لم يجب عن الحجر والقمار إلا بعد السؤال. فقال: «يسألونك عن الحجر والميسر قل فيها إثم كبير ومنافع للناس» ولكنه أنزل بيان مجائب الليل وبدائع الصبح واشراق الآفاق، وبين بدعية من المجائب بلا سؤال. فقال: «فائق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم»

أيها الذكي: إني أخالك نسأتني عن أحكام الدين من الطلاق والخلع والتفقة والعدّة وماشا كل ذلك مما قد يتخذها بعض العلماء حرفة يحترفون بها، افي أثبتك عن ذلك:

إن المستقبل للشبية فلا تنكحوا إلا على أنفسكم، قل تعالوا أنزل ما حرم عليكم ربكم ألا تذكروا الاصلاح اتباعا لفقية متعصب، ولا تنكحوا للطب تاركين، وللهندسة ناسين، وعن العلوم الكونية معرضين، ولا تنكحوا عائلة على الأمم الغربية، بل اسعوا سعيهم، واقربوا علومهم، وسيروا معهم بسلام ووفاق، وتذكروا قوله تعالى: «ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين وربابا وأنهم لا يستكبرون»

أيها الذكي: لأن جاءكم فاسق بنياخذلان والجهل فتبينوا خبره، ولا يصدتنكم عن سبيل الله فقيه متعصب فأما التعصب لقوته لا للإسلام، ولا يجرمكم شئ من بعض الصوفية للعلوم وبعضهم للعارف، ولا يبرهقكم الأمراء بالجهل، ابتغوا الوسيلة للعالي بالعلوم، ولئن أنبم أكثر من في الأرض بضلوكم عن سبيل العلاء والشرف: «ان يتبعون إلا الظن وان هم إلا بخرصون»

ابفضوا كل رئيس لا يعين على العلوم، وأحبوا كل أمير وعالم وصوفى يحشمكم على مجارة الغربيين أيها الذكي: إنا لفرجومكم فوق ماسطرناه، نرجو أن تكونوا قدوة الأمم أجمعين، فمابالنا أصبحنا أذنانا عاجزين، وفي أخريات الأمم قاصرين، وفي فيافي الجهالات نائمين، وعن سبيل الاصلاح معرضين. انتهى الكلام على المقالة الثانية

المقالة الثالثة

أيها الذكي: ليكن كل قدم ومفسار وإبرة وبخار وحرارة وكهرباء، مما عملت أيدينا، ومتى أعوزتنا الأيام الى إبرة أو مدفع مما عمل سوانا فذلك إثم كبير على المسلمين نعتب به مرتين: مرة في الحياة وأخرى في الممات

أليس الذي قل في الكتاب : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فجح
 هميق » هو الذي يقول : « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل ، فأوجب على
 فريق أن ينظر أحوال الأمم وعمرانها وخرابها وسياساتها كما أوجب الحج في ميقاته على المستطيع ، أتدري
 لماذا ترك الناس الأول وأدوا الثاني لأن الحج سهل معروف ، أما السير في الأرض لما أحوجها الى اللغات
 وفهمها ، والأموال وصرفها ، والعلوم وجمعها ، وذلك أصعب الامور وأشق على الجمهور ، فاستحب الناس
 العمى على الهدى ، والراحة مع النلة ، وذل الاستعداد مع التخلف ، وطبع على القلوب فهم لا يفقهون
 طمس على قلوب كثير فاتبوا أهواهم ، وصدوا الناس عن سبيل الاصلاح ، صرح بهذا الكتاب المجيد
 فقال « أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن
 تعمى القلوب التي في الصدور » وفي هذه الآية من التقرير والنم والتوبيخ على الكسل والتخلف عن
 السير في الأرض مبداء على ما ذكرناه ، وتراه لم يكتف بذلك التوبيخ بالعمى بل صرح بأن إيمانهم
 معدوم فقال : « قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تنفي الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » . ثم
 هدد بالعذاب في الدنيا فقال : « فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إلى معكم من
 المنتظرين » وقد أكد ذلك الانذار والتهديد بقوله : « قل هو القادر على أن يعث عليكم عذابا من
 فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيئا ويذيق بعضكم بأس بعض » نعم ذاق المسلمون أنهم نقرقوا شيئا
 ونقرقوا طرائق ، ونقرقوا سزائق ، واقتتلوا أجيالا طويلا وهو قوله « يلبسكم شيئا ويذيق بعضكم بأس
 بعض » وسلط عليهم أحسن المماليك ، وأحقر الصعاليك ، فأذلوا ملوك العباسيين ، والسول الاسلامية كالماليك
 البرية والبحرية ، وهل ينظر المسلمون اليوم إلا انذار العذاب من السماء الذي نص عليه بقوله « أن يعث
 عليكم عذابا من فوقكم » وتراه أشد وضوحا وذكر مشروحا في قوله عز وجل : « أفلم يروا إلى ما بين
 أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ان نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء » وفي قوله
 « وان يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم » أتدري ما ذلك الكسف المركوم والعذاب الموعود
 تلك البالونات الهوائية ، والأساطين الجوية ، والمدافع المسكسية ، وتلك الآلات الجهنمية ، تمدها الآن الأمم
 الغربية ، فاذا وقعت الواقعة ، وانشقت المرائر ، وأمطرت السماء مطرا من سبعين ، ونزلت الصواعق على
 الغافلين ، فعند ذلك لا ينفع نفسا إيمانها من المسلمين إلا الذين آمنوا ونظروا وعملوا وجاروا الفريقين ،
 أولئك هم الناجون من ذلك العذاب الواقع « إن عذاب ربك لواقع » ماله من دافع « على أولئك المسلمين
 الذين لا ينظرون ولا يفكرون ، ولا يعتبرون بالأندلس وهلاكهم ، وخراب ديارهم ، وأهل أمريكا وعذابهم
 وفنائهم ، فإلى متى أيها الناس أتم ساهون ؟ أنذركم صيحة فاجعة ، وحروبا واقعة ، فاذا جاءت الطامة الكبرى
 وشاهدتم سحبا مركوما بالمدافع والجنود ، وأرسلت الصواعق من البارود ، وزججت الرعود ، وأمطرت السماء
 حجارة وحديد ، ودمتدا ورساما ، فأول واقع في العذاب هم الجاهلون ، ولن ينجو من هولها إلا القائلون
 الذين يصلحون في الأرض وهم يعقلون ، واتخذوا لهم حصونا في الهواء ، ولن يكون ذلك إلا اذا أتقت
 الصناعات ، وقرئت الرياضيات ، وفهمت الطبيعيات ، وعلمت التواميس ، ودرست السياسات ، وصرم أمة
 كالأمم

هذه نصيحة لكم فاقفوها وإياكم أن تضيعوها فوالله إنى لأعلم ذلك يقينا وكأني بالميسدان يجرى في
 السماء كالسحاب والدول تصطدم في الهواء أساطيلها ، وتقتل على بلاد الاسلام جيوشها ، والمسلمون ينظرون
 ولا يتكلمون إلا من يعقلون منهم ويعملون ، فانظروا لأنفسكم قبل أن يأتي ذلك اليوم المشؤم لعلكم تتخذون
 لكم مع القوم سبيلا ، وأنذركم يوم تصطف المراكب الهوائية وهي تقرب من السحاب ، هناك تنزل الصواعق
 وتهطل

وتهطل الحجارة ، شآبيب شآبيب تذك الصروح ، وتهشم البيوت ، وتدهور القصور ، يوم تمور السماء مورا
بالجيوش الحربية ، يوم تأتي السماء بدخان ميين يفتى الناس في الشرق والغرب هذا عذاب أليم « ربنا
اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون »

أيها النكي : أئذرا المسلمين الصيحة العظمى ، والبطشة الكبرى ، « أم أنتم من في السماء أن يرسل
عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير »

هاهوذا اقرب زمان الدخان يفتى الناس من فوقهم من تلك الأساطيل الهوائية التي تعدها الدول لمحاربة
الأمم الجاهلة « لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون » ولا يعلمون تلك النواميس العجيبة المدهشة
تلك الصواعق تنزلت على الناس لتفتشلهم من صرايخ جهلهم الى إعلاء عرش العلم والحكمة . أئذرا
الله الناس وحذرهم مم هو بعد لهم الأساطيل الهوائية ترميهم بحجارة من سجيل حتى يكونوا كعصف
ما كول « ولقد أئذرهم بطشتنا فتأروا بالنذر »

ولعل فريقا يقولون : انما وعدنا هذا يوم القيامة ، وعانحن أولاء الآن في الدنيا ، تقول على رسلكم فها
من صورة في الآخرة والقيامة الكبرى إلا وطأ أخت نظيرتها في الدنيا « ومن كان في هذه أعمى فهو
في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » ، ولئن سألتهم لم تدهور المسلمون ، وارتطموا في هدمتهم ، وزلوا من حائق
ليقولن الفقهاء انهم عاصون مجرمون ، ليسوا على الصراط السوي . ولئن سألتهم عدوا المعاصي لأجابوك :
هي الزنا والخمر والميسر والأنصاب والأزلام وكلها رجس من عمل الشيطان والفتية والنجمة وهم جوا يجيئونك
بهذا الجواب الأبر الناقص ويذرون الذنوب الكبرى والمعاصي والموبقات العظمى وهي سحائب الجهل
المركومة تفتى عقولهم ، وتحجب نورهم ، وترسل عليهم غاشية من نار ودخان ، يجهل تلك التي يسمونها
فروض كفايات

العلوم كلها فروض كفايات كما قدمنا ، وأوا بعد الشفة وطول السفر ووعورة الطريق ومشقته فأعرضوا
عنها وتولوا ولم يذكروا للناس من المعاصي إلا أسهلها وهي التروك ، من ترك شيئا فقد عاش بغيره وما أسهل
ترك الخمر والميسر والأصنام ، الترك أمر سهل ، فأعرض عن الشيء . يعرض عنك . فأما العلوم فلن تنال إلا
بمشقة وسهر وتعب أمد العمر فكانت الكلفة فيها أشق ، والعمل أصعب ، والفكر فيها أدق ، والحيلة لطلبها
أغمض ، والقيام عليها أدم وأعظم ، لذلك هربوا منها ولم يحوموا حولها ، وقالوا للناس ما أهلك المسلمين
إلا تلك المعاصي المعلومة ونسوا حقا مما ذكروا به من فروض الكفايات ولم يذكروهم بنحو قوله تعالى :
« أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض » الآية « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم »
« بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا »
هكذا كان حتى قرعت القارعة ، وانثقت المرار ، وأحيط بنا ، وأصيضا مضغة الأفواه

أيها الشبان : إليكم أوجه خطابي ، وأدعوكم للعلم والعمل ، فقد بزغت شمس الإصلاح ، وبشرت بوادر
الامور بالاقبال ، فالآمال بهذا الجيل معقودة فابشروا بالنجاح وقد كروا قوله تعالى : « إن تنصروا الله ينصركم
ويثبت أقدامكم » انتهى ما أردته من كتابي « نهضة الأمة وحياتها » والحمد لله رب العالمين

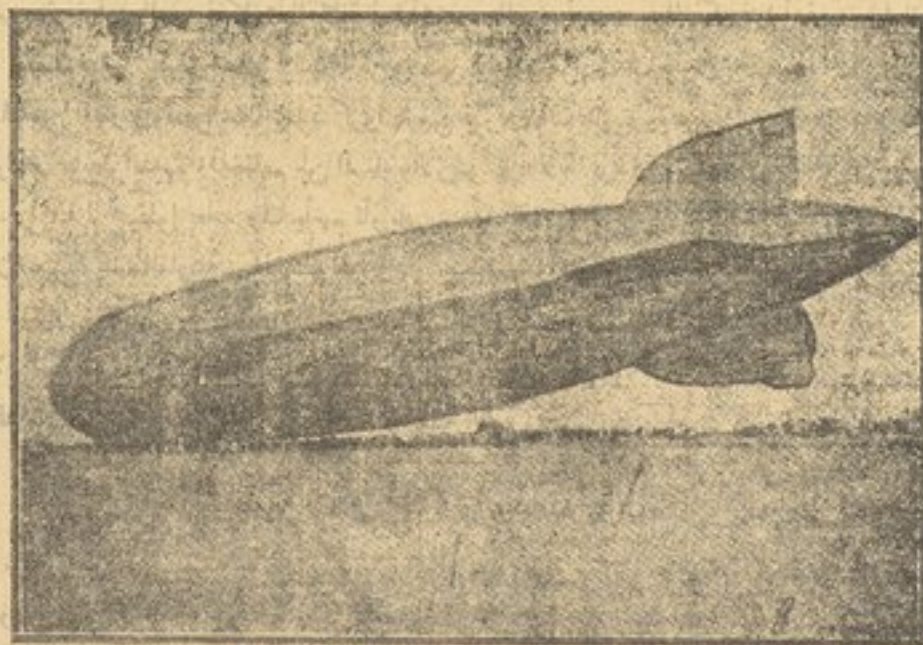
الطيارات في الجو والضباب القاتل

إن ماتقدم هو الذي نشرته سابقا في جريدة اللواء بذلك التاريخ ، وحذرت المسلمين منه قبل الحرب
الكبرى وصار ضمن كتاب سميت « نهضة الأمة وحياتها » كما ذكرت سابقا ، فأنا الآن أكرر القول بأني
أحمد الله عز وجل اني بقيت في الحياة الدنيا حتى شاهدت ما قر في صدرى قبل تلك الحرب وأن نهاية

الاصطدام بين الأمم كان باستيلاء الظالمين منهم على أمم الاسلام وظلمهم وارتدائهم ، فلا كتب اليوم مصداق ما كتبت ككتبته إذ ذاك محذرا ومبشرا ، وأنا واثق جد الثقة بيشائر السعادة لأمم الاسلام في يوم من أيام شهر ابريل سنة ١٩٣١ بينا أنا في جهة العباسية شمالي القاهرة إذ رأيت الناس يهرعون وينظرون الى السماء ويقولون : « زبلن زبلن » بحركات غير عادية ، وسمعت تصفيقا وأصواتا واستصاانا فنظرت اذا بمنطاد (زبلن) يطير فوق المنازل كأنه الحوت يعوم في البحر ، واستمر بطوف فوق الأحياء أمدا طويلا ، وتوجه الى المطار المعد له في المناظر التي تقرب من مصر الجديدة (هليوبوليس) وتقبلته شرفمة من العساكر الانجليزية وأمسكوا به وهاك صورتيه (انظر شكل ٢) و(شكل ٣)



(شكل ٢ - الجنود يشعرون الجبال لانزال المنطاد في مطار المناظر)



(شكل ٣ - صورة المنطاد بعد نزوله في المطار)

فالصورة الأولى تمثل المنطاد والجنود يشدون الحبال لازال المنطاد في مطار الماظه ، والثانية تصور المنطاد بعد نزوله ، وذلك النزول كان في صباح يوم السبت ١١ ابريل سنة ١٩٣١ وهذا المنطاد طوله يقرب من ٢٣٥ مترا وقطر محيطه يبلغ نحو ٣٧ مترا وهو جسم مهول يطير في الجوق لم تعلم به العصور
 ففي يوم ٩ ابريل سنة ١٩٣١ م أخرج المنطاد من حظيرته بكل سهولة عند الساعة السادسة من الصباح ، وكان هناك جمهور من الذين تمكنوا من دخول المنطقة خيوا المنطاد . قال أحد الركاب : « قد ساعدت برودة الجوق على أن يخلق المنطاد صعودا في الجوق قبل ادارة المحركات ، ولما بلغ الى علو ١٠٠ متر أدبرت المحركات فأصبحنا في جوق مدينة (فريدريكسهافن) في دقيقة واحدة ، ثم اجتزنا بحجرة (بودن) وعند الساعة السادسة والدقيقة ٣٣ كنا قد وصلنا الى بحيرة كونستانس ، وواصلنا السير فوق الزين حتى دخلنا سويسرا فمرنا بمدينة (بريسن) الساعة ٩ والدقيقة ٤٣ ثم اجتزنا الساعة ٧ والدقيقة ٣٠ شافوز حيث شاهدنا شلالات نهر الزين المشهورة بروعتها وبلغنا مدينة بال الساعة ٨ والربع فدخلنا حدود فرنسا وحلقنا فوق مدينة (بيرانسون) على علو يتراوح بين ٤٠٠ و ٦٠٠ متر ، وكانت سرعة المنطاد في بداية الرحلة ٩٥ كيلومترا في الساعة الى أن بلغت بالتدريج ١٢٠ كيلومترا ، وقد كان الجوق يحوا ، والشمس مشرقة ، غير أن السماء لم تخل من قطع الضباب وخصوصا في جوق سويسرا . ولما أصبحنا في الجهة الشمالية الشرقية لمدينة ليون حول المنطاد سيره الى الجهة الجنوبية . وذلك لأن السلطات الفرنسية أبلغت قائد المنطاد في الساعة الأخيرة انه لا يجوز له أن يمر في جوق مدينة ليون ومرسيليا ، وهذا بعكس ما كان قد وقع في رحلات المنطاد السابقة ، ولاحق لنا مدينة ليون عن بعد عند الساعة العاشرة ، ولكن المنطاد انحرف في سيره ليتبعد عنها ، وقد حلفت طائرة فرنسية وسارت المنطاد في منطقة ليون حتى اتجه الى الجهة الجنوبية الغربية مرة أخرى بمدينة فينسيو فمدينة جيفور ، ثم تابعا وادى نهر الرودت حتى بلغنا فالانس عند الساعة ١٠ والدقيقة ٥٥ وهي النقطة التي وقفت فيها أربعة محركات من محركات المنطاد في الرحلة التي قام بها في مايو سنة ١٩٢٩ فاضطر المنطاد الى النزول في مطار كوريس بيرفو الذي تمكن من الوصول اليه بقوة محرك واحد ، وظلت مناظر المدن تتابع كشرائط السينما ، فمرنا بمدن مونتليار وأورانج وافينيون وطراسكون وارل الى أن بلغنا جنوبي سهل (كرو) . وساعدت الأحوال الجوية سير المنطاد أثناء الليل فمرنا على مقربة من مالطه في منتصف الليل ، وفي الساعة السادسة صباحا وصلنا الى الشاطئ الاقرب في شرق بنغازي ، وفي الساعة السادسة والدقيقة ٤٣ وصلنا الى درنا » وقال أيضا :

من ألمانيا الى افريقيا في ٢٤ ساعة

« ليتصور القارئ كيف تنارنا في بكورأمس فطورنا بفندق كورجان في فريدريكسهافن وفطورنا الثاني فوق بلزانكون بفرنسا وغدا منا مقابل كتيانزور ، والشاي فوق جنوب كرسكا والعشاء فوق غرب صقليا ، وتناولنا الفطور اليوم فوق المياه المصرية ، وهكذا جاء جراف زبلن بنا من ألمانيا الى الشاطئ الاقرب في ٢٤ ساعة بالضبط ، فقد غادر حظيرتنا في الساعة السادسة من صباح أمس ، وشرع في رحلته في الساعة السادسة والدقيقة الثامنة ، ثم وصل الى افريقيا في الساعة السادسة من صباح اليوم » انتهى ما أردت اثباته في هذا المقام والحمد لله رب العالمين



السخان والضباب وآثارهما في الأمم في زماننا، وكيف وافق نص القرآن

الكلام على أن السخان سلاح الحرب المقبلة

وأن ضبابا أحدث قتلا في أوروبا، وهذا من عجائب القرن العشرين، مصدقا لآيات القرآن
جاء في جريدة مصر يوم ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٣٠ مقالا تحت العنوان التالي مانصه :

الحرب القادمة وسلاحها الحديث

أصبحت العلوم الكيميائية من أهم العوامل في حياة الأمم الحديثة وحروبها لأنها أساس الذخيرة الحربية
والمؤن المختلفة اللازمة للقائين والأهلين، وقد كان لها الأثر الأكبر في إطالة مدة القتال في الحروب العظمى
فلوأن ألمانيا مثلا لم تتمكن من استخراج الحمض النتريك من آزوت الهواء للاستعاضة به عن النترات التي
كانت تستوردها وهجرت عن عمل البارود والمفرقات لا اضطررت الى التسليم في أول سني الحرب
وما قبل بشأن الآزوت يقال أيضا بشأن المعادن والمنسوجات والمطاط والمواد المعدنية وسائر المواد الغذائية
وكان هناك ارتباط وثيق بين الكيمياء الغذائية والكيمياء الحربية، فلوأن الألمان مثلا حرموا الزراعة من
الأسمدة الآزوتية للاحتفاظ بالآزوت للمفرقات، أو استخدموا البطاطس وهي أساس غذاء الأهالي لعمل
الكحول اللازم لاحتياج المجاعة لا محالة بالبلاد، على أن الكيمياء الألمانية تمكنت من حل المشكلتين في
آن واحد، مراعية لوازم الذخيرة والمؤن للغذاء، ولولا استعداد معاملها الكيميائية وتجهيزها منذ زمن بعيد
لقيام بكل ما يطلب منها لما استطاعت قط أن تقف الموقف الذي وقفته من أعدائها ماول مدة الحرب، فأنها
كانت بين أمرين لئلا يتأخر إنتاج ما يلزمها وأما التسليم فتمكنت مدة طويلة من الإنتاج بفضل كيميائيتها
العديدين الذين كانوا مدرسين على العمل

ولم يكن للعطفاء بد من مقابلة ألمانيا بالمثل فتمكنوا من مقابلة الاختراع بمثله، فازدادت بذلك الاختراعات
المبيدة والنافعة في وقت واحد، حتى إذا خيم السلام على العالم اتفح الناس بتلك الاختراعات سواء في
المسائل الصناعية أو الزراعية أو التجارية أو الفنية، حتى صرنا كلما قلبنا مجلة علمية من المجلات الأوروبية
الجامعة نجد بها كثيرا من الآلات التي اخترعت أثناء الحرب وبعدها وسهلت الأعمال الحيوية المختلفة أمام
المنتجين في كل قطر من أقطار الأرض، ويكفي أن نشير فقط إلى أن الغازات السامة والغازات التي ابتدعها
الألمان أصبحت تستخدم اليوم في إبادة الجرذان والجراد وغيرها من الحيوانات والهوام التي تفسد الزرايع
والحقول، وأن آلات حفر الخنادق أصبحت تستعمل الآن في حفر الجنود ودك الأحجار واقلة الأرصعة
كما أن السبلات تستخدم في تسوية الأراضي الحجرية ونسف التلال وغيرها مما يعوق نظام الأراضي
هذه فوائد اختراعات الحرب، غير أن المراسل الحربية لمجلة نيويورك العلمية الجامعة يقول إن العلم
الكيميائي سيكون لها الفضل في الحرب القادمة التي أخذ شبحها المخيف يحول الآن فوق سماء أوروبا لأن
كيميائيي الألمان باختراعهم الغازات السامة وغيرها مهدوا لغيرهم أن يخترعوا غازات أشد فتكاً منها
كغاز اليوريسيت الخفاف الذي اخترعه أحد كبار ضباط الأمريكان وله قوة على القتل أشد من سائر الغازات
التي كانت مستعملة قبل الحرب

وهذا الغاز عبارة عن سيال زيتي تشتم منه رائحة الجرافيوم وقت انفجاره ويلتهب بلامسة الهواء، أما
إذا أطلق في الهواء فإنه يتحول إلى غاز يقتل لساعته بمجرد استنشاق شيء يسير منه لأنه يسمم الدم ويفتك
بالقلب والرئتين وإن سقطت منه قطرة واحدة على الكف سببت الموت بعد ساعات قليلة يفضيها صاحبها مختصراً

في عذاب ألم

وقد وضع الأمريكان هذا الغاز في شكل قنابل طول الواحدة عشرون سنتيمترا تطلق بالآلات موضوعة على عجلات سيارة تقطع ٢٤ كيلومترا في الساعة ، وقد اخترت فنجحت للغاية ودلت على أن هذه العجلات تستطيع أن تطلق قنابلها الغازية على مسافة ثمانين كيلومترا وتأثير الليوست عند انتشار غازه يبقى شديدا الى مسافة بعيدة حتى ان فتكه يكون ذريعا على مسيرة أميال كفتكه عند مصدره ، واذا ألقى من طائرة انشر في بقعة عظيمة وقتل الالوف من الناس بلا رجعة ، واذا أقيمت ست قنابل منه على عاصمة من العواصم الكبرى أهلكت سكانها وأبادتهم في الحال . وهذا الاختراع وضع في يد الأمريكان أقوى سلاح عرف منذ خلق العالم ، ومن يعلم غدا ما فتقه عقول المخترعين من الاختراعات الرهيبة في الحرب المقبلة التي ستكون أشد الحروب وبلا وأعظمها فظاعة . انتهى

الكلام على الضباب

جاء في تلفراف خاص من لندن من مراسل جريدة «الضياء» بتاريخ يوم الخميس ١١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ م تحت العنوان التالي وهذا نصه :

تكاث الضباب في انكلترا

تكاث الضباب ثانيا وعرقل سيرالمواصلات في شواطئ انكلترا الجنوبية وفي لندن وضواحيها ، ولكنه انقطع في اليومين الأخيرين في خليج المانش ، أما في ساوثبتون فكان كثيرا ، وكذلك في دوفر عند مصب نهر التيمس ، وكان بنوى جلالة الملك الخروج للصيد لأول مرة بعد ابلاله من مرضه في سنة ١٩٢٨ إلا ان حالة الضباب جعلته يضطر الى العدول عن الصيد ، وفي توكنهام قد انتشع الضباب عنها قليلا عند الظهر فهايا الضباب في البلجيك

يقول الخبيرون انه لا بد أن الضباب الذي غشى جزر البلجيك كان مصحوبا بمواد غازية خائفة والتي كانت سببا في هلاك ٦٠ شخصا ولكن لم يثبت بعد أن الوب الكبريتي المساعد من المصانع كان له أي أثر في ذلك ، وفيه أيضا ما يأتي :

هل أصبحت مسألة الضباب سرا فامضا ؟

برلين في ١٠ ديسمبر مراسل الضياء الخاص : يكتنف مسألة الهول الناجم عن تكاث الضباب وغمماياه سرا فامض نظرا لهلاك كثيرين بسببه في الوادي القريب من لبيج ، ولكن يظهر أن هذا السر المقنع أمكن الآن ازاحته بالتحقق من أن الأسباب المباشرة لضمحاياه هو الاعتراف بوجود أبخرة خائفة من الدخان المؤذي المتساعد من مداخل المعامل ثم يرسب ويتجمد ، وقد كان عدد ضحايا الضباب ١٣٠ شخصا بخلاف الذين نقلوا الى المستشفيات والذين تحت خطر الهلاك اختناقا ، ولكن اتضح من تشريح الجثث طيبا أنه لا أثر فيها للغازات السامة كادلت تقارير الخبراء الاخصائيين ، وقد فتحت هذه الحادثة المروعة والفريية في بابها بابا للعلماء لاكتشاف مفتاح هذا السر الفامض ، وبدؤا يزاولون بحثهم بغير توان ولا كلل بينما تفرى أمامهم مواكب الجنازات التي يشيعون فيها المنكو بين الى مرقد هم الأخير ، وقد أرسلت فرق من البوليس لحفظ النظام في الأقاليم المنكوبة اه

وجاء في تلفراف آخر من برلين من مراسل جريدة الاهرام الخاص بتاريخ ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٠ ميلادية مانسه :

عودة الضباب الوبائي الى بلجيكا

جاء من بروكسل أن الهول الزاحف الذي أودى بحياة الكثيرين في وادي الموز في أوائل هذا الشهر عاد في عيد الميلاد ، إذ خيم ذلك الضباب الوبائي القتال على مدينتين في المنطقة الجنوبية ، فقتضى على حياة ثلاثة أنفس ، وهناك عدد كبير من المصابين بهذا الوباء في حالة خطيرة ، وأنذرت الحكومات الناس بملزمة المنازل ، وقصد أعضاء اللجنة التي انتدبت لفحص الضباب الأول الى تلك المنطقة لمواصلة المباحث العلمية لمعرفة الوباء

هاهوذا سلاح الطيران في الحرب الكبرى السابقة وفي الحرب المقبلة وهو الدخان ، وهاهوذا الضباب الذي أخذ يظهر في أوروبا قليلا قليلا ويقتل الناس . أيها الناس : أليس هذا هجبا ! ينزل الله سورة باسم الدخان ، ثم يقوم الناس باستخراج ذلك الدخان من المواد الأرضية وينشرونه بينهم فيقتل الناس بسهولة ثم يرى الله عز وجل يخرج من لدنه ضبابا وينشره بينهم في بلجيكا وغيرها فيموت به أناس ، أليس هذا الثاني هو نفس الدخان الذي جاء وصفه في الحديث الشريف المتقدم ، وأن هذه الانسانية الجاهلة القبية لما أن سارعت الى استخدام الدخان الصناعي في المحاربة أشار الله لهم وللحجزة القرآنية بالضباب في أوروبا من صنعه هولاء من صنع الانسان ، وكأنه سبحانه يقول لهم : أنا قادر أن أبعث عليكم عذابا بنفس الدخان وأنشره بينكم فهل تكون في يوم أو بعض يوم ، لقد شرحتم الجثث التي أمانتها دخاني ، فهل وجدتم فيها أثرا غير دخاني أنا « وما أرينم من العلم إلا قليلا » إن الضباب الهني أهلك النفوس انذارا للأمة كلها بالهلاك عاجلا أو آجلا اذا لم تقطع عن الشر ومصدق للنبوة واستجمال بالآيات التي ستظهر قبيل قيام الساعة ، فكان العنابة الالهية أظهرت هذا لتدل المسلمين على أن ما في كتابكم من الدخان هذا نموذج وعنوانه ، فكتابكم صدق وحق ، ولكن ليس معنى هذا انكم تكونون جهلاء فلا بد من التعلم والجد وبجراحة الأمم حتى تفوزوا في الدنيا والآخرة . والى هنا تم الكلام على اللطيفة الثانية والحمد لله رب العالمين

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعين

هذه اللطيفة فيها جوهرتان

الجوهرة الأولى : محاوره سقراط مع أرسطو ديموس

علم سقراط من أرسطو ديموس انه لا يقرب القرابين ويحقر الامور الدينية ويسخر من بعثي بالعبادة فقال له : أفي الناس من يججيك براعته في الصنعة ؟ فقال نعم يسمى الشعراء والمصورين من كان منهم أربع من غيره فقال سقراط : أجماعندك أرفع شأننا ؟ أم يصنع التماثيل العارية عن الحركة والعقل ؟ أم من يصور الأشباح الحية المتحركة ؟ فقال من يصنع الصور الحية المتحركة اللهم إلا اذا كانت تلك الصور من عمل المصادفة والاتفاق لا من عمل العقل . قال سقراط : اذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها وأشياء أخرى بينة المقصد والمنفعة فما قولك في تلك الأشياء ما هي عندك من فعل العقل . وما هي من فعل الاتقان ؟ قال لاشك ان ما يظهر قصده ومنفعته من فعل العقل . قال سقراط : أوليس ترى أن صانع الانسان في أول نشأته جعل له الآلات والحس لما في تلك الآلات من المنفعة الظاهرة فأعطاء البصر والأذنين ليصروا يسمع ما يكون لعبه ناضعا ، وما فائدة الروائح لو لم يكن لنا الخياشيم ، وكيف نذكر الطعام ، ونفرق بين الحلو والمر والمزلول لم يكن لنا لسان نذوق به ، ان بصرنا معرض للآفات ، أوليس ترى كيف أعتقت القدرة الإلهية بذلك جعلت

الأبصار له كالأبواب لفتح ما يصبب البصر وجمعت الأشفار كاللناخل لتقبها من أضرار الرياح فذا قولك في آلة السمع وهي تقبل جميع الأصوات ولا تملئ أبدا ، أما رأيت الحيوان كيف ربت أسنانها المقدمة وأعدت لقطع الأشياء فتلقبها الى الأضراس لتدقها دقا ، فاذا تأملت في ترتيب ذلك أيمن لك أن تشك هل هي من فضل الاتفاق أو العقل ؟ قال أرسطو ديموس : نعم اذا تفكرنا في ذلك لانك في أنها من فعل صانع حكيم كثير العناية بمصنوعاته . قال سقراط : اعتبر ماجبل عليه الذكور من حب التناسل وفي الاناث من الحنين الى بنها ، وهو مفروس في كل حيوان من الشوق الى الحياة ، والنفور من الموت ، أليس ذلك من عناية صانع قد أراد بقاء مصنوعاته ، فاذا تحققت وجود العقل فيك فكيف تظن ألا وجود للعقل فيما هو خارج عنك مع انك اذا تفكرت في الأرض واتساعها وقت ذلك بجسدك فقد تحققت أنه ليس لك من الأرض إلا أخس جزء وأقله وكذلك الرطوبة التي منها تركيب جسدك فانها ليست من مجموع الرطوبة إلا أحقر جزء وكذلك بقية ما في جسدك فكيف تظن انك منفرد تستبد بالعقل دون بقية العالم على سعته ورحبه ، وأن هذه المصنوعات التي لا تدخل تحت الحصر ، وهذا النظام الغريب الحاصل فيها إنما نشأ عن عدم العقل قال لا والله وإنما لا أرى أصحاب هذه العجائب كما شاهد أصحاب التماثيل والصور المصنوعة في عالمنا هذا . قال سقراط : انك لا ترى نفسك المدبرة لبندك ، فعلى هذا كان ينبغي لك أن تقول ان أفعالك صادية عن اتفاق ومصادفة لاعن عقل . قال اني لا أستصغر اللاهوت وإنما أراها تجل عن أن تكون محتاجة لعبادتي . قال سقراط : فاذا كانت لا تجل عن العناية بك كان من الواجب أن تحترمها . ثم قال : اعلم أيها الحبيب أن نفسك تدبر جسدك ما دامت مقارنة إياه ، فعليك أن تعتقد أن الحكمة الموجودة في العالم تدبر كل شيء كما شئت . أنتظن أن بصرك يقدر على ادراك ما بعد عنك على مسافة بعيدة ، وأن بصرا الإله لا يقدر على أن يحيط بجميع ما في العوالم . انتهى ملخصا

وإنما نقلت هذه المحاوره لأنها من أحسن ما قاله الناس في نظام هذه الدنيا وعناية الله بها وهو معنى قوله تعالى : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لالعبين » . فالمحاوره تبين بالعقل وجود الله تعالى وعنايته بالخلوقات . ثم ان سقراط استدلت على بقاء النفس بأدلة في المحاوره التي بينه وبين فيثون في بقاء النفس بعد الموت وهالك ملخصا منها :

قال سيبس : ماهي العلة فيما يقوله الناس ، انه لا يسوغ قتل المرء نفسه ؟ هذا ما كان يقوله فيلايوس وغيره ، ولكن لم أظفر من أحد بعله شافية في ذلك ، قال سقراط : طب نفسا ، لعلك ترشد اليوم الى ما تطلبه بل ولعلك تقضى العجب بما أقوله وهو انه يجب على كل امرئ أن يعيش وان كان عن الموت خبير له من الحياة ، ألا تستغرب انه لا يجوز لمن يؤثر الموت على الحياة أن يتخلص منها بنفسه ، وانه من الواجب عليه أن ينتظر من يخاضه منها . فقال سيبس : الله أعلم على عادة بلاده . قال سقراط : هذا الرأي مخالف للعقل في ظاهره ، ومع ذلك فله علة معقولة ، نعم ان ما يقال عند تعليمنا أسرار العبادة : « ان الانسان كالجندي المنسوب لحراسة لا يسوغ له أن يتركه بدون إذن » فهو صعب الفهم ويتجاوز قدرتنا . فالأحسن أن يقال « إن الملائكة لهم عناية بالنفس ، وأن البشر متاع للملائكة وملئكة » ، ألا ترى هذا حقا يا قابس ؟ فقال قابس نعم . قال سقراط : لو أن بعض رفيقك قتل نفسه من غير انك لفضبت عليه ولعاقبته لو كان من الممكن ولهذا السبب فقد يسوغ القول بأنه لا يجوز للانسان أن يقتل نفسه ، وينبغي له أن ينتظر الاذن بالخروج من الحياة مثل ما أتاني اليوم . قال قابس : وهذا لا يبعد عندي أيضا ، ولكن اذا ثبت عناية الملائكة بالبشر وأن البشر من رهبهم ومتاعه ، كيف تقول ان الفيلسوف يميل الى الموت بارادته ؟ وكيف يعقل أن يجب الفيلسوف الخروج من ولاية الملائكة وترك هذه الحياة اذا تقررت عنده أن أفضل الولاء بصرفون عنايتهم اليه

مادام حيا ، أيقظ انه يدبر نفسه أحسن مما يدبرون ، نعم ان السفيه قد يحاول الفرار من ربه بكل وسيلة
 ولا يفهم انه لولا زعم ما هو أفضل منه لكان خيرا له ، لكن العاقل يريد أن يبقى دائما في ولاية من هو أفضل
 منه ، ولذلك فاني أقول بأسقراط نقيض ما تقول أنت ، فأقر بأن العاقل يشق عليه الموت ، فلا يسر بالموت
 إلا المجنون . فقال سقراط : ما هو رأيك في الموت ؟ أليس هو فراق الروح من البدن بحيث يصبر الروح وحده
 الى جهة والبدن وحده الى جهة أخرى ، أليس هذا ما يدعى الموت . قال سيميئاس : وهو كذلك . قال سقراط :
 فهل ترى انه يناسب الفيلسوف أن يحرص على ما يقال له الملاذ مثل المطاعم والمشرب وغيره من اللذات
 التابعة للبدن ، فيكون حرصه مثلا على الملابس الفاخرة ، والنعال المزخرفة ، وباقي ما يزين به البدن ، هل
 ترى انه يعظم أمرها ، أو انه يحتقرها إلا اذا أوجتته الضرورة الى استعمالها . قال سيميئاس : أرى أن
 الفيلسوف الحقيقي لا يدمر إلا احتقار كل ذلك . قال سقراط : فانك ترى إذن أن اجتهاد الفيلسوف إنما قصده
 ليس البدن ، وأن يفرغ جهده في التباعد عنه قدر إمكانه ليتفرغ لمصالح نفسه دون غيرها ، وعلى ذلك فإن
 الفيلسوف يختص دون غيره من البشر باجتهاده في الفصل بين نفسه وبدنه والفرق بينهما . قال سيميئاس :
 وذلك ظاهر ، إلا ان أغلب الناس يرون أن من لم يلد مثل ما ذكرته ولا يستعمله فهو ممن لا يحسن التصرف
 في حياته ، وانه أقرب الى الموتى منه للأشياء . قال سقراط : وهذا حق . فإذا تقول في اكتساب العلم ؟ هل
 ترى أن البدن بما يعوقه ، أو انه يعين عليه ، هل ترى أن البصر والسمع مثلا مما يدرك به الحق اليقين ، أم
 للحال كما قال الشعراء اما لا نسمع ولا نبصر شيئا كما هو في الحقيقة ، فإذا لم يثبت شيء مما ندركه بهاتين الحاستين
 لم يثبت شيء مما ندركه بالحواس الأخرى ، لأنها تنقص عنها قوة وأدراكا ، وعلى هذا اذا سألتنا عن الوقت
 الذي ندرك فيه الروح الحق لا يقال انها تجد الحق مادامت مشاركة للبدن ، لأننا نرى عيانا أن البدن يزيغها عن
 الطريق الحق ويملؤها أوهاما ، فينبغي أن يقال : « ان الروح لا يدرك الحق إلا بالفكر » ونرى أن الفكر
 أقوى ما يكون اذا لم يشوشه البصر ولا السمع ولا الأمل ولا اللذة ، فالحاز في نفسه وفارق البدن مفارقة تامة
 وتعلق بما هو موجود ليعلمه . قال سيميئاس نعم ما قلت . قال سقراط : أوليس تحتقر الروح البدن في قتل
 تلك الأوقات وتفرد منه ، وتحاول في أن تفرد بنفسها . قال سيميئاس : اني أرى ذلك أيضا . قال سقراط :
 فإذا تقول في بعض الأشياء كالعدل مثلا والخير والجمال ، هل تقول انها موجودة أم لا ؟ قال سيميئاس :
 لا شك في وجودها . قال سقراط : هل رأيتها ببصرك هل أدركت بحاسة من حاساتك الأخرى الصحة والعظم
 والقوة وغير ذلك مما هو جوهر الأشياء أي ماهيتها ، هل تعلم حقيقة ذلك بواسطة البدن ، أو ليس من الثابت
 أن ذلك إنما يدرك أتم ادراك اذا نهى الانسان لأن يدركه بالعقل وحده ، وانه يبلغ في ذلك غاية البيان اذا
 جعل كل شيء نصب بصيرته من غير أن يستعين بالبصر وغيره من الحواس البدنية واستعمل فكره صافيا
 من غير شائبة شيء دونه خالوا بأن يدرك جوهر الأشياء الصافي الحقيقي دون مشاركة العينين والأذنين منفكا
 عن بدنه انفسكا كما تماما إذ لا يحصل له من مشاركته بالبدن إلا انشويش وعدم وجدان الحق ، فأقول : انه
 اذا قدر أحد على ادراك جواهر الأشياء فلا يقدر عليه إلا مثل من ذكرته الآن .

ثبت انه اذا أردنا أن نعلم شيئا حق المعرفة فلا بد من الانفصال عن البدن حتى تفرد النفس بالنظر فيها
 قصدنا معرفة فلانال المعرفة التي صرحنا بحجتها إلا عند ذلك أي بعد موتنا ومفارقة الحياة ، وهذا مما يؤيده
 العقل أيضا . فانه لما بين انه من المستحيل أن نعلم شيئا صافيا مادامنا في حبة البدن لا يتخلوا الأمر من حالين
 إما اننا نعلم الحق أبدا ، وإما اننا نعلمه بعد الموت لأن الروح إذا كان يكون مالكا لنفسه حوا عما يعوقه الآن
 في دماغنا في قيد الحياة لا نتقرب من الحق إلا بقدر ما نقباعد عن البدن ونبتك عن الخلطة معه إلا بتدريج وتدعو
 به الحاجة ولا نتجر له أن يعدونا بما فيه من الدس طاء وشق به أنفسنا صافية من قذوراته الى أن نخلصنا

الله ، فإذا تخلصنا من سفاهة البدن يشبه أن يكون كلامنا إذن مع من نخلص مثلنا فنعلم بنفسنا جوهر الأشياء الصافي وهو أصله ما يدعى الحق ، هذا ما يقوله الفلاسفة فيما بينهم على ما أراه . فإذا كان الأمر كما ذكر فإن كل من هو بصدد السفر حيث أنا متوجه كان له أن يرجو ادراك الحق الذي أجهدنا طلبه في هذه الحياة وعلى ذلك فإن هذا السفر الذي أمرني به الإله قد ملائني رجاء ، وعلى مثل هذا يكون كل من اعتقد من نفسه أنها مستعدة لمعرفة الحق أى أنها بلغت من الصفاء والقوة القدر اللازم ، وهذا الصفاء لا يكون إلا بانفصال النفس عن البدن وتعودها على الانفراد بنفسها دون مشاركة قيدها البدني ، وإذا كان الموت ليس إلا هذا الفراق بين النفس والبدن ، أليس من الصواب أن يقال : إن الفيلسوف لا شغل له إلا هذا الفراق فإذا سى عمره كله لنيل هذا الغرض ثم تأسف وغضب عند اقتراب الموت أليس ذلك من المضحك ؟ قال سيمياس : نعم ما قلت . انتهى كلام أفلاطون وهو الدليل الأول على أن الموت لا يخاف منه من تفرغ للفلسفة إلا ان لمعترض أن يقول : ما الدليل على بقاء النفس بعد الموت ، فإذا لم يكن لنا ثبوت ببقائها فأنى لفيلسوف ما كان يرجوه من ادراك الحق عند مفارقة بدنه ، فأخذ سقراط في الرد على هذا الاعتراض وبيان بقاء النفس بعد موتها ، فأنى بأدلة : أولها أنا شاهدنا في العالم الضد إنما يتولد عن ضده ، فالجيل مثلا ينشأ عن القبيح ، والعدل عن الجور ، واليقظة من النوم ، والنوم من اليقظة ، والقوة من الضعف ، وبالعكس فالأشياء تستحيل بعضها الى بعض ، ثم ترجع على صفة الدائرة الى ما كانت عليه ، والحياة والموت والوجود والعدم تقيضان ، فالحياة تنشأ عن العدم ، والموت ينشأ عن الحياة ، وعلى ذلك فيلزم أن تنشأ الحياة من الموت إذ لا بد أن يكون للموت ما يناقضه والافتقار تخالف الطبيعة قاعدتها المطردة في جميع الأشياء : ثانيها ما يستدل به من طبيعة العلم ، وذلك ان العلم إنما هو تذكر النفس ما كانت قد علمته في حياة سابقة ومصداقه ان أجهل الناس اذا سئل سؤالاً منتظماً عن مبادئ الهندسة مثلا ، وانتقل به السؤال من أصل الى أصل شيئاً فشيئاً على الترتيب فقد يجد من نفسه مبادئ الهندسة ومبادئ كل علم ، وهذا لا يمكن إلا اذا كانت تلك الاصول منطبعة في فطرته ، موجودة عنده قبل ولادته ، وهناك دليل آخر من هذا النوع ، وهو اننا لو افترضنا علماً سابقاً موجوداً في ذهننا لما تمكنا من فهم شيء من الموجودات فانا اذا قابلنا مثلاً شيئاً بشيء آخر ما أمكن لنا أن نقول انه مساو أو غير مساو لولم يكن في ذهننا قبل كل مقابلة معنى المساواة المطلقة التي لم نستفدها من الأشياء المحسوسة إذ لا شيء منها يتحقق فيه المساواة إلا بنوع تقرب ومساحة فوجب أن تكون معنى المساواة مرتسمة في ذهننا حتى نحكم على الأشياء انها متساوية بعضها ببعض أو غير متساوية ، ومثل هذا يقال في باقي ما يحكم به فكرنا كالجمال والعدل والوجود وغيره ، فإن كل ذلك يستدعي معرفة تلك المعاني قبل الحكم بها فيلزم منه أن العقل البشري إنما اكتسب هذه المعرفة بمشاهدة تلك المعاني صافية غير مشوبة بالمادة قبل ورودها الى هذا العالم

ألا ان لقائل أن يقول هذا الدليل قديكفي لبيان وجود النفس قبل هذه الحياة الدنيا ، فما الدليل على بقائها بعد الموت ؟ فأجاب عدة أجوبة أولها : ان النفس جوهر غير مرن فيلزم منه انه على غير طبيعة الأجسام لأن من طبيعة الجسم أن يكون مدركباً بأحدى الحواس واذا كانت على غير طبيعة الجسم فهي إذن غير مدركة لأن التركيب من طبيعة الأجسام ، واذا كانت بسيطة فانها غير قابلة للاعلال لأن الاعلال يعترى المركب الى المواد التي منها تركبت ، فاذا كانت النفس بسيطة فلا يتصور اعلالها . الثاني : ان النفس هي الأمرة والبدن هو المأمور فن طبيعة الامور الالهية أن تكون أمرة ومتصرفة ، ومن طبيعة الامور السفلية أن تكون مأمورة فالنفس إذن من الامور الالهية وهو غير قابل للزوال ، فهي اذا بقيت على صفاتها وفطرتها من غير أن تشارك البدن في أدناسه فانها تلتحق بعد الموت بوجود مثلها فتبقى معه سعيدة مبهجة محررة من أوهاها وأخوافها

وأهوائها وكل ما كان يسخرها ويشوشها إذ كانت في قيد الحياة ، وإذا تراكمت البدن ملوثة مدنسة غير معتقدة من الوجود إلا ما يؤكل ويشرب ويدرك بالحس فلا يسعها إلا أن ترجع الى الحياة فتتعلق بأبدان مشاكلة لطبيعتها ، فمن جعل بطنه إله يلتحق بأجسام حديد أو خنازير ، ومن كان دأبه التعدي والظلم والعدوان يتعلق بأجسام الذئب والبوازي وغيرها من الحيوانات الضارية ، ومن اعتاد الخبز والصلاح ، لكن بقوة الطبيعة والملسكة دون أن يشاركها الفلسفة والفكر فقد يصير من النحل والنمل وغيره من الحيوانات النافعة ، أو يتعلق بأبدان الصالحين من الرجال ، وأما الالتحاق بالملائكة فلا يجوز إلا لمن ترك الحياة وهو على غاية من القوة والصفاء ، وهذا مختص بالفيلسوف الحقيقي دون غيره

قال أفلاطون : وقد سكت سقراط بعد هذا الكلام برهة وسكت أصحابه مفكرين ، ثم رجع سقراط لسؤالهم : هل ماسمعه منه يكفي في إثبات بقاء النفس بعد الموت ، أوفى الأقل في ترجيح هذا الرأي على غيره إذ هي الغاية القصوى التي يمكن ادراكها في هذه الحياة في مثل هذا الموضوع ، فاعترض عليه بعض التلامذة باعتراضين : الأول . لقائل أن يقول إن النفس للبدن كالألحان لآلات الموسيقى ، فإذا انكسرت الآلة وفسدت لم يبق للألحان وجود ، وهكذا يمكن أن يقال : إن النفس ماهي إلا نتيجة تكافؤ العناصر واعتدالها في المزاج الانساني ، فإذا فسد الاعتدال وتلاشى المزاج تفسد النفس لا محالة ، والاعتراض الثاني أن يقال : قد سلمنا بوجود النفس قبل هذه الحياة وانها أفضل من البدن وأقوى منه وانها تبقى بعد موته غير انه لا يترتب على ذلك بقاؤها على الدوام إذ قد يتأني انها تبقى بعد موت بدنها ، ثم بعد موت بدن ثان ، فتنتقل هكذا من بدن الى بدن مدة ، ثم تنفي بفناء أحد أبدانها كما يموت الانسان وهو قد أخلق الثوب بعد الثوب ، ثم يموت عن آخر ثوب قد أخلقه

فأجاب سقراط عن الاعتراض الأول بقوله : اذا سلمنا أن العلم والتعلم إنما هو نذ كر النفس ما كانت قد علمته في حياة سابقة ، فلا يسوغ أن يقال ان النفس نتيجة اعتدال المزاج إذ لو كان كذلك لماسبق وجودها وجود المزاج ، فكيف تنذكر معلوماتها في حياة سابقة ، فإذا وجب الاعتراف بأن العلم لا يتصور إلا بوجود هذه المعلومات السابقة في النفس لزم منه أن لا تكون النفس نتيجة المزاج . وهناك جواب آخر وهو انه لو كانت النفس نتيجة المزاج لكانت تابعة للمزاج ولا تخالفه في شيء بل تكون مسخرة له ، ونجد الأمر على خلاف ذلك في الواقع إذ قد نرى النفس تنهى البدن عن أشياء ، وتأمره بأشياء ، وتصرف فيه بوجود مختلفة ، وهذا يدل على انها مغايرة للبدن مستقلة عنه ، وأن جوهرها أعلى وأفضل من طبيعة البدن إذ لو كانت تابعة للمزاج لما كانت تفارقه في شيء ، ولما كانت النفس تختلف عن النفس إذ لا فرق بين الألحان والألحان إلا في القوة والضعف لا من حيث انها ألحان ، ونحن نشاهد بين النفس وأخرى التفاوت العظيم . أما الاعتراض الثاني فجوابه أن الأشياء المحسوسة الفانية لا يتصور قيامها إلا بوضع معان غير محسوسة أزلية كاملة الوجود ، وأن هذه المعاني مادامت هي هي لا تقبل شيئا مما يتأقضاها ومثل ذلك فإن معنى العدل لا يقبل شيئا من الجور والمساواة لا يداخلها شيء من التفاوت ، والفرد مادام على جوهره الفرد لا يقبل من الزوجية شيئا والعكس بالعكس ، والقول في النفس على مثل القول في المعاني سواء بسواء إذ قد تقرر أن النفس جوهر بسيط قائم بنفسه بخانس للمعاني فيكون حكمه مثل حكم المعاني من عدم قبول الفساد والتقيض ، ولا شك أن النفس أصل للحياة في كل حي فهي إذن حية من ذاتها فهي إذن لا تقبل تقيضا أي الموت مادامت على جوهرها وهو عين الحياة ، فكما أن الفرد مثلا لا يكون زوجا ، ولا العدل جورا ما بقيا على حاطما ، كذلك النفس لا تقبل الموت ولا يدخلها الفناء فهي إذن أزلية ، ثم اذا كان الموت نهاية كل شيء كان فيها فائدة عظيمة للشرب والظالم فانه يستريح بالموت من نفسه ، ومن بدنه ، ومن شره ، ومن عواقب شره دفعة واحدة ،

وهذا مما لا يرضيه العقل ولا الانصاف ، فتعين أن نعتقد في النفس أنها إذا فارقت البدن فقد تحمل معها ما كانت عليه من الأوصاف وأن عاقبتها تكون في الحياة القابلة على نسبة تلك الأوصاف أن خيرا نغير وإن شرا فشر فمن ترك وهو في قيد الحياة ملاذ البدن ومتاع الدنيا واجتنبها كما يجتنب ما لا يعنى أو يضر ولم يطلب من اللذة إلا ما يحصل عن العلم ، وزين ضميره بما يوانيه من الزينة كاللغة والعدل والبروة والحرية والصدق فله أن يتربح وقت السفر من غير اضطراب . انتهى الكلام على الجوهرة الأولى

يقول المؤلف : الأدلة جيلة ، ولكننا نحالف سقراط في مسألة التناسخ وانتقال أرواح الناس الى حيوانات فهذه مردودة ردا بشدة ، وأيضا الناس ليسوا ملكا للملائكة بل ملكا لله وحده اه

الجوهرة الثانية

حكاية

قد جاء في الجرائد الفرجية منذ سنين أن التلاميذ في إحدى السكليات بانسكترا ليلة سمعوا ضجة عظيمة في المدرسة ، ذلك انهم أزعجتهم طلقة نارية ، فهرولوا الى مكان الحادثة ، فأروا نلميذا يهوديا مضرجا بدمه ، وبجانبه الآلة التي ضرب نفسه بها وهي (الريفرفر) ووجدوا ورقة مكتوبة بجانبه وفيها : « أنا الذي قتلت نفسي لأنني في هذا اليوم قرأ علينا الاستاذ قول أرسطاطاليس : إن الانسان لا سعادة له إلا بعد الموت ، فهاأنذا قتلت نفسي لأصل الى السعادة . »

وقال أصحاب هذا التلميذ : إنه قال عند المساء ، اني سأقتل نفسي الليلة ، فضحك منه أصحابه ، وقالوا : لماذا ؟ قال لأصل الى السعادة ، فن أرسطاطاليس يقول : « إن الانسان مادام في البدن فان البدن يعوقه عن سعادته ، فزاد ضحكهم ، وظنوا انه يلهو ويلعب ، وقد تم ما قصده » اه

يقول المؤلف : وهذا هو الذي في هذه المقالة

خاتمة المقال

في معجزات القرآن ، في سورة الدخان

تبين لك في هذه السورة أن الدخان رآه أهل مكة ، وأنذروا البطشة الكبرى ، وقد تم ذلك يوم بدر والمسلمون اليوم رأوا الدخان في الحرب الكبرى ، وأنذروا البطشة الكبرى ، والبطشة الكبرى آتية لا ريب فيها في الدنيا أوفي الآخرة ، والأقرب أن تكون في الدارين ، فكما كانت البطشة الكبرى يوم بدر ولم تمنع من بطشة القيامة فهكذا ستكون البطشة الكبرى في الدنيا ولا تمنع من بطشة يوم القيامة ، والبطشة الكبرى يوم بدر كانت على الكافرين ، والبطشة الكبرى المستقبلة ستكون على من يعجلون نظام الله تعالى (وبعبارة أخرى) انها ستكون على المعاصي السلية المتقدم ذكرها ، فن تركوا العالم والمعارف والصناعات والمواهب التي أعدها الله في الأرض فانهم لاحالة تصيبهم البطشة الكبرى فليكن المسلمون على حذر ، إن الله ما ذكر البطشة الكبرى إلا بعد ما قال في سور سبأ : « سأوريكم آياتي فلا تستعجلون » وقال : « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها الخ »

فإنه اليوم قد أبان الحقائق للشعوب ، والأمم الاسلامية تنظر ولا تعمل ، فالبطشة الكبرى موجهة لهم ولأمثالهم ممن يتعاملون عن الحكمة والعلم ولم يأخذوا الحيطة والحذر ، إن في تسمية السورة باسم الدخان أمرا عجيبا ، وكيف تسمى السورة باسمه ، وينذر الله المسلمين به ، وينذرهم بطشته الكبرى ، إن هذا من أكبر المعجزات في هذا الزمان ، فقد أرى الله المسلمين الآيات ، وأظهر لهم المعجزات ، وأبان لهم المحجبات ، ولم ينذر

حجة إلا أدامها ، ولا آية إلا أبرزها ، فان نام المسلمون بعد الآن جاءتهم البطشة الكبرى فكانوا لها ناصعين ومن فكر وتدبر منهم لم يصبهم من الدخان المزمع حصوله إلا كهيشة الزكام ، فليستعد المسلمون للعلم وليحذروا النوم والكسل ، وقد أُنذرت وحذرت والله هوالوليّ الحميد تمت سورة الدخان يوم الجمعة ١ مايو سنة ١٩٢٥

تذييل لسورة الدخان

لقد أصبحت مسألة الدخان من المسائل المعتادة في العالم الانساني ، ولما ختمت تفسير السورة يوم الجمعة في التاريخ المتقدم اطلعت يوم السبت الموافق ٢ مايو سنة ١٩٢٥ م على مقال تحت عنوان « آراء في وادي النيل وسكانه » جاء في التفارقات العمومية فاستمرت تنله ليعلم قاري هذا التفسير أن ذكر الدخان في القرآن وتسمية السورة باسمه من أكبر معجزات القرآن ، في هذا الزمان ، وهذا نصه :

نشرت جريدة مفنستر جارديان اليوم مقالا للسترانسوم وصف فيه سياحته من القاهرة الى الشلال فقال ما يأتي : « إن مصر ليست بلادا بل نهرا فتشق الأرض الضيقة على ضفتي النهر هي الصالحة للسكنى وهي تتوقف بكل ما فيها من عوامل الحياة على مجرى ماء واحد ، ففي رسع من يسافر في النهر أن يرى الصحراء وراء الممور على الجانبين ، واذا وضع مدفع على أحد الجانبين فإنه يسيطر على البلاد كلها . الى أن قال :

وتهبّ الرياح الشمالية على طول ذلك الوادي الضيق مدة شهور عديدة ، فاستعمال الغازات السامة على الطريقة الحديثة يكفي وحده بدون صعوبة لاهلاك جميع الأهالي ، وتقع النتيجة نفسها اذا أمكن حجب النهر أو تحويل مجراه . انتهى المقصود منه

فانظر كيف أصبح الكلام على الغازات السامة أمرا عاديا ، وأصبح الدخان بمثابة السيف والمدفع ، فكما يقال سيف ومدفع يقال غازات سامة أو سامة ، وهو الذي أعلنه القرآن منذ ألف وثلثمائة سنة ، والعالم الانساني اليوم قادم على أمور هائلة ، فلما فناء عظيم لقوم واذلال لآخرين ، واما أن يكون الناس قادمين على زمن انقلاب الى حال أجمل مما نحن فيه لأن الشيء متى جاوز حده القلب الى ضده . وبهذا تمّ تفسير « سورة الدخان » والحمد لله رب العالمين



تفسير سورة الجاثية

(هي مكية)

إلا قوله تعالى : وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون . فمدنية

آياتها ٣٧ - نزلت بعد الدخان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * إن في السموات والأرض
 لايات للمؤمنين * وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون * وأخلاف
 الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف
 الرياح آيات لقوم يعقلون * تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله
 وآياته يؤمنون * ويل لكل أفاك أثيم * يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا
 كأن لم يسمها فبشره بعذاب أليم * وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم
 عذاب مهين * من ورأهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله
 أولياء ولهم عذاب عظيم * هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز
 أليم * الله الذي سفخر لكم البحر ليجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم
 تشكرون * وسفخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لايات
 لقوم يتفكرون * قل للذين آمنوا يفرحوا بالَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا
 كَانُوا يَكْسِبُونَ * من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون *
 ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة وورقناهم من الطيبات وفضلناهم
 على العالمين * وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا
 بينهم إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون * ثم جعلناك على شريعة
 من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون * إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا
 وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين * هذا بصائر للناس وهدى ورحمة

لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى
 كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ
 وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ *
 وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ
 هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَتَّبِعْتُمَا كَمَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبِعُوا بَنِي آدَمَ
 إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلِ اللَّهُ يُخَيِّبُكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ
 فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ
 يُومِئِدُ بِمِخْرَافٍ الْمُبْطِلُونَ * وَتَرَىٰ كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ
 مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ
 تَعْمَلُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
 الْمُبِينُ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا
 مُجْرِمِينَ * وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ
 نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ * وَبَدَّ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَخَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
 يَسْتَهْزِءُونَ * وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَأُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَأَكُمْ النَّارُ وَمَالِكُمْ
 مِنَ نَاصِرِينَ * ذَلِكَ بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ
 لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ * وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *

هذه السورة قسمان

(القسم الأول) في تفسير البسملة

(القسم الثاني) في تفسير السورة كلها

القسم الأول في تفسير البسملة

في يومى الثلاثاء والأربعاء ١٧ و ١٨ من شهر مارس سنة ١٩٣١ م بحجلى لى يوم الثلاثاء هذا الحسم

الانسان بهيئة عجيبية ، وأخذت أدهش وأعجب من نظامه البديع ، أرائى أفق على قدمي ، أما اليدين فانهما مطلقتان ، ولفواصل الأصابع ، وابداع الأنامل والبنان أثر عظيم في الصناعة والزراعة والسياسة والتجارة ، ولوم تسكن أيدينا معاشر بني آدم على هذا المتوال وبهذه الهيئة لم نحسن عملا من أعمالنا التي برعنا فيها ، يداي حوتان ورجلاي لاصقتان بالأرض عند الوقوف ، دواب الأرض وبهائها وأنعامها وزواحفها لم تقط هذه الزوية ، وإذا كانت يداي مطلقتين فلاجرم انطلق معهما عقلي فأدرك بعض الحقائق والمعارف التي تصوغها اليدين ، فلم يك للحصان ولا للتعاب اللذين شغلت أيديهما بحمل جثائهما ليجريا فوق الأرض من الفكر ما به يصنعان ما يصنع الانسان ، لاعقل ولا فكير إلا حيث يمكن العمل ، ولو أعطيا عقلا يقدران به على صنع الملابس والتصوير في مدننا العظيمة وهما باقيا نبحاطهما لم تتغير أيديهما لكان ذلك خطلا في النظام ، إذن العقل لا يعطى إلا على قدر الحاجة ، وكل ما لم يعط من الأيدي ما أعطى الانسان لا ينال من الفكر والذكاء المناسب لصنع اليدين ما أعطيه الانسان

ثم نظرت اذا الطير في جوّ السماء تطير بأجنحتها ، ورأيت نهر النيل أماي يجري فيه السمك ، ورجعت الى الانسان فوجدته لم يتجاوز بصنع يديه من الأعمال ما به ارتفع عن الطير في الجوّ ، أو انحط عن السمك في الماء ، الانسان محكوم عليه بالحبس في هذه الأرض ، هومع هذه الحرّية مسجون سجننا مؤقتا ، وهذا السجن نهايته الموت ، الأرض سجن سجن فيه الحيوان والنبات والانسان ، النبات لاصق بالأرض والحيوان منجذب اليها ، والانسان هو الذي ارتقى بعقله ، وكل ما قصمه بطبعه ناله بعقله وضع يده ، فهاهوذا اكتسى جلايب من صنع يديه بدل الأشعار والأوبر ، وارتقى في الجوّ كالطيور بالطيارات ، وجرى في البحر والنهر كالسمك وذلك بالعوامات ، الانسان لم يرتق الى الأفلاك ، ولم يصل الى القمر أو المريخ أو المشتري فضلا عن السهك ، ولم يحرق الأرض فيغوص في قاعها ويصل الى مركزها محترقا قشرتها وما تحت قشرتها ، إذن صناعته لم ترتفع به فوق الطيور ، ولم تنزل به تحت السمك

الانسان رقيه الذي وصل اليه في الأرض لم يزل محدودا معدودا ، الانسان حرّ وهو عبد ، مختار وهو مجبور ، لا ينسى له أن يصعد الى الجوزاء فيعرف أخبارها ، ولأن يصل الى باطن الأرض فيدرس علومها ، وأى سجن أشد من هذا ، وليس سجنه قاصرا على هذا ، بل هو مسجون في طباعه وأخلاقه وآرائه وأحواله ونظام عيشته ، وعودته ، وتقليده لآبائه وأسائذته ، وليس له خروج من ربة التقليد إلا بقوة تغلب على مادته تضارع قوة الطير في الجوّ إذ تعالى عن الجاذبية التي تاصقه بالأرض ، فأخذ يضرب هواء الجوّ بجناحيه فهرب الهواء الى الورا ، ثم بكرّ الهواء راجعا الى الأمام فيضرب الجناح ، وبهذا يكون الطيران ، فهذه العملية التي قام بها الطير جعلته بعيدا عن الأرض غير لاصق بها ، وهذه جعلت درسا للانسان ، وعلى هذه الشريطة صنع الطيارات فطار بها ، والى هنا وقفت أعمال الانسان من حيث الارتفاع في وقتنا الحاضر ، نعم الانسان محبوس محدود الارتفاع ، محدود السياحة في باطن الأرض ، ولكنه من جهة أخرى له سياحة عقلية ، هو يدرك الأفلاك بعقله ، ويدرسها بفكره ، وبالعقل وحده طار في عوالم الأفلاك ، وغاص في باطن الأرض وعرف أبعادها وأطوارها ومساحاتها ودرس ما أمجج كل حيوان على هذه الأرض ، فإذا كان الانسان في سجن من حيث جسمه ، فهو في حرّية من حيث عقله

الانسان مجبور مختار محبوس مطلق

لم يحبس الانسان في الأرض لنظامه ولا لإهائته . كلا . ولكنه حبس ليدرس ، وبقى ليتعلم ، ولأنه أطلق سراحه وقيل له طر كما يطير الطاووس ، وخلق في جوّ السماء ، وتنقل في الكواكب ، وابتهج بمعالها

كما تبتهج التحلات الطائرات في الحدائق بجمال الأزهار .

أقول : لو أنه قيل له ذلك لخرج من الحياة بغير طائل لأنه لم يدرك كوكبا واحدا فضلا عن كواكب ، بل يعيش ويموت وهو لا علم له ولا حكمة وليس له كتاب منبر ، ويكون مثل الانسان إذ ذاك كمثل الذين يغفون ويروحون في دور السينا (الصورة المتحركة) يقضون أوقاتهم فيها لهوا ولعبا ثم يرجعون ولا هم بمقلون .
لو أن الانسان كان هذا شأنه لم يكن انسانا بل لم يكن إلا حشرات طائرات بين الكواكب كالخشرات الطائرات بين الأزهار .

تلك هي الحكمة في تباعد الكواكب واختلاف أضوائها وبعد الشقة بينها حتى يستقر كل جماعة في كوكبهم ويدرسوا نظامه ، ومتى كملت نفوسهم بحصول الملكات العلمية ، هنالك يصلحون لدراسة نظام باقي الكواكب ، فاذا تنحت الأرواح عن أجسامها وغادرت هذه الأرض بالموت طارت الى تلك الكواكب وهي عالة قادرة على التعقل والفهم ، وهناك تكون السعادة والسلام .

حبس الانسان في الأرض إذن رحمة

إذن ما ظهر لنا أنه شر هو في حقيقته خير ، فهنا أمران : جسم ظاهره شر وباطنه نعمة لأنه كان سببا في دراستنا هذه الأرض مدة حبسنا فيها مدة الحياة بما فعل لتغذيته وتقيته ومداواته ولباسه والمدافعة عنه بضال الأعداء والحساد ، وروح لها الاشراف على العوالم كلها ، فالروح خير والجسم يعين على خير الروح لأنه جعل لترقيتها ، جميع الأغلال التي تحيط بنا في هذه الحياة ، وأنواع الهوان والنذل . كل ذلك لرقى أرواحنا فاذا رأينا هذه الأجسام منجذبة نحو الأرض ، وهذه الشهوات الحيوانية تعذبنا كالمال والولد ، وأنواع الزينة والمتاع فآل ذلك لترقية الروح . إذن الضدان وهما الخير والشر أو الروح والجسم ما لهما الرحمة . وهذا معنى « بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » فالحب لهذه الرحمة المذكورة في هذه السورة . ثم اعجب لما خطر لي . فالذي خطر لي أن للانسان جسما وللانسان روحا . فبالجسم أصبح الانسان والحيوان أشبه بالمحبوسين في جهنم الذين قيل فيهم : « وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد سرايلهم من قطران وتغشى وجوههم النار »

أنا لست أقول ان الحيوان والانسان اليوم في جهنم . كلا . ولكني أقول ان هذه الأجسام الحيوانية لها شبه ضئيل من حيث طباعها بطباع أهل جهنم كما أن قول القائل : « فلان وجهه كاليد » ليس معناه انه مشله من كل وجه . والانسان خاصة نراه يلبس ملابس مصبوغة بمواد القطران المستخرجات من الفحم الحجري كما هو معروف وتقدم في هذا التفسير موضحا ، والحرارة والبرودة تزيدان وتنقصان وهما تغشيان وجوه الانسان والحيوان . ونرى أن الأمم العظيمة في وقتنا الحاضر أشبه بزبانية جهنم لأنهم قوم مجرمون يضحكون على ذقون الأمم الضعيفة الشرقية ويبيعون لهم المصنوعات الجليلة ويعمسونهم في النعيم وبيدقونهم العذاب ألوانا ويحتلون بلادهم . وقد تنبه الشرقيون اليوم لهذه المخازي . وأول من استيقظ لذلك أهل الهند واتبعهم العرب ومنهم أهل بلادى عند كتابة هذه المقالة . فهاهم أولاء أخذوا يقاطعون البضائع الأجنبية لأنها نذير الهون والشر والنذل .

وبالجملة ان الأجسام الانسانية يحيط بها الشقاء ، ومن الشقاء أن الدول الظالمة معذبات بظلمها لأن الشر يصيب فيها عادة وذلك يضعفها بعد حين . فالظلمة معذبة وقت ظلمها ، والظلمة ستلقى جزاءها في نفس الحياة بعد حين باستفحال الشر فيها . وهذه الشرور اللاحقات بالظالمين والمظلومين تتأججها البصائر والحكمة والعلم والصحة . فهذه دروس تعتبرها الأمم ويخرج بها رجال يذيعون العلم في أكتاف هذه الأرض في كل حين

والروح أدرك الانسان الحقائق حتى أشبه الملائكة الكرام ، وهذا ملخص ما تقدم ، أليس هذا هو معنى الرحمة في البسمة ؟ يا محبها ! شرّ وخيرهما يصبحان رحمة ، إذن الشرّ رحمة والخير رحمة ، الضدان رحمة ، أليس هذا به نعرف معنى ماورد في الصحيح « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله » ، وإذا كان القدر خيره وشره من الله فلم نقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، هلاقلنا بسم الله الرحمن المنتقم ، ولم نقول : الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ، ولم نقول : فلك الحمد على ما قضيت ؟ ولقد قلنا ان القضاء فيه الخير والشر ، ولاجرم أن الحمد لا يكون إلا على نعمة ، والشرّ في ظاهره ليس نعمة .

هذه بعض أسرار بسم الله الرحمن الرحيم ، فهو باحداث الخير رحيم ، وباحداث الشرّ والآلام يحافظ بهما على الخير كما حافظ على عقولنا ورباها بما حبس أجسامنا في الأرض وأحاطها بالتكاليف . كل ذلك يقوى الروح فتقوى على السير في العوالم الأخرى .

هذه هي الأسرار التي ألهمتها في هذا اليوم ، وهذه الأسرار ظهرت في قوله تعالى في أول السورة « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » ، فعزته ظهرت في قهرنا ببقائنا في الأجسام الأرضية وشرورها وحروبها ووذائها ، وحكمته ظهرت في ارتقاء أرواحنا بذلك السجن . ومن عجب أن السورة بدئت بالعزة والحكمة وختمت بهما ، ففي أولها « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » وفي آخرها « فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين * وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » . وهل افتتاحها واختتامها بالعزة والحكمة معا إلا ليقاظنا لدراسة هذه الدنيا ، لأننا إذا لم ندرسها نعيش أشبه بالمنافقين لأننا نقول : بسم الله الرحمن الرحيم مع ان النوع الانساني يعيش وهو في شقاء أمد الحياة ، فأين جسد الرحمة ؟ فيقول لله : أيها الانسان ، أنا عزيز وحكيم ، فقهرى لك مصحوب بالحكمة في تربيتك ، وأنت لن تعقل هذا إلا بالدراسة ، فادرس الأرضين وما عليها ، فبذلك تكون من الموقنين

واعلم أيها النكي أن أسماء الله عز وجل ليس يعرف معناها هذا الانسان إلا بدراسة هذه الدنيا ، وكيف نعرف تكرارات الترية ثلاث مرات في آخر هذه السورة إذ يقول : « فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين » مع ذكر الكبرياء والعزة والحكمة إلا بالدراسة الصحيحة ، فهو مربّ وذو كبرياء وهزّة مع الحكمة ، ثم كيف نفهم قوله : « إن في السموات والأرض لآيات للؤمنين * وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون » (ومعلوم أن الإيمان أقلّ من الإيقان فلم جعل الأول مع اجمال خلق السموات والأرض وجعل الثاني وهو اليقين الذي اليه تشدّ الرحال وهو الذي طلبه الخليل وناله كما تقدم في سورة الأنعام) مع تفصيل خلق الانسان والحيوان . كل ذلك إنما يعرف بالدراسة والجد . إن ما ذكرته الآن من أن حبس الانسان في الأرض وان كان ظاهره شرا هو في حقيقته خيرا من حيث انه يدرس هذه الدنيا ويتقن دراستها على قدر طاقته يمتّ بصلة الى آية « وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون » لأن البحث العام لا يورث اليقين ، فأما البحث الخاص والوقوف على الحقائق فهو الذي يورث اليقين ودراسة الانسان والحيوان تفصيلا أسهل من دراسة العوالم كلها

ومن عجب أن الأقوال في الصلاة تنجّه نحو هذه المعاني ، فالنظر أليس المصلي عند قيامه بحمد الله الذي يربّي العالمين ويرحمهم ويحاسبهم ويهديهم الصراط المستقيم ، وعند الرفع والاعتدال بحمده ملّ السموات وملّ الأرض وملّ ما بينهما وملّ ما يشاء من شيء . بعد . فأقوال المصلي في قيامه وفي رفعه من الركوع كلها اجمال لتفصيل فيه ، وهذا بالإيمان أنسب وهو أشبه بالآية هنا « ان في السموات والأرض لآيات للؤمنين » فمن ان قوله في ركوعه وسجوده (إذ يذكر العوالم العامة ويتجه الى الأحوال الخاصة الأرضية فيقول : « خضع لله سمعي وبصري ونفسي وعظمي وعصي وما استقلت به قدمي لله رب العالمين » في حال الركوع ، ويقول :

« سجد وجهي للذي خلقه وصوره وخلق سمعه وبصره الخ » في حال السجود) يرجع الى السراة المفصلة لأن تفصيل تشريح الانسان و يتبعه ماحوله من الحيوان هو الذي يورث اليقين .
 الله أكبر ، إن هذا من أعظم أسرار آية « واسجد واقرب » والحديث « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » ، الأثرى أن في السجود ذكر تشريح الانسان ، و باقتان دراسته هو وما يتصل به من علم الحيوان يكون اليقين ، وباليقين يكون الحب ، والحب هو أقصى سعادة الانسان ، انظر ما تقدم في سور كثيرة من اجماع العلماء أن اليقين والحب لا يكونان إلا بالدراسة التفصيلية . والآية هنا جعلت اليقين في دراسة خلقنا وخلق حيواننا . اللهم إن هذا عجب وأى عجب ، فجزته عز وجل بحبسه لنا في الأرض جعلتنا موقنين بالدراسة الخاصة ، ولولم يحبسنا لعشنا جهالا ، فالحمد لله على العلم والفهم والحكمة .

خواطرى يوم الأربعاء ١٨ مارس سنة ١٩٣١ في تفسير البسملة في سورة الجاثية

إن هذه الخواطر متمات لما تقدمها في يوم الثلاثاء ، ذلك أتى قد أصابني مرض خفيف ، وقد جرت عادتي أثناء هذا التفسير أن أعمل بما أكتبه فيه من علم الصحة ، ولقد تقدم فيه أن أطباء العصر الحاضر قد رأوا أن الانسانية كثيرة الاسراف في ملابسها وما كلفها ومشاربها وشهواتها ونصحوا الناس أن يلتبسوا الشفاء في ترك كثير مما تلبسوا به ، ومن ذلك أن يجعلوا أجسامهم معرضة للشمس بشروط ناصية تقدمت في (سورة يونس) في أولها ، وأنا قد عملت بهذه الشروط ، وصرت أجلس في الشمس عاريا بعد التدرج في ذلك (وذلك في الخلوات) للتدوير ، ففي يوم الأربعاء فعلت ذلك ، وفي أثناء هذه الجلسة أخذت أفكر في أمر هذا الانسان في الأرض ، وكيف كانت رحمة الشمس عامة ، وقد تعرض لها النبات والحيوان فكانت الصحة والقوة

أما الانسان فان أمره عجب اسرف في ملابسه وجعلها زينة له كما افتخر بالمال كل والمشارب وهو في كل ذلك يحفر قبره يسديه ويتجمل المرض والموت والفقر والذل ، ولقد عجبت لأمر هذا الانسان وملاوكه وأغنياته كيف شملت النغلة أكثرهم ، وعمت أغلبهم ، ذلك أنهم لا يكادون ينالون تلك النعم حتى يضعوا ما يضعه الصبيان والنساء فيتظاهرون بالزينة والزخارف والقصور ويقنولون ألوان الطعام وقد نسوا علم الصحة وجعلوا حقيقة السعادة في هذه الحياة الدنيا ، أوليس من العجب أن هذا الانسان المسكين تسوسه الحكمة الإلهية سياسة الانسان للدواب ، ألم تر أن الانسان ربما يمك حشائش يسديه وقد تكون من مستنقع يضر بالدواب ضررا بليغا فيقدمها للجاموسة الشاردة فترجع اليه ، أليس الملوك والأمراء لما قصرت أنظارهم وقلت عالمهم في أكثر هذا النوع الانساني قيل لهم احفظوا الأمم واحكموا الدول وهاكم الملابس والمال كل نفدوا منها مانشاءون ، إذن جزاء قيام بعضهم بحفظ أمتهم قد يجلب المرض والضعف والموت الزوام لهم .

يا سبحان الله : ضوء الشمس رحمة أرسلها الله لعباده فخرموا منها أجسامهم بما أكثروا من ملابسهم ، ولم ينالوا من ذلك الضوء مانالته الآسود والنمور في القفار وحرمت الأجسام من تدخل الضوء في المسام الجلدية الانسانية كما يتدخل في المسام الجلدية الحيوانية والفتحات الشعرية في أوراق الشجر والنبات .

ما أعظم الجهل في أرضنا ، أرى الأغنياء في بلادنا المصرية الذين يملكون أرضا شاسعة قد يمزون وهم مكبلون بملابسهم على الزراع الذين في مزارعهم وهم عمارة الأجسام ماعدا عوراتهم فيرونهم أقوياء الأبدان أما هم فانهم مرضى الأجسام فلا يفكرون في ذلك .

يا سبحان الله : معصية آدم تلبس بها بنوه فخرم أكثرهم السعادة «ولات حين مناص» ، يولد الطفل ويحرم جسمه من ضوء الشمس من يوم الولادة الى يوم الوفاة وهذه من أكبر الضربات على هذه الانسانية

في يوم الأربعاء استحممت بالماء الحار وأتبعته بالماء البارد ، وهذه الطريقة كما تقدم مفيدة ، ثم جلست في الشمس ، فقال جسمي مزبئين : مزبة الماء ، والشمس ، فهما نعمتان نلتهما معا في هذا اليوم ، وإن كنت لم أعلم بهذه النعمة إلا في أيام كبر سنّي ، وما لا يدرك كله لا يتركه كله ، ضوء الشمس نعمة ، وكلما خفت الملابس كان الجسم إلى الضوء أقرب وبالصحّة أولى .

حرم كثير من الناس هذه النعمة جهلا بنعمة الشمس واتباعا للعادة الراسخة في نوع الانسان ، ضوء الشمس نعمة والناس جهالوها ، ومن جهل النعمة حرمها ، إن الحرمان من تلك النعمة يقبض النمل ، فإذا انتاب المرض أكثر الناس وقصرت أعمارهم بحرمان جلودهم من ضوء الشمس فإن بعض الأمم الشرقية أغنياءهم وفقراءهم بسبب الترام بالتقليد الأعمى كتقليد القروء لم يكتفوا بما ينتجها صناع بلادهم من الملابس وإن لم تكن من أجود الأصناف بل أخذوا يتفتنون فيها ويشترونها من الملابس التي نسجها الفرنجة في بلادهم وذلك من أكبر الجهالات الفاشية في أمم الشرق الأدنى كبلاد شمال أفريقيا وبعض بلاد العرب ، تلك الأمم التي نامت نوما عميقا ، فلبست ملابس الفرنجة وصارت تلك الملابس أصفادا قيدوا بها وأغلالا في أعناقهم وهم يسحبون في جيم الاستعباد ، وأنا أجد الله إذ كتبت هذا وأنا أعلم أن الأمم العربية على بكرة أبيها قد استيقظت لهذا الخطر وأخذت تعد له عدته ، وبالاجمال ان نعمة ضوء الشمس عامة ، ولما توارى عنها الانسان وأسرف في تواريه بالملابس أورهته ذلك الاسراف إما ضررا في الصحّة كالاصراء والملوك ، وإما أن يضاف إليه شيء آخر ، وهو النمل والاستعباد بالاستدانة وبالترف والتعيم .

هذا ملخص هذا المقال وهو الذي خطر لي وأنا معرض جسمي لضوء الشمس ، ثم اني بعد الظهر أخذت أمشي على شاطئ النيل في المنيل وقد تجلت لي هذه الدنيا بهيئة جميلة ، وأخذت أفكر في هذا الهيكل الانساني ، ذلك أن لي حاسة بها ألس الحار والبارد ، والرطب واليابس ، وأعرف الثقيل والخفيف ، والناعم والخشن ، فهذه الحاسة كأنها ربة هذه المحسوسات ، ولي حاسة أخرى تفرق بين الطيب والخبيث من الروائح وهناك حاسة أعلى منها بها أعرف الأصوات وأنواعها ، وأخرى بها أعرف القريب والبعيد والألوان والسطوح والأجسام والحركات والسكنات ، وهذه هي حاسة النظر وعمدتها الشمس التي أراها أمامي في المنيل يا محبا ! هذه الشمس أمامي قد ملأت الأفق تيرا تيرته في القفر والحقل والحديقة والبر والبحر ، هاهوذا الضوء منشور في كل مكان ، وهذا التبر به أعرف الطرقات وأفرح بالجمال ، والصين أعظم الحواس الظاهرة كما أن الشمس أبهى الموجودات المحسوسات ، فلا نفذ إلى ما وراء ذلك ، فها هو ياترى ؟ إن ما وراء ذلك هو عقلي ، ووراء الشمس عقل عام .

يا محبا ! هذا ألس يميز باللاصقة لكل ماحول ، وحاسة النوق تعرف الحلو والمر ، والحريف والمالح ، والحامض والنفص الخ ، وحاسة الشم تميز الروائح ، وحاسة السمع تعرف الأصوات ، وحاسة البصر تميز البصرات فهل وراءها إلا العقل ، ذلك العقل الذي به ندرك حقائق ماسوننا ثم نجد له نظيرا في الأرض والسما . أنا أشرب الماء والماء يحيط بالأرض لا يتفد ، أنا أشم الروائح وهي أيضا في كل مكان لا تفاد لها ، أنا أخذ الهواء بالشهيق فيدخل في رئتي ، والهواء يحيط بالأرض لا يتفد ، أنا أرى النور والنور يحيط بالأرض وذلك ببصري ، فلم يبق إلا أن أقول : أنا لي عقل يدرك الحقائق ، وهذا العقل أرى آثار نظيره في الشمس وفي القمر والكواكب والنبات والحيوان والسحاب وكل مركب وبسيط . فهنا عقل عام لي أنا شعبة منه كما كان لي شعبة من الهواء وأخرى من الماء ، العقل العام يحيط بالكائنات إحاطة الأثير بها ، وإذا كان ماء جسمي وهواؤه ومواده الأرضية لها ارتباط بالماء والهواء وبالمواد الأرضية ، فما لا ريب فيه أن هنا عقلا عاما يحيط بهذه كلها ولا تفاد له وهو متصل بعقل وروحي ، وهذا العقل الكلي بالنسبة لله عز وجل أشبه بضوء الشمس

بالنسبة للشمس ، وهذا مجرد التمثيل للتقريب والا فالأمر فوق عقولنا ، إذن هنا رحمتان علمتان : أولاهما رحمة الشمس وضوئها التي جهلها الناس فاقبلت عذابا في الدنيا بالأمراض إذ حجبوها عن أجسامهم ، وبذهاب مجدهم واستقلالهم بالاسراف فيما يسترون به أبدانهم . ثانيتهما : رحمة العقل العام الذي اشتقت منه عقولنا وانصلت به ، وهذا العقل مستمد من نور الله الذي ليس كمثل شيء وهو السميع البصير .

وهذه الرحمة الروحية العقلية يحملها كل انسان في هذه الأرض ولكنها رحمة مخبوءة . الله رحم الناس بضوء الشمس فجهاؤها ، فنعوا الضوء عن أجسامهم ، فاعترتهم الأمراض ، وضاعت بلادهم بالاسراف فيما يلبسون ، ورحمهم بإشراق نفوسهم وعقولهم ، ولكنهم بغفلتهم نسوا الله فأناهم أنفسهم ، ذلك لأن أنفسهم مستمدة من العقل العام ، والعقل العام نور أودعه الله في العوالم كلها وعقول بني آدم فروع منه ، ولوأنهم استيقظوا لذلك النور بالدراسة والصلاح وتقليل الشهوات لكانوا دائما في حضرة مفيض ذلك النور وصانعه واقتربوا منه « إن رحمة الله قريب من المحسنين » والى هنا تم الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين

القسم الثاني في تقسيم السورة

هذه السورة ثلاث مقاصد

﴿ المقصد الأول ﴾ دلائل التوحيد بخلق السموات والأرض والهواب ، واختلاف الليل والنهار ، وانزال المطر ، وتصريف الرياح ، وتسخير الفلك ، وما يتبع ذلك من المكاسب في التجارة ، وصيد السمك ، وحوز التؤلؤ والمرجان بالفصوص عليهما ، وتخلل ذلك جهالات الكفار ، ووجوب صفح المسلمين عنهم ، ومضرتهم لهم من أول السورة الى قوله : « ثم الى ربكم ترجعون »

﴿ المقصد الثاني ﴾ فيه ذكر أن بني اسرائيل كان فيهم كتاب التوراة والشرايع العظيمة والنبوة ومبجزاتها وعندهم الرزق الحسن ، وفوق ذلك كانوا بمفضلين على عالمي زمانهم ، وكانت لهم أدلة في أمور دينهم ، ومع هذا كله قد اختلفوا فيما بينهم لقلبة الشهوات والحسد والعداوات ، فاذن أهل الأرض متشابهون ، أشبه الآخرون الأولين ، فقومك على هذه الطريقة في هذه الحال ارتطموا ، ولقد بلوناكم كما بلوناكم فهل تصيرون قاصبريا محمد وبصبر أصحابك والمصلحون من أمتك فان عالمكم هكذا شأنه ، فدم على شريرتك ولا تلتأ بمن خالفك ، وهذا القسم الى قوله : « ورحمة لقوم يوقنون »

﴿ المقصد الثالث ﴾ من قوله تعالى : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات » الى آخر السورة ، وهذا في عاجة الكافرين وقريرهم

﴿ التفسير اللفظي ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(بسم) إشارة الى الحمد على النعم التي لا تتناهى المذكورة مجملة في هذه السورة . وأيضا سياتي في آخرها « فته الحمد » ، ان الحمد في أمة الاسلام هو كل دينها ، لأن الحمد راجع الى مجامع العلوم والأعمال ، الحمد يستوجب كل علم وكل عمل ، فكان « آل حم » تفسير لسورة الحمد وهي الفاتحة ، وهي مثال العلام النافعة للأمة كلها ، وللإشارة أيضا الى الحكمة المذكورة في قوله (حكيم) ففيها الخاء والميم ، وذلك فوق ما عرفت من مزايها الحروف كلها مجتمعة في سور كثيرة ، وأطلسورة « البقرة » والحمد والحكمة مجامع الجباب

لأن الحد لا يكون إلا على ما علم من النعم والحكمة ونظام هذه الدنيا . والحق أن هذه السورة سبتضح لك
فيها من غرائب العلم وبدائع الحكمة ما يذهل له الغافلون من المسلمين الذين ظنوا الجدل وعلم الفقه يكفيان
أمة الاسلام المظلومة المهضومة الحقوق التي طاردها أم أوروبا بعد أن طاردها علماءها ومنعها من الاستضاءة
بالأنوار الالهية ، قالهم قبض لأمتنا من يهدبها الى الهدى ، ويردها عن الردى ، ويهدبها الى الصراط المستقيم
(تنزيل الكتاب) كائن (من الله العزيز) الغالب (الحكيم) في تدييره ، ولاجرم أن ذكر الحكمة بعد
العزة يعرفنا أنه مع قهوه للعوالم المادية والروحية لا يتصرف فيها إلا بحكمة فهو غالب قاهر وقهره مصحوب
بالحكمة كما يشاهد في النبات والحيوان والأجسام الانسانية ودوران الكواكب وانتظامها في سيرها وصلها
حتى أضاعت ، كل ذلك من القهر والغلبة لها مع الحكمة في صنعها ، ولذلك أعقبه بنتائج العزة والحكمة
فقال سبحانه (إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين) أى علامات وعبرا للمصدقين (وفي خلقكم) أى
وفي تحويل أحوالكم حالا بعد حال آية وعبرة لكم (وما يثب من دابة) وما يفرق في الأرض من جميع
الحيوانات (آيات) دلالات تدل على حكمة خالقها وجل صنعها وابداعه (لقوم يوقنون) ورفع آيات على
محل إن واسمها لأن محلها رفع ، وقوت بالنصب كما تقول ان زيدا في الدار وخالدا ، أو خالد في السوق ،
فالنصب بالعطف على اسم إن ، والرفع بالعطف على محل ان واسمها وهو الرفع (واختلاف الليل والنهار وما
أزل الله من السماء من رزق) من مطر هو سبب الرزق (فأحيا به الأرض بعد موتها) يبسها (وتصريف
الرياح) باختلاف جهاتها (آيات لقوم يعقلون) ليس في اعراب هذه الآية صعوبة عند الأخص ، فأما
سيدويه فانه يقدّر لفظ في أى وفي اختلاف الخ ولو لم تقدر في زم العطف على معمولين لعاملين مختلفين عند
سيدويه فلانظير بالكلام فيه ، يقول الله تعالى : انكم اذا تأملتم الحكمة المنبثة في السموات والأرض
آتمم ، فاذا ازددم علما وفهما وبحثا ازدادت عقائدكم فسرتم موقنين لأن الايقان بتوافر الأدلة وتكاثرها ،
ومتى أيقن الانسان بنظام هذه الدنيا أصبح ذا عقل لأن العقول لا تربي إلا بالزواجة ، فأول المراتب إيمان بالله
فاذا زاد الانسان حكمة وعلما وبحث في دقائق المخلوقات ومجائبها أصبح موقنا بربه ، وكلما زاد بحثا ازداد عقله
دراية ، فأصبح في الأرض نورا يستضاء به ، وهذا يدلنا أن الله تعالى لم يرد بنظرنا في العوالم مجرد الإيمان
أو الايقان ، بل براد فوق ذلك تربية عقولنا ، وتربية العقول في العالم الانساني اليوم في مدارس أوروبا
وغيرها لاتم إلا بقراءة علم الفلك والعلوم الرياضية والطبيعية والحيوان والنبات والانسان والمعدن ، تلك هي
التي تربي العقول ، هذا مقصود الآية ، فانه يقول لنا : أنا أمرنكم بالنظر في العالم أولا لتؤمنوا فاذا زدتم علما
أيقتم بي وذلك كله يربي عقولكم ، فنتيجة هذا الوجود تربية العقول ، فليفكر المسلمون في هذه الآيات ،
وليحجوا من أمة هذا دينها يطلب منهم الايمان بم الايقان ويقال لهم : نحن نربي عقولكم فيقول الفرج الجاهل
من المسلمين الذي غرّه صفار العلماء . كلا . والله لقد عرفت الله وآمنت به ، ومتى آمنت بالله فلا سب لنظري
في العوالم بل هو فضول ، فعل المسلمون ذلك وجاءت أوروبا فنظرت في الكون فازدادت عقول أبنائها فجاءوا
الى الشرق خضكو وابلادنا . كل هذا لتدهور العقول والتعاليم في بلاد الاسلام . يا قوم هلا قام فيكم عالم فنصحكم .
يا قوم هلا تمها كم النهاية عن هذا التقصير والتعاس . يقول الله لكم فكروا في العوالم لتؤمنوا ، ثم يكون
الايقان ، ثم يأتي بالتقوى وهو تربية العقل بمزولة العلوم الكيماية والطبيعية والحيوانية والانسانية . يا الله
أشكوايك قادة ناموا ، وأسألك أن تعي هذه الأمة التي أماتها الجهل ، اللهم أنز البصائر وعمم العلم في بلاد
الاسلام . يربي الله عقولنا بتلك العلوم ، ويشير الى ذلك بهذه الآيات وتقوم أوروبا فتوجب هذه العلوم في
المدارس الثانوية ليكون قادة الأمة ، والطبقة الوسطى من الشعب قد استنارت بصاؤها بدراسة ما حوطلها من
الكائنات ، فترى فيهم الممسات ، فيحفظون بلادهم ، ويرقون شعبيهم ، والمسلم قد اغمض عينيه عما حوله

فلا يرى ولا يعقل ويكتفى بالإيمان ، فيكون العالم والعامي على حد سواء ، وهذه هي الطامة الكبرى ، وسأزبد
 المقام أيضاً إن شاء الله تعالى (تلك آيات الله) أي آيات دلائله حال كونها (تلاوها عليك) ملتبيين (بالحق)
 ولما كان هذا المقام عظيم الشرف ، جليل القدر ، عليه ارتقاء العقول ، ورتق الأسم ، وإن لم يصرح به
 أعقبه بقوله (فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون) أي بعد آيات الله ، وذلك كما تقول : أمجيني زيد وكرمه
 أي كرم زيد ، فذكر زيد للبالغة والتعظيم ولم يقل فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون أكفاه
 بالأول لأنه للمعصوم ، أما الايقان فهو للخصوص وتربية العقل كذلك ، والأمة الاسلامية تركت مباحث كبار
 العلماء في الكتب ، ولم ترد أن تعمل بها ، وسأقل لك خلاصة ما ذكره العلامة الرازي قريبا لتعرف كيف
 كان حكماء الأمة يفهمون ويكتبون ، وكيف كان بقية العلماء لا يفكرون ، وعن رقى الأمة معروضون ،
 فانا لله وانا إليه راجعون ، تشير الآية هنا الى أن الايقان وتربية العقل إنما تكون بما ذكر من العالم العلوي
 والسفلي والمسلمون ينامون ويعرضون ، ويكتفون بإيمان المجاز وعقول العامة إلا قليلا منهم « وقيل من
 عبادي الشكور » ولذلك أعقبه سبحانه بدمّ المعرضين الذين لا يؤمنون فقال (ويل لكل أفاك) كذاب
 (أقيم) كثير الأثام (يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصرت) يقيم على كفره (مستكبرا) عن الإيمان بالآيات
 وإنما ذكر « ثم » لبيان استبعاد الاصرار على الكفر بعد ما يسمع الآيات تتلى عليه (كأن لم يسمعها) أي
 كأنه لم يسمعها فهو بصير مثل غير السامع (فبشره بعذاب أليم) على إصراره (وإذا علم من آياتنا شيئا) إذا بلغه
 شيء من آيات القرآن (اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين * من وراءهم جهنم) أي من خلفهم لأنها
 بعد آياتهم (ولا يضي عنهم ما كسبوا شيئا) ولا يدفع عنهم ما كسبوا من الاموال شيئا من عذاب الله (ولا
 ما اتخذوا من دون الله أولياء) كالأصنام (ولهم عذاب عظيم) لا يتحملونه (هذا) القرآن (هدى والذين
 كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم) الرجز أشد العذاب (الله الذي سخّر لكم البحر) جعله لطيفا
 يحمل الفلك فتطفو ولا ترسب فيه بنواميس جلاها ، وحكم أهداها ، بحيث خلق المواد الخشبية والحديدية ،
 وجعلها قابلة لعمل السفن وأن يتحيل الناس في ذلك حتى لا ترسب لثقلها بل تسير فوق الماء ، وأجرى الرياح
 فوقها لتساعد على جريها ، وخلق الفحم وأمثاله لتوقد النار فتحرك الآلات البخارية فسير السفن ، فإطواء
 تجرى ، وبالنار تجرى ، وبالكهرباء ، والبترو ، وهما يبين النار تجرى .

حكم نسجت يد حكمت * ثم اتسجت بالمتسج

وهذا من معنى قوله (لتجرى الفلك فيه بأمره) وما يدخل في هذا المقام البوصلة البحرية التي تدل
 الریان على الجهات الشرقية والغربية والشمالية والجنوبية ، وكذلك علوم الفلك وعلوم الطرق البحرية
 فيعرف بها التجووم ومواقعها في السماء والطرق والجهات ، فإن النجوم في السماء جعلت علامات تعرف بها
 الطرق ، ولها جداول بها يدرك الریان ما يريد ، وبالطرق البحرية يجتنب الریان المضار ، والفلك في البحر
 لا بد فيها من علوم الصناعات لعمل السفن ، واصنع القلوب ، ولادارة الآلات البخارية ، ومن معرفة النجوم
 بالدقة ، ومعرفة الطرق البحرية ، ومعرفة البوصلة . هذا معنى تسخير البحر لنا لتجرى الفلك فيه بأمره ، ثم
 عطف عليه بعض النتائج من تسخير السفن فقال (ولتبعوا من فضله) بالتجارة والغوص على المرجان
 والدر . ثم إن في قرار البحر عجائب الحيوان البديع الذي لم يصله ضوء ففوض نورا يستضي به من جسمه
 هو ، وذلك لاستنارة عقولكم ، فهذا وغيره من فضل الله تعالى (ولعلكم تشكرون) هذه النعم ، ولما كان
 العالم كله كأنه جسم واحد يحتاج كل جزء منه الى الأجزاء الباقية ، فلا يستقيم مطر بلا حرارة شمس ، ولا منفعة
 لحرارة الشمس بدون نظام في السير ، ولا رياح إلا بحرارة ، ولا سفن إلا بهواء وكواكب مرصودة وشم ، أو
 كهرباء وحديد وخشب وماشابه ذلك بحيث يرى الإنسان أن هذا العالم كله كساعة منظمة أردفه بما يفيد

ذلك فقال (وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعا) بأن خلقها نافعة لكم حال كون مافى السموات ومافى الأرض جميعا كائنة (منه) وحاصلة من عنده. قال ابن عباس: كل ذلك رحمة منه. وقال غيره: تفضل واحسان (إن فى ذلك آيات لقوم يتفكرون) وهذا هو الكمال العلمى، ثم أتبعه بالكمال العملى فقال (قل للذين آمنوا) اغفروا (يعفروا) ويغفوا ويصفحوا (الذين لا يرجون أيام الله) لا يتوقعون وقائمه بأعدائه كما تقول لواقع العرب أيام العرب، وإنما أمروا بالمغفرة ليجزيهم على صبرهم يوم القيامة بالجنة وهذا قوله تعالى (ليجزى قوما) بصبرهم على أذى أعدائهم (بما كانوا يكسبون) من العمل الصالح والصبر على الأذى ويجوز أن يراد بالقوم الفريقان، وبالكسب ما يعم الشراء والخبر، ويناسب للمعنى الثانى قوله (من عمل صالحا ظن نفسه ومن أساء فعليا) إذ طاب ثواب العمل، وعليها عقابه (ثم إلى ربكم ترجعون) فيجازيكم على أعمالكم

الاعتبار والتأسى بقصص بنى اسرائيل

قال تعالى (ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب) النوراة (والحكم) الحكمة النظرية والعملية وفصل الخصومات (والنبوة) فقد كان فيهم أنبياء فى أكثر الأزمان، وهذه هى النعم الروحية والأخروية (ورزقناهم من الطيبات) مما أحل الله من الرزق الواسع (وفضلناهم على العالمين) حيث أعطيتهم ما لم نعط غيرهم (وآتيناهم بينات من الأمر) أى أمر الدين كبيان الحلال والحرام (فما اختلفوا) فى ذلك الأمر (إلا من بعد ما جاءهم العلم) بحقيقة الحال (بغيا بينهم) عداوة وحسدا (إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) بالمؤاخضة والمجازاة (ثم جعلناك على شريعة) طريقة (من الأمر) أمر الدين (فاتبعها) فاتبع شريعتك الثابتة بالحجج (ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) أى مراد الكافرين، فلقد كانوا يقولون له ارجع إلى دين آباءك فإنهم كانوا أفضل منك (إنهم لن يضنوا عنك) لن يدفعوا عنك (من الله شيئا) أى من عذاب الله شيئا إن اتبعت أهواءهم (والله ولى المتقين) أى هو ناصرهم فى الدنيا والآخرة (هذا) القرآن (بصائر للناس) أى معالم للناس فى الحدود والأحكام يبصرونها به (وهدى ورحمة لقوم يوقنون) يطلبون اليقين (أم حسب الذين) أى بل أحسب الذين (اجترحوا السيئات) اكتسبوا المعاصى والكفر، يقال: فلان جارحة أهله أى كاسبهم (أن يجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى مثاهم، إذ قال قوم من مشركى مكة للمؤمنين: لئن كان ما تقولون حقا لفضلنا عليكم فى الآخرة كما فضلنا عليكم فى الدنيا (سواء محياهم ومماتهم) أى أحسبوا أن حياة الكافرين ومماتهم كحياة المؤمنين ومماتهم سواء. كلا، فالؤمن مؤمن فى الحياتين، والكافر كافر فى الحياتين، وقوله «سواء محياهم الخ» أى حال كونهم مستويا محياهم الخ وإن قرئ: سواء بالرفع، فالجمله بدل من الكاف (سواء ما يحكمون) أى بشئ ما يقضون إذا حسبوا أنهم كالؤمنين ثم أتى بالدليل على ذلك من علم المخلوقات المشاهدة قائلا (وخلق الله السموات والأرض بالحق) بالنظام التام والعدل والقسط، ولولا العدل ما انتظمت أحوال هذه الدنيا، فلولا سير الشمس فى أوقات معينة ونظام تام ولولا دخول العناصر فى النبات بحساب معين، ولولا وضع الأعضاء بعدد مخصوص فى الحيوان ومقادير معينة لم يستقم لهذا العالم وجود والحققه العدم، وهذا كالأية السابقة فى سورة الشورى «الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان» إذ أفاد أن ما لا يقوم فيه العدل فى الدنيا من طريق القضاء الذى نزل به الكتاب يكون العدل فيه فى الآخرة تبعاً للميزان العام، وهنا يقول: إن الله خلق السموات والأرض بالعدل والقسط، ولا يستل هذا حتماً إلا الذين درسوا هذه العوالم وأنفقوا دراستها، ولم تكن دراستهم مجرد الوظائف، أو مجرد الصناعات بل يكون الغرض منها الوقوف على نظام هذه الدنيا حتى تطمئن النفس لما يجرى به القدر عليها وعلى غيرها، ومنى عرفت النفس ذلك أشرفت بالنور، ووقفت على السرّ المكنون، وأبنت بالعدل فى

الموت والحياة ، والخفض والرفع ، والایمان والكفر ، واذن تعلم أن الله خلق العالم بنظام وحساب ليحصل في نسويته في ذراته ومركباته (ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون) بنقص ثواب وتضعيف عقاب . واعلم أنه لا يعقل العدل في هذا العالم ، ولا في الثواب والعقاب إلا من درس هذا الوجود وأقن فهمه ، واذن يصبر من تربت عقولهم الذين ذكروا في أول السورة إذ أبان أن المفكر يكون أولاً مؤمناً ثم موقناً ثم عاقلاً وقد قدمنا أن المراد بالعقل هنا هو الذي تربى تربية إلهية ، والتربية الإلهية بقراءة الكتاب الذي خلقه الله سبحانه ووضعوه وهو هذا الوجود الذي لا يقرؤه إلا المفكرون ، ولا يعقله إلا العالمون ، فلفظ العقل إذا أطلق في مثل هذا المقام إنما يراد به العقل الذي تربى على المبادئ الإلهية بالتفكير في نظام الوجود ، وكما أن طبيعة الحيوان تكون حاصلة من تفاعل المواد التي دخلت في عداد جسمه وصار لها مزاج خاص ناشئ من تفاعل العناصر الداخلة في جسمه وانتظامها والتتامها حتى يرى على شكل خاص ناجم من تلك المواد واتلافها ، هكذا عقول الحكماء والمفكرين تربى تربية خاصة بالنظر في العوالم فانها تفتدى تغذية روحية . كل نظرة من نظراتها . وكل خطرة من خطراتها تزيدها نموًا وتكاملًا إلى أن يتم مزاجها ويكمل وجودها . وحينئذ تصبح تلك النفس خليفة الله في الأرض لأنها قرأت ما خلقه سبحانه ، وضعه بيده ، وهندسه بحكمته ، وزوّقه بعلمه ونعمه ، وأحكمه وسوّاه ، فتنتطح تلك النظم في عقله ، فتصبح تلك النفس إلهية حكيمة مشرقة عالة ، فاذا ورد عليها أمثال هذه الآية « وخلق الله السموات والأرض بالحق » فهمتها لأنها ترى في العوالم المدوّنة الأرضية ذلك مسطوراً في لوح الوجود . واذا سمعت « ولتجزى كل نفس بما كسبت » أيقنت بذلك لأنها تشاهد النظام تاماً ، وتقول حقاً إنني أشاهد أن الذين يهملون أنفسهم بالتعليم ولا تأديب يصبحون في الدنيا مقدرة قيمتهم بمقدار حالهم ، ويراهم الناس على مقدار ما وصلوا إليه ، ومن عرف سرّ صناعة نراه يكافأ بإبراز مصنوعه بحكمة ، ومن جهل ذلك يفتد ذلك يفتد ، وهكذا أصبح الناس في نظر الحكيم وأعمالهم كالأشجار وأحوالها ، فعلى مقتضى نظام الشجر وأصله يكون ثمره لا يخلل فيه هكذا على مقدار ما كسب الانسان تكون نتائج أعماله فتواب الأعمال ليس إلا نتائجها كما أن ثمر الأشجار نتائجها ، واذا كانت الحرارة تبيجتها نمو النبات والبرودة تبيجتها ضعفه وخلقه من قوة الحياة ، فهكذا الأعمال الطيبة والأعمال الخبيثة نتائجها لازمة لها لزوماً عادياً « وهم لا يظلمون » ومن شرب المسهل أتج ما أعد له من الاسهال ، ومن تعاطى الدواء المسكن أو المهيج أو الحار أو البارد أو ما طوى السم ، فكل أولئك يجنون على مقدار ما تعاطوا تسكيناً وتهييجاً وحرارة وبرودة وموتاً ، هكذا ترى المتكبرين والمستذلين بعبين ، وسريبي الغضب ، والبخلاء ، وذوى الحرص ، كل أولئك ينالون في الحياة مقت الناس ، أو ذلالهم ، أو بغضهم ، أو ذمتهم ، وهكذا ترى العلماء والكرماء والشجعان ، وذوى القلوب النقية ، والعافين عن الناس ، ينالون احترام الناس ، وحبههم وقضاء حاجاتهم ، وذكرهم بالجيل . كل ذلك نتائج كشمرة الأشجار . ومن نال ما لا يستحقه في الدنيا ، أو نال أقل من حقه فبعد الموت ترجع الامور الى نصابها وتكون هناك الثمرات مقدرات بيزان . هذا معنى هذه الآية . فاذا كانت آية الميزان جاءت في سورة الشورى ونفس السورة مسماة باسم يشعر بالميزان والعدل بين الناس اذا التأموا ونشاوروا ، فهكذا جاءت هذه الآية هنا دالة على العدل المشاهد في نفس الطبيعة لمن عقل ولا يعقلها إلا المدارسون لنظام السموات والأرض ، أما أولئك الذين لا يدرسون ولا يفكرون ، وصار لهموى معبودهم فان الله ينزلهم المنزلة التي هم بها جديرون لأن الأرواح الانسانية طوائف ، فمنها المظلمة ، ومنها النيرة ، ومنها المتوسطة فهذه الأرواح الفجة الفليضة التي لم تصل لدرجة النضج والكمال بعد فان الله حكم ببقائها في الضلال لأنه عالم بحورها وأنها لا قبيل لها بالحكمة والعلم ، وهؤلاء يقولون : ما الحياة إلا حياتنا الدنيا ، وموتنا إنما يكون بمرور الزمان ، فلا نظام ولا ناطم ، ولا حساب ولا حساب ، ولا عدل ولا عادل ، وإنما صدر ذلك منهم لتهم

علمهم ، وإنما ينطقون بالقول تقليداً لآبائهم وأساتذتهم ومعلمهم وقرنائهم ، وهذا قوله تعالى (أفرايت من اتخذ إلهه هواه) أي هومطواع طوى النفس ، يقع ما يدعو إليه ، فكأنه يبده كما يبده الرجل إلهه (وأضله الله على علم) أي وخذله علماً بضلاله وفساد جوهر روجه استعداداً معلوماً في الأزل (وشتم على سمعه وقلبه) فلا يبالي بما يسمع من وعظ (وجعل على بصره غشاوة) فلا ينظر بعين الاستبصار (فمن يهديه من بعد الله) من بعد اضلاله (أفلا تذكرون) وقالوا ما هي) ما الحال أوما الحياة (إلا حياتنا الدنيا) التي نحن فيها (نموت ونحيا) أي يصيبنا الموت والحياة فيها ، وليس وراء ذلك الموت حياة (وما يهلكنا إلا الدهر) إلا مرور الزمان (وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يطننون) وإنما ذلك بناء على التقليد والانكار . فأما العالمون فهم أولئك الذين فكروا فآمنوا ثم أيقنوا ، وهناك تربت عقولهم كما جاء في أول السورة . فأما هؤلاء فلم تربت عقولهم لحرمانها من الغذاء النفسى وهو دراسة ما صنع الله تعالى ، فهو غذاء العقول كما أن المادة غذاء الأجسام فكما نرى المزارع والأشجار ، والحبوب بها حياة الأجسام ، هكذا نظامها وحكمها وافتانها بدراسة حياة العقول . فهذه المخلوقات أقلت أجسامنا وبالتفكير فيها تمحو عقولنا ، والمحروم من ذلك ضالّ (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات) وانفجحت الدلالة على خلاف ما يعتقدون (ما كان حجتهم) ما كان ما يزعمون أنه حجة (إلا أن قالوا اتنوا بآياتنا) أي أحيوهم (إن كنتم صادقين) في دعوى البعث (قل الله بحيكيم) في الدنيا (ثم يحيكيم) فيها عند انتهاء آجالكم (ثم يجمعكم إلى يوم القيامة) أي يبعثكم يوم القيامة جميعاً ، فالآيات بآياتكم أيسر من ذلك (لأرب فيه) أي في الجمع (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك لأنهم لا يفكرون في نظام هذا العالم ، ولو أنهم فكروا لعرفوا بعقولهم سعة القدرة وبدائع الحكمة في هذا العالم الواسع ، وعبر عن سعة بقوله (ولله ملك السموات والأرض) وهو مسرح الانظار ، وقبلة النظر ، ونور الاستبصار . وضياء للأبصار فلو فهموه لعرفوا بعقولهم ما تضمنه قوله تعالى (ويوم تقوم الساعة يومئذ يحسر المبطلون) يومئذ بدل من يوم المتعلق بيخسر أي يومئذ يظهر خسران أصحاب الأبطال وهم الكافرون (وترى كل أمة جاثية) أي باركة على الركب وهي جلسة الخاضع بين يدي الحاكم ينتظر القضاء (كل أمة تدعى إلى كتابها) الذى فيه أعمالها ويقال لهم (اليوم نحزون ما كنتم تعملون) وتقولون في الدنيا (هذا كتابنا) ديوان الحفظة (ينطق عليكم بالحق) يشهد عليكم ببيان شاف كأنه ينطق (إما كنا ننسخ) نكتب الملائكة (ما كنتم تعملون) أعمالكم أي نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم وكتابتها وإبانتها عليكم (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته) جته (ذلك هو الفوز المبين) الظفر الظاهر (وأما الذين كفروا) فيقال لهم (أفلم تكن آياتي تتلى عليكم) أي آيات القرآن (فاستكبرتم) عن الإيمان بها (وكنتم قوماً مجرمين) كافرين منكبرين (وإذا قيل إن وعد الله حق) أي البعث كائن (والساعة لأرب فيها) لاشك في أنها كائنة (قلتم ما ندرى ما الساعة) أي أنكرونها وقتها (إن نطق إلاظنا) أي مانعنا ذلك إلا توهمنا (وما نحن بمسئقين) أي أنها كائنة (وبدا لهم) وظهر لهم (سبب ما عملوا) على ما كانت عليه بأن ظهرت لهم صور أنفسهم الحقيقية بعد الموت ويوم القيامة قرأوا قبورها ، وتشويه صورها (وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) أي نزل بهم جزاؤه (وقيل اليوم نساكم) نترككم في العذاب ترك المنسى (كما نسيت لقاء يومكم هذا) أي كما تركتم الإيمان والعمل لقاء هذا اليوم (ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) يخلصونكم منها (ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً) استهزأتم بها فلم تفكروا فيها (وغرّتكم الحياة الدنيا) غسبتكم أن لاهية سواها (فاليوم لا يخرجون منها) من النار (ولا هم يستعتبون) أي ولا يطلب منهم أن يرضوا ربهم لقوات أوامره (فإنه الله رب السموات ورب الأرض رب العالمين) فإن كل ذلك مثار الحمد وسبب له ، فحجاب السموات ، وبدائع الأرض ، وحرية المخلوقات المحدثات ، يفتح بدراستها للنفس أبواب العلوم ، وبالمرقة تكون الحمد (وله

الكبرياء في السموات والأرض) لظهوره آثارها فيهما (وهو العزيز) الذي لا يغلب (الحكيم) فيما أتقته وبقدره. انتهى التفسير اللفظي

ابتداء السورة كآياتها

انظر كيف ابتدأ السورة بالعمزة والحكمة ، وقد بينا لك أن القهر والحكمة مسطحان معا في غضون هذه العوالم ، مشاهدات في صغيرات الامور وكبرياتها ، ولذلك ذكر العوالم من مطر ونبات وحيوان الخ لأن العمزة والحكمة شملتاها ، هكذا ختم السورة بذيالك الوصفين ، ليبين أن هاتين الصفتين وانحة آثارهما في السموات والأرض وما بينهما والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

- (١) في قوله تعالى : إن في السموات والأرض آيات للؤمنين
- (٢) في قوله تعالى : وفي خلقكم وما يتنقلون دابة . الى قوله : وتصريف الرياح الخ
- (٣) في قوله تعالى : الله الذي سخر لكم البحر الخ وهي المبر عنها بيهجة العرفان الخ
- (٤) في قوله تعالى : أم حسب الذين اجترحوا السيئات الخ .
- (٥) في قوله تعالى : إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون .
- (٦) في قوله تعالى : وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم

اللطيفة الأولى

في قوله تعالى : إن في السموات والأرض آيات للؤمنين
وفيها غرضان : الغرض الأول في ذكر عشرة أسئلة وأجوبتها . الغرض الثاني : كيف قصر المسحون في هذه العلوم ، وكيف خالفوا علماءهم .

الغرض الأول في ذكر عشر مسائل وأجوبتها

تقلا من كتابي جواهر العلوم

ثم سأطأ قاتلا :

- (١) ما مقدار محيط الكرة الأرضية عند خط الاستواء بالأمتار ؟
- (٢) وما مقدار نصف قطر الأرض بالامتار أيضا ؟
- (٣) وما مقدار سرعة الحركة الأرضية في مصر في الثانية الواحدة ؟ وما مقدارها في خط الاستواء ؟ وما مقدارها في باريس عاصمة فرنسا ؟
- (٤) وقال العلماء : إن دوران الأرض كلما زادت سرعته نقص ثقل الاجسام عليها على حسب السرعة فكيف سرعة مثل الحماة تحتاج لها الأرض حتى يعدم الوزن في خط الاستواء وتبطل مقادير الموازين
- (٥) وهل يمكن وزن الهواء الجوي ؟
- (٦) وما مقدار ارتفاعه بالأمتار ؟
- (٧) وهل بين ثقل الهواء والزئبق نسبة معلومة ؟
- (٨) في أي درجة من درجات العرض يصير أطول نهار ٢٤ ساعة ، وأقصر ليل معدوم بالمرّة فيكون الشروق مع الغروب . فقالت الفتاة عندئذ : عجا للقدرة الباهرة والصنع العجيب

الفرض الثاني

كيف قصر المسلمون في هذه العلوم وعصوا علماءهم

انظر أيها الذكي إلى الأمة الإسلامية كيف نامت دهورا ودهورا ، وغطت في نومها غطيظا ، وعلمائها يوقظونها وهي غافلة ، ويعلمونها وهي راقدة لا تبدي سرا ، ولا تريد فكا ، غابت عنها شمس العلم فأظلم جوتها ، وسكنت ريعها ، وذهب عزها ، وطاح مجدها ، فلانعلم كيف تبدي وتعيد .

انظر إلى ما جاء في هذه الآيات كيف طلب الله من المسلم أن يشكر في السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وانزال المطر ، وبت الحيوان ، وخلق النبات بمجرد عقله وفطره لا بالتقليد والسماع . وانظر كيف ذكر أن هذا النظر به إيمان وبه إيقان وبه عقل ، وانظر كيف كان علماءنا يقولون ذلك والشعب غافل مما يقولون .

يقول العلامة الرازي في هذه الآيات مانصه : « واعلم أن كثيرا من الفقهاء يقولون انه ليس في القرآن العلوم التي يبحث عنها المتكلمون ، بل ليس فيه إلا ما يتعلق بالأحكام والفقه وذلك غفلة عظيمة لأنه ليس في القرآن سورة طويلة منفردة بذكر الأحكام وفيه سور كثيرة خصوصا المكيات ليس فيها إلا ذكر دلائل التوحيد والنبوة والبعث والقيامة . وكل ذلك من علم الأصوليين (يريد علماء التوحيد) . قال : ومن تأمل علم أنه ليس في يد علماء الأصول إلا تفصيل ما اشتمل القرآن عليه على سبيل الاجال ، ثم قال تعالى : تلك آيات الله تتلوها عليك بالحق ، والمراد من قوله الحق هو أن سمعتها معلومة بالدلائل العقلية ، وذلك لأن العلم بأنها منه صحيحة إما أن يكون مستفادا من النقل أو العقل . والأول باطل لأن صحة الدلائل العقلية موقوفة على سبق العلم بآيات الإله العالم القادر الحكيم ، وبآيات النبوة ، وكيفية دلالة المجزئات على سمعتها ، فلو أثبتنا هذه الأصول بالدلائل العقلية لزم الدور وهو باطل ، ولما بطل هذا ثبت أن العلم بحقيقة هذه الدلائل لا يمكن تحصيله إلا بمحض العقل . وإذا كان كذلك كان قوله : « تلك آيات الله تتلوها عليك بالحق » من أعظم الدلائل على الترغيب في علم الأصول (يريد علم التوحيد) وقرير المباحث العقلية ، ثم قال تعالى : « فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون » يعني أن من لم ينتفع بهذه الآيات فلا شيء بعده يجوز أن ينتفع به ، وأبطل بهذا قول من يزعم أن التقليد كاف ، وبين أنه يجب على المكلف التأمل في دلائل دين الله ، انتهى ما أردته من مقال العلامة الرازي في تفسيره « مفاتيح الغيب »

انظر كيف أثبت علماءنا في القرون الأولى أمثال هذا القول ، وكيف أبانوا أن العلوم الطبيعية والفلكية المذكورة في السور المكية الكثيرة واجبة على كل مكلف ، وأن المسلم لاحق له أن ينأى عن هذه العلوم مكثفا بالتقليد

إن هذه العلوم لا يخرج المسلمون من ذلم إلا بدراستها وفهمها ، ويكون المتعلمون فيها قسمين : قسم يختص بتلك العلوم كاختصاص طائفة بعلم الفقه وبعلم النحو كاهوجار اليوم في بلاد الاسلام ، والقسم الثاني وهو أكثر الأمة يستنبطون بأضواء هؤلاء العلماء ، فكا أننا نرى في الاسلام اليوم فقهاء متتورين والعامة يسألونهم في أمور دينهم ، هكذا يجب أن يكون في الأمة قوم مختصون بهذه العلوم حتى يرجع اليهم الشعب في فهمها ، ويؤلفون الرسائل المشوقة لتلك العلوم كآراهم يؤلفون رسائل في علم الفقه ونحوه ، وعلى المسلمين في أقطار الأرض أن لا يكتروا من الفلسفة في القدرة والارادة وسائر الصفات ، بل يجتهدون في معرفة الآثار طبقا لمقتضى القرآن ، فالقرآن وجه العناية إلى الآثار ومجانها ، ذلك هو النور المبين

فيحيا لأمة يقول علماءها : « إن الدين لا يقوم الاستدلال بآياته إلا بعد ثبوت القدرة والعلم والحكمة

والوجود والنبوة نبوتنا عقليا ، ومعنى هذا أن الإيمان به صلى الله عليه وسلم وبالله وبعلمه وقدرته وحكمته إنما يكون بالعقل ثم بعد ذلك نكون قد قررنا أن الدين حق ، فلا دين إلا إذا بنى على العقل أولا ثم النقل ثانيا . هذا ملخص ماضى من كلام العلامة الرازى ، والله هو الولي الحميد .

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : وفي خلقكم وما يبتئ من دابة آيات لقوم يوقنون * ولتختلف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح الخ في هذه اللطيفة غرضان

الغرض الأول اختلاف الليل والنهار

وقدمت الكلام عليه في (سورة البقرة) و(يس) وغيرهما ، ولكن لابد من ذكر ما يناسب المقام مختصرا ، فهناك جدولا تعرف منه النقص والزيادة في الليل والنهار في كل يوم من أيام السنة ، واليوم الذي يدخل فيه البرج من الشهور الشمسية القبطية وموازتها بالشهور السريانية وشهور الروم ، والمنازل وطلوع المنازل بالفجر ، وإنما أوردت لك هذا الجدول ليكون لك نموذجا تعرف به نظام الشمس في سيرها ، وإذا فكرت فيه وعقلته في ذهنك قام مقام النتيجة السنوية قيما إجماليا بحيث تعرف في أى يوم من أيام السنة مقدار اليوم ومقدار الليل أى مقدار مدة ظهور الشمس ومدة اختفائها واحتجابها تقريبا ، وإنما قلنا تقريبا لأن الحساب اجمالي .

انظر في الجدول (في صحيفة ٥٧ الآتية) وتأمل في دخول البروج في الشهور القبطية ، فإني لما أردت موازته بما في النتائج المعتادة وجدت الفرق يكون يوما أو يومين ، مثلا ترى الشمس قد حلت في السنبلة سنة ١٣٤٣ هـ التي هي سنة تأليف هذا الكتاب يوم ٢٢ المحرم وهو يوم ١٧ مسرى وفي الجدول يوم ١٩ وحلت في الميزان يوم ١٢ مسرى ، وفي الجدول يوم ١٤ وحلت في العقرب يوم ١٣ من بابيه وفي الجهدول يوم ١٥ منها ، وحلت في القوس يوم ١٣ هاتور ، وفي الجدول يوم ١٤ منه . وحلت في الجدى يوم ١٢ كيهك ، وفي الجدول يوم ١٤ منه ، وحلت في اللؤلؤ يوم ١١ من طوبه ، وفي الجدول يوم ١٣ منها . وحلت في الحوت يوم ١١ من أمشير ، وفي الجدول يوم ١٣ منه ، وحلت في الحمل يوم ١٢ من برمها ، وفي الجدول يوم ١٣ منه ، وحلت في الثور يوم ١٤ من برمودة ، وفي الجدول يوم ١٤ منه ، وحلت في الجوزاء يوم ١٢ من بشنس ، وفي الجدول يوم ١٤ منه ، وحلت في السرطان يوم ١٤ بؤنه ، وفي الجدول يوم ١٦ منها ، وحلت في الأسد يوم ١٤ أبيب ، وفي الجدول يوم ١٧ منه فإنت ترى من هذا أن هذا الجدول الذي جاء في الكتب القديمة يخالف الحساب اليوم في يومين غالبا وقد يكون يوما ، ويندر أن يكون ثلاثة أيام ، والقصد من ذكر الجدول بيان نظام الله تعالى الذي لا يتغير ولا يتبدل على مدى السنين ، فأما تلك الفروق القليلة فان الذي أوجبه تداول السنين وتغير أوضاع الكواكب الثابتة ، وذلك يعرف من مسألة مبادرة الاعتدالين ، ولانظيل في ذلك ، ولندكر لك قبل ذكر الجدول مقدمة تعلم منها عجائب الحساب عند الأمم ، فقول :

الكلام على السنة الاصطلاحية

وهي التسمية وشهورها اثنا عشر شهرا كما في السنة الطبيعية إلا أن كل طائفة راعت دوران سننها جعلت في أشهرها زيادة في الأيام إما جملة واحدة وأما متفرقة ، وسمتها نسيبا بحسب ما اصطالحوا عليه ،

وعدد أيامها عند جميع الطوائف من القبط والفرس والسريان والروم وغيرهم ثلاثمائة يوم وخمسة وستون يوما وربع يوم فنكون زيادتها عن العربية عشرة أيام وثمانية أعشار يوم وخمس سدس يوم . وقد قال بعض حذاق المفسرين في قوله تعالى : « وليشوا في كهفهم ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعا » انه ان حل على السنين القمرية ، فهو على ظاهره من العدد ، وان حل على السنين الشمسية فالسنة الزائدة هي تفاوت زيادة الشمسية على القمرية لأن في كل ثلاثمائة سنة تسعة سنين لا تحل بالحساب أصلا .

قال صاحب مناهج الفكر : « وكذلك كانوا في صدر الاسلام يسقطون عند رأس كل ثلاث وثلاثين سنة عريضة ، ويسمون سنة الازدلاف ، لأن كل ثلاث وثلاثين سنة عريضة اثنتان وثلاثون سنة شمسية تقريبا . قال : وإنما جعلهم على ذلك الفرار من اسم النسيء الذي أخبر الله تعالى انه زيادة في الكفر . ثم اعتبروا السنة الشمسية اختلفت مصطلحاتهم فيها بحسب اختلاف مقاصدهم .

(المصطلح الأول) — مصطلح القبط ، وقد اصطالحوا على أن جعلوا شهرهم ثلاثين يوما كما تقدم فإذا اقتضت الاثنا عشر شهرا أضافوا إليها خمسة أيام يسمونها أيام النسيء ، يضاعفون ذلك ثلاث سنين متوالية فإذا كانت السنة الرابعة أضافوا إلى خمسة النسيء المذكورة ما اجتمع من الربع الزائد على الخمسة أيام في السنة الشمسية فتصير ستة أيام ، ويجعلونها كهيئة في تلك السنة ، وبعض ظرافتهم تسمى الخمسة الزيادة السنة الصغيرة . قال أصحاب الزيجات : وأول ابتدائهم ذلك في زمن أغسطس ، وكانوا من قبل يتركون الربع إلى أن تجمع أيام سنة كاملة ، وذلك في ألف سنة وأربعمائة واجدى وستين سنة ، ويسقطونها من سنينهم ، وعلى ذلك المصطلح استقر عملهم بالسيار المصرية في الاقطاعات والزرع والمخارج وماشا كل ذلك .

(المصطلح الثاني) — مصطلح الفرس ، وشهورهم كشهور القبط في عدد الأيام على ما تقدم ، وقد أطال فيه التلقندي .

(المصطلح الثالث) — مصطلح السوربان ، وشهورهم على ما تقدم منها سبعة أشهر يزيد كل شهر منها يوما على الثلاثين كما سيأتي في الجدول الآتي في الصحيفة التالية ، فنكون الزيادة سبعة أيام يكمل منها شباط وهو ثمانية وعشرون يوما بيومين يبقى خمسة أيام وهي نظير النسيء في سنة القبط والفرس .

(المصطلح الرابع) — مصطلح اليهود ، ولا حاجة للإطالة فيه ، والذي يهمنا أن نبين لك في الجدول الآتي في الصحيفة التالية السنين الرومية والقبطية والسريانية والفصول والبروج وعدد أيام الشهور والمنازل وطلوعها بالفجر

الفرض الثاني في الكلام على قوله تعالى : وتصريف الرياح

قدمت الكلام على الرياح في تفسير سورة الحجر ، وهو مفصل أيضا في سورة الأعراف . فترى هناك كيف كانت الرياح تمر بين استراليا والهند والصين ، ولا بد من إيضاح المقام هنا ليجب المسامحة من محاسب تدير الله تعالى .

أنظر أيها القاري إلى الشمس في سيرها كما تراه في الجدول ، وكيف انتقلت في البروج ، وانظر آثارها ، آثارها هي الحرارة بالقرب ، والبرودة بالبعد ، فيسبحان الله : حرارة بقرها وبرودة ببعدها يكون بهما نظام أرضنا ، وكيف يتم النظام إلا إذا كان ذلك بحساب . هأنت ذا رأيت الحساب ، فانظر الآن إلى الأرض عند خط الاستواء ، ألم تر أن الشمس هناك شديدة الحرارة ، انها تلمح دائما على تلك المنطقة ، فإذا يحصل يحصل أن الهواء يسخن ، يسخن جدا ، ومتى سخن علا في الجو ، وهذا العلو لابد أن يصل إلى غاية متناه لشدة الحرارة هناك بحيث لا يكون للهواء في الأرض علو فوق علوه ، ومتى وصل إلى نهاية العلو قابل الطبقة

جدول في الفصول

وبيان الزيادة والنقص في الليل والنهار من التراجيح كل يوم مع بيان البروج وتدخّلها في الشهور القطبية وتدخّل الشهور القطبية في الشهور السريانية المنصّة الموافقة لشهور الرومية ، وذكر المنازل وطلوعها بالبحر محسوبة بالشهور القطبية ، واعلم أن هذا الجدول يفهم القارىء على وجه التقريب عدد ساعات النهار والليل ودقاتهما في كل فصول السنة ، فهو نتيجة اجالية دهرية ، واعلم أن كل مقدار نقص النهار زاده ليله وبالعكس

التقسيم والزيادة في الليل والنهار	البروج	اليوم الذي يدخل فيه البروج من الشهر	الشهور القطبية السنوية لبطليموس	شهور السريانية السنوية للاسكندر	عدد الايام	شهور الروم السنوية لاصت	عدد الايام	المنازل	طلوعها بالبحر
ينقص النهار	الميزان	١٤ من	توت يدخل في	٢٩ آب	٣١	أصت	٣١	الشرطان	٢٣ برمودة
نصف درجة	العقرب	١٥ من	بابه يدخل في	٢٨ الجول	٣٠	سبتمبر	٣٠	البطين	٦ شناس
ثلث درجة	القوس	١٤ من	هاتور يدخل في	٢٨ تشرين الأول	٣١	أكتوبر	٣١	التريا	١٩ شنس
يزيد النهار	الجدي	١٤ من	كبيك يدخل في	٢٧ تشرين الثاني	٣٠	نوفمبر	٣٠	الديران	٢ بؤنه
سبعين درجة	الدلو	١٣ من	طلوبه يدخل في	٢٧ كانون الأول	٣١	ديسمبر	٣١	الهقعه	١٥ D
ثلث درجة	الحوت	١٣ من	أشبر يدخل في	٢٦ كانون الثاني	٣١	يناير	٣١	الهقعه	٢٨ >
يزيد النهار	المحل	١٣ من	برمهات يدخل في	٢٥ شباط	٢٨	فبراير	٢٨	الدرع	١١ أيب
نصف درجة	الثور	١٤ من	برموده يدخل في	٢٧ آذار	٣١	مارس	٣١	النزه	٢٤ >
ثلث درجة	الجوزاء	١٤ من	شنس يدخل في	٢٦ نيسان	٣٠	أبريل	٣٠	الطرفه	٧ مسرى
ينقص النهار	السرطان	١٦ من	بؤنه يدخل في	٢٦ ايار	٣١	مايو	٣١	الجبه	٢٠ مسرى
سبعين درجة	الأسد	١٧ من	أيب يدخل في	٢٥ حزيران	٣٠	يونيو	٣٠	الخرتان	٤ نسيه
نصف درجة	السنبلة	١٩ من	مسرى يدخل في	٢٥ تموز	٣١	يوليو	٣١	الصرفه	١٣ توت
						الموآء			٢٥ توت
						السهاك			٨ باب
						الغفر			٢١ باب
						الزيانان			٤ هاتور
						الاكيل			١٧ >
						القلب			٣٠ >
						الشوله			١٣ كبيك
						التطيم			٢٦ >
						البلده			٩ طلوه
						سعد الفذاح			٢٢ >
						سعد بلع			١٥ أشتبر
						سعد السورد			١٨ >
						سعد الأخبية			أول برمهات
						الفرغ المقدم			١٤ >
						الفرغ للؤخر			٢٧ >
						بطر الحوت			١٠ برمودة

الباردة ، لأنك تعلم أن زوايا انعكاس الضوء تكون منفرجة كلما ارتفعنا الى أعلى ، وتزيد انحرافا كلما زاد البعد امتدادا ، وهناك تزيد البرودة وتقل الحرارة تدريجيا بعكس طبقات الأرض ، فانك كلما أوغلت فيها نقصت البرودة وازدادت الحرارة ، فلذا وصل الهواء المرتفع الى الطبقة الباردة اجتمع فصار سحابا فأمطر ، فالطرهناك دائم لسوام التبخر ، وهذا الهواء الذي ارتفع الى أعلى اذا وصل الى منتهاه أخذ يسير جهة الشمال ووجهة الجنوب لأن هواء غيره يحل محله من أسفله لشدة الحرارة على الأرض ، والهواء الذي يحل محله آت من الشمال والجنوب ، وهذا الهواء الجديد يتأثر سرعيا بالحرارة فيرتفع أيضا ويحل مكانه غيره ، وهكذا ولتلك تهب دائما نحو خط الاستواء رياح من الشمال الشرقي ومن الجنوب الغربي نسمى الرياح المنتظمة أو الرياح التجارية ، وهذا الهواء المرتفع المتجه الى الجنوب والشمال لا يزال يسير حتى يصل الى درجة (٢٥) شمال و جنوب خط الاستواء ، فاذن يثقل ويهبط الى الأرض ، ومتى وصل سطحها السعة الحرارة فارتفع ثانيا فلكأن الحرارة عصا من عصي الله يضرب بها الهواء فيرتفع وينقسم قسمين : أحدهما يرجع الى خط الاستواء ، والثاني يذهب الى جهة القطب ، فما يتجه جهة خط الاستواء يسمى بالاسم المتقدم وهي الرياح المنتظمة أو التجارية ، والتي تتجه الى الجهة القطبية نسمى الرياح المتغيرة ، أو التجارية الضدية ، فلذا وصلت الرياح التجارية الضدية الى الدائرة القطبية الشمالية والدائرة القطبية الجنوبية ، فهناك يرتفع الهواء كما ارتفع عند خط الاستواء لأنه يقابل الهواء اليازر الآتي من جهة القطبين ، فهذا الهواء البارد يحل محل ذلك الحار فيرتفع الحار ويحل محله الرياح القطبية الشمالية والرياح القطبية الجنوبية كل منهما في مكانه . ثم انك ترى جنوب آسيا الغربي وجنوبها الشرقي تهب عليها رياح غير ما تقدم تسمى الرياح الموسمية ، ذلك أن داخل القارة في فصل الصيف أشد حرارة من البحار المحيطة بها ، ذلك لأن اليابس يتأثر بالحرارة أسرع من الماء وأشد منه فاذن يصعد الهواء عن سطح الأرض ويحل محله هواء آخر يهب من الجنوب الغربي والجنوب الشرقي فيحدث كثيرا من الأمطار على الشواطئ ، أما في فصل الشتاء فانه يكون بالعكس فيكون داخل القارة أبرد من البحار المحيطة بها ولذا تخرج الرياح منه الى الجنوب الغربي والجنوب الشرقي ، وتكون جافة وشديدة البرودة . وهناك نسبان أحدهما يسمى نسيم البر ، والآخر نسيم البحر ، فترى الجهات القريبة من البحار تهب فيها الهواء نهارا من البحر الى البر ، ويسمى نسيم البحر ، وفي الليل يهب من البر الى البحر لأن الأرض تتأثر بالحرارة أسرع من البحر فتكون في النهار أكثر حرارة من البحر فيرتفع هواؤها ويحل محله نسيم البحر الذي هو أقل حرارة . أما في الليل فان البر يكون أبرد من البحر لسرعة تبرده لأن ما يسخن بسرعة يبرد بسرعة ، ومعنى برد البر ليسا ثقل هواؤه ، فأما هواء البحر فانه لا يزال خفيفا لأن البرودة لا تسرع فيه كسرعتها في البر فيجري نسيم البر الثقيل ويبرد نسيم البحر الخفيف الى أعلى ، ففي النهار يكون الهواء على البر أكثر حرارة وأقل كثافة من هواء البحر فيرتفع الأول ويحل محله الثاني ، وفي الليل بالعكس .

الأنجب مما ترى هواء جهة خط الاستواء ارتفع بالحرارة فوصل الى الطبقة الباردة حل محله من أسفله هواء من الجنوب والشمال فصار هوالا الجهتين حتى وصل الى قرب مداري السرطان والجدي فتقل فهوى الى الأرض لأنه وجد الجو أبرد فقابلته الحرارة فارتفع واتجه الى خط الاستواء بعضه والى الدائرتين القطبيتين البعض الآخر ، ولما وصل الى الدائرتين القطبيتين عمل معه مثل ما حصل له في خط الاستواء ارتفع الى أعلى وحل محله البارد الآتي من القطبين ، وهكذا تجدد قارة آسيا اذا كان الحر في الصيف أنها النسيم من البحر على شواطئها الجنوبية فكثرت الأمطار . واذا كان الشتاء برد جوهها حل محله النسيم البحري الذي هو أقل كثافة فهب النسيم من نفس القارة الى البحار ، وهكذا نسيم البر والبحر في كل مكان بالليل والنهار على هذه القاعدة يذهب نسيم البحر الى البر نهارا ونسيم البر الى البحر ليلا ، وكل هذه الرياح على قاعدة

أسباب كثرة الأمطار

(١) أسباب كثرة الأمطار أن يرتفع البخار فيصل للطبقة الباردة كما في خط الاستواء فان شدة الحرارة ترفعه الى أعلى جدا فيصيب الطبقة الباردة فيمطر ، ولما كان ذلك أمرا دائما كثرت الأمطار هناك .

(٢) وكذلك في الجهات التي تكون الجبال فيها ، فان الهواء اذا قابل الجبل اضطر أن يرتفع فيصعد الى الطبقة الباردة ، ولذلك يكثر المطر على سفوح الجبال ، فالهواء في خط الاستواء انما ترفعه الحرارة ، وعلى سفوح الجبال ترفعه الجبال .

(٣) وهكذا الرياح الضدية المتقدمة تنجس من الجهات الحارة الى الباردة وان لم تكن مرتفعة ، ولذلك يسقط مطر غزير على القسم الغربي من أوروبا .

(٤) وتري الرياح الموسمية المتقدمة من هذا القبيل ، فانها تهب على جنوب آسيا الشرقي في فصل الصيف لأنها كما علمت تنقل من خط الاستواء الى الجهات الشمالية التي تزيد برودة عليها فيسقط مطر غزير على بلاد الهند والصين واليابان . وتحقيق هذه وإيضاحها في سورة الأعراف عند الآية التي ذكر فيها الرياح ، وكذلك في سورة الحجر عند آية : « وأرسلنا الرياح لواقح »

هذا هو معنى قوله تعالى هنا : « وتصريف الرياح » . ها أناذا أدعوك لتتفكر وتصريف الرياح ، أدعوك لتتأمل كيف كان أصل هذا كله ؟ أصله الشمس ، فلو وقفت ولم تتحرك لكان للعالم شأن غير هذا ولكنها تحركت بالحساب الذي في الجدول السابق ، وبحركتها أزعجت الشعاع والحرارة على الأرض ، ولما أزعجها عليها رفعت الهواء جهة خط الاستواء ، وحركت ريحين شمالية وجنوبية ، وهذان اتجها الى الجهتين ونزلا عند مداري السرطان والجدي وارتفعا وسافرا الى المدارين ، وهكذا خفض ورفع في أماكن معينة وفي كل ذلك تنزل أمطار في مواضع وتمتع في أخرى ، وانظر كيف نصب الجبال في بعض المواضع ، ونصب البرودة في أخرى ، فالجبال ترفع الهواء فيصل الى الطبقة الباردة فيمطر ، وهكذا البرودة التي عند الدائرتين القطبيتين تقابل 'رياح الحارة' فتكون لها قائمة مقام الطبقة الباردة : « إن ربي لطيف لما يشاء »

يارباه : جعلت الحرارة سببا للوصول للطبقة الباردة ، وكذلك الجبال ، وهكذا أنزلت البرودة فتقابلت الحرارة لانزال المطر ، فالبرودة إما أن يرتفع الهواء اليها بالحرارة عند خط الاستواء ، ولما أن يرتفع بالجبال ، ولما أن تنزل نفس البرودة فتقابل الحرارة فينزل المطر ، وهذا معنى قوله تعالى : « إن ربي لطيف لما يشاء »

إنه هو العليم الحكيم » وبهذا يفهم لم ابتدأ السورة وختمها بهذين الاسمين « العزيز الحكيم » بمثل هذا فلنفهم أيها النبي معنى العزة والحكمة ، وبمثل هذا تفسر أسماء الله الحسنى ، انظر في السورة ابتدئت بالعزة والحكمة وختمت بهما ، فهو عزيز ، عز فقلب ، وقهر الهواء والماء ، وتصرف فيهما بالحرارة والبرودة ، وجعل الشمس مسيطرة عليهما ، تقرب وتبعد بنظام ، وتؤثر فيهما بنظام ، انظر كيف كانت الرياح ترفع بالحرارة وبالجبال ، أو تقابل البرودة ، وكل ذلك لنتائج معلومة ، وذلك كله بحسب متقن ظاهري حركات الشمس ، ألا ترى الى نسيم البر والبحر والرياح الموسمية صيفا وشتاء ، أليس ذلك كله تابعاً لحركات الشمس ليلاً ونهاراً في الأول وصيفا وشتاء في الثاني ، فالأول تابع لحركتها حول نفسها ، والثاني تابع لحركتها حول الشمس ، هذا هو معنى الحكمة ، وهذا هو معنى العزيز الحكيم ، وكررها في الأول والآخري ليفهمنا هذه المعاني ، وليقول لنا هكذا فلنعرّفوا كتابي ، كتابي أنزلته لتدبروا معني ، فإذا قلت إني عزيز وحكيم

فلتقرروهما في صنعتي لافي خيالكم .

بهذا وأمثاله فليدرس القرآن ، وبه وبأمثاله فليترق المسلمون ، وقد جاء أوامره ، وحل زمانه ، والله أذن به ، والله هو العزيز الحكيم . والى هنا تم الكلام على اللطيفة الثانية والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

بهجة العرفان ، في جزائر المرجان

في آية : الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ما كتبت أكتب هذا العنوان حتى حضر صاحبي العلامة المفضل الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير . فقال : إن هذا العنوان يدل أنك تريد ذكر أهم عجائب البحر وهو المرجان ، والمرجان قد تقدم الكلام عليه ، ورسمة في سور كشيرة كسورة النحل وكسور غيرها ؟ فقلت : ههنا أمر أعجب ! وعلم أبداع لم يسبق له نظير ، ههنا الجمال والحكمة وسعادة الدنيا والآخرة ، ألم تذكر أيها الذكر يوم أن كنت تناقشني في عجائب الحساب الذي وضعت بعضه في ﴿ سورة الرحمن ﴾ فيما سيأتي عند آية « الشمس والقمر بحسبان » وبعضه الآخر في ﴿ سورة الذاريات ﴾ عند آية « وفي الأرض آيات للموقنين » وفي أنفسكم أفلا تبصرون » قال : أذكر ذلك ولا أنساه . قلت : ألم تذكر أنني وقعت في يدى مجلة انكليزية وعنوانها هكذا : « منظر في ملكة الحيوان ، بسحر الأبواب ، وبحركة الوجدان » وفيها صور المرجان البديع التي أخذت بلي ، أتذكر ما فلت لك إذ ذاك ؟ قال : قلت لي إن هذه الصور للمرجانية حديثة العهد لم يطلع الناس عليها إلا اليوم ، ولقد أخذت بلي كما أخذ الحساب الذي نحن بصدده بمجامع قلبي . قال : نعم نعم أذكر ذلك . قلت : فاذ كرملخصه لتظهر المناسبة بين بدائع الحساب التي في نفوسنا ، وبدائع المرجان التي خلقت في بحارنا ، فقال : إن ذكر الشمس والقمر وانهما بحساب في ﴿ سورة الرحمن ﴾ وكذلك ذكر أن في أنفسنا آيات ، واننا مطلوب منا إيسارها ودراستها استبان منه أن كل كوكب وكل شجر ونبات لا وجود لها إلا بحساب في حركات الكوكب ذى الأجزاء اللاتي تركيب منها النبات الخ وهناك ذكرت أنواع الحساب من الجذر والتربيع وحساب مثلثات اقوام الزوايا التي ترجع في حسابها الى (١-٢-٣-٤) وهكذا ، وأن الجذر والتربيع في هذه الأعداد البسيطة ينتج مثلثات قوائم الزوايا لاحصرها ، وهناك بدائع وعجائب مثل النظام لارتفاعات الأوتار والقواعد ، وهكذا للاحصر له ، وذكرت هناك كيف كان الكسر الدائر المركب يشبه سير الكواكب في حسابها ، فهي منظمات لاحصر لأدوارها ، ومن أهم ما تقدم في الموضوعين صور الأوقاف التي نقلتها من كتاب خواص الأعداد للرحوم على مبارك باشا الذي ترجمه من اللغة الفرنسية ، وأثبت فيه كيف كان جمال الأوقاف وحسابها وكيف كانت هذه الأوقاف من عجائب الحساب الكامن في نفوسنا المستمدة من نوره عز وجل ، وأن اتساعها لتلك العلوم المدهشة المنظمة فتح باب لقاء الله ، وأن الأمم الاسلامية اللاحقة تبعا للأمم الوثنية السابقة لما انحطت مداركهم أخذوا يستعملون تلك الأعداد في الأدعية وجلب الرزق بالعزائم والدعوات ومزجها بآيات القرآن ، والسابون كانوا يتقدمون بها الى الكواكب ، هؤلاء وهؤلاء ضلوا السبيل في أواخر قرونهم مع أن هذه العلوم مرقية للام والعقول ، مرغبة في لقاء الله ، مصفرة لأمر الحياة القانية الجاهلة . هذا ما أذكره ، ولكن اذا تفضلت بذكر وفق واحد من تلك الأوقاف ليكون جالها وانحما بحيث لا يتكرر مع الأوقاف الآتية هناك ويفيد فائدة أتم ، فانه به يتبين ما مناسبة جزائر المرجان للحساب ؟ فقلت له : المذكور هناك أن الأوقاف إما فردية واما زوجية ، وكلاهما تكون في المتواليات العددية والمتواليات الهندسية ، وأنا لا أذكرها إلا وقتا فرديا فيه المتواليات الهندسية ، وهذه المتواليات وان كانت موضوعة هناك في وقتها لم يبين

هناك كيف يوضع كل جدول فردي ، فني عرف الأذكياء وضع هذا الجدول التردى وملته بالتوالي الهندسية قاسوا عليه كيف يضعون المتوالي العددية في الثلث ، وكيف يضعون المتوالي الهندسية والعددية في كل وفق فردي نجس ومسندس ومسبح الى مالا حصر له ، وهاهوذا :

		١		
	٨		٢	
٦٤		١٦		٤
	١٢٨		٣٢	
		٢٥٦		

فهذه متوالي هندسية وضعت ثلاثة أعداد في الصف الأول الأيمن وتركتناصفا يليه وأزلنا ٣ تليها في الصف الثالث وتركتنا صفا يليه وأزلنا الأعداد الثلاثة الباقية من ٦٤ الى ٢٥٦ في الصف الأخير ، ولاجرهم أن الثلث الأصلي هو الذي أحيط بخطين في داخله ٤ مربعات لارقم بها ، فهذه المربعات يملا كل منها بما فرقه في صفه من الأرقام بشرط أن يكون الرقم الأبعد لا الرقم الأقرب ، فرقم ١ يوضع أسفل ورقم ٢٥٦ يوضع أعلى ، ورقم ٦٤ يوضع على اليمين ، ورقم ٤ يوضع على اليسار ، فإذا تم هذا فانك ترى ناتج ضرب أعداد كل صف أفقي أو رأسي أو قطري يساوي مكعب الرقم الذي في قلب الوفق وهو ١٦ وهو ٤.٤.٤. وهناك يظهر رجال الحكمة ورجال نفوسنا ، فان هذا النظام البديع فيه تجلي للنفس وفي النفس أن كل عدد مرتبط ارتباطا وثيقا بما يليه ، وكل صف مساو للصف الآخر وجميع الصفوف مساويات لمكعب الرقم الذي في القلب . ومن عجب أن يكون ذلك العدد هو العدد الخامس من أعداد ٩ فكما كان في وسط الوفق هو وسط في الأعداد ، وهذا من أسرار نفوسنا المملوءة بحجائب وغرائب .

فلما اطلعت على المجلة المذكورة الانجليزية ابتهجت نفسي بمنظر المرجان : وسحره الخلال ، والابداع العجيب ، وخيل لي أن نفوسنا أشبه ببحر متلاطم الأمواج ، وأن حجائب الحساب المنظمة فيها تشبه حجائب المرجان في البحار ، كيف لا وأنا أسرت وأفرح بحجائب هذا الحساب كسروري وفرسي بحجائب المرجان المنظورة المسورة من أقصى البلدان ، أفلا ترى رعاك الله أيها الذكي أن المرجان نوع واحد : وتراه متوجعا تنوعا مذهسا في البحار كما أن الأعداد أصلها الواحد ، وبانضمام ١ آخر اليه كان اثنان والاثان كان منهما كل زوج في جميع الأعداد ، ولاشك انك ان ضربت ٢ في أي عدد فردي أو زوجي كان الناتج عددا زوجيا ، فلا عدد زوجي إلا وهو ناتج من ضرب عدد ٢ . وجميع الأعداد الكاملة والمتحابة الآتي يانها في ذنبك الموضعين نتج من عدد ٢ والأعداد المتحابة والكاملة من الأعداد النادرة البديعة ، ومع ذلك يمكن استخراج مالا نهاية له منها بقاعدة واحدة ستوضح هناك .

فقال صاحبي : هذا القول حسن جدا وجليل ، وتبيان المرجان وصوره البهجة جلال ، ولكنني سمعت كثيرا من أهل العلم يهصر وغيرها يقولون : ما فائدة مثل هذه العلوم سواء أكانت في تفسير القرآن أم في غيره ، إن هي إلا أشياء تسر بها النفوس ، ولكن لفائدة منها في الحياة . فقلت : إن هذه كجة أسمعها في كل مكان ينسلي بها الجهلاء الغافلون الذين هم لاعرفوا علم الشرقيين ولا الغربيين .

إن رقي الحياة وسعادة الممات بحب العلم ، ولو كان ما يقولون حقا ما أغرم الناس في أرضنا بالكواكب البعيدة ، ولاتناسست فيها دول الأرض مع أن الكواكب لا أكل فيها ولا شرب ولا درهم ولا دينار وهاهوذا

علم الأعداد وخواصه لما تركه الشرقيون قديما انتقل الى أوروبا وترجم بههه أستاذنا المرحوم على باشا مبارك مع انى كنت لما قرأت مقدمة ابن خلدون ورأيت فيها عند الكلام على الارتباطى ما يفيد أن هناك فى هذا العلم جداول منظمات بينها مناسبات مدهشات ومجانب ولم يذكر شيئا منها ، اشتقاقت نفسى لهذه الهجائب . وتحسرت على جهلى بها ، فلذلك وضعتها فى التفسير لما حان حينها . فقال : إن هذا الجواب به دحضت حجة هؤلاء الكاسلين ، ولقد آن أوان شرح الصور المرجانية المرسومة فى تلك المجله الانجليزية ، فقلت : إن فى المجله لهجائب :

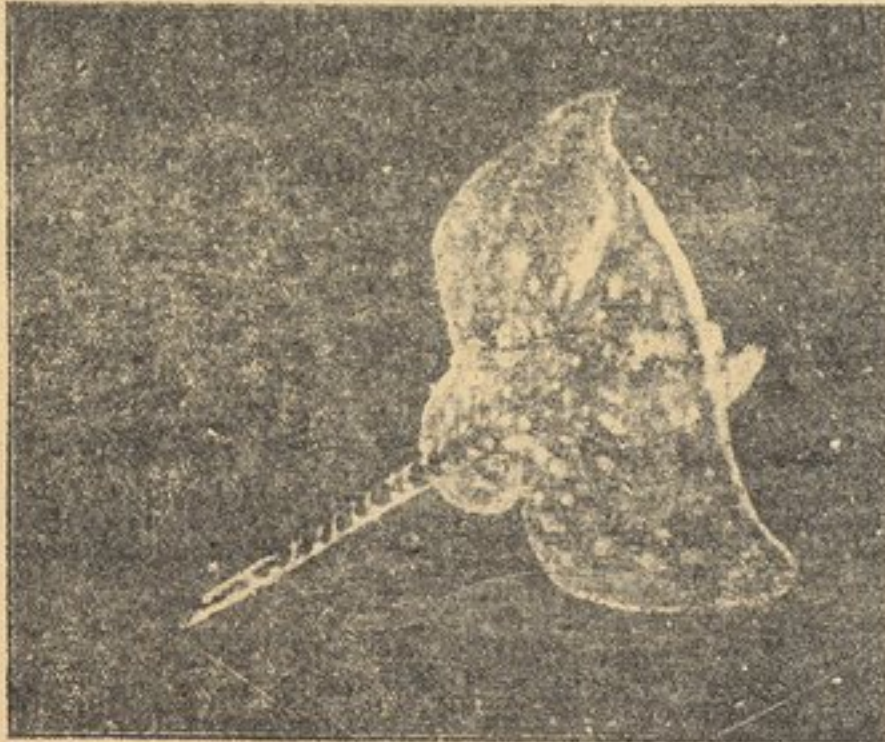
المجيبه الأولى

صور السمك العائش حول سلاسل الصخور المرجانية فى البحار

وهناك صور الأسماك بألوانها . وهذا شرح المجله لها ، وهناك تفصيله : « إن كثيرا من السمك الذى يكثر حول سلاسل الصخور المرجانية فوق وصف الواصفين من حيث بدائع ألوانها البراقه المؤتمرة بهيئه خطوط ملونه مجتمعه وأسمة مختلف ألوانها ظهرا و بطنا ، إن هذه الألوان وإن كانت بهجة لماعة فى أنفسها ليست ظاهرة كما ينظر ، ذلك أنها متناسبات تناسبانا مع السلاسل المرجانية المجاورة لها من حيث ألوانها ، وبهذه المناسبة اللونية الموسيقية البديعه قد بنجو السمك من بسطاده بدون احتياج الى الاسراع فى جريه ، لأنه لا يكاد يميز الرأى بين لونه ولون الصخور البديعه النقش ، وفى أكثر الأوقات بنجو السمك بأن يجرى فى مجارى داخل تلك الصخور ليغيب عن الأبصار »

أقول : وهذه السلاسل لونها الحجره البديعه والبنفسجية ، ولون الشفق والزرقه والصفرة ، وهكذا ألوان السمك ، فترى فى السمكة خطوطا صفراء ، وأخرى زرقاء ، وأخرى جراء ، وكل هذا واضح فى الرسم .

المجيبه الثانية : سمك يسمى النمل المنقوش



(شكل ٤ - سمك يسمى النمل المنقوش)

إن هذا وإن لم يكن مرجانا فهو سمك فيه عجائب وحكم ، كما ترى أن كل سمك يستعين بذيله على العموم ولكن هذا السمك ذيله مفقود ، فلا قدرة له على التحرك به ، فهذا إنما يتحرك بهذه الزعنفة التي تراها أشبه بالمثلث الذي تراه أمامك مرسوما بالصورة الشمسية (الفوتوغرافية)

العجيبية الثالثة : بيض سمك النعل المنقوش

اعلم أن هذا السمك إنما سمي بالنعل لأنه يشبه النعال التي يستعملونها في المشي على الثلج ، فأما نقشه فهو ظاهر واضح أمامنا ، وأما البيض فهذه صورته (انظر شكل ٥)



(شكل ٥ - غلاف بيض سمك النعل المنقوش)

« إن غلاف بيض سمك النعل المنقوش خلقت جوانبه الأربعة من المادة التي صنعت منها أصابعنا ، (وبعبارة أخرى) هو قرن وهو يخلق في مبيض الأنثى محبطين بالبيضة بعدما يتم تكونها ، وفي داخل هذا الغلاف الأسود القرني الصدفي تكون المادة البيضاء من البيضة (الفرقي) وفي وسطه الكرة التي يخلق منها الجنين في داخل ذلك البيض « الملح » (انظر شكل ٦)



(شكل ٦ - غلاف بيض سمك النعل المفرغ منه)

« غلاف سمك النعل ينزل إلى قاع البحر وتمو البيضة في داخله قليلا قليلا ، وبعد أشهر كثيرة يرى سمك النعل الصغير التام الخلقه جائعا فوق قمة (حج البيضة) التي قد امتعت قليلا قليلا ، ثم يحصل هناك تغير كنهاني

في بياض البيضة فيذوب القرن عند طرف من أطرافه ، وهناك تخرج السمكة الصغيرة »

المجيبية الرابعة



(شكل ٧ - قطعة من الجزيرة للسماء - جزيرة الملك)

« إن الجزائر المرجانية (سواء أكان وضعها فوق أكتاف بركان لم يصل في ارتفاعه الى سطح الماء ، أم كانت حول جزيرة ارتفعت في البحر بواسطة أخرى) إنما تبقى قسيرا مستعمرة من سلاسل صخرية في البحار ومن قطع مضمومة لبعضها مهتمة من بقايا تلك السلاسل المذكورات ، وحوالي تلك السلاسل الصخرية البحرية يكون رمل جيل ذوامتدان ، وهذا هو الذي نراه في هذا الرسم المصور بالتصوير الشمسي أمامك الآن وقد اتخذته السلاحف الخضراء الألوان (التي تؤكل) مكانا مناسباً لأن تضع فيه بيضها وهي في هذه وجبور
« إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم »



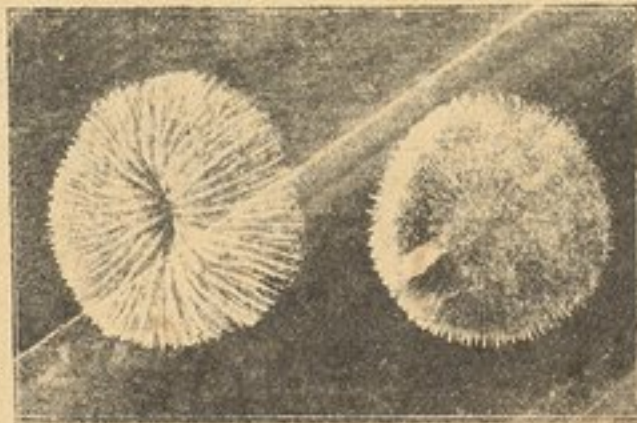
(شكل ٨ — مرجان ورقى يشبه ورق الأشجار)

المرجان الورقى يكون فى جهات فى بخار خط الاستواء ، ويحوى بحجم كبير والمستعمرة الصغيرة منه تشبه الكبيرة :
الحديقة الغناء ، والمروج البهجات ، وحيوان المرجان المتراكم فى تلك المستعمرة تضرب ألوانه للزرقة الخفيفة .



(شكل ٩ — سلاسل الصخور المرجانية)

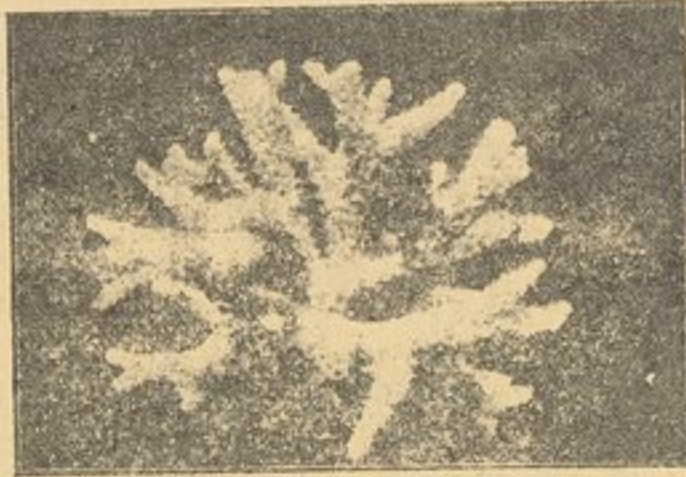
هذه إحدى المستعمرات الكثيرة المكونة من السلاسل الصخرية المرجانية المشتتة على ملاحصر له
من حيوان المرجان الدقيق ، وهو يتضاعف بأحد أمرين : إما بالاتساع ، وأما بحدوث براعم فى الحيوان .



(شكل ١٠ — المرجان الذى يشبه فى هيئته بعض النباتات النطرية الصالحات للأكل خبز الغراب)

وهو يظهر فوق سطح الماء وتحت ، وهذه الصورة المشبهة الفنجال في شكلها هيكل حيوان مرجاني
واحد يشبه من وجوه كثيرة شجرة كبيرة من الشقائق البحرية

المجبية الخامسة



(شكل ١١ - مرجان مشدود بجيوط)

هذه مستعمرة حيوان يعيش على الأعشاب ، وهذه المستعمرة تتخلف مستعمرة المرجان من عتة وجوه
ولكنها تشبهها في أن كلا من أفراد الطائفتين المجتمعين يحيط به مادة كوية لحفظه « فالله خير حافظا وهو أرحم
الراحمين » .



(شكل ١٢ - مرجان مندريبور)

هذه مستعمرات مرجانية لنوع المرجان الحقيقي المسمى (مندريبور) وهو بنموه يشبه الورق المجدول ،
وترى نوعا منه في المتحف البريطاني يحيطه يبلغ ١٦ قدما



(شكل ١٣ - مرجان يشبه الشبكة)

هذه مستعمرة أخرى للحيوان الجليل الذي يعيش على الأعشاب ، وهو أقرب الى اللود منه الى حيوان المرجان ، وما هذه النقط السود إلا فتحات في هذه المستعمرة الشبكية

المجبية السادسة



(شكل ١٤ - مرجان الكوب)

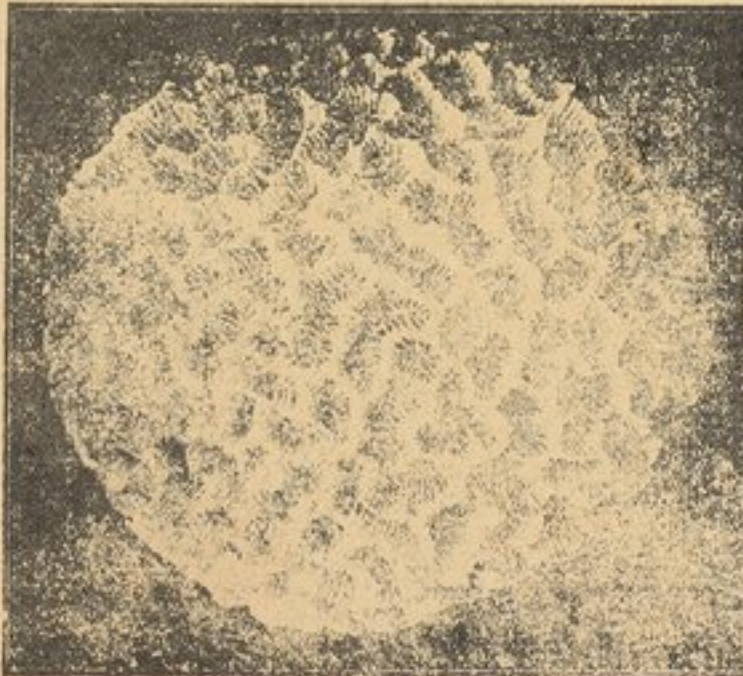
هذا المرجان البسيط البريطاني في حجمه الطبيعي حيوان مفرد يشبه نبات الشقائق البحرية ، وأسفل هيكله مشدود بصخر ، أو حجر ، أو صدف .



هذه مستعمرة بهجة
المنظر بما فيها من
كؤوس الزهر البديع
المحيط بالأغصان
المشبهات أصابع اليدين
وكل كأس من كؤوس
الزهرات عبارة عن
مخارة أو صدفة تشبه
كوباقه حيوان المرجان
المشبه نبات الشقائق
البحرية ، وهذه
المستعمرة تنمو بطريق
البراعم حتى يكون فيها
آلاف من حيوانات
المرجان المجتمعة بأدق
انتظام .

(شكل ١٥ - مرجان المحيط الهندي)

العجيبة السابعة : مرجان كوب البحر
نجم المرجان ، ومرجان كوب البحر



(شكل ١٦ - نجم المرجان)

هذا هيكل جبل المنظر ، بديع الشكل ، لمرجان نجمي فيه انتظمت حيوانات المرحان التي بها انشئت المستعمرة ، إن هذه المستعمرة المرجانية تتكاثر بما يظهر فيها من البراعم التي دائما تتجدد



(شكل ١٧ - هذا كأس بحري من المرحان)

هذا الرسم وان كان يشبه الكأس في شكله ليس قريبا من الكأس المرجانية المتقدمة الذكر (كرو فيليا البريطاني) كلا فان هذا مستعمرة لحيوانات مرجانية كثيرة جدا ، وكؤوس أزهارها البديعات بهيجات ترى في داخل هذه الكأس المكسورة كسرا جزئيا .

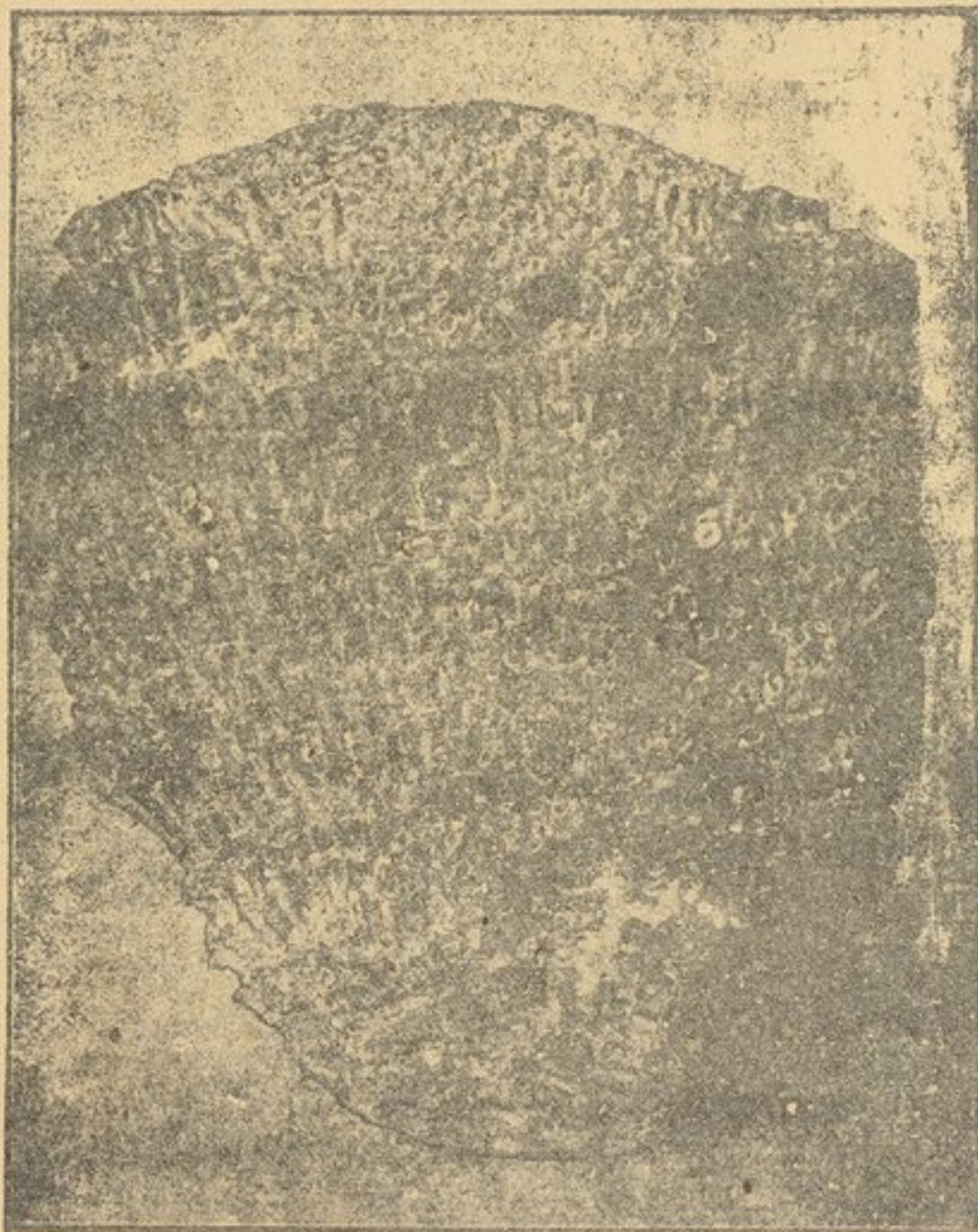
العجينة الثامنة

حصير البحر - أنابيب بحرية مميونة من المرحان



(شكل ١٨ - حصير البحر)

« إن حصير البحر مستعمرة سمراء تشبه من بعض الوجوه الأعشاب البحرية ، وما هي إلا حيوانات دقيقة تنسب إلى فصيلة من فصائل المرجان ، إن كثيرا من جماعات هذه الفصيلة مكونة من الكلس ولتلك يسمى بالمرجان ، ولكن حصير البحر الذي كلامنا فيه له هيكل قرني لين مرين لطيف ، إن أول موضوع كتبه (تشارلس داروين) في العالم الطبيعية كان على حصير البحر »



(شكل ١٩ - أنابيب بحرية مكونة من المرجان)

هذه صورة بمجسمها الطبيعي للأنابيب المكونة من المرجان ، إن كل حيوان مرجاني في هذه المستعمرة

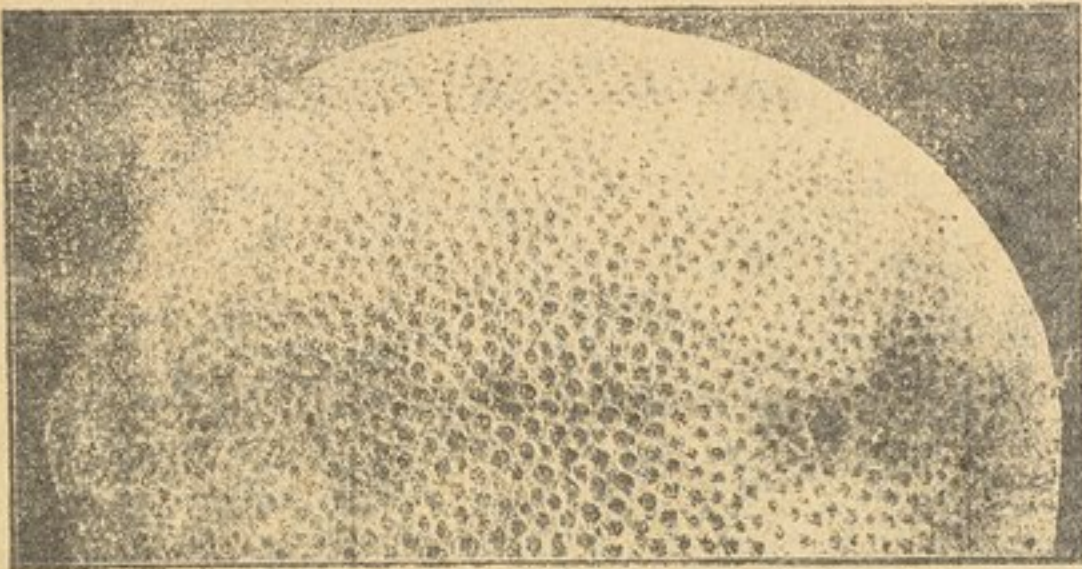
يميش في أنبوبة جراء مكونة من مواد الجير الذائبة ، وهذه الأنابيب منضم بعضها الى بعض مكونات ما يشبه
قلائد الأطفال ، إن هذه الأنابيب الكثيرة العدد مرتبطات ببعضها ارتباطا وثيقا محكما بواسطة قناطر ، وفي
كل أنبوبة حيوان مرجاني يخرج من أهلي جسمه ٨ قرون ريشية خضراء ، إن هذه التفصيلة المرجانية
المسماة (تايبورا) تظهر عادة في الماء القليل (الزرقاق) في أطراف السلاسل المرجانية الصخرية في الدنيا
القديمة والجديدة .

النجية التاسعة



(شكل ٢٠ - مرجان الكوزبان الحلي)

هذه مستعمرة جيلة ذات أغصان تشبه الأعشاب وهي من مرجان الكوزبان ، وهذا النوع يشمل
أصناف المراوح البحرية والأقلام البحرية وما يسمى أصابع الرجال الميتين ، وههنا ترى مئات من حيوان
المرجان انحدت مع بعضها في الحياة بواسطة قناة ، وكل حيوان منها له ما يشبه قرون الحشرات الريشية ، وله
سلاح اتخذه من المواد الجيرية ، ثم إن هذه الحيوانات يجمعهم محور يحفظ الجميع في نظام واحد ويشبهن
المستعمرة .



(شكل ٢١ — مستعمرة المرجان في البحر الهندي)

إن لفظ « مرجان » يدخل تحته مئات من الحيوانات المختلفة الأشكال كما تقدم ، ولكنه يجب أن يعلم أن التاريخ الطبيعي ليس فيه فصيلة اسمها فصيلة المرجان ، وإنما المرجان منسوب إلى فصيلة (الزوفيت) شبه أشجار (الشرين البحري) ، فهناك صنف يقال له : مرجان المديبور ، وهذا ينسب إلى ما يسمى « المرجان النقيق » المنسوب إلى نبات الشقائق البحري المتقدم ذكره مرارا ، وهناك مرجان أسود اللون له ما يشبه الساق الثقيل الشديد ، ومرجان آخر يشبه المروحة البحرية ، وآخر يسمى « هرورون » ينسب إلى « حصيد البحر » المتقدم ، وهناك غير ذلك .



(شكل ٢٢ — شقائق البحر فوق الصخور)

هذه أشبهت باقة الأزهار في شقائق البحر من وجهين : فأولا شعاعها اللامع منتظم في جوانبها ، وثانيا اللون الجميل ، إن جسمها الاسطوانى منبت في قاعدته ، والنم عند قطبها الأعلى محوط بأوراق منتظمة بهيئة دائرة حول الساق ، سلحة بما يشبه قرون الحشرات اللامعات الموفرة للحياة ، إن الشقائق البارزة في هذه الصور الشمسية نوع منها يسمى « يلاموز » ذو قرص موشح بأهداب ذات أشواك كثيرة صغيرة تشبه قرون الحشرات اللامعات .



(شكل ٢٣ - سلاسل الصخور المرجانية في جزيرة «داكو»)

هذه السلاسل الصخرية المرجانية تغطي مساحات شاسعة الأكتاف ، ممتدة الأطراف ، في شواطئ جزيرة الملك ، فأفتيس ما كتبه العالمان « كانت » و « هارلى » ان هذا اللون المنظم البراق يندمج الناظر فيخيل اليه أن أمامه على الشاطئ حديقة ممتدة على مدى الجوانب ، كثيرة الأزهار ، اذا هورق خلب ، سحر العين بمرآه ، إن من المرجان ما تراه وردى اللون ، أو قرنفليه ، أضعيفا يتكسر بأذى لمس ، ويحترق واقعا على الأرض ، ومنه ما هو قوى متين شديد صلابة ، لا تؤثر فيه المطرقة ولا تكسره القنوس



(شكل ٢٤ - الجزيرة البركانية)

إن الجزائر على قسمين : جزائر قرابية (مدسوبة للقارات) أي أنها كانت قطعة من القارة فانفصلت عنها . وجزائر بحرية ، وهي التي تبرز في البحر بسبب احتياج بركاني في البحر ، إن هذه الصورة التسمية ترمزنا الجزيرة البحرية . انتهى ما أردته من المجلة الانكليزية المذكورة

فلما أتت هذه المقالات الشارحات للصور . قال صديقي : لئن صدق ظني ليكون في الأمم الإسلامية بعد اليوم حكما لم يسمح بأمنهم الزمان من قبل ذلك ، إن مباحج الصور ومحاسن الأشكال مفاتيح العلوم وكيف يعقل أن انسانا يحتاج للعلم ، ويشاق للبحث ، إلا بمشوقات ، وصور بهجات ، تبارك الله أحسن الخالقين وكيف يعشق شبان المسلمين العلم ، ويعجبون الأمة ، ويفرمون بصانع العالم ، إلا بمشوقات تراها أهباصهم ، ومعشقات تحرك وجدانهم ، وإذا سمعنا ابن سينا يقول في كتابه : « إن الصوت اللطيف ، والعشق العفيف والعبادة مع الفكر توصل العبد لله » فإن هذه الصور فيها أرق العبادات ، وهي أعظم من المقاني ، أنها لموسيقى بصرية أبعد أثرا من الموسيقى السمعية ، على أن الموسيقى السمعية قد كدرتها القوائد المدلولة بالشهوات الفاسدات ، والأهواء والضلالات ، أما هذه المناظر فإنها قدسية إلهية ، صنعتها يد القدرة ورزقها

بالحكمة فأصبحت هي ونجوم السماء ، ومجانب الزرقاء والغيراء ، جنة عرضها السموات والأرض لخاصة
 المفكرين ، ما أكثر هذا النوع الانساني فانهم عن هذا الجبال غافلون . فقلت : لقد نطقت بعلم وأفدت
 بحكمة . فقال : هذا هو الذي جال بخاطري أثناء هذه المناظر ، وأنا أقرأ في نفسي : « الذين يذكرون الله
 قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا » فالدكر في
 الآية أشبه بمقدمة ، والفكر في خلق السموات والأرض كنتيجة له ، فالناظر في هذه المجانب على هذا الخط
 قد وصل الى النتائج ، ولم تكن الصلاة والصيام إلا معدّات للتفكير ، فصلاة الغافل كإصلاة ، والعبادة لا تقرب الى
 الله إلا مع الفكر ، فهذا هو الفكر وهما في هذه الآية التي نحن بسددنا يذكروا (بعد ذكر البحار وتسخيرها
 وتسخير السموات والأرض لنا) الشكر والفكر ، أي ان نتيجة هذه العوالم هو الشكر والفكر ، وهل للناس شكر
 إلا بعد فكريا فرجع الأمر كله الى الفكر ، وأجل ما يحصر الفكر بشوق إنما هي الصور الجميلة التي لانتهينا
 للشهوات ، وانما انتهينا للعلم بما في الأرض والسموات . ثم قال : هذا ما جال بخاطري ، فهل تسمح لي أن
 أعرف ما أثر في نفسك ، واهتاج به لك ، عند دراسة هذه المناظر . فقلت : نعم أنا عند رسم صورة بيض
 السمك المسمى « النعل المقوش » وهي الصورة الثانية ، خطرت لي وأنا أكتب في شرح تلك الصورة أن أقول
 « إن البيضة تنزل الى أسفل البحر شهورا كثيرة ، فإذا تمّ خلق الجنين حصل هناك تغير كيميائي في بياض
 البيضة فيؤثر ذلك في القرن وهو (القيض) أي قشر البيضة فتخرج السمكة الصغيرة ، إن الصانع الذي
 يبدع هذا الإبداع في صنعه ، وينظر السمكة صغيرة محبوسة داخل حوصلة قووي متين شديد لظرف رجة فيحدث
 في الغذاء المحيط بها عملا وهو التغير الكيميائي في البياض ، فيؤثر في الحصن ، فيسهل على السمكة الصغيرة أن
 تخرج من محبسها وتسمى في الماء وتفرح بنعمة ربها

أقول : إن الصانع الذي يفعل هذا ويريه لنا بأعيننا هو نفسه الذي أسعنا بآياتنا آية « ولكل قوم هاد »
 فلا أمة في هذه الأرض إلا لها هداة يتخلقون فيها ، وهؤلاء الهداة يتولون هدايتها بما يناسب أخلاقها ،
 فهذه جزيرة العرب جاءهم رسول منهم أمة مثاهم فعتقوا كلامه ، وهامم الأنبياء كل يأتي على
 شاة من أرسل اليهم ، وهامم أولاء علماء الاسلام في كل قرن كانوا يتلاحقون ، وهم مصلحون بحسب
 أزمانهم ، ولولاهم لذهب هذا الدين في الأرض . وخطرت لي أن بعض أمة الاسلام اليوم أشبه بهذا الجنين في
 هذا القرن سواء بسواء ، فقد انحطت بعقولهم الخرافات ، فنعتمهم عن الحزبية في دولهم ، وعن الترقى بين أمة
 الأرض ولهم علماء ، ونحن انغمسنا في الجهالات ، فهذه الجهالات المتراكمة أشبه بذلك الحصن المحيط بالبيضة
 المتقدمة ، ثم هؤلاء الهداة في الاسلام الذين ظهوروا في الأصقاع الاسلامية أشبه بما حدث في البيضة من التغير
 الكيميائي ، ذلك أن العلم الصادر من هذه العقول الممتازة في بلاد الاسلام يحلل الجهالات المتراكمة ، فتصفو
 النفوس ، وبهذا التحليل العلمي تتخلص الأمم من الاستعباد الجسمي باحتلال الفرنجة وظلم الحكام الاسلاميين
 ومن الاستعباد العقلي بفور النفوس وبعدها عن العلم بما ذرأ الله في الأرض والسموات ، ولا يزال المسلم يجاهد
 في مباحته العلمية وهو يشهد الله في كل حجر وشجر ، وبحر وجزيرة وأرض حتى ينقذ أمة من الخطر ويرفعها
 الى سماء المجد بأبحاثه ، وهناك ينطلق عند الموت من سجن الأرض الى فسيح عالم الأرواح والسموات كما
 انطلقت السمكة الصغيرة من سجنها الى ماء البحر الفسيح ، ولكنها لم تنطلق إلا بمقدمة كيميائية هي العناية
 الإلهية ، هكذا نفس هذه العناية هي التي تهيب اليوم نفوسا ونفوسا في الأمم الاسلامية تحلل ما تراكم من
 الخرافات ، وبسببها تنطلق عقول أفراد من سجن الضلالات وأجسام ونفوس الأمم من الذل والجهالات
 « إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم »

إن هذه المناظر والمباحث تعشق الناس في ربهم وفي العلوم وفي أهمهم فيدرسون حبا في ربهم وحبا في
 العلم ، ويعملون طبعا لرفق أهمهم ، لأن من أحب الله وأحب العوالم والعلوم لا جرم يحب الأمم . وهذه نهاليت

السعادات في الحياة والمعات .

وأنا أجد الله الذي خلقنا في زمان النهضة الاسلامية التي ستسوخ الجهالات المترامية التي أحاطت بهذه الأمة منذ عدة قرون . فقال : وأنا بالتجربة أثناء نشر هذا التفسير وجدت هذه الآراء بخلافها والأخلاق بأنفسها قد انتشرت بين قراء هذا التفسير . فقلت : أنا لاشك عندى أنهم من دعاء هذه النهضة الحديثة ، والله هو الهادى الى الصراط المستقيم . انتهى صباح يوم الأحد ١٩ ابريل سنة ١٩٣١ م

المعاني المحسمة في الحقل

بضواحي القاهرة يوم ٢٠ ابريل سنة ١٩٣١ م

بسم الله الرحمن الرحيم .

لما أتممت كتابة هذا الموضوع المتقدم رأيت أنى يجب على أن أخرج من القاهرة الى ضواحيها لأستنشق السمات ، وأرواح النفس ، وأى سبيل لذلك أفضل من أن أذهب الى حقلنا الذى أزوره وقتنا فوقنا .
بت ليلة الثلاثاء ٢١ ابريل سنة ١٩٣١ بتلك القرية وكان معى بعض ورق مطبوع من سورة الزخرف لأضع له النهست ، فلما كان يوم الثلاثاء بدت لى ثلاث معان : فى الأكل ، وفى النساء ، رنى السماء ، ذلك أنى وأنا أنعطى الطعام وقربت الشبع أخذت نفسى تحذنى قائلة : « ما هذا الجوع ؟ وما هذا الشبع ؟ إن ههنا قائدين وسائقا ، والقائدان أحدهما باللين ، وثانيهما بالشدّة ، وأولهما أدوم من ثانيهما ، فالسائق للطعام هو الجوع ، والسائق دائماً قاهر للسوق ، والقائد المؤدّب باللين هى لذة الطعام ، والقائد المؤدّب بالشدّة هو المرض وتعاطى للسواء . فعسل الله مع الانسان ما يفعله مع دابة نافرة ، فهذه لابت لها من سائق ، ولشدّة نفورها لابت لها من رجل آخر يكون معه برسيم لتأكله ، والجوع سائق ، ولذات الماء كل قائدات ، وقد يجمع السواء تجربها »

ثم قفنا راجعا الى بلدة المرج لأركب القطار ، فلمحت امرأة تحمل جرة على صدرها حتى لامع ، فما كادت تظهر من بعد حتى حجبته هذه الزينة تأدبا ، وما كاد بصرى يقع عليها حتى أخذ الفكر يحول فى هذا المعنى وهو : « أن جمال الانسان والحيوان محدود من جهات ثلاث : من جهة الزمان ، إذ لا يكون إلا فى زمان معلوم ثم ينطفيء ، ومن جهة المكان ، وهو بعض الأعضاء . ومن جهة المقدار ، فقدره محدود له نهاية »

فأما جمال النجوم والشموس والأقمار ، وجمال البحار ، ولدّر والمرجان الذى تمّ كلامنا فيه ، فإن ذلك ليس محدودا زمانا ، لأننا لانعرف متى ابتدأت هذه العوالم ، ومكانا لأننا لاندرى نهايتها ، ولما مقدارا لأننا لانعرف عدد النجوم ، ولا عدد حيوان المرجان ولا غيرها

وإذا علمنا أن جمال المرأة أوسعها من نوع الانسان محصور بثلاث اعتبارات ، وجمال العوالم غير محصور أدركنا لا محالة النتائج والثمرات واللذات الناتجة عن كل جمال ، فنتائج جمال المرأة هو الولد ، ولولاه لم تحمل ، لأن الجمال إذ ذاك عبث ، ولذلك تحرم هى والرجل من الجمال فى حال الصغر والكبر إذ لا قدرة لهما على التزوية .

أما جمال النجوم والشموس والأقمار ، والأزهار والمرجان فى البحار ، فأنما ذلك لاستخراج اقوى الكائنة فى هذا الانسان ليرقى الى العلا ، فكما أن هذا الجمال لاحد له هكذا لاحد لنتائجه الدلمية . إذن العلم لاحد له ، ويتبع ذلك اللذة ، فهنا علم لاحد له ، ولذة لاحد لها ، فأما فى الانسان والحيوان فذلك كله محدود كما شرحناه

ولما كان هذا الخاطر مناسباً لموضوع المرجان المتقدم أثبتته هنا ، إذ هذه المنحة موافقة لهذا المقام .
ومن عجب أن الانسان لا يشعر له بحد في حوز المال ، ولا في الشهوات واللذات ، ولكن الحد يأتي له قهرا
فيضعف جسمه في طعامه وشرابه ، وتنهجل قواه فلا يقدر على الوقوع ، وتحيط به الكوارث فيقل ماله .
سبحانك اللهم وبحمدك ، أنت بالمرصاد لمن حاد عن ذلك الصراط ، فالذين يتعدون حدودك في طعامهم
وشرابهم ووقاعهم ، ولا يدركون أنك قدرت اللذات فيها بقدر ، يعترهم المرض والضعف والهزال ، وتقصّر
أعمارهم ، ويحل بساحتهم الشقاء ، والفقر والبلاء ، ويعوزهم الطيب ، والدواء الكريه ، كل ذلك لأنهم
لم يزنوا هذه الحياة وزناً حقيقياً واعتبروا المقدمات نتائج ، وذلك لسوء التفكير ، والجهل بالمصير ، كتب ليلة
الخميس ٢٣ ابريل سنة ١٩٣١ وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثالثة والحمد لله رب العالمين

اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى : أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات
سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون * وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل
نفس بما كسبت وهم لا يظلمون

لقد تبين لك في التفسير اللفظي أن قوله تعالى : « وخلق الله السموات والأرض بالحق » جعل برهاناً
على الجزاء يوم القيامة ، وأن هذا العالم بنظام ، والنظام ملازم له ، فمحال أن يكون علماً في كل شيء ،
ويختلف ذلك في الانسان ، ولكن الآن أذكر لك شيئاً عجيباً ! أقل لك آراء علماء العصر الحاضر ، أقل
لك آراء (اللورد اسبنسر) كيف يقول ؟ يقول : « إن الطبيعة نفسها فيها العقوبة ، البعوبة فيها مقدره
على مقدار القرب » ، بل جعل تلك العقوبات من الطبيعة نعمة ، فكأنه نطق بقوله : « وهم لا يظلمون »
وانما جعلها نعمة لأنها منذرات ومخدرات ، فإذا كل ألم نعمة لأنه منذر ومخدر ، وأتى بمثل ما ذكرناه من
عقوبات الطبيعة ، ولا فرق بين قولنا وقوله إلا أنه رجل غربي ، فترى تضاماً الشرق والغرب على رأى واحد
والرأيان يفسران القرآن ، فكأن هذا القرآن أنزل لهذا الزمان ، والافكيف يتبين الآن في هذا الوجود
أن لا عقوبة ، وأن ما يسمى عقوبات بحسب ظاهره هونم بحسب باطنه ، وهو الذي طالما قلناه في التفسير
ويوضح إذن معنى قوله تعالى : « إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن » ، فعذابه إذن تحذير لا غير ،
وقدما في هذا التفسير أن مسألة الكفار وعقابهم الدائم لا أتمرض لها بل أنت سيفتح عليك وتعرف
الحقيقة ، لاسيما اذا قرأت كتاب الامام الغزالي وهو « فيصل التفرقة ، بين الاسلام والزندقه » ، فلا تقل
لك الآن كلام العلامة (اسبنسر) الموافق لما فهمناه من كتاب الله لتعلم أن دين الاسلام سيظهر في مستقبل
الزمان ظهوراً أوسع بعلم أشمل .

قال : « انظر لي نوع العقاب الذي يبدو في الطبيعة ، فانك اذا تأملت وجدته أجدر أن يسمى نواباً
لاعتاباً ، وفرق عظيم بين عقاب الانسان المتكلف وبين عقاب الطبيعة المنظم الحسن الجليل ، إن عقاب
الطبيعة زجر عما أغفلناه ، وتعليم لما جهلناه ، فهو مقدر بقدر الذنوب ، فلا زيادة ولا نقصان » وجزء سبته
سيته مثلها « لا قل ولا أكثر ، فليس في الطبيعة حقد ولا حسد ولا عفو ، فاذا عمر الطفل لطيش فاصطدم
بشيء أمامه لم ينل من الطبيعة ألماً إلا على مقدار محبته وسرعته ، فان قلت قل الألم ، وان عظمت نظم
الألم ، ذلك هو الانصاف والعدل ، تعاقب الطبيعة بذلك وهي ساكنة صامتة لا تبدي حواكها ، ولا نسمع شيئاً ،
فهى بالمرصاد مصممة مؤكدة ماضية في عزمها لا تتنى ، يشاك الطفل بشوكة فيألم ، وكلما عاد الشك عاد الألم
ولذا لم يشك لم يألم . وهذا هو الصدق . فاذا رأى الطفل من الطبيعة ذلك التصميم تأدب أدباً حقاً فتجأ

إن هذه العقوبات ليست خاصة بالأطفال ، فكما أنها لا ترحم صغيرا لا تفرق كبيرا ، فإذا كبر الانسان وليس له والد يزرعه فقدت له الطبيعة بالمرصاد وأذنته كما تؤدب الأولاد ، فإذا كان مأجورا ولم يراع حق العمل وفرط فيه ينزع منه العمل ويترك ليتجرع الضر والفاقة ، ويشرب الكأس التي لاؤها يده .
وترى الرجل الذي يخلف وعده يناله من سوء فعله ما يفقده ثقة الأصحاب بوعدده فتفوت عليه الفرص ويحل به الندم . وترى التاجر الذي يعطى على المتبايعين بضائعه ينفذون من حوله وهو كئيب حزين .
وترى البائع الذي يحسن الظن بالمشترين منه فيبيعهم نسيئة ، وكذلك المساهم المخاطر ، فهذان يناط من ضياع المال ما يؤدبهما ويزرعهما جزاء وفاقا ، إلهما كما لا يرجوان على جهلهما حسابا .
وترى الجائر المضلل يناله الهوان ، والخائن يلحق به الذل والصغار ، فيرجع الى رشده بعد تأديبه ، فتنى تخلص من ورطته ثبت على الهدى ، وتخلص من أسباب الردى ، ولم يخدعه خادع بعدها . ثم طلب بعد ذلك أن يكون عقاب الآباء كعقاب الطبيعة الخ اه
هذا ما يقوله العلامة (السبب) أفلمت ترى أن هذا المعنى بعض قوله تعالى : « وخلق الله السموات والأرض بالحق » . أفلمت ترى هنا بعض الحق أى العدل ، والعدل فى العقاب . ثم انظر الى قوله تعالى : « ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون » كأنه يقول :
أيها الناس : ما ظلمتكم ، إنما أنتم أطفال ، وليس فى طبيعة العالم الذى تسكنون فيه أن ترتقوا إلا بما فعلناه ، نشوكم الشوكة فتألمون وألمكم لمنفعتكم ، فالألم نوع من الاحساس به تكون العلوم ، فكما تحلون المسائل الهندسية والحسابية والجبرية والفلكية بصفاء عقولكم ، هكذا تفهمون مضار الطبيعة بحاسة اللس المتلوقة فيكم ، فالعلم علمان : علم تدركه العقول ، وعلم تدركه الحواس وبكلاهما لا ترقى نفوسكم والنتيجة أن تكونوا عاقلين . فإذا كان الألم علما فليس ظلما . إنما الظلم ألم لا فائدة منه . وفى هذا الألم أكثر فوائد الانسان . انتهى الكلام على اللطيفة الرابعة

اللطيفة الخامسة

فى قوله تعالى : إنا كنا نسفخ ما كنتم تعملون

اعلم أن قول الله : « إنا كنا نسفخ ما كنتم تعملون » قد عبر عنه علماء الأرواح الذين سألوها ، فأجابت بحقيقة أحب أن أذكرها لك هنا سواء أصحت عندنا أم لم تصح ، فلا ذكرها وليفكر فيها عقلاء المسلمين ، وليحضروا الأرواح ، ويسألوها كما يسألها أهل أوروبا ، فإذا كان المسلمون لم يتعلموا هذا العلم فليس ذلك بممانع أن نذكر منه ما وافق المقام ، بل انه معجزة للقرآن ، بل هو نفس قوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » سأقول لك ما ذكره علماء الأرواح لفائدتين : الأولى أن ما سمعته هو عين قوله تعالى : « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » . الثانية : أنك متى وقفت على ما أقوله الآن يتريك خشية وخوف شديد أكثر مما فى الكتب السماوية لأنك ترى أن كل كلمة ، وكل فكرة ، وكل خاطرة تخطر لنا ترسم فى أجسامنا الروحية وهذا أمر عظيم ، فان الانسان يصبح بهذا خائفا وجلا اذا أدرك أن كل ما يجول بخاطره يرسم على جسمه الروحي ، فإذا مات ظهرت جميع الآثار ، ذلك أمر عظيم ، فلا كنت بالمقدمات ، ولأشعر فيما قالوه . قالوا ما ملخصه : « إن الحيوان فى هذه الأرض إما أن يكون فى الماء ، أو فى الهواء . فالذى فى الماء لا يستطيع الحياة فى الهواء ، والذى فى الهواء لا يستطيع الحياة فى الماء . هكذا هناك عوالم فوق الانسان والحيوان تعيش فى عالم يسمى (الأثير) وهو عالم لطيف أطف من النور يحيط بأرضنا وبالأراضى والعوالم الأخرى ويقولون

إن أرضنا عالم متأخر خلقت فيه أرواح متأخرة هي أرواحنا ، أخلاقها وحشية ، قريبة من أخلاق البهائم ، لذلك عشنا معها في دار واحدة ، ويحيط بأرضنا مادة أثيرية أظف ألف مرة من الهواء ، ولكنها بالنسبة للمادة الأثيرية المحيطة بغيرها من العوالم أخشن وأخشن بما لا حد له ، وكلما كان الإنسان أظف أخلاقاً متجسداً من الأناية استحق النقل إلى عالم يناسبه ، وكلما كان أحسن أخلاقاً ، وأغزرجياً ، وأرفع لبني جنسه ازداد نقاء ، ويرتفع من عالم إلى عالم ، وليس هناك مانع من الموانع تصد الإنسان عن الرقي إلى العوالم العالية إلا ذاته فانها إن لم تستعد لتلك العوالم تبقى في مكانها الخاص بها كالأرض التي نحن عليها ، فهي إذن أشبه بالمسك لا يصدّه عن الأرض إلا ضعفه عن استنشاق الهواء ، وكالإنسان لا يصدّه عن الحياة في البحر إلا أن الماء أغلظ من الهواء فيقتله ، فاذن كل عالم من عالم الأرواح المفارقة أجسادها وهي في البرزخ محكوم عليه أن يعيش في عالم خاص ، فلوانه تجاوز عالمه الخاص لم يتحمل ما هو فوقه بل يكاد يكون فيه معدوماً فيرجع أسرع من البرق إلى عالمه ، هذا ما يقولونه في الأرواح بعد مفارقة الأبدان

أعمال الأرواح

ثم إن الإنسان في الحياة الدنيا وهو في هذا الجسم المادّي يقولون انه يحيط به مادة أثيرية ، وفكره مساطع عليها ، مؤثرفها ، فسكل فكر أو عمل لابد أن يرسم في جسمه الروحي (المنطبق على الجسم المادّي) الذي سبق بعد الموت معه ، ثم ينتقل الفكر من جسمه الروحي إلى السائل المحيط به فيحدث فيه صلاحاً أو فساداً كما تنتقل الروائح العطرية والمكروهة إلى الأجسام حولنا بالهواء ، فالمادة الأثيرية موضوع أعمال الأرواح في الحياة وبعد الموت كما أن الهواء محل أترالأسوات ، فترى للنفس علائق بالأرواح المحيطة بها ، والسائل الأثيري ينقل آثارها إليهم وآثارهم إليها ، فترى أننا إذا كنا في جمع ملتئم نحس ببرور منشوء ذلك السائل ، وإذا تحدنا مع من يبغضنا وبغضه نحس بتنافر في قلوبنا ، فإذا تخلمت الروح من الجسم وأصبحت حرة كانت أفعالها في ذلك الأثير بنفس الإرادة فتفعل في السائل الأثيري ما كنا تفعله ونحن أحياء في المادة بأدواتنا ، وتؤثر الروح في الأثير آثاراً طوعاً لأخلاقها وأحوالها ، وكأهلها ونقصها .

وإذا كان الفكر الروحي في حال الحياة وبعد الموت يؤثر في السائل الأثيري صوراً على مقدار تصوّره فانه بالأولى يرسم في جسمه الروحي تلك الصور ، وهنا بيت التصيد ، فإذا كنا نرى أن الخجل يظهر أثره على وجوهنا والخوف ، فبالأولى يرسم في جسمنا الروحي تلك الصور المتعاقبة ولا يحدو أحدها الآخر وتتراكم إذ ذاك الصفات المتعاقبة ، فيكون الجسم الروحي يجمع الأخلاق والأعمال ، فتظهر عواطف البغض والحسد والحقد والاشفاق والحلم والكبرياء والأناية والغضب والرياء والجدود والوداعة والحب ، وتلك العواطف لها آثاراً تثار العقاقير الطبية فتكون مهيجة أو مسكنة أو قابضة أو ملينة أو نافذة أو مقوية أو مخدرة أو مسومة أو سامة أو شافية . وبالجملة تكون السوائل على عدد العواطف والنضائل والزوائل البشرية ، ويكون اختلافها كاختلاف خضرة النبات ، أو كاختلاف روائحه أو صورته وما شا كل ذلك اه

ذلك ملخص ما نقوله الأرواح وعلماء الأرواح : أفليس هذا يشرح قوله تعالى : « اقرأ كتابك الخ » وقوله : « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » .

فانظر الفرق بين نسخنا ونسخ الله ، نحن نسخ الحروف ، ولكن الله يسسخ ما هو أجل . من الحروف يسسخ نفس الأعمال ، يرسم صورها ، يجعلها ظاهرة فينا وانحة ، فببدل (ح س د) في معنى الحسد ، وبدل (ح ب) في حب يرسم صورة الحب وضادة مشرقة بهجة ، وصورة الحسد معتمة قايضة ، يراها الناس فيترعون بالحب ويشتمون من الحسد والبغض ، هذا هو نفس قوله تعالى : « كفى بشقك اليوم عليك

حسباً ، ففسخه الانسان إذن نفسه فيها صور أعماله وانحة لآخروف مكتوبة ، بل أعمال مرسومة وانحة ظاهرة ، وهذا هو كتاب الله الذى يكتبه فى ارواحنا ، وهذا عينه من قوله تعالى : « وقل الحمد لله سب ربكم آياته فتعرفونها » وهذا بعينه هو قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » . وانما يظهره لأن الكشف الحديث فسر القرآن ، تلك من أجل مجازات القرآن والحمد لله رب العالمين . انتهى الكلام على اللطيفة الخامسة . كتب يوم ٤ مايو سنة ١٩٢٥ م

اللطيفة السادسة

فى قوله تعالى : فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين * وله الكبرياء
فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم

نقحة فى صلاة المصر

يوم الأربعاء ٣٠ رمضان سنة ١٣٤٩ هجرية

فى هذه الآية أربعة أمور

(١) ان الله يربى عوالم السموات والأرض ، ويربى العوالم التى فىهما

(٢) وله الكبرياء فىهما

(٣) وهو غالب لهما ولما فىهما

(٤) وهو مع هذه الترتيب له الكبرياء والقهر ، وهو حكيم فى أعماله

إن الترتيب لامتدحها عن العلم بما تستدعيه حال من وجهت الترتيب لهم ، وقصد المراد تكميلهم ولا بد من الحكمة فى الاعطاء والتع لئيم مقصود الترتيب ، وهذه المعانى فى الاسم (رب) والاسم الحكيم ثم إن الله مع علمه وحكمته وتربيته لما خلق ليس شرعة لسكل وارد ولا برد عليه إلا الواحد بعد الواحد ، فهو منبع الجناب ، رفيع الدرجات ، مترفع عن كل المخلوقات ، تناهت عظمته ، وعظمت منته ، وهذا معنى « وله الكبرياء الخ » وهذا الكبرياء وهذه العظمة بحق ، لأنه عزيز مرهوب الجانب غالب

واعلم أن هذه المعانى وأمثالها تتضمنها الصلاة ، سبحانه اللهم وبحمدك ، أنت الحكيم العليم ، خلقت الانسان وجعلته فى الأرض ، وأحطته بالنجوم والشموس والأقمار ، وأظهرت حكمتك وبدائع صنعك فى خلقه وتربيته جثمانه وعقله ، وأعميته وغشيت على عقله فلا يراها وهو يراها ولا يعلمها وهو يحسبها ، وشققت حاجات نفسه ، ومكاوحة بنى جنسه ، ولكنك مع ذلك فتجعله الهاب فى الصلاة

الانسان يرى العظمة فى الكواكب والشموس ، ويرى الجمال فى الأتوار والصور الحسان التى لا يمكن أن يعرفها إلا بإشراق هذا النور عليها ، فهى عظمة وهى جمال والانسان يحار بينهما ، تارة يلحظ العظمة كما يرى فى عظمة السموات ، وتارة يلحظ الجمال كما يرى فى الأصواء والزروع والأنهار والأزهار ، وتارة يلحظ العناية والحكمة معا كما فى ابداع خلق الأعضاء والأعين والأذان والأعصاب وقوى الدماغ ، فإذا رفع رأسه وقال : « ربنا لك الحمد ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شئ ، بعد » فهى عظمة المصلى العظمة والكبرياء فى السموات والأرض ، وإذا ركع فسبح لربه العظيم وقال : « اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، خشع لك سمى وبصرى ونحى وعظمى وعصبى وما استقلت به قدمى لله رب العالمين » ، وهكذا اذا سجد وسبح لربه الأعلى وأخذ يقول : « سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره » وختم القول بهذه الجملة : « تبارك الله أحسن الخالقين » فهو فى هذين المقامين

يلحظ الحكمة واحكام المسنة ودقتها والعناية ، ففي الرفع والاعتدال تظهر للمصلي العظمة وفي الركوع والسجود يلحظ احكام المسنة وجمال الوضع المؤدى للحب والفرام والقيام ، فهنا تربية تصحبها رحمة تؤيدها حكمة ، تحيط بها عناية ، فهذه موجبات الحب ، والحب أعلى درجات السعادة ، وهذه المعاني هي مبادئ سر قوله ﷺ : « وجعلت قرّة عيني في الصلاة » ، ففي الصلاة ملاحظة الكبرياء العاتية والعظمة والترية والرحمة والحكمة . كل ذلك في خلق الأعضاء التي يذكرها المصلي في ركوعه وسجوده ، وهل قرّة أعين العقول الكبيرة في هذا الانسان إلا أن تحب وتعشق ، والعشق والحب إنما يكون لمن كملت أوصافه من جمال وعلم وعظمة وحكمة وإبداع في الصنع ورحمة لهذا المحب ولغيره من كل من يتصف بالحياة . كل ذلك يقوله المصليون في صلواتهم والنبى ﷺ يلحظ معانيها ويتقد فؤاده بنار الحب ، وأكثر الناس لا يلحظون هذه المعاني .

(١) لا ظهور لبهجة الخدائق والبساتين والزرور والأنهار ، ولا للوجوه الجميلة إلا بالأنوار الكوكبية ، أو ماضعه الانسان من الأنوار مشاكلة لها عند فقدها كالشمع والبتروك ، اذا لم يكن نور فلا علم لنا بالجمال ، إذن الشمس سبب في وجود كل جليل ، وسبب في ظهوره ، فالحرارة والضوء معا تعاوننا على ظهور هذه المخلوقات ، والضوء وحده سبب لظهور الجمال .

(٢) فاذا كانت هذه حال الشمس مع كل مخلوق فلنقل هكذا في نفس الكواكب والشموس ، إن هي إلا آثار الذات المقدسة الغائبة عنا ، فكما كانت الشمس سببا لخلق النوات الجميلة وغيرها وسببا في ظهورها ، هكذا الذات العلية المقدسة سبب في خلق نفس الشمس ، وسبب في ظهورها لنا ولنغيرنا على سبيل قياس التمثيل .

(٣) واذا رأينا أن النوات الجميلة من نوع الانسان مصدرها وجودا وظهورا الشمس ، فهكذا نقول : الشمس مصدرها وجودا وظهورا الذات القدسية .

(٤) واذا ثبت أن كل جليل في أرضنا مشتق من الشمس وجودا وظهورا والشمس عن الذات القدسية وجودا وظهورا ، فليكن هذا الجمال الذي يدهشنا في أرضنا أو نعتله في الكواكب وأضوائها آثارا من آثار ذلك الجمال المقدس ، إذن قرّة عينه ﷺ في الاستعراق في ذلك الجمال ، فاذا تفكر في الرفع والاعتدال في السموات والأرض وفي الركوع والسجود في خلق الأعضاء فهنا ترجع نفسه من الآثار العظيم والآثار الجليل الى مصدرهما وتكون العظمة ويكون الجمال هناك .

وأضرب لك مثلا أيها الذكي : ترى " ناع المتقن لصنعة وقد أبدع وملا البلاد والبلاد بضاعة ونشها ورقشها ، وأهيجت الخاص والعام ، فمّ جاءت هذه الصناعة ؟ انها لولم تستقر في أعماق نفسه لم تظهر في الخشب والحديد والذهب ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، ولذلك نجد الناس يتوقون لرؤية هذا الصانع ، ومعنى وجدوه أخذوا يلتفون حوله ، ويحبون به ، ويسرهم منظره وكلامه ، وينسون تلك الصنعة ، وهذا شأن الناس جميعا مع العلماء والحكماء ، فهم بهم مغرمون ، فالصانع أفضل من صناعته ، إن الحكمة والابتداع والعلم المغروسة في قلب الصانع وعقله هي هو لأن العلم هو نفس العالم ، والمصنوعات المقتات له تسوق الناس لجه ونشوقهم لمناظره ، وإنما أحبوه وأغرموا به لأنهم لما رأوا الصنعة أدركوا أن روحه نفسها فيها الكمال والجمال والحكمة التي تجلت وظهرت في المادة التي أملمهم من باب أوشباك أوكرسى وإنما يتركون الصنعة ويسعون لمشاهدة الصانع وجبه لأنهم يعلمون أن روحه أكمل وأعظم من صنعته ، وهذه الروح الكاملة تقدر أن تصنع آلافا وآلافا من هذا مع أن الانسان باعتبار صورته الشخصية ليس فيه شيء من ذلك ولكن ذلك كله راجع لروحه . ان العالم كله عند المصلي من عظمة السموات والأرض في حال الذكر عند ازدهار

والاعتدال ، ومن احكام صنع الأعضاء والرجة في حال الركوع والسجود ، ما هو إلا صفة صليقة بلحظها المصلى ويرى فيها (الذات القدسية) رؤية قلبية ، فهناك تقر عينه بذلك الجمال وينشرح صدره ، وهذه المبادئ هي التي يتجلى آلاف أضعافها للأنبيا عليهم الصلاة والسلام عند المناجاة لاسيما نبينا ﷺ .
 هنا بعض معنى : « وجعلت قرّة عيني في الصلاة » وهناك يلحظ أن كل حب ورجة في انسان أو حيوان في العوالم كلها ما هي إلا آثار من ذلك الحب والرجة ، ولا جرم أن ذلك يستغرق قلب من أفيضت عليه هذه المعاني مرة واحدة ، بل لن يتحمل توارد هذه المعاني على قلبه إلا نادر في نوع الانسان . ومن رحمة الله على أكثر نوع الانسان أنهم لا يتألمون هذه النعمة لأنها تمرق أفئدتهم بهجومها مرة واحدة ولا يقوى عليها إلا مثل من يقول : « وجعلت قرّة عيني في الصلاة » انتهى الساعة الواحدة بعد نصف ليلة الثلاثاء ٢٤ فبراير سنة ١٩٣١ م

نور النبوة وبهجة العلم

في الحديث المتقدم : « وجعلت قرّة عيني الخ »

حيا الله العلم والحكمة ، اللهم إنا نحمدك ونشكرك على ما أنعمت وتجلت بالعلم والحكمة ، سبحانه اللهم وبمحمدك ، إنك خلقت جيع ما أحاط به العلم ، وما أحاط به علمك هذه الأرض وما عليها ، وقد اتضح في الكشف الحديث وتقدم في هذا التفسير كثيرا أن الأرض اذا صغرت فرضا فأصبحت جوهرها فردا وصغرت العوالم المعروفة كلها على سطحها أصبحت كل العوالم المعروفة ألف مليون أرض كأرضنا المعروفة لنا الآن ، إذن أرضنا أشبه بالعدم ، فاذا يكون شأننا نحن بني آدم عليها ، واذا كنا نكن ما يشبه العدم المحض ، فهل في خطة الانصاف والعدل أن نوازن أنفسنا بمن يسكنون العوالم التي هي أكبر من أرضنا ، وهل من العقل أن يقول هذا الانسان (المسكين الذي يعيش فوق ذرة منبوذة في العراء لاهي في العير ولا في النفيرواذا قبست بالعوالم لم تكن إلا هباء ودون الهباء)

أني في العلم كمن يسكنون نفس الشمس (اذا كانت مسكونة بعض أجزاءها) وهي أكبر من أرضنا مليوناً ونحو ذلك مليون أو كمن يسكنون بعض كواكب الجوزاء ، وهناك كوكب منها أكبر من شمسنا ٢٥ مليون مرة (وضوء شمسنا بالنسبة لضوئه كضوء الجباب بالنسبة لضوء الشمس) إذن لا يوضح حال هذا الانسان إلا قوله تعالى : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »

أما بعد فان الله الذي هذه نموذج مخلوقاته لفرط جماله وعلمه ورجته أراد أن يظهر آثار علمه وجماله ورجته لكل عالم من العوالم على حسب استعداده ، ومن الرجة أن لا يعطى الأدنى علم الأعلى ، كما لا يعطى الجنين غذاء الشاب والكهل والامات ، فلأن بني آدم على الأرض أعطوا العلم التام لتأبى مهجهم ولتقطع أفئدتهم وهلكوا في أقرب من لمح البصر ، بهذه البراهين يتحقق العقلاء بعض أسرار هذه الدنيا (وبيانها) أن نارخ هذا الانسان مشحون بالأصنام وعبادتها والأوثان والتقرب اليها ، وعبادة الحيوان والأشجار والنار والأشجار والأحجار والصالحين وقبورهم . هذا من ناحية الانسان العقلاء إذ أخذ يتلمس السبيل لمعرفة خالقه وهو لا يزال غارقا في بحور الأحوال الحيوانية ، فلم يجد سبيلا لمخرجه منها إلا بتلمس تلك السبيل بما يوافق عقله ويوافق ضعفه كما ندر البقرة اللبن اذا رأت صورة ولدها أمامها ، فكما أن البقرة والجاموسة لا تدران اللبن إلا اذا رأتا صورة ولدهما التي لا روح فيها . هكذا هذا الانسان في أول تلمسه الخروج من حال الحيوانية الى حال الانسانية لا تظهر فيه مبادئ الأحوال الشريفة من أخلاق وعبادات إلا اذا رأى ما يمثل خالقه تمثيلا لانسنة . بين الحقيقة إلا كنبية جلد ولد البقرة الميت الى حقيقته الغائبة عنها

هذه حال الانسان من حيث مباحثه العقلية ، فأما حاله من حيث نظره لظواهر الجبال فان الله عز وجل علم ضعفه وأنه لن يرى ربه إلا في حال أخرى ، إذ لا نسبة بين المخلوقات والمخالق ، ففعل معه في الجبال ما فعله في العلم والعبادة ، فحجبه عن شهود ذاته ، وخلق له الصور الجلية في الأرض ، وشغل الذكور بالاناث وبالعكس وجعل ذلك سلبا لتكاثر النسل ، وجعل العيون والأبصار سلالم لنظر السموات والسحاب ، ومن هناك ترتقى العقول الى جبال خالقها بالبصائر لا بالأبصار

عظم الله في علمه ورجته ، وتفرق الناس أيام وحشبتهم الى عبادة الأصنام ، وأيام تهتق عقولهم في دياناتهم الى التقرب بالنسور للمساكين ، وعظم وكمل في جلاله فأشرق نوره على السموس والأقار والكواكب ، ثم على الوجوه الحسان ، فكان ذلك خيرا به انتظم أمر المعاش بالمودة والذرية في حال الحيوانية ، إذن نسبة حال الجلد المنفوخ لابن البقرة والجاموسة الى حال نفس ابن البقرة الحي كمنسبة حال الأصنام بالنسبة لمصانع العالم ، وكنسبة جبال الوجوه الحسان من نوع الانسان الى مبدع العالم وجماله .

قصة الخليل عليه السلام وقصة سيدنا محمد ﷺ

إذا علمت هذا فاعجب من قصة الخليل وقصة النبي ﷺ ، الخليل كسر الأصنام كما في آية الأنعام ، ثم أخذ يدرس النجوم والقمر والشمس وانتهى الى الله .

الله أكبر : أفلا تعجب مما إذ ترى أن هذه القصة هي قصة الانسانية ، عبادة أصنام وأحجار ثم ارتقاء الى النظر في العالم العلوي ، ثم الوصول لله وهل هذا العالم كله إلا أرض وعوالم علوية ؟ ثم خالقها ، ثم انظر الى أمر الحواس الخمس كالسمع والبصر والشم ، فهذه بها تفرق بين الجليل وغير الجليل من الأصوات والألوان والطيب والخبيث من الروائح ، ثم ترتقى نظرات العيون الى العوالم العلوية من شمس وقمر الخ فتعرف الحكمة وتقف على النظام الكامل ثم تصل الى الله ، إذن هنا نهاية واحدة وهي الذات القدسية ، وهنا مبدآن : مبدأ من جهة التعبد ، ومبدأ من جهة الشهوات الظاهرة ، وهذان المبدآن بعدهما العلوم ثم الوصول . فإذا كان أكثر نوع الانسان عاكفا على عبادة الأصنام وماحيا نحوهما ، فان قصة الخليل أبانت الدرجتين الأخيرين للانسان : درجة العلوم ، ودرجة الوصول ، وإذا كان أكثر هؤلاء الناس غارقين في الشهوات لا يجدون منها مخرجا ، ظانين أن هذه اللذات المحسوسة ليس وراءها لذات أخرى ، فهاهوذا رسول الله ﷺ يقول : « أيها الناس : ها أناذا أحب الطيب ، وأحب النساء ، وكما كسر الخليل الأصنام ودرس الكواكب ووصل الى الله ، فهنا أناذا كسرت الأصنام بمكة وعبدت الله وحده ، وهكذا انتقلت من لذة النساء المحسوسة الى لذة القرب المعقولة . » وجعلت قرّة عيني في الصلاة . لأنني فيها وصلت لدرجة الثالثة ، إن العلوم أفيضت عليّ بالوحي فلست في حاجة الى دراسة فلسفية ، فأما أتم فعليكم أن تنظروا ما حولكم من العوالم ، وبالعلم تصلون الى الله تعالى كما فعل الخليل في نظام سيره ليبين لكم ، وبالجملة فعكوف الناس على عبادة المحسوسات وحوز المشتهيات أمر عام ، والخليل مثل خروجهم من الحال الأولى ، والنبي ﷺ مثل لهم الحال الثانية ، وكل ذلك بسر : « وله الكبرياء في السموات والأرض » ، فلولا تكبره لعلم عظمته ججع الجهال فلم يعبدوا الأصنام ولا القبور ، ولهمام بجماله كل امرئ في هذه الأرض ، ولم يعشق أحد الصنفين الآخر ، ولكنه مع هذا الكبرياء والعزة حكيم ، فاتخذ من هذا الضعف الانساني حكمة ، ذلك أنه جعل غرام أحد الصنفين بالآخر سببا للحياة وللتناسل وان كانا محجوبين عنه تعالى كما جعل فضلات الحيوان سببا لظهور نبات آخر نافع للحيوان . هذا ما عرفت في هذه الليلة أثبتته هنا والحمد لله رب العالمين . كتب الساعة الثانية بعد نصف الليل صباح يوم الأربعاء ٢٥ فبراير سنة ١٩٣١ م

جوهرة النفحة المتقدمة

في آية : فته الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين * وله الكبرياء في السموات

والأرض وهو العزيز الحكيم

(١) الله مربي العوالم (٢) متكبر عزيز (٣) وهو حكيم ، فهنا تربية ، وكبرياء مع عزّة ، وحكمة

فلننظر آثار هذه الصفات :

(أولاً) في نظام الأغذية في الأرض .

(ثانياً) في نظام الآثار العلوية من خلق الجبال والتلال والبراكين وإحداث الزلازل والحسوف ، وهناك

فهم الكبرياء والعزّة المسحوبتين بالحكمة في التربية

(ثالثاً) في تعليم الأنبياء والإيحاء اليهم أو تكليمهم الخ .

(رابعاً) في تربية النشء ، وكيف كانت تعاليم الأمم للنشء كلما كانت أرقى كانت أقرب الى النظام

الأمم وكلما كانت أدنى وأخس كانت أبعد منه .

(خامساً) في أمر الأمم من حيث سياستها . وانه عزّ وجلّ يفعل معها في السياسة المدنية ما يفضله مع

الناس في عوالمه الطبيعية سواء بسواء . فإذا كان من الأغذية ما يضرهم فهم المسئولون عن

ذلك الضرر الحاصل لهم لأن لهم عقولاً توجب عليهم الاستنتاج والبحث . فإذا أناموها فهم

المسئولون . هكذا في السياسة . فإذا حكمهم ملوك عادلون ثم قام أبناء أبناءهم الذين هم غالباً

يكونون فاسقين جهلاء غير مجربين . فالأمم هي المسئولة عن أعمال أمورها وتسليةهم الزمام

لغيرهم فأين الشورى وأين العقول إذ ذن ؟ « وقفوههم انهم مسئولون مالكم لاتناصرون »

(سادساً) في نظام (دالتون) في التربية والتعليم .

فلنشرح هذه الفصول الستة تذكرة للمسلمين وهاك بيانها :

الفصل الأول في الكلام على نظام الأغذية

اللهم إني أشكرك وأشكرك ، وأعترف بجزئي وقصوري كما أعترف بنعمتك علي وعلى اخواني قراء هذا

التفسير وعلى سائر المسلمين ، لولا فضلك وانعامك وإلهامك وتوفيقك ما كتبت حرفاً واحداً .

اللهم انك برحمتك وحكمتك شرحت لصدري لما أكتبه الآن . فأقول أولاً لأقدم مقدمة فأقول :

لقد احتجبت أنوارك وعلمك وجمالك وحكمتك وبهاؤك عن عقول خلقك ، فأنت ذوالكبرياء وذوالعزّة

والحكمة والجمال ، ولكنك برحمتك أريتهم آثار تلك الصفات من وراء حجاب ، فهذه العقول الانسانية

الشريفة ، ومزايها العلية المنيفة ، وغرائز الحيوان اللطيفة ، وعطف الأمتها على ذريتها ، وحب الأساندة

لتلاميذهم ، وغرام أحد الصنفين بالآخر ، كل ذلك آثار تلك الصفات العالية ، ظهرت من وراء حجب السموات

والأرضين وما بينهما ، وأقرب مثل مضروب لذلك الماء المحيط بالكرة الأرضية ، فهو الجزء المهم في جسم كل

إنسان وحيوان ونبات ، ولا يخلو حي من هذه الأحياء من قطرات من الماء ، فان كانت في الحيوان سميت

عرقاً تبرز منه ، وان كانت في النبات سميت ندى (وهذا تقدم شرحه في هذا التفسير) أي ان الندى لم

ينزل من السماء . كلا . بل هو قطرات بارزات من نفس النبات كالعرق بالنسبة للحيوان ، وتكون صفات

ذلك الندى من حيث الرائحة والطعم تابعة لصفات ذلك النبات كما أن العرق تكون رائحته ومزاجه وطعمه

على مقتضى مزاج الانسان والحيوان الذي ظهر منه ذلك العرق ، وماتسبة عرق الحيوان وندى النبات الى

الماء المحيط بالأرض وما فوقه من البخار والسحب والتلويح المترامية فوق الجبال إلا نسبة ضئيلة ، فكما أن هذا العرق وذلك الندى أمر ضئيل بالنسبة للبحر المحيط بالأرض ، هكذا علونا وحكمتنا والرحمات التي في قلوبنا ، والجبال التي نراه في وجوه الفتيان والفتيات ، والصور البديعة في كل نبات وحيوان وأحجار كريمة والحب والغرام اللذين بهما عاش الناس وانتظمت الأسرات كلها ضئيلة بالنسبة له ، والله ورحمته وجهه وحكمته كلها ، وما عندنا منها إلا آثار ضئيلة كضالة الندى والعرق بالنسبة للماء المحيط بالكرة الأرضية وقد تنوعت آثار تلك الصفات فينا كما تنوع الندى فكان متصفا بصفات النبات الذي برز منه من رائحة وطعم طيب وردي ، وكما تنوع العرق بحسب الأخلاط التي في الجسم الذي قام به العرق ، الماء واحد اختلف آثاره باختلاف ما دخل فيه وتخلله من كل نبات وحيوان ، ولقد أدهشني والله ما عرفته من نفي أنا ، ذلك أني لم أترك اللحم إلا منذ عشرين سنين ، ولكن هذا الترك كان جزئيا لا كليا ، ذلك أني كنت آكل الخضراوات المطبوخة بمرقة اللحم ، فهذه فيها شوائب اللحم ، فأما منذ سنتين انفتحت ، فاني اقتصرت من الطعام غالبا على الخضراوات نيئة في الأكثر ، أو مطبوخة في النادر ، ونبتت ما طبخ باللحم ، واقتصرت من اللحم على الزيت الطيب ، ومن الخبز على ما كان غير منخول ، وأكثر من الفاكهة إلى آخر ما أفضته في مقام آخر ، أفليس من عجب أني قبل هاتين السنتين كان يكثر عرقى وهو مصحوب برائحة غير مقبولة ، وذلك يقل ويكثر حسب الأخلاط ، وكان الاستحمام بزييل تلك الروائح ، فأما الآن فإن العرق أصبح قليلا جدا ، وربما أسير في الحر ساعتين ولا أحس بعرق ما إلا قليلا ، وإذا ظهر منه قليل لم تصحبه تلك الرائحة ولا جزء منها ، أفليست هذه الحادثة الجزئية تكون نبراسا لهذا الموضوع كله ، فهنا عرق أصف بوصفين متضادين تبعا لأحوال الأخلاط في جسمي أنا ، وهذا العرق في جسمي قطرات قليلة بالنسبة للماء المحيط بالكرة الأرضية ، فإذا رجعتنا إلى ما سبقنا الكلام لأجله ، وهي رجة الله وحكمته وعلمه اللاتي من آثارها كانت لنا صفات سمينها باسمها فقلنا فلان رحيم أو حكيم الخ كما اختلف الندى والعرق من حيث طيب الروائح وخبثها بحسب المزاج طيبا وخبثا ، وهذه الصفات أيضا ضئيلة بالنسبة لصفات الله كضالة قطرات الندى والعرق بالنسبة للماء المحيط بالأرض ، ومن هنا لا تنجب من وسوسة الشياطين لبني آدم ، وكيف نجب ونحن نشاهد أن أمزجة النبات والحيوان لها آثار في انصاف الندى والعرق بصفات تلك الأمزجة النباتية والحيوانية ، فتكون طعمه وروائح على مقتضى ما انصف به ذلك النبات والحيوان ، فإذا أفينا الماء المحيط بالكرة الأرضية ينقلب في الحنظل مرارا مثله فليس بعجب إذا أفينا النور الشريف البيج في عقولنا وعواطفنا والشجاعة ينقلبان في النفوس الخسيسة مكررا وخبثا وحسدا وعداوة واقتيادا للشيطان الرجيم .

وخلاصة هذه المقدمة أن علونا وصفاتنا الشريفة آثار صفات الله تعالى ، وهي بالنسبة لها كتقطرات بالنسبة للبحر وهي تتلون فينا بحسب استعدادنا

انظر فيما تقدم في (سورة الكهف) في قصة الخضر وموسى عليهما السلام ، وما ورد في الصحيح ما معناه : « ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا الطائر بما أخذ بمنقاره من البحر » فته الكبرياء في السموات والأرض ، وله العزة ، ولكنه من جهة أخرى مهيب وحكيم ، التريفة يعوزها الحكمة ، والكبرياء والعزة سياج لها . ما من عاقل يشعر بأن له ربا إلا وهو يجب أن يراه ، ولكن الله يقول : كلا . أنت ضعيف ، وإذا رأيتني صعقت ، هاهوذا موسى خروصعا ، والجبل صار دكا لما تجليت له ، وكفأكم أني أريتكم ما عملت عقولكم من آثار صفاتي ، فترون جبالا في الوجوه ، ورجة في القلوب ، وعلما وحكمة ولكنها قليلة جدا : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

كبرياء الله جيلة محبوبة لأنها رجة لعباده ، انه لم يحجبنا عن رؤية ذاته وصفاته بكبرياته إلا لرحمتنا لأننا

ضعفاء ، ومن هنا نفهم معنى قوله تعالى : « وهو العزيز الحكيم » فجزنا عن مشاهدة ذاته وصفاته حاصل بمقتضى صفى الكبرياء والعزّة ، واجترأنا برؤية هذه الآثار الضئيلة حاصل بمقتضى الحكمة والتربية ، وبهذا تمّ الكلام على المقدمة التي بها عرفنا ضرب مثل لكبرياء الله في السموات والأرض ، إذن فلنبداً بالكلام على ما أردناه في الفصل الأوّل من الكلام على الأغذية .

بثّ الله في الأرض النبات ، وبثّ الحيوان والانسان ، وأعطى الحيوان غريزة ، وعرّس في الانسان كما عرّس في الحيوان شهوات وأحوالا ، فأما الحيوان فعاش بغريزته ، وأما الانسان فانه تقلب في صفى الغريزة والاختيار فظهرت أمامه الأغذية فعرّفها بحواسه ، ولكنها مملوءة بالأسرار المحجبات عنه ، وانما حجبها عنه لأمرين كبريائه وحكمته ، ولولا هذه الكبرياء لم يمكن تربية الانسان بالحكمة والعلم ، إذ الحكمة لاتكون إلا بعد الطلب ، ولاطلب إلا بعد الشوق ، ولاشوق إلا عند الحاجة ، ولأحاجة إلا لحب منقعة أو دفع مضرة ولوأن كل نبات ، وكل حيوان ظهرت فوائدها للناس بلاطلب ولا نصب لم يحشموا أنفسهم النصب في معرفة تلك الفوائد ، بل ظلّ الناس خاملين جاهلين أمد الحياة وكانوا أشبه بالذباب في سرعائها .

فإذا رأينا هذه الأغذية الموزعة على الأرض ، والمنافع التي خبئت فيها والمضارّ حجبت عن نوع الانسان فذلك من كبرياء الله وعزته أولاً ، ومن حكمته في تربيته للناس ثانياً ، ولوأن الأشجار وأنواع النبات فعلت مع الناس ما فعلته مع سليمان عليه السلام (كما جاء في الأساطير القديمة) إذ تحببه الأشجار والنباتات بما فيها من الفوائد والمزايا والمنافع لكان هذا الانسان حيواناً جديداً أدرج في قوائم الحيوان البالغات نحو (٥٠٠) ألف نوع أو أكثر ، إذن صمت هذه الأشجار ، وهذه النباتات ، وهذه الأحجار ، وعدم نطقها لنا بما استكن فيها ، وعدم ظهور منافعها لنا من أجل الحكيم في تربيتنا ، وتلك الكبرياء محمودة .

اللهم لك الحمد إذ أفهمتنا معنى : « فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين » وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » وبهذا تمّ الفصل الأوّل .

الفصل الثاني في نظام الآثار العالوية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله رب العالمين « أما بعد » فقد عرفت أيها الذكيّ ما كان من كبرياء الله في أمر النبات ، وكيف كانت الكبرياء والعزّة معجوبتين بالتربية القائمة على الحكمة . أفلا تعجب معي أن يكون العمله معنا في الأغذية هو نفسه الذي فعله في أمر الآثار العالوية ، وأظهار الجبال والبراكين والحلم والتلال والزلازل ، ذلك أن هذه الأرض لم تكن إلا كرة نارياً كما هو الرأي السائد الآن ، وهذه الكرة أخذت تبرد من ظاهرها شيئاً فشيئاً كما ترى الفحمة المتقدة فانها تبرد شيئاً فشيئاً ، ولكن باطنها لا يزال متقدداً ، وهذا الرأي وان كان ظنياً قد أبداه عمال المناجم : ان نصف قطر الأرض نحو أربعة آلاف ميل ، وعمى النجم قد يصل الى ميل واحد ، والحرارة ترتفع كلما ازداد العمق ، وقد يشتدّ الحرّ على عمال المناجم فلا يطيقونه ، ولاجزم أن زيادة الحرارة بزيادة العمق توصلنا الى أن في باطن الأرض طبقات درجة حرارتهما تذيب الصخور والمعادن ، وبما يدل على ذلك الينابيع الحارة التي درجة حرارتها بعضها ١٩٠ درجة وظهورها على سطح الأرض . اذا علمت هذا فانظر في أمر الجبال والبراكين والزلازل ، إن الذي ينزل من قاع المحيطات ويغيرها الى الطبقات الحارة من باطن الأرض يتحوّل سالا الى بخار ، وهذا البخار أخف من الهواء ، فهو يحاول الخروج الى مقرّه في الجوّ ، فماذا يصنع إذن هو وما معه من الغازات المكوّنة من المواد المصهورة ؟ فتارة تندفع فلا تجد لها منفذاً ، فيهتزّ سطح الأرض اهتزازاً على مقدار ذلك الضغط ، وهذا هو الزلزال الذي يهتد المدن ويحترق بسببه

الجبال هنا ، وإذا اشتد هذا الاهتزاز وكانت هناك مواد مصهورة في باطن الأرض كثيرة وحاولت الخروج وطارتها قشرة الأرض ، فهناك يكون البركان ، وإذا تار البركان سمعنا طقطقة في الجوّ وفي باطن الأرض وأصواتا كالرعد ، وهناك تنطابح كتل الصخور العظيمة ، وألسنة اللهب ، وتهلج النفوس .

وقد يعقب الزلزلة خسف ، فانه إذا اشتد الضغط في باطن الأرض يمينا وشمالا ولم ينفذ السائل والغازات الى الجوّ فقد تنهار في الفجوات الواسعة في باطن الأرض طبقة من سطحها فتهدى سريعا ويتلها جوف الأرض ، وهذه الفجوة تارة يغمرها الماء ، وتارة لا ، وهذا هو الخسف . وبهذا عرفنا البراكين والزلازل والخسف .

ومن تأمل ما حصل في بركان (ديبلي) سنة ١٩٠٢ الذي ارتفع الى (٤٤٠٠) قدم واقدر رأسه ثم تكون له رأس آخر ارتفاعه (٥٠٧٠) قدما ، وكان الى آخر يونيو سنة ١٩٠٣ لا يزال آخذا في الارتفاع ، ويقال انه ارتفع ٢١ قدما في أربعة أيام ، وهذا الرأس الجديد كان قما مصهورة ذاتية ثم تماسكت فصارت جسما صلبا .

أقول : من تأمل ما حصل في هذا البركان أدرك كيف تكوّنت أكثر جبال الأرض ، فأكثر ما تكون منها على هذا الاسلوب . إن الله عز وجل هو الذي خلق الجبال والخسف والزلازل والبراكين ، والخسف والزلزلة والبركان كلها مهلكات مدمرات . فانظر كيف :

(١) زلزلت اسبانيا (سنة ١٨٨٤) فتخرّب من غرناطة سبعة آلاف منزل ، ومات فيها أكثر من ٢٠٠٠ نفس .

(٢) وكيف زلزلت اليابان (سنة ١٨٩١) فتخرّب فيها أكثر من ٤٠٠٠ منزل ، ومات أكثر من ٨٠٠٠ نفس .

(٣) وفي سنة ١٨٩٥ طغى الماء بسبب الزلزلة على بعض البلاد باليابان فأغرّ كالأفان أهلها .

(٤) وفي سنة ١٩٠٢ زلزلت كشمير من تركستان فمات نحو ثلاثة آلاف نفس .

(٥) وفي سنة ١٩٠٨ زلزل مضيق (مسينا) بإيطاليا فأتلته ، وخرّب مدينتي مسينا بسقلية ورجيو بإيطاليا ، ومات بسببها آلاف من الناس كما بقي منهم آلاف بلا مأوى .

(٦) وانفجر بركان في جزيرة (كركتوا) بالقرب من جاوه بينا ديين سومطره ، فقطعها إربا ، ولم يبق منها إلا قسم صغير .

(٧) وثار بركان (وبروف) بإيطاليا سنة ٧٩ ق.م فغطى مدينتي (بجي) و(هركولانيوم)

هذه بعض أفعال الزلازل والبراكين ، وقد تقدم أكثر من هذا في ﴿سورة آل عمران﴾ وفي مواضع أخرى من هذا التفسير ، ولكن سقنا هذه الحوادث هنا لتبين كبرياء الله وعزته المصحو بتين بحكمته وتريته ، هذا فعل البراكين وهذا تخرّبها وتدميرها وإهلاكها للناس والحيوان وللدن . كل ذلك لكبرياء الله عز وجل عو يفعل ذلك مع الأحياء ولا يبين لهم سرّ ما فعل ويقول : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » ويقول : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ، ويقول أنبياءه : « إن علم الناس أشبه بما أخذه منقار الطائر من ماء البحر » . يفعل الله ذلك كما فعل في الأغذية في الفصل السابق ، حجب أسرارها وأعطى الناس عقولا وقال ادرسوا ولم يزد في الوحي السماوي عن القول الاجمالي ، وكما درس الناس منافع النبات والحيوان بعقولهم فانتمعوا بقدر ما عرفوا ، هكذا درسوا فوائد تلك البراكين وغيرها بعقولهم فأرأوا محجبا رأوا :

﴿ أولاً ﴾ إن جماعة من الامريقيين اشترتوا بركانا في بلاد المكسيك بمليون من الجنيهات ليستخرجوا

الكبريت الراسب حول قنته

﴿ثانيا﴾ رأوا أن جزيرة (في أرخبيل آسوره) ارتفعت بسبب ثورة البركان سنة ١٨١١ ولم يكن لها قبل ذلك أثر ولا عين

﴿ثالثا﴾ رأوا أن جزيرة أخرى ارتفعت في بوغاز (بيرفغ) بين آسيا وأمريكا بسبب البركان والزلازل أيضا .

﴿رابعا﴾ رأوا جزيرة ارتفعت في خليج بنفاله طولها ٩٢١ قدما وعرضها ٦٥١ قدما ، وارتفاعها وقت مد البحر ١٩ قدما . وهي والسابقة بركانيتان .

﴿خامسا﴾ رأوا أنه ارتفع تلّ بالقرب من نابل سنة ١٥٣٨ يسمى (منت نوفو) .

رأى الناس ذلك ، فإذا بشعر عقلاؤهم ، إن عقلاء الناس وحكاهم يقولون : إن البراكين في الأرض كخضاض المرأة ، فالتناس لما اعتادوا أن يروا مخاض النساء ، وأن المرأة تقاسى الأهوال في الوضع ، وربما ماتت بسبب ذلك الوضع لم يكن ذلك عندهم غريبا ، بل نفس المرأة تفرح إذا وجدت لها طفلا بجانبها بعد عذاب العذاب ، وتحمد ربها وتشكره ، ولا تبالى بهذه الأهوال ، هكذا حكاه أهل الأرض يرون هذه البراكين والزلازل نعمة ، لأنها يعقبها ظهور جبال نافعات في حفظ الثلج فوق رموسها ليجد الأنهار والعيون طول السنة وفي حفظ المعادن في باطنها لمنفعة الانسان ، وفي أنها تجتذب السحب المسخرة بين السماء والأرض ، فتسقط أمطارها لمنفعة الحيوان والانسان ، وفي وقاية ما خلفها من هبوب الرياح الباردة تارة كما في جبال الألب وأقاليم أوروبا الجنوبية ، ومن هبوب الرياح الحارة كما في جبال اطلس ، وأقاليم مراکش ، وريف البحر من بلاد البربر ، وفي أن سفوحها تغطي بأشجار نافعة ، ومنها ذوات الفم اللذيذ النافع ، وفي أن اعتدال هوائها يلائم صحة الانسان ويبيده صحته ، فأكثر الناس على الأرض يسمعون بالبراكين والزلازل والحسف فيكونون أحد اثنين : إما أنهم لا يفكرون وهم الأكثرون ، وإما أنهم يكونون ملحدين وهؤلاء هم المتعلمون تعليما ناقصا فقد عرفوا المضار ، ولم يوالوا التعليم والدرس حتى يعقلوا أن الآلاف المؤلفة من المنازل ، والناس الذين هلكوا بالبركان أو الزلازل ما هم إلا عدد يسير جدا بالنسبة لمن سيعيشون بذلك الجبل الذي نشأ بسبب البركان أو بتلك الجزيرة ، أو بتلك التربة الحصبة التي أظهرها البركان والزلازل كما تقدم في أول ﴿سورة سبأ﴾ عند آية : « يعلم ما يلج في الأرض » الخ ، فإني ذكرت لك هناك أن الأرض البركانية أرقى أراضي الزراعة ، فهذه الجبال ، وهذه التلال ، وهذه الجزائر ، وهذه الأرض البركانية يعيش بها آلاف من الأمم في مئات آلاف السنين ، فأما الذين هلكوا بتلك البراكين فهم آلاف معدودة ، أو مدن محدودة ، يموت أكثر منها كل سنة بالوباء ، أو الطاعون ، أو الحمى ، أو التيفوس ، فهذه أمور يسيرة في جانب سعادات لا حد لها .

فهنا أقسم الناس ثلاثة أقسام : حكماء كمن يفهمون هذا التفسير ، وملحدون : وهم الذين يقفون في الوسط بين بين ، لا هم حكماء ولا هم عامة ، وهم أغلب المتعلمين في الشرق والغرب الآن ، وعامة وهم أكثر من على الأرض ، والحكماء والعامة قلوبهم في راحة ، والطبقة الوسطى يعبثون في ألم مبرح ميين ، وبكبرياء الله وعزته حجب الناس ماعدا الحكماء عن معرفة هذه الأسرار واليقان بها ، وبحكمته رنى الحكماء فعرفوها بعد النصيب والتعب ، إن ذلك خير أساليب التربية وأنفعها لنوع الانسان ، وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني في الآثار العلوية والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثالث في تعليم الأنبياء

والإبحاء إليهم وتكليمهم الخ

وذلك قوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا ، وذلك كما كان يوحى إليه ﷺ في أول

البعثة ، وذلك في المنام سنة أشهر « أرمن وراء حجاب » وذلك موسى عليه السلام « أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء ، وذلك كما كان يوحي إليه ﷺ بعد الأشهر الستة الى آخر حياته ، وقد تقدم ذلك بأكثر من هذا في (سورة الشورى) ، إنما اندهش في هذا المقام أن الله عز وجل على صراط مستقيم فهو في هذه الأحوال الثلاثة حكيم ، وفي آياتنا التي نحن بصددها ، الكبرياء والعزة في مقابلة العلو في آية الشورى ، والتربية والحكمة في مقابلة الحكمة هناك .

يا الله : عجبنا لنظامك في خلقك ، ودهشنا دهشنا أشد من نظامك في كلامك . فأتت هنا نقول : إن الحد مختص بالله لأنه ربي السموات والأرض وربى العالمين . وأردفت ذلك بأن هذه التربية مصحوبة بالكبرياء والعزة والحكمة ، فبعثنا ذلك فألفيناك وهبنا عقولا ، وغرست فينا شهوات ، وخلقت لنا أغذية . وأخذت قلب الأرض أماننا ، فتجعل فيها نيرانا خارجة من باطنها ، وتصنع لنا جيالا ، وتخصمها نارة ، وتزلزلها أخرى ، فن درس منا فقد انتفع في الدنيا ، واستقرت نفسه : وعمرت بالحكمة . ومن لم يدرس حياته حياة حيوان ، فأشرت للدراسة بالتربية والحكمة ، وللغفلة بكبرياتك وعزتك ، لأنك تعرض عن الناقص العاقل ، وهكذا نراك لانكم الأنبياء كما يكلم أحدنا الآخر ، بل كلهم نارة بالرؤيا المنامية ، ونارة بملك يلقي الوحي اليهم ، ونارة من وراء حجاب . فبالسلام بأحد الطرق الثلاث أصف بالحكمة ، وبمحصر خطابك لهم في ذلك كنت عليا ، إذن كما أن لك الكبرياء والعزة في السموات والأرض كان لك العلو على الأنبياء ، ولكن التعبير بالكبرياء والعلو في السموات والأرض غير التعبير بالعلو في مقام الأنبياء لأن الحجاب هنا رقيق جدا بخلاف العوالم ، فلهذا حجابها ذكر في جانبها الكبرياء والعزة ، وهذا المقام في غاية الدقة ومن الأسرار البديعة والعلوم المخزونة التي أراد الله اظهارها اليوم للمسلمين .

اللهم إن لك الأسماء الحسنى ، وقد جاء في كتابك : « ولله الأسماء الحسنى فدعوه بها » وجاء في سورة طه « والله لإله إلا هو له الأسماء الحسنى » . فيألت شعري : أ كان الحسن في الألفاظ وحدها . كلا . فالله يقول : « كتاب أنزلناه اليك مبارك ليذكروا آياته وليتذكروا الألباب » . إذن هذا الكتاب لتتذكر به لا أننا نقف عند لفظه إذ التذكر لا يكون إلا في المعنى ، إذن حسن أسماء الله من حيث معانيها ، فإذا سمعنا أنه جبار متكبر قهار قابض خافض مذل على كبير يميت منتقم صار ، فأننا ندرسه في هذه العوالم ، فنجد البراكين وجبال النار والصحارى والقفار . كل هذه مزيجة مخيفة مهلكة ، ونراه تعالى يميت الأحياء وهم يكون على مينهم ، ويبتلى الناس بأنواع الهموم والمصائب ، وهذه تنطبق عليها تلك الأسماء الاحدى عشرة فهو بهذه الأعمال جبار متكبر قابض منتقم الخ ، فظاهر هذه الأسماء منطبق على ظواهر البراكين والزلازل وما أشبهها ، ولكن اذا بحثنا أسرارها بالحكمة والبراهين والعلم ألفينا هذه الظواهر لها بواطن سارة فظاهرها من قبله العذاب وباطنها فيه الرحمة ، فالبراكين تقدم الكلام في أنها رحمة مشروحا شرحا كافيا ، وهكذا الموت ظاهره هلاك وباطنه حياة .

قد شاهدت أمس جنازة متوجهة الى مقبرة سيدى زين العابدين ، وأمامها موسيقى محزنة ، تصرب ضربا يحدث في النفس انقباضا ، ماشبهتها إلا برجل يضرب آخر على ظهره فيصرخ من الألم ، والنساء باكيات في الجنازة فهذا إنما كان للعجول الذي غشى على عقول أهل الأرض لأن هذه مرتبتهم ، فهم يجهلون حال الأفس بعد مفارقة أبدانها ، وعلمهم بها ضئيل قد أخذوه من البيانات ، وما كان من الذين فما هو إلا إيمان ، ولكن العلم واليقين فوق الإيمان ، ولكن لا يكون اليقين إلا بالحد والتشهير ، ومتى درس المسلم بقية أسماء الله احسنى مثل : السلام المؤمن المهيمن العزيز الخالق البارئ المسور الغفار الوهاب الرزاق الفتاح الباسط الرافع

الهادى النور، وهكذا وهي نحو ٨٨ اسما، فهذه الاسماء لها معان، وتلك المعاني موزعة في القرآن ومنه في أكتاف الطبيعة، وينضم اليها ما دخل تحت الأسماء الاحدى عشرة المتقدمة التي ظاهرها العذاب، فن البحث كالتى تقدم يظهر لنا أن باطنها الرحمة، فالقهر الذى نراه ظاهرا في حرارة الشمس إذ تكون محرقة في حمارة القيظ والانتقام المجسم في الاسود والنهود والتمور والضباع والحيات وأنواع الحيوانات النورية المهلكة لنوع الانسان. كل هذه من حيث ظواهرها راجعات لظواهر الأحد عشر اسما المتقدمة أول بعضها، ولكن بواطنها أنها شروط للرحمات مقتنات لها، والمطلع على أكثر هذا التفسير وبالأقل ما ذكرناه هنا يوقن بهذه المعاني إيقانا تاما، وبهذا تم الكلام على الفصل الثالث والحمد لله رب العالمين.

الفصل الرابع في تربية النشء

وكيف كانت تعاليم الأمم كلما كانت أرقى كانت أقرب الى النظام المتقدم، وكلما كانت

أدنى وأخس كانت أبعد منه

أذكر كأيها الذكى بما مر في (سورة الزمر) عند قوله تعالى: «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون»، وكيف ترى الاستاذ (كانت) الألماني قد عقول على أن تكون عقول التلاميذ موجهة الى التفكير، وما المدرس إلا مرشد لهم ومذكر، وبالاختصار يكون التلميذ معولا على جده نفسه بإرشاد المعلم، ومن عجب ماجاء في حديث البخارى الذى ذكرته في (سورة السجدة) عند آية «الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الانسان من طين» إذ ذكرت لك هناك جمال ظواهر الأشجار وجمال بواطنها وأهنت تشریح النخلة ومعرفة ما فى داخلها من الأعضاء، ولهذا المناسبة ذكرت حديث البخارى إذ سأل رسول الله ﷺ أصحابه عن شجرة كالرجل المسلم لا يتحات ورقها وإذا قطع رأسها ماتت؟ فوقع الصحابة فى أشجار البادية، فقال ﷺ هي النخلة، فهذه هي السنة التي درج عليها علماء أوروبا الآن بحيث يكون أكثر الفهم راجعا لنفس التلميذ، وهذه هي الخلة التي سنه الله للناس فى أغذيتهم إذ أبهم كثيرا من أسرارها، وهامم الآن وغدا كما كانوا أمس يبعثون، وكلما ازدادوا فى منافع الأغذية بحثا ازدادوا شوقا، ولا آخر لما يدرسون، وهكذا فى أمر الأحوال الطبيعية من البراكين والحسف والزلازل كما تقدم، وهكذا هانى التعليم فكما كانت الكبرياء لله فى الفصول المتقدمة هكذا فى فصل التربية يجب على المعلم أن يستن بالسنه الإلهية من حيث انه يجعل تلاميذه مجتدين بأنفسهم، مفكرين بعقولهم، كما فعل الله مع الناس فى منافع أغذيتهم، والآثار العلوية الحاصلة فى أرضهم، فهو أكتفى بأن خلق لهم عقولا، وأراههم هذه الظواهر، وشوقهم الى أسرارها، لمنعتها نارة، وللوقوف على حقائقها، ودفع الحيرة فى النظام العام نارة أخرى، ولا كتف الآن بما جاء فى مجلة الشبان المسلمين تحت العنوان الآتى، وهذا نصه:

التربية الحديثة

طريقة دولتون فى التربية والتعليم

ظهرت طريقة دولتون بعد سنة ١٩١٩ وهى الطريقة التي كانت تستعملها (مس هيلين باركهرست) فى مدرسة بدرلنتون فى (مساكيسير) بالولايات المتحدة فى أمريكا، واقصد ذكرت (مس باركهرست) فى محاضراتها من طريقتها الجديدة أنها ليست محددة تحديدا يضمن جعلها صالحة لسكل مدرسة، وكل نوع من الأطفال، بل هى طريقة قابلة للتغيير والتعديل، وتتضمن آراء محددة معينة، فهى فى جوهرها مجموعة مبادئ وقواعد: لا مجموعة أوصاف وأوامر، لقد أعطت المدرس نفس الحرية التي أعطتها للتلميذ، وأعطت التلميذ

المثل الأعلى الذي أعطته للمدرّس ، وتختلف عن طريقة تعلم الطفل في منزله تحت إرشاد أحد المرين .

ماهذه الطريقة ؟

هي طريقة انتقلوا فيها من تعليم الفصل ، أو تعليم الكل الى تعليم الفرد ، والفكرة الرئيسية في هذه الطريقة أن نحول حجب الدراسة أو الفصول الى معامل كمعامل الطبيعة والكيمياء بحيث توجد فيها الكتب الضرورية ، وكتب المراجعة (من قواميس ودوائر معارف وغيرها) والأدوات العلمية التي يحتاج اليها في البحث عن المادة التي يبحث عنها التلاميذ والتلميذات بحثا عمليا في فصولهم لتساعدهم على الوصول الى ما يرغبونه من الكشف والاطلاع والتنقيب .

وفي هذه الطريقة يلقي مقدار كبير من المسؤولية على التلاميذ في مذاكرة دروس معينة في مدة محددة مقدارها أسبوع ، أو أسبوعان ، أو شهر مثلا ، وفي هذه المدة تترك التلاميذ للقيام بأنفسهم بأعمالهم المفروضة عليهم بحيث ينتهون من أداؤها في نهاية المدة المخصصة لهم ، ويكونون على استعداد لاختبار خاص في الدروس التي قاموا بإعدادها وتعلمها بأنفسهم بعد إرشاد أساتذتهم ، وللتلاميذ الحرية في :

(١) أن يتدثروا معرفة أي مادة يختارونها من المواد المعينة لهم .

(٢) وأن يكتبوا أي مدة يريدونها في فهم هذه المادة ماداموا يرغبون في ذلك ، وهذه حسنة من حسنات دولتون ، فكثيرا ما يشعر الانسان بالألم حينما يقطع عليه بدق الناقوس في المدرسة ، وكثيرا ما يتنى أن يترك ولو بعض الوقت حتى ينتهي من العمل الذي في يده ، فهذه الطريقة تشجع على أن يستمر الانسان في عمله متى أراد الاستمرار .

أما المعلمون فيتركون التعليم ويصرون مرشدين وناصحين وقوادا للطلبة ، بحيث يعينون ساعات خاصة في حجب معروفة لإرشاد التلاميذ الذين هم في حاجة الى الإرشاد ، والذين يجدون صعوبة في عملهم ، ولتوضيح القواعد والنظريات الجديدة ، والمفروض أن المدرسين لا يتدخلون في عمل التلميذ ما لم يكن مخطئا ، وما لم يستشرهم التلميذ ، وكل تلميذ حر في أن يعمل ما يريد بقدر ما يستطيع مادام ينجح في القيام بعمله .

وحينما ظهرت هذه الطريقة الحديثة في أمريكا وإنجلترا لم يوافق عليها طبعاً بعض المدرسين ، شأن كل مشروع جديد ، أما الآن فقد اتضح لكل مدرّس حديث أنها هي الطريقة المثلى في تعليم كثير من المواد ولقد قام بتجربتها كثير من المدرّسين والنظار في مدارسهم حتى أصبحت مبادئها مستعملة في معظم المدارس بالولايات المتحدة وإنجلترا وكندا وإيطاليا ، فالمدرّس الحديث يكلف تلاميذه أعمالاً خاصة يقومون بها بأنفسهم في أوقات معينة تحت إرشاد المدرّس في مواد خاصة كالرياضة والجغرافيا والتاريخ وقواعد اللغة وآدابها .

اليوم المدرسي على طريقة دولتون

في مدرسة دولتون كان التلاميذ أحراراً في عملهم المدرسي من الساعة الثامنة والدقيقة ٠٤ الى الساعة الحادية عشرة والدقيقة ٠٥ أي في النصف الأول من اليوم المدرسي ، وفي النصف الثاني من اليوم كان المدرّسون يقومون بتدريس المواد التي يحسن تدريسها في الفصول بالطريقة المعتادة عندنا ، وفي الوقت الحار عند التلاميذ يقومون بتعلم الدروس المعينة لهم بالطريقة التي يحبونها ، أما المدرّسون في هذا الوقت فيخصصون أنفسهم لهذه الواجبات الخمسة :

(١) أن يقوموا بحفظ النظام في الفصل بحيث تكون الحجرة صالحة للمذاكرة .

- (٢) أن يشرحوا النقط التي تحتاج الى شرح من العروض المعينة للتلاميذ .
 (٣) أن يبينوا للتلاميذ كيفية استعمال الأدوات والأجهزة الخاصة في العمل .
 (٤) أن يوعزوا بأرائهم في كيفية حل المسائل الصعبة .
 (٥) حينما يظهر للمدرسين أن التلاميذ حقيقتة في حاجة الى شرح نقطة معينة ، فعليهم أن يشرحوها و يبينوا صلتها بالقاعدة العامة في المادة .
- ولقد أدرجى أن طريقة (دولتون) سارت سيرا حسنا ، وأن التلاميذ بعد أن تركوا وأنفسهم يهتدون وسمح لهم باتباع الطريقة التي توافقهم قد نجحوا نجاحا باهرا في عملهم ، نجاحا أكثر من نجاحهم المعتاد . وفي الوقت نفسه قد حصلوا على الثقة بأنفسهم ، واعتادوا مقابلة القواعد الجديدة والتفكير في حلها من غير اعتماد على أحد : سيوجد في الابتداء شيء من الصعوبة في تنفيذ هذه الطريقة ، ولكن سرعان ما سيبتادها التلاميذ وسيفضلونها على غيرها ، غير أنهم سيجدون أن بعض المواد يمكن السير فيها على هذه الطريقة أحسن من بعض المواد الأخرى ، فهي تحسن في الجغرافيا والتاريخ والحساب والهندسة والجبر والقواعد والانشاء ، والمطالعة وقانون الصحة وأدب اللغة ، ولا تحسن في الموسيقى والألعاب الرياضية واللغة الأجنبية ، فإن اللغة الأجنبية مثلا تحتاج الى مدرس يعرف منه التلاميذ النطق ، ويتحدثون معه ويتحدث معهم ، ويسمعونه يتكلم حتى تعتاد آذانهم الاستماع وألسنتهم التكلم .

الصلة بين طريقة دولتون

وبين طريقة منسوري

إن هناك صلة كبيرة بين طريقة منسوري وبين طريقة دولتون ، ولكن فضل الأسبقية يرجع الى الدكتور منسوري فقد ابتدأت طريقته قبل دولتون ، وإن (مس هيلين باركرهست) مؤسسة طريقة دولتون كانت من تلميذات منسوري ، وكانت مساعدة لها حينما ذهبت منسوري الى كاليفورنيا سنة ١٩١٥ ومن المهم في طريقة دولتون إعطاء حرية كبرى للأطفال في أعمالهم المدرسية ، ويقول الدولتونيون « إن التلاميذ يستطيعون أن يسيروا على هذه الطريقة من السنة الثامنة من عمرهم ، فمن الممكن استعمالها في مدارسنا العالية طبعا والثانوية من غير شك ، والابتدائية من السنة الثانية ، في الوقت الذي يستطيع فيه التلميذ أن يقوم بشيء من العمل بنفسه مع ملاحظة المدرس وإرشاده ، وبهذه الطريقة يكون التلميذ أو الطالب مسئولا عن عمله المدرسي وأكثر ولعا به ، واشتياقا اليه ، ورغبة فيه ، والغرض من هذا المشروع أن نعطى الطفل حرية في عمله المدرسي ، وأن نجعل المدرسة كهيئة اجتماعية يستطيع فيها التلميذ أن يقوم بعمله الخاص وأن يشترك مع جماعة من التلاميذ في تنفيذ عمل معين اشتركا كما متبادلا بينهم .

حجر الدراسة على طريقة دولتون

أما حجر الدراسة فتصبح معامل للدراسة تجمع فيها جميع الكتب والأدوات المناسبة للواد الخاصة المراد تعلمها ، والتلاميذ لا يزالون يجمعون تحت اسم معين لأجل الراحة في العمل كالجماعة الأولى والجماعة الثانية الخ وحجرة الجغرافيا ، وحجرة التاريخ ، وحجرة الرسم ، ومعمل الطبيعة والكيمياء ، وحجرة اللغة العربية ، وحجرة العلوم الرياضية الخ . ولا يزال التلاميذ يستعملون الحجرة كمكان للبحث والتعليم ، بحيث يبحث فيه كل تلميذ على انفراد ، أو مع بعض اخوانه الذين معه في درجة واحدة ، وسنة واحدة . فإذا أراد بحثا تاريخيا ذهب الى حجرة التاريخ ، وإذا أراد اعداد دروسه في الجغرافيا ذهب الى حجرة الجغرافيا ، وفي كل حجرة يوجد طبعا مدرس خاص للمادة التي عيقت لها هذه الحجرة يقوم بمساعدة من يحتاج الى المساعدة

وارشاد من يحتاج الى الارشاد . انتهى ما أردته من مجلة « الشبان المسلمين » والحمد لله رب العالمين .

هذا آخر ماجاء في فن الترية ، أليس هذا وأمثاله إنما هو ترديد لحديث النحلة المتقدم ، ولما في هذه العوالم من المنافع الخبوءة المشوقة للإنسان ، ومن الحوادث المهلكة المرعبة له حتى يعقل الأولى لنفعها والثانية لفهمها ، والاحتراس مما يمكن الاحتراس منه ، ولن يتم ذلك إلا بالجد والتشمير ، لا بمجرد التلقين والتعليم ، إذن هذه المعاني كلها شملت آية : « قل لله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين الخ » ، فهو يربى العالمين بالكبرياء والعزة المسحوبتين بالحكمة ، وهذا بعينه هو ما يريد أن يقبعه أهل الأرض اليوم في مدارسهم ، وبهذا تم الكلام على الفصل الرابع .

الفصل الخامس

في أمر الأمم من حيث سياستها ، وانه عز وجل يفعل مع الأمم في سياستها ما يفعله مع الناس في عوالمه الطبيعية سواء بسواء

فإذا كان في الأغذية ما يضرهم فهم المسئولون عن ذلك الضرر الحاصل لهم لأن لهم عقولا توجب عليهم الاستنتاج والبحث ، فإذا أناموها فهم المسئولون ، وهكذا في السياسة ، فإذا حكمهم ملوك عادلون ، ثم قام بدلم أبناؤهم أو أبناء أبائهم الذين هم غالباً يكونون غير محترمين وهم مترفون منعمون ، فالأمم هي المسئولة عن ذلك * ويأنه : أننا نرى للمصريين وجميع سكان شمال أفريقيا وأهل الشام والعراق والموصل ونجد والحجاز واليمن ، كل هؤلاء كانوا سادة العالم ، وهم الذين نشروا العلم في العالم كله ، ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتموا الشهوات فلقوا غيا .

ومن أعجب العجب أن سند العلم متى انقطع في جيل من أمة انقطع أجيالا وأجيالا ، فهذه الأمم لما اغترت بعظمة الملك نامت على وساد الراحة الوثير ، ونام الأبناء على الخبرات التي خلفها لهم الآباء ، وشرب الأبناء من عاشوا من كذب آبائهم ، إذ يكونون عائلة على المجتمع ، فإذا فعل الله معهم ؟ جعل ملوكهم يشبهونهم ، ذلك لأنهم تربوا في مدارسهم ، وتعلموا آراءهم ، وهل يحكم الأمير إلا بما درس في مدارس الشعب ، والشعب إن هو إلا عابد للشهوات ، فان الفنائم كثرت ، والأرزاق والخبرات غمرتهم ، فإلهم وللعمل ؟ فلتنكس البطالة والراحة ، ومتى استراح جيل واحد ذهبت النخوة والمروءة والشرف . قال تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا »

إن عذاب الخزي في الحياة الدنيا بالترف ، وعذاب جهنم في الآخرة بالترف : « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم * وظل من يحموم * لا بارد ولا كريم * إنهم كانوا قبل ذلك مترفين » .

فانظر كيف ذكر الترف قبل أن يذكر الكفر ، فهو كما يكون سبب الكفر يكون سبب الاستعباد ، ولقد اتخذ آباؤنا العرب من الفرس أجنادا ومن الترك ، واتخذ الأندلسيون أجنادا ممن جاورهم من الأمم ، وهكذا ملوك شمال أفريقيا اتخذوا من السود الأفريقيين جنودا ، فما كاد الملك الذي استعان بهم يفارق الحياة حتى التحق كل فريق من هؤلاء العبيد بأحد أبناء الملك ليحارب في صفه ضد أخيه ، وهذا درس واحد أحدث فيه هذه الممالك ، فكان بمصر الطولونيون ، فالأشيدونيون ، فالفاطميون ، فالأيوبيون ، فالمماليك البرية والبحرية ، فالترك ، فالفرنسيون ، فأسرة محمد على الحالية ، فالإنجليز .

وكانت الممالك البرية والبحرية بمصر وكذا ولاية الترك بعدهم يتحكمون في رقاب الأمة ، وبهتكون الأعراض ، ويخربون النيار ، ومن عجب أن هؤلاء كانوا عبيدا يشترون بالمال ثم يملكون البلاد .

إن هذا كله هو آثار كبرياء الله في السموات والأرض وعزته ، فهو كما أعطى الناس عقولا ، وخلق لهم أغذية ، وأغراهم بالبحث عنها ، وهكذا خلق لهم أمورا مزيجية من رعد وخسف وبركان ، وشوقهم لمعرفة ما أخرجه من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا ، وألم المرء أن ينسجوا على منوال سنة خالقهم في نظام خلقه من حيث استقلال التليذ بالتفكير ، هكذا فعل معهم في السياسة ؟ أعطاهم عقولا ، وأزل في القرآن آية الشورى ، وألم عمر والخلفاء الراشدين أمر الشورى ، ولما لم يفهموا ذلك وأعرضوا ، ولى عليهم ملوكا ظلماء ، فإذا ماتوا تولى أبناؤهم الجهلاء المترفون بحجة أن ابن الملك أولى بالملك على أى حالة كان ، وهذه حجة داحضة ، فإن قصة آدم وإبليس التي شرحت مقاصدها في ﴿ سورة الأعراف ﴾ أبانت ذلك أيمانيان أن الحجج في علم المنطق إما برهان ، وإما جدل ، وإما خطابة ، وإما مغالطة ، وإما شعر . وأخص أنواع الحجج حجة المغالطة وهي التي احتج بها إبليس ، فامتنع عن السجود لآدم ، ولعمري أين آدم وأين إبليس ؟ إن القرآن لا يقرأ في زماننا إلا لنا نحن ، لا لآدم ولا لإبليس ، إنه منازل إلا عبرة لنا نحن ، فإذا لم نعتبر فلاحية لنا ولا علم . احتج إبليس بأنه خير من آدم ، وبرهانه أن أصله من نار وأصل آدم من طين ، والتار في نظره أشرف من الطين ، ومتى كان الأب أشرف كان الابن أشرف ، إذن إبليس أشرف من آدم ، وهل هذه الحجة لإمغالطة ، وهل هي لإنفس الحجج التي تلقفها جهلة المساهين في الأمم المتأخرة ، فقالوا : « ابن الملك ملك لا بجزاياه ، وعواطفه ، وأخلاقه ، بل بمجرد الانتساب »

والله تعالى يقول فيمن استحق الملك : « وزاده بسطة في العلم والجسم » ويقول : « يادأود إناجطناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق » ولانتبغ الهوى الخ ، حجة المغالطة التي أقامها إبليس محتجا بالنسب إلى الأشرف هي هي نفس الحجج التي أقامها أم الاسلام حججا ومعاذير في قبول ابن الملك أو قريه أو ملوكه ، كابن طولون ، وكافور الاخشيدى ، والماليك البرية والبحرية ، ولكن الله لهم جميعا بالمرصاد وقد عامل هذه الأمم الاسلامية معاملة الأساندة لتلاميذهم ، يطلقون لهم الحرية في الدراسة حتى يستيقظوا ، فأنه وهب لهم العقول ، ونصب لهم ملوكا ، وكلما مات ملك ورثه ولده ، أو عبده ، وأصبحت هذه الأمم :

كرة طرحت بصوالحة * فتلقفها رجل رجل

ومن هؤلاء المتلقفين لتلك الكرة الماهر في الملاعب والجاهل ، وأصبح التعليم في ديار الاسلام في أيدي أخص طبقات الأمة وأجهلهم ، وتركت العقول الراجحة والنفوس الشريفة معطلة ، وبيوت العلم خاوية على عروشها ، اللهم إلا دور العلم المشهورة في بلاد الاسلام التي لولاها لم يبق للدين أثر ، إن خير وسيلة لتعليم السباحة في النهر أن يرمى المتعلم في النهر وهو يجاهد ويكادح حتى يتعلم السباحة بطريقته هو ، وهذه هي التي فعلها الله مع الأمم الاسلامية المتأخرة ، فهي ذاقت الأسرين من جهلة أمراءها ، ولما لم تستيقظ أرسل لها أم الفرنجة ، فأحتلت بلادها ، فاستيقظت ، وهذا التفسير قد جعله الله سبيلا من سبل نجاتها ، ولن تعود تلك الأضاليل والجهالات من بعد ، بل الأمر سيكون شوري ، ويستقيم التعليم ، وسيكون الملوك والأمراء أكفاه للحكم ، وسيكون وارث الملك مقيدا بالشورى ، وله امتيازات خاصة ، والأمر بيد الأمة لا بيده هو ، وسيكون ميراث الملك في بيوت الامارة شروط وقيد لا بد منها ، ولن يحصل بعد اليوم ما حصل في الأزمان العابرة من الاقتتال على الملك ، واضعاف الأمة بالتفرق والاختلال والاضطراب .

إن لانحطاط الأمم سببين رئيسيين : أحدهما الجهل المطلق ، ثانيهما اختلال الحكومات ، وقد منبت أكثر البلاد الاسلامية في القرون المتأخرة بذلك ، وأول السببين أهمها ، إذ لاسبيل لرقى الحكومات إلا برفق التعليم ، ولقد تقدم في هذا التفسير أن كتب الامام الغزالي أحرق في القرن الخامس في بلاد الغرب وبعده ذلك بقرن نبي ابن رشد وفضل الأمير عليه ، ومن ذلك الزمان سقطت النهضة العلمية في بلاد الاسلام

إلا قليلا وتبعها صعب الحكومات ، وغفلة الحكام ، وقد حلم الله على هذه الأمم آمادا وآمادا لعله أن هذا الحلم مع العزة والكبرياء أيقظهم اليوم أيقاظ تاما ، فهاهم أولاء أقبلوا إقبالا جديبا على العلم ، وقد قبض الله للأمة الإسلامية كتابا ومؤلفين ومحررين يذكرونهم بمجدهم ويزيدونهم علما ، ومن معدت النهضة المستقبلية في القريب العاجل هذا التفسير ، فإن ما فيه من المعارف لو ألقى بعضه إلى تلك الترون الخالية التي كانوا فيها يمتنون بالحكمة لسدوه ظهريا ، ولو سموا قائله بالاحقاد والكفر ، ولكن الله عز وجل يعامل الأمم معاملة الانسان الواحد ، فهو في صغره لا يعقل العلم والحكمة ، بل يهيم بالهوى واللعب ، فإذا بلغ سنا معلومة أدرك فهمه وعقله ، فهكذا هذه الأمم نبذت العلوم أيام الطفولة ، فهامى ذه اليوم تتلقاها بشغف وشوق عظيم .

الله أكبر : هذا التفسير يتلقاه المسلمون في أقطار الأرض شوق عظيم ، وهذا يظهر لنا أن أهم السببين المتقدمين لانحطاط الأمم أخذ يزول ، وكيف يبقى الجهل والشوق للعلوم في ازدياد ، إن الأمم الإسلامية ستعم التعليم عاجلا ، ولن يبقى إلا السبب الثاني وهو ضعف الحكومات ، وقد قدمنا أن ضعفها من لوازم الجهل ، ولقد أثبتنا أن الجهل آخذ في الزوال ، وأن العلم آخذ في الازدياد ، وستصلح الحكومات على أثر ارتقاء التعليم وذلك كله راجع لأمرين : أحدهما الكبرياء والعزة المذكوران في الآية اللذان يترتب عليهما اضطراب الأمم أجيالا حتى تدرك خطأها . ثانيهما : التربية بالحكمة التي ظهرت بوادرها بعد أن فعلت الكبرياء فعلها ، فالكبرياء والعزة في مقابلة السبب الأول ، والتربية والحكمة في مقابلة السبب الثاني .

إن الأمم الإسلامية في القرون المتأخرة لما أغفلت التعليم ، وتلا ذلك أنها لم تكن حكوماتها منتظمة أصبحت أشبه بالأنعام في مراتبها تسام الخسف ، ولا تجد لها حيصا من الذل ، متى أعرض المرء عن الكمال بالتعليم أصبح عرضة أولا لنوى الأهواء من رجال الدين ، والجاهلين من الصوفية ، وظلمة الحكام . سواء أ كانوا من أهل الوطن والدين . أم من غيرهم ، ويكون ارتقاؤهم وإسعادهم موقوفين على الحاكم . إن أراد الخير لهم نالوه ، أو الشر أزموه ، ولكن الأمم المسفيرة الحرمة تكون أشبه في عزتها بالحيوان في القفر ، عزيز الجانب ، مرهوب القوة ، يسى بجده كالأسد ، والغزال في القفر . لا كالكلب والعنز في الريف والمدن ، إن الله يقطع مدده عن كل عسولا يعمل له ، والعقول التي لا تعمل لها يسخرها الله ويذلها للعقول العاملة المفكرة ، وهذا هو السبب في أن هذه الأمم الإسلامية المتأخرة أصابها الذل وسلط عليها الظالمون من أنهم ومن أم غيرهم ، ونبذة من ملخص تاريخ الأندلس تريك برهانا على ما تقدم ، فهناك ما جاء في كتاب تاريخ العرب في الأندلس ، وهذا فسه :

« مما شيد عظمة الدولة الأموية الفتوحات الإسلامية لذلك العهد التي جعلت للإسلام عالما متراميا الأطراف شرفيه مدنية وعلما ودينا جديدا ، ونقصر الكلام هنا على ما كان من فتح الأندلس ، وإذا ما راجعنا ما تقدم نجد أن الحوادث مكنت العرب من الاستيلاء على الأندلس . ويرجع فضل ذلك إلى جريرة طارق ، وإقدام موسى بن نصير ، ثم لا تلبث أن نرى عودة هذين القائدين ، ومصر الأندلس إلى الولاة ، وكان خروج موسى عام ٩٦ هجرية ، واستمر حكم الولاة حتى عام ١٣٨ هـ وفي تلك المدة الوجيزة تعقدت الحوادث الهامة ، وبما يلفت الأنظار : تعدد الولاة وظهور العصبية ، وهذه عادة العرب إذا ما استقرت بهم الفتح وقعدوا عن الحرب والقتال مما يؤدي حتما إلى تفرق الكلمة وضعف القوة ، ثم نرى ما كان بين العرب وحلفائهم أهل المغرب الذين ساعدوا بكل ما استطاعوا في فتح الأندلس ، وكان جزاؤهم سوء معاملتهم ففقد العرب بذلك أنصارا أشداء مخلصين ، وهذا دليل واضح على ضعف الحكمة السياسية من جهة العرب خاصة وكان عهدهم حديثا بنلك البلاد البعيدة عن مقر الخلافة الإسلامية .

كلن من الطيبى فن نؤدى تلك اشكال الى الفرضى والتررات الداشلية ، وليس أدل على ذلك مما كان

من أمر صميل وأبي الخطار، وثورة جند الشام، ومصر الامارة الى يوسف بن عبد الرحمن الفهري . ثم كان ما كان من ظهور عامر وحباب وغيرهما من القرشيين ، وانقسام الناس على بعضهم ، مما جعل المؤرخين يقولون : إن سلطان الدولة الأموية كان ضعيفا على بلاد الأندلس ، أو عديم الوجود ، وما كان للأمويين في آخر سفيهم بالمشرق أن يعيروا الأندلس أى اهتمام لما أحاط بهم بالمشرق من ظروف .

وبينما كانت الأندلس تسير في حالتها هذه ، دبر الأمويون بها نقل الامارة الى أميرهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، واستعانوا بمجد العيين ، وبعض البربر ، ودخل عبد الرحمن الأندلس ، واتصر على يوسف وصارت له الامارة ، فشيد ملكا للأمويين ، دام ثلاثمائة من السنين ، ويقسم بحسب حالته الى عصر التأسيس ، ويشمل حكم الداخل وابنه هشام والحكم بن هشام ، وظهر كل منهم بمظهر الحزم والقوة فيما أحاط به من ظروف ، ففترى الداخل يخضع الثورات بقوة السيف ويفزوا الشمال حيث كان المسيحيون ، وتطلبت اليه الظروف أن يبنى ملكا على حكم استبدادى ، المسكنة الأولى فيه للسيف ، وتبعه على سياسته من خلفه ، ولما كان هذا النوع الحكومى لا يتفق مع أهواء العرب نرى أنهم كانوا يخضعون صاغر بن مادام السيف مشهورا ، واذا ما أحمده ثاروا ، وعملوا على استرجاع حرياتهم .

تعددت الثورات في عصر الداخل نفسه ، ونأمر عليه بعض رجاله وأهله ، ولكنه انتصر عليهم ، وأهم ما نجمه في عصر هشام وابنه الحكم ما كان من دخول مذهب مالك بلاد الأندلس وانشاره فيها مما أدى الى تطلع الفقهاء الى زعامة سياسية تتفق مع منزلتهم الدينية ، وزوال أيام الداخل واستبداده ساعدهم على ذلك ، فانتخبوا من حل هشام وطيبة خلقه فرصة ، ولما كان عصر الحكم ولم يسمح لهم بشيء مما أرادوا قادي بن يحيى ، وعيسى بن دينار ، وغيرهما طلبة العلم ، وحرضا الفوغاء على الثورة ، فقامت فتنة كادت تسقط إمارة الحكم ، ولكنه انتصر بقوته ، وعاقب الخارجين شديد العقاب .

وبموت الحكم بن هشام ، وانتقال الامارة الى ابنه عبد الرحمن الثاني يبدأ عصر ضعف يتناول حكم محمد ابن عبد الرحمن ، ثم المنذر وعبد الله ولدى محمد بن عبد الرحمن ، وكاد ذلك العصر ينتهى بسقوط ملك الأمويين بالأندلس ، وأسباب ذلك الضعف ترجع الى :

(١) اشتغال عبد الرحمن عن ملكه بتجهيل قرطبة وتركه سياسة البلاد ليحيى بن يحيى والسلطانة طروب ، ونصر الخصى ، فسربت الفوضى الى البلاد ، فأدرك ما كان من خطئه ، وأسرع الى اصلاح ما فسد .

(٢) وفي عهد محمد بن عبد الرحمن الذى أصبح أميرا على الأندلس على حسب رغبة الخصيان والموالي بقصر الخلافة كره الناس الامارة لسوء سياسة الأمير وموقفه هذا من شعبة شجع بعض الأقاليم على الخروج فاستنقلت طليطلة نظير مبلغ من المال تدفعه سنويا ، وما لبث أن بسط موسى الثاني نفوذه على أرجونة والأقاليم الشمالية ، وكان ذلك بمساعدة الفونسو الثالث ، ولاشك في أن تدخل المسيحيين في أمر المسلمين كان له أثر سيء للغاية كما أن استنجد المسلمين بالمسيحيين يدل على عدم ارتباط المسلمين ببعضهم ، ثم تمكنت ماردة من احراز انفصالها عن إمارة قرطبة ، وهذه الحال بتلك البلاد شجعت ابن حفصون باقليم ربا على مقاتلة الامارة الاسلامية ، ولقد سببت حروبه ضعفا شديدا لها ، وتنج عن ذلك كله أن سقطت هيبة الامارة .

(٣) كانت امارة المنذر أقصر من أن تدفع شرا ، أو تعيد الى الامارة عظمتها الأولى ، ولما آل الملك الى عبد الله بن محمد ساءت الحال جدا ، قامت العصبية ، وبلغ ابن حفصون وأمثاله قوة عظيمة وعمل أمراء العرب على الانفصال عن الامارة ، فعمت الفوضى ، وأصبح ملك الأمويين على قلب

قوسين أرادنى من السقوط . وفي هذه الحال مات عبدالله بن محمد وخدم بلاده بذلك أجلّ خدمة إذ أفسح المجال لحفيده عبد الرحمن الناصر .

بدأ الناصر عصر عظمة الأندلس واستمرّ العصر الذهبي مدة الناصر والحكم الثاني المستنصر ومدة حكم المنصور بن أبى عامر وولديه عبد الملك المظفر وعبد الرحمن المأمون ، وفي ذلك العصر خلقت الأندلس خلقاً جديداً ، تبدل ضعفها الى قوة ، فأخضعت الثورات ، وأعيدت الولايات المستقلة الى الطاعة ، وسارت الجيوش الى بلاد المسيحيين شمال الأندلس ، وأذلتها ، ولم ينل منها الفاطميون مآرباً ، وسارت البلاد في طريق الحضارة وال عمران خطوات واسعة ، وإذا كان المنصور بن عامر وصل بالبلاد الى درجة عظيمة من القوة والمجد ، فإنه أساء الى الأسرة الأموية بطعنها طعنة بجلاء في صميم قوادها ، وذلك بما كان من أمره مع هشام الثاني حفيد الناصر وتمهيد الحكم لولديه الواحد بعد الآخر ، فلما عجز نائى الولدين عبد الرحمن المأمون أن يسير بالبلاد سيرة أبيه قتل ، وانتقلت البلاد الى عصر يعرف بعصر القوضى

(٤) وعنوان العصر كاف للدلالة على سير الحكم الأموى بالأندلس الى سقوطه الأخير ، ومميزات هذا العصر :

(أ) تنافس الأمراء من أحقاد الناصر وأعقابه على الخلافة ، واستعانة بعضهم على بعض بالمسيحيين ، وكانت تلك الحال خير فرصة لهؤلاء
(ب) انتقال النفوذ من يد الخليفة الى الوزراء وقواد الجند الذين سعوا لإدراك أغراض شخصية ولم يهتموا بأمر الخلافة أقل اهتمام ، فساعدوا بذلك على تهديم ما تبقى من الخلافة .

(ج) ظهور دولة بني جود بمالقة وانتقال الخلافة اليها ، وصارت لعلى بن جود أولاً ، ثم لأخيه القاسم بن جود ثم ليحيى بن على بن جود ، ثم للقاسم ثانية ، ثم ليحيى لثاني مرة ، ولكنهم لم يفلحوا في الاحتفاظ بالخلافة

(د) بداية عودة الإمارات الى الانفصال عن قرطبة واعداد الطريق لقيام حكم ملوك الطوائف في عهد المستعين المرادى اقتضت سلطة الخلافة على قرطبة وثلاث مدن حولها ، ثم كانت خلافة المرزقي ، ثم المستظهر ، ثم المستكنى ، ثم هشام الثالث ، ثم أمية وضعف أمرهم أدى بالناس الى التفكير في إسقاط الأسرة الأموية نهائياً ، وقام بذلك زعيم من قرطبة يدعى بن جمهور .

(هـ) ولا بد أن فضيف الى ما تقدم من أسباب ما كلف من موقف المسيحيين العدائى نحو الاسلام وعملهم المتواصل على استخلاص البلاد من أيديهم واتهاز كل فرصة بمكنة لاسقاطهم وطردهم ، ويقول ليفول : « إن من شرّ ما ارتكبه العرب من خطأ إهمال أمر المسيحيين من بدء الأمر .

(٦) ونحتم جلة الأسباب بما كان من تغير كى للأخلاق العربية مما أدى بهم الى نسيان شجاعتهم وعدم التحسك بدينهم والانغماس فى الترف والتعيم ، والكيد لبعضهم ، وعودهم عن نصره بعضهم لبعض لم يكن قيام حكم ملوك الطوائف شيئاً ، كثرة عددهم دل على ضعفهم وضعف ملكهم ، وتنافسهم أدى الى حرب متواصلة بينهم ذهبت برحمهم ، وكانت حالتهم خير أمنيّة للمسيحيين الذين استولوا على البلاد ، وفرضوا الجزية على الاسلام وأذلوا الناس ، وكان خلاص المسلمين على أيدي المرابطين لزم من محدود . ثم كانت دولة الموحدين ولم تعمرو طويلاً ، وفي آخر عهد الاسلام بالأندلس اقتصر الأمر على دولة بنى الأحمر بمرنطة فشبت

أثرا باقيا ، ومجدا دوتا ، لها التاريخ ، فقاتلت وصبرت وانتصرت حتى انتابها الفتن الداخلية ، وكانت المسيحية وصلت الى عظمة قوتها على يد (فردناند) و (إزابلا) فأسقطا المعقل الأخير من المعقل الاسلامي وبادت دولة الاسلام بهذه السلاسل بعد أن قامت بأجل الخدمات للدينة والحضارة والعلم والعمران ، وكل المؤرخين على اختلاف جنسياتهم يشهدون لها بذلك . انتهى ما أردته من كتاب « تاريخ العرب في الأندلس » تأليف الاستاذ حسن أفندي مراد ، والحمد لله رب العالمين .

بأمثل هذا التقرير ترقى أم الاسلام ، وبه تعرف بعض أسرار آي القرآن لاسيما أسماء الله الحسنى المذكورات في ثنايا آي القرآن « والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم » انتهى الفصل الخامس

الفصل السادس

في أن نذلمم ذاتون في التعاليم الذي تقدم في الفصل الرابع هو نفسه الذي صنعه الله في أرضه قبل خلق العالم كما ستره الآن في هذا المقام

بهجة العلم في هذه الآيات

« فتهجد رب السموات ورب الأرض رب العالمين الخ »

اعلم أن هذه المعاني التي تقدمت في الفصول السابقة تتضمنها الصلاة ، ألا ترى أن قوله تعالى : « فتهجد رب السموات ورب الأرض رب العالمين » تتضمنه أول الفاتحة « الحمد لله رب العالمين » ، وقوله : « وله الكبرياء في السموات والأرض الخ » يذكر به تكبير الاحرام وتكبيرات الركوع والسجود والرفع منه والتكبير ٣٣ مرة عقب كل صلاة . هذا ما أردت بيانه في هذا المقام تفسيرا لآيات : « فتهجد رب السموات » الى آخر السورة ، والحمد لله رب العالمين . انتهى في ليلة الجمعة الساعة العاشرة يوم ٢٧ فبراير سنة ١٩٣١ م

نفحة في صلاة الصبح يوم الجمعة ٦ مارس سنة ١٩٣١ م

بيان الكبرياء والعزة أيضا مع التربة في السموات ، والتربة في الأرض ، وزيارة العالمين المسحوبة بالحكمة

أحمدك اللهم على نعمة العلم والحكمة والعرفان ، قرأت اليوم في صلاة الصبح أول سورة طه وأخذت أردد الآيات لفهم معناها ، فلك الحمد اللهم ولك الشكر على ما أنعمت به علينا من الفهم ، ذلك أننا أصبحنا نرى نظام نفس الأرض وناريخ حياتها يضارع في تصاريفه وناريخ أحواله نظام الدراسة في المدارس على أحدث الطرق ونظام الفرد الكامل في حياته أيام الطفولة وأيام الشباب وأيام إفاضة العلم على غيره واشراق أنواره على الناس في هذه الأرض . جاء في قصة موسى ، أن الله يقول :

(١) « إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري » ولاجرم أن هذه عبارة عن ظواهر الاسلام وعن بواطنه وهو التفكير ، فالتوحيد والعبادة والصلاة المذكورات في هذه الآية هي من ظواهر الاسلام وباطنه ، والمقصود منها هو الذكر كما يقول تعالى في سورة (آل عمران) : الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض » ، فالتفكير بعد الذكر لأن الذكر باللسان يحرك القلب للتفكير ، والافتدواه قليلة ، والذكر هنا في سورة طه

لوروده بعد ظواهر الصلاة يرجع للفكر في السموات والأرض ومحاجب الصنع لأن ظواهر الذكر تضمنتها الصلاة التي هي عبارة عن أقوال وأفعال ، ومن الأقوال الذكر المنطقي ، إذن قوله تعالى « لتذكرى » هنا يراد به معرفة الحقائق المقابلة للتفكير في سورة ﴿ آل عمران ﴾ كما فتمناه .
(٢) حديث الله مع موسى إذ أمره بالقائه العصي ، فألقاها فصارت حية ، فقال الله له : « لا تخف » وأعادها لحالها الأولى مرة أخرى .

(٣) تبيان أن هذه الحادثة التي جرت بين الله وموسى نموذج لثلاث حوادث أيهما كان فيها الخوف أولاً والسلامة آخراً ﴿ وبعبارة أوضح ﴾ إن حديث موسى مع ربه وخوفه أولاً وسلامته آخراً فظهر :
(أ) لما حصل لأتمه إذ ألقته في التابوت ، وألقت التابوت في اليم ، واليم ألقاه بالساحل ، وأخذته العدو ، والعدو صار حبيبا له ، وقيل لها : « لا تخافي ولا تخزي إن أرادوه اليك » فقوله : « لا تخافي » في مقابلة : « خذها ولا تخفي » وقوله « إن أرادوه اليك » في مقابلة « سعيدها سيرتها الأولى »

(ب) ونموذج لما حصل له في قتله القبطي : « وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا » ويقول شعب لموسى (لما ورد ماء مدين وسقى لابتنيه) وقص عليه القصص : « لا تخف نجوت من القوم الظالمين » ، وذلك أنه لما جاء له رجل من أقصى المدينة يسئ قال يا موسى إن الملا يأتمرون بك ليقتلوك فأخرج إلى لك من الناصحين فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين ، فهاهوذا وهو خارج من أرض مصر كان خائفا ودعا الله أن ينجيه من القوم الظالمين ، ولما توجه تلقاه مدين وقابل شعبا قال له : « نجوت من القوم الظالمين » إجابة للدعاء الذي دعا به أولادوه وخارج من أرض مصر .
(ج) ونموذج أيضا لما حصل بينه وبين السحرة إذ أجمعوا كيدهم ثم أتوا صفا وألقوا حبائهم وعصبيهم ، فخيّل اليه من سحرهم أنها تسي ، فأرجس في نفسه خيفة موسى فقال له الله : « لا تخف انك أنت الأعلى » وألقى ما في يمينك تلقف ما صنعوا وإنما صنعوا كيدهم سحر »

عجب يارب من هذا الكتاب المقدس وهو القرآن ، خوف من الصا إذ صارت حية فأرجعتها له سيرتها الأولى فذهب الخوف ، وخوف أم موسى عليه إذ ألقته في اليم ، فأزلت خوفها وبشرتها بنجاته ، وخوف موسى من أن القوم يقتلوه فنجيته من الغم ، وخوفه من حبال القوم وعصبيهم إذ خيّل له أنها حيات ، فألقى عصاه فتلفت ما بأفكون .

هنا حوادث ثلاث : حادثة أمه ، وحادثة ، كلهن على نخط واحد ، ويجمعها كلها مثال واحد ، وهو أنه ألقى عصاه فصارت حية ، فأمرته بعدم الخوف ، وأرجعتها إلى حالتها الأولى . أليس هذا يارب من العجب عجب صنعك ! وعجب كتابك !

يارب أنت هذا فعلك ، وهذا قولك ، انك أربنا هذه الوقائع في نظام أرضنا كلها لأنك تربي السموات وتربي الأرضين ، وتربي العالمين .

هاهي ذه أرضنا التي هي أقرب إلينا ألقيتا تربيتها على نظام هونفسه نظام حياة الفرد الشريف العظيم كموسى عليه السلام وكجميع المصلحين في الأرض لأنهم من العالمين الذين تربيتهم ، أليس نظام الأرض أنها تحدث فيها الحوادث العظيمة كالزلازل والبراكين والصواعق والخسوف (وهذا شرحناه قريبا في نفس هذا المقام) فيكون الذعر ، ويكون الشوف ، وتبلغ القلوب الحناجر ، ويطلق الناس بلقمة الظنوننا ، فلماذا يحصل

بعد ذلك ؟ يحصل أن البرا كين :

- (١) يعقبا حدوث أراض زراعية جديدة لا نظير لتربها للزراعة ولا يحتاج الى سجاد .
- (٢) ويعقبا منافع معدنية كالسكبريت الذي ذكرناه أيضا الخارج من أحد البرا كين واشترته شركة أمريكية بألف جنيه لمنافع الناس ، وهكذا نرى إيطاليا تستعمل حرارة البرا كين لمنافع عظيمة أخرى ، إذ بنا تدير آلات لمصالح الحياة العامة كما تقدم في غير هذا المكان .
- (٣) ويعقبا حصول جزائر وجمال ، وقد تحدث قارّات في مئات الآلاف من السنين ، فالزلازل والبرا كين ونحوها تحدث خوفاً لنوع الانسان وذعرا شديدا ، فيقول الله للناس : يا عبادي لا تخافوا هذه كعصا موسى ، ألقاها فصارت حية ، فخاف ، فرجعت الى حاطها ، فالتخوف إنما أبدعته في نفوسكم ليكون المران على الصبر ، وبغير الصبر لا علم ولا مساعدة ، صبرت أم موسى ، وربطت على قلبها لما فارقتها ، إذ ألقته في اليمّ ، وهكذا علمت موسى الصبر لما خاف من العصا وقد صارت حية إذ ألقاها بأمرى ، ليكون ذلك مرانا له على ما يحصل له ، إذ يلقى السحرة فيرى الحبال والعصى حيات ، إن التربية يا عبادي هذا شأنها ، فتسكن المشاق ، وتسكن المخاوف أولا ، ثم تسكن القوة ، وليكن السير في سبيل الحياة .

وذلك مثال لما يفعله من يعلم ابنه العوم ، إذ يلقيه في اليم بلا آلة تساعد على العوم ، فيجاهد بكل قوته حتى يتخذ له طريقا خاصة له ، فهناك خوف ، وهناك نجاة بعد الصبر ، هكذا تربية المدارس على أحدث طريقة ، وهي التي تقدم ذكرها عن (دالتون) .

بذرا الاستاذ تلميذه في ارتبا كه وحيرته واضطرابه في حلّ المسائل العلمية ، ويعينه معاونة إيجابية ، ويترك له التفصيل ، ويعامله معاملة الله لموسى ، ومعاملته للأرض في نظامها ، فكما أن الأرض تضطرب اضطرابا شديدا حتى يظنّ الناس أن القيامة قامت بما يشور من برا كينها ، وبما يحدث من زلازلها ، فيعقب ذلك حياة جديدة بتربة جديدة نافعة جدا ، أو بجبل ، أو بجزيرة ، أو بمنافع أخرى ، وهكذا موسى خاف من عصاه لما صارت حية ، وعلم الصبر على المخوف ، وهذه الاخافة صارت له نعمة لما أتى السحرة جالهم وعمصهم الخ وصار ذلك مرانا له وقدرة إذ قال موسى « ما جئتم به السحران الله سيبطله الخ » مم عليهم ، هكذا التلميذ في المدارس يضطرب في حلّ المسائل ، والمعلم يذره يتخبط ، ويفتح له الطرق ويذره ، وتسكون عافية ذلك قوّة يكتسبها أيام عمله في المستقبل ، إن آخر طريقة للتعليم هي التي وضعها الله في نظام أرضه العام وهي التي وصفتها في تربيته لموسى عليه السلام ، إذ أخافه ليكون ذلك المخوف مرانا على أعماله المستقبلية ، وملخص ما تقدم في هذا الجدول :

تربية السماوات . تربية الأرضين . تربية العالمين . وأن الله حكيم في صنعه	الكبرياء . والعزة	
(١) الأرض بعد أن برد ظاهرها صلحت لهذه الظهورات	(١) الشمس كانت كرة ظليّة والأرض منها ثم بردت (وهذه مرسومة في سورة فصلت)	تربية السماوات
(٢) ظهور جبال وتلال وجزائر وقارات ومسادن	(٢) البراكين والزلازل والحسوف	تربية الأرضين
(٣) كل ذلك مران له على مناقبه من المكارة	(٣) خوف أم موسى عليه في اليم ، وخوفه إذ أتى عصاه فصارت حية ، وخوفه من أن العوم اثمروا به ليقتلوه	تربية العالمين
(٤) نجاح التلميذ في الابتكار والاعتماد على نفسه في العمل	(٤) ترك الاستاذ تلميذه يبحث في مسائل العلم بنفسه	

إذن ما يلاقيه الناس في هذه الحياة مران لهم في نفس الحياة ، أوفى حياة أخرى ، الأتري أننا مأمورون بالجهاد والموت في سبيل الله ، إن في ذلك لمرانا لنا على ترك ما نألفه ، وهذه الأرض مألوفة لنا ، والموت اخراج لنا منها ، والخروج من المألوف صعب . والله له عوالم غير هذه الأرض ، ولا بد من أننا نرى عدله ، وجمال صنعه فيها ، وهل يتسنى لنا ذلك إلا بتركها ، وهل تركها إلا بالموت ، فهنا تناقض ، نحب أن نعلم جمال العوالم فوقنا ، ونحب البقاء في أرضنا ، لكن الله الذي له الكبرياء في السموات والأرض لا في الأرض وحدها التي نحن فيها يقهرنا على ترك المألوفات في نفس الحياة ، وعلى ترك نفس الحياة وإن كرهننا ذلك لأنه سيرينا إبداع صنعه في عوالمه الجيلة التي هي أرق وأبهج وأبهى من أرضنا المتأخرة في أحوالها وظالمها عن غيرها .

تطبيق على ما تقدم من كبرياء الله وعزته مع تربته لنا بالحكمة

وذلك في تذكريتين

﴿ التذكرة الأولى ﴾ هي مازاولته أنا في هذه الحياة

﴿ التذكرة الثانية ﴾ في حديث سمكتين تتحاوران في ثقل ماء البحر عليهما ، وكيف أخذ البخار يصعد الى الجوّ لينقص الماء وما هو ناقص ، وكيف صار بخارا ، ثم مطرا سقط على الجبل وبقى بعضه ثلجا ، فتراكم الثلج ، فأخذ ينزلني من الجبل حاملا معه صخورا سائرا الى البحر ككرة أخرى فساقطها فيه ، فواضعا تلك الحجارة أشبه بالبناء يبقى ذلك السمك من ثقل الماء .

التذكرة الأولى

لقد ذكرت في هذا التفسير مرارا أنني في زمن الصبا عاهدت الله أني إذا نلت من العلم واليقين حظا نشرته بين المسلمين لينزول الشك من قلوب أذكيائهم ، ولما نلت من العلم حظا ، وأتممت الدراسة بدارالعلوم وعينت موظفا بالتدريس ، ونقلت من القاهرة الى مدرسة الجيزة الابتدائية ، هنالك أخذت أفكر فيما عاهدت الله عليه من التأليف ، ولقد كانت السروس تستغرق النهار كله ، ولم يكن عندي من الليل ما يزيد على تحضير الدروس واصلاح خطأ التلاميذ في كراوسهم ، ففوت على أن أجعل يوم الجمعة مقسما قسمين ، فمن الصباح الى قبيل صلاة الجمعة يكون عملي في التأليف ، ومن صلاة الجمعة الى الغروب يكون ذلك خاصا بل رياضة في الحقول والرياض الناضرة والخلاء ، ليكون ذلك الشطر للفكر وللجسم ، فدمت على ذلك مدة . ثم إنى يوما قلت في نفسي : لأترك التأليف في هذا الاسبوع ، ولأخرج في الخلاء من الصباح ، فإكملت أخرج الى شاطئ البحر حتى قابلني رجل أعرفه من القاهرة جاء الى الجيزة ليشتري مجلا من البقر ليذبحه في عيد الأضحى ، فرافقته الى سوق البهائم ، وهناك تصاعد الروائح الكريهة من أبوالها وأروائها ، ويسمع الانسان عبارات السامرة والتبايعين ، والحلف المتكرر ، ورفع الأصوات ، والجلبة في البيع والشراء ، ولم أخلص من ذلك المأزق إلا وقت صلاة الجمعة ، هنالك عرفت أن ذلك معناه ما يأتي : « انك طلبت الرياض الناضرة ، والحقول الباهرة ، والمناظر السارة ، والحداثق الجيلة ، تاركا ما عاهدت الله عليه من التأليف ، فهانحن أولا عاقبتك فأرسلناك الى سوق البهائم لتكون بين البقر والجاموس والجبر ، ولتسمع مالاتألفه ، ولتشم ما نكروهه ، وذلك ضد ما نطلبه على خط مستقيم ، هنالك عرفت أن ترك التأليف في ذلك الموعد ذنب عوقبت عليه ، فذلك راجع لكبرياء الله وعزته أولا ، وتربته وحكمته ثانيا « والله عاقبة الامور » .

ويقع هذه التذكرة الأولى حديثان : الحديث الأول : إنى قبل ذلك أى حين أردت أن أبتدى

فأكتب ما عاهدت الله عليه وأنشره بين المسلمين ، أحاطت في من المزهجات المزليات والأحوال الداخلية ما آذاني وساءني ، ومن هجب أتي إذ ذاك خارت لي خواطري مجيبة ، فكنت أقول : أنا في المستقبل سأكتب لرقى الاسلام ، ولا بد لكل عام من حسنة وأعداء ، فهذه المزهجات اليوم قد أحاطت بي ، لأن من خلقي شدة الحياة ، وسرعة التأثر ، وهذه المزهجات تعطيني درسا به أنعم الثبات في الأعمال النافعة ، وأقول أيضا في نفسي : هذا تدريب لنفسي على الثبات ، وعدم التزلزل أمام الحوادث ، وفي تلك النوازل والحوادث والمزهجات أخذت أولف كتاب «جواهر العلوم» وكتاب «ميزان الجواهر» قائلا للحوادث المنزلية بكلامه والله لا أنثني عن مطالبي مادمت حيا . وبهذا تم الحديث الأول التابع للتذكرة الأولى .

الحديث الثاني : انني في أوائل طبع هذا التفسير أحاطت بي حوادث خارجية وهي مزهجة أشد من الأولى ، فقاتلتها بصبر رجب ، ولم أذخر وسعا في تذييلها ، وصرت بسلام ، ولم تعقني عن السير في التأليف والطبع ، وكنت أجد المعونة من الله وانحة جليلة ظاهرة .

التذكرة الثانية : حديث السمكتين

حدثنا الحارث بن همام . قال : ركبت في سفينة بخارية في خليج البحار العميقة ، وقد قادها الربان بمهارة وإتقان ، ولم أكن لأعتاد ركوب الأخطار ، ولا مقاساة الأسفار ، فما أن مضت ساعات حتى أغمى عليّ ، وغبت عن حواسي ، وغيب الريح أتي في قاع المحيط ، وأمامي آلاف السمك تتفرج عليّ وتدعش لمنظري ، وقد أنطقهن الله ، فصرن يتحدثن بأحاديث عجيبة ، وبما أذكره أن سمكة منهن تسمى (سانده) وأخرى معها تسمى (مانده) أخذنا تناسران سامة أشبه بأقويل الفلاسفة وعلم الحكماء . فقالت (سانده) لأختها (مانده) : حدثيني أيتها الأخت ، إن ماء البحر يعلو فوقنا فوق (٢٠٠٠) أمتي قامة ، وهذا الانسان لا تفل فوقه أكثر من (٧) قلمات ، لأن الهواء الجوى المحيط بهم (وان كان عظيم الارتفاع) لا يزيد في ثقله على عشرة أمتار من الماء وهي تساوي ٧٥ سفينة من الزنق ، نحن هنا في كرب شديد ، فكيف نصل هذا كره ، وهذا الانسان في راحة بال لا يزيد الثقل فوقه عن ٧ قلمات تقريبا ، فأين السبعة وأربعون الألفان ؟ إن هذا طوبى للبلاء . فقالت لها (مانده) : قومي ندعواته نحن وبقية السمك في قاع المحيط عسى الله أن يخفف الأقال عنا .

هنالك غابت السمكتان عني ، ثم رجعتا بعد مدة ، وأخذت (سانده) تقول لأختها : إن الله استجاب دعواتنا ، وهما هودا أخذ يخفف العبء عنا ، فان المحيط أخذ يبخر وهذا البخار يقلل الماء من فوقنا ، فاستقرت بذلك (مانده) في الضحك وقالت لها : ما الذي يرفع البخار من الماء ؟ إن هو إلا تزييسير ، فقالت لها (سانده) : إذن أين إجابة الدعاء ؟ فقالت لها (مانده) : عجب لك ! إن الله له (الكبرياء والعزة) فضله حكيمه ، ولا بد من الصبر حتى نفهم كيف استجاب الدعاء ، ألا ترى أن العنكبوت تخرج من جسمها خيوطا فلا يدري العافل لماذا تخرج ، وبعد حين يظهر أنها شبكة لصيدها ومنزل لساكنها . فقالت لها (سانده) عليّي مما عليك الله ؟ فقالت لها (مانده) : إن البخار يذهب إلى الجوى ويصل إلى الطبقة الباردة فيصير ماء ثانيا ولكنه خال من الملح ، ثم يصير سحبا ، فيسوقه الهواء الذي تكون الحرارة والبرودة بسببه ، ذلك أن الحرارة تمدد الأجسام والبرودة تكمئتها ، والصخور بتوالي الليل والنهار ، وتعاقب الصيف والشتاء تمدد وتتكسب ، وينشأ عن ذلك تشققها بشقوق رأسية طولية وعرضية ، فإذا كانت الصخور طبقة أصبحت كالطوب المرصوص فيمر ملاط مستعدة للانهار (انظر شكل ٢٥ الآتي في الصحيفة التالية) فلا تلبث أن تنساق عليها عوامل الطبيعة من الماء والتلوج فتمزق شملها وتجرفها .



(شكل ٢٥ — تشقق الصخور من أثر التغيرات الجوية)

آثار المطر في التعرية



(شكل ٢٦)

واد ناشئ، عن سقوط سقف مغارة جبسية

فقلت سائده لمائده : أنا الآن لم أعرف إجابة دعائنا ، فانك أينها الأخت لم تذكرى لى إلا أن الحرارة والبرودة تؤثران فى الصخور فتعمرها ، وأن المطر الذى من بخار البصار يؤثر بطريقة أخرى ، ولكن هذا كله فوق وجه اليابسة التى خلق فيها هذا الانسان ، ولكن أين إجابة دعائنا بتخفيف الضغط عنا ؟ فقلت لها

فى شكل (٢٦) واد عميق كان فيها مضى كهفا من الكهوف الجبسية التى وصفنا لك طريقة تكوينا بسبب ذوبان الصخور بفعل ماء المطر ، وقد رقت سقف الكهف وسقط فكشف الوادى كما نراه .

وتأثير ماء المطر بهذه السكيفية فى الصخور الجبسية تأثير كيميائى ناشئ عن التأثير الحامض لهذا الماء بسبب ما يخرج به من غاز حامض الكربونيك فى أثناء سقوطه فى الهواء .

و يؤثر المطر فى الصخور بطريقة أخرى ، وذلك بتكرار لطيفها ، وتجزيقها ، وتشققت مادتها

وتتشرب الصخور أحيانا ماء المطر ، ثم تجف ، ويتكرر التشرب والجفاف فتتأخرى وتصبح عرضة لجرف المياه الجارية كما ستريه مفصلا فى عمل الأنهار .

(مأثمه) : ألم أقل انك لن تستطعي معي صبرا ، فاصبري حتى تفهمي ، لأن العلم يعوزه الصبر ، ولا علم بلا صبر ، ولا سعادة بلا نصب ، وأعلى السعادات سعادة الحكمة والعلم . فقالت : لقد تبنى إذن . فقالت مأثمه :

نشأة الأنهار

انها نشأت من تضاريس صغيرة في وجه الأرض الحديثة ، هذه التضاريس تعين اتجاه سير المياه ، وبتي تعين مرة أصبحت مسالك متنوعة ، وأمعت المياه في الأرض نحتا وتعميقا حتى يكمل تفسيق حوض النهر .

العيون والآبار

بعض صخور القشرة الأرضية ذات مسام يتفذ فيها الماء ، وبعضها ممتة فلا يتفذ فيها ، فالقوة في الطبقة ترشح فيه لأنها من الفخار ، وهذا له مسام ، ولكن الطبقة يحفظ الماء ولا يرشحه لأنه مصمت ، فان رشحت القوة حتى امتلا الطبقة وقاض سال الماء على جانب الطبقة ، فهكذا تتفجر العيون والينابيع على جوانب الجبال إذ يتفذ بعض ماء المطر من المسام والشقوق حتى تتحجزه طبقة مصمتة ، فاذا ملأ تجوزف هذه الطبقة وقاض نشأت العيون والينابيع ، وفي شكل (٢٧) مقطع رأسي في جانب الجبل يسيل منه الماء عند (ع) والصخور التحتية مصمتة كالصالح ، والقوية ذات مسام كالجير ، وقد تشربت هذه الصخور بالماء الى الارتفاع المشار اليه بعبارة (منسوب الماء) ، فاذا حفرت بئر عند (ب) وعمقت الى ما تحت منسوب الماء أمكن استخراج الماء منها بالهدلو أو المضخة . وهالك صورته :



(شكل ٢٧ - مقطع رأسي في جانب الجبل فيه بئر عند ب و عين ماء عند ع)

الآبار الارتوازية



(شكل ٢٨ - نظرية الآبار الارتوازية)

في شكل ٢٨ طبقة من الصخور ذات المسام (ب) محصورة بين طبقتين من الصخور الممتة (ا) و (ج) والطبقات كلها ملتوية مقعرة ، وللطبقة (ب) حافتان على وجه الأرض تقع عليهما الأمطار فتتساقط ضمن



(شكل ٢٩ - منظر بئر ارتوازي)

هذه الطبقة ، بحيث
لو ثبتت الطبقات التي
فوقها بحفر بئر في
وسطها ، يخرج الماء
من تلقاء نفسه وبملا
الحوض ، وهذه الآبار
الارتوازية عظيمة
الأهمية فيرى الجهات
البعيدة عن الأنهار
والترع (انظر شكل ٢٩)

حفر الهجرى وتوسيع الوادى



(شكل ٣٠ - واد بمبقي ضيق)

تحفر الأنهار مجاريها وتنتح الوديان ، فإذا
سرت النهر بجهات عديدة الأمطار ، حيث لا يمكن
أن يتزود بنهيرات تمزق جدران الوادى وتساعد
في توسيعه ، ينحت النهر واديا غارا يسمى خانقا
مثل خانق نهر كلورادو ، وترى صورة مثل هذا
الخانق في (شكل ٣٠)

وفي الجهات الأخرى تمزق الأمطار والسيول
والنهيرات جدران الوادى ، ونحرف الصخور الى
مجرى النهر فينقلها الى حيث شاء ، وبذلك
تتكون الوديان العريضة ، ولكل نهر واد
كقوته ينحت الصخور المجاورة لمجره .

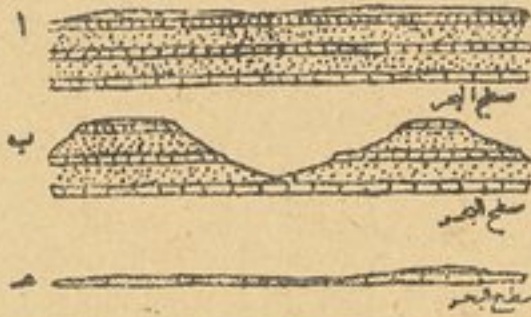
وقد عرفت أن الهضبة الحديثة اذا انسابت فيها الأنهار شققتها بالوديان نازحة سلاسل جبلية كالجدران
تفصل الأحواض المختلفة ، وبين شكل (٣١) تكوين الوديان العريضة والجبال المتخلفة . وهذه صورته :



(شكل ٣١ - تحول الهضبة الى وديان وسلاسل جبلية بعد عوامل التآكل)

وفي عمق خاني كلورادو دليل على مقدار ما يستطيع الماء تحته رأسيا في الصخور ، فان حافة الصخر مرتفعة عن سطح الماء هناك بأزيد من ميل ، فلأضفت الى ذلك ما يحتمل أن تعمل الأمطار والفيضات على جانبي النهر من توسيع الوادي ، وخاصة اذا كانت الصخور رخوة أمكنك أن تتصور كيف ينسني للأشهار الصغيرة أن تحت لها وديانا عريضة منبسطة .

دورة التحات



(شكل ٣٢)

(١) هضبة حديثة (ب) الهضبة بعد التضاريس ،
(ج) السهل المنحوت .

تتشقق الهضبة الحديثة اذا انسابت فيها الأنهار ، فتحوّل الى وديان فصلها الجبال المتخلفة ، ثم لاتزال الأنهار تنحت في صخور هذه الجبال حتى تأتي على آسرها فتعود الهضبة مسطحا واحدا مستويا كما بدأت ، ويسمى هذا النوع من السهل (سهلا منحوتا) وهو ينحدر عادة انحدارا خفيفا تجاه الساحل ، ويبين شكل ٣٢ دورة التحات في درجاتها الثلاث .

سرعة الجريان وشدة التحات

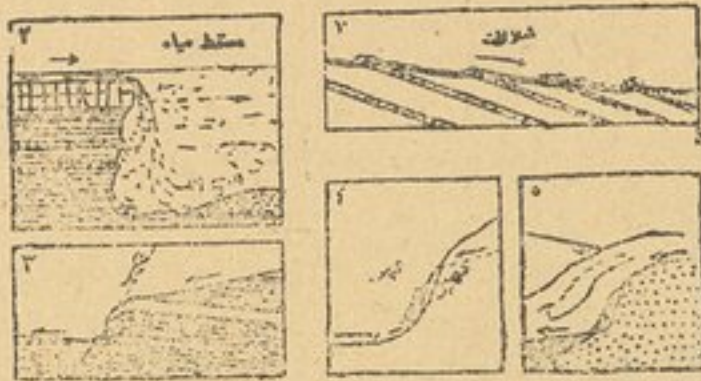
كلما كان التيار شديدا ازداد فعل النهر في التعرية ، وازداد تحات الصخور ، لذلك نجد نخرها عظيم في الصخور عند المنابع ، حيث يكون الانحدار شديدا والجري حديثا ، إذ تمزق كتل صخرية فيجرها الماء ، وتلاطم فتفتت وتحتك بعضها ببعض وبالجرى ، وقد ترقد بعض الحجارة في حفر فلا يستطيع الماء أن يخرجها منها ولكنه يلقها على كل جانب ، ويصقل سطحها ، فتسكون منها الجلاميد (الزلط) المعروفة لنا ، أما الحفر فتتعمق ويكون لها أشكال وعائية غازة ، ويوضح شكل ٣٣ الحفر الوعائية في حوض نهر آر بسويسرا . وهذه صورته :-



(شكل ٣٣ - الحفر الوعائية في حوض نهر آر بسويسرا من أثر نفوذ الجلاميد)

مساقط المياه والشلالات

(١) بين اسوان والمحطوم ستة شلالات مشهورة ، والسبب في تكوينا وجود طبقات جرانيت صلبة تنخلل الطبقات الرخوة التي يجرى عليها النهر ، فتتحات الطبقات الرخوة أكثر من الطبقات الصلبة وتظهر الشلالات على شكل صخور وجزائر تعترض مجرى النهر ، والجزء الأول من شكل ٣٤ يوضح ذلك .



(شكل ٣٤ - أسباب وجود الشلالات ومساقط المياه)

(٢) ومن مساقط المياه المشهورة في الدنيا مساقط مياه فكتور يا على نهر زمبزي حيث بهوى الماء من هلق ٤٠٠ قدم ، ومساقط مياه نياجرا حيث يسقط الماء من ارتفاع ١٧٠ قدما ، والسبب في تكوين مساقط المياه وجود طبقات رخوة تحت الطبقات الصلبة ، فتتحات الطبقات السفلى بفعل الماء ، ثم تتداعى الطبقات التي فوقها بزوال دعمتها ، وهكذا يزداد علو المسقط ويتراجع من مكانه ساعدا نحو أعلى النهر ، والجزء الثاني من شكل ٣٤ يوضح ذلك .

(٣) وقد تنشأ مساقط المياه عن وجود عيب في الطبقات يترتب عليه مسقط طبيعي في الصخور .

(٤) كما تنشأ عند ملتقى نهر مجراه أعلى من مجرى النهر الأصلي .

(٥) وكذا عند تغير نوع صخور القشرة من نارية صلبة إلى رسوبية رخوة .

المنعطفات والبحيرات المقتطعة

في أدنى المجرى يضعف التيار ويبطؤ سير النهر فيغير مجراه اذا اعترضته الصخور ، ولا يخفى أن الماء يمت في المجرى ، ويحمل الغرين ، ويحتفظ به مادام التيار سريعا ، لكن اذا ضعف التيار انعكس الحال ويغلب الترسيب ، والنهر المستقيم تياره في القلب أعظم منه في الجانبين ، لكن تختلف هذه القاعدة عند المنعطفات ، فان التيار يكون بالقفا أشده في المنعطف الظاهري ، ويكون في أضعف أشكاله في المنعطف الباطني ، فينشأ عن ذلك نحت وجرف في الأزل (حيث تكون المرتفعات عادة) وترسيب ورودم في الساني (حيث تكون الأراضي الواطئة)

ولا يزال المنعطف في ازدياد حتى يستدير ويجد النهر سيلا لا يجتازة أخيرا في اتجاه مستقيم ، فيترك بحيرة

مقطعة على شكل الهلال . وفي شكل ٣٥ منطقتا الميسبي الأذنى والبصبرات المقتطعة . وهذه صورته



(شكل ٣٥)

منطقتا نهر الميسبي في أدنى مجراه

سهل الفيضان



(شكل ٣٦)

تكوين سهل الفيضان

المتكوّن من الغرين الأصفر في بلاد الصين . وقد تقلب هذا النهر الأخير على جسوره مرارا فغير مجراه ، وسبب الكوارث ، ونقل مصبه أخيرا من البحر الأصفر الى خليج بنشيلي .

وبشأ فيضان النيل عن الأمطار الموسمية التي تسقط على الحبشة في الصيف ، ويظهر الفيضان في مصر بوضوح في شهر سبتمبر من كل عام ، وقد حسب أن الأراضي الزراعية في مصر قد ارتفعت في خلال أربعة آلاف السنة الماضية أربعة أمتار ، تكوّنت من الطبقات الغرينية التي رسبت في مواسم الفيضان ، لذلك نجد الآثار مطمورة في الطين الى هذا العلوّ . أما الأنهار التي تنبع من التلجات مثل « السين » بفرنسا ، فوسم فيضانها أول الصيف عند ذوبان الثلوج .

تكوين دال النهر

عند المصب يقف جريان الماء ، فيرسب الغرين المعلق فيه ، فإذا كان البحر عظيم المد والحزر كالمحيط

الأطلسي فانه لا يترك هذه الرواسب تعترض النهر بل ينقلها جانبا
ولكن الأنهار التي تصب في البحار القليلة المد والجزر كالبحر الأبيض المتوسط ، يرسب غريها بمجرد
وقوف التيار عند مقابلة البحر الملح ، فيتكوّن من ذلك سهل غريفي مثلث الشكل غالبا تنفذ منه مياه
النهر الى البحر من عدّة فروع ، وتسمى الأرض الغريبية المتكوّنة بهذه الصفة (دلتا) أو (دالا) لقرب
شبهها عادة من حواف الدال ، غير أن بعض الدالات أشكالا مميزة مثل دال المسيسيبي التي تمتد في خليج
المكسيك امتدادا هجيب الشكل ، وقد يكون للنهر فروع كثيرة في الدلتا ، فخلا لنهر أورونوكو بأمرىكا الجنوبية
أكثر من خمسين فرعا ، ويحوى نهر المسيسيبي كل عام بثلاثمائة وخمسين مليون طن من الفرين الجديد ليزيد
بها بناء داله ، واستمرار تشييد النهر في الدال يقل أهمية الثغور الواقعة عند المصب بإبعادها عن البحر ، كما
قلت أهمية دمياط ورشيد أخيرا ، وقد كانت (أدريا) مدينة رومانية عند مصب (نهر بروج) ومنها اشتق اسم
بحر الادرياتيک ، وهي الآن بعيدة عن الساحل بعشرين ميلا من الأراضي الغريبية .

ردم البحيرات التي تجتازها الأنهار

يصب نهر سيليكي في بحيرة البرت فيرسب الفرين في أوطلا على شكل دلتا صغيرة ، ويخرج منها بحر الجبل
صافيا قليل الفرين لسوب كثير منه في البحيرة ، ومائل البحيرات التي تصب فيها الأنهار أن يردمها الفرين
نهائيا ، ولا يبقى مجوقا إلا مجرى النهر الذي يخترقها ، والبحيرات التي لا تنصرف مياهها الى البحر بالأنهار
مثل بحيرة (شاد) في أفريقية تكون ملحة لكثرة الأملاح في غيايات اليابس التي ترد إليها ، أما البحيرات
التي تنصرف مياهها الى البحر مثل فكتوريا (التي تنصرف مياهها في النيل) فانها تكون عذبة

هناك قالت سائده لمآده : يا اختاه . قد طال الحديث ، ولم فصل الى إجابة دعائنا ، ولم أستفد منه إلا
ان العيون تنفجر على جوانب الجبال بسبب طبقات مسمتة خاصات تمنع سريان الماء الى أسفل فيفيض
الماء فيكون عيونا ، وقد يستخرج الماء بالأعمال الصناعية ، وهكذا عرفت أن النهر يوسع مجراه ويقع
الوادي ، وتحول الهضبة الى أودية وسلاسل جبلية بضع عوامل التعرية ، بل ان الهضبات ترجع آخر الأمر
سهولا بذلك السبب ، وهكذا عرفت أسباب التلات ، ومساقط المياه ، والمنعطفات في بعض الأنهار وهكذا
سهل الفيضان وأنها الجليد وفعالها ، فقالت لها : فريبا ستعرفين الجواب ، فاسمى بقية الحديث :

المطر والبرد والتلج

يستط في مصر المطر ماء ، وقد يسقط معه البرد (بفتح الباء والراء) في بعض الأوقات ، فترى قطعا صغيرة
من الثلج الجامد كالمحجرى ، ولكن في الأقاليم الباردة يسقط الثلج الأبيض الرخو بدل المطر ، وخاصة
في الشتاء حتى اذا ما أتى الصيف ذاب كله أو بعصه بحسب دفء المكان أو برودته .

التلجات وخط الثلج

وفي الجهات القاصية الشمالية مثل (ايسلند) و(جرينلند) ، والجنوبية القاصية مثل (انتارككتسكا)
لاسيبل الى ذريان الثلج في مكانه ، فهو يزيد كل عام ، وتتراكم طبقاته ، ويندمج بعضها في بعض فتتكوّن
منها مسطحات عظيمة من الثلج الجامد الأزرق ، سمكها بضع مئات من الأمتار ، وتسمى بالثلجات ، ولا
يقصر وجودها على الجهات القريبة من القطبين ، فان الارتفاع عن سطح البحر من شأنه تقص درجة
الحرارة ، ولتلك صارت رهوس الجبال في كثير من جهات المنطقة المعتدلة مسرعا لنزول الثلوج وتراكمها ،

فاذا رقت تشاهدها من بعد تراها مكسوة بقلنسوات مفضضة من الثلج اللامع ، ومتى جاء فصل الصيف وتزايدت الحرارة ذاب الجزء الأسفل من هذا الغطاء الى حد معين يسمى (خط الثلج) ، وكل ما زاد علواً عن هذا الخط دامت عليه الثلوج صيفا وشتاء .

الأنهار الجليدية

لا يمكن أن يزداد التلجات باستمرار من غير أن يكون لها مصرف تنفذ منه ، لأن الثلوج الجديدة لا تنأى تسقط عليها من الجوّ ، ومتى زادت هناك الثلوج وتراكت الطبقات الجديدة على القديمة ينزلق الثلج في فوطة بين الجبال وينحدر ثقله ودفع غيره له ، فيصبح لسانا من الثلج ممدودا تجاه سفح الجبل ، ولا يزال هذا اللسان يمتد وينطف عند كل منطف ويتزود بثلوج أخرى من اليمين واليسار ، وهو ينحدر نازلا على شكل نهر جليدي كما تراه في شكل ٣٧ وهناك صورته :

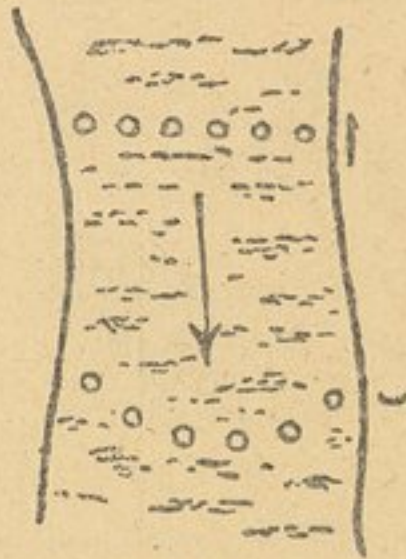


(شكل ٣٧ - صورة لظرف الأدي من الجرف الثلجي في الرون بجبال فيركا مندورا الى رأس واد من الأودية حيث يتدفق منه النهر)

الهيارات الثلجية

ربما لا ينصرف الثلج المتراكم في التلجات المرتفعة في الوقت المناسب ، فيزيد حجمه في إحدى النواحي فينهار منه الهيار إثر الهيار ، وتكون له قعقة مرعبة ، إذ يهوى وهو يتقلب ويتدحرج ، فيتلاطم ويحطم ، ويهشم ويدمر ، فلا يبقى ولا يذر ، وأهل القرى العالية يحرصون على الغابات ، لتكون بينهم وبين الهيار سداً

فصل الأنهار الجليدية في التعرية



(شكل ٣٨)

زيادة سرعة النهر الجليدي في القلب
منها في الجانبين

شكل (ركامين جانبيين) وعند ملتقى نهرين جليديين يتحد ركامان جانبيين في (ركام وسطي) ، فإذا جمعت عدة أنهار جليدية تعددت الركامات الوسطية ، فالنهر الجليدي في شكل ٣٩ المتقدم ينحدر نحو ك بطاء وعلى وجه التلج بجانب كل حافة سطر من الصخور هو الركام الجانبي ، وفي الوسط ركام وسطي ناشئ من اجتماع نهرين جليديين .



(شكل ٣٩ - سهل الثلج للصخور)

من خواص الأنهار الجليدية أنها كثيراً ما تنعطف مع الوادي من غير أن تنكسر ، وكثيراً ما تغزق على مجار خشنة مخرسة وهي متاسكة ، وإذا تشقت فقد تلتمح بسهولة ، لكن المجارى قد تكون وعرة جداً في بعض الأحيان ، فتتشقق الأنهار الجليدية بشقوق طويلة وعرضية ، والأنهار الجليدية كالأنهار المائية أسرع في قلبها منها في الجانبين ، وذلك طبيعي لأن الصخور الجانبية تعوق سير الثلج ، ولذلك تنقوس الشقوق العرضية أثناء سير النهر الجليدي (انظر شكل ٣٨) وفي أثناء هذا السير أيضاً تنهار الصخور الآيلة للسقوط من أثر الصقيع والهيارات الثلجية السابقة وتقع على حافتي النهر الجليدي فيحماها معه على

وقد تقع الصخور في الشقوق فتصل إلى قاع النهر الجليدي فيجرفها الثلج ، ويسير بها على شكل (ركام أرضي) ، وفي أثناء ذلك يمسكها وينحط بها الجوى . ويوضح شكل ٣٩ سهل الثلج للصخور . أما المسحوق الناعم الذي يتحات منها فيسير مع التلج إلى (خطم النهر الجليدي) حيث يذوب الثلج ويجرى الماء العكبر بداية لنهر مائي عظيم ، وعند الخطم يتجمع فتات الصخور المختلفة التي جاءت مع الركامات كلها في ركام نهائي قد تنشأ عنه رابية عظيمة .

الأجماد الطافية

لا يسمع البرد القارس في أطراف المصورة من الشمال والجنوب للأنتهار الجليدية بأن يؤول أمرها الى النوبان ، فستمر ألسنها في الاتزلاق حتى تصل الى الساحل ، وهناك تنقسم منها الكتلة إثر الكتلة فتقع في البحر ، وتطفو على الماء كآنها جبال من الثلج : قد يكون الجزء الظاهر منها فوق الماء بضع مئات من الأمتار ، لكن باقى جرمها وهو تسعة أمثال ذلك ، يكون مخفيا تحت الماء (انظر شكل ٤٠)



(شكل ٤٠ - نكوّن الأجماد من الأنهار الجليدية)

وكما ذاب منها ركن تزخر مركزا ثقل هذا الجد الهائل . وصار يتأبل وينقلب ، وهو يبرمع التيارات البحرية تحفة به غيوم كثيفة ، وينشأ عنه خطر عظيم على الملاحة ، فقد دهم أحد هذه الأجماد الباحرة (بيتك) في أول سياحة لها في ابريل سنة ١٩١٢ تجاه سواحل جرينلند ، وكانت عروس بواخر الدنيا . والأجماد كالأنهار الجليدية التي اشتقت منها تحمل معها ركامات صخرية ، ومتى ذابت رسبت الصخور في قعر المحيط ، فكوّنت مسطحات مرنة بأوى اليها السمك ليقم فيها ، حيث يكون ضغط الطبقات المائية عليه أخف منه في أعماق المحيط ، وقد اشتهرت سواحل نيوفونلند بأمرىكا الشمالية ، وسواحل (هكياو) في اليابان بكثرة مصائد السمك لهذا السبب .

فأرجو أن تحي درس الصقيع والثلج بحيث تسمعين ما أعلمك للنهاية ، وبعد ذلك يسافر . فقلت حبا وكرامة يا أستاذي فقلت مانده :

عمل الصقيع في التجميد

قد عرفت في (شكل ٢٥) المتقدم كيف أن الصخور تنشق من تغير درجة الحرارة ، فإذا نشقت الصخور فإن ماء المطر يشغل الفراغ بينها ، وإذا برد الجو يتحول الماء الى ثلج ، وقد رأيت الثلج يطفو على الماء في القديح ، ورأيت كذلك أن الأجماد تطفو على المحيط بحيث يكون العشر فوق الماء ، وتسعة الأعشار تحته . ومعنى هذا في علم الطبيعة أن الماء عند ما يستحيل الى ثلج يمتد ، لأن الثلج أخف من الماء ، فإما الذي في شقوق الصخور عند ما يتجمد يزيد حجمه فيضغط عليها ويترققها ، وفي البلاد الباردة مثل كندا يساعد الصقيع على تحريك التربة فيوم حرت الأ. من ، وأما في الماء في الأقطار الباردة مثل إنجلترا

تعرض أحيانا للانفجار لضغط الثلج المتكثف من الماء في داخلها .

الواقف عند الساحل تلفت فظرة الأمواج بارتماها على الشاطئ ، وخاصة اذا هاج البحر وتلاطمت الأمواج ، فينطح الموج الصخور ، فيوهنها ويقذف منها قطعاً يجرفها معه بعيداً عن الساحل ، ثم يعود بها ، فيناضل الساحل من جديد ، فاما قطع الصخور فتفتتت الى رمال وجلاميد ، واما صخور الساحل فتتحات ، ومنها ما ينهار ، ومنها ما ينحرم بالثقوب والمغارات .

والمتمثل في قوة الأمواج وفعالها يدور بخنده ذكر الأبدية ويسأل هل ظل البحر يناطح الساحل طول الأبد ، ولماذا لم يأت على آخر اليا بس فيدفعه تحته ، ويظهر منتصراً عليه ؟ لكن لا يلبث أن يتذكر حركات القشرة الأرضية وأثرها في بروز أراض جديدة من قرار البحر لتعيد التوازن ، والصخور اللينة أسرع تحاماً من الصخور الصلبة . ففي (شكل ٤١) مسلات طبيعية قاومت الأمواج فبقيت بعد أن تحات ماحولها من الصخور ، واذا كانت الصخور التحتية رخوة بليت ونحرت فتداعت الصخور التي فوقها من تلقاء نفسها .



(شكل ٤١ - مسلات طبيعية من تحت الأمواج)

والمد إذا ملاً مغاور الشاطئ ضغط الهواء فيها ، فاذا جاء دور الجزر انحسر الماء سريعاً ، فانسحب الهواء وراه من شقوق المغاور ، فيتداعى ما لا يحتمل الجذب من الصخور ، وبمرور الزمان تتخرم سقف المغاور بالمناور الطبيعية ، ثم يحين الوقت أخيراً لتداعى السقف كله وتكوين فرجة في الساحل ، ومن تفاوت مقاومة الصخور للأمواج تنشأ الشروم والروم وتتكون تقاطيع الساحل ، وهذه التقاطيع عظيمة الأهمية في الملاحة ، فان السفن لا يهولها اشتداد انعواصف وسط المحيط مهما غضب البحر عليها ، ولكن تفرغها الأنواء قرب الشواطئ الوعرة . والمرافق الجيدة هي التي تتوافر فيها حيازة السفن من الأنواء ، ومنى وجدت المرافق الصالحة أصبح مؤكدا نشوء الثغور وتبادل التجارة . انتهى

ثم قالت (سانده) : الآن قد تم الحديث . فقالت مآده : أما الآن فقد طاب السفر ، فهيا بنا الى سواحل بلاد اليابان لنعيش هناك تحت الحجارة ، فما قالت ذلك ساندده حتى غابت السمكتان عن عيني ولم ترجعاً لأنها سافرتا .

قال الحرث ابن همام : وما كادت السمكتان تسافران حتى استيقظت اذا طيبب السفينة وأعوانه يضعون السموط في أنفي والأدهان على جسمى وهم يدلكونه ، ولم تزد للمدة على ثوان معدودة . قال : فعلت أنها أضفأت أحلام ، وهل لأضفأت الأحلام من تأويل ؟

فلما سمعت ذلك من الحرث بن همام عجبت من ذلك وأيقنت أنه من فنوح العزيز الرحيم ، وانه مناسب

هذه الآية . فوصف (مانده) لأختها (سانده) فعل الأمطار في الجبال والسخور والأنهار وتكونها تلوجا فوق الجبال ثم رجوعها للبحر ثانيا إجابة لدعاء السمك مشابه للجباب التي أسمعها الله لنا في قصة أم موسى والتابوت ووقوعه في يد فرعون وحفظه ، وفي قصة موسى وإلقائه عصاه وخوفه منها لما صارت حية ، ثم ذهاب خوفه وهكذا خوفه من القوم أن يقتلوه ، وخوفه من عصي السحرة إذ صارت حيات ، ثم نصره عليهم ، فهذه المقدمات والحكم التي نسمعها في التنزيل فظاهر ما في هذه العوام من عجائب البخار والبرودة التي تجعلها ماء ، ثم الهواء المسير للسحاب ، فالمطر ، فالتلابه تلجا ، فتراكمه ، فنزوله في البحر فيصير مأوى للسمك .
 تباركت يا الله ، تباركت وتعاليت . لك الكبرياء يا ربنا ولك العزة ، لك العجائب في قصص أم موسى وموسى ، ولك الإبداع في قصص المطر والنهر والتلج والحجارة ، حكم أبدعت ، كيف هذا ؟ بخار يشور من البحار فيصير ماء ، فتلجا . ثم يفعل هذا البخار فعلا يجهز عنه البناءون والمهندسون والعمال ، فيكسر السخور ويقطعها من الجبال ، ويحملها ، ويحرقها بها : وينزل بها في البحر ، وبينها ، وتصير مأوى للسمك عجب وألف عجب ! دينا يارب عجيبة ، ملوذة بالجبال ، فأنت بهذه الأعاجيب والمقدمات قبل ظهور النتيجة ذكبرياء وعزة ، وبرحمتك للسمك وأم موسى وموسى مرهب وحكيم ، وهذه الآيات في آخر سورة الجاثية لتبيان ما في أولها ، لأنه بدأها بأن التكتاب نزله عزير حكيم ، وهى العزة والحكمة يظهران إلا فيما بعد من الآيات وهو ما ذكرته من السموات والأرض ، وخلق الدواب ، وإزال المطر ، وتصريف الرياح ، وختم السورة بأنه محمود لأنه برى السموات والأرض المذكورتين في أولها مع العزة والحكمة ، فأول السورة عزة وحكمة ، وآخرها كذلك ، وهذا ملخص الفاتحة فان الحمد والرحمة والهداية كلها حكمة ، وقوله : « مالك يوم الدين » وذكر المغضوب عليهم والضالين راجع للعزة . هذا هو الذى خطر لى في تصدير هذه الآية والحمد لله رب العالمين . كتب نصحى يوم ٨ مارس سنة ١٩٣١ م

تذكرة

في قوله تعالى في أول السورة : وما أنزل الله من السماء من رزق الخ . مع آية : وقد قدر فيها أقواتها الخ في سورة حم فصلت

لما أتممت هذه السورة جاء صاحبى العالم الذى اعتاد محادثتى في هذا التفهيم . فقال : لعلك نسبت ما وعدت به في سورة حم فصلت ؟ فقلت : وما الذى وعدت به ؟ فقال : ألم تقل هذا عندك إيضاح آية : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت » مانصه : « وسيأتى تفصيل هذا المقام في أول سورة الجاثية فراجع ولا تقول إلا على التفصيل هناك » . فها أنا ذا قرأت أول السورة فلم أجد اجبالا ولا تفصيلا للكلام على الأغذية النباتية المناسبة لآية : « وما أنزل الله من السماء من رزق » الآية ومقاديرها التى أشار لها الله فقال : « وقد قدر فيها أقواتها الخ » . فقلت : أتذكر أننى بعد أن قلت ذلك فصلت الكلام هناك بعد نحو صفحتين . فقال : نعم ، ولكنك بهذا الوعد تحير الذى يقرأ التفسير ، فلا يقول على ما أوضحت هناك . فقلت : انى أوضحت هناك في صحيفة ٣٣١ في الجزء التاسع عشر ، وأبنت أن الانسان اذا كان في فراشه يعوزه في اليوم ١٨٠٠ سعر ، والسعر معروف هناك فلا يعيده ، وان كان في شغل شاق يعوزه ٤٠٠٠ سعر في اليوم ، وان كان في شغل متوسط يعوزه ٣٠٠٠ سعر في اليوم أيضا . فقال : ولكن أذكيا ، القراء يتطلعون الى زيادة هنا . فقلت : هاك نص ما جاء في كتاب « الغذاء في الأمراء » تأليف الدكتور حسن عمر ، فقد جاء فيه تحت العنوان الآتى مانصه :

القيمة الغذائية للمأكولات

إن أهمية المأكولات موكولة لقيمتها الغذائية أي ما يستفيد الجسم منها، وذلك بأن يتحول الغذاء المأكول إلى حرارة في الجسم وحركة (أي أن كل الحركات التي يعملها الشخص تنشأ عن الحرارة التي تتولد من الجسم) فكل جرام من هذا النوع من الغذاء يولد حرارة جديدة بدلا من الحرارة التي استنفدها الجسم وقت حركته، ووحدة هذه الحرارة تسمى (الكالوري أو السعر).

فالجرام الواحد من المادة الزلالية يعادل ٤ كالوري، والجرام الواحد من المادة الدهنية يعادل ٩ كالوري، والجرام الواحد من المادة النشوية يعادل ٤ كالوري.

نحن محتاجون للغذاء لتوليد الحرارة، وكلما كثرت العمل استنفد الجسم مقدارا من الحرارة يعادل العمل الجسماني. إذن فقد وجب أن تناول من الغذاء مقادير تعادل ما يتطلبه العمل من الحرارة أو يزيد قليلا حتى لا يستنفد العمل كل حرارة الجسم فيظهر الضعف وانهاك القوى، ولكل عمل جسماني قيمة معينة من وحدات الحرارة (السعر) يتمكن بها من القيام به خير قيام. ويجب فوق ذلك ملاحظة وزن الجسم، لأن اختلاف الأوزان يدعو إلى اختلاف الوحدات المطلوبة، مثلا رجل وزنه ٦٥ كيلوجراما يحتاج من الغذاء يوميا إلى ما يأتي:

الحالة	السعر اللازم للكيلوجرام في اليوم	مجموع ما يحتاجه في اليوم بالسعر
في الفراش	٢٨	١٨٠٠
جالس	٣٢	٢١٠٠
شغل بسيط	٣٣	٢٣٠٠ - ٢٥٠٠
شغل متوسط	٤٠	٢٦٠٠ - ٣٠٠٠
شغل صعب	٤٨	٣١٠٠ - ٤٠٠٠

أما إذا كان العمل شاقا فإن قيمة الغذاء تختلف باختلاف ما يتطلبه العمل من مجهود جسماني، مثلا عمل الفلاح ليس كعمل البناء ولا النجار، إذ كل عامل منهم يحتاج إلى قيمة غذائية معينة حتى يتمكن القيام بالعمل على الوجه الأصح، وهاك جدولاً يختلف الحرف وما يحتاجه من سعر يوميا:

أعمال عادية

الصنعة	السعر المحتاج له يوميا
الجزمجي	٢٤٠٠
الغزال	٢٧٠٠
النجار - البناء	٣٢٠٠
الفاعل - الفلابكي	٤٠٠٠
الفلاح (أيام العزق والحراثة والحصاد)	٤١٠٠
الساعي (راكب المراجعة)	٥٠٠٠
السيدة (شغل بسيط)	٢٤٠٠

أعمال فنية

الصنعة	السعر المحتاج له يوميا
الطبيب	٢٦٠٠
قاضي - مهندس رسام	٢٧٠٠
أستاذ الجامعة - كاتب	٢٨٠٠
محام - مدرس - تاجر	٣٢٠٠
تلميذ ابتدائي مصري (داخلية)	٢٥٠٠
تلميذ ثانوي مصري (داخلية)	٢٩٠٠
طالب مدرسة الفنون والصنائع المصرية (داخلية)	٣٦٠٠
طالب بالزراعة العليا (داخلية)	٣٧٠٠
طالب بالقسم العالي الأمريكي	٣٥٨٠
طالب شد الحبل ولاعب كرة القدم (أمريكي)	٦٥٠٠
العسكري الانجليزي (في السلم)	٢٢٠٠
» الألماني »	٢٧٠٠
» المصري »	٢٧٠٠
» الاسباني »	٣٤٠٠
» الأمريكي »	٣٧٠٠
» الايطالي »	٤١٠٠
» الفرنسي في الحرب	٤٠٠٠

وقال في صحيفة ٥١ وما بعدها مانصه : « ولكل جسم قدرة معينة وميزانية خاصة للاستفادة من خليط الغذاء الذي نأكله ، فما زاد عن حاجة الجسم إما أن يخزن ، وإما أن يخرج كإفرازات نالفة عديدة النفع للجسم ، وأهم علاج هذه الحالات هو تنظيم مقادير الأكل وأنواعها ، وقد قام رجال عدة بهذه الأبحاث ، وفتروا ما يجب أن يؤكل من المواد الزلالية والنشوية والدهنية بمقادير معينة تفيد حالة الجسم ولا تزيد مابه من من دهن ، وأهمها هي :

اسم الاستاذ	زلال	نشا	دهن	السعر	اسم الاستاذ	زلال	نشا	دهن	السعر
باتنج	١٧٢	٨١	٥	١١٠٠	أورتل	١٥٦	٧٥	٢٥	١١٨٠
هيرشفيلد	١٠٠	٥٠	٤١	١٠٠٠	كشن	٢٠٠	١٠٠	١٢	١١١٦
فون نوردين	١٥٥	١١٢	٢٨	١٣٦٦	ابستين	١٠٢	٤٧	٨٥	١٣٠٠

هذه هي المقادير التي يجب اتباعها في علاج السمنة مع ملاحظة التقرينات الرياضية ، وعلاج ماسبته السمنة في الجسم كالأكريما والأمراض الجلدية الأخرى وتصلب الشرايين وضعف القلب ، وكذلك معالجة الغدة الدرقية أو أي غدة أخرى ذات إفراز داخلي يكون لها بد في هذه السمنة . انتهى ما أردته من الكتاب المذكور فلما سمع صاحبي ذلك . قال : لو عرفنا تحليل الأغذية لكان ذلك نفعاً عظيماً . فقلت : تقدم في سورة (فصلت) فأرجع إليه ، فاطلع عليه ففرح وقال الحمد لله رب العالمين . انتهى تفسير سورة الجاثية

تفسير سورة الأحقاف

(هي مكية)

إلا ثلاث آيات ، وهي قوله تعالى : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه واذا لم يهتدوا به فيقولون هذا إفك قديم » وقوله : « أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا وتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون » وقوله : « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون » فصدية

آياتها ٣٥ — تزلت بعد الجاثية

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أُنذروا معرضون * قل أراءيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات أئتيوني بكتاب من قبل هذا أو أتارة من علم إن كنتم صادقين * ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حُخِرَ الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين * وإذا نزلنا عليهم آياتنا ينكسروا قال الذين كفروا للحق لَمَّا جاءهم هذا سحر مبين * أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم * قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين * قل أراءيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن به واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين * وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم * ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مُصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمُحْسِنِينَ * إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا

فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ * وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَخَفَاهُ
 وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ
 نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ
 إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ تَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ
 فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ * وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا
 أَنْتُمَا إِنِّي أَنْزِلْتُ أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَّتِ الثَّرْوَةُ مِنْ قِبَلِي وَهُمَا يُسْتَفْهِيَانِ اللَّهَ وَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ
 اللَّهُ حَقُّ قَوْلِهِ مَا هَذَا إِلَّا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْ
 خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ * وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا
 وَلِبَؤُسَاتِهِمْ أَعمالُهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ
 طِبْيَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْرَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ
 تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ * وَإِذْ كُنَّا أَهْلًا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ
 قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ
 عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا عَنِ الْهِتَابِ فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ
 مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا
 يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمَطَّرْنَا بِكَ هُوَ مَا
 اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرْسَىٰ إِلَّا
 مَسَاكِيَهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * وَلَقَدْ مَكَنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا
 لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ
 كَانُوا يَمْجِدُونَ بِبَيِّنَاتٍ مِنَ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا
 حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِي آخَذُوا
 مِنْ دُونِ اللَّهِ فَرَضَنَّا إِلَهُةَ بَلْ صَلُّوا عَلَيْهِمْ وَذَكَرَ إِفْكَهُمُ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ * وَإِذْ صَرَفْنَا

إِلَيْكَ تَفَرًّا مِنْ أُلْحِنِّ يَسْتَمِئُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ
 مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ
 يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ
 مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي
 الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي
 خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَكَلَّمَ بِخَلْقِهِمْ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُمْسِكَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا قَالِ
 فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا
 تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ
 إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ .

هذه السورة قسمان

(القسم الأول) في تفسير البسملة

(القسم الثاني) في تقسيم السورة

القسم الأول في تفسير البسملة

تجلت الرحمة في هذه السورة بما تبدي بها من ضروب الحكمة ، وفنون العلم ، وأزاهر النظام الاجتماعي
 فينبأ نراها مبدوءة بوصف الكتاب بالعزة والحكمة ، ومختومة بالتوصية بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل
 إذا نحن نرى القوم مخاطبين بانظهار الأدلة على تلك الآلهة التي عبدوها ، والأصنام التي أقاموها ، موحين
 على ما اقرضوا من إثم التمس بالسحر ، مقامة لهم الأدلة على صدق النبوة التي ليست بدعا بأن بعض بني اسرائيل
 صدقوها وآمنوا بها وهم أعلم منهم ، وقد تبع ذلك استهجان ما يهرفون به من أن الفضل خاص بهم فكيف
 يتعداهم الى غيرهم ؟ فلو كان القرآن كذلك لكانوا هم أولى به ، وتلاه الاشارة بمدح الذي حفظ وصية الله
 في والديه فبرهما وأطاع ربه ، والذم لمن عصى الله والديه ، ثم أتى بالقاعدة العظيمة التي بها نظام الدول والممالك
 والأسرات والامارات ، وهي أن الانهماك في اللذات والشهوات ، والاسراف في انفاق الأموال والخروج
 عن حد الاعتدال في الطعام والشراب . كل ذلك مورث هلاك الأمم ، وضياح الدول والأفراد ، والوقوع في
 الأمراض والخزى في الحياة الدنيا ، وضرب لذلك مثلا بعباد الذين أرسل لهم هود ، فانهم كذبوا واستكبروا
 فهلكوا فأنزل الله بهم العقاب في هذه الدنيا ، وسببته عقاب الآخرة ، وهذه أمة عربية في بلاد حضرموت
 وهي الأحقاف ، وهم أقرب الى الأمة العربية ، المنزل الكتاب بلسانها ، وهذا كان في الحقيقة ذكرى لأمة
 الاسلام التي جاءت بعد نزول القرآن ، فبالت شعري : أي رحمة ، وأي - نعمة على مسلمي زماننا هذا أكبر من

أن يتذكروا ما حلّ بالأمة الأموية والعباسية والمماليك السلجوقية والفاطمية والتركية والمملكة الأندلسية من ذهاب مجدهم ، وأفول شمسهم ، وغروب سعدهم ، و بزوغ نحسهم ، وظهور ذلهم وعذابهم في الحياة الدنيا لما استكبروا في الأرض بغير الحق ، وتفننوا في ضروب الملامى ، واتبعوا الشهوات ، وأسرفوا في كل ضرب من ضروب الحياة فذهبت ربحهم وخزّ عليهم السقف من فوقهم ، أليس كل هذا هو ما أنذره القرآن وحذر بذكر عاد ، وانهم أذهبوا طبيباتهم في حياتهم الدنيا ، فعذبوا فيها بعذاب الخزي ، وسيعقب ذلك عذاب الآخرة ، وسيأتي مقدار ما أسرفت أمنا السابقة ، حقّ علينا القول ، فهذا عذاب من الرحمن ، قاله عزّ وجلّ عذب الأمم الإسلامية عذاباً نقيجته الرحمة ، وهل الرحمة هنا إلا أن نجتنب نحن ما فعله آبؤنا من التفالى في تبذير المال ، واقتناء الجوارى اللاتي ينفغن المئات كما سترناه وانحما في هذه السورة ، وأن نسير على منوال الخلفاء الراشدين في نظام حياتهم فتكون لنا السعادة في الدنيا والآخرة ، لهذا جاء القرآن ، ولهذا الذكرى كان هذا التفسير ، ثم ان الإيمان بالكتاب لم يقتصر من غير العرب على اليهود بل تعداهم الى الجنّ فهذه نبت من مجامع علوم هذه السورة ، وهي مما تتضمنه الرحمة المذكورة في البسملة . انتهى الكلام على القسم الأوّل في تفسير البسملة . كتب يوم السبت ١٨ يوليو سنة ١٩٣١ م ، والحمد لله ربّ العالمين .

القسم الثاني في تقسيم السورة

هذه السورة ستة مقاصد

- ﴿ المقصد الأوّل ﴾ في التوحيد من أوّلها الى قوله : « بعبادتهم كافرين »
 ﴿ المقصد الثاني ﴾ في المعارضات التي ابتدعها الكفار للنبوّة ، والاجابة عليها ، والبراهين على فسادها ، من قوله : « واذا تلى عليهم آياتنا بينات » الى قوله : « وبشرى للمحسنين »
 ﴿ المقصد الثالث ﴾ في أهل الاستقامة الذين وحدوا وصدقوا بالنبوّة ، وأن جزاءهم الجنة ، وذكر بعض وصايا تتعلق بالمؤمنين من اكرام الوالدين ، وذكر المحاورات بين الوالدين والمولودين ، وبيان ما يرضى الله في ذلك ، وذكر من صرفوا الحياة الدنيا في اللذات والشهوات ، وأذهبوا طبيباتهم في شهواتهم ، من قوله تعالى « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » الى قوله : « بما كنتم تكفرون »
 ﴿ المقصد الرابع ﴾ في ذكر عاد والاستدلال بما حلّ بهم بعد العظمة والجلال ، على أن صرف الطيبات والتم في غير محلها يورث الهلاك في الدارين ، فهي كالاستدلال على ما قبلها ، وفي ذكر الأمم التي هلكت بالقرب من مكة كشمود وقوم لوط ، وأن هؤلاء لم تنفعهم الشركاء التي ابتدعوها ، وذلك من قوله : « واذا كرأنا عاد » الى قوله : « وما كانوا يفترون » .
 ﴿ المقصد الخامس ﴾ في استماع الجنّ لرسول الله ﷺ وأنهم بلغوا قومهم ، وذكروا في الاستدلال ما يناسب أوّل السورة من أن القرآن مصدق لكتاب موسى وغيره ، وما يتبع ذلك ، من قوله : « واذا صرفنا اليك خزرا من الجنّ » الى قوله : « بما كنتم تكفرون » .
 ﴿ المقصد السادس ﴾ عظة للنبي ﷺ والمجاهدين من أمته ، وهي ختام السورة ، وذلك بالصبر كما صبر أولوالعزم من قوله : « فاصبر كما صبر أولوالعزم » الى آخر السورة .



المقصد الأول

﴿ التفسير اللفظي ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(حم) تقم الكلام عليها في السور السابقة ، وأيضا نذكركم بالحمد المتقدم في آخر السورة السابقة إذ قال الله تعالى : « فته الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين » . ثم أتبعه ببيان أن الكبرياء في السموات والأرض مخصص به ، إذ ظهرت آثار كبريائه وعظمته فيهما ، وأردفه بإفادة أنه قاهر غالب حكيم فيما قدره وقضاه ، هذا ملخص آخر السورة السابقة ، وجاء في أول هذه السورة ذكر الرحمة في « بسم الله الرحمن الرحيم » كأنه يقول : « إن كبريائي وعزتي وحكمتي مصحوبت بالرحمة ، فكل ما قهرته من هذا الوجود وغلبته وحكمت عليه ، فأما ذلك بحكمة نامة ، ورحمة عامة وخاصة » ثم قال « حم » أي ان من يفعل ذلك يجب أن يحمد فاحسوه ، وهذا كالنتيجة للفتيات السابقة المذكورة بعد قوله « فته الحمد » ، فكأنه استدل على اختصاص الحمد به بما تقدم ، وختم الاستدلال بالنتيجة ، وهي أنه يجب حمده بقوله « حم » وبهذا البيان صارت هذه السورة وما قبلها في نمط واحد ، وسلك منتظم ، ونسق واحد ، لا تغيير فيه ، ولذلك ترى ذكر العزة والحكمة هنا كما ذكرنا في آخر السورة .

يقول الله : الكبرياء لي في السموات والأرض ، وأنا الغالب القاهر ، المحكم لعملي ، المتقن لصنعي في السموات والأرض ، وفي تنزيل القرآن ، فإذا أنا قهرت المادة وأحكمتها ، فهكذا فعلت في القرآن أقهر من لا يؤمن به فأتقم منه ، وقد أنزلته بحكمة ، ففعلت بحكمة وقولت بحكمة ، إن (ال حم) أولها وآخرها ملتبان بالجد ، فأول (ال حم) مسبوق بالجد وآخرها كذلك ، فهذه السور فيها المقام الحمود ، والمقام الحمود مبتناه العلم . ثم قال تعالى (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى أي خلقنا ملتبسا بالعدل وهو ما تقتضيه الحكمة والعدالة ، وتقدير أجل مسمى لكل مخلوق ينتهي إليه أجله ، ومدة بقائه ، فلانبات ، ولاحيوان ، ولاإنسان ، ولاجبل ، ولاكوكب ، ولاجمادا ، ولاسائلا إلا لها آجال تنتهي إليها ، وهذا معلوم مشاهد . يقول الله : إن خلق السموات والأرض وخلق ما بينهما مصحوب بالحق ، قائم بالعدل والنظام ، ومن النظام أن تكون الآجال معلومة مقدرة لكل نوع ولكل فرد ولكل كوكب ولكل شمس ولكل روح ، وهذا مشاهد معلوم ، فان النظام يعلمه الحكماء ، وهكذا الآجال معلومة لله والثابت يرون أنه لا موجود في هذا العالم دائم ، وإذا كان الأمر كذلك فليكن ذلك دليلا اقتاعيا ان هذه العوالم كلها ، حقيرها وجليلها ، يوما يكون موعدا للجمع ، وهو يوم القيامة ، وهذا يفيد النظام ، إذ النظام يقضي أن يكون هذا العالم لغاية وحكمة ، وأن لا يستوي المحسن والمسيء (والذين كفروا عما أئذروا) أي عما أئذروه من هول ذلك اليوم الذي لا بد لكل مخلوق من الانتهاء إليه (معرضون) لا يؤمنون به ، ولا يستعدون له ، ولا يتفكرون فيه ، فلا بالكتاب المنزل واندازه اعتبروا ، ولا بما يشاهدون في العالم من النظام والحكمة فكروا ، فهم قاصرون سمعا وبصرا ، فلا هم بسباع الوحى متعظون ، ولا بالنظر في العالم المشاهد يتدكرون (قل أرايتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات) اتسوفي بكتاب من قبل هذا أو إثارة من علم إن كنتم صادقين) أي أخبروني عن حال آلهتكم بعد تأمل في خلق السموات والأرض وما بينهما ، والنظام الشامل لهما ، والحكمة الصائرة على نظام واحد فيهما ، وبعد تأمل في حال آلهتكم هل يعقل أن يكون لها مدخل في خلق شيء من أجزاء هذا العالم فتستحق به العبادة

ولو كان لها دخل لظهر في هيئة المخلوقات وصار هناك تفاوت بين أجزاء النظام ، ولكن نظام العالم واحد يستمد أدناه من أعلاه ، فكأنه حيوان واحد ، أو إنسان واحد ، حتى إن كل كوكب أو مجموعة كواكب من الثوابت تفيد أهل الأرض علما يسير سفنهم ، وسير قوافلهم في البحر والبر ، فكل النظام مرتبط ببعضه ببعض ، وكأن كل فرد واحد مخدوم بجميع الأفراد في الأرض ، وكأن كل كوكب يخدمه سائر الكواكب على نحو ما وهيئة تما ، فلو كان هناك شركاء لاختلف النظام ، ولاختل اختلا مينا ، وهذا هو قوله تعالى : « أردنى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات » ثم طلب منهم أن يؤثروا بدليل على هذا الشرك المدعى بكتاب موسى من قبل القرآن قوله « أو أثاره من علم » أى بقية من علم بقيت عليهم من علوم الأولين هل فيها ما يدل على استحقات العبادة لهؤلاء الأصنام ، ومعلوم أن الدليل إما من الوحي ، وإما من العقل ، فأما الوحي فأين الكتاب قبل القرآن الذى فيه أنهم شركاء ، وأما العقل فأين بقية علوم العلماء المفكرين في خلق السموات والأرض ، ومعلوم أنهم قد أيقنوا بوحدة النظام ، والفلاسفة مجمعون على حسن النظام ووحده ، والوحى جاء بالتوحيد ، فهذا قوله : « قل أرايتم » إلى قوله : « إن كنتم صادقين » لأن الصدق في التعارضى بالبراهين ، والبرهان هنا جاء على ضد ما زعموا فليسوا بصادقين ، ثم بين ضلالهم . فقال : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له) يعنى الأصنام لا تجيب عابديها إلى شئ ، يسألونها (إلى يوم القيامة) فهي لا تجيب أبدا مادامت الدنيا (وهم عن دعائهم غافلون) فهم إما جنادات ، وإما عباد مسخرون مشتغلون بأحوالهم (وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء) يضرونهم ولا ينفعونهم (وكانوا بعبادتهم كافرين) مكذبين ، إما بلسان الحال ، وإما بلسان المقال . انتهى تفسير المقصد الأول من السورة .

المقصد الثاني

وهو الذى فيه ذكر معارضات النبوة والاجابة عليها

قال تعالى (وإذا تلى عليهم آياتنا بينات) وانحطت ، أو ميينات (قال الذين كفروا للحق) أى لأجله وفى شأنه ، والحق المراد به الآيات المذكورة ، والذين كفروا هم المثلث عليهم ، وذلك لتسجيل الحق على الآيات والكفر عليهم لشدة انهماكهم فى الضلالة (لما جاءهم) أى بادءه بالجحود ساعة أناهم وأول ما سمعوه من غير نظر ولا فكر (هذا سحر مبين) ظاهر أمره فى البطلان ، ثم أضرب عن ذكر تسميتهم الآيات سحرا إلى ذكر قولهم ان النبى صلى الله عليه وسلم افتراه واختلقه وأسندته إلى الله كذبا . فقال : (أم يقولون افتراه) أى بل يقولون (قل) يا محمد (ان افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا) أى لا تقدررون أن تردوا عنى عنابه إن عذبتى على افترائى فكيف أفترى على الله من أجلكم (هو أعلم بما تفيضون فيه) تندفون فيه من الفدح فى آياته والتكذيب وقولكم انه سحر (كنى به شهيدا بينى وبينكم) يشهد لى بالصدق وأن القرآن من عنده ويشهد عليكم بالانكار والكذب ، وهذا وعيد لهم على افاضتهم فى القرآن (وهو الغفور الرحيم) لمن ناب وآمن منكم ، وهذا فتح لباب الرحمة ليؤمنوا بعد الانذار السابق بالكفر (قل ما كنت بدعا من الرسل) بدعيا منهم أدعوكم إلى ما لا يدعون إليه ، ولقد سبقنى كثير من الأنبياء وأنا أدعوكم كدعوتهم فكيف تنكرون نبوتى ، أو ما كنت بدعا من الرسل أقدر على ما لم يقدروا عليه وهو أنهم يأتون بكل ما يقترح عليهم . كلا . وإنما ذلك باذن الله ، فليس لى من الأمر شئ ، ويؤيد هذا المعنى قوله (وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم) فى الدارين نصيلا ، هنا الغيب إلا الله (ان أتبع إلا ما يوحى إلى) لا أتجاوز (وما أنا إلا نذير) من عقاب الله (مبين) بين الانذار بالشواهد المبينة والمهيزات الصادقة ، فلت أتجاوز ذلك إلى الاخبار بالغيب عما يقترحه

المشركون ، أو أخبر بأمرى وأمر أصحابي ، أترك في مكاني أم أخرج أنا وهم الى أرض ذات نخل كما رأيت في منامى ، فليست أعلم بتفصيل شيء من ذلك كله (قل أرايتم ان كان القرآن (من عند الله وكفرتم به) وقوله (وشهد شاهد من بني اسرائيل) وهو عبد الله بن سلام (على مثله) أى على نحو ذلك وهو كونه من عند الله (فأمن واستكبرتم) هذه الجملة كلها عطف على جملة « كان من عند الله » الخ وجواب الشرط محذوف ، أى ألتئم ظالمين ، ويدل عليه قوله (إن الله لا يهدي القوم الظالمين) . يقول تعالى : أخبروني ان اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به ، واجتمع شهادة أعلم بنى اسرائيل على نزول مثله مع استكباركم عنه وعن الايمان به ، ألتئم أضل الناس وأظلمهم ؟ (وقال الذين كفروا للذين آمنوا) لأجلهم (لوكان) الايمان (خيرا ماسبقونا اليه) وهم سقاط فقراء مثل عمار وصهيب وابن مسعود من العرب ، ومثل عبدالله بن سلام من اليهود (و ظهر عنادهم (إذ لم يهتدوا به) وهذا سبب في انقراضهم إذ يقولون انه إفاك قديم ، وهذا هو قوله (فسيقولون هذا إفاك قديم) وكيف يكون إفاك قديما (ومن قبله) أى القرآن (كتاب موسى) وهو التوراة حال كونه (إماما ورجة وهذا) القرآن (كتاب مصدق) لكتاب موسى وغيره فكيف يكون إفاك قديما ، إذن هو صدق قديم لإفاك حال كون الكتاب (لسانا عربيا) والتوراة عبرى فتصديق الأزل للثاني دليل على اتحادها صدقا واتحادا مع ما قبله أوكد في الصدق ، فبطل كونه إفاك قديما وثبت الصدق القديم ، وقوله (لينذر) أى ليخوف متعلق بقوله « مصدق » (الذين ظلموا) أشركوا (و بشرى للحسنيين) أى للانذار واللبشارة . انتهى المقصد الثاني .

المقصد الثالث

في أهل الاستقامة الذين وحدوا وصدقوا بالنبوة ، وأن جزاءهم الجنة ، وذكر بعض وصايا تتعلق بالمؤمنين من اكرام الوالدين ، وذكر المحاورات بين الوالدين والمولودين الى آخر ما قدمناه

قال تعالى : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) جمعوا بين فضيلتي العلم والعمل الذي هو نتيجة العلم الذي هو أشرف منه ، فلذلك قتم عليه (فلا خوف عليهم) مما يلحقهم في المستقبل (ولا هم يحزنون) على فوات محبوب (أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) من التحلية بالعلم والعمل ، وجزاء مصدر أى جوزوا جزاء الخ (ووصينا الانسان بوالديه) أى وصينا به بأن يحسن بوالديه (احسانا) أو وصينا بوالديه أمرا ذا حسن أى بأمرى حسن ، فهو يدل اشتغال من قوله « بوالديه » وفيه قراءة ان كما عرفت ثم ذكر سبب هذه التوصية ، وخص الكلام بالأم لأنها أضعف وأولى بالرعاية وفضلها أعظم (حلت أمه كرها) أى حلا ذاك (ووضعت كرها) وهو المشقة فيهما (رحله وفضاله) أى ومدته رحله وفضاله أى فطامه (ثلاثون شهرا) وفي أثناء ذلك تكابد أمه الآلام في الترية ، ويؤخذ منه أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لأننا نعتبر مدة الارضاع حولين كاملين لقوله تعالى : « حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » فلم يبق للحمل إلا ستة أشهر ، وبذلك يعرف أقل الحمل وأكثر الرضاعة لتحقق حكم النسب والرضاع * ويرى عن ابن عباس أنه قال : « اذا حلت المرأة تسعة أشهر أرضعت أحدا وعشرين شهرا ، واذا حلت ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهرا » ، (حتى اذا بلغ أشده) جمع شدة عند سيوبه وهو جمع لا واحد له من لفظه عند غيره ، أى حتى اذا اكتمل واستوفى السن التي تستحكم فيها قوته وعقله ، وذلك فيما بين الثلاثين والأربعين ، وقوله (وبلغ أربعين سنة) بيان لنهاية تلك المدة (قال رب أوزعنى) أطمئنى (أن أشكر نعمتك التي أنعمت على وعلى والدي) من التوحيد والاسلام (وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى ذريتي) أى واجعل لى الصلاح ساريا في ذريتي راسخا فيهم (إني تبت اليك) عما لا ترضاه ، أو عما يشغل عنك (وإني من المسلمين)

المخلصين لك (أولئك الذين تتقبل عنهم أحسن ما عملوا) أى أعمالهم الصالحة التى عملوها فى الدنيا فالأحسن بمعنى الحسن فيذهب عليها (وتجاوز عن سيئاتهم) فلا تؤاخذهم بها لتوبتهم حال كونهم (فى أصحاب الجنة) أى مع أصحاب الجنة ، ولما كان قوله «تقبل» .. «وتجاوز» وعدا لهم أكده فقال : (وعد الصدق الذى كانوا يوعدون) فى الدنيا ، وهذه الآية تنطبق على سعد بن أبى وقاص وعلى أبى بكر الصديق اللذين قيل فى كل منهما انها نزلت فيه وتنطبق على كل مؤمن ، فهو موصى بوالديه وأمه حلت ووضعت كرها ، وأرضعت حولين ، وهو مأموران يشكر نعمته الله عليه ، وعلى والديه ، وأن يعمل صالحا ، وأن يسعى فى إصلاح ذريته . كل ذلك بالجد فيه ودعاء الله أن يوفقه له ، فهذا له الجنة ، وأما من اتصف بضد ذلك ، فهو من يأتى وصفه ، وهو : (والذى قال لوالديه) إذ دعوا إلى الإيمان بالله والاقرار بالبعث بعد الموت ، وهو مبتدأ خبره ما سبأنى : « أولئك الذين حق عليهم القول الخ » وهذا القائل يم كل كافر عاق لوالديه مكذب بالبعث ، وليس خاصا بعبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنه ، إن صح أنها نزلت فيه قبل اسلامه ، ومقول القول (أف) وهى كلمة للتضجر كما أن كلمة «حسن» للتوجع ، وهذا التأنيف كانن (لكما) خاصة ، ولأجل كما دون غيركما (أعدتني أن أخرج) أبعث (وقد خلت القرون من قبلى) فلم يرجع واحد منهم (وهما يستغيثان الله) يقولان الضياث بالله منك ، أو يسألانه أن ينيته بالتوفيق للإيمان حال كونهما يقولان له (ويك) وهو دعاء بالتبور ، والمراد به الحضر على الإيمان لاحقيقة الهلاك (آمن) بالله والبعث (إن وعد الله) بالبعث (حق) فيقول لهما (ما هذا إلا أساطير الأولين) أولئك الذين حق عليهم القول (أى «لأنهم جهم» الخ (فى أمم) فى جملة أمم (قد خلت) مضت (من قبلهم من الجن والإنس انهم كانوا خاسرين) من الأبرار والنجار المذكورين فى هذا المقام (درجات مما عملوا) أى منازل ومراتب من جزاء ما عملوا (وليوفهم أعمالهم) أى جزاءها (وهم لا يظلمون) بنقص فى ثواب ، أو زيادة فى عقاب (ويوم يعرض الذين كفروا على النار) أى يعذبون فيها من قولهم : عرض بنوفلان على السيف اذا قتلا به ، ويوم متعلق بفعل محذوف أى يقال لهم (أذنبتم طيباتكم) لذائدكم (فى حياتكم الدنيا) باستيفائها (واستمعتم بها) فما بقى لكم منها شيء (فاليوم تجزون عذاب الهون) أى الهوان (بما كنتم تستكبرون) فى الأرض بنير الحق وبما كنتم تفسقون) أى باستكباركم الباطل وفسقكم . انتهى المقصد الثالث .

المقصد الرابع

قال تعالى : (واذكروا ناعاد) أى هودا (إذ أنذرقومه بالأحقاف) جمع حقف ، وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناه ، من أحقوقف الشيء اذا اعوج ، وهو واد بين عمان ومهرة ، وقيل كانت منازل عاد بالجن فى حضرموت بموضع يقال له مهرة ، وكانوا أهل عمل سياره فى الربيع فاذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم ، وكانوا من قبيلة إرم ، وسبأنى إيضاح هذا المقام أيضا تاما ، ثم قال تعالى (وقد خلت النذر) الرسل جمع نذير أى المنذر (من بين يديه ومن خلفه) قبل هود وبعده (ألا تعبدوا إلا الله) أى لا تعبدوا ، أو بالآل تعبدوا (إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) هائل بسبب شرككم (قالوا أجبنا لتأفكنا) لتصرفنا (عن آلتنا) عن عبادتها (فأتنا بما تعدنا) من العذاب على الشرك (إن كنت من الصادقين) فى وعدك (قال إنما العلم عند الله) لاعلم لى بوقت عذابكم (وأبلغكم ما أرسلت به) اليكم (ولكنى أراكم قوما تجهلون) لاتعلمون أن الرسل بعثوا منذرين ، فلا يقرحون ، ولا يسألون غير ما أذن لهم (فلما رأوه عارضا) حال كونه ساعبا عرض فى أفق من السماء (مستقبل أوديتهم) متوجها إليها (قالوا هذا عرض مطرنا) أى يأتينا بالمطر قال هود : (بل هو ما استجبتم به) من العذاب ، ثم فسره فقال : (ريح فيها عذاب أليم) بتدرك كل شيء) تهلك من نفوس عاد وأموالهم الكثيرة (بأمر ربها) رب الريح (فأصبحوا لآثرى إلامساكنهم) أى

لجأهم الرج فدمرتهم ، فصاروا بعد الهلاك لا يرى إلا آثار ما كنهم ، لأن الرج لم تبق منها إلا الآثار
 والمسكن معطلة (كذلك نجزي القوم المجرمين) وذلك تخويف لأهل مكة (ولقد مكناهم فيما إن مكناكم
 فيه) أى فى الذى ما مكناكم فيه ، فهم كانوا أكثر منكم عددا وأشد قوة (وجعلنا لهم سمعا وأبصارا
 وأفئدة) يعرفوا نصنا عليهم ويشكروها (فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شئ) من
 الاغناء وهو القليل ، وقوله : (إذ كانوا يجحدون بآيات الله) الظرف منصوب بما أغنى ، وهو يجزى مجزى
 التعليل تقول ضربته حيث أساء ، أو إذ أساء ، تريد تخصيص الوقت بالضرب لوجود الاساءة فيه ، وقد
 غلب هذا فى إذ وحيث ، ومنه ما يجزى فى أحكام القضاء بمصر إذ يقال حيث حصل كذا ، وحيث حصل كذا
 حكمنا بكذا ، حيث متعلق بحكمنا فى معنى التعليل (وحق بهم) نزل بهم (ما كانوا يستهزئون) أى جزاء
 استهزأهم ، هكذا ستكون حالكم يا أهل مكة ، ثم أخذ يذكر أهل مكة فقال (ولقد أهلكنا ما حولكم من
 القرى) كحجر بنود وقرى قوم لوط (وصرفنا الآيات) كررنا عليهم الحجج ، وأنواع العبر (لعلهم يرجعون)
 عن الطفبان الى الایمان فلم يرجعوا (فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة) أى هلا منهم
 من الهلاك آلهتهم الذين يتقربون بهم الى الله حيث قالوا : هؤلاء شفاعونا عند الله ، وقوله : « اتخذوا »
 أى اتخذوهم ، وآلهة مفعول ثان ، وقربانا حال (بل ضلوا عنهم) غابوا عن نصرتهم (وذلك لإفكهم وما كانوا
 يفترون) أى وامتناع نصرة آلهتهم وضلالهم عنهم أثر إفكهم الذى هو اتخاذهم إياها آلهة ، وثمره شركهم
 وافتراءهم على الله الكذب . انتهى المقصد الرابع .

المقصد الخامس

اعلم أن بعض علمائنا يقولون : « إن الجن فرق وملل سكان الأرض من الإنس ، فبيهم اليهود
 والنصارى ، والمجوس ، وعبدة الأوثان ، وف المسلمين منهم المبتدعة ، ومن يقول بالقدر ، ويخلق القرآن ،
 وأجمع علمائنا المحققون أنهم مكفون »

وسئل ابن عباس : هل للجن ثواب ؟ قال نعم ، لهم ثواب وعليهم عقاب .

كيف كانوا يسمعون قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم

- (١) يقال إن الجن كانت تسترق السمع ، فلما حرس السماء محجبا ودمتوا ، وأرسلوا سبعة نفر ،
 وتسعة من أشرف جن نصيبين أو نينوى ، فضربوا حتى بلغوا تهامة ، ثم اندفعوا الى وادى نخلة
 فسمعوا قراءة رسول الله ﷺ وهو قائم فى جوف الليل ، أوفى صلاة الفجر .
 - (٢) ويقول سعيد بن جبیر : ماقرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رأهم ، وإنما كان يتلوا فى صلاته ،
 فترأى به فوقوا مستمعين وهو لا يشعر فأنبأ الله باستماعهم ، وهذا القول كالتى قبله
 - (٣) وقيل بل أمر رسول الله ﷺ أن ينذر الجن ويقرأ عليهم ، فصرف اليه قرا منهم ، فقال انى
 أمرت أن أقرأ على الجن الليلة ، فن ينعنى ؟ قلنا ثلاثا ، فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود رضى
 الله عنه ، قال : لم يحضره ليلة الجن أحد غيرى ، فانطلقنا حتى اذا كنا بأعلى مكة فى شعب الجحون
 نطلى خطأ وقال لا تخرج منه حتى أعود اليك ، ثم افتتح القرآن ، وسمعت لفظا شديدا ، فقال لى
 رسول الله ﷺ هل رأيت شيئا ؟ قلت نعم ، رجلا سودا ، فقال : أولئك جن نصيبين ، وكانوا
 اثني عشر ألفا ، والسورة التى قرأها عليهم « اقرأ باسم ربك الذى خلق الخ » .
- وهذا قوله تعالى (و) اذ كر (إذ صرفنا اليك نورا من الجن يستمعون القرآن) أى أملناهم اليك ،

والنفردون العنصرة ، وجمعه أُنْزِر (فلما حضروه) أى الرسول (قالوا) قال بعضهم لبعض (أنصتوا) استكتوا مستمعين (فلما قضى) أتم وفرغ من قراءته (ولوا الى قومهم منذرين) إياهم بما سمعوا ، وبين ذلك الأذكار فقال (قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى) وقد كانوا يهوداً ، واليهود يكفرون بعيسى (مصداقاً لما بين يديه) من الكتب (يهدى الى الحق) الى الله تعالى (والى صراط مستقيم) يا قومنا أجيئوا داعي الله محمدًا ﷺ (وأنصتوا به يفرلکم من ذنوبکم ويجعلکم من عذاب أليم) أى يفرلکم ربکم ذنوبکم فى الجاهلية وينجيکم من عذاب وجيع ، ثم قال تعالى (ومن لا يجيب داعي الله فليس بمعجز فى الأرض) أى لا يجيب منه مهرب (وليس له من دونه أولياء) بمنعونه منه (أولئك فى ضلال مبين) حيث أعرضوا عن إجابة من هذا شأنه (أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يبي خلقهن) ولم يتب ولم يعجز (يتأدر على أن يحيى الموتى) أى قادر (بلى) جواب للنفي (إنه على كل شىء قدير) ويوم يعرض الذين كفروا على النار (يقال لهم) (أليس هذا الذى خلق السموات والأرض ولم يبي خلقهن) قالوا بلى وربنا قال فدوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) بكفرکم فى الدنيا ، ومعنى الأمر هنا الإهانة والتوبيخ لهم . انتهى المقصد الخامس .

المقصد السادس

قال تعالى (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) أولوا الثبات والجد منهم ، فانك من جنسهم ، ومن للتبويض وأولوا العزم المنكسرون فى الأحزاب نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، فهؤلاء هم أصحاب الشرائع الذين أسسوها وصبروا على تحمل المشاق ومعاداة الطاغين فيها ، وبعضهم جعل منهم يعقوب ويوسف وأيوب وداود لمصبرهم (ولا تستعجل لهم) لكفار قريش بالعذاب فانه نازل بهم فى وقته لا محالة (كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) فهم يستقصرون حينئذ مدة لبثهم فى الدنيا حتى يحسبوا ساعة من نهار ، وهذا (بلاغ) أى هذا الذى وعظمت به لغاية فى الموعظة (فهل يهلك عذاب أى فلن يهلك بعذاب الله) (إلا القوم الفاسقون) المشركون الخارجون عن الاعتاز به ، والعمل بموجبه . انتهى التفسير اللفظى .

لطائف هذه السورة

- (١) فى قوله تعالى : أذهبت طبيباتكم فى حياتكم الدنيا .
- (٢) » » : وأذكر أنا عاد .
- (٣) » » : وإذ صرفنا اليك نفرًا من الجن .
- (٤) » » : أولم يروا أن الله الذى خلق الخ .
- (٥) » » : فاصبر كما صبر أولوا العزم الخ ،

اللطيفة الأولى

فى قوله تعالى : أذهبت طبيباتكم فى حياتكم الدنيا الخ

(١) لقد مرّ فى بعض سور الربع الثالث من القرآن حكاية الربيع بن زياد وعمر رضى الله عنه ، وقد حضر الأول مع أبى موسى الأشعري من البحرين بأمر عمر رضى الله عنه ، وكان عاملاً لأبى موسى فلما مثلا بين يدي الخليفة صوّب وصعد ، ثم صوّب وصعد ، فلم يجبه غير الربيع من الولاة الذين ولاهم أبو موسى لأنه تزيأ بلزى الذى يرضاه بإشارة برفاً خادم الخليفة ، ولما جلسوا على المائة لم يجد رجلاً منهم قد أكل بشهوة إلا هو ، وكان الطعام ليس مما يسرّ المترفين ، فظنّ أن ذلك

طبع فيه ، فأخذ يكلمه ، فرأى الربيع أن ذلك فرصة ، فكلمه في أمر الطعام ، وأنه كان الأليق أن يكون أنهم من هذا وأوفق لصحة أمير المؤمنين ، فجزره ، ثم قال : لو شئت للاث هذه الألفية من رقيق الطعام ولذيذته ، ولكني رأيت الله ذمّ قوما فقال : أذهبت طبيباتكم في حياتكم الدنيا الخ انتهى ملخصا بالمضى . فانظر كيف كان ينهس الصحابة في القرآن ، ولم يجعلوا الآية موجهة الى الكفار فقط كما يظن أكثر المسلمين اليوم ، فغاب عنهم كتاب الله تعالى .

(٢) اعلم أن الذي لا يريد من الحياة إلا اللذات يفقد اللذات ، فإذا قال الله تعالى : أذهبت طبيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فالיום تجزون عذاب الهون الخ فاعلم أن لهذا القول صدى في هذه الحياة الدنيا ، ولذلك نجد النهم ، وكثير الشبق بحرمان من اللذات متى انكبوا عليها ، وانظر الى قول سقراط : « إن العفيف يتجمع باللذات ، ويحرم منها من ليس عفيفا . وضرب مثلا ، فقال : ألم تر الى من يكثر شرب الماء كيف يحرم لذة الماء ، فأما من عطش فانه يستلذ ، هكذا جميع اللذات . أقول : إن أكثر الناس في الدنيا غافلون نائمون .

(٣) جاء في البخاري ومسلم والنسائي عن أبي سعيد رضى الله عنه . قال : جلس رسول الله ﷺ على المنبر ، وجلسنا حوله ، فقال : إن مما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا (أي حسنها) وزينتها ، فقال رجل : أوبأى الخير بالشر ؟ فسكت رسول الله ﷺ ، ورأينا أنه ينزل عليه ، فأفاق بمسح الرضاه أي العرق الكثير ، وقال : أين هذا السائل ؟ وكأنه حده ، فقال : انه لا يأتي الخير بالشر ، وان مما يفتت الربيع ما يقتل حبيطا (فخفا ، يقال حبط بطنه اذا اتفخ فيه) أو يلم إلا آكلة الخضر (١) فانها أكلت حتى اذا امتدت خاصرناها فاستقبلت عين الشمس فتلطت (تلط يثلط (٢) ألقى رجيعة سهلا رقيقا) وبالت ثم ربت وان هذا المال خضر حلو وهم صاحب المسلم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل ، وان من يأخذه بشير حقه كمن يأكل ولا يشبع ، ويكون عليه شهيدا يوم القيامة اهـ

وملخص الحديث أن المال وكل ما على الأرض خير ، وهذا أشبه بالصنب النبات في الأرض بالطر ، فمن البهائم ما تستضر بأكله فتنتفخ وتموت ، ومنها ما تأكل وتستريح ، وقد واقفها النبات ، فالعيب ليس من نفس النعمة بل العيب من المنعم عليهم ، فإذا كثرت المال ، فإن جعل لكسرا أضرت بصاحبه ، وان جعل للاحسان والمنافع العامة نفع صاحبه ، فالمال في حد ذاته ليس شرا ، بل الشر والخير يرجعان للاستعمال والمستعمل نفسه . وفي البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب . قال : دخلت على رسول الله ﷺ فإذا هو متكئ على رمال حصير ، قد أثر في جنبه . فقلت : أستاذس يا رسول الله ؟ قال نعم ، جلست فرفعت رأسي في البيت ، فوالله ما رأيت فيه شيئا يرد البصر إلا أهبة ثلاثة ، فقلت : ادع الله أن يوسع على أمك ، وقد وسع على فارس والروم ولا يبدون الله ، فاستوى جالسا ، ثم قال : أفي شك أنت يا ابن الخطاب ! أولئك قوم هجئت لهم طبيباتهم في الحياة الدنيا ، فقلت : استغفر لي يا رسول الله . وفي البخاري ومسلم أيضا عن عائشة . قالت : ما شبع آل محمد من خير شعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله ﷺ . وفي رواية أخرى . قالت : « إنا كنا لتنظر الى الهلال ، ثم الهلال ، ثم الهلال ، ثلاثة أهلة في شهرين ، وما أوقد في آيات رسول الله ﷺ نار . قال عروة : يا خاله فما كان يعيشكم ؟ قالت الأسودان التمر والماء ، إلا انه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار ، وكانت لهم منافع ، فكانوا يرسلون الى رسول الله ﷺ من ألبانها فيستقينا وعن ابن عباس رضى الله عنهما . قال : « كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاريا ، وأهله

لا يجردن عشاء ، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير . أخرجه الترمذي .
وفي البخاري عن أبي هريرة . قال : لقد رأيت سبعين من أصحاب الصفة ما منهم رجل عليه رداء ، إما
لزار وما كساء ، قد ربطوا في أعناقهم ، فنها ما يبلغ نصف الساقين ، ومنها ما يبلغ السكبين ، فيجمعه بيده
كراهية أن ترى عورته .

وفي البخاري أيضا عن إبراهيم بن عبد الرحمن أن عبد الرحمن بن عوف أتى بطعام وكان صاعما . فقال :
قتل مصعب بن عمير ، وهو خير مني ، فكفن في بردة ، إن غطى رأسه بدت رجلاه ، وإن غطى رجلاه بدا
رأسه . قال وأراه قال : قتل حزة وهو خير مني ، فلم يوجد ما يكفن فيه إلا بردة ، ثم بسطنا من الدنيا ما بسط
وقد خشيت أن تكون محلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا ، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام .

وقال جابر بن عبد الله : رأى عمر بن الخطاب لما معلقا في يدي ، فقال ما هذا يا جابر ؟ قلت اشتيت لما
فاشتريته . فقال عمر : أولنا اشتيت يا جابر اشتريت ، أما تخاف هذه الآية : « أذهبتم طيباتكم في حياتكم
الدنيا » انتهت اللطيفة الأولى .

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : واذكرا أنا عاد
قد تقدم الكلام على قوم عاد في سابق التفسير . وسيأتي بسط الكلام فيها

اللطيفة الثالثة

في الكلام على الجن وأنهم آمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم

إن من اطلع على ما تقدم في هذا التفسير يرى أن هذا الزمان هو الزمان الذي تظهر فيه أسرار القرآن أن الملائكة
والجن وأنما هم لا يقوم عليها دليل عقلي ، وما هي إلا سمعيات ، والسمعيات لا برهان لها إلا السمع ، فأما العقل
فهو يميز عنها ، فليس في العقول أن هنا جنة تحيط بنا ولاملائكة ، فكل هذا القول تؤمن به مجرد إيمان
ونسكت ، هذا هو الذي عليه الرأي في الأمة ، ولكن انظر إلى الأمم المحيطة بالأمة الإسلامية اليوم ، انظر
كيف أصبح قوله تعالى هنا : « واذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا »
إلى آخره معقولا في الأمم الأوروبية كما تقدم مرارا في هذا التفسير ، وإذا كان العلامة الرازي في (سورة
إبراهيم) يقول ناقلا عن قدماء الفلاسفة : « إن أرواح الناس بعد الموت تكون إما ملهمة الخير أو موسوسة
بالشر للناس على مقتضى طباعها » ، وهكذا الغزالي ، وأخوان الصفاء ، وغيرهم . فانظر اليوم إلى أم أوروبا
وتأمل كيف أصبحوا يخاطبون الأرواح التي فارقت الأجساد ، وكيف يقولون انهم بعد الموت على ما كانوا
عليه من أخلاق وآداب وديانات وعلوم وأحوال ، فليت يموت ومعه جميع أخلاقه لم يفقد منها شيئا ، وانظر إلى
قول أكبر عالم طبيعي في بلاد الانجليز وهو اللورد أوليفر لودج إذ يقول : « إن عالم هذه المبركات أي الأرواح
ليس عالما غريبا عن عالمنا ، فإن الكون واحد ، إن مداركنا ونحن هنا على الأرض محدودة ، فلنرى كثيرا
من الامور التي تجري ، ولكن نحيط بنا كائنات ، وتعمل معنا ، وتساعدنا ، قد عرفها قليل من الناس بعض
المعرفة من الرؤى التي رأوها . وعندى أن كل ما تقول به الأديان من أن الملائكة والقديسين معنا ، وأن الله
نفسه يساعدنا على وجهه من غير تأويل ، هذه الجلة نقلتها عنه في كتابي المسمى (الأرواح) .

ثم إن السير أوليفر لودج من أشهر علماء الطبيعة في هذا العصر ، وهو من المعتقدين أن أرواح الناس
تخرج من أجسادهم وقتا يموتون ، وتلبس أجسادا روحية ، وتبقى في الفضاء بوجودها ومشاعرها وقواها

العقلية ، وتتصل ببعض الأحياء ، فيرونها بهذه الأجساد ، ويخاطبونها ويخطبهم ، كأنها لم تنزل بأجسادها الأرضية ، ويقول إن هذا الاعتقاد سبب قريبا ، إذ تكثر الأدلة على صحته ويزيد عدد الذين يخاطبون الأرواح فيتم الاتصال بين العالم الفاني والعالم الباقي ، أو بين الحياة الدنيا والحياة الأخرى . كل هذا مذكور في كتابي (الأرواح) المذكور ، وقد تقدم في (سورة آل عمران) وغيرها .

موازنة بين علماء الاسلام وعلماء أوروبا في هذا المقام

لقد قرأت في تفسير السورة اللفظي النبي تقدم قريبا ما قاله سعيد بن جبير من أن النبي ﷺ كان يقرأ والجن يسمعون ، ولم يشعر هو بذلك ، وما قاله عبد الله بن مسعود أنه خطاه خطأ ولزمه ، وقرأ النبي ﷺ والجن يسمعون ، وأن ابن مسعود رأيهم . وأيضا يقول بعض علمائنا أنهم أصناف ، فبعض اليهودي والمسلم ، والنصراني ، والمجوسى الخ .

هذا ملخص ما تقدم ، وانظر الى علماء الأرواح كيف يقولون : « إن حولنا عوالم تحيط بنا ، فبعض من هم أرق منا علما وأدبا ، ومنهم من هم مثلنا ، ومنهم أشرار ، ومنهم أخيار ، والأشرار والأخيار غير قاصرين على الأرواح التي خرجت من أجسام أهل الأرض ، ومعلوم أن الملائكة يمتازون عن الجن بأمور أهمها أن الأولين كاملون ، والآخري ناقصون ، ولقد علمت مما تقدم في هذا التفسير أن أرواحنا بعد الموت فيها القسمان ، فبعض من يلحقون بعالم الملائكة أى أنهم أخيار ، ومنهم من يلحقون بعالم الشياطين أى أنهم أشرار ، ويقول علماء أوروبا : إن الاتصال بين عالم الأجسام وعالم الأرواح حاصل الآن بالاستحضار وسيكثر ذلك ، وانظر لهذه الآية وغيرها فإن الاتصال قد تم بين النبي ﷺ وبين عالم الملائكة وعالم الجن » فالأولون اتصل بهم فأرسل إليهم على أيديهم ، والآخرون اتصل بهم فعلهم ، وهل كان هؤلاء الجن من أرواح الناقصين من أهل الأرض كاليهود الذين ماتوا ، أو هم أرواح جاهلة لم تكن في الأجسام ، وإنما مذاهبها وأخلاقها مقتبسة من أخلاق أهل الأرض وآرائهم .

هذا ما لفتني ، وإنما مثل هذا يجب على الأمة الاسلامية بعدنا أن نجد في بحثه ، وننظر في أمره ، لأن ذلك أجل العلوم وأشرفها ، وأى علم أشرف من أن نعرف مستقبلنا بعد هذه الحياة ، وأن ندرس العوالم التي هي أرق منا والعوالم الأخرى ، ولقد جاء ذكر قراءة النبي ﷺ على الجن لندرس هذه المسائل ونفكر فيها ، والتفكير فيها باب العلم النافع ، فإذا شك المسلم واشتبه عليه أمر الجن ، ودعش من أن النبي ﷺ كان يقرأ على الجن ، فهذا مهزلة من الله ، وسبب يسوقه الى الدراسة والعلم ، وقراءة علم الأرواح واستحضارها ، ومعرفة أحوالها ، وبهذا يرتقي العقل الانساني ويستنير . إن المسلمين يمترون على مثل هذه الآيات من الكرام ، ولكن الأجيال المقبلة سيدرسونها ، ويعرفون الحقائق بأنفسهم لا بتقليد الفرنجة الذين نقلنا عنهم ، ولقد مهد لنا أسلافنا فوجب علينا أن نعهد السبيل لمن بعدنا حتى يقفوا على الحقائق . انتهت اللطيفة الثالثة والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى : أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعبئ بخلقهن

بقادر على أن يعي الموتى الخ

اعلم أن الله ابتداء السورة بما يتحقق منه المبدأ ، فهنا ختمت بما يثبت المعاد . انتهت اللطيفة الرابعة

اللطيفة الخامسة

في قوله تعالى : فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل

هم ذر والحزم ، والجذب ، والصبر ، والرأى ، والعقل الكامل ، ويقال إن كل الرسل كانوا أولى عزم ، واستثنى بعضهم يونس ، وخصصهم بعضهم بالثمانية عشر المذكورين في الأنعام الذين قال الله فيهم « فبهذا هم آتته » . وقيل هم ستة : نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم الصلاة والسلام . وبهذا تم الكلام على اللطيفة الخامسة والحمد لله رب العالمين .

بهجة العلم

في قوله تعالى : « ويوم يمرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم » الى قوله :

« كذلك نجزي القوم المجرمين »

في هذا المقام فصلان

﴿ الفصل الأول ﴾ في قوله تعالى : أذهبتم طيباتكم الخ .

﴿ الفصل الثاني ﴾ في تحقيق الكلام في أمر عاد ، وأين مساكنهم ، وفي الأحقاف ، وفي الخريطة الجامعة لديارهم ، وفي قبر هود وصالح عليهما السلام .

الفصل الأول في قوله تعالى : أذهبتم طيباتكم الخ

هذه الآيات وما عاينها فيها :

﴿ أولاً ﴾ ذهب الطيبات بالاستمتاع بها في الحياة الدنيا .

﴿ ثانياً ﴾ المجازاة بالعذاب الطون بسبب الاستكبار في الأرض بغير الحق ، وبسبب الفسق .

﴿ ثالثاً ﴾ ضرب مثل لذلك بقصة عاد ، وأنهم كفروا ، فأهلكوا ، وأصبحوا لآبري إلا مساكنهم ، لأنهم مجرمون .

﴿ رابعاً ﴾ جاء في سورة « حم السجدة » أن عاداً استكبروا في الأرض بغير الحق وقتلوا من أشد مناقرة .

﴿ خامساً ﴾ جاء في سورة « القصص » أن فرعون اتصف بصفتين هما العلو في الأرض والافساد فيها

﴿ سادساً ﴾ جاء في نفس السورة نهي قارون عن الافساد في الأرض .

﴿ سابعاً ﴾ جاء في آخر « سورة القصص » أن الدار الآخرة تجعل للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً .

فلننظر إذن في هذه الآيات التي نحن بسددها . فتقول : ههنا قاعدة في هذه السورة وهي أن الشهوات البهيمية ، والاستكبار في الأرض ، والفسق فيها عاقبتها العذاب الطون ، ولما كانت عاد قد استكبروا في الأرض بغير الحق كما تقدم ناسب أن يضرب بهم المثل في ذلك كما جعل قارون مثلاً لمن علوا في الأرض ، وأفسدوا فهلكوا ، وهكذا فرعون .

هذا إجمال ما ترينه في هذا المقام ، واعلم أيها المتكبر أنك أشدك الله ، وإفكك من لدنه علماً أن القضايا الكلية مالم يؤت لها بالأمثال والحوادث الواقعة فقليل ما تؤثر في عقول الأمم ، وإذا رأينا الله عز وجل يضرب لنا مثلاً بعاد المستكبرين في الأرض بغير الحق ، وأنه أهلكهم بظلمهم واستكبارهم ، وعذبهم في الدنيا وفي الآخرة

إذ قال : « ولذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشد أذى وهم لا ينصرون » .
ولاجرم أن هذا القول كان مؤثرا أشد الأثر في أفئدة الأم العربية وهم أبأونا لأنهم كانوا أقرب الى
تلك الأم ، ونحن اليوم نسمعه في القرآن يتلى علينا ، والله يقول : « ويضرب الله الأمثال للناس » ،
ويقول : « لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون » .

فلتكن قصة عاد وأمثالها ضرب مثل يقبه أمثال متلاحقة ، ونسبة النبوة الإسلامية الأموية والعباسية
والتركية والطولونية والاختشيدية والأبوية والفاطمية والبهية والفرزونية الينا نحن الآن كنسبة عاد وممود
الى آباؤنا أيام النبوة ، فلئن اكتفوا بتلك الأم فلائهم أعرف بها منا ، وليس عندهم غيرها ، أما نحن فإنا
لانعرف عن تلك الأم مع بعدها التاسع عنا إلا أبناء بجملة لانفي بالمقصود ، فوجب أن نبعثها بأمثال من
النبوة الإسلامية لننظر في ممالك الاسلام السابقة ، هل بنوا في الأرض بغير الحق ، وهل أذهبوا طبيائهم
في حياتهم الدنيا واستمتعوا فيها ؟ وهل ذاقوا عذاب الخزي في الحياة الدنيا لما استمتعوا بالطيبات فيها ؟
وهل كان في هذه الأم قوم مخلصون صادقون يمكننا أن نقادهم الآن ونتبع خطواتهم .

إذا وجدنا ذلك ، وأبنتناه في هذا التفسير ، واطلع عليه المسلمون ، فإن ذلك موجب لسرعة ارتقاء
هذه الأمة لأنهم يرون التطبيق على القاعدة حاضرا عندهم ظاهرا وانحفا ، يرمونه في تاريخ الأمم القريبة
منهم ، وهناك يتم الأمر ، وتنتظم الأحوال ، ويفيد التاريخ حقا فائدته التامة ، فأما قراءة القرآن ،
وفهمه ، ومعرفة القاعدة العامة ، والاقصاء في التطبيق على الآثار البعيدة العامة ، وجهل الوقائع القريبة المعروفة
للأم الإسلامية ، فإن ذلك معناه الجهل العام ، ونقل الفائدة العملية ، إن القواعد بلا تطبيق عليها كشجر
بلا ثمر ، وكأرض طيبة لم تزرع .

فها إنذا أيها الذكي أفضل هذا المقام في (مبحثين : المبحث الأول) في أن اتباع الشهوات وعدم المحافظة
على السعة توجب ضعف الأجسام وعدم الانتفاع بالحياة (المبحث الثاني) في أن التبذير في الأموال
والاسراف سبيل هلاك الأفراد والأمم .

أما المبحث الأول ، وهو أن الاسراف في المطاعم والمشارب يعذب الانسان عليها في الحياة الدنيا بالأمراض
وعدم الانتفاع بالحياة فذلك واضح أشد وضوح في (سورة ص) ، إذ أبنت هناك كيف ظهر أن الطب
الحديث يحرص على ترك أنواع من الطعام متداولة بين الناس ، ويوجب الاقلال من الأغذية ، ويحتم الرياضة
البدنية ، وهناك ترى أن سيرته صلى الله عليه وسلم في طعامه ، وسيرة أبي بكر وعمر وعلي ومن نحوهم كانت أقرب
الى الطب الحديث ، وأن ذلك موجب لقوة الأبدان ، والاخلال بذلك يورث الخزي في الحياة الدنيا بالأمراض
والأمراض توجب الحرمان من نعم كثيرة لولاها لارتقى الانسان في الآخرة درجات بأعماله ، وهناك ترى
كيف كان لقدساء الفلاسفة آراء في تربية الجند والملوك والأمراء ، وأن هذه الآراء لم يظهرها أثرها ، ولكن
في الصدر الأول من أئمة الاسلامية ظهرت آثار بطريق الوحي لا بالفلسفة التي لم يعمل بها أحد في الأمم التي
ظهر فيها أولئك الفلاسفة ، فذلك فضلا عن كونه مجعزة هو تطبيق على الآية هنا في المبحث الأول من مبحثها
ولأدلى على ذلك من قول عمر رضي الله عنه لربيع بن زياد فيها مرة بك : « لو شئت لمألت هذه الرحاب
صلائق وسبائك وصنابا ، ولكني رأيت الله عز وجل غير قوما . فقال : « وأذهبتم طبيائكم في حياتكم الدنيا
واستمتعتم بها » الآية .

فلاقتصر في المبحث الأول على هذا فيه غنية لدى لب لاسيا إذا أضاف إليها ما جاء في (سورة الشعراء)
وطه والحجر والأعراف والبقرة من المسائل الطبية الواضحة هناك

المبحث الثاني

في أن التبذير في الأموال والاسراف سبيل هلاك الأفراد والأمم

لما وصلت الى هذا المقام . قال لي صاحبي العالم الذي اعتاد أن يحادثني في هذا التفسير : لقد أجدت في المبحث الأول ، أما المبحث الثاني فليس من حقلك أن تكتب فيه شيئا ، بل يجب أن تشير اشارات الى ما كتبت فيه فيما تقدم ، لقد جاء في هذا التفسير العبر ، والمتبدأ والخبر ، يتقلب الدهر وضياح الأمم بجهلها وشرها ، وهمل بعد ما تقدم في (سورة النمل) من شرح الأمم التي هلكت بظلمها ، وبعد (سورة الاسراء) ، و (سورة سبأ) وغيرها من المباحث التي بها ظهر أن أمم الاسلام التي نحن أبناؤها قنسل بها الوبال والهلاك بظلمها ، وليس بعد ما قلته في أمم الاسلام قول لقاتل ، فانك ضربت الأمثال في أكثر السور بنفس التاريخ وشرحت شرحا وافيا ، فأصبح التعليم بذلك نافعا ناضجا ، وهمل بعد ذلك قول لقاتل ؟ إن ما كتبت الآن لا يكون إلا تدرارا وتحصيل حاصل . فقلت :

أيها النكي : إني خطر لي أمس أمر عجب في هذه الآيات ! فإني ما كدت أقرأ هذه الآيات ، وأعرض معناها على عقلي حتى حضرت في نفسى القرون الأولى وحكمتها وشهواتها .

لقد والله استحضرت الأمم وحكامها وملوكها ، كأنها كتاب أقرؤه ، وكأنها تفسر لكتاب الله تعالى في هذا المقام .

أيها النكي : إني أعجب لعقلي ، وكيف تلوح له المعاني المختلفة فبراهها موافقة . فقال لي : هذا الكلام يجمل فصله ، وموجز فينه ؟ فقلت : إن هذا القرآن قد أرفحته عقول الحكماء قبل نزوله ، وفسره الفلاسفة قبل الإجماع به ، ثم فصلته وقائع الملوك بعد نزوله ، وأظهرته حولت المسلمين في الأزمان الفائرة . فقال : إن هذا إجمال فسرته به إجمالا ، وأظن أني لم أصل للحقيقة ، فأنت في مستوى الاجال ، ولكن عقلي وفهمي في مستوى التفصيل . فقلت : الآن أقول : إن الدين اذا نزل من السماء ، ثم جاء أتباعه فوجدوا العقول الكبيرة قد فصلته قبل نزوله بالبرهان ، ثم جاءت الحوادث بعد ذلك وفصلته ، فانه يكون دينا غاية في العجب مزدوج البرهان .

انظر الى هذه الآية : « أذهبتم طيباتكم » الخ والى جمهورية أفلاطون ، أفليس من العجب أننا نرى أفلاطون في كتابه الثالث من جمهوريته يقول ماملخصه تحت عنوان « دستور المدينة » :

قال : ولا يجوز تشجيع مخاوف الموت في قلوبهم باخبارهم أن الحياة في العالم الآتي مظلمة ، ولا تمثيل صفات أكار الرجال لبصرهم وسمعهم بصورة محقرة ، أو مضحكة ، أو دنية ، بل يجب أن تكون الشجاعة والحق وضبط النفس لمة ككل القمص المستعملة في تهذيبهم وسداها . ثم قال : ان الصورة التي بها ترف القمص الى عقولهم تؤثر في طبيعة نفوذها أعظم تأثير ، فيجب أن يكون قرص الشعر إما تمثيلا صرفا كما في الرواية ، أو قصصيا صرفا كما في خربة باخس ، أو مركبا من النوعين كما في الشعر القصصي ، ولا يمكن الشخص الواحد أن يعمل أو يجيد تمثيل أشياء كثيرة ، فمن ثم ان أتيح لهم درس التمثيل فليقتصدوا على تمثيل رجال الصفات السامية المحترمة ، والنسق الذي يستعمله أناس هذه الطبقة في الالقاء وفي التأليف بسيط فعال يندر أن يتلبس بالتمثيل ، فهذا هو النسق الذي يجب أن يؤذن للحكام بأن يستعملوه في إلقاءهم ، والذي يقبسه الشعراء القائمون على تهذيبهم ، ويجب أن يسن لهم نظام شديد التدقيق في الأغاني والألحان والآلات الموسيقية ، فلا يسل لآلة كاملة آلات موسيقية تنشى فيها الرخاوة وتثبيط العزائم ، فيحظر عليهم كل الآلات الموسيقية إلا العود والقيثارة والزرمر ، ويحظر عليهم أيضا كل الألحان المركبة ، والبسيط من هذه هو المباح لهم ،

وغرض كل هذه القوانين هو أن يترقي ويرتقي في عقول التلاميذ الشعور بالجمال والاتساق والاعتزان ، وهي صفات تؤثر في سجينهم ، وفي علاقاتهم المتبادلة .

وبعد ما بحث سقراط بحثه السابق في الموسيقى الاغريقية تقدم للنظر في الجناسميك . فقال : يجب أن يكون طعام الحكام بسيطاً ومعتدلاً وصحياً ، وذلك يفنيهم عن الاستشارة الطيبة إلا في أحوال استثنائية ، وقد نخطئ في هذا الموقف إذا اعتبرنا أن نسبة الجناسميك للجسد هي نفس نسبة الموسيقى للعقل ، ويجب القول أن الجناسميك يراد لترقية العنصر الحامسي في طبيعتنا كما تراد الموسيقى لترقية العنصر الفلسفي ، وأقصى أغراض التهذيب إعداد هذين العنصرين ، ومنهجهما معا هي نسبة عادلة منزنة .

هذا ما يقال في شأن تهذيب الحكام وتدريبهم ، فن هذه الطبقة العالية يجب اتقاء القضاة ، ويلزم أن يكونوا من أكبر أعضاء الجسم الاجتماعي سناً ، وأوفرهم فطنة ، وأعظمهم جدارة ، وأعرفهم وطنية ، وأقلهم أنانية ، هؤلاء هم الحكام الحقيقيون ، والذين دونهم يسمون مساعدين ، ولكي تمنح الأمة بعدالة هذه الأنظمة وحكمتها ينبغي لنا أن نقتصر عليهم القصة التالية ، وهي : أنهم كلهم قد نسجوا أولاً في أحشاء الأرض أمهم الكبرى ، وقد سررت الملائكة أن تخرج بحيلة بعضهم ذهباً ، وفي جيلة بعضهم الآخر فضة ، وفي غيرهم نحاساً وحديداً ، فالقوة الأولى هم الحكام ، والثانية المساعدون ، والثالثة الفلاحون والصناع ، ويجب رعاية هذا القانون وتحليده ، والاحلّ بالسهولة السار .

وأخيراً يجب وقف محلة في المدينة هؤلاء الحكام ومساعدتهم يعيشون فيها عيشة شظف وتقتير ، ساكنين الخيام لا البيوت ، معتمدين على تبرعات الأهالي ، وأخيراً يجب أن لا يمتلكوا ملكاً خاصاً والا اقبلوا ذاتها بدل كونهم كلاباً حارسة .

ثم قال سقراط : أفنحصر أنفسنا في مراقبة شعرائنا ، فنوجب عليهم أن يطبعوا منظوماتهم بطابع الخلق الجيد ، والا فلا ينظّمون ، أو نوسع نطاق مراقبتنا فنشمل أساندة كل فن ، فنحظر عليهم أن يطبعوا أعمالهم بطابع الوهن والفساد والسفالة والسماجة ، سواء في ذلك رسوم المخلوقات الحية ، أو الأبنية ، أو أي نوع آخر من المصنوعات ، ومن لا يستطيع غير ذلك فلننته عن العمل في مدينتنا ؟ لكي لا ينشأ حكامنا في وسط صور الرذيلة لشوه المشاية في مراع رديئة ، فتتسرب الأضرار إلى نفوسهم فتفسدها بماتلتهم يوماً فيوماً من الأقوات من مختلف المواقع ، فيتجمع في نفوسهم مقدار وافر من الشرّ وهم لا يشعرون ، وعلى الضد من ذلك أولاً يجب علينا أن نستدعي فنيين من طراز آخر فيتمكنون بقوة عمق ينهم من اكتشاف أثر الجودة والجمال ، فينشأ شباننا بينهم كما في موقع هيّ ، بنشر يوبن السلاح من كل مربع تنبعث منه آى القنون ، فتؤثر في بصرهم وسمعهم كنفحات هابة من مناطق هجية فتحملهم منذ حداثتهم دون أن يشعروا على محبة جمال العقل الحقيقي ، والمتمثل به ، ومطابقة أحكامه .

غلوكون : إن ثقافة كهذه هي أفضل الثقافات .

سقراط : فلهذا يا غلوكون نغزو إلى تهذيب الموسيقى شأننا خارقاً ؟ فإن الإيقاع واللحن يستقران في أحماق النفس ويتأصلان فيها فينشأ فيها ما ههههه من لجمال ، فيجعلان الإنسان حلو الشائل إذا حسنت ثقافته ، والا كان الحال بالعكس ، ومن حسنت ثقافته الموسيقية ، فله نظراته في تين هفوات الفن وفساد الطبيعة فيفندها ويمقتها مقتاً شديداً ، ويهوى للموضوعات الجليسة ، ويفتح لها أبواب قلبه ، فيتعدى بها ، فينشأ شريفاً صالحاً ، وإذا كان منه ذلك وهو بعد فتي دون سن الرشاد قبلما يبرز في تلك الامور حكماً عقلياً ، فانه متى بلغ رشده يزداد ولعا بها عن معرفة إذ تربي عليها وألفها .

غلوكون : لا أرتاب في أن هذه هي أغراض التهذيب الموسيقي . انتهى

مما هوذا نراه في صفحة ٧٩ في النسخة المترجمة بالعربية يقول :

- (١) يجب على حكام الدولة أن يتجنبوا المسكر، لأن الحاكم راع ، ولذا سكر الراعي فمن ذا الذي يراعاه
- (٢) إن الحاكم مجاهد مدة حياته ، فكيف يسكر المجاهدون وهم في الميدان ؟
- (٣) طعامهم يجب أن يكون بسيطاً ، والجلب لهم العاس ، وهدد الصحة .
- (٤) اذا حادوا عن أطعمتهم قيد أئمة اتابنهم الأمراض ، واشتد عليهم الخطر .
- (٥) يجب أن يكون رجال الحرب يظنين كالكلاب الحارسة .
- (٦) إن « هومروس » الشاعر المشهور وصف الجنود على ضفاف الوردنيل بأنهم شورا اللحم فقط ولم يسلقوه .
- (٧) ويقول في صفحة ٨٠ . اتى لا أستحسن طعام السيراتومسيبين ، ولا كثرة أنواع الطعام عند الصقليين .
- (٨) وقال : أنكر على الرجال الذين يحبون أن يعرضوا على سلامة أجسادهم تسرى القنيت (الكريديات) .
- (٩) وأخذ يشنع على أهل أينا نأتهم في صنوف الحلوى .
- (١٠) ويقول أيضاً في صفحة ٨١ : إن هناك اتفاقاً تاماً بين تنوع الموسيقى ، وتنوع الطعام . فتتووع الموسيقى يجلب الفجور في النفس ، وتتووع الطعام يولد عللاً في الجسد ، والبساطة في التمريعات البدنية تولد في الجسد صحة ، والبساطة في الموسيقى تولد في البدن عفة .
- (١١) اذا انتشرت في المدينة الأمراض ، وصور الفجور ، اضطرت الناس لإنشاء المستشفيات ، ولانشاء المحاكم ، وهناك هناك بينه الطب عجا ، والحقوق تكبرا ، ويقف كثير من الشرفاء حياتهم على هذه المهنة بوافر الرغبة ، وكثرة المستشفيات في الأمة ، ووفرة القضاة فيها دليل على سوء تهذيب المدينة ، وانحطاط سكانها . وأى برهان أقطع على سوء تهذيبها من كثرة المستشفيات والقضاة !
- (١٢) ما أكثر غرور الرجل الذي يضيع حياته بين مدح ومدحى عليه ويظن جهلاً وغباراً أنه ماهر في ارتكاب الكبائر ، وأستاذ في الخيل ، والمواربة ، والدهاء والمكر تجلسه من قبضة العدالة والنجاة من برائن العقاب . وكل ذلك لأجل الحصول على أشياء طفيفة نافهة ، جاهلاً بأفضلية الحياة المنظمة المسقة وجاهلها ، فهي أفضل وأشرف من مثوله أمام قاض خامل .
- (١٣) وقال سقراط في صفحة ٨١ أيضاً : إن الاحتياج إلى المعالجة الطبية عيب ، اللهم إلا ما كان لجرح ، أو لمرض موسمي وافر . إن عارا علينا الاحتياج إلى المعالجة الناشئة من كسلنا ، ونوع معيشتنا التي بها تملؤنا الرياح والأخلاق كما تملأ المياه القدرة الحماة ، وتظهر أسماء جديدة للأمراض مثل قولهم : تطبل البطن ، الزكام الخ .
- (١٤) وأخذ في صفحة ٩١ يقسم الناس إلى ثلاثة أقسام : ذهب وفضة وحديد ، وبرهن على أنه يجب أن يوضع كل امرئ في مركزه ويقطع النظر عن مركز والده ، فالذهب حاكم ، والفضة تساعد ، والحديد فلاح . ولا يجوز الخلط ، فلا عبثة إلا بالاستعداد ، والنسب هنا لقيمة له . وقال سقراط : يلزم أن تكون الخيام كافلة وقائتهم من تأثير الاقليم صيفا وشتاء . غلوكون : حسناً ، فيظهر أنك تعنى بها أن تكون بيوتنا لاخياما ، هذا اذا لم أكن محطاً في ظني سقراط : نعم ، ولكن بيوتنا عسكرية ، لا بيوت أغنياء . غلوكون : فما الفرق بين هذه وتلك ؟

سقراط : سأريك ، فلن من أفضح أعمال الرعاة ، وأدعها الى الخزي في الرعية أن كلابهم التي ربوها لحراسة التطيح تهجم على الأغنام ، إما لسبب جوعها ، أو نهمها ، فتمزقها بأنيابها ، فتسكون ذئبا لا كلابا حارسة .

غلوكون : حقا انه أمر شائن .

سقراط : أفلا يلزم الاحتياط لتلا فعل مساعدو حكمانا هكذا بالأهلين ، لأنهم أقوى منهم فيصبرون وحوشا ضارية بدل كونهم حلفاء صادقين ؟

غلوكون : يلزم ذلك .

سقراط : أولًا يتسلحون بأفضل ضمان اذا تمهذبوا تهذبيا حسنا ؟

غلوكون : لقد سبق أن سلمنا أنهم مهذبون .

سقراط : ليس من الضرورة يا عزيزي غلوكون الوقوف عند هذه النقطة ، ولكن الأمر الأجدر بأعظم أهمية هو الاصرار على ما قلناه ، وهو أنه يجب أن يهذبوا تهذبيا صحيحا مهما يكن من أمرهم ، اذا أريد بهم الحصول على أعظم مؤهلاتهم للحنان واللفظ نحو رفاقهم ونحو الذين يحكمونهم .

غلوكون : حق .

سقراط : علاوة على ذلك التهذيب ، فان الرجل الحكيم يقول : « يجب أن تكون بيوتهم مما لا يحول دون كونهم حكاما كاملين ، ولا تمكنهم من الاضرار بالآخرين » .

غلوكون : وبحق يقول .

سقراط : فاعتبر الرأي التالي : « أبرافق حياتهم وسكنهم اذا أريد أن يكونوا على ما ذكرت من الأوصاف الامور التالية ؟ :

أولا — أن لا يملك أحدهم عقارا خاصا مادام ذلك في الامكان .

ثانيا — ولا يكون لأحدهم مخزن أو مسكن يحظر دخوله على الراغبين ، فليكونوا في أسنى ما يتطلبه الأسياف الشجعان المدربون تدريبا حريا ، ويجب أن يقبضوا من الأهلين دفعات قانونية أجرة خدمتهم بحيث لا يحتاجون في آخر العام ولا يستفضلون ، ولتسكن لهم مواثم مشتركة كما في ثكنات الجنود ، وأن يجبروا أن الملائكة ذخرت في نفوسهم ذهابا وفضة سماريين ، فلا حاجة فيهم الى الركاز الترابي ، وعيب عليهم أن يدنسوا بصناعة الملائكة السامية بمرجها بالذهب الفاني ، لأن تقود العامة فيها دخل كثير ، وهي مجلبة لكثير من الشرور ، ولكن ذهب الحكام السموي عديم الفساد ، فهم وحدهم من بين كل رجال المدينة مستثنون من مس الفضة والذهب ، فلا يدخلونهما تحت سقفهم ، ولا يحملونهما ، ولا يشربون بكؤوس صيف منهما ، وبذلك يصونون أنفسهم ودولتهم ، لكنهم اذا امتلكوا أراضي ويونا ومالا ملكا خاصا صاروا مالكيين ووزراعا عوض كونهم حكاما ، فيصبرون سادة مكروهين ، للاحلفاء محبوسين ويصبحون مبغضين ومبغضين ، يكاد لهم ويكيدون ، فيقتضون الجانب الأكبر من حياتهم في هذا العراك ، وخوفهم العدو الداخلي أكثر جدا من خوفهم العدو الخارجي .

ففي حال كهذه يسرعون بالدولة الى الدمار ، فلاجل كل ما ذكره لم يقررتنا في مصير حكمانا بالنظر الى بيوتهم وغيرها ، وزبط ذلك بأحكام الدستور أم لا ؟

غلوكون : نبرمه وزبطه . انتهى

(١٥) وهنا منع سقراط منعاً باتاً إدخال بدعة جديدة في الموسيقى ، وفي التمرينات العضلية (الجناسك) . وإن ظهور نشيد . أو أغنية جديدة ، فيها فتح الشهوات ، يحدث خلافاً في سياسة الدولة . وقال : « يجب أن يكون التسلي والتلهي بالأمور المشروعة ، لأن الملهي إذا كانت غير مشروعة انغمس الأحداث فيها ، واستحال أن يشبوا رجالاً مخلصين .

(١٦) وفي صفحة ١٠١ أخذ يذكّر أن التهمين في الطعام والشراب تكون حياتهم كلها محيرة مضطربة يعيشون بين أيدي الأطباء ولا يستفيدون منهم شيئاً ، بل يسبرون من ردىء إلى أردأ ، وهم دائماً في حاجة إلى من يصف لهم الدواء . قال : ومن المدهش أنهم يبغضون من يصرّح لهم بالحق ، ويؤكد لهم أنهم مالم يعدلوا عن التهم والشراب والفجور والتراخي ، فإن العقاقير لا تفيدهم ولا كفى ، ولا بتر ، ولا تعاريف ، ولا أربطة ، ولا شئ آخر من أمثال هذه . وههنا أخذ يقيس رجال السياسة في الأمة على أحوال الفرد الواحد الكبير المعربد ، قال فكأن الشراء في الطعام المولّظ على طلب اللذات مغرور لا يسمع نصيح الناصحين ، هكذا رجال الدولة الفاسقة سيئة النظام يكرهون من يتعرّض لقوانينهم ، ولا يحبون إلا من يخلق لهم براءته ويمح سوء فعلهم .

(١٧) ولما كانت هذه الشروط كلها لا يمكن كمالها في الأرض قال في صفحة ١٢١ وما بعدها مانعه : « إن غرض تبيان نظام الدولة الكاملة سعياً وراء الغرض المقصود منها هو اكتشاف طبيعة العدالة ، أما إمكان إنشاء دولة كهذه بالفعل فهي مسألة أخرى ، ليس لها أقل أثر في سلامة النظام وصحة نتائجه ، وكل ما يصح أن يطلب منه هو أن يبين كيف يمكن الهيئات الناقصة الحاكمة حالياً أن تبلغ أقرب نقطة ممكنة إلى مدى السياسة الكاملة التي مرّت وصفها ، وهناك انقلاب واحد لا بد منه لتحقيق هذا الغرض وهو تسليم مقاليد السياسة إلى الفلاسفة ، وللتخلص مما يلبس ذلك من وجوه المقاومة يلزم أن نلوي عنان البحث إلى تحديد الفيلسوف الحقيقي .

﴿ أولاً ﴾ — الفيلسوف الحقيقي هو المغموم كل الغرام بالحكمة في كل فروعها ، وعلينا أن نميز في هذا الموقف أدق تمييز بين الفيلسوف الحقيقي وبين المدعى بحب الفلسفة تديبياً ، وتستقر نقطة الفرق بينهما في أن الدجال يكتب في بدرس الموضوعات الجلية مثلاً ، أما الفيلسوف الحقيقي فلا يقف عند ذلك الحد ، بل يتجاوز إلى إدراك الجلال المطلق ، ويمكن وصف حال الأول العقلي بأنه « تصوّر » وحال الثاني أنه « معرفة حقيقية » ، أو « علم » ، فهناك الوجود الحقيقي الذي يتناوله العلم ، واللاوجود ، أو العدم ، الذي نسبت إلى الجهل نسبة الوجود الحقيقي إلى العلم ويتوسط بين العلم وبين الجهل التصوّر ، فنستنتج أن التصوّر يناول الوجود الظاهري ، فالذين يدرسون الوجود الحقيقي يدعون « محبي الحكمة » ، أو « فلاسفة » ، والذين يدرسون الوجود الظاهري يدعون « محبي التصوّر » لافلاسفة . انتهى من « جمهورية أفلاطون »

هناك قال صاحبي : إن هذه الحكم المستخرجة من كلام (سقراط) مدهشة ، ذلك أنها مطابقة لمعنى الآية ، لأن هؤلاء السكاري ، أو الذين يكثر لون الطعام ، أو الكسالي ، أو الذين يحدثون في الدولة أنواع المغانى كما يحصل في بلادنا المصرية الآن ، أو الصور المحرّضة على الفسوق ، كما يفعله الأوروبيون الآن في بلادنا المصرية بواسطة دور السينما (الصور المتحركة) ، فكل هؤلاء أذهبوا طبيعتهم في الحياة الدنيا واستمتعوا بها ، وأخذوا الجزاء يظهر فيهم ، ويماقبون في نفس الحياة الدنيا قبل الآخرة ، فوالله اني لأرا فئدة كل الموافقة على ما قلته وهو أن كتاب الله قد فسر بالفلسفة قبل نزوله ، وإذا كان (سقراط) قبل النبوة بنحو ألف سنة

فمن الجب الجباب أن يكون مافصله هونفس ماأجلته الآية ، بل أنا أقول إنها والله لمهجزة . فقلت بإباح ، إن هذه الأمة الاسلامية في عصرنا تجترى بقولها هذه مهجزة ، والمتعلمون تعليها ناقصا يشكون في الديانات كلها ، ولكن ليس هذا جوهر الموضوع ، إن جوهر الموضوع هو بحث أخلاقنا وعوائدنا وعرضها على كتاب الله ، ولما كان كتاب الله مشروحا بالحكمة التي ظهرت في الأمم كان ذلك أمرا مدهشا يجب علينا إذاعته في زماننا حتى يوقن الشاك أولا ويقنع أولئك المترفون ، العاجزون ، المتعلمون نصف تعليم في عصرنا أن شكهم في الديانات لايجلبهم من المسؤولية ، ولايقوم حجة ، لأنهم يدعون أنهم متعلمون ، فنقول لهم : وبحكم ، أستم تسمعون علماء أوروبا ومنهم « سبنسر » وأمثال « ستلانه التلياني » وغيرهما يقولان بأعلى صوتهما : « أيها الناس : انامعاشرالفلاسفة في أوروبا لاينبغ في العلم والحكمة ، وأصول الفلسفة ، شأو (سقراط) ، ولا (أفلاطون) ، بل نسبتنا الى هؤلاء القوم كنسبة البقرة الى الفيل ، فنحن إنما برعنا في العلوم الجزئية ، أما للسكريات التي توضح الامورالعالية ، كأصل النفس ، ومنشأ العالم ، وماشابه ذلك ، فمن منه بعيد » إذن مانكتبه الآن في هذا التفسيرحجة قائمة على كل متعلم في بلاد الشرق ، لأنه اذا ادعى أنه يشك في الديانات ، فلن يقنى له أن يتخلص من أنه رجل جاهل أحمق ، لأن فلاسفة أوروبا الذين يدعى هو أنه متمسك بأرائهم متعلق بهم . متبع سبيلهم ، فهو ككفر كما أنهم كفروا ، وأسرف كما أنهم أسرفوا وظلم كما أنهم ظلموا (في زعمهم) قد أعلنوا أنهم أقل شأنًا من سقراط وأفلاطون وهاهوذا سقراط يفسر القرآن قبل نزوله ، ويبين لنا هذه الآية : « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا » وهو لايعلم بالقرآن ولا بالنبوة ، ولا بالأمة العربية التي ستأتي بعده بنحو عشرة قرون .

فقال صاحبي : الله الله ، الآن حصحص الحق ، واستبان السبيل ، وظهرالابداع الفلسفي الذي هو أكبر مهجزة قرآنية سياسية دولية ، وأن الأمم اليوم كلها عاجزة ، بعيدة عن الكمال ، فخذني حفظك الله عما أحدثته ملوك الاسلام من الفسوق في الدولة الأموية والعباسية وغيرهما تطبيقا على ذلك كما وعدت . فقلت : اعلم أيها الذكي أن ما أكتبه اليوم سترى فيه مالم تره فيما مضى ، ومماثل الآراء والأحوال المختلفة في التعاليم إلا كمثل الأزهار في اختلاف ألوانها ، والخمر في تباين طعومها ، والأقطار في تنوع أهوائها ، ولكل زهر ، ولكل بحر ، ولكل قطر قوم هم به مغرمون ، واذالم يكن التأليف جاريا مجرى النظام الطبيعي الإلهي في اختلاف المناظر ، وتباين المشارب ، ليجد كل امرئ فيه مأربه ، لم يجر القبول في الأمم ، ولم يكن مثار الانتفاع ، ومجئلى الأنظار .

فها أنادا أذكرك أيها الصديق أولا بما جاء في (سورة الشورى) وما كان من أمر عمررضى الله عنه ومبلغ زهده وورعه ، وقد ذكرت هـ ١٧ خصلة مشروحة في عدله وأخلاقه الكريمة ، فهل تذكرها ؟ قال نعم ، ولكن هذا القول منك انتهجت به منهجى ، واتبعت سنتى ، وسمعت فصيحى ، لأنك تشرب اليه الآن ، ولأنك كره ، وهذا هو مقولى . فقلت : إنما أشرت إليه لأننى في هذا المقام كما تقدم أبحث في أمرين : أمر المسلحين الذين يقتدى بهم ، وهذا هو الذى ذكرته الآن ، وأمر المفسدين الذين نحترس من عملهم ، ونخالفهم ، وهؤلاء هم الذين سأفصل القول فيهم تفصيلا كما وعدتك ، وقبل ذلك التفصيل أقول في السلف الصالح قولًا بجملا غير ماتقدم لتم القدوة بهم :

إن عصر الخلفاء الراشدين من سنة ١١ - ٤١ هجرية هو العصر الذهبي ، عصر العدل والتقوى . كانت الحكومة جارية فيه على سنن العدل والاستقامة ، والغيرة الحقيقية على الدين ، ونسب الدنيا ، وهو العصر الذى اتخذ المسلمون منوالا وفسجون عليه ، وكلما سادت دولة من دولهم عن جادة الحق طلبوا منها الرجوع إليه والسبر على خطوات الخلفاء الراشدين ، لأن الحكومة انتقلت بعدهم الى طور جديد ، وانقلبت

من الخلافة الدينية الى الملك السياسي ، ونشأت في الخلفاء والعمال المطامع ، وأخذوا في حشد الأموال بأية وسيلة كانت .

(بيت المال) توفي النبي ﷺ والمسلمون هم رجال الحكومة والجند ، ولم يكن عندهم بيت مال للأسباب التي قدمناها ، ولم يكونوا يتطلبون المال إلا لقضاء الحاجيات ، وكان أكثر ما يرد عليهم منه ماشية وحنطة وخيلا ونحو ذلك من أموال الصدقة والغنيمة ، وكانت النقود قليلة بين أيديهم ، فلما فتحوا الشام وقارس ومصر وردت عليهم الأموال ذهابا وفضة ، فأدهشهم كثرتها ، وفتنوا بها . يقال ان أبا هريرة قدم على عمر بن الخطاب من البحرين بمال . فقال له عمر : بم جئت ؟ قال بمخمسة مائة ألف درهم ، فاستكثره عمر ، وقال : أتدري ما تقول ؟ قال نعم مائة ألف خمس مرات ، فصعد عمر المنبر ، وقال أيها الناس : قد جاءنا مال كثير ، فان شئتم كلنا لكم كيلا ، وان شئتم عددنا لكم عدا . وكان ذلك من جملة ما دعاه الى وضع الديوان ، وفرض العطاء لكل واحد من المسلمين ، باعتبار السابقة والقرابة من النبي ، ولكنه نهى عن اختزان المال ، فقال له قائل : يا أمير المؤمنين ، لو تركت في بيوت الأموال شيئا يكون عدة لحادث اذا حدث ؟ فجزه عمر ، وقال له : تلك كلمة ألقاها الشيطان على فيك ، وقانى الله شرها ، وهي فتنة لمن بعدى ، إني لا أعد للحادث الذي يحدث سوى طاعة الله ورسوله ، وهي عدتنا التي بلغنا بها ما بلغنا .

فلما كثرت الأموال في أيام عمر ، ووضع الديوان فرض الرواتب للعمال والقضاة ، ومنع آذخار المال ، وحرّم على المسلمين اقتناء الضياع ، والزراعة ، أو المزارعة ، لأن أرزاقهم وأرزاق عيالهم تدفع لهم من بيت المال ، حتى إلى عبيدهم ومواليهم ، أراد بذلك أن يبقوا جندا على أهبة الرحيل ، لا يمنهم انتظار الزرع ، ولا يعدمهم الترف ، والقصف . فاذا أسلم أحد من أهل النمة سكان البلاد الأصليين صار ما كان في يده من الأرض وداره الى أصحابه من أهل قريته ، تفرق فيهم ، وهم يؤدّون عنها ما كان يؤدّي من خراجها ويسلمون إليه ماله ورقيقه وحيوانه ، ويفرضون له راتبا في الديوان مثل سائر المسلمين .

والفرض الذي كان يرعى إليه عمر من هذه القاعدة أن يبقى أهل النمة وأرضهم مصدرا للمال الذي يحتاج إليه المسلمون في إتمام الجهاد ووفقا لمصالحهم مدى الدهور ، أما اذا اشترى المسلمون الضياع فانهم يستقلون بنفعها دون سواهم ، ولا يمتص بضعة أجيال حتى تصير أملا كما خاصة بهم ، وعمر يريد أن يبقها محبوسة على آخر هذه الأمة من المسلمين المجاهدين قوة على جهاد من لم يظهروا عليه بعد من المشركين لا تباع ولا تورث لما أزموه أنفسهم من إقامة فريضة الجهاد ، وأيد هذه القاعدة عمر بن عبد العزيز الأموي ، وكان يتحدثى ابن الخطاب بكل خطواته . فقال : « أبحاذي أسلم فان اسلامه يحزله نفسه وماله ، وما كان من أرض فاتها من في الله على المسلمين ، وأبما قوم صالحوا على جزية يعطونها فن أسلم منهم كانت داره وأرضه لبيعتهم » فترتب على ذلك ونحوه ترفع المسلمين عن سائر الأعمال من تجارة أو صناعة أو نحوهما .

ثروة الخلفاء وصالحهم

علمت مما تقدم أن الراشدين لم يكونوا يلمسون ثروة ، فلما توفي أبو بكر ، لم يجدوا عنده من مال الدولة إلا دينار واحد سقط من غرارة ، لأنه كان يفرق كل ما يجتمع عنده على السواء ، لا ينظر الى مصلحة نفسه ، بل هو أنفق كل ما كان عنده من المال قبل اسلامه ، وذلك أربعون ألف درهم . غير ما اكتسبه من التجارة لأنه كان يتجر ليستعين على النفقة ، ثم فرضوا له مالا معيناً من مال المسلمين لينفق على نفسه وعياله ، لئلا يشتغل بالتجارة عن النظر في مصالحهم ، فلما دنا أجله أوصى أن تباع أرض كانت له ويدفع ثمنها بدلا مما أخذ من مال المسلمين ، وكان عنده ثوبان أوصى أن يكفن بهما .

وأخبار عمر بن الخطاب بالزهد والنزاهة أشهر من أن تذكر ، ويقال بالاجمال انه هو مؤسس دولة المسلمين وقد أسسها على أمتين دعائم الملك ، أسسها على العدل ، والتقوى ، والزهد ، والاستهلاك في نصرة الحق مما يندرج اجتماعه في رجل واحد ، وقد يوهم لغرابته انه من قبيل المبالغة ، ويسهل علينا التصديق به اذا تذكرنا النتائج التي تربت على تلك المناقب مما لم يسمع بمثله في التاريخ ، يكفي منها تلك الفتوح التي جعلت الأموال تنصب نحو بيت المال في المدينة كما ينصب الماء من الميازيب ، وعمر مع ذلك لا يلتفت إليه ، ولا يأخذ منه إلا ما فرضه لنفسه كسائر الصحابة الأولين ، وكان اذا احتاج الى مال فوق راتبه جاء إلى صاحب بيت المال ، فاستقرضه حتى يفيء إياه من عطائه فيها بعد ، ولما طعن وأحسن بدتوا الأجل قال لابنه : « إني استلفت من بيت مال المسلمين ثمانين ألفا فليرد من مال ولدي ، فإن لم يبق ما لهم فمال آل الخطاب » . وزهده في الطعام واللباس مشهور .

وقال نحو ذلك في الامام عليّ ، فقد كان مغاليا في الزهد والعدل ، ومن أقواله : « تزوجت بفاطمة ومالي فراش إلا جلد كعش تنام عليه بالليل ، وفلفل عليه ناعشنا بالنهار ، ومالي خادم غيرها » . وجاءه في أيام خلافته مال من أصهبان ، فقسمه على سبعة أسهم ، فوجد فيه رغيفا ، فقسمه على سبعة أسهم ، ودعا أمراء الأسباع ، فأقرع بينهم ، لينظر أيهم يعطى أولا ، ولم يبق على آجرة على آجرة ، ولابنة على لبنة ، ولا قسبة على قسبة ، وكان يأتي بحبوه من المدينة في جراب ، وقيل انه أخرج سيفا له الى السوق فباعه ، وقال : « لو كان عندي أربعة دراهم تمن إزار لم أبعه » . ومناقبه لا تحصى .

وقد ساعد الخلفاء الراشدين على تأييد العدل والحق ، أن عمالهم كان أكثرهم من أهل التقوى ، وحسن الاعتقاد في الاسلام ، فكان عمر اذا اكتسب أحد عماله مالا من تجارة ، أو سبيل آخر غير عطائه المفروض له قاسمه عليه ، وهو لا يرى في ذلك غبنا ، كذلك فعل سعد بن أبي وقاص عامله على الكوفة وعمر بن العاص عامله على مصر ، وأبي هريرة عامله على البحرين ، وغيرهم .

ولا عرابة في ذلك ، لأن العامل اذا رأى خليفته زاهدا تقيا يمنع نفسه من كل شيء ويستهلك في مصلحة الأمة فانه يقتدى به ولو كان ذلك مخالفا لرأيه ، على أن الخليفة نفسه لا يبولى أعماله إلا من يكون على رأيه وخلقه ، وخصوصا عمر ، فقد كان شديدا على العمال يتفقدهم كل سنة ويمزهم لأقل تهمة ، ذكروا أنه استعمل على حصص رجلا اسمه عمير بن سعد ، فلما اتفقت السنة كتب اليه : « أقدم إلينا » فلم يشع رجلا إلا وقد قدم إليه الرجل ماشيا حافيا ، عكازه في يده ، وإداوته ومزودته وقصعته على ظهره ، فلما رآه عمر ، قال : يا عمير أأجبتنا أم البلاد بلاد سوء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أما نهاك الله أن تبهر بالسوء وعن سوء الظن ، وقد جئت إليك بالدينيا أجرها بقرابها ، فقال : وما معك من الدنيا ؟ قال : عكازة أتوكأ عليها وأدفع بها عدوا إن لقيته ، ومزود أجل به طعامي . فقال : ما صنعت بعملك يا عمير ؟ قال : أخذت الإبل من أهل الأبل ، والجزية من أهل الذمة ، ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ، فواته يا أمير المؤمنين لو بقي عندي منها شيء لأتيتك به ، فقال له : عد الى عمالك .

ولأقتصر في هذا المقام على ما سمعته الآن ، وأقفي بذكر المبذرين ، فأقول مستعينا بالله :

شيوخ التبذير في الدولة

لم تطل مدة المسلمين الأولين الذين لم يكونوا يعشقون الخلافة ملكا سياسيا ، فلما انقضى عصر النبوة رزالت دهنتها عاد الناس الى فطرتهم أيام عثمان سنة ٣٣ - ٣٥ هجرية ، لأنه لم يكن شديدا مثل عمر ،

وكان مع ذلك أمويا ، فاعتزّ الأمويون به ، وأرادوا أن يمسدوا لأنفسهم السلطة التي كانت لهم في الجاهلية ، وكان بنوهاشم قد سلبوهم إياها بعد الاسلام لأن النبي ﷺ منهم ، فأخذ عثمان بولي الأعمال رجلا من أقربائه ، وفيهم من لم يعتنق الاسلام إلا أساسا من فوزه على المسلمين ، وكثرت في أيامه الفتوح ، وفاضت الغنائم فكان يختص أهله منها بأكثر من سائر الصحابة ، كما فصل بغنائم إفريقية سنة ٢٧ هجرية فان المسلمين حاربوها وعليهم عبدالله بن سعد (أخو عثمان من الرضاع) ، فبليت غنائمهم منها (٢٥٠٠٠٠٠) دينار أعطى خمسها الى مروان بن الحكم وزوجه ابنته ، وكان هذا الخمس من حقوق بيت المال ، وأبطل عثمان محاسبة العمال لأنهم من أهله ، فازدادوا طمعا في حشد الأموال لأنفسهم ، وخصوصا معاوية بن أبي سفيان عامله على الشام ، وهو أكثرهم دهاء ، وأبعدهم مطمعا ، فكان في مقدمة الذين أبطلوا قاعدة عمر في منع المسلمين من الزرع واتخاذ الضياع ونحوها .

وكيفية ذلك أن المسلمين لما فتحوا الشام ، وأقروا الأرضين في أيدي أصحابها ، كان جانب كبير منها ملكا للبطارقة قواد جنود الروم ، فلما غلبت الروم ، وفرت البطارقة ، أو قتلوا ، ظلت ضياعهم سائبة لأمالك لها ، فأوقفها المسلمون على بيت المال ، فكان العمال يقبلونها كما يقبل الرجل ضيعته (أى يضمونها) ويضيفون دخلها الى بيت المال ، فلما استقرت معاوية على ولاية الشام ، واقتدى بالروم في البذخ واتخاذ الحاشية ، لم يعد راتبه يكفيه ، ورأى من عثمان ضعفا وميلا ، فكتب إليه : ان الذي أجراه عليه من الرزق في عمله لا يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسول أمرائهم ، ومن رسل الروم ووفودهم ، ووصف في كتابه هذه المزارع وأن لأمالك لها ، وليست هي من قرى أهل الذمة ، وللاخراج ، وسأله أن يقطعها لإياها ، وكان عمر قد جعل لمعاوية على عمله في الشام راتبا مقداره ألف دينار في السنة ، وهو كثير بالظن الى رواتب العمال في تلك الأيام ، فلما طلب من عثمان أن يقطع تلك الضياع أجباه الى طلبه فوضع يده عليها وجعلها حبا على فقراء أهل بيته فجراه ذلك على التمدد في اقتناء الأرضين وبيعها في أيام خلافته ، والاذن للمسلمين في ذلك .

واقتدى بمعاوية غيره من العمال وسائر الصحابة ، فاقتنوا الضياع والعقار ، وفيهم جماعة من كبار الصحابة مثل طلحة والزبير وسعد وبعلى وغيرهم ، وزادت أموالهم ، وظهر الغنى فيهم ، حتى عثمان نفسه ، فانه اقتنى الضياع الكثيرة ، واخترن الأموال ، فوجدوا عند خازنه بعد موته (١٥٠٠٠٠) دينار و (١٠٠٠٠٠٠) درهم ، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما (١٠٠٠٠٠) دينار ، وخلف خيلا وإبلًا ، والظاهر أن عثمان اندفع الى تسهيل الثروة على المسلمين بما زاد عنده من الأموال ، وأغراه أهله على ذلك وخصوصا معاوية ، ثم صار امتلاك العقار مألونا شائعا .

ومن أسباب شيوع الاملاك بين المسلمين أن عثمان أقطع هو وخلفاؤه بعض الأرضين عمالم يتعين مالكوهم على أن يدفعوا شيئا لبيت المال بمقابل الإيجار أو الضمان كما تقدم ، فلما حدثت فتنة الأشعث سنة ٨٢ هـ حرق الديوان وضاعت الحسابات فأخذ كل قوم ما يليهم .

على أن المسلمين لم يكونوا راضين عن أعمال معاوية في هذا الشأن لأنه لم يساو بينهم فيه ، فنقموا عليه وخصوصا الفقهاء ورجال التقوى ، وفي حكاية أبي ذر الغفاري ما يعني عن البيان ، فقد كان هذا الرجل مغاليا في التمسك بقاعدة عمر ، وكان يرى : « أن المسلم لا ينبغي له أن يكون في ملكه أكثر من قوت يومه ووليته أو شئ ينفعه في سبيل الله ، أو بعده لكرام » . وكان يقوم في الشام ويقول : « يا معشر الأغنياء ، واسوا الفقراء ، والذين يكذبون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحصى عليها في نار جهنم فكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » ، وما زال يقول ذلك ويكرره حتى ولع الفقراء نقوله وأوجبوه على الأغنياء ، فشكا الأغنياء الى معاوية ما يلقون منهم ، وكان معاوية يشكو أمر

من شكائهم ، لان أبا ذرٍّ وبخه غير مرة لا خزانة المال ، ومما قاله له على أثر بنائه قصر الخضراء في دمشق ، وقد سأله معاوية : كيف ترى هذا ؟ فقال أبو ذرٍّ : إن كنت بنيت من مال الله فانك من الخائنين ، وإن كنت بنيت من مالك فانك من المسرفين ، فعظم ذلك على معاوية ، فأراد أن يوقعه فيما يوجب محاسبته فبعث إليه بألف دينار أراد أن يفره بها ، ثم يتهمه باكتناز المال ، فلما وصلت الدنانير إلى أبي ذرٍّ فرَّقها حالا مع أنها وصلت ليلًا ، وجاءه رسول معاوية في الصباح يزعم أنه دفع المال إليه خطأ ، وأن معاوية يطلبه ، فأخبره أنه أنفق في ساعته ، فلم ير معاوية سبيلا إلا اتهامه بالفتنة ، فكتب إلى عثمان : « انك أفسدت الشام على نفسك بأبي ذرٍّ » ، فكتب إليه : « احمله على قتب بغير وطاء » ، فلما جاء المدينة حاكمه عثمان فلم يرهب سلطانه ، وجاهر بما يراه من جشع بني أمية وخروجهم من الحق ، فأخرج عثمان من المدينة إلى الربطة بالعنف ، وظلَّ هناك حتى مات ، فقم المسلمون بموته على عثمان في جملة ما تقوموا عليه إلى مقتله اه

هذا ماجاء في كتاب « تاريخ التمدن الاسلامي » وربما كان ماجاء فيه من أمر عثمان رضي الله عنه فيه مبالغة ، ومن جهة أخرى أنه رضي الله عنه كان مجتهدا ، والمجتهد مثاب ، أصاب أم أخطأ ، فله حرمة ، فلننقل الكلام في أيام بني أمية :

الاسراف أيام بني أمية

وعصرهم سنة ٤١ - ١٣٢ هجرية

هذه الدولة كانت عربية بحثة محتقرة لسواهم ، ومن أسلم من غير العرب يسمونهم الموالي

اعلم أن بني أمية وان فتحوا البلاد شرقا وغربا فان عمالهم أخذوا في الإسراف ، وبعض ملوكهم كذلك ، فدالت دولتهم . خذ لذلك مثلا :

إن محمدا أنا الحاج بن يوسف لما تولى العيين أساء السيرة ، وظلم الرعية ، وأخذ أراضى الناس بغير حقها وضرب على أهل العيين خراجا سماه « الوظيفة » . فلما ولي عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله هناك بالغاء تلك الوظيفة والاقتصار على العشر .

وفي كلام القاضي أبي يوسف في عرض وصيته للرشيده بشأن عمال الخراج ما يبين الطرق التي كان أولئك الصغار يجمعون الأموال بها . قال : بلغني أنه قد يكون في حاشية العامل أو الوالي جماعة منهم من له به حرمة ومنهم من له إليه وسيلة لسوا . بأرار ولا صالحين يستعين بهم ويوجههم في أعماله يقتضى بذلك التملكات ، فليس يحفظون ما يوكلون بحفظه ولا ينصفون من يعاملونه إنما مذهبهم أخذ شيء من الخراج كل من أموال الرعية ، ثم اتهم يأخذون ذلك كله فيما بلغني بالصف والظلم والتعدي ، ويقومون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ، ويلقون عليهم الجرار ، ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة ، وهذا عظيم عند الله ، شنيع في الاسلام .

وكان شأن بني أمية وعمالهم وجباةهم على نحو ما تقدم حين تولى الخلافة عمر بن عبدالعزيز سنة ٩٩ هـ وكان تقيا منصفا ، فأراد أن يرد الأمور إلى ما كانت عليه في أيام سميده وجده لأمه عمر بن الخطاب ، فأصدر أوامره إلى العمال بإبطال تلك للظالم ، وعينها بأسمائها منفصلة ، وإبطال لمن على المنابر ، وكان أهلهم قد اقتنوا الصياح ، وأخذوا كثيرا منها من أهل النمة بغير حق ، ففتح باب للناس وأعلن أن من كانت له ظلامة فليأت ، فأناه المظالمون ، وفيهم النصارى واليهود والموالي وغيرهم ، ومنهم من يشتكى اختلاس ماله ، وآخر اغتصاب ضيعته ، وكان ينصفهم بالحق والعدل ، ولو أن الحكم على ابنه أو أخوته أو أبناء عمه . فقال له بعضهم

وكيف تصنع بولدك؟ فبكي حنوا وقال: أكلهم إلى الله، وأخذ أموال أعمامه وأولادهم وسبها مظالم، فلما رأى أهل ذلك خافوا على سلطانهم وهو إنما قام بالمال، فاذا خرجت الضياع والأموال من أيديهم ذهب ضياعا، فمشوا إلى عمته فاطمة بنت مروان وشكوه إليها، فأنته، فقال لها: إن الله بعث محمدا ﷺ رحمة ولم يبعثه عذابا إلى الناس كافة.

ولما رأى الموالي عدله وتقواه، اغتنموا الفرصة، وشكوا إليه ما يقاسونه من النذل والضعف، وكان الجراح بن عبد الله الحكمي عامل خراسان قد أرسل إلى عمر بن عبد العزيز في الشام وفدا رجلين من العرب، ورجلا من الموالي، فتكلم العربيان، والمولى ساكت، فقال له عمر: ما أنت من الوفد؟ قال بلى، قال فما يمنعك من الكلام؟ فقال: يا أمير المؤمنين عشرون ألفا من الموالي يفزون بلاعطاء ولا رزق وصلهم قد أسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالجراح، وأميرنا بعد سيف من سيوف الحجاج قد عمل بالظلم والعدوان، فقال عمر: أحر بمثلك أن يوفد، وكتب إلى الجراح: انظر من صلى من قبلك فضع عنه الجزية، فرغب الناس في الإسلام، وتسارعوا إليه، فقيل للجراح: إن الناس قد سارعوا إلى الإسلام نفورا من الجزية، فاستمعهم بالختان. فكتب الجراح إلى عمر بذلك، فأجابه: إن الله بعث محمدا داعيا، ولم يبعثه خاتنا.

وفعل عمر نحو ذلك مع عامله على مصر حيان بن شريح، وكان حيان قد كتب إليه: أما بعد فإن الإسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الخارث بن ثابتة عشرين ألف دينار أتمت بها عطاء أهل الديوان، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعلى. فكتب إليه عمر: أما بعد فقد بلغني كتابك، وقد وليتك جند مصر، وأنا عارف بضعفك، وقد أمرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطا، فنبع الجزية عم من أسلم قبج الله رأيك، فإن الله بعث محمدا هاديا، ولم يبعثه جابيا، ولعمري لعمرا شقي من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه.

وقس على ذلك عماله الآخرين، فإنه عزل من لم يوافقهم منهم، فأصبحت الدولة ورجاها كلها ضده لأنه حاول إصلاح الأمور بالعنف دفعة واحدة والطفرة محال، وماني بن أمية وعمالمه إلا من كره ذلك منه فلم يصبروا على خلافته ثلاث سنوات، فقتلوه بالسلم، ويعتد المؤرخون من الخلفاء الراشدين، وإذا قالوا العمر بن أراوده وعمر بن الخطاب.

فقرى مما تقدم أن القواعد الأساسية التي قام عليها الإسلام تدعو إلى الانصاف والرفق، ولكنها تختلف مظاهرها باختلاف الذين يتولون شئونها، ولو أتى لعمر بن عبد العزيز أن يعيدها إلى ما كانت عليه في عهد ابن الخطاب لأمحت مظالم بني أمية، ولكنه جاء في غير أوانه، فذهب سعيه هدرا، ولما مات عدت الأمور إلى مجاريها، ورافقها رد الفعل، فصارت إلى أشد مما كانت عليه قبله، وبالغ العمال في الاستبداد والعسف وشدتوا في استخراج الخراج وزادوه حتى اضطر بعض أصحاب الأرضين إلى الاجباء أي أن يلجئوا أراضيهم إلى بعض أقارب الخليفة، أو العامل تعززا به من جباة الخراج كما سيأتي.

أما الخلفاء فانهم ازدادوا انقماسا في الترف، وأولهم يزيد بن عبد الملك فإنه اقتطع إلى اللهو والتجمل واشتغل عن مصالح الدولة بجاريته: سلامة وحبابة، وحديثهما مشهور، وخلفه أخوه هشام، وكان بخيلا، وفي أيامه زينت الضرائب في مصر على يد ابن الحبحاب كما تقدم، وجاء بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وكان مثل أبيه في اللهو والتجمل، فقتله أهله، ولولوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٦ هجرية، وكان عازما على إصلاح الأمور اقتداء بعمر بن عبد العزيز كما يؤخذ من خطاب ألقاه عند مبايعته، فأصابه من الفشل نحو ما أصاب عمر، لأن الأحوال غير ملائمة، وفي أيام خلفه مروان بن محمد تغلب بنو العباس وصارت الخلافة إليهم. وكان بنو أمية قد انغمسوا في الترف واللهو والتجمل، وأصبحوا لا ينظرون إلى ما يؤيد سلطانهم ولا يبالون

في انتقاء عمالهم ، وربما ولوا العامل عملا باشارة جارية ، أو مكافأة على هدية كما فعل هشام بن عبد الملك بالجند بن عبد الرحمن ، وكان الجند قد أهدى امرأة هشام قلادة من جوهر ، فأعجبت هشاما ، فأهدى هشاما قلادة أخرى ، فولاه هشام على خراسان سنة ١١١ هجرية ، وبلغ ثمن الجارية في أيام بني أمية (١٠٠٠٠٠٠٠٠) درهم ، وهي الذلفاء ، وأصبح العمال لا هم لهم إلا حشد الأموال ، والاستكثار من الصنائع والموالي ، ولم يعد أهل العدالة يرضون بولاية الأعمال مخافة أن يقصروا بلذال الذي يطلبه الخلفاء ، كما حدث ليزيد بن المهلب لما ولاه سليمان بن عبد الملك العراق ، فقال يزيد في نفسه : إن العراق قد أخربها الحجاج ، وأنا اليوم رجاء أهل العراق ، ومتى قدمتها وأخذت الناس بالخراج وعذبتهم عليه صرت كالخجاج ، أدخل على الناس الحرب (١) وأعيد عليهم تلك السجون التي قد عاقبهم الله منها ، ومتى لم أت سليمان بمثل ما جاء به الحجاج لم يقبل مني ، وقس على ذلك رأى غيره ممن يؤثرون الرفق ، فلم يرغب في الولايات إلا أهل المطامع ، وجعل الخلفاء من الجهة الأخرى يطعمونهم بالرواتب الفادحة ، فبلغ رزق يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق في أواخر أيام بني أمية ٦٠٠٠٠٠٠ درهم ، وكان العمال يبذلون جهدهم في اختزان الأموال لأنفسهم لعلمهم أن الولاية غير ثابتة لهم ، فسكرت أموالهم واتسعت ثروتهم ، فبلغت غلة خالد القسري أمير العراق في أيام هشام ١٣٠٠٠٠٠٠٠ درهم أي نحو مليون دينار ، فأصبح الخلفاء لا يعزلون غاملا عن عمله إلا حاسبوه على ما عنده من المال ، وكانوا في أيام معاوية يشاطرون العمال اقتداء بعمر بن الخطاب ، ثم صاروا يحاكمونهم ويستخرجون كل ما اتصل إليه معرفتهم كما فعلوا بخالد القسري ، إذ وثق به كاتبه حبان النبطي أنه فرق ٣٦٠٠٠٠٠٠ درهم ، فبعث هشام إليه من أخرج معظم هذا المال منه ومن عماله ، ويسمون هذا العمل استخراجا ، وكانوا يستخدمون الشدة فيه ، فوقع بين العمال والخلفاء تنافر زاد الخطر على دولة بني أمية .

وقد كان متوسط جباية العراق في أيامهم نحو ١٣٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، وجباية مصر ٣٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، أو ٣٦٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، وجباية الشام ١٧٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، أو ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم . فيكون ارتفاع هذه البلاد نحو ١٨٦٠٠٠٠٠٠٠ درهم يضاف إليه أموال البلاد الأخرى مما لا تعرف مقداره . انتهى
هذا بعض أفعال هذه الدولة ، فسقطت وذهب كأس الدابر ، وهذا عذاب الخزي في الحياة الدنيا المذكور في هذه الآية .

دولة بني العباس والاسراف فيها

هذه النبوة لها عصران : عصر ذهبي عظيم من أول نشأتها سنة ١٣٣ هجرية الى آخر أيام المأمون سنة ٢١٨ هجرية ، والعصر الثاني وهو عصر للنهقر والانعطاط ، ويتدى بخلافة المعتصم سنة ٢١٨ وينتهي بإقتضاء الدولة العباسية .
فاظنرأبها الذكي إسراف الخلفاء ونسأهم ، فقد جاء في كتاب « تاريخ تمدن الاسلامي » أنهم انهمكوا في البذخ والاسراف والتبذير والترف ، فافتنوا الجوارى ، واتخذوا الفرس ، من الخنز والديباج والحرير والمسامير الفضة ، وابتنوا المنزهات ، والقصور ، والمدن ، واقتنوا الندماء ، وأنشوا مجالس الغناء ، وارتكبوا سائر ضروب الترف والتأنق بالطعام واللباس والريش ، وقد سهل عليهم ذلك تقرب عهد العراق وفارس من بدخ الفرس قبيل الفتح الاسلامي ، وأطلقوا أيدي نسأهم ، وأمهاتهم ، وخاصتهم ، في الأموال .

ثروة نساء الخلفاء

لم يتزوج السفاح إلا امرأة واحدة ، وقبل أن يتوفى المنصور أوصى ابنه المهدي أن لا يشرك النساء في أمره ، ومع ذلك فإن الخيزران أم الرشيد كانت هي صاحبة الأمر والنهي في أيام الهادي وأيامه ، وكان وزيره تحت أمرها ، فأقصى نفوذها إلى حشد الأموال لنفسها ، حتى بلغت غلتها في العام (١٦٠٠٠٠٠٠) درهم ، وذلك نحو نصف خراج المملكة العباسية لذلك العهد ، وغلة أعظم متمولى العالم اليوم لانه يزيد على ثلثي هذا المال ، فقد ذكروا أن إيراد « روكفلر » الفنى الأمريكى الشهير نحو (١٠٠٠٠٠٠) جنيه في السنة ، وغلة الخيزران أكثر من ١٠٠٠٠٠٠٠ دينار وقيمة النقود كانت تساوى ثلاثة أضعافها اليوم ، والدينار نصف جنيه ، فتكون غلة « روكفلر » نحو ثلثي غلة الخيزران ، وكانت الخيزران مع ذلك شديدة الوطأة ، رغبة في الاستئثار ، فلما آذنت في ابنها الهادي معارضة لارادتها ، دست إليه من قتله ، ولملمات توسع الرشيد بأموالها ، وأقطع الناس ضياعها .

على أن الخيزران كانت من أهل العلم والرأى ، فلا غرابة في اقتنائها الأموال في إبان الثروة العباسية ، إنما الغرابة في اقتناء أمهات الخلفاء الأموال الكثيرة في عصر الانحطاط وبيت المال فارغ ، فإن قبيحة أم المعتز وجدوا لها من محبات في السهاليز ونحوها نحو (٢٠٠٠٠٠٠) دينار نقدا ، ومالا تقدر قيمته من النصف والجواهر مما نأتى بذكره على سبيل المثال ، من ذلك مقدار مكوك من الزمرد النجيني ونصف مكوك لؤلؤ كبير ونحو كيلجة باقوت أحر مما قدرها قيمته (٢٠٠٠٠٠٠) دينار ، وكانت مع ذلك قد عرضت ابنها للقتل من أجل (٥٠٠٠٠) دينار .

وأغرب من ذلك شأن أم محمد بن الوائى ، فقد كانت غلتها (١٠٠٠٠٠٠٠) دينار في العام ، تنفقها في جواربها وهي نحو غلة الخيزران ، وأخرجوا من تربة والده المقتدر ٦٠٠٠٠٠٠ دينار ، كانت محبأة هناك ولم يعلم بها أحد مع ضيق الخليفة ، وفراغ بيت ماله . وقس على ذلك أمهات الخلفاء الآخرين في العراق وغيره من بلاد الاسلام ، فقد سكن مجتمع بالفوذ ويستولين على الأموال بالتواطؤ مع القواد ورجال الجند بما يتاح لهم من إطلاق الأيدي في أمور الدولة كما فصل المستعين العباسى (٢٤٩ هـ) فانه أطلق يد والده وبد انامش وشاهك الخادم في بيوت الأموال وأباحهم فعل ما أرادوا ، فكانت الأموال التي ترد من الآفاق يصير معظمها إلى هؤلاء الثلاثة .

فلا عجب والحالة هذه اذا تحول الفنى الى النساء والخدم والقواد (وهل تستغرب بعد ذلك إذا علمت أنه كان بين ريش أم المستعين بساط أفتقت على صنعه (١٣٠٠٠٠٠٠) دينار (ربما درهم) فيه نقوش على أشكال الحيوانات والطيور ، أجسامها من الذهب ، وعيونها من الجواهر) . أو اذا قيل لك : إن فلانة حشت فم الشاعر الفلانى ذرا فباعه بعشرين ألف دينار . أو اذا سمعت بهدايا قطار الندى وغيرها من نساء الخلفاء . ناهيك بما كان في بلاط الخلفاء العباسيين وغيرهم من التهرمانات اللواتي كن يتولين شئون دور الخلفاء والنفقة عليها بالاتفاق مع الوزير أو من ينوب عنه ، فكان هؤلاء النساء نفوذ عظيم في قصور الخلفاء وفي أعمال الدولة ، كما كانت تفعل أم موسى التهرمانية في أيام المقتدر في أوائل القرن الرابع للهجرة ، ولم يكن لأولئك التهرمانات سبيل للاتفاق لولا ما فى قصور الخلفاء من الجوارى والخدم وغيرهم (١) .

(١) إن هذا القول منقول من كتاب « تاريخ تمدن الاسلامى » ، وقد عزاه إلى المؤلفين المشهورين وكثيرهم مثل : (١) المقرئى (٢) الجزء الأول من كتاب تمدن الاسلامى (٣) ابن الأثير (٤) العزرى (٥) ابن عساكر نسخة كرايمر (٦) كتاب الخراج لأبى يوسف (٧) البغوى (٨) المستطرف (٩) المسردى (١٠) الماوردى (١١) ابن الفقيه (١٢) الطبرى (١٣) القرماتى .

الجواري والعلمان

وفي مناقب المنصور (صفحة ١٠٤) : انه لما علم بوجود الطنبور في داره كسره على حامله ، ولكن بعض على موته أربعون سنة حتى أصبحت دور الخلفاء مسرحا للغناء واللهو ، قالوا انه كان في قصر الرشيد ثمانمائة جارية مابين جنسية إلى عودية ، إلى دفية ، إلى قانونية ، إلى زامرة ، إلى مغنية ، إلى راقصة ، إلى سنطيرية ، فضلا عن كان في قصره من الندماء والمضاحكين كالشيخ أبي الحسن الخليج الدمشقي (١) وابن أبي مرزم المدني (٢) وغيرهما ، ومانن جارية إلا وثمها ألف دينار ، أو عشرة آلاف دينار (٣) إلى مائة ألف دينار غير ما يقتضيه اقتناؤهن من النققات الأخرى كالألبيسة والحلي وهي شيء كثير ، فقد اشترى الرشيد ثمانمائة ألف دينار (٤) وقس على ذلك .

ناهيك بما كانوا يقتنونه من الممالك والعلمان بما يعدون بالمئات والالوف ، فقد بلغ عدد خدم المقتدر (١١٠٠٠٠) خصي من الروم والسودان (٥) غير ما يقتضيه ذلك من الأبنية والقصور والرياش ، فقد بنى المعز دارا في بغداد أنفق عليها ١٣٠٠٠٠٠٠ درهم (٦) وبنى الأمين قصورا في الخيزرانية أنفق عليها ٢٠٠٠٠٠٠٠ درهم (٧) وامطنع في دجلة خمس حراقات (سفن) إحداها على صورة الأسد ، والثانية بصورة الفيل ، والثالثة بصورة العقاب ، والرابعة بصورة الحية ، والخامسة بصورة الفرس أنفق عليها مالا عظيما ، وفيها يقول أبو نواس :

سخر الله للأمين مطايا * لم تسخر لصاحب الحراب
فإذا مار ككابه سرن برًا * سار في الماء راكبا لثغاب
عجب الناس إذ رأوك على صو * رة لث تمر من السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه * كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجناح * ون تشق العباب بعد العباب
نسب الطير في السناء إذا ما * تجلواها بجيئة وذهب

وعما يحسن إرادته مثلا على بذخهم أن الأمين المذكور أمر يوما أن يفرش له على دكان في الخلد ، فرش عليها بساط ذريعي وعمارق وفرش مثله وهي من آنية الذهب والفضة والجواهر أمر عظيم ، وأمر قبة جواريه أن تهبي له مائة جارية ضاحكة ، فتصعد إليه عشرا عشرا بأيديهن العبدان يغنين بصوت واحد فضلت (٨) انتهى من كتاب « تاريخ الخلفاء المسلمين »

فلما سمع صاحبي ذلك ، ضرب كفا على كفة ، وقال : أنا قرأت التاريخ في المدائن وفي الكتب ، ولكني والله لم أعلم ما علمته اليوم ، إن التفصيل يفعل مالا يفعله الأجمال ، وكيف يقتني المقتدر ١١٠٠٠٠ من خصي الروم والسودان ، وكيف تكون الحياة كلها حياة اسراف ، وما هذا الاسراف في الطعام والشراب ، هذا والله هو التفسير الحقيقي للقرآن ، حكمة الفلاسفة قبل ظهور القرآن وظهور الآثار في أم الإسلام بعد ذلك

لطيفة

إن ما كان ينفقه الخلفاء إنما كان من بيت المال ، لأنزى أن يحيى بن خالد البرمكي أمره الرشيد أن

- (١) إعلام الناس ٩٧ - (٢) الطبري ٧٤٣ ج ٣ - (٣) ترتيب الدول ١٢٦ - (٤) ابن الأثير ٤٤ ج ٦ - (٥) الفجرى ٢٣٤ - (٦) ابن الأثير ٢١١ ج ٨ - (٧) ابن الأثير ١١٢ ج ٦ - (٨) ابن الأثير ١٢٠ ج ٦

يدفع ثمن الجارية ١٠٠٠٠٠٠ دينار ، فاستكثره واعتذر عن دفعه فغضب الرشيد ، فأراد يحيى أن يبين له مقدار ما يتحمله بيت المال من هذا الاسراف فيما لا مصلحة للدولة فيه ، فجعل ذلك المال دراهم ، فبلغت نحو ١٥٠٠٠٠٠٠ درهم ، فوضعها في الرواق الذي يمر به الرشيد إذا أراد الوضوء ، فلما رأى الرشيد ذلك المال استكثره ، ولما أخبروه انه ثمن الجارية أدرك إسرافه ، ولكنه شعر بما في ذلك من الجرأة عليه ومخارطة غلّ بديه ، فحفظ ذلك في نفسه ، ويقال انه كان من جملة ما حمله على نكبة البرامكة (١) .
واتفق نحو ذلك للوائق بالله مع وزيره ابن الزيات في ثمن جارية ، فلما مطل الوزير بالدفع أمره أن يدفع ضعفين ، ففعل (٢) .

وفي كتاب سفيان الثوري إلى الرشيد جوابا على كتاب استدعاء به إلى بغداد ما يشبه كلام أبي ذر الغفاري لمعاوية ، وبدل على أن الرشيد كان يهب ويحيز من بيت مال المسلمين ، وذلك أن الرشيد دعاه بكتاب بعثه إليه في الكوفة ، وأخبره أن الناس قدموا إليه ، وأنه فتح بيوت الأموال ، وأعطاهم من المواهب السنية الخ . فأجابه سفيان بكتاب شديد اللهجة ، وفي جملة ذلك قوله : « أما بعد فاني كتبت إليك أعلمك اني صرمت جملك ، وقطعت وذك ، وانك قد جعلتني شاهدا عليك باقرارك على نفسك في كتابك ، انك هجمت على بيت مال المسلمين ، فأنتقته في غير حقه ، وأنتقذته بغير حكمة ، ولم ترض بما فعلته وأنت ناه عنى حتى كتبت اليّ تشهدني على نفسك ، فأما أنا فاني قد شهدت عليك أنا واخواني الذين حضروا كتابك وسؤدي الشهادة غدا بين يدي الله الحكم العدل ، ياهرون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم ، هل رضى بفعلك المؤلفه قلوبهم ، والعاملون عليها في أرض الله ، والمجاهدون في سبيل الله ، وابن السبيل ؟ أم رضى بذلك حلة القرآن وأهل العلم (يعني العاملين) ؟ أم رضى بفعلك الأيتام والأرامل ؟ أم رضى بذلك خلق من رعيتك ؟ (٣) . فهذا وأمثاله يدل على أن الخلفاء كانوا يهبون ويحيزون ويبدخون ويسرفون من بيت المال .

ومن هذا القبيل استكثر رجال الدولة بالأموال لأنفسهم ، فإن الدولة اذا بلغت إلى قمة ثروتها ، وانفس الملك في الترف والقصص وتقاعد عن مباشرة الأحكام بنفسه تحوّل النفوذ إلى المحيطين به ، أو الذين يتوهمون عند ، أو يتوسطون بينه وبين الناس كالوزير والعامل والكتاب والحاجب والقائد ، وأصبح الأمر والنهي في أيديهم ، فيستأثرون بالأموال لأنفسهم يجمعون منها ما استطاعوا ويسرفون ويبدخون على ما تقتضيه أحوالهم وأطوارهم ، ولا يكون ذلك إلا في الدولة المطلقة التي ليس على أعمالها مراقب ولا محاسب ، فمن ينوب عن الملك من الوزراء أو الكتاب أو الحاجب في عصر الترف والتقاعد يكون له نحو ذلك النفوذ ، وخصوصا في مثل الدولة العباسية ، لأن وزراءها وكتابها من أمة لم تقم دولتهم إلا بها ، ولم يزه تمدنهم إلا بعلمائها ، ولذلك كان للوزراء في هذه الدولة الكلمة التافذة ، والسيف القاطع ، حتى في إبان تمدنها ، اعتبارا كان من نفوذ البرامكة في أيام الرشيد ، وما كان من اسرازم الأموال لأنفسهم ، حتى كان يحتاج الرشيد إلى اليسير من المال فلا يقدر عليه (٤) فلما غلوا يديه عما كانت تتطلبه نفسه من الترف والاستبداد (٥) نكبهم على ما هو مشهور كما نكب المهدي قبله وزيره يعقوب بن داود ، وكان قد استوزره ، وسلم إليه الامور ، وفوض اليه السواوين ، وانشغل المهدي عنه باللهو ، وسماح الأغاني ، فعظم ذلك على الناس ، وخصوصا العرب ، فهجوا يعقوب ، ومن ذلك قول بشار بن برد :

بنى أمينة هبوا طال نومكم * إن الخليفة يعقوب بن داود

(١) الطبري ١٣٣٢ ج ٣ - (٢) ابن الأثير ١٣ ج ٧ - (٣) الدميري ١٨٨ ج ٢

(٤) المسعودي ٢٠١ ج ٢ - (٥) الطبري ١٣٣٢ ج ٣

ضاعت خلافكم يقوم فالتمسوا * خلافة الله بين الناي والعود (١)

وروى بعض الناس إلى المهدي بذلك ، فاستدعاه ، وقبض عليه ، وسجنه ، وقل في سجنه أعباء طويلا وكما اتفق للمأمون مع يحيى بن أكرم القاضي إذ عهد إليه بتدبير مملكته وأكرمه نحو أكرام الرشيد للبرامكة (٢) ، ثم لم يكن راضيا عنه ، ولذلك لما دنت وفاة المأمون ، أوصى أخاه المعتصم قائلا : « لا تنصن وزيراً تلقى إليه شيئا ، فقد علمت مانكبي به يحيى بن أكرم في معاملة الناس ونسب سيرته » (٣) . وكان العرب يكرهون الوزراء ، خصوصا لأنهم في الغالب من القرس ، وكانوا يصفونهم بالجبن والبخل وقبول الرشوة قال اعرابي يصف وزيرا :

ومظهر نسك ماعليه ضميره * بحب الهدايا بالرجال مكور

اخال به جينا وبخلا وشيمة * تخبر عنه انه لوزير (٤)

على أن الوزراء كثيرا ما كانوا يمنعون المال عن الخلفاء ضا بيت مال المسلمين أن يذهب في الاسراف لاطمئانه لأتصهم ، كما اتفق للوائق مع وزيره ابن الزيات إذ أجه صوت غنته جارية اسمها « علم » فأمر لصاحبها بخمسة آلاف دينار ، فغل ابن الزيات في دفعها ، فغضب الواثق ، وأمره أن يدفع ضعف ذلك المال ، فدفع إليه ١٠٠٠٠ دينار (٥) وكان الوزراء يزدادون نفوذا واستئثارا بالمال بزيادة ضعف الخلفاء ، حتى صارت معظم الأموال إليهم .

الوزراء

بلغ من ثروة الوزراء ما يشبه ثروة الخلفاء ، أو بيت المال في أيام الزهوكأن الأموال تحوالت من بيت المال إلى بيوت هؤلاء الناس ، وصارت الوزارة مطمح أنظار أهل المطامع يذلون الرشا ، ويقدمون الهدايا رغبة فيها ، على أنها كثيرا ما كانت تعرض عرضا على من يقوم بنفقات الجند (٦) ولكن الطلب أن تبذل الأموال في سبيل الحصول عليها لما رأسا إلى الخليفة كما فعل ابن مقلة إذ بذل ٥٠٠٠٠٠ دينار حتى استوزره الراضي في أوائل القرن الرابع للهجرة ، وكما فعل ابن جهمر إذ ابتاع الوزارة من القائم بأمر الله بمبلغ ٣٠٠٠٠٠ دينار (٧) أو بواسطة واحد من خاصة الخلفاء يستخدمونه بالمال ، وهم لم يكونوا يفعلون ذلك إلا لاعتقادهم أنهم يسترجعون في أثناء وزارتهم أضعاف ما بذلوه بما تصل إليه أيديهم من الرشوة من تولية العمال والنظار والكتاب وغيرهم .

ومن غريب ما يحكى عن ارتشاء الوزراء أن الخاقاني وزير المقتدر بلغ من سوء سيرته في قبول الرشوة انه ولى في يوم واحد تسعة عشر ناظرا للكوفة ، وأخذ من كل واحد رشوة ، فاعتصروا واحدا واحدا حتى اجتمعوا جميعا في بعض الطريق ، فقالوا كيف صنع ؟ فقال أحدهم : ينبغي ان أردتم النصفة أن ينحدر إلى الكوفة آخرنا عهدا بالوزير ، فهو القتي ولايته صحيحة لأنه لم يأت بعده أحد ، فاتفقوا على ذلك ، فتوجه الرجل الذي جاء في الأخير نحو الكوفة ، وعاد الباقيون إلى الوزير ، ففرقهم في عدة أعمال ، وهجاه بعض الشعراء بقوله :

وزير لا يعمل من الرقاعه * يولى ثم يعزل بعد ساعه

ويدنى من نجل منه مال * ويبعد من توسل بالشفاعه

(١) الفخرى ١٦٦ - (٢) ابن خلكان ٢١٧ ج ٢ - (٣) الطبري ١١٣٩ ج ٣

(٤) الطبري ١٠٨٨ ج ٣ - (٥) ابن الأثير ١٣ ج ٧ - (٦) ابن الأثير ٨٣ و ٨٦ ج ٨

وصلة تاريخ الطبري ٧٩ - (٧) الفخرى ٢٥٣ و ٢٦٦

إذا أهل الرشا صاروا إليه * فأسخطى القوم أوفرهم بضاعة (١)

وكانت الأموال ترد على الوزراء من العمال وغيرهم من موظفي الدولة ضريبة في كل علم بصفتها هدية استبقاه لرضاهم . على أن بعضهم ، وهونادر ، لم يكن يقبل الرشوة ، ولا يعمل إلا بالحق مثل عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل على الله فإنه كان عفيفا ، ذكر الفخري أن صاحب مصر حمل إليه ٢٠٠.٠٠٠ دينار وثلاثين سقفا من الثياب المصرية على عادته مع غيره من الوزراء ، فلما أحضرت بين يديه ، قال نوكيل صاحب مصر : « لا والله لا أقبلها ، ولا أتقبل عليه بذلك » ، ثم فتح الأسفاط ، وأخذ منها مندبلا وضعه تحت نفسه وأمر بلال حمل إلى خزانة الديوان وصحح بها وأخذ به دورا لصاحب مصر (٢)

ومن الوزراء الذين اشتهروا بالعبث وصدق الخدمة على بن عيسى وزير المقتدر ، ولا يخفى أن يكون غيرهم قد أخلص الخدمة ، ولكن يقال بالاجمال أن الوزراء في عصر التمهيد العباسي فلما كانوا يتولون الوزارة إلا طمعا باختران الأموال ، فإن أبا الحسن بن الفرات وزير للمقتدر ثلاث دفعات : الأولى سنة ٢٩٩ هجرية بقي فيها ثلاث سنين ، فكان مقدار ما اجتمع عنده من المال يساوي ٧٠٠.٠٠٠ دينار أخذت كلها مصادرة ، ثم عاد إلى الوزارة سنة ٣٠٤ وخلع سنة ٣٠٦ ثم عاد ثالثة سنة ٣١١ وخلع سنة ٣١٢ هـ فجمعوا المدة التي مكث بها في الوزارة في الدفتين الأخيرتين نحو ثلاث سنوات ، فكان عنده لما خلع أخيرا ما يزيد على ١٠٠.٠٠٠ دينار ، وضياح يستغل منها كل سنة ٢٠.٠٠٠ دينار (٣) ومع ذلك لم يذكره المؤرخون بسوء لفرط كرمه واحسانه ، وكان إذا ولي الوزارة يفلو الثلج والشمع والكافور لكثرة استعماله له لأنه ما كان يشرب أحد كائنا من كان في داره في الفصول الثلاثة إلا الماء المتلوح ، ولا كان أحد يخرج من عنده بعد الغروب إلا وبين يديه شمعة كبيرة قبة ، وكان في داره حجرة معروفة بحجرة الكافور ، كل من دخلها واحتاج إلى شيء منه أخذته (٤) وكان يطلق لأصحاب الحديث عشرين ألف درهم ، وللشراء عشرين ألف درهم ، ولأصحاب الأدب عشرين ألف درهم ، وللنقهاء عشرين ألف درهم ، وللصوفية عشرين ألف (٥) وكان يجري الرزق على خمسة آلاف من أهل العلم والدين والبيوت والفقراء وأكثرهم ١٠٠ دينار في الشهر ، وأقلهم خمسة دراهم وما بين ذلك (٦) ، ففطى الكرم طمعه كما أعطى طمع البرامكة قبله ، وقطع السنة الشراء ، وكسر أقلام المؤرخين .

وهناك كثيرون من الوزراء جمعوا أموالا طائلة ، وانغمسوا في أنواع الترف والبنخ ، وذلك طيبى في الدول المنتظمة على الطرق القديمة ، لأن الوزراء كانوا يجمعون الأموال الكثيرة حيثما كانوا في العراق ، أو في مصر ، أو في الأندلس ، فقد خلف المارداني وزير بني طولون بمصر من الضياح الكبار ما قلنا ملكه أحد قبسه وارثها ٤٠٠.٠٠٠ دينار كل سنة سوى الخراج ، وقد وهب وأعطى وأفضل ، وحج ٢٧ حجة أنفق في كل منها ١٥٠.٠٠٠ دينار (٧) . ويقصوب بن كاس أول وزراء الفاطميين كان في جلة أملاكه أقطاع في الشام دخله ٣٠٠.٠٠٠ دينار في السنة ، وخلف أملاكه وضياعا وقياسا ورباها وخيلا وبغالا ونوقا ، وغير ذلك ما قيمته ٤٠٠.٠٠٠ دينار غير ما أنفقته في تجهيز ابنته وهو ٢٠٠.٠٠٠ دينار ، وخلف ٨٠٠ حظية سوى جواري الخدمة ، وأربعة آلاف غلام عرفوا بالطائفة الوزيرية (٨) وخلف الأفضل أمير الجيوش وزير المستنصر الفاطمي ما لم يسمح بمثله وذلك ٩٠٠.٠٠٠ دينار عينا (٩) ٢٥٠٠ أردب دراهم

(١) الفخري ٢٤١ - (٢) الفخري ٢١٦ - (٣) ابن خلكان ٣٧٢ ج ١

(٤) الفخري ٢٤٠ - (٥) ابن الأثير ٥٧ ج ٨ - (٦) ابن خلكان ٣٧٢ ج ١

(٧) المقريزي ١٥٥ ج ٢ - (٨) المقريزي ٦ ج ٢

(٩) وهو في الأصل ستائة ألف دينار ، ولا بد من خطأ تطرق إلى نصه ، إذ لا يمكن أن يجمع هذا

نقد مصر ، و ٧٥٠٠٠٠ ثوب ديباج أطلس و ٣٠٠ راحلة احتاق ذهب عراقى ، ودواة ذهب فيها جوهر قيمته ١٢٠٠٠٠ دينار ، ومائة مسبار من ذهب وزن كل مسبار مائة مثقال فى عشرة مجالس فى كل مجلس عشرة مسابير على كل مسبار منديل مشدود مذهب بلون من الألوان أيضا أحب ليه ، و ٥٠٠ صندوق كسوة ماعدا اثليل والبغال والمشاة والجوارى والعبيد مالا يحصى عد (١)

وقس على ذلك أحوال الوزراء فى الأندلس فان هدية الوزير ابن شهيد لعبد الرحمن الناصر سنة ٣٣٧ هجرية تدل على مقدار تلك الثروة ، فقد أوردها ابن خلدون والمقرئ ، وفصلها هذا الأخير تفصيلا حسنا فى ثلاث صفحات كبيرة (٢)

وحديث نحو ذلك فى الدولة العثمانية فى ابان ثروتها ، فكان الوزراء يقتنون الضياع الواسعة ، ويحتالون فى استغلالها بأن يقفوها على بعض المساجد ، بشرط أن يستولى ورثتهم على معظم ريعها ، ليخلصوا أنفسهم من خراجها ، أو عشورها !

أما الأبواب التى كان وزراء الدولة العباسية يكتسبون تلك الأموال بها فكثيرة ، من جعلتها قبول الرشوة فى التوظيف كما تقدم وما يرد عليهم من هدايا العمال للسبب نفسه ، ومنها اغتصاب الضياع بما لم من النفوذ فيستولون على ماشاؤها بغير حساب ، ناهيك بما كانوا يمتدون إليه أيديهم من أموال الخراج الواردة إلى الديوان ، وقد تقدم أن طرق دقات تلك الأيام لم تكن تمنع الاختلاس أو ظفهره .

ومن أبواب الكسب أيضا أن بعض الموظفين كانوا يحتاجون إلى رواتبهم وهم مشغولون بما هم فيه من الخدمة ولا سبيل لهم إلى المال فكان بعض الوزراء يقيم من قبله أناسا يشتركون توقيعات أرزاق أولئك الموظفين بنصف قيمتها ثم يقبضها هو كاملة (٣) وكانوا يفعلون نحو ذلك أيضا فى رواتب الفقهاء وأرباب الميوت فكانهم كانوا يقاسمون الناس على أنصاف رواتبهم ، وهو أبحر رواتب الموظفين فضلا عن تجارهم بالأرزاق وعمما كانوا يكتسبونه ممن يضمن بلدا أو خراجا على سبيل الرشوة أو الاقسام ، وما كانوا يفتسبون من البطر بنفوذهم وإغضاء الخلفاء عنهم (٤) . وكانوا يسمون ما يكتسبه الوزراء على هذه الصورة « صرافى الوزراء » وكانت مشهورة بين الناس ، ومن صرافهم أيضا تنقيص عيار النقود ، فكانوا يضربون الدينار ناقصة ، فيربحون من ذلك مالا طائلا (٥)

تلك كانت حال الوزراء ، وفى أيديهم الحل والعقد ، ومع ذلك فأنخلفاء هم المطالبون بأرزاق الجند ، وقد علمت ما كان من أمر الأتراك واستبدادهم فى الخلفاء ومطالبتهم بالأموال لأرزاقهم ونفقاتهم فلم يكن يرى الخلفاء سبيلا إلى ذلك إلا بمطالبة الوزراء ، فإذا لم يدفعوا أخذوا المال منهم بالقوة ، وهو ما يسمون عنهم بالصادرة ، وكانت المصادرة راجحة فى عصر التمهقر إذ لم يكن من سبيل إلى سد نفقات الدولة إلا بها ، ولا يكاد يتولى وزير إلا انتهت وزارته بالمصادرة أو بالقتل أو بهما جميعا اه

هنالك أعجب صديقى بهذه الأخبار إعجابا شديدا ، وانشرح صدره ، ولكنه قال : إن مصادر هذه الأخبار كتب مختلفة ، وبعضها كتب محاضرات وحكايات . فقلت نعم ، ولكنه على كل حال يدل على حال القوم إذ ذاك بحملته لا يتفصيله . قال : فأرجو أن تبين لى حاله ورواة أهل المملكة فى ذلك الزمان . فقلت : جاء

المال عند واحد ، وهو يتوق بمجموع خراج مصر لثلاثة سنة ، فالأرجح أن يكون المراد ستين ألف ألف دينار كما قلنا ، ويستبعد أن يكون المراد دراهم بدل دنانير ، لأن أموال مصر قلما تقدرت بأكثر من

(١) ابن خلكان ٢٢٢ ج ١ - (٢) نصح الطبيب ١٦٨ ج ١ - (٣) ابن الأثير ٨٤ ج ٨

(٤) الطبرى ٧٠٣ ج ٣ - (٥) ابن الأثير ١٤٩ ج ٨

في كتاب « تاريخ التمدن الاسلامي » مانصه :

« كانت المدينة محصورة في المدن دون القرى عملا بتعادة التمدن في تلك الأيام وهي أن تكون الثروة والأبهة حينما يكون ولاية الأمر أو من يلوذ بهم من الخليفة إلى أهله ، فأهل بلاطه فعمله ووزرائه ، وهؤلاء كانوا يقيمون في المدن ، وخصوصا المواسم ، ولتلك عمرت بغداد والبصرة ودمشق والقنطاط والقاهرة والقبروان وقرطبة وغرناطة ونحوها ، وظلت القرى والضياع مغارس لاعمارها فيها . ولا تكاد تجد أثرا من آثار ذلك التمدن في غير المدن .

ففي هذه المدن فاضت ينابيع الثروة الاسلامية وعاش الناس في الرخاء والرخد بجوار الخليفة ، ورجال دولته ينالون جوائزهم وهداياهم وخلقهم ويبيعونهم السلع والمجوهرات والأقنعة ، وفي هذه المدن كان يجتمع العلماء والشعراء والمقنون والندماء يتعشون بما يجود به الخليفة ، أو أمراؤه ، أو رجال دولته .

فلما كان بلاط الرشيد غاصا بالوفود ، وبيت ماله حافلا بالثقود ، والبرامكة يذلون المئات والالوف ، كان تجار بغداد في نسمة وثروة ، وخصوصا باعة المجوهرات والرياش لأنهما مما تتطلبه المدينة في عهد الترف والبلذخ فقد رأيت في بعض ما تقدم أن جوهريا بالكركخ في بغداد سارمه يحيى البرمكي على سفظ من الجوهر بمبلغ ٧٠٠٠٠٠٠ درهم فلم يبعه ^(١) وهو جزء مما في حانوته فما قولك بسائر ما فيه ، وهناك جوهرى آخر يقال له ابن الجصاص صادره الخليفة المقدر سنة ٣٠٢ هـ فكان ما أخذه من بيته من صنوف الأموال تزيد قيمته على ٤٠٠٠٠٠٠ دينار ^(٢) وكان في بغداد شريف يسمى محمد بن عمر بلغ خراج أملاكه ٤٠٠٠٠٠٠ درهم في السنة ^(٣)

وقس على ذلك سائر التجارات في بغداد وغيرها ، فقد كان في اصطخر بيت ينتسب إلى آل حنظلة أحدهم عمرو بن عيينة ، بلغ من يساره أنه ابتاع بليون درهم مصاحف فرقها في مدن الاسلام ، وكان مبلغ خراج هذا البيت من ضياعهم نحو ١٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، ومنهم مرداس بن عمر كان خراج ماله ٣٠٠٠٠٠٠٠ درهم وابن عمه محمد بن واصل ملكه مثل ملكه ^(٤) . وكان في سمرقند تجار واسمو الثروة بجوز مال أحدهم ٦٠٠٠٠٠٠٠ درهم اكتسبها من تجارة البحر من العود والكافور والعود والجواهر والخيزران والجاج والآبنوس والفلل وغيرها ^(٥) ، ومنهم من يبنى دارا فينشق على بنايتها ٣٠٠٠٠٠٠ دينار ^(٦) وأوصى أحدهم بثلاث ماله لعمل فبلغ ١٠٠٠٠٠٠٠ دينار بين مركب قثم بنفسه وآلته ^(٧) ، وأمثال ذلك كثير في معظم مدن المشرق .

وقس عليه ثروة كل من خالط الخلفاء ونال جوائزهم ، أو خدمهم في بلاطهم في ابان ثروتهم غير الوزراء والكتاب والعمال فانهم جمعوا أموالا طائلة حتى المفقين والشعراء ، فقد توفي ابراهيم الموصلي مفتي الرشيد عن ثروة مقدارها ٤٤٠٠٠٠٠٠ درهم ^(٨) ، وتوفي جبريل بن يحيى شيوخ طيب الرشيد وخلف مايساري ٩٠٠٠٠٠٠٠ درهم من ضياع وجواهر وثقود .

واعتبر ذلك في سائر البلاد والأحوال ، فتجد الثروة كانت في الغالب عند الخلفاء ، أو من ينتمى إليهم ، حتى التجار فانهم إنما كانوا يأمنون على ثروتهم بالانجاء إلى أولى الأمر إلا نادرا .

(١) الطبرى ٧٠٢ ج ٣ - (٢) ابن الأثير ٣٣ ج ٨ - (٣) ابن الأثير ٢٠ ج ٩

(٤) الاصطخرى ١٤٢ - (٥) الاصطخرى ١٥٤ - (٦) ابن حوقل ١٩٨

(٧) ابن حوقل ٢٠٧ - (٨) سير الملوك ١١٣

القرى

أما القرى فقد كان سكانها الفلاحين من أهل البلاد الأصليين ، ويسمونهم « أهل النراج » ، فهؤلاء يعملون بالأجرة ، أو شركاء لأصحاب الأملاك من الخلفاء ، أو الأمراء ، أو من ينتمي إليهم من الأعيان ، وخصوصا الدهاقين في العراق وفارس وهم أصحاب الاقطاعات الكبرى قبل الاسلام . فلما كان الاسلام تقرّبوا من الحكومة بأموالهم (١) ونفوذهم في أهل بلادهم ، وبندران يكون للفلاحين ملك خاص بهم لأسباب تقدم بيانها ، فكان القرى هم الفلاحون ، ومن يجزى مجراهم ، وكانوا يقتنعون بالحصول على ما يقوم بأود حياتهم ، ويغلب فيهم الفقر المدقع ، وربما كان بينهم من لم ير الدينار طول عمره ، فكان أهل الدولة في المدن يبذلون الدنانير جزافا ، وبهيوتها ماث وآفا ، وأهل القرى في فقر مدقع ، لو رأى أحدهم الدينار لسجد له وقبلة مثنى وثلاث ، ولودفعت إليه عشرة دنانير أو عشرين لأصابه خبل ، أو مات من ساعته كما انفق للصيد بين يدي ابن طولون أمير مصر في أواسط القرن الثالث للهجرة ، وهو مشهور بكرمه وبذخه بما أنشأه من القصور والقباض والاسطبلات ، وكان ينفق كل شهر ألف دينار على الفقراء ، وهو الذي جاء وكيله يوما ، فقال : « اني تأتيني المرأة وعليها الازار ، وفي يدها خاتم الذهب ، فتطلب مني فأعطيها » . فقال له : « من مديده إليك فأعطه » (٢)

ومع ذلك فإن هذا الأمير نفسه ركب في غداة باردة إلى جهات القس بجوار النسطاط ، فأصاب بشاطئ النيل صيادا عليه خلق لا يواريه منه شيء ، ومعه صبي في مثل حاله ، وقد ألقى الشبكة في البحر ، فلما رآه ابن طولون رقى خاله ، وقال : يا نسيم ادفع إلى هذا عشرين دينارا ، فدفعها إليه ، ولحق ابن طولون ، فسار ولم يبعد ، ورجع فوجد الصياد ميتا ، والصبي يبكي ويصيح ، فظن ابن طولون أن بعض سودانه قتله وأخذ الدنانير منه ، فوقف بنفسه عليه وسأل الصبي عن أبيه . فقال له الغلام : « هذا (وأشار إلى نسيم الخادم) دفع إلى أبي شيئا فلم يزل يقلبه حتى وقع ميتا » . فقال : قته يا نسيم ، فزله وقتشه فوجد الدنانير معه بحالها فخرّص الصبي أن يأخذها فأبى ، وقال : هذه قتلت أبي وان أخذتها قتلتني ، فأحضر ابن طولون قاضي القس وشيوخه ، وأمرهم أن يشتروا للصبي دارا بمخمسة مائة دينار تكون لها غلة ، وأن تحبس عليه ، وكتب اسمه من أصحاب الجرايات ، وقال : أنا قتلت أباي لأن الغنى يحتاج إلى تدريج والاقتل صاحبه ، هذا كان يجب أن يدفع إليه دينار بعد دينار حتى تأتبه هذه الجملة على تفرقة فلا تكثر في عينيه (٣)

فإذا كان هذا حال رجل من أهل ضواحي العاصمة ، فكيف بأهل القرى البعيدين عن طرف الدولة وبذخها وجراياتها ووظائفها ؟ اه

فلما سمع صاحبي ما تقدم . قال : إن من أعظم نعم الله عز وجل على أمنا الاسلامية اليوم امتزاج التاريخ والفلسفة بالقرآن ، والله ان المسلمين بعد أن اختلطوا بالأمم ، وذاقوا حلو الزمان ومره ، لن يخرجهم من مأزقهم إلا الاطلاع على السير والأخبار والفلسفة بشرط أن يكون منهم من يمتحنون تلك السير ، ويفهمون المتأخرين أخلاق المتقدمين ، وبذكورهم بما كان منهم من الخطأ والمخطئ ، هنالك يرجع للآدم الاسلامية مجددهم ، ويعلوشأنهم ، ويذهب عنهم الخزي في الحياة الدنيا .

هذا وانى أرجو أن أنشر بقول جامع في هذه المسألة ، وهي أن (سقراط) كان محرم على الأمر . والجنود أن يقتنوا بيوتا ، أو يكون لهم مال ، فإذا أفنت في ذلك وشرحت أوامر عمر رضي الله عنه كان ذلك

(١) ابن الأثير ١٠١ ج ٥ - (٢) ابن خلكان ٥٥ ج ١ - (٣) المقرئ ١٢٣ ج ٢

خير معوان على قد كبيراً مننا الإسلامية بعدنا . فقلت : جاء في الكتاب المذكور تحت عنوان « انتشار العرب في الأرض » ما نصه :

« قد رأيت رغبة عمر بن الخطاب رجل الإسلام في جمع كلمة العرب وتوثيق عرى الاتحاد بين قبائلهم ، وتأكيد العلاقات بين منازلهم ، فغرضهم على فتح العراق والشام ، لعلهم بما هناك من قبائل العرب ، فإذا انضموا إلى عرب الحجاز واليمن زادوا الإسلام قوة ، ولكنه منعهم مما وراء ذلك ، وأمرهم إذا بنوا بلداً في دارالفتح أن لا يبنوه في مكان يحول بينه وبين المدينة ماء خوفاً على الجامعة العربية أن يزداد تباعداً أطرافها فتتمزق ، ورغبة منه في استبقاء مركز الخلافة عند قبر النبي ﷺ على أن يستق البلاد المفتوحة لاستمرار ما فيها من غلة أموال لأهل الحجاز ، ولهذا السبب أيضاً نهى المسلمين عن الزرع وشدد في منعهم اعتماداً على الحديث القائل : « السكة (المحراث) ما دخلت دار قوم إلا دخله الفل » (١) ولأن الاشتغال بالزرع يشغلهم عن الحرب ، وهو يريد أن يقيمهم حامية لجمع الحجاج والجزية واستبقاء السطة ، ولم تكن المدن التي بنوها في صدر الإسلام كالبصرة والكوفة والفسطاط إلا حصوناً أو معسكرات ينزل فيها جنود العرب نزول الحامية أو جيش الاحتلال (٢) ولهذا السبب أيضاً أخرج غير المسلمين من جزيرة العرب عملاً بوصية النبي ﷺ أن لا يترك في جزيرة العرب دينان (٣) وأن لا يأتي الحج أحد من المشركين (٤) فأخرجهم وتخلص من خطرهم إذ لو بقوا هناك على غير دين الإسلام لأقلقوا الراحة ، وربما كانوا عوناً لغير المسلمين ، كما كان نصارى الشام والعراق ينصرون الروم بعد ذلك كما سترى .

فكانت السياسة في صدر الإسلام أن يبقى المسلمون في بلاد العرب وصواحبها ، وكان القواد الذين قصوا الشام والعراق قد ذاقوا لذة الفتح مع سهولته عليهم فلم يكفوا عن عمر حتى أذن لهم بفتح ما وراء ذلك كما تقدم ، فكان عمر وهو في المدينة قابضاً على أطراف الدولة يشدها نحوه ورجاله يحاولون الذهب بها شرقة وغرباً حتى اضطر أخيراً إلى مجاراتهم ، وأذن بانسيابهم في الأرض ، فتمزق العرب ، وفتحوا مصر وپارس وأفريقيا وغيرها ، ولما تولى عثمان أطلق العنان لقرش أن يخرجوا من المدينة ، فخرجوا وتمزق العرب في الأرض ، وانتشروا في مصر والشام والعراق وپارس ، وما وراءها ، وعددهم يومئذ لا يزيد على ٢٠٠٠٠٠ نفس (٥) وهم جنود المسلمين وعليهم حياية ملكتهم الجديدة واستغلاطها ، وسكانها يزيدون على مئة مليون ، ودولة الروم واقفة لهم بالمرصاد » انتهى

فها أنت ذا ترى من هذا المقال ومن غيره أن عمر رضي الله عنه منع من الزرع وشدد فيه ، وإذا قرأت ما تقدم في (سورة الشورى) عند الكلام على عدل عمر رضي الله عنه عرفت مما هناك أيضاً كيف كان يمنع المسلمين من اقتناء الأرض ، وهو نفسه كان لا يملك شيئاً .

فقال صاحبى : يا سبحان الله ، نحن جئنا في زمان مختلط مزيج جاهلي ، نحن من أبناء العرب ، ونحن اليوم فلاحون ، إذن كان أمرنا قديماً غير ذلك ، وكان آتوا مأمورين أن يكفوا عن الزرع ، وأن يكونوا فادة وسادة للام ، فلما طمعوا في المال ذلوا . فقلت نعم ذلوا ، ومثل ترى أعجب من أن يتعد العلم والدين على هذه القضية ، ففرى (سقراط) يحرم على الأمراء والجنود الذهب والنضة ، ويقول : خذوا ما يكفيكم من مال الأمة ، ولا تشاركوها في أموالها ، ثم نرى هذه الفكرة عينها هي التي جاءت في الإسلام ، ولكن الوحي الإسلامي كانت له نتيجة فعلاً ، ودولة قامت ، وإن لم تقدم ، أما الفلسفة السقراطية فإنها لم تقم بها دولة على قياسها ، بل هي آراء وقوانين لم يتحقق منها شيء في الأرض ، اللهم إلا ما يقتبس الناس اليوم في أوروبا

(١) ابن خلدون ١١٩ ج ١ - (٢) الجزء الأول من كتاب تاريخ التمدن الإسلامي

(٣) ابن هشام ١٩٥ ج ٢ - (٤) ابن هشام ٥٠ ج ٣ - (٥) ابن خلدون ١٣٦ ج ١

من تربية الجند وحفظ الأجسام والعقول بالتمرينات العضلية ونحوها ، ولقد أخذ المسلمون بما يقرب من نظام عمر زمانا ، فكان الرجل إذا أسلم من الأمم التي فتحوا بلادها سموه مولى ، وجرّ دونه من ملكه ، وألحقوه بالحامية الاسلامية ، وصار له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، وأخذ عطاء مثلهم ، ولكن لما فسدت الأخلاق ، وتطوّرت الأحوال ، وساءت العقبي ، خلعوا العذار ، ونسوا العهود ، وبغوا في الأرض فسادا ، فانظر نبذا مما جاء في كتاب « تاريخ التمدن الاسلامي » وهو خلاصة الجزء الخامس ، وهاك بيانها :

﴿ أولا ﴾ - أتباع الخاصة

كان للخاصة أتباع أخرجوهم من طبقات العامة بما خصوهم به من أسباب القربى أو الخدمة ، وهم أربع طبقات : الأولى الجند ، الثانية الأعوان ، الثالثة الموالى ، الرابعة الخدم . انتهى

﴿ ثانيا ﴾ - كثرة الأسرى أو الأرقاء

وتكاثر الأسرى في أثناء الفتوح حتى كانوا يعدّون بالألوف ، ويبيعون بالعشرات ، اعتبر ما كان من ذلك في الصدر الأوّل ، وما تبعه من الفتوح البعيدة في أيام بني أمية ، فقد بلغت غنائم موسى بن نصير سنة ٩١ هجرية في إفريقية ٣٠٠.٠٠٠ رأس من السبي ، فبعث خديها إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك ٦٠.٠٠٠ رأس ، ولم يسمع بسبي أعظم من هذا ^(١) ، وذكروا أن موسى هذا لما عاد من الأندلس كان معه ٣٠.٠٠٠ بكر من بنات شرفاء القوط وأعيانهم ^(٢) ، وقس على ذلك غنائم قتيبة في بلاد الترك وغيرها وبلغت غنائم إبراهيم صاحب غزنة سنة ٤٧٢ هجرية من قلعة في الهند ١٠٠.٠٠٠ نفس ^(٣) ، وفي وقعة بلاد الروم سنة ٤٤٠ هـ بقيادة إبراهيم بن بنال سبي المسلمون ١٠٠.٠٠٠ رأس غير الدواب ^(٤) وفي جملة غنائم الحرب فضلا عن الأسرى من الرجال جماعات من النساء والعلماء مما يشغل نقله ، فكثيرا ما كانوا يبيعونهم بالعشرات رغبة في السرعة كما فعلوا في واقعة عمورية سنة ٢٢٣ هـ إذ نادوا على الرقيق خمسة خمسة ، أو عشرة عشرة ، وربما بلغ ثمن الانسان بضعة دراهم ، ذكروا أن غنائم المسلمين في واقعة الأرك بالأندلس سنة ٥٩١ هـ بيع الأسير فيها بدرهم ، والسيف بنصف درهم ^(٥) والبعير بخمسة دراهم وقد يقضون عدّة أشهر وهم يبيعون الأسرى والغنائم . تلك أمثلة من أسباب تكاثر الرقيق عند المسلمين غير ما كان يرسله بعض العمال إلى بلاط الخلفاء من الرقيق وظيفه كل سنة من تركستان ^(٦) وبلاد البربر وغيرها .

معاملة الأسرى

كانوا في صدر الاسلام اذا ظفروا بغنيمة تولى الأمير قسمتها على القوّاد بعد إرسال الخس إلى بيت المال ثم اختلف ذلك مع الزمان باختلاف الدول ، ففي الدولة الفاطمية بمصر كانوا إذا عاد الجند من حرب ومعهم الأسرى يصل الاسطول بالنيل إلى شاطئ القاهرة ، فينزلون الأسرى ويطرفون بهم القاهرة ثم يعزلونهم في مكان كانوا يسمونه المناخ (في جهة الاسماعيلية اليوم) كان مستودعا للأسرى الفسكور . فينظرون فيهم ، وقد استرابوا في أحد قتلوه ، ومن كان شيخا لا ينفع ضربوا عنقه ، وألقوا جسده في بحر كانت في حواص مصر تعرف ببئر المنامة ، ومن بنى يضاف الرجال منهم إلى من في المناخ وبعضهم بالنساء والأطفال إلى قصر الخليفة

(١) نصح الطبيب ١١٣ ج ١ وابن الأثير ٢٥٩ ج ٤ - (٢) ابن الأثير ٢٧٢ ج ٤

(٣) ابن الأثير ٤٦ ج ١٠ - (٤) ابن الأثير ٢٢٧ ج ٩ - (٥) نصح الطبيب ٢٠٩ ج ١

(٦) القريري ٣١٣ ج ١

بعد ما يعطى الوزير منهم طائفة ويفرق الباقي لخدمة المنازل ، ويدفع الصغار من الأسرى إلى الاستاذين
فربوبهم ويعلمونهم الكتابة والرمية ، ويسمونهم إذ ذاك « الترابي » وقد يرتقى أولئك الصبيان إلى رتب
الأمراء (١)

ولم يكن استخدام الأسرى على هذه الصورة شاماً بالمسلمين ، بل هي عادة كانت مرعية في تلك الأعصر
فن يقع من المسلمين في يد أعدائهم كان حظهم الاسترقاق حتى يقتديهم المسلمون ، وكان للخلفاء عناية
في فكك الأسرى يبذلون في سبيله المال ، أو يعطون أسرى عندهم على سبيل المبادلة ، وأشهر ما وقع من الفداء
بين المسلمين والروم ، لأن الحرب كانت سجلاً بينهما في البر والبحر يأمر بعضهم بعضاً فاحتاج الخلفاء
إلى الفداء ، وكان الأمويون يفتدون أسراهم أحياناً وعلى قلة النفر بعد النفر في سواحل الشام والاسكندرية
وملطية وسائر الثغور على الحدود ، وأول فداء منظم وقع في أيام بني العباس على يد الرشيد سنة ١٨٩ هـ
وتوالى الفداء بعده بضع عشرة مرة في أثناء ١٥٠ سنة ، وتزايدت عناية المسلمين في فكك أسراهم حتى
أصبح أهل الورع من الأغنياء يقفون المال على فككهم (٢) .

أما الروم فقلما كانوا يفتدون أسراهم بالمال ، ولعلّ السبب في ذلك أن أولئك الأسرى يكونون في
الغالب لفيما من رعاياهم ، أو أجنادا من الغرباء المأجورين وليس من الروم أنفسهم ، أما المسلمون فهم غالباً
المهاجرون ، فإذا ظفروا كانت غنائمهم من ذلك اللصيف ، وإذا غلبوا فن وقع في الأسر منهم كان من الحاربيين
الذين يستحقون الفداء ، والرابطة القومية بين المسلمين يومئذ أشد وثوقاً منها بين الروم ورعاياهم وأجنادهم .
على أن المسلمين كثيراً ما كانوا يأبون المال بدل الأسرى ، ولا سيما في الدولة الفاطمية ، ولا يعرف عن هذه
الدولة أنها قادت أسيراً من الإفريخ بجال ، ولا بأسير مشبه ، فكان ذلك من جملة البواعث على زيادة الأرقاء
عند المسلمين .

فهل يستغرب بعد ذلك إذا استكثر المسلمون من العبيد والمماليك ، فيبلغ عددهم عند بعضهم عشرة
أومائة أو ألفاً ، حتى الفقراء من عامة الجنود كان أحدهم لا يخلو من عبد أو بضعة عبيد يخدمونه (٣) ، وكان
للفارس في عصر الأيوبيين عشرة أتباع يخدمونه ، أو بضع عشرات إلى مائة (٤) فكيف بالأمراء والقواد حتى
في صدر الإسلام ، فإن الخليفة عثمان كان له ألف مملوك مع عهده بزهد الراشدين قبله (٥) ، فاعتبركم يكون
عندهم في أيام الثورة والترف ؟ فقد كان الأمير في الدولة الأموية إذا سار مشى في ركابه مائة عبد ، أو بضع
مئات ، أو ألف عبد (٦) ، وبلغ عدد غلمان رافع بن هرثمة والي خراسان سنة ٢٧٩ هجرية ٤٠٠٠ عبد
ولم يملك أحد من ولاة خراسان قبله مثله .

أصناف الأرقاء

وكانوا إذا تكاثرت الأرقاء عند أحدهم وأراد استخدامهم في منزله جعل عليهم قتيلاً يتولى النظر في شؤونهم
يسمونه (الاستاذ) . على أن الغالب في الغلمان إذا كثروا عهد أميراً أن يتخذهم جنداً يحرسونه فيعلمهم
الحرب والقتال ، فقد كان عند الاخشيدي صاحب مصر ٨٠٠٠ مملوك ، يحرسه في كل ليلة ألفان ، وأكثر
فوق الجنود عند الأمراء من غلمانهم ، وأصلهم من السبي والأسرى ، أو يتناعونهم بالمال لهذه الغاية كما تقدم
في كلامنا عن فرق الجنود ، وربما بلغ ثمن المملوك ألف دينار .

(١) المقرئ ١٩٣ ج ٢ و ٤٨٩ ج ١ - (٢) المقرئ ٧٩ و ١٩١ ج ٢ - (٣) المسعودي ٢٢ ج ٢

(٤) المقرئ ٩٥ ج ١ - (٥) الديبيري ٤٩ ج ١ - (٦) ابن الأثير ١٤٧ ج ٤ والأغاني

أما الباقون من الأرقاء للخدمة في البيوت ، فيعلمونهم الصنائع اللازمة لتدبير المنزل ، فنهسم القراش والطباخ والخازن والوكيل أو النقيب والبواب والملاح والركابي وغيرهم (١) ، ومنهم الوصف والمملوك ، وفيهم الرومي والتركي والفارسي والبربري والزنجي والسقلي بين مجلوب ومولد من الذكور والاناث مما لا يحصى .
وإذا زادوا عما يحتاجون إليه في الخدمة أو الحراسة أو الحماية اتخذوا الفلمان منهم زينة لمجالسهم ، وكان يفعل ذلك أهل السعة واليسار ، ولاسيما الخلفاء فانهم تأثقوا في تزينتهم بأنواع الألبسة المزخرفة مما لم يسبق له مثيل ، وأول من أقدم على ذلك الأمين بن الرشيد ، فإنه بالغ في طلب الفلمان ولاسيما الخصيان وابتاعهم ، وغالى فيهم ، وصبرهم لخاوتهم ، وزينهم مثل زينة الجوارى ، ثم صار الاستكثار من الفلمان سنة عند الخلفاء ، فكان عند المقتدر بالله ١١٠٠٠ غلام أو مملوك ، وفيهم البيض والسود ، فالبيض من الفرس والديلم والترك والطبرية وغيرهم : والسود من النوبة والزغاوة يجلبونهم من مصر ومكة وإفريقية ، والزنج أصلهم من رجال صاحب الزنج الذي ثار بالبصرة ، وهم غنم قح يأكلون لحوم الناس والبهايم الميتة وقد عوقبوا على ذلك فلم يرجعوا وكانوا منفردين لا يختلطون بالبيض ، ولكل طائفة نوبة في خدمة الخليفة بين حراسة وغيرها (٢)

الخصيان

الخصاء عادة شرقية كانت شائعة قديما بين الاشوريين والبابليين والمصريين القدماء ، وأخذها عنهم اليونانيون ، ثم انتقلت إلى الرومان فالأفرنج ، ويقال ان أول من استنبطها (سميراميس) ملكة آشور نحو سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، وكان المظنون أن الخصاء يذهب بقوة الرجولية ، وفي التاريخ جماعة من الخصيان اشتهروا بالشجاعة والسياسة ، وتولوا مناصب مهمة في أزمنة مختلفة ، منهم تارسس القائد الروماني الشهير في عهد بوسطينان في القرن السادس للميلاد ، وهرمياس حاكم اثارية في ميسيا الشهير الذي قدم الفيلسوف أرسطو ذبيحة عن روحه غير ما ذكره فيه من القصائد ، وعن اشتهار من الخصيان في الإسلام كقفور الاخشيدي صاحب مصر ، واشتهر منهم في الهند وفارس والصين جماعات كبيرة ، واستنبت الخصيان في أواسر الدولة الرومانية استنبادا كبيرا .

والخصاء أغراض أشهرها استخدام الخصيان في دور النساء غيرة عليهن ، فلما ظهر الإسلام وغلب الحجاب على أهلها استخدموا الخصيان في دورهم ، وأول من فعل ذلك يزيد بن معاوية ، فاتخذ منهم حاجبا لذيوانه اسمه «فتح» واقتدى به غيره ، فشاع استخدامهم عند المسلمين مع ان الشريعة الإسلامية أميل إلى تحريمه على ما يؤخذ من حديث رواه ابن مظنون .

وكانت تجارة الرقيق شائعة في أوروبا قبل الإسلام ، ومن أسباب رواجها أن قبائل السلاف (الروسين) نزلوا في أوائل أديارهم شمالي البحر الاسود ونهر الطونة ، ثم أخذوا ينزحون غربا جنويا نحو أواسط أوروبا وهم قبائل عديدة عرفت بعدئذ بقبائل السلاف أو (السلاف) والسرب والبوهيم والسلمت وغيرهم ، فاضطروا وهم نازحون أن يحاربوا الشعوب الذين في طريقهم كالسكسون والهون وغيرهم ، وكان من عادات أهل تلك العصور أن يبيعوا أسراهم بيع الرقيق كما تقدم ، فتألف لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الأسرى عن طريق فرنسا فاسبانيا إلى إفريقية ومنها إلى الشام ومصر ، فلما وقعت هذه البلاد في أيدي المسلمين راجت تلك التجارة .

فكان التجار من الأفرنج وغيرهم يتعاونون الأسرى من السلاف والجرمان من جهات ألمانيا عند ضفاف الرين والألب وغيرهما إلى ضفاف الدانوب وشواطئ البحر الاسود ، ولا يزال أهل جورجيا والجرس

إلى اليوم يبيعون أولادهم بيع السلع ، فإذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الأرقاء أمامهم سوق الأغنام ، وكلهم يبيض البشرة على جانب عظيم من الجمال ، وفيهم الذكور والإناث ، حتى يحطوا رحالهم في فرنسا ، ومنها ينقلونهم إلى إسبانيا (الأندلس) ، فكان المسلمون يتعاونون الذكور لخدمة أو الحرب والإناث للفرسي وغلب على أولئك الأرقاء انفسابهم إلى قبيلة السلاف ، وكانت تلفظ عندهم (سكلاف) فعرّبها العرب صقلبي وأصبح هذا اللفظ عندهم يدل على الرقيق الأبيض بالاجمال ، وكثيرا ما يرد لفظ الصقالبة في تاريخ الاسلام ، ويراد به الأرقاء من قبائل السلاف والجرمان ، وفعل الافرنج نحو ذلك أيضا فاستخدموا هذه اللفظة لنفس هذا المعنى ، ومنها (Esclave) في الفرنسية و (Sklave) في الجرمانية و (Slave) في الانكليزية .

﴿ ثالثا ﴾ — خصاء بعض الأرقاء

ولما شاع الحجاب بين المسلمين في إبان سلطانهم ، واستخدموا الخصيان في دورهم ، عمد تجار الرقيق ، وأكثرتهم من اليهود إلى خصاء بعض الأرقاء ، ويعمم بأثمان غالية ، فراجت تلك البضاعة ، وكثرت المشتغلون بها ، وأنشأوا لاصطناع الخصيان معامل عديدة ، أشهرها معمل الخصيان في فردون بمقاطعة اللورين في فرنسا ، كانوا يخصون أولئك الساكنين وهم أطفال ، فيموت كثيرون منهم على أثر العملية ، فمن بقي حيا أرسلوه إلى إسبانيا ، فيشتره الكبراء بثمان كبير ، وأصبحوا يتوالى الأزمان يتهادون الخصيان كما يتهادون الخيل ، أو الآثان ، أو الآنية ، فكان ملوك الافرنج إذا أرادوا التقرب من خليفة المسلمين في الأندلس أو غيرها أهدوه التحف ، ومن جلتها الخصيان ، كما فعل ملكا برشلونه وطركونة ، لما طلبا تجديد الصلح من المستنصر خليفة الأندلس ، فانهما أهدياه ٢٠ خصيا من الصبيان الصقالبة و٢٠ قطارا من صوف السمور الخ ، فكانت الخصيان في بلاط الخلفاء حتى تألفت منهم فرق لحراسة الخاصة ، كما تألفت الفرق من سائر الممالك والعيود ، فاذا احتفل الخليفة ببيعة أو نحوها كان الممالك والخصيان زينة ذلك الاحتفال . وراجت تجارة الصقالبة في إبان التمدن الاسلامي ، وكل ما كان يفد على المملكة الاسلامية منهم يستجلب من الأندلس لأنهم كانوا يخصون بالقرب منها ، غير ما يحملونه من الصقالبة من جهات خراسان مما يسببه الخراسانيون ويحملونه لبيع ، لأن بلد الصقالبة طويل يسببه الافرنج من الغرب والخراسانيون من الشرق (١)

﴿ رابعا ﴾ — الجوارى

للجوارى شأن كبير في تاريخ التمدن الاسلامي ، لا يقل عن شأن العبيد والموالي ، وأصل الجوارى ما يسببه الفاتحون في الحرب من النساء والبنات ، فهن ملك الفاتحين ، ولو كن من بنات الملوك ، أو الدهاقين ، يستخدمونهن ، أو يستولدونهن ، أو يتصرفون في بيعهن تصرف المالك بملكه (٢) ولما أفضت أحوال المسلمين إلى الترف والقصص ، وتدفقت الأموال من خزائن الخلفاء والأمراء جعلوا يتهادونهن كما يتهادون الخيل والجواهر ، فمن أحب التقرب من كبير أهدى إليه جارية أنقنت صناعة يعلم أنه راغب فيها ، فاذا علم مثلا أنه يحب الجمال أهداه وصيفة جميلة ، أو علم منه ميلا إلى الغناء أهدى إليه قينة رخيمة الصوت ، وقد هديه عدة جوار أنقنت عدة صنائع ، وربما صارت إحداهن بعد حين أم ذلك المنزل وصاحبة الأمر فيه ، اذا استولدها سيدها ، واذا كانت في دار خليفة لا يبعد أن تصير من أتمات الخلفاء ، كما اتفق لأكثر خلفاء بني العباس .

(١) ابن حوقل ٧٥ — (٢) ابن خلكان ٣٢٠ ج ١

ذكروا أن جارية اسمها « دناير » صفراء صادقة الملاحظة ، كانت أروى الناس لغناء القديم ، وقد خرجها رجل من أهل المدينة ، فاشتراها جعفر البرمكي ، وسمع الرشيد صوتها فألفها ، وصار يسير إلى جعفر لسماع غنائها ، ووهب لها هبات سنية . وعلمت امرأته زبيدة بخبرها ، فشكته إلى عمومتها ، فلم ينجحوا في إرجاعه ، فرأت أن تشغله عنها بالجوارى ، فأهدت إليه عشر جوار ، منهم مارية أم المعتصم ، وسراجل أم المأمون ، وفاردة أم صالح (١) وكثيرا ما كان العنال والأمراء يتقربون إلى الخلفاء بأمثال هذه الهدايا ، فأهدى ابن طاهر إلى الخليفة المتوكل هدية فيها ٢٠٠ وصيفة ووصيف (٢) فلاغروا إذا تكاثرت في قصور الخلفاء ، والأمراء ، وأهل الوجاهة ، وليس الاستكثار منهم حادثا في الإسلام ، وإنما هومن بتايا التمدن القديم ، فقد كان ملوك الفرس والروم يتهادونهم ، وبلغت عدتهم عند بعض الأكاسرة ٦٠٠٠ جارية (٣) ، وكان لجماعة من بني العباس ألف جارية ، وسيأتي بسط ذلك في مكان آخر اه

﴿ خامسا ﴾ — تزيينهن

فتعتمد الجوارى في دور الكبراء ، وتسابق أهل الترف إلى التفتن في تزيينهن ، وأشهر من فعل ذلك أم جعفر المذكورة ، فانها لما رأت ابنها يقامى في تخنيت الغلمان وإلباسهم ملابس النساء اتخذت طائفة من الجوارى سمنهن المقدودات ، عمدت رموسهن ، وجعلت لمن الطرر والأصداع والأقنية ، وألبسهن الأقبية ، والقراطق والمناطق ، كأنهن من الغلمان ، واقتدى بها وجهات قومها ، فاتخذن الجوارى الغلاميات ، أو المظموحات ، وألبسوهن الاقبية والمناطق الذهب (٤) اه

﴿ سادسا ﴾ — مقاومة الخلفاء للغناء

على أن أهل التعقل من الخلفاء ، أو الأمراء كانوا لا ينفكون عن منعه جهدهم ، وكان العقلاء غير الحكام يحرضون الولاة على منعه حتى في المدينة معدن الغناء في ذلك العصر (٥) وكثيرا ما كان أمير مكة يخرج المغنين من الحرم خوفا من افتتان الناس بغنائهم (٦) وصرفهم عن أمور دينهم ، ولم يكن أهل البصرة على العرض يصبرون على سماعه ، ومن أقوالهم : « المغنون رسل الفرام » . ذكروا أن سليمان بن عبد الملك ، وكان يكره الغناء سماع مغنيا في عسكره ، فطلبه ، فغاموه به ، فقال : أعد ما غنيت ، فتغنى واحتفل ، فقال سليمان : والله لكانها جرجرة الفحل في الشول ، وما أحسب أنني تسمع هذا إلا صبت إليه ، ثم أمر به نخسى (٧)

وسليمان هو الذي أمر بنخسى الخنثين في المدينة لمثل هذا السبب ، قيل انه كان في بادية له يسمرلية على ظهر سطح وقد تفرقت عنه جلساؤه ، فدعا بوضوء ، فجاءت به جارية ، فبينما هي تصب عليه لحظ أن ذهبا مشتغل عنه بغناء سمعه ، فتجاهل ، وفي الصباح ذكر الغناء ولين فيه حتى ظن القوم انه يشتهي ، فأفاضوا فيه ، وذكروا من كان يسمعه ، ومن يغنيه ، حتى توصل إلى الرجل الذي شغلته الجارية بغناؤه في الأمس ، فلما تحقق ذلك أقبل على القوم ، وقال : هدر الجمل فضبت الناقة ونبت اللبث فسكرت الشاة وهدر الجمام فزافت الحمامة وغنى الرجل فطربت المرأة ، ثم أمر به نخسى ، وسأل عن الغناء : ابن أصله ؟ فقبل في المدينة

(١) الأغاني ١٣٧ ج ١٦ — (٢) السمودي ٢٨٠ ج ٢ — (٣) السمودي ١١٥ ج ١ وترتيب الدول ١١١ — (٤) السمودي ٣٦٦ ج ٢ — (٥) العقد الفريد ١٩٦ ج ٣ — (٦) الأغاني ١٣٠ ج ٢ — (٧) الكامل للبرد ٣٧٧

بجماعة الخنثين وهم أئمة والحقاق فيه ، فكتب إلى عامله هناك : اخبر من قبلك من الخنثين المغنين ،
نصاهم (١)

على أن المنتهكين من الخلفاء والأمرام لم يشكروا ما بجرّ إليه الفناء من أسباب اللهو . قال الوليد بن
يزيد الذي ذكرنا أنه أول من استقدم المغنين إليه : « إياكم والفناء ، فإنه ينقص الحياء ، ويزيد في الشهوة
ويهدم المروءة ، ويشور على الخمر ، ويضلل ما يخلل المسكر ، فإن كنتم فاعلين بجنبوه النساء ، فإن الفناء رقية
الزنا ، وإني لأقول ذلك فيه على أنه أحب إليّ من كل لذة ، وأشهى إليّ من الماء البارد إلى ذى الفسلة ،
ولكن الحق أحق أن يقال (٢) » اه

﴿ سابعاً ﴾ - الفيرة

كانت أيام بني أمية من حيث العفة والفيرة عصر انتقل من البداوة إلى الحضارة ، فلما انقضى عصر
الأمويين ذهب ما بقي من سداجة البداوة في طبائع العرب ، واستسلم الناس للترف والرخاء ، وضعت الفيرة
وأبيض الثياب ، وشاع على السنة الشعراء حتى صاروا يصترون به قصائد المدح والفخر ، وكان الخلفاء الأولون
من بني العباس لا يزالون على مقربة من البداوة ، فأشكروا ذلك ونهوا عنه ، ومن أشدهم غيرة المهدي بن
المصور فإن بشاراً أنشده مديحاً فيه تشييب ، فنهاه عن التشييب أبته ، فصار إذا مدحه بدأ بالمدح (٣) فظل
التشييب مستقبها حتى أباه الرشيد وألج في نظمه (٤) قال ذلك طبعاً إلى ضعف الفيرة اه

﴿ ثامناً ﴾ - اللباس

ولما أترف بنو أمية لبسوا الحرير على أنواعه وتمننوا بأنواع الأنسجة ، وأحبوا الوشيم ، وأكثروا من
لبسه فقلدهم الناس في ذلك ، فراجت المنسوجات الموشاة في أيامهم اه

﴿ تاسعاً ﴾ - لباس رجال الدولة

على أن رجال الدولة ومن جرى مجراهم من الخاصة كانت لهم ألبسة لمجالس الأئس والشراب يسمونها
« ثياب المنادمة » ، وهي أثواب مصبغة بالألوان الزاهية ، الأحمر والأصفر أو الأخضر ، يصقلونها حتى تلمع
وتشرق اه

﴿ عاشراً ﴾ : مباني المباسيين

أول من شاد الأبنية منهم المنصور ، فبنى القبة الخضراء ، ليحول أذهان الناس عن الكعبة إليها ، وبنى
الجامع ، والحصون والقصور في بغداد ، كقصر الخلد ، وقصر باب الذهب وغيرها ، وأخذ الخلفاء بعده في
تشديد المصانع ، واقتدى بهم وزراءهم وأمراءهم ، فأقاموا قصوراً عظيمة ، تعرف غالباً بأسماء بانيها كقصور
البرامكة في الشامسية ، وقصر ابن الحصب ، وقصر أم حبيب بالجانب الشرقي من بغداد ، وقصر بني خلف
بالبصرة ، وقصر عيسى بن علي ، وهو أول قصر بناه الهاشميون في أيام المنصور ، وقصر وضاح بن رجل
اسمه وضاح (بتشديد الضاد) للمهدي العباسي ، وقصر الرشيد ، وقصر الأمين ، وقصر ابن الفرات ، وقصر
ابن مقلة ، غير ما أطلقوا عليه لفظ الدار كدار الشجرة الآتي ذكرها ، ودار القرار ، وهي قصر زبيدة زوج
الرشيد وغير ذلك ، وأخذت رغبتهم في بناء القصور تزايد كلما تقدموا في المدينة وأغرقوا في الترف والرخاء .

(١) الأغاني ٦١ ج ٤ - (٢) الأغاني ١٣٤ ج ٦ - (٣) الأغاني ٤١ و ٥٨ ج ٣

(٤) الأغاني ١٦٠ ج ٣

على أن بعض خلفائهم كانوا يحبون العمارة ويفشطونها ، وأولهم المعتصم بالله ، فقد كان كافا بالبناء ، فبنى سامرا الأثرى كما وأقطعهم فيها القلائع ، والمتوكل على الله كان مغرما بالعمارة ، يبدل فيها الأموال الطائلة ، فأحدث أساليب من الأبنية ، لم تكن معروفة قبله ، منها النقط الجيري ، والكمين ذات الأروقة ، وبنى ثلاثة أبنية تعرف بالهاروني والجوسقي والبغفرى بذل في بنائها جميعا أكثر من ١٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم (١) أنفق منها على القصر البغفرى أكثر من ٣٠٠٠٠٠٠٠ دينار (٢) أو نحو ٤٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، ثم صار تشييد المباني عادة جرى عليها الخلفاء ، فضلا عن المنزهات ، فبنى إسماعيل بن علي مستنزا أنفق فيه ٥٠٠٠٠٠٠٠ درهم (٣) اهـ

(١١) - دار الشجرة

وبنى المعتصم بالله في أول القرن الرابع دارا فسيحة ذات بساطين موقفة عرفت بدار الشجرة ، لشجرة كانت فيها مصنوعة من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة أمام إبنائها ، وبين شجر بساطينها ، لها ثمانية عشر فصنا من الذهب والفضة ، لكل غصن منها فروع كثيرة مكللة بأنواع الجوهر على شكل الثمار ، وعلى أغصانها أنواع الطيور من الذهب والفضة ، إذا مرّ الهواء عليها أبانت عن محائب من ضروب الصنوبر والحديد ، وفي جانب الدار من يمين البركة تماثيل خمسة عشر فارسا على خمسة عشر فرسا ، ومثله عن يسار البركة ، قد ألبسوا أنواع الخمر المدبج ، مقلدين بالسيوف ، وفي أيديهم المطارد ، بشعر كونه على سوط واحد ، فيظن الناظر اليهم أن كل واحد منهم يقصد صاحبه (٤) .

وفي دولة آل بويه بنى معز الدولة قصره المعروف « بالدار المعزية » ، أنفق في بنائه ١٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، وموّه سقفه بالذهب ، ذكروا أنهم لما أرادوا هدمه بذلوا في حك الذهب من سقفه ٨٠٠٠٠٠٠ دينار (٥) ولم يبق لهذه القصور أو الصور أثر الآن .

أما الأندلس فقد بنى بها آل مردان قسورا سارت بذكرها الزكيان ، ولا يزال بعض آثارها باقيا إلى اليوم ، وأكثرها في قرطبة وغرناطة ، فيها في قرطبة القصر الكبير ، وهو آية من آيات الزمان ، شرع بينائه عبد الرحمن الداخل في أواسط القرن الثاني للهجرة ، وأتمه من جاء بعده ، وبنوا القصور في داخله ، وقد رأيت عند ذكر أبنية قرطبة أن القصر المذكور مؤلف من ٤٣٠ دارا ، بينها قصور نفحة ، لكل منها اسم خاص ، كالسامل والمجدد ، والحائر والروضة ، والمعشوق والمبارك ، والرسق وقصر السرور والبديع ، وقد غالوا في زخرفها واقامتها ، وأنشأوا فيها البرك والبحيرات والصهاريج والأحواض ، وجلبوا إليها الماء في قنوات الرصاص على المسافات البعيدة من الجبال حتى أوصلوه إليها ، ووزعوه فيها ، وفي ساحاتها ونواحيها في تلك القنوات توديعها إلى المصانع صورا مختلفة الأشكال من الذهب والبريز ، والفضة الخالصة ، والنحاس المموّه إلى البهيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغربية في أحواض الرخام الرومية المنقوشة ، ينصب فيها الماء من أنابيب من الذهب أو الفضة بصور الحيوانات الكاسرة ، أو الطيور الجليّة على أشكال بديعة (٦) اهـ

(١٢) : قصر الزهراء

ومن قصورهم في قرطبة « الزهراء » بدأ بإنشائها الخليفة الناصر سنة ٣٢٥ هجرية على أربعة أميال من المدينة ، وأتمها ابنه الحكم ، فاستغرق البناء أربعين سنة ، وهي عبارة عن بلد كبير ، طوله من الشرق

(١) المسعودي ٢٧٩ ج ٢ - (٢) ابن الأثير ٣٣ ج ٧ - (٣) ابن الأثير ٢٨ ج ٦

(٤) معجم باقوت ٥٢٠ ج ٣ - (٥) ابن الأثير ١٥١ ج ٩ - (٦) معجم الطيب ٢١٩ ج ١

إلى الغرب ٢٧٧٠٠ ذراع ، وعرضه ١٥٠٠ وعدد أعمدته ، أو سواربه ٣٠٠ سارية بعضها حل إلى قرطبة من رومية وإفريقية وتونس ، وبعضها أهداه صاحب القسطنطينية ، وفيها الرخام الأبيض والأخضر والوردي والحزق ، وكان في الزهراء مسجد نفخ ، وعدة قصور ، وحدائق على نحو ما تقدم في وصف القصر الكبير ، وفيها البحيرات تسمى فيها الأسماك بألوانها وأنواعها . وأحواض الرخام المقوش على أشكال شتى بين مذهب وغير مذهب ، في جلنها حوض منقوش بهائيل الإنسان جى . به من القسطنطينية ، ونصبه الناصر في بيت المنام بالمجلس الشرق المعروف بالمؤنس ، وجعل عليه ١٢ تمثالاً من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر النفيس الغالي ، مما صنع بدار الصناعة في قرطبة بصورة أسد ، بجانبه غزال إلى جانبه تمساح يقابله ثعبان وعقاب وفيل ، وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر ، وكلها من ذهب مرصع بالجوهر ، يجرى الماء من أفواهما (١) ، وكل الناصر النظر في بناء هذه القصور إلى ابنه الحكم بعده ، وذكروا أن الناصر كان ينفق عليها ثلث جباية الدولة وكانت ٦٠٠٠٠٠٠ دينار فينفق منها ٢٠٠٠٠٠٠ دينار كل سنة على ذلك البناء ، وقد تقدم أنهم واصلوا العمل فيه ٤٠ سنة ، فلوفرنا أنهم كانوا ينفقون هذا القدر في نصف هذه المدة فقط بلغ مجموع ما أنفق على الزهراء أكثر من ٥٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، ولكن يظهر أن الاتفاق السنوي لم يكن يبلغ ثلث جباية المملكة إلا في بضع سنين ، وأما في سائر مدة البناء فكانت النفقة أقل من ذلك كثيراً .

وقد ورد في مكان آخر أن الناصر كان ينفق على بنائها في أيامه ٣٠٠٠٠٠٠ دينار في السنة ، فإذا حسبنا ما أنفق ابنه الحكم فيما بقي من الأربعين سنة على هذه النسبة مع ما أنفق هو غير المقدار السنوي المذكور كان مجموع ما دخل في بناء هذا القصر الفخم نحو ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار على الأقل ، ولا غرابة في ذلك ، لأننا إذا أعدنا النظر في تفاصيله رأينا فيه ما يفوق الحصر من المرصعات والمذهبات ، وقد أدخلوا فيه كثيراً من الذهب حتى جعلوا بعض قروميده منه ، وقد كان يتصرف في بنائه من الخدم والفعلة عشرة آلاف رجل و ١٥٠٠ دابة ، وأغرب من كل ذلك أن الناصر إنما عمد إلى بناء الزهراء مرضاة لمحظية له كان اسمها زهراء طلبت إليه أن يبني مدينة باسمها وتكون خاصة بها (٢) اهـ

(١٣) : الزاهرة

واقتمدى بالخليفة الناصر المنصور بن أبي عامر ، فابتنى سنة ٣٦٨ هجرية قصراً لإقامته سماه الزاهرة ليكون معقلاً له يحمي من أعدائه ، فأقامه في طرف البلد على نهر قرطبة الأعظم ، وحشد له الصناع والفعلة وبالغ في رفع أسواره ، وجعل فيه أبنية كثيرة من جلتها أهراء ودواوين ، وأقطع ماحولها لوزرائه وكتابه وقواده ، فابتنوا السور والقصور ، وغرسوا الحدائق ، فقامت الأسواق ، وتنافس الناس بالزول في أكتافها تقريباً من صاحب السولة حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة ، واتصلت بهما الزهراء من الجهة الأخرى ، فأصبح الناس يمشون بين هذه المدن عشرة أميال على ضوء السرج .

ويجدر بنا في هذا المقام الإشارة إلى القنطرة الفخمة التي أقامها المسلمون على نهر قرطبة ، وكانت مبينة قبل الإسلام ، ثم سقطت ، فأعاد المسلمون بناءها على يد عبد الرحمن الغافقي وطولها ٨٠٠ ذراع وعرضها عشرون ذراعاً وارتفاعها ٦٠ ذراعاً ، وعدد حناياها ١٨ حنية ، وأبراجها ١٩ برجاً (٣)

(١) نفع الطيب ٢٤٨ و ٢٦٧ ج ١ وابن خلسكان ٢٩ ج ٢ - (٢) نفع الطيب ٢٤٨ ج ١

(٣) نفع الطيب ٢٢٦ ج ١

قصر الحمراء وأمثاله

الحمراء قصر شهير في غرناطة لا يزال شكله محفوظا إلى الآن ، يقصده السياح من كل مكان ، بنه ابن الأحرى في أواسط القرن الثامن للهجرة كما تقدم في أرض مساحتها ٣٥ فدانا على مرتفع فيسيح ، ويقال إنها سميت « الحمراء » نسبة إلى لون قريدها ، وفي هذا القصر كانت بركة السباع ، وفي وسطها تماثيل أسود تقذف المياه من أفواهها على شكل جبل .

وربى المنصور بن الأعلى قصرا نفيا في مجاية أنشأ فيه بركة على حلقتها أسود يجرى الماء من أفواهها ، وعلى البركة أشجار من ذهب وفضة ، ترمى فرووعها في الماء ، وعلى أغصانها أطيار من أشكال شتى بألوان بديمة ، وصنع عجيب ، على مثال الشجرة التي ذكرنا أنها نصبت في قصر المقتدر العباسي عند كلامنا عن أبيه العباسيين ، وقد نظم ابن حديس الشاعر الأندلسي قصيدة يصف بها بركة هذا القصر وخروج الماء من أفواه الأسود . قال منها :

وضراغم سكنت عربن رياسة * تركت خرب الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النصار جسمها * وأذاب في أفواهها البلورا
أسد كأن سكونها متحرك * في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما * اقتت على ادبارها لتورا
وتخالها والشمس تجلو لونها * نارا وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول * ذابت بلنار فعدن غدبرا
وكأنما نسج النسيم لمائه * درعا فقتر سردها تقديرا (١)

وقس على ذلك قصر المأمون بن ذى النون الأندلسي ، فانه أنفق في بنائه بيوت الأموال ، وكان من عجائبه انه صنع فيه بركة ماء كأنها بحيرة ، وبنى في وسطها قبة ، وساق الماء تحت الأرض حتى حلا فوق رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة وحواليها محيطة بها متصلا بعضه ببعض ، فكانت القبة في غلالة من ماء سكب لا يفتر والمأمون قاعد فيها (٢)

مباني آل طولون بمصر

أنشأ بنو طولون في مصر أبنية نفية ، أشهرها الجامع الذي بناه أحمد بن طولون ، لا تزال آثاره إلى الآن بالقاهرة ، والقصر الذي بناه في الطائغ ، وجعل له ميادانا كبيرا ، ولما توفي أحمد زاد فيه ابنه « خوارويه » وجعل الميدان كله بستانا ، زرع فيه أنواع الرياحين ، وأصناف الشجر ، ونقل إليه الودى اللطيف الذي ينال ثمره القائم ، ومنه ما يقلوله الجالس من أصناف خيار النخل ، وحل إليه كل صنف من الشجر المظم العجيب ، وأنواع الورد ، وزرع فيه الزعفران ، وكسا أجسام النخل نحاسا مذهبيا حسن الصنعة ، وجعل بين النحاس وأجساد النخل منار يبالرصاص ، وأجرى فيها الماء المدبر ، فكان يخرج من تضاعيف قاصم النخل عيون الماء فتتحد إلى فساق معمولة ، ويفيض منها الماء إلى مجار نسق سائر البستان ، وغرس فيه من الرياحين المزروع على نقوش معمولة ، وكتابات مكتوبة يتعهدا البستاني بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة ، وزرع فيه النياوفر الأحمر والأزرق والأصفر والجنوى العجيب ، وأهدى إليه من خراسان وغيرها كل أصل

(١) نفع الطيب ٢٣٣ ج ١ - (٢) سراج الملوك ٥٠

عجيب ، وطعموا له شجر المشمش باللوز ، وأشياء ذلك من كل ما يستظرف ويستحسن ، وبني فيه برجا من خشب الساج المنقوش بالنقش النافذ ليقوم مقام الأقباص ، وزوّقه بأصناف الأصباغ ، وبلط أرضه ، وجعل في قضايعه أنهارا لطافا ، جداولها يجري فيها الماء ، مدبرا في السواقي التي تدور على الآبار العذبة ، ويسقي منها الأشجار وغيرها ، وسرح في هذا البرج من أصناف القناري واللباسي والنونيات ، وكل طائر جميل الشكل حسن الصوت ، فكانت الطير تشرب وتفضل من تلك الأنهار الجارية في البرج ، وجعل فيه أوكرا في قواديس لطيفة مكنة في جوف الحيطان لتفرخ الطيور فيها ، وعارض لها فيه عيदानا يمكنه في جوانبه لتقف عليها إذا قطرت حتى يجارب بعضها بعضا بالمياع ، وسرح في البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحوها شيئا كثيرا . وجعل في داره مجلسا برواقه سناه بيت الذهب ، طلى حيطانه كلها بالذهب المجاول باللازورد المعمول في أحسن نقش وأظرف تفصيل ، وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صورا في حيطانه بارزة من خشب معمول على صورته ، وصور حطايه ، والمنقيات اللاني تفنينه بأحسن تصوير ، وأبهج تزويق ، وجعل على رؤسهن الأكاليل من الذهب الخالص الابريز الرزين ، والكواذن المرصعة بأصناف الجواهر وفي آذانها الأجراس الثقال الوزن ، المحكمة الصنعة ، وهي مسمرة في الحيطان ، ولونت أجسامها أشباه الثياب من الأصباغ العجيبة ، فكان هذا البيت من أعجب مباني الدنيا ، وجعل بين يدي هذا البناء فسقية ملاء هازنبا ، وذلك انه شكأ إلى طيبه كثرة السهر فأشار عليه بالتفخيز ، فأنت من ذلك ، وقال : لا أقدر على وضع يد أحد علي ، فقال له تأمر بعمل بركة من زئبق ، فعمل بركة يقال انها تحسون ذراعا طولاً في خمسين ذراعا عرضا وملاءها من الزئبق ، فأنتق في ذلك أموالا عظيمة ، وجعل في أركان البركة سككا من الفضة الخالصة ، وجعل في السكك زناوير من حديد محكمة الصنعة في حلق من الفضة ، وعمل فرشاً من آدم يحشى بالريح حتى يتفخ فيحك حينئذ شدة ، ويلقى على تلك البركة ، وتشد زناوير الحرير التي في حلقة الفضة بسكك الفضة وينام على هذا الفرش ، فلا يزال الفرش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق مادام عليه ، وكانت هذه البركة من أعظم ما سمع به من المهم الملوكية ، يرى لها في الليالي القمرية منظر بهيج اذا تألف نور القمر بنور الزئبق (١)

مباني الفاطميين

ولما أفضى الأمر إلى الفاطميين بنوا في القاهرة الجامع الأزهر ، وهو عامر إلى اليوم ، وقصورا أشهرها القصران الشرق والغربي ، وأثقفوا على الأخير منهما ٢٠٠٠٠٠ دينار (٢) ، فقص على ذلك ما أنفقوه في سائر القصور والدور كدار الفطرة ، ودار الديباج وغيرها ، ولما استبحر عمرانهم فتننوا في بناء المقاصير والمناظر على ضفة الخليج وشاطئ النيل كمنظرة الجامع الأزهر ، ومنظرة اللؤلؤة على الخليج ، ومنظرة الفزالة بجانبها ، ومنظرة السكرية ، ومنظرة الدكة ، ومنظرة المقص ، ومنظرة التاج ، ومنظرة باب الفتوح ، ومنظرة البعل ، ومنظرة دار الملك ، غير المتزهات العظيمة ، والقصور الفخمة ، في الجزيرة والروضة كالقصر الذي بناه الأمر بأحكام الله لمحبوته البدوية ، وسماه المودج .

وكانوا يتأقنون في زخرفة تلك المناظر والقصور تأقنا عظيما يدل على مبلغ حضارتهم وتفننهم ، فمنظرة بركة الحبش كانت مصنوعة من خشب مدهون صور فيها الشعراء كل شاعر وبلده ، وعند رأس الشاعر أبيات نظمها في ذكر المنظرة ، وبجانب كل صورة رفّ لطيف مذهب ، فاذا دخل الخليفة وقرأ الأشعار أمر أن يوضع على كل رفّ صرة محتومة فيها حسون ديناراً ، فيدخل الشاعر ويأخذ صرته (٣)

(١) القريري ٣١٦ ج ١ - (٢) القريري ٤٥٧ ج ١ - (٣) القريري ٤٨٦ ج ١

مباني الأيوبيين والمماليك

ولما انتقلت الدولة إلى الأكراد كان أعظم آثارهم البنائية قلعة القاهرة ، بناها السلطان صلاح الدين ليعتصم بها من الشيعة ، ولا تزال قائمة إلى اليوم .
ومعظم مباني مصر الآن من الآثار البنائية إنما هو من أعمال السلاطين المماليك ، ولاسيما المساجد كجامع السلطان حسن ، وجامع المؤيد ، وقايتباي ، وقلاوون ، وغيرهم . ومن آثارهم قبور الخلفاء خارج القاهرة قاتها لهم وإن نسبت إلى الخلفاء بالاسم ، غير ما اندثر من قصورهم ، وكانوا يقلدون الفاطميين في زخرفها كالرفرف الذي بناه الأشرف خليل بن قلاوون عاليا يشرف على الجيزة كلها وصور فيه أمراء الدولة وخواصها وعقد عليه قبة على عمد وزخرفها ، وكان السلطان يجلس فيه . وقصر يلغا بناه الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٨ هجرية لكنني الأمير يلغا حيث مدرسة السلطان حسن تجاه القلعة وغيرها .

الثروة والرخاء

واشتغال الخلفاء والأمراء بانشاء المدن و بناء القصور والمتنزهات إنما هو من ثمار الثروة وتكاثر النقود في بيوت الأموال ، فتنقل إلى رجال الدولة وغيرهم على ما يهتد في نظام الاجتماع ، ولذلك كان الخليفة أكثر الناس مالا لأنه قابض على بيت المال يليه الوزراء والكتاب والعمال فبنوهاشم فالأتباع والتجار وغيرهم ، واليك أمثلة من ذلك :

ثروة الخلفاء وأهلهم

لما كان الخلفاء يتولون شؤون الدولة بأيديهم كانوا أكثر الناس ثروة ، فلما عهدوا بها إلى الوزراء تحولت الثروة إليهم ، وأصبح الخلفاء أحيانا مثل سائر الفقراء (١) والأصل في ثروة بيت المال أن تكون للدولة تنفق في مصالحها ، وللخليفة بيت مال خاص به ، ولكن الخلفاء تصرفوا بأموال الدولة أولا لاعتبارهم اتفاقا مساعدا على تأييدها ثم أنفقوها في الجوائز والهدايا مثل هذه الغاية ، وتدرجوا إلى بذلها في ملذاتهم وسائر أسباب تنعمهم ، وكان يبق مع ذلك في بيوت الأموال شيء كثير ، وقد بينا في الجزء الثاني من هذا الكتاب « تاريخ المقتن الاسلامي » مقدار ما بقي منها في خزائن الخلفاء الأولين من بني العباس المنصور والمهدى والمنتصم والمستعين والكتفي وغيرهم (صفحة ١٢١) وما صار إليهم من الضياع الكثيرة (صفحة ١٣٢) وذكرنا بالخط إليه ثروة أمهات الخلفاء ، ولاسيما الخيزران أم الرشيد وقيسمة أم المعز وغيرهما (صفحة ١٣٤) فلاحاجة إلى التكرار ، وإنما أتى ببعض التفصيل على سبيل المثال : ذكروا أن المكتني خلف ١٠٠.٠٠٠.٠٠٠ دينار هذا تفصيلها : (٢)

دينار

٢٠.٠٠٠.٠٠٠	من العيين والورق والأواني المعمولة .
٢٠.٠٠٠.٠٠٠	من الفرس .
٢٠.٠٠٠.٠٠٠	من الكراع والسلاح والفلمان .
٢٠.٠٠٠.٠٠٠	من الضياع والمقار والأملاك .
٢.٠٠٠.٠٠٠	من الجواهر والطيب وما يجرى منهما . انتهى

(١) الجزء الثاني من كتاب « تاريخ المقتن الاسلامي » ١٦٣ - (٢) لطائف المعارف ٧٢

(١٤) : البذخ في الألبسة

كان المسلمون في صدر الاسلام يتوخون الخشونة في العيش والتعفف بالمطعم والملبس ، فكان الخليفة من الراشدين يمشي في الأسواق وعليه القميص الخلق المرقوع إلى نصف ساقه ، أو ثوب من كرباس غليظ ، وفي وجهه فلان من ليف ، وحائل سيفه من ليف ، وفي يده درة يستوفى الحد بها (١) وكان عمالمهم في مثل حالهم ، اذا وفد أحدهم على الخليفة لبس جبة صوف ، وتعمم بممامة دكناء ، واحتذى خفين مطارقين ودخل عليه (٢) ، وأول من اتخذ زى الملوك من أمراء المسلمين معاوية منذ كان أميراً في الشام ، وقدم عليه عمر بن الخطاب في أثناء ذلك ، فلما رآه في أهبة الملك أنكرها عليه ، وقاله : أ كثروية يا معاوية ؟ (٣) ثم تحضروا ، وكثرت الأموال بين أيديهم ، وخالفوا أهل الترف من الأعاجم ، فاضطروا بطبيعة المدينة إلى التبسط في العيش ، والتعم باللباس ، وأحب الأمويون الوشي كما تقدم ، وأكثرهم رغبة في لبسه هشام بن عبد الملك ، فاجتمع عنده ١٢٠٠٠ قميص وشي و ١٠٠٠٠٠ نكة حرير ، وكانت كسوته اذا حج تحمل على ٧٠٠ جل (٤) ، وفي أيامهم تسابق الصناع إلى إجادة الوشي ، وزاد المسلمون بذنا في أيام بني العباس ورغب أهل التجارة في حل أصناف المنسوجات الحريرية والصوفية بين موشى ومطرز ومحوك بالذهب أو الفضة ، والمرصع بالحجارة الكريمة على اختلاف البلاد التي يصنع فيها .

ومن أهم المنسوجات الثمينة الخبز وهو نسيج ناعم يصنع من الحرير ، ومن وبر الخرز وهو ذكر الأراب (٥) والابرسم حرير خالص ، والديباج نسيج حريرى موشى بالقصب بأشكال الحيوانات ونحوها ، والبرز نسيج قطنى ثمين وغير ذلك من أصناف الحرير والكتان والادارى والملحم والملم والمنير ، ومنسوجات الشعر أو الوبر أو الصوف ، وما يلحق ذلك من أنواع السمور والقماقم وغيره ، يصنعون منها الأقيية والدراريم والطبالية والجلبب والعمائم والأبراد والفلائل والملاحف والآزر والسراويلات والشاشيات والتكك وغيرها .

وكان الصناع يتبارون في اتقان هذه الصنائع ، وبغالون في ترفيعها ، لما يلاقونه من البذل في ابتاعها لتوفر الثروة بين أيدي الناس ، ولاسيما الخليفة وأهل دولته ، فكان هؤلاء يتهاقون على اقتناء الألبسة ، لا يلبون كم يكون ثمنها حتى بلغت قيمة العمامة من الديبج خمسمائة دينار ، وهم مع ذلك يكثرن من اقتنائها ويرغبون باللبس الواحد ٩ أقيية كل قباء بلون خاص للفاخرة في البذخ ، وقد تزيد على أضعاف حاجتهم إليها ، فيجتمع عند أحدهم عشرات أو مئات أو آلاف من القطعة الواحدة ولاسيما الخلفاء ، مثله ما خلفه المكتفى بالله من الألبسة وهو :

عدد

من الثياب المقصورة سوى الخلمات .	٤٠٠٠٠٠٠
من الأتواب الخراسانية المروية .	٦٣٠٠٠
من اللماعات .	٨٠٠٠
من العمائم المروية .	١٣٠٠٠
من الحلل الموشاة اليمانية وغيرها منسوجة بالذهب .	١٠٨٠٠
من البطائن التي تحمل من كرماني في أنابيب القصب .	١٨٠٠٠
من الأبسطة الأرمنية .	١٨٠٠٠

(١) الفخرى ٢٥ و ٦٦ - (٢) المقدم الفريد ٦ ج ١ - (٣) ابن خلدون ١٦٩ ج ١

(٤) المستطرف ٤٠ ج ٢ والمقدم الفريد ٢٦٦ ج ٢ - (٥) ألف باه ١٨٧ ج ٢

وتوفى ذواليمينين وفي خزانته ١٠٣٠٠ سروال لم يستعملها ، ووجدوا في كسوة بجنتهم الطيب
 ٤٠٠ سروال ديني ، ولما قتل برجوان خادم الوزير بمصر وجدوا في تركته ألف سروال ديني بألف تسكة
 حرر انتهى

(١٥) الأثاث والرياش عند الباسيين

لما انتقلت الخلافة إلى الباسيين اشتغل السفايح والمنصور بتأسيس الدولة وتأديتها ، فلما تأيد سلطانهم
 ماوا إلى الترفه ، فأخذوا بتقليد الدول السابقة لهم عملا بناموس العمران ، فأقتنوا الأسرة الذهب المرصعة
 بالجوهر أو الأبنوس المنزل بالمعاج ، وأخذوا المقاعد ، والفارق ، والكراسي ، وفسوا منائر الذهب ، وأخذوا
 فيها الشموع من الصبر ، وعلقوا الستور المرترزة ، والموشاة ، وافتشوا البسط ، والطنافس المزركشة ، والحصر
 المنسوجة بالذهب ، المسكاة بالحرير والياقوت (١) ، وظلوا في اقتناء آنية الذهب والفضة ، يأتون من كل بلد
 بأحسن مصنوعاته وأتمها ، فحياوا الستور المعلقة من فضا ، والبسط ، والملصيات من نستر وبخارا ، والحصر
 من عبادان ، والمقاعد من دشت .

على أن أسن أصناف للفرض للذهب بطراز الذهب ، كانت تأتيهم من أرمينية ، والطاقم الأرضي وهو
 عشرة مصليات بمخادها ومساندها ومطارجها وبساطها يساوي خمسة آلاف دينار (٢) ، وكانت أمثاق المنشب
 لآنية الطعم تأتيهم من طبرستان ، والزجاج والخزف من البصرة ، وأكثره وارد في الأصل من بلاد الصين
 على ما فصلناه في كلامنا عن التجارة فيما تقدم ، ولكن الزجاج الرقيق كان يحصل إليهم من الشام ، وكان
 يضرب به المثل بالرقه والسفاه فيقتل : « أرق من زجاج الشام ، وأصل من زجاج الشام » (٣)

أخذوا ما تقدم من الآنية والقروشات تهيئها للفرض والروم على ما كانت عليه عندهم ، ثم عزروها بجواهر
 ما ينقش عليها من الكتابة باللغة العربية بين أمثال وأشعار وحكم ينقشونها على الستور ، ويمسكونها بمسامير
 الذهب والفضة (٤) ويركشون البسط والطنافس ، فيرسمون في أواسطها أشكالا ومصورا في البر والبر ،
 ويطرزون نحواشيا بالذهب أو القصب أيا ما من الشعر ، ويملطرونها دور البساط بقصيدة (٥) وغالوا في الزخرفة
 حتى قشوا الأشعار على آنية البارد ، وأطباق الطعم ، وعلى جدران القاعات ، وفوق أبوابها . يتفاوت ذلك
 شكلا ومقدرا بتفاوت طبقات الناس من المرترز بالحرير إلى التزركش بالقصب ، فلهي بالذهب ، فالترصع
 بالجواهر كالسباط الذي كان لأمّ المستمين وعليه صورة كل حيوان من جميع الأجناس ، وصورة كل طائر
 من ذهب وأعينها يواقيت وجواهر ، أنفقت في صنعه ١٣٠٠٠٠٠ درهم (٦) ٥١

— ١٦ —

وما خلفته رشيدة بنت المزمّ وحفظ هناك ما قيمته ١٧٠٠٠٠٠ دينار من جنتها ١٢٠٠٠٠ من
 الثياب المصمت ألوانا و ١٠٠٠ قاطرميز مملوءة كافورا قيصوريا ، ومصممت بجواهر من أيام المزمّ ، ويستهرون
 الرشيد الخز الأسود الذي مات فيه بلوس ، ومثل ذلك مما تركته عبدة بنت المزمّ أيضا ، ويطول شرحه ،
 وخزائن مملوءة بأنواع الصبني تساري القطعة منها ألف دينار ، وحصير من الذهب وزنه عشرة أرباط وثلث
 انه الحصير الذي حملت عليه بوران بنت الحسين بن سهل لما زفت إلى المأمون كما تقدم ، وصوان من الذهب
 كان ملك الروم أهداها إلى العزيز بالله .

ووجدوا أنواعا من الشطرنج والترد مصنوعة من الجواهر والذهب والفضة ، أو الطاج ، أو الأبنوس ، وعدد

(١) ابن خلدون ١٤٥ ج ١ (٢) الفرج بعد النشة ١٠٣ ج ١ (٣) لطائف المعارف ٥٥

(٤) الايندي ٩٨ (٥) الأغاني ٤١ ج ١٥ (٦) المسطوف ١٣٤ ج ١

كبير من الزهرات ونحوها ، ومن تماثيل النسر . . . ٢٧٠ قطعة أقل ثمنها وزنه ١٢ منا ، ومن تماثيل الخليفة مالا بعد ، والكلوة المرصعة بالجواهر قيمتها ١٣٠٠٠٠ دينار فيها من الجواهر ١٧ رطلا وطلاوس من ذهب مرصع بنفيس الجواهر ، عيناه من ياقوت أحمر ، وريشه من الزجاج اللينا الجبري بالذهب على ألوان ريش الطاووس ، وفزال مرصع بنفيس الدر والجواهر ، بطنه أبيض ، قد نظم من در راقع ، ومائة من الخبز بقصد عليها جماعة ، قوائمها مخروطة ، ونخلة ذهب مكحلة بالجواهر وبديع الدر في إنبانة من ذهب تجمع الطلع والبلح والرطب بشكله ولونه وعلى صفة وحياته من الجواهر لاقيمة لها ، وكوز زبر بلور مرصع بحمل عشرة أرطال ، ومنزدة مكحلة بحب لؤلؤ نفيس ، وقس على ذلك عشرات من أمثاله .

(١٧) الفرش والأثاث عند الفاطميين

ويوجدوا في خزائن الفرش من أصناف الأثاث والرياش ما يصدق بالانوف ، من ذلك . . . ١٠٠٠ قطعة خسرواني أكثرها من ذهب ومراتب خسرواني وقطوفى ثمن الواحدة ٣٥٠٠ دينار ، واجبة معمولة للقيمة من الخسرواني الأحمر للذهب ، و . . . ٣٠٠٠ قطعة خسرواني أحمر مطرز بأبيض من ذهبها لم يضل من كساء للبيوت كلها بجميع آلاتها ومقاطعها ، وكل بيت يشتمل على مسانده ومخاضه ومساوره ومراتبه وبسطه ومقاطعها ومستوره وكل ما يحتاج إليه .

ومن أدلة الترف والاسراف في هذه المولاة أن السيدة الشريفة بنت الملك أخت الحاكم بأمر الله أعدت أياها هذا هدايا من جعلها ثلاثون فرما بجواكها ذهبها منها مركب واحد ومرصع ومركب من حجر البلور وتاج مرصع بنفيس الجواهر ، وبستان من القنطرة مزروع من أنواع الشجر اه

(١٨) أعمال الجوارى

والاستكثر من الجوارى في أوائل الإسلام لم يكن يحتاج إلى نفقة كبيرة لكثرة السبايا ، فلما نضج الثمن صاروا يتعوتون ، ويضلون في رفق أمهاتهم ، وكانت أسطرهم تضاعف إذا جمن بين الجبال ورخامة الصوت وصناعة الفناء ، ويختلف عن الجارية من صنع مئات إلى بضعة آلاف ، أو مائة ألف دينار ، وأول من بذل في هذا السبيل إلى هنا المقدرسيد أخو سليمان بن عبد الملك ، فابتاع الزنقاء الجارية الشهيرة بليون درهم (١) (نحو ٧٠٠٠٠ دينار) ، وابتاع الرشيد جارية بمائة ألف دينار (٢) ، وجارية أخرى اشتراها من إبراهيم الموصلي بمبلغ ٣٦٠٠٠ دينار فباتت عنده ليلة ثم أرسلها إلى الفضل ، وطلب محمد الأمين إلى جعفر بن المهدي أن يبيعه جارية له اسمها «بذل» ، فأبى ، فأمر فأوقروا قلبه ذهباً ، فبلفت قيمة ذلك ٢٠٠٠٠٠ درهم (٣) أي أكثر من مليون دينار ، وهذا إذا صح كان أعظم ما بلغ إليه بذلهم في أعمال الجوارى . وأما ما خلا ذلك فقد اشترى يزيد بن عبد الملك الأموي سلامة المنسية بعشرين ألف دينار ، وبعث الجارية «ضياء» بخمسين ألف دينار ، واشترى جعفر البرمكي جارية بأربعين ألف دينار ، وابتاع الزائق بنته جارية مولاة للفناء اسمها «الصالحية» بمائة ألف دينار ، وقس عليه ما دون ذلك وما فوقه واعتبر مقدار ما كانوا ينفقونه من الأموال في اقتنائهم اه

(١٩) مبلغ السخاء على العموم

تخرج المسلمون فيه بشتر جهم في الحضرة وللدنية ، وزادت جوائزهم بزيادة الثروة واتساع الأرزاق ،

(١) العقد الفريد ٢٠٣ ج ٣ وللمستطرف ١٣٢ ج ٢ (٢) الطبرى ١٣٢٢ ج ٢

(٣) العقد الفريد ٤٣ ج ٣ والأغانى ١٤٥ ج ١٥

فكان الأمويون يعطون بالآلف درهم ، أو بضعة آلاف يلحقونها ببعض المشايخ ، أو الكسوة ، أو الخليل ،
وإذا توسوا في العطاء مصلحة جعلوا الصلة عشرة آلاف ، أو عشرات الآلاف ، أو مائة ألف ، أو مائة ألفين
كما فضل معاوية في استرضاء الناس واكتساب بني هاشم إلى حربه ، فانه جعل صلات أبناء الصحابة ملايين
يبدلها رواتب كل عام ، وهو أول من فعل ذلك من المسلمين ، غير ما كان يصلهم به من الهدايا ، لسبب أو
لتفسير سبب كما فضل لما واد لعبد الله بن جعفر غلام قبله ٩٠٠٠٠٠ درهم على أن يسميه معاوية
فرض ولكنه أعطى تلك الصلة الذي بشره بالسلام (١)

واقتمدى بمعاوية من خلفه من الأمويين وأمرامهم ، واشتهر من هؤلاء آل المهلب بالسخاء في الدولة
الأموية كما اشتهر البرامكة في الدولة العباسية (٢) . ومن أسخياء عمالهم خالد القسري ، والحجاج بن يوسف ،
إذا مست الحاجة إلى السخاء ، فالحجاج أعطى الذي توسط في زواجه بهند بنت أسباط ثلاثين غلاما مع كل
غلام عشرة آلاف درهم وثلاثين جارية مع كل جارية تحت من ثياب وغير ذلك (٣) وكان سعيد بن العاص
ليرسل إلى أحد هدية مع عبد الإلكان العبد في جبلتها (٤) .

أما العباسيون فكانت الثروة في أيديهم أوفر ، فبلفت أعطياتهم عشرات الملايين من الدراهم ، وأول من
أعطى هذا القدر منهم المنصور (٥) ، ثم صاروا يهبون الفضيحة وخراج البلاد ، أو يوقرون الزورق ذهباً أو فضة ،
أو يهدون العلمان بمخافون بغير المال ، أو يرسلون الجائزة على مئات من الثواب ، أو يولون الولايات والأعمال
وتزداد جوائزهم إذا استخفهم الطرب ، أو استغزهم الإطراء ، فقد ولي السطح رجلا الأهواز بقصيدة (٦)
والغالب أن يكون سخاؤهم لفرض سياسي يعود نفعه على الدولة كما فعل المنصور إذ أعطى في يوم واحد
عشرة ملايين درهم ، فرقها في أعيانه ، ووجوه قواده ، ليقطع أسننهم عن مقاومة . ولما تولى ابنه المهدي
استكتب أسباه أولاد المهاجرين والأنصار ، ويطس مجلسا عاما فرق فيه ٣٠٠٠٠٠٠ درهم ، وقررت لكل
واحد من أهل بيته ٦٠٠٠٠ درهم كل سنة (٧) ، وأعطى المغيرة بن حبيب ألف فرسعة يضعها حيث شاء (٨)
وفرق الرشيد في يوم واحد ١٠٠٠٠٠٠ دينار (٩) ، وطرب يوما فتر على الناس ٦٠٠٠٠٠٠ درهم
درهم (١٠) ، وأعطى المهدي لعبد الملك بن مالك صاحب شرطة أبيه مالا أرسله إليه على ٤٠٠ بخل موقرة
دراهم (١١) ، وأعطى الأمين إلى سليمان بن أبي جعفر مليون درهم (١٢) ، واختص الأمين من أساليب
السخاء بأنه كان يأمر باقتناء زورق الطالب ذهباً أو فضة ، وكان قصره على شاطئ دجلة ، فإذا جاءه شاعر ،
أرطاب في زورق وأخذته الأريحية ، أو استخفه الطرب ، قال : أوقروا زورق هذا ذهباً أو فضة ، وقلما كانوا
يفعلون ذلك ، والغالب أن يموتوا عنه بمبلغ من المال كما فعلوا بلقي محمد التيمي ، فانه مدح الأمين بقصيدة
أطربته ، فأمر الفضل بن الربيع أن يوقر زورقه مالا ، فقال نعم يا سيدي ، فلما طلبه التيمي بذلك . قال له
الفضل : أنت مجنون من أين لنا ما يملأ زورقك ؟ ثم صالحه على ١٠٠٠٠٠ درهم (١٣) ، وأجاز للمأمون
طبيبه بمليون درهم وألف كرحضة (١٤) (كذا) ، وفرق للمأمون في ساعة ٣٦٠٠٠٠٠ درهم ، ومدحه
اعرابي فأجازه بثلاثين ألف دينار (١٥) ، وكان المتوكل يهب القطنع جوائز على المدح (١٦) ، وقس على
ذلك هدايا سائر الخلفاء اه

- (١) الأغاني ٧١ ج ١١ (٢) ابن خلكان ٢٦٦ ج ٢ (٣) الأغاني ١٣٠ ج ١ (٤) الفرج بعد
الشفة ٣٣ ج ٢ (٥) لطائف المعارف ١٦ (٦) فوات الوفيات ٢٠ ج ١ (٧) سير الملوك ٦٥ و ٦٦
(٨) الأغاني ٩٨ ج ١٨ (٩) المستطرف ١٣٥ ج ١ (١٠) الأغاني ٨٨ ج ٩ و ١٢٤ ج ١٧
(١١) ابن الأثير ٤٢ ج ٦ (١٢) المستطرف ١٣٣ ج ١ (١٣) الأغاني ١١٨ ج ١٨
(١٤) طبقات الأطباء ١٢٨ ج ١ (١٥) فوات الوفيات ٢٤٠ ج ١ (١٦) الأغاني ٣ ج ١١

(٢٠) سخاء البرامكة

سمع الممدون بشيخ يأتي خرابات البرامكة ، ويكي ويتعجب طويلا ، ثم يشد شعرا برئهم به وينصرف
فبحث طلبه ، فلما حضر اتهره الخليفة وسأله من هو ، وبم استحق البرامكة منما يصنع ؟ فقال الرجل وهو غير
هاب : البرامكة عندي أبادخضرة ، فان أمر أمير المؤمنين حدثته ببعضها ، فقال : هات ، فقال أنا المنذر بن المغيرة
الهمشي ، نشأت في نعمة فزالت حتى وصلت إلى بيع داري ، وأملقت إلى غاية ، فأشير علي بقصد البرامكة ،
تفرجت إلى بغداد ، ومضى نيف وعشرون امرأة وصييا ، فدخلت بهم إلى المسجد ببغداد ، ثم خرجت وتركتهن
جيلا لانفقة لهم ، فررت بمسجد فيه جماعة عليهم أحسن زي ، جلست معهم أردد في صدري ما أخطبهم
به ، فتعبد قسى عن ذل المسألة ، وإذا خادم قد أزعج القوم ، فقاموا ، فقتت معهم ، ودخلوا دار الكبيرة
فدخلت ، فإذا بجي بن خالد على دكة وسط بستان ، جلسوا وجلست ، وكنا مائة رجل ورجل ، فخرج مائة
خادم في يد كل خادم منهم بحجرة ذهب ، فيها قطعة عنبر ، فتبخروا ، وأقبل بجي على القاضي ، وقال : زوج
لبن حمي هذا بابتي عائشة ، تغلب وعقد النكاح ، وأخذنا الثار من قنات المسك ، وبنادق العنبر وغمائل
أنتد ، فالتقط الناس ، والتطت ، ثم جاءنا الخدم في يد كل واحد منهم صينية فضة ، فيها ألف دينار مخلوطة
بثلثك ، فوضع بين يدي كل واحد واحدة ، فأقبل كل واحد يأخذ الدنانير في كفه ، والصنية تحت إبطه ،
ويخرج ، فبقيت وحدي ، لأجسر أفضل ذلك ، ففخرني بعض الخدم ، وقال خذها وقم ، فأخذتها وقت ،
وجعلت أمشي وألثت خوفا من أن تؤخذ مني ، ويحجي يلاحظني من حيث لا أظن ، فلما قريت الترددت
فيشت من الصنية ، فجئت فأمرني بالجلوس ، جلست ، فسألني عن حالي ، فحدثته عن قصتي ، فبكي ، ثم قال
علي بموسى ، جاءه ، فقال : يا بني هذا رجل من أولادنا ، قد رمته الأيام بصرفها ، فخذ إليك فأخلطه
بنفسك ، فأخذني وخلع علي ، وأمرني بحفظ الصنية لي ، فكتت في أذ عيش بوي وليتي ، ثم استدعي
أخاه العباس ، وقال : إن الوزير قد سلم إلى هذا ، وأريد الركوب إلى دار أمير المؤمنين ، فليكن عندك
اليوم ، فكان بوي مثل أمس ، فأقبلوا يتداولوني وأنا قلقي بأمر عيالي ولا أتجاسر أن أذكرهم ، فلما
كان في اليوم العاشر أدخلت علي الفضل بن يحيى ، فأقتت عنده بوي وليتي ، فلما أصبحت جاءني خادم ،
فقال : قم إلى عيالك وصبيانك ، فقلت : إنا لله ذهبت الصنية وما فيها ، فليت هذا كان من أول يوم ، وقت
والخادم يمشي بين يدي ، فأخرجني من الدار ، فأزاد ما بي ، ثم أدخلني إلى دار كأن الشمس تطلع في جوانبها
وفيا من صنوف الآلات والفرش ، فلما توسطتها رأيت عيالي يرتعون في الديباج والستور ، وقد حل إليهم
مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار ، وسلم إلى الخادم صكا باسم « ضيعتين جيلتين » ، وقال : هذه الدار
وما فيها والضيب لك ، فأقتت مع البرامكة في أخفض عيش إلى الآن ، ثم قصدني عمرو بن مسعدة في
الضيعتين والزمني من خواجهما مالا يني به دخلهما ، فكلما لحقتي نأبة قصدت دورهم فبكي ، فاستدعي
المأمون عمرو بن مسعدة وأمره أن يرد على الرجل ما استخرج منه ويقرر خواجه على ما كان في أيام
البرامكة ، فبكي الشيخ بكاء شديدا ، فقال له المأمون : ألم أستاذف بك جيلا . فقال : بلى ولكن هذا من
بركة البرامكة ، فقال امض مصاحبا فان الوفاء مبارك ، وحسن العهد من الإيمان (١) اه

(٢١) السخاء على الشعراء

لما الرشيد فأعطى مردان كما كان يعطيه المهدي أي مائة ألف درهم (٢) ، وأعطاه مرة ٥٠٠٠ درهم

(١) القرج بعد السنة ٢٢ ج ٢ وسير الملوك ١١١ والانبدي ١٣٢ - (٢) الأغاني ١٩ ج ١٢

درهم وعشرة من الرقيق ، وكان يعطى أبا الصاهية راتبا سنويا مقداره ٥٠٠٠٠ درهم غير الجوائز والمعاون (١) ، وقامهم المتوكل في ذلك ، لأنه أعطى حسين بن الضحاك ألف دينار عن كل بيت من قسيمة قائلوهو أول من أعطى ذلك (٢) ، وكان المنصم اذا أعجبه قول الشاعر ملاما في جوهر ، وقد سبقه إلى ذلك يزيد بن عبد الملك (٣) .

وتشبه الوزراء والأمراء بالملفأ ، فكان خالد القسرى يجلس للشعراء في يوم معين ويحيزهم ، وكذلك آل المهلب فأنهم فرضوا لهم الأعطية والجوائز (٤) ، أما في الدولة العباسية فالبرامكة لم يدخروا وسعا في إجازة الشعراء ، وخصوصا الفضل بن يحيى ، وقد قال فيه بعضهم :

مالتينا من جود فضل بن يحيى * ترك الناس كلهم شعراء (٥)

وكان أبوه يحيى اذا لقبه شاعر ولم يكن معه مال أعطاه دابته (٦) ، وقد طاق البرامكة الملغاف في إجازة الشعراء ، فقال شاعرهم ابن اللاحق على قصيدة واحدة مثل ماناله مروان بن أبي حفصة من الرشيد كل عمره (٧) ، وقس على ذلك سخاء سائر الوزراء والأمراء فان يزيد بن مزيد أعطى نصف ماله لشاعر (٨) ويقال نحو ذلك في سخائهم على المقتنين ، فقد أعطى المهدي دحان المقتني في ليلة واحدة ٥٠٠٠٠ دينار ، لأنه أطربه ، وأعطى الأمين اسحق الموصلي ١٠٠٠٠٠ درهم ، لأنه غناه شعرا في مدحه ، فخلها إلى داره مائة فراتس (٩) ، وكان الهادي يجرى على ابراهيم الموصلي عشرة آلاف درهم في الشهر سوى صلته ، أما الرشيد فكان اذا طرب وهب وجاد حتى ولي اسماعيل بن صالح مصر لأنه أطربه بثنائه (١٠) وأخبار الشعراء والمقتنين كثيرة فلا نطيل بها اه

(٢٢) التهنك

وطبيي فيا قمتناه من الحضارة والترف أن يتورها شيء من التهنك والفتشاء ، وان كان ذلك لا يخلو منه قوم مهما بلغ من بعدهم عن الحضارة ولكنه يكثر غالبا في المتحضرين ، لسكون خواطرهم وتوفر أسباب الرغد والتمتع عندهم ، كان في جاهلية العرب جماعة من البغايا ملقن رايات ينتجها الفتيان ، وكان بعض الناس يكرهون إيمانهم على البغاء ينتقون عرض الدنيا (١١) ، ولكن ذلك شأن الحضرمين ، لأن البدو أقرب إلى صحة الآداب ، فاعتبركم تكون أسباب التهنك أو فرقى المدن الكبرى حيث تتزاحم الأقدام ، وتتوفر القوة ، وتكثر الجرارى ، وينفش الفناء والمسكر كما كان شأن بغداد وقرطبة والقاهرة والفسطاط في إبان ذلك التمدن ، فلا غرو اذا نشأت الفحشاء فيها ، ولاسيا في العصور الوسطى ، حتى صار البغاء صناعة عليها رئيس يحكم إليه البغاورون عند الحاجة (١٢) ، وتفتنوا في ترويج ممت البضاعة بتصوير النساء على جدران الحمامات (١٣) ، وأصبح أهل التصف من الأثنياء يصورون حظاياهم على جدران منازلهم كما فعل ابن طولون ، وكان الحكام القتلأ يذلون جهدهم في منع الفحشاء ، ويقاومون تيارها بما في إمكانهم (١٤) ، ولما عجزوا عن كفت أذاها بالقوة ضربوا عليها ضرائب يدفعها أصحابها مثل سائر التجارات (١٥) .

- (١) الأغاني ١٥٧ ج ٣ (٢) الأغاني ١٨٤ ج ٦ (٣) الأغاني ١٧٤ ج ٦ و ١٤٧ ج ١
 (٤) الأغاني ١٦٤ ج ١١ (٥) ابن خلكان ١١١ ج ١ (٦) الأغاني ٨ ج ٥ (٧) الأغاني ٧٣ ج ٢٠
 (٨) ابن خلكان ٢٨٥ ج ٢ (٩) الأغاني ٩٩ و ١٤٢ ج ٥ (١٠) حلبة الكميث ٦٣ و ٦٤
 (١١) المقدم الفريد ٢ ج ٣ (١٢) الفرج بعد الشدة ١٤٣ ج ٢ (١٣) ابن خلكان ١٢٧ ج ٢
 ونفح الطيب ٨٦٠ ج ٢ (١٤) ابن الأثير ٩٥ ج ١٠ و ٢١٥ ج ١١ والمقريزي ٣١٦ ج ١
 (١٥) المقريزي ٨٩ ج ١

وأصبح ماظهر من التهنك في أثناء هذا العقد مقابلة الغلمان وتسريحهم ، وظهر ذلك على الخصوص في أيام الأمين ، وتكاثر بشكائر غلمان الترك والروم من أيام المعتصم ، وفيهم الأرقاء بالأسر أو بالشراء ، وتساوى الناس إلى اقتنائهم كما تسابقوا إلى اقتناء الجوارى وغالوا في تزويجهم وتطعيمهم ، وكانوا يحرصونهم ليأمنوا قلوبهم على نساءهم وجواريتهم ، وفشا حب الغلمان في أهل الدولة بمصر وتفرغ بهم الشعراء (١) حتى غارت النساء من ذلك ، فعمدوا إلى التشبه بالغلمان في اللباس والقيافة ليستملن قلوب الرجال (٢).

وكثرة الجوارى في بعض القصور جرحهن إلى التفتن بأساليب الفحشاء ، وربما اتخذت كل جارية خسيا لنفسها كالزوج ، كما فعلت جوارى خلدونية صاحب مصر (٣) ، حتى النساء الشريفات فنن قصودهن عن الزواج لعدم وجود الألفاء ، وأول أسباب أخراكن يجرهن إلى مثل ذلك ، فتكاثر الفساد فيهن لقة التزويج (٤) ذكرنا أن ابنة الاخشيد صاحب مصر اشترت جارية لتتبع بها ، وبلغ العز لدين الله الفاطمي ذلك ، وكان لا يزال في القرب يتحفز للوثوب على مصر ويخاف الفشل ، فلما بلغه ما فعلته ابنة الاخشيد استبشر ، وقال : هذا دليل السقوط ، وجند على مصر وفتحها ، والعفاف سياج العمران .

(٢٣) - شكل المجلس وفرشه

وقس على ذلك ما ترما أدخلوه من مظاهر الأبهة من الطراز ، وقش الأشعار في صدور المجالس ، وفرش الديباج والحزاه

(٢٤) احتفالات الأعراس ونحوها

فالاحتفال بالأعراس قلب على أحوال شتى ترجع إلى نحو المشهور من الاحتفال بأعراس المسلمين في مصر الآن مع اعتبار عوائد البلاد وتفاوت الثروة ، ونأق بمثل من أبلغ ما يعرف من التناهي بالبنخ في مثل هذه الحلال ، فنذكر احتفالاتهم المشهورة في تاريخ الإسلام : الأزل زفاف خديجة بنت الحسن بن سهل المسماة بوران إلى الخليفة المأمون ، احتفلوا به في فم الصلح احتفالاً لم يسبق له مثيل ، تراخى فيه على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق المسك ، فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك ، فكانت البندقة اذا وقعت في يد الرجل فتصمها ، فيقرأ ما في الرقعة ، فاذا علم ما فيها مضى إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها إليه ويتسلم ما فيها سواء كان ضيقة ، أو ملكاً آخر ، أو فرساً ، أو جارية ، أو مملوكاً ، ثم ترفع على سائر طبقات الناس الدينانير والدراهم ونوافج المسك ويض المنبر غير ما أنفق على المأمون وقواده وأصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه ، وكانوا خلقاً لا يحصى ، حتى على الجمالين والمكاربه والملاحين ، وكل من ضمه عسكريه ، ذكروا انه خدم في ذلك الاحتفال ٣٦٠٠٠ ملاح ، ونفذ الخطب يوماً فأوقدوا تحت القصور الخيش مغموساً في الزيت ، ولما كانت ليلة البناء وجليت بوران على المأمون فرش لها حصير من الذهب ، وبنى بمكثل مرصع بالجواهر فيه درر كبلر نثرت على النساء وفيهن زبيدة وحسدونة بنت الرشيد ، لما مست لاحداهن من الدر شيئا ، فقال المأمون شرفن أبا محمد وأكرمته ، فقتت كل واحدة منهمق يدها فأخذت درته ، فبقى سائر الدر يبلوح على ذلك الحصير الذهب ويتلأأ ، فقال المأمون : قاتل الله الحسن بن هاني كأنه قد رأى هذا حيث يقول :

كأن صغرى وكبرى من فواقها * حسباء حرد على أرض من الذهب

(١) تزيين الأسواق ١٦٣ (٢) المقرئى ١٠٤ ج ٢ (٣) ابن الأثير ١٨٨ ج ٧

(٤) الفرج بعد الشدة ٦١ ج ٢

وكانت في المجلس شمة عنبر فيها مائة رطل ، فضج المأمون من دنائها ، فعلمت له مثل من التمسح ، فكان الليل مدة مقامه فيه كالتهار ، وبلغت ثقة هذا الاحتفال ٥٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، وأمر المأمون الحسن بن سهل عند منصرفه بمبلغ ١٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم وأقطعهم الصلح ، جلس الحسن وفرق المال على قواده وأصحابه وحشمه ، وأطلق له خراج فارس وكورالاهواز مدة سنة ، وجاء المأمون إلى مرويه في الليلة التالية ، فثرت عليه بجنتها ألف درة كانت في صنية ذهب ^(١) وغير ذلك مما يفوق طور التصديق . والاحتفال الثاني احتفاله المتوكل على الله حين ظهر ابنه المعتز بالوضع المعروف بركوازا ، وبما جرى فيه أنه جلس بعد فراغ القواد والأكابر من الأكل ومثت بين يديه مرافيع ذهب مرصعة بالجواهر ، وعليها أمثلة من العنبر والتد والمسك المجهون على جميع الصور ، وجعلت بساطا معدودا ، وأحضرت قواد والجلساء وأصحاب المراتب ، فوضعت بين أيديهم صواني الذهب مرصعة بأصناف الجواهر من الجانيين ، وبين السباطين فرجة ، وجاء الفراشون بزنايل قد غشيت بالآدم مائة دراهم ودنانير نصفين ، وضبت في الفرجة حتى ارتفعت على الصواني ، وأمر الحاضرون أن يشربوا ، وأن ينقل كل من شرب من تلك الدنانير بثلاث حفنات ما حلت يده وكما خفت موضع صب عليه من الزنايل حتى يرد إلى حالته ، ووقف غلمان في آخر المجلس ، فصاحوا : ان أمير المؤمنين يقول لكم ليأخذ من شاء ماشاء ، فدنا الناس أيديهم إلى المال فأخذوه ، وكان الرجل ينقله ماسه فيخرج به ، فيسلكه إلى غلمانه ويرجع إلى مكانه ، ولما تقوض المجلس خلع على الناس ألف خلة ، وحلوا على ألف مركب بالذهب والفضة ، وأصق ألف نسمة ^(٢) .

وقس على ذلك احتفال الخليفة القتيبي بآفة سنة ٤٨٠ هجرية لما زفت إليه بنت السلطان ملكشاه وحمل جهتها إلى دار الخلافة ^(٣) ، وأما الاحتفال بتتويج السلاطين والبيعة فقد ذكرنا أمثلة منه في الجزء الأول من هذا الكتاب (تاريخ الفتنة الاسلامي) صفحة ٩١ و١١٧ و١١٨ .

(٢٥) استقبال الوفود

أما استقبال الوفود فقد كان نفعا يظهر به عز الإسلام ، ولا سيما إذا كان القادمون من وفود الدول غير الاسلامية من الروم ، أو الهند ، أو الأفرنج ، والاحتفال بذلك يختلف باختلاف الأحوال ، نذكر من أمثله احتفال المعتز العباسي برسل جاووه من ملك الروم سنة ٣٠٥ هجرية ، فانه استقبلهم في دار الشجرة التي تقام ذكراها ، وهي لهم الجيوش ، وصفت الدار بالأسلحة ، وأنواع الزينة ، وكانت جلة الصاكر المصفوفة حينئذ ١٦٠٠٠٠ رجل بين ركب وواقف ، ووقف الغلمان المحبرة بالزينة والمناطق المحلاة ، وكانوا اثنين وعشرين ألفا ، ووقف الخدم والخيام كذلك وعددهم سبعة آلاف منهم ٤٠٠٠ خادم أبيض و ٣٠٠٠٠ خادم أسود ، ووقف الخياب وكانوا سبعمائة حاجب ، وزينت المراكب والزوارق في دجلة أعظم زينة ، وزينت دار الخلافة ، وكانت جلة الستور المعلقة عليها ٣٨٠٠٠ متر منها ديباج مذهب ١٢٥٠٠ متر ، وكانت جلة البسيطة ٢٢٠٠٠ بساط ، واستعرضوا مائة سبع مع مائة سبع ، وكان في جلة الزينة الشجرة الذهب والفضة التي تشتمل على ثمانية عشر فصنا من الذهب والفضة ، فكانت أخصاها تماثيل بحركات موضوعة ، وعلى الأغصان طيور وعصافير مختلفة من الذهب والفضة تصفر بحركات مرتبة كما وصفناها في عملها ، فشاهد الرسل من العظمة ما يطول شرحه ^(٤) انتهى ما أردته من كتب « تاريخ الفتنة الاسلامي » والحمد لله رب العالمين .

(١) لطائف المعارف ٧٣ وابن خلكان ٩٣ ج ١ (٢) لطائف المعارف ٧٤ (٣) ابن الأثير ٦٥ ج ١٠

(٤) أبو الفداء ٧٣ ج ٢ وابن السامى ٧٥

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : أما الآن فقد أوفيت القول حقه ، وأصبح ما كان مجرد خيال واضح الحقيقة ظاهراً للعيان ، إذن على المسلمين بعدنا أن يذروا الخطأ الذي وقع فيه آباؤنا الأولون ، ويقبضوا دلوهم على حفظ صحة الأبدان والعقول ، وترك الفضول ، والاهلكوا كما هلك الأولون ، وذلوا كما ذل الأقدمون ، وإذا اتبعت هذا المقام بما يلحق عليه شعاعاً من نور العلم ، فتبين ما حصل لبعض الملوك الذين تربوا تربية الترف والنعم ، وهل جنودهم وأعوانهم حفظوا عهدهم ؟ أم كانوا أول الفاتكين بهم ؟ ومات أكثرهم في ريمان شبابه ، فقلت سأفعل إن شاء الله ، انظر :

عقاب الأمراء المسلمين بجهلهم في نفس الحياة الدنيا قبل عقاب الآخرة

ذلك أن صديقي العالم الذي يذكر في هذا التفسير سمع ماسمعه أنت أيها الأخ فهاله الأمر جدّاً ، وقال : ألهذا الحدّ وصل ملوك الإسلام ، أين القرآن ؟ أين الحكمة والفلسفة ؟ أين العقول ؟ فكيف تكون أسرته ذهباً مرصعة بالجواهر ، وكيف يميلون للترف والتنم ، اللهم لاحول ولاقوة إلا بالله العليّ العظيم . ثم قال لي كما قلت أنت : أيها الصديق : ليكن في هذا المقام مقال فيه ما حلّ بهؤلاء المسرفين من النمل في الحياة الدنيا ولست أكتفي بأن تذكر لنا أن دلوهم ذهب ، وعزّهم اختفي ، بل أنا أرجو أن تبين ما حاق بنفس هؤلاء المترفين ، فإن هذا يبين للناس أن الغفلة المستحكمة في الأمم لها عقاب في نفس الحياة ، ولعمري إن ذلك مني اتضح تماماً كان أقوى رادع ، وأعظم زاجر ، ومؤثر في الأمم بعدنا .

كيف يجهلون علم الصحة ، وكيف يسكرون ، وكيف يكتمون من ألوان الطعام ، وكيف يتفننون في الملاهي ؟ أجهلوا أن هذا نفسه يمنع السعادة في نفس الحياة ؟ ألم يدرسوا ، ألم يتعلموا ؟ هذا هو الجهل ، ثم إن الانغماس في اللذات هو نفسه مزيل للذكاء ، مسلط للجند على الأمراء ، فهل كان هؤلاء لا يعقلون ؟ قلت : حياك الله أرح فؤادك قليلاً ، إن المطلع على ما تقدم في ﴿سورة ص﴾ من الكلام على تربية الأمراء والجند عند آية : « باداود إنا جعلناك خليفة في الأرض الخ » وعلى حفظ الصحة في الكلام على قصة آدم هناك يعرف علم الصحة عند أطباء زماننا في أوروبا ، وبراها موافقة أشد الموافقة لسيرة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين في بساطة طعامهم ، وأن الذين يتجاوزون هذه السيرة أذلاء في نفس حياتنا الدنيا ، وهناك ما طلبت من الأمثلة على ذلك :

﴿أولاً﴾ جاء في كتاب « مروج الذهب » للسهودي ما نصه : « حدث البصريّ ، قال : اجتمعنا ذات يوم مع السدما في مجلس المتوكل فتذاكرنا أمر السيف فقال بعض من حضر : بلغني يا أمير المؤمنين أنه وقع عند رجل من أهل البصرة سيف من الهند ليس له فطير ولم ير مثله ، فأمر المتوكل بكتاب إلى عامل البصرة يطلبه بشرائه بما يبلغ فنفذت الكتب على البريد ، وورد جواب عامل البصرة بأن السيف اشتراه رجل من أهل اليمن ، فأمر المتوكل بالبعث إلى اليمن بطلب السيف وابتاعه فنفذت الكتب بذلك ، قال البصريّ : فبينما نحن عند المتوكل إذ دخل عليه عبيد الله والسيف معه ، وعرفه أنه ابتاع من صاحبه بأربعين بعشرة آلاف درهم ، فسرت بوجوده ، وجد الله على ما سهل من أمره ، وانتضاء فاستصنه ، وتكلم كل واحد منا بما يحب ، وجعله تحت نبي فراشه ، فلما كان من الغداة قال للفتح اطلب لي غلاماً تتق بنجده وشجاعته أضع له هذا السيف ليكون واقفاً به على رأسي لا يفرقني في كل يوم مادمت جالساً قال فلم يستم الكلام حتى أقبل باغراتركيّ فقال الفتح يا أمير المؤمنين هذا باغراتركيّ قد وصف لي بالشجاعة والبسالة وهو يصلح لما أراد أمير المؤمنين ، فدعا به المتوكل ، فدفع إليه السيف وأمره بما أراد وتقدم أن يزاد في مرتبته وأن يصف له الرزق ، قال البصريّ : فوالله ما اتضح ذلك السيف ولا خرج من عنده من الوقت الذي دفعه

إليه إلا في الليلة التي ضربه فيها باغر بذلك السيف . قال البصري : لقد رأيت من المتوكل في الليلة التي قتل فيها هيبا ، وذلك اتنا تذاكرنا أمر الكبر وما كانت تستعمله الملوك من الجبرية ، جعلنا نحوض في ذلك وهو يتبرأ منه ، ثم حوّل وجهه إلى القبلة فسجد ، وعفر وجهه بالتراب خضوعا لله عز وجل ، ثم أخذ من ذلك التراب ، فثمره في لحية ورأسه ، وقال : إنما أنا عبد الله ، وأن من صلب إلى التراب لحقيق أن يتواضع ولا يتكبر ، قال البصري : فخطبت له من ذلك ، وأنكرت ما فعله من نثره التراب على رأسه ولحيته ، ثم قفاه للشراب ، فلما عمل فيه غنى من حضر من المؤمنين صوتا استحسنه ، ثم التفت إلى الفتح فقال يا فتى ما بقي أحد سمع هذا الصوت من غمارق غيري وفيرك ، ثم أقبل على البكاء ، قال البصري : فخطبت من بكائه ، وقلت هذه ثانية ، فأنا في ذلك إذ أقبل خادم من خدم فتية ومعه منديل وفيه خلعة وجهت بها إليه فتحة فقال له الرسول يا أمير المؤمنين قول لك فتية أني استملت هذه الخلعة لأمبر المؤمنين واستحسنتها ووجهت بها لتلبسها ، قال فإذا فيه دراعة حراء لم أر مثلها قط ومطرف خز أحمر كأنه دبق من رفته ، قال فلبس الخلعة والتحف المطرف ، قال فأتى على ذلك إذ تحرك المتوكل فيه وقد كان التحف عليه المطرف فجذبته جذبته نظره من طرفه إلى طرفه ، قال فأخذه ولفه ، ودفنه إلى خلم فتية التي جاءه بالخلعة ، وقال : قل لها احتظي بهذا المطرف عندك ليكون كفنا لي عند وفاتي ، فقلت في نفسي . إنا لله وأنا إليه راجعون ، اقتضت والله للمدة وسكر المتوكل سكرًا شديدا ، قال : وكان من عادته أنه إذا تمايل عند سكره أن يقيه الخلم الذين عند رأسه قال فيينا نحن كذلك ومضى نحو ثلاث ساعات من الليل إذ أقبل باغر ومعه عشرة نفر من الأتراك وهم مثلثون والسيوف في أيديهم تبرق في ضوء ذلك الشمع ، فهجموا علينا وأقبلوا نحو المتوكل حتى صعد باغر وأخروا من الأتراك على السرير فصاح بهم الفتح ويلكم مولاكم ، فلما رأهم القتلان ومن كان حاضرا من الجلاء والنساء تطايروا على وجوههم فلم يبق أحد في المجلس غير الفتح وهو يحاربهم ويمانهم . قال البصري فسمعت صيحة المتوكل وقد ضربه باغر بالسيف التي كان المتوكل دفنمه إليه على جانب الأيمن ففقدته إلى ناصبه ، ثم ناه على جانبه الأيسر ففعل مثل ذلك ، وأقبل الفتح يمانهم عنه ، فبجبه واحد منهم بالسيف الذي كان معه في بطنه فأخرجه من مته وهو صابر لا يتنهي ولا يزول ، قال البصري فما رأيت أحدا كان أقوى نفسا ولا أكرم منه ، ثم طرح بنفسه على المتوكل فباتا جميعا ، فلما في البساط الذي قتلا فيه وطرحا ناحية ، فلم يزالا على حالتهما في ليلتهما وعامة نهارهما حتى استقرت الخلافة المنتصر ، فأمر بهما فدفنا جميعا وقيل ان فتية كفتته بذلك المطرف المفرق بينه ، وكانت سنة ٤٩ سنة ٨٥

ثانيا - الكلام على المنتصر بالله بعد للتوكل

الذي تولى الملك سنة ٢٤٧ وسنة ٢٥ سنة ، تولى الخلافة نصف سنة لا غير

قال السعدي في « صروج الذهب » : إن الخليفة المنتصر كان يلعب الصولجان في الميدان ، فانصرف وهو عرق فدخل الحمام وتام في الباذنج ، فضربه الهواء ، وركبته حتى هائلة ، فدخل عليه أحد بن الخصب فقال يا سيدي أنت متلفس وحكيم الزمان ، نزل من الركوب تعبًا فتشغل الحمام ، ثم تخرج عرقًا فتلم في الباذنج ، فقال له المنتصر : أتخاف أن أموت ؟ رأيت في المنام البارحة آتيا أتاني فقال لي : تبش خصا وعشرين سنة ، فملت أن ذلك بشارة في المستقبل من عمري ، واتى أبني في الخلافة هذه المدة ، قال فبات في اليوم الثالث ، فنظروا فإذا هو قد استوفى خمسا وعشرين سنة .

وقد قيل ان السنفوري الطيب سمه في مشراط حجبته به ، وقد كان هزم على تفرق جمع الأتراك

فأخرج وصيفا في جمع كثير إلى غزاة الصانعة بطرسوس ، ونظر يوما إلى بنا الصغير وقد أقبل في القصر ،
وهو له جماعة من الأتراك ، فأقبل على الفضل بن المأمون ، فقال : قتلتني الله ان لم أقتلهم ، وأترقي جمعهم
بقتلهم المتوكل على الله ، فلما نظر الأتراك إلى ما يفعل بهم وما قد عزم عليه وجدوا منه الفرصة ، وقد شكوا
ذات يوم حرارة ، فأراد الجليلة ، فخرج له من المم ثلثمائة درهم لما كان في الموضع ، وشرب شربة بعد ذلك
خلت قواه ، ويقال ان السم كان في موضع الطيب حين فصدته ، وقد ذكر ابن أبي الدنيا عن عبد الملك
ابن سليمان بن أبي جعفر ، قال : رأيت في نومي للمتوكل والفتح بن خاقان ، وقد أحاطت بهما ظر ، وقد
جاء محمد المنتصر ، فاستأذن عليهما ، فخرج الرسول ، ثم أقبل المتوكل على ، فقال : يا عبد الملك قل لمحمد
بالكأس الذي سقيتنا تشرب ، قال : فلما أصبحت غدوت على المنتصر ، فوجدته مجنونا ، فواظبت على عيادته
فسمعت في آخر علقته يقول : « فجلنا فخرجنا » فمات من ذلك المرض اه

فلما سمع صاحب ذلك ، قال : إن هذا وأمثاله هو الذي يهملنا قوله تعالى : « فلا تحببكم أموالكم ولا
لؤلؤهم إنما يريد الله ليغزبهم بها في الحياة الدنيا ويذهب أنفسهم » . فقلت :

ثالثا - الكلام على المستمين بالله

لما كان في شهر رمضان من هذه السنة ، وهي سنة اثنتين وخمسين ومائتين ، بمث المعتز بالله سعيد بن
صالح الخلاب ليلى المستمين ، وقد كان في جهة من جهة من وسط ، فلقية سعيد ، وقد قرب من سامرا فقتله
واحتز رأسه ، وحمله إلى المعتز بالله ، وترك بيته لبقاء على الطريق ، حتى تولى دفنها جماعة من العاقبة ،
وكانت وفاة المستمين ليلة يوم الأربعاء لست خلانا من شوال سنة اثنتين وخمسين ومائتين ، وهو ابن خمس
وقلائين سنة ، وذكر شاهك الخادم ، قال : كنت عديلا للمستمين عند أشخاص المعتز إلى سامرا ونحن في
مسادية ، فلما وصل إلى القاطول نلتاه جيش كثير ، فقال يا شاهك انظر من رئيس التوم فان كان سعيدا
الخابب فقد حلكت ، فلما عاينته قلت هو واقفة سعيد ، فقال إنا لله وانا إليه راجعون ، ذهب والله نسي
وجعل يبكي ، فلما قرب سعيد منه جعل يقنعه بالسوط ، ثم أضجعه وقعد على صدره ، واحتز رأسه وحمله على
ماذكرنا ، واستقامت الامور للمعتز ، واجتمعت الكلمة عليه اه

رابعا : الكلام على المعتز وقتله

قال السعدي : انه لما رأى الأتراك من إقدام المعتز على قتل رؤسائهم ، واعماله الحيلة في فئاتهم ،
وانه قد استطاع اقاربة والفرارعة دينهم صاروا إليه بأجمعهم ، وذلك لأربع قبيل من رجب سنة خمس وخمسين
ومائتين ، وجعلوا يقرهونه بذنوبه ويربغضونه على أفعالهم وطالبوه بالأموال ، وكان المدير لتلك صالح بن وصيف
مع قواد الأتراك فليج وأنكر أن يكون قبله شيء من المال ، فلما حصل المعتز في أيديهم بعث إلى مدينة
السلام في محمد بن الواثق الملقب بالهتدي ، وقد كان المعتز نفاه إليها واعتقله فيها ، فأتى به في يوم وليلة إلى
سامرا ، فتلقاء الأولياء في الطريق ، ودخل إلى الجوسق ، وأجاب المعتز إلى الخلع على أن يسطوه الأمان
أن لا يقتل وأن يؤتمروه على نفسه وماله وولده ، وأبى محمد بن الواثق أن يقعد على سرير الملك أو يقبل البيعة
حتى يرى المعتز ويسمع كلامه ، فأتى بالمعتز وعليه قيض مدنس وعلى رأسه منديل ، فلما رآه محمد بن الواثق
وثب إليه ضاقه ، وجلسا جميعا على السرير ، فقال له محمد بن الواثق : يا أخى ما هذا الأمر ؟ قال المعتز أمر

لا أطيقه ، ولا أقوم به ، ولا أصليح له ، فأراد المهدي أن يتوسط أمره ، ويصلح الحال بينه وبين الأتراك ، فقال المعتز : لا حاجة لي فيها ، ولا يرضوني لها ، قال المهدي : فأنا في حل من يعتك ، قال : أنت في حل وسعة ، فلما جعله في حل من يمت حوله ~~فجده~~ عنه ، فأقيم عن حضرته ، وردة إلى عجبته ، فقتل في عجبته بعد أن خلع بسة أليم اه

خامساً : المعتد على الله العباسي

قال المسعودي : قد كان المعتد على الله قد لانداء وامطرح يوم الاثنين لاهدي عشرة قببت من رجب سنة تسع وسبعين ومثلتين ، فلما كان عند العصر قتم الطعام فقال ياموشكبره لوكل به ماقلت الرموس بأرقابها ، وقد كان قسم من الليل أن يقتل له رأسا جلين ، وقد فصل فيهما أرقابهما فقتلما ، وكان معه على المائة رجل من ندمائه يعرف بقف الملقم ، ورجل آخر يعرف بخلف المضعك ، فأول من ضرب يده إلى الرموس الملقم ، فأنزع أذن واحد منهما ، وأما المضعك فانه يقتلع الأهمز والأعين ، فأكلوا وأكل المعتد ، وآموا يومهم ، فأما الملقم صاحب اللقمة الأولى فانه تهرى في الليل ، وأما المضعك فانه مات قبل الصباح ، وأما المعتد فأصبح ميتا ، قد خلق بالقوم ، ودخل اسماعيل بن حماد القاضي إلى المعتد وعليه السواد فسلم عليه بالخلافة ، وكان أول من سلم عليه بها ، وحضر الشهود منهم أبو عوف والحسين بن سالم وغيرهم من المدبول حتى أشرفوا على المعتد ، ومعهم بدر غلام المعتد يقول : هل ترون به من بأس أو أثومات جلاء وقتلته مداومته لشرب التبيذ ، فنظروا إليه ، فلذا ليس به من أثر فضل وكفن ، وحل في تابوت قد أعد له إلى سامرا فدفن بها . وذكروا والله أعلم أن سبب وفاته أنه سقى نوعا من السم في شرابهم الذي كانوا يشربونه ، وهو نوع يقال له اليبس يحمل من بلاد الهند وجبال الترك والنبت ، وربما وجدوه في سفيل الطيب وهو ألوان ثلاثة وفيه خواص عجيبة اه

سادساً : المعتد بالله بعد المعتد

قال المسعودي : كانت وفاة المعتد لأربع ساعات خلت من ليلة الاثنين ثمان بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين في قصره المعروف بالحسن بمدينة السلام ، وقيل إن وفاته كانت بسم اسماعيل بن بلبل قبل قتله إياه ، فكان يسرى في جسده ، ومنهم من ذكر أن جسده كحال في مسيره في طلب وصيف الخادم على ما ذكرنا ، ومنهم من رأى أن بعض جواربه سمته في منديل أعطته إياه يتشف به ، وقيل غير ذلك مما عنه أعرضا اه

سابعاً - المعتد بالله

قتل سنة ٣٨ سنة في سنة ٣٣٠ هجرية

وكان قتله وقت صلاة العصر في الواقعة التي كانت بينه وبين مؤنس الخادم يباب الشمالية من الجانب الشرق ، وتولى دفن المعتد العاتة اه

ثامناً : القاهر بالله ابن المعتد

يروع يوم الخميس لليتين بقينا من شوال سنة ٣٣٠ هجرية ، ثم خلع يوم الأربعاء لخمس خلون من جمادى الأولى سنة ٣٣٣ هجرية ، وسملت عيناه ، وكانت خلافته سنة وستة أشهر وستة أيام اه

تاسعا : المتقى لله

إذ بويج له بالخلافة سنة ٣٢٩ هـ وسلمت عيناه سنة ٣٣٣ هـ ، وكانت خلافته ثيفا وثلاث سنين ،
 ولقد كان بينه وبين (تورون) التركي وقائع ، فأشهد تورون من حضره من الفقهاء والشهود ، وأعطى اليهود
 والموائيق بالسمع والطاعة للمتقى ، والتصرف له بين أمره ونهيه وترك الخلاف عليه ، وأخذ إليه كتب القضاة
 والشهود مما بذل من الإيمان وأعطى من اليهود ، وأشار بنوحدان على المتقى أن لا يشهد ، وخوفوه من
 تورون وحزبه أمره فانه لا يأمنه على نفسه ، فأبى إلا مخالفتهم والثقة بما ورد عليه من تورون ، وقد كان
 بنوحدان أفتقوا على المتقى نفقة واسعة عظيمة طول مقامه عندهم واجتياز بهم يكثر وصفها ويصرطينافى
 التحصيل إيرادها باكثر الخبرين لنا بتحديدتها ، وانصرف الاخشيذ عن القرات متوجها نحو مصر وانصرف
 المتقى في القرات ، فلتقاه أبو جعفر بن سبرار كاتب تورون بأحسن لقاء وأقام الأثرانك ، ومضى في انحداره حتى
 دخل النهر المعروف بنهر عيسى ، وسار إلى الضيعة المعروفة بالسندرية على شاطئ هذا النهر ، فلتقاه تورون
 هناك ، وترجل له ، ومشى بين يديه ، فأقسم عليه أن يركب ، ففعل حتى وافى به إلى المضرب الذي كان
 ضربه له على الشط من نهر عيسى ، وذلك على شوط من مدينة السلام ، فأقام هناك وأخذ رسلا إلى دار
 طاهر ليضمر المستكني ، فلما حصل المستكني في المضرب قبض على المتقى ، ونهب جميع ما كان معه وقبض
 على وزيره أبي الحسن علي بن محمد بن مقله وعلى قاضيه أحمد بن عبد الله بن اسحق ، ونهب جميع الصكر ،
 وانصرف القائد الذي كان الاخشيذ ضمه إلى المتقى ومن معه إلى صاحبهم ، وأحضر المستكني فبويج له ،
 وبكى للمتقى ، وصاح النساء وانخدم لضياعه ، فأمر تورون بضرب السباب حول المضرب تفتي صراخ الخدم
 وأدخل إلى الحضرة مسمول العينين ، وأخذ منه البردة والتغيب والحام وسلم إلى المستكني بالله اه

عاشرا . المستكني بالله

وقد بويج بالخلافة سنة ٣٣٣ هـ وخلع سنة ٣٣٤ هـ والذي خلعه أحمد بن بويه الديلمي ، وسلم عينيه
 لأنه اتهمه بمخاطبة الأعداء اه

نظام الأمم ونظام الأفراد على متن واحد

م قلت لصاحبي : هؤلاء هم الذين أردت أن أضرب لك المثل بهم ، وهم عشرة كاملة ليصل المسلمون
 في أقطار الأرض أن نظام السول ونظام الأفراد يسيران على وتيرة واحدة « ما نرى في خلق الرحمن من تفاوت
 فارجع البصر هل ترى من فطور » .
 ما الأمم إلا أفراد كثر ، إن الفرد الواحد يأكل ويشرب ويسكر ويبالغ في الشهوات ، وهو يجمل
 أنه يقتل نفسه بيده ، ويجمل أن مطالبة نفسه له بالشهوات وبالظلم والبنى فتح باب هلاكه ، وقصر عمره
 وانحراف صحته .

الهم انى لا أرى فرقا ما بين من يتعاطون السم ومن يسرفون في الشهوات . ياسبحان الله : انظر إليها
 النكتي في الذي كتبت في (سورة البقرة) في آية الحجر هناك ، وانظر ما يقوله أطباء أمريكا وفرنسا وانكلترا ،
 انظر كيف يقولون ، يقولون : « إن الحجر عقار من عقاير جعة كلهن سمات ، والانسان متى تعاطى أى سم
 أحسن في نفسه بلذة ، إذن لذة الحجر ليست خاصة به بل هي حاصلة في جميع السموم ، اه
 هذا كلام أطباء الأمم في عصرنا ، إذن جميع اللذات الهاجات على الناس قاتلات لهم مهلكات ، فقس

على ذلك كل ما استلذ به الناس من حطام الدنيا، إن في النفوس لسعادة يجلبها الغافلون، ولا يحظى بها المترفون .

فقال صاحبي : ألم يكن في هؤلاء الملوك من يقتدى بالخلفاء الراشدين وبالنبي ﷺ ؟ قلت : وهل تنفع تلك القدوة إذا فسد الزمان ؟ « رأس جل على جسم عز وخزير » . فقال : أوضح فاني لم أعرف ماذا تريد ؟ قلت : إذا أردت إسعاد نفسك وجب عليك أن تعمم العلم والحكمة في الأمة ، ولتقرأ ما قصه الله عن موسى : « إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » ، فانه لما رأى النار أحب أن يساعد أهله كما يساعد نفسه ، وهذه في القرآن وأمثالها مضرب أمثال لنا ، فليست هدايتي وحدي سواء أكنت ملكا أم فردا عاديا بغنية عن هداية الأمة ، إن كل امرئ في الأرض عضوي جسم أمته ، وهذا العضو تصل آثار أمته إليه شرفا وضعة ، وعزا وذلا ، وسعادة وشقاء ، شاء أم أبي ، فأما أني أقف وأقول سأكون على منوال أبي بكر وعمر ، وفي الوقت نفسه لم تكن التعاليم في المدارس والمعاهد على هذا المحط فان الناس لا يعشون بما أقول . فقال : هذا كلام علم فأرجو أن تأتي فيه بيت القصيد . قلت : هذا المهتدي بالله العباسي قد بويج له بالخلافة سنة ٢٥٥ هجرية وقتل ولم يستكمل الأربعين . هذا الخليفة قرب منه العلماء : ورفع من منازل الفقهاء ، وعمهم ببره ، وكان يقول : يا بني هاشم دعوني حتى أسلك مسلك عمر بن عبد العزيز ، فأكون فيكم مثل عمر بن عبد العزيز في بني أمية ، وقتل من اللباس والفروش والمطعم والمشرب ، وأمر بإخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكسرت ، وضربت دنابر ودراهم ، وعمد إلى الصور التي كانت في المجالس فحجبت ، وذبح الكباش التي كان يناطح بها بين يدي الخلفاء والديوك ، وقتل السباع المحبوسة ، ورفع بسط الديباج ، وككل فرش لم ترد الشريعة بباحته ، وكانت الخلفاء قبله تنفق على موائدها في كل يوم عشرة آلاف درهم ، فأزال ذلك وجعل لمائده وسائر مؤنه في كل يوم نحو مائة درهم ، وكان يواصل الصيام ، وقيل انه لما قتل أخرج رحل من الموضع الذي كان يأوي إليه فأصيب له سفظ مقفل فتوهما أن فيه مالا أوجوهرا ، فلما فتح وجد فيه جبة صوف وغل ، وقيل جبة شعر ، فسألوا من كان يخدمه ، فقال كان إذا جن الليل لبسها وغل نفسه ، وكان يركع ويسجد إلى أن يدركه الصباح ، وانه كان ينام من الليل ساعة من بعد العشاء الآخرة ، ثم يقوم وانه سمعه بعض من كان يأنس إليه قبل أن يقتل وقد صلى المغرب ، وقد دنا من افطاره وهو يقول : « اللهم انه قد صح عن نبيك محمد ﷺ أنه قال : ثلاثة لا تحجب لهم دعوة عن الله ، دعوة الامام العادل ، وقد أجهدت نفسي في العدل على رعيتي ، ودعوة المظلوم ، وأنا مظلوم ، ودعوة السائم حتى يظفر ، وأنا صائم » وجعل يدعو عليهم وأن يكفي شرهم وكانت بين المهتدي وبين بايكي حرب عظيم قتل فيها خلق كثير من الناس وانكشف بايكيال واستظهر المهتدي عليه ، فخرج كمين بايكيال على المهتدي وفيه مارجوج التركي ، فولى المهتدي وأصحابه ، ودخل - امرا مستغيثا بالعامّة ، مستنصرا بالناس ، يصيح في الأسواق فلامغيث ، وأمامه أناس من الأنصار ، فمضى مزيسا من النصر إلى دار ابن خيمونة بسامرا محتفيا ، فهجموا عليه وعزلوه ، وحمله منها إلى دارمارجوج ، وقيل له : أتريد أن تحمل الناس على سيرة عظيمة لم يعرفوها ، فقال : أريد أن أجعلهم على سيرة الرسول ﷺ وأهل بيته والخلفاء الراشدين ، فقيل له الرسول ﷺ كان مع قوم قد زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم ، وأنت إنما رجالك تركي وجزري ومغربي ، وغير ذلك من أنواع الأعاجم لا يعلمون ما يجب عليهم من أمر آخرتهم ، وإنما غرضهم ما استجلبوه من هذه الدنيا ، فكيف تحملهم على ما ذكرت من الواحمة فكثير منهم ومنه الكلام والمراجعة في هذا المعنى وأشباهه ثم انقادوا إليه على حسب ما ظهر للناس من ذلك ، فلما كاد الأمر أن يتم قام فيهم سليمان بن وهب الكاتب ، وقيل غيره ، وقال

هنا سوء رأى منكم ، وخطأ في تدبيركم ، ان أعطاكم بلسانه فنيته فيكم غير هذا . قال وسياتي عليكم جميعا ويفترق جمعكم ، فلما سمعوا هذا القول استرجعوا وجاموه بالخناجر ، فكان أول من برحه ابن عم لبايكيل جوحه بخنجر في أوداجه ، وأنكب عليه فالتقم الجرح والدم يفور منه ، وأقبل يمصّ الدم حتى روى منه والتركي سكران ، فلما روى من دم المهتدي قام قائما وقد مات المهتدي ، فقال يا أصحابنا قد رويت من دم المهتدي كما رويت في هذا اليوم من الخمر ، وقد تنوزع فيما ذكرنا من قتل المهتدي ، والأشهر ما ذكرناه من قتله بالخناجر ، ومنهم من رأى أنه عصرت مذاكيره حتى مات ، ومنهم من رأى أنه جعل بين لوحين عظيمين وشدّ بالرجال إلى أن مات ، وقيل خنقا ، وقيل كبس عليه باليسط والوسائد حتى مات ، فلما مات داروا به بنوحون ويكفون عليه وندموا على ما كان منهم من قتله لما تبينوا من نسكه وزهده . وبهذا تم الكلام على الفصل الأول في آية : « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا الخ » والحمد لله رب العالمين

فقال صاحبي : أريد قبل أن تنتقل إلى الفصل الثاني أن أرجو منك أن تشرح لي هذه الدنيا وأحوالها بقول موجز ، وكيف نراها إلى الهوان والبؤس أقرب منها إلى العزّ والسعادة ، وكيف وجدنا الفلاسفة قبل النبوة الإسلامية بعشرة قرون يقولون لنا : « إن سعادة الدنيا نفسها بترك الشهوات ، وأن الأمراء عليهم أن يكونوا زاهدين أصلحتهم هم أنفسهم وأسعدهم ، وأن أرباب الدولة يجب عليهم أن لا يكون لهم متاع ولا ملك ولا يسكرون ولا يقتنون ، فإذا الذي دها هذا الانسان ؟

فقلت : أيها الصديق ، بخيل لي أن هذه الأرواح الأرضية كأنها كانت في عوالم أخرى من عوالم الأرواح قبل حلولها في هذه الأجسام ، وأن أهل هذه الأرض كأنهم لم يصلحوا للحياة هناك فأخرجوا من السعادة وقيل لهم : « أتم لا تصلحون إلا للحياة في أجسام غليظة » ، فجيء بهم إلى هذه الأرض ، ومن رحمة الله أنه أنزل لهم فلاسفة وحكماء يعلمونهم ، وأرسل لهم رسلا ، فهؤلاء بالعقل ، وهؤلاء بالوحى ، فيقولون لهم : يا أهل الأرض : إياكم والبطنة ، وإياكم والظلم ، وإياكم والفسحشاء . وهم لم يقولوا ذلك لاسعادهم في الآخرة فقط ، بل أرادوا إسماعدهم في الدنيا أيضا ، فأخذ الناس يسمعون كلام هؤلاء الأنبياء كالتخلفاء الراشدين رضی الله تعالى عنهم ، ثم غلب على الناس طبعهم ، فرجعوا إلى عادتهم ، ولقد مررت بك مائة سقراط في الجمهورية فإن أهم علمها موافق للإسلام في الفضيلة وقليل منه يخالف الإسلام ، لأنهم لا وحى ولا نبوة عندهم ، فهذا العلم متبع من العقل ، وقد وافق الوحى والنبوة ، ولكن الناس يرجعون إلى دينهم ، ومنى رجوع جيل واحد أتبعته الأجيال كلها .

هذا رأي في هذا الانسان ، فمثل بني آدم كمثل الذي استوقد نارا في صحراء فلما أضاءت ماحولة ذهب للنور وبقي الناس في الظلمات وهم لا يبصرون ، فالحكمة والنبوة هما كالنار أضاءت ماحولها ، ولكن ما يكاد الأنبياء يفارقون الناس حتى يرجعوا إلى أخلاقهم وأحوالهم .

هذه الأمم الإسلامية درنت دول الروم والفرس ، واتبعت خطواتهم في غدواتهم وروحانهم ، فما تركوا خرا ولا موائد ولا لذات ولا أوزارا وقع فيها القوم إلا اتبعوهم فيها ، سواء في ذلك الأمويون والعباسيون والأندلسيون ، وكلما خلت أمة أتبعتها أخرى حذو القذة بالقذة ، تشابهت قلوبهم ، فهم جميعا في غمرات الجهالات غارقون ، حتى أنك ترى أمتنا المصرية في زماننا تسير على منوال العصر العباسي . ذلك أن الفرنجة ملثوا بلادنا بالخر والحشيش والخمرات . وأعظم ما يحزنني أن أكثر المعلمين الذين يعيرون من خزانة حكومتنا لا يهنا لهم طعام ولا شراب ولاسكر ولا طوبى إلا في تلك الأماكن المعدة للفسوق ، وفيها الصور الداعية للشهوات وفيها الملاهي والحمازي ودور الصور المتحركة (السينما) التي لا تدرشها إلا حرمت فيه الشهوات ، وأعدته للفسوق

فان كان حاكما أصبح في الغالب لصا ، وان كان غنيا أضاع ثروته وهكذا . إن كثيرا من الناس في ديارنا أصبحوا في حال اختلال واختباط ، فانا لله وانا إليه راجعون . فقال : وما رأيك الآن ؟ فقلت :

﴿ أولا ﴾ أن تمتحن أشعار القرون الأولى ، وينبذ منها كل ما كان فيه رقاعة وحث على الشهوات ، وي طرح جميع الغزل المهيج الذي كان أيام السولة العباسية ، وذلك ببلجنة من علماء الترية الدارسين لعلم النفس حتى يميزوا بين الفث والسمين ، ويحرم على الشعب أن يقرأ شيئا من ذلك ، وهكذا تبحث الكتب العربية التي ورتناها عن آباتنا ويلقى منها كل بيت فيه ما يدعو إلى الشهوة ، ولو كان شاهدا على قاعدة ، فكفى جهلا وغرورا ، وكما رأينا سقراط يمرض أشعار (هومروس) وينقدها فلنعرض نحن أشعار المتنبي وأبي تمام والبصري والمعري ونقدها نقدا صحيفا ، ونحذف منها كل ما يخالف تهذيب شباننا . فاذا سمعنا المعري يقول :

قالوا إليه بلازمان ولامكان الاقولوا * هذا كلام له خبي

معناه ليست لنا عقول ، واذا سمعناه يقول :

هذا جنه أبي علي * وماجنت على أحد

يريد بذلك اجماع الناس عن التناسل بالثاني وجمود الإله في الأول ، فانا ننبذُه ونحذفه ، ونحرم على الشبان قراءته . واذا سمعنا عبد الله بن المعتز يقول :

يقول العاذلون قز عنها * واطف طيب قلبك بالسؤ

وكيف وقبله منها اختلاسا * ألد من الشهامة بالعدو

أرسمناه يقول :

اذا اجتنى وردة من خده فه * تكونت تحتها أخرى من الخجل

قلنا له يا ابن المعتز احفظ هذا لنفسك أنت وأشبهك ، فان حفظ هذه الأبيات يدعو الى الذكرى والذرى تهيج النفس لأمثال ما سمعت ، وعلى الأمم الاسلامية أن تستبدل بذلك الجمال الطبيعي في الكواكب والنبات والحيوان ، مما ملأنا به هذا التفسير وكتبنا الأخرى لنفتح للشبان باب الجمال الذي لا تشوبه الشهوات ، فأما الأمم العربية آباؤنا في الشرق والأندلس فقد قتلهم الغزل ، وظنوا جهلا أن هذا يرقى النفوس ويعلم البلاغة ، وهذا حق أريد به باطل . الجمال المطلوب هو جمال السموات والأرض والنبات والحيوان ومجائب هذه الدنيا . أما الوقوف عند هذا الجمال الشهواني فهو الذي أضاع أمة العرب وأهلكها وأطمع أهل أورربا في الأندلسيين الذين انحصرت عقولهم في تلك الشهوات ، وجيرانهم يستعتون لهم سرا ، ففتكوا بهم فتكا ذريما ، فعلى الأمم الاسلامية أن يرجعوا لأشعار آباؤهم فان أشعارهم هي التي قتلت دولتهم ، فهي إما مدح ملك ، وهذا قص ، وإما غزل في امرأة ، وهذا قص آخر ، وليجصوها ، وليعطوا الأبناء منها ما يوافق الرقي كقول بشار بن برد :

اذا ما غضبنا غضبة مضرية * هتكنا حجاب الشمس أوقطرت دما

اذا ما أعزنا سيدا من قبيلة * ذرى منبر صلى علينا وسلما

أيها المسلمون : أنا أنذركم ان لم تفعلوا ذلك ، هاأنذا والحمد لله قد فتحت الباب فلجوه ، وادرسوا الأشعار ، ولا تقفوا ما ليس لكم به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا .

﴿ ثانيا ﴾ أن لا ندع صورة من الصور (شريط السينما) تدخل بلادنا إلا اذا كانت لعلم ، أو لصناعة ،

أولزراعة ، فأما العشق ، وأما الغرام فلا .

(ثالثا) أن لا يجلس في المطاعم الفرنجية ، ولا يجلس إلا في مطاعم أبناء بلادنا ، فإن كان ولا بد فلنعمل نحن طبقة منا ، ولنقم مقام الفرنجة في ذلك .

(رابعا) أن نحرم على الملوك والأمراء والمديرين أن يشتغلوا بغير المملكة ، ونعطيهم من مال الدولة ما يكفهم ، فأما الاشتغال بالمال الخاص ، فهذا خطر عظيم . فقال : هذا أمر لا يقبله أحد . فقلت : ليس المقام في القبول ولا عدمه ، وإنما أنا الآن في مقام النظام الكامل والناس ينظرون في أحوالهم بحسب زمانهم فيقتربون من الكمال بقدر الامكان . إن الأمة الكاملة هي التي يكون حكامها متفرغين لأعمالها فرحين بربقيها فتكون لذتهم في اسعادها أعظم من السعادة بالمال آلاف الآلاف .

(خامسا) أن نعمم التعليم للرجال والنساء .

(سادسا) أن نضع كل متعلم فيما يستحقه بحسب استعداده .

(سابعا) لارشوة ، لاسمجة .

(ثامنا) أن نحرم السؤال في الدولة ، فنجمع الشحاذين ، ونعرضهم على الأطباء ، فن صلح للعمى أننا له بعمل تحت اشرافنا ، ومن لم يصلح له أعطيناها طعاما من بيت المال اه هذا مجمل ما أريده في أم الاسلام اليوم ، والحمد لله رب العالمين .

فلما سمع ذلك صاحي . قال : لقد أوضح التاريخ العبر والمبتدأ والخبر في آية : « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا » وعرفنا كيف هلك الملوك وذلوا بأيدي جنودهم فأرجو أن تبين لي ثلاثة أمور : ما الذي جرى لأمم الاسلام في الشرق ؟ وهل ملوك الأندلس جرى لهم ما جرى لملوك الاسلام في الشرق ؟ وهل هلكت دولة الآخرين ودولة المتقدمين ؟ فقلت : أولا إن الذي جرى لأمم الاسلام في الشرق إنما هو زوال الملك وضياع الأمة ، وذهاب ملك العرب بتاتا ، وهذا تقدم في (سورة الكهف) في آية : « إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض » ، فقد جاء التار من الشرق وعلى رأسهم جنكيزخان وخلفه ملوك منهم (هولاكو) وأذل الأمة ودمرها تدميرا لارجعة له ، وقتل الخليفة ، وقد أحضر أمامه جيع الجواهر والماس والياقوت والنهب مما لا يحصره العد وأراه أن هذا جاء من مخازنه وهو غافل عنه وقتله في زكية مكظوم النفس فان أردت بإصاح معرفة هذا الموضوع فاقراء هناك تحت عنوان « يأجوج ومأجوج » — (ثانيا) ان الذي جرى لأمراء الأندلس هو الذي جرى لملوك العباسيين في الشرق ، فانظر ما جاء في كتاب (غادة الأندلس) المؤلف حديثا في عصرنا ، وهذا ملخص مما فيه :

ذلك أن القائد (براقا) قابل الأذفونش في رومه في الفاتيكان ، وجاء أيضا معهما دوق فينيزيا فقال له ابن اذفونش : « اعلم أيها البطل أن البابا قد استدعى بارونات أوروبا وشاورهم في استرجاع مملكة اسبانيا من العرب ، فلتسكن مساعدنا لنا » . فقال براق : « إن الأسد لا يصاد إلا بالمكر والحديعة ، وقد يستعين الصيادون بالخر ، ولا يفل الحديد إلا الحديد » . فقال دوق فينيزيا : إن جيوش البارونات تسحقهم سحقا في أقل من لمح البصر . فقال البراق : إن العرب يحافظون على دينهم وعلى حرمهم ، ولقد تفتى القبيلة كلها محافظة على الشرف ، ولكن هم قوم كرام صادقون بأبون الكذب ، فهم يمدعون بسهولة بالظواهر الموهمة ، فاجعلوا بينكم وبينهم معاهدة على حرية الدين والتعليم والتجارة ، فهذه تفتح لربانكم طريقا بها يشون التعاليم بين أطفالهم ، فان لم يقبوا دينكم فهم على الأقل يهملون دينهم ، فيفقدون تلك الحمية الدينية

التي تحبهم في الحرب ، فأما حرية التعليم فانها تولد لهم غلمان شوم عابهم لأنهم يكونون مشغوفين بحب معاليهم ، ويبتعدون عن محبة وطنهم ، فأما حرية التجارة فهي التي تضع شياطينا تمسكهم بأزيائهم فضلا عن تجارة الخمر ، فهي الآن محرمة ، فحتى شاعت بينهم أقدموا على المنكرات بلا مبالاة ، وفقدوا النخوة والشرف ، وضعت منهم العقول والجسوم ، وفشا بينهم الشر ، وساءت حالهم ، وارتيكت شؤونهم ، فساقون كالأغنام ، ولانفس يا حاضرة الدوق أن التأنيق في النعمة ، والبذخ ، والاسراف في الشهوات ، واهمال سير الآباء والجدود من أقوى أسباب انحطاط الممالك القوية .

فلمعت أسرة وجه ابن أذفونش بعد أن كان يلوغ عليه اليأس : وشكر براقا على اخلاصه . وفي الصباح اجتمع البابا ودوق فينيزيا وبارونات أوروبا ببراق وتحادثوا مليا وكتبوا صورة هذه الشروط وأرسلوها مع معتمدين الى أمراء الاسلام بالأندلس ، فوصلت شروط طلب الهدنة الى مالك بن عباد قرطبة وقد فرغ من تحصيل مدائنه وفلاعه فدعا قواده وعمال مدائنه وأمراء أشبيلية وطليطلة وبلنسية ومالقة والجزيرة الخضراء وغرناطة ، فحضروا بعد أيام الى قرطبة وهم يخطلون على خيولهم ، وكان من بينهم عدى بن أبي عامر صاحب بلنسية يتبعه مائتا فارس فعال أفراسهم ذهب ابريز ، فزولوا جميعا برصانة قرطبة ، وكان مالك قد بنى بها قصرها فخما تحيط به الحدائق والجنات ، قد جعل فيه تماثيل من فضة بأشكال الطيور والحيوانات ، تخرج من أفواهها المياه ، وفيها قال ابن زيدون من قصيدة :

قصر يقر العين منه ناظر * بهج الجوانب لومشى لاختالا

فقبلوا شروط الصلح فعرضهم قيس بن مصعب ، وبقى الأمراء في ضيافة مالك بن عباد شهرا :

ومن رمى غنما في أرض مسبعة * ونام عنها تولى رعيها الأسد

فلما انقضت أيام الولايم رجع الأمراء الى بلادهم إلا عدى بن أبي عامر صاحب بلنسية فانه بقي مع الأمير يقضيان الزمن في اللهو والصيد والخمر وهكذا بقية الأمراء وشعوبهم يتبعونهم ، فانحطت الدولة بذلك ، وزاد في افسادها تلك المعاهدة ، فانشر الرهبان في أنحاء الأندلس وأخذوا يبتون تعاليمهم ، وكانوا يجتمعون في أوقات خاصة للتشاور ، وقد شيدوا ضيعة على ضفة نهر قرطبة وسط البساتين ، وكانت منزلها جيلا يؤتمه العظماء والأمراء لاسيما أيام الآحاد .

وقال صاحب التاريخ المسمى بالمعجب : « لقد جتدوا في عام هذه المعاهدة أربع مدارس كبرى على نفقة (دوق فينيزيا) أحد كبارهم وجعلوا التعليم فيها علما لمن شاء (بينما كانت مدارس المسلمين بقرطبة وغيرها تسكاد تمحي إذ انقضت تعاليمها تماما إلا ما يختص بالشريعة) ، فأقبل العرب على تلك المدارس ، واختلطوا بالقسيسين والرهبان ، وتعلموا لغاتهم ، وجاروهم في عوائدهم وأخلاقهم ، وزاد الأمر في بلنسية فان المبشرين والمعلمين تسخروا في كل شيء لأن نائب عدى عليها المسمى (ابن ذى النون الغافري) أطلق لهم الحرية التامة حتى اتهمه بعض الوزراء بأن البيا استهاله بالرشوة . »

واقدم لعبد براق بن عمار دورا مهما هنا ، ذلك أن أمير أشبيلية المسمى (جندل بن حيو) لم يملك بقرطبة إلا ريثما وقع على شروط الهدنة ، وأتى البقاء وعاد إلى عاصمته ، وذلك لسر خفي في نفسه ، ذلك أن أحد معتمدي البابا الذين حضروا إلى قرطبة أعطاه خطابا من البابا وعده فيه بأنه يؤمل أن يجعله ملكا مستقلا بولايات الأندلس قاطبة ، وأن البارونات متفقون على نصرته في أي وقت شاء . ثم ان براقا وفي بمهده لأنه عاهد البابا أن يدخل بعض البطارقة في قيادة الجيش ، وقد أخذ البطريق المسمى (شيل) رفاقه في أيام الصيد ، وأخذ براق يمدحه عند ابن عباد بالشجاعة ثم أحضره إلى الديوان فقاتل مالك بن عباد وما بلغ من شجاعته براق ؟ فقال اختبره إن شئت . فقال مالك لتبارزا فان غلبته فكفاه خزيا وان غلبك جتته

من قواد جيشنا ، فتبارزا وتظاهر برأى بأنه مغلوب ، فتكدر مالك بن عباد لما يعلم من مهارة برأى وشجاعته
وجعل البطريق قائدا وقربه منه ، فانتخب من أبناء بلاده من أراد لتدريب عسكر المسلمين على استعمال
السلاح ، وصارت عواصم الأندلس محط الترباه ، وراجت التجارة في البلاد ، ولاسيما البحر .

قسيس يخص شباب المسلمين المتعلمين بخمر عنب قرطبة

وهل أنك نبأ ذلك القسيس الذي لم يكتف بالبحر الوارد من أنحاء أوروبا حتى اشترى عنب قرطبة كنه
وعصره خرا ، وحلف أن لا يبيعه إلا لأكرم الناس عليه ، وهم المتعلمون من أبناء المسلمين في مدارس
هؤلاء القسيسين ، وفرح الشبان بهذه الهدية :

- (١) فشرّبوا الخمر نهارا جهارا .
- (٢) وخلعوا رداء الحياء والحشمة .
- (٣) وحرقوا عوائد آبائهم .
- (٤) ولبسوا الحرير ، ونبذوا الصوف والشعر .
- (٥) وأهملت تصاليم البلاد .
- (٦) وأخذوا يختلفون إلى نسوة في حانات النزلاء ، فيصرفون الليل هناك مهتكين متصايين في عشق
هؤلاء العاهرات .

وزاد الأمر حتى بلغ الأمراء فان المتصم بن صاهد صاحب المرية عشق فتاة رومية واغتصبها من أبيها
فاستجار أبوها بجندل بن حمود ، فأرسل إليه يصفه على ارتكاب ما لا يليق بأدنى الناس ، فكان ذلك سببا
في الحرب بينهما ، فطلب ابن حمود من دوق فينيزيا والبابا وباروناته نجدة على خصمه ، فخرجوا للخبر وأرسلوا
إليه سفنا تحمل جندا تحت قيادة دوق فينيزيا ، فقهروا ابن صاهد ، وخرّبوا قصوره واحتلها جند الروم ،
وأقام لهم ابن حمود الولائم ، ومالوك الاسلام هناك ساكتون لا يبدون حرا كما حتى الأمير مالك بن عباد وهو
صاحب البلاد لم يرعه ذلك ، وقد قتل عامله ، وسقطت المرية ، وهذه أول نتيجة للعاهدة .

ولما رجع دوق فينيزيا إلى رومه قص القصة على البابا والبارونات فأيقنوا بتفوق كلمة العرب ، وأن
الوقت آن لتخريب ممالكهم ، وتفريق شملهم .

ولقد كان عدد المبشرين بالأندلس ألفا ، وعدد المعلمين بالمدارس التي أفتق عليها البابا ٤٨٥ وأتفق
البابا من خزينته لتروج الخمر خمسمائة ألف (فلورين) .

وفي اليوم الرابع من جادى الثانية سنة ٤٨٦ هـ بلغ الحسين بن جعفر (وهو أحد القواد المعروفين
بالأمانة على جيوش بلنسية) أن ابن ذى النون وزير عدى بن عبد العزيز يرسل الفرنجة ، وأنه توأما معهم
على تسليم حصونها لهم ، فقابل الحسين الوزير وكلمه في ذلك ، وظهرت له دلائل تدل على صدق ماسمعه عنه
ومنها أنه دخل عليه وهو يحادثه بطريق من البطارقة ، فأخذ يساره واسمه (بردويل) فلما علم ابن ذى النون
أن الانكار لا يفيد أخبره بالحقيقة محتجا بأن مالوك الاسلام قوم ظالمون ، لا يبالون بالشكوى من الظلم ،
وأن ملك الأندلس لا يبقاه له ، والمالوك يقتلون الناس ظلما ، وعند الفرنجة ٧٥ ألف فارس فيم تقتلهم نحن ؟
فضب الحسين وقال له : أنت تريد هدم مجد الآباء ، وأن تكون المثل السوء في الحياة والجبن ، وإذا ظننت
أن ابن (اذفونش) يعطيك نوالا فأنت مخدوع ، جزاؤك كجزاء سابورذى الأكتاف للنصرة بنت الضيزن
ابن معاوية ، أنت كفرت النعمة ، وأنت سينالك الذل من العدو . وتمادى ابن ذى النون في ذلك وحضرت
الجيوش النصرانية فاحتلت بلنسية ، وأخذ الفرنجة في نهب المدينة ، وفضحوا البكر بحضرة أبيها ، والسيدة

الجليلة بحضرة زوجها ، فترك الرجل المدينة تاركاً زوجته وأولاده وأملاً كـ .
وقد قال ابن زبادة : ان الذين قتلوا في (بلنسية) ظلماً بسبب الدفاع عن العرض (١٣) ألفاً ، والذين
قتلوا لأبائهم السنول في دين النير (٣٠) ألفاً ، وأحرقت المدرسة الكبرى والجامع الكبير .
وقد احتل هذه المدينة العدو قبل أن يبلغ عدا خبر تلك الخيانة ، فلما وصلته الأنباء جهز جيشاً لاسترجاعها
فضاجأته الأخبار بأن الفرنجة احتلوا (ميورقه) و (مينورقه) فاضطر أن يبقى الجند في قرطبة للدفاع عنها .
ثم استولى الفرنجة على طليطلة ، ثم ان ابن اذفونش بعد أن احتل بلنسية أمر باحراق ابن ذى النون ،
ويقول المؤرخون انه انما أحرقه لأنه لما خان دينه وملكته جدير أن يخون عدوه .

مصير برّاق بن صمار

ذلك الماكر الخيث الذي مكث زماناً معظماً في قرطبة عند مالك بن عباد حتى سقطت بلنسية ، وحضر
قواد الروم بجيوشهم ، وأرسلوا لمالك ، فطلب برّاق أن يكون قائد الطلائع ، فرضى بذلك ، فأرسله إلى
الأمرء ليجمعوا لمقارمة العدو ، فتوجه لغير ذلك ، وذلك أنه أخذ رسالة من ابن اذفونش إلى جندل بن
حجود ووعدته بالنصر على بقية ملوك الطوائف ، وانه يصير ملك الأندلس كلها كما وعدوه من قبل ، وفي شهر
شعبان سنة ٤٩٨ هجرية نزل لك أسطولاً تزحف بمجنودك على قرطبة من جهة الغرب ، ففرح جندل
بهذا الخطاب ، ثم توجه برّاق إلى جهة المرية وبها جيش الروم من أيام أن قتل ابن صمادح ، فسلم كتاباً معه
من ابن اذفونش إلى القنطور أرى القائد ، وفيه : « اتنا سنرسل لك ٢٠ مراكباً فيها جند ، ويحضر ابن
مردينش معاهدنا أميراً قديمه قاضي كاذبة معاهدنا ، فيكون تحت رأيتك ٢٥٠٠٠ مقاتل ، ففتح أشبيلية
في شعبان وأميرها جندل إذ ذاك يكون مغرباً على قرطبة ، وقد تم ذلك كله ، فجندل يغير على قرطبة في الوقت
الذي تغير فيه جيوش الروم على مملكة أشبيلية ، وبينما جندل يفز قرطبة كانت جيوش الروم تحت إمرة
القائد (كولى) تبيح أشبيلية حلاً جنوده ، وقد ذل مالك بن عباد وهو محافظ على شرفه ، ولكن جندل
ابن حجود الذي ظن انه سيكون سيد الأندلس كلها خاب فآله ، فقد قتله الفرنجة ، فأما عسكره فلما لم يرجع
إليهم رجعوا إلى أشبيلية ، فلاقاهم جند الروم ، فقتلوهم قتيلاً ، فنادوا الأمان .

أما مالك بن عباد فبقي في سرقسطه ذليلاً لا ناصر له مدة حياته . وأما ابن اذفونش فانه جلس في قصر
الامارة ، واستحضر حسين بكراً من الأشراف وقسمها وقسم الدور على رجاله ، وأمر باحراق المكتبة وفيها
نيف و ٨٠٠ ألف مجلد وقتل أربعة آلاف نفس ، وهدم الجامع الأموي بالمجانيق وجعل مكانه فسقية . وأما
برّاق الخائن فقد قتل أيضاً بأمر الدوق ، والى هنا أقف الكلام على أمرء الأندلس اه
فلما سمع صاحبي ذلك . قال : هذا والله نعمة عظيمة على المسلمين بعدنا ، فان التاريخ أصبح شرحاً
لآيات القرآن ، ولكنني اعترض على ذلك اعتراضاً يوافقني عليه جميع أذكياه المسلمين :

اعتراض على المؤلف

انك وان جمعت المنقرقات في الكتب ، وظهر ما كان خافياً على أكثر الناس من أفعال الملوك العباسيين والأمويين
وأمرء الأندلس وغيرهم ، فقد فانك أن التاريخ أكثره كاذب ، ألم تذكر ما كنا نقرؤه في زمن الصباه
واعلم رعاك الله أن السرا * تجمع ماصح وماقصد أنكرا

التاريخ مشحون بالمتناقضات ، وقد أثبت ابن خلدون أن أكثر المدوحين فيه مدحوا دهاد وثناقا ، وظواهر
هذه الدنيا كلها خلاصة خادعة ، وبكس ذلك من ذتهم التاريخ ، وإذا كانت هذه درجة التاريخ فكيف أطلت به

في آية: أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا، وكيف تذكر ما لصادق فيه وتجعله تفسيراً لما هو محقق الصدق، ومن ذا الذي يقول إن الوهم مفسر للحقائق! أو تفسر كتاب الله الحق بالتاريخ الموهوم؟ ولقد ذكرت أمثال هارون الرشيد، وذكرت مع ما لا يليق به من مال كثير لشراء جارية، ومن أنواع الطرب، فهل هذا يتفق مع قوله؟ ومع ما روى عنه أنه حج ماشياً؟ لأنه نذر ذلك، وأنه أيضاً كان يصلي بالليل ركعات كثيرة، إن التاريخ مملوء بالتناقضات، فهذا لا يليق بكتاب الله تعالى! فلما أتم مقالته قلت بإصاح: أهدار أريك فيما كتبناه وأسمعنا كه؟ فقال بلى قلت: أنا أجيبك على هذا الاعتراض بحمد الله، فأقول:

حدثني حفظك الله: إذا جاء رجل فلاح وقال أنا لا أزرع أرضي، فيقال له لماذا؟ فيقول: لأنني لست على يقين من أن محصولها يوازي ما أصرفه عليها، ويحتاج ذلك الفلاح بقوله: «إن العاقل لا يعمل إلا بدليل يقيني، وأنا لست على يقين من أن الجوائح والآفات السبائية تترك حقلتي، وأيضاً إذا قامت دولة تطالب أمة من الأمم بقطعة من أرضها، فيقول أميرها: لترك هذه القطعة لها محتجاً بأنه ليس على يقين من أنه يقهر الأمة المهاجة عليه، وهكذا لو قال مثل ذلك التاجر في تجارته التي يريد بيعها في الأقطار البعيدة فيقول إنني لا أتاخر لأنني سمعت أن سفناً كثيرة غرقت في البحر فرما غرقت بحارتي، وهكذا إذا قال رجل أنا لا أعلم ابني، فيقال له لماذا؟ فيقول: لأنني رأيت كثيراً من المتعلمين قد فسدت أخلاقهم.

فهذه أيها الأخ أربعة أسئلة، فاجوابك على هذا؟ أقول إن الفلاح، والأمير، والتاجر، وأبا الغلام مصيبون فيما فعلوا؟ فقال: كلا. هم غير مصيبين. فقلت لماذا؟ فقال لأن المدار في هذه الأمور العملية من الفلاحة والامارة والتجارة والتعليم على غلبة الظن، فهي كانت المنافع مظنونة بسبب مقدماتها فإن الشروع في العمل واجب، فأما اليقين هنا فإنه لا وجود له، ومن ترك أعمال الفلاحة والتجارة ومحاربة الأعداء المهاجين وترك تعليم ابنه محتجاً بأنه لا يقين في ذلك كله، فهو جاهل غبي مخدوع. فقلت: وهذا جوابي لك أيها الأخ. فقال: وأي مناسبة بين الأمثلة الأربعة وبين التاريخ الذي اعترضت عليك في جعله تفسيراً للقرآن. فقلت: إن القرآن يقيني. قال نعم. قلت: والتاريخ ليس يقينياً. فقال نعم. قلت: وإذا لم تفسر اليقين وهو القرآن إلا بيقين أصبحنا مغرورين كذلك الفلاح والأمير والتاجر وأبي الغلام.

إن أكثر الفقراء في الدنيا حجبتهم في فقرهم (وان لم يعلموا) أنهم يطلبون اليقين ولا يقين له بل الظن هو الممول عليه في الأعمال، والدين الإسلامي قسمان: قسم هو الأصول، وقسم هو الفروع، فالأصول لا بد فيها من اليقين، والأصول هنا هي العقائد كعرفة الله وملائكته وكتبه ورسوله الخ.

أما الفروع الراجعة للأعمال فيكنفي فيها الظن، فإذا سمعت الله يقول: «إن الظن لا يغني عن الحق شيئاً» فذلك في الاعتقاد، ولو أن علماء الإسلام أخذوا بما قلته أنت الآن ولم يعولوا إلا على اليقين لانهارت الأمم الإسلامية ولطاحت ومزقت كل ممزقة، فإن علم الفقه كله مظنون، ولولا هذه الأحكام المظنونة، ولولا أن للظن في الأحكام الشرعية أمام القضاة منزلة لبطل القضاء في الإسلام، ولزالت جميع ممالكه، فالأدلة الشرعية في الفقه ظنية وشهادة الشهود ظنية، والله كلفنا بالعمل بهذين الظنين، فهكذا هنا في تفسير القرآن إذا جرينا على هذه النظرية وقلنا هذا كلام الله وكلام الله يقين والتاريخ فيه الصدق والكذب ولا يفسر الصادق بما هو محتمل الصدق والكذب. أقول: إذا جرينا على هذه النظرية أصبحنا أمة عاطلة جاهلة غبية لا تفرق بين الخير والشر.

إن الله عز وجل قد ملأ القرآن بالقصص والتاريخ، وأمرنا بالاعتبار والاحتباس مما وقع فيه غيرنا ولم يمنع ذلك مافي التواريخ من التناقض، بل تجاوز القرآن ذلك ونظر إلى ملخص التاريخ لا إلى حوادث خاصة ألم تر إلى ما قصه الله في (سورة الكهف). ألم يقل في عدد أهل الكهف أنهم ثلاثة ورابعهم كلهم وخسة

وسادسهم كلهم وسبعة وثامنهم كلهم ، وأمر نبيه ﷺ أن يتجاوز عن ذلك ، وأن لا يعمرى في مثل هذه المسائل إذ لا أهمية لها ، وإنما جعل الاعتبار بمضمون القصة لا بكل حادثة على حدة .

إن الله تعالى أبان لنا في نفس القرآن أن هذه المناقشات لا تضّر في نفس القرآن لأن العبرة بملخص

القصة ، وإذا صحّ هذا في نفس القرآن ، أفلا يصحّ في تفسيره !

ذكرنا هنا أم الإسلام والقول منقول عن كتب التاريخ ، وكتب التاريخ ملاءم بالأكاذيب ، محسوة بالأباطيل ، ولكننا لو أطلنا علم التاريخ لما فيه من الأباطيل لأصبحنا أمة جاهلة ، غبية غافلة ، لا تفعل ولا تفهم ومماثل علم التاريخ فيما نحن بصدده من العبرة به من حيث إجماله لا تفصيله إلا كمثل مناظر هذا الكون كله ، والموت والحياة فيه ، والفقر والغنى ، والعزّ والذلّ ، والسلم والحرب ، والمرض والصحة . فهذه العوالم من نظر لها من حيث الجزئيات اعتقد أن هذا العالم كله ظلم وخسار ودمار ، فما هذه الزلازل والبراكين والحروب والأمراض والعداوات ! فأما إذا نظر إليه نظرا فلسفيا علميا فإنه يوقن بأنه عالم منظم ، ويصير حكما

فهذه نظرات الجهلاء والحكماء في هذه الكائنات ، وعلى منهاجها نظرات الناس في التواريخ التي تذكر

في تفسير القرآن .

إن الأمم التي تدر التاريخ مثل هذه الشبهة تصبح خاوية على عروشها . فياسبحان الله ، ألم أذكر في هذا

التفسير أن أمة الانجليز لما دخلت بلادنا المصرية أعطت العرب الذين في جهة الشرقية جنّيات ذهبية وضعتها

في أكياس ، وجعلت ظواهر الجنّيات من الذهب الخالص وما تحت الظاهر كله بهرج زائف ، وقد نجحوا ،

لماذا ؟ لأنهم أخذوا هذه من قصة جعفر بن فلاح وزير المعز لدين الله الفاطمي ، فإن القرامطة لما هجموا

على مصر اتفق المعز مع العرب الذين في جهة الشرقية وأعطاهم أكياسا مملوءة ذهباً ، أعلاه ذهب خالص ،

وأدناه زائف ، فما كاد عمود الصباح يظهر حتى اتقى الجمعان : العرب المصريون مع القرامطة ظاهراً ، ولكن

بعد ساعة أخذوا يتقهقرون على غير انتظام ، فهلك القرامطة إذ كان جيش المصريين أقوى منهم ، فهذه

بعينها هي التي فعلها الانجليز مع العرب في بلادنا أيام دخولهم ، فمأخذوها ؟ أخذوها من حادثة المعز لدين الله

فنجحوا . وأيضاً إن الشركة الانجليزية في الهند فعلت مع بعض أمراء الهند ما فعله حسن بن الصباح في

القرن الخامس الهجري في قلعة الموت إذ وصف لصاحب قلعة الموت وصفة طيبة ، وجعل صاحب القلعة له

جعلاً في مقابلة المداواة ، وهو مقدار ما يسع جلد الثور من أرض ذلك الأمير . فلما شق الأمير وطالب حسن بن

الصباح بالجعل أعطاه الأمير مقدار ما يسع جلد الثور ، جاء ابن الصباح وجعل ذلك الجلد سيوراً ومدّها فاحتوت

أرضاً واسعة جداً ، فلم يرض الأمير ، فحصل القتال ، فغلب ابن الصباح واستولى على قلعة الموت ، وهذا بعينه

هو الذي فعلته الشركة الانجليزية ، فوصفوا الدواء للأمير الهندي وشقوا النزاع على مقدار جلد الثور

وانتهى ذلك باحتلال الانجليز .

فيأتيها الأخ أنا لم أذكر مسألة الانجليز للاقتداء بهم . كلا . بل أقول ان العلم علمنا والتاريخ تاريخنا ،

وكان علينا أن نعتبر نحن به ، فهام أولاء أخذوا علمنا وأذلونا بها ، كل ذلك لجهل القائمين بالتعليم في ديار

الإسلام ، فتراهم يتقاعدون عن العلم لشبهة كهذه الشبهة . فقال : وكيف ينتفع المسلمون بهذا التاريخ . فقلت :

هذه الدولة الأموية والعباسية ودولة أمراء الأندلس وبقية المسلمين كانوا كلهم على وتيرة واحدة ، يظهر

نايغون مصلحون ، ويتبعهم فاسقون مسرفون ، فتتخط الدولة ، فيذل الأمراء ، ويتحكّم الجند .

من ذا ينكر سطوة الجند وقتلهم للأمراء العباسيين وهكذا الانكسارية للولوك العثمانيين ، من ذا ينكر

ذلك ، من ذا ينكر الاسراف والتبذير في مال الدولة بعد العصر الأول ، فإذا نحن نحاشينا أن نصدّق المغالاة

في أمثال سيرة الرشيد ومن نحاشيه فنجح مضطرون أن نصدّق بالاسراف العام في الدول الاسلامية ونصدّق

بنتائجها ، وهل ينكر عاقل ما بلغته الثورة الإسلامية أيام قطب أرسلان إذ هجم التتار على بلاد الاسلام وقتلوا الشيوخ والأطفال ، والنساء والرجال ، والبهايم . ألم يكن مبدأ ذلك جهل هذه الأمة بجيرانها الذين اجتاحتها وأزالوها ، أليس ذلك من الجهالة العامة ، والتفاني في الشهوات ، المرجيات الكسل والبطالة ، حتى وقعت الواقعة ، وانشقت سماء المجد بالدولة العباسية ، وهلك من هلك عن بينة ، وأزال الملك ، وقتل الخليفة العباسي هولاكو التتاري .

ومن عجب أن أمراء الأندلس مثلهم كمثل أمراء الشرق كلهم لا يعقلون التاريخ ولا يعجبون به ، انهم في الشهوات ، وجهل مطبق بالتاريخ ، وغفلة عن الاعتبار .

وكما اكتسح التتار ملك العباسيين في الشرق في أوائل القرن السابع اكتسح الملك فرديناند والملكة إيزابله مملكة الأندلس في أوائل القرن التاسع الهجري ، وترى القوم في الشرق والغرب صرعى كأنهم أمجاز نخل خاوية . فلم يعتبر الأندلسيون بأبائهم الأولين أيام مالك بن عباد والأمراء الأندلسيين معه إذ ظفروا شذرمذ في القرن الخامس ، وصحح الاسبانيون على عقول المسلمين ، وسقوهم الحجر ، وأذاقوهم سوء العذاب وجعلوهم مترفين منعمين كالغواني ، وزعزعوهم عقائدهم ، فزلزلت بلادهم زلزالا شديدا ، واحتلها الاسبانيون بمساعدة البابا في رومه الذي لعب دورا مهما في الضحك على أذقان هؤلاء الأمراء الجاهلين الأغنياء .

فقال صاحبي : ألم يستفد أحد بذلك التاريخ ؟ فقلت : كلا والله . هذه أمنا المصرية كانت غافلة نائمة قبيل أيام محمد علي باشا ، ولما علموا أن فرنسا تريد الاغارة على البلاد قالوا لو أن أوروبا كلها اجتمعت على حربنا لأدقناها سوء العذاب ولزقنا أجسام جيوشها بسنابك خيولنا ، فلم تمر ٤٥ دقيقة على التقاء جيش المصريين بجيش الفرنسيين عند بولاق حتى انهزم المصريون ، ذلك أنهم كانوا لا يعلمون عن الأمم شيئا ، ثم انظر وانظر بعد ذلك أي بعد أن تعلم المصريون أيام محمد علي باشا ، ودارت الأيام دورتها ، ومات محمد علي باشا وابراهيم ابنه في القرن الثامن عشر ، وأراد اسماعيل باشا أن يحارب الحبشة ، فإذا حصل ؟ آمن المصريون قوادا من الأمم الأوروبية على جيوش المصريين ، فآتحدوا مع الحبشة سرا ، لأنهم أبناء دين واحد وأهلكوا المصريين .

أليست هذه جهالة ، أليس درس الأندلس قد نسي بتاتا وجهله القوم هنا ، نسي المسلمون ما حصل من القائد الاسلامي المسمى براقا من الاتفاق مع البابا سرا ، وبهذه الوسائل السرية والتفان والمكر والحيل التي استعمالها براقا عدو الاسلام المتظاهر بحب النبوة الاسلامية القائم بالقيادة العامة في الجيش دمر النبوة ومزقها شرا مزق كما قتمناه في هذا المقام . فانظروا ما جاء في كتاب « كشف الستار ، عن سر الأسرار » في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العربية سنة ١٢٩٨ هجرية سنة ١٨٨١ ميلادية بقلم المغفور له السيد أحمد عرابي الحسيني المصري . قال في الفصل الثاني صفحة ٣٣ وما بعدها ماملخصه :

« إن الخديوي اسماعيل باشا لما أرسل الجيش المصري لمحاربة الأحياش ومكث الجيش هناك مدة طويلة أرسل أمرا وشدد على القائد العام راتب باشا ورئيس أركان حربه بوجوب السرعة في الزحف على الحبشة بسبب ما صنعوا من التمثيل بالمصريين ، فسارت الفرقة في شهر أغسطس سنة ١٨٧٦ للقتال ، ولقد قابلهم أحد القيسيين الفرنسيين المبشرين في بلاد الأحياش ، وصار يتردد على رئيس أركان الحرب الجنرال (لورنج الأمريكي) مستطلعا أحوال الجيش المصري حتى علم مقداره وافترق معه على الحركة الحربية التي تكون سببا لهلاك الفرقة المصرية عند الصلحة الأولى ، وكان يبلغ المعلومات في كل يوم إلى ملك الحبشة فخذ هذا الملك جيشه ، وكان عدده أكثر من ثلثمائة ألف من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال على حسب عادتهم في الدفاع عن بلادهم ، وكان القيسيس المذكور الفرنسي المبشر يتردد كل يوم على الجنرال (لورنج)

رئيس أركان الحرب التي وضع فيه الخديوي اسماعيل باشا قوته ، و ينقل القيس مادارينه وبين الجزائر إلى يوحنا ملك الحبشة ، ولما التقى الجيشان ، واستعد جميع أركان الحرب الاوروبيين والأمريكيين لللمعة ، ألقوا جانباً طرايبشهم الرسمية ، ولبسوا قبعاتهم ، ثم ربطوا في أعناقهم مناديل بيضاء إشارة إلى انهم مسيحيون ليأمنوا على أنفسهم الخطر عند اختلاط الجيشين على حسب الاتفاق مع القيس المذكور .

وهنا أطال المؤلف في خسارة المصريين وقتلهم ، ونجاة هؤلاء الاوروبيين . قال : وقد علم بذلك كله الخديوي اسماعيل باشا ، وكان يريد محاسنتهم ، ولكنه خاف من غدرهم كما غدر حسن شركس بمولوك السلطان عبد العزيز في الاستانة ، فأطلق الرصاص على أحمد باشا القيصري وغيره ثم قتل هونغاف اسماعيل باشا أن يناله مثل ذلك ، فبش في وجوههم وانتهى الأمر .

هذا ما كان من الخطر والخطأ الذي وقع فيه المسلمون في هذه الأيام الأخيرة غير معتبرين بالتاريخ المتقدم ، فلم يتعلموا بما فعله الأجانب عن البلاد في الأندلس وغيرها ، فوقعوا في الأهوال والشروء وهم يجهلون التاريخ ، ويجهلون قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لاتنخدوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض » وغيرها من الآيات ، أليس هذه الآية ظهر أثرها في أم الاسلام في كل حين كما ظهر أثر الآية التي نحن بسددنا وهي : « أذهبتم طيبانكم الخ » .

الأم الإسلامية جميعها متشابهة

ومن العجب أن الأمة المصرية بعد أيام محمد علي باشا حذت حذو الدول الإسلامية القديمة ، فكان فيها الاسراف والتبذير ، والفضاء والخمر والغزل ، فهي مختصرة من الدول الأندلسية والدولة العباسية ، ولقد كان من أسباب دخول الانجليز مصر تلك الديون التي ارتكبتها الحكومة المصرية بعد مؤسس الدولة المرحوم محمد علي باشا ، وقد أخذت انكلترا وفرنسا تتنافسان في استقلال مصر ووضع اليد عليها ، وقد شجعتهما على ذلك ظهور اسماعيل باشا بظهور من لا يحسب حساباً للعواقب ، فقد كان في اصلاحاته كما يقول البارون دي مالدوسي « كالباني الذي أراد أن يبني بيتا يكلفه مالا طاقه له به ، فزهن الأرض وتقدمت له الشركات الاوروبية بالمال فلما منها بأنها مستضع بدعا على الملك يوم يهجز المدين لئن سداد دينه »

ولارباب أنهم كانوا يعبرون اسماعيل باشا المال بأغش أنواع الربا ، وقد وضع كاتب انكليزي (سيموركي) في سنة ١٨٨٢ ان مصر كانت دفعت لغاية هذا العام جميع دينها الحقيقي (أي المبلغ المستعار حقيقة) فائدة ٦ في المئة ، ومع ذلك فقد ظلت مثقلة بدين رسمي لا يقل عن التسعين مليون جنيه . كان أصحاب الأموال يعملون انهم يخاطرون بأموالهم ، وكان اسراف اسماعيل باشا نذيراً لهم ، فكان عليهم أن يحماوا تبعه عملهم ، ولكن (رونتلد وأو بنهايم) وغيرهما من أصحاب رموس الأموال كانوا على اتصال برجال السياسة في انكلترا وفرنسا فوجدت الحكومتان في عجز الحكومة المصرية عن سداد ديونها وسيلة (لم تعرف من قبل) لتدخلهما تدخلا فعلياً منذ سنة ١٨٧٦ بحجة اصلاح المالية والادارة وما إلى ذلك من إنشاء صندوق الدين وتعيين مراقبين ماليين وموظفين أجانب كانوا يعملون في الحقيقة على تحويل الدين المالي إلى دين سياسي ، وكانت انكلترا تحول دون حل المسألة حلاماليا ، وتطالب بوضع بدعا على الادارة المصرية ضماناً للدائنين ، فأرسلت إلى مصر بعثات مختلفة تتدد كل منها بسوء ادارة اسماعيل باشا وتطلب كلما سنحت الفرصة إرسال أخصائين سياسيين في زى ماليين لاصلاح الامور من جديد وايقاف الحاكم المستبد عند حده .

وقد كان المصريون يشكون حقاً من حكومة اسماعيل باشا المطلقة التي كانت ترهقهم بضرائبها وأحكامها الجائرة ، فلما تدخل الأجانب في شئون البلاد الداخلية واختلت الادارة أكثر من ذي قبل ، ووهنت نية القوم

فلق المصريون على مستقبلهم . انتهى — وجاء في صفحة ٥٥ وما بعدها من الكتاب المذكور ما يأتي :

سرّ مكنون

وفي ١١ رجب سنة ١٢٩٦ هجرية سافر الخديوي السابق اسماعيل باشا من القاهرة إلى الاسكندرية حيث ألقته بالبحر « المحروسة » إلى نابولي (تفرمن نفور ايطاليا) وكانت معه أوراق مالية « بون » بمبلغ ثلاثة عشر مليوناً من الجنيهات كما صرح بذلك ابنه الخديوي توفيق باشا بحضور خيرى باشا رئيس الديوان الخديوي والشيخ عبد الرحمن الاييارى إمام الملية فى أثناء تناول طعام الانطار على المائة الخديوية فى شهر رمضان سنة ١٢٩٦ هجرية إذ قال : « ياليتى ترك للحكومة ولوستة ملايين لاصلاح شأنها » . ولما وصل الخديوي اسماعيل باشا المعزول إلى محطة مصر وقف الخديوي توفيق باشا مودعاً والده وعيناه مغرورتان بالدموع ، فضمه والده ، ثم قال له : « لقد اقتضت إرادة سلطاننا المعظم أن تكون بأعز البنين خديوي مصر ، فأوصيك بأخوتك وسائر آل برّا . واعلم أنى مسافر ، وبودى لو استطعت قبل ذلك أن أزيل بعض المساعب التى أخاف أن توجب لك الارتباك ، على أنى واثق بحزمك وعزمك ، فاتبع رأى ذوى شورك ، وكن أسعد حالاً من أهلك » وكان من أشد المناظر تأثيراً فى النفوس منظر العبدان والجوارى وهم بودعون سيدهم وسيداتهم بأدمع مزجت بدماء القلوب ، ويرفضون أصواتهم بالبكاء حتى كادت تزهق أرواحهم حزناً وغماً ، ثم سار القطار الخصوصى حتى وصل إلى الاسكندرية . انتهى ما أوردته من الكتاب المذكور هذا ولقد سمعت أن عالماً ألمانيا ألف كتاباً وترجم إلى العربية بعنوان « تدهور مصر بسبب الدين » ولكن لم أطلع عليه . هذه نسخة من حياة أم الاسلام قديماً وحديثاً . فقال صاحبي : وماذا تريد من أم الاسلام المستقبلية ؟ قلت : أم الاسلام للمستقبلية ستكون غير الأم الاسلامية الماضية . هذه الأم التى بعدنا سيدرس رؤسائهم ما كتبناه فى كتبنا وفى هذا التفسير ، وما كتبه الكتاتون فى زماننا هذا وهوزمن النهضة الحقيقية الاسلامية ، وسيكون ما كتبناه هنا من أقوى الأسباب لاستكناه علم التاريخ مختص به جماعة فى كل دولة اسلامية ، وبتباحثون ويستخرجون نتائج وعلى مقتضاها يعملون فى السياسة أفلا يفطنون مثقال ذرة فى التاريخ ، وتكون هناك جماعات جماعات فى سائر العلوم والصناعات . هذا كله سيتم ولن يكون غيره ، وسيكون للسلمين خليفة ينتخبه الأمراء من بينهم لمدة معينة تكمن سنين أو عشرين سنين أو نحو ذلك ولا يراهي فى ذلك إلا قوله تعالى : « وزاده بسطة فى العلم والجسم » فمن كان من أمراء الاسلام أقوى جيناً وهو وأمه أغزر علماً من الأمراء الآخرين فهو حتماً الذى يجب أن يكون خليفة . أنا أكتب هذا وأنا موقن بما سيكون فى المسلمين من آثار ما كتبناه وكتبه الكرام الكتاتون فى الاسلام .

فلما سمع ذلك صاحبي . قال : بالله زدنى إيضاحاً فى بعض ما تقدم ، فياليت شعرى ان المناسبة بين علم التاريخ من حيث الاجال والتفصيل ، وبين نظام هذا العالم كله من حيث الاجال والتفصيل أيضاً لاتزال غير مفهومة عندى . قلت : الأمر سهل ، إن أم الاسلام قد اعتراهم الوهن والضعف والجهل فى القرون الماضية ، فأحاطت بهم الأمم من كل جانب ، وذاقوا طعم الذلة والهون والتفريق والشر المقيم . فقال نعم . قلت : وأنت تعلم أن سبب ذلك إنما هو الاهمال والانغماس فى الشهوات . قال نعم . قلت : إذا نظرنا فى تاريخهم من هذه الوجهة وحدها فإنا نفرق فى بحر من الشبهات والخطل لا نخرج لنا منه ، فنصبح غرقى فيه صرعى الأوهام ، لأننا نضيع زماننا فى الجزئيات ونذر الكليات ، وتتصفح تاريخ زيد وعمرو من ملوك الاسلام ويقف نظرنا عند هذه الجزئيات ونقول : لقد ضل فلان وجهل فلان ، فبرد آخر علينا ويقول : إن التاريخ

فيه الفث والسمين ، ويحتج بذلك ، ويضع زماننا في أمور جزئية لاتفيدنا ، ونعيش في جدال أبد الأبدن ودهر الدهرين . فأما إذا نظرنا نظرا كليا ، وبخشنا في الداء العام الذي عمّ الأمة كلها وتوارثوه جيلا بعد جيل من غير وقوف عند الجزئيات فإنا بذلك نتقذ من بصدنا من الضلال كما فعلنا في هذا التفسير ، وهذا نظير العقائد فإن كل امرئ في الأرض على أي دين متى فكر بقله وأخذ بوجه فكره إلى شقاء زيد وسعادة عمرو ، وأن ثوب الناسك أحرق ، وأن بيت هذه العجوز سخّ سقفه عليها ، وأن هذا الطفل مات أبواه ولا عائل له ، وأن هذا الرجل له ابن واحد مات ، أما غيره فله أبناء كثيرون فلم يموتوا ، فهذه الجزئيات يضلّ المفكر فيها لأنه نظر نظرا جزئيا ، فأما الحكماء والمفكرزون من جميع الأمم وهم ساداتها ، فهؤلاء هم العارفون الذين أدركوا حقائق الوجود ، وأيقنوا بالعدل وبالصدق وبالنظام ، فهؤلاء الحكماء في العقائد نظير أولئك المؤرخين الذين نظروا نظرا كليا في علم التاريخ كما قدّمناه .

هنالك قال صاحبي العلامة وهو محاورتي : هل لتلك نظير فيما نشاهده ؟ فقلت : نعم نحن نمرّ عليه صباحا ومساء ونحن غافلون كما قال تعالى : « وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلاتقون » والحقيقة التي لامناص منها أن العوالم التي نراها أمامنا وخلفنا وفوقنا وتحتنا مشحونة بالعلم ونحن عنها غافلون . انظر إلى شجرة السنط . فقال يا عجب ! أشجرة السنط تنهمننا أن في التاريخ نعمة لقوم مفكرين ، وجهلا لقوم غافلين ، قلت إى وربى أنه لحق . فقال :

أنم ردّ جواب ما أنا سائل به عنه فنار العلم ذات تشنع

فقلت : ألم أقدم في هذا التفسير أن ورق شجر السنط لضغفه المتناهي حبه العناية الإلهية بشوك يحافظ عليه ، فهذا الشوك منفعته هي المحافظة على الورق الضعيف ، ومعلوم أن الورقة هي الرئة التي بها يتنفس النبات ، فإذا لم تسعف العناية الإلهية ذلك الورق الضعيف بالشوك للمحافظة عليه مات شجر السنط إذ لارئة له والرئة بها يدخل مافي الهواء الجوى من المواد النافعة لجميع الشجر ، فإذا نظرنا في تاريخ المسلمين إلى قصة النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعليّ ، ومن نخا نخوهم من كل من كان عادلا من المسلمين رأينا ذلك قليلا جدا في جانب الملوك المستبدين الظالمين الذي تقدم تاريخهم وتبذيرهم واسرافهم وطمعهم وغزولهم وجوارهم وغلماهم ومبائهم وما أشبه ذلك ، فهؤلاء الآخرون أشبه بالشوك في شجرة السنط ، والأولون لقتلهم أشبه بورقة السنط ، فإذا رأينا أم الاسلام منى لهم نحو ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن ، وفي أكثر هذه المدة أذلم ملوك وأسراء ووزراء وظلموهم ، قلنا إن هؤلاء أشبه بالشوك التي تشوك المسلمين كما أرادوا قطع تلك الأوراق الاسلامية التي بها نحيا أمتنا ، وماهى أوراقها تلك إلا سيرة الخلفاء الراشدين ونور النبوة .

إن ما تقدم من سير الملوك الاسلاميين الذين أسرفوا أحدث في الأمة ذلا كما يحدث شوك السنط لمن أقدم على قطع ورقه ألما ، فإذا رأينا الأمم الاسلامية اليوم قد أجمت على إحياء السنة النبوية وعلى الاشادة بذكر عمر وعليّ وعثمان وأبي بكر ومن نخا نخوهم ، فما ذلك إلا لما أحست بالآلام الشوك الذي نبت في جسم الأمة فأذلمت وألمها وحركها إلى المحافظة على مابها حياتها وهو أن ينهجوا نهج أبي بكر وعمر مثلا ويعرضوا عن بعدهم وإذا كنا نرى شجر السنط يجمو نموا عظيما ويكون قويا متينا بما أعطى من الورق ومن الشوك المحافظ عليه ، فهكذا هذه الأمة بما أصابها من الذل والظلمة من أم الفريجة ، وكان ذلك بسبب الملوك المسرفين ، سحبي ذكرى رسول الله ﷺ وذكرى العادلين من أمته وقطع الصلاة التي تصلها بغيرهم ، وستقوى قوّة متينة كما قوى شجر السنط ، والفضل في قوته راجع لمثانة الشوك المحافظ لورقه الذي هو السبب في نمائه وقوته ، فهذه الأمم الاسلامية ربما تعيش عشرات الآلاف من السنين أو مئات الآلاف منها ، ويكون الفضل في طول بقائها وسعادتها

راجعا إلى الخطأ الذي وقع فيه الأمويون والعباسيون والأندلسيون والمصريون وغيرهم ، فإن ذلك الجرح الدامي الذي أصاب أمتنا أخذ يندمل اليوم باجتماع المسلمين واتحادهم ، وستبقى ذكراه إلى آخر الدهر ، فكما قويت وارتفعت شجرة السنط بقوة ومثانة شوكتها هكذا ستقوى وترتفع أم الإسلام بقوة ومثانة التبصرة والذكرى الناجية من سوء سلوك ملوك الإسلام وأمرائهم السابقين إلا المصلحين منهم النافعين .

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : جلّ الله وجلّ العلم ، أيكون شجر السنط أماننا صباحا ومساء ونحن عنه غافلون ، إن في نفس السنط المثل به حكما عالية عجيبة ، وأعجب منها أن تكون مثلا لعلم تاريخ المسلمين الله أكبر ، الله أكبر ، والله إن الأم الإسلامية المسكينة قد أذن الله لها بالرفعة والسعادة ، ولعصرى كيف يطلع على هذا المسلمون ولا يرتقون ، والله لو أن أم الإسلام أتت إليهم هذا العلم قبل الآن لكانوا على غير ما هم عليه الآن ، ولكن الله أراد أن يخلق في أم الإسلام خلقا جديدا وهذا أوانه والله خير الناصرين ، قلت : أنا موقن بما تقول ، وأنه سيظهر في هذا الزمان الذي يفسر فيه التفسير وفي الزمان الذي بعده رجال لم يحلم بهم التاريخ ، ويكونون قدوة الأمم الإسلامية ، وستبقى هذه الآراء وما هو خير منها عشرات القرون ومئاتها ، وأنا لتلك مطمئن وبه موقن ، والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

فقال صاحبي : فهل تضرب لي مثلا آخر للفضلة المستحكمة في النفوس غير مثل شجرة السنط . قلت : كل ما تراء أشبه بمثل السنط المذكور مثلا .

أتى في بعض ليالي هذا الشهر وهو شهر أغسطس سنة ١٩٣١ وهو الذي أكتب فيه هذا المقال كنت أستيقظ قبل الفجر ، لتعاطي طعام السحور ، والنظر في السماء فوقنا ، وأنا فوق سقف المنزل الذي جرت عادتي في الصيف أن يكون نومي ليلا فيه ، فإذا كنت أرى ؟ كنت أرى ثلاث طبقات فوق : طبقة السحاب الذي يلبق الأفاق ، وطبقة الهواء الذي يعوم فيه السحاب ، وطبقة النجوم التي لا يعرف عددها ، ومنها مجرتنا التي شمسا فيها ، وشموسها لاتنقص عن عشرة آلاف مليون شمس . فهذه الطبقات أخذت أنظر إليها وأقول : يارباه ، عجباً لأهل الأرض ! يتقاتلون ويحتسمون ، ويحتدون على متاع قليل وهم لا يعقلون هذه النعم التي تحيط بهم من مال وبنين وممالك إن هي إلا ثمرات لهذا السحاب ولهذا الهواء وطنه الشمس « وفي السماء رزقكم وما توعدون » .

فهذه الفضلة الشاملة لنوع الانسان تشبه الفضلة الشاملة لأمة الإسلام المتأخرة قبلنا عن تاريخ أسلافهم ، فلم يكن ملوك العثمانيين ليفكروا فيما حلّ بأهل الأندلس قبلهم والعباسيين من أن الجند كانوا يتكفون بالملوك ولم يفكروا أن الفرنجة هم الذين أدخلوا الترف والنعيم في بلاد الأندلس فكان سببا لخربائها وهكذا أهل الأندلس المتأخرون لم يعتبروا بفسوق المتقدمين منهم ، وهكذا المصريون أيام الثورة العربية لم يفتنوا بالتاريخ ودخل المبشرون ديارهم ، وفضلوا في الأبناء من تحقير الإسلام في قلوبهم مثل ما فعل الباطنية ودوقات أوروبا في بلاد الأندلس أيام مالك بن عباد كما قدمناه ، إذن لافرق بين جهل الأمم الانسانية بالنعم التي تحيط بهم كما قدمنا من نعم الهواء والنجوم والسحاب وبين جهل متأخري المسلمين بالفضلة المستحكمة في أمراء الإسلام جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن ، وهم غافلون .

ولاجرم أن هذه النعم المذكورة المنصبة على أمتنا السابقة ستصبح اليوم نعمة لنا بالاعتبار .

خطاب المؤلف ربه

في ليالي شهر أغسطس سنة ١٩٣١

يا الله : ما أجلّ حكمتك ، وأعظم نعمتك ، أنت الذي جعلت الشقاء نعما ، والذلّ عزا ، والبلاء رننا ،

سبحانك اللهم وبحمدك ، ولولا نعمة الغفلة المستحكمة في النوع الانساني لهلك العالمون ، أنت أنصت بتم
لا حصر لها ، وهذه النعم الباهرة ، والآيات الظاهرة ، لم تختص بها الشمس والأقمار والأرضين ، فان العظيم
في رحمتك كالحقير ، تدور الشمس ، ويدور القمر ، وتدور الأرض ، فذاك أيضا تجعل في الجوهر الفرد ، وفي
الذرة التي لاتراها الميون قطا كهربائية سالبة تدور حول أخرى موجبة بحوسنة آلاف مليون مليون مرة
في الثانية ، وهي نور كما أن الشمس نور .

نرى نعمك في النحلة ، وفي الذبابة ، وفي النحلة ، كما نراها في القمر ، وفي الأرض ، وفي الشمس ، بل
اننا نفعل من الرجحات في هذه الحشرات ما لا يستقصى من الرجحات ، ولا تقدر على عتبه ، فما هذه الميون
اللاتي تعد بالآلاف في النحل ، والتي تعد بالآلاف في الذباب ، وما هذه الحكم البديعة التي تجل في صنائع
العنكبوت ؟ إذن حارفكنا في العظيم كما حارف الحقير ، إذن لاحقير في هذا الوجود ، وإذا غاب عن أكثر
الناس هذا الجمال ، وجهلوا الحكم المحيطة بهم ، فهكذا غاب عن أم الاسلام السابقة الاعتبار بما أحاطوا بأنهم
في التاريخ ، وقد آن أوان الاستبصار والاعتبار والازدهار والاستبشار .

عمت النعم نوع الانسان ، وغمرهم الجهل والفسيان ، الرجحات نعمة ، والغفلة عنها قسمة ، لو عرف الناس
هذه النعم ولم يذللهم عنها ما أحاط بهم من المرض والذلة والحروب لما اتوا طربا ، لأنهم يرون رحما لاحد رحمته
وجماله وجهه وإكرامه ، فهذه الغفلة التي سببتها المصائب كانت سببا في بقاء نوع الانسان ، هكذا غفلة الأمم
الاسلامية السابقة عن الاعتبار بالتاريخ أصبحت اليوم نعمة علينا لتبقى بذكرها أم وأم بعدنا ، أليس
هذا هو ما يقوله الأطباء : « إن الحى تشفى من داء القولنج » وهو معنى قول الشاعر :

من يتصم بإله العرش يحفظه • فهو الحكيم يداوى الداء بالداء

فداء انحطاط المسلمين داويناه بالاعتبار . اءالتخاذل للأمة البائدة والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين

ذكر المؤلف نعم الله عليه

وهو يخاطب ربه وهو ناظر إلى السماء قبل الفجر

يا الله عرفت الآن ما كان يخيل لي زمن الشباب ، اللهم إذو أحمدك جدا كثيرا ، وأشكرك شكرا
جزيل ، لقد كنت اذا قفلت من القاهرة إلى قريتنا كفرعوض الله حجازي أجسد في نفسي ميلا قويا إلى
الخلوة والتباعد عن القرية كل ليلة ، فأجلس وحدي في أحد الحقول المجاورة لقريتنا ، وأرى أتى خيل إلى :
(١) الدول والممالك دولة دولة وهم في مواكبهم البهجة ، وعلى خيولهم المطهمة ، وفي أعيادهم العظيمة
وهم يختالون اختيالا .

(٢) وكأني أشاهد جميع من عاشوا من تلك الأمم إجمالا ، وكأنهم مشاهدون لي هم يتوارون ويقوم
غيرهم مقامهم ، وهكذا جيلا بعد جيل ، ودولة بعد دولة .

(٣) وهذا كان ديدنى في كل ليلة والناس نيام .

(٤) لقد فهمت خيال الشباب اليوم في زمن المشيب .

تبين لي اليوم أن هذه النفس مستعدة من زمن الشباب أن تستعرض الأمم الفائرة أمة أمة وتلقى نظرة
عليها وتقول : أيها المسلمون : ليس علم التاريخ علم استظهار ، بل هو علم اعتبار ، فليمتحن المسلمون بعدنا
التاريخ على نحو ما امتحنناه ، وهذا مبدأ أسنانه ، وعلى من بعدنا البناء والتمام الكمال ، والحمد لله

رب العالمين . كتب عصر الأربعاء ١٢ أغسطس سنة ١٩٣١

حمد المؤلف لربه

اللهم لك الحمد على العلم وعلى الحكمة ، لك الحمد على انك أنرت بصائرنا ، وأصبح ما كان بجلا من العلم في كتبنا السابقة منفلا في هذا الكتاب ، فقد جاء في كتابي « التاج المرصع » مانسه :

« فن هذا ترى أن الرؤساء والمرءوسين مسئولون عن أمهم ، وهذا معنى مسألة الانتخاب والشورى ومجلس التواصي وهكذا ، وفي آية أخرى : « ولو نرى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكانا مؤمنين » الإيمان هو المعرفة والعلم بالله وبغيره من مخلوقات ديني وأدنيوي فإن هذا معناه في اللغة « قال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » فكانه يقول ماجعل الأغلال في أعناقهم في الآخرة إلا وقد وضعتها في أعناقهم في الدنيا فغلت أيديهم وعقولهم بالجهل ودلوا لاستبداد الرؤساء وقلدوهم واتكلوا على مالهم من السطوة وظنوها مناط العلم جازاهم الله في الآخرة وجعلهم جهلاء معذنين محقرين لجهلهم في الدنيا وتبرأ الرؤساء من المرءوسين كما يحصل في الدنيا عند استبداد الحكيم على المحكومين ووقوع العذاب عليهم ، فتراهم يتبرءون ويقول الضعفاء جهلنا بكم علينا وتديركم الخيل في الليل والنهار لتتقن لكم الرئاسة وحدكم وتدعوننا في جهلنا نرسف في قيود النمل والجهل ، وترسلوا علينا غاشية من سحب الجهل المزجة بعواصف المكر المدبرة بأيدي استبدادكم وظلمكم « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » « أولم يهدمكم أهلكننا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون » . أمرنا أن ننظر آثار الأمم ، ونحفرا الآثار ، ونقرأ الأحجار ، ولم يكفه ذلك حتى قال إن في ذلك آيات أي علوما وآدابا وأخلاقا ثم قال « أفلا يسمعون » ماخطه الأولون ، وزيره الأقدمون ، في مضمورات الأرض « ولقد كتبنا في الزبور من بعد ذلك أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » وعد بقاء الأمم النافعة الصالحة في الأرض كما وعد باهلاك الأمم التي لا تنفع لعمارتها « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا نتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » ولقد قمتنا في هذه الآية أنه صلى الله عليه وسلم أرسل كتابه إلى الملوك بهذا الوضع كما في البخاري ، وفسر البربرية بسن السن وتشرية الشرائع ، يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم الملوك بالضيفة النبوية ، وبند الاستبدادية ، ولذلك نرى العلماء يعتبرون عندنا الاجماع من الأدلة الشرعية فكان القرآن إذ ظهر في الشرق ظهرت ثمرته في الغرب ، فكان الشرق إلى الآن لم يستيقظ من غفلته ، فسبحان مقسم العقول والحفظ ، أكثر قصص القرآن وردت للعمران ، وسپرد عليك عند التفصيل قصة فرعون وموسى وما كان من إذلال بني اسرائيل واستكبار فرعون وقومه وتكوين دولة جديدة من الأمة الصغيرة في الشرق من سوريا وهم بنو اسرائيل « وتريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » يشير إلى أن الضعيف متى صبر أصحى ذا شوكة الخ وتري يوسف وقصة عاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وقوم نوح وقصة آدم وخلافته في الأرض ، وكل منها له قسط من العمران ، فعاد أهلكتوا بظفائهم ، وثمود بافترائهم ، وقوم شعيب بتظنيف الكيل ، وقوم لوط باللواط ، فقل النسل ، وقوم نوح هلكوا لأنهم لا يصلحون لعمارة الأرض وقصة آدم تشير إلى أنه وبنه خلفاء الله في أرضه ، متساوون في الحقوق ، ولتقتصر على هذا القدر من الكتاب وهالك ماورد في السنة من جل تريك علامات دنو أجل الأمة وسقوط الدولة ، فأخبر صلى الله عليه وسلم أن أسافل الناس إذا علوا على الحكومة سقطت الأمة وتقلص ظلها ، وعبر عنه بتطاول رحمة الابل في البنيان ، وقال أيضا :

إن الرجال إذا كثروا من الاسراف واقتناء الجوارى كان علامة على دق زوال الأمة من الوجود ، وعرفته بأن نلد الأمة ربتها أي سيدها ، وفي هذا القول معنيان مصطحبان : كثرة النساء ، والاسراف فيهن ، واختلاط الأجناس ، فاذا اتخذ الرجال الاماء وهم من أمة أخرى جرى اللسان واختلط الجنسان وضاع كيان الأمة ، وسقطت من شلخ مجدها ، ورفيع قدرها ، وزالت وحدتها ، كما ذكره العلامة (سبسر) الفيلسوف الانجليزي للفيلسوف الياباني ، إذ سأله عن اليابانيين أين زوجون من الاوروبيين ؟ قال كلا ، لئلا يختلط الجنسان ولا يحفظ الكيان ، ولا يلتئم الزيجان ، وعلا به صلة محبة ، ونحن نعمل بالصحة والاجتماع معا ، والحديث في البخاري : « كان رسول الله ﷺ بارزا للناس فأناه رجل فقال ما الايمان ؟ فقال الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالبعث . قال : ما الاسلام ؟ قال : الاسلام أن تعبد الله ولا تشرك به ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان وتحج البيت الحرام . قال : ما الاحسان ؟ قال : الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك . قال : ما الساعة ؟ قال : ما المشول عنها بأعلم من السائل . وسأخبرك عن أسرارها اذ لو لم تكن ربتها ، واذا تطول رعاة الابل البهم في البنيان في خمس لا يعلمها إلا الله ، ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام . الآية) ثم أدير فقال ردوه فلم يروا شيئا فقال هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم » وعبر عن المعنى السابق بما هو أوضح في حديث آخر . قال : « اذا أضيئت الأمانة فانتظر الساعة » ، وفي حديث : « إن من أسراط الساعة أن يقل العلم ، ويكثر الجهل ، ويظهر الزنا ، وتكثر النساء ، ويقل الرجال حتى يكون للخمسين امرأة القيم الواحد » ، وفي حديث : « إن الله لا يقبض العلم اقتضايا يزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى اذا لم يبق علما اتخذ الناس رؤساء جهلاء ، فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا » اهـ

وأسراط الساعة هنا المراد بها الصغرى وهي الدلالة على خراب أمة من الأمم ، أو قبيلة ، أو قرية ، ولا ريب أن الزنا يقلّ النسل ، وظهور الجهل من أشدّ العوامل في التخريب ، وارتفاع الأسافل بارتقاء المناسب ، بلا استحقاق يورث ضياع الأمة ، وقلة الرجال بالحروب وكثرة النساء داعيان لتغير الأمة وزوالها كما حصل في زماننا فقد قتل الثمانيه الرجال حتى لم يبق إلا البهائم والنساء في كثير من القبائل ، ولم تكن تجد لنحو خمسين امرأة إلا شيئا أو صبيا واحدا ، وهكذا اختلاط العشائر ، فهذا كله من أمارات زوال الأمة من الوجود كما عليه علماء العمران في زماننا . انتهى من كتابي التاج المرصع .

بالت شعري كيف يعرف أذكياء المسلمين بعدنا تفصيل ما أجلناه في « التاج المرصع » حتى يصير يقينا عندهم إلا بما نقلناه هنا ، ألت ترى ، فما تقدم كيف اضطربت دولة الاسلام لما ولدت الأمة ربتها فأصبنا نرى الخيزران وهي جارية أما للرسيده والهادي ، وكم من جوار اشترت بالمال ، وأصبحت أمهات للخلفاء . يا هجبا ! أليس هذا الحديث الوارد في البخاري إنذارا لأمة الاسلام أن يقفوا استيلاذ الإمام ، غفل المسلمون عن هذا وجهلوا مقاصد النبوة ، لافرق فيهم بين العباسي والأموي والشيعي والتركي والأندلسي ، كل هؤلاء تراهم فيما مرّ بك من هذا الكتاب سواسية في جهل مقاصد النبوة ، وهاهوذا جاء الفيلسوف (سبسر) يقول بمنع ذلك خيفة الفساد .

لك الحمد اللهم على نعمة العلم ، وعلى نعمة الفهم ، وعلى فضل التوفيق والانعام بالاطم . هذه صحيفة الأم الاسلامية منشورة بيننا واضحة جلية ظاهرة . صحائف منشورة ، وكتب مسطوره ، وضع فيها اتباع الخلف للسلف ، والأول للآخر .

اللهم أنت مالك الملك حكمت على هذا الانسان أن يكون موثقا في أغلال التقليد ، مقيدا في أصفاد

من حديد ، شابهت قلوب أوائله قلوب أوخره ، واستن المتأخرون سنن المتقدمين ، وسار الأبناء على سنن الآباء فأحاطت بهم النذر ، وأهلكتهم الأمم ، فهم في ديارهم صرعى ، كأنهم أمجاز نخل خاربة ، فهل ترى لهم من باقية ، طمّ الجهل وعمّ ، واستحوذ على العقول فأصمها ، وعلى الأمم فأرداها ، فبنا للجهالة ، وتسا للصغار والمهانة ، ألم يكن فيهم منذرون ؟ أفلم يكونوا يعقلون ؟

غشيتهم الفواشي ، وأخذوا بالأقدام والنواصي ، فطاحوا طحين الرحي وهم غافلون . سمعوا أحاديث الاماء ، واتهنّ ببلدن سادتهنّ ، وأن ذلك من علامات الانحطاط والتدهور والهلاك ، فجعلوا أصابعهم في آذانهم واستكبروا استكبارا ، وسمعوا أن رعاة الشياه اذا تطاولوا في البنيان مزقوا شرّ مزق وأصبوا صرعى هالكين ، سمعوا ذلك فخأعنى عنهم ما كانوا يسمعون ، ولأنفادهم ما كانوا يقرءون ، فهأنت ذا ترى مبانيهم الشائخة ، وقصورهم العالية ، وبذخهم واسرافهم ، فخأعنى عنهم ما كانوا يبنون ، ولاحظ مدنتهم ما كانوا يصنعون .

يا الله أنت الوكيل ، أنت الحفيظ ، أنت العليم ، أنت المنتقم . دبر الخلفاء الراشدون الامور بالشورى والعدل وزهدوا في المطعم والملبس ، وجعلوا أنفسهم خلفاء الله والناس أبناءهم « خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات » فلقوا غيا ، طاح مجدهم في الجوارى الحسان ، واقامة البنيان ، والتغالى في الزخرف والزينة ، فحاق بهم ما كانوا به يستهزئون .

تغالى العباسيون والأندلسيون والعثمانيون والمصريون المتأخرون بعد محمد على باشا في القرن الماضي ، تغالى هؤلاء في البذخ والاسراف ، واقامة المباني ، والتفاخر أمام دول أوروبا رياه وسمعة ، فأضاعوا الأموال فهل مانعتهم حصونهم من الله ، وهل مانعهم اسرافهم ورباؤهم واخذانهم واخوانهم والمتعلقون لهم . كلا . بل أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم ، كل ذلك حصل في مصر في زماننا كما حصل في الأندلس والدولة العباسية وغيرهم .

اللهم اننا نعلم أن خلفاء الدولة العباسية وان كانوا هم الذين رفعوا شأن الأمم الاسلامية حينما فان توارثهم الخلافة كما يورث المتاع أودى بتلك الأمم وأضاعها ، وفرق شملها ، وأذاقها لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

ارتفاع الدولة

فأما ارتفاع شأن الأمم الاسلامية بالدولة العباسية ، فذلك مايقوله العلامة (سيدو الفرنسي) في تاريخه المسمى « خلاصة تاريخ العرب » فقد جاء فيه في صفحة ١١١ وما بعدها ما نصه :

« كان للعباسية ديوانان : ديوان وارد وصادر أموال المملكة ، وديوان النظر في مصالح الرعيّة وأحكام الدولة ، يصدّق على الأحكام الصادرة من الخلفاء ، ثم استبدلوا الأول بأربعة دواوين لمربيات السكر والخراج وتولية أرباب الوظائف الصغار ومقابلة الحساب وتصديقه ، ثم اتخذوا حاجبا يدخل سفراء الملوك إلى الخليفة ويحكم في القضايا المهمة عند رفعها إلى الخلفاء ليريحهم من النظر فيها ، واتخذوا وزيرا ينظر في القضايا قبل بنهم الحكم فيها ، ثم جددوا خراجا على أراضي المسلمين وكذا اليهود والنصارى مع جزية مقدارها من الفنى ثمانية وأربعون درهما ، والمتوسط أربعة وعشرون ، والفقير اثنا عشر سوى مايرد عن عوائد الجمارك واستخراج المعادن واجارة أراضي وارث من لاوارث له وغير ذلك .

بلغ وارد المملكة سنة في زمن الرشيد أربع مائة مليون وأربعمائة وعشرين ألف دينار ومائتين واثنتين وسبعين مليوناً وثمانمائة وخمسة آلاف وثمانمائة درهم ، والدينار إذ ذاك يساوى مثقالا أو اثني عشر فرنكا إلى ثلاثة عشر

والدرهم يساوي ستة دنانق ، وكل ستة دراهم تساوي سبعة مثاقيل .

الأعمال العامة والإدارة زمن العباسية

لما كانت عليه مالية العباسية من حسن الانتظام شرعوا في أعمال مهمة ، فرتبوا ببغداد ديوان ضبط يمنع عدوان بعض الناس على بعض ، ويحفظ الأملاك لأربابها ، ونظموا عسائين يطوفون ليلا منع السرقة ، ورواوا عرب البادية عادوا بعد انقطاع الحروب إلى العيشة في البيداء مع الثوب والسلب ، فرتبوا لقافلة الحج أميراً يحفظها ، ورتبوا أوقافاً لأحياء المساجد والمدارس ، وبنى الهادي في المغرب الممتد من بغداد إلى مكة خانات وصهاريج تلجأ إليها الجحاج والقوافل من الحر والقطن ، ورتب بين العجاز واليمن من الخيل والجمال يريدوا يوصل الأخبار إليها كما رتب معاوية بن أبي سفيان بين بنادر المملكة العربية سعاة لذلك .

وابتكر المهدي تولية محاسب يؤتمن على الضبط والرابط البلدي يطوف بالأسواق حيناً بعد حين بجنود ينفذ بهم أوامر ديوان الضبطية ، ويحقق أوزان ومكاييل البياضين ، فإن وجد مخالفاً أذبه فوراً أمام حالوته ، وقد جمعت العباسية ما ببغداد من السفائر المشتمة على أوامر أسلافهم ليرجسوا إليها ، وبالجملة قد أبدوا أولاً الحمية في الحروب ثم عدلوا عنها إلى تحقيق العز والرفاهية لمملكتهم حيث أخذوا يحرضون الناس على استعمال أذهانتهم في الأمور النافعة حتى وصلوا سريعاً إلى درجة عالية في التمدن ، وتقدموا على اليونان في التجارة والصنائع والفنون الأدبية وغيرها التي ظن اليونان أن لا سابق لها فيها .

الفلاحة والصنائع زمن العباسية

استخرجت العباسية معادن الحديد في خراسان ، والرصاص في كرمان ، ونسجوا الأقمشة في مدائن العراق والشام لاسيما الموصل وحلب ودمشق ، واستخرجوا القار والنفط ، وطبخت الأواني الصيفية ، ورخام طوريس ، والملح الاندراقي ، والكبريت . وأظهر ذوق الفنون الميكانيكية فتعلمت يشهد بها ما بهت الرشيد إلى شربانيه ملك الفرنجيس من الساعة الكبيرة الدقيقة التي نجح منها أهل ديوانه ولم يتمكن معرفة كيفية تركيب عديتها ومع ذلك لم يكن في عصر العباسية أهم من صناعة الفلاحة التي بمهارتهم فيها أظهرها حزبا فواكه الفرس وأزهار إقليم مازندران .

الفنون الأدبية والصناعية زمن العباسية

كان فنا النقش والحفر متقدمين لدى العرب الجاهلية الصائمين التصاور الانسانية والتماثيل الالهية حتى جاء القرآن الكريم بمنهما ، فوقفا عن التثقب حتى اشتغل بهما العباسية في غير تلك التصاور فتقدموا فيها كفى الموسيقى والعمارة ، فقد بنوا مباني فاخرة ببغداد والبصرة والموصل والرقه وسمرقند ، وشغفوا مع ذلك بالعلوم الأدبية ، فأحضروا من القسطنطينية أحسن الكتب اليونانية ، ورجعوا إلى العربية ، وقصوا ببغداد مدرسة « السن » لترية المترجمين تحت نظارة طبيب نسطوري ، ورتبوا خمسة عشر ألف دينار لمدرسة يتعلم بها عجمانا ستة آلاف تلميذ من الفقراء والأغنياء ، وأنشأوا كتبخانات رخصوا اللسؤل فيها لمن أراد ، فانتشرت اللغة العربية في سائر جهات آسيا حتى تكلموا بها بدلا عن لغتهم ، واعتاد المأمون ومن اقتدى به بعده حضور الدروس العامة التي يلقها المدرسون ، وأطلعوا شمس العلوم الرياضية ، وبنوا أرسادا بها آلات عجيبة للاستكشاف الفلكي ، ومستشفيات يمتحن فيها من أراد أن يوظف عدة امتحانات ومعامل كيميائية لاستكشاف النباتات ، إلا أنهم وقعوا في ضلالات بتصديقهم بمظنونات التحميم ، وبلسائل النظرية المتعلقة بعلم كيمياء الفضة

والذهب المسماة بالصنعة الاطرية وعلم جابر ، لكنها ساعدتهم على التقدم في علوم مكتسبة بالمشاهدة .
ومكثت المدرسة البغدادية على روحها الباهر نحو مائتي سنة تقريبا ، فكان العباسيون في ذلك أسعد حظا
من شرلمانيه الذي أراد أن ينقذ مملكته من الخشونة والجهالة بتنوير عقولهم بأعلم من في عصره من الفرج
فان ذلك عدم بعد هلاكه .

فخامة العباسية

لاستحواذ العباسيين على أموال كثيرة مع عدم جيوش دائمة ينفقون عليها أبدا من الزينة والزخرفة
أهبط المناظر ، ومنعوا منها وافرة ، وعملوا أعمالا فاخرة ، شروا الذهب في قصورهم وبساتينهم ومساجدهم
وأفق المهدي في حجه ستة ملايين من الدينار ، وصرفت زبيدة زوجة الرشيد مليوناً وسبعمائة ألف دينار
على حفر مجرى يوصل إلى مكة المياه من الجبال المجاورة لها ، وكان لباسها من الديباج المبطن بالسمر ، أو
الأقشة المنسوجة بخيطان الفضة ، ونعاطها منركشة باللاكمة الثينة ، وفرق المأمون في يوم أر بمائة ألف
دينار ، ونصب في مجلسه عند قدوم سفير اليونان شجرة ذهب حاملة لؤلؤا على هيئة الثمار ورتب مقترعا به
سهام أكثر من مائتي شخص يأخذ كل منهم سهمه فيجد به أرضا جسيمة مع ما يلزم لزراعتها من العبيد ،
ويقال : كان بقصره ثمانية وثلاثون ألف بساط ، منها اثنا عشر ألفا وخمسمائة منركشة بالذهب ، وبه أيضا
سبعة آلاف خصي ، منها ثلاثة آلاف من الزنج ، وسبعمائة خفي ، وعساكر تحمي الحواشي الخارجة عنه ،
ووضع المعتصم أساس سامرا قرب بغداد على أرض أعلاها بمصاريف هائلة ، وبني بها إسطبلات نسج على
ما قيل مائة ألف جواد ، ولما بلغه العباسية من الفخامة وقوة الشوكا بعث شرلمانيه إلى هرون هدايا بصمى
النصارى الفاضلين إلى بيت المقدس ، فأجابه إلى مطلب ، وبعث له أقشة نفيسة ، وعطرا ، وخشبا ذكيا ،
وفيلا ، وخيمة عظيمة على هيئة خيام العرب ، ثم بعث الساعة المرافقة الساقفة . انتهى

انحطاط الدولة العباسية

فأما انحطاط الدولة العباسية فما ذلك إلا بسبب توارث الملك والتنازع عليه ، ولو كانت الخلافة بالشورى لم
يحصل شيء من ذلك ، ولقد قمتنا كيف قتل عشرة من الخلفاء ، وتزيد الآن ما يقوله الاستاذ سديو المتقتم
في كتابه وهذا نصه :

« لقد أحيطت بغداد بالولايات المستقلة من ابتداء هذا الزمن الذي استمر فيه القتل في القواد والوزراء
والملوك المستقلين بالحكم ، وكذا الخلفاء ، فقد قتل من التسعة والخمسين خليفة ثمانية وثلاثون ، وعذبوا
بالجوع ، وأودمان السجن ، أو الرمي في وعاء كبير مملوء نلجا ، ولذا خرج القاهر من السجن مقفوه العينين عليه
نياب بالية يسأل الناس على أبواب المساجد ، وتقلب على الراضي ضابط الصاكر التركمانية ، وتصرفوا كما
شاهوا في سائر فروع المملكة ، فأخترع منصب إمارة الأمراء ، وأعطاه ابن رائق ، فتولى قيادة الجيوش ،
وخزينة المملكة ، وسائر أمور الرعية ، وقرن اسمه باسم الخليفة في الخطبة ، وما زال متصرفا بالمملكة حتى حرق
منه جندي يسمى « ياقم » فحاصر بغداد وقبض على الراضي سنة أربعين وتسعمائة ميلادية ، وألزمه أن
يولي إمارة الأمراء ، ففولاه وحكم حتى مات في خلافة المتقي سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة ميلادية اه

اللهم لك المشتكى . اللهم أنت رب العباد ، أنت الحكيم ، أنت الذي علمتنا تاريخ أسلافنا ، لتجسد

نمودجا لنا : لأنك تريد رقى أم الاسلام ، وأم الأرض ، ولن يقوم المجد إلا على أساس ، وهل الأساس إلا ما قام به عمر رضى الله عنه ومن معه من الخلفاء الراشدين ؟ وهل يقع الناس بعدنا الخلفاء الراشدين اتباعا تلمأ إلا اذا علموا أن الأم التي هجرت طريقهم ، وخالفت سننهم هالكون ، فهنا نجدان وطريقان مهيدان طريق الخبير سنة الخلفاء الراشدين ، وطريقي الشر سنة الخلفاء الذين ليسوا براشدين ، بل هم قوم لقبائلهم متعصبون .

يارباه هاتحن أولاء الآن قدرنا أن نفهم بعض الفهم كلامك في كتابك الكريم ، رباه عرفنا ومعرفتنا قد أثبتنا التاريخ ، أثبت التاريخ أن التتم في الدنيا ذل ، وأن القناطر المقتطرة من الذهب والفضة ذل ، هاهوذا أثبت التاريخ بالأرقام والأعداد والناس شرقا وغربا غافلون ، هاهم أولاء الخلفاء قتالوا قتيلاً وسملت أعينهم ، وأخذ بعضهم يسأل الناس على أبواب المساجد ، وكان أحدهم يملك القناطر المقتطرة ، بل المرأة من نساء الخلفاء ربما تملك الملايين من الدنانير ، وإذا كنا نرى المأمون في ولجة عرسه لبوران إذ تزف إليه يأمر بالتقود فتصب بين السباطين وترفع حتى تكون فوق الموائد ، ويؤمر القرم أن يأخذوه لأنفسهم وهو عشرات ألوف ألوف ، أفليس ذلك يشبه مال قارون المذكور في القرآن ، ذلك الكتاب الذي ذكر تلك القصة ليشرح إلى ما يصل في البلاد الاسلامية ، وقد حصل فعلا ، قود وجواهر تكاثروا وتجمع اجتماع مال قارون ، والكازون هم أنفسهم يقتلون قتيلاً ، ويسأل بعضهم الناس على أبواب المساجد ، أليس هذا يشابه ما حصل لقارون ، إذ قال له العلماء لا تفرح بالمال والزينة ، فرح غصف به وبماله الأرض ، فأصبح الذين تمنوا مكانه وهو في زبته يعمدون ربهم على أنه نجاهم من الزينة والزخوف وكثرة المال . هذا هو بعض أسرار القرآن ، هاهي هذه قصص القرآن فسرنا التاريخ ، لهذا أنزل القرآن ، أنزل أقوالهم ظهر أفصلا ، أليس هذا هو قوله تعالى : « فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرم من ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهان من ، كلا بل لا تكرمون اليتم الخ »

سبائك اللهم وبمحمدك ، أسمعتنا كلامك يذم التتم ، وأريقنا التاريخ فأنبت هذا التتم أن المسلمين اذا نبذوا التاريخ ظهر با كما هو حاصل الآن فليسوا خير أمة أخرجت للناس ، لأنهم لا يفهمون حقائق القرآن إلا بالتاريخ ، إن جيل المسلمين بعدنا خير من جيلنا ، لأن التاريخ والفلسفة والقرآن ستتعهد في عقولهم ويخرج جيل جديد لم يعلم به أهل الأرض ، ويكون خلفاؤهم بالشورى ، وحكامهم جميعا بالشورى ، والمال موزع على مستحقه ، فلا اسراف ولا غل ، ويكون المسلمون كالجسد الواحد .

سينظر بعدنا المسلمون ما كتبناه وكتبه غيرنا ، ويقولون : نحن رأينا الطريقين ، وقرأنا المحرسين ، وهدينا النجدين ، فلنتهج سنن الخلفاء الراشدين ، ولنجعل الخلافة بالشورى ، ولا نخصها بأمة تها ، ولا بنسب ما ، ولا بقبيلة تها ، وسنجعل الخليفة فينا أقرب في أخلاقه إلى أخلاق عمر ، وأخلاق الخلفاء الراشدين الآخرين ، وإذا مات الخليفة أقمنا آخر بالشورى ، وراعينا قوته العقلية والعملية ، وقوة جيشه ، فأما مراعاة الأنساب ، فهذه تصيب وتخطئ ، وهى ضلال مبين ، اللهم إلا اذا توافرت الشروط وقامت الحجج فإن ذلك لا مانع منه ، والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

ثم يقولون : إن من قبلنا ظلمهم الملوك ، غشوا بأسهم ، وضاغوا بطشهم ، فلم يؤذوهم ، ولم يهذبوهم ، فهلك الملوك منهم والسوقة أجمعون . إن الأمة كلها أشبه بجسم واحد فإذا فسد عضو تداعت له سائر الأعضاء . إن الله امتحن أسلافنا بظلم ملوكهم فلما لم يقوموهم سلط عليهم أمما آخرين ، وقد جعل ذلك درساً لنا فحسن من أمراتنا مسئولون ، لا تفرط كما فرط آباؤنا ، لا تظلم اليوم في بلاد الاسلام ، نحن أصبحنا نفهم آية : « واذا يتصاحبون في النار فيقول الضعفاء الذين استكبروا الخ » وتبين لنا بها أن المحكوم مسئول عن حاكمه

وأن الشورى هي القانون العام في بلاد الاسلام ، فنحن مسئولون عن سير مملكتنا .

كيف تكون النبوة المحمدية المنبئة على الأساس القوي قد قامت من قبلها عقول راجحة ، ونفوس قوية ، برهنت على أن تلك العقارضا بالملك والرعية ، فهذا سقراط يقول : « إن الملوك والأمراء والجند إذا ملكوا عقارا أصبوا ذنبا جائعين آكلين ، بدل أن يكونوا كلابا حارسين » ، وكيف جهل القائمون بالأمر هذه الحكم النبوية ، فهاهوذا اليوم ظهر أن العقل وافق الوحي ، فليكن أبناءنا خيرا من آبائنا ، لأنهم يجمعون بين النقل والعقل فيكون ذلك يقينا عندهم لا مجرد إيمان .

هاهم أولاء خلفاء الاسلام ومملوكهم المتأخرون قد بنوا القصور ، وزخرفوا الدور ، ألم تر فيها سرّ بك أن هؤلاء الذين بنوا وشيدوا وأسرفوا هم الذين سقطوا وذهب ملكهم ، أنا لست أقول، أنا لابنتي . كلا . ولكني أقول نراعي العقل والأحوال ، ولا نكون مسرفين .

فهاهي ذمة بلاد الحجاز في زماننا ، وبلاد اليمن ، وبلاد نجد ، ليست عندهم حصون كحصوننا في مصر ، ولا زخرف كزخرف بلادنا ، ولا قلاع كقلاعنا ، ولا ثغور كثغور بلادنا ، ولكنهم مستقلون ، ونحن في مصر من الاستقلال محرومون ، ألا ترى أن ذلك مصداق للنبوة ، وأن الاسراف في البنيان ، وفي الجوارى والقصور والدور ، والزخرف هو المضعف للأمة ، والمخرب للممران ، صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم انظر إلى البصرة والكوفة ، هما من المدن الاسلامية التي اختطها العرب لأنفسهم ، وكانوا قبل الاسلام أهل ماشية وخيام وخيل ، يكرهون الإقامة ضمن الأسوار ، وينفرون من الانحصار في المدن ، فلما تأيد الاسلام واجتمع العرب على فتح الأمصار في العراق والشام ومصر ، كانوا في بادية الرأى إذا ساروا إلى غزو أو فتح اصطحبوا نساءهم وعيالهم ، فإذا فتحوا بلدا أقاموا في ضواحيه بخيامهم وأخبيتهم وهو معسكرهم ، وكان عمر بن الخطاب يشترط على جنده المقيمين في الأمصار أن لا يقيموا في مكان يحول الماء فيه بينهم وبينه حتى إذا أراد أن يركب وراحته إليهم ركب ، كذلك فعل عمرو بن العاص في القسطنطينية وسعد بن أبي وقاص في الكوفة والبصرة وكانت كلهما مضارب لجند العرب الفاتحين يبرون عنها بالرابطة والمسكر ، فإذ طال بهم للمقام اختلطوا الأسواق وبنوا المنازل والقصور ، ذلك كان شأنهم في صدر الاسلام فبنوا البصرة والكوفة على هذه الصورة على أنهم ظلوا نازعين إلى البداوة بعد تخطيط البصرة لأول عهدها ، فبنوا مسجدها ودار إمارتها بالقصب ، فكانوا إذا غزوا تزعوا ذلك القصب وخزموه وحفظوه حتى يعودوا من الغزو فيعيدوا بناءها كما كان ، واعتبر ذلك بالكوفة أيضا .

فأول من عمر البصرة والكوفة الفاتحون وأهلهم ، ثم اتسعت الفتوح الاسلامية شرقا وغربا ورسخت دولة المسلمين حتى نزح العرب بأهلهم وخيلهم إتماما لسعة العيش في البلاد العامرة من مملكتهم الجديدة وهم يختارون أقربها إلى البادية بلدهم القديم ، فالبصرة والكوفة أوفى البلاد لهم لأنهما على الحدود بين جزيرتهم والشام والعراق . انتهى

اللهم إنك أنت الملمم ، أنت المنعم ، أنعمت على بالتوفيق ، وأيدتني ، وشرحت صدري ، وقد أوغمت للأمة الاسلامية بعدنا هذا المقام أشدّ إضاح ، فلك الحمد والثناء والملك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جددك ، ولإله غيرك ، وأنت رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، انتهى الكلام على الفصل الأول الخاص بآية « أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها الخ » فلنشرع في الفصل الثاني في الكلام على قوله تعالى « واذكر أنا عاد إذ أندر قومه بالأحقاف » فأقول مستعينا بالله :

الفصل الثاني في قوله تعالى : واذكر أفعالهم إذ أنذروهم بالأحقاف

وبيان مساكنهم ، وخريطة بلادهم ، وما أشبه ذلك

لملّ الكلام في عاد بعملا على الرجوع إلى مجموع الأمّ العربية في أقدم الأزمنة فنقول : يقال إن سكان وادي النيل القدماء كانوا من الشعوب الحامية نسبة لحام ، وسكان ما بين النهرين دجلة والفرات كانوا من الشعوب الطورانية . أما الساميون فهم كانوا بين وادي مصر ووادي العراق . ويقال إن الساميين دخلوا مصر في عصور قديمة جدا قبل التاريخ أيام المصريين ، وهؤلاء الساميون أدخلوا صناعة الحديد بمصر . ثم إن الساميين في الأزمان المتأخرة هجم جماعة منهم على بابل وآخرون على مصر ، فالتين هجموا على بابل ابتداء حكمهم من سنة ٢٤٦٠ ق.م وانهت سنة ٢٠٨١ ق.م وأول هؤلاء سامواي وسادسهم حورابي المشهور . أما الذين هجموا على مصر دولة (الشناسو) الهيكسوس من سنة ٢٢١٤ ق.م إلى سنة ١٧٠٣ ق.م فهؤلاء الشناسو أي الرعاة واخوانهم الذين هجموا على العراق كانت لهم نهضة تشبه النهضة العربية الاسلامية من بعض الوجوه ، وهذه النهضة كما ترى قبل يومنا هذا بنحو أربعة آلاف سنة والتي يهنا من هاتين الدولتين العربيتين المصرية والبابلية أن ننقل من الكلام عليهما إلى الكلام على عاد التي نحن بصدد الكلام عليها .

يا سبحان الله : أنا يوما توجهت إلى دار الآثار المصرية التي فيها أسلحة وملابس وحلى قدماء المصريين فكنت أجد العجب مما أرى ! فأن السيوف والرماح والحلى هي هي بعينها ما نراه اليوم في جزيرة العرب ، ثم اننا نسمع في القرآن أن هذه الأمّ لهم أبنية ومصانع ، وأن عمود نحتت من الجبال بيوتا ، وهذه الأعمال بعينها هي التي يعملها قدماء المصريين .

فهو لك أن أقصّ عليك ما خاطبنا به المرحوم أحمد بك كمال وهرا كبر عالم أثري في بلادنا المصرية ، بل في بلاد الاسلام . فقال صاحبي : إن حديثه تقم في هذا التفسير ، فأشركه إليه إشارة فقط . فقلت : حقا انه قال : انه وجد مكتوبا على حائط الدبر البحري في أيام الأسرة الثامنة عشرة ما نصه : « إن المصريين لما كثروا خرج منهم جماعة إلى بلاد شمال افريقيا ، وجماعة إلى بلاد العرب . وقال لنا معاشم مدرسي اللغة العربية : أنا أرى أن عادا وعمود هم الذين نزحوا إلى بلاد العرب . فقلت أنا والمرحوم حفي بك ناصف نحن لمانع بمنعنا من القول بهذا ، ولقد دهشنا لما أثبت لنا بكتابه أن اللغة الهبروغليزية وهي المصرية القديمة عربية دخلها التحريف ، بل هي أوسع من العربية ، وألف كتابا في ذلك ضخما ، وقرأ كثيرا منه لنا .

فهذا كما يؤيد ما قلنا أن الساميين هم الذين نزحوا إلى مصر من قبل التاريخ ، فلنرجع إلى ما نحن بصدده من أمر عاد فنقول : إن عمالة العراق لما خرجوا منها ، وعمالة مصر أيضا لما خرجوا منها تفرقوا في جزيرة العرب ، وهؤلاء منهم العرب البائدة مثل عاد وعمود وطسم وجديس ، فأما عاد فانها تعرف بأنها (عاد إرم) فأرم اسم لقبيلة ، فيقولون عاد إرم وعمود إرم ، والقبائل البائدة كلها من نسل (إرم) ويعرفون بالأرمان ، ويؤيد ذلك أن اليونانيين ذكروا في جملة قبائل اليمن حول تاريخ الميلاد قبيلة يكتبونها بلسانهم ADRAMITAI وقد يتبادر إلى الذهن أن المراد بها « حضرموت » ولكن هذه يكتبونها باليونانية XADRAMOTITAI وباللاتينية CHATRAMOTITAI وقد أوردوا اللفظين معا ، فلأوردوا قبيلة واحدة لما ذكروها معا ، فلأرجح أن ADRAMITAI يراد بها العادريون أو العادريون .

والعرب يضربون المثل بقدم عاد ويريدون انها أقدم من العمالة ، ولا سبيل إلى تحقيق ذلك لأن ما ذكروه عنها محشو بالمبالغات والمخاطبات كقولهم : إن طول الرجل منهم ٧٠ ذراعا إلى مائة ذراع ، ورأس

أحدهم كالتبة العظيمة ، وعينه تفرخ بها السباع ، ولم يذكروا من ملوكها إلا بضعة أولهم عاد قالوا انه عاش
 ١٣٠٠ سنة ، وانه تزوج ألف امرأة ، وولد له أربعة آلاف ولد ذكر لصلبه ، واعتدل بعضهم لجعل عمره
 ٣٠٠ سنة ، ولا تخلو هذه الخرافة من حقيقة ، فالظاهر أن العرب كانوا يسمعون بقدم هذه الأمة ولا يعرفون
 من ملوكها إلا ذرا قليلا ، فخلوا أعمالهم طويلة لتسع ذلك القدم ، وترتب على طول أعمالهم تعدد
 الزوجات .

وعثر النقبون في آثار بلاد العرب على تنف من بقايا كثير من السول القديمة ، وعرفوا كثيرا من أحوالهم
 إلا عادا فانهم لم يروا لها ذكرا . على أن العرب تعودوا اذا رأوا أطلالا قديمة عليها قوش لا يعرفون صاحبها
 أن يسموها « عادية » .

وجاء في معجم ياقوت الحموي بمادة جش قوله : « جش إرم جبل عند آبا أحد جبلى طى » ، أملى الأعلى ،
 سهل ترعاه الإبل والحجير ، كثير الكلا ، وفي ذروته مساكن لعاد إرم ، فيه صور منحوتة في الصخر .
 وقال في مادة صبر : « والصبر جبل بابا في ديار طى كهوف شبه البيوت » ولعل بين تلك النقوش
 وهذه البيوت نسبة ، فسمى أن يوفق الرواد إلى كشفها وقراءتها كما قرءوا مثلها في حوران والعلاء ومدائن
 صالح وتيماء واليمن انتهى . ملخصا من كتاب تاريخ العرب قبل الاسلام

هذا آخر ما عرفه علماء زماننا في التاريخ ، فهل لك أيها الأخ أن أقص عليك أبناء عجيبة ، ذلك أن
 زماننا هذا تقاربت فيه الأمم ، وامتدت الطرق ، وسهل السفر ، وأنا لا يسنى لي في هذا التفسير أن أكتب
 من أفواه الرجال ، فغير الواحد لا ثقة به ، ولكن جاء صديق من متخري جي الأزهر فأسمعني كلاما سمعته من
 كثير غيره ، ولكنني لم أرد أن أكتب عن أحد شيئا ، فقال لي هو انه زار قبر نبي الله هود وسمع بقبر نبي
 الله صالح في تلك البلاد . فقلت له انظر هذه الخريطة (انظرها بدهذه الصفحة) وقد كان أهداها لي بعض
 الفضلاء من بيت السقاف المشهور ، فلما نظرها ورأى مكان قبر هود . قال : هذه الخريطة حق . ولقد
 رأيت في قبر نبي الله هود قوشا بعيني رأسي لا أعرف أنا ولا غيري منها شيئا ، فاذا رحل بعض علماء الآثار
 إلى تلك البلاد والوصول إليها سهل ، فإن ذلك يفتح بابا للعلم واسعا ، فسمى أن يقوم أرباب العلم بهذا ليرفصوا
 النقب عن وجه التاريخ اه

فانظر إلى العجب العجيب ! وكيف ترى قبر هود عليه السلام في واد قريب من قبر صالح عليه السلام ،
 وانظر كيف ترى وادي المسيلة الذي فيه قبر هود متصلا بوادي سر الذي فيه قبر صالح ، وكيف نسمع أنهم في
 تلك البلاد يشدون الرحال لزيارة قبري النبيين كما يزور أهل بلادنا قبر السيد أحمد البدوي رضي الله تعالى عنه



هذه هي الخريطة التي رسمها أهل البلاد بأنفسهم ، وهم أعلم ببلادهم ،
وليس بسجيب أن نسمع في التاريخ أن مما كان سببا في نفي العلامة « ابن رشد »
أنه لما سمع أحد جلسائه يقول : هذه ربيع صرصر طائية ، كالتى أهلكت عادا
قال طى القور ، وهل ثبتت قبيلة عاد حتى ثبتت هلا كها بل ربيع . أقول ليس
هذا بسجيب ؟ لأن اللواصط كانت عسيرة جدا ، وإذا صح ما فى هذه الخريطة
فانه يؤيد الرأى القائل : إن نمود كانت فى الجهة التى فيها طاد طى هنا تكون
مدائن صالح من البلاد التى كانت تدخل تحت حكمهم

هذا وأنا نحمد الله عز وجل إذ هيا اليوم للمسلمين أسباب الرقى ، ومن
ذلك أن راسم هذه الخريطة « السيد أحمد بن عبد الله السقاف » قد أخذته الحمية
الشريفة والنخوة العربية ، وأف أن نكون تابعين للأمم ، فرسم هذه الخريطة
وجعلها موافقة للواقع بشهادة أهل البلاد .

أقلم ألم الشبان أن يندروا ذلك النوم العميق الذى وقع فيه أسلافنا للتأخرون ،
وأن يندلوا الجهد ، ويقوموا بنصيبتهم من العمل
إن الله عز وجل كما فرّق للنافع طى الأرض فرّق اللواهب طى أفراد نوع
الانسان ، ولن يعطى الأمم ما فى أرضها من منافعها ، ولا ما فى هوائها وماتها من
عجائب إلا إذا برزت كنوز حقول أبناء البلاد جميعها ، وهذه الكنوز لن نستر
عليها إلا بالتعليم ، والتعليم الذى يفتح لكل عقل نوع اللواهب التى كتمت فيه
وهذه اللواهب المختلفة موازية للمنافع المختلفة فى أنواع الأرض والماء والهواء
والله هو الولى الحميد .

تذكرة

إن صديقنا الاستاذ الشيخ محمد منصور أحد علماء شين القناطر هو الذى أشرت له آتفا ، وانه زار قبر هود عليه السلام ، ولم يكن ورد لى منه خطاب فى هذا المعنى ، ولما كتبت ما تقدم ورد خطابه وقد جاء فيه بعد الديباجة مانصه بالحرف الواحد :

« وأما مسألة سيدنا هود وسيدنا صالح عليهما الصلاة والسلام فهناك حديثهما : « فى اليوم الثامن عشر من شهر جادى الثانية سنة ١٣٤٥ هجرية خرجت بصحبة فقيه الشرق والاسلام السيد محمد بن عقيل الحضرمى وابن عمه السيد أحمد بن عمر السرى الشهير لادارة التعليم بحضرموت ، وهى بلاد الأحقاف الوارد ذكرها فى القرآن الكريم ، وقد وصلنا إليها فى اليوم السادس من شهر شعبان تلك السنة المذكورة ، وحينما وصلنا إليها وجدنا البلاد فى هياج وحركة غير عادية ، ونظرا لأنى غريب عن البلاد رأيت عدم الاسراع بالسؤال عن سبب هذه الحركة ، ولم ألبث إلا يسيرا حتى حضر عندى فى الجناح المعتد لسكنائى من سراى أحمد بن عمر الفخمة السيد أحمد بن عمر نفسه ، وعرض على التوجه لزيارة قبر سيدنا هود عليه السلام ، ففعلت حينئذ السر فى هذه الحركة ، وباستمرار حديثى مع حضرة السيد تبين لى أن البلاد من أقصاها إلى أقصاها تتوجه إلى شعب هود عليه السلام فى اليوم العاشر من شهر شعبان كل سنة لأداء هذه الزيارة ، واليلة الختامية لهذه الزيارة هى ليلة النصف من شهر شعبان ، ولهم هناك مراسم اعتادها السادة العلويون بحضرموت ، وهناك بقبر هود عليه السلام صخرة عظيمة جدا يسمونها الناقة ، وفى صباح ليلة النصف من شعبان يبكرون قافلين إلى بلادهم ، واعتقاد أن هذا قبر هود عليه السلام فتواتر عن سكان البلاد قبل الاسلام ، وكذا هناك قبر سيدنا صالح عليه السلام ، وهو مشهور شهرة قبر هود ، غير أن اعتناء أهالى البلاد بزيارة سيدنا صالح أقل من اعتنائها بزيارة هود .

هذا ما يتعلق بوجود هذين القبرين ببلاد حضرموت التى هى بلاد الأحقاف ، لى رأيت ما تقدم بهنى رأسى وشاهدته مع مئات الالوف من أهالى البلاد ، وإذا كان هناك شك فى أن ببلاد العرب بلدة تسمى « مكة » توارث الناس علمها جيلا بعد جيل جاهلية واسلاما ، فليصح أن يوجد من يشك فى أن ببلاد الأحقاف التى هى حضرموت قبرى هود وصالح عليهما الصلاة والسلام .

محمد منصور

تحريرا فى ٢٧ أغسطس سنة ١٩٣١ م

تم تفسير سورة الأحقاف

تفسير سورة محمد صلى الله عليه وسلم

(هي مدنية)

إلا آية: وكان من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكتناهم فلانصر لهم
فزلت في الطريق أثناء الهجرة

آياتها ٣٨ - نزلت بعد الحديد

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَءَامَنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ * ذَلِكَ
بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ
لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ * فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَخْتَضَمْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا
الْوَتَّاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَتْكُمْ مِنْهُم
وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ
وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ
يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصْلَ أَعْمَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ * إِنْ اللَّهُ يُدْخِلِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى
لَهُمْ * وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكَنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ
لَهُمْ * أَفَنْ كَانَ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * مَثَلُ
الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ
مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ

رَبِّهِمْ كَتَمَ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْنَاهُمْ * وَمِنْهُمْ مَن يَسْمَعُ إِيَّاكَ
حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ إِنَّهُمَا لَوْلِيكَ الَّذِينَ طَمِعَ اللَّهُ
عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَوَسَّعَتْ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ * فَهَلْ
يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ *
فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ
وَمُنْتَوَاكُمْ * وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ
فِيهَا الظَّنَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَشْيِ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِ
لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ * فَهَلْ
عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ
فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ * أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَنْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهِمْ * إِنَّ الَّذِينَ
أُرْتَدُوا عَلَى أذْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ * ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنَطِينَكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ *
فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا
مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ
يُخْرِجَ اللَّهُ أَضغاثَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ قَلَمَ قَلَمَتِهِمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ *
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ
يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالُهُمْ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا
تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَنْفِرَ
اللَّهُ لَهُمْ * فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرُكَكُمْ * أَعْمَالَكُمْ *
إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ
أَمْوَالَكُمْ * إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُخْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَبُخْرَجَ أَضْغَانَكُمْ * هَآأَنْتُمْ هُوَآءَ

تُدْعُونَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِمَّا فَنَاءَ بِمَن يَبْخُلُ وَمَن يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَن نَفْسِهِ وَاللَّهُ
الْفَعِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قُوَّتَا غَيْرِكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالِكُمْ *

هذه السورة قسمان

- (القسم الأول) في تفسير البسمة .
- (القسم الثاني) في تفسير السورة كلها .

القسم الأول في تفسير البسمة

كتب قبيل جريوم الاثنين وفي صباح يوم الثلاثاء ٢٣ و ٢٤ مارس سنة ١٩٣١ م
قبيل جريوم الاثنين بنحو ساعتين استيقظت وأنا أفكر في البسمة في أول سورة محمد ﷺ وأقول
في نفسي : إن هذه السورة تمت بصلة إلى سورة التوبة ، فكلاهما فيها القتال ، وإذا كانت التوبة تركت فيها
البسمة فهذه تقرب منها ، فذلك تركت فيها البسمة ، وهذه فيها أكثر من عشرين آية خواها الغضب لا الرحمة

(١) على الكافرين الصادقين عن سبيل الله حكم عليهم بالضلال .

(٢) التابعين للباطل .

(٣) وقد أسر المؤمنون بضرب أعناقهم إذا لقوهم .

(٤) وهكذا حكم الله عليهم بالتعس وضلال الأعمال .

(٥) ووصفهم بكرهية الدين المحطلة للأعمال .

(٦) وذكروهم بهلاك من قبلهم .

(٧) وتبرأ من موالاتهم .

(٨) وجعلهم في مرتبة الأنعام ، ونهايتهم جهنم .

(٩) وهم لانصير لهم من عذاب الله .

(١٠) وهم قد طبع الله على قلوبهم .

(١١) وهتدهم يوم القيامة وعذاب النار .

(١٢) وحكم عليهم باللعنة والسمم والعمى .

(١٣) وأن قلوبهم عليها أقفاها .

(١٤) وأنهم تابعون للشيطان .

(١٥) وهم خائفون بالون الأعداء .

(١٦) وإذا ماتوا ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم .

(١٧) لأنهم يكرهون رضوان الله ويقعون ما أسخطه .

(١٨) وهكذا وصف قلوبهم بالمرض .

(١٩) وأعمالهم محبط .

(٢٠) وإذا ماتوا فلامفطرة لهم .

وهكذا ، فهذه السورة مع قلة آياتها مشحونة بالغضب ، فأين الرحمة فيها حتى تبدأ بالبسمة ؟

وبينا أنا أفكر في هذه المعاني إذ خيل إليّ أني خارج القاهرة في جو فسيح والنسبات تهبّ وكأني بناموسين
تسكلمان كما يتكلم الناس فيما بينهم ، واحدى الناموسين اسمها « باسا » والثانية اسمها « ساسا »

ذكرى أيام الصبا في الحقل

وكيف كنت أفهم أصوات الناموس إذ ذاك

ولما أخذت تسكلمان لم أكن لأميز كلامهما ، ولا أفهم خطبهما ، ولكن في أثناء ذلك تذكرت ما اتفق
لني وأنا طفل ، إذ كنت أذهب مع والدي إلى الحقل وفيه النرة ليلا ، وأسمع أصوات الناموس ، وكان يخيل
إليّ إذ ذاك معان غامضة محزنة ، ملخصها أن هذه الدنيا غلضة لا يفهمها عقلي ، ولا أدري أسرارها ، ولا
هياتها ، ولا أعرف لها آخر ، وهذه المعاني كانت تخطرنى فضلا من امتداد أصوات الناموس وهو امتداد محزن
في تلك الظلمات ، فهذا الامتداد الذي لا آخر له مع كونه محزنا غير شارح للصور كان يحدث في قلبي حزنا ،
وهذا الحزن ينصرف إلى أني أجهل آخر هذا العالم وأسراره .

خواتم في أصوات الناموس الآن

فلما تذكرت ما جال بخاطري أيام الصبا عند سماع أصوات الناموس قلت في نفسي : عسى أن يكون
ما أقل عليّ في الصبا عند سماع أصوات هذا الناموس يفتح عليّ الآن ، ولا جرم أن الله علم أحد ابني
أتم بما بث له غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يدفن أخاه ، فاتمّ هذا المخاطرة حتى سمعت (باسا)
تقول لساسا بلسان فصيح واضح : فلنعلم هذا الشيخ حتى يكون لنا ثواب ما فعله :

تفسير آية : وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض بغير ما فسرت به سابقاً

فقلت ساسا : وهل أنت دابة الأرض التي برسلها الله للناس إذا وقع القول عليهم فتكلمهم أن الناس
كانوا لا يؤمنون بآيات الله . فقلت لساسا : أنت كرى عليّ رأيت وتسخرين مني ، فلا تكن أنا ومثلي من دواب
الأرض مطعّات ، لهذا الشيخ ، وليكن هو ناقلا عنا ، وتنتضح الحقائق الآن لأولى الألباب ، أنظنين أن الكتب
السموية يكتبني فيها بطواهر ألقاها ، هل فهمت معنى قوله تعالى : « تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا
لا يوقنون » وكيف يكون الايقان ؟ وأيّ إيقان يأتي من أجل دابة تسكلم وتكتب على وجه الكافر كافر
وعلى وجه المؤمن مؤمن ، أليست هذه من خوارق العادات ، وأولم يتذكر المسلمون قصة سحرة فرعون إذ
سجدوا لما عرفوا علما لموسى فوق علم السحر فأبطله ، فأما بنو إسرائيل فإن خوارق العادات التي ظهرت
على يد موسى كفروا بها لما رأوا عجل السامري ، وهل ذكرت هذه القصة في القرآن إلا لأجل أن يفهم
المسلمون (الذين منهم هذا الشيخ الذي نحن نعلمه الآن وهو ينشره لهم) آية : « وما منعنا أن نرسل بالآيات
إلا أن كذب بها الأوثان ، وآتيناهم ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » .

فإذا كانت ناقة ثمود وأمثالها لا ترسل إلا تخويفا ، وإذا كان آخر الأنبياء قيل له : « أولم يكفهم أنا
أرسلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكري لقوم يؤمنون » ، فهل بعد هذا كله نظنين أن
اليقين الذي عبرت الدابة الناس بعدم اتصافهم به يأتي لهم بمجرد نطقها ؟ وهل هي إلا من خوارق العادات
المرسلات للتخويف ؟ وهل يكون اليقين إلا بالتعقل الذي يفهم من آية : « وفي خلقكم وما يبث من دابة
آيات لقوم يوقنون » ، فدراسة عجائب كل دابة مبشورة في الأرض هي التي بها يكون اليقين ، أما نطق دابة
مثل ومثلك أمام هذا الشيخ وأمام جميع الناس في صحوهم (لا في الحال البرزخية كما هي الحال الآن مع هذا

الشيخ فان هذه ليست من العجائب) فليست تورث اليقين بل تكون آية يؤمن بها الناس ، ولا يقين إلا بالتحقق والفهم ، وعليه تكون الآية لها ظاهرها ورمزها ، فهي كناية ، والكناية لفظ أطلق وأريد به لازم معناه ، فظاهرها أن دابة تنطق في آخر الزمان ، وهذا الظاهر لا يخبر عليه ولا إنكاره ، وباطنها هو الحقيقة وهو الوقوف على أسرار التكوين لاسيا في عالم الحيوان والانسان المشار اليه في أكثر آيات القرآن وفي السجود إذ يقول المصلي : « سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره الخ » ، فدراسة هذه العجائب في جسم الانسان والحيوان هي التي تورث اليقين ، وهذا معنى « راسجد واقرب » بخلاف ذكر الركوع فليس فيه إلا اشعاع السمع والبصر والمخ ، وليس فيه التعرض لخلق هذه الأعضاء ، فالراكم عابد ، والساجد مفكر موقن اذا أدرك وعلم ما يقوله ، وهذا هو الذي تقوله دابة الأرض « ان الناس كانوا باياتنا لا يوقنون » وهذا نظير قول نصيب بمدح عبد العزيز :

لعبد العزيز على قومه * وغيرهم نعم غلظه

فبابك أرحب أبوابهم * ودارك مأهولة عامره

إلى أن قال :

وكلبك أنس بالزائر * من من الأم بالابنة الزائرة

فهنا مدح نصيب عبد العزيز بأن كلبه أكثر إنسانا بزائر عبد العزيز من إنسان الأم بابتها التي هي أحب الناس إليها حين تزورها ، وهذا المعنى ليس مقصودا لأنه لا قيمة له ، ولكن القيمة راجعة لما يلزمه ، وذلك انه يلزم من ذلك أن الكلب الذي اعتاد أن يفتح كل طارق قد اعتاد الزائرين فكف عن التباح ، بل زاد على ذلك أنه أنس بهم ، ومقتضى ذلك كله الوصف بالكرم ، إذن المعنى الظاهري غير مقصود والمعنى الكنائي هو المقصود ، وهذا نجده في جميع الكنايات ، فليكن هكذا في القرآن وهو أفصح من كلام العرب ، فيقال إن وجود دابة في آخر الزمان تكلم الناس لآمانع منه كما لآمانع يمنع من وجود كلب لعبد العزيز يأنس بالزائرين ، ولكن المعنى المقصود ليس وجود الدابة كما ان المعنى المقصود في كلام نصيب ليس وجود الكلب الذي يأنس بالزائرين ، بل المقصود أن يكون هناك يقين للتأمن بدراسة العلوم العقلية (كما كان المقصود في كلام نصيب الوصف بالكرم) ومن أهمها علم كل دابة في الأرض ودراستها ، فهذه هي التي تشد إليها الرحال .

فلما سمعت هذا القول وأنا مفتش على عجبت كل العجب ! ولم أجد حجة أرد بها هذا الكلام عن نفسي لأنني اذا قلت من أنكر الدابة ربما فسق أو كفر يكون الجواب لا إنكار بل الباب مفتوح لها ولا مانع من كلامها : وان قلت نسكتني بنطق الدابة في آخر الزمان ونؤمن بذلك ونسكت أبداً أن ذكر الايقان في الآية بمعنى من ذلك ، ولكنني قلت في نفسي ان هذه المحاوره الجببية ترد على أنا لأنني ذكرت في كتاب الأرواح (وذكرت نظيره عند تفسير هذه الآية في سورة النمل) أن هذه الآية تشير إلى علم الأرواح ، وجعلت ذلك مجازا وانشرح صدرى لذلك ، فان الأرواح الآن قد خاطبت الناس ، فهي أشبه بدابة ظهرت من الأرض كالت الناس ، وأطقت هناك في هذا المعنى . فهذا الذي قاله الناموستان الآن يضاير ما كتبت سابقا ، وهذا والله أحق بالقرآن مما كتبت في تفسير الآية هناك ، فأكدت أتم هذا الخاطري سمعت ساسا تقول لباسا أنظنين أن هذا الشيخ يأنس بكلامك كما أنس كلب عبد العزيز بالزائرين . فقالت : نعم يأنس به ويسره . فقالت : انه فسر الآية بغير ذلك . فقالت : « وفوق كل ذي علم عليم » ، ففي هذه الليلة جاء له فتوح أكمل ونفسه تقبل الفتوح ، وهل للعلم آخر ؟ فقالت ساسا لباسا : ماذا تقولين فيها يروي أن الدابة تكتب على

وجه الكافر كافر وعلى وجه المؤمن مؤمن (أوكاروي) . فقالت باسا : هذا أمر اليوم ظاهر ، إن هذا الزمان قد ظهرت فيه هذه البواهر ، إن الذين يدرسون هذه العلوم قسبان : قسم يدرسه ويريد معرفة الحقائق وعنده ذكاء ، فهؤلاء يسلون اليقين ، والقسم الآخر يدرسه لأجل نيل الشهادة غيب ويكتفي بالظواهر ، ولما كانت الأم اليوم تعشق الحربة ظهر القسم الأول أملم الثاني بأنه موقن مصدق بعهده ، والقسم الآخر منكر لأنه لم يصل للحقائق ، والقسمان الآن يظهران طاق نفوسهما أملم الناس ، فالأول قد كتب على وجهه مؤمن ، والثاني قد كتب عليه كافر ، وهذه الكتابة كتابة واضحة معنوية بحيث إن الرجل اليوم يجلس مع كثير من متعلمي هذه العلوم فيجدهم لا يعلقون لها نتيجة إلا الشهادة التي أخذوها من المدارس ، والتي أوقفهم في ذلك الدراسة الظاهرة ، لأنها توجب الشك ، وإذا جنس مع من تعمقوا في الدراسة يجدهم موقنين والسبب هو نقص علم الطبيعة ، وأهمها السواب ، وهذا هو قوله تعالى : « بضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين » ، فإذا كان القرآن يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وهو كلام الله فهكذا فضل الله وهو الطبيعة بها الضلال لقوم والهدى لآخرين ، وظهور الضلال والهدى للناس اليوم أوضح من الكتابة على الوجوه . فقالت باسا لباسا : ما الذي تأمر به هذا الشيخ حتى يقوم من مجلسنا هذا بفائدة ناقة في معنى الرحمة العتة في بسم الله الرحمن الرحيم ، لأنه إلى الآن لم يصل المقصود ، ذلك لأنه يفكر في معنى الرحمة ويريد تطبيقها على ماقى السورة من القتال والكفر الخ .

وهذه المقدمات كلها نتيجةها أمر واحد وهو أن كلام البواب أمثلنا لبني آدم ليس المقصود منه إلا معرفة الحقائق ، ولكن أين هي الحقائق التي يأخذها الناس منا على يد هذا الشيخ المائل أماننا . فقالت باسا : أولا يبين هل الموت عدل ؟ ثانيا ليدرس أمثلنا من الحشرات ، ثالثا ليفكر في تراكم القاذورات في المادة وفي الأخلاق ، ثم قالت معا : نودعك الله وطيرنا ، فما كادنا تطيران حتى زالت غشيتي ورجعت إلى حسي ، ومن عجب أن هذه كلها لم تتجوز ٢٠ ثانية . وهنا رأيت نفس مغمورة في النور ، متبهجة ، منسرحة ، وتجلت لي معان كانت محبوة مخطبة على عقلي ، وكان هذه الجملة التي نطقت بها (باسا) كشفت التطاء عن عقلي ، وأحسست بتجليات لم أقل نظيرها فيما سبق .

فلا أوضح ما خطر لي الآن في (٣) ثلاثة فصول : الفصل الأول في بيان هل الموت عدل ؟ (١) الفصل الثاني في دراسة بعض الحشرات (٢) الفصل الثالث في دراسة تراكم القاذورات المادية التي بسببها تخلق الحشرات الضارات بالإنسان ، وفي تراكم القاذورات الخلقية كالقوة النضية في الإنسان التي باحرفها تصبح شجي في خلق الإنسانية وضرا كالحقد والحسد اللذين بهما يكون القتل والفتك بالنفوس الإنسانية بالحرب كفتك الحشرات بها بأنواع الحي والطاهون الخ .

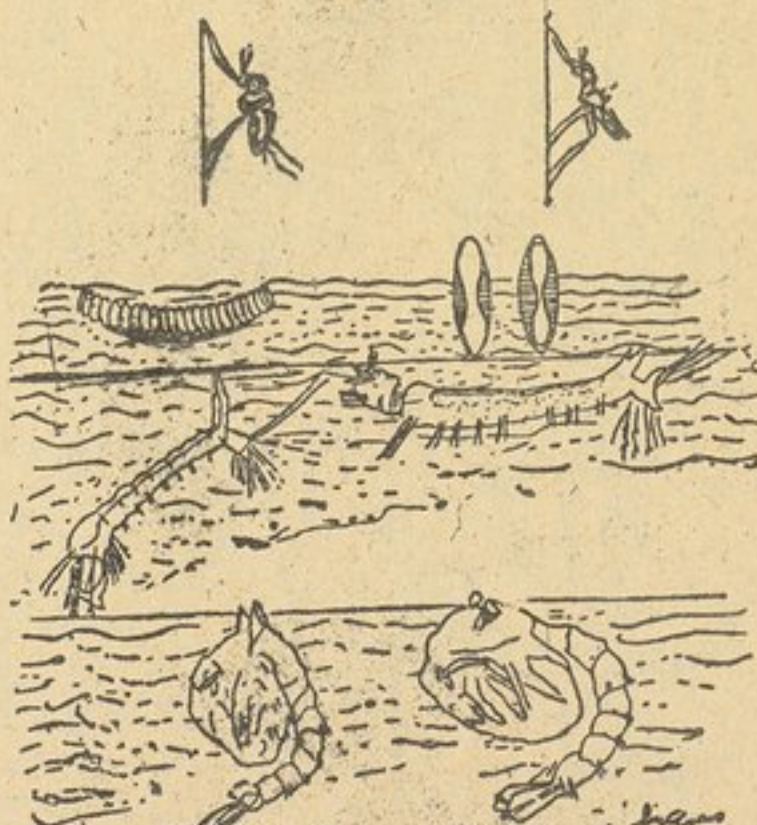
الفصل الأول في بيان « هل الموت عدل ؟ »

لقد ثبت في الحكمة أن الموت رحمة وعدل ، والدليل على ذلك أن الناس إذا عاشوا على الأرض آلاف آلاف السنين هم ودوابهم ونباتهم فن أين يأكلون ؟ وإذا أكلوا الموجود فأين خلود الحي ؟ وإذا أجزنا أن يحتل نظام الملك فيخلد الإنسان ، فأما الحيوان والنبات فيكونان كما زارهما اليوم ، فهل تسع الأرض بنى آدم ألف سنة فقط فضلا عن آلاف الآلاف ، وذلك كله فضلا عن الخلود لو صح للأحياء لكان ذلك بخلا في الطبيعة وقصورا لأن تعاقب الأجيال في الحياة أكثر كرما ورحمة مما لو كان جيل واحد باقيا إلى الأبد ، إذن الموت عدل ورحمة ، والخلود في الأرض جور يصعبه قلة الرحمة . انتهى الفصل الأول .

الفصل الثاني في دراسة بعض الحشرات

كما خلق الله الماء في الأرض لحياة الحيوان وهكذا النبات وغيرهما خلق النضب في نحو الانسان ليدافع به من يهلكه ، فهو إذن للمحافظة عليه ، فأما الماء والنبات فلهما خلقا ليعيش بهما الحيوان ، وهذا الخلق الانساني اذا انحرف عن الجادة كما نراه في العرب الجاهلية الأولى بأن يكون لاضابطه فانه يكون سببا في التفريق والاحلال وتكون هذه القوة سببا في إهلاك الأمم بدل أن تكون للمحافظة عليها ، فهذا أشبه بتضن اللوأة الأرضية ، فتكون القاذورات والمزابل والأوساخ ، فيخلق في كل ذلك حشرات تصكون في تلك القاذورات وفي البرك والمستنقعات ، وهذه الحشرات توجب الهلاك والموت الزوام ، وهذا واضح فيما تقدم في هذا التفسير ، فهنا حشرات تعيش على القاذورات أصبحت سبب إعدام الحيوان بعد أن كانت نفس المادة عند اعتدائها سبب الحياة ، كما أن الأخلاق السبية المنحرفة عن الجادة بالطمع والحقد والحسد أصبحت سبب هلاك الأمم وذهاب العمران . ومن أمثلة الحشرات الناموس والبراغيث (انظر شكل ٤١ وشكل ٤٢)

الكلام على الناموس



ناموسة الكونكس
التي تنقل داء التيفوئيد والحمى الصفراء

ناموسة الانوفيل
التي تنقل حمى الملاريا

شكل ٤١ - شكل يبين حياة الناموسة في أطوارها المختلفة

تاريخ حياة البعوضة « الناموسة » (١)

تضع الأنثى بيضها فوق سطح المياه الراكدة كالبرك والآبار ، والأودية التي تحتوي على مياه لا تتغير ، وبعد يومين أو ثلاثة أيام تفقس هذه البويضة علقية (دودة صغيرة) تعيش مدة أسبوع على الأقل في الماء ثم يتغير شكلها جلة مرات إلى أن تصير (شرقة) وأخيراً تخرج منها البعوضة (الناموسة) . وتكفي مدة ثمانية أو عشرة أيام في جوارح كجوارح القطر المصري من تاريخ وضع البويضة لتكوين بعوضة (ناموسة) كاملة . والناموسة تبيض جلة مرات مدة حياتها ، وفي كل مرة تضع مئات من البويضات ، وزد على ذلك أن الأنثى تبيض بعد تمام تكوينها بعشرة أيام فقط ، فتصوّر العدد الهائل لتربية ناموسة واحدة ، خصوصاً إذا علمت أن الناموسة تعيش عدة شهور .



هذه الحشرة تنقل أمراضاً فتاكاً
تخارجها بكل استطاعتك

(شكل ٤٢)

الأمراض التي تنقلها البعوضة (الناموسة)

المالاريا ، حمى الدنج ، داء الفيل ، الحمى الصفراء ، كيفية نقل العدوى عند ما تلدغ الناموسة شخصاً مصاباً بأحد هذه الأمراض تمتص جزءاً من دمه ومعها جرثومة المرض التي يتم نموها في جسمها ، فكل شخص تلدغه بعد ذلك تلقح به هذه الجرثومة فيصاب بالمرض ، فهي بذلك تنقل المرض من شخص واحد إلى عدة أشخاص ، وجميع هذه الأمراض الخطيرة لا تنقل إلا بواسطة أنواع من الناموس ، وهناك أنواع متعددة من الناموس تنقل الأمراض المختلفة .

(١) هذه الحشرات اسمها الناموس ومصلحة الصحة التي قلنا عنها هذا الموضوع كله تسميها بعوض وهو خطأ

كيف نتقي شرّ البعوض (الناموس)

إذا وجدت في جهة يكثر فيها الناموس فاتبع النصائح الآتية :

- (١) أبذل كل الجهد في عدم تمكين الناموس من الدخول في منزلك بتغطية جميع النوافذ والشبابيك بسلك أوقاش رفيع .
- (٢) من الضروري أن تنام داخل ناموسية مع وضع أطراف الناموسية تحت الفراش بإحكام .
- (٣) وجه كل عنایتك لاعدام جميع الناموس الذي يدخل منزلك .
- (٤) لا تترك مياه راكدة في براميل ، أرازيار ، أوفى أو أواني أخرى دون تغييرها مرتين على الأقل كل أسبوع .
- (٥) إذا لم يمكنك حفظ نفسك من لدغ الناموس فمن الضروري لوقايتك من الإصابة بالملايا أن تأخذ حبوب الكينين قبل الغروب وبالليل حسب إرشاد الطبيب .

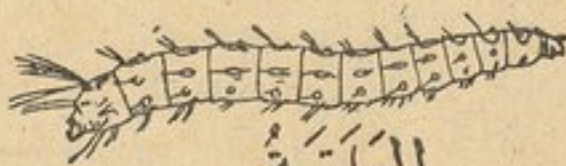
ماذا تفعل لو أصبت بالملايا

- (١) إذا أصبت بقشعريرة ، أوحى ، فاعرض نفسك على الطبيب في الحال .
- (٢) وبعد شفائك من الحمي يجب أن تستمر على تعاطي الكينين لمدة ثلاثة أشهر على الأقل بالمقادير التي يقررها الطبيب .
- (٣) اتبع الارشادات المذكورة سابقا لكيلا تتمكن الناموس من نقل العدوى للآخرين .

الكلام على البرغوث



البرغوث



العقّة

(شكل ٤٣)

البرغوث

يختلف البرغوث عن بقية الحشرات الضئيلة كالبق والقمل بأنه منبسط من الجنب ، وهو على عدة أنواع بعضها يعيش على دم الحيوانات ذوات الثدي ، والبعض الآخر على دم الطيور .

تاريخ حياته

تبيض الأنتى بويضات صغيرة بيضاوية الشكل وتقس في مدة من يومين إلى عشرة أيام علقه (دودة صغيرة) يبيض اللون ومغطاة بشعر قصير يساعدها على الحركة ، وتعيش هذه العلقه في القاذورات على المواد العضوية الموجودة بها ، وبعد مدة تفسح هذه العلقه شرقة حوطا وتتغير إلى يرقة ، ومن اليرقة تتكون الحشرة الناضجة . وتمكث هذه الحشرة بعد تكويرها داخل الشرقة مدة طويلة حتى تسرع بحركة حوطا فتقفز من شرقتها .

طباع البرغوث

يجد البرغوث صعوبة في المشي على الأسطح الملساء ، ولذلك يتحرك عليها بالقفز ، ومن طبائعه أنه يكره ضوء الشمس ، ويفضل المعيشة في الأجزاء الدافئة ، وله قدرة عظيمة على القفز ، وقد شوهد يقفز إلى مسافة ١٨ سنتيمترا ، ولو كانت للإنسان هذه القدرة بالنسبة لجسمه لأمكن لشخص طوله ١٨٠ سنتيمترا أن يقفز ٢٧٤ مترا تقريبا . ويختلف البرغوث في معيشته باختلاف أنواعه ، فالبعض لا يعيش إلا على نوع واحد من الحيوانات ، وبعضها يقتل من حيوان إلى آخر ، والبعض لا يترك الحيوان الذي يعيش عليه ، والبعض الآخر لا يعلق بالحيوان إلا عند ما يحتاج إلى غذاء .

البرغوث والأمراض

البرغوث ينقل الطاعون بواسطة لدغاته ، وقد وجد أخيرا أن طريقة نقله لهذا المرض هي كالآتي :

(١) عند ما يلدغ البرغوث شخصا مصابا بالطاعون يمتص جزءا من دمه ومعها ميكروبات هذا المرض فتتم هذه الميكروبات وتتكاثر في معدة البرغوث ، وينسد طرفها الهوى ، فإذا مالذغ البرغوث شخصا سليما تقايا جزءا مما في معدته وبه الميكروبات داخل جسم الشخص فيصاب بالمرض .

(٢) فضلا عن ذلك فإن الميكروبات التي في أمعاء البرغوث يخرج بعضها في افرازه ، فعند حك الجلد وقت لدغته يتسبب الشخص في تلقيح نفسه بواسطة هذه الافرازات .

ومعلوم أن الطاعون من أشد الأمراض خطرا وقتكا بالناس ، وهو على ثلاثة أنواع : —

(١) الطاعون الدملي .

(٢) الطاعون التسمي .

(٣) الطاعون الرئوي .

وأعراض هذا المرض ارتفاع شديد في درجة الحرارة تصعبه آلام في الرأس والأطراف وانهاك شديد لقوى ، وتقرورها المريض ، ويغطي لسانه بطبقة بيضاء ، ثم تجف هذه الطبقة وتصبح قائمة اللون ، وكذلك تتكون هذه الطبقة على الأسنان والشفتين والأنف ، ويزداد ضعف المريض في أيام قلائل ، وقد ينتهي المرض بموته غالبا بين اليوم الثالث والخامس من ابتداءه . وفي ثلاثة أرباع الحالات تظهر أعراض المرض بتضخم في إحدى الغدد كالفخذ الموجودة بين الفخذ والبطن من الأمام ، أو الرقبة ، أو تحت الأبط ، وهذا النوع يسمى بالطاعون الدملي .

أما في الطاعون التسمي فلا يظهر هذا التضخم في الغدد ، وقد ينتهي الطاعون الدملي أو التسمي بإصابة الرئة بـميكروب الطاعون فينشأ عن ذلك الطاعون الرئوي ، وهذا النوع الأخير شديد الخطر جدا ، ولا ينجو منه أحد تقريبا حتى أصيب به ، وهو ينتقل من شخص إلى آخر مباشرة بواسطة الرذاذ الذي يتطاير في الهواء متى سعل المصاب أو بصق ، وترى في الجدول التالي بعض إحصاءات عن إصابات الطاعون في ست سنوات الأخيرة :

السنة	عدد الامايات	عدد الوفيات	نسبة الوفيات إلى الاصابات في المائة
١٩٢٢	٤٨٧	٢٢٨	٤٧
١٩٢٣	١٥١٩	٧٢٥	٤٩
١٩٢٤	٣٧٣	١٩٣	٥٢
١٩٢٥	١٣٨	٧٧	٥٤
١٩٢٦	١٥٤	٧٣	٤٩
١٩٢٧	٧٨	٣٥	٤٤

ومن هذا البيان يتضح أن متوسط نسبة الوفيات إلى الامايات في السنوات المذكورة هي ٤٩ في المائة أي ان عدد الوفيات كان نصف عدد الامايات تقريبا ، وهذه نسبة عالية جدا تشهد بخطورة هذا المرض وشدة فشكه .

طرق إبادة البرغوث

- (١) حافظ على النظافة التامة في المنزل بكنفه وغسل أرضيته جيدا ، فإن يرشات البرغوث توضع وتفض في القاذورات وتميش عليها .
- (٢) سد جميع الشقوق الموجودة في أرضية الغرف ، فإن سقوط القاذورات فيها يجعلها بؤرة يتوالد فيها البرغوث .
- (٣) احترس من وجود الحيوانات الأليفة كالكلاب والقطط داخل المنزل ، فإنها تحمل البرغوث ، وإذا كان لابد من وجوها فيجب تنظيفها جيدا على الهوام و يرش على جسمها مسحوق النشالين بكثرة .
- (٤) اعمل على إبادة النيران لأنها تنقل إليك البرغوث .
- (٥) لا تجعل بمنزلك أو بجواره محلات لتربية الطيور ، أو حظبات ، لأن البرغوث يتوالد فيها بكثرة .
- (٦) ضع كمية من مسحوق النشالين داخل دواليب الملابس .
- (٧) لاتضع سريرك ملامقا للحائط ، ولا تترك النفاذ يتدل إلى الأرض ، وادهن أرجل السرير بزيت اليوكالبتوس ، وورش مقدارا منه أيضا بين المراتب .
- (٨) اعمل على إبادة البرغوث برش المزيج الآتي في الأماكن التي يكثر بها بعد كنسها :

١٠٠ مقدار من زيت البترول (الغاز)

١٥ مقدار من الماء .

٣ مقادير من الصابون السائل .

ويحضر هذا المزيج بطريقة مخصوصة ، ويمكن طلبه جاهزا من مصلحة الصحة . وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني في دراسة حشرقي الناموس والبرغوث والجدد لله رب العالمين .

الفصل الثالث

في تراكم القاذورات المادية والحلقية

وهذا الفصل هو المقصود

اعلم أيها التقي أن في عالم الانسان قوة غضبية تقدم شرحها ، وهي لم تخلق فيه إلا ليحافظ بها على حياته وكيانه وشرفه ، فاذا حاد عن الصراط استعملها في الاضرار بغيره ، ومن أعجب العجب أننا نجد هنا قاعدة واحدة لا يحصى عنها ، ولا تقيس لها ، وهي ان الخير سواء أكان في المنويات ، أو في الماديات ، اذا انحرف عن الجادة تحول إلى شر ، فالنساء والهواء والمادة الأرضية ، وحرارة الشمس ، كل هذه اذا اعتدلت كانت سبب الحياة ، واذا لم تعتدل كانت سبب الهلاك . ومن ذلك جميع القاذورات والبرك والمستنقعات ، فهذه كانت سبب انحراف هذه المواد عن الصراط السوي ، فهي لو تركت وشأنها تملأ الجو عفونة فيهلك الانسان والحيوان ، ونظير ذلك في أخلاق الانسان اذا تركت قوته الضبية وشأنها كانت سببا في إهلاك الناس بعضهم بعضا كما في الأم الوحشية والعرب الجاهلية الأولى .

فهذه هي القاعدة ، إن مابن الصلاح من الامور المادية ومن الامور المعنوية عند انحرافه يكون به الفساد وهناك قاعدة أخرى . وهو أن هذا الذي به الفساد يمكن تحويله إلى صلاح بتلطف وحسن صنعة ، ولعلك **مثالان** : المثال الأول في الامور المادية ، وذلك أن العفونات والقاذورات خلقت فيها الحشرات كالناموس والبراغيث وغيرها من الحشرات ليتحول الشر الذي في تلك المواد إلى أجسام حية يملأ شرفها ، فبدل أن يكون الجو كله متفنا فيهلك الانسان والحيوان يحصر الهلاك في أحياء عندهم استعداد خاص :

- (١) لللاريا ، وحى الدنج ، وداء القيل ، والحمى الصفراء مثلا بسبب الناموس .
- (٢) أولطاعون السموي ، والطاعون التسمي ، والطاعون الزئوي مثلا بسبب القيران .
- (٣) أولمرض السفتريا بسبب حيوان دقيق خاص بها .
- (٤) أولمرض الرهقان (الانكلستوما) بسبب حيوان دقيق جدا ، فيكون ألم فوق المعدة وقتر دم في الجسم ، وآلام في الرأس ، وضربات في القلب .
- (٥) أوللحمى التيفودية ، أو الكوليرا ، أو الرمد الصديدي ، أو الاسهال في الاطفال ، والسوسنطاريا ، وذلك بسبب التيب ، وقد تكون الحمى التيفودية وحدها بسبب الميكروب الذي يكون في جسم المصاب بهذه الحمى ويفرز مع البول أثناء المرض ، فاذا وصل ذلك إلى ماء أو غيره ولوث به نبات مثلا انتقل منه إلى الناس آخريين .
- (٦) أولطاعون ، أو داء (الاسيروكينا) المسحوب بالبرقان والتريز ، أو المرض بالبوادة المحيطية ، أو بالديدان المعوية ، أو للحمى المتسببة عن عض الفار ، كل ذلك بسبب القيران .
- (٧) أوللتبرن ، أو السل ، وذلك بسبب ميكروب خاص يكون في ألبان البقر المريضة بالتبرن ، وفي المواد البلغمية التي يصفقها المرضى بهذا الداء وهكذا .

فهذه الأمراض كلها الناجمة عن القيران والبراغيث والتباب والناموس والميكروبات جاءت تلطيفا وتمهيدا لهلاك العالم ، والوباء الشامل ، إن وطوبت الأرض لو بقيت فيها ولم تصبح في أجسام هذه الحشرات لمات الأحياء ، فأما هذه الأحياء فانها حصرت الهلاك في قوم مختارين وتركت بقية الانسان والحيوان .

فهذه الجنود المجنحة من الحشرات إن هم إلا شرطة وجند من جنود الله ، يسبهم ينظف الجو ، ويسبهم يقذف النفوس الضعيفة من هذه الأرض فيخرجون منها لأنهم مستعدون لذلك كما تحبس الحكومات كل من يضر بالصحة العامة . وهذا انتهى المثال الأول .

(المثال الثاني في الامور المعنوية)

جلت الله الذي جعل الامور المادية أمثلة ونظائر للامور المعنوية ، وبهذا سهل علينا العلم ، سبحانه اللهم إن الطبيب وعلماء الحيوان لا يهتمهم إلا ما يختص بعلمهم ، فالأول لاعلاقة له إلا بصحة الأجسام فتكون دراسته لهذه الحشرات وغيرها راجعة إلى ما يخص الأجسام محضة ومرضا ، والثاني لا يهتم إلا بالأوصاف الخاصة لكل حيوان وبه يمتاز عما سواه ، ولكن نحن الآن في الدراسة العامة والتنظيم البديع الجميل ، نظرنا أعم وفكرنا لا يقف في منطقة واحدة ، اننا نفسر كتاب الله ، وكتاب الله عام وملكه واسع ، إذن تكون دائرة أبحاثنا عامة ، فنحمدك اللهم على نعمة العلم ، ونعمة الحكمة ، ونعمة الفهم .

هاهي هذه المواد العفنة المشاهدة تمهلك الحارث والنسل ، وهاتين أولاه نراك حوثلها بالحشرات إلى إصلاح الخلق بقدر الامكان ، وحصرت الضرر في طوائف خاصة عندهم استعداد لتلك المرض ، ذلك لأنه ثبت في الفصل الأول أن الموت لا بد منه لكل حي ، إذ لو لم يكن موت لسكان ذلك خطلا وبخلا ووقوفا بالمادة في عمل واحد وهي تصلح لآلاف آلاف من الأعمال ، واذا ثبت أن الموت لا بد منه وجب أن ننظر فيه أيهم على الأسباب بالاستعداد ، أم يأتي لهم بالتدرج ، والعقل يقتضي أن التدرج أفضل الطريقتين وذلك هو الحاصل بتلك الأمراض التي سببتها تلك الحشرات والميكروبات أي الحيوانات الحقيقية . إذن الضرر في المواد العفنة حوّل إلى جنود من الحشرات وغيرها تحدث أمراضا في أناس مستعدين لتلك ، وهذا حكمة مجيبة أيضا ، فلتنظر في الامور المعنوية فاننا نجد بها مثل الامور المادية سواء بسواء ، ألم تر أن الأخلاق السبعية السائدة في أمم العرب في الصحراء أيام الجاهلية جاء الاسلام حوّل ذلك الشر إلى خير ، حوّلهم على الجهاد ، وذلك الجهاد لاحداث أم تكون متفكة المشارب في صلاتها ، وفي صيامها ، وفي حجها ، وغير ذلك ، فهناك أناس وقفوا في وجوههم وصدّوهم عن نشر الدين وهم الكفار فأمر الله بقتلهم . إذن الشر الذي حصل بطغيان القوة السبعية في العرب الجاهلية حوّل إلى خير باحداث أمة تكون على مشرب واحد ، وبعد أن كان القتل يحدث بلا نظام صار هنا ذلك القتل بنظام ، بحيث لا يتعدى الذين يقاومون الاسلحة بالسلام العام (دين الاسلام)

إذن ضرر الأخلاق السبعية الضمنية المحصر في فئة مستعدة للهلاك وهم الكافرون كما انحصر ضرر المواد القذرة في أناس مخصوصين وهم المستعدون للأمراض المختلفة .

نحمدك اللهم على نعمة العلم ، بهذا عرفنا معنى : « بسم الله الرحمن الرحيم » في أول (سورة محمد) صلى الله عليه وسلم ، فالسورة وإن كان فيها القتل وضرب الرقاب ، والنم والقشيع على قوم مختصين ، فهذا القتل نعمة ، فليس كل قتل مذموما ، بل هذا القتل ممدوح ، ذلك لأنه أولا ثبت أن الموت لا بد منه والا كان نظام العالم قاسدا . ثانيا ان الأمراض المختلفة إنما وجدت لتكون مقدمات لموت ، وهي موجبات للاستعداد له ولرقي عقول يعلم الطب ، ولارقي للطب إلا برقي العلوم الطبيعية كلها . ثالثا : إن هذه الأمراض الناشئة من الحشرات اللاتي عاشت على القاذورات ضررها أقل من الضرر الذي يحدث لو تركت القاذورات بلا حشرات فيها ، فهناك يكون موت كل حيوان وانسان . رابعا : إن الأخلاق السبعية لو تركت وشأنها عم ضررها . خامسا : إن هذه الأخلاق بسبب الدين انحصر ضررها في أقوام يستحقون الهلاك لأنهم يسارعون إلى مقاومة السلام العام ، إذن ما ذكر في السورة من القتل وذم الكافرين من أنواع الرجحات ، وهذا معنى قوله تعالى في أول السورة « بسم الله الرحمن الرحيم » وهذا من أسرار أن سورة الفتح جاءت في الترتيب عقب سورة محمد صلى الله عليه وسلم لأن الفتح ليس فتح مكة حسب ، بل هو الفتح العام بنشر المعارف والعلوم والاسلام ، ألا ترى أن العالم الانساني لم يخط هذه الخطوات إلا بعد انتشار الاسلام ، فيه هجم المسلمون على أوروبا من جهة الأندلس أولا ومن جهة التسطنطينية آخرا ، فاسيقظ القوم وارفقوا بالعلوم والمعارف ، وهكذا الحروب

الصليبية فتحت صيونهم للعلوم والرقى ، وبهذا انتشر البخار والبرق وصار الناس كأنهم في قرية واحدة الآن كل ذلك سرّ الفتح الآتى في السورة بعدها .

نور على نور

اللهم إني أحمدك وأشكرك على نعمة العلم ، بيدك الميزان في الدنيا والآخرة ، تخفض وترفع : في صلبح يوم الأربعاء في التاريخ المذكور ما كتبت في هذه المقالات هذه الجلة : « ومن طبائع البرغوث انه يكره ضوء الشمس ، ويفضل المعيشة في الأجزاء المظلمة » ، أقول : ما كتبت أقرؤها حتى تجلت لي أم الإسلام قديما وحديثا ، تجلت على هيئة علمية حكمية سياسية .

سبحانك اللهم وبحمدك ، هذه الجلة أنارت لي السبيل « وأشرقَت الأرض بنور ربها » ، الله عز وجل هو الحكيم العليم ، هو الذى خلق الشمس وأرسل ضوءها إلينا ، إني لما قرأت هذه الجلة خيلت لي أضواء الشمس كأنها منتشرة صلبا بالشكل الجليل المقبول البديع ، انشر هذا الضوء فإذا جرى ؟ أصلح أحوال الحيوان ، ولكن البرغوث توأرى عنها ، فإذا يقول البرغوث حين يتوأرى عن الشمس ؟ يقول : « أيها الناس الأحياء في هذه الأرض ، أنا جند من جنود ربكم ، هو الذى خلقني لأعيش في الظلام ، لماذا ؟ لأنه علم أن هذا الانسان لا يأكل إلا إذا آله الجوع ، ولا يقرب الآتى إلا إذا آله الشبق ، ولا يتحرك حركة إلا بسبب يقوم بنفسه ، وعلم أن الناس يجهلون النعم العاتية كنعمة الشمس ، ونعمة الشمس تحفظ صحة الناس والحيوان فبعض الناس لا يتعرّضون لها ، فلذلك أمرني الله أن من ترك الشمس من الناس وجاء عندي ولم يتعرّض لها أهمل له الطاعون الدملي ، والطاعون التسمي ، والطاعون الرئوي ، إن الله أمرني أن أعيش في الظلمة حتى ألغى وأضرت من جهل ضوء الشمس ومنافعها » اه

هذا ما يقوله البرغوث قولاً علماً ، وأنا أقول : إن هذا المرس أعطاني فكرة عامة في سياسة أم الإسلام ذلك أن الشمس شمسان : الشمس المحسوسة ، وشمس العلوم ، وخطأ في الشمس المحسوسة أسهل ألف مرة من خطأ في الشمس العلمية ، لأن الحسيات أقل قيمة من المعنويات آلاف آلاف المرات ، فهناك أمثلة قديمة : « أولاً » كانت أمي المصرية قبل نحو مائة سنة أمة محكومة بالترك ، وقد بقيت حافظة أخلاقها البدوية الفطرية والإسلامية ولكنهم جهلاء لأن الترك لا يعلمون الأمم ، فلما جاء لهم محمد علي باشا وجددهم بحموليون من النفوس ، ففتح لهم بلاد العرب ، وجعل لمصر مجدا ، ذلك أنه وجد في الأمة النخوة والشرف والآباء ، « وبعبارة أخرى » وجد فيهم الشمس المعنوية وهي الأخلاق الفطرية « ثانياً » إن أوروبا لما وجدته أيقظت أم العرب خافت أن يرجع الإسلام لسابق عهده بالعرب ، فيجرف أوروبا مرة أخرى ، فغضدت شوكته وحصره في مصر ، وأحصر الارتقاء في الأمور المادية ، ودخلت العلوم من أوروبا مع المفاصد ، فزاد عدد المصريين اليوم حتى بلغ ١٤ مليوناً أي ما يقرب من أضعاف عددهم لما دخل محمد علي باشا ، فالشمس المعنوية الأدبية اختفت عن كثير من طبقة المتعلمين ، وبهم لا يغيرهم تمكن الأجانب من البلاد سياسة وتجارة وفسوقاً وخراً ومداينة للناس ، فلا ترى متعلماً إلا وهو مغمور في محال الأجانب ، فإذا كنا اليوم أضعافنا أيام محمد علي باشا وقد طغت براقيت الأمم علينا ، فما ذلك إلا لاختفائنا عن شمس الفضائل التي ائصف بها آباؤنا منذ قرن وان لم يكونوا على علم كالذي عمنا اليوم ، إذن القاعدة واحدة ، من اختفوا عن الشمس المحسوسة فلم تظهر نياهم وأماكنهم يصابون بأمراض البراغيث ، وهكذا من أصيبوا بمرض الجهل أو الفسوق يصابون ببراغيث الأمم الأرضية .

خيال المؤلف

إن الله تجلى فوق عرشه على الأمم في الدنيا قبل الآخرة ، وهو الآن يعاقب المقصرين قبل يوم الدين ، تجلى الله على الأمم كلها الآن ، وجميع قصص القرآن تشهد أن العذاب يقع على الأمم في الدنيا قبل الآخرة ، ألا ترى إلى قوله تعالى : « أغرقوا فادخلوا نارا » فالفرق عذاب دنيوى .

هذه أمم العرب التي أنا منهم وهم يقرؤون هذا الكتاب هم يعلمون أن أجدادهم نشروا الدين والعلم ، ولكن آباءهم تركوا العلوم ، وتركوا المواهب في الأرض وفي السماء ، فإذا يفعل الله بهم ؟ اختصهم وحطم بدخول التليان طرابلس وأرتيره ، وبدخول الانجليز مصر وفلسطين والعراق والجزائر ومراكش وتونس وسوريا ، وبدخول الاسبانيين مراكش ، وذلك على قاعدة ضوء الشمس والبراغيث فإن القاعدة لا تتغير والله واحد ونظامه واحد ، مع ان اليابان والصين استقلتا ، والترك والفرس كذلك ، والهند اليوم قائمة على ساق وقدم لطلب الاستقلال ، فلم تبق أمة مقسمة بين الدول إلا أمة العرب ، وما ذلك إلا للجهل الذي عم بلاد الاسلام .

هذا البحر الميت في بلاد فلسطين ، ذلك الذي جهله الترك الذين كانوا يحكمون البلاد ، وجهله العرب المحكومون ، وما كانوا يظنون أن هذا البحر المتصف بلحوت يكون مصدرا لحياة أمم ، ألا قاتل الله الجهالة العمياء ، يا الله أنك عدل وحكيم ، نام المسلمون وجهلوا نعم بلادهم فإذا جزاؤهم إلا أن تملك أرضهم لغيرهم ، لقد شرط الانجليز على الشركة التي أعطتها استخراج الثروة من البحر الميت أن تعطيا بعد عشرينين أى سنة ١٩٤٠ م (١٠٠٠٠) طن من البوتاس النقي ، ثم بعد ذلك يستخرجون في كل سنة (٥٠٠٠٠) طن ، وهذا البحر ٧٠ ميلا في الطول ، وعشرة أميال في العرض ، وعمقه ١٣١٠ أقدام ، فهو أوطأ عن سطح البحر الأبيض بستائة قدم وقدمين ، وقد ارتفع ماؤه من سنة ١٨٨٣ إلى سنة ١٩٣٠ م (٢٨٠) قدما ، ويقدر البوتاس فيه بمقدار (٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠) طنا من البوتاس ، و٩٨٠ ألف طن من المغنيزيا ، و١١٩٠٠ ألف طن من كلورات الصودا ، و٢٢٠ ألف مليون طن من كلورات المغنيزيا ، وستة آلاف مليون طن من كلورات الكلس ، ولقد دهش الجنرال اللبني حين استحوز على هذا البحر إذ قال جلته المأثورة : « حقا هذه هي مروج الذهب ، وهي تقدر بنحو ١٠ مليون مليون و٢٠٠ ألف مليون دولارا ، وهذا يعادل ٣٠٠ مرة من قيمة مجموع ديون بريطانيا العظمى كلها في الحرب للولاية المتحدة ، ومن عجب أن المهندسين الألمان قفزوا أنه إذا أحدث نفق بين البحر الأبيض وبين نهر الأردن وهذه لها علاقة بأمر البحر الميت ، لأن نهر الأردن نصب فيه ، ومنى صب في البحر الأبيض وتحوّل عن البحر الميت يمكن استخراج قوة كهربائية منه تعادل مليون يمكن توزيعها لإدارة دولا الأعمال في كل وقت في فلسطين وسوريا وتركيا أيضا . ومن هذا القبيل :

مشروع القطارة بالقطر المصري

جاء في جريدة الاهرام يوم ٢٣ مارس سنة ١٩٣١ م ما نصه : « إن القطارة موضع منخفض في الجزء الشمالى من صحراء ليبيا في منتصف المسافة بين وادى النيل والحدود الغربية ، ويبلغ متوسط عمقه ٦٠ مترا ، وأوطأ نقطة فيه منخفض عن سطح البحر ١٣٤ مترا وهي أوطأ نقطة كشفت حتى الآن في قارة افريقيا ، وهذا الكشف ظهر سنة ١٩٢٧ م ومن أعجب العجائب أن نفس انخفاض هذا المكان عن سطح البحر الأبيض المتوسط يعتبر ثروة عظيمة لمصر وهي بلد اسلامية والذي كشفها رجل انجليزى يسمى الدكتور

(بول) مدير مساحة الصحارى ، فهذه الأرض تريد الحكومة المصرية الآن ببلادنا أن تحفر نفقا يمر به المياه من البحر الأبيض إلى القطارة والماء هنا ينزل في ذلك البحر بسرعة شديدة ، وهذه البحيرة دائمة التبخر فكلما صب فيها ماء ارتفع بالتبخر ويكون ذلك بحساب دقيق فيستمر جرى الماء ، وهذا الجرى المنحدر السريع الانحدار يولد قوة كهربائية عظيمة مع بقاء منسوب الماء على حال واحدة ، وجعل منسوب سطح البحيرة خمسين تحت الصفر ، فإذن يتولد قوة مقدارها ١٨٠ ألف كيلو واط عند مخرج المحطة وتريد الحكومة أن تحفر في العشرين كيلومترا المجاورة لشاطئ البحر ترعة عادية تحفر في الأرض الجيرية ، ثم تدخل المياه في نفق طوله (٤٥) كيلومترا ، وقطره (١٧) مترا حتى تصل إلى المنخفض ، ويقول رجال الحكومة : إن الوجه البحرى لا يستعمل أكثر من (١٨٠) ألف كيلو واط ، واقترحوا أن يجعل هناك ثلاثة أنفاق : أولا نفق (٦٠) ألف كيلو واط ، ثم في سنة ١٣٧٠ بينى نفق ثان لنحو (٦٠) ألف كيلو واط أخرى ، وفي بداية القرن الحادى عشر يبدأ فى النفق الثالث ، والنفق الأول يحتاج إلى (١٧) مليونا ونصف مليون جنيه .

فشروع القطارة بالقطر المصرى أمر كان محبوبا ، وهل يظهره إلا العلم ، والفرنجية هم الذين كشفوه ، فواجب على المسلمين أن يكونوا قدوة فى البحث لاسعاد الأمم ، لأن يعيشوا ذريولا للام التي تعلمت من آباؤهم ، إن الانسان كله مسئول عن السعادة العاتية ، والعلم هو الذى يقوم باسعادها فى الدنيا والآخرة اه
هذه بعض النعم التي كانت محبوبة فى بلاد الاسلام والمسلمون بجهلونها ، فقال الله للأهم حوطا : أيها الأمم : افتحى بلاد العرب ، وخذى نعمي ، انهم قوم جهلاء ، ووابته ليس هذا خاصا بفلسطين ، إن بلاد نجد والحجاز وبلاد اليمن وغيرها ملوذة بكنوز أكثر من هذه ، ولكن جهل هذه الأمم هو الذى أوجب عقابها على ما فرطت كما يمرض الانسان بالحمى ، أو الجذرى ، وهو لا يدري سبب المرض ، فالأهم الاسلامية لا يفرطها بالجهل كما لا يفرط لمرض الجهل بسبب علته . اللهم إن عذاب الدنيا بالجهل وعذاب الآخرة بالجهل .

ومن هذا القبيل أن مصلحة الصحة المصرية أعلنت عند كتابة هذه الأسطر يوم ٢٤ مارس سنة ١٩٣١ فى جريدة الاهرام أن عدد المصريين بالبلهارسيا فى مصر ، وهو مرض البول يبلغون نحو ٧٠ فى المائة من مجموع السكان أى نحو ١٠ مليون نسمة ، وأن عدد المصريين بالانكستوما وتفاعيل البطن يبلغون نصف سكان القطر المصرى ، وأن الذين لم يصابوا بتلك الأمراض سدس مجموع السكان ، فهل هؤلاء المرضى فى بلادنا منع الله المرض عنهم لجهلهم قانون الصحة . كلا . هكذا فى أمور السياسة ، فإذا جهل أبناء العرب منافع بلادهم ، وما خزن الله فيهم من القوى والقدر فإن الله سريع الحساب ، يعاقبهم اليوم فى الدنيا بقهرهم وذلمهم ، وإذا وقفت الأمم العربية وغير العربية جامدة أمام حكماها اذا لم يصلحوا للحكم ولم يستخرجوا من أرضهم كنوزها ، ولا من عقولهم قواها المنزونة ، ولم ينشطوا الأمم فى قواها الحيوية ، وتركوا هؤلاء الحكام فلم ينصحوهم فإن الله عز وجل يذل الحكوميين والحاكمين ، لأنه لا يفرط الجهل ، وهناك لا ينفذ الحكوميين أن يقولوا : « ربنا انا أطعنا سادتنا وكبرادنا فأضلنا السبيلا » ، فيقول الله لهم : « كلتم مسئولون ، أنسيتم الأمراض تدخل الأبدان وان جهل المرضى ، أنسيتم عقولكم ، أنسيتم أن لى جندا أسلطهم على كل جاهل بنعمتي أيها المسلمون » .

وفى اعتقادى أن المسلمين عموما وأبناء العرب سينهضون نهضة لم يسمح بها الدهر قريبا ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم . كتب يوم الأربعاء ٢٥ مارس سنة ١٩٣١ م - والى هاتم الكلام على القسم الأول فى تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين .

القسم الثاني في تقسيم السورة

هذه السورة ثلاثة مقاصد

- ﴿ المقصد الأول ﴾ في وصف الكافر والمؤمن من أول السورة الى قوله تعالى : « كذلك يضرب الله للناس أمثالهم » .
- ﴿ المقصد الثاني ﴾ في جزاء القسمين في الدنيا والآخرة من خذلان ونصر ، ونار وجنة ، من قوله تعالى « فاذا لقيتم الذين كفروا » الى قوله تعالى : « والله يعلم متقلبكم ومثواكم » .
- ﴿ المقصد الثالث ﴾ وعيد وتهديد للنافقين المرتدين من قوله تعالى : « ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة » الى آخر السورة .

التفسير اللفظي للسورة كلها

المقصد الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(الذين كفروا وصتوا عن سبيل الله) صرفوا الناس عن الدخول في الاسلام ، وهذا يستلزم أنهم هم امتنعوا عن الدخول فيه (أضل أعمالهم) أبطلها سواء أكانت تلك الأعمال حسنة كصلة الأرحام واطعام الطعام ، وعمارة المسجد الحرام ، أم كانت سيئة كالكيده لرسول الله ﷺ والصدقة عن سبيل الله ، فالأولى يبطل ثوابها ، والثانية يبطل أثرها ، ويمحوت نتائجها ، وهكذا كل من قام عملاً شريفاً صادقاً كان ماله الخذلان كما يقال في العصر الحاضر : « من كان مع الحقيقة أوضدها قواها ، فالعارض لها كالمتمصر لأنه بالمعارضة يزيد المنتصرين لها قوة ، فالحق هو الغالب ولكن في العاقبة ، وقد ظهر ذلك في كثير من الدول ، فالروس والفرس والأفغان والترك ، وبلاد بولونيا وهكذا ، كل هذه الأمم كانت مستعبدة فأخرجها الله من الذل إلى العز وذلك بسبر رجالها والعاقبة للصابرين ، كل بحسبه (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) من المهاجرين والأنصار ، وأهل الكتاب المؤمنين وغيرهم ، وخصص القرآن المنزل على محمد ﷺ بالذكر تعظيماً لشأن القرآن ، ودلالة على أنه لا يتم الإيمان إلا به فقال (وآمنوا بما نزل على محمد) وإنما خصه بالذكر لأنه ناسخ الأديان كلها ، ولا يرد عليه نسخ ، وهذا قوله (وهو الحق من ربهم) وقوله (كفر عنهم سيئاتهم) خبر الذين آمنوا أي سترها بالإيمان وعملهم الصالح (وأصلح بهم) حالهم في الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد كما جعل أعمال الكافرين ضالة ضائعة ليس لها من يتقبلها ويثب عليها كالضالة من الإبل ، ثم علل ما تقدم من ضلال الأولين ، واصلاح حال الآخرين ، بقاعدة عامة تبرهن على ذلك فقال (ذلك) المذكور من الاضلال واصلاح البال (بأن) أي بسبب ان (الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم) يقول الله : إنما أضلت الكافرين ، وأصلحت حال المؤمنين ، لأن هذين الفريقين جريا على القاعدة العامة وهي ان الحق منصور ، والباطل مخذول ، تلك قاعدة عامة في الدين والدنيا ، فالصناعات المحكمة إنما قبلها الناس وأثرى أهلها ، لأنها جارية على النسق الحق ، والطريق المستقيم ، والقواعد العلمية الصادقة ، وهكذا الزراعة المتقنة ، والتجارة الجيدة ، والسياسة المحكمة ، كل من هذه تصح نتائجها ، وتصدق ثمراتها ، فأما الصناعات المرذولة ، والتجارات المزجاة بضائعها ، والأعمال المهملات ، فلن يكون نصيبها إلا الضياع والبوار ، لأن الباطل لا نبات له ، والحق هو الثابت ، والله هو الحق فينصر الحق ، ولما كان المسلمون في هذه العصور

مهملين لمدينهم وصناعاتهم وهم عالة على أوروبا في حربهم وسياساتهم وتجاراتهم ، ضلّ سعيهم ، فأصبوا تابعين لأوروبا سياسة وتجارة وامارة إلا من استيقظوا فاتبعوا الحق والصدق ، ونشطوا كأهل الأناضول والفرس والأفغان فأولئك الذين تفيها وعرفوا الحقائق ، ققاموا من نومتهم ، ونفضوا غبار الجهل ، وأخذوا يستنبطون الحيل لاجراز المجد ، وارتقاء البلاد ، والقاعدة واحدة ، فان العلم الصحيح ، والدين الصحيح ، والصناعات الصحيحة ، والآراء الصادقة ، نتائجها السعادة ، وبضدها تميز الأشياء . انظر إليها الذكي ، انظر كيف كانت هذه القاعدة عامة ، انظر كيف كانت كما تقدم في قوله تعالى : « ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء الخ » وقوله : « ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار » . انظر كيف جعلها الله مثلا ، انظر كيف جعل كلمة التوحيد وكلمة الكفر كشجرة النخل وشجرة الخنظل ، وثبات أحدهما وعدم ثبات الأخرى أى ان القاعدة واحدة في الماديات والمعنويات ، أى لا فرق بين معقول ومشاهد في الضلال والثبات ، وانظر كيف يقول هنا (كذلك) أى مثل ذلك الضرب (يضرب الله للناس أمثالهم) بأن جعل اتباع الباطل مثلا لعمل الكفار ، والاضلال مثلا لخبيثهم ، واتباع الحق مثلا للمؤمنين ، وتكفير السيئات مثلا لفوزهم ، إن شأن القرآن أن يبين مزايا المقام الذي فيه ذكرى عامة ، وموعظة تامة ، وهذا المقام من أجلها وأعظمها ، ضرب المثل بالباطل وبالخطأ كضرب المثل بالنخل والخنظل في سورة أخرى كل ذلك يرى لغرض واحد ، ومقصد تام ، ألا وهو الثبات وعدم الثبات (وبعبارة أخرى) ان الله خلق السموات والأرض بالحق ، على قوانين ثابتة منظمة ، فكل ما قرب من الحق كان باقيا ، وكل ما ابتعد عنه كان هالكا على مقدار بعده ، فرجال الجذ والنشاط يؤيدون ، ورجال الكسل والتواكل مخذولون ، والمحققون في كل شيء محبوبون منصورون ، وبضدها تميز الأشياء .

لطيفة

تذكر مامرّ عليك في (سورة آل عمران) من ضرب أمثال خمسة من المخلوط المعدني ، وكيف كان خلط المعدن بنظم جيد فائدة تامة ، فالنحاس الأحمر إذا صهر جزء من مع جزء من الخارصين تكون مخلوط معدني صلب هو النحاس الأصفر سهل الصنع لونه الصفرة ، هكذا الرصاص لا يصلح لحروف الطبع إلا إذا خلط معه الأتيمون بنسب خاصة ، والمدافع لا يمكن صنعها من النحاس وحده ، فإذا خلط معه القصدير بنسب معلومة حصل من المخلوط « البروز » وهو الذي تصنع منه المدافع . فهذه بعض الأمثلة على الحق وهو بعض الحق العام . قال الله تعالى : « خلق السموات والأرض بالحق » وهو النظام التام والقوانين الصادقة وضدها الباطل ، فعلم الهندسة التي بها صنع اهرام الجيزة ببلادنا المصرية على مقتضى دائرة الأرض حول الشمس حتى مما به قامت السموات والأرض ، ولكنه لا يكون كالحق الأعظم وهو قوانين السيارات والثواب ونظم النجوم والأقار ، فن تلك القوانين بها نبئت تلك العوالم ودامت ، أما قوانين الأعمال الصناعية الأرضية فانها تدوم على نسبة كمالها ، وكل كمال في الأرض له أثره ، فالجمال في الوجوه ، وفي الأشجار ، وفي الأزهار الذي هو عبارة عن النجاس والتشاكل والنسب الصادقة يحصل أثره في الرائين ، ويكون الأثر في النفوس على مقدار الحقائق العلمية في الجليل من زهر وشجر وانسان ، وهكذا بقاء الاهرام للمصنوع على نسب هندسية فلكية يكون على مقتضى ما وصل إليه العلم في التحقيق ، وهكذا كل بناء ، وكل صناعة ، ولذلك ترى المباني التي صانها جاهل لا تدوم بل تنقض ، ومثل ما رأيت في المشاهدات تكون الامور الموقولة ، انظر إلى دين الاسلام كيف دام ١٣٥٠ سنة وهو باق لم يتزلزل ، ذلك لأنه هو الحق ، والحق يبق ، فإذا بقيت الكواكب لتبقيها على الحق ، وإذا بقي الهرم لبنائه على الحق واذانبت المدفع لصنعه على النسبة الحق ، هكذا

ثبت القرآن ثلاثة عشر قرنا ونصف إلى الآن وإلى يوم القيامة على مقتضى حقيقته . هذا هو معنى قوله تعالى :
 « ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق » من ربهم . ثم أبان ذلك فقال :
 « كذلك يضرب الله للناس أمثالهم » أي يبين أحوالهم . انتهى المقصد الأول من السورة .

المقصد الثاني

قال تعالى (فلذا لقيتم الذين كفروا) في المحاربة (فضرب الرقاب) أي فاضربوا الرقاب ضربا لأن الرأس
 من أشرف أعضاء البدن فإذا أدين عن البدن كان أسرع إلى الموت والملاك بخلاف غيره (حتى إذا أخذتموهم)
 أكثرتم قتلهم وأغلظتموه من التخييل وهو الغليظ (فسحقوا الوثائق) فأسروهم واحتفظوهم ، والوثائق بالفتح
 والكسر ما يوثق به (فإذا منا بعد واما فداء) أي فاما تمنون منا أو تفدون فداء ، أي انكم تحبسون بصد
 الأسرى بين الملق والاطلاق ، وبين أخذ الفداء ، فالد كالحرف المكلف إذا أسرى بغير الامام فيه بين القتل واللق
 والفداء والاسترقاق ، والفداء إما بمال أو بأسارى المسلمين ، وهذا منعب الحسن وعطاء وأكثر الصحابة
 والعلماء والثورى والشافعي وأحمد واسحق . وقال أبو حنيفة : إن الآية منسوخة فلا فداء بمال ولا بغيره عنده
 خيفة أن يعودوا حربا للمسلمين . ثم ذكر غاية المجموع من الشدة والملق والفداء فقال (حتى تضع الحرب
 أوزارها) آلتها وأقالها التي لا تقوم إلا بها كالسلاح والكرام ، أي حتى لا يبقى إلا مسلم أو مسلم ، أي هذه
 الأحكام جارية فيهم حتى لا يكون حرب مع المشركين بزوال شوكتهم ، أو بزوال عيسى ابن مريم ، حتى زالت
 الشوكة أو أنزل عيسى ابن مريم فلا حرب ولا أسر ولا قتال ، ولقد تقدم في هذا التفسير أن كتابنا المترك على
 فيينا صلى الله عليه وسلم يخبرنا انه سيكون هناك يوم تجتمع فيه الأمم كلها على حال واحدة ويكون بينهم مودة
 فر بما قرب ذلك الوقت ، وربما كانت الأمم اليوم مستعدة له ، الأثرى إلى المدافع والطائرات والغارات الخفاقة
 والمعوية ، كل تلك المهلكات ، ولقد علمنا أن أهل ألمانيا اليوم قد اخترعوا من المهلكات ما لا تصدقه العقول
 كأضواء ينصبونها فتصيب أهل لندن فتحرق بلاد الانجليز في يوم ما والأنوار في نفس برلين والله أعلم ، وكل
 ذلك إفراط في الاهلاك ، ويقال ان ألمانيا عندها غاز لو أطلقت في الجو لجعل الهواء كله مسموما فيموت أهل
 الأرض قاطبة ، ويموتون هم معه ، وكل هذه أقاريل لا يدري مدى صحتها ، ولكن لا بد من بلانار فللمنص
 من هذا كله أن الأمم قد أفرطت في المهلكات ، وربما كان ذلك سيمود بالافراط في السلم ، لأن الشيء متى
 زاد عن حده انقلب إلى ضده ، وربما كان هذا السلام أن يكون لسكل أمة أعمال خاصة ، وتجميع الأمم
 تكون لها جمعية تدبر شؤون المجموع ، والطائرات والبرق (التلغراف) والمسرة (التليفون) تجري بينهم
 لا يمتنع شرق عن غربي ، ولا غربي عن شرقي ، وتكون الأمم كلها أمة واحدة ، ظلما وحياة ، كما ذكره
 القاراني في كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » وكما ذكرته في كتابي « أين الانسان » الذي سترى ملخصه
 إن شاء الله في (سورة الحجرات) قريبا بقلم الاستاذ سنتلانه الطلياني في مجلته باللغة الإيطالية وهو مترجم
 بالعربية لتعلم أن العقول في الأرض تتفاهم ، مع انه لاصلة بيني وبين أي انسان في أوروبا ، وسرى أن السلم
 ينشده كثير من العقلاء ، ولقد جدت في ألمانيا مذهب الفلسفة أي الأكثرية ، وانتشر هذا المنصب في
 روسيا ، وهذا المذهب يقال انه يجعل الناس كلا في عمله الخاص به ، والمجموع مسخر للمجموع ، والتفصيل
 في الكتب لا يسعه هذا الكتاب ، وربما كان ذلك مقدمة لمذاهب أخرى تكون متقدمة مهنية تجعل الناس
 كلهم اخوانا ، وإذا كان المسلمون هم البادئين به كان أفضل لأنهم شهداء الله على خلقه ، فيكون العالم كله
 إما مسلمين أو مسلمين ، أي ليس بيننا وبينهم حرب ، ولا ضرب ، ولا قتال ، فلي المسلمون أن يجتنبوا ليمسوا
 لتلك اليوم الذي لا ينزل عيسى إلا وقد استعد الناس له ، ومستحيل أن ينزل عيسى على قوم مجرمين ، فلي

المسلمين أن يستكملوا العلم والعمل ، والعدة الحسية والمعنوية ليرقوا نفوسهم والأمم حولهم ، ويقودوها إلى السلام العام ، هذا بعض أسرار كتابنا المقدس .

إن كتاب «أين الانسان» ظهر لي قريبا أنه كله تفسير لآية الخيرات الآتية ، فالحجج للقرآن واجب والسنن ألف مرة طهه السورة التي ذكر فيها أن الحرب تضع أوزارها بعد ما تقدم قريبا في ﴿سورة الدخان﴾ والسنن هو الذي ظهر في الحرب الحاضرة ، إنك تهج الآن وستهجب ثم تهجب اني في هذا التفسير في بحر من الهجج اومن القرآن ، وما أدري ماذا يكون أثره الهجائب ، وانى أوقن أنه يكون من أسباب سرعة الارتقاء للمسلمين . ثم إن الأمم مادامت لم تصل إلى تلك الدرجة فعلى المسلمين أن يكونوا أقوى الأمم في العلوم والصناعات ، ذلك هو الذي سيكون في مستقبل الزمان بعد انتشار هذا التفسير وأمثاله من مؤلفات المسلمين في الشرق والغرب والله هو الولي الحميد .

ثم اعلم أن الله جعل السلم فوائده وللحرب فوائده ، فالأمم مادامت في حال الطفولة عقولها أشبه بعقول شاب صراخ لم يبلغ الحلم بحيث لا يزال يقاتل الصبيان ويشاجرهم ويوقع الأذى بهم وهم يزيدون أذى فانها لا تزال في حروب كأهل أوروبا اليوم وأهل الشرق ، فهذه الأمم حكم الله عليها بالحرب لتقوى الأبدان وترقى الصناعات وتحو الأمم فان الحرب تشرح الصدور ، وتوقظ الشعوب ، وتفتح المغلق ، وتيسر السير ، كما يقوله علماء الألمان ، وكما قاله أرسطاطاليس للاسكندر : «إن الراحة للأمة مضرّة بهم» ولذلك يقولون : «إذا أردت رقيّ أمة فاجعلها تخوض الحروب» ، فذلك يفتح لها باب السعادة ، والامم النائمة على فراش الراحة الوثير معرضة للزوال والهلاك ، كل ذلك والامم في حال الطفولة ، فأما اذا كملت أخلاقها ومواهبها فان نتائج السلم عندهم نتائج الحرب عند من قبلهم ، فكما يفرح الرجل في الأمم الحاضرة بغلبة الأعداء ، وشفاء الفليل ، ويجمع الرجال والسلاح والكرام ، هكذا سيكون فرح الأمم بمساعدة غيرها ، وانسراح الصدور بظهور أم جديدة تكافح معهم في الحياة مساويا لفرح من قبلهم بالغلبة والانتصار على سواهم ، ويكون كل فرد في الأمم المستقبلية أشبه بالأب يجرى ويكدهج لمساعدة أولاده ، وهذا الكدهج يحدث فيه فرحا أشد من فرح المنتصر في ميادين القتال .

الأمم اليوم نصف كاملة تسمى لاسعاد أنفسها واهلاك غيرها ، وسيأتي وقت تسمى فيه لاسعاد الجميع ويكون الفرحة أشد من الفرحة بهزيمة الأعداء ، ويكون جميع الناس كالأمهات والآباء ، والى هذين الحالين الانسانين أشار الله هنا ، فإلى حال الكمال أشار بقوله «حتى تضع الحرب أوزارها» والى حال النقص المشاهدة في الأمم والى حكمته . قال : الأمر (ذلك ولو يشاء الله لاتنصر منهم) أي لاتنقم منهم بالاستئصال (ولكن) أمرهم بالقتال (ليبلوا بعضكم ببعض) أي ليبال المؤمنين بالكافرين بأن يجاهدوهم فتقوى أبدانهم ، وتصح نفوسهم وترقى عقولهم ، وتنظم مدنهم ، وتصد كلهم ، ويجمع شملهم ، بما يرون من آمجاد عدوهم فيوجب اتحادهم وترقى الزراعة والتجارة والصناعة ، وأحوال الأمة ، والقضاء ، وجميع العلوم ، إذ لا يتم حروب ولا غلبة إلا بها وهكذا أدياؤهم يرتقون في أمور الدنيا فتعظم المدن ويختلطون بالمسلمين فيقرمون كتبهم ويعرفون أحوالهم وهذا رقيّ للنوع الانساني ، ثم الضعيف من الطرفين هالك ، ويكون الرقيّ دائما ، هذا كله في حال النقدي ، أما في حال الكمال فذلك حين يكون الناس كلهم كأسرة واحدة وحالهم أرقى من حال هؤلاء الناقصين ، ثم أخذ يبين درجات الفريقين من حيث نتائج أعمالهم في الآخرة فقال في فريق المؤمنين الماهدين (والذين قاتلوا في سبيل الله) أي جاهدوا (فان يصل أعمالهم) فلن يضيعها (سبيهم) إلى الثواب أويثبت هدايتهم (ويصلح بهم) يرضى خصماهم ، ويقبل أعمالهم (ويدخلهم الجنة) في الآخرة ويجعلها طيبة الرائحة بحيث يطيها لهم ويجعل لكل واحد جنة منفردة منفردة عن الأخرى بحيث تكون محتدة معينة ويهديه إليها

بحيث لا يصل في طلبها ، وذلك كله في الآخرة ، أما في الدنيا فانه يصنفها لهم بالوصف الذي يشوقهم إليها ،
 ففي الدنيا وصف مشوق لها ، وفي الآخرة طيب الرائحة والهداية إليها وتهديتها ، وهذه المعاني الأربعة كلها
 حاصلة وقد فسر بكل واحد منها قوله تعالى (ويدخلهم الجنة عرفها لهم) فمعناها تحتل المعاني المتقدمة ،
 ولا جرم أن لكل امرئ في الحياة عملاً خاصاً يستوجب حالا في الآخرة لا يتصداه كما يستوجب كل من نال
 شهادة في علم أرسنعة حالا نوازي شهادته في الحياة الدنيا والنظام الصراحي ، فإذا مات الانسان وضع في مركزه
 وضعا طبيعيا لا تكلف فيه ، فيكون الناس في الآخرة أشبه بأع السمك في البحر المالح وأنواع الطير في جو
 السماء ، فكما أن الطير في الجوّ لكل من أنواعه درجة في العلو لا يتعداها ، هكذا نكل من الصالحين درجة
 في الآخرة لا يتعداها ، بل يجد نفسه مقهورا على البقاء فيها ، وكما أن السمك منه ما هو قرب سطح الماء ،
 ومنه ما وجد تحت سطح الماء بمائة قامة ، أو ألف ، أو آلاف كما تقدم في هذا التفسير ، فهكذا أهل السير ،
 « ولكل درجات بما عملوا » ، وعلى هذا يكون التعريف هنا بمعنى التعدد والتميز والاهتداء إليها اه
 وقرئ « والذين قتلوا » بالبناء للجهد أي استشهدوا ، وهذا جزاء المجاهدين في الآخرة ، أما جزاؤهم في الدنيا فهو
 في قوله (بأليها الذين آمنوا ان تنصروا الله) ان تنصروا دينه ورسوله (ينصركم) على عدوكم (ويثبت أقدامكم)
 في القيام بحقوق الاسلام ، ومجاهدة الكفار ، هذا جزاء فريق المجاهدين ، وأعقبه بجزاء الكافرين فقال
 (والذين كفروا) مبتدأ (ة) نفسوا (نفسا لهم) كما قيل للمجاهدين بثبت أقدامهم ، قيل للكافرين نفسا
 يقال للعائر نفسا اذا دعوا عليه ولم يريدوا قيامه ، وضده لما اذا دعوا له وأرادوا قيامه ، فإذا ثبت المجاهد في
 الحرب عثر الكافر وسقط ولم يتم من سقطته ، وقوله : (وأضل أعمالهم) مقابل لقوله في فريق المجاهدين
 « فلن يصل أعمالهم » وبين سبب ذلك فقال (ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله) وهو القرآن ، وقد تقدم في
 أول السورة أنه الحق من ربهم ، ومن لم يتبع الحق الذي قامت عليه السموات والأرض لم يثبت بل يسقط
 ويقال له نفسا ، لأن الذي يبنى على الحقائق دائم لا يزول ، والذي يبنى على غير الحقائق زائل ، لزوال أسه وعدم
 ثباته ، وقوله (فأحبط الله أعمالهم) مرتب على ما قبله ، وتكراره للاشعار بذلك الترتيب ، والاحباط
 الابطال ، فكل ما عملوه باطل مع عدم الايمان الذي هو الأساس ، ثم ان المشاهدات الخمسة لها آثار في النفوس
 وتنتج عند ذوى العقول اذا تدبروا فيها واعتبروا ، فلذلك أمرهم الله بالنظر في أحوال الأمم السابقة ومشاهدة
 آثارها فقال (أفلم يسروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) من الأمم الماضية والقرون
 الخالية الكافرة ، وكأنه يقال : ماذا كان عاقبتهم ؟ فأجاب (دمر الله عليهم) يقال دمره أهلكته ، ودمر عليه
 اذا أهلكت ما يختص به أي أهلكت الله عليهم ما يختص بهم من مال وولد ونفس ، واذا رأوا ذلك في الأمم السابقة
 أفلا يعقلون أن ما جاز على أحد المثليين جاز على الآخر ، فبطريق القياس التمثيلي يقال : ان الكافرين بمحمد
 صلى الله عليه وسلم يحصل لهم ما حصل للأمم الذين من قبلهم ، وهذا قوله (وللكافرين أمثالها) أي ولهم فوضع الظاهر
 موضع المضمرة أي لهم أمثال تلك العاقبة ، أو العقوبة والهلكة ، ثم أتى بسبب ما تقدم كله من عاقبة الفريقين
 فقال (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا) أي ناصرهم على أعدائهم (وأن الكافرين لا مولى لهم) فيدفع
 عنهم العذاب ، وأما قوله تعالى « ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق » فمعناه المالك ، وإنما كثر الله مولى الذين
 آمنوا لما تقدم أول السورة من أنهم آمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم ، وسلام أن الله هو الحق وأنه
 خلق السموات والأرض بالحق ، فرجع الأمر إلى القاعدة العامة أن الحق هو الموجب للنصر لأنه ثابت ومنه
 جميع القواعد العلمية والصناعية لأنها مؤسسة على نظام الله الذي قامت به السموات والأرض والاسلام لما
 كان حقا عاش وبقى في زمن عزه وزمن ضعفه دلالة على أنه حق والحق له الإتمام ، ومن هذا القاعدة العامة
 في الدنيا وهي ان الأمة التي اتحدت وجهتها ونظمت أعمالها تكون منصوره ، وقد ينصر الأقلون اذا كانوا

أشدّ احكاماً ، واذا تساوت الطائفتان في الاحكام والعلم والعمل غلبت أكثرهما عدداً ، إن الله جعل نظام العالم توحيد الوجهة ، فالأم التي وحدت وجهتها وانتظمت قلب من هي أقلّ منها في ذلك ، كل ذلك من قوله تعالى : « خلق السموات والأرض بالحق » ، ولما كان المسلمون في أول أمرهم أكثر اتحاداً وأسرع إلى نشر النضال غلبوا مع قلتهم الأمم العظيمة ، فلما قصدوا المال هزمتهم أقلّ الأمم ، ولما انتظمت دول أوروبا وكثر اتحادها غلبوا المسلمين ، لأنهم لم يقوموا بالحق كما يجب ، فالاسلام حقّ ولكن نظام العالم الذي خلقنا فيه تجب دراسته ، فاذا أغفلناه فقد أغفلنا ما يطلبه الحقّ وهو القرآن ، إذن قلبنا الأمم ، هذا هو الحكمة في قول الله تعالى « وهو الحقّ من ربهم » فالحقّ من ربهم عنوان لذلك كله ، ولما جاء دور ارتقاء المسلمين ونضالوا في هذا الزمان نصرنا في كل مكان ، في الأناضول ، في الفرس ، في صراكش ، في الأقطان ، في الحجاز (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار والذين كفروا يجمعون) في الدنيا بشهواتها ولذاتها (وبأكلون كما تأكل الأنعام) فليس لهم همة خارجة عن بطونهم وفروجهم وهم ساهون لاهون عميراد بهم في غد ، فكما تأكل الأنعام في معاقها ومسلحها وهي غافلة عما هي بسده من النحر والنج كذلك هؤلاء يأكلون ويتلذذون وهم غافلون عن عذاب النار ، وهذا قوله (والنار مشوى لهم) منزل ومقام (وكأين من قرية هي أشدّ قوة من قريتك التي أخرجك أهلها) (أهلكناهم) بأنواع العذاب (فلاناصر لهم) يدفع عنهم (أفمن كان على بينة من ربه) حجة من عنده قلبية كالقرآن ، أو عقلية بنور العقل كالنبيّ والمؤمنين (كن زين له سوء عمله) بالشرك والمعاصي (واتبعوا أهواءهم) في ذلك ، والمراد كفار مكة الذين زين لهم الشيطان شركهم وضلالهم ، واللغظ يصمهم وغيرهم (مثل الجنة) صفة الجنة البهية (التي وعد المتقون) أي فيما قصصنا عليك صفتها البهية ، نغبر مثل محذوف وهو الجرار والجرور ، ثم استأنف بشرح المثل فقال (فيها أنهار من ماء غير آسن) يقال أسن الماء أسناً إذا تغير طعمه وريحه (وأنهار من لبن لم يتغير طعمه) كما تتغير ألوان الدنيا إلى الجوضة وغيرها (وأنهار من خمر لينة) تأنيث له وهو اللذيذ (للشاربين) أي ما هو إلا التلذذ الخالص ليس معه ذهب عقل ، ولا صداع ، ولا آفة من آفات الخمر (وأنهار من عسل مصفى) لم يخالفه الشمع وفضلات التحلل ولم يمت فيه بعض تحله كعسل الدنيا بل هو خالص من جميع الشوائب ، وفي ذلك تمثيل لأشربة في الجنة لذينة مجردة من كل تغيص وقصص مع استمرارها وكثرتها (ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم) وفي أعراب « مثل الجنة » وجه آخر وهو أن يعرب مبتدأ خبره قوله (كن هوئله في النار وسقوا ماء حيباً) حاراً شديد الحرارة (فقطع أمعاءهم) وهو في معنى الاستفهام الإنكارى كقوله « أفمن كان على بينة من ربه » أي أمثل الجنة التي وعد المتقون كمثل جزاء من هوئله في النار ؟ كلا . ليس مثله ، وكأنه قيل ليس من هو على بينة من ربه كما يقع هواء ؟ وكما لا تستوى الجنة والنار لا يستوى ذوالبرهان وذو الهوى (ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال أقفا) بعد أن ذكر المؤمنين وجناتهم والكافرين ونارهم ذكر طائفة المناقذين الذين هم كالمؤمنين من وجهه والكافرين من وجهه فقال انهم يستمعون إليك فاذا خرجوا من مجلسك وقد تمهاونوا بما سمعوا منك قالوا لأولى العلم من الصحابة ماذا قال الساعة على جهة الاستهزاء وأقفا من أف الشيء لما تقدم منه مستعاراً من العضو المعروف وهو ظرف بمعنى وقتاً مؤتلفاً ، ويقال اتنفت الأمر أي ابتدأته (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم) * قال مقاتل : كان صلى الله عليه وسلم يخطب ويصيب المناقذين ، فاذا خرجوا من المسجد سألوا عبد الله بن مسعود استهزاء : ماذا قال محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال ابن عباس وقد سئلت فيمن سئل (والذين اهتموا) بالإيمان واستماع القرآن (زادهم) الله (هدى) أي بصيرة وعلماً وشرح صدورهم (وآثارهم تقواهم) أعانهم عليها ، أو آثارهم جزاءها

(فهل ينظرون إلا الساعة) أي ينتظرون (أن تأتيهم) أي آياتها وهذا بدل اشتغال من الساعة (بفتنة) جاء (فقد جاء أشراتها) علاماتها وهو بيت النبي ﷺ ، وانشقاق القمر كما قال بعض المفسرين ، والسمان ، وقطع الأرحام ، وقلة الكرام ، وكثرة الثام (فأتى لهم إذا جاءتهم الساعة وهما في ذكراهم) أي فأتى لهم : أي كيف لهم ذكراهم إذا جاءتهم الساعة أي كيف يتذكرون إذا جاءتهم الساعة وهما في ذكراهم ، فأتى لهم : أي كيف لهم ذكراهم (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك) أي إذا علمت سعادة المؤمنين ، وعذاب الكافرين ، فأنبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية ، وإصلاح حال النفس باستكمالها وضمها بالاستغفار من الذنب — ولا معنى لذنوب الأنبياء إلا أن يتركوا ما هو أفضل وأولى — وتوجيهها إلى الاستغفار للأتباع قال الله (وللمؤمنين وللؤمنات) أي لذنوبهم (والله يعلم متقلبكم ومثواكم) أي متصرفكم ومنشركم في الدنيا ، ومصيركم إلى الجنة أو إلى النار في الآخرة ، فأتوا الله واستغفروه . وسئل سفيان بن عيينة عن فضل العلم فقال : ألم تسمع قوله تعالى : فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك ، فأمر بالعمل بعد العلم . انتهى التفسير اللفظي المقصد الثاني من السورة

لطائف هذا المقصد

- (١) في قوله تعالى : أفلم يسيرا في الأرض الخ
- (٢) » » » : والذين كفروا يجمعون ويأكلون كما تأكل الأنعام وللنار مشوى لهم .
- (٣) » » » : مثل الجنة التي وعد المتقون الخ
- (٤) » » » : فقد جاء أشراتها

اللطيفة الأولى

في قوله تعالى : أفلم يسيرا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم فترآه عليهم وللذين كفروا أمثالها

جاء القرآن والأمة العربية غافلة عن النظر في الآثار البائدة ، والأمم الهالكة ، فكانوا يمتدحون وهم معرضون ، ويسافرون صيفا وشتاء وهم غافلون ، فبعضهم القرآن من مرقدهم ، وظنوا بنو بيتهم في نظام الجنس البشري . يقول الله : أغفلوا فلم يسيرا في الأرض فينظروا ، غيرهم بالغفلة ، وبكثرتهم على ترك السير في الأرض للمسحوب بنظر العواقب المترتبة على الأعمال والغفلة ، وحفرهم أن يصيبهم ما أصاب الأمم قبلهم ، وقد جاء في أول السورة أن القرآن هو الحق من ربنا ، وفي آية أخرى : خلق الله السموات والأرض بالحق ، فكانه يقول لهم : انظروا في الأمم البائدة ، هل أمة خالفت نظمتنا ، وجهلت صناعتنا ، وحادت عن صراطنا ، أرادتنا المتائف ، وأذقتنا المصائب ، وجعلتنا عبرة للعبرين ، هكذا كان السابقون ، وهكذا يكون اللاحقون ، فبالت شعري أي عذر لمسلمي العصر الحاضر ، وأي ذنب أقصدهم ، وأي مصيبة حلت برؤسهم ؟ ناموا ولم ينظروا ، لم ينظروا أهل أوروبا وأمريكا ، لم ينظروا كيف حلّ الخراب بساحل الأندلس المسلمين لما بطروا التمس ، لم ينظروا قصور الملوك المسلمين وآثارهم في قرطبة وباقي بلاد الأندلس ، فإذا أمر الله آباءنا أن ينظروا في آثار غيرهم من الأمم البائدة فنحن مأمورون أن نتظرف آثار الأمم الإسلامية الهالكة بذنوبهم وجهلهم ، وكان الله يقول : أفلم ينظروا أهل مصر وتونس والجزائر ومراكش وأبناء الشام والعراق والحجاز ، أفلم ينظروا ملحق بالأندلس المسلمين كيف انكبوا على مصنوعات الفونجة وملابسهم وخمرهم فأذقتهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون .

لقد حقر أبناء العرب في الأندلس مجد آبائهم وعاداتهم ودينهم في أواخر أيام عزهم ، وكرعوا من خمر

الاسبانيين وتعلموا على أسانذتهم فاتحلت صرى قوميتهم ، فساء صلبح المنفرين ، وحل بهم ماحل بالمضيق ،
 وأنسوا بالافرنج ، فأصبوا صعيدا خامدين كما تقم قريبا في سورة الأحقاف
 أفلا يستر المسلمون في مصر والشام وبلاد شمال أفريقيا عموما كيف لا يحاول بعضهم الأكل إلا في مطاعمهم
 ولا الفزل إلا مع نساتهم ، ولا اللابس إلا من منسوجهم ، فلئن لم ينتهوا عما يفضلون لينتوق النكال ، وليحلن
 بهم ماحل بالأندلسيين . أقول : ومن عجب أن التعاليم الاسلامية اليوم مغيرة وجهتها ، وبألت شعري أنلم
 علماء الاسلام ؟ أجهل حكماؤهم أمثال هذه الآيات ؟ لماذا لم ينهوا الشعوب الاسلامية ؟ لماذا لم يوقظوها ؟
 لماذا ناموا على الأحكام التقية ، وجهلوا الحقائق الكونية ، نم تنب من المسلمين قوم ولكن ذلك ليس
 من تعاليم القرآن المهجورة ، بل من تعاليم الفرنجة المسطورة ، فاستيقظ أهل الأناضول ولكن التعاليم الافرنجية
 تنهوا وحظروا أن يتكلم في الرسيات أحد إلا باللغة الوطنية ، وأن لا يكتب إلا بها على عكس ما فعل
 الأندلسيون في أواخر أيامهم إذ كانوا يحاكون الفرنجة محاكاة ، فذلوا لهم خاضعين ، وخضعوا لهم صاغرين .
 ثم الكلام على اللطيفة الأولى والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : والذين كفروا مجتمعون وبأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم

الانسان امتاز عن الحيوان بالعقل والفكر ، فحق عطل تلك القوى التي امتاز بها حل به العمار في الدنيا
 والآخرة ، فأما في الدنيا فبالصغار والفلة ، وأما في الآخرة فبنار جهنم وبئس القرار ، ومن درس هذا التضرير
 في السور الماضية أدرك هذا المتصد في مواضع كثيرة فلاحاجة للاطلاع ، وإنما أقول : إن المسلمين في القرون
 الأخيرة ناموا على وساد الراحة ، ونسوا أن لهم عقولا ، وأن لهم دينا ، فأذنتهم الفرنجة ، وخضعوا لهم
 صاغرين . ومن موجبات الصقل النظر في الأمم المهالكة وأسباب هلاكها ، وقد جاء في اللطيفة المتقدمة
 الحق على النظر في الأمم البائدة ، والأجيال المهالكة ، وأنهم هلكوا بكفرهم ، وأن هذا قانون عام . وإذا
 كان القرآن يأمر بالنظر في الأمم المهالكة لنعبر بها فهو من باب أولى يأمر بالنظر في الأمم الحية لتقلدها ،
 ونعمل عملها ، اذا وافق شرعنا ، فحق على المسلمين أن لا يذروا علما إلا درسوه ، ولا صناعة إلا أحاطوا بها
 وعليهم أن يرسلوا من عندهم جاعات يجوسون خلال الأمم في أوروبا وأمريكا واليابان ، ويدرسوا أحوالها ،
 وينشروا أسباب رقيها ، ويتلافوا النقص الحاصل في بلاد الاسلام . ليكون ذلك وليدرسوا لغات الأمم وأخلاقها
 وعلومها ، وليكن في كل علم وكل فن وكل لغة اختصاصيون يقومون بالواجبات ، كل ذلك من قوله تعالى
 « أفلم يسروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمي الأبصار ولكن
 تعمي القلوب التي في الصدور » ومن قوله تعالى : « أفلم يسروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين
 من قبلهم دمرناهم عليهم » وقلنا ومن باب أولى فينظروا كيف كان عاقبة الذين هم معاصرون لهم كيف أنتم
 الله عليهم وأبدهم بالانحداد والعلم والمجددين أمثالها ، هذا هو الدين الاسلام ، هذا هو الدين الحق لانك التعاليم
 الناقصة ، المستوحاة ، الجاهلة ، الخاطئة في أكثر ديار الاسلام حتى حق القول هلى أكثرنا ، يقال في الفاظين :
 « مجتمعون وبأكلون كما تأكل الأنعام » فأصبح أكثر المسلمين تحت رعاية الاوروبيين ، يتكونهم في الحقول
 يسلمون ، ويحبون منهم الضرائب ، ويذرونهم في الجهالة العمياء مجتمعون وبأكلون كما تأكل الأنعام .
 فلاعلم يدرسون ، ولاقرآن يعقلون ، ولاحكمة يراولون ، ولقد آن أن يعز الله فوما ذلوا ، ويسعد قوما شقوا
 والله هو الولي الحميد . انتهت اللطيفة الثانية

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : مثل الجنة التي وعد المتقون

لقد تقدم الكلام على الجنة والنار في « البقرة » و « آل عمران » وغيرها وأسهبنا في الكلام هناك ، والنبي يفتي أن نذكره هنا ما يناسب هذه الآية ، ان الله شرح الجنة شرحا يسر النفوس في « سورة الواقعة » وغيرها ، فذكر الجنات والحريز والحور العين والأنهار مما هو معلوم مشهور وأكثر من ذلك لأن أكثر الأمم عوام ، فاذا ماتوا لا يجدون لهم لذة إلا فيها عرفوه في الحياة الدنيا ، فيدخلون الجنة ، وينالون ما يشتهون ، كما يقال : « أريت الجنة فاذا أكثر أهلها البله ، وعليون لأولى الأبواب » ، والمراد بالبله أولئك الذين لم يرتفع نظرهم إلى سماء الجلال والكمال والحكمة والنظام ، فأما للفكرين فهم الذين ينظرون وجه ربهم لما مشقوا جلاله في هذه الدنيا ، فيكون نورهم الذي اقتبسوه في الدنيا ونظرهم الحكيم هو الذي يهديهم يوم ائتموا إلى النظر إلى وجه ربهم الكريم ، فوصف الجنة بالحور العين والأنهار لأكثر الأمة ، وتطلب الطبقة المتوسطة التي لا هي بالغة النهاية في الحكمة ، ولا هي باقية مع الطبقة الجاهلة بمثل هذه الآية فقال « مثل الجنة » لجمل الأنهار من اللبن والعسل والخمر أمثالا ، وفي آية أخرى : « فلانعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » . وفي الحديث : « في الجنة مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » ولا يجوز أن هذا أصرح من هذه الآية ، وتبين لحقائق عالية ، وهي تلك المراتب السامية للفكرين وأهل الحكمة ، وفي آية أخرى : « وفيها ما تشبهه الأنس وتلذ الأعين » وهذا جامع للذات العوام ، ولذات المشواص ، ولذات المتوسطين ، وإذا كنا نرى هذه الدنيا قد جعلت لذات البهائم في المروج ولذات الملوك الفاضلين والفقراء للماهرين ، ولذات الحكماء والعلماء المفكرين الذين يعرضون عن الماديات اعراضا ، ويفرحون بما في نفوسهم من الحكمة ، ولا يطلبون به بدلا ، أفلا تقول إن الجنة تكون كذلك ، بل هي أجل وأبهج في هذه المراتب . إن الله سبحانه الناس على حسب ما كانوا في الدنيا ، فالبهائم والجملة لا يفرحون إلا بما كانوا فيه ، وأرباب الحكمة لا يفرحون إلا بما كانوا فيه ، وليس من المعقول أن رجلا عشق الحكمة وفنى فيها ثم مات ويجازى بالانهمك في المادة أي انه ينزل في الجنة درجات . كلا . فاذا عشق الحكمة والعلم ولقاء ربه فهو لا محالة صائر إلى ما اشتاق إليه . قال عليه الصلاة والسلام لسائله عن الساعة : « أنت مع من أحييت »

الكلام على الأنهار التي في الجنة

وسيحان وجيحان ، والفرات ، والنيل

في حديث مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة » قال الشيخ محي الدين النوري في شرح مسلم : سيحان وجيحان غير سيحون وجيحون ، فأما سيحان وجيحان فهما في بلاد الأرمن ، فالأول نهر أدرته ، والثاني نهر المصبية ، وهما نهران كبيران جدا أكبرهما جيحان ، اه

أقول : واعلم أن الأرض التي نسكتها فيها الخبز وفيها الثمر ، والخير المحض في الجنة ، والشر المحض في جهنم ، ولما كانت هذه الأنهار الأربعة متمحضة للخير ، وهي منبع حياة كثير من الأمم أشبهت الجنة من حيث الحياة والنعيم والخيرات ، وهذا وارد في كلام العرب . قال الشاعر :

أوحشية العينين أين لك الأهل * أبلحزن حلوا أم محلهم السهل
قفي خبرينا ما طعمت وما لدى * شربت ومن أين استقر بك الرحل
وأية أرض أخرجتك فاتي * أراك من الفردوس ان قتش الأصل

فإن علامات الجنان مينة * عليك وأن الشكل يشبه الشكل
فانظر كيف قال الشاعر : « فانتى أراك من الفردوس » مع انه يعلم قطبا أنها مخلوقة في الأرض ، ثم
علل ذلك بملتين : علامت الجنان ، وتشابه الأشكال ، فهكذا هنا يقال : إن هيئة هذه الأنهار أشبه بأهوار
الجنان من حيث الخيرات وإن كان الفرق شاسعا . انتهت اللطيفة الثالثة .

اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى : فقد جاء أشراطها

قد تقدم الكلام على أشراط الساعة في أواخر سورة الأنعام

المقصد الثالث

قال تعالى (ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة) أى هلا أنزلت سورة في امر الجهاد (فإذا أنزلت سورة
محكمة) مينة لانتشابه فيها (وذ كرفها القتال) أى الأمر به (رأيت الذين في قلوبهم مرض) ضنف وفاق
(ينظرون إليك) شزرا وكراهية للجهاد وجبنا عن لقاء العدو (نظر المغشى عليه من الموت) أى كما ينظر
الشخص ببصره عند معاينة الموت (فأولى لهم) فويل لهم وهو دعاء عليهم بأن يلبهم المكروه ، وأولى من
ولى على وزن أفصل (طاعة وقول معروف) أى يقولون طاعة الخ (فإذا عزم الأمر) أى فإذا دنا الوقت
خالف المناقون وكذبوا فيما وعدوا به (فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم) أى لكان السدق خيرا الخ (فهل
عسيتم ان توليتهم) أى أعرضتم عن سماع القرآن وفارقتهم أحكامه ، أو توليتهم أمور الناس وتأمرهم عليهم (أن
تفسدوا في الأرض) أى أن تعودوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الفساد في الأرض بالعصية والبغى ،
وسفك السم ، وترجعوا إلى الفرقة بعد ما جمعكم الله بالاسلام (وتقطعوا أرحامكم) أى فهل عسيتم أن تفسدوا
في الأرض وتقطعوا أرحامكم ان توليتهم عن الاسلام أو توليتهم أمور الناس ، وقد تم هذا كله . قال قتادة :
« كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله تعالى ؟ ألم يسفكوا الدم الحرام ، وقطعوا الأرحام ، وعصوا
الرحمن » ، وفي حديث البخارى ومسلم قال صلى الله عليه وسلم : « إن الرحم شجنة من الرحمن فقال الله تعالى من
وصلك وصلته ، ومن قطعك قطعته » ، وفي رواية أخرى نحو ذلك ، ثم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
اقرموا ان شتمت فهل عسيتم ان توليتهم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ، أولئك الذين لعنهم الله
فأنصمهم وأعمى أبصارهم ، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها له

وقوله (أولئك الذين لعنهم الله) الاشارة إلى المذكورين وانما لعنهم لافسادهم وقطعهم الأرحام (فأنصمهم)
عن استماع الحق (وأعمى أبصارهم) فلا يتدبرون إلى سبيله (أفلا يتدبرون القرآن) ينصفحونه وما فيه من
المواعظ حتى لا يجسروا على المعاصي (أم على قلوب أقفالها) لا يصل إليها ذكر ولا ينكشف لها أمر ، واحتم
أن هذه الآية جاءت ردعا لتسمين من الناس : (١) الذين تولوا عن الايمان ورجعوا إلى الكفر ، والذين تولوا
عن القرآن وهم مؤمنون (٢) ومن يتولون أمور الناس ، فقوله توليتهم سواء أ كان بمعنى التولى عن الدين
أو عن أحكام القرآن ، أو تولى أحكام الناس مصحوبا بقطع الأرحام ، والافساد في الأرض بقراب عليه وهد
شديد ، وعذاب أليم ، فذكر اللعنة والسمم والمعنى ، وانهم لا يتدبرون القرآن ، أو أن على قلوبهم أقفالاً . كل
ذلك وعيد شديد وذم لمن انصفوا بهذه الأوصاف التي جاءت في هذا المقام ، فلو عيّد كما يكون على الكافر
المرتد عن الاسلام يكون على من قطع الأرحام وأفسد في الأرض ظلما لتولية أحكام الرعية ، وألأعراضه عن
كتاب الله ، ولقد استفاض ذلك الذنب في المسلمين قرونا ، فالآية تليح بأنهم سيقعون في هذا الذنب في

الاسلام ، وقد تقطعت الأرحام في الفجوة الاموية والمباسبية ، وقاتل كل فريق منهم الآخر ، ولا يزال ذلك
 جريا لا الآن ، بل للأمة الاسلامية اليوم يضرب بها المثل في التقاطع والتناحر والتناحر والتناحر لأجل الولاية
 وترى ملوك الاسلام ، وشيوخ الطرق ، وبعض آل البيت ، كل يحارب الآخر لا قصد سوى السطوة على الناس
 وقد سمعنا أن ابني الأب الواحد في حرا كثر قاتل كل منهما الآخر على مرأى ومشهد من فرنسا ، فكذلك ذلك
 سببا لوضع يدها على البلاد . كل ذلك داخل في قوله تعالى : « فهل عجبتم ان توليتم فليعلم هذا وسيكون شأن
 الاسلام في المستقبل غيره اليوم ، وسيقوم الخلف فيقومون علوم الأم ، ويضمون مثل هذا القول ، ويلتزمون ذلك
 الرنسات التي أسماها مجد الآباء ، بل يتدبرون القرآن ، وتزول الأفتال من على القلوب ، وتفتح الأبصار والبصائر
 ويسمعون القول ، واذن يعملون الأمر شورى فيما بينهم ، ولا يولون إلا من أجمع عليه الشعب ، أما الامارات
 التي جرت في الاسلام سابقا فهي امارات أغلبها كاذبة خاطئة جاهلة ، أوقعت المسلمين في أشد النكبات ،
 هنا هو المفهوم من قوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » فان الناس اذا جماعوا
 الرؤساء تبع الأنساب كانت الأمة رهن الجالس على كرسي الحكم ، فان كان عقلا عقلا ، وان كان أحمق
 خرب البلاد ، وتكون الأمة كأنها آلات صماء وعلى قلوبها الأفتال ، فاذا عقلت وفهمت وك الأكتفاء ،
 ولم تبال بالأنساب ، هنا هو معنى هذا المقام ، ثم خص المرتدين بقوبات يتبعها بقوله (إن الذين ارتدوا على
 أظهورهم) إلى ما كانوا عليه من الكفر (من بعد ما تبين لهم الهدى) بالدلائل الواضحات ، والمهجرات الظاهرات
 (الشیطان سؤل لهم) سهل لهم اعتراف الكبار ، ومعنى السؤل الاستثناء (ولم يطمع في الآمال
 ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله) أي قال المنافقون لليهود الذين كفروا (سنتطمعكم في بعض الأمر)
 لئى في بعض ما تأمرون كالمتعود عن الجهاد والنظام على الرسول (وانه يعلم أسرارهم) كقولهم هذا الذي
 أفتاه الله عليهم (فكيف اذا توفتهم الملائكة) فكيف يعملون ويحتملون حيث اذا قبضتهم الملائكة حال
 كونهم (يضربون وجوههم وأدبارهم) بمقامع من حديد (ذلك) الضرب والعقوبة (بأنهم اتهموا ما لم يمسسوا
 الله) لئى ترك الجهاد مع رسول الله ﷺ (وكرهوا رضوانه) أى كرهوا ما فيه رضوان الله عز وجل (فأحببت
 أعمالهم) التي عملوها من أعمال البر لأنها لم تكن لله ولا باسمه (أم حسب الذين في قلوبهم مرض) شك
 وفاق وهم المنافقون (أن لن يخرج الله أضغانهم) أى يظهر أقدامهم على المؤمنين فيبيدوا حتى يعرف
 المؤمنون قتالهم ، والضعف الشديد (ولونشأ لأريناكمهم) لمرئناكم بطلان قهرتهم بأعينهم
 (فلمرئتهم بسياهم) بعلامتهم وهو أن يسمم الله بعلامته يعلمون بها ، وعن أسرى رضى الله عنه : ما خلق
 على رسول الله ﷺ جد هذه الآية أحد من المنافقين كان يعرفهم بسياهم ، واللام في قوله « فلمرئتهم »
 داخلة في جواب لو كالتى في « لأريناكمهم » ثم قال (و) الله (لتعرفنهم في لحن القول) أى أسلوبه ولما تته
 إلى جهة ترميض وتورية أى وتعرفن المنافقين بالمخالفات يرضون به من القول من تهجين أسرك وأمر المسلمين
 وتحييتهم والاستهزاء به ، فكأن بعد هذا لا يتكلم منافق عند النبي ﷺ إلا عرفه بقوله ، ويستدل
 بضميرى كلامه على فساد باطنه وفساده ، وذلك لأن الناس يحولون على أن تطلق ألسنتهم بما يقرؤن أنفسهم
 ولستقر فيها من اللغز فتظهرها فلتات اللسان ، وكأن أن العين تظهرها أكنه الجنان من حب وبنى ولون
 الوجه بين ما خلق من الحياء والحجل والبشر والحزن والغضب ، هكذا اللسان تأتي على طرفه ظلمات تبين
 تلك الخبائث النفسية ، هذا طريق علم الخلق ، أما علم الله تعالى فقد ذكره بقوله (ولله يعلم أعمالكم)
 فيجازيكم على حسب قصدكم فان الأعمال بالنيات (ولنبلوكم) بالأمر بالجهاد ، وسائر التكليف الشاقة
 (حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين) على مشاقها أى حتى نعلم المجاهدين الصابرين من غيره ، ويثبتن أمره (ونبأو

أشرككم) أي ما يضرب به عن أعمالكم فيظهر حسنها وقبحها (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى) أي من بعد ما تبين لهم أدلة الهدى وصدق الرسول ﷺ وهم قريظة والنضير والمطمعون يوم بدر (لئن يضروا الله شيئا) وإنما يضرون أنفسهم والله منزه عن ذلك (وسيجب أعمالهم) ثواب حسنات أعمالهم ، أو مكابدهم التي نصبوها للشاقة المذكورة ، وستكون عاقبتها قتل بعضهم وببلاء البعض الآخر عن الأوطان (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم) أي كما أبطل هؤلاء أعمالهم بكفر ، أو نفاق ، أو هج ، أو رياء ، أو بفض الرسول وعداوته ومخالفته ، يقول الله : يا أيها الذين آمنوا بصدق القرآن وأطيعوا الله فيما أمركم من الفرائض والصدقة ، وأطيعوا الرسول فيما أمركم من السنة والنزول والجهاد ، ولا تبطلوا أعمالكم بالرياء الخ (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار) كأصحاب قلب بدر (فلن يضر الله لهم) فإما من مات وهو مؤمن مع كثرة ذنوبه فبسيء الله أن يضره (فلا تهنوا) فلا تضعفوا (وتدعوا إلى السلم) ولا تدعوا إلى الصلح خوفا وتذلا (وأتمم الأعلان) القائلون لهم ، والعالون عليهم (والله معكم) ناصركم (ولن يترك أعمالكم) ولن ينقص أجر أعمالكم ، قال ورث الرجل إذا قتلت قريبا له ، أو جريا مثلا فأفردته عنه (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو) لا ثبات لها (وان تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم) ثواب إيمانكم وتقواكم (ولا يسألكم أموالكم) جميع أموالكم بل يقتصر على جزء يسير كربع العشر ، أو الفشر ، أو شاة من الأربعين إلى آخر ما في الزكاة (إن يسألكمها فيصمكم) فيجهدكم بطلب الكل والالحاح كالحلف البالغة وبلوغ الغاية (تبخاوا) فلا تظنوا (ويخرج أضعافكم) ويضخكم على رسول الله ﷺ (هاتم هؤلاء) ها للتبني ، وأولاء اسم موصول بمعنى الذين صلتهم (تدعون لتستقروا في سبيل الله) كالغزو والزكاة (فمنكم من يبخل) أي منكم قوم يبخلون (ومن يبخل) بالصدقة وأداء الفريضة (فإنما يبخل عن نفسه) أي يبخل عليها كأن الله يقول : لو أنكم ستلتم إعطاء أموالكم كلها لبختم بها ، ولكنهم التفتوا ، والدليل على ذلك أنكم أنتم الذين تدعون للتفقة في سبيل الله وهي المنافع العاتية ومع ذلك يمنع بعضكم ، فلذا كانت هذه حالكم والمطلوب منكم العشر ، أو ربع العشر ، أو شاة من الأربعين ، أو شاة من كل مائة شاة ، فما بالك لو كنتم مطايين بالمال كله ، ومع ذلك فمن يبخل فأنما تقيجة البخل عاتية عليه (والله القوي) وأتم الفتراء) وإنما هو الذي نظم ملكه فيجعل قوما للمنافع العاتية ، هكذا قضى نظامه أن لا يبيع الأرض وعباده فيها بدون مرشد من قائمين بالأمر يبذلون مالهم وجاههم وأضهم ، فلذا كنا أرسلنا محمدا ﷺ إليكم لتكونوا للناس هداة ، وظهر منكم أنكم غير قائمين بالأمر لتقص في استعدادكم ، ولسبق علمنا القديم قلنا هذا الدين إلى أم أخرى يقومون به ويسودون عليكم لأنهم أصلح له منكم ، وهذا قوله (وان تتولوا يستبدل قوما غيركم) أي يتم مقمكم قوما آخرين (ثم لا يكونوا أمثالكم) في التولي والزهدي في الإيمان وهذا راجع لقوله تعالى : «فهل عسيبتم ان توليتم ان تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم» فهنا أوضح المقام «وان تتولوا يستبدل قوما» خيرا منكم في القيام بهذا الأمر ، وهذه من معجزات القرآن ، ألا ترى أن أمة العرب الذين خوطبوا بهذا القول هم هم الذين اقتتلوا على الخلافة ، فأولا هو أمية فانالوا آل البيت وشردوهم ، ثم جاء العباسيون والفرس معهم فقتلوا أبناء عمهم فأهلكوا بني أمية وشردوهم كل مشرد ، ولما تولى بنو العباس أخذوا يقتلون أبناء الحسن والحسين رضي الله عنهما ، وهذا هو بعينه تطهير الأرحام ، فلما استنصل النظم وأغشوا في تطهير الأرحام سلبهم الله الملك وقته إلى الفرس تارة والترك أخرى ، وذلك أيام ملك بنو العباس ، فكان بنو العباس ملوكا لفظا ، والفرس ، أو الترك ملوكا معنى ، حتى قال الشاعر في أحد خلفائهم في القرون الأولى :

خليفة في قفس * بين وصيف وبنا

يقول ما لا له * كما تقول ايضا

فكان لهذا الخليفة ملكان : أحدهما اسمه « وديف » ، والثاني اسمه « بنا » وهو تحت أمرهما وكانوا يتناولون الخليفة ، ويعملون آخر مكاتبة ، وثلاثة يسألون معنى الخليفة وهكذا ، ولما ضعف أمر الفرس والترك الأولين سلب الله التتار فبهطوا على الدول الإسلامية فأفنىوها ، وخربوا البسار ، وأزالوا ملك الباسيين والفرس ، وملكوا هم بلاد الإسلام ، ثم أسلموا هم أنفسهم وتولوا أمر الإسلام . وقد تقدم مطلقا قريبا ولقد كان الترك قاطنين بأمر الإسلام ثم تغيرت الحال وحكومتهم الآن مسلمة قوية ولكن تزعم أنها لا دين لها ، وهكذا ترى الفرس والأفغان كل هذه حكومات قائمة الآن إسلامية ، أمالمة العرب قاتها في مصر وفي الشام وفي العراق ، وفي بلاد الغرب طرابلس وتونس والجزائر ومراكش ليس بينهم جامعة ، أما الترك فهم اليوم يبحثون عن جامعة جنسية لغوية ، فأما أبناء العرب ونحن أهل مصر منهم ظلمت بينهم جامعة لأنهم لم يتعلموا تعليما صحيحا يؤهلهم للاجتماع ، ولذلك ترى الله استبدل بنا نحن أبناء العرب قوما غيرنا ، وليسوا مثلنا ، بل هم أرقى مدنية وسياسة ، حافظوا على أوطانهم ودياناتهم ، ولذلك نجد الترجمة في بلادنا جاتين ، وعلى دورنا حارسين ، وفي رغد عيشنا متمتعين ، وستبدل الحال ويرجع الأمر إلى أصله ويرقى أبناء العرب وقيا لانظير له في قديم الزمان . هذا المخلص معنى قوله « يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » .

هذا هو الأصل في الاستبدال ، فلذا سمعت قول السكبي هم كئدة والنسج من حرب الجين ، أو سمعت قول الحسن انهم الجهم ، أو سمعت قول عكرمة انهم فارس والروم ، وإذا سمعت أن النبي صلى الله عليه وسلم ضرب على منكب سلمان الفارسي ثم قال هذا وأصحابه ، وإذا سمعت ملرودي عنه عليه السلام إذ قال : « لو كان الإيمان منوطا بالتراب لتناولوه رجال من فارس »

إذا سمعت هذا كله فاعلم أنه قد تم ، وقد تم ما هو أكثر منه ، فقد قام الترك بدورهم ، وأما الروم فلم يقوموا بدورهم في الإسلام إلى الآن ، وقد عرفت سر ذلك الاستبدال ، فلذا علم الله أن المسلمين لا يصلحون لاقامة العدل في الأرض ، ولا هم صالحون لنظام المدن ، ولا هم قائلون بإدارة حوكمة العالم الانساني ، ولا هم آباء لعباده يعلمونهم ويكونون خلفاء الله عليهم أذلهم وأباهم ، وسلط عليهم أمما أخرى تقاثلهم ، وقد تصدق الإسلام كما جرى أيام جنكيزخان الذي زحف على بلاد الإسلام في أواخر القرن السادس الهجري ، والسبب هو للذكور في (سورة الكهف) إذ قتل المسلمون التجار الواردين من بلاده ، وكان معهم مال عظيم ، وذلك بإشارة التجار المسلمين الذين حقدوا على أولئك التجار الأغنياء ، فصام جنكيزخان ثلاثة أيام لم يذق فيها طعاما ، وتضرع إلى ربه ، وهو من عباد النار ، أي يتقرب لله بالنار ، وقال : يا الله أردت عمارة بلادك فتأومني المسلمون ، وقتلوا رجالى . واستعان بالله تعالى ، وقام لحرب المسلمين ، فنصره الله عليهم ، وسلط الله التتر على أمة الإسلام ، وذهبت دولة الأمة العربية إلى الآن ، وكان الملك إذ ذاك قلب أرسلان ، وبعد نحو قرنين أسس التتر ، وقاموا بأمر الإسلام في جهات كثيرة من الأرض ، ولا يدري إلا الله من ذا من الأمم سيقوم بهذا الدين بعد هذا الزمان ، فآية الاستبدال قرأ ولا تأسخ لها ، والله هو المتزل وهو المغير اه

لطائف عامة للسورة كلها

وهي سبع لطائف

- (١) الطيفة الأولى في قوله تعالى : الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم . إلى قوله : كذلك يضرب الله للناس أمثالهم .
- (٢) في قوله تعالى : « حتى تضع الحرب أوزارها .

(٣) في قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . إلى قوله تعالى : فأجبت أعمالهم .

(٤) في قوله تعالى : « أظم يسبوا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » إلى قوله : « والكافرين أمثالها » .

(٥) في قوله تعالى : « فمهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم »

(٦) في قوله تعالى : فاعلم انه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم

(٧) في قوله تعالى : « فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم » .

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أصل أعمالهم

إلى قوله : كذلك يضرب الله للناس أمثالهم

مقتضى هذه الآية أن الذين كفروا فضل أعمالهم ، والمؤمنون تصلح حالهم ، وهل لنا مصداق لهذه الآية أكبر مما شهد به العلامة (لوثر وباستودارد) العالم الاجتهادي الأمريكي في كتابه «حاضر العالم الاسلامي» الجزء الثاني إذ يقول تحت عنوان : « سيطرة الغرب على الشرق » ماملخصه : « إن العالم للاسلامي أخذ في التحق السريع الآن » وضرب أمثالا لذلك لا محل - لذكرها هنا ، وسند ذكر ذلك كله مطولا إن شاء الله في «سورة الحجرات» عند الكلام على قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنتى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » . وهناك سيكون الكلام في أربع مقالات : للمقالة الأولى في قوله تعالى : « وان طاقتان من المؤمنين اقتتلا الخ » فنذكر هناك كيف تناكر المسلمون بعد عصر الصحابة واقتتل الأمويون والعباسيون وغيرهم ، ونذكر هناك أن أفعالهم تخالف هذه الآية على خط مستقيم ، وكل ذلك إنما جاء من الاستبداد وترك الشورى ، والشورى لا يراعى فيها للخلافة إلا الأصلح ، والمقالة الثانية في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم » إلى قوله : « توب رحيم » وفي هذا كلام في تفصيل الأخلاق الشخصية ، المقالة الثالثة في قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنتى الخ » وفيها الكلام على معاملة أوروبا لأهل الشرق الآن . المقالة الرابعة في الكلام على هذه الآية أيضا ورأى النبي نشرته في الشرق والغرب في السلام العالم .

للطيفة الثانية في قوله تعالى : حتى تضع الحرب أوزارها

لقد تقدم تفسير هذه الآيات ، وأن الحرب تنقطع إذا لم يبق في الأرض إلا مسلم أو مسلم ، وأذا نزل عيسى ابن مريم ، واعلم أن هذا الزمان هو زمان الانقلاب ، فترى الأمم تلهج دائما بالسلام العام ، ونزع السلاح ، وقامت البلشفية ، وأزالت أكثر الملكية ، وجعلت الأمة كأسرة واحدة ، ولكن أعمالها مجهولة لدينا ، فاعلم أن هذه الحركات البلشفية وغيرها لن تقف اليوم ولا بد من بقاء هذه الآراء وتحقورها وتبدلها حتى يأتي يوم ترتقي فيه أمة الاسلام ، وتلقى دلوها في الهلاك وتقول : يا عجبا ! إن أوروبا تقول : السلام السلام « ليس بشك فادري » يا أوروبا أنا قائمة مقام نبي آخر الزمان الذي قال الله فيه : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، ولقد رحم الله العالم به أليم طفولته ، فوج العالم الانساني رجة أطارت نومه ، وتقلبت الدول والممالك ، وما هوذا الزمان قد دار دورته ، وتحولت حاله وصار العصر عصر العلم ، والعلم هو مقتضى ديننا فلنقم بالأمم ، ولنسكن أرقى الأمم علما وصناعة وجيوشا ، ولنقم أمة العرب بنصيحها من العلم والمدنية ، ولترتق ،

وتنشد شعوبها من طنجة إلى العراق ، وتضم أطرافها إلى مملكة واحدة كما تقدم شرحه مطولا في (سورة آل عمران) عند قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله » فارجع إليه إن شئت تجد طريق اتحاد العرب أولا مع بعضهم ، ثم اتحادهم مع الترك الذين سبقوهم في هذه المزية وكذا غيرهم ، ثم يقوم المسلمون بعد ذلك بدورهم المهم ويقولون فلنكن رحمة للعالمين ، وليكن السلام في العالم ، فلنمهد طرقه حتى تستعد الأمم لاشراق الروح العيسوية ، فيصير العالم اخوانا ، واذن لا يكون حرب ولا ضرب ، ولا جزية ، بل يكون العالم الانساني كأسرة واحدة ، كل يقوم بما يخصه من الأعمال الانسانية وهو خادم للمجموع .

بهذا وحده نستحق أن يقال فينا : « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » وتكون نسبتنا إلى الأمم كنسبة نبينا ﷺ إلينا ، فكأننا مبعوثون للأمم ، والمبعوث يكون كريما وحكما وعلميا وشجاعا ومقداما ، وبهذا أيضا يظهر قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » فأما نحن الآن فلانستحق وصفا من هذه الأوصاف ، بل نحن عالة على الأمم ، فإذا قام المسلمون الحاضرون بمبادئ هذا العلم فيها ونعمت والا فإن الله يقول : « وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » فأرى أنه لا بد أن تقوم أمة بهذا العمل لانعرفها الآن اذا نكص المسلمون الحاضرون على أعقابهم ، وبقوا في الجهالة يتسكعون ، وفي جهنم الذل والاستعباد يسجرون . هذا وقد تكلمت في هذا الموضوع في سور كثيرة ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم »

وأعظم ما نستشهد به على معنى هذه الآية في زماننا ما جاء في كتاب المؤلف المذكور لكتابه حاضر العالم الاسلامي إذ قال في صفحة ٧١ وما بعدها في الجزء الثاني ماملخصه (وسياتي في سورة الحجرات) « إن العرب في بلادهم ، والترك في الأناضول ، والفرس في بلادهم ، وأهل الهند ، كل هؤلاء مجتهدون للرق ، وأوروبا راحة عنهم سريرا لا محالة » .

اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى : « أفلم يسبروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » الخ مقتضى هذه الآية أن معرفة أحوال الأمم قديما وحديثا من أهم ما نصي به الأمم الاسلامية ، ولقد كان من صنع الاوروبيين في بلادنا انهم يمنعون الحقائق العلمية الواضحة ، ويصلون الناس قشورها لئلا يعرفوا الحقائق ولكن الله غالب على أمره ، ولالطيل في هذا المقام ، فهذا التفسير جله لا يصح هذه الحقيقة .

اللطيفة الخامسة

في قوله تعالى : « فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فتجاء أشراتها الخ جاء في الحديث من رواية البخاري : « اذا ضيعت الأمانة ، فانتظر الساعة » قال : وكيف إضاعتها ؟ قال اذا وسد الأمر إلى غير أهله » . وفي رواية أخرى في البخاري ومسلم : « إن من أشرط الساعة أن يتقارب الزمان ، وينقص العلم ، ويثبت الجهل » . وفي روايات أخرى : « ويشرب الخمر ، ويفش الزنا ، وبه هب الرجال ، ويبقى النساء » . وجاء أن من أشرطها انشقاق القمر ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأنت إذا نظرت في هذه كلها علمت أنها هي الأسباب في خراب الأمم ، فإن الأمر إذا وسد لتيراهاه بأن أسند إلى من لا يصلح له كما اتفق لملوك الترك إذ جعلوا خلفاء الاسلام من أسرة مخصوصة ، فكان ذلك سببا في ضعف الدولة ، فذلك أخذها الفرجية ، فلما تولى الشعب الحكم بنفسه طردوا الفرجية ، فالتصحيح لهذه الأحاديث التي هي من علامات الساعة الكبرى يجدها من حيث علم الاجتماع دلائل على قيام الساعة الصغرى وهي خراب الدول ، فحتى رأيت أمة من الأمم الاسلامية أقامت عليها رئيسا جاهلا يتولى أمرهم ، وتركوا له التفكير أوفشا بينهم ما يضر بنظام الدولة من ظهور الفتن ، وقص العلم ، وظهور الشح ، والقتل ، ورفع العلم ، وظهور الجهل إلى آخر ما في الأحاديث فإن ذلك كله مؤذن بخرابهم ، وضياح دولهم ، ولما فشا ذلك في أمتنا المصرية دخل الانجليز بلادنا وهكذا بلاد أخرى ، فكل علامات الساعة المذكورة تكون منذرات بهلاك الدولة التي تقع فيها ، وهذه المنذرات في الأمم تتلاحق آلافا وآلافا من السنين ، والأمم تموت دولة بعد دولة حتى إذا انتظمت سلسلة الأمم ، ووقعت الواقعة ، هنالك تقوم القيامة ، ويكون العرض العام الأخرى بعد انتهاء أعمار الأمم .

وقوله تعالى : « واستغفر لذنوبك الخ » جاء في حديث البخارى عن أنى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنى لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة » . وفي رواية : « أكثر من سبعين مرة » . وفي حديث مسلم : « إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر في اليوم مائة مرة » . وفي رواية أيضا : « توبوا إلى ربكم فواقه إنى لأتوب إلى ربى عز وجل مائة مرة في اليوم » اهـ

ذكر بعض سر هذه الأحاديث

اعلم أن الذين اصطفاهم الله من الناس لهداية الخلق لا يقبل الناس على أقوالهم إلا لما فيها من التور الإلهي والاشراق القلبي ، فهؤلاء في أول أمرهم يكونون عاكفين على العبادة والتأمل والتخلوة ، فإذا كملت نفوسهم وقاموا بالدعوة والارشاد فإن لم يدم الامداد لهم من الله وقفت دعوتهم ولم تتم ، فلاحكيم مرشد ، ولا علم له قبول ، ولا دوى إلا وهم متجربون إلى وجهة الحق أثناء الدعوة ، فلأنهم غفلوا عن الوجهة الاطية إبان الدعوة طجرهم الناس ، لموت وجدانهم ، وضعف نفوسهم ، مع أنهم فصحاء ، بلفاء حكام ، أما الأنياب فأمرهم فوق هؤلاء ، ومع ذلك هم ملازمون بالتوجه إلى الله دائما ليدوم الامداد السرى ، فإياك أن تظن أنك وأنت تعلم الناس وترشدهم تنال من نفوسهم مطلبك إلا إذا كانت نفسك متجهة لله في أكثر الأوقات وإذا كان الله تعالى يقول لرسوله ﷺ « فاسجد واقترب » ويقول « فإذا فرغت أى من عملك فانصب » أى في العبادة « وإلى ربك فارغب » فما بالك وأنت لست بفتي . إذا فهمت هذا فهمت قوله صلى الله عليه وسلم : « إنه ليغان على قلبي » أى يغطى عليه ، وذلك أنه وهو في الفزوات وفي حل مشكلات القضايا ، والفصل بين الناس ، وتعليم الأمة ، لا يجد مقصدا فيه يذكر الله تعالى ، وقد علمت أنه لا بد له من الاستمداد ، ولا امداد إلا بصلة ، والبصلة بين العبد والرب الذكر والاستغفار ، فحتى ذكر الله العبد حصلت البصلة بينهما ، فيكون الامداد ، وبه ينجح الارشاد ، ويقع المرشد سامعوه ، فإذا استغفر الله في اليوم مائة مرة ، أو سبعين مرة ، أو أكثر أو أقل ، فأعما ذلك لربط البصلة حتى يستمر الامداد ، فإذا سمع المسلم قوله صلى الله عليه وسلم : « توبوا إلى ربكم فواقه إنى لأتوب إليه الخ » فإراد منه هذا المعنى أى انه يجب بقاء البصلة بين العبد والرب بالاستغفار أو الذكر ، أو التفكير في جهاله وصنعتة أو نحو ذلك حتى يدوم الامداد ، فإن الانسان مادام يزول الأعمال سواء أكانت دينية أم دنيوية فإن ذكر الله أكبر ، فليفرغ إليه في أوقات الصلوات الخمس وغيرها ليدوم الامداد والقبول . وبهذا تم الكلام على اللطيفة الخامسة في قوله تعالى : فهل ينظرون إلا الساعة ، إلى قوله : متقلبكم ومثواكم والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة السادسة

في قوله تعالى : فاعلم أنه لا إله إلا الله الخ

اعلم أن هذه الآية عليها ألفت كتب الحكمة بحذفها من أقدم التاريخ إلى الآن ، وقد رأيت أن أقدم اليك أيها الذكي في هذا المقام عنوان فلسفة الأمم اجالا وهي رسالتنا المسماة « مرآة الفلسفة » وهي التي أشرنا إليها غير مرة فيما تقدم من التفسير . وهذا نصها :

رسالة مرآة الفلسفة

بسم الله الرحمن الرحيم

في يوم من أيام شهر رمضان المعظم سنة ١٣٤٧ هـ قابلني طائفة من طلبة مدرسة « دارالعلوم » بالمنزل وأخذوا يلقون عليّ أسئلة في الفلسفة . وما قاله أوسطهم لي : إن في الشرح اليوم حركة علمية ، وهاهوذا ناهض بدرس العلوم على اختلاف أنواعها ، والفنون على تنوع أصنافها ، والعقول استيقظت من سباتها ، وقامت من رقدتها ، وأخذت تبحث في الآراء والديانات القديمة والحديثة :

وكل يدهي وصلا ليلى * وليلى لا تقرّ لهم بهذا كما

فها نحن أولاء جئنا إليك قاصدين أن تبين لنا على وجه الاختصار مقاصد الفلاسفة العامة بحيث يكون ذلك المختصر جامعا لمجمل ما عنوه ، وأهمّ ما رآه ، ليكون نموذجا لدراستها في مظانها ، ولتطمئن النفوس إلى الحقائق ، لأن العقول في الشرق الناهض الآن تفرقت وجهتها ، واختلفت آراؤها ، في أصل العالم ، وفي أمر الروح والمادة والعقل ، وماذا قال الأولون في هذا ؟ ولا بد من الإلمام بهذه الأصول التي هي أسس العلوم كلها لأن العلوم الجزئية من النبات والحيوان ، وتشريح الانسان ، والطب ، والفلك ، ونحوها من سائر العلوم الطبيعية والرياضية كلها تحتاج إلى علم يكون لها بمثابة الرأس من الجسد . فقلت : هذه مباحث العالم أجمع وكيف أجمع علوم الأمم كلها . ذلك يعوزه مكاتب الأمم كلها شرقا وغربا ، ولا طاقة لأمة فضلا عن فرد واحد بجمع العلوم كلها وتلخيصها ! فقال : أنا ما طلبت إلا إجمال ما اطلعتم أتم عليه ، لا كل علوم الأمم ، وزيد فوق ذلك أن يتجلى لنا رأيك في الوجود ، ونجار بك الخاصة ، وما هو أقرب إلى الحق من المذاهب . فقال آخر

ومرآة المنجم وهي صغرى * تزيه كل عامرة وفقر

فقال آخر : إن الوجه من الجسم يدل على ما فيه من قوة وضعف ، وجمال وقبح ، وصحة ومرض . فقلت : سأجيئك بعد ثلاثة أيام إن شاء الله تعالى . ولما مضت المدة حضروا وطالبوني بانجاز ما وعدت . فقلت : إن هذا الموضوع فكرت فيه فرأيت أنه يشتمل على ﴿ مقدمة وباين : الباب الأول ﴾ في ذكر مذاهب الطبيعيين والذهريين من اليونان والسوفسطائية ومنهم العنيدية والعنادية واللاأدرية ، ثم ألقى على آثارهم بذكر مذهب (انكساغورس) الذي ارتقى عن أهل السفسطة بإثبات صانع للعالم ولكن لا عمل له ، ثم أذكر مذهب (سقراط) الذي أثبت صانعا للعالم يحيط به علما ، ثم مذهب أفلاطون الذي قال بذلك وبالمثل الأفلاطونية ثم ألقى بمذهب (أرسطاطاليس) الذي لا يعتبر المثل الأفلاطونية موجودة ، وإنما يعول على المادة وصورتها والعقول عليه عنده هي الصورة الخ كما استراه إن شاء الله تعالى وهكذا مذاهب الاسكندرانيين وعلماء الانجليز والألمان وغيرهم ان شاء الله تعالى ﴿ الباب الثاني ﴾ في تقسيم العلوم جميعها بحيث يمكن حصرها أصولا وفروعاً فيخرج القرى من هذين الموضوعين واقفا على صفحة من تاريخ العقول البشرية في الفلسفة ، وعلى

صفحة من نفس الوجود المقسم إلى علوم ، إذ لكل حصة من العالم قسطها من العلوم ، كالنبات والحيوان والفلك الخ . فقال أوسطهم : فلتعلم علينا المقدمة الآن ثم الباقين ، وأقترح أن تسمى الرسالة «مرآة الفلسفة» فأقره الجمع ، وهناك شرعت ألقى عليهم هذه الرسالة مبتدئا بالمقدمة : (١)

مقدمة رسالة مرآة الفلسفة

هنا أربع قواعد :

- (١) إن جسم الانسان من العوالم الأرضية .
 - (٢) وأن الضوء الذي يشرق عليه وعلى كل حيوان ونبات لنموه أت من الكواكب العلوية كالشمس
 - (٣) والضوء الواصل لكل حي هو ما يطبقه ويناسبه .
 - (٤) وأيضا هو نافع له .
- فهذه القواعد الأربع ظاهرة في كل مخلوق ، فكل مخلوق على الأرض إنما هو جسم اشتق من جسم أكبر منه ، وضوؤه سهاوي ، أت من ضوء علم ، وهذا الضوء على مقداره ، وهو نافع له ، وعلى مقتضى هذه القواعد الأربع تنظر في قوة الناطقة وتقول : لسلك امرئ نفس ناطقة :
- (٥) هي من عالم عقلي أكبر منها كما كانت أجسامنا من عالم أرضي أكبر منها ، وكما اشتقت أرضنا من عالم أكبر منها .

- (٦) وهذا العالم العقلي سهاوي لا أرضي ، بدليل أن الضوء في القاعدة الثانية من اسماء ، فإذا كانت الأرض قد احتاجت إلى عوالم السماء في أحسن الضوءين وهو الحسي وهو النور ولم تقدر على الاتيان به من نفسها فهي عن الضوء للمعنوي وهي النفس الناطقة أعجز ، إذن النفس الناطقة ذات الآثار الباهرة آتية من عوالم أرقى وألطف من عوالم الأرض ، إذن في الوجود عقل عام يستمد منه كل موجود ما يناسبه من الإدراك ، فأحاسيس النبات ، وغرائز الحيوان ، وعقل الانسان كلها منه ، وكما انها جميعها تستضيء بالشمس ، هكذا يستضيء باطنها بالعقل العام الذي يدرك بالبصائر لا بالابصار
- (٧) وهذه النفس الناطقة هي المناسبة لهذا الجسم لا يطبق أعظم منها .

- (٨) وغرائز هذه الروح مقدره بمقدار منافع الجسم وحاجته .
- فهذه أربع قواعد في مقابلة الأربعة الأولى بالقياس عليها . فقال قائل منهم : إذن هذا برهان تمثيلي . فقلت نعم ، ولست ونحن في هدفه الأرض بقادرين على برهان عقلي أرق منه . فقال : ماذا بعد ذلك ؟ فقلت :

- (٩) هذه القوة الناطقة لا قوة لها على أن تدرك ما فوق طاقتها وهو كل معقول ومعلوم . فقال : ما الدليل على ذلك ؟ فقلت : لأنها محصورة في مقدار صغير من المواد الأرضية ، وأن الأرض صغيرة بالنسبة للشمس ، والشمس ومجموعتها تقطع من بحر من بحار الجمره ، والجمرة لا قدر لها بالنسبة للأجرام الأخرى ، ومانسبة أرضنا اذا صغرت بحيث تكون جوهر فردا إلى العالم المقتر وجوده إلا كنسبة الجوهر الفرد إلى ألف مليون أرض ، إذن كيف تدرك القوة الناطقة المحصورة في جزء صغير من الأرض مالا حد له من الوجود .

- (١٠) فقال لي : أيهما أصل في الوجود ؟ القوة الناطقة أم المادة ؟ فقلت : إن العاتمة وصغار العلماء يظنون أن المادة هي الأصل ، ولكن البرهان يثبت أن القوة الناطقة هي أصل الوجود . ذلك أننا نرى هذه المادة لما بحثها للتسمه قالوا انهم لم يعرفوا إلا صفاتها وهي ست وثلاثون صفة تعرف في فن

(١) تذكرة : لقد ذكرت الباب الثاني في سورة لقمان فلا يفيد هذا فيها سيأتي

القوليات وهي عشرة موثقة في كتابي « بهجة العلوم » في الفلسفة العربية ، وموازتها بالعلوم الحديثة (تحت الطبع الآن) . فالثقل والخفة ، والحرارة والبرودة ، والحلاوة والمذوبة ، واللوعة والمرارة ، وخبث الرائحة وطيبها ، وأصوات الحيوان والانسان ، وكلامه وموسيقاه وصور الأشياء وألوانها وأصباحها ، وقربها وبعدها .

هذه عشرون صفة من ست وثلاثين للمادة اكتفينا بها من باقيةا ، لم يعرف الناس من المادة إلا أمثال هذه وهي لم تخرج عن كونها أعراضا ، فإذا اعتبرنا الثقل في قطعة من الحديد وقلنا هذا دليل على وجود المادة ، فهذا الثقل يزول إذا جيناه فسال ، ثم أجيناه فصار بخارا ، فأين الثقل إذن ؟ وهكذا بقية الصفات ، هذا بحث المتقدمين ، فهم قالوا أنها لا وجود لها ، أو وجودها ضيف كإسباني إيضاحه في الكلام على أرسطو ، ولما بحثها المتأخرون سلروا على نهج غير ذلك النهج ووصلوا إلى نفس النتيجة ، ذلك أنهم قالوا : إن هذه المادة ترجع إلى العناصر التي تبلغ نحو ٨١ والعناصر ترجع إلى جواهر فردة ، والجواهر الفرد راجع إلى قطب ضوئية ، والنقط الضوئية تدور سالتها حول موجبتها ستة آلاف مليون مليون مرة في الثانية مثلا وباختلاف أعداد تلك النقط الضوئية واختلاف حركاتها مختلف العناصر ، ومن العناصر ركب هذا الوجود كله من صدوفت وأرضين . إذن كل ما نراه إن هو إلا ضوء كهربائية تدخلت أمام حواسنا فصارت على هذا النمط الذي ألقناه إذن لامادة عند القدماء : ولامادة عند المحدثين ، وإنما هي أمر خيالي راجع إلى عوض هو ضوء ، والضوء حركة ، والحركة قوة ، إذن هذا العالم قوة عظيمة لا غير ، هذا ما يراه الحكماء قديما وحديثا في عالم المادة ، فلننظر إذن في القوة الناطقة « أولا » أننا نرى أننا إذا رأينا صورة ما في وقت ما ، وكانت هيئة جميلة ، ثم مررت عشرات السنين ، فأتنا نرى تلك الصورة الشابة قد صارت شيخوخة محمودة الظهر ، فإذا رجعنا إلى نفوسنا وجدنا من الصورة الأولى لاتزال في ألواح نفوسنا ، وهي باقية لم تتغير ، ولم تسط عليها عاديات الدهور : فهي ثابتة نبات رضوى والاهرام بالجيزة ، إذن الصور تثبت في القوة الناطقة ، ولاتثبت في المادة ، وهذا يؤيد ما قلنا : « ان المادة عرض كثير التغير » — « ثانيا » ان الصور التي ترسم على اللوحات في عالمنا الأرضي أشبه بالصور المرسومة في خيالنا ، لأنها صور رسمت في المادة الأثرية التي هي أثبت من عالم المادة والمادة الأثرية أقرب إلى النفس الناطقة ، لذلك تقدم هذه الصورة الشمسية في لوحات التصوير مع سرعة تغير الصورة المرسومة في المادة ، إذن عالم الأثير ، وعالم النفوس الناطقة أصل في الوجود ، فأما المادة فليست أصلا فيه ، بل هي فرع ، فهي قوة ، أو هي عرض ، فأما النفس الناطقة فهي أصل ، وهي جوهر . وعليه يكون الناس مخطئين في مشاهداتهم ، فهم كما ظنوا الأرض ساكنة ، والشمس دائرة ، وجاء العلم فكس الأمر عليهم ، هكذا هم أخطئوا في ظنهم أن الموجود هي الأجسام ، فأما الأرواح والنفوس فهي أعراض زائلة ، إذن العلم في واد ، والجهدال في واد .

(١١) : معرفة العقل العام بواسطة معرفة النفس

ان الناس عرفوا عوالم السماء والكواكب بواسطة معرفة العناصر الأرضية ، هكذا فليعرف العقل العام في الوجود بمعرفة النفوس الناطقة ، ويانه أن هذه الأجسام البسيطة الأرضية كل جسم منها له ضوء مخصوص وكل ضوء منها له خواص تخصه . وذلك بخطوط سود تتخلل ذلك الضوء ، وباختلاف تلك الخطوط السود المتخللة ذلك الضوء تختلف العناصر ، بهذا علم الناس اليوم ماذا في الشمس والكواكب والسيارات من العناصر عند ما عرفوا اختلاف الألوان الواردة من تلك الكواكب ورأوا العناصر فيها عنصرا عنصرا فوجدوها هي العناصر الأرضية كالحديد والنحاس والاركيبيجين وغيرها ، هكذا بالقياس عليه فصرف العقل العام بمعرفة نفوسنا .

نحن حكمنا الآن بوجود نفوسنا ، وأنها أحقّ بالوجود ، وأنها جوهر ، وأنها أصل والمادة فرع لثبات الأولى وعدم ثبات الثانية ، فهنا قول إن هذه النفس الناطقة كما قلنا في القاعدة الخامسة مستمدة من نفس أكبر منها ، والتي هي أكبر منها مشتقة مما فوقها ، وهكذا نشاهد أجسامنا المشتقات من أرضنا المشتقة من شمسنا الخ وهذا العالم العقلي عالم عام أهمّ من عالم الأجسام ، وإذا كنا نرى عالم الأجسام لا يكاد العقل يتصور له نهاية ، فأولى بهذا التعميم أصل الوجود وهو العقل العام ، إذن تقطع بأنه عظيم المقدر وهو عام العلم إلى الملاحظ له ، ثم إن أنفسنا مستمدة منه استمداد انفس من الهواء ، واستمداد أجسامنا من الأرض ، وشربة الماء من الماء المحيط بالكرة الأرضية ، المتطاير بخاره في الجو ، النازل في الأنهار ، المأخوذة منها تلك الشربة ، فنفسنا الناطقة أشبه بشربة الماء المأخوذة من مخزن الماء العظيم ، وأشبه بالنفس (بالفتح) المأخوذة من مخزن عظيم وهو الهواء ، وأشبه بأجسامنا المشتقة من مخزن الأجسام وهي الأرض ، ثم إن هذا العقل السكلي الذي خالطه نفوسنا وهي فرع منه كما أن الماء الذي نشربه فرع من الماء العام يدلنا على موجود لاحق له هو أصل وجوده ، وإنما كان دليلا عليه لأنه ليس من المقول أن يكون أصل هذا العالم للتغير ملبسا للتغير مثله ، فهذا العقل العام الذي لاحق له تفرقت منه جسد اول ، فهو أشبه ببخارنا وهوائنا ، إذن فليكن هذا العقل العام الذي هو أحقّ بالوجود مستمداً من موجود هو أصل وجوده قياسا على أن ضوء الشمس منبعث من الشمس ، ضوء الشمس كما قلنا عليه معرفة العقل العام نستفيد منه فائدة أعظم ، وهي كما أن هذا الضوء وجوده مستمد من غيره ، هكذا وجود العقل العام مستمد من غيره ، وكما أن ضوء الشمس مستمد من الشمس فكذا العقل العام مستمد من أصل الوجود وهوائه . وحيث ننظر هل هذا الذي سميناه أصل الوجود (وأنه هو الموجود الحقيقي الذي منه كان العقل الأول العام الذي اشتقت منه كل العقول والادراكات) قد وجد بعد العلم ، أو سيكون مضموما بعد الوجود ، وهل علمه عام الى ما لا يقناهي ، فالجواب على هذا واضح وهو أنه إذا أثبتنا وعلمنا أن نفوسنا هي أصل في الوجود ، وهي جوهر ، وأن العقل العام المتصلة هي به أحقّ باسم الجوهر وباسم الوجود من المادة التي لم تخل من كونها عرضا أوقوة ، فالذي هو مصدر هذا الوجود هو الموجود الحقيقي ، فالوجود أصل والعدم لا يعرفه .

نحن لا نعرف إلا الوجود ، فالوجود هو الأصل ، والعدم هو الذي يحتاج إلى دليل ، فإذا قيل لنا كيف وجد الله ؟ قول يجب أن نمكس السؤال ، لأن هذا السؤال إنما يرد إذا كان العدم أصلا ، لكننا نعلم أن الوجود أصل ، لأننا لا نكسر وجود نفوسنا المتصلة بعقل عام موجود مستمد وجوده من أصله وهو الله ، فالوجود أصل ، والعدم يحتاج إلى دليل ، فالعدم كلمة لا أصل لها ، وإنما هذا الانسان ظن أن تغير الأجسام وتفرقتا عدم ، فيرى أجسام النبات والانسان والحيوان تفرقت بعد الاجتماع فيقول قد أعدمت وبراها اجتمعت بعد الافتراق فيقول هاهي ذه موجودة ، وهذا خطأ ، بل هو اجتماع وافتراق لا غير ، والوجود مصاحب لها ، فالعدم كلمة وهمية لاحظها الانسان في العالم أمامه من صفات له لا من وجود وعدم ، حتى ان العلماء اليوم وقد قالوا ان المادة تنعدم كأمثال (جوستاف ليون) قالوا ان انعدامها ماهو إلا رجوعها الى عالم الأثير ، أو رجوعها للقوة ، والأثير موجود ، والقوة موجودة ، إذن أين العدم ؟ فإذا كان هذا حاصل في العالم الذي نشاعده وهو فرع فبالأولى يكون ذلك الحكم في أصل الوجود ، فهو لا عدم يسبقه ولا عدم يلحقه ، وكما أن الفكر الانساني قد أخطأ في ظنه أن الأرض ثابتة والشمس متحركة حولها ، وأخطأ في قوله : ان النفس الناطقة فرع عن وجود المادة ، هكذا هنا أخطأ في ظنه أن العلم هو الأصل والوجود طارئ فاحتاج الى دليل على عدم العلم ، وهل تحتاج الاصول التوالت الى دليل ؟

(١٢) كيف كان خلق هذا العقل العام

فقال أحدهم : كيف كان خلق هذا العقل العام ؟ وكيف كان خلق هذا العالم ؟ قلت له : قمت لك في المسألة التاسعة أن هذه القوة الناطقة جاءت لترية هذا الجسم فكيف تعدو طورها ؟ فقال : ولكن عقولنا لا تقنا نسأل ، والأنبيا والحكام كلهم أثبتوا تعالجهم في ذلك . قلت له : ليس عندنا إلا نموذج نفوسنا ، فإذا فكرنا فيها عرفنا بقدر طاقتنا « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » . قال : هذا حق . قلت له : تنظر إلى نفوسنا ، أليست تخيل صوراً وأشكالاً ؟ قال بلى ، هي دائماً التخيل . قلت : أهمومة هذه الصور أم هي موجودة ؟ قال : بل هي معدومة . قلت : كلا بل هي موجودة . فقال : ما الدليل على ذلك ؟ قلت : أنا إذا تسوّرتنا في أذهاننا صور البساتين ثم اصطفينا صورة منها ، وزرعنا بستاناً على هيئتها ، فإنا إذ ذاك نكون قد اهتدينا بهدى هذه الصورة ، لأننا نعلمنا بستاناً على مقتضاها . قال بلى . قلت : فهل المعلوم ينتج الموجود ؟ قال : كلا . قلت : إذن هذا الخيال الذي في ذهننا موجود لا معلوم بدليل أثره ، فكل ماله أثر موجود فهو موجود . قال نعم هذا حق . قلت : فإذا كانت هذه النفس الناطقة قد صوّرت فيها صور السموات والأرض وهذه الصور قد أثبتنا لها اسم الوجود ، ولكن لم ترتق في الوجود إلى أن تراها حواسنا كما رأيت الصفات ، أو القوى التي سميها مادة ، فبالأولى الذي عرفناه أصل الوجود يبرز عالم السموات والأرضين كما أبرزناها نحن وتكون نسبة هذه العوالم إلى أبرزها في الظهور إلى العوالم التي أبرزناها في خيالنا كنسبته إلى نفوسنا الناطقة ، فعلى مقدار ضالة نفوسنا كان ظهور خيالنا ، وعلى مقدار عظمته هو وجلاء أبرز ماسمعه فكان مشاهداً للعيون ، دائم الثقل ، ظاهراً ، باهراً ، جيلاً . إذن نفوسنا هي النموذج الذي نعرف به الإله وبه نعرف خلق العالم ، واذن هنا فتحت لنا أبواب العلم على مصراعها .

فقال أحدهم : إذن كيف يكون العالم حادثاً مع قسم الله تعالى ؟ قلت : ألم أقل لك أن باب العلم فتح على مصراعيه ، الإجابة على ذلك سهلة عما تقدم ، فأقول لك أنت الآن تحضر في ذهنك السموات والأرض إحضاراً ووجوداً . قال نعم أحضرها . قلت : أقدم هذا أم حادث ؟ قال بل حادث . قلت : ويحك تكرار هذا العمل . قال نعم . قلت : هل هذا العمل وتكراره قديم ؟ قال كلا : والله والحمد لله ، ما أجل هذه البراهين إذن العالم الإنساني بعد هذه المباحث سيدخل في جنة عرضها السموات والأرض من المعارف والعلوم ويرتقي في المعلومات كما يرتقي في المحسوسات . قلت : فإذا سمعت أن العوالم الأرضية والسموية سبقتها عوالم أخرى ، واستقبلتها عوالم بعد فئتها ، فهذا كله مقيس على خيالنا . فقال : يقولون ولكن الوجود لا يكون من العدم ولا بد من مادة اشتقت منها هذه العوالم كلها ، وكيف يشتق الوجود من العدم ؟ قلت له : ألم أقل لك أن أبواب العلم فتحت على مصراعها ، فهل الصور التي في خيالك احتاجت إلى مادة صوّرت منها . قال لا ولكن نفس مصدرها فقط . قلت : كذا السموات والأرض رجعت إلى موجد هذا الوجود ، وإذا قلنا إن المادة لا وجود لها ، بل الموجود معان وخصائص فكيف تحتاج هي لمادة تصدر منها وتشتق ، ثم قلت : وهذا هو السبب في أن كل دين ، وكل محلة تجرّس على الرجوع إلى المقولات ، وترك الشهوات ، والتنزه عن الدنيا ، وهذا من سرّ التسبيح ، فالمتدين يسبح أي يترى الله عن الحوادث ليكون ذلك التذكير باعثاً له على التعمي عن العوالم التي سميت مادة ، وعلى مقدار اجتهاده بخلص ، ولا يرى الله إلا بعد التخلص من الوهم الذي استولى عليه بهذه المادة المحيطة به ، فيتزبه نفسه عن التفاصيل يقرب من تنزه عن العالم ، وبمعرفة نظامه يحبه فيحسبه ، وفوق ذلك يكبره ، فهذا هو السرّ في التسبيح والتحميد والتكبير في البيانات .

إذا عرفت هذا عرفت معنى : « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » فجعل خلق العالم

كنطقنا بالكلام ، وهذا حق - لأننا نتصور الوجود كله بمجرد خلوده ببالنا ، ومتى سمعنا اسم قصر أو شجرة أو بستان حالنا نحن - به في نفوسنا ، فهو يحصل عندنا بمجرد نطقنا أو نطق غيرنا ، هكذا العالم بالنسبة لله ، هذا معنى : « إنما أمره أن ينطق بأمره » ، فإنا نشاهد في نفوسنا نظيره ، غاية الأمر أن وجود الصور عندنا ونحن متخيلوها قصير الأمد في ثانية ثم يزول ، ووجود الأجسام تطول مدته ، فالمادة موجودة مئات الآلاف من السنين بادي الرأي ، والصور الخيالية ذاهبة حالا من خيالنا وإن خزنت في خزائن النفس ، ولكن ليس اسم الوجود خاصا بما طالت مدته ، فالجرادة التي لا يحول عليها الحول موجودة ، والقيل والقراب موجودان ، فطول الأجل وقصره لا يؤثران في الوجود كما أن الاحساس بالحواس الخمس وعدمه لا يؤثران في وجود ولا عدم ، وخضراء الهمس التي تطلع في الغدوات ، وتصير هشبا في الضحى ، وقد أزهرت في تلك المدة وطأ بز ، ثم يخرج في اليوم الثاني كالיום الأول موجودة كوجود النخلة التي تعيش عشرات السنين . وبهذه القواعد التي قررتها عرفنا بمقدار طاعتنا وجرده الله ، وعرفنا المادة .

بيان الملائكة ، والأرواح الأرضية

وأنها تصرف من هذا الدليل

قال أوسطهم : إن هذا المبحث قد عرفنا كما أشرت أنت فيما تقدم علما كان مخبوا ، يقولون : « من عرف نفسه عرف ربه » ، وجاء في كتاب « راجا يوقا » الهندي الذي قرأته بالانجليزية أن المدارس على علم النفس ، تأتلف مبدأ العلوم كلها ، إذن معرفة نفوسنا عرفنا ربنا ، وإذا كان الأمر كذلك فإني أقول : لنصرف في البحث إلى الأمام . قلت سر . فقال : إن نفوسنا هي التي عرفنا ما تقدم ، وأوصلنا إلى الله كما أن ضوء الشمس أوصلنا إلى معرفة قرصها وهكذا ، أفلا نقول أيضا أن الكواكب كلها والشمس والهواء والماء والأرضين والنترات والميكروبات والحشرات ، كل واحد منها فيه قوة عاقلة مستمدة من مصدر الوجود العام (وبعبارة أخرى) أفلا نقول أن الصقل العام الذي امتد منه فرع إلى أجسامنا قد امتد منه فروع إلى كل كوكب ، وكل شمس ، وكل أرض ، وكل ذرة ، وكل حجر ، وكل نام ، وكل جامد . وهذا الفرع الذي امتد منه هو الذي يطلى الجراد خواصه وتلاصقه ، وللمعدن خواصه ، والنبات نفسه التامة ، والحيوان نفسه المدركة والانسان نفسه الناطقة ، وكل هذه جداول من النهر المستمد من البحر ، فإذا رأينا النترات البيضاء في دماننا تساعد الجراء في الدفاع عن أجسامنا أثناء الطاعون فتجنفل من الحيوانات الطاعونية آلافا في ساحات ميادين القتال (في الطحال والكبد والقلب وهكذا) فإنا نقول إذ ذاك هذه نفوس صغيرة مستمدة من العقل الكلي الذي له التصرف في المادة كلها ، ولذلك نرى نظاما مدهشا يدل على الوحدة الحقيقية للبدا الأصلية . فقلت إن هذا المبحث يدل عليه أن جميع الهيئات وعلما الأرواح يذكرن الملائكة ويأمرون بالرياضة والصيام وبالصلاة ، وفي الاسلام وجوب الإيمان بالملائكة واليوم الآخر ، لم هذا كله ؟ كل هذه الحقائق صادقة ، وبهذا البرهان أمكننا أن نعرف عوالم وعوالم عقلية مشاكلة للعالم المحسوس ، وهي في توزعها وتنوعها مشاكلة لعالم المشاهد ، وبهذا تتحلل مشاكلة كل كثيرة أمام الانسانية ، ويفهم المسلمون خاصة بقولهم بعد الثقل آية « وأن عليكم لحافظين كراما كاتبين » وأمثالها من الآيات التي تعد بالعشرات .

الكشف الحديث والقديم

والرؤى الصادقة

م قلت : وتنحل أيضا بهذه البراهين مشاكلة كل كثيرة كأمر الكشف ، إن الكشف يرجع إلى فكرة

خطرت لانسان فتدبرها ثم أخذ يبحثها ، ثم تظفر وتنفع الناس ، فما ذلك إلا لأن هذه النفوس الانسانية متصلات بعوالم اتصال الماء الذي نشره بالمياه حولنا ، والهواء الذي نستشقه بالهواء حولنا ، والضوء الذي ينير سبلنا بضوء الشمس ، فهذه النفوس الجزئية التي ظهرت في أجسامنا تأتي لها آراء من النفوس المحيطة بها إحاطة الهواء بأجسامنا ، فتارة تكون كهانة ، وتارة تكون رؤيا ، وتارة تكون كشفا لأمر نافع كالكهرباء ، والدليل على ذلك أن الذين كشفوا أكثر المخترعات لم يكونوا أنبيغ أهل زمانهم ، ولأعظم مفكرهم ، بل إن نفوسهم باتصالها واستعدادها لأمر خاص ، استمدت تلك الفكرة من العقل العام الذي يشمل هذه الكائنات كلها ، وهذا العقل العام لا يحصره مكان ، ولا يحويه زمان ، وبرهانه أنه لا دليل على حصره ، ولا وقوفه عند حد خاص ، وعليه يكون الخلاء وراء الكواكب ليس بخلو من امتداد هذا العقل العام الممتد من الله إليه .

فلما سمع الطلاب ذلك . قال أوسطهم : الآن عرفنا الأرواح الصغيرة والكبيرة ، وما نلا ذلك كله ، وأنه يعرف بمعرفة النفس : أي اننا لما عرفنا وجود نفوسنا قاننا ذلك إلى معرفة عقل عام ، وإلى معرفة مبدء ذلك العقل العام ، وهو الله سبحانه ، وعرفنا أن الوجود هو الأصل ، والعدم هو الذي يحتاج إلى دليل ، وعرفنا ملائكة تعدادها وكثرتها على حسب تعداد وكثرة الموجودات المتجزئة الخاصة ، وأكثر من ذلك ، وأن الجاذبية والتمق والتلاصق ، وما أشبه ذلك ، كلها نتائج تلك النفس الكلية ، أو العقل السكلي ، التي كان سبب معرفتنا به معرفة نفوسنا ، ولكني لأرى ذلك برهانا قاطعا . فقلت : إنه برهان استقرائي ، أي اننا بالاستقراء علمنا أن كل ما اشتعلنا عليه نحن من جسم ونفس وضوء فإنه متصل بما هو أعظم منه من جنسه ، فهذا دليل استقرائي ، وقياس الاستقراء وان لم يكن دليلا قاطعا له منزلة شريفة في العلم في عصرنا الحاضر . فقال : ولكني أريد ازدياد المعرفة بالله نفسه ، ثم بعد ذلك تذكر آراء الأئم قديما وحديثا .

معرفة الله وعرض آراء علماء اليونان والمسلمين وأوروبا على هذه النظرية

فقلت : أما معرفة الله وان كانت تقدمت فاني أزيد القول فيها نبيانا . اعلم أن هذه النفوس الناطقة فينا لم نرها فاني إلى اليوم لم أربعيني إلا بأجسامنا ، أما النفوس فاني لم أرها . قال نعم ؟ قلت والذي رأيت حركات وسكنات وأعمال ، فاستدللت بذلك على وجودها ، إذن وجود الانسان ووجود الحيوان ، أي وجود نفس صديقك ورفيقك وخيلك لم تعلم إلا بالآثار ، هكذا وجود الله ، لا فرق بين الاستدلال على الله والاستدلال على وجود روح صديقك ، ولكننا لم نجد امرأة شككت في وجود زوجها ، ولا أننا شككت في وجود ابنها ، ولا صديقا أشقته في وجود صديقه ، بل كلهم يقولون هم موجودون بداهة كوجود الشمس في رابعة النهار . هكذا وجود الله ، ولكن وجود الله كثرت الملائل عليه ، فإذا كانت براهين وجود الله لانهلية لها ، وبراهين وجود صديقك محدودة أصبح العقل البشري كالأعمى وكالدهوش أمام اتفاق الأدلة وكثرتها في أحدهما وهو موقن بسبب حصر الأدلة وقتلها في الثاني ، وذلك لأن كثرة الأنوار تكاد تعمي الأبصار ، هكذا كثرة أنوار الدليل تكاد تعمي البصيرة ، لذلك احتاج الانسان إلى إقامة الدليل على وجود ما كان في غاية الوضوح للبصيرة حتى أعماها فاضطر إلى البحث من جديد . لهذا كان لا بد في معرفة الله تعالى من دليل ، هذا هو السبب في استدلال الناس على وجود الله وتأليف الكتب ، ولعل هذا يكفيك في هذا المقام . انتهت المقدمة والحمد لله رب العالمين .

الباب الأول في ذكر مذاهب الطبيعيين الخ

اعلم أن هذا الانسان ونسبته إلى هذا العالم ومباحثه أشبه بزواوية منفرجة ، ففي أولها عند رأسها حاسة اللمس ، وبليها حاسة النوق ، فالشم ، فالسمع ، فالبصر ، فالعقل ، ولكل منها درجة في رقيه ، ويقابل الانسان في كل درجة من درجات إدراكه حيوان في مرتبته ، وهكذا يقابله في الحكماء طبقات مختلفات الطبيعيين والدهريين والسوفسطائيين وانكساغورس والإلهيون . انظر مايلي :

(العقل) : يدرك الكليات ، وله خمس قوى ، كل منها له مدركات تخصه مثل الحس المشترك والخيال والمفكرة ، والنذاكرة ، والحافظة ، وبه يشبه الانسان الملك ، ويقابله مذهب أفلاطون وأرسطاطاليس اللذين إلهما وإلى سقراط ترجع جميع المذاهب بعد ذلك عند اليونان وعند علماء الاسكندرية ، وعند المسلمين ، وعند الفرنجة كإستري إضاحه قريبا إن شاء الله

(البصر) : به يعرف الشكل ، والحجم ، والسطح ، واللون ، والقرب والبعد ، والنور والظلمة . ويقابل به حيوانا ذا خمس حواس مثل ذوات الأربع ، وبه يقابل مذهب سقراط واليه ترجع المعرفة بالله تعالى وأنه محيط بالعالم مدبره .

(السمع) : به يعرف الانسان صوت الانسان والحيوان والجماد موسيقيا أرغيموسيتي ، وبه يقابل حيوانا ذا أربع حواس مثل الخلد (بفتح الخاء واللام) الذي يعيش في الظلمة دائما ، فيكون أعمى ، وهذا مقابل لمذهب (انكساغورس) بأثينا سنة ٤٢٧ ق.م يقول : « إن أول موجود هو العقل ، وهوأى العقل مغاير للمادة ، وهو المحرك لها ، ولكن لا عمل له بعد ذلك » .

(الشم) : وبه يعرف الانسان الخبيث والطيب من الروائح ، وبه يشبه حيوانا ذا ثلاث حواس ، وبه يشبه علماء السوفسطائية إذ قالوا : « لا علم ولا حقيقة » مثل (بروناغورس) القائل : العلم باعتبار ما عند الانسان وان خالف غيره ، ومثل غورغياس إذ يقول : لا علم مطلقا بل هي ادراكات وقتية ، ومثل (بيرون) الذي يشك في كل شيء ، وهم العنيدية والعنادية واللاأدرية بالترتيب .

(النوق) : وبه تعرف الحلاوة ، والمرارة ، والحراقة ، والملوحة ، والعذوبة ، وهكذا ، وبه يشبه الانسان حيوانا ذا حاستين كبعض السود على الشجر ، ويشبه به الانسان مذهب الدهريين مثل (ديموقراطيس) وقد جمع آراء من قبله ، وقال : « الطبيعة قديمة ، وكذا الدهر » والمادة عنده مركبة من أجزاء لا تتجزأ .

(اللمس) : وبه يعرف الانسان قسلا وخفة ، وحرارة وبرودة وهكذا ، وبه يشبه حيوانا ذا حاسة واحدة كالسودة ، وبه يشبه الطبيعيين مثل تاليس المالمطي إذ قال : « الأصل في الوجود الماء » ، ومثل (أنكيبانيس) سنة ٥٢٨ ق.م إذ قال : « إن أصل الوجود الهواء » وهكذا .

(الانسان) :

فقال أحد الطلبة لما رأى هذا الجدول : هذا جدول أشبه باللفز ، فنحن نريد التفصيل ، ويظهر أن تفصيله يفهمنا هذه الدنيا في عصرنا ، فالتنا نحن الآن في زمان انتشار العلم ونظام المدنية ، وقد رأينا علماء من

الشرق في زماننا تلقوا علوما من أوروبا ، وأتوا بأراء متباينة ، فهذا يشك في الدين ، وهذا يؤمن بالله ، ويكفر بالأنبياء ، وهذا لا يرى غير المادة وهكذا ، فإذا اطلع الناس على جميع المذاهب الفلسفية حكموا على كل قائل بالدرجة التي وصل إليها . فقلت : حبا وكرامة ، سأشرح هنا بالتفصيل ما وصل إليه العلم قديما وحديثا إلى وقتنا الحاضر في أمر الله والعالم ، فأما الاختراعات والفنون فأمرها بين أيدي عموم الأمم .

ثم قلت : اعلموا أيها الفضلاء أن الله تعالى عامل الأمم جميعها معاملة الفرد الواحد ، وأقرب الأمم التي ظهر علم فلاستها هي اليونان ، إن الأمم اليونانية ومن قبلهم ومن بعدهم كلهم كانت لهم ديانات ، والعامة لا يشكون فيها ، إنما الذي يهمننا أن نذكر مباحث الفلاسفة الذين جعلوا العقل إمامهم ولم يتقيدوا بالتقليد ، وإنما أردنا أن نذكر مباحثهم ، لأن الله يقول : « وقل الحمد لله سيريكم آياته » ويقول : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » وهذه الإراءة تكون بالحس وبالعقل ، إذن فلنجعل هذه الرسالة معرضا لامتحان آراء الفلاسفة والحكام ، ونعرضها على ما قررناه في النظريات السابقة هنا في هذا المقام ، ونعرف إلى أي مدى وصل النوع الانساني في عقله ، ومتى عرفنا ذلك ودققنا على الحقيقة حينئذ نقول : « أيها الشرقيون أكلوا ماقتته الانسانية ، وقوموا بخدمتها ، وجدوا لاسعادها ، ولا تكونوا من الغافلين » . فقالوا جميعا : هذا حسن جدا . فقلت : يعلمنا الله بهذه المباحث كيف نرتقي في التعليم .

الدرجة الأولى : حاسة اللمس في الانسان ومذهب الطبيعيين

لما خلق الله الطفل جعله يشعر بما حوله من حرارة وبرودة ، وثقل وخفة ، ونعومة وخشونة ، هكذا حصل في الأمم ، فإن تاليس المايطي المتقدم ذكره وانكسيماينس وانكسمندر ، وأولهم قال : « أصل الوجود الماء » ، وثانيهم قال : « أصله الهواء » ، وثالثهم قال : « أصل الوجود مادة لا صورة لها معينة دائمة التحرك » ، ومن معهم قالوا : « نحن ليس عندنا إلا الماء ، أو الهواء ، أو النار ، أو الأرض ، أو المادة العنومية ، فلما أن يكون الماء هو الأصل وقد جد فصار أرضا ، أولطف فصار هواء ، ولما أن يكون الأصل هو الهواء فلما تكاثف صار ماء ، ثم لما تكاثف الماء صار أرضا ، وهكذا قالوا في النار وكذلك في الأرض ، فهؤلاء في الانسانية يشبهون الطفل وهو في أول أدوار حياته ، وهذه الدرجة في حاسة اللمس ، وفي الفلسفة الحسية تشبه حياة الدودة ، فليس لها حاسة إلا اللمس ، ومثلها العلق وغيرهما ، فالطفل في أول أمره كالمدودة وكالفلاسفة الطبيعيين .

الدرجة الثانية في الانسان : درجة حاسة النوق

هي أرق مما قبلها : وبعض السود الذي يشاهد على سوق النبات له حاستان ، فهو أرق مما له حاسة واحدة ، والنوق أرق من اللمس ، لأن له اختيار الأغذية للنمية للأجسام ، ويشبه الطفل في هذه الدرجة علماء الدهريين ، وهؤلاء يقولون : لا دين ، ولا رب ، ولا رسول ، ولا كتاب ، ولا ميعاد الخ ، وذلك أن الانسان لم يزل ولن يزال والدهر دائر ، لا أول له ولا آخر ، ولقد قال هذا القول يعقوبي في تاريخه المجلد الأول صفحة ١٦٨ ومثله الفزالي في المنقذ من الضلال ، وسهام زنادقة ، وقد نقل آراءهم العلامة سفلانه الطلياني في زماننا ، ووازنها بما في كتاب (سنيقليوس) في كتابه « السماء والعالم » فوجد أن هذا القول نقله هذا العالم عن (أنباذقليس) وهو أن العالم لم يحدثه أحد إلاه ولا بشر ، بل كان أبدا انتهى وهكذا نقل عن أرسطاطاليس في المقالة الثالثة من كتاب السماء والعالم مانصه : « أما من ذهب إلى قول (أنباذقليس) و (ديموقراطيس) فإنه قال : إن الأركان لم تحدث باستحالة بعضها إلى بعض ، بل لاحتوت إلا

في الظاهر فانها موجودة على حدتها فتفترق بعد الاجتماع « انتهى
ونقل عنه في كتاب « الكون والفساد » في المقالة الأولى ، ونقل عن ديوتانس في تاريخ الحكماء
مثل ذلك ، ثم قال العلامة سفلانه المذكور ان هذا القول مطابق فضلا فضلا لما ذكره البقوني .

الدرجة الثالثة للانسان الفرد أن تكون له حاسة الشم

وهي أرقى من سابقتها ، لأنها تحذته عما بعد عنه ، وتأتي له بأخبار المشمومات التي لاتلامسه ، وهذا
هو الآتي في قوله : « ولما كان الانسان العام في ارتقائه يجب أن تكون له حاسة أرقى من حواس الدهريين
والطبيعيين ، هنالك خلق له ديمقراطيس فقال بالجزء الذي لا يتجزأ ، ومعنى هذا أنه قدر أن يتحرك إلى البعث
فأخذ يبحث في أجزاء المادة التي اكتنى سابقوه بالنظر الى ظاهرها ، فهو يرجع المادة إلى أجزاء تفترق
وتجتمع ، إذن هذا أخذ مذاهب من قبله وأراد تليفيها وتوحيدها ، وتوحيدها لا يتم إلا بإرجاعها إلى الأجزاء
التي لا يمكن تحليلها ، فبدل أن كان الأصل دأثر ايين الماء والهواء الخ يرجع إلى أصل واحد وهو الأجزاء العائمة
الأزلية الأبدية ، وهذا المذهب اقتبس منه الأشاعرة الجزء الذي لا يتجزأ ، وأخذ منه ابراهيم النظام (بقشبد
الغناء) من متكلمي المعتزلة القول بالكمون ، وأخذ منه الطبيعيون والملاحدة قولهم بإنكار الباري تعالى
ووحدة الوجود ، ويقول الاستاذ سفلانه المذكور : « ومن مطابق قول ديمقراطيس بما عليه الطبيعيون من
الفلاسفة في عصرنا هذا لم يجد فرقا بين القولين ، ولم يرتقوا إلا في العبارة ، أما المعنى فلا . ثم قال : والحق
أن من اقتصر على الطبيعيات ولم يقل بغير المحسوسات لا يسهل إلا اقتفاء آثارهم ، والتخلي بشمائرهم ، مع
أن من تبصر في عواقب الأمور تحقق أن مثل هذا الرأي في كل زمان لا يرضى إلا لانكار الحقائق ، وهدم
دعائم العقل ، كيف لا ومن قال انه ليس في الوجود إلا المحسوس ، ولا شيء سواه ، كيف يمكن له أن يحكم
بالوجود ؟ قال : وقد أصاب المحقق ناصر الدين الطوسي في شرح المفصل حيث قال نقلًا عن أرسطاطاليس وغيره
« الحس إدراك فقط ، والحكم تأليف بين مدركات بالحس أو بغير الحس ، وليس من شأن الحس التأليف
الحكمي ، لأنه ادراك فقط ، فلا شيء من الأحكام محسوس أصلا ، فإذن كل ما هو محسوس لا يمكن أن يوصف
من كونه محسوسا بكونه يقينيا ، أو غير يقيني ، أو حقا ، أو باطلا ، أو سواها ، أو غلطا ، فإن هذه الأوصاف من
لواحق الأحكام » انتهى كلامه .

قال : وهو واضح بمن تحقق ماهية الحس وانه قاصر بالضرورة على خصوص المدرك لا يتعداه . إلى أن
قال : فكل فلسفة مقصورة على مجرد الحس لا يكون مثلها حينئذ إلا الشك في الحقائق كما وقع في اليونان
في أثناء القرن الرابع قبل المسيح .

الدرجة الرابعة للانسان

حال الطفل وحال الحيوان الذي يستعمل أربع حواس أعلاها السمع

فهو أرقى ، وقد أمكنه أن يتسع مدى إدراكه لما هو أبعد من الشمومات مثل حيوان الخلد (فتتح
الغشاء واللام) الذي يعيش في الظلمات ، فهذا لا يرى النور ، ولا النجوم ، هكذا الأعمى من نوع الانسان
لابراهما ، فهو إذن في حال أقل مما بعده ، وأوسع مما قبله ، إذن خلق الله في الانسانية الكبرى طبقة
أرقى وهي :

السوفسطائية

قال البقوني في تاريخه (مجلد ١) صفحة ١٦٦ مانصه : « السوفسطائية : وتضير هذا الاسم باليونانية

(المخالفة) وبالبرية (التناقضية) يقولون : « لا علم ولا معلوم » الى آخر كلامه ، وقد تعقبه الاستاذ سنلانه وخطأه ، فقال : « السوفسطائية اليونانية معلوم الحكمة ، أو طالب الحكمة » ، وصوب كلام الشريف المرتضى في الاعتقاد (مجلد ٩) صفحة ٤١٨ إذ قال : « السوفسطائية طائفة من حكماء اليونان ينكرون حقائق الأشياء ، ويزعمون أنه ليس ههنا ماهيات مختلفة ، وحقائق متميزة فضلا عن انصافها بالوجود ، بل كلها أوهام لأصل لها ، وسوفسطاء كلمة يونانية معناها طالب الحكمة » انتهى كلام الشريف الذي نقله الاستاذ (سنلانه) . ثم قال الاستاذ المذكور : « والحاصل أن السوفسطائية قوم اتخذوا الفلسفة حرفة كانوا يجتازون المدن والأقطار ، يدعون القدرة على كل علم ، وعلى تعليمه أيضا في أقرب وقت ، مع أنهم أجعوا أنه لا علم في الحقيقة ولا حكمة . وأن قمارى ما يدركه الانسان من الوجود على فرض وجوده هو ما يدركه بحواسه الحس ، ولما كان الإدراك الحسى مما يختلف بين الناس من انسان لآخر ، بل وفي الانسان الواحد باختلاف الأوقات والصحة والمرض ، ومع ذلك يتغير تغيرا مستمرا ، لزم من ذلك أنه لاحق ولا باطل ، ولا خير ولا شر ، بل كل ذلك مما نواطأ الناس عليه ، ليستقيم به معاشهم ، ويكفي بعضهم شره بعض ، وهو في نفسه أمر ليس بوجود طباعا » . ثم قال : « وبعد إجماعهم على هذه الأصول قد اختلفوا ، فذهب :

(١) — (بروتاغورس) إلى أن ما ظهر لكل واحد حقا فهو حق بالنسبة إليه . فقال : إن الانسان مقياس الأمور في وجودها وفي عدم وجودها ، أى ما رآه كل واحد موجودا فهو عنده موجود ، وما رآه معدوما فهو بالقياس إليه معدوم ، ولا يتعدى الحكم إلى غيره .

(٢) — وذهبت طائفة أخرى اشتهرت باسم (غورغياس) إلى أنه لما كانت الأشياء في حكم التغير الدائم كان الانسان غير متمكن من ادراك الحق بوجه ، وغاية ما يقدر عليه أن يقتصر على ما يدركه في كل آن من ظواهر الأشياء لا يتعدى حكمه فيها الى ما يدركه في آن آخر ، ولا يقول بوجود شيء ألبتة ، إذ حقيقة الأشياء على فرض وجودها معا لا طاقة للبشر عليه . قال : والمذهب الأول عند العرب يسمى « مذهب العندية » والمذهب الثاني « العنادية » . قال : وقد اختلفوا بهما مذهباً آخر ولكنه ليس من السوفسطائية في شيء ، وهو مذهب (بيرون) كان معاصرا للاسكندر الرومى ، ذهب الى الشك المطلق ، وهو الامسك عن الجزم بشيء أحق هو أم باطل . قال : ويسميه العرب بمذهب (اللاأدرية) . قال : واليه أشار نصير الدين الطوسي في حاشيته على المحصل صفحة ٢٣ وذكر ما يقرب مما تقدم فلانظيل به .

فهنا خرج أهل البحث من انحصار أفكارهم في الماء ، أو الهواء ، أو أجزاء المادة (و بعبارة أخرى) ان هذه الطبقة وهم السوفسطائية أشبه بالجنيين خرج من بطن أمه ، فإذا كان من قبلهم قد حسبوا في العناصر من ماء وهواء ونار وأرض ، أوفى أجزاء تلك العناصر خرج هؤلاء من ذلك السجن المادى ، وقالوا : نحن لا نتقيد بقيد ما ، فهؤلاء أشبه بحاسة السمع وهم أشبه بطبقة الانسان ، وقد انضمت حاسة السمع الى الحواس السابقة . ثم قال : هذه هي فلسفة اليونان في أواخر دهرها الأول ، وهو منتصف القرن الرابع قبل المسيح من التردد والارتباك بين مذاهب الطبيعيين ، ومشاغبات السوفسطائية ، وأخذ يدحض هذا المذهب . ومما قال : « وقد قيل ان الشك يهدم نفسه » ، وذكر حكاية ديوجانس الكلبى انه حضر مجلس بعض السوفسطائية فسمعه ينكر الحركة ويكثر البراهين على عدم وجودها فلم يجبه (ديوجانس) بحرف ، وأخذ يمتشى في المجلس ويضرب بعصاه الأرض اشعارا منه بأن مثل هذا القول المنكر للظواهر لا يحتاج في نقضه الى بيان . ثم قل عن المتكلمين المسلمين في كتبهم : ان هؤلاء الشاكين لا ينبغي مناظرتهم بل احراقهم بالنار حتى يحسوها فيعرفوا ما كانوا ينكرون فيمكن التكلم معهم . قال الامام الرازى في المحصل ، والشيخ التفنزانى في شرح

العقيدة النسفية . انتهى كلام الاستاذ سفتلانه .

ثم إني هنا لابد لي أن أقل لكم أيها الأذكياء كلام الاستاذ (سفتلانه) بنصه وفصه ، لأنه فيلسوف أوروبي ، ليكون ذلك زجرا لهؤلاء المتعلمين في الشرق ، الذين يرجع بعضهم من أوروبا وهم إما دهبرون ولما طبييون ، ولما سوفطائية . وهم يجهلون ما عند أساتذتهم من العلم ، فيرجعون وهم غافلون . قال مانصه بالحرف الواحد : « أما القول بالطبيعة وأن لا شيء غيرها ، فهو لا يرضى العاقل المتبصر » كأنه يقول : نعم لأننا نزع في كون الطبيعة والحركة من أصل الموجودات ، وإنما توقفت في كيفية صدور الفعل منها ، فالعلم يكن هناك إلا مادة تتحرك من الأبد إلى الأبد ، فمن أين حصل لهذا العالم النظام العجيب ، والترتيب الغريب ، التي حارت فيه العقول ، وقصرت عن إدراكه التحول ، كيف ينسب ذلك إلى الاتفاق والمصادفة ، ومجرد البحث ؟ ليت شعري كيف بقيت على تألفها ، وكيف تجددت على نمط واحد المرة بعد المرة ، وقد شهدت المعاينة بأن حركات أجزاء لانهاية لها ولا محركة لانفضى إلا إلى غاية الالتباس وعدم القياس ، وهذا لعمرى كمثل من وضع حروف المجهم في ظرف أوفى صندوق ، ثم جعل يحركها يوما بعد يوم طمعا منه أنها تتألف من تلقاء نفسها ، فيتكبد منها قصيدة بليغة ، أو رسالة عميقة في المنطق ، أو كتاب في الهندسة دقيق ، أليس هذا من السفه المبين ؟ فإنه لو دام على تحريكها السنين والدهور ما حصل من كده إلا على حروف ، فكيف يتصور حدوث هذا الموجود بما هو عليه من الاتفاق والاحكام وتطابق الأجزاء وعجيب مناسبة بعضها إلى بعض من حركات اتضافية في خلاء لانهاية له .

قال أرسطاطاليس في كتاب سمع الكيان : « إن كل نظام يدل على وجود العقل ، فضلا عن هذا إن ما حصل اتفاقا لا يحصل إلا مرة واحدة ، ولا يتكرر ، ولا يتوغل بناء حكم عقلي عليه ، ولا يقبل القياس بخلاف ما شهدت به التجربة في علمنا من الثبوت ، ولولا هذا ما أمكن إنشاء علم من العلوم الرياضية والطبيعية . هذا وإذا فرضنا وجود مجرد الطبيعة ولا شيء سواها فمن أين هذه القوة العقلية التي يجدها كل واحد من نفسه ، وهي مع ما فيها من الجهز والتصوير من أظهر الشواهد على وجود ما يخالف مجرد المادة في هذا العالم ، ولا سبيل من المادة إلى الأفعال العقلية لما بينهما من المفارقة الأصلية ، فوجود مثل هذه القوة يستدعي وجود جوهر عقلي يجانسها ويمثلها ويكون مركزا لها .

ثم قال : وهل من المحتمل أن ما ندر به من تصور العقول ، والكشف عن الكيان ، وتفريق القضايا وتركيب القياسات لم يكن في نفس الأمر إلا من اصطكاك جزء من المادة بجزء آخر ، وهل يسوغ في العقل أن ما تضمنته عقولنا من الأبحاث الدقيقة ، والمآخذ العميقة ، كالمنطق والرياضيات والإلهيات ، وما افتتت به القلوب من الشعر الرائق ، والمطرب من الألحان ، وسحر البيان ، أصله من تلك الأجزاء كانبعاث النار من اصطكاك حجر بحجر ، وذلك في خصوص النار ، إذ ليس بين مادة النار ومادة الحجر فرق كبير ، وإنما ليت شعري ما النسبة بين الحجارة والعقل ؟ فإذا كانت المادة غير قادرة أن تكون علة لنفسها ، فمن باب أولى وأسى أنها لا تكون علة لما هو أعلى منها مكانا وأهم شأنًا في درجات الوجود والا لكان الأخص أصلا لما هو أرفع ، وهذا مما يستبعد العقل ، وتأنفه الفطرة السليمة » انتهى كلام الاستاذ سفتلانه مع تغيير يسير جدا . هنالك ستم اليونانيون من هذه الحيرة ، فلا العناصر كالماء ، ولا الهواء أصل الوجود ، ولا الجزء الذي لا يتجزأ ولا مذهب الشك ، أو العندية ، أو العنادية تفتي فتبلا عن معرفة الحقائق ، فظهرت طائفة أخرى وهم :

شيعة فيثاغورس

هذه الشيعة ظهرت في أثناء القرن الخامس قبل المسيح ، فتوطنت المستعمرات اليونانية في إيطاليا ،

واسمها « شعبة فيثاغورس »

هذه الشعبة يقول رئيسهم : « إن كل شيء أصله العدد فما من شيء إلا وفيه للقياس والعدد حقا »
ولم عناية بالعلوم الرياضية ، ولا سيما الهندسة والحساب ، فأصل ما في هذا العالم هو العدد . وقد دحض العلامة
سنلانه الطلياني كل ما يهزى إلى فيثاغورس من المبالغات في كتب أسلافنا العرب . وقال : لم يثبت إلا هذه
الفكرة عنه .

ثم ظهر بعده (أبازوقلس) فقال : « إن هناك قوى محرّكة للمادة غير المادة سماها بالمحبة والعداوة ،
فبالمحبة تتصل الأشياء ، وبالعدوان تتفرّق »

فهذان المذهبان عدلا عن مذاهب اليونانيين الأولى ، فالفيثاغوريون عرفوا النظام الهندسي والعددي
في العالم ، ولا جرم أن هنا لا يكون إلا نتيجة لعقل يضبط الحساب ، ولكن لم يقولوا بالعقل ، ولكن هؤلاء
أرقي من السفسطائية ، وأبازوقلس لاحظ شيئا سماه المحبة والعداوة للانحداد والتفرّق ، فافظر ماذا جرى :
ظهر أنكساغورث . قال الأستاذ سنلانه : وكان في أواسط القرن الخامس ق . م بمدينة أثينا سنة ٤٧٧
أشار إليه أرسطاطاليس بمقالة أولى من كتاب « ما بعد الطبيعة » فقال بعد حكاية الأقدمين ما نصه : « ثم
نبيغ بعد ذلك رجل فقال : « إن العقل هو مبدأ الوجود ، فكان كالماسي فيما بين قوم سكارى لا يفقهون » اه
قال : « والحق أنه منذ ذلك العصر نشأت الفلسفة اليونانية نشأة جديدة ، فهي كالطفل إذا قوى وانزع
فطلق عقله وجاء بتصوّر المبادئ بعدما كان في المحسوسات مضمورا ، ولم يخف على مؤرخي العرب هذا الفرق
بين الدور الأول والدور الثاني . فقال القفطي في تاريخ الحكماء ما نصه : « وكانت هذه الفلسفة أي الطبيعة
شائعة في اليونان إلى ما قبل زمان أرسطاطاليس بمائة سنة » ذكر هذا أرسطاطاليس في كتاب الحيوان
فقال : « لما كان منذ مائة سنة ، وذلك منذ زمن سقراط مال الناس عن الفلسفة الطبيعية إلى الفلسفة المدنية
والفلسفة المدنية هي فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس » انتهى كلامه .

فاذا راجعنا كتاب الحيوان الذي أشار إليه القفطي وجدناه مطابقا لما ذكره : فهما وجدتم في الكتب
العربية ذكر الفلسفة المدنية فافهموا انها فلسفة الإطيات التي أنشأها سقراط وأفلاطون ، وانها مغايرة لما
سبقها من الفلسفة الطبيعية ، وفلسفة السهرية .

وحاصل قول أنكساغورث أن المبدأ الأول في الموجودات هو العقل وهو جوهر بسيط مغارق للمادة
موجود بنفسه ، وهو أصل نظم العالم ، والمحرك الأول للمادة . قال : كان العقل أولا والمادة على غاية من
الاضطراب والالتباس فأثر العقل فيها وجعلها تركيبا محكما ، وذلك أنه صدرت منه حركة إلى جزء من تلك
المادة فتولدت من تلك الحركة حركة أخرى فتجاوزت إلى ما جاورها من المادة فتولدت من هذه الثانية
حركة أخرى فتجاوزت مثل الثانية إلى ما جاورها وهم جرا إلى غير نهاية . قال : فبموجب هذه الحركات المتولدة
بعضها من بعض انتظم العالم وتألقت أجزاءه من غير أن يكون للعقل في ذلك دخل ولا تأثير . فأورد بعض
الحاضرين على هذه المقالة الشبهة . فقال : « انني قرأت في كتاب الشهرستاني « الملل والنحل » عند ذكر
فلسفة اليونان ما ملخصه : « الحكماء السبعة الذين هم أساطين الحكمة هم طاليس المائطي وأنكساغورث
وانكسيمانيس وفيثاغورث وسقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس ، وتبعهم جماعة من الحكماء مثل فلاطرخيس
وبقراط وديمقراطيس والشعراء والنسائك ، وانما يدور كلامهم في الفلسفة على ذكر وحدانية الباري تعالى واحاطته
علمها بالكائنات كيف هي ، وفي الابداع ، وتكوين العالم ، وأن المبادئ الأولى ما هي ؟ وكيف هي ، وأن المبدأ ما هو ؟
ومنى هو ؟ انتهى

ثم ذكر طاليس فقال : إنه هو أول من تفلسف في المائطية . قال : « إن للعالم مبدعا لا ندرك صفته

العقول من جهة جوهرية ، وانما يدرك من جهة آثاره ، وهو الذي لا يعرف اسمه فضلا عن هويته . الى آخر ما قاله ، وقد أتى بمثل ما ذكر في حق أنكسبانس . قال : إن مذهبه أن البارى تعالى أنزى لا أول له ولا آخر ، هو مبدأ الأشياء وهكذا ، وهو قريب من كلام علماء التوحيد في الاسلام . ثم نقل عن أنكسبانس أيضا أن أول المبدعات من العوالم هو الهواء ، ومنه تكوّن جميع ما في العالم . ثم قال في صفحة ٢٦٠ ما يأتي « انه نزل المنصر منزلة الفلم الأول ، والعقل بمنزلة اللوح القابل لنقش الصور ، ورتب الموجودات على ذلك الترتيب ، وهو أيضا من مشكاة النبوة اقتبس ، وبعبارة القوم النيس . ثم قال : إن أنباذوقلس كان في زمن داود عليه السلام مضى اليه وتلقى عنه ، وقال في حق فيثاغورث أيضا انه كان في زمن سليمان عليه السلام ، وانه أخذ الحكمة من معدن النبوة ، ثم ان يعقوبى في المجلد الأول صفحة ١٣٤ قال في حق فيثاغورث انه أول من نطق بالأعداد والحساب والهندسة ووضع الألحان . وكان في زمان ملك يقال له « أغسطس » وهرب منه ، وتبعه ، فركب فيثاغورث البحر حتى صار إلى هيكل في جزيرة ، فأحرقه عليه الملك الجبار .

هذا كلام المؤرخين ، وأنت تقول لنا غير ذلك ، تقول ان طاليس المالمطى يقول : « أصل العالم هو الماء » وليس يعتقد بوجود للعالم سواء ، وأن أنكسبانس يقول إن أصله الهواء ، ولا يعتقد في الإله أيضا . ومثله أنكسيمندر إذ يقول : « إن العالم مادة لأصورة لها معينة ، فهي دائمة التحرك ، تنفبر ناراً وترجع إلى أصلها أخرى » ، وقلت : ان ديموقراطيس لا يعتقد بالاله ، بل يقول بالجزء الذي لا يتجزأ ، وهو أصل العالم ، ومنه وجد . وقلت : ان فيثاغورث لم يذكر إلا الأعداد ، ولم يحم حول الالهية ، وهكذا أنباذوقلس فانه أرجع العالم للحجة والكراهة ، فهذا كلامك ، وذلك كلام المؤرخين ، فأى القولين تصدق ؟ أقولك أم أقوال يعقوبى والشهستاني في (الملل والنحل) ؟ فقلت : إن هذه التي ذكرتها أيها الذكي قد ذكرها بنفسها وذكّر قريبا منها الاستاذ ستلانه الطلياني المذكور ، وهذا الرجل أقرب إلى علماء اليونان منا . ولما نقل هذه الأقوال نفاها وأثبت بالدليل استحالة بعض ما جاء فيها بمثل أن فيثاغورس كان بينه وبين أغسطس أكثر من ٤٥٠ سنة ، وكل ما ذكر من التوحيد والمعرفة قال إنه لا أصل له ، وعليه يكون ما قلناه الآن هو لب الفلسفة ، وانها ارتقت حالا بعد حال حتى وصلت إلى سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس وهؤلاء هم الذين لهم السلطان العلمي في العالم الغربي والشرقي كما بيناه .

ثم قلت : قد وصلنا في الكلام إلى رأى أنكساغورث القائل : « إن المبدأ الأول في الموجودات هو العقل » ولكن لم يجعل لهذا العقل عملا إلا في أول الخلق ثم يترك العوالم وشأنها ، فكان ذلك مما حرض سقراط على إنشاء مذهبه .

مذهب سقراط

قال : قال سقراط في بعض المحاورات الأفلاطونية المشهورة « بفيدون » ما ترجمته لكم حرفيا : إنى لما كنت حديث السن كنت مولعا بالبحث عن الطبيعيات وأسبابها وأصولها ، والقوى المحركة لها ، فكنت لا أرتضى قول الطبيعيين في ذلك ، ولم أجد قولاً آخر يقاومه ، فبقيت محيرا مذبذبا للرأى لأدرى ما أعتمده ، وبينما أنا هكذا ذكرلى بعض أحيائى أن هناك كتابا منسوباً إلى أنكساغورث صرح فيه بأن أصل الوجود العقل ، فسرتت من ذلك سرورا عظيما ، وبادرت الى اقتناء الكتاب لأطالعه بشوق وأسرعته في مطالعته فلم ألبث إلا وقد تبدلت سرورى أسفا ، وأملى يأسا ، لما رأيت هذا الرجل بعد نصبه العقل منبعاً للموجودات تركه في زاوية الخمول بطالا ، وركن في شرح الموجودات الى تولد الحركات بعضها عن بعض إلى غير ذلك من الأسباب الطبيعية مما ليس فيه للعقل تأثير ، وذلك مثل من جعل آلة وصانعا ، ثم قال : إن الآلة تستغنى

عن الصانع ، وانها قادرة على إتمام ما أعدت له من تلقاء نفسها . ليت شعري ما الحاجة حينئذ إلى الصانع اذا كانت الآلة نفسها كافية ! فتركت الكتاب ، ورجعت أبحث عما يقوم لي مقام ماساء في فقدته في كلام أنكساغورث . انتهى كلام أفلاطون حاكيا عن سقراط ، ومنه ينهم ما حل سقراط في الحياض عن كلام أنكساغورث وانكار مذهبه .

قال سقراط في محاوره أخرى حكاه عنه تلميذه « أكانوفون » في كتاب التذاكير : « لا تنكر أبها الحبيب أن روحك التي في جسدك تنصرف فيه كما شئت ، فعليك أن تعتقد أن العقل هو أصل الأشياء والمتصرف فيها كما شاء » انتهى كلامه .

وقال أفلاطون في محاوره أخرى من المحاورات الأفلاطونية : « أوليس من الظاهر أن المستعمل لآلة هو غير الآلة التي يديرها ويباشرها ، على ذلك يجري القياس في الأسباب الطبيعية ، فانها كالآلة بيد الصانع الأول وهو العقل يتصرف فيها كيف شاء في قضاء مراده ، ولزم من ذلك أن المهم في العمدة في معرفة الموجودات عليها العقلية لاما هو مسخرها من الأسباب المادية ، فان الصانع العاقل لا يفضل شيئا إلا لفرض ولا يوسع شيئا إلا لعله ، فامن موجود إلا وله على رأى سقراط فائدة قد وضع لأجلها ، ومصلحة هي الغاية المقصودة من تركيبه ، يتأني للعقل أن يتوصل إليها في الأغلب ، إذ هي صادرة عن عاقل » . هذا كله كلام الاستاذ ستلانه الطلياني نقلته من كتابه مع حذف يسير لا يخل بالمعنى .

وهاك محاوره أخرى لسقراط نقلتها من الكتاب المذكور هذا نصها منتخبات من تذاكير أكانوفون منها في الفصل الأول من الكتاب الأول . قال أكانوفون :

« إنى أريد أن أحكى هنا ماجرى بمحضرى من الكلام بين سقراط وأرسطوديموس الملقب بالصغير ، وقد جرى بنا سياق الحديث إلى ذكر الإله ، وكان سقراط قد علم من أرسطوديموس أنه لا يقرب القرابين ويستحق صنعة الكهانة ، ويسخر من يعنى بالعبادة . فقال : أفي الناس من يجيبك براعته في الصنعة ؟ فقال نعم ، الشعراء والمصورون ، من كان منهم أربع من غيره . فقال سقراط : أيما عندك أرفع شأنًا ، أمن يصنع التماثيل العارية عن الحركة والعقل ، أمن يصور الأشباح الحية المتحركة ؟ فقال من يصنع الصور الحية اللهم إلا اذا كانت تلك الصور من عمل المصادفة والاتفاق لامن عمل العقل . قال سقراط : اذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها ، وأشياء أخرى بينة القصد والمنفعة ، فما قولك في تلك الأشياء ، ماهي عندك من فعل العقل ، وماهي من فعل الاتفاق ؟ قال : لاشك أن مظهر قسده ومنفعته من فعل العقل . قال سقراط : أولست ترى أن صانع الانسان في أول نشاء جعل له الآلات والحس لما في تلك الآلات من المنفعة الظاهرة فأعطاه البصر والأذنين ليبصر ويسمع ما يكون لعيشه صادقا ، وما فائدة الروائح لولم يكن لنا الخياشيم ، وكيف ندرك الطعام ونفرق بين المر والحلو والمزول لم يكن لنا لسان نذوق به . إن بصرنا معرض للآفات ، وأوليس ترى كيف اعتنت القفرة الالهية بذلك فجعلت الأبقان له كالأبواب لتمنع ما يصبب البصر ، وجعلت الأشجار كالناخل لتقيها من أضرار الرياح ، فما قولك في آلة السمع وهي قبل جيع الأصوات ولا تمتلي أبدا ، أما رأيت الحيوان كيف ربت أسنانها المنتمة وأعدت لقطع الأشياء فنلقها إلى الأضراس فتدقها دقا ، فاذا تأملت في ترتيب ذلك أيمكن لك أن تشك هل هي من فعل الاتفاق أو العقل . قال أرسطوديموس : نعم اذا تفكرنا في ذلك لانك في أنها من فعل صانع حكيم كثير العناية بمصنوعاته . قال سقراط : اعتبر ما فصل في الذكور من حب التناسل ، وفي الاناث من الحنين إلى بنها ، وما هو مغروس في كل حيوان من الشوق إلى الحياة والنفور من الموت ، أليس ذلك من عناية صانع قد أراد بقاء مصنوعاته . فاذا تحققت وجود العقل فيك فكيف تظن أن لا وجود للعقل فيها هو خارج عنك مع انك اذا تفكرت في الأرض وانساعها ، وقست ذلك

بجسدك فقد تحققت أنه ليس لك من الأرض إلا أخس جزء وأقله ، وكذلك الرطوبة التي منها تركب جسدك فانها ليست من مجموع الرطوبة إلا أصغر جزء ، وكذلك بقية ماني جسدك فكيف نطق أنك منفرد وتستبد بالعقل دون بقية العالم على سعته ورحبه ، وأن هذه المصنوعات التي لا تدخل تحت الحصر ، وهذا النظام الغريب الحاصل فيها إنما نشأ عن عدم العقل . قال لا والله وإنما لا أرى أصحاب هذه الجهات كما أشاهد أصحاب القنائيل والصور المصنوعة في عالمنا هذا . قال سقراط : إنك لا ترى نفسك المدبرة لبدنك ، فعلى هذا كان ينبغي لك أن تقول ان أفعالك صادرة عن اتفاق ومصادفة لاعن عقل . قال : اني لا استصغر اللاهوت وإنما أراها تجل على أن تكون محتاجة لمبادئي . قال : فإذا كانت لا تجل عن العناية بك كان من الواجب أن تحترمها . ثم قال : اعلم أيها الحبيب ان نفسك تدبر جسدك مادامت مقارنة إياه ، فعليك أن تعتقد أن الحكمة الموجودة في العالم تدبر كل شيء كما شاءت ، أنطق أن بصرك يقدر على إدراك ما بعد عنك على مسافة بعيدة ، وأن بصر الاله لا يقدر على أن يحيط بجميع ماني العالم . انتهى منلخصا منقولاً عن الاستاذ سنتلانه ويناسب هذه المحاضرة التي بين طيارس وسقراط التي ذكرها أفلاطون . قال طيارس : يا سقراط ، لندكر الآن السبب الذي جعل منظم هذا العالم على تنظيمه ، فأقول : إنه كان جوادا ، والجواد لا يدخله نوع من أنواع البخل ، فاراد أن تكون جميع الأشياء حسنة على قدر الامكان ، فنذهب في بيان سبب تكوين العالم إلى هذا الرأي وهو رأي الحكماء ، فقد يكون على الصواب والساد ، ثم كان مراد الاله أن يكون كل شيء خيرا ولا شيء شرا على قدر امكانه ، فأخذ جميع الأشياء المرئية وهي حينئذ مضطربة بتحرك بلا نظام ولا ترتيب فجعل النظام فيها بدل ما كان من الاضطراب .

ثم بعد كلام طويل بين تطور الأبدان من العناصر على يد الله وتصوير الآلات المختلفة من البصر والسمع وغيره . قال : « إن البصر نارجعله الإله في داخل العين ، فن تلاقيه بالنار الموجودة في الخارج يتولد الابصار » وبسط القول في مدح البصر وبيان منافعه . قال : « إن فائدة البصر على ما أرى أنه لو لم تكن لنا القدرة على ادراك الشمس ما كنا نتمكن من الكلام على السماء والعالم ، إذ من مراقبة اليوم والليل ومحول الأشهر والأعوام حصل لنا العلم بالأعداد والشعور بالزمان ، وحدث فينا الشوق لمعرفة الطبيعة والعالم ، فنه نشأت الفلسفة وهي أنفس ما أنعم الله به على الناس » .

ثم قال : « إن الاله لم يقصد من إيجاد البصر فينا إلا أن يمكننا من تأمل دوران العقل في السماء لفستفيد منها تقويم دوران عقولنا ، وتنظيمه على نسق ما زاء في السماء من ترتيب العقل في دورانه إذ هو وذلك طبيعة واحدة » انتهى كلامه .

وجاء في الفصل الخامس من الكتاب الرابع من المذاكرت ما يأتي : « كان سقراط كثيرا العناية بتدريب أصحابه على العمل فضلا عن تعليمهم أصول الفضائل ، وكان يعتقد أن العفة أصل كل خير ، فكان دائم المواظبة عليها ، يكرر ذكرها في محاوراته ، ومن ذلك ماجرى بينه وبين (أوتوديمس) . قال سقراط : أوليس ترى يا حبيبي أن الحرية من أنفس الأشياء للذوات وللدن . قال : هي عندي أفضل الخبرات وأفضها . قال : فإذا سخر الانسان نفسه للشهوات حتى صار لها كالعبد مقيدا عن اتیان الفضائل أتراه حرا ؟ قال أرى أن لا أعبد منه . قال : كأنك ترى أن الحرية هي القدرة على فعل ما هو حسن ، والعبودية أن يسلط الانسان على نفسه ما يسلبه تلك القدرة . قال نعم ، وكأنك ترى أن من عدم العفة كان من الرقيق . قال : انه والعبد على حد سواء ولا جور . قال : هل ترى أن عبد الشهوات ممنوع عن الخبر فقط ، أوليس هو مجبوراً على اتیان الشر أيضا ؟ قال نعم . قال : انه ممنوع عن الخبر مجبوراً على الشر لا محالة . قال : وما ترى فيمن ينهى عن الخبر ويأمر بالشر ؟ قال : إن شر الأرباب هو . قال : وما شر العبودية ؟ قال شر العبودية ما سخرت لشر الأرباب

قال سقراط : فلاشك حينئذ أن من اتبع شهواته إنما هو مسخر لشر عبودية ، وأليس ترى أن الانهماك في الشهوات يبعد الانسان عن الحكمة ، ويحمله على تقيضها ، فباله مشغول بطلب اللذات عن الأشغال المفيدة وهو مجبور على اختيار الشر مع علمه الفرق بينه وبين الخير ، فبسط الكلام في منافع العفة ومفاسد عدمها ، حتى قال : « إن عدم العفة لا يبلغ ولا الغرض المقصود منه وهو اللذة ، لأن صاحب الشهوات لا يصبر على الجوع والعطش والسهر وغيرها التي هي سبب التنازنا بالأكل والشرب والنوم ، إذا أمسكنا عنها تكافنا العفة وصاحب الشهوات لا ينال من ذلك ولا أصغر جزء . قال : فالعفة إذن سبب علمنا بالخير ، وتعاطي ما به يصح البدن ، ويستقيم تدبير المنزل ، ويقدر المرء على مساعدة أجهته ، ووطنه ، ومبارزة أعدائه . كل ذلك من العفة » انتهى

ولخص كلامه بأن قال : « لافرق عندي بين الحيوان والانسان المنهمك في اللذات ، كيف يتميز من الحيوان من لم يقصد من الامور إلا أذنها ، لا أحسنها ، لا يتأني اختيار أحسن الأشياء إلا لمن تكلف العفة ، فقدّر بذلك على تمييز الأجناس جنسا جنسا قولاً وفعلاً ، وعلى اختيار الحسن منه ، والامساك عن خلافه .

عناية سقراط بالتعريف والحد

كان سقراط شديد العناية بالتعريف والحد ومعرفة حقيقة الأشياء بحيث يجرد عنها من العوارض الشخصية فالانسان مثلا عند تعريفه يقطع النظر فيه عن أمثال القصر والطول ، والذكورة والانوثة ، وهكذا ، وما بقي بعد ذلك فهو : هوية الانسان ، وحقيقته ، وجوهره ، الذي يقوم به وجوده . قال : فإذا أدرك الباحث هذا الحد من بحثه لم يبق له ما يطلبه ، وقد ظفر بالمعنى العقلي الذي به يتصور الانسان ، وهو وجوه الانسان شيء واحد ، وهنا أخذ سقراط يبحث في نفس الانسان وأخلاقه من الصبر والشجاعة والحياء والعفة الخ معتقدا بأن لاشيء أهم للانسان وأجدى عليه من تحسين سيرته ، وتهذيب ضميره ، وأن ذلك أكثر حاجة من اقتناء العلم ، فإن من اقتنى علما كثيرا وقلبه بالهوى مشغول ، ونفسه دنيئة مغمورة في الطبيعة كان كالبناة على ضير عماد ، لا يحصل له من نعمة إلا مزيد العناء ، ولكن تلاميذ سقراط استعملوا أساليب أساذهم في البحث في الاطيات ، وأشهرهم :

أفلاطون

وله سنة ٤٢٧ ق م — ومات سنة ٣٤٧ ق م

لقد نقل الاستاذ (سنتلته) كلام أفلاطون فقال مانسه : « قال أفلاطون في المقالة الخامسة من كتاب النواميس : ينبغي لمح الحكمة أن يعنى أولا باستنباط العلة للعقولة ، ثم منها ينتقل إلى ما يصحك بنوع حركة ضرورية ، يعنى بذلك الطبيعيات ، وقال : إن الصلح الحقيقي الذي هو مطمح العقلاء ، ومطلب الحكماء ، لا يكون مبناه إلا الوجود الحق ، فالوجود الحق هو في نفس الأمر العناية المقصودة من العلم والحكمة ، فكيف السبيل إليه ؟ قال : لا يتأني الوصول إلى مثل هذا العلم مادام الانسان منقسما مغمورا في المحسوسات مقسورا عليها إذ « الهولي » أى العنصر الأول الذي منه تكوّنت الموجودات الطبيعية دائم التغير والسيلان عبر الإدراك ، والعرفان لا يستقر طرفه عين ، يقبل جميع الصور ، ولا يثبت على صورة ، فلا يحسن والحالة هذه اطلاق اسم الوجود عليها ، ولا اطلاق اسم العلم على ما يتعلق به من الإدراك ، والحال أنه يستحيل تعيين ماهيته ، ولا التصير عنه ، فهو للوجود الحق بمثابة الظلام إلى النور ، فلو بقي الانسان محصورا في هذا الطور من الوجود ما تمكن من معرفة العالم ، ولا من معرفة نفسه بشيء ، وغاية ما يناله هوشى ، شبيه بالصلح قد سماه

أفلاطون بالظن وبالوهم هولاء كالتخيال للجسد ، يختلف باختلاف الأوقات ويسيل معه سيلان المادة لا يثبت صاحبه على يقين ألبتة .

هذا شأن علم السوفسطائية ، وكل علم لم يكن له أساس إلا الحس ، لأن الحس يتغير ويتغيره تختلف القضايا والأحكام العقلية . قال : فلا بد من أن يكون في العالم شيء لا يغيره التغيير ، ولا يقطرأ عليه الاستحالة والفساد ، والأفلاطون ولا يقين ولا حكم بشيء ، إذ العلم ما تعلق بالحق ، والحق مطابقة الصورة المرئسة في ذهننا بالجوهر الموجود في الخارج ، فلولم يكن هناك جوهر ثابت بسيط غير قابل للتغيير ما أسكن العلم بشيء . قال أفلاطون في المحاوراة المترجمة (بتيانينوس) : « كيف يتصور أن يحصل الإنسان على الحق ما لم يكن له حصوله على الحقيقة » انتهى .

فلزم من ذلك أنه يوجد وراء المحسوسات صور قائمة وجواهر دائمة يتعلق بها علمنا ، وهي للمحسوسات بمثابة الشبح للتخيال قد سماها أفلاطون بالمعاني ، وتعرف عند العرب بالمثل الأفلاطونية ، وهو جمع مثال وبال يونانية (بواديكبا) قد استعملها أفلاطون أيضا . قال الشهرستاني في صفحة ٢٨٣٣ يحكي عنه ، أي عن أفلاطون أنه أثبت لكل موجود مشخص في العالم الحسي مثلا موجودا مشخصا في العالم العقلي ، يسمى ذلك المثل الأفلاطونية . انتهى

قال أفلاطون : ما من شيء في هذا العالم إلا وله في العالم العقلي معنى يقابله هو عماد وجوده ومنبع حياته وأصل حركته ، وموضوع علمنا به ، فلإنسان مثلا والحیوان من كل ما ثبت نوعه ، واستقر وجوده له بخلاف الأمور الطارئة له في العالم العلوي مثال بسيط مجرد عن القشور العادية والطارئة الحسية مفارق للمادة قائم بنفسه ، فهما حينئذ عالمان متقابلان متطابقان : عالم الحس والشهادة ، وعالم العقل واليقين . فعالم الحس فيه من التواتر المفردة الناقصة المتغيرة ما يقابله في عالم العقل من كليات المعاني الكاملة الثابتة وهي التي بها يصح تثبيت معرفتنا بالوجود ، وهذه القاعدة الأفلاطونية مما ينبغي فهمها لمن أراد فهم أقوال حكماء الاسلام ، قد أشار إلى ذلك ابن سينا في بعض رسائله حيث قال : « فالحيوان الواحد لا يحصل واحدا وقد تقدمه معنى الوحدة التي بها صار وانحصر ولولاه لم يصح وجوده ، فاذن هو الأشرف الأبسط الأول ، وهذه صورة العقل » اه
قال الامام الرازي في « مفاتيح الغيب » في المجلد الرابع صفحة ٧٣٧ مانسه : « مذهب حكماء الاسلام أن الموجودات القائمة عن الحواس علل ، أو كالمثل للموجودات المحسوسات ، وعندهم أن العلم بالهة علة للعلم بالمعول ، فوجب كون العلم بالغيب سابقا على العلم بالشهادة ، فلهذا السبب أيضا جاء هذا الكلام في القرآن كان الغيب مقاما على الشهادة ، فهذا كما علمتم هو مذهب أفلاطون ببينه ، فإذا قيل : علمنا ما هو للوجود وما هو اليقين ؟ وما هي المعاني ؟ فما الطريق إليه ؟ قال أفلاطون : « إن المعاني تنكشف للبصيرة دون مشاركة الحس » ، فإذا تجردت النفس عن الملائق الطبيعية ، وانحازت إلى جوهرها صفا بصيرها فأدركت تلك الجواهر وذلك لأن النفس كانت في العالم العقلي بصفة معان قائمة وجواهر مجردة عن المادة فأصبحت إلى هذا العالم حتى تدرك الجزئيات ، وتستفيد ما ليس لها من ذاتها بواسطة القوى الحسية . قال : وقد كنا أدركنا حينئذ المعاني العقلية في أول الفطرة قبل الهبوط إلى هذا العالم السفلي ، فإذا شرعت في التعلم فكأنها أفاقنا من نومها وفتحت بصيرها ، وتذكرت ما رآته في حياتها السابقة ، فإذا واطبت على ذلك ولم تنكسر حصل العلم شيئا فشيئا وما هو في نفس الأمر إلا رجوع النفس إلى جوهرها واتصالها بعالمها الذي منه هبطت وإلى تعود ، ومنه قول أفلاطون في تعريف العلم انه اتصال جوهرنا المعقول بالجواهر المعقولة التي في الوجود . وقال أفلاطون في المقالة الخامسة من كتاب النواميس : « إن محب الحكمة دائم النزوع إلى الوجود ، معرضا عن الأفراد والظواهر ساعيا في البحث عن الماهيات العقلية ، لكي يتصل جوهره العقلي بما في الأعجيباء من الجواهر المعقولة

فيشدها بما بينهما من المشاكسة والمجانسة فتولد من اتصالها المعرفة واليقين ، فما العلم في نفس الأمر إلا تذكر النفس حالها السابقة التي كانت عليها قبل الوجود البشري ، وما قد تشاهده في تلك الحياة السابقة ، فهو أشبه شيء بالولادة ، والنفس أشبه ما يكون بالمرأة الحبل ، تلقى حملها وتبرز ما كان في قواها كما نأ ، وفي جوهرها باطناً .

ومن ذلك أخذ الامام الغزالي في أصل النفس قوله في الرسالة الدنية صفحة ٢٤٠ : « العلم مركوزة في أصل النفس بالقوة كالبندر في الأرض ، والجوهر في قعر البحر ، أو في قلب المدن ، والتعلم هو طلب خروج ذلك الشيء من القوة إلى الفعل » .

ثم قال في صفحة ٢٤٠ ماضيه : « وليس التعلم إلا الرجوع النفس إلى جوهرها واخراج ما في ضميرها إلى الفعل » اهـ

وقد رأينا عالماً يمرض بمرض خاص كالرأس والصدر تعرض نفسه عن جميع العلوم ، ويفسى معلوماته ، وتلبس عليه ، فإذا صح وعاد الشفاء إليه يزول النسيان عنه ، وترجع النفس إلى معلوماتها ، فتذكر ما قد نسبت في أيام المرض العارض ، فعلما أن العلوم ما فبت وإنما نسبت ، فاشتغال النفس بالتعلم هو إزالة المرض العارض عن جوهر النفس لتعود إلى ما علمت في أول الفطرة . انتهى كلامه .

فهذه أمثالها مما يوجد في كتاب الاحياء للغزالي ، وفي التفسير للامام الرازي ، وفي مصنفات محي الدين ابن العربي وغيره من المتصوفين بقطع النظر عن فلاسفة الاسلام هي أفكار أفلاطونية محضة ، يجهلونها ببسوط في المحاورات الأفلاطونية ، لاسيما في المحاوراة المترجمة (بنيانينوس) وفي الفيديون : « قال الاستاذ سنتلانه للطلبة : كان بودي أن نطالع شيئاً منها لوساعد الوقت » ثم قال في محاضرة أخرى ناقلاً عن أفلاطون « قد يصعب في علمنا الحسي العروج إلى المعاني على صفاتها الأصلية وهي في الأشياء الحسية كالتخيال في الماء السكر ، فمن أراد أن يدرك المعاني فعليه أن يجرد الأشياء عن قشورها المادية وظواهرها المتغيرة حتى يصير شيئاً فشيئاً إلى ما في أصلها إلى الجوهر الثابت المقبول ، فقد جاز بذلك على حقيقة الشيء وجوهره المطابق لصفاء الموجود في العالم العقلي ، وهذا كما علمتم مذهب سقراط اقتبس عنه أفلاطون وجعله أساساً للامانيات ، قال : فإذا عرج من المحسوسات إلى المعاني ، وروض فكره فيها كشف من المعاني علمها غريب الباه والكمال اندرجت فيه المعاني بعضها تحت بعض كما يندرج في عقولنا ما هو أخصم فيها هو أعم ، فيصعد من الصورة العامة إلى ما هو أعم منها وجوداً وأرض شيئاً وكلاً إلى أن تتحد جميع تلك المعاني في ذات الاله قدس وتعالى (أقول : هذه عبارة الاستاذ سنتلانه التي نقلها عن أفلاطون وهي موهمة لا تجوز في عرف البيانات) وهو ما سماه أفلاطون بالخير المحض ، وبالكمال المطلق ، وبالوجود المطلق ، وبمعنى المعاني أيضاً ، فالمعاني كأنها أفكاره ، (أقول : وهذه العبارة لا تجوز عند أهل البيانات) وصفاته ومجموعها حكمته التي أوجد بها العالم ودبره وأخرجه من الظلام والاختلاط إلى النور والنظام والترتيب ، وقد اوضح بذلك أن العالم في قبضة الخير المحض وأنه مامن شيء إلا وله مصلحة هي المقصودة من وجوده ، وهذا هو الركن المهم في الطبيعيات عن أفلاطون ، ولا يمكن لنا أن نخوض فيها الآن ، ثم قال : وبه تعلق أيضاً ما قلناه في الأخلاق . قال أفلاطون : فمن أدرك تلك المعاني وتحقق ما هي عليه من الكمال والجمال استصغر دنياه وما فيها ، واستحق ما شفقت به نفوس العاقبة من سب الحياة وجمع المال ، والتوسع في المكاسب ، والانتهاك في اللذات الحيوانية ، وتشوق هو إلى الرجوع إلى وطنه ومنشئه ، ليس الانسان كما ذكرنا إلا روحاً أي معنى من المعاني قد تعلقت نفسه بيدن هو لها كالسجين للظلم فإذا أفاقت بتأثير العلم لم يكن حرصها واجتهادها إلا على التخلص من هذا الرباط والخروج إلى عالمها الروحاني فلم يبق إلا تنقية نفسه ، وتزكية ضميره ، وصقل قلبه من الرعونات ، لكي يكون مستعداً للاتصال بتلك

الجواهر الصافية . قال : هذا شأن كل من كانت فضة على الفضة أو قربة منها تزايد العلم فيها ، وما ازداد الانسان علما إلا وقد ازداد إلى تلك المعاني قربا ورغبة ، وعن الطواهر الفانية إغراضا وفضورا ، فإذا كتلت حكمة الرجل ومم عروجه من معنى إلى معنى كان آخر أمره الاتصال بالعالم الروحاني ، وفي تمام الحكمة ، وكال السعادة الأبدية التي ليس بعدها سعادة ولا حكمة إلا ما اختص به الاله تعالى دون غيره لا يشركه فيه أحد ، ويلزم من ذلك أن المعرفة ومكارم الأخلاق لا يفترقان ، وهذه من الاصول المهمة عند أفلاطون ، عليه تأسس مذهب في الأخلاق . قال : ان السقل لا يختار ما هو أضر وأذى وهو يعلم أن هناك ما هو أرفع وأصلح ، فإذا وقع ذلك منه لا يكون إلا للجهل بما هو أصلح ، أو عدم رسوخ السلم ، أو ضعف اليقين ، فكل من ارتكب الذنب والظلم والشتم ، ومن انتهك في الذات الحيوانية ، ومن أفرغ عمره في طلب الدنيا لا يطلق عليه اسم مذهب ولا يجرم إذ لا ذنب باختيار وعلم ، والحق أنه لا يعلم إذ اختار ما هو أخص رتبة ، وأقل بقاء ، وأضر عاقبة ، وترك ما هو أعم نفعاً ، وأثبت بقاء ، فهو إذن بالرجة والعذر والتعليم أحق منه بالعقوبة .

ثم قال الاستاذ سنتلناه للطالبة : عرفتم تتابع المذاهب ، وكيف كانت مذاهب الأولين الطبيعية ولا عماد لهم إلا الحسن ، حتى لم يكن للعقولات عندهم رسم ولا ذكر ، فانقلب بعد سقراط وأفلاطون الأمر بالكلية ، فصارت الطبيعة نبعا والعقل متبوعا ، والطبيعة الموجودة آثارا والعقل مؤثرا ، ولم يبق للهوى فضل ولا وظيفة في العالم إلا من حيث القابلية والانفعال ، وانحصر الموجود والتأثير في العالم في العقل والنفس الانساني وهو من ذلك العالم ، وترقى العقل الانساني إلى الاعتراف بوجود الاله وتديره للعالم وأنه خير محض ، فن تبصر في هذا الفرق العظيم ، وتصنع الرسائل الأفلاطونية ، وعلم ما بها من متانة الحكمة ، ودقة الأفكار ، وجزالة اللفظ لم يسعه أن ينكر ما لهذه الفلسفة من علو المقام انتهى اجتمعت عليه الأوائل والأواخر ، فن تأمل التاريخ وأرى الفلسفة الأفلاطونية سارية في أفكار الأمم منذ نشأتها سرعان الدم في بدن الانسان ، منها أخذ أرسطاطاليس ، ثم الاسكندر يون ، نصيبا وأقرا من أصولهم ، ومنها أخذ الاطليون من النصراني أمهات أقوالهم في النفس الانسانية ربقائها بعد الموت حتى امتزجت باعتقادهم امتزاج العرق باللحم ، ومنها أخذ جيم غفير من المعتزلة ككثامة وأبي هاشم وغيرهما من حكماء الاسلام أقوالهم ، ومنها اقتبس فلاسفة القرون المتوسطة من النصراني واليهود كما أخذ منها البعض من فلاسفة ألمانيا في القرن السابق ، ولا زالوا منها يقتبسون . فقل هذه الفلسفة التي علا صيتها بين الأمم ، وأثرت في أفكارها مما يستدعي من كل طالب الحكمة طول التأمل ومزيد العناية . انتهى ما قاله الاستاذ سنتلناه بالحرف .

وانما نقلت هذا الكلام بمرته لأني وجدته أشبه بمجزة لنبينا محمد ﷺ فهذا القول آخر ما وصل اليه العقل الانساني ولم يزد عليه أحد كما سأريده ايضا بعد ، وهو آخر سلسلة علوم الأوائل ونهايتها ، ومع ذلك جاء بما هو أعلى منه القرآن ، فهذا عجب أن نحى نهاية الحكمة على لسان من لم يقرأ حرفا واحدا ، ولم يتعلم ، وهو أمر عجيب وغريب ا

فقال بعض الطلبة لي : ما إجمال ماضى من آراء الفلاسفة ؟ قلت : ان الغاية المطلوبة من الفلسفة هو العلم اليقيني ، ولا يقين فيما يطرأ عليه التغير ولانبوت له ، فهو إلى العدم أقرب منه إلى الوجود ، وهذه حال الطبيعة ، فاذن لا تتخلو الحال من أحد أمرين : إما أن لا يتمكن الانسان من العلم ، وهذا رأى السوفسطائية وكل من أنكر الحقائق ، وإما أن يكون وراء الطبيعة ما لا تدركه حواسنا من الجواهر الثابتة التي لا يتطرق إليها التغير وتتكون موضع العلم اليقيني ، وهذا ما حل أفلاطون على انبات ماسماه بالثاني وهي جواهر مجردة عن المادة مفارقة للطبيعة الحسية تفيدنا العلم اذا تعلق بها عقلا . فقال : فماذا جرى بعد ذلك ؟ فقلت :

آراء أرسطاطاليس

هناك قال أرسطاطاليس تبعه : أنا لا أنزع في أن موضوع الفلسفة هو الوجود ، ولا أنزع في أن الحسوسات الطبيعية ليست من الوجود في شيء . فلا يمكن اتخاذها أساسا للعرفة ، ولا أنزع في أن العلم لا يتعلق إلا بالكليات لا بالظاهر والأفراد ، كل ذلك سأنه ، ولكن أنزع في قول أرسطاطاليس : « إن الكليات التي تعلق بها العلم إنما هي جواهر قائمة بنفسها مفارقة للمادة ، فكيف تكون الكليات قائمة بنفسها مفارقة للمادة ، وهي في الوقت نفسه مؤثرة فيها ، فهنا لا تخلو الحال من أحد أمرين : إما أنها مفارقة لا اتصال لها بالأفراد كالإنسانية العلة لا اتصال لها بزيد وعمرو ، فكيف إذن أثرت في الأفراد الوجود وهي مفارقة لهم وإما أنها مقارنة والمقارن للمتغير متحرك متغير ، فأين الثبات والديموم الذي امتازت به تلك الكليات ثم أين للمفارقة ؟ إذن كلام أفلاطون عندي مشكل ، فإنه أثبت مفارقة الكليات لأفراد الموجود منها وأثبت تأثيرها فيها ، إذن المفارقة مقارن أن التأثير بغير المقارن غير ممكن (يقول مؤلف هذه الرسالة : هذا القول في عصرنا منقوض فتأثير المفارقة حاصل الآن على بعد) ثم كيف يكون جوهر الشيء مفارقة لما هو جوهره ، وكيف ينطبق الجوهر الواحد على زيد وعمرو الخ ، ثم إن ما زعمه أفلاطون من أنه منطبع في الأفراد انطبوع الصورة في المرآة كلام تشبيهي تمثيلي والمثال غير الحقيقة ، إذن هو أثبت علمين : عالم العقل ، وعالم الحس ، ولم يبين وجه الاتصال بينهما . فقال أحد الطلبة لي : فإذا فعل أرسطاطاليس إذن ؟ قلت قال إن أساس العلم شيء نراه بأبصارنا ، ونحس بحواسنا ، وهو الصورة ، ذلك أن العالم الذي نراه هو عبارة عن مادة ، ولكن هذه المادة إنما هي أمر عدمي (وبعبارة أخرى) هي مجرد استعداد أو اسكان ، وهذا الاستعداد أو الامكان أو العدمي تعين لنا وظهر لنا بالصورة ، فإنا نفرق بين صورة الكرسي والشباك والباب والسقف وجميعها من الخشب ، فالخشب المشترك بين هذه الأربعة نسميه مادة لها ، والأشكال التي رأيناها من المقادير طولاً وعرضاً وعمقاً ولونا وما أشبهها نسميه صورة ، فهذا التمثيل جعلناه تفهيماً للمادة العامة ، والصورة العامة ، والمادة أو الطوبى العامة لا وجود لها إلا بالصورة وهي في نفسها امكان محض ، فإنا قطعاً ما رأينا مادة إلا وهي متميزة بصورة ، أما المادة وحدها فلم نجد لها ، فإنا نرى كوكبا وشمسا وقمرًا رجادا وحيوانا وأرضا ، ولم نرهى طوبى بغير صورة ، فالصورة هي التي تعلق بها العلم وهي موجودة نشاهدها ، أما الكليات والجواهر العقلية فوجودها ذهني لا خارجي ، فكيف يتعلق بها العلم ؟ فالعلم إذن يتعلق بالصورة فينزع العقل الكليات من تلك الصور ، فيرى أفرادا في الوجود ككفرس وإنسان وعصان فيقول حيوان ، ويرى حيوانا وإنسانا ونهاتا فيقول نام ، وهكذا ، فهذا هو موضوع العلم من أنزع العقل الكليات ، لا أن الكليات هي أصل العلم ، بل هي فرع عن الأفراد الخارجة المحسوسة فهي الثابتة .

فقال بعض الطلبة : فما تفرع على هذين المذهبين ؟ قلت : تفرع عليهما في الاسلام الخلاف بين الأشاعرة والمعتزلة كما يقوله الأستاذ سنلانه ، فإذا سمعت الأشاعرة يقولون : « إن وجود الشيء عين ماهيته » فهذا هو عين قول أرسطاطاليس ، وإذا سمعت المعتزلة وفلاسفة الاسلام يقولون : « أن الوجود غير الماهية » وأثبتوا اسم الوجود لما يتصور في العقل ولما يمكن وجوده وهو نفسه معدوم . قال الأستاذ سنلانه : وما هنا إلا رجوع إلى مذهب أفلاطون .

ثم قال أرسطاطاليس : « إن المادة والصورة لا يميز بينهما إلا باعتبار العقل ، وفي الحقيقة لا ينفك أحدهما عن الآخر ، فللمادة توجد بدون صورة ، ولا لصورة خالية عن المادة » انتهى

وقال أرسطاطاليس أيضا : « فهنا أمران : مادة وصورة ، ولما كانت المادة تخلع صورة وتلبس أخرى كان هناك أمر ثالث لا بد منه ملازم لها وهو المسمى :

الحركة

فالمادة أبدا منتقلة من صورة إلى صورة ، وهذا الانتقال نسميه حركة من مكان إلى مكان ، أو من جوهر إلى جوهر آخر ، أو من كمية إلى كمية ، هذا قوله ، ومعناه أن الغذاء إذا صار في الحيوان جسم سبع مثلا ، والطفل إذا نما سنة فسنه ، والإنسان إذا صار من مكان إلى مكان . فهذه كلها نسميها حركات فالأولى حركات جوهر إلى جوهر ، والثانية نسميها حركات في الكمية ، والثالثة نسميها حركات في المكان . قال :

الطبيعة

هي مجموع الثلاثة : المادة ، والصورة ، والحركة . قال أرسطاطاليس : إن المادة دائماً النزوع والنشوق إلى الوجود لا تزال تشتاق إلى الاتصال بالصورة حتى تستكمل بها ذاتها ، فإذا بلغت من الصورة درجة ما فلا زالت تشتاق إلى ما فوقها ، فهي أولا مادة كانت أن تكون عارية من الصورة خالية من الأوصاف والتعيينات الفعلية ، ثم ترتقي فتصير معدنا ، ثم ترتقي فتصير شيئا متوسطا بين المعدن والنبات ، ثم تصير نباتا فتلتحق بها النفس النباتية ، وآخر درجة منها شيء متوسط بين النبات والحيوان ، ثم تصير حيوانا فتلتحق به النفس الحيوانية ، وآخر درجة منها شيء متوسط بين طبيعة الحيوان وطبيعة البشر ، ثم يصير إنسانا فتلتحق بمادته القوة العقلية وهي نور إلهي يأتيه من خارج ثم ما فوق الإنسان من الجواهر المفارقة والنفس المجردة ، فهي كالسلسلة ارتبطت كل حلقة بالأخرى ، وكالدراج تابع بعضها بعضا إلى أعلى المنزل . ثم قال : ومن تبصر في هذا الارتقاء العجيب تحقق أنه ما من خطوة تخطوها الطبيعة إلا وقد خلعت شيئا من أوصافها العادية وقشورها الدنية ، وازدادت صفاء ونورا واتحادا وبساطا إلى أن تصل إلى صفات العقل ، فهو ارتقاء من القوة المنخفضة إلى العقل المحض ، ومن المادة المجردة إلى العقل الصرف ، والسكل متوجه لا محالة إلى الخبر المحض ، وهو الغاية المقصودة من الطبيعة .

وقال أرسطاطاليس أيضا : « إن العالم مثل المنزل الواحد ، فيه أبواب وأحجار وعبيد وبهاثم ، جمعهم صاحب المنزل في محل واحد ، ورتب لكل منهم وظيفة خاصة وخطة معلومة لا يتجاوزها حتى يحصل بتعاونهم مصلحة الجميع ، أو هو كالجيش الواحد اجتمع تحت اذن أميره اختلفت فيه المراتب والخطط ، واتحد الكل بكلمة الأمير . قال : وبدون هذا الأمير لا يستقيم وجود الجيش ولا تنظيم حركته . قال : فإرأينا في العالم من تناسب الحركات واتحادها يلجئنا إلى الاعتراف بوجود هذا الأمير ، وهو الإله ، وهو مبدأ الحركات ، وهو غير متحرك » .

فهذه آراء أرسطاطاليس ، وما تقدم قبله من آراء سبقته ، هي آخر ما وصل إليه العقل الإنساني إلى عصرنا الحاضر ، وليس هناك فلسفة غير ما تقدم ، فكل ما سمعته في بلادنا المصرية وبلاد الشرق وبلاد أوروبا في عصرنا لا يخرج عما سمعته الآن .

فقال أحد الطلبة : هذه رسالة فلسفية ، والفلسفة لا تعتمد إلا على دليل ، فما دليلك على أن العالم كله شرقا وغربا لم يخرج عن الآراء المتقدمة من أيام تاليس إلى أيام أرسطاطاليس ؟ فقلت له : قال الأستاذ ستانلانه الطلياني : « انك إذا أردت أن تفهم الفلسفة حق الفهم فلا بد لك من معرفة آراء الأقدمين ، إذ الفلسفة وسائر العلوم كلهم يكونون طفلا ثم يشب ثم يصير كهلا وهو شخص واحد ، وكالسلسلة كل حلقة منها

ارتبطت بالأخرى حتى لا يمكن حلها من غير أن يفسد الجميع ، فمن لم يقف على أقوال القدماء حتى الوفوف لا يمكن من استنباط آراء المعاصرين ، ولأمن سبب اتخاذهم رأيا دون رأي ، ولا ما آلت إليه الفلسفة في حالها الراهنة .

قال (باكون) الفيلسوف الإنجليزي : « إن التاريخ للعلوم كالبحر لجسد الانسان ، به يبصر ما تقدم وما بين يديه ، لكي يعلم الناحية التي ينبغي له أن يفسدها » انتهى كلامه .

ثم انه لا يخفى أن المسائل الفلسفية لا تتغير بتغير الزمان ، وهي الآن على ما كانت عليه في القرون الماضية من البحث عن ماهية الوجود ، ووجود الاله ، وجوهر النفس ، وكيفية اتصالها بالبدن ، وادراكها بالحس ، وما هي حق المعرفة والميزان الذي به يقاس حقيقتها . فهذه المسائل وأمثالها التي اشتملت عليها الفلسفة لم تختلف باختلاف الأجيال ، أنظن أنا نحسن الجواب أكثر مما كان يحسنه أفلاطون وأرسطر ، لا والله أنا لو قدرنا على ذلك لقدرنا على الانصاف بصفات الالهية ، وشتان ما بين البعوضة والفيل ، فلوراجعت هر بارت سبنر مثلا لوجدته يعترف في كتابه المرسوم بالاصول الأولية بأن الأوليات في الفلسفة مما لا طاقة للبشر عليها وأن لاسبقية لنا على الأقدمين إلا في المسائل الجزئية ، والمباحث الفرعية ، دون ما همنا حله من اشكالات الاصول ، فالمسائل باقية والجواب يختلف ، وكل جيل أخذ سبب من نقله بخطوات ثلاث خطوات ويؤخر أخرى وبيننا وبين الغلبة المقصودة بول بعينه يكاد لا يتصوره عقل البشر فضلا عن أن يتخطاه ، ذلك سر الله لا يحيط به إلا هو .

ثم قال الاستاذ (سنتلاه) : « فلا يفرغ نك أيها الحبيب شققة المتفلسفين ، وأنصت إلى الفلاسفة تجد كلاما منهم متبعا رأيا من آراء من تقدم ، يوافقه تارة ويخالفه أخرى إلى أن ينتهي النسق إلى فلاسفة اليونان ، ولهم حتى النسق وفضيلة التمهيد .

فقال بعض الطلبة : حقا يقال : « إن كنت ناقلا فالصحة ، وأمدعيا فالدليل » وهأنت ذاصح نقلك فلا سبيل إلى المعارضة ، ولكني هنا أريد أن أعرف تفصيل ما أجمله من نقلت عنهما فانهما يقولان ان الآراء كلها في عصرنا ترجع الى علماء اليونان (وبعبارة أخرى) ان السلسلة المتقدمة التي ذكرتها لا يصدوها من مذهب من المذاهب في الشرق والغرب الآن ، فأرجو أن تذكر لنا أمثلة على ذلك حتى يصح لدينا أن الآراء لاتصدو تلك السلسلة الفلسفية المبتدئة بتالس المنتهية بأرسطاطاليس .

قلت : مثال ذلك أنه ظهر في أواخر القرن السابع عشر في انجلترا الفيلسوف الإنجليزي (جون لوك) وكان يقول : « إن المعرفة سببها الاختيار والبحث ، ولا سبيل الى البحث بغير الحواس ، والحواس توصل ما في المادة من المعاني الى النفس ، فالمادة أصل والامور العقلية فرع ، فههنا ثلاثة أشياء : مادة ، وعقل ، وحواس . فالحواس خدام ينقلون صور المادة الى نفوسنا ، فالمادة هي الأصل والمحور ، والحواس خدامها ، وللمادة الأثر الفعال ، والفلسفة ترجع الى المادة لا غير ، أليس هذا الرأي يرجع الى آراء الفلاسفة الأولين اليونانيين الذين قالوا : « إن العالم يرجع الى المادة من هواء أو ماء أو جزء لا يتجزأ » . فقال نعم هـ ا حتى قلت : ثم جاء بعده :

باركلي

فقال : إن قول (لوك) يثبت من نفسه أن المادة ليس لها وجود مستقل ، وانما هي موجودة ، لأن حواسنا تشعر بها ، فاذا لم تكن الحواس لم تكن المادة ، فكان هذا المذهب راجعا إلى مذهب أفلاطون تقريبا ، لأنه جعل المادة تابعة للحواس ، ومعلوم أن الحواس تابعة للنفس . وأفلاطون يقول : لا وجود إلا بالامور العقلية ، ولا علم يتعلق إلا بها . ثم جاء :

هيوم

وألف رسالة عنوانها « الطبيعة البشرية » جرى فيها (باركلي) في نفي وجود المادة المستقل ، ثم أثبت بنفس هذه الطريقة أن العقل ليس له وجود مستقل ، ولا جرم أن هذا ينحونحوالسوفسطائية الذين لا يثبتون علما . ثم جاء :

الأستاذ كانت الألماني

وألف كتابه « تحليل العقل المجرد » ووضع فلسفته الكالية ، وأثبت أن المدار على العقل ، وأنه أصل المعارف والعلوم ، فجعل للعقل والنفس الشأن الأول في هذه الحياة ، وأخذت ألمانيا كلها تهتم بما وراء الطبيعة وتبعه أمثال (شالر) ، و (غونه) ، ونقل عنه (بنوفن) قوله : « إن عجبتي في الحياة هما القبة الزرقاء ترصعها الكواكب » و « التاموس الأدبي في نفس الانسان » . وتبعه (شلتغ) و (هيجل) و (شو بنهور) وكان كتابه « تحليل العقل المجرد » كان تمهيدا لآراء شو بنهور وبنيتشه وبرغش ووليم جيس ، ولا يزال نظامه الفلسفي قائما ، لأن العلم الحديث في اشخاص بيرسون وبرانكاري أثبت أن الحقيقة والمادة والطبيعة ونواميسها كلها مما يتنبطه العقل ولا وجود لها إلا بوجوده ، فكان أن كليل النصر عقد لكانت وفلسفته فإزا على المادية والاحاداه

فقال بعض الطلبة : ولأى المذاهب يرجع هذا ؟ فقلت : هو أقرب إلى قول أفلاطون وقد تقدم قريبا فقال آخر من الطلبة : تزيد جدولا بين ما تقدم كله . فقلت : هذا جدول يعرف مذاهب الفلاسفة ومراتبهم في العلم قديما وحديثا بحيث يرد كل مذهب إليه ، وقد تقدم بعضه ولكننا نذكر ما تقدم وما يبنى عليه ، وهذا فقه

(١) هؤلاء هم الطبيعيون ، هم يشبهون الجنين ، والدود في الطين ، أرق بطن الحيوان ، أوحاسة اللس .

(٢) هؤلاء دهريون ، هم يشبهون الطفل وحيوانا له حاستان

(٣) هم سوفسطائية ، يشبهون الشاب ، وحيوانا ذا ثلاث حواس .

(٤) هؤلاء يشبهون البالغ وحيوانا ذا أربعة حواس وهو الخلد (بالفتح) في الظلمة

(٥) هؤلاء يشبهون الفتى ، وحيوانا ذا خمس حواس كالأنعام .

(٦) هؤلاء الحيوان ، يشبهون الشيخ الكامل وملكا من ملائكة السماء .

(١) تاليس المائطي : عنده أصل العالم الماء انكسيمانيس : عنده أصل العالم الهواء انكسيمندر : عنده أصل العالم مادة لاصورة لها .

(٢) ديموقراطيس . أنابذوقلس : أصل العالم عندهم الجزء الذي لا يتجزأ وهو دائم أبدا

(٣) بروتاغورس . غورغاريس . بيرون شيعتهم عندية . عنادية . لأدرية

(٤) وبعدهم فيثاغورس يقول : الأصل العدد ، وأنابذوقلس يقول : الأصل المحبة والكراهة .

(٥) أنكساغورث يقول : أصل العالم عقل نظمه .

(٦) سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطاطاليس

(١) جون لوك : مادي يشبه تاليس المائطي وهو انجليزى .

(٢) داروين يبيع الدهريين ، والمتمدون في مصروف الشرق أشبهوا مذهب الدهريين

(٣) هيوم يشبه السوفسطائية ، وكذلك بعض المتعلمين في أوروبا ومصر وبلاد الشرق الذين يشكون ولم يقتنوا على الحقائق لوقوعهم على الظواهر وجعلهم بالفلسفة .

(٦) باركلي ، وكانت الألماني يشبهان أفلاطون ، وكذلك : سبسر ، وجون لوك ، وأوليفر لودج .

ومن العجب أن علماء الشرق والغرب يرجعون في هذا المقام الى نقطة واحدة هي مركز الاتصال ، فلقد قرأت في كتاب « راجايوفا » الذي ألقاه في سنة ١٨٩٥ وستة ١٨٩٦ بهيئة محاضرات الاستاذ (سوامي فيسكتدا) بعنوان « الفلسفة الیوجينية » في مدينة نيويورك بالولايات المتحدة ، وهو ترجمه عن الهندية ، يقول بالانجليزية التي ترجمتها هنا الى العربية ما يأتي :

« إن المذاهب ثلاثة : وهي مذهب السنخ ، ومذهب الیوجي ، ومذهب القيدا . أما مذهب السنخ فإنه لا يفكر في إله خالق للعالم ، وأما مذهب الیوجي فإنه يقول : « إن العالم له إله ولكنه مختص بالعلم فقط ، وأما العمل فليس له . » وأما مذهب القيدا فإنه يقول : كلا . إن هذه العوالم منظمة موسيقية وهذا النظام الجليل شاهد عدل على إله نظمه بعلمه وأحكمه بقدرته ، إن هذا العالم المشاهد من كواكب وشموس وعناصر ونبات وحيوان الخ لا يمكن أن تصدر إلا عن ارادة ، أما المذهبان السابقان فهما لا يباليان بخالق للعالم ، ومعنى هذا أن الیوجيين لا يريدون أن يشيروا مسألة خلق العالم بل هم يتجنبونها ، يقول : ولكنهم عرفوا الله بطريقة أخرى غريبة ، وهامى ذه : « قالوا إن علما قاصر على مالا نهاية له ولا جرم أن العالم فيه ماله نهاية زمانا ومكانا ومالا نهاية له فهما ، وقد وجدت على الأرض عقولنا فرغت ماله نهاية وما لانهاية له ، ففقولنا لا تعرفه ، وإذا ظهر في الوجود أن ماله نهاية عرفته عقولنا ، فلا جرم أن هناك عقلا يعرف مالا نهاية له وهوانته » وقالوا أيضا : « هو معلم المعلمين علم الأولين والآخريين ، والا فإني أبن جاء طئذ العقول عليها ، ويستحيل على المادة أن تحدث علما ، إن علما ثابتة في نفوسنا ولكنها صادرة عن علم معلم آخر ، فوظيفة الاله عندهم علم ملاحظه ، وتعليم جميع الناس علومهم ، لأن المادة عمياء جاهلة ، والجاهل لا يعطى علما » انتهى

هذا ما ترجمته لك من هذا الكتاب ، وفي الكتاب طول فاقصرت لك على المفيد ، وهنا أقول لك : اللهم اني لني عجب ! إن عقول الشرقيين وعقول الغربيين رجعت الى رأى واحد ، فإذا رأيت تاليس ومن بعده من الفهرين والطبيين لوجود عندهم إلا للمادة ، ورأيت فيثاغورس لا يقول إلا بالعدد ، فهؤلاء في متابعة علماء السنخ في الهند الذين لا يفكرون في خالق العالم ، وإذا رأينا أنكساغورس يقول : « إن للعالم إلها ، ولكنه لا يعمل فيه شيئا » فهو نظير مذهب الیوجي ، وإذا رأينا سقراط يقول : « الله يعلم العالم ويدبره » فهذا بعينه هو مذهب القيدا ، وهو الكتاب المقدس عند الهنود ، وإذا رأينا كتاب القيدا قد استدلت بالنظام الموسيقي في المادة فهو نفس الدليل الذي قاله سقراط سواء بسواء ، وقد شرحه سقراط فيما تقدم لك شرحا وافيا فهنا نجد الماديون في أوروبا ، والروحيون في الشرق ، وغاية الأمر أن العقول تنتقل من طور إلى طور حتى تصل الى الحقيقة ، وإذا رأينا أفلاطون يقول : « ان هناك مثلا أخذنا العلم عنها ، فها هوذا مذهب الیوجيين في الهند يقول هذا القول بنصه وفصه ، فيقول : « ان علما لا يكون من المادة بل هو من الله » وكيف يأخذ العقل عن الحجر ، ولقد سمعتم الاستاذ سنلانه التلياني فيما نقلته لكم في هذه الرسالة يقول : « إن فلسفة أفلاطون هي التي سرت في جميع الأمم ، فالفنطاري والمسامون وأمم أخرى قد سرت فيهم سر يان الروح في الجسد ، وأن ألمانيا اليوم متأثرة بها عن عالمها الاستاذ « كانت » انتهى .

إذن العالم الانساني كله سار من طرق مختلفة في عصرنا هذا فنه إلى نقطة واحدة ، فاليونان انتهوا إلى العقول والله فوقها ، وأهل أوروبا بشهادة سنلانه وسبنسر ، وكانت الألماني رجعت إلى هذه النقطة بنفسها . إذن كل أولئك الذين جهلوا هذه الحقيقة لا يزالون في الطريق حتى يملوا فلسفة مسألة الزمن لا غير وهذه الرسالة قد وقفنا على حقائق ثابتة مؤيدة بالعلم والدليل والحكمة .

أيهما الأصل المدم أم الوجود ؟

بل من العجب أن نفس هذه الآراء شرقاً وغرباً ، ونهاية الفلسفة في الأمم الشرقية والغربية قديماً وحديثاً توضح لنا ما قلناه سابقاً وهو : هل الأصل هو المدم ؟ أو هو الوجود ؟ فنقول تأييداً لما سبق : إذا رجع الروحانيون في الهند إلى قوة فوق القوى تتمتع بالعلم عند اليوجي ، وتنظم العالم أيضاً في الفيدا ، وإذا رجع أفلاطون إلى المثل الأفلاطونية ، فذلك كله لا أول له ، ولا جرم أن هذا وجود لا عدم ، إذن الوجود أصل ، بل إن نفس الدهريين مثل (ديموقراطيس) يقولون : « إن المادة لا أول لها » فالوجود أصل عندهم . فهذه الأمم في أثناء بحثها أثبتت أن الأصل هو الوجود ، فإن كانوا في طريق البحث كالدهريين والطبيعيين قالوا هو المادة ، وإن انتهوا فيه قالوا هو العقل ، أو هو الله ، إذن الأصل هو الوجود كما قدمناه ، والمدم محتاج إلى دليل (راجع ما تقدم في هذه الرسالة) .

تذكرة في أمر الديانات والفلسفة

إذن ظهر أن سر الفلسفة عند أمم الشرق والغرب يرمض لها بنظرات الخليل ، إذ أيقن لما نظر الكوكب فالقمر فالشمس ، ثم انتهى إلى الله ، فهؤلاء اليونانيون قالوا بالماء والهواء الخ ثم بالجزء الذي لا يتجزأ ثم رجعوا إلى ما وراء المادة أيام سقراط وأفلاطون ، وهؤلاء أهل الهند من السنخ ، واليوجيين ، وأتباع الفيدا وقفوا عند المادة ، ثم قالوا بالله يعلم ولا يعمل له ، ثم بالله عالم قادر ، إذن قصة الخليل تشبه نظرات الأمم من حيث ترتيبها مبدأ ونهاية ، ولما كان الخليل في بلاد العراق كان مبدأ نظره في الكواكب ، وأهل أوروبا كان نظره في المادة ، وأهل الهند في الأرواح ، فكأن بلاد الشرق الأدنى كانت وسطاً بين المادية والروحية ، لأن النظر متوجه للنور ، وأهل الهند أقرب إلى الروح ، وأوروبا نظرت في نفس المادة الجافة ، ولكن النهاية واحدة وهو الله . انتهى

هذا ، ثم إن المشائين تابعون لأرسطاطاليس وبعدهم الرواقيون الذين يجمعون بين رأي أفلاطون وأرسطاطاليس ، ويقولون : « إن في المادة قوة عقلية » .

فقال آخر من الطلبة : قد فهمنا هذا الجدول ، وقول سبنسر : « إن المتأخرين يرجعون في آرائهم إلى أقوال اليونان ، وهذه الأمثلة كافية في ذلك ، وأدركنا اتفاق علماء الشرق والغرب في أصول العلم . إذن هؤلاء المتعلمون من المصريين والعراقيين والسوريين والترك لم يخرجوا عن هذه الأقوال . قلت نعم بل لا يمكن لأن الآراء التي نقلتها لك عن اليونان لا يخرج عنها قول ، فإذا سمعت أن تركيا ، أو مصر ، أو أفريقيا عنده رأي مادي أو إلحادي ، فاعلم أنه يرجع إما إلى قول ديموقراطيس بالجزء الذي لا يتجزأ ، وإما إلى قول السوفسطائيين الذين لا يعترفون بحقيقة فيقولون بالعندية أو العنادية أو اللادرية ، فترى الرجل منهم يقول : « المعلومات لكل امرئ على حسب ما عده » وهذا هو الرأي الأغلب عند المدعين العلم من الشرقيين ، أو يقول : « لاحقيقة أبدا » .

ولقد علمت فيما تقدم أن الفلسفة كطفل شب فصار كهلاً فشيخاً ، فأكثر المتعلمين نصف تعليم في الشرق لا يعرفون من الفلسفة إلا المباحث الأولى التي لا تحتاج إلى نصب ولا تعب فما عليه إلا أن يقول : هذه أمور لا قيمة لها ، ومعنى هذا أنه لا قيمة لهذه العلوم والمباحث ، فهو أشبه بالسوفسطائية كما قمت .

فقال طالب آخر : أريد أن أعرف ماذا حصل بعد أرسطاطاليس من المذاهب ، وما اسم شيعة أفلاطون وما اسم شيعة أرسطاطاليس ؟ فقلت : أما اسم شيعة أرسطاطاليس فهم المشاهون ، وأما اسم شيعة أفلاطون

فهم أهل أكاديميا ، وهو اسم بستان بأثينا ، كان فيه اجتماعهم للدرس والتعليم ، وهذا قول سفلانه ، فهو يقول في أسلافنا أنهم أخطئوا في تسمية أصحاب أفلاطون باسم المشائين .

أما الذي حصل بعد أرسطاطاليس فهو أن مراد به على أستاذه قابله بنظيره تلاميذه فقالوا له : إن المادة عندك إمكان محض ، أو عدم ، فكيف يكون لعدم اشتياق ؟ وكيف نشاق المادة وهي لا وجود لها عندك ؟ إن هذا كلام أشبه بكلام الشعراء خيالي محض ، والفلسفة تطلب الحقائق لا الخيالات ، بل إذا سلمنا أن لها وجودا ضيفا كان للعالم أصلان : مادة ، وصورة ، فمصر التوفيق بينهما ، والمقصود من الفلسفة حصر الوجود في أصل واحد ، ثم انهم قالوا له إن أفلاطون لم يقدر على إيجاد الصلة بين عالم المثال وعالم المادة ، وأنت اعترفت بالاله وبالمادة ولم تقدر أن تربط بينهما وتصرف الاله في المادة بكلام واضح ، وهذه هي شيعة (ثاوفرسطس) و(استراتون) وهم متأخرو المشائين ، فهؤلاء عجزوا عن إتمام المباحث الالهية التي ابتدأها أستاذهم أرسطاطاليس ، وتوغلوا في المباحث الطبيعية ، ففهم من اعتنى بعلم النبات وهو ثاوفرسطس ، ومنهم من اشتغل بالتشريح وبالبحث عن طبيعة المعادن وهو استراتون ، ومنهم من قال : « انه لا بقاء للنفس بعد الموت ، لأنها ناشت من اعتدال المزاج كما تنشأ الألمان من مناسبة الأوتار ، فإذا انحلت المزاج واضمحلت النفس وهم شيعة أرسطاطاليس وغيره من الشيعة الأرسطاطالية ، وهذا ينطبق على ما قاله الامام الغزالي في « المنقذ من الضلال » إذ قال مانصه بعد ما ذكر الدهريين من الفلاسفة : « الصنف الثاني وهم قوم أكثر مباحثهم عن عالم الطبيعة ، وعن عجائب الحيوان والنبات ، وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوان فرأوا فيها من عجائب صنع القدرة الالهية وبدائع حكمة الله ما اضطروا معه الى الاعتراف بقادر حكيم مطلع على غاية الامور ومقاصدها ، ولا يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء مطالع لإحاصل له هذا العلم الضروري لكمال تدبير الباني لبنيه الحيوان ، لاسيما بنية الانسان ، إلا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم في قوام قوى الحيوان : فظنوا أن القوة العاقلة من الانسان تابعة لمزاجه أيضا وإنما تبطل ببطلان مزاجه ، ثم إذا انعدم لا يعقل » انتهى . قال الاستاذ سفلانه : فهؤلاء الجماعة هم شيعة (ثاوفرسطس) .

هنالك قال قائل منهم : إذن الفلسفة بعد أرسطاطاليس أخذت ترجع القهقري . قلت نعم ترك القوم علم الالهيات واقتصروا على علم الطبيعة ، ولكنهم لم يرجعوا الى السوفسطائية ، ولا الى من قبلهم ، بل اعترفوا بالاله وحلوا البحث فيه وطم الحق ، وبعضهم أنكروا بقاء النفس ، لكن مذهب أفلاطون جعل للنفس المحل الأول ، فقال : ثم ماذا جاء من المذاهب . قلت : مذهب أصحاب الرواق ، وهم مفسوبون إلى رواق كانوا يجتمعون فيه بمدينة أثينا ، ويسمون أيضا أهل المظال ، فهؤلاء يقولون على ما يقول سفلانه : « إن هذه المادة لا تقوم ولا تبقى إلا اذا كانت فيها قوة أطف منها تمسك أجزاءها وتضبطها وتربط بعضها ببعض ، وهذه القوة نوع قوة عقلية مصدرها ما هو أعلى منها وأطف من النفوس ، ومصدر الجميع القوة الالهية التي سموها بالعقل وهو عندهم الإله المفاوق للمادة ، وقد أبدع في العالم قوة سارية فيه ، امتزجت به امتزاج الدم بسائر الأعضاء ، وبسريان تلك القوة في العالم المحسوس حصلت الحياة والحركة والحس والعقل في الموجودات كل على حسب رتبته من الوجود ، ومن ذلك ما نشاهده في العالم من النظام والترتيب ، وما نشعر به من مناسبة الحركات ، ومنافع الأعضاء ، وآثار العقل ، والعالم من أعلاه الى أدناه علة ومعلول ، لامصادقة فيه ، وكله مقتر بالحكمة الالهية ، فالنور الالهى السارى في العوالم كلها أشبه بالنار في الخشب وللانسان منه حظ عظيم ، ولا يقربه من ربه إلا الأخلاق ، فلم الأخلاق عندهم هو أهم العلوم . قالوا : الفلسفة بستان سياحه المنطق ، والطبيعيات

أشجاره ونباته ، ومحمد الأخلاق ثمراته ، والحكيم من جمع بين العلم والعمل . فهنا مقامان لاناك طما ، مقام أصحاب الحكمة ، فلاناس إلا الحكماء ، ومن اقتنى أثرهم ، وتشبه بأخلاقهم . ومقام عوام الخلق ، فمن لا عمل له ولا عمل فهو بمن لا يمتد بهم ، وهم في الأرض كالأفاعم ، وليس هناك مقام ثالث ، ولا واسطة بين المستقيم والمعوج ، فلما أن يكون الانسان مستقيما أى حكما ، ولما أن يكون معوجا أى غير حكيم .

يقول الأستاذ سفلانه : « إن ملخص مذاهب اليونان يرجع إلى ما يأتي : إما أن يقال : إن الوجود هو هذا المحسوس ، ولما أن يقال هو المعقول لا المحسوس ، ولما أن يقال هو المحسوس المعقول معا ، وليس هناك أمر رابع ، فأول بحثهم كان مقصورا على المادة يلتمسون ماهية هذا الوجود المحسوس . »

ثم برز سقراط وأفلاطون فأبانا ما بين العقل والمادة من التميز ، فانقلبت المسألة الى التوفيق بين المادة والعقل واصالهما ، وتأثير كل منهما في وجود العالم . فقال أفلاطون : الجوهر العقلي هو الاصل في الوجود ، ووجود المادة أمر قريب من العدم المحض ، ثم بالغ في التفريق بينهما حتى كأنه لا اتصال بينهما . ثم ظهر أرسطاطاليس ضيق على أستاذه ، وقال : إن الوصول من العالم العلوي الى السفلي لا يتأتى بطريق أستاذه أفلاطون ، وأن اتصال العقل بالمادة حاصل في الأفراد ، ولكن لما حاول الارتقاء من علم الشهادة إلى علم الغيب ، وإلى العقل الاولي زلت قدمه ووقع فيما كان يحذر منه ، إذ هجز عن ذلك فلم يبق إلا التمسك بأحد قولين : فلما أن يقال المادة هي الاصل الوحيد ولا شيء سواها ، وهو قول أبيقورس ودهرية عصره ، أو القول بوحدة العقل والمادة ، وهو قول أهل الرواق ، أقول : وهو يجمع بين رأي أفلاطون ، وأرسطاطاليس .

وبعد ذلك لانجد من القرن الثالث قبل المسيح إلى آخر القرن الثاني بعده غير المذاهب القديمة ، والحكماء ما بين شالك في الحقائق ، وأدهري لا يقول بضمير المادة ، أو رواق يقول بوحدة المادة والعقل ، أو مشائي متفرغ للطبيعات .

شيمة الاسكندرلين

ويعرفون باسم المذهب الأفلاطوني الحديث

أنشأها « مونيوس سكاس » أى الجمال ، فهو فى أول حياته كان حبالا ، وكان نصرانيا ، ثم رجع الى وثنية اليونان ، ولد سنة ١٧٥ بعد الميلاد ، ومات سنة ٢٤٢ ب.م وتلميذه أفلاطون توفى سنة ٢٦٩ بعد الميلاد ، وتلميذ أفلاطون بروقبروس ، ويشتهر فى الكتب باسم فرغوريوس ، ولد بصور الشام سنة ٢٢٢ بعد الميلاد ، وتوفى سنة ٣٠٤ ب.م فهؤلاء ومن بعدهم يسمون الفرع الاسكندري ، وجاء بعدهم (بيليخوس) ومن تبعه ، ويسمون الفرع الشامي إشارة الى مولد (بيليخوس) إذ كان باحدى بلدان الشام وتوفى سنة ٣٣٠ ب.م ، ثم سريانوس وبرقلس ومن تبعه ، ويسمون الفرع الأثينى ، لأن دار التعليم إذ ذاك قد انتقلت الى أثينا ، وولد برقلس سنة ٤١١ ب.م وتوفى سنة ٤٨٥ ب.م . قال : « ان مذهب الاسكندرلين آخر المذاهب المتبعة فى الفلسفة اليونانية ، وهو من أحكامها أصولا ، وأوسعها دائرة ، وأوسعها طريقة ، جمعوا بين المذاهب للمتقدمة ، فآلفوا بينها بأن أخذوا السليم منها ، ورفضوا السقيم ، وتبعوا كل ما فيها من الخلل والشبه حتى كان مذهبهم كخلاصة أفكار اليونان منذ بداية فلسفتهم ، وعمدة كلامهم . قالوا إن أفلاطون وأرسطاطاليس لم يكن بينهما خلاف فى الاصول ألته ، وإنما اختلفوا فى أساليب البحث ، فمن فهم مقاصد كل منهما وسبر معناه لم يتوقف فى الاعتراف بذلك . »

قال سبليوس فى تفسير كتاب المقولات لأرسطو : « اذا ظهر الخلاف بين أرسطاطاليس وأفلاطون ، فالقاعدة أن لا تهب عند ظاهر المعنى ، ولا تمتد بوجود الخلاف بين الحكيمين ، بل ينبغي لك أن تستقصى

معناها فتجددما متفقين لا محالة .

قال الاستاذ ستلانه : « إن هذا الرأي بنى عليه أبو نصر الفارابي رسالته الموسومة (بالجمع بين رأي الحكيمين أفلاطون وأرسطاطاليس) وهي مطبوعة في مجموعة رسائل ، تتبع فيها مواضع الخلاف المتدى وجوده بينهما فصلا فصلا ، وقد أصاب وأجاد في كثير مما قاله الاسكندر يون ، إن هذا الوفاق ليس بمقصود على أفلاطون وأرسطو ، بل انه يجمع سائر الفلاسفة ، فمن راجع تاريخ الفلسفة العتيقة تحقق أن الفلاسفة بأسرهم على كلمة واحدة ، يجمعين في المهمات لانراهم يختلفون إلا في الجزئيات والفروع .

تلك حكمة الأوائل تداولوها غابرا عن سالف من بداية الاجتماع الانساني ، اشتركت فيه الفرس والبراهمة والسكندان والعبرانيون ومصر واليونان ، كيف لا والعقل الانساني جوهر واحد لا يتغير باختلاف الأقاليم والأعصار ، وأصل كل حكمة الإلهام الالهي ، فينبغي للحكيم والحالة هذه أن لا يلقى قولاً من الأقوال ، بل عليه أن يأخذ على حق معناه وحقيقة جوابه بجمده مطابقاً للأصول ، فإذا تحقق الخلاف ولم يكن وجه للتأويل ، فالرجع إلى مذهب أفلاطون إذ هو الأقرب للحكمة الأولية .

وهنا أقض الاستاذ ستلانه في آراء علماء الاسكندرية إلى أن قال ناقلنا عنهم : إن هذا الخلاف لا يستد إلا اذا تفكر الانسان في نفسه فانه يرى أن روحه متصرف في بدنه ، ومع ذلك هي جوهر لطيف مفارق للمادة الخ . وهكذا ضربوا المثل لله بالشمس ، وأن حرارتها وضوءها ينبعثان إلى أقصى أطراف العالم ، وهكذا السراج يضيء البيت ويقتبس من نوره مئات السرج ، وهو لا ينقص ولا يفيض ، والصوت يؤثر في سمع القوم وهو لا ينقسم مع كثرة المستمعين ، وهكذا العلم يرتسم في أذهان المستمعين ، ولا ينقص ذلك من علم العالم شيئاً ، إذن الله واحد لا يتجزأ مع تكثير ما يصدر عنه من الآثار ، والقدرة اذا بلغت أشدها لا تبقى معطلة ، فلا بد من بروز آثارها .

ثم قال : إن الشهرستاني نسب هذا القول خطأ إلى أرسطاطاليس ، وهو في الحقيقة من مذاهب الاسكندر يون ، وأبان أن كتاب (أولوجيا) الذي هو أول ما نقل إلى العربية في القرن الثالث الهجري ، وفيه أمثال هذه الآراء قد نبه علماء الاسلام إلى أرسطاطاليس وهو في الحقيقة جلة منتخبات من الكتاب الرابع والخامس والسادس من إلهيات أفلوطين نقل من السرياني إلى العربية بدليل انه مقسم إلى (ميامير) وهي كلمة سريانية معناها المقالة ، ومعنى (أولوجيا) قول على الربوبية .

فقال بعض الطلبة : لقد عرفنا الآن صور الآراء في العصور الأولى أيام اليونان وأيام الاسكندر يون في المدة التي قبل المسيح والتي بعده ، فنريد الآن أن تبين لنا أولاً كيف اتصلت الفلسفة العربية بالأهم الاسلامية أي كيف نقلت من علماء الاسكندرية إلى علماء الاسلام ، وثانياً نريد رأيك أنت في هذا الخلاف الذي بين حكماء اليونان وإن كان علماء الاسكندرية قد نعتضوا للجمع بين الأقوال المتقاربة . فقلت : أما نقل الفلسفة اليونانية إلى العربية فإن لها طرفاً شتى منها ما تقدم ذكره هنا ، وهو أنهم نقلوا كتاب أفلوطين الذي ذكرته لكم سابقاً بعد المسيح من السريانية : أي ان السريان كانوا نقلوه إلى لغتهم ثم نقل الكتاب إلى العربية وهناك طرق أخرى لا يسع المقام ذكرها ، ولكن أذكر لكم مائة الفيلسوف الكبير الفارابي إذ قال مائة بالحرف الواحد من كتاب عيون الأنبياء : « إن أمر الفلسفة اشتهر في أيام ملوك اليونانيين وبعد وفاة أرسطاطاليس بالاسكندرية إلى آخر أيام المرأة ، وانه لما توفي بنى التعليم بحاله فيها إلى أن ملك ثلاثة عشر ملكاً ، وتوالى في مدة ملكهم من معلمى الفلسفة اثنا عشر معلماً أحدهم المعروف بأندرونيقوس ، وكان آخر هؤلاء الملوك « المرأة » فغلبها أغسطس الملك من أهل رومة ، وقتلها واستحوذ على الملك ، فلما استقر له نظرق خزائن الكتب ، فوجد فيها نسخاً لكتب أرسطاطاليس قد نسخت في أيامه وأيام ثاوفرسطس ،

ووجد المعلمين والفلاسفة قد عملوا كتباً في المعاني التي عمل فيها أرسطو، فأمر أن تنسخ تلك الكتب التي كانت نسخت في أيام أرسطو وتلاميذه، وأن يكون التعليم منها، وأن ينصرف عن الباقي وحكم أندرونيقوس في تدير ذلك، وأمره أن ينسخ نسخاً يحملها معه إلى رومه، ونسخاً يبقيا في موضع التعليم بالاسكندرية، وأمره أن يستخلف معلماً يقوم مقامه بالاسكندرية، ويسبر معه إلى رومه، فصار التعليم في موضعين، وجرى الأمر على ذلك إلى أن جاءت النصرانية فبطل التعليم من رومه وبقى بالاسكندرية إلى أن نظر ملك النصرانية في ذلك، واجتمعت الأساقفة، وتشاوروا فيما يترك من هذا التعليم وما يبطل، فرأوا أن يعلم من كتب المنطق إلى آخر الأشكال الوجودية، ولا يعلم ما بعده، لأنهم رأوا أن في ذلك ضراً على النصرانية، وأن فيما أطلقوا تعليمه ما يستعان به على نصرة دينهم، فبقي الظاهر من التعليم هذا المقدر، وما ينظر فيه من الباقي مستورا إلى أن كان الإسلام بعده بجملة طويلة، فانتقل التعليم من الاسكندرية إلى أنطاكية وبقى بها زمناً طويلاً إلى أن بقي معلم واحد فتعلم منه رجلان ومعهما الكتب، فكان أحدهما من أهل حران، والآخر من أهل مرو. فأما الذي من أهل مرو فتعلم منه رجلان: أحدهما إبراهيم المروزي، والآخر يوحنا ابن جيلان، وتعلم من العراقي اسراييل الأسقف وقويري، وسارا إلى بغداد، فتشاشل إبراهيم بالدين، وأخذ قويري في التعليم، وأما يوحنا بن جيلان فإنه تشاغل أيضاً بدينه واحتمل إبراهيم المروزي إلى بغداد فأقام بها، وتعلم من المروزي متى بن يوان، وكان الذي يتعلم في ذلك الوقت إلى آخر الأشكال الوجودية، وقال أبو نصر الفارابي عن نفسه أنه تعلم من يوحنا بن جيلان إلى آخر كتاب البرهان، وكان يسمى ما بعد الأشكال الوجودية الجزء الذي لا يقرأ إلى أن قرئ ذلك وصار الرسم بعد ذلك حيث صار الأمر إلى معلمي المسلمين أن يقرأ من الأشكال الوجودية إلى حيث قدر الإنسان أن يقرأ. فقال أبو نصر: انه قرأ إلى آخر كتاب البرهان اه

فلما سمع ذلك الطلبة. قال بعضهم: لقد نلجت صدورنا لهذا البيان فتحن الآن نود أن تبين رأيك في الخلاف المتقدم في أصل العالم والمادة الذي شجر بين أفلاطون وأرسطاطاليس. فقلت: إن هذا الخلاف إنما يصح على الطريقة التي أبرزها هذان الحكماء للناس، فهناك تشعبت الآراء، واختلفت الطرق، واحتاج النوع الإنساني إلى علماء يجمعون بين الآراء، ويوحدون الصفوف كالذي نقلته لكم عن علماء الاسكندرية فلا أعيدته.

فقال قائل منهم: ولكن هذا الرأي الذي جمعوا به بين الآراء المختلفة وإن كان جيلاً وانها لاترتب النسب نحو حوله، فإن هذا كله ما هو الإنشيه، والشبيه لا يعطى برهاناً، ولا يؤدى إلى الحقيقة، فإن ضوء الشمس والسراج ونحوهما ما هي إلا أمثال. فقلت: لقد قدمت لكم مافي المقدمة من القواعد في صبدأ العالم والمادة ما لا يتوجه عليه هذا الاعتراض ولا الشكوك، وهذا هو الذي هداني الله إليه فأدرسه وفكره فيه، فهو لا يتوجه عليه ما توجه على أفلاطون وعلى سقراط، والعلوم الحديثة قرّبت البعيد، وسهلت الطرق، فطرق العلم اليوم أقرب إلى أن تكون معبدة سهلة، وقد تبين بدراسة الملة والصورة أن هذا العلم كله يرجع إلى نقط ضوئية. فقالوا نحب الاقضية في هذا الموضوع؟

بحث عام في المادة والصوت في الهواء

مم نفس الهواء، مم الضوء، في الأثير، مم العناصر المادية

فقلت: أنا قدمت لكم أن آراء المتقدمين والمتأخرين أجمت أن الملة وجودها إما ضعيف، وإما هي معدومة، وما الوجود على حسب الرأي العام في الأمم الآن إلا انقطنورية سريعة الحركة تنوعت إلى ضوء

وحرارة وكهرباء وماء ومعدن الخ .

إن الهواء إذا اهتز في الثانية الواحدة ٣٣ مرة نتج عنه أدنى الأصوات بحيث تتمكن آذاننا من سماعه ، فإذا زادت الاهتزازات بحيث تبلغ ٧٦ ألف مرة في الثانية ، فهو أعلى صوت يمكن أن يؤثر في عصب أسمعنا ، إذن الحركات الهوائية التي تقل عن ٣٣ مرة في الثانية والتي تزيد عن ٧٦ ألف مرة في الثانية لانسمع بها ، وهذا حق ، لأن الريح العاصف إذا اشتدت فإنا لانسمع صوتها ، إذ نرى الأشجار تكاد تلطم الأرض ونحن لانسمع لها صوتا ، لأن الأذن لانسمع ما زاد على الحد المتقدم ، وأكثر الناس لا يعلمون .

بحث في مادة الهواء

إن نتيجة الامتحانات التي أقامها العلامة « ويليام كروكس » أمام الأكاديمية العلمية في باريس دل على أن أيقن الآلات المفرغة للهواء لانكتفي لافراغ الهواء أو أي غاز آخر من إنباء محكم السد ، بل لابد من بقاء أثر قليل ، وقد فرغ هواطواء من كرة زجاجية قطرها ١٣ سنتيمترا ولم يبق فيها إلا جزءا واحدا من مليون ، ومع ذلك كان عدد ذرات ذلك الجزء الزهيد من الهواء يبلغ مليون مليون مليون .
قال : وإذا أردنا ادخال الذرات الهوائية التي أخرجناها بحيث يدخل في كل ثانية بواسطة فتحة خاصة مائة ألف ذرة في الثانية الواحدة احتجنا إلى سبعمائة مليون سنة لجملاً هذا الفراغ ثانيا ، وهذه المدة تكون قد انطقت فيها شمسا وطاحت أرضنا ، فهذا عرفنا الصوت وعرفنا جبر الهواء ، فلنسرع في :

مبحث الضوء

فقول : لقد استقر رأي العلماء اليوم على أن أعيننا لا ترى الاهتزازات في الأثير التي تقتل عن أربعائة مليون مليون في الثانية الواحدة ، ولا التي تزيد على ٧٩٠ مليون مليون في الثانية الواحدة ، إذن الصوت حركات والضوء حركات ، فأقل العددين للون الحمر ، وأكبرهما للون البنفسجي ، وبقية الألوان بين هذين اللونين ، وقد أدرك العلماء الآن أن الطيف الشمسي يمتد إلى ما وراء البنفسجي ، ولكن لا ندركه العين كالاندرك الأذن ما زاد من الحركات عما حددت لحاسة السمع ، إذن المسألة كلها في الصوت والضوء ترجع لسكمية الحركات لا غير ، والانسان عبارة عن جهاز معد لا يدرك ما يناسبه من ذلك ، ومحروم مما عداه .

العناصر المادية

فأما العناصر المادية فما هي إلا حركات في الأثير كالحركات التي ظهر بها الصوت في الهواء ، والحركات التي ظهر بها الضوء في الأثير ، غاية الأمر أن الحركات كلما كانت أشد سرعة كانت أغلظ حجما ، وكلما كانت أظلم كانت أطف ، فترى العناصر الأرضية ما هي إلا انقطضونية تهتز في الثانية الواحدة أضعاف مائه من الحركات التي أحدثت الضوء ، فإذا رأينا الضوء قد نشأ من اهتزازات فيبلغ في الثانية الواحدة ٤٠٠ مليون مليون فان العناصر المادية تنشأ من اهتزاز الأثير ستة آلاف مليون مليون مرة فأكثر لو أقل في الثانية الواحدة كما تراه مفصلا في تفسير سورة النور عند آية : « والله نور السموات والأرض الخ » وقد تبين هناك أن قطرة الماء تبلغ ذراتها ملايين الملايين ، وأن بين تلك الذرات خلاء يساوي الخلاء الذي بين السماء والأرض والنجوم والشمس . إذن هذه العوالم ما هي إلا حركات ، فإنا اعتقدت كانت من العناصر ، وإنما صنعت كانت ضوءا منظوروا . إذن العناصر ضوء متكاثف متجمد لا غير ، وهذا الضوء المتكاثف متخلخل جدا ، فالمادة كلها مجردة تجويفت عظيمة وأصلها الحركات في عالم لا يعرف إلا بالآثار ، hence هي المادة فكيف تكون

في نفوسنا ، وليس بيننا وبينه إلا مفارقة المادة ، ومتى فارقتها وصلنا الى سعادتنا وخرجنا من هذه العوالم المضطربة ، وهأنذا الآن أقول قد أجبتنا بهذا البيان عن الأسئلة الأربعة المتقدمة ، فثبت النفوس صار سائبا به ثبات معلوماتها ، والعلم هو نفس المعلوم بخلاف المادة المضطربة ، وهذا هو السؤال الأول ، وأما قولكم كيف نفعل وحدة الخلق مع انه يعلم ما لا يقناهي كثرة ، بجوابه أن نفوسنا كما قدمنا تعلم العدد وتعلم الكسر ولانهاية لها ، ومع ذلك لا يقول أحدنا ان نفس متعدّدة بل يقول هي واحدة ، وأما قولكم كيف يعلم الله ما لا نهاية له مع ان عقولنا لا ندرك ذلك فكيف نفقد ما لا ندركه ؟ فهذا أيضا مدفوع ، فنحن ندرك الكسر الدائر المنقسم ، وندرك أدوار الخسوف والكسوف ، وأدوار السنين الكبيسة والبسيطة ، ونعلم أن تلك الأدوار جميعها لانهاية لها إجمالا ، ولكن عقولنا تشهد أن الله يعلمها تفصيلا ، وليس الحادث كالقديم . وأما جواب السؤال الرابع وهو اذا كانت المادة أشبه بالمدوم ، أو هي معدومة ، فإن علام نجد ونجتهد ونختص وننظم المدن فالأولى تركها ! فهذا السؤال يحتاج إلى الإفاضة في الإجابة عنه : فاعلموا أيها الأذكيا أن وقوفنا على هذه الحقائق ، ووثوقنا بها يدفعنا للعمل والرفق والاسراع فيهما بقدر طاقتنا ، ولي على ذلك شاهدان : الشاهد الأول نفس أفلاطون الذي أذاع هذه الفكرة في العالم فانه أنف جمهوريته في نظام الأمم وسياستها وحكوماتها وتربية الجيوش ، والأمراء ، وعلم الأخلاق ، وقد أجمع المحققون أن هذا الكتاب ليس له نظير من هذا القبيل قبله ولا بعده ، وقد تقدم انه أثر في كل الأمم ، والسبب في ذلك أن الانسان متى أيقن بأن نفسه قريبة من خلق العالم يشعر بفرح ونشاط ومسرّة لا نظير لها ، ويرى أنه خليفة له ، فيريد أن يرضيه ويتحجب إليه بل يرى فوق ذلك أنه أب للناس حوله وهم أبنائه ، تستدعيه بالانسانية ، ويرى من واجبه أيضا أن يكون دائم العمل والفكر مشاكلة لما رأى من الإبداع الغريب والنظام المدهش في العالم الذي شعرت به حواسه ، ويعلم أنه إنما أبدعت له هذه العوالم ليدرسها ويتمرّن على العلم فيها ، فهي أشبه بلوح الصبيان في المكتب ، وكأنه هو صبي يتعلم ، والصبي اذا لم يتقن قراءة اللوح لم يفز بعد في بقية حياته بالسعادة المترتبة على ذلك ، كذلك هؤلاء مع علمهم بأن هذا العالم وجوده خيال يعتقدون اعتقادا جازما بأنه لوح لهم يقرءونه ، وبه وحده ويدرسته يسعدون حالا وما آلا ، فهم من جهة يدرسون هذا اللوح ، ومن جهة أخرى يزهدون في اللذات التي تحول بينهم وبين تلك الدراسة ويميزون بين الزهد في الخطام والزهد في العلم والدراسة ، فالجهال الذين يظنون أنهم صالحون يزهدون في دراسة لوح هذه الدنيا ، فهؤلاء غافلون مغرورون ، والحكام يحرصون على ادراك حقائق هذا الوجود مع زهدهم في لذاته التي كلها وقتية لادائمة ، هذه هي الحقيقة التي لا مرمية فيها تقوم يعقلون . الشاهد الثاني : الأنبياء والمرسلون فما من نبي إلا وزهد الناس في الدنيا وزهد هو فيها ومع ذلك نجد المرسلين منهم لاكثرهم دول وممالك ، وتراهم يحرصون على العلم بالوحي وبالعقل على تعليم أممهم ، فما ذلك إلا لأنهم جعلوا هذه المادة لوحا يقرءونه ، وأعرضوا عما فيها من اللذات ، وانتظروا لقاء ربهم فرحين مستبشرين وآثارهم دائمة ، فهذه الطائفة أرقى من سابقتها وهم هداة الأمم وزهدهم في الدنيا هو الذي أعانهم على تنظيمها واعدادها للحياة كالأباء يحرصون على تربية الأبناء ، ويمتقنونهم بكل ما يلزم للحياة ، هذا هو الصراط المستقيم ، هذه هي الحقيقة الواضحة الجليلة التي استبشرت بها نفسي واطمأنت إليها وفرحت بها ، ولو شئت الآن أن أدرج في هذه الرسالة فوائد الكتب المقدسة كالقرآن والانجيل والتوراة للملاّث بها مجلدا من الآيات والسير الشريفة ، ولكن هذه الرسالة راجعة للعقل ، والحكمة خاصة لا تختص بدين ولا مذهب ولا نحلة ، بل عامّة للناس ، يقرءونها بعقولهم ويدرسونها .

فتعال فائل من الطلبة : بقيت لي مسألة . فقلت : ماهي ؟ فقال : أريد إيضاح ما تقدمت في المقدمة من حيث العلم المشاهد واستنتاج عالم الغيب منه فوق ما تقدمت ؟ فقلت : ذكرت لكم فيما تقدمت أن جسمي مشتق

من العوالم الأرضية ، وأنّ الضوء المحيط به آت من العوالم السهارية ، وأن الأرض اذا هجرت عن الضوء الحسى فهي عن الضوء المعنوى وهى العقول أعجز ، وتكون النتيجة أن العقول مركزها ومركز النفوس فى عالم غير المادّة ، وكأن جسمى جاء من عالم كبير وهو العالم المادى المجانس له هكذا عطفى جاء من عالم عطفى بجانس له قياسا على جسمى . قال فم تقدم هذا . قلت : وأنا الآن أزيد به بيانا ، لندرس الحواس والتنفس والشراب والغذاء فى الجسم ، الانسان يتنفس من الهواء ، ويتغذى بالطعام ، كما ان جسمه من الأرض وما حوطا ، ويشرب من الماء وهو يحيط بالأرض ، فهنا أربعة أمثلة : جسمى ، وغذائى ، وشرابى ، وتنفسى (والأغذية مخلوقة فوق الأرض) فهذه الأربعة كل منها مشتق من مخزن كبير من جنسه . قالوا جميعا نعم . قلت : والحواس الخمس هذا حكمها ، فكما كان الجسم من جرم هذه الأرض وما عليها ، وغذائى من أغذية عليها ، وشرابى من ماء يحيط بها ، ونفسى من هواء يحيط بهما ، والضوء الذى يحيط بالجميع آت من عوالم سهارية ، هكذا لما كانت :

- (١) حاسة اللمس التى تعرف الحرارة والبرودة والنعومة والخشونة قد أحاطت بها عوالم من جنس ما تحتاجه .
- (٢) وحاسة التوق التى تعرف الحلو والمر والملح قد أحاطت بها عوالم كثيرة من جنس ما تحسن به .
- (٣) وحاسة الشم أحاطت بها المشومات التى تمدّها .
- (٤) وحاسة السمع أحاطت بها حركة الهواء التى تؤدّى إليها الأصوات .
- (٥) وحاسة البصر أحاطت بها عوالم النور التى تمدّها بالضوء فيكون الابصار ، هكذا كانت نفوسنا لها عوالم تحيط بها من جنسها .

جسمى (١) وغذائى (٢) وشرابى (٣) ونفسى (٤) والنور الذى أهدى به (٥) وحاسة لمسى (٦) وحاسة ذوقى (٧) وحاسة شمى (٨) وحاسة سمى (٩) وحاسة بصرى (١٠) . كل هذه تستمد من عالم يحيط بها بجانس لها ، فهذا الاستقراء بلجنتنا أن نقول لاحتمال أن روحى ونفسى وعطفى يحيط بها عوالم مماثلة لها عاقلة روحية نفسية تستمد منها ، وهذه النفوس والأرواح لها مرجع وأصل ، وهو الذى يسميه الناس والديانات « الله » كما أن الضوء المحيط بجسمى له أصل وهو قرص الشمس ، فأنه هو أصل العالم .

فهذا العالم المشاهد منقوشة صورته فى عقول أبرزته كاتقاسم الأعداد المتقدمة فى عقولنا فبرزها فى الخارج على مقتضى ما نشاهد ، والذى عرفنا تلك العقول اتصال نفوسنا بها واستمدادها منها كاستمدادنا الماء من النهر والمطر ، وما أبرز تلك العقول ما كمن فيها من تلك الصور فى الخارج إلا كإبرازنا نحن ما كمن فى نفوسنا من المعانى بالنطق باللسان ، وإخراج الكلمات من الخارج الصوتية ، وهذا الموضوع كنه هو معنى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » وفى السماء رزقكم وما توعدون » فويرب السماء والأرض إنه لحنّ شلّ ما أنكم تظفون » فغير بنطقنا ولم يعبر بأعمالنا التى تصدر عما ركزنى نفوسنا من المعانى كالنطق لأن النطق سريع سهل ، فصنع الله للعالم ، وصنع العقول التى تسمى ملائكة يعبر عنه تعلما لنا بنطقنا الذى يبرز ما كمن فى عقولنا ، فهنا عرفنا العالم الذى يسمى ملائكة ، وعرفنا أن له مبدأ وهو الله ، وعرفنا أن تلك العقول التى سميناها ملائكة تدبر شئون هذا العالم كما تدبر نحن منازلنا ، وعرفنا أن نفوسنا سترجع إلى تلك العوالم بعد موتنا كما أن أجسامنا ترجع إلى عوالمها التى خلقت منها ، فهذه مجامع العلم والحكمة ، وهذه هى التى حيرت العقول ، وأذلت الفحول ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم

فقال آخر : ما المادّة التى خلق منها العالم ، فقلت اذا احتجت أنت إلى مادّة فى نفسك لتكون فيها صور ذهنية احتاج العالم إلى مادّة ، وهذا هو الذى تقدم فى هذه الرسالة انه قد حلّ الاشكال الوارد على أفلاطون فى نظرية المثل الأفلاطونية .

برهان بقاء النفس من العلوم الطبيعية والفلكية

فلما سمع الطلبة ذلك ، وكان في يوم الثلاثاء ٢٦ مارس سنة ١٩٢٩ م مساء . قال قائلهم معبراً عن
 جمهورهم : إن أسلوبك في هذه المحاورات معنا أسلوب جميل يخلب الألباب ظاهراً ، ولكننا لما رجعنا إلى أنفسنا
 ألقينا أنفسنا معك تشبهاً (سقراط) مع (أنكساغورس) ، أو تشبهاً (أرسطاطاليس) مع (أفلاطون) أو
 المشائين مع (أرسطاطاليس) فكما أن سقراط لما قرأ كلام أنكساغورس بعد موته وجدته غير مجرد ولانافع
 في وصف العقل ، وهكذا أرسطاطاليس اعترض على أفلاطون إذ لم يبين وجه ارتباط المثل التي ذكرها بالعلوم
 المشاهدة ، وهكذا المشاءون بعد (أرسطاطاليس) قالوا إن أستاذهم وقع فيما وقع فيه أستاذه ، إذ لم يبين
 (أرسطاطاليس) وجه تأثير خلق العالم في المادة ، ولا وجه العلاقة بين الخالق والخلق ، هكذا نحن نرد
 عليك بنفس ما قلت ، ونقض كلامك في حياتك ، ذلك أنك قلت في أول محاوراتنا معك إن الدليل على
 أن النفس الناطقة من عالم غير العالم الأرضي إنما أشبهت الضوء ، فكما أن الضوء قد هجرت الأرض عن أن
 تمدنا به فهي عن الضوء المعنوي أعجز ، إذن فحسنا من عالم علوي لطيف أطف من الضوء . فقلت نعم أنا
 قلت ذلك أولاً وآخراً . فقال قائلهم : ونحن الآن نقول مستبدلين بصريقتك على عدم بقاء النفس ، فنقول :
 كما أن ضوء الشمس يفتي فناء لامرء له عند غروبها ، هكذا أرواحنا بعد موتنا لا بقاء لها ، فما أجسامنا إلا
 كالأرض ، وما أرواحنا إلا كضوء الشمس ، فلو كان لأرواحنا بقاء بعد موتنا لكان لضوء الشمس بعد غروبها
 بقاء في أرضنا ، ولكن ضوء الشمس يهدم حالاً عند غروبها ، إذن يكون العدم حيناً عند موتنا ، وهذا
 قياس منطقي لا يقبل المعارضة ولا الجدال على حسب طريقتك التي اخترتها واكتفيت بها ، إذن أصبحت
 محاورتك معنا معطية لنا اليقين بعدم النفس عند الموت بعد أن كان عندنا شبه برهان على بقائها قبل هذه
 المحاضرة ، فالتاس إذن يؤمنون إيماناً كإيمان الجائر ، فأما البرهان فلا . فقلت لهم : أظنتم أنكم فآزرين في
 استدلالكم ، صادقة براهينكم ؟ قالوا نعم ونحن بذلك موقنون . قلت فاسمعوا : إن نفس هذا البرهان يثبت
 بقاءها ، فلنبحث ضوء الشمس المذكور : إن أرضنا في استضاءتها أشبه بالمستحجم في النهار لاغير ، وماضوه
 الشمس إلا كماء النهر والرياح البخارية ، إن الماء يجري من خط الاستواء في النيل إلى البحر الأبيض والظواهر
 تحركه الحرارة فيمر على الأشجار والمزارع فيحركها وينفض عنها الغبار ويمر إلى جهات أخرى من العالم ،
 وضوء الشمس يجري منها سارياً في العوالم لا يقف كما لا يقف ماء النيل بعد مروره على بلادنا ، فكما يزعم
 الذي لا تدبر عنده أن الريح المطابة عليه وهو في مزرعته قد فئت ، ويزعم المستحجم في النهار وشارب الماء
 أن الماء الذي مر به أو شربه قد فنى وما فنى وإنما هوسأر في طريقه بحيث يجري ماء النهر حتى يصل إلى
 البحر بالنسبة للمستحجم في النيل وينزل في الجسم فيختلط بالدم ، ثم ينزل بولا أو عرقاً من الجسم ، ثم ينزل على
 الأرض فيتحول إلى بخار يرجع إلى الجو ولا يقف ، هكذا ضوء الشمس الذي يمر بأرضنا هو باق ولا يقف كما
 بقي الظواهر وكما بقي الماء سواء بسواء ، ألا ترون رعاكم الله أن علماء الفلك يقولون : قد كشفنا سديهما
 جديداً ، ووجدنا ضوء قد سافر في الجومائة مليون سنة ، وهذا آخر ما كشفوه . أفلا ترون أنهم الآن في أمريكا
 قد ابتدعوا منظارا ، وهم الآن يصنعون ، قطره ٢٠٠ بوصة ، وهم يتوقعون أنهم سيرون به كواكب قد
 جاء نورها من أجرامها منذ مائة ألف مليون سنة ، إن الدكتور شابلي الأمريكي مدير مرصد (جامعة هارفرد)
 الأمريكية من أشهر علماء الفلك ، نشرت عنه إحدى المجلات الأمريكية أن نظامنا الشمسي مع المجرة التي هو
 منها عبارة عن كرة واحدة . فكما أن أرضنا تدور كل ٢٤ ساعة دورة هكذا هذه المجرة ونظامنا الشمسي
 الذي هو ذرة واحدة في ثلاثمائة مليون سنة ، ويجري في الثانية الواحدة ٢٠٠ ميل ، ويقول : إن مركز

هذه المجرة هو نقطة اتصال المغرب والحية بالرامي ، وهذه النقطة تبعد عن الأرض خمسين الف سنة نورية ،
 فالنور المبعث منها وراه في الأرض الآن خرج من تلك النقطة منذ خمسين ألف سنة نورية ، إذن النور
 لم يعدم وهو باق تلك المدة ، وهذه المسافة للنور قليلة فان العلماء يرون الآن نجوما انبثت النور منها منذ
 مئات الملايين ، فاذا كان هذا قول علماء الفلك فعنا ان الضوء لا يقضى إلى أمد عظيم ولم يجئوا دليلا على
 انعدامه ، فاذا رأينا الضوء لا يزال جاريا مائة ألف مليون سنة ، ولاندري متى يقضى فان نفوسنا التي هي الالف
 وأبسط من الضوء ، إذن تعيش هذه المدة وتعيش إلى الأبد ، بل لا دليل على فناها ،

ومن أراد اعتقاد فناها فليأت بدليل على فناء الضوء الذي هو الالف منها وأبسط ، وقد أجمع علماء
 الفلك انهم يرونه بعد مئات ألوف الملايين من السنين ، إن هذا القول يدلنا على أن عالم الأثير الذي يجري
 فيه الضوء ليس كعالمنا ، أولاترون اننا نرى الصخرة فنراها تجري ثم تقف ولكن جرى النور خالف
 ذلك ، فهو يجري ولا يقف ولا ينقطع ، إذن حركات النور في الأثير تخالف حركات الأجسام الأرضية ، فالنور
 لم يبت عدمه إلى الآن بل هو ينتقل من عالم إلى عالم ، ونور شمسنا من تلك الأنوار ، وما أرضنا إلا أشبه
 بالمستحم في النهر كما قلت ، فاذا غربت الشمس فعنا أن أرضنا كانت غارقة في ضوء الشمس فخرجت من
 ذلك النهر ، فكما أن خروج المستحم من النهر لا يدل على انعدام ماء النهر ، هكذا خروج أرضنا من بحر
 ضوء الشمس عند الغروب لا يدل على فناء النور ، بل النور باق ، وهو يجري ، ويتقبله أحياء في عالم أخرى
 ويبحثونه ويستخرجون منه عناصر الشمس كما نستخرج نحن عناصرها وعناصر النجوم من ضوءها .
 إذن ردكم على برهاني وقولكم إن كلامي ينحصر في الفناء النفس قد رجع إليكم وهو أقوى مما كان وأدلة على
 بقاء النفس بعد الموت ، بل يزيد ثباتا وقوة بأن النفس بعد الموت قد حملت معها جميع أعمالها وهي تحلب
 عليها غير منقوصة ، أفلاترون أن علماء الفلك يستخرجون من الضوء حقائق الكواكب بتعليه فيعرفون
 تركيب كل كوكب ، أفليس هذا كسألة الحساب سواء بسواء لا يضيع منه مثقال ذرة كما لم يضيع من الضوء
 مثقال ذرة من تركيب الكوكب ، بل يرى علماء الفلك بمنظارهم حقائق الكواكب وما فيها من العناصر
 عنصرا عنصرا ويحكمون على أبعادها ، فالضوء يعرف الأبعاد ويعرف كل عنصر في الكوكب مهما تباعدت
 أقطاره وامتدت مسافته . إذن الروح باقية وأعمالها معها لا يضيع منها مثقال ذرة ، فضاء الكواكب يقول
 بلسان حاله : « ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون » .

فقال الجميع : الحمد لله ، هذا برهان لامطعم في نفسه . فقلت : الحمد لله رب العالمين ، وبهذا تم الكلام
 على الباب الأول من « رسالة امرأة الفيلسوف » . وأما الباب الثاني فقد تقدم في « سورة لقمان » فلا حاجة
 لتكرره هنا (فارجع إليه هناك إن شئت) - انتهت الطبقة السادسة في قوله تعالى : « فاعلم أنه لا إله إلا
 الله الخ » والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة السابعة

في قوله تعالى : فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم
 انظر الى تقطيع الأرحام في الأمم العربية للتناحر والقتال والتدمير ، لماذا كل هذا ؟ للخلافة والشهوات
 النفسية ، ويظهر لي أن هذا القرآن الذي نزل بالثوري وحفظ العلائق بين العشار والأقرب لم يأخذ بحراه
 عند الأمم العربية أسلافنا ، ولم تمتد له تمام الاستعداد ، فما كانت شمس النبوة تقرب وتظهر نجوم العلم
 في ظلمات السياسة المرية الحالكة حتى رأينا العباسيين والأمويين وغيرهم يتقاتلون ويتناحرون ويدبرون
 المكائد ويبتغون الجوايس لأجل الخلافة ، فزالت دولهم ، ونكست أعلامهم ، وخرّ عليهم السقف من

فوقهم ، وبادت دولهم بالوبال .

الانتظر إلى ما سأذكره في (سورة الحجرات) إن شاء الله من تلك المكاييد المنصوبة ، والحيل المحبوكة والمظالم المركومة ، والجدود العائرة ، والأعمال البائرة .

وكيف ترى أبا جعفر المنصور قد انصرفت همه إلى عسبية العرب ففرقها وأخذ يفتر عن يؤمنهم وينصب الشباك لاصطياد الرجال وقتلهم ، والتفريق بينهم ، وكيف ترى « قم » بن العباس بن عبيد الله بن عباس وهو شيخ العباسيين وكبيرهم بأمر غلامه أن يستفتيه على مرأى ومسمع من أهل اليمن وسادات مضر أيها أفضل وهو يجاوبه أن مضر أفضل من أهل اليمن ، فقامت الفتنة بين القيلتين على قدم وساق ، وتفرقوا شرمز ، ولما قدم للمهدى بن المنصور من خراسان ، قال له قم : اعبر بابك المهدي الجانب الآخر من بغداد واجعل معه قطعة من جيشك فلا يتحدون فتضرب بعضهم ببعض عند الحاجة ، وهكذا لما كانت أم الأمين عريية وأم المأمون فارسية صار العرب حزبا للأول والفرس حزبا للثاني وضرب الآخرون الأولين ، وقد ترقى المأمون في حجر البرامكة وسعوا له في ولاية العهد والفضل بن الربيع سعى في تأييد الأمين وحله على تقض يعة أخيه ، ونصر الخراسانيون ابن أختهم المأمون بتدبير الفضل بن سهل ، وكان العرب من الجند العباسي قد أنهكتهم الحضارة والترف وتبدوا بسياسة التقسيم فلم يستطيعوا دفاعا ، هنالك أخرج الخراسانيون الخلافة من العرب وسلموها إلى المأمون كما أخرجوها قبلا من بني أمية وسلموها إلى أجداده ، وزاد الطين بلة ما حصل في أيام المعتصم الذي تولى الخلافة سنة ٢١٨ هـ وقد جمع حوله الأتراك والفراعنة ، وضرب العرب الضربة القاضية ، إذ قطع العطاء عنهم ، وانحط شأن العرب من ذلك الحين ، ومنعوا الولايات فتمكن الفرس من الدولة ، وهنالك قام مرداويج في أصفهان سنة ٣٣٣ هـ يريد أن يأخذ بغداد وينقل الدولة إلى الفرس فلم يفلح ، ولكن فوذ الفرس استحك ، وفي أيام المأمون ومن بعده تظاهر الشعوب بالظلم في العرب والمأمون يقرهم منه ، ومنهم سهل بن هارون قيم بيت الحكمة ، وكان شديد التعصب على العرب ، وأبو عبيدة الراوية المشهور ، وعلان الشعبي .

والدولة العباسية عصران : عصرا ارتقاع من سنة ١٣٢ هـ إلى سنة ٢١٨ هـ وعصر تدهور يتسدى بخلافة المعتصم وينقضى بانقضاء الدولة العباسية ، إن عصر بني أمية كان للعرب فيه السيادة التامة ، وكانوا يظلمون غيرهم من القبط والنبط والروم والسرمان والكلدان والفرس والترك والسودان ، ومن أصل من هؤلاء يأخذون أرضه ومنزله ، ويلزم بأن يحارب معهم لأنه مسلم ، ولكنهم لا يساؤونهم بأنفسهم ، بل يخرجونهم مشاة بلارزق ولا فيء ، فأثر ذلك في نفوسهم فكثرت الحوارج ، ولما قام الدعاء من آل البيت العلويين والعباسيين نصرهم الخراسانيون ، واتخذ الخلفاء أمهات أولادهم من الفرس ، فكان هؤلاء الأبناء شديدي الميل إلى الفرس ، ولقد أراد المنصور أن يستغنى عن الحرمين الشريفين بالقبلة الخضراء التي بناها ببغداد ، لتقوم مقام الكعبة ، فكانت هذه سبب مبايعة محمد بن عبد الله من آل علي كرم الله وجهه بفتوى مالك رضى الله عنه وهكذا الأندلسيون قطعوا الدعاء لبني العباس إذ ذاك ، فاجتهد المنصور في قتل محمد بن عبد الله بعد أن علم أن ما فعله من الخالفة لا يجديه نفعاً .

وبالجملة إن الجماعة الإسلامية كانت في عصر الراشدين عريية ، وكان غرضهم الأول نشر الإسلام في الأرض يدفعهم إلى ذلك اعتقادهم المتين بصدق الرسالة ، وأن الله يدعوهم إلى ذلك ، فلما تولوا بنو أمية استعاضوا عن ذلك الاعتقاد بطلب المال ، ونحو الفرض إلى السلطة الزمنية السياسية ، وظلت الجماعة العربية متينة ، وفي عصر العباسيين استبدلوا الأعاجم بالعصبة العربية ، واحتاجوا في اصطناعهم أو استخدامهم إلى المال ، وانخرطوا هم في سلكهم بواسطة الأمهات ، ثم أصبح الأعاجم من الفرس والترك والديلم والسغد والفراعنة

وغيرهم يتساقون إلى الاستئثار بالنفوذ بواسطة المال .

م إن المأمون لما مات سنة ٢١٨ هجرية أفضت الخلافة إلى أخيه المعتصم بالله ، وكانت أمته تركية الأصل من بلاد الصغد في تركستان ، فشب محبا للأتراك ، وكان قد أصبح لا يأتمن الفرس على نفسه بعد أن قتلوا أخاه الأمين ، وهي أول مظاهر جرائمهم على الخلفاء ، ولم يكن له من الجهة الأخرى قوة في جند العرب لما يعلم من ضعفهم بعد مساهمهم إياه العباسيون من الإذلال ، وزد على ذلك أن أخاه المأمون أوصاه عند دقو أجله بمحاربتهم ، فلم ير له غنى عن اقتناء من ينصره غير الفرس والعرب ، وكانت الفتوح الإسلامية قد أدركت ما وراء النهر ، وكان العمال هناك يعيشون الهدايا إلى بلاط الخلفاء ، وفي جلتها صبيان الأتراك والفراغنة فهان عليه اقتناؤهم لاتصال نسب أمه بهم ، فافتى منهم أوقاف ، اشترى بعضهم بالمال والبعض الآخر أتاه على سبيل الهدية ، وتكاثروا حتى بلغ عددهم ثمانية عشر ألفا ، فضاعت بهم بغداد ، وضجر البغداديون من سوء تصرفهم ، فابتنى لهم مدينة سامرا ، وأقامهم فيها ، وأطلق لهم الأرزاق ، وجند منهم الجنود ، ولا ريب أنهم كانوا عوناً له في تأييد سلطانه ، والفوز في حروبه ، ضد أعدائه من الروم والترك ، ولكنهم كانوا من الجهة الأخرى سبيلا إلى تهفقر الدولة العباسية بما كان من مطامعهم في الأموال واستئثارهم بالنفوذ حتى أصبحت السولة وبيت مالها وخلفاؤها عرضة لأغراضهم . انتهى من كتاب « تاريخ التمدن الاسلامي »

هذا كله تقطيع للأرحام لأجل الخلافة ، ولو كانت الخلافة بالشورى ما انتطح فيها عنزان ، ولا قتل الحسين ابن علي كرم الله وجهه جند عبيد الله بن زياد أمير الكوفة في كربلاء يوم عاشوراء سنة ٦١ هجرية ، ومن تقطيع الأرحام المذكور في الآية قيام المختارين أبي عبيد الله الثقفي بالكوفة مطالبا بدم الحسين لا بتزاد الأموال ، لا لوجه الله تعالى داعيا إلى بيعة محمد ابن الحنفية أخى الحسين من أبيه ، ومحمد ابن الحنفية علم عدم صدقه فلم يكن راضيا عن عمله ، فدعا الى عبد الله بن الزبير وعلم عدم صدقه ، فأرسل أخاه مصعبا فقتله ، لولا حب المال للمغرى بقطع الأرحام لم يبدل بنو أمية جهدهم في قتل دعاة العلوية ، ولا قتل هشام بن عبد الملك أباهشم بن محمد ابن الحنفية بأن دس إليه من قتله بالسلم في اللبن ، لأن فرقة الكيسانية كانت تدعوا ليه بعد أبيه وهو راجع إلى المدينة ، فعهد بالخلافة قبل موته إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وهذا عهد إلى ابنه ابراهيم الامام ، لولا الطمع في المال والشهوات لم يطلب ابراهيم الامام البيعة في خراسان باسم آل محمد إيهاما لهم فرضوا بذلك موقنين أنها ستكون في العلويين لاني العباسيين ، ولكن العباسيون استبدوا بالملك وقتلوا العلويين قتيلا ، كل ذلك تقطيع للأرحام مصداقا للآية .

بايع أبو العباس السفاح وأخوه أبو جعفر المنصور سرا النفس الزكية من ذرية الحسن رضى الله عنه ، لقد كان العباسيون والعلويون يطالبون معا بزوال بني أمية ، وكانوا أصدقاء ، فلما استتب الأمر للعباسيين غدروا بأبناء عمهم ، لولا أن الخلافة أصبحت لغرض المال لاغير لم يبيع ابراهيم الامام لأبي مسلم الخراساني أن يقتل الناس بمجرد التهمة فيبلغ من قتلهم ٦٠٠٠٠٠٠ نفس قتلوا صبورا بدون حرب ولم يسلطه على مضر ويقول له انهم هم العدو القريب الدار ولم يقل له اقتل من شككت فيه ، وان استطعت ألا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فاقبل ، وأبما غلام بلغ خمسة أشبار وانهمته فاقته .

باليث شعري : لم هذا كله ؟ أليس ذلك لترك الشورى ، ولحب المال وجمعه ، لولا حب المال لم يقتل أبو مسلم جماعة من كبار الشيعة ، وفيهم جماعة من النقباء ، وكبار الدعاة ، ومن هؤلاء السكبار أبو سلمة الخلال الذي نصر الدعوة العباسية بماله كما نصرها أبو مسلم بسيفه ، فهذا لما اتهمه السفاح في قتل الخلافة للعلويين واستشار أبو مسلم في قتله قتلوه وقتلوا عماله في الأطراف وهكذا فعلوا بسليمان بن كثير وهو شيخ جليل من أكبر دعاة العباسيين ، غاية الأمر أنه اتهم بجيلة للعلويين ، فقد بلغ أبو مسلم عنه مثل ما بلغه عن أبي سلمة ،

فأحضره ، فقال له : أنعم قول الامام لى : « من اتهمته فاقتله » . قال نعم . قال فأتى قد اتهمتك ، تغلف سليمان ، فقال : ناشدتك الله ، قال لاناشدنى فأنت منطوع على القس ، وأمر بضرب عنقه ، وهكذا الكرماني وأولاده وغيرهم .

هناك سئم الناس سفك السماء حتى أن أبا مسلم إذا طلب رجلا أوصى وتكفن وتحنط ، ولقد ثار لأجل ذلك بعض الأمراء من شيعة بنى العباس وصاح : ما على هذا اتبعنا آل محمد أن تسفك السماء ، وأن يعمل بغير الحق ، فتبعه ٣٠٠٠٠ رجل فقتلهم كلهم أبو مسلم بخنوده ، أليس هذا هو معنى الآية : « فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم » ، أليس هؤلاء يصدق عليهم وصف العصى والسم في قوله تعالى : « أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » وان لم يكونوا كفارا . أوليس قتل أبى مسلم بأمر ابراهيم الامام للعلاويين وللشيعة ، ولكل عربى ، ولكل غلام بلغ خمسة أشبار من العرب هو نفس تقطيع الأرحام فى الآية ، لماذا هذا ؟ لئال والله ، لئال والله ، فأين بيعة السفاح والمنصور للعلاويين ، أوليس من المؤلم أن يبكى كبار العلويين على بنى أمية من شدة ما ذاقوا من بنى العباس ، ويقول محمد بن عبد الله : « ما بنوا العباس إلا أقل خوف الله من بنى أمية ، وأن الحجة على بنى العباس أوجب منها عليهم »

أفلا نعرف بهذا معنى قوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » فأين القرآن إذن . بأى كتاب أم بأية سنة . يقتل الناس بالتهمة ! أليس هذا يخالف القرآن على خط مستقيم ، وسرى إن شاء الله فى (سورة الحجرات) بقية هذا الموضوع من قتل العلويين وبقية العباسيين ، وقتل أبى مسلم نفسه وغير ذلك ، ولأكتف بما ذكرته فى (سورة الشورى) وفى (سورة الأحقاف) ليعلم المسلمون بعدنا أن هذا ملك لاخلاقه ، وأن الخلافة الاسلامية ليست على هذا النمط ، وأن هؤلاء لم يبقوا القرآن ، ولكن الذين بعدنا سيقروا ما كتبناه ، ويعلمون أن اتباعهم فى ذلك غرور وجهل ، فيجب أن تكون الخلافة بالشورى ، وأن يكون الخليفة تابعا لمجلس الشورى ، ويحرم عليه أن يعمل عملا ، أو يأخذ مالا ، أو يتصرف إلا بالشورى هذه هي الخلافة الاسلامية ، ولو كان هؤلاء الخلفاء مقيدين بالشورى كعمر وعلى وأبى بكر لم يفعلوا ذلك كله ولم يقطعوا أرحامهم ، لأن المال الذى طمعوا فيه ليسوا أحرارا فى أذخاره وحوزة ، والله هو الولي الجيد والى هنا تم الكلام على اللطيفة السابعة فى قوله تعالى : « فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم » وبها تم تفسير سورة محمد صلى الله عليه وسلم والحمد لله رب العالمين .

(تم بحمد الله تعالى وحسن توفيقه الجزء الحادى والعشرون من كتاب « الجواهر » فى تفسير القرآن الكريم ، ويليهِ الجزء الثانى والعشرون ، وأوله تفسير سورة القمع)



فهرست

الجزء الحادى والعشرين

من كتاب الجواهر في تفسير القرآن الكريم

صفحة

- ٢ (سورة النخيل) مكتوبة بالحرف الكبير مشكلة .
- ٤ تفسير البسمة ، وبيان آراء أفلاطون وأرسطاطاليس والرواقيين وبارتلمى والاستاذ كانت في علم الأخلاق ، وأن سقراط يقول بصانع العالم بدليل أثبت من دليل الاستاذ كانت الألمانية الذى جعل دليله راجعا لعلم الأخلاق ، أما أرسطاطاليس فهو أنزل منهما في ذلك ، ومؤلف هذا التفسير أتى يرهان أكل من الجميع ، وأبان أن لكل حاسة علما يتصل بها مناسبا لها كالمس بالنسبة للمحسوسات والعقل وهو أعلاها بالنسبة للعقول من الملائكة وصانع العالم
- ٦ امتحان نفس المؤلف بالسرء والضراء ، أما السرء فاليقين الذى لاسعادة توازيه في الأرض ، وبالبهجة بهذه المجرات والسدم الجلية ، وأما الضراء فذلك أن المؤلف حدث له حادثتان : إحداهما داخلية وثانيتها خارجية ، فكر في نفسه أن المسرة التى في قلبه لو بقيت هلكت نفسه ، فهذا الهم الداخلى نعمة ، فأما الهم الخارجى فهو أيضا باب للنعمة . ذلك أنه ركب في عربة مع الناس إلى بلدة شيبين القناطر ، فغفل له والناس حوله أنه ارتقى فوق سلم إلى السماء ، ورأى هناك نورا ونهرا وقصورا فيها حور مقصورات ، وهن خيل له أن انسانا يقول له : « هذه السلاط اشارة إلى درجات الطفل في نموه ، وهناك درجات لنموه في الرحم ، ودرجات أخرى في ارتقائه في الحياة ، والنهر هي الرحمة العاتية ، وأما الحور في ذلك الخيال الديوى فنهاى إلا أنسلة للرحمة والمحبة وللإبداع بخلاف الحور في الآخرة فهي حقائق » . وبينما هذه المعاني تتخالج قلب مؤلف التفسير كانت مشاكه الخارجية تحمل بأسهل ما يكون مصداقا لقوله تعالى : « نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة »
- ١٠ صورة السلم الذى تخيله المؤلف ، وفيه الصعود والنزول ، وفيه ١١ درجة ، وفوقها الحب والعلم والرحمة والجمال ، وهذه الأربعة توضحها الحشرة المرسومة في صفحة ١١ فهناك دقة الصنع وهي رحيمة إذ تنظم بعضها ، وهما ذكر كلام الشيخ الدباغ إذ أبان أن نور النبوة غير نور الولاية
- ١٣ التفسير القفلى للسورة كلها
- ١٤ الاعتبار بأمر فرعون
- ١٥ رجوع إلى مشركى مكة ، مخوف مشركى مكة بأن قوم تبع (بتشديد الباء) أقوى منهم فهلكوا
- ١٦ ذكر البرهان العقلى على البعث بعد الانفاة بالموعظة
- ١٧ وصف العذاب لأهل النار . وصف أهل الجنة
- ١٨ لطيفة في قوله تعالى : « إنا أنزلناه في ليلة مباركة » تذكروا المؤلف ما كان من نعمة الله عليه إذ كتب رسالة قبل الحرب الكبرى بعشر سنين بوقف الأمم الاسلامية للمستقبل ويقول : « إن الحرب القادمة يخاف منها وفيها هلاك للمسلمين » وسبب ذلك سؤال شاب قازانى وقد ظهرت الحوادث مؤيدة تلك الرسالة اللطيفة الثانية ، وفيها بيان أن عقول الشرقيين راقية ، ومنها أنبياء وحكام ، فإنامة هذه العقول ذنوب عظيمة ، وهذا القتل في الشرق عقاب عليها ، وهذه ذنوب سليية . وهناك ذنوب قلبية كالحسد

- والكبر الخ ، والقسم الثالث من الذنوب ذنوب جسمية ، وعقاب القسم الأول الجهل ، وقلة العلوم ، وعقاب القسم الثاني المنازعات الداخلية ، وعقاب القسم الثالث بأيدي القضاة في الذنوب المعروفة ، وبالأضرار والعلل في ذنوب لا ضابط لها كالانهماك في شراء البضائع الأجنبية ، فهذا يساعده ذنوب القسم الأول لقلة الصناعات في البلاد ، وهذا يشير له : « يوم نبطش الخ »
- ٢١ ومن للعذاب إرسال الدخان ، وهودخان الجوع ، ودخان الغبار ، ودخان قبل قيام الساعة وهو محسوس وكل شر غالب يسمى دخانا . كيف كان الدخان عذابا ، وكيف ظهر الدخان في حرب الألمان وهو من أشرط الساعة ، ولكن ذلك بمعنى غير ما يفهم أكثر الناس
- ٢٣ الرسالة القازانية ، وبيان المؤلف للطلاب القازاني ، ان هذا الموقف رهيب ، وكيف يستفتى مثله فقال له : هل العلماء المتقدمون آمنوا ما عليهم ؟ أم يحق لنا نحن أن نفكر ، ويقول المؤلف : كيف أحكم في سادة مدحهم مؤرخوا لا فرنج بأنهم هم المعلمون لفلاسفة أوروبا ، وقد ترجوا كتب الأمم حولهم ، ثم خلف من بعدهم خلف تنازعوا في فروع الفقه وتركوا جميع العلوم ، ثم جاءت طاقة فأخذت تدم هؤلاء المدنيين بترك العلوم كالغزالي وابن رشد ، وهؤلاء جاء قوم بعدهم فبنذوهم وكفروهم .
- ٢٥ أضع الاسلام ملك وفتيه وصوفي اذا كانوا جميعا منحرفين ، إن الله يقول : « إن الله قلني الحب والنوى » بدون سؤال لعنايته تعالى بنا ، ولكنه لم يجب عن الامور الجزئية كالنحر والميسر واليتامى إلا بعد السؤال .
- ٢٦ يقول الله : « قل سيروا في الأرض » والسيرة تفرزه اللغات ، إن الله أوعد المسلمين الجاهلين بقوله : « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا الخ » وقد تم ذلك كله ، وهنا أنذر المؤلف المسلمين وذلك قبل الحرب الكبرى بعشرين سنين ، يقول : « إنى أرى كأن الأساطيل الهوائية في السماء ترى الناس بنار ودخان » وقد تم ذلك ، وهنا ذكر المؤلف الطيارات في الجوق والضباب القاتل
- ٢٨ صورتان لطيارة زبلن ، وصورة الجنود يشتقون الجبال ، وصورة المتطاد بعد نزوله ، وبيان أن المتطاد سافر من ألمانيا إلى أفريقيا في ٢٤ ساعة
- ٣٠ الدخان والضباب وآثارهما في أم زماننا ، وأن الدخان سلاح الحرب المقبلة ، وحض التريك الذي استخرجته ألمانيا من الهواء أطال مدة الحرب ، لأنها صنعت به المدمرات ، ومن العجب أن هذه المدمرات بعد الحرب أصبحت نافعة في أحوال الحياة العادية ، اخترع الأمريكيون غازا اذا ألقى من الطيارة يقتل آلافا من الناس ، واذا ألقيت ست قنابل منه على عاصمة من العواصم أبادت جميع سكانها
- ٣١ تكاثف الضباب في انكلترا ، وأهلك في البلجيك ٦٠ قسما ، وهو ضباب لم تدخل فيه عناصر من غيره ، وجاء تفراف من برلين أن نضاليا الضباب ١٣٠ شخصا غير المرضى ، هذا بعض مجزات القرآن في إنزال سورة باسم الدخان ، وظهرت حقايقه الآن .
- ٣٢ محاوره سقراط مع أرسطو وديموس أحدا أصحابه في تفسير : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاصين » وبيان أن من يصنع التماثيل العاقلة المتحركة أبرع من يصنع التماثيل الحجرية مثلا بلا حركة ولا احساس وكيف شك أرسطو وديموس في صانع الصور العاقلة ، لأنه لا يراه ، ولكن يرى صانع التماثيل المعروفة وكيف رد سقراط عليه بأن روحك لا تراها ، ولكنك لا تنكرها ، واذا كان هذا الصانع قد أمذك بالحياة واتقان الصنع والابداع فهو أيضا يطلب منك العبادة لأنه لم يتجاف عن خلقك وأنت ضعيف جد ضعيف ، وهنا أخذنا يبحثان في قتل الانسان نفسه وهل يجوز ؟ وأظهر سقراط تحريمه ، وبرهن

على أن الفيلسوف لا يكره الموت ، لأنه يعطى نفسه الحرية في التفكير الذى يشغل عنه هذا البدن ،
ونفسه أعلى من أن تحبّ الذات .

٣٤ إن الفيلسوف مختص بالاجتهاد في الفصل بين نفسه وجسده ، وهل يعرف الجمال والعدل والخير إلا
بواسطة الروح وحدها بعد الموت . والله هو الذى يخلصنا لتصل إلى هذه السعادة العلية ، والله قد
أذن بسفري الآن بفعل السم ، وإذا كان الفيلسوف يضيع حياته في اقتراد روحه عن جسده وقتنا
فوقنا ، أفليس من المحقق أنه يفرح بالموت ، لأنه يبعد عن هذا الجسم العائى عن العلم ، ثم استدل
على بقاء النفس بأن الحياة بعدها موت فلا بد من حياة بعد الموت ، لأن الضد يقع ضده ، وأيضا
العلم نعرفه بالتعلم ، ولولم تكن لنا حياة سابقة في هذه العالوم لم ندرك هذه العالوم ، وأيضا المساواة والجمال
والعدل لوجودها هنا فلا بد أنها معروفة لنا سابقا ، وأيضا النفس بسيطة والبسيط لا يتحمل ، فلذن
هى باقية ، وأيضا النفس أمره للبدن ، إذن هى إلهية ، فليست قابلة للزوال فان صفت رجعت إلى
الموجود الحق ، فكانت عنده في مقعد صدق ، وإذا كانت مدنسة فانها تلحق بهالم الخير والخير رابع ،
والمؤلف يرى أن هذا انحراف عن الاسلام فبرده بشدة ، ثم أبطل سقراط قولهم : « إن النفس للبدن
كالألحان لآلة الموسيقى ، وأنها نتيجة تكافؤ العناصر واعتدالها في المزاج ، وأنها بعد طول الحياة
المستقبله تضي » وهذا الابطال بحجج : مثل أن العلم لا يتصور إلا بمعلومات سابقة ، إذن النفس
ليست نتيجة تكافؤ المزاج ، وأيضا لو كانت تابعة للمزاج في البدن لم تكن أمره له ، وأيضا الأشياء
المحسوسة لا تكون إلا بوضع معان غير محسوسة أزلية وهى لا تقبل التقيض ، وأيضا تفاوت النفوس
عظيم جدا ، فهو جوهرى وتفاوت الألحان عرض فهمى لا تتفاوت إلا في القوة والضعف ، أما النفوس
فتفاوتها آت من حيث انها نفوس لاغير ، وأيضا لو كان الموت نهاية كل شيء لكان ذلك لفائدة الأشهرار
وهو خلاف العدل

٣٧ (الجوهرة الثانية) وفيها حكاية الشاب اليهودى التلميذ في إحدى الكليات بانكثرا إذقتل نفسه ليلا
لماسمع من الاستاذ أن الانسان بالموت يحظى بالسعادة . خاتمة المقاتل في مجازات القرآن في سورة النملان
٣٨ تذييل لسورة النملان بذكر مقال المترابنوم ، يقول : « إن وضع مدفع على أحد جانبي نهر
النيل مع استعمال الغازات الخاطئة يكفى لإهلاك الأمة المصرية »

٣٩ (سورة الجانية) مكتوبة بالحرف الكبير مشكاة
٤١ تفسير البسملة ، نظر المؤلف في جسمه اذا هو حبيب ، يدها منفلقتان ، ورجلاه على الأرض ، وعقله
موافق لاطلاق يديه ، والحيوان لم ينل ذلك فكانت غوايته على مقدار ما نال من الأعضاء ، ارتقى
عن الحيوان فنال بمقدار رقيه ولكنه لم يصل للكواكب ، ولم يخترق الأرض ، فهو إذن محبوس .
ومع هذا الحبس يرتفع عقله إلى السموات العلاء ، ولم يجيبس لكلمات حياته باطلا ، لأنه لا يدرس شيئا
بل يطلق سراحه في الكواكب العظيمة فلا يعلقها ، إذن هو محبوس في مبرة لاغير ، وهذا من حكمة
تباعد الكواكب في السموات ، الضدان الخير والنشر جلا لرقى أرواحنا ، نحن الآن في حال تشبه
جهنم ، لا أنها جهنم ، الدول الظالمة والمظالمة معذبتان ، والأولى يصبح الظلم في رجالها عادة فنسقط
بعد حين ، وهذا هو سر الإيمان بالقدر خبره وشره من الله ، وهذا معنى : « تزييل الكتاب من الله
العزيز الحكيم » فالعزة بتهرنا والرجه برقى أرواحنا ، والعزة والحكمة في آخر السورة كتفى في أوها
وبهذا نفهم معنى الرحمن الرحيم في البسملة ، فإذا لم يعرف التلى ما كتبناه فكيف يقولون الله رحمن

رحيم إلا اذا أصبح الشقاء فسه قسما من أقسام الرحمة ، وهذا سرّ أصبح اليوم ظاهرا فليعرفه الناس
 ٤٤ وهما أخذ المؤلف بتطبيق أقوال المصلي في صلواته على ما ذكر الله خلق الشمس وبنورها انتفع كل
 حيوان ونبات ، وهذا الضوء حرمه الناس بسبب جهلهم بالتقليد الاعجمي من اكتثار الملابس عليهم
 المانعة ضوء الشمس أن يلقى أجسامهم فتقلّ سعادتهم ويكثر شقاؤهم أن الله عامل الملوك والاسراء
 والاغنياء غالبا معاملتنا للصبيان فهو يكثر لهم الملابس والماء كل ، فيعجبون عن الشمس وتفسر
 الأبدان فتقلّ السعادة ويقصر العمر ، وهذا هو أجروهم على حفظ بلادهم . التقليد الاعجمي قتل
 الانسانية

٤٥ ان بعض الأمم الشرقية فضلا عن اسرافها في مأكلها وملبسها تسرف في شراء المتاجر الأجنبية
 فيلحقها القتل المذني فوق القتل البدني . ان حاسة اللمس تعرف ماحوطا وكل حاسة أرقى مما قبلها
 والعقل فوق الجميع وله هو عالم عقلي يتصل به ، كما أن العين تتصل بعالم النور . اذن هنا رحمتان عامتان :
 رحمة الشمس والناس جهلواها ، ورحمة العقل العام الذي استمدت منه عقولنا كما استمدت أعيننا
 النور من ضوء الشمس العام في العالم ، وهاتان الرحمتان مذكورتان في البسملة
 التفسير اللفظي لهذه السورة

٤٦ الاعتبار والتأسي بقصص بني إسرائيل

٥٢ لطائف هذه السورة ست : اللطيفة الأولى في آية « ان في السموات والارض آيات للمؤمنين »
 وفي هذه عشر مسائل عن مقدار محيط الكرة الأرضية ونصف القطر وسرعة الحركة الأرضية ووزن
 الهواء الجوّي وارتفاعه وهكذا ، والاجابة عليها ، وهكذا الكلام على حجم الشمس وبعدها ، وفي
 أيّ درجة من درجات العرض يصير أطول نهار ٢٤ ساعة ، والليل معدوم
 ٥٤ كيف قصر المسلمون في هذه العلوم وعضوا علماءهم . وهما ذكر أقوال العلامة الرازي ، اذ وصف
 فقهاء الاسلام في زمانه بالفتنة اذ يقولون ليس في القرآن الا أحكام الققه ، وقتهم أنه ليس في القرآن سورة
 طويلة للأحكام وفيه سور كثيرة سبها السور المكية ليس فيها الا دلائل التوحيد ، والنبوة والبث
 والقيامة

٥٥ الكلام على اختلاف الليل والنهار وشرح جدول في صفحة ٥٧ فيه زيادة وقصص النهار والليل
 بالهرجات ومصطلح القبط والسريان والروم . مثلا الشمس تدخل في برج الميزان يوم ١٤ توت تقريبا
 وتوت يدخل في ٢٩ آب من شهور السريان ، وهو يدخل يوم ٣١ من أغسطس من شهور الروم ،
 وذلك في منزلة الشرطين التي تطلع في فجر ٢٣ برمودة ، ثم الكلام على تصرف الرياح . فكما أن للشمس
 حسابا في الشهور المختلفة باختلاف الأمم ولها أيام طويلة وقصيرة هكذا لها عمل في الرياح ، ومعلوم أن
 زوايا انكسار الضوء تكون منفرجة كلما ارتفعنا الى أعلى ، وعند الطبقة الباردة يبرد البخار فيكون
 سحنا فطرا ، والهواء متى وصل الى أعلى سار جهة الشمال ووجهة الجنوب وبجمل عمله غيره ، فالرياح
 تهب في الجنوب والشمال فتكون أنواع الرياح من الموسمية والتجارية ، والصدية ونسيم البر والبحر
 ومما شبه ذلك وكل هذه ترجع الى الحرارة والبرودة
 أسباب كثرة المطر :

(١) وصول البخار الى الطبقة الباردة :

(٢) ومقاومة الهواء الجبال :

(٣) والرياح الضئيلة تأتي من الجهات الحارة الى الباردة :

(٤) والرياح الموسمية :

بهذا يفهم المسلم معنى العزة ، والحكمة فيالعزة قهر الهواء ، الماء فتصرف فيهما بالحرارة والبرودة ،
وبالحكمة سطر الشمس عليهما فتقرب وتبعد بنظام لتنتج نافعة ، فهذه هي الحكمة :
٦٠ بهجة الرفان ، في جزائر المرجان ، وأن المؤلف بينا كان يفكر في الحساب العجيب الذي سيذكره
في سورة الرحمن في قوله تعالى الشمس والقمر بحسبان من عجائب الجنر والتربيع وحساب الأوتاق
من حيث نظامها وبداتها وان استعملها الجهال في الأمور التافهة الخفية بينا هو يفكر في ذلك إذ
وقعت في يده مجلة انجليزية ، وفيها رسوم أنواع المرجان التي لم تظهر الا في هذا الزمان ، فأصبح قلبه
في جنة العالم الرياضية ، وعينه في جنة المناظر المرجانية ، فالقلب سمد بالحكمة ، والعين قريبة بالمنظر
الجلية ، هنا تناول المؤلف المجلة وترجم ما فيها من عجائب المرجان ورسم صورها تضييرا لقوله تعالى « الله
الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره الخ » وفيها عجائب مثل صور السمك العائش حول
سلاسل الصخور المرجانية في البحار ، وسمك النعل المنقوش وصورته في صفحة ٦٣ ويض سمك
النعل المنقوش ، وله صورتان في صفحة ٦٣ ، وفي صفحة ٦٤ صورة قطعة من الجزائر المرجانية ، وفي
صفحة ٦٥ ثلاث صور مرجانية منها ما يشبه الورق أو يشبه السلاسل الصخرية ، أو يشبه النباتات
القطرية ، وفي صفحة ٦٦ و ٦٧ صور المرجان المشدود بنحيط ومرجان موريبور ومرجان مثل
الشبكة ومرجان الكوب ، وفي صفحة ٦٨ و ٦٩ و ٧٠ و ٧١ صور مرجان المحيط الهندي ومرجان
كوب البحر ، وكأس بحري من المرجان ، وأنايب بحرية مصنوعة من المرجان ، وحصير البحر الذي
كان أول أمر كتب عنه دلروين ، ومرجان الكونزيان الخي ، وفي صفحة ٧٢ الى ٧٤ صور
مستعمرة للرجان في البحر الهندي ، وشقائق البحر فوق الصخور ، وسلاسل الصخور المرجانية في
جزيرة (داكو) والجزيرة البركانية

٧٥ ههنا أتى المؤلف بأيات تناسب هذه المناظر ، ثم أتى بأمر خاص يناسب زماننا فقال : ان الله يقول
« ولكل قوم هاد » فلكل جيل أنس يخصون لهدايته من أنبياء ، وعلماء ، وأئمة الاسلامية ،
لها هداة كل بحسب زمانه ، وأم الاسلام أشبه بهذا الجنين في هذا الفلاف ، قد أحاطت بقولهم
الخرافات ، فالهداة فيها يفكرون في اخراج أمهم من الخرافات المحيطة بهم ، فهؤلاء الهداة فيها أشبه
بالتغير الكيمائي الذي حدث في هذه البيضة الذي به يكون خروج الجنين منها ، لافرق بين الأمة
والجنين ، فكلامه هاد ، فالجنين التغير الكيمائي ، والأمة حكما يخرجونها من الظلمات الى النور :

٧٦ « المعاني الجسمة في الحقل » بت ليلة ٢١ ابريل سنة ١٩٣١ بقرية كفر الباشا ، وأخذت أفكر
عند تعاطي الطعام في معنى الجوع ومعنى الشبع ، وأن ههنا قاتدين وساقا ، فالسائق هو الجوع ، والقائدان
لذة الطعام والمرض مع تعاطي السواء وأن الله فصل مع الانسان ما يفضله الانسان مع دابة نافرة منه
وفي الطير يقي عند الرجوع تحت زينة على صدر امرأة يحمل جرة فذكري ذلك أن جمال الانسان
محدود من جهات ثلاث ، وجمال النجوم ونحوها ، وجمال المرجان لاحدله ، وثمرات كل جمال على
مقتضاه ، فالنجوم والمرجان ونحوها بما يستخرج من القوى ملاحدله ، والعلم لاحدله كما أن ذلك الجمال
لاحدله ، ولما كان جمال الانسان محدودا كانت منه ذرية محدودة

٧٧ اللطيفة الرابعة : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات الخ » وبيان أن كل ألم نعمة لأنه منفر اذن

اتقى الشر في الارض لأن كل شر فهو لأجل خير ، ومن عجب أن العزالي يقول : « ان كل عذاب ماهو الا نتيجة مقدمات كما أن المرض نتيجة اهمال في طعام أو شراب » ويقول (إسبنسر) : « ان الطبيعة عقابا منظما محكما فان قلت المخالفة قل الامم وبالعكس كمن يختبئ بشجرة »

٧٨ انا كنا نستفسخ ما كنتم تعملون : وههنا بيان علماء الأرواح وأن العوالم كل له مقام معلوم كالسمك في البحر والذباب في البر والطير في الجو ، ويقولون ان أرضنا عالم خشن والأثير حولها لطيف ، وأثيرها بالنسبة لاثير حول عالم غيرها خشن ، وليس يصد الانسان عن الرقى الى العوالم العليا اللطيفة الاذاته وغلظتها : مم علماء الأرواح يقولون : ان فكر الانسان يؤثر في غيره وغيره يؤثر فيه وأفكار الناس أشبه بالآلات موسيقية كلما كانت أكثر وأضبط وأوفق كانت آثارها جميلة وبالعكس .

٨٠ اللطيفة السادسة فله الحدب السموات ورب الأرض الخ ، وفي هذه الآية تربية العوالم والكبرياء فيها وان الله غالبها وهو مع ذلك حكيم ، وههنا أخذ المؤلف يذكر أقوال المصلى في صلته ويطبقها على هذه العوالم العلوية والسفلية .

٨١ ان كل جيل في أرضنا منشؤه الشمس وجودا وظهورا ، فلتسكن الشمس وجودا وظهورا عن ذات قدسية ، وهذه قرة العين في الصلاة : ان الصنعة الجيلة لصانع أرضي تشوق الناس الى صانعها ، ومتى رأوه اكتفوا به .

٨٢ ﴿ نور النبوة وبهجة العلم ﴾ في حديث « جعلت قرة عيني في الصلاة » الارض ذرة بالنسبة للشمس ، والشمس ذرة بالنسبة لبعض كواكب الجوزاء البالغة قدر الشمس ٢٥ مليون مرة ، والعالم لانعرف له نهاية . والله حكيم لا يعطى الانسان العلم الا بمقدار ، لذلك كثرت الاصنام في الارض التي نسبتها الى الحقيقة كنسبة الجلد المنفوخ الى ولد البقرة وهي لا تدر الا اذا رأته : عظم الله ، وتنزل الناس الى الاوثان ونحوها .

٨٣ قصة الخليل وبنينا صلى الله عليه وسلم
(١) الاصنام - كسرها الخليل (٢) نظر في النجوم (٣) وصل الى الله ، هذه حال أهل الارض : ضلال فعولم فوصول أد (١) شهوات أرضية (٢) فعولم (٣) فوصول

كسر الخليل الاصنام ، ومحمد صلى الله عليه وسلم انتقل من حب النساء بغته الى أن جعلت قرة عينه في الصلاة ، الخليل كسر الاصنام وارنق الى العلم ثم وصل ، والنبي ﷺ كان حب النساء مقدمة مباشرة لحب الله ، فهو كسر الاصنام كما كسر الخليل ، وكسر الشهوة أيضا ووصل ، وهذا عجب

٨٤ « فله الحد » الخ أيضا . نظام الأغذية في الارض . آثار صفات الله واصلة البنا وتلك الآثار تنقلب فينا بحسب طباعتنا نحن كما ينقلب الماء في الخنظل مرآة ، وفي الفا كلمة حلوا . والعرق في الانسان من نفس الماء العام ، ولكنه يكون بحسب أمرجتنا كما انفق لي أنا إذ كنت آكل اللحم نارة وأتركه أخرى فانصف العرق بالفسدين باعتبار الخالين . فلا عجب اذا كانت آثار نعم الله تنقلب فينا نحن وسوسة للشياطين فننصف بالحسد والحقد الخ ، وذلك من كبريائه وعزته ، ولذلك لا يرى ولكن ذلك ليس لمنع منه بل لضعف قابلية الخلق ، فعدم رؤيته له رحمة منه فكبرياؤه مصحوبة بالحكمة ، وما نعرفه من العلم الضئيل حاصل بصفة التريسة : لو أن الأشجار أعلنت الناس بما فيها بلا تعب منهم لكان ذلك خطلا : فانه متكبر ورحيم ومرب .

٨٦ الآثار العلوية : بها نفهم الآية ، وصفات الكبرياء ، والعزة مع الترية . ألا ترى الى الجبال والبراكين

والحم والتلال والزلازل ثار بركان (ديبلي) ، وتكون له رأس ، وهكذا أكثر الجبال تحدث بعد البراكين ، وهل البراكين إلا نعمة . ألم يشتر الأسميكيون بركانا في المكسيك بليون جنبه لاستخراج الكبريت منه ، جبال وبراكين تخرج للناس نعمة ، وأي نعمة أعظم من نعم الجبال .

٨٨ ﴿ الفصل الثالث ﴾ في تعليم الأنبياء الخ : وان الله على إذ يحصر خطابه للناس في طائفة ، وبإيجاد الطرق الثلاث في المخاطبة : كان حلما ، والكبرياء في السموات والارض غير العلو على الأنبياء : فلتفهم هذه الحكمة . رأى المؤلف جنازة بشارع زين العابدين ، والنساء خلفها يبكين : فقال النوع الانسانى لمنع العلم جهل بقاء الروح . فيكى والبكاء لجهله لاغير .

٩٠ ﴿ الفصل الرابع ﴾ في تربية النفس بالكبرياء والعزة ، وههنا طريقة دالتون تناسب نظام الله المتقدم ، وهذه الطريقة تجعل التلميذ مسئولاً عن عمله والمدرس يلاحظه وهو يفعل مايشاء في معلمه أو كتابه والمدرس يفهمه ماأطلق عليه ، وفي أول النهار يدرس التلاميذ وحدهم ، وفي آخره يرشدهم المدرسون .

٩٣ ﴿ الفصل الخامس ﴾ في أن سياسة الأمم كعالم الطبيعة اذا أكل الانسان فوق الشبع أو طعمها ضارا فهو المسئول اذا مرض ، هكذا الأمم اذا حكمها المتفرون من أبناء الملوك وهم غير صالحين للحكم فهم المسئولون ، فأين السورى إذن ، اذا عمّ الترف قل العلم ، وبقلة العلم تضع الامة ولما ترف المسلون أذلم الله ببيدهم حكموهم ثم بأعدائهم ، وحجة الملوك في أن الملك بالوراثة من غير أهلية حكم ابليس بفضل النار على التراب ، وكما جهل المسلون سابقا السياسة جهلوا العلوم . الاحتياط يكون بالجهل واحتلال الاجانب وأوطها أهمهما . الأمة الحرة كالأسد والحمر ، والنذيلة كالبقرة والغنم .

٩٥ ﴿ الكلام على الاندلس ﴾ وكيف كان العرب متى كانوا في حال سلم أخذوا يقباضون ويتفانون كالنار تأكل بعضها ، ان لم تجد ما تأكله ومن ذلك أنهم كافتوا البر على جهادهم معهم بالابناء والاحتقار . استقلال الأمويين بالاندلس : دام ملك الأمويين بالاندلس (٣٠٠) سنة ، ولها أدوار ثلاثة : دور التأسيس : ثم عصر القوضى : ثم عصر ملوك الطوائف : الملوك منهم عبد الرحمن الداخل . فهشام . فالحكم . فعبد الرحمن الثاني الذى شغلته النساء والمظاهر الخارجية فعمت القوضى فمحمد ابنه الذى ولاه الخصيان والموالى وكرهه الناس ، وهنالك انفصلت أقاليم واستقلت : ثم ولّى ابنه المنذر ولم يدم ، وبعده أخوه عبد الله فعمت القوضى جدا ونفرت الأمة شيئا ، وبعده حفيده عبد الرحمن الناصر ، وهذا كان عصره ذهبيا وأرجع المجد وحفظ الملك وقاتل المسيحين : ثم تناهى أعقاب الناصر هذا على الخلفاء ثم كان انتقال النفوذ الى الوزراء وظهور بنى حمود ثم الانفصال من المملكة ثانيا ، وبالجملة ان العرب أذلم الانغماس في الشهوات والانقسام ولم يزالوا كذلك حتى أزالهم فرديناند وايزابلا .

٩٨ فته الحد الخ أيضا : يجب المؤلف من قصة موسى مع فرعون وأنها موازنة لقصة العوام الارضية وبيانه (١) انه أتى في التابوت (٢) والتابوت ألقاه الى الساحل (٣) فأخذته العدو (٤) وقيل لأمة لا تخاف الخ (٥) وقتله القبطى (٦) وأعماله مع السحرة (٧) وبجأحه : (١) تحدث زلازل (٢) فيكون الخوف والذعر (٣) فتكون أراض زراعية (٤) ومنافع الكبريت (٥) وجزائر (٦) وجبال ، وهذا يعينه تعلم دالتون ، وهو يعينه العزة والكبرياء مع الرجة والحكمة والتربية ، وهذا تفسير لاسماء الله في الآية (١) كبرياء الله وعزته وتربيته للمؤلف . انه قد عاهد الله أن يؤلف للمسلمين متى فعل ولم يجد وهو مدرس الاصباح الجمعة للتأليف فأخذ يؤلف فيه ، ولكنه ترك التأليف

يوم جمعة فتأمله رجل يعرفه وذهب ليشتري عجلا والمؤلف معه ، اذن الله عاقبه بالتوجه لجل البهائم فله الكبرياء والعزة ولكنه بريه (٢) لما عزمتم على التأليف أحاطت في المزججات والتوازن ولكنني قلت في نفسي : اني شديد الخيلة وأنا أربس سرعة ، فالتت بهذه المصائب يعلمني الثبات ليدوم التأليف ، وقد وجدت معونات كثيرة من الله عز وجل (٣) حديث السمكتين اذ قالت احداهما للأخرى لماذا أرى بني آدم أكرم منا ، ان البحر يعلو فوقنا مئات الأمتار ، ولكن هؤلاء ليس فوقهم من الهواء الا ما لا يزيد على عشرة أمتار : فكيف هذا : فقالت الثانية لنتجمع ولنضع الله أن يخفف عنا : فأجاب الله الدعاء بأن أرسل من البحر بخارا في الجوق . فقالت الأولى : ان هذا البخار لا يقلل ماء البحر . فقالت الثانية : اصبري ولا تنجلي ، فصار البخار سحابة فطرا ، ومنه ما صار تلج فوق الجبال ، وهذا الثلج يتخذ له طريقا في الأودية ، ويدفع بعضه بعضا ، ويكسر معه من الجبال حجارة وصخورا : ثم ينزل الى البحر في جهة اليابان وغيرها ، وهذه الحجارة تصبح مأوى للسمك : وهذا ملخص حديث السمكتين ، وفي أثناء ذلك ترى شكل ٢٥ صفحة ١٠٣ : تشقق الصخور بسبب التغيرات ، وشكل ٢٦ واد ناشئ من سقوط مغارة جبيرة ، وشكل ٢٧ مقطع رأسي في جانب الجبل فيه بئر ، وشكل ٢٨ الأبار الارتوازية ، وشكل ٢٩ صفحة ١٠٥ منظر ثر ارتوازي . وشكل ٣٠ واد عميق ضيق ، وشكل ٣١ تحول المنسبة إلى أودية ، وشكل ٣٢ حفرة حديثة ، وشكل ٣٣ الحفر الوعائية بسويسره ، وشكل ٣٤ أسباب وجود الشلالات ، شكل ٣٥ منطفات نهر المسيدي ، شكل ٣٦ تكوين سهل الفيضان : المطر والبرد والثلج : الثلجات وخطر الثلج ، شكل ٣٧ صفحة ١١٠ صورة المنظر الأدنى من الجرف الثلجي في الرون ، شكل ٣٨ زيادة سرعة النهر الجليدي ، شكل ٣٩ نقل الثلج للصخور . تذكرة في قوله تعالى « وما أنزل الله من السماء من ماء » ، والكلام على القيمة الغذائية للماء كولات ، وان السعر اللازم للكيلو جرام في اليوم ٢٨ لمن في الفراش ، و ٣٢ للمجالس ، و ٣٣ لشغل بسيط ، و ٤٠ لشغل متوسط ، و ٤٨ لشغل صعب الخ .

١١٧ (تفسير سورة الاحقاف) . كتابة السورة مشكلة بالحرف الكبير

١١٩ تفسير السلسلة ، نزلت الرحة في السورة بالعزة والحكمة والصبر ، ومدح الذي برّ والديه ، وذم من

عصاهما وظهر الحكمة عمته ، وهي أن اهتم ماك في الشهوات بدو الخزي ، ويدخل ضمن هذه القاعدة

الدول الأموية والعباسية والأندلسية والمصرية الخ

١٢٠ بيان أن في السورة ستة مقاصد

١٢١ التفسير اللفظي

١٢٢ معارضات النبوة والاجابة عنها

١٢٣ أهل الاستقامة الذين وحدوا الخ

١٢٤ « واذكر أننا عاد » الخ

١٢٥ الكلام على الجن وسماهم القرآن

١٢٦ « فاصبر كاصبر أولوا العزم الخ »

في هذه السورة خمس لطائف . اللطيفة الأولى في آية : « أذهبتم طيباتكم الخ » وذكر حديث الربيع

ابن يزيد مع عمر رضي الله عنه . وحديث البخاري : « إن مما أخلف عليكم الخ » وفيه أن إكثار المال

- يكون سبب هلاك الأمم
السلام على الجن ، وأن الأرواح في الدنيا إما ماهرة ، وإما واقعة في الوسواس ، وهناك أرواح تحيط بنا
من كل جانب تساعدنا وتنفعنا
- ١٢٩ موازنة بين علماء الاسلام وعلماء أوروبا في هذا المقام ، وآية : **ه** أولم يروا أن الله الذي خلق السموات
والأرض الخ
- ١٣١ هنا مبحثان : مبحث اتباع الشهوات وترك الصحة طلاك الفرد ، ومبحث التبذير في الأموال طلاك
الأمم والأول تقدم في سور كثيرة ، والثاني كذلك
- ١٣٢ ولكن نذكر هنا محاوراة بين سقراط وغلاكون ، وبيان أنه لا يجوز أن يخوف الشعب من الموت ،
ولا يجوز أن يكون في الشعر ما يوجب الضوق ، بل يكون بسيطاً ، وكذلك الموسيقى ، وهكذا الطعام
يكون بسيطاً ، وهكذا يكون هناك تمرين الأعضاء بالجناساتك ، فالموسيقى البسيطة لصفاء الروح ، والتمرين
للجسم ، فيحصل الاتزان ، والحكام يجب أن يكونوا متخمين من هؤلاء الجنود المثقفين ، ويجب
مراقبة الشعراء فلا يسمعون الشعب سباحة وسفالة لتلايفد الحكام وهم لا يشعرون ، ويجب اظهار
عجائب الجبال ليورث الصلاح في نفوس الحكام
- ١٣٤ ثم أخذ يذم السكر والاكثر من الطعام ، وذم الأمم التي تحتاج إلى كثرة الأطباء ، أو القضاة ، فنظام
الطعام يضي عن الطيب ، وبساطة الموسيقى تضي عن القضاة ، والناس ذهب وفضة ونحاس ، فليكن
كل في موضعه . يجب أن يكون للحكام خيام لا يوت ثلاثاً يصبروا ذئاباً جائعة ، ويجب أن تكون
سعادتهم سهلة لا أرضية ، وأخذ يذم النهمين في الطعام والشراب وهم لا يهتمون أن الطبيب وأدوية
لا تزيدهم إلا هلاكاً كما لا يفهم رجال السياسة إذا ظلموا إلا التملق
- ١٣٦ وليس يجوز أن يحكم الأمم إلا الفلاسفة المرمون بالحكمة ، ومن يجب أن سقراط قبل النبوة بألف
سنة ، ثم كانت أكثر تعاليمه موافقة لها ، وهذا التيلسوف قد صرح (اسبنسر) وغيره أن فلاسفة
أوروبا بالنسبة له أطفال
- ١٣٧ وههنا نذكر عصر الخلفاء الراشدين من سنة ١١ إلى سنة ٤١ وفي هذا العصر كان الصحابة حالم
من الأمة حال الأم مع أبنائها ، فهم يتبرون من المال ويفرقونه على الناس ، ولا ينفقون على عيالهم
منه شيئاً ، فعمر وعلي وأبو بكر كلهم فقالوا في الزهد ، وفي عصر الأمويين شاع التبذير في الدولة ، ويقال
إن سيدنا عثمان قصه مات وعنده ١٥٠ ألف دينار الخ
- ١٣٨ وقد كان عمر يحرم على جند المسلمين أن يملكوا أرضاً ثلاثاً يسألوا عن الجهاد ، ولكن المسلمين بعد
ذلك رجحوا إلى أخلاق الروم والفرس في حوز المال ، وقصة أبي ذر الغفاري في ذم **ص** الخ للمال مع
معاوية وعثمان رضي الله عنه معلومة إذ فاه إلى الربذة حتى مات ، وكانت هذه من أسباب قتل عثمان
رضي الله عنه
- ١٤١ الاسراف في أيام بني أمية ، وكيف أراد عمر بن عبد العزيز أن يرده المظالم إلى أهلها ، فجلجوا بقتله
بالسم ، فلما مات رجع الظلم أكثر مما كان وزاد ، وقد انقضى خلفاء بني أمية في الترف وقد بولون
العامل بالثرة جارية ، ثم أخذوا يستكثرون من الصنائع والموالي الخ
- ١٤٣ دولة بني العباس واسرافها
- ١٤٤ حتى انه كان لفسايم ثروة فقد كانت الخيزران أم الرشيد ملكها أكثر من مال (رودكفلر) في زمانها

- وهكذا أم محمد الوائلي وأم المستعين
 ١٤٥ وأكثروا من الجوارى والغلمان
 ١٤٧ الوزراء كانت ثرواتهم كثروات الخلفاء ، إن الخاقاني وزير القنطرة ولي في يوم واحد ١٩ واليا على
 الكوفة ، وقد انقسم الوزراء في الترف والتعمير في دولة بني العباس وبلاد الأندلس والفاطميين ،
 وأول وزراء الفاطميين كان عندهم أقطاع في الشام دخلها ٣٠٠٠٠٠ دينار في السنة ، وخلف ما بقيت
 ٤٠٠٠٠٠ دينار
 ١٥٠ المدينة كانت محصورة في المدن عند الخلفاء ومن خالفهم
 ١٥١ الفلاحون يسمون بالأجرة ، ومنهم من لم ير الدينار طول عمره ، وبين ذلك حكاية ابن طولون مع
 الصياد وابنه إذ أعطاه ٣٠ دينارا فأتى من الفرح الخ
 ١٥٢ وههنا ذكر المؤلف جمال العلم في زماننا ، وأن الفلسفة والتاريخ والدين أصبحت كلها علما واحدا ولم
 يكن ذلك قبل الآن ، ويان هيئة عمر رضى الله عنه مع عماله وأنه كان يجتهد في حفظ السئلة بالمواصلات
 وعماله يربطون أن يوسعوها شرقا وغربا
 ١٥٣ كثرة الأسرى والأرقاء ، وقد غنم موسى بن نصير ٣٠٠٠٠٠ رأس من السبي ، وقس على ذلك
 الكلام على معاملة الأسرى
 ١٥٤ كان للخلفاء عناية بفق الأسرى . بيان أصناف الأرقاء ، وأنهم إذا كثروا عند أحد اتخذهم جندا ،
 وقد يتخنون زينة للمجالس
 ١٥٥ الكلام على الخصبان وأن الروس الذين كانوا يسمون السلاف والسرب والبوهيم والبلغات نزلوا شمال
 البحر الأسود ونهر الطونة ، ثم توغلوا في أوروبا ، وماربوا الكسون والهنون وغيرهم ، وكانوا يترغنون
 أسرى عن طريق فرنسا فاسبانيا فصرالشم ، وهناك راجت تجارتهم عند المسلمين وهم من الجرمان
 (ألمانيا والسلاف) ولا يزال الجركس وجورجيا يبيعون أولادهم إلى الآن ، وسلاف هي كلمتها عبد
 عند الانجليز وغيرهم
 ١٥٦ خصاء بعض الأرقاء : كان هناك في فردون بمقاطعة اللورين بفرنسا معمل لخصاء الأطفال من هؤلاء
 ويموت بعضهم ، وكان ملوك الفرنج يهدونهم إلى المسلمين ، وقد كان للجوارى شأن عظيم ، فكان
 الناس يقدمونهم هدايا لجمال ، أو لسوت ، أو نحو ذلك
 ١٥٧ سليمان بن عبد الملك يذم الغناء ، ويرى أنه فتح باب الزنا ، وقد أمر بأن يخصى الخلقون بالمدينة .
 ١٥٨ الفيرة ، اللباس ، مبانى العباسيين : دار الشجرة بناها المقتدر وفيها شجرة من ذهب وفضة لها ١٨
 فصا ، وأشرفها مكانة بالجواهر الخ . قصر الزهراء بقرطبة للمخليفة الناصر . الزاهرة للناصر بن أبي طاهر
 ١٦١ قصر الحمراء ، وأمثاله وهو بقرطبة محفوظ لآن . مبانى آل طولون بمصر . مبانى الفاطميين كالقصر
 الشرق والغربى ، وهذا الأخير أنفقوا عليه ٢٠٠٠٠٠ دينار
 ١٦٣ مبانى الأيوبيين ، والمماليك . القروة والرخاء ثروة الخلفاء ، وأهلهم
 ١٦٤ البذخ في الألبسة
 ١٦٥ الأثاث ، والرياش عند العباسيين . الفرش والأثاث عند الفاطميين . أثمان الجوارى ، وقد كانت
 الزخاء قديمت بمليون درهم أى (٧٠٠٠٠) دينار . مبلغ السخاء على العموم
 ١٦٨ سخاء البرامكة ، وههنا حكاية الرجل الذى كان يسكن في خراب البرامكة ، وكيف أعطوه مالا لاهته

وضياعاً ثم آذاه عمال العباسيين ، فرد المأمون على الرجل أمره

١٦٩ التهنك

١٧٠ شكل المجلس واحتفالات الاعراس

١٧١ استقبال الوفود

١٧٢ عقاب الأمراء المسلمين بمجهلهم في نفس الحياة الدنيا قبل الآخرة . ذكر ما جاء في «صروج الذهب» من قتل المتوكل والمتصرف بالله بعد المتوكل والمستعين والمنذر

١٧٥ ثم قتل المعتد على الله العباسي ، والمعتد بالله بعد المعتد ، والمقتدر بالله ، والقاهر بالله ، والمتقي لله والمنسكي

١٧٧ ذكر المهتمدى بالله العباسي الذي أراد أن يقتل آثار أبي بكر وعمر فقتله جنده الترك ظلماً ، ولما تحققوا صلاحه وزهده بكوا عليه

١٧٨ إن الأمم الإسلامية بعد العصور الأولى اتبعوا خطوات الأمم التي حكموها فسقا وظلماً

١٧٩ يجب أن نتمتعن التاريخ امتحاناً تاماً ، ونحرم من الشعر كل ما يضر بأمنا كبعض أقوال المرعي ، وأقوال الشعراء الفزليين ، ونحرم دخول كل صورة في البيئات تدعو إلى الفسوق ، ويجب أن نترك مجال الترجمة ، ونصمم التعليم للرجال والنساء الخ

١٨٠ براق بن عمار اتفق مع الأذقوش على أن يخذعوا أمة العرب بمجاهدة حرية الدين ، والتجارة والتعليم وتم ذلك وامتلات البلاد بالخر والفسوق والبشرى ، والبابا نفسه يفتق على ذلك من جيبه الخالص ، ولعب المدرسون بعقول التلاميذ . فبئس يخص شبان المسلمين بشرب الخمر التي غصره من عنب قرطبة . عدد المشركين بالأندلس (١٠٠٠) ، كشف حصين بن جعفر قائد في فلسفة ابن ذي النون وزير عدي بر بد تسليم البلاد للفرنجية ، وتم ذلك قبل أن يبلغ الحصين ذلك لعدي وانقضت الأبرار ، وقتل (١٣) ألفاً للدفاع عن العرض و(٣٠) ألفاً للحفاظ على الدين

١٨٣ وبراقي بن عمار الخائن قتل أيضاً ، وقد وعد البابا جندل بن حودا أن يكون ملك الإسلام بالأندلس فأخذ جيشه ليحارب قرطبة فدخّل الروم بلادهم اشيلية ، ثم قتلوه هو ، اعتراض على المؤلف وأنه يفسر القرآن بالتاريخ المشكوك فيه ، وإجابته على ذلك بأن النظر في التاريخ من حيث الاجال والنظر فيه من حيث التفصيل خطأ ، فنحن وإن كنا لا نصدق أن أمثال هارون الرشيد يتوغل في الذات فنحن مع هذا نأخذ باجمال التاريخ كله ونفي مستقبلنا عليه فلانسرف كما يسرفون ، ولا تصف كما يتصفون ، وما مثل التاريخ الا كمثل النظر في هذا العالم كله ، فهو من حيث التفصيل ضلال ، ومن حيث لاجال حكمة وعلم ، ونحن اذا نبذنا العبرة بالتاريخ كنا أسوأ أمة ، واذا كان الانجليز قد انتصروا بنا ربحتنا عند احتلال مصر ، وعند احتلال الهند فلماذا لا نتفجع نحن به ان الناس اذا لم يتولوا الاعلى اليقين ، وتركوا الظن عطلت تجارتهم وبارت أرضهم الخ ، ولم يكن لعلم الفقه وجود ، وطاحت الأمم فلا نظام لها ولا مقام

١٨٦ ان المسلمين قد نسوا درس الاندلس ، هاهذه الأمة المصرية أيام اسماعيل باشا لم يتقطن عظماءها الى مكيدة قائد الجيش المصري ، وهو امريكى في حرب الحبشة ، وقد اتفق مع التجاشى على اهلاك جيشنا ، ثم علم بذلك الخديوى فسكت لحوف الفتنة

١٨٧ الأمم الإسلامية كلها متشابهة ، وقد تدخلت الأمة الانجليزية والفرنسية في احوال مصر لأجل الدين

- والقصد احتلال البلا وقد تمّ والمصريون جلودينا ليس هو عليهم كما قال أحد العلماء الاوروبيين ، وقد أخذ الخديوي معه أوراقا مالية بنحو (١٣) مليوناً من الجنيهات
- ١٨٩ وما مثل تاريخ الأمم الاسلامية الا كمثل شجر السنط ، ورقه هو الذي يمثل : رثة الحيوان أشبه بأخبار عمر وعلى ، وشوكه أشبه بضوق الملوك وجهلهم : فاذا أراد الناس أن ينسوا قصة العصر الأول شاكنهم نواريج المتأخرين من الملوك .
- ١٩٠ انى نظرت لبلا في السماء فرأيت هواء وسحابا وكواكب غفل الناس عنها وعن إبداع عيون المحتررات ومحامد نظامها كغفلة أم الاسلام عن تاريخ أسلافهم وهم لا يتعظون .
- ١٩١ يتذكر المؤلف أيام الشباب ، وهو يحضر في نفسه الأمم أمة أمة إجمالا ، وهن يذهبن الواحدة تلو الأخرى : فهما هو ذا الآن في هذا التفسير يجمع آراء الأمم ، وقد أخذ يمتحن تاريخها وسببته المسلمون بعدنا في ذلك الامتحان بما هو أدق وأنفع .
- ١٩٢ ان الرؤساء والمرؤسين مسئولون عن أممهم ، والسلاسل التي ستوضع في عناق الكافرين في الآخرة هاهي ذه الآن موضوعة في أعناقهم في الدنيا بشكل بسيط .
- ١٩٣ من أشرط الساعة : أن تلد الأمة ربها ، وهذا يقرب مما فعله خلفاء العباسيين : فان أمهات الأولاد جاء فترق الدولة على أيديهم ، وهذه مجيزة للنبوّة ، ووافق على ذلك سنسر الانجليزى .
- ١٩٤ للدولة العباسية محاسن كلها مسار ، وكان لهم دوواين وحجاب والجزيرة محدودة الخ .
- ١٩٥ الأعمال العامة والادارة في الدولة العباسية مثل ديوان الضبط ببغداد ، وصهاريج القوافل في الطريق الخ ونظام العلوم والصنائع والفنون الأدبية والصناعية والمكاتب الخ .
- ١٩٦ والكلام على نظامهم وعلى انحطاطهم .
- ١٩٧ وهل تفهم كلام أمة الابل هذا التاريخ : ان الاموال كثرت عندهم كأموال قارون ، وظهروا في زينتهم مم ذلوا وقتل أكثرهم .
- ١٩٧ ما حصل لقارون ، وسيستفح بهذا التاريخ المسلمون ، ان الشورى هي القانون الحق : فهل أغنى عن المسلمين أيام انحطاطهم مبانيهم وزخارفهم . كلا بل أخذها أعداؤهم .
- ١٩٩ في الفصل الثاني « واذكر أنا عاد » ، وبيان أن العرب كانوا في العراق ومصر قبل الميلاد بنحو أربعة آلاف سنة ثم رجعوا الى الجزيرة : فكان منهم عاد إرم وثمود إرم ، وقد كتب اسم عاد اليونانيون حوالي زمن الميلاد كما كتبوا حضرموت ، وللعرب خرافات في أمة عاد ، ولم يشر التقابون على اسم عاد الى الآن ، وجاء في بعض القواميس ذكر عاد إرم .
- ٢٠٠ ملحق خريطة تلك البلاد وفيها قبر هود وصالح عليهما السلام .
- ٢٠٣ سورة محمد صلى الله عليه وسلم : السورة كلها مكتوبة بالحرف الكبير .
- ٢٠٥ في السورة ٢٠ آية فيها الفضب على الكافرين : فكيف تبدأ بالبسملة ، وفيها الرحمة ، والجواب على ذلك : يتقدمه الكلام على أيام الصبا : إذ كنت أسمع أصوات الناموس بهيئة محزنة ، وهما أنا ذا اليوم أسمع في عالم الخيال ناموسيتين تفسر إحداهما آية دابة الأرض بأنها على حقيقتها ، ولكنها رمز الى الوقوف على حقائق هذا الوجود ، ومنه الحيوان ، وابتداء الاجابة بالبرهان على أن الموت عدل (اللطيفة الأولى) في قوله تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض » في هذه اللطيفة بيان أن آباءنا العرب القدماء قبل النبوّة كانوا لا يعتبرون بالأمم البائدة حولهم ، مم رأينا المتأخرين من المسلمين بالأندلس

وأمر الاسلام فسقوا فهلسكوا ، فلماذا لا يعتبر المسلمون الحاليون بحال تلك الأمم .
 ﴿ اللطيفة الثانية ﴾ في آية : « والذين كفروا بمتعون الخ » وفيه بيان أن الانسان امتاز عن الحيوان بالعقل ، ففى أنامه هلك فى الدنيا والآخرة ، وفيه حث على درس جميع العلوم
 ﴿ اللطيفة الثالثة ﴾ فيها وصف الجنة ، وأنها للعامة تذكر بالأوصاف المشهورة ، وللخاصة بالأمثال ، وخاصة الخاصة بما هو أرقى بأن يحشر كل مع من يميل إليه ، وهو هنا استشهاد بأشعار العرب
 ٢٢٨ تفسير : « ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة الخ » وهذا تفسير لفظي

٢٣٠ « وان تتولوا يستبدل قوما غيركم الخ » وأن الأمويين والعباسيين اقتتلوا على الخلافة ، وهو تقطيع للأرحام ، فانقل الحكم للفرس نارة ، ولترك أخرى ، وللتتار كذلك ، ثم للعثمانيين الخ
 ٢٣٢ لطيفة في آية : « الذين كفروا وصتوا عن سبيل الله » وبيان أن هذا المقام سيذكر فيه مقال من كتاب « حاضر العالم الاسلامى » فى أول سورة الحجرات ، وفى آية : « حتى تضع الحرب أوزارها » وأن هذه الآية تشير إلى السلام العام ، وأن المسلمين هم أولى بذلك ، فليقوموا برقى أنفسهم ، ثم ليكونوا رسل السلام العام فى الأرض لأنهم رحمة للعالمين ، وههنا الكلام على أشراط الساعة ، وأن النبى ظهر منها يراد به هلاك أم بعلامات خاصة ، وذكر سر حديث : « إنه ليغان على قلبى » وأن كل واعظ ومرشد لا يتم له ذلك إلا بصلة بين قلبه وبين ربه والا انقطع الامداد الذى يصدر منه إلى الناس .

٢٣٥ « فاعلم أنه لا إله إلا الله » والكلام على رسالة مرآة الفلسفة ، وأن بعض طلبة دار العلوم سألوني عن مقال فى الفلسفة وانى جعلت ذلك فى مقدمة وباين ، والباب الثانى تقدم فى سورة لقمان والمقدمة بها (١٠) قواعد ملخصها يرجع الى قبلى العقول الانسانية التى تهدى الانسان بأضواء الشمس المشرقة على جسمه ، وكما أن الجسم من الارض والضوء ينسرق عليه وهو على مقدار الجسم ، وينفعه فهكذا العقل من عقل أكبر منه ، وهو من غير الأرض كضوء الشمس وهو على قدر الانسان ، ونافع له ولا يعرف ما فوق طاقته وهو أصل الوجود لأنه يحفظ الصورة فأما المادة فأنها لا تحفظها لتقبلها بل المادة لا وجود لها عند القدماء وعند المحدثين لأنها لم تظهر للقدماء الابصافها وهى عند المتأخرين قط ضوئية ، وباختلاف حركتها يكون اختلاف الأجسام والصور فى أنفسنا دائمة بخلافها فى المادة إذن الأصل نفوسنا والمادة فرع لها إذن الناس إخطأوا فى ظنهم أن المادة أصل كأخطأوا فى قولهم أن الشمس تدور حول الأرض . معرفة العقل العام بواسطة معرفة النفس ، إن الناس عرفوا عناصر الكواكب بأضوائها المشابهة لأضواء العناصر الأرضية ، هكذا فلنعرف العقول المحيطة بالعوالم من معرفة عقولنا فكما أن أجسامنا من الأرض ، ونفسنا (بالفتح) من الهواء ، وشربة الماء من البحر حولنا فهكذا عقولنا من عالم عقلى يحيط بنا وإذا كان الضوء مستمدا من الشمس فليكن هكذا عقولنا مستمدا من إله خلق العالم ، وهذا الموجود الذى هو سبب وجود العقول العامة لا يجوز أن نبحث عن سبب وجوده لان هذا يقال اذا كان الغدم هو الأصل ، والحق أن الوجود هو الأصل أما الغدم فأنما هو كلمة جوفاء لم يعرفها الانسان وإنما نجد قد أخطأ فى فهمها إذ ظن أن تفرق أجزاء الحيوان والنبات عشم ولا عشم ألبتة وإنما هذا كله تفرق كما أن ظهور حيوان جمع ولا وجود جديد وإذا قلنا المادة تعدم أو معدمة فليس هذا معناه الغدم لأنها ترجع الى الأثير أو القوة والقوة والأثير موجودان إذن الانسان غلط أيضا فى ظنه ان الغدم أصل

٢٣٨ كيف كان خلق هذا العالم ، ان العالم لا يحتاج الى مادة بخلق منها (أولاً) ان المادة نفسها ظهر أنها لا وجود لها فكيف تحتاج الى مادة (ثانياً) ان خيالنا موجود لانه يكون سبباً لظهور صور في المادة على مقتضاه وما كان سبب الوجود لا يكون معدوماً (ثالثاً) ان هذه الصور الخيالية الموجودة سريعة الزوال وهي ضعيفة لانها الحواس (رابعاً) أن العوالم المحيطة بنا ظهرت بارادة الله كما ظهرت خيالاتنا بارادتنا ، ونسبة ظهورها وبقائها الى ضعف وزوال صور خيالنا كنسبة عظمة الله الى ضعفنا وبهذا نعرف « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » لأن الكلام يحدث في عقولنا وجود التكلم به والعقل العام المحيط بالعالم تستمد منه جداول الى كل جناد ونبات وحيوان وكل عالم ، وتكون تلك الجداول العقلية مختلفة باختلاف تلك الاجسام اه

٢٤١ معرفة الله وعرض آراء علماء اليونان والمسلمين وأوروبا على هذه النظرية : أنت لاتعرف وجود صديقك ، ولا وجود ابنك إلا بما يبدو من أعماله ، ولم تر روحه مطلقاً ولاتشك في ذلك الوجود ، والله يدل عليه كل حركة وعمل في العالم ، فبراهينه أعظم ، ولست لست لكثرتها جعلت العقل كالدهوش فكان من الناس من وصل الى العقل الكامل فعرف ربه بعقله ، فيكون الانسان كملك وكذهب أفلاطون ومن معه ، ومنهم من كان أدنى فصار كالبصر كذهب سقراط ، وكالحيوان ذى الأربع . مذهب أنكساغورس مثل الخلد (بفتح الخاء واللام) الذى يعيش في الظلمة ، وأول موجود عنده العقل ، ومذهب السوفسطائية كحاسة الشم ، وحيوان ذى ثلاث حواس ، وديموقريطس يقول يقدم الطبيعة وهو كحاسة البوق ، أنكسيانس كحاسة اللمس ، ثم ان السوفسطائية هم العنيدية وأستاذهم بروتاغورس ، وعنادية وأستاذهم غورغياس ، ويلحق بهم اللاأدرية يقعون بيرون ، وههنا ذكر (ديوجانس) الكلبى الذى استاء من تعريف الانسان بغير الحقيقة .

٢٤٦ ليس من المعقول أن تكون العلوم المنظمة والعقول البديعة والشعر وهذا الجمال ناشئا عن اصطكاك حجر بحجر . كلا . وكيف تخرج قصائد وعلوم من تحرك حروف الهجاء في صندوق ، فهذا مستحيل ويوافق هذا قول أرسطاطاليس وغيره . شعبة فيثاغورس

٢٤٧ آراء فيثاغورس وأبناذوقلس ، فالأول يقول : الأصل العدد ، والثانى يقول : المحبة والعداوة أصل الوجود ، وحكاية نبوغ أنكساغورس ، وأن العالم نشأ عن عقل حركة وتركة .

بيان آراء الشهرستاني في (الملل والنحل) ، وأنه يقول في هؤلاء الفلاسفة انهم أشبه بعلماء الاسلام يوحدون ، والرد عليه بأن هذا غير صحيح وهذه التواريخ فيها خطأ : مثل أن فيثاغورس كان في زمن أغسطس مع أن بينهما ٤٥٠ سنة وغير ذلك .

حكاية سقراط وانه لما كان حديث السن أعزم بالمباحث العقلية ومعرفة الله فسمع بمذهب أنكساغورس ففرح ، ولكن وجدته يقصر عمل الله على مجرد العلم فقط ولا يحصل له ، وكيف برهن سقراط بانتظام السمع والبصر وغيرهما وأن لهما غاية تامة على مدبر ، وهذا النظام يفرق بينه وبين صانع لا يفضل ذلك وبيان أن البصر أعظم نعمة لأنه رأى السماء والكواكب فهو المحرك للفلسفة وهي أجل النعم ، وبيان أن الله اذا كانت عنايته بالانسان تامة فلماذا لا يتجه إليه بالعبادة ؟

٢٥١ وسقراط يعنى بالتعريف والحد ، ويرى أن الأخلاق وتهذيبها أجدى على الانسان من المعرفة ، وبيان أن أفلاطون لا يجعل اسم الوجود ينطلق على المشاهدات ، بل على أمثلة لما نشاهده لها في المشاهدات

من آثاره ، فأما ما نراه فليس معلوما بل هو أشبه بالمظنون ، لأنه لا ثبات له ، ومالاتبات له لا يتعلق به العلم والانسان كلن يعرف الحقائق قبل وروده إلى هذا العالم ، وبالتعلم يرجع إلى حاله الأولى شيئا فشيئا فيندكرمانسى ، وهذه قائلها أيضا الفيزيائي والرازي وابن عربي ، وهذه كلها آراء أفلاطون بنفسها وفصها فهي مثل ما جاء في (فيدون) وغيرها ، ومتى عرف الانسان الحقائق احتقر هذه الدنيا احتقارا تاما ، وسقراط يقول في الأخلاق : « إن الناس يركبون الذنوب لجهلهم مغبتها ، أضعف علمهم » وهو حق ورأى أفلاطون امتزج بأرواح الاسكندرانيين والإيطيين من التصارى والمعتزلة وفلاسفة ألمانيا وبعض أوروبا ، ويقول المؤلف : إن هذه الآراء مجزة لتبيننا صلى الله عليه وسلم لأنها ظهرت قبل وجوده ، وجاء هو بأهم منها .

٢٥٥ يقول أرسطاطاليس : إن آراء أفلاطون منقوضة ، فكيف يكون المفارق للمادة مؤثرا فيها ، وكيف ينطبق السكلي الواحد على أفراد كثيرة وجعله منطبقا بضرب مثل ليس برهانا . المادة والصورة والحركة هذه الثلاثة هي الطبيعة ، ولا انفصال بين المادة والصورة إلا في العقل ، ثم إن الطبيعة ترتقى من أدنى جاد إلى أعظم انسان ، وبيان أن ما تقدم هو آخر ما وصل إليه العقل الانساني ، والاعتراض على ذلك بأنه لا دليل عليه ، واجابة المؤلف بذكر أن الفلسفة كطفل ظهر فترعرع .

٢٥٧ فلاسفة أورربا ليسوا شيئا بالنسبة لفلاسفة اليونان : آراء (باكون) الانجليزي في تاريخ العلوم ، رأى (جون لوك) يقول : المادة هي الأصل ، رأى (باركلي) يقول : « إن الأصل النفوس وحواسها »

٢٥٨ كانت الألماني وكتابه تحليل العقل المجرّد ، وألمانيا كلها تتبعه ، وأمثال شلر وغوته الخ . درجات الفلاسفة وهي : أقلهم تاليس ، وأعلاهم سقراط ومن معه ، والدرجات الست أوطا الطبيعيون وآخرها الايطيون وبينهما السوفسطائية ونحوهم ، وههنا قاعدة ، ويدخل ضمنها كل متعلم في الشرق والغرب بوضع كل في درجة من هذه الست

٢٥٩ مذاهب السرخ واليوجي وكتاب الفيدا : هذه الثلاثة نظامها كنظام فلاسفة اليونان : المادة ، ثم إليه يعلم ثم إليه يعمل ، فالناس كلهم يرجعون لنقطة واحدة

٢٦٠ الوجود أصل ، قصة الخليل ، نموذج النظام ، الفلاسفة وتاريخهم

٢٦١ أرسطاطاليس رد على أفلاطون فرد عليه أيضا تلاميذه وقالوا له أنه برد عليك ما أوردته على أستاذك فذلك جاء بعده أبيقور وشيعة ، فاستمسكوا بالمادة وأهل الرواق ، فقالوا : المادة متحدة مع العقل والمشاءون تفرغوا العلم الطبيعة . شيعة . لاسكندر بين : أولهم مونيوس سكاكس ، ومنهم الفرع الاسكندري والفرع الشامي ، والفرع الأثيني ، وأهم المذاهب كلها مذهب أهل الاسكندرية .

٢٦٢ إن الفارابي جمع بين رأى الحكيمين كما فعل ذلك أهل الاسكندرية ، وهذه الحكمة أجمع عليها فلاسفة الشرق والغرب . قصة الفارابي وكيف تعلم الفلسفة ، وكيف انتقلت إليه من الفرع الاسكندري إلى آخره

٢٦٤ بحث عام في المادة والصوت في الهواء ، بحث في مادة الهواء ، مبحث الضوء ، العناصر المادية ، وأن المادة كلها عبارة عن قطع ضوئية اختلفت باختلافها كما وكيفا .

٢٦٦ نبات العالم العقلي ، وبيان أن عقولنا تفهم الكسر الذي لانهاية له ، فالواحد لانهاية لأجزائه ، ولا لمكرراته ، والأعداد والعلوم غذاء للأرواح ، والعلم والعالم والمعلوم متحدات .

٢٦٨ السنين الكبيسة والبسيطة ، والحسوف والكسوف ، وأن الأذوار هي بعينها مشبهة أذوار الكسر .
 ٢٦٩ بيان أن الانسان هيكل بمنه عالم الضوء والهواء والمموسات ، المادة لا يعوزها أصل تستخرج منه كما
 أن صورنا الذهنية لا يحتاج الى أصل وهي خالصة كما أننا نرى الضوء يجري من أبعاد لاحد لها ولا يعلم
 ٢٧١ (اللطيفة السابعة) : فهل عسيتم ان توليم الخ و بيان أن العباسيين والأمويين رجعوا إلى عصبية
 الجاهلية ، وأن المنصور قتل العلويين ، والمأمون قتل الأمين وقرب الفرس ، والمعتصم قرب الترك
 وانحطت الدولة ثم زالت ، كل هذا تقطيع للأرحام

(تمت الفهرست)



تقریظ

حضرة صاحب العزة حاج الحرمین الشریفین الامیرالای

حسین بك محمد مصطفی

الحنفی الشاذلی حفظه الله تعالى آمین

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

مُبْعَاثُكَ لَا عِلمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِیْمُ الْحَكِیْمُ

الحمد لله الذي تجلي على قلوب أصفیائه بلطائف العرفان ، وخصمهم من بین عباده بخصائص الاحسان ، فاستضاءت أفئدتهم بأشعة أنواره الأنسية ، وانجلت ضمائرهم بأنوار تجلياته القدسية ، والصلاة والسلام على واسطة عقد الأنبياء والمرسلین ، وعلى آله وصحبه الزهر الأعلام ، نجوم الهدى ومصابیح الظلام .

وبعد فلما كان كلام الله المجید ، الذي (لا يأتیه الباطل من بین يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم جيد) مدار سعادة الدنيا والدين ، والسراج المنير لهداية العالمین ، الى الحق المبين ، وكان تأسيس قواعد الاسلام ، واستنباط الحلال والحرام ، انما هو على تفسيره وتأويله ، وبيان إجماله وتفصيله ، وكان علماء الأمة الأعلام ، عليهم رحمة الملك العلام ، قد كتبوا وددوا في هذا الشأن ، بحسب طاقة الانسان ، تصانيف جيدة ، وتفسير مقبولة مفيدة ، بين مطول ومختصر ، جزاهم الله عن الأمة الاسلامية الجزاء الأوفى . وكانت تفسير المحققين المؤيدين بالنقل الصحيح ، والمؤولة بالفكر الصائب الرجيع ، بجامعة لجل الاحكام الدينية والدنيوية كافلة للسعادة السرمدية ، وهي في غاية البسط والتبين .

ظل المسلمون غافلين عما هو أعظم من أسرار العلوم القرآنية ، وبيان سنن الله في الكائنات الأرضية والسموية . حتى ظهر لنا هذا التفسير المسمى الجواهر في تفسير القرآن الكريم

الذي تصفحناه وفهمناه ، فوجدناه تفسيرا وجيز اللفظ واللبني ، جزيل الفحوى والمعنى ، مع مزج بدیع رائق ، وتلويح لطيف في تناسب الآيات ، وتلميع شريف الى الصفائق . كاشفا عن حقائق الحكم والمعارف ، التي يعترف بها كل عاقل وعارف .

صفحاته جنات فهوم عالية ، قطوفها للقاصدين دانية ، لانسمع فيها لاغية القصاص ، بل تحت كل فقرة منها غبطة للعوام والنحواس ، وحكمة لأرباب الاختصاص ..

فبهذه الوجوه الباهرة ، قد فاق التفسير السائرة ، الا أنه كان مطروحا في زاوية النسيان ،
في غفلة المسلمين بالعلوم الشائعة ، وما يحويه القرآن الكريم من المعاني الرائعة .

فأظم الله عبده الصالح الولي (طنطاوي جوهرى) بعد أن وفقه الله ورسوله صلى الله
عليه وسلم لاطهار ما كان خافيا عن حقيقة ما يحويه القرآن ، من العلوم والحكم الجليلة
العظيمة ، المبشرة بارتقاء الدين الاسلامي ، وإنارة عقول المسلمين . واتنا نحمد الله على هذه المنة
الربانية والحمد لله رب العالمين ،

وقد أظهر لنا فضيلة الأستاذ المؤلف ما أدركه من العلوم وأسرار القرآن ، وهي أنوار لاحت
جواهرها وفواصلها ، وان ما برز منه الى الظهور في تفسيره ، هو من مكامن خزائن الأسرار فقد
أظهر بدرا ساطعا في رائعة النهار ، الادهو التفسير الشريف الذي عزّ عن النظر والأفطار ،
واستخرجه مؤلفه بسفاء باطنه من خزائن الأسرار ، فكان روضة زاهية الأزهار ، وجنة تجرى
من تحتها الأنهار .

فلهذا سجد (تفسير الجواهر) للواردات الإلهية ، وصار كما قال بمطابقا اسمه معناه ، وسالما
عن اعتراض معناه ، ولا غرو مؤلفه العارف بالله العالم العلامة فيلسوف الاسلام الاستاذ الحكيم
[الشيخ طنطاوي جوهرى] المصرى الأزهرى للمدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم
بوزارة المعارف العمومية سابقا

ولقد أبرز في تفسيره ما غنى من أسرار القرآن ، وألقى الجواهر للقط ، مناديا بكل
احسان ، أكرم الله مشواه ، وأعطاه ماتمناه ، من نعيم الدارين .

وأصبح كتابه الشريف الذى انبسط فيه البشرى للأمة المحمدية الاسلامية ، مطبوعا
بهمم على الهمم ، [الشيخ مصطفى البابی الحلبي وأولاده] ، بخراهم الله خير الجزاء ، لما قاموا به
لخدمة الدين بنشر هذا التفسير ، الذى هو قواع المقتلات ، وحلال المشكلات .

فالمسلمين عامة ، ومواطنينا السودانين خاصة ، قول : لقد جاءكم تفسير كريم ، عليه
آثار القبول ، وأنوار التسويح . فبادروا الى تأمل معانيه ، ففي كل سطر منه قيس من أسرار
العلوم ، وإشارة الى سنن الله فى الكائنات ، وابداع آياته فى خلق الأرض والسموات .

وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا
وسيدنا محمد أشرف خلق الله ، وخير المرسلين ، وعلى آله وأزواجه وذريته وأصحابه وأنصاره
وأمة أجمعين آمين .

الأميرالاي

أم درمان [سودان]

حسين محمد مصطفى

فى ١٢ سبتمبر سنة ١٩٣١ م

موافق ٢٩ ربيع الثانى سنة ١٣٥٠ هـ

الجزء الأول

في تفسير الفرائد الكثر

السيد علي عجمي بفتح المعجمة وفتح الجيم وفتح الهمزة

تأليف

الأستاذ الحاج شيخ طنطاوي جوهرى

الدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا

مع الله المستقيم بحمده آمين

الجزء الثاني والعشرون

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ - رقم ١٧١

حقوق الطبع محفوظة

طبع مطبعة

مضيفى البانى الخلبى وأولاده بمصر

عاشق محمد أمين عمران

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الفتح

(هي مدنية)

نزلت في الطريق عند الانصراف من الحديبية

آياتها ٢٩ - نزلت بعد الجمعة

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ
عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا * هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ
السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ
اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ قَوْزًا عَظِيمًا * وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظُنُّنَ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضِبَ

اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُنشِرًا وَنَذِيرًا * لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
 وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ
 اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أُوْفِيَ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ
 فَمِنْ أُوْفِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا * سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا
 فَاسْتَفْتَيْنَا لِمَا يَقُولُونَ يَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ
 أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نِعْمًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ
 يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ أَنْ السَّوَاءَ
 وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا * وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا *
 وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *
 سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِتَأْخُذُواهَا ذُرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ
 اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ
 إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرَةٌ إِلَى قَوْمِ أُولَى بِأْسٍ شَدِيدٍ تَقَاتُلُونَهُمْ
 أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ
 عَذَابًا أَلِيمًا * لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ
 يُطْعِمْ اللَّهُ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَمُدُّهُ عَذَابًا أَلِيمًا *
 لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَمَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ
 السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَائِمٍ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا *
 وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَائِمٍ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَسَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ
 وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ
 أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا * وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلُوا الْأَذْيَارَ
 لَمْ يَلْبِسُوا إِلَهُكُمْ وَلَا تَصِيرًا * سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا

* وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَنكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَنفَعُوهُمْ أَنْ تَطْلُوهُمْ فَنصَبْنَاكُمْ مِنْهُمْ مَقَرَّةً بِشِيرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَرَىٰ أُولَآئِكَ لَمَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ هَذَا بَابُ الْإِيمَانِ * إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا * لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُخْلَقِينَ رُءُوسِكُمْ وَمُقَصَّرِينَ لَا يَخَافُونَ فَمَلِمَ مَا لَمْ تَنفَعُوا فَبَجَلٍ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحَا قَرِيبًا * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا * مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا يُعْتَدِلُ عَلَيْهِ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكُوعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرِزِيعٍ أُخْرِجَ شَطَطُهُ فَأَزْرَهُ فَأَسْتَمْلَظَ فَأَسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْفِهِ يُعْجَبُ الزَّرْعُ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَقْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا *

هذه السورة أربعة أقسام

(القسم الأول) في تضرع البسمة

(القسم الثاني) فيما بشر الله به نبيه بالفتح ، واعزاز دينه ، ووعد المؤمنين ، ووعد الكافرين والمنافقين من أول السورة إلى قوله « فسيؤتونه أجرا عظيما » .

(القسم الثالث) في ذم الخلفين من عرب أسلم وجهينة ، وصنينة ، وضمارة ، وضمارة ، وضمارة ، وفي رضوان الله على المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ ووعدهم بالنصر في الدنيا ، وبالجنة في الآخرة ، من قوله تعالى : « سيقول لك المخلفون من الأعراب » إلى قوله : « وكان الله بكل شيء عليما » .

(القسم الرابع) في البشري بتحقيق رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين ، وأن ذلك يكون ، وقد تم ذلك الخبر في العام القابل ، وفي وصف النبي صلى الله عليه وسلم والذين معه بالرحمة والشدة ، وأنهم كزرع يهبط الزرع ، من قوله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق » إلى آخر السورة .

التسم الأول في تفسير البسملة

اعلم أيها الذكي أن الرحمة على قسيتين : رحمة عامة ، ورحمة خاصة . فالعوالم العلوية والسفلية والهواء والماء والأثير والنور رحمة عامة ، فأما الصحة والعقل والملك وما أشبه ذلك فهي رحمت خاصة ، ولقد جعل الله لكل امرئ في أرضا سرًا خاصا بينه وبين ربه ، فانه يجعل لكل انسان مطالب خاصة توائم مزاجه ، ومتى قضاها الله له فانه يحمدّه عليها جدا كثيرا ، وهذه المطالب عددها بعدد الأشخاص الانسانية في الأرض ، وكل امرئ مطلبه على مقدار علمه ، ضعة ورفعة ، وقسا وشرقا ، فهل أحدثك عما فتح الله به عليّ وعلى أمنا الاسلامية ، وكيف كان ذلك سرًا بيني وبينه تعالى ؟ وكيف انجبت همتي نحو ذلك الأمر ؟ وكيف أجاب الله دعائي ، أنا أعترف وأقرّ وأشهد المسلمين في مشارق الأرض ومضاربها ، أنني دعوت الله بما سأذكره ، وأن الله أجاب دعائي وحققه فعلا ، وذلك الدعاء كان موجها للنم الخاصة كما هو شأن الناس جميعا ، تعلمت القرآن في مكتب صغير لا علم فيه ولا فهم ، وانما هو الحفظ المجرد ، نظرت أبناء عمي يسافرون إلى الجاسع الأزهر ، أحببت أن أعلم ، احترق فؤادي على العلم ، أحسن والذي بذلك ، أرسلني إلى الأزهر ، درست العلوم اللسانية والفقهية ونحوها ، لم يشف ذلك غلتي ، كنت في أثناء عطلة أفكر وأنا في منبرعتا في القمح والقطن والحشائش نهارا ، والنجم والسماء ليلا ، وفي آثار الاول التي خلفها قدماء المصريين ، أصوم نهارا ، أصلي ليلا ، أضرع إلى الله أن يعلمني ، أنا جاهل جد جاهل ، حضرت دروس التفسير ، ولكن يشتد دعائي دائما ، أطلب من صاحب هذه النجوم والشمس والقمر أن يعلمني عجائب هذه الدنيا ، وسوكلت أفلاكما ، ونظام زرعها ، وكيف يكون ارتقاء أم الاسلام .

هذا دأبي ، وهذا هو السرّ الخاص بيني وبين الله عز وجل ، وهو الذي كان يهمني ، يهمني أن أقف على نظام هذا الوجود ، وعلى سرّ تآخر المسلمين ، وعلى حقائق دين الاسلام ، وكيف يرتقي المسلمون ؟ وما السبيل لتلك ؟ إن هذا المقام واضح في كتابي « التاج المرصع » وهذا إجمال ما هناك . لم يكفني طواهر العلوم ، ولا سبيل لهدى إلا الدعاء ، فأخذت أدعواته كل حين أن أعرف ما تقدم ، فانتظمت في سلك طلبة دار العلوم وهنا كانت دهشتي ، فإن ما كنت أدرسه بنفسى مجلا من النظر في الكواكب ليلا ، وفي المزارع والهواء والضوء نهارا هو عينه الذي يدرس في المدارس النظامية : حساب وهندسة وجبر وفلك وطبيعة وكيمياء ، وكنت واضعا نصب عينيّ دائما رقيّ أم الاسلام ومعرفة الله تعالى بقولنا معاشر بني آدم ، وكنت لا أبالي بالعلم والعظمة ، بل كانت كل أميتي للمعرفة وأن أكون مجهولا لا يعبأ بي ، فان قضيت قررت فيها أن سعادتها في العلم ، أما الاعظام وبعد الصبب فانها لا تعبأ به . وقد كنت أرى أنني أجهل الناس وأضغ الطلبة .

كان مدرس الانشاء هو المرحوم الشيخ أحمد مفتاح وقد عرضت أوراق امتحان الانشاء على المرحوم الشيخ محمود العالم الذي عين ممتحننا لنا من الوزارة آخر سنة من سني الدراسة ، ولقد كانت دهشتي عظيمة عندما قابني المرحوم الاستاذ الشيخ أحمد مفتاح وقال لي : إن الشيخ محمود العالم لما قرأ موضوعك (وهو اكتب خطاب تهنئة وقمزية) قال : إن هذا الموضوع منقول من الكتب القديمة ، فلبس في مصر الآن من يكتب هذا . قال : فأحضرت له ما كنت تكتبه أنت طويلا السنة من الانشاء فقتنع بذلك وأعطاك نمرة ١٩ من هشرين ، وقد كنت أنا لا أزيدك عن ١٨ فقلت له : عجب ! أنا كنت أظن أن هذه النمرة أنت تعطها لي لجرّد شهرتي في اللغة العربية ، لا للانشاء ، لأنني لا أعتقد انشاء ، فعجب ! وقال : كلا . أنا أعطيك النمرة على نفس الانشاء .

وانما ذكرت هذه الحادثة لأبين مقدار اهتمامي لنفسى وعدم تقبي بها ، وأنا لست أقول ان هذه صفة

محمودة . كلا . بل هي مذمومة لانها تكون سببا في تعطيل المواهب الالهية ، ولكنني أقرر الحقيقة في ذاتها .
ولقد ذكرت في هذا التفسير وفي غيره سرارا وتكرارا أني قبل أن أعرف هذه العلوم علمت الله أنه اذا
علمني الحقائق على مقدار طائفي لأؤلفن كتباً ينتفع بها الشبان الذين يشتاقون لما أشتاق إليه ، ولا يعذبون كما
كما عذبت في الوصول إلى الحقائق .

فلما أن وظفت في الحكومة بعد الخروج من المدرسة ، وصرت مدرّسا ، أخذت نفسي تطالبي بالوفاء
بمهداها ، ولقد عرفت فأين التأليف ؟ فألفت كتاب « جواهر العلوم » و « ميزان الجواهر » بادي ذي بدء .
وهناك كانت حوادث منزلة أزعجتني ولكن لم يكن ليؤثر شيء على نفسي من حيث التأليف ، ثم توالت التأليف
والنشر فألفت « جمال العلم » و « النظام والاسلام » و « نظام العالم والأسم » و « التاج المرصع » وغيرها
من الكتب والرسائل ، وهما أنادا الآن أكتب في تفسير القرآن الذي انتشر في أقطار الاسلام ، وترد على الرسائل
من تلك الأقطار الثانية . ولقد قرأه وقرأ الكتب قبله اخواننا المسلمون في شمالي افريقيا والسودان والشام
وبلاد اليمن وحضرموت ويران وبلاد جاوه وما حوّلها وعموم (اندونيسيا) ويدخل فيها سومطره وغيرها
وهكذا بلاد التركستان الروسية والتركستان الشرقية التي عاصمتها كاشغر . ولعمري لم يكن لي دور بخلدي ،
أو بخطري ، وأنا على شاطئ نهر أبي الأخضر بالقرب من قريتنا كفر عوض الله حجازي بالشرقية وأنا أبحث عن
حشرة ودوية صغيرة تكون ذات خطوط منتظمة تعرفني أن في العالم نظاما وجمالا وبهجة ، وقد عثرت
فلا على حشرة عليها خطان : أبيض نامع ، وأحرقان ، وقد انتظمتها بيته هندسية ، ودهشت للنظام والجمال وقلت
هنا . بدأ نظام . أقول ما كان ليخطر لي أن ما قطع هو ادى ، وأفض مضجعي ، وأطارنومي ، وأسهر جفني ،
وأطال ليلي ولأجله سامرت النجوم ، وحالفت الوجوم ، وباينت العموم . سيصل يوما ما إلى الشبان في أقطار
الأرض ، وبدرسه العربي والاندونيسي والهندي والصيني ، ويقدم من نفس « كاشغر » أسد شبانها ويقول
لي في هذا الشهر وهو شهر يونيو سنة ١٩٣١ م مانحه : « لقد أفض الفكر مضجعي ، وأطارنومي ، وصرت
أعذب وأروح بين الاشجار للزهرة والحدائق الخضرة المحيطة بقرانا إلى امتداد ثلاثة أيام ، وفيها الريح والريحان
والازهار والأثمار . كل ذلك نهرا ، فإذا جنّ الليل على وأرخى سدوله ، أخذت أسامر النجوم ، وأطارد
الطموم ، فلا النجوم تعادني ، ولا الهموم تزييني . وأسأل الله . أقول له : رباه : ماهذه النجوم التواقب ؟
وماهذه الجباب : أسيورها نظام ؟ ومابراهيتها ؟ وماهذه البدائع .

« رباه : أنا جاهل جت جاهل . أنا مستغيث بك فأقتني . وجاهل فعلني . واذا طلع النهار أخذت أسامر
الازهار على الاشجار ، وأقول : أينها الازهار ؟ ما أخبارك ؟ وما جالك ؟ وما جبابك ؟ ثم أقول : أينها الاشجار
كليني كيف نظامك ؟ وما عناصرك ؟ وكيف كان نموك ؟ وما هذا الترتيب الذي أراه في أوراقك ؟ فلا أسمع
جوابا ، وأنشد :

لقد أسمت إذ ناديت حيا * ولكن لاحياة لمن تنادي

« ولما اشتد عليّ الوجد ، وزاد الهيام ، طفت اذا جنّ الليل أربط جسمي بحبل في وقد نافذ في حائط
وأبكي حتى الصبح ، ودمت على ذلك ليلي ، وذلك من شدة اليأس من أسانذتي إذ كنت أسأل أحدهم هذه
الأسئلة فيقول : هذا فعل الله ، ولما أكرت السؤال طفقوا يشعرون أني مجنون ، فلم يكن لي محيص من
ذلك البكاء والعمويل في خلوتي والتظاهر بالسواي أمام الناس . قال : وبعد ازدياد اليأس وقع كتاب « التاج
للمرصع » في يدي ، أعاره لي أحد الأصدقاء ، فوجدت أسلوبا لم أعهده ، وأخذت أقرؤه ، فألفت يصف
حالا هي نفس حالي ، ونفسا كانت محترقة كنفسي ومحرومة ، مما يشني غليلها ، فطالعته بلهف مدة ثلاثة
أشهر ، فزالت حيرتي ، وحرك وجدني للسفر خارج بلادتي ، كما حرك وجدان ثلاثين شابا مثلي ، فاسفرنا إلى

(كابل) وقد استصعبت « التاج المرصع » معي ولم أخبر بسفري من أعاره لي ، فلما وصلت إلى (كابل)
بيلاذ الأفغان وجدت فيها نسخا كثيرة منه ، فأرسلت الكتاب لمعبره لي وأعلمته بسفري ، وهما أناذا اليوم قد
تعلمت في مدارس تركيا ، ونلت شهادة ، وقرأت اللغة الفرنسية ، وقد سافرت بعثتان أخريان إلى الأقطار
الشرقية والغربية بعد أن عرفوا هذه الحقائق وقرأوا كتب المصريين ، ومنها كتاب « الجواهر » في تفسير
القرآن الكريم المنتشر حديثا ، فسألته : أقرأه باللغة العربية ؟ فقال نعم . فقلت : هو مترجم بلغتك التركية
فأطلعت عليها فدهش وقال : هذه لغة راقية ولكني لم أطلع عليها لأن قيصر الروس ما كان لي يجعل بيننا
وبين اخواتنا في القازان وغيرها مواصلة .

ثم قال : « اتنا بكتبك قد أصبحنا نوقن أن ما كان كفرا عند أسلافنا هو نفس الواجب المقرب إلى الله
تعالى » انتهى

هذه هي الرحمة التي أردت أن أذكرها في تفسير البسمة في أول سورة الفتح ، وأليس من العجب أني
لم أوفق إلى تمام هذا الموضوع فأعرف خبر آخر بلاد الاسلام إلا عند تفسير سورة الفتح ، وأرى كتابي
« القرآن والعلوم العصرية » بمعنى مترجما إلى لغة الملايو ، وأليس مما يوجب عليّ إعلان شكرى لله وحده
وتقديسه ، وإهليام به ، وإفراغ الجهد في طاعته أن يكون انتشار هذه الفكرة هو غاية مطلبي ، ثم يتم ذلك
المطلب وأنا سعي وأعلم به ، وهو هو الفتوح الخاص الاسلامي ، هذا هو النصر والفتح المبين في زماننا ، وقد
قدمنا أن الرحمة عامة وخاصة ، فالعامة تفصلها جميع العلوم ، والخاصة بنا وبالأمم الاسلامية هي ما ذكرته الآن
وقد فقت أن كل امرئ بينه وبين ربه أمر خاص ، فهذا هو الامر الخاص الذي اشتد لفي عليه ، وقد
نلت ، وهل لي بعده مطلب ؟ هو آخر مطلبي ، هو نهاية مقصدي ، الحمد لله فلا قرأ ما جاء في الذكر الحكيم على
لسان ابراهيم عليه السلام : « الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسما عيل واسحق إن ربي لسميع الدعاء »
كتب صباح يوم الأحد ٥ يوليو سنة ١٩٣١ م

تذكرة

لقد تقدم في سورة محمد ﷺ في تفسير البسمة أن قتال الكافرين المذكور فيها نوطه لفتح البلاد
ونشر العلوم ، فأتم الاسلام لم يكن الفتح لهم خاصا بمكة ، إن الاسلام انتشر في أقاصي المعمورة ولا يزال ينتشر
بل هو الآن ينتشر في أمريكا وفي أوروبا ، إنما المهم المدهش أن الفتح يشمل الفتح العلمي ، والعلم المنتشر
في الكرة الأرضية الآن باجتماع علماء العالم قاطبة سببه دين الاسلام ، فالسالمون حركوا الأمم وإن كان
المحركون لهم قد ناموا قبل هذه الأيام .

إن أوروبا هجمت على الشرق فخلعوا دين المسيح بدل الوثنية عندهم ، وبعد قرون جاء الاسلام
فأفصاهم وأرجعهم إلى بلادهم ، فهجموا على الشرق ككرة أخرى بالحروب الصليبية ، فخلعوا معهم المدينة
الاسلامية والعلوم المشورة فيها ، ثم هاجموا أولادهم على انشرق ككرة أخرى اليوم ، وهما هوذا الشرق
أخذ يعدّ عدته ، وستكون نهضة الأمم كلها بسبب الشرق والعقول المنزوية فيه التي ستساعد على الرقي المنتظر
فلنظام الخالي سببه فتح الاسلام المبين ، والنظام المستقبل سيكون بمساعدة المسلمين . أفلا أسمعك ما جاء في
مقال جاء في جريدة الاهرام بتاريخ ٢٤ مارس سنة ١٩٣١ م فقد جاء فيها تحت العنوان التالي مانصه :

العالم بعد خمسين سنة

العلماء يتنبئون

نيويورك في ١٥ مارس (لرسل الاهرام الخاص) : العلماء هم أنبياء هذا الزمان ، وأنا أعنى العلماء العاملين ، لأولئك الذين يسطرون للقراء أقوالا لاهم يفهمونها ولا الذين يقرءونها ، يعرف المطلع على تاريخ قديح العمران ، ورقى الانسان ، كيف فتح الناس السكر ، ودلوا صعابها ، ومهدوا عقباتها ، وأخضعوا وحوشها ، وحولوا آجامها إلى جنت غناء ، واستأصلوا معظم ما كان يئتابها من الأوبئة ، وكيف تغلب العقل البشرى على القوى الطبيعية فأرغمها على خدمته ، والعمل بشارته ، وألجم البحر والبرق والغاز وقام بأعمال كثيرة كانت معدومة من المستحيلات ، فما الذى بقى وراء ستار الغيب من مدهشات العلم وعجائبه ؟ وما الذى سيقدم عليه النبوغ البشرى من الغرائب الشبيهة بالعجائب . لنسمع جواب أنبياء العلم فان فيها الخصة من أقوالهم ما يبرد غلة التائق إلى معرفة ماسيكون ، إنهم يستنبئون بالماضى لاختراق ظلمات المستقبل ومعرفة ماسيتم فيه من نتاج الأدمغة المفكرة .

يقول قائلهم : إن الملايين منا يتذكرون الخمسين سنة الماضية ، وآبأهم بدورهم يتذكرون الخمسين سنة التى قبلها ، فللمائة عام التى وراءنا قد كانت مسرحا لانقلاب كبير فى حالة العالم وطرائق المعيشة فيه ، فاقضت أيام المركبة الخشبية التى تجرها الجياد ، وجاء زمان القطرات الحديدية ، والسفن البخارية ، واخترع التلفزيون فقترب الأبعاد والمسافات ، وتلا ذلك التليفون والتلغراف اللاسلكيان ، وزفت الطائرات أهل هذا الزمان من الغبراء إلى الأجواء ، فقهرت ناموس الجاذبية ، وحلت السيارة محل الجواد فى شوارع المدن والطرق ، وخففت الكهرباه أعباء أعمال النساء ، فتولت عنق الكفس والفصل ، وادارة آلة الخياطة ، وتنظيف المنازل وأوجدت الحرارة للدفء ، وبردت الهواء الحار بمراوحها ، وأتارت المنازل والشوارع والطرق المؤدية إلى البلدان ، ونابت عن الناس فى فتح الابواب لازارين ، وأدارت الآلات على اختلافها ، وجرت القطرات والمركبات العمومية ، وتوات فوق هذا كله قتل المحكوم عليهم بالموت .

وفى المائة سنة التى انقضت نالت النساء حق الاقتراع والمشاركة فى إدارة الحكومة ، وتعدت الأمم بعضها من بعض ، ففسنى لها الاجتماع معا بسهولة للتفاهم بشأن الاعمال والمناجروالشؤون السياسية كما كان يفعل الأفراد فى البلد الواحد ، وكان الناس من مضى خمسين سنة ينظرون الى الغنى صاحب المليون ريال بعين الاعجاب ، أما اليوم فالغنى يبلغ دخله السنوى مليوناً واحداً لايعت من الاغنياء ، وفى أمريكا اليوم رجل له دخل أسبوعى يزيد على مليون ريال ، وهنرى فورد صانع السيارات المعروفة باسمه يدفع للحكومة ضريبة على دخله السنوى تزيد على العشرين مليون ريال ، كان الناس من قبل يتعاملون بالملايين واليوم يتعاملون بالبلايين ، وبعد أن فتتهى حكومة الولايات المتحدة من منح الهبات المالية للجنود الذين شوهوا فى الحرب الأخيرة تسكون قد أنفقت خمسة وسبعين بليون ريال ، والدول الأوروبية مدينة لها بمبلغ أحد عشر بليون ريال ، مما يؤيد ماقلناه من أن مقادير الغنى قد تغيرت وتعظم أمر الثروات بحيث ان الذين كانوا يحسبون ثروتهم بالملايين أصبحوا فى هذا الزمان يمتوتها بالبلايين ، وصارالبليون المقياس المعول عليه فى المعاملات الدولية كانت الخمسون سنة الماضية أعوام أعمال كبيرة أنشأها طوائف من الناس متحدون معا ، ولكن الفرد من الناس لم يكبر عما كان عليه ، ولا صارأهنا عبثاً وأسعد حالاً ، فهو من هذا القبيل كالقطرة من الاوقيانوس العظيم لا يزيد فى الكبر على أبة قطرة ماء فى أصغر وعاء ، وهكذا الناس فاهم لايزالون كأنات بشرية صغيرة ، قطرات فى أوقيانوس المجموع المدرك الحساس المعروف باسم الجنس البشرى ، الاوقيانوس يكبر ويتعظم فى

الاتساع والقوة ، إلا أن القطرات التي تولفه لا يطرأ عليها تغيير في ذاتها ، فكيف يتمكن الفرد من أن يكون أعظم مما هو وأن تكون حياته كاملة من كل وجه ؟ ذلك هو السؤال الذي لم يستطع الخسون سنة الماضية بل الألوف من الأجيال الزاهية الاجابة عليه : كشف الانسان الراديو في الأرض والعناصر والمعادن المختلفة والقوات الطبيعية التي لم يكن لأسلافه بها علم ، ولكنه من حيث اصلاح نفسه لم يأت بسوى القليل ، وقد يكون ما قبل صحيحا من أن متوسط الذكاء بين الاجناس العليا من المتسدنين هو اليوم أقل منه بين أهل أينا منذ ألفين وخمسمائة عام مضت ، فن الوجهة العلمية والوجهة الفنية الاولية من حيث الخدق والابداع والاحاطة بما يحيط بنا من الأشياء المنظورة السكائة عند أقدامنا إلى المجرىة في السماء قد ارتقينا وأحسنا عملا ولكننا كأفراد لم نتقدم إلا قليلا ، ولا أحرزنا من التحسن إلا اليسير التافه .

فما الذي يحىء في الحسين سنة التولية سيتكلمون أيامئذ عن الفحم الحجري الذي فسد ، وعن آبار الزيت التي نضب معينها . وهكذا قبل أن ينفد الفحم والزيت يكون الناس قد تمكنوا من تقييد المد والجزر أرقوة الشمس وكشفوا نيرانا مخبوءة في جوف الارض على مسافة أميال من مواطئ أقدامنا ، وعندئذ يهزمون بما كان يفعله أسلافهم .

والعلماء على يقين من أنه قبل أن يبلغ أحداث اليوم الشيخوخة تكون الأسفار الطويلة عبر الأوقيانوس وحول العالم في الطيارات ، فيتناول الراكب فيها طعام العشاء في باريس ، وطعام الغداء في نيويورك ، ولقد كان من غرائب الأيام التي اقتصت أن يناجى الشخص الموجود في أعلى طبقات المخزن مع آخر في أسفله بواسطة الأنبوب الذي ابتدع لتلك القصد ، ثم جاء التليفون فتناجى الناس به بين البنائات والمدن والبلدان المختلفة على مسافات سحيقة .

والناس اليوم يستخدمون اللاسلكي لنقل الاصوات إلى الأبعاد الشاسعة ، فسمع أوبرا نيويورك في لندن وباريس والصين ، وفي الهند والعراق بوضوح وجلاء كما يسمعها أهل نيويورك ، ويقال إندهاش الفكر البشرى بتلك الاكتشافات والاختراعات بعد انقضاء الاسبوع الواحد على وجودها ، فلا يعبأ أحد بها بل بوجه اهتمامه لشيء جديد يكون أهدب وأغرب ، جاريا في ذلك على الاعتقاد الذي أصبح جزءا من طبيعته بأن كل شيء ممكن ، وفي الأعوام القليلة المقبلة ستضع آلة على صندوق الراديو في منزلك فتريك انمتملين في الملاعب والخطباء على المنابر وتسمعك أصواتهم .

ذلك ما ستقوم به الكهروباة التي لا تفهمها إلا بما يبدو منها ، فهي قد قامت مقام الانسان في أعمال كثيرة تطبخ ، وتنكس المنازل ، وتكوى الملابس ، وتدق الحجرات في الشتاء ، وتبردها بالارواح في الصيف ، وتصنع لك الجليد والمركبات المختلفة ، ونسبرها ، وتدفعها في الشتاء ، وتبرد هوائها في الصيف ، وتفتح أبوابها للخارجين والداخلين الذي أغنى الشركات عن ملايين العمال . ومثل ذلك تفعل في المعامل على اختلافها ، وتبعث بالرسائل إلى أقصى المعمورة ، وهي التي تتمكنك من مخاطبة البعيد عنك بالتليفون السلكي واللاسلكي . وسيقل اهتمام الناس في المستقبل بنفقات الفحم لاقاء البرد لأن نور الشمس الذي ينعحه العلم يجعل الهواء معتدل البرودة ، أوحارا مقبولا ، وذلك بواسطة مرا كز للقررة تنقى معتدل الحرارة عند نقطة معلومة محتملة من البرد والحرا السنة بطولها .

ويقول أحد العلماء في كتاب عنوانه « المستقبل » مانسه : « إن هذه السنوات ليست أضغاث أحلام بل هي مبنية على درس الضرورة التي يسبر عليها القمطن الذي لا يلين حاملا معه الجنس البشرى إلى حيث يكون كما خلق ليكون ، فن مضى ثلاثين عاما كان التلغراف اللاسلكي مقتصرأ على أذرع معدودة ، أما اليوم فإنه يساعدا على إيصال هزات الكهروباة إلى أقصى الأرض ، وإلى القمر أيضا ، فما الذي تقوله إذن

عن الفند .

وبعد دورة قصيرة من الزمان تفصّ أرباب السماء بمواكب هوائية ضخمة ، وتكون سرية الطيران فتجتاز الاوقيانوس بنحو الساعة من الوقت ، ولا يكون ثم خطر من الاصطدام ، لأن العلم سيبتدع مايساعد المركب الهوائي على الشعور بدقّوه من مركب أخرى ولوفى الظلام الدامس أو الضباب الكثيف ، وقد يصل بنا العلم الى عهد نستقنى فيه عن مولدات القوة في مواكب الهواء ، فنستمدّ قوتها من الهواء الذى تسير فيه وتساعد الأشعة الكهر بائية الانسان فى مستقبل الأيام على تحويل الأمطار إلى الصحارى والبلدان القليلة أو العديمة المطر ، فتحوّلها إلى جنات نظرة عظيمة الاقبال ، زاهرة بمحصولات لا تحطرننا اليوم ببال . وتكون الكهربية العامل الأكبر على إنماء المزرعات بحرارتها ، ويرتقى فنّ الجراحة إلى أرفع الدرجات ، بحيث يتمكن الجراح من جعل الوجه الشنيع جيلا ، وتكون الاعمال الجراحية فى المستقبل قبل الولادة ، فتجعل تقاسيم وجه الطفل كما يراد أن تكون ، لأنه من الظلم أن يكون قبح صورة أحد الناس عثرة فى سبيل نجاحه ، فأمثال هذه المشوهات يستأصل فى أوّل العمر أو قبل الولادة ، ويصير أمر تحديد النسل من الامور الضرورية ومن لزوميات التقدّن ، فلا يسمح يومئذ إلا لعدد معلوم من الناس فى الاكثار من البنين ، هؤلاء تختارهم الحكومات بالطرق العلمية ، وتساعدهم ماليا ، وذلك لأن الارض تصبح مكتظة بالسكان بحيث يصير من الضروري تحديد عدد المواليد بخلاف ماهى الحال الآن ، يلد الفرد مايشاء من الأولاد سواء قدر على تربيتهم واعالتهم أو قصر فى ذلك ، وتصبح الامومة وظيفة شريفة تسيطر عليها الحكومة وتقوم بالنفقات .

ولكن هذه الحالة لا تطول كثيرا ، فقد يعمدون يومئذ إلى توليد الاطفال فى معامل الكيمياء بطريقة علمية بحيث وعلى قدر الحاجة لسد الفراغ الذى يحدثه الموت ، ولا يزال أماننا حسبا يعتقد عظماء العلم مائة مليون سنة للقيام بأعمال أخرى عديدة نجح عقولنا القاصرة عن الاحاطة بها ، فسوف تتمكن من مناجاة السيارات العليا المنتشرة فى ذلك الفضاء الذى لاحد له لأن الكثير منها مأهول بأناس عاملين مفكرين .

فالأثير الذى يشمل كل فضاء هو الذى يعمل رسائنا إليها كما يعملها فى أرضنا من قارة إلى أخرى ، فلو تقبأ انسان من مضىّ خمس وعشرين سنة عن امكان ابتداء السيارة والتخليق بها فى الجوّ من مكان إلى آخر ، أو عن البرق اللاسلكى ، وقال : إن الخليل أو المشد الذى يتكلم ، أو يقضى فى نيويورك يكون مسموعا بوضوح فى أقصى الأرض لزجوه فى مأوى الجانين ، ولكن ما الفائدة من التخمين أو التنبؤ ؟ انه لم يعط لنا أن نعرف ماذا سيكون ؟ انتهى الكلام على القسم الأوّل فى تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين .

القسم الثانى من السورة

التفسير اللفظى للسورة كلها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير فى بعض أسفاره وعمر بن الخطاب كان يسير معه ليلا ، فسأله عمر عن شىء فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه . فقال عمر : نكلتك أمك يا عمر ، كرّرت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرّات ، كل ذلك لا يجيبك ، قال عمر : فركت بعبرى حتى تقدّمت أمام الناس ، وخشيت أن ينزل فى القرآن ، فما لبثت أن سمعت صارخا يصرخ بى ، ففقت : لقد خشيت أن يكون نزل فى قرآن ، فبغت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلمت عليه ، فقال : لقد أنزل على الليلة سورة لم أحب إلى مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » .

وروى الترمذى أن ذلك كان وهو راجع من الحديبية ، قوله عز وجل (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) أى إنا قضينا وحكمنا لك فتحا مبينا ظاهرا ، أى فتح مكة وما قبلها كفتح خيبر وفدك وصلح الحديبية وما بعدها كفتح فارس والروم وسائر البلاد . وهذا التفسير جمع سائر الأقوال ، فإذا قال البراء تعدون أتم الفتح فتح مكة ، ولقد كان فتح مكة فتحا ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ، وذكر أن الحديبية بمرفد نزحوها ولم يتركوا فيها قطرة ، وكانوا أربع عشرة مائة ، فلما توجأ ﷺ وتمضمض ودعا وصبه فيها سقتهم وسقت ركابهم وماشيتهم ، وإذا قال مجاهد أنه فتح خيبر ، وإذا قال غيره ما هو فتح فارس والروم وسائر البلاد فهذا كله داخل فيما قلناه ، ويكون فتح مكة أظهرها وأشهرها ، وما قبله مقدمة له ، وما بعده تابع له ، مرتب عليه . واعلم أن لكل عامل فى عمله نهاية يدتها ، وثمرة يجتنيها ، فنهاية الزرع إدراكه ، ونهاية الشجر أثماره ونضجه ، وثمرة ذلك الانتفاع بحب الزرع وثمر الشجر ، هكذا النبوة لها نهاية مطلوبة فى الحياة الدنيا وثمرة تتبع هذه النهاية ، فنهاية أمر النبوة أن تلبث وحدة أمة من الأمم ، ويجمع شملها ، ويتم نظامها ، ولن يكون ذلك إلا بعد دعوة مستفيضة وجهاد علمي وعملی وقاتل ، وجمع المجاهدين على العدو ، ومضى أمورا عملهم ، وأخذوا المستضعفين ، وحجوا البيضة ، وأدخلوا رجالا فى الدين كرها ، ثم بالتدريج بدخلون طوعا . فإذا تم ذلك فقد انتظم أمر النبوة وأدى واجبها ، وهذا نهاية ما على الرسل ، وأذن يستوجبون ثمراتها وهي :

- (١) مغفرة ما فرط منهم مما يعد ذنوبا بالنسبة لمقامهم .
- (٢) واجتماع الملك مع النبوة بعد أن كانت النبوة وحدها .
- (٣) والهداية إلى الصراط المستقيم فى تبليغ الرسالة ، وإقامة مراسم الرياسة .
- (٤) والنصر الذى فيه عز ومنعة .

فهذه الثمرات الأربعة مرتبة على تمام أمر النبوة والجهاد فيها ، وهكذا كل مجاهد بعد تمام جهاده ينال الثمر على مقتضى المقدمات ، فالفتح المذكور المترتب عليه ما ذكر رمز إلى الأعمال التى استوجبته من أول ما نزل الوحي إلى تمام الأمر ، فهذه ترتب عليها هذه الأربعة ، كأن الله يقول : يا محمد ، لقد بلغت الرسالة ونصبت فى العمل ، وجاهدت بلسانك ، وبسيفك ، وجمعت الرجال والكراع والسلاح ، وتلطفت وأغلظت وأخلصت فى عملك ، وفعلت كل ما قدرت عليه حتى تم الأمر الذى ندينك له فلننتل ثمرات ذلك العمل ، وقوله (ليغفر لك الله) متعلق بفتحنا ، وقوله (ما تقدم من ذنبك وما تأخر) أى جميع ما فرط منك مما يصح أن يسمى ذنبا من طبقته وإن كان عند غيرك لا يسمى ذنبا لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، أو ما تقدم قبل النبوة وما تأخر عنها (ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما) وينصرك الله نصرا عزيزا) قد عرفت معناها وأنها مرتبة على الفتح ، لأن من دانت له الرقاب ، وخضعت له النفوس ، وعزفت له النعمة . ولما كان ذلك فى رضا الله هدى صراط الرئاسة ، ونصر نصرا فيه عز ومنعة ، لأن أسبابه حاضرة . ولما كان فتح البلاد والنصر على الأعداء بالنبي صلى الله عليه وسلم وبجهاد المؤمنين معه وقد فرغ من الكلام عليه شرع يذكر ما للمؤمنين من منزلة ، فقال : (هو الذى أنزل السكينة) الثبات والطمأنينة والوقار (فى قلوب المؤمنين) ويلزم من ذلك نبات الأقدام عند اللقاء ، وكما كان الفتح للأمور الأربعة المنتم بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هكذا كانت الطمأنينة فى قلوب المؤمنين (ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) أى يقينا مع يقينهم برسوخ العقيدة واطمئنان النفس عليها ، ولا جرم أن الله عز وجل هو الذى دبر أمر العالم فسلط الاجناد فى الأمم للقائهم والجهاد ، فهو الذى دبرها بعلمه ونظمها بحكمته ، فهو الذى يجاهدون للحق ، وهؤلاء يقاتلون للباطل ، وإنما دبر ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله ويشكروها فيدخلوا الجنة ، ويهدب الكفار والمنافقين لما ثبتوا على الباطل ، فينال كل نتيجة ما جنه ، وهذا هو قوله تعالى (ولله جنود السموات والأرض) يسلط بعضها على

بعض كما سلب كلا من المؤمنين والكافرين على الآخر (وكان الله عليهما) بالمصالح واستعداد النفوس (حكيمًا) فيها قضاء وديرة (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم) يظنونها ولا يظهرها (وكان ذلك) الإدخال والتكفير (عند الله فوزًا عظيمًا) لأنه منتهى ما يراد من منفعة مجلوبة ومضرة مدفوعة (ويصنّب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) عطف على يدخل (الظانين بالله ظنّ السوء) ظنّ الأمر السوء فيقولون في أنفسهم : لا ينصرت الله رسوله ولا المؤمنين (عليهم دائرة السوء) أي دائرة ما يظنون ويتر بصوته بالمؤمنين لا يتخطاهم (وغيض الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرًا) أي جهنم ، واعلم أنه كما كان الفتح قد ترتب عليه أمور أربعة للنبي ﷺ هكذا فاز المؤمنون بأمر أربعة : الوفاق ، وازدياد الإيمان ، ودخول الجنات ، وتكفير السيئات . وهكذا الكفار لهم أربعة : العذاب ، والفضب ، واللعة ، وجهنم . وقوله (ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزًا حكيمًا) يشير إلى أن من هؤلاء الأجناد من هم في جهنم ليلزموا الكفار لتعذيبهم وهم خزنة النار كما أن ذكر الأجناد فيها تقدم يشير للائسكة الرحمة الذين يكونون مع المؤمنين لدخولهم الجنة ، ولما كان المقام مقام قهر ذكر العزة والغلبة ، ولما كان سبحانه لا يضل إلا على مقتضى الاستعداد ذكر الحكمة ، ولما أتم الكلام على المالكل من الأعمال والثمرات المرتبات عليها أعقبه بما يمّ النبي ﷺ والمؤمنين فقال (إنا أرسلناك شاهداً على أمّتك (ومبشراً ونذيراً) لأجل الطاعة والمعبية ، ولما كان خطابه صلى الله عليه وسلم منزلاً منزلة خطابهم خاطبهم قائلاً (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه) وتقوه بقوة دينه ورسوله (وتوقروه) وتعظموه (وتسبحوه) وتزهوه أو تسألوا له (بكرة وأصيلاً) غدوة وعشيا ، والمعنى دائماً ، ثم ذكر بيعة الحديبية وهي قرية صغيرة بينها وبين مكة أقل من مرحلة ، سميت بيئر هناك كما تقدم ذكرها ، وكان المبايعون ألفاً وأربعمائة ، بايعوه على أن لا يفرّوا ، ومنهم من بايع على الموت . فقال : (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) لأنه المقصود بالبيعة حال كونهم (يدأقوه فوق أيديهم) أي نصرته إياهم أعلى وأقوى من نصرتهم إياه ، يقال اليد لقلان ، أي الغلبة والنصرة والقوة ، أو يد الرسول صلى الله عليه وسلم التي هي فوق أيديهم كأنها يد الله ، والله منزّه عن الأجسام وصفاتها ، أي إن عقد الميثاق مع رسول الله ﷺ كعقده مع الله عز وجل من غير تفاوت بينهما كقوله تعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » (فمن نكث فإنا نكث على نفسه) يعني فمن خقض العهد الذي عقده مع النبي ﷺ ونكث البيعة فإن وبال ذلك وضرره يرجع إليه ولا يضر إلا نفسه (ومن أوفى بما عاهد عليه الله) أي من البيعة (فسيؤتيه أجراً عظيماً) أي في الآخرة وهو الجنة ، وهذه البيعة بيعة الرضوان . انتهى القسم الثاني من السورة والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث من السورة

قال تعالى (سيقول لك المخلفون من الأعراب) وهم أسلم وجهينة ومنزينة وغفار ، فهؤلاء لما استقرّهم رسول الله ﷺ عام الحديبية تخلفوا واعتلوا بالتخل بأموالهم وأهليهم ، وفي الحقيقة هم ضعاف العقيدة خائفون من مقاتلة قريش إن صدروهم ، ومقول القول (شغلنا أموالنا وأهلوانا) إذ لم يكن لنا من يقوم بأشغالهم (فاستغفرنا) من الله على التخلف (يقولون بألسنتهم مالبس في قلوبهم) أي هم كاذبون في اعتذارهم غير جادّين في طلب الاستغفار (قل فمن يملك لكم من الله شيئاً) أي فمن يمنعكم من قضائه (إن أراد بكم ضرراً) أي سوءاً (أو أراد بكم نفعاً) ذلك أن القوم ظنوا أن التخلف يدفع عنهم الضرر ، أو يجلب لهم النفع بالسلامة لهم في أنفسهم وأموالهم ، فأخبرهم الله أنه إن أراد شيئاً من ذلك لم يقدر أحد على دفعه (بل كان الله بما تعملون خبيراً) فيعلم أظهاركم الاعتذار ، وطلب الاستغفار ، واخضاعكم النفاق (بل ظننكم

أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً) أى ظنتم أن العدو يهلكهم فلا يرجعون إلى أهلهم (وزين ذلك في قلوبكم) فتمكن فيها ، أى زين الشيطان ذلك فيها (وظنتم ظن السوء) أى وظنتم أن الله يخلف وعده إذ قالوا : ان محمداً وأصحابه أكلة^(١) رأس . يريدون بذلك قتلهم فلا يرجعون فأبن نذهبون معهم ! انظروا ما يكون من أمرهم ؟ (وكنتم قوماً بوراً) يعنى وصرم بسبب ذلك الظن الفاسد قوماً بأثرين هالكين (ومن لم يؤمن بالله ورسوله فانا أعدنا للكافرين سعيماً) أى فانا أعدنا لهم فيه وضع الظاهر موضع المضمر لتسجيل الكفر على من لم يجمع بين الإيمان بالله والإيمان بالرسول (وقته ملك السموات والأرض) يدبره كيف يشاء (يفقر لمن يشاء ويغنى من يشاء وكان الله غفوراً رحيماً) وذلك لأن رحمة سبقت غضبه ، فالغفوة والرحمة من الله بالأصالة ، أما التعذيب كإدخال الكافرين السعير فذلك لأحوال طرأت على النفوس البشرية ، وهنا لا مجال للإطالة ، ففي المقام ما لا يجوز أن يقال (سيقول المخلفون) وهم المذكورون (إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذونها) أى مغانم خيبر ، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم رجع من المدينة في ذى الحجة من سنة ست ، وقيل سنة خمس وهو الأصح ، وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل الحرم ، ثم غزا خيبر بمن شهد المدينة ففتحها ، وضم أموالاً كثيرة نخصها بهم ، ومقول القول (ذرنا تبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله) أى أن يضربوه لأنه وعد أهل المدينة أن يعرضهم عن مغانم مكة مغانم خيبر (قل لن تبعونها) معنى النبي هنا النهى (كذلك قال الله من قبل) من قبل تهيئتهم للخروج إلى خيبر (فيقولون بل نحسدوننا) أن نشركم في الغنائم (بل كانوا لا يفقهون) لا يفقهون (إلا قليلاً) إلا فهما قليلاً وهو فطنتهم لامور الدنيا والأضراب الأول رد منهم ، والثاني رد الله لأنباتهم الحسد وأثبات جهلهم بأمور الدين (قل لا تخفون من الأعراب) وهم المتخفون (ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد فقاتلوهم أو يأسون) وهل هم بنو حنيفة ؟ لوهم أهل الجاهلية أصحاب سيلة الكذاب الذين دعا إلى قتالهم أبو بكر ، وأهم أهل فارس إذ دعا عمر إلى قتالهم ، أو غيرهم ، فإذا كان الأول كان أحد الأمرين : إما المقاتلة ، وإما الإسلام ، ولا تقبل الجزية من بنى حنيفة ، ولا من جميع أهل الردة ، وإن كان الثاني يكون المهاد بالإسلام ما يشمل الاقبياد بقبول الجزية منهم ، وهذا دليل على صحة إمامة الشيخين ، ألا ترى إلى قوله تعالى (فان طيعوا) من دعاكم إلى القتال للمذكور (يؤتكم الله أجراً حسناً وان تنولوا كاتوليتهم من قبل يصذبكم عقاباً أليماً) فى الآخرة ، أى وان تنولوا عن التوحيد والتوبة والاجابة إلى قتال سيلة الكذاب أو الفرس الخ ، ولما كان هذا الوعيد الشديد على المتخلفين يشمل من هم ممنورون حقيقة أردفه بقوله (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج) فهو لاء لا حرج عليهم فى التخلف عن الفز ، فهم مستثنون من المتخلفين لعذرهم بجاهتهم (ومن يطع الله ورسوله) فى الجهاد وغيره (يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول يصبه عذاباً أليماً) فى الآخرة .

بيعة الرضوان وهى بيعة الشجرة

سبب هذه البيعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا خراش بن أمية المخزاعى حين نزل المدينة فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على جبل يقال له التعلب ليبلغ أشرفهم . عنده ما جاء له ، ففعلوا جبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأرسلوا قتلهم الأحيش ، ففعلوا سيده حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب لبيعة إلى مكة فذكر له أنه ليس من قومه أحد بمكة يلدغ عنه ، فأرسل عثمان بن عفان ، وأرسله إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت الحرب ، وإنما جاء زائراً

هذا البيت مطلقا لحرمته ، فخرج عثمان إلى مكة ، فلقه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة ، فجعله في
 جواره حتى فرغ من رسالته لعظماء قريش ، ثم احتبسوه عندهم ، فشاع بين المسلمين أن عثمان بن عفان
 قتل ، فقال رسول الله ﷺ : لا تبرح حتى تاجر القوم ، ودعا الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان
 تحت الشجرة ، وهي سمرة ، فبايعه القوم إلا جد ابن قيس الأنصاري ، اختفى تحت بطن بعيره ، وهذه
 الشجرة لما أراد أصحاب رسول الله ﷺ أن يملعوها بعد ذلك كثر اختلافهم ، فلما اشتبهت عليهم وصار
 كل واحد يشير إلى شجرة ، قال عمر : « سبروا ذهب الشجرة » ، وقال ابن عمر : ما اجتمع منا اثنان
 على الشجرة التي بايعنا تحتها وكانت رحمة من الله تعالى ، وهذا قوله تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ
 يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم) من الاخلاص (فأزول السكينة عليهم) الطمأنينة وسكون النفس
 (وأنابهم فتحا قريبا) فتح خيبر غلب انصرافهم (ومغانم كثيرة يأخذونها) هي مغانم خيبر وهي أرض ذات
 عقار وأموال ، قسمها عليهم (وكان الله عزيزا) منيعا فلا يغالب (حكيا) فيما يحكم به فلا يعارض (وعدكم
 الله مغانم كثيرة تأخذونها) هي ما أصابوه مع النبي صلى الله عليه وسلم وبعده إلى يوم القيامة (فجعل لكم
 هذه المغانم أى مغانم خيبر (وكف أيدي الناس عنكم) يعنى أيدي أهل خيبر وحلفائهم من أسد وغطفان
 حين جاؤا لنصرتهم ، فقدف الله الرعب في قلوبهم فانصرفوا ، يقول الله : فجعل لكم هذه المغانم لتتصفوا
 بها (ولتكون) هذه الكفة أو الغنيمة (آية للمؤمنين) أمانة يعرفون بها (ثلاثة أمور : الأول) صدق
 الرسول صلى الله عليه وسلم (الثاني) أنهم في حياة الله وحراسته في مشهدهم ومغيبهم (الثالث) أن
 يعرف المؤمنون الذين بعد العصر الأول أن ما وهب الله للصحابة من حراستهم وحفظهم وعطائهم يكون لهم
 مثله (ويهديكم صراطا مستقيما) وهو الثقة بفضل الله والتوكل عليه بعد اتقان العمل ، ثم عطف على لفظ هذه
 قوله (وأخرى لم تقدروا عليها) أى وعدكم الله فتح بلدة أخرى لم تقدروا عليها (قد أحاط الله بها) أى حفظها
 لكم حتى تتسوها ، ومنعها من غيركم حتى تأخذوها ، وسيقتحمها الله لكم كفارس والروم الذين كان العرب
 خولا لهم ، ثم أقدمهم عليها بمنزلة الاسلام وغيرهما من كل فتوح في الاسلام (وكان الله على كل شيء قديرا)
 قدرته شاملة للمكانات جميعها (ولولا قاتلكم الذين كفروا) من أهل مكة ولم يصلحوا ، أو من حلفاء أهل خيبر
 وهم أسد وغطفان (لولوا الأدبار) أى لانهمزوا (ثم لا يجحدون وليا) يحرسهم (ولا نصيرا) ينصرهم من الله
 (سنة الله التي قد دخلت من قبل) أى سن الله غلبه أنبيائه سنة ، وهو قوله : « لأغلبن أنا ورسلي » (ولن
 نجد لسنة الله تبديلا) نصيرا (وهو الذي كفنا أيديهم عنكم وأيديكم عنهم) ذلك أن عكرمة بن أبي جهل
 خرج في خمائنه إلى الحديبية ، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد على جند فهزمهم حتى أدخلهم
 حيطان مكة ثم عاد ، فهذا معنى قوله (يبطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم) وقوله (وكان الله بما تعملون)
 من مقاتلتهم والكف عنهم (بصيرا) فيجازيهم عليه (هم الذين كفروا وصدركم عن المسجد الحرام والهدى)
 أى ما يهدي إلى الكعبة ، أى صدركم وصدوا الهدى (معكوكا أن يبلغ محله) أى حال كونه محبوسا أن
 يبلغ مكانه الذي يحل فيه نحره وهو منى مكانه اليهود . وقال الحنفية : مكانه الذي يحل فيه نحره أى يجب ،
 فالصحرى حله هديه الحرم عندهم في منى . ويتوكل غيرهم : ينحدر حيث أحصر ، وقد نحر رسول الله صلى الله
 عليه وسلم حيث أحصر (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم) لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم
 بالشركيين (أن تطوهم) أى توقموا بهم وتبيدوهم بالقتل (فتصيبكم منهم معرفة بغير علم) أى إنهم وذنب
 وصب عليكم فيقول المشركون : قتالوا أهل دينهم ، يقول الله : لولا أن قتلوا رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات
 لأهل لكم بهم فيزمنكم العار والإثم لأذناكم في دخول مكة ، ولكن حال بينكم وبين دخولها ذلك السبب
 ولقد كان الكف ومنع التعذيب والقتل عن أهل مكة (ليدخل الله في رحمته من يشاء) أى ليدخل الله في

دين الاسلام من يشاء من أهل مكة بعد الصلح وقبل دخولها ، وليصون المؤمنين منهم عن الأذى (لوتز يلاوا) لوتفرتقوا وتميز بعضهم من بعض بحيث انفصل المؤمنون في مكة عن الكافرين (لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما) بالقتل والسبي (إذ جعل) أى حين جعل ، نزل لعذبنا (الذين كفروا في قلوبهم الحية) الأفة (حية الجاهلية) التي تمنع إذعان الحق (فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) أى الثبات والوقار ، وذلك ماروى أنه عليه الصلاة والسلام لما هم بقتالهم بعثوا سهيل بن عمرو ، وحويط بن عبد العزى ، ومكرز بن حفص ليسألوه أن يرجع في عامه على أن تخلى له قرين مكة من القابل ثلاثة أيام . فأجابهم وكتبوا بينهم كتابا ، فقال عليه الصلاة والسلام لعلى رضى الله عنه : اكتب باسم الله الرحمن الرحيم ، فقالوا لانعرف هذا اكتب باسمك اللهم ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : اكتب هذا ماصالح رسول الله أهل مكة . فقالوا : لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صدناك عن البيت وما قاتلناك ، اكتب هذا ماصالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة ، فقال ﷺ : اكتب ما يريدون ، فهم المؤمنون أن يأبوا ذلك ويطشوا بهم ، فأزل الله السكينة عليهم ، فتوقروا ونحملوا (وألزمهم كلمة التقوى) أى الثبات والوفاء بالعهد (وكانوا أحق بها) من غيرهم (وأهلها) أى كانوا أهلها في علم الله ، إذ اختارهم لدينه ، ومحبة نبيه ، وهم أهل الخير والصلاح (وكان الله بكل شئ عليا) من أمر الكفار والمؤمنين فيجازى كلا بعمله . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذا القسم

- (١) في قوله تعالى : قل للمخلفين من الأعراب سندعون إلى قوم أولى بأس شديد .
- (٢) في قوله تعالى : ليس على الأعمى حرج الخ .
- (٣) في قوله تعالى : ولتكون آية للمؤمنين .
- (٤) في قوله تعالى : سنة الله التي قد خلت من قبل الخ

اللطيفة الأولى

في قوله تعالى : قل للمخلفين من الأعراب سندعون إلى قوم أولى بأس شديد الخ

اعلم أن هؤلاء المخلفين قد حرموا من الغزوة التي فيها غنائم بعد ما تحلفوا ، وقيل لهم تربصوا حراما مع قوم شداد ، جارية على القاعدة العامة في سنن الله تعالى طبا وتهديا .
انظر إلى علماء الطب ، فاهم إذا رأوا مريضا قد اشتدت به الآلام الناجمة من البرد أزموه تعاطى الأغذية الحارة ، أو من الحر أزموه تعاطى ما هو بارد ، وكذا في الرطوبة واليبوسة ، ويقولون لمن هو كثير النسيان : اجلس في حمام حر ، وخذ في الحفظ والقراءة ، فان رأيت أنك قد أسرع حفظك ، فاعلم أن النسيان من البرودة ، وإذا رأيت أن الحفظ قد أبطأ فاعلم أن النسيان من الحرارة ، فمعرفة السبب فاستعمل ما يضاهاه فان كان السبب الحرارة فكل الأغذية الباردة ، وان كان السبب البرودة فكل الأغذية الحارة ، وهكذا يقول علماء الأخلاق : « فمن رأى نفسه كثير الغضب فليزيم نفسه الجلوس مع من يؤذيه مرة بعد أخرى ، وليتعلم الصبر على أذاه ، فان لم يجد من يؤذيه فليسلط هو انسانا بأجر من عنده أن يقوم بشتمه في ملا من الناس ، ثم ليتصبر على ذلك حتى يتعلم التحمل ويتعلم ، وإذا رأى انه قد أصبح بليدا بحيث لا يؤثر فيه قول من ينضبه ، ولا من يؤذيه فليتر الحمية في نفسه بالأشعار وقراءة كتب الحماة حتى تقف النفس في الوسط بين التهور والبلادة ، وهكذا من رأى نفسه كثير الكلام فليتعود الصمت مرارا حتى يعرف أن نفسه لا تنطق

إلا عند الحاجة .

وبالاجل هذا هو السن الذي سنه الله أن يداوى المرض بضده حتى يرجع المريض للاعتدال في الجسم وفي العقل ، وذلك عينه هو الذي نراه في الشمس ، فانها تاتي علينا أشعة الصيف فتكون حرارة ، وأشعة الشتاء فتكون برودة ، وأشعة الربيع والخريف فتكون متوسطة ، فرجع الأمر إلى الاعتدال ، لأن الحرارة والبرد يساقطان ولا يبقى إلا الاعتدال . كل هذا يؤخذ من هذه القصة ، إذ أنهم لما تخلفوا عن السفر وحرموا من النخيلة في غزوة خيبر ، أزموا أن يكونوا في غزوة فيها قوم أولو بأس شديد ، والقتال شاق ، فهم كالبرودين يلزمون الطعام الحار ، وكالبيد تستثار فيه الهمة والنشاط والحياة . انتهت اللطيفة الأولى .

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : ليس على الأعمى حرج الخ

اعلم أن هذه الآية لا يراد بها أن تكون قاصرة الحكم على مسألة أصحاب العاهات ، إذ يستنون من المتخلفين المذمومين ، إن هذا المقام مقام الاستعداد : فلينظر المسلمون في أمر الأمة جميعها ، وليجعلوا كلا فيما استعد له ، جعل الله في زمن النبوة الأمة ثلاثة أقسام : النساء لأعمال المنازل ونحوها ، والأقوياء من الرجال للحرب ، وأصحاب العاهات عفا عنهم فلا يجاهدون ، لماذا ؟ لأنهم لا يصلحون لذلك ، ولعمري إن هذا فتح باب لاشغال نار الرقي والاسعاد في الأمة ، فليفتح الباب على مصراعيه ، وليقل إن الله أنزل في القرآن هذا لتنظر نظرة عامة ، ولتقل الأمة كلها في جهاد دائماً ، ليس الجهاد قاصراً على ضرب السيوف ، واعداد الجنود ، ورفع البنود . كلا . ثم كلا . فلكل فرد من الأمة منزلة لابد أن يوضع فيها ، فزارع في مزرعته يجاهد ، لأنه يرسل الحنطة لسفوف المجاهدين ، والتاجر ، وصانع الأسلحة ، والمحاسب والقاضي والشرطي والخفير ، كل هؤلاء أعوان المحاربين ، وسائق قطار السكة الحديدية ، وحارس المسرة (التلفون) ، وصانع الطيارات ، فكل هؤلاء مجاهدون ، فليجعل كل فيها هو أهل له ، وإذا نفي الله الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض فليس معنى هذا أنهم يعافون من كل شيء . كلا . أنهم لم يقدروا على دخول الصف ومقابلة العدو ولكن الأعمى إذا كان من القادرين على الخطابة والحث على الجهاد فليزِم بذلك ، والأعرج إذا كان قادراً على عمل كأن يكون عند آلة البرق (التلغراف) فليزِم بذلك ، والمريض يجب على الحكومة معالجته ، ومتى شفي بوجه إلى ما خلق له ، والمقصود أن هذه الآية تفتح الباب لوضع كل امرئ في ما خلق له ولا يكون ذلك إلا بتعليم الأمة كلها تعليماً عاماً وادخال بعض الصناعات في المدارس الابتدائية حتى تظهر مواهب الأطفال فيوضوا فيها خلقوا له ، كما قلته لك في (آل عمران) من أهل أميركا ، وهذا المعنى يؤخذ من قوله تعالى « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » وقوله : « لا تكلف نفساً إلا وسعها » فارجع إلى التفصيل في (سورة البقرة) وقل للأمة لاتعلموا مواهب الأمة ، بل نبهوا جميع الشعب ، وأيقظوا فيه المواهب الكامنة حتى تستخرجوا منها الآثار النافعة ، ولإسعاد الأمة إلا بهذا ، والله هو الولي الحميد . انتهت اللطيفة الثانية .

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : ولتكون آية للؤمنين

اعلم أن هذا سرّ مصون ، وجوهر مكنون ، وحكمة عالية ، ومنهج شريف ، وكبريت أحمر ، وماس بهيج ، ودرّ فضيد ، وكنز مدفون ، أراد الله اظهاره لأمة الاسلام ، حتى تسقيظ من رقدتها ، وتقوم من غفلتها ، وترجع عن حوبتها ، وتفيض غبار الكسل ، ومحيي مآمات من الأمل ، ونجني ثمار الحكمة التي حفظها

الله لهم في الكتاب ليفهمها أولو الألباب بعدنا فيقولون : يا ليت شعري : أي آية للمؤمنين هنا في هذا الزمان إذا كان الله كف أيدي أهل مكة عن المؤمنين ، وكف أيدي المؤمنين عن أهل مكة ، وهجلم لهم مقام في خير ، فأى آية لنا الآن نحن في هذا الزمان ؟ ذلك زمان مضى وانقضى ، وأمرطواه الزمان في سجل النسيان فكيف يكون آية لنا ؟ اللهم إلا ما يكون آية على صدق النبوة وصدق النبوة عندنا لا يحتاج لبرهان ، لأننا أخذناه جيلا عن جيل ، وقوما عن قوم ، فلسنا نحتاج إلى براهين جديدة ، على أن صدق النبوة ليس هو كل شيء عندنا في الدين ، بل المهم نتأمله ، فن صدق بالانبياء وبالقرآن وبقي ساكتا لا يحرك ساكنا فأى فرق بينه وبين الكافر إلا الاعتقاد ، والاعتقاد بلا عمل شجر بلا ثمرة ، وأرض بلا زرع .

إذا سمعت هذا من أهل زمانك ، أو قرأته في هذا المقام ، فأجب عنه وقل : إن الله عز وجل جعل أهم خواص الانسان أمرين : الأول العلم والشوق إليه ، وحب الحكمة والغرام بها والولوع ، والثاني نفع الناس وإرشادهم ، فهذان هما الخلقان الشريفان اللذان تخلق الله بهما ، فهو عليم ، وهو رحيم وحكيم ، ومن تخلق بأخلاق الله فإن الله في عونته ، ومنى انصف رجل بهاتين الصفتين فأحب العلم وعشقه ، ومال للحكمة وأغرم بها ، فإن الله عز وجل يكون معه ، وإذا كان مغرما بمنفعة الناس ، وأحب رقيهم وسعادتهم على شريطة أن يكون أهلا لذلك ، فإن الله وملائكته يكونون معه ، ويرى العون من الله في غدوه ورواحه ، وبالنتظن يرى من العناية والمساعدة ما لا يحيط به بيان .

أقول هذا وأذكرك بحديث : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع » وبما يروى « إن طالب العلم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر » وأما معناه ، وبآية : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » ، فالجهاد يشمل الجهاد العلمي ، والجهاد العملي ، والاحسان يشملهما ، فهو احسان بالعلم واحسان بالعمل .

واحب أيها الذكي كيف تقول بعض الارواح لما أحضرت وسألوها في أوروبا : أي شيء برقينا إذا متنا ؟ فأجابت : أمران هما المحبوبان : الأول الفلاسفة ، أي حب العلم والحكمة ، والثاني حب الناس ، فمن انصف بهذين الوصفين كان محل نظر الله وملائكته ، وكان الله معه ، وازداد علمه على مدى الزمان ، وخزائن الله العلمية لا تنفذ . كل هذا من سر هذه الآية : « ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما » وهو الثقة بفضل الله تعالى ، انظر كيف جعل الله هذه الغنائم الخيرية التي وعد الله المؤمنين بها آية لنا ، ونبأنا على الأعمال والعلوم . انظر كيف نام المسلمون ، وجهلوا هذه العلوم . انظر كيف كان العالم كالجاهل في تناسي هذه العلوم القرآنية . انظر كيف ملا الله الأرض بالعلم وأخلى منه أمة الاسلام الحاضرة لإقليا . انظر رعاك الله وقل لي غنائم خير يتجربنا الله بها ويقول انها آية لكم ، وهداية للشباب على الأعمال ، ثم يصم المسلمون آذانهم وينامون نوما عميقا ، حتى قل من بينهم من يحب المجموع ، وقل من يحب العلم لذات العلم ، فأما بعد هذا الزمان فسيكثر فيهم العاشقون للعلوم ، ويكثر المحبون لأمة الاسلام ، بل لجميع العالم الانساني الذي نحن جعلنا رحمة له ، بل رحمة لكل حي من الانسان وحيوان ، لأننا قأمون مقام نبينا المرسل رحمة للعالمين من الانسان والحيوان والجن الذين لم يتخلقوا بالأخلاق الحيدة فيقلدون الصالحين منا والعلماء فينا .

جهاد الفرد وجهاد الجيش

لعلك تقول : أي الآيات تراها اليوم في هذا الزمان إذا نحن أخلصنا في أعمالنا فيساعدنا الله كما ساعد المؤمنين بغنائم خبير ، إن ذلك كان ورسول الله ﷺ بينهم ورحمة الله تنزل عليهم ، وأخبر النبي بذلك ، وتم ما أخبر به ، وصدق الله وعده فعلا ، فأى غزوات الآن نكون فيها ؟ وأي منح نعطها ، وعلمايا نلقاها ؟

ولانبيّ بيننا اليوم . والكرامة للأنبياء ومن مع الأنبياء ، أما نحن فلنا أهلا لذلك .
أقول : إن هذه الآراء هي السبب الأكبر في موت المسلمين موتا أدبيا وحريا وماليا واقتصاديا وسياسيا
وهي الدلالة على الجهل بالله ، ونظامه ، ورجته ، وحكمته الشاملة ، وآياته الواصلة ، ومجابهة المدهنة .
إن الله دائم الجود ، واسع العطاء ، لم يخص العلماء ، ولا الأنبياء ، ولا الحكماء ، ولا الانسان ، بل عمم
العطاء حتى لأحقر ذرة من الحيوان المسماة ميكروبا ، فأعطاهما أشرف الأجسام ، وهي أجسام الانسان ،
تأكل فيه لحما طريا ، وتشرب شرابا أحر شهيا ، وترتع وتلعب وهي آمنة مطمئنة ، فإذا أعطى الله أجسام
أشرف مخلوقات وهو الانسان لأقلّ الحيوانات قدرا ، وقال لها كلي واشربي وقرّبي عينا في أشرف مخلوق
على الارض ، فما بالك بالانسان وهو أشرف حيوان على الارض ، فهل يذره الله يتخبط في الدنيا لا يفرق
بين من يريد نفع العموم ومن يريد شهوة نفسه . كلا والله . فلقد جرّ بنا ما تقول فرأينا العجب العجيب ا
ولتعلم أن جهاد الفرد في الحياة العلمية والعملية أشقّ من جهاد الجيش الكبير ، والمعارنة الإلهية تكون
على العمل الفردي أقوى من المعارنة التي تعطى للجيش الكبير الصادق ، وبرهانه أن تقول : إن الفرد منا
وهو يجتهد في العلم مخلصا فيه ، وفي منافع النوع الانساني إذا كان أهلا لذلك ، يلاق مشاق لا يلاقها الجيش
في غزواته ، أي انه إذا كانت الصعاب التي يلاقها الجيش توازي في صعوبتها ما يلاقه الفرد المجتهد مضاعفة بعدد
أفراده كان الجيش في مشقة لا تطاق ، فإذا رأيت الله عز وجل يساعد أصحاب النبي ﷺ ويعطيهم غنائم
خير ، لأنه يعلم أن هذا الجهاد سيعقبه نشر العلم ، وحفظ الأمن ، وأن ما يفعلونه مع الكفار أشبه بالسكنى في
جسم الانسانية ، وبعد هذا السكنى سيكون الشفاء التام . وعلّموا هذا كما من طريق النبوة ، فاعلم أن الفرد
الواحد المجاهد يقع في مشقات لا تعد لها إذا كان مجاهدا للجموع ، وتكون المعارنة له من الله على مقدار
ما يصيبه من المشقات ، فيكون العالم في علمه ، والمنظم للأمة الساعي في رقيها ، واقفين في مصاعب ومشاق
عظيمة ، ويكون عون الله لهم مضاعفا على مقدار مشاقهم ، إن شئت فقرأ قوله تعالى : « إلا تنصروه فقد
نصره الله إذ أخرجهم الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله
سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزير حكيم » .
وأنت تعلم أن نصره وهوفي الغار أعجب من نصره وهوفي بدر ، أو أحد ، أو حنين ، بقود جيشا عظيما ،
إذا عرفت ذلك فاعلم أن حالك أنت اليوم وأنت تعلم العلم ، أو تحرص على رقيّ أمتك الاسلامية لا تخرج عن
هذه الحال لأن الله معنا أينما كنا ، وما أرسل الأنبياء إلا ليكونوا قدوة لنا ونورا ، فإذا نصرنيبه وهو وحيد
ليس معه إلا أبو بكر ، جرب أنت كما اتفق لي ، لاسما أثناء هذا التفسير ، فقد رأيت العجائب في هذه
الحياة ، ووقعت في مشا كل مدطمة ، ولكن جاءت اللطائف الله أسرع من البرق ، فأوقفت الشرّيل أزالته ،
وتكثرت ذلك سرارا أثناء هذا التفسير ، سواء أكان ذلك في الامور الدنيوية أو المسائل العلمية . ومن عجب
أن بعض المسائل أكون في حاجة إليها ، والآية تتطلبها ، فلامضى دقائق حتى اعترى الطريق على ما يفهمني
المطلوب ، وأذ كرمرة أتى كنت سائرا في شارع خربت بالقاهرة بالقرب من مشهد السيدة زينب رضى الله عنها
وأنا أفكر في آية : « إن في خلق السموات والأرض » إلى آخره ، ووجدت أن الفلك في البحار لا بد من استيفاء
الكلام عليها ، فالذي يسيرها إما الهواء وأما البخار ، فخطر بيالي أن الكهرباء أيضا لا بد من أن يكون لها
في ذلك عمل ، ولكن لا يمكن أن أكتب ذلك إلا إذا اطلمت عليه ، فحدثني نفسي أن عادة الله لا بد أن تتم
معي ، واتي قريبا أجده فهمها ، فما سرت بضع دقائق حتى وصلت إلى ميدان السيدة زينب ، فوجدت رجلا
معه مجلة لا أذكر اسمها . فقلت أرنيها ؟ ففتحتها فرأيت في الصفحة التي وقعت تحت نظري في سطر من
أوسطها هذه المسألة بنصها ، بحيث أن نظري لم يقع إلا عليها ، ولم تفتح إلا هذه الصفحة أول ما تناولتها ،

فاشترتها منه وقلت الجلة التي في الجلة الخاصة بالكهرباء التي بها سير السفن ، فانظرها في سورة البقرة ، فانك تجدها في تفسير الآية ، وتجد الجلة منقولة بحرفها ، لأنني لست من علماء هذا الفن ، هذه مسألة واحدة وواقعة من وقائع كثيرة أثناء تأليف هذا الكتاب ، وانما نحن الذين نحرم أنفسنا منه فيشقي الجاهل به ، فاذا أعان الله رسوله وهو في الفار جاد في رقي أمته فليس معنى هذا أنه يتركك وأنت مقتف أثره . كلا والله ، بل لم ينزل هذا القرآن إلا لأجل هدايتك ، يمثل هذا تعرف النبوة وصدقها ، ويمثل هذا فليرتق المسلمون .

فليجد العلماء في تفهيم الناس هذه الحقائق ، فلعمري كيف يقول الله « ولتكون آية للمؤمنين وهدىكم سراطا مستقيما » . أليس ذلك ليكون نبراسا لنا فنعلم أن الله مؤيد للمعلمين في أعمالهم الجزئية ونفكر في تلك الاطلاعات السرية التي يحس بها الانسان في نفسه ، وتلك المساعدات الوقتية التي تحصل لنا عند جدتنا في المنافع العائمة ، وحينئذ لا يحصى لنا عن الثبات في أعمالنا والثابرة فننجز كما فاز الأولون ، ونحظى بما حظي به المتقدمون ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

تذكرة

في موازنة آيات الأحكام بآيات الأعمال الاخرى

فاذا سمعت السادة الحنفية ، والسادة الشافعية ، يدققون النظر ، ويحققون الفكر ، في آية : « حتى يبلغ الهدى محله » فيقول قوم ان الحرم هو الذي يذبح فيه الهدى ، ويقول قوم . كلا . فلينحصر المحصر حيث أخصر كما تقدم مع أن الخطب فيه سهل ، فإياك يمثل هذا المقام الذي يقول الله فيه : « ولتكون آية للمؤمنين وهدىكم سراطا مستقيما » . يجعل الله غنائم خيبر آية لنا ، وهداية لسبلنا ، وطريقا لوصولنا ، ولم يقل في الهدى شيئا من ذلك ، بل قال : « لن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم » . فانظر كيف أرجع الأمر في التباحث سواء أكانت في منى ، أم في الحديدية ، أم في غيرها لأمر واحد وهو التقوى ، وانما هذه وسائل لها ، فان بذل المال معناه التبري من المال لثلاث يعلق بالقلوب فيوقعها في شرك هذه الحياة الدنيا . فاذا كان علماءنا هكذا يدققون في الوسائل فما بالك بالمقاصد مثل ما نحن فيه . لقد كان أئمة الفقه كالك ، والشافعي ، وأبي حنيفة ، وأحمد بن حنبل ، وزيد رضي الله عنهم وأمثالهم يدققون في الأحوال النفسية عملا ، ولم يكن عندهم الزمن الكافي ليكتبوا هذا للناس ، فتركوه للأجيال المقبلة ، وكأنهم يقولون : هانحن أولاء دققنا في مقدمات الأعمال ، فعليكم النظر فيما لا يحتاج إلى بحث شديد كبحتنا وهي المقاصد ، ولينتم الآخرون ما تركه الأولون ، فاذا نحن أفهمنا كم دقيقات الامور فعلوا الناس أتم الامور التي هي أروضح كقوله تعالى : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور » وكقوله : « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » وكقوله « وان الله لمع المحسنين » وكقوله « إن الله مع الصابرين » وكقوله هنا « ولتكون آية للمؤمنين » .

إن الله يساعد المؤمن المجاهد في نفسه أكثر مما يساعد الجيوش في الجهاد ، ألم ترى قوله صلى الله عليه وسلم : « رجنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس » ، جهاد النفس جعل أشد من جهاد العدو فيكون العون فيه أعظم ، لأن الجندي في الجيش معه اخوانه ، وليس مع الفرد في نفسه إلا الله كما تقدم في آية الطر : « إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » .

دفع وهم

إياك أن يمر بمخاطرك أن هذا القول ونحوه مضاد أنه لن يصيبك هم في الحياة . كلا . إذا جاء هذا المخاطر فاعلم أنه خاطركاذب . يقول المسلم إذا خزيه أمر : كيف أقم في هذه الشدائد ؟ أنت مسلما ! « أليس الله بكاف عبده » ، أليس الله يساعدي ! لاسيا وأنا أجاهد في تهذيب نفسي ، ورتقي أمي ، وأنا أهل لذلك ، وأنا مخلص ، فمثل هذا يقال : إذا ظننت أنه لن يصيبك أذى ، فأنت واهم ، بل هذه الطبقة يكون همها أعظم ، وحملها أثقل ، وعملها أشق ، ويكون العون على قدر المشقة ، ولن يرتقي امرؤ قط إلا بما زاول من الأعمال ، وما قاسى من المشاق . وهذه الفكرة في الاسلام هي التي قدمت بالهم ، وأورثتهم الخول ، فيقول الرجل : ألسنا مسلمين ؟ فلماذا سلط الله الفرجة علينا ؟ أليس النبي شفيعالنا ؟ أليس الله مع الصابرين ؟ أليس الله ينصر من ينصره ؟ ونحن نتصر الله فلماذا لا ينصرنا ؟ وهذا كله كلام لم ينطبق على حقيقة الواقع الذي عليه المسلمون ؟ فلنجدل بالتي هي أحسن في نقطة الشفاعة ونقول : أيها المسلم : أليس النبي شفيعا ؟ فيقول بلى فيقول أليس العالم شفيعا ؟ يقول بلى ، تقول أليس الشهيد شفيعا ؟ يقول بلى ، تقول : النبي والعالم والشهيد إذا ظهروا في بلد أيككونون سبب كسلها ، أم يكونون سبب نشاطها ؟ فيقول بل سبب نشاطها للأعمال ، نقول لماذا ؟ فيقول لأن العلوم الدينية وعلوم العلماء وتقدم الشهيد نفسه لله كل ذلك يحدث في الناس استعدادا للعمل ، نقول فاذا رأينا الذين مع العالم ومع الشهيد ومع النبي قد كسوا فما شأنهم ؟ فليس له إلا أن يجيب : ليس طم حظ من السعادة ، بل هم أكثر عذابا ممن لم يكن عندهم عالم ولا نبي ولا شهيد لأنهم رأوا طريق الرشد فلم يتبعوه ، وعزفوا الحق ولم ينهجو .

قول : هذا المثل منطبق على بعض المسلمين ، يرون نبينا ﷺ وأصحابه يتجشمون المشاق في الحر والبرد ، ويلاقون الأعداء في الجبال ، ويقدمون رقابهم للقتل . كل ذلك والمسلمون نائمون ، هم يظنون أن الشفاعة معناها أن يكسل الانسان ويعطى الخبز مجانا ، فاذن الشفاعة لها معنى غير هذا ، فليعلموا كما رأوا في السلف الصالح ، واذن يلحقون بهم ، فأما كونهم يلحقون بهم وهم نائمون فهذا غير مقبول ولا مقبول ، إذ يصير هكذا : كل عالم في بلده يكون سببا لكسلها ، وكل نبي يكون سببا لكسل أمته ، فتكون الآية معكوسة ، والمقول مقلوبة ضائعة . ومعلوم أن الله لم يخلقنا إلا ليهذبنا ويرقينا ، والتهذيب والترقية أعمال لا كسل ، فاذا قال : « ولينصرن الله من ينصره » فليكن المسلم ناصرا للفضيلة ، مفكرا مطلقا ، حريصا على العلم ، وليكن المسلمون جادين مفكرين .

فرحم الله امرأ أهدى إلى الناس ما كتبناه في هذا التفسير ، وأعطاهم ما يقبلون منه . ورحم الله امرأ نشر هذه الأقوال بين المسلمين . ورحم الله المؤمن النافع للمسلمين . انتهت اللطيفة الثالثة .

اللطيفة الرابعة في قوله تعالى : سنة الله التي قد خلت من قبل

هذا المعنى يقوى المعنى الذي سبق في اللطيفة الثالثة ، وملخصه تقوية قلبك أن تكون مرقيا لنفسك عليا ، ولأمتك ماديا وأديبا ، والله يكون معك ، وأن هذه سنة قديمة في الأنبياء وأتباعهم العلماء ، والله ولي المؤمنين .

فصل في إيضاح الكلام على بيعة الرضوان

روى أن مكرز بن حفص لما أشرف على النبي ﷺ وحبه كأنتم قال ﷺ هذا مكرز وهو رجل فاجر فجعل يكلم النبي ﷺ فيينا هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو فقال ﷺ قد سهل لكم من أمركم ،

ولما قال ﷺ لعليّ - ارح رسول الله قال لا والله لا أمحوك أبدا قال فأرنيه فأراه إياه ففعله النبي صلى الله عليه وسلم بيده وكتب : بهذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله على ثلاثة أشياء : على أن من أتاه من المشركين ردّه إليهم ، ومن أتاهم من المسلمين لم يردّوه ، وعلى أن يدخلها من قابل ويقبض ثلاثة أيام ولا يدخلها بجلبان السلاح والسيوف والقوس ونحوه ، فقالوا يا رسول الله أتكتب هذا ؟ قال نعم ، انه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجا ومخرجا . انتهى القسم الثالث من السورة .

القسم الرابع من السورة

رأى عليه الصلاة والسلام في المنام وهو بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه يدخل المسجد الحرام هو وأصحابه آمنين ويحلقون رموسهم ، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا وحسبوا أنهم داخلوا مكة عامهم ذلك ، فلما انصرفوا ولم يدخلوا شقّ عليهم ذلك ، وقال المنافقون : أين رؤياه التي رأها ؟ فأنزله الله هذه الآية ودخلوا في العام المقبل . ومما روى أن عمر بن الخطاب . قال : أتيت النبي ﷺ فقلت ألمست نبي الله حقا ؟ قال بلى . قلت ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال بلى . قلت أليس قتلنا في الجنة وقتلهم في النار ؟ قال بلى . قلت فلم نعطى الدين في ديننا إذن . قال اني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري ، قلت أولست كنت محدثا أنا سنائي البيت فتطوف به ؟ قال بلى ، فأخبرتك انك تأتيه العام ؟ قلت لا . قال فانك آتية وتطوف به . قال فأنت يا أبا بكر ، قلت يا أبا بكر : أليس هذا نبي الله حقا ؟ قال بلى . قلت ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال بلى . قلت فلم نعطى الدين في ديننا . قال أيها الرجل : انه رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس يعصى ربه ، وهو ناصره ، فاستمسك بفرزه ، فوآته انه على الحق ، قلت : أليس كان محدثا انه سيأتي البيت ويطوف به ؟ قال بلى ، فأخبرك انه آتية العام . قلت لا . قال فانك تأتيه وتطوف به ، وهذا قوله تعالى (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق) أي صدقه فيما رأى وفي كونه وحصوله صدقا ملتبسا بالحق أي بالحكمة البالغة لأن فيه ابتلاء لتمييز المؤمن الخالص من المنافق ، والله (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله) حال كونكم (آمنين) علق بللمشبهة تعليما للعاد أن يلزموا الأدب فلا يحكموا على مستقبل لاعلم لهم به (محلقين رموسكم ومقصرين) أي محلقا بعضكم ومقصرا آخرون (لا تخافون) جملة حالية مؤكدة (فعمل ما لم تعلموا) من الحكمة في تأخير ذلك (لئلا يدخلن المسجد الحرام) أي من دون دخولكم المسجد أو فتح مكة (فتحا قريبا) هو فتح خيبر ، ليستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الموعود ، وقد تقدم شرح ذلك شرحا وافيا (هو الذي أرسل رسوله بالهدى) أي ملتبسا به (ودين الحق) أي ودين الاسلام (ليظهره على الدين كله) ليعليه على جنس الدين كله بفسخ الهيئات وإظهار فساد العقائد الزائفات وبسليط المسلمين على أهل الأديان في الأزمان الغابرة ، وبالقيام بأمر الكرة الأرضية والحفاظة على نظام الأمم ، والقيام بأمر الموازنة بينهم ، وتعليم الناصين في الأزمان المستقبلية إذ تصبح الأرض كلها كأسرة واحدة ، ويكون المسلمون هم الآخذون بيد الأمم ، وذلك في أيام عيسى التي هي رمز السلام العام في الأمم ، ويكون المسلمون يدهم مفتاح هذا السلام كما أشرنا إليه في السورة السابقة إذ يضمّن العرب بعضهم مع بعض وهم والترك وبقية الأمم الاسلامية المتاخمة للدار كما أوضحته في (سورة آل عمران) عند قوله تعالى « ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب » وذلك بأن يتعلم أبناء العرب في شمال أفريقيا والشام والعراق والحجاز العلوم الابتدائية والثانوية والهيالية ، وبذلك يعرفون قدراتهم ولقمتهم ودينهم وعوائدهم فيتحدون ولوطال الزمان ، ثم يتحدون مع الترك وغيرهم لجامعة الدين والجواز ، وانهم أمم شرقية ، ثم يأخذون بيد المسلمين في سائر الأقطار ، ثم

يملتون الفول انهم يريدون السلام العالم بين الأمم بعد أن يكون جيشهم أقوى الجيوش ، وكلتهم أعلى الكلام ،
 ثم هناك هناك يقال انهم « خير أمة أخرجت للناس » . وهناك هناك يقال « لظهره على الدين كله » وهناك
 هناك يقال : إن المسلمين رحمة للعالمين تحقيقاً لقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

فياك أن يقول لك فيه ابن الجهاد ؟ فلتنجبه بما في السورة السابقة عند الكلام على آية : « حتى تضع
 الحرب أوزارها » وقل له : فليكن جيش المسلمين أقوى الجيوش وهم الآن في وسط الكرة الأرضية ، واذن
 يحفظون الموازنة ، ولا يكون في الأرض إلا مسلم أو مسلم ، فالأمم كلها تسالمهم وربما أصبحت الأرض كلها
 حكومات متحدة والمسلمون يكونون هم القاعين بأمر هذا الاتحاد وهذا زمانه ، وليس يكون نزول المسيح
 إلا بعد هذه المقدمات ، فلأنه نزل بغير ذلك لم يمكن تغيير طباع الناس في عد الأصابع من السنين ، فنزول
 المسيح إنما يكون لأمم قد أشرفت أنوارها ، وحسنت طباعها ، ويدوم ذلك النظام آلافا وآلافا من السنين ،
 ويقال لأهل الأرض إذن انهم على منهج المسيح ، والقائم بأمرهم أمة الاسلام ، وهأنذا قد بينت هذا في
 سور كثيرة . ولما كان هذا وعدا لا بد من تحققه عقبه بقوله (وكنت بالله شهيدا) على أن ما وعده كائن ،
 وعلى أنه رسول الله ﷺ ثم أخذ يبين ذلك فقال (محمد رسول الله والذين معه) أي أصحابه المؤمنون ،
 والمطوف والمطوف عليه مبتدأ خبرهما (أشداء على الكفار رحما بينهم) أي يظفون على من خاف دينهم
 ويتراجعون فيما بينهم كقولهم : « أدلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين » ، (تراهم ركعا سجدا) لأنهم
 مشتاقون بالصلاة في أكثر أوقاتهم (يبتغون فضلا من الله ورضوانا) الثواب والرضا (سيأهم في وجوههم
 من أثر السجود) أي السمة التي تحدث في جباههم من كثرة السجود ، يقال سامه إذا عمله ، وكما أن
 المتأقنين يعرفون بسيماهم كما جاء في السورة السابقة : « فلترفضهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول » هكذا
 هنا ، فلا شقيا علامات تظهر في وجوههم وسحتهم وهيئاتهم . كما أرفعه العلامة ابن خلدون في مقدمته ،
 هكذا النضلاء ، ولكن العقول التي تفهم ذلك نادرة أو قليلة . واعلم أن كل ما يفعله الانسان أو يتصوره يؤثر
 في ظاهر جسمه أثرا ، ولكن الفطن تنفارت في تعرف ذلك تفاوتا كثيرا ، وسيماهم التي في وجوههم هي السمات
 الحسن والخشوع والتواضع والسجدة (ذلك) أي المذكور (مثلهم) صفتهم (في التوراة) وعليه وقف
 (ومثلهم في الانجيل) مبتدأ خبره (كزرع أخرج شطأه) فراخه ، يقال أشطأ الزرع إذا أفرخ (فآزره)
 فأعانه وشد أزره وقوّاه ، ومنه قوية أنى بكر للنبي ﷺ فهو أول من آمن به وخرج معه على أعداء الله
 (فاستظف) فتقوى ، هكذا تقوى رسول الله ﷺ بمثل عثمان مثلا على الغزو والجهاد ونحوه (فاستوى
 على سوقه) جمع ساق : أي على أصوله ، ومثاله اظهار أمر النبي ﷺ في قريش بنحو على بن أبي طالب
 وعمر (يجب الزرع) بكنافته وقوته . يقال : « مكتوب في الانجيل انه سيخرج قوم يثبتون نبات الزرع ،
 يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » ، ومعنى يجب الزرع هنا : أي جميع المؤمنين ، ولقد نماهم الله
 وأكثرهم واستورا وغلبوا (ليغيظهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما)
 وقوله « منهم » بيان للذين آمنوا . واعلم أن مثل التوراة الذي تضمن الرحمة على الأولياء والشدة على
 الأعداء يستلزم كثرة العدد والرفق لأن المتراجين متحابون فيعظم شأنهم ، فاذا اتحدوا لاجتماعهم على العبادات
 من ركوع وسجود واتصافهم بأوصاف الرحمة والشدة في مواضعها فذلك يدعو إلى رقيهم تدريجا كلزرج ،
 وكان هذه المعاني التي تضمنها التران متلاحقة متسلسلة ، فكأن التوراة لما كان أقدم من الانجيل وأسا له
 ذكر فيه مبدأ مابه القوة والكمال ، وكان الانجيل لما كان بعد التوراة ذكر فيه ما يترتب على ذلك الأسس
 وهو النماء والقوة والعزة وظهور القدرات . ولما كان التوراة كتاب أحكام وشرائع نسب إليه المثل التي هو
 من جنس شرائع كالسجود والركوع والاعمال الخلقية في مواضعها ، ولما كان الانجيل كتاب ارتقاء

للمواطن ، وبث الفضائل ، واستخراج القوى الكائنة في النفوس ناسب أن يذكر في مثله الزرع ونماؤه .
وبروي في حديث وصف المؤمنين مامعناه : « ان أناجيلهم قلوبهم »
هذه أوصاف الأمة الاسلامية ، فانظر لها الآن وتأمل في تحاذيها وجهلها القاضح ، حتى أصبحت مثلا
مضروبا للخمول والجهالة الحمقاء ، وسبيل الخلل ، وبمحسن المآل ، وبمخضر الزرع ، ولما كان هذا المثل
المضروب بالزرع في هذه السورة يحدث في نفوسنا بأسا من ارتقاء المسلمين ، لانه يقال : هانحن أولاء اليوم
أبناء أمة الاسلام وهذا المثل ينطبق على آياتنا الأولين ، أما نحن فانا أصبحنا زرعاً هشياً تذروه الريح فكيف
يجتمع عصفه وتبته ، وقد مضى زمانه ، وذهب ابانه ، ويستدل القائل بما هو حاصل اليوم ونقروه في الجرائد
من التخاذل والتباذ والتباعد بين المسلمين ، حتى أصبحوا عند الفرنجة كالخدم والعييد ، ألم تر إلى ما جاء في
الجرائد أثناء تأليف هذا التفسير يوم الثلاثاء ٢٣ يونيو سنة ١٩٢٥ م أي قبل كتابة هذه الأسطر بيوم
واحد مانصه :

« باريس في ٢٢ يونيو — تلقت جريدة الطان تلعرا من مراسلها في مدينة فاس قال فيه ان مولاي
يوسف سلطان المغرب الأقصى أعرب للرشال ليوتي عن رغبته في إصدار منشور ينكر فيه أعمال عبد الكريم
الماسة بالوحدة الدينية ويقول ان عبد الكريم لا يملك الصفات اللازمة لحكم المسلمين ، وبالنظر إلى تحرش
الأمير عبد الكريم الذي أعلن انه يريد الاحتفال بعيد الأنصبي في فاس قرّر مولاي يوسف ردا على ذلك أن
يبقى في فاس ليحتفل بالعيد احتفالا عظيما » اه

هذا هو التلغراف المرسل المذاع عن مولاي يوسف ، فانظر أيها الذكي كيف أصبح المسلمون ألعوبة في
أيدي الفرنجة ، وانظر هذه الخزيات ، الأمير عبد الكريم قام لتحرير بلاد مراکش وطرد الفرنجة منها ،
والفرنجة يصطادون أناسا يجعلونهم ملوكا ثم يأمرهم فيذيبون أوامر لأوثك الذين يناوئون الفرنجة ، هذا
المثل الذي يتصف به بعض المسلمين اليوم وان كان فريق عظيم منهم قد استيقظ كالترك والفرس والأفغان
هذا هو المثل السوء الذي يمثل المسلمون اليوم ، لاسيما اخواننا أبناء العرب ، وذلك للجهالة العمياء ،
والنوم والعمى ، فاذا تبدي لك هذا فاعلم ان الله قد علم ذلك قبل أن يخلقك ، وقال : « ولانكونوا كالذين
أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » اعلموا ان الله يحيي الأرض
بعد موتها » فتعقب آية قسوة القلب والفسق باحياء الأرض بعد موتها إشارة إلى ما هو مقرر في سنة الله
أن الشيء متى وصل إلى نهايته انقلب إلى ضده ، فالأمة الاسلامية اليوم وصلت إلى ما زاء ، وبعد هذا الموت
الحياة ، فاذا كان المسلمون صاروا اليوم هشياً تذروه الريح فانه يقول : « اعلموا ان الله يحيي الارض بعد
موتها » فلئن مات بعض المسلمين اليوم فان الحياة بعد الموت ، وسيظهرهم الله على الأمم ويدرسون علومها
ويقومون بأمر ربهم ، هذا هو الذي سيكون ، والله هو الأول والآخر والى الله ترجع الامور .

اللطائف العامة للسورة كلها

اعلم أيها الأخ الذكي أن هذه اللطائف لم ترد بمخاطري إلا عند الطبع ، واللطائف المتقدمة إنما كانت أيام
التأليف منذ بضع سنين ، وهالك بيانها :

- (١) في قوله تعالى : إنا فتحنا لك فتحا مبينا .
- (٢) في قوله تعالى : هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم .
- (٣) في قوله تعالى : والله جنود السموات والأرض وكان الله عليها حكيمًا .
- (٤) في قوله تعالى : هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق الآية .

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً

هذا ما فتح الله به على يوم الثلاثاء ١٤ يوليو سنة ١٩٣١ م : -

(١) اعلم أن الأرض ثلاثة أقسام : أرض سبخة ، وأرض حجرية ، وأرض طيبة صالحة للزراعة .
فالأولى يقع عليها المطر فلا تحفظ الماء ولا تنبت ما ينفع الناس ، والثانية تحفظ الماء لغيرها ولكن لا ينفع به ،
والثالثة ينبت فيها النبات وينفع به الناس . فهذه الثلاثة انتفعت بالماء ونفعت الناس بثمارها ، فكان منها
الحقول والنبات والأشجار والأثمار والأزهار والجمال .

الله أكبر : إن عقول أهل الأرض مقسمة أقساماً تصارع هذه الثلاثة (وترى أصول هذا الموضوع في
حديث البخارى : إنما مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم الخ) إذن من شرط النفوس المنتفعة بالعلم النافعة
لغيرها أن لاتشبه الأرض الحجرية ، ولا الأرض السبخة . واعلم أن جميع الذنوب والآثام التي تقترفها النفوس
الانسانية ان يتم لها ذلك إلا اذا كانت فيها هي أنفسها جرائم الفساد وأصول سوء الأخلاق ، فكما أن
الأرض التي ليست سبخة وليست حجرية ، بل هي أرض طيبة ينبت فيها الشجر والكلأ ويتم نفعها ،
لأنه ليس هناك من مانع يمنع ظهور تلك الأشجار والنباتات فيها ، هكذا النفوس الانسانية النيرة المضيفة التي
لم تدنس أصل فطرتها بنقص تقبل العلم ، فهي أشبه بشمس والعلوم فيها كنوزها ، وما الاستعداد للذنوب
إلا النقص التي تفسد عليها النفوس في مبدأ أمرها .

(٢) إن هذه الأرض الطيبة التي ظهرت فيها الحقائق والحقول يأتي إليها الناس من كل حدب يلتفتوا
بجرها ، ويوالون الخدمة فيها .

(٣) ثم يأخذون ثمراتها ويطوفون بها في البر والبحر ليلبيح بعد أن يكونوا قد انتفعوا بما يست
حاجتهم منها .

(٤) ولا جرم أن هذه الأرض تختص بأقبال الناس عليها والانصراف عن الأرض الحجرية والأرض
السبخة إذ لا ثمرة فيهما .

إذا فهمت هذا فانظر في آيتنا التي نحن بصددنا واعلم أن الفتوح في حقيقته إنما هو فروع العلم وكشف
الحقائق ، فهذا هو الفتح الحقيقي ، فان الأرض ومن عليها والسموات والأرضون كلها فانية ، وكل ما على
الأرض لا قيمة له بالنسبة للعلم لأن العلم باق والعوالم فانية ، فالنفوس الشريفة لن تفرح قط إلا بالكشف
الحقائق والوقوف على الأسرار ، أما ما عدا ذلك فآتما هي ظواهر ، والظواهر بجزئها بها الجهال .

ولا جرم أن الفتح العلمي وانكشاف الحقائق للنبي صلى الله عليه وسلم له أصل واحد وذلك نتائج ،
أما الأصل الذي لا بد منه فهو صفاء النفس وخلوصها من الجرائم الموجبة للذنوب ، إن صفاء النفوس وخلوصها
من تلك الجرائم المؤهلة للذنوب هو الأهم الأتم والأولى بالعناية الإلهية من التجاني عن اقرار الذنوب ،
فما مثل النفوس في الذنوب إلا كتل الأجسام في الأمراض ، وأن خير الأطباء من يأمرون المرضى بالمحافظة
على الصحة حتى لا يقعوا في الأمراض ، فهؤلاء هم الاطباء الحقيقيون .

ولقد تقسم هذا في (سورة الشعراء) وفي (سورة فاطر) وفي (سورة الحجر) وفي (سورة
الأعراف) فقد بينت هناك الطريقة المثلى التي بها يكون الجسم صحيحاً لا يعنوره مرض إلا قليلاً ، فأما أكثر
الاطباء في هذه الأرض فانهم في شغل بمعالجة الأمراض ، وليس من عملهم أن يقولوا للأصحاء احترسوا من
الأمراض بالابتعاد عما يضركم ، فهذا ليس من أعمالهم إلا قليلاً ، إن خير الطب ما كان راجعاً إلى أصل
الغية لحفظ صحتها حتى لا يعنورها المرض ، وأكثر الأطباء يعالجون ظواهر الأمراض ، ولا يصلون إلى أصل

الجرائم والاحوال التي كانت سبب المرض ، هكذا النفوس الانسانية لها ذنوب باستعداد لها . وغير ما تعالج به هذه النفوس أن تصفى من أصل فطرتها من جرائم الذنوب ، لا أنها تعالج ذنبا ذنبا ، وكلما وقع ذنب يفر لها كما يفعل أكثر اطباء في أرضنا ، إذ يعالجون كل ذنب على حدته ويدرون وراءهم أصل الجسم فلا يعلون عنه شيئا .

ولا جرم أن الله عز وجل لا يعامل نبيه في اصلاح نفسه معاملة أكثر اطباء في أرضنا ، بل يعامله معاملة الطبيب الحقيقي الذي يخلص الجسم من جرائم الامراض ، فها هنا تجلى لنا وظهور ظهور الشمس في رابعة النهار ، إن غفران الذنوب ليس معناه انها تقع ثم تمحى ، فهذا ليس كإلما الكمال أن نفسه صلى الله عليه وسلم خلقت كما خلقت الكواكب والنجوم مشرقة لا أنها كالطين يعثر بها الظلام ، وهذا الصفاء يجعلها قابلة لانكشاف الحقائق ، فاذا سمعنا الله عز وجل يقول : « ليفغرك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » عرفنا أن هذا معناه استئصال الذنوب بأصل النظرة كالجوهرة في صدفها لا يعثر بها قذى .

هذا هو الذي فتح الله به على في معنى : « ليفغرك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » ، فليخص المعنى اما كشفنا لك الحقائق كسفا مينا لتصف بأربعة أمور : -

(١) أمر مبدئي وهو صفاء نفسك وجها لباحث لا تستعد لذنب متقدم ولا ذنب متأخر ، وكيف تستعد له وهي كالجوهرة ، أو كالشمس لا يقبلان الظلام .

(٢) وثلاثة أمور تكون نتائج (الأول منها) أن تتم النعمة عليك في الدنيا والآخرة ، وذلك بأن تسلمون نفسك مرضية في الدنيا والآخرة ، وتلقى الله وتراه ، وتقر عينك باسعاد من اتبعك في الدنيا والآخرة (الثاني منها) أن ينتشر نور نبوتك في الأرض في أيامك وبعد مفارقة الأرض ، وهذه النعمة مغايرة للأولى ، فالأولى راجعة لرضا نفسه وبهجتها ولقاء ربها ، وابتهاجها في الدنيا والآخرة ، وهذه الثانية راجعة لاسعاد الأمم وهدايتهم لأقوم طريق مستمدين من هدايته ﷺ فهذه راجعة للعمل وما قبلها راجعة لبهجة النفس (الثالث) علو هذا الدين على غيره وظهور حقايقه لمن درسه بحيث تطمئن له القلوب ، وهذا هو النصر العزيز .

واعلم أن فتح مكة ، أو صلح الحديبية ، أو فتوح بلاد الاسلام بعده ﷺ أو غيره كل ذلك آثار للفتح العلمي والكشف الإلهي ، فكشف العلوم له صلى الله عليه وسلم أشبه بنهر ولهذا النهر آثار كثيرة ، هكذا آثار انكشاف الحقائق له صلى الله عليه وسلم ، فها فتح مكة لأنها من نتائج التعاليم ، والتعاليم الدينية أثر من آثار انكشاف الحقائق له ، وهكذا صلح الحديبية وهكذا فتح بلاد الاسلام شرقا وغربا ، كل ذلك فروع لأصل واحد ، والأصل الواحد هو انكشاف الحقائق له صلى الله عليه وسلم الذي هو النعمة الكبرى والكثير الفاضل ، وعين الحقيقة ، وما سوى ذلك نتائج له ، وهذا الرأي الذي اطلعت على مبادئه من كلام الشيخ الدباغ أصل جميع الأقوال كلها .

آثار الفتح النبوي في زماننا هذا

هل لك أن أحدثك أيها الأخ بما جاشت به النفس اليوم بما اطلعت عليه مما فتح الله به على أمتنا الاسلامية فتحا مينا ، وذلك الفتح من آثار الفتح النبوي .

اعلم أن أم الاسلام أيام النبوة وبعدها بقليل فتحت البلاد شرقا وغربا ، وملاّت الدنيا نورا وعلما ، ثم أخذت تصحج وتنزوي . ذلك أنها أولا كان أمرهم شوري بينهم ، ولكن لما اتبعوا أهواءهم . وجعلوا الله بحسب الورثة لا يقتضى الاستعداد نامت الأمم الاسلامية مئات من السنين نوما عميقا فعلا لهم وزجرا

لما جاء جيلنا الحاضر وعرف الحقائق ، وأخذ يتأدب بما أذبه الله ، رجح عما فعله الآباء من الغرور والجهالة والظلم شيئا فشيئا ، وأخذ الاسلام يظهر قليلا قليلا حتى أفرت أم الفرنجة بذلك ، فهل لك أن تسمع ما قاله الاستاذ (لوثرود استودارد) الامريكى مؤلف كتاب « حاضر العالم الاسلامى » فقد جاء فى الجزء الثانى منه تحت العنوان الآتى مانصه :

سيطرة الغرب على الشرق

سيطرة الغرب على الشرق هي القوة الهائلة الشاغلة مكانا خطيرا فى تطور الشرق فى هذا العصر ، وبسبب هذه السيطرة ما برحت لواقع المؤثرات الغربية تفت وتنتشر ، لابل تندفق على كل بلاد ، وتطمو على كل رقعة ، حتى غدا التغرب^(١) من أكبر عوامل التبدل والانقلاب فى العالم الاسلامى ، حتى وفى الشعوب الاسيوية والافريقية غير المسلمة ، رسيبسط الكلام فى موضع قريب من هذا الكتاب على مبلغ ما كان للسيطرة الاوروبية من التأثير الشديد فى تطور مختلف الشعوب الهندية غير المسلمة ، ولكن الاحتراز ، الاحتراز أن يؤخذ من هذا أن السيطرة الاوروبية هي السبب والعامل فى جميع هذه الاستحالات والانقلابات الحديثة فى العالم الاسلامى ، فقد سبق لنا الكلام مبسوطا ، مينا فيه كيف ان عناصر المزاج الاسلامى ما انفكت طيلة القرن الأخير بفعل بعضها ببعض انفعالا شديدا ، فيدمر منها ما يدمر ، ويستجد فيها ما يستجد ، وتلاشى قوى وتتولد أخرى ، وذلك جميعه على ماقيم من الوزن لما هو متدفق من العوامل الغربية الطارئة من خارج ، إنما هو بعد ذاته مجدّد قائم فى الباطن ، فعليه بالغ كل البلوغ من طبائع ذلك المزاج وعناصره مما لا مندوحة لسته النشوء والتجدد عنه ، وعلى ذلك فما هو واقع مشهود فى العالم الاسلامى اليوم من التبدل والتحول والتطور يجب أن لا يعتبر مجرد محاكاة للغرب وتشبه به حسب ، بل إنما ذلك هو نتيجة تفاعل العناصر نفاعلامكو تاشى جديد ، وهو الأخذ عن الغرب أخذا مفرغا فى بوتقة شرقية وفى قالب اسلامى ، ويجب فوق ذلك أن لا يغيب عن الأذهان أن الشعوب الآسيوية التى يتألف منها سواد المسلمين ليست كما يقول بعضهم شعوبا متدلية منحطة كزنج افريقية والجزائر الاسترالية ، بل انها لذات حضارة بدية حية منذ القرون الخوالى ، حضارة هي نتاج اسلامى صرف ، متكوّن من صنع المسلمين ونمات جهودهم ، ومعنى ما أخذنا نعتبر ماقد استطاعته هذه الشعوب الاسلامية من تنديد المعالى وفروع ذروات المجد فيما مضى أمنا الحطل بقولنا الآن اننا نستين خلال هذا الغلبان الهائل فى العالم الاسلامى تجردا حقيقيا صحيحا راتعا ، ولا غرابة فى ذلك ان عاد الاسلام يستعيد من عزه الغابر وعلاه السالف ، وهذا تاريخه المجيد شاهده له على ما كان عليه المسلمون قبالا من الحضارة والعمران .

إن سيطرة الغرب الحديثة على الشرق لامثيل لها فى التاريخ من حيث العظامة والخطورة والمدى والمجال فما كان لليونان ورومية من قبل من السيطرة المحدودة النطاق على بعض من العالم لا يعدد بالاضافة إلى سيطرة الغرب اليوم شيئا مذكورا ، والغريب فى حديث هذه السيطرة الغربية أنها بنت خسة عقود من السنين لا أكثر ، بدأ سيلها يتدفق على الشرق منذ نحو منتصف القرن التاسع عشر ، ومنذ ذلك الحين لم تزل

(١) مرادنا بالتغرب التخلق بأخلاق الفرنجة ، والتشبه بهم ، وأخذ أخذهم ، فى طراز المعيشة وأساليب الحياة ، ويشمل ذلك المحسوس ، كاستعمال صنوف الأدوات والمستحدثات ، والمعنى كاقباس الافكار والآراء الاجتماعية والسياسية ، والتغرب خير كلمة عربية رأيناها لتعريب اللفظة الانكليزية المذكورة

— (المغرب)

وسائلها وأسبابها تنتشر وتمّ ، ذلك كالطرق والمساكن الحديدية والبرد والبرق والكتب والمصحف والمجلات ، وكشروع جديد الآراء والأفكار المتوالية الازدياد في كل مصر شرقي ، وباتت السفن التجارية تمخر عباب بحور الشرق ، وترسو في كل ثغر من ثغوره ، وطفقت التجارة تمتد ناشرة وفر البضاعات والأرزاق الغربية في كل بقعة من بقع الشرق ، فنلا ذلك تغير الحال تغيرا سريعا ، فالأمم والشعوب التي ظلت حتى منتصف القرن الحالى تحيا حياة الثلاثين قرنا التي كرت من قبل ، غدت اليوم تقرأ المصحف ، وترك القطار الكهر بائي في مغداها ومرامها ، وانسخت العادات والأفكار والتقاليد الشرقية القديمة انفسا كما يكون تاما ، وتبدلت صور الحياة وأساليبها تبديلا كبيرا ، وسنفضل الكلام في الفصول التالية على ماهية سيطرة الغرب على العالم الاسلامي من جميع وجوهها ، جاعلين الكلام في هذا الفصل تمهيدا لما سيحي .

إلى أن قال : « ظلت روح العداة للغرب طيلة القرن الماضي تشتد في مكان ومكان على تفاوت ، ولما كانت عوامل التعصب وردّ الفعل كاتنة على الدوام ، فما برح الكره للغرب شائعا عميما . بيد أنه (على توالي الأيام) صار موقف بعض الطبقات من الأمم الشرقية يتبدل ويتغير على مقتضى الزمان والمكان ، وقد كان الأحرار المسلمون في بادئ الأمر يتقبلون المؤثرات الغربية أحسن قبول ، وقد أسلفنا الكلام في الفصل الأول من هذا الكتاب : كيف اعترز المسلمون الأحرار اتخاذ القواعد التي جرى عليها الغرب في تقسيمه وارتقائه ، وجعلها أساسا للقيام بما أنشؤوه من الإصلاح الاسلامي باعتبار جهته : الدينية ، والمدنية . فقد جهد ساسة تركية الأحرار الذين كانوا يدبرون شؤون المملكة في الربع الأخير من القرن الماضي جهدا كبيرا للقيام بالإصلاح في السلطنة العثمانية ، وجهد أحرار غيرهم مثل جهدهم في الأقطار الاسلامية الأخرى في سبيل الغاية صيها ، وغير مثال لنا على هذا هو ما بذله القائد خير الدين باشا في سبيل اصلاح تونس ، والى القاري الكريم لباب الخبر : إن هذا القائد المقدم ، الحركسي الأصل قد استطاع أن يكسب ثقة مولاه الباي ، ويتمكن عنده تمكنا كبيرا ، فاستوزره وسلم إليه مقاليد الامور ، وفي سنة ١٨٦٠ قام خير الدين باشا بسياحة إلى أوروبا ، فطاف في ممالكها ، وشاهد مورعمراتها وحضارتها ، وعاد شديد التأثر من بواهر الغرب ومجانبه وإذا اقتنع بتفوق أوروبا وسيادتها شاء من صميم قلبه أن ينقل إلى تونس من الغرب الخطط والمناهج والأساليب والآراء مستعينا بها لانهاض البلاد واسعادها ، واعتقد أن هذا العمل سهل القيام به قياما يتلوه تجدد تونس في عهد قريب ، ولم يكن خير الدين بغيضا للغرب ، غير أنه قد أيقن كل الايقان بالخطر المقبل النازل الذي سيحيق بالعالم الاسلامي ، خطر السيطرة والاستعمار متدققين من الغرب اذا توافت الممالك الاسلامية في الإصلاح الصحيح ، فراح خير الدين يبتغي شديد الابتغاء ، وملء صدره الوطنية الصادقة ، وكله عزم أكيد أن يسوق أهل بلاده ، وبنى قومه في طريق التجدد والارتقاء ، ليبلغوا من ذلك مستوى تستطيع عنده تونس أن تحمي كيانها ، وتقوم بالزيادة عن حياض حريتها واستقلالها ، واقتنع الباي كل الاقتناع بأراء خير الدين وخطط مشروعاته ، ففوض إليه تنظيم شؤون البلاد ، وأطلق يده لاتعلوها يد في القيام بضروب الإصلاح ، فظلل خير الدين حقبة من الزمن يجهد ما استطاع في هذا السبيل ، منذ لا جيع مالم يقه من المقاومة من قبل الموظفين الرجعيين ، غير أن ميته عاجلته باكرا ، فانتقل إلى جوار ربه ، تاركا مشروعاته الكبرى دون الانجاز ، فلم يمض على وفاته أكثر من عشرين سنة حتى جاءت فرنسا فبسطت سيطرتها على تونس ، وكانت خدمة خير الدين لبلاده على كل حال عظيمة جليلة ، منها أنه ألف كتابا قويا موسوما « بأقرب المسالك في معرفة أحوال الأمم والممالك » (١) استنهض فيه همم أبناء بلاده ، واستفز همم إلى التجدد والارتقاء ،

(١) يوجد شيء من النص في تاريخ المرحوم خير الدين باشا التونسي الذي كان من أوائل المصلحين

وحذرهم من سوء عقبي التواني ، فكان لكتابه هذا أعظم تأثير في نفوس الاحرار ورجال الاحزاب الوطنية في الشرق الأدنى عامة ، وافريقية الشمالية خاصة ، حيث كاد الكتاب يقدس عند أهل تونس والجزائر ، إذ كان باعثا قويا على استيقاظ العصبية الجفسية ، ففيه استصرخ خير الدين بيني قومه لتحطيم الأغلال القديمة ، وبسط لهم ضرورة الافلاج عن الافتخار الفارغ بمجد الماضي ، افتخارا بالفاحد القعود بهم عن استئناف طلب العلا طريقا ، ودعاهم للوقوف على ماضي العالم الغربي من وسائل التقدم وذرائع العمران . ومما أكدته في كتابه هذا أن ارتقاء أوروبا وحضارتها في هذا العصر ليسا نازلين عليها عفوا بلانصب ، ولاهما منحة جادت بها الطبيعة لأسباب دينية ، بل هما ثمرة التقدم في الفنون والعلوم ، واكتناه أسرارها اكتناها توفرت معه وسائل التراء باستخراج كنوز الارض ، واحياء الصناعة والزراعة والتجارة . وجميع هذا إنما هو نتيجة استقرار أمرين وسيادتهما في آفاق الممالك الغربية لاثبات طما : العدل والحربة . وقد كان العالم الاسلامي في الاجيال الماضية عالم التقدم والفلاح والعمران ، لأنه كان في بحبوحة من الحربة ، سالكا سبل الترقى والنجاح ، ثم أدلت شموسه فأخذ يتخبط في الدجانات . وما زال هكذا حتى أخذ الآن يستعيد من روحه التي كانت فيه من قبل ، روح الحربة والعمل والارتقاء .

ثم قال : « وقد اشتكت روح العسداء للغرب واشتعلت نارها أيما اشتعال منذ أول القرن الحالي . قل أحد عظماء المسلمين قبيل الحرب العامة في هذا الصدد : « إن هذه الدواهي التي دهتنا ، والنوازل التي نزلت بالعالم الاسلامي خلال العشر السنوات الأخيرة ، قد جذدت في أعماق جميع المسلمين عواطف التآخي والتواثق الاسلامي ، من حيث أشعلت صدورنا مقنا وكرها وعداء للغة المعتدين علينا » .

إلى أن قال : « بقيت الحقيقة الثابتة ، يجب أن تقال : إن سيطرة الغرب السياسية على الشرق وإن طال أمدها ما طال ، وتبدلت صورها وأشكالها ما تبدلت هي قائمة على أساس متداعى الاركان ، متضع الجوانب سريع التقيؤ والتزلزل ، وبما دام المتسلطون الغربيون في الشرق فهم فيه أجانب غرباء ، قد يلقون من الشعوب الشرقية شيئا من الاحتمال والاحترام الأخذين بالتناقص ، ولكنهم لن يلقوا شيئا من الود والمحبة والاخلاص ، ولا غرابة في الأمر ما ظلت منزلتهم أبدا . منزلة الدخيل الغريب ، المفقوت المكروه ، زد على هذا يجب بالضرورة أن يأخذ الحكم الغربي والسيطرة الغربية يتناقضان ويتقلضان ظلا ، ويخفان وطأة بازدياد تنتم الشعوب الشرقية واتساع نطاقها في الارتقاء . ولا يعزبن عن البال أن الذي كان عند أهل جيل سالف داعية للرضا والارتياح قد غدا عند أهل الجيل التالي سببا للتجهم والتقمه والاضطراب فينتفون تبدله والانتقال إلى ما هو خير منه وأفضل ، هذا هو من أسباب الانقلاب السريع في الشرق .

الاسلاميين في القرن الماضي ، وكتابه « أقوم المسالك » هو من خيرة ما أنف لسكس قيود الجود الضار القاتل ، وحطم سلاسل التقليد الأعمى المنهى عنه في الشرع ، وايقاظ المسلمين إلى أنهم ان لم يبادروا إلى التسليح بالعلوم والصناعات العصرية دهمهم خطر السقوط العاجل ، بغايت دعوة خير الدين متأخرة ، إذ كان تكال أوروبا شديدا ، وضربها وحيا ، وسبات الاسلام لا يزال عميقا ، فتم جميع ماتسكن به خير الدين ، ولما استولت فرنسا على تونس رحل خير الدين إلى الاستانة ، وولاه السلطان عبد الحميد الصداقة العظمى ، منتدبا إياه لاصلاح المملكة إلا أنه لم يعمل برأيه ، فاتته الامر باقالته ، وبقي في الاستانة إلى أن توفي وذلك في نحو سنة ١٨٩٠ وخلف طاهر بك ، وهو من الأدباء الافاضل ، وصالح باشا الدلماد الذي شقته الاتحاديون بتهمة انه دبر مؤامرة لقتل الرحوم محمود شوكت باشا ، وتشفع به السلطان ساكن الجنان محمد الخامس لديهم ، لكونه زوج ابنة أخيه أي مهر الأسرة المالكة ، فلم تتم شفاعته ، ولخير الدين باشا أيضا ولد اسمه محمد بك ، وهو وأخوه طاهر الآن

(شكيب أرسلان)

بتونس ١٩

« على أن السيطرة السياسية الأوروبية على الشرقين قد شرعت تهى ، وأخذت أوصالها تتفكك ، و بناؤها يتداعى ، وضعفها الكامن فيها يبدو مزدادا ، وفسادها يظهر . جميع ذلك منذ الحرب الروسية اليابانية ، فقد كان لتلك الحرب في نفوس المشاركة قاطبة من التأثير المعنوي الشديد ما لا يستطاع وصفه ، ولا يعلم حده ، وقد ظلّ الشرق حتى ذلك اليوم لا حول له ولا قوة حيال أوروبا المعتدية عليه ، وكان كثير من الشرقيين حتى عهد تلك الحرب يقولون بأن لامناص لبني أوطانهم من الخضوع لسيطرة الغرب المسلحة خضوعا مشموما ، غير أنه لما دمرت دولة أسيوية دولة أوروبية من الطراز الأول ، وخضدت شوكتها ، ودقت عنقها دقا ، كان لذلك دوى هائل ووقع عظيم في كل جانب من جوانب المشرق ، ورقعة من رقاعها ، فادت آسيا وأفر بقيا من أقصاها إلى أقصاها طربا ، وجرت في عروقها نشوة الظفر وحيا النصر ، وعدوا الانتصار الياباني الهجينة العظمى ، والآية الكبرى : وصف مبشرا سكتلندي ما كان لهذا النصر المين من شديد التأثير في نفوس سكان الهند الشمالية حيث كان مقامه فقال : « قد اهتزّت الهند الشمالية فرحا وانبهاجا ، وترنحت ترنح التمل الجذلان ، وبات القرويون فضلا عن أهل المدن والحواضر يرددون أحاديث النصر الياباني في حلقات مجالسهم ومجتمعاتهم و يرتلون ترنيلا ، طوافين الليل كله حول المعابد وأهيا كل ، وقد قل لي أحد شيوخهم في تلك الغصون : « لم تتاق الهند نبأ طاب له نفسها مثل هذا النبأ الياباني منذ الثورة الهندية ، وأخبرني قنصل عثمانى أقام طويلا في آسيا الغربية أن الأهالي في داخل البلاد تركوا جميع أعمالهم ، وجعلوا لا يهتمون بأمر سوى ارتقاب الأنباء اليابانية وتلقبها والتهليل واقامة محافل الأفراح لها ، أبجل : مادات آسيا من أقصاها إلى أقصاها ، واهلقت هجعة القرون استيقاظا ، فاستيقظت الحياة ثانية في الشرق تواقفة لمغامرة الأهوال في سبيل بقائها ، وهبت آسيا هبة أخرى لتسطر لها في التاريخ ذكرا جديدا ونبا حديثا . »

وهما لا يحتاج إلى برهان أن الحرب الروسية اليابانية لم تكن الخالفة المبدعة لهذه الروح الجديدة في الشرق ، الروح الممتدة أصولها إلى أبعد الأزمنة الخالية ، والمصاحبة لجميع الأدوار والعصور حتى اليوم ، بل ان الحرب هذه إنما كانت وسيلة عارضة لاعلة في نية آسيا وأفريقيا نية الاعتزاز ، فراحا منذ سنة ١٩٠٤ تجدان جد الوائق بنفسه ، الساعى في مطلب أمر لا يلبى على شيء دونه ، وبسبب هذه الحرب طفت الأفكار التي كانت تمخض في أدمغة الملايين من أهل الشرق تمخضا لم يشعر به من قبل تمام الشعور ، تخرج من عالم القوة إلى عالم الفعل ، فدلّ جميع ذلك دلالة واضحة لا يسع مكابرا انكارها على اختار الأسباب والعوامل ، وتمهؤ العلل لا يثناق قوى جديدة في الشرق ، هي حركات التجدد الكبير والاقبال العظيم .

أضف إلى ما تقدم أن هذا الشعور والاستيقاظ قد أثرا تأثيرا عميقا في قضية الشرق وتطورها إزاء سلسلة حملات الاعتداء الأوروبي التي استؤفت منذ ذلك الحين استئفا شديدا ، ومن الغريب العجيب أنه بعيد أن ظفر الشرق الأقصى في رد عادية الاعتداء الأوروبي عليه ذلك الظفر الكبير ، لسرعان ما أخذت حملات الاعتداء الأوروبي تنوالى على الشرقين الأدنى والأوسط تمزقهما بمخالب الوحشية والبربرية شرمة ممزق ، وقد وصفنا فيما تقدم من الكلام تلك الزارة الهائلة التي زارها العالم الاسلامى متناسك الوحدة المعنوية ، مترابط العروة الأدبية الفريدة المثال ، عند ما أنشأت السياسة الأوروبية الحديثة تنقلب غاية في الجشع والنهم فلذلك جدير بنا الآن أن نعلم علما صحيحا مبلغ ما كان لظفر اليابان من عظيم التأثير في هذه الحالة الحديثة الظهور الهجينة في جميع الأقطار الشرقية ، من المعلوم أن الشأن الخطير الذى مثله الساسة الغربيون الفصلا أصحاب مذهب الفتح والتوسع الاستعماري بين سنة ١٩٠٤ و ١٩١٤ م إنما كان في دور عصب . قال أرمينوس قامباري بعد غزوة ايطالية لطرابلس الغرب قولاً سديدا : « كلما اتسع نطاق قوة منسطة الغرب

في العالم القديم (الشرق) ازدادت رابطة الوحدة وثيقة، وعودة التضامن والمصالح المتبادلة إحكاما بين الأمم والشعوب الآسيوية على اختلافها، ورسخت روح التعصب على أوروبا والبغضاء لها، وتوغلت عوامل ذلك في قرارات صدور المشاركة أيما توغل، أمن العدل والحصافة في شيء، ياترى أن نرى نار العداة تزداد تأريتا وإقادا بسبب هذه الحلاة، العدوانية المحضة التي ما أنزل الله بها من سلطان، وأن نستجمل العالمين الشرقي والغربي للاشتباك في فضال هائل، ومعمعان رائع، وأن ننفث سما زعافا في برعم الحضارة الآسيوية الجديدة، هذا البرعم الذي أخذ يتفتح عن أكامه في أقطار المشرق كافة ؟ .

وقال في صفحة ٥١ وما بعدها مانصه : « وقد سبق لنا في مواضع تقدمت فأبنا كيف ظهر العرب يشتعلان بنار الاسلام فأنشأوا خلافة منيعة الجوانب قائمة في عهدتها الأول على أساس الشورية والشريعة الدينية، وأدخنا أيضا كيف طرأ الاستبداد على الدول، ثم أخذ ينتشر حتى طبق غالب العالم الاسلامي، وكيف انقلبت الخلافة الشرعية الشورية ملكا عضوا، وسلطنة استبدادية مطلقة، وكيف أخذ العرب (عشاق الحرية والاستقلال) يهودون أدراجهم إلى الصحراء غضايا متجهمين، وكيف تلاشت الحرية السياسية والدينية، وعفت آثارها، غير أنه على كل هذا بقي معظم ذكريات خلافة الراشدين والمعتزلة الحرة، حية في زوايا الأدمغة، وألواح الذاكرة، مستعدة استعدادا طبيعيا غريبا للظهور ثانيا. بسبب ذلك ظلت بلاد العرب حوض حرية يزود عنه كل عربي ذباذ قروح الأبطال بالسلاح والأرواح والسماء، وهناك في شبه الجزيرة لم يبرح العرب عربا والاسلام اسلاما، فمن ترى يستطيع أن يتعاضى عن القول الذي قاله صاحب الرسالة : « إنما المؤمنون أخوة » و « المسلمون أحرار » وعمما هو مدون في صحف التاريخ الاسلامي في غرر أبناء صدر الاسلام الحبيب المعروف « بزمن السعادة ». أولم يظلم المسلمون الأحرار، التازعون زعمة الاستقلال، حتى في أشد الليالي حلسكا، برددون عاليا خطبة الخليفة الأول أبي بكر رضى الله عنه التي خطبها في العرب بعد مبايعته بالخلافة : « قد وليت عليكم، ولست بخبركم، فإذا استقمتم فأعينوني، وإذا زغت فقوموني ». فالاسلام في عهده الأول إنما كان شمس الحرية مشرقة وهاجة، ودينا تجلت فيه المنازع الحرة الشريفة، وليس ما طرأ على العالم الاسلامي فيما بعد من الوهن والتدلي بحاجب عن المنصف جوهر الاسلام وحقيقة صفائه، فالشريعة الاسلامية كما قال العلامة ليسبار : « إنما هي ديموقراطية شوروية، جوهرها وأصلها، وعدو شديد للاستبداد ». وقد أجل قامباري هذه الحقيقة في شأن الاسلام بقوله : « ليس الاسلام ولا تعاليمه السبب المفضي بآسيا الغربية إلى هذه الحالة المشهودة من التضعف واختلال الشؤون، ولكن السبب كل السبب في ذلك إنما هو استبداد أمراء المسلمين وحكامهم الذين التوا عن الصراط المستقيم والسبيل السوي، وتسكبوا عن طريق صاحب الرسالة وخلفائه الراشدين، فأخذوا في انتحال التأويل القرآنية انحصالا منطبقا على أغراضهم الاستبدادية، وتشددوا في الدين تشددا باطلا برى منه الاسلام (١)، وناصبوا المذاهب الشورية

(١) من أكبر المسئولين عن انحطاط الاسلام أمام الله والناس هم هذه الطبقة التي يقال لها العلماء، فانهم إلا التادرنهم اتخذوا الدين مصيدة للدنيا، وجعلوا دينهم التزلف إلى الأمراء بنسويغ جميع موقباتهم بالأدلة الشرعية والافتاء عليها من الدين، وقلما أتى أحد الملوك أو الأمراء المسبقدين عملا منكرا إلا أتوا له من الآيات والأحاديث بما يثبتون له به مشروعية ذلك العمل بصرف الآيات الكريمة عن معناها، وتحريف الكلم عن مواضعه، ورواية الضفاف والموضوعات إلى غير ذلك من الاستشهادات التي يتوخون بها الزلف والجارزة، وما زالوا يتجادون في غيهم هذا (والمسلمون غاضون النظر عن لعبهم هذا) حتى صاروا يتقربون بهذه الاشياء نفسها إلى الحكومات غير المسلمة في المسائل التي فيها حزاب الاسلام وهلاكه، فكلما سقطت ملكة اسلامية في يد دولة أجنبية، أو نهضت أمة اسلامية لمفع دزلة عادية عليها من الأجانب، وجدت الدولة

والاصول الحرة العداة ، ففضوا على جميع ذلك قضاء ، فغالوا دون بزوغ فجر النهضة الاسلامية (١) .
 وقد اُبنأ في الفصل الأول من هذا الكتاب كيف ظهر الاستبداد الشرقي ، ثم أخذ يتعالم حتى بلغ منتهاه
 في اثة ن التاسع عشر ، و بسطنا الكلام على أن اليقظة الاسلامية لم يكن أمرها مقصورا على الاصلاح الديني
 فحسب ، بل تناولت الاصلاح السياسي أيضا ورامت تخليص العالم الاسلامي بأسره من استبداد أمرائه وملوكه
 وسلطينه المسفة الظلمة ، وتقول الآن : انه بينما كان الاصلاح السياسي الحر سائرا مسيره على اتساع في
 الحركة والانتشار . فإذا بقرار سياسي جديد قد هب عليه من جوار أوروبا ، فاعترض سبيله وقام في وجهه ،
 وكان أهل الفكر والرأى من المسلمين وقد أيقنوا بحال تضعع الشرق الاسلامي وتشتت أمره حبال تقدم
 أوروبا وشدة حوطها وبأسها ، طفقوا يسعون وراء الاصلاح ، متذرعين بأنهم يريدون الوصول اليه ، وإذا
 راموا صدق المسعى ، وابتغوا التجدد الحقيقي فلم يغرب عن باهم أن بلوى الشرق الاسلامي إنما غالبها مستقر
 في حكوماته المنحطة التابعة الواهنة العظم ، وشارك الأمراء الحكام أهل الفكر وطلاب الاصلاح في هذا ،
 وكلهم أجمعوا على وجوب انتهاج المناهج والأساليب السياسية الغربية ، واكتناه أساليبها ، والوقوف على
 جميع أسرارها ، هذا اذا كان مرادهم حقا انتشال الممالك الاسلامية من وهدة انحطاطها ، وتنجيتها من شر
 المهالك ، ثم سوقها في سبيل التقدم والارتقاء ، وقد كان السلطان العثماني محمود الثاني في تركيا ومحمد علي في
 مصر خير مثالين ظهرا بالطرز الجديد من سلاطين الشرق وأمرائه ، وكلاهما كان حكمه في أوائل القرن
 التاسع عشر .

غير أنه ليس منهما من أراد أن يمنح رعيته الحرية الدستورية ، أو أن يربأ بنفسه عن امتطاه الحكم
 المطلق فيخرج عنسه إلى الحكم المقيد ، بل عول كل منهما على أن يظل الحاكم المطلق بحيث يكون فيه
 وسطا بين حالة المسبدين العاديين الاوروبيين ، والمسبدين الشرقيين ، وكان قصد هذين الحاكمين الكبيرين
 طامبي التقدم والنهوض ، تنظيم الحكومة في الجيش والخدمة المدنية والقضاء وغير ذلك ، تنظيها صحيحا خاليا
 من المفسدة والعيب : كما يتسنى للحكومة هذه أن تسير (بنفسها وفعل نظامها) سيرا مطردا كسائر الحكومات
 الغربية ، لا أن تظل كناية عن طوائف من الموظفين والعمال لا يعرفون شيئا من رقابة النظام ، ولا يقومون
 بواجب الاخشية العقاب .

وثابر محمود الثاني ، ومحمد علي ، ومن عاونهما على ذلك من الأمراء على انتهاج منحج هذه السياسة

الاجنبية من هؤلاء العلماء أسرع الخادمين لأغراضها ، المفتين من الكتاب والسنة بزعمهم على مقتضى أهوائها ،
 وحسبك أن عددا عديدا من علماء سورية أفتوا أثناء الحرب العاتية بيني الشريف حسين أمير مكة تقربا
 إلى جمال باشا قائد سورية يومئذ ، فلما فازت دول الحلفاء في الحرب ، واحتلوا سورية ، بايعت هذه الفئة
 نفسها الشريف حسين الذي كان عندها من قبل باغيا خارجا على الخليفة ، ثم لما دخل الفرنسيون الشام
 فضت أيديها ثانية من صاحب الحجاز ، وجعلت تفتي بحسب هوى فرنسا ، وعدت الملك حسين أجنبيا .
 أكثر هؤلاء العلماء برز منهم هذا التلون ، وكلما عاتبهم الانسان على هذا التذبذب أجابوه : « إنما هذه
 تقية نبتت بها النجاة من الظلام » ، والصحيح أن عندهم غير مقبول ، وأن عملهم هذا مخالف للشرع ،
 مناف للكتاب والسنة ، وأن دعواهم مداراة الظلام هي باطلة ، بل هم باعة ضائرا ، ورواد سفاسف ، وطلاب
 وظائف . هذا يريد أن يكون قاضيا ، وذاك مفتيا ، وذلك رئيس علماء ، ومنهم من يقبض أجرة امضائه نقدا
 دراهم معدودة ، ولا تعلم إلى متى يصبر أهل سورية عن تأديب هؤلاء الجهلاء المعتمدين ، وينظرون إلى العزائم
 لا إلى العمام اه

(شكيب أرسلان)

(١) سنة ١٩٠٦

الرشيدة الحديثة ، غير انه على الجملة كانت ثمرات هذا الاصلاح الذي بدى بعاليه وظهره قبل اساسه وباطنه غير مرضية ولا داعية للارتياح ، ولاجرم فانه قد كان في استطاعة السلطان أو الأمير ابتداء القلاع ، وانشاء الدوائر والمخطط الحكومية على الطراز الأوربي ، وحشدتها بالجند ورجال الوظائف والأحكام المترين بأزياء غربية ، غير انه لم يكن بالمستطاع الاتيان بنديجة مثل تلك التي تأتي بها الحكومات الغربية ، لأن معظم هؤلاء الموظفين المتظاهرين بصفة أبناء الغرب يكادون في الواقع لا يعلمون شيئا من أسرار تقدم الغرب وازدهاره ، وأسباب حضارته وعمرانه ، فلذلك كانوا محزنة عن القيام بالأعمال على الطريقة الغربية الصحيحة لأنه ليس فيهم الكثير الكافي من روح الاقدام والمضي في العمل ، ولاهم يقبلون من أنفسهم على اتباع نظم وأساليب عملية لم يفقهوها ، ولا ألفوها ، بل كانوا يحملون نفوسهم على مؤالفة الأعمال الاملاحية عن فتور وترائح ، وغير ما كانوا يعرفونه ويقومون به هو الطاعة العمياء لأمر مولاهم وسلطانهم ، هكذا كانت الحالة في بدء الأمر . بيد انه على توالي الأيام أخذت القوى العسكرية تنتظم معنى ومادة على تدرج مستمر حتى غدت بعد مدة من الزمان على جانب من الكفاية والجدارة الحديتين ، وأما الخدمة المدنية فكان نصيبها من الاصلاح الحديث قليلا ، فظل أمرها مقصورا على اكتساب المظاهر الغربية من خارج لانها لم تتل كثيرا من أسرار المعاصرة والحداثة التي هي شرط لازم في حال كل حكومة منظمة راقية .

أضف إلى هذا أنه في غضون ذلك طفق المسلحون الجدد الذين يختلفون مذهبا وطرازا عن سبق ذكرهم يقومون أحزابا مؤلفة ، وغايتهم إنما هي اقتباس جميع المبتكرات السياسية الغربية كالنظم الدستورية وحكم الشورى ومجالس النواب وغير ذلك مما بانت تتطلبه الحياة السياسية الحديثة بطبيعة الحال ، وكان عدد هؤلاء يزداد ازديادا متواليا من التهذبة الأحرار المشبعين أفكارا وآراء غربية ، اقتبسوا بعضها بمطالعة الكتب والنشرات والصحف والمجلات المرابدة الانتشار ، وبعضها الآخر تلقوه بأسباب التعلم والتهديب في المعاهد العلمية المنشأة على الطراز الغربي ، وما كاد يكون الربع الأخير من القرن التاسع عشر حتى نشأت الأحزاب السياسية في تركيا نشوءا محسوسا ، وفي سنة ١٨٧٦ هبت الأحزاب الحرة هذه ورفضت صوتها عاليا ، وأكرهت السلطان الضعيف على منح الدستور . انتهى ما أردته من كتاب « حاضر العالم الاسلامي » هذا أيها الذكر ما قر في صدرى في تفسير قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » وهذه صورة ملخص هذا المقام : —

(أولاً) ويتمّ قبضه عليك ، وهي رضى الله عنهم ورضوا عنه
(ثانياً) الهداية العلمية النبوية التي استمدت منها الأمة إلى هذا الزمان ، وهي قوله ويهديك صراطا مستقيما
(ثالثاً) النصر وحق هذا الدين بالحق على سائر الأديان ، وهو : « وينصرك الله نصرا عزيزا »

انكشاف الحقائق ويتفرع عليه

اشراق النفس وهو

أس انكشاف الحقائق

« ليغفر لك الله ما تقدم من

ذنوبك وما تأخر »

ينتج منها

بهجة هذا المقال

مسامرة النجوم ، في عجائب العلوم

استيقظت قبيل الفجر ليلة الثلاثاء العاشرة من شهر نوفمبر سنة ١٩٣١ م - الموافقة سنة ١٣٥٠ هـ وقد قدمت « سورة الفتح » للطبع ، وأنا مفكر في مجائبها ، دهش من بدائعها ، إذ صنعت لى ساعة ، من نظرات النجوم ، في حاكم الليل البهيم ، فأشرقت نفسى لإشراقها ، وأخذ الخاطر يبدو بعد الخاطر ، ونما الفكر حتى صار قويا ، ويستمر يتمو حتى تحيلت أمامى بشرا سويا ، جسمه من النور ، وأنا إذ ذاك بين اليقظة والنوم ، إذ صرت في عالم الخيال ، بعيدا عن الحس ، مصروفا عن عالم الأجسام ، فأخذ يحاورنى وهو يقول : لقد لمحتك تنظر الكواكب الآن ، وأنت تفسر القرآن ، فحضرت لمعوتك ، ومثلت لأفادتك . لقد فسرت الفتح بالكشف العلمى ، وجعلت ذلك أشبه بشجرة ذات أغصان ، جذورها المغفرة والبراءة من الذنوب ، وصفاء النفوس ، وساقها انكشاف الحقائق ، وفروعها الاستقامة بالأخلاق ، والنصر المبين والرضوان أولا أحدثك الساعة في هذا المقام حديثا ، تكميلا لمقالك ، وتعليليا للقراء : إن هذا المثل الذى ضربته وهى الشجرة ينقصه بيان أهم ، وتعليم أهم . فقلت في نفسى متعجبا : من أين أقبل هذا الخيال ؟ ولعل خواطرنا اذا تمت وعظمت تجسمت أمامنا ، والا فهذه الخواطر لا تخرج عن تفكيرى ، ولا تحود عن تفكيرى . فما كاد الخاطر يتردد في نفسى حتى أخذ يقول : إني أنبت إليك من الثريا في السماء ، لأنك في أكثر الليالى تنظر إلى النجوم ، وتجب من محاسنها ، فصار ذلك من أسباب اقترانى منك ، واسعادى لك ، وحديثى معك ، إن انكشاف الحقائق الذى ذكرته وما ترتب عليه من الفروع المذكورة يعوزه من العلم نوعان : أولا تطبق آراء الأمم الحاضرة عليه ، لى يكون تفسير القرآن في زمانكم ملائما لعلوم أمتكم حتى تقبل على علومهم الموافقة للإسلام نفوس الأمم الاسلامية ، وحتى يكون من المميزات والآيات البينات في زمانكم ، وكما قال علماءكم « ان القرآن لا تنفى مجائبه ، ولا تنقض غرائبه ، وتبدوله في كل زمان حكم طريقة ، وبدائع حديثة . لتزداد مجيباته ، ويزداد أنس العلماء به » - (ثانيا) تطبيق أحوال الأمم الاسلامية الماضية بعد العصر الأول ، وكيف حصل اختلاطها ، وازداد اختباطها ، وأقبل هرمها ، وأدبر شبابها ، وحلك ليالها ، لما عمت عن اكتناه السر المكنون ، وانبع طريقة الرسوم .

فقلت : أيها السيد الجليل الجليل : إن في قولك لنورا ، وفي حديثك لنبا ، فأفدنى رحك الله عما وصف ، وأخبرنى عما أفدت . فقبل : أما تطبيق آراء الأمم حولكم فأنا أقله لك مترجما بالحرف مما كتبه الغربيون في التعاليم لتلاميذهم ، إذ يصطفون من العلم زبده ، ويجمعون تلك الخلاصات في كتب المصلحة . وهما هي ذه قطعة لخص فيها القوم مقاصد التعليم في جميع الأمم ، وفي كل زمان ومكان ، والكتاب الآن بين يديك وهو من الكتب التى يدرسها التلاميذ في المدارس الثانوية ، فهناك قطعة من الكتاب منقولة من كتاب (مان ذى ماستر بيس) تأليف الاستاذ (كلوج) وهذه القطعة من مخزانات الترجمة ، فهأنا ذا أترجمها لك

مقاصد التعليم

« إن مقاصد التعليم لا تعدو أن تكون معدة المرء أن يستخرج جميع مواهبه في الحياة : يجب أن يكون تعليم الانسان الذى يزاول الأعمال الجسمية معدا له أن يكون كفتا لها جديرا باستثمار ما هو بسدده من الأعمال الانسانية ومرافق الحياة خبر استثمار . إن نظام التعليم يقوم على ثلاث دعائم وهى : دعابة العقل ،

ودعامة الأدب ، ودعامة الجسم . وكل نظام تعليمي خلا من أحد هذه الدعائم الثلاث فإنه لا يحتمل مضمحل لابقائه ، ولا نفع فيه لنوع الانسان (مثال ذلك) : إذا علمنا الصبي صناعة كالتجارة ، أو علما كالمهندسة ولكننا لم نمنم فيه قوة حب الخير العام ، فيحب الصدق ، والاخلاص ، وطهارة الضمير ، والصلاح ، والعدل وصدق القول ، وحب المنفعة للناس ، ومعاشرتهم بالحسنى ، فإنا إذ ذاك نكون قد أعطينا سلاحا ماضيا به يصبح ماهرا في إحداث الشغب ، ويكون خطرا على المجتمع الذي تربي فيه ، وهكذا إذا برع في العلوم ، وتهذبت نفسه وملكها ، وصار من البررة الأخيار ، فإن كان في العلم فهو من أعظم الحكماء ، وإن كان في الأخلاق فهو على سنن الأنبياء والصديقين والسهداء والصالحين ، ولكننا أغفلنا تربية جسمه ، ولم نقو عضلاته ، ولم نحسن تعذيبه بما يناسبه ، ولم نحمله بما يكون ضرا عليه ، فإن هذا يعوزه قوة طبيعية ، وأخرى حيوية ، ليتوصل بهما إلى منافع الحياة والمنع بها ، ويعوزه جسم حديدي هو بلامرء في أشد الحاجة إليه ليخطربه ويجهده في معترك الحياة ، انتهى

ثم قال : فهل لك أن أحدثك عن تطبيقها على الآية . فقلت : إني إلى ذلك وامق . فقال : أنت حينما كتبت الجدول الذي رسمته في ملخص الآية وجدت أنه هو نفسه هذه المقالة ، لذلك حضرت إليك ، فالتقوة العلمية من التنوير ثلاث يشار إليها بانكشاف الحقائق في الآية ، والتقوة البدنية يشار إليها بالنصر على الأعداء : « وينصرك الله نصرا عزيزا » ، إذ لا يكون إلا بقوة البدن (في الغزوات) ، والتقوة الأدبية الأخلاقية يشار إليها بقوله : « ويهديك صراطا مستقيما » . إذن خلاصة تعليم الأمم المحيطة بكم اليوم هي نفس هذه الآية ، فقوة الجسم ، وقوة العلم ، وقوة الأدب ، هي المعول عليها في زمانكم .

ثم ضرب مثلا ، فقال : إن الأمم الإسلامية أشبه بجسم واحد رأسه في زمن النبوة ، ورجلاه في الأزمان المتأخرة ، فهذا الجسم الإسلامي قد أعطى القوة الجسمية بدليل غزواتهم ، وأعطى القوة الأدبية بدليل نظام محاسنهم ، وأعطى القوة العلمية وهي الدين والعلوم فعاثوا إلى حين . ثم أخذ هذا الجسم يضعف شيئا فشيئا ، وأخلاقه تنحط ، وعلمه ينقص . وههنا أن أذكر :

تطبيق الآية الثاني على الأمم الإسلامية

إن هذا الجسم الإسلامي أخذ يرجع الفهقرى شيئا فشيئا ، فانظر كيف يقول ابن خلدون في مقدمته ما خلاصته : « إن هنا أمرا أصليا وله فروع ، أما الأصل فهو الدين ، فإذا رأيت أمة أو أسرة تحب أهل الصلاح والتقوى والدين ، وتفرم بذلك ، فإن هذه الخصلة يتبعها فروعها ، وهي الأخلاق الفاضلة من العطف والشفقة ومساعدة البهزة الضعاف ، والفقراء ، والعدل . ويتبع ذلك سياسة الأمم ، وحفظ الدولة ، ونظام البلاد ، وهذا قانون لا ناقض له ، فإذا رأيت قبيلة أخذ يرجع الفهقرى في سياسته ، فابحث في أخلاقه ، فإنك تجد العطف والشفقة والرحمة والعدل قد أقل نجمها ، ثم ارجع وراء ذلك تجد العقيدة الدينية أخذت في الانحلال ، وأصبح القوم ينظرون إلى الدين نظرهم إلى أمور غير محبوبة ، فلا يحبون الصالحين ، ولا هم لهم يعظون . إذا علمت هذا فانظر كيف يقول : « إن المسلمين لما قدر أن فتحين بالدين ، واستمسكوا به ، بقي ملككم ، فلما خلعوا ربقته ، نقلص ملككم ، وذهبت ريحهم ، وأصبحوا حميدا خامدين » ، فالكلام على الدين ، ومع العلم طبعا هو الفترة العلمية ، والكلام على رحمة الضعفاء والعدل إلى آخر ما تقدم هو القوة الأدبية ، فأما القوة الجسمية فإن لها شأنا آخر ، وهو كلام النبوة ، وذكرته أنت في (سورة النمل) عند الكلام على آية : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة » مع آية : « فلك بيوتهم شاوية بما ظلموا » إلى آخره .

فهناك أولا حديث : « إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زينة الدنيا » الخ وذكر هناك أن بقية الحديث في (سورة الأنفال) إذ صرح عليه السلام بأن الغنائم وفتوح البلدان وإن كان خيرا للنفوس الصالحة فإنه يكون شرا للنفوس الفاسقة الجاهلة ، فإن نفس الغنائم تكون سببا للترف والنعيم ، ثم يعقبه القائل (ثانيا) قال عليه السلام : « كيف بكم إذا غدا أحدكم في حلة وراح في أخرى ، ووضع بين يديه الصفحة ورفعت الأخرى ، وسترتم بيوتكم كما نستر السكينة ، قالوا يا رسول الله : نحن يومئذ خير منا اليوم نسكني المؤونة وتفرغ للعبادة ، فقال بل أتم خير منكم يومئذ » اهـ

إذن الترف والنعيم الحاصلان من فتوح البلدان يضعفان الأبدان ، والأبدان هي الدعامة الثالثة . إذن الدعائم الثلاث للتعليم في كلام علماء أروبا نظير الدعائم الثلاث في آية الفتح ، وصدق تطبيقها فعلا على الأمم الاسلامية ، فهم أولا كانوا أقوياء علما وأدبا وجسما ، فدام ملكهم ، فلما وقفوا في الترف ضعفت الأجسام وذهبت الآداب ، وقل الدين ، فذهب الملك .

إذن ظهور هذه المعاني اليوم مجزة القرآن في هذا الزمان ، وقبل أن أختتم حديثي معك أيها الجوهري أقول لك : إن قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » الخ نضرب له مثلا بقول القائل : « يا بلان : إن الله أهلك الصلاة لتنظف بدنك ، وتناجى ربك ، ولينشرح صدرك » ، فالوضوء من شروط الصلاة يتقدمها ، والآخرة في نفس الصلاة وبعدها ، هكذا هنا المفترضة أي عدم وقوع الذنب متقدما على الفتح كالوضوء ، والبقية مصاحبة أو متأخرة عن الفتح كسألة الصلاة للمقدمة ، فإن المناجاة فيها ، وانسراح الصدر فيها وبعدها ، ثم إن الاستقامة ، والنصر ، وانكشاف الحقائق المقابلات لأعمدة العلم الثلاثة في كلام الأمم المعاصرة لكم تكون نتيجة السعادة في الدنيا والآخرة ، وهو المعبر عنه في الآية بقوله : « وليتم نعمته عليكم » وهي الرضوان ، والرضا هو تمام السعادة اهـ

فما كاد يتم حديثه حتى أفتت من غشبي ، واستيقظت من سني ، وفتحت عيني إذا نور الفجر مشرق والمؤذن يقول : « سحى على الصلاة ، سحى على الفلاح » ، فكنت ماوعيت ، وقلت : الحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الثلاثاء ١٠ نوفمبر ١٩٣١ م .

تذكرة

ثم بعد ما كتبت ما تقدم ، واسترحت قليلا ، أجلت فيه النظر ، وأخذت أقرأ النقلة الانجليزية ، وإذا بالترجمة هي عنها ، غاية الأمر أنها أوضحت من الأصل الانجليزي بضرب بعض الأمثال ، ثم أخذت أفكر في الأعمدة الثلاثة المتقدمة ، وبالفكرى في مباني الاسلام المحس ، فإذ وجدت ؟ وجدت أن الصلاة أقوال وأفعال مفتحة بالتكبير مختمة بالقلم ، ووجدت أن هذه الأفعال وما ماثلها من السبق والرى ، المشروعين في الاسلام ، المقويين للأبدان وعضلاتها ، متروكات منذ قرون ، لجهل الأمم الجسمية (التي قامت بدين الاسلام بعد العرب) بمقاصد هذا الدين ، حتى إذا أيام دراستنا بالأزهر كنا نقرأ « السبق والرى » ولا نعمل بهما اتباعا لأسلافنا ، وجهلا بدينتنا ، وجدت الحج والسيام كلاهما من مقويات الأبدان كالصلاة ، فالجح فيه كثير من الحركات ، والسيام فيه تصفية الجسم من انغوثات ، أقرأ هذا للقيام في أول (سورة العنكبوت) نجد ما للسيام الطهي من الفوائد ، وهو الذي شرع ما يقرب منه دين الاسلام ، وقد قال رئيس أبطاننا بمصر في خطبته السنوية في الثقافة العلمية في هذه السنة : « إن الحيوانات لها أيام تصوم فيها إذا مرضت » والناس غفلوا عن ذلك ، انظر ذلك في الكتاب السنوي الثاني الذي أصدره المجمع المصري للثقافة العلمية سنة ١٩٣١ م أي هذه السنة .

المسلمون يصلون ، ويصومون ، ويحججون ، ولكن اذا عرفوا فوائد تلك الحركات لم يحصل تهاون فيها ولم يتركها من أهل العلم في بلادنا تاركين للسلاة جهلا بما تصادها ، وغفلة عن حقاقتها .

فهذه مجامع التربية الجسمية في ديننا ، وهي إحدى الدعائم . يقول علماء التربية حديثا : « ليس الدار في حركات الجسم على رفع الأثقال ، بل المدار على مقدار الحركات ، ويجب تحريك كل عضو حركات كافية ليحصل المقصود » ولقد جعلوا خبير الرياضات رياضة المشي ، لأنها تحرك جميع الأعضاء ، ولما طبقتها بعض علماء التربية المسلمين على حركات السلاة دهشوا وقلوا : قيام ، فرفع يدين عند الاحرام ، فركوع مع رفع اليدين ، فرفع الرأس مع تحريك اليدين ، فسجود ، فجلوس ، فسجود آخر ، فقيام ، ثم جلوس للشهد ، ثم تعاد الحركات فتكرر .

هذا أعظم نموذج للتمرينات الجسمية ، هذا ما سمعته من علماء التربية في زماننا ، ولكني ليس أمامي نص الكتاب ، ومتى وقع في يدي الكتاب بهذا النص أثبتة إن طالت الحياة .

مسامرتان : المسامرة الأولى

حدثني تاجر يبيع الخشب بالرج ، كنا نشتره منه لسواني مزرعنا بتلك الجهة . قال : لقد جاءني سيدة ألمانية لبعض الأعمال التجارية ، فرأيتي أنوضأ وأصلي ، فسألني ما هذا ؟ فقلت صلاتنا ، وشرحت لها ذلك شرحا كافيا في الصلوات الخمس ، فأظهرت الدهش وقالت : إذن أتم لامرضون . فلما قصت علي القصص . قال : وما السر في قولها ؟ قلت : هذه سيدة متعلمة في بلادها ، وهم يدرسون علم التربية البدنية والحركات المصلحة للأجسام ، فهي متشعبة بذلك ، وبأن غسل الأعضاء في أكثر أوقات النهار ضرورية لازالة ماعلق بالجسم من الفترات المؤذيات الموجبات للأمراض . فلما رأيت ذلك أدهشها اننا قوم جهلاء ، تفعل هذا ونحن عنه غافلون ، وبهذا لا تقربنا الأمراض . انتهت المسامرة الأولى .

المسامرة الثانية

كنت جالسا في بلدة المرج أيضا عند الضابط الذي هناك ، وكان هناك بعض أعيان البلاد ، وقد دار الحديث بينهم على امرأة ألمانية أيضا ، لأن لها بعض المشاكل القضاية التي أوجبت معرفتهم بها . هناك حديثها : « قلوا إن ملانا (سموه باسمه) من بلدة كذا في مديرية القليوبية ، وقد سافر إلى ألمانيا ، وتزوج هذه الفتاة ، وحضرت معه ، فلما رأته أباه وأمه الجوزين يتوضآن ويصليان . قالت لهما : ما الخبر ؟ فقالت عليها قصص الاسلام وقواعده ، فأسلت حالا ، ودارت على الصلاة ، وقالت : هذا خير دين ، هذا دين حبيب ، فأما زوجها فانه بقي على حاله أي هو مسلم لا يصلي .

نظرتي في أم الاسلام المستقبلية

إن أم الاسلام المستقبلية سيقروا هذا وأمثاله ، ونحن سيبارعون إلى قراءة تلك العلوم ، وستكون صلواتهم غير صلاة آبائهم في العصور الأخيرة ، فهم لا يدخلون فيمن قال الله فيهم : « واذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى » وانما لا يكسلون لأنه فتح لهم باب المعرفة ، فأدركوا سر الحركات ، فهم إذ ذاك يصلون بمحض الرغبة لا بالخوف ، كما يفعل أكثر المسلمين في العصر الأخيرة ، ويقولون إذ ذاك : اذا كنا نحن المسلمين نستعمل حركات الجسم المشابهة لحركات الصلاة ، اختيارا منا لا خوفا ، وذلك لأجل صحتنا ، فليكن ذلك الاختيار والقيام بالحركات المذكورة في الصلاة أولى ، لأن فيها تقوية الجسم ، وهذه إحدى الدعائم الثلاث في التربية العثة ، وفيها تذكروا علم الأخلاق والمحبة العامة (طلب الهداية والاستقامة) في الفاتحة ، وفيها

الدعامة الثالثة ، وهي ذكرى تثقيف العقول بالحمد لله رب العالمين ، وبذكر الحسنى في سجوده وركوعه السمع والبصر ومحائثهما ، وفي ذكره السموات والأرض في أول افتتاح الصلاة وهكذا .
وسيقولون أيضا : إن العلم سيجعل عبادتنا لله مبنية على المحبة لآعلى الخوف ، والعبادة على سبيل المحبة هي المجدبة النافعة ، أما عبادة الخوف فانها أدنى منها مراتب ودرجات . إن الانسان اذا أكل الطعام وهو مقتنع بفوائده ازداد صحة ، وكل عمل يعمل المرء وهو راغب فيه يكون أكمل وأعظم وأدوم ، وهذه هي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر .

يقول المسلمون بعدنا : إن آباءنا لما ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، ونسوا ما ذكروا به أخذوا يهرسون القرآن بلا عقل ، فلا علم ، ولا تهذيب ، ولا قوة جسمية ، لذلك ذهب ملكهم ، وزال سلطانهم ، وهانحن الآن في مبدأ حياة اسلامية جديدة تجتد ما هدمه الأولون ، فمن ذلك هذه المسامرة الثالثة :

المسامرة الثالثة

لما اطلع على ما تقدم صاحبي الذي اعتاد محادثتي في التفسير . قال : لقد عولت على أن أصل الفتح إنما هو الفتح العلمي ، وجعلت الفتح العملي بالسيف نابعا ، وهذا حسن : فأرجو أن تزيد المقام أيضا بمثال معروف تنهأ به النفوس وتهش له . فقلت : ألم يكفك أفعال رسول الله ﷺ كما تقدم . ألم يكن قوله وتعليمه قبل نشر سلطان الاسلام ؟ قال بلى : قلت : كذاك ذلك . فقال : ولكن أريد مثلا يكون قريب المتناول : لان النبي ﷺ ينظر اليه الناس نظرة يشتم منها أنهم يقرولون نحن لسنا مثله : فهو مؤيد بالوحي والقوة : أما نحن فلا ، فإذا أتيت بمثال غيره يكون ذلك أقوم قليلا ، وأهدى سبيلا ، وأحسن مثلا ، وأقرب مثلا ، فقلت : ان أم الاسلام ما حفظت ملكها الا بالعلم : فلما زاد عليهم زاد ملكهم . فقال : هذا كلام عام . قلت : ان مسلمي الهند كانوا هم أصحاب الأمر والنهي في البلاد الى نحو القرن الثامن عشر ، ولكنهم كانوا جهلاء : فلما احتل الانجليز البلاد وحاربوهم غلبوهم فأصبحوا ضعفاء في البلاد لاجل لمسهم ولاقوة : فلو كان عندهم علم لم يلب منهم الملك : فعدم النجوع العلمي هو الذي أورت زوال ملكهم . قال : وهذا أيضا كلام اجالي . فقلت : إذن فلا سمعك ماجاء في تاريخ تأسيس كلية عليكرة ، فان ذلك يكفيك . فقال : حدثني رعاك الله حديثها . فقلت : ان السيد أحمد خان مؤسس جامعة عليكرة أخذ يقدم الفتح العلمي لينقل منه الى الفتح العملي كما فعل ﷺ . فقال : أرجو إيضاح المقام . فقلت :

جامعة عليكرة ، وعملها العظيم في الهند

أتى الاستاذ نغر الدين أحمد مسجل جامعة عليكرة محاضرة نفيسة في هذا الموضوع على جمع كبير من جمعية الشبان المسلمين ونحن نترجمها (١) فيما يأتي :

حضرة الرئيس ، حضرات الاعضاء ، أيها السادة ،

إني أشكر الله على أن أتاح لي فرصة التكلم البليغة الى رجال الحاضر وسادة المستقبل . وآسف إذ لا أستطيع الكلام بلغتكم العربية التي هي أيضا لغتي : لكن لو كنتم مكاننا في الهند ، وكنت أنا مكانكم لا اعتذرتكم الى كما اعتذر اليكم . على أنه لا داعي لأن أعتذر عن موضوع المحاضرة فقد اخترت موضوعا يحبه المسلمون في الهند ، وأرجو أن تكونوا ممن يحبونه . ذلك الموضوع هو عليكرة . وهو اسم أرجو أن يكون معروفا لكم فانا في الهند نعرف الأزهر ، وقد كدت أقبل الأزهر حين ذهبت لزيارته . وفي الهند من

(١) مبنية على مذكرات أخذت أثناء الاقراء :

قبل عليه كره :

ان عظمة عليه كره تقوم على شيئين : الأول أنها أعطت الهند المثل العليا في الترية التي لا بد منها لمن يريد أن يعيش ، والثاني وهو أهمها أنه لولا عليه كره لما كان في الهند اليوم مسلمون تسمعون عنهم ، ويسمع لهم . كان يكون هناك مسلمون : لكن مسلمون لا يأتبه أحد بهم ولا يقيم لهم في شؤون الهند وزن . أما اليوم فان المسلمين .. وان فقدوا في الهند حكما ، وان كانوا أقلية في الهند .. فان لهم منزلة فيها لا يستحي مسلم أن يذكركم أربذ كرها . ذلك بفضل جامعة عليه كره التي هي أهم ما يملك المسلمون في الهند بعد أن فقدوا الحكم . وستكونون أقدر على تبين صدق هذا القول اذا عرفتم شيئا عن حال الترية في الهند قبل عليه كره :

كان المسلمون حكام الهند قبل أن يذهب الانجليز هناك ، وكانوا حكام الهند لما ذهب الانجليز هناك للتجارة . وقد مكث الانجليز في الهند تجارا نحو ٤٠٠ سنة انتشرت فيها الترية الحديثة ، ولكن بين غير المسلمين ، لأن المسلمين انكروا على أنهم هم الحكم وظنوا أن لاجابة بهم الى تعلم العلوم التي تنفع التاجر والمنايع وما اليهما من طلاب الرزق أو طلاب القوة : لأن القوة كانت بأيديهم والحكم كان لهم . هذا طبعا خطأ كبير لكنه خطأ وقع فيه المسلمون : فلما فقدوا حكم الهند في القرن الثامن عشر ونزلوا الى مرتبة المحكوم الذي لا بد له من الجهاد في الحياة ، وجدوا أنفسهم لا يحسنون من طرق الجهاد في الحياة شيئا . كانوا يحسنون طريقا واحدا هو طريق الحرب : فلما غلبوا في الحرب وزال الملك عنهم وجدوا أثر ذلك في أنفسهم ، ولا يحب ، وانسلت في وجوههم السبل ، ونزلوا الى درك من الذلة صعب ، لكن كان لا يزال بأيديهم بقية من ثروة ورتوها من أيام الحكم ففأشروا عليها وان لم يحسنوا تيمتها : حتى قامت فتنه الهند في القرن التاسع عشر ، وهي فتنه كبيرة كان غرضها التخلص من حكم الأجنبي في الهند : لكنها لم تنجح لان الذين قاموا بها لم يكونوا أكفاء لها ، وكان عاقبة الفشل فيها أن أزل العقاب بكل من كان له فيها يد ، ولم تكن هناك أسرة مسلمة الا وكان لها في تلك الفتنه يد ، فكانت النتيجة أنه لم يبق أسرة مسلمة الا ونسبت في نفسها أوفى ما لها ، وزال عن كثير من المسلمين حتى تلك البقية من الثروة التي كانوا من قبل يعيشون بها فأصبحوا في حالة من الذلة والضعف والجهل بأمور الحياة لا يدرون معها كيف يعيشون وصاروا مهددين بالفتن الاجتماعى ، عندئذ قبض الله لهم رجلا من أكرمهم بيتنا وأكرمهم قلبا وأوسعهم عقلا وأهدمهم همة : هو السيد أحمد خان جاء من بيت مجد ، فقد كان أبوه رئيس وزراء ، وكان جده رئيس وزراء : لكن تلك الاحداث قد زلت به كل نزلت بغيره ، واضطرته الى العمل فلم يفت ذلك في عضده ولم يذهله عن أن ينظر لنفسه ولقومه :

نظر السيد أحمد خان فوجد أن الداء هو أن المسلمين لم يعلموا أنفسهم حين كانوا حكاما ، واذن فالصواب هو أن يتعلموا الآن إذ صاروا سوقة :

شعر السيد أحمد في سنة ١٨٦٥ أن لا بد للمسلمين من أن يسلكوا طريق الترية العلمية ان كانوا يريدون أن يحتفظوا بوجودهم والايضا في غيرهم ، ولانكنى الترية العلمية وحدها : بل لا بد من أن يحافظوا مع ذلك على ثقافتهم الاسلامية وآدابهم ، ومن أين لهم الجمع بين الترية العلمية والثقافة الاسلامية ، ومعاهد الترية الحديثة في الهند كلها معاهد غير اسلامية : عندئذ أيقن أن لا بد للمسلمين من جامعة علمية اسلامية ، وأجمع العزم على أن يؤسسها لهم ، لكن كيف والصعوبات في سبيله كثيرة ؟ هناك مشلا صعبة المال فان الجامعة لاتقوم الا على مال كثير ، وهناك صعوبة اللغة ، فان اللغة الأردية لغة المسلمين لم تكن لغة علم للسبب الذي ذكرت لكم ، وكان الوقت اضيق من أن يقنع للتفكير في ترجمة أوفى مصطلحات :

لان الخطر كان عظيما قريبا ، وكان لابد للنجاة منه من عمل حاسم سريع . قلب السيد أحمد خان الامر على وجهه فرأى أن ليس لمشكلة المال حل الا التدرج ، يبدأ بعمارة ولو في كوخ ويترقى بها كلما ترقى وسأته حتى صبر كلية ، ويترقى بهذه حتى يصير جامعة . أما مشكلة اللغة فلم يكن لها حل الا أن يتخذ اللغة الأوروبية العامة في الهند لغة لمدرسته أيضا ، ولكنته بعد اذا صارت المدرسة كلية ، وجامعته اذا صارت الكلية جامعة ، اذ عندئذ يمكن أن تتفرغ الجهود لاكتساب العلوم والفنون المبسورة في تلك اللغة ، يمكن اتخاذ اللغة الإنجليزية لغة للتعليم في مدرسته بمرضه لسخط طائفة الملايين المسلمين ، وطامة المسلمين هم اذبح هذه الطائفة : أي طائفة شيوخ الدين بين المسلمين في الهند . ومن الطبيعي أن يكره المسلمون شيونا وغير شيوخ ، لغة الدين أدلوهم ورسبوهم لذلك وصبروهم الى ما صاروا اليه ، وأن يسخطوا على من يريد ادخال تلك اللغة في أي معهد إسلامي ، فضلا عن جعلها لغة التعليم فيه ، لكن لابد مما ليس منه بد ، فقد كان ذلك هو الطريق الوحيد للنجاة من الغناء ، واذا سخط الشيوخ في الأول فسيدركون اذا تبينت لهم حقيقة الموقف أن الداء عضال يحتاج الى دواء قد يكون السكتي ، وسبجيدون في الآخر من أعد لهم الدواء وان سخطوا عليه في الأول ، هكذا فكر ذلك الرجل الفذ السيد أحمد خان ، وهكذا قرر ، فأسس مدرسة في بضعة أكواخ عدد طلبتها نحو اثني عشر ، وميزانيتها حوالي ٤٠٠ جنيه ، ولغتها الإنجليزية ، وثارت عليه نائرة الشيوخ ، نائرة كبير منهم ، فان هناك شيونا وشبوخا . ففي الشيوخ رجال تعولهم الجباه إجلالا عن استحقاق ، ولكن فيهم أيضا من لا يتجاوز نظرهم حاضرهم ، ولا يحكمون الا عاطفتهم مع غلغلو في هذا التحكيم ، وهؤلاء اتقى منهم السيد أحمد خان أذى كثيرا ، ولكنه كان متوقفا ذلك ، وموطن النفس على تحمله ، لانه كان يعلم أن خبره وخبرهم ، ومستقبله ومستقبلهم ، بل مستقبل الاسلام نفسه متوقف على المضي فيها استخار الله فيه وعزم عليه :

هكذا يا حضرات الاخوان : بدأت جامعة عليكرة ، والآن هي من أكبر الجامعات في الهند ميزانيتها

٦٠٠٠٠ جنيه ، وطلبها ٢٢٠٠ طالب :

أسس السيد أحمد خان جامعة عليكرة سنة ١٨٧٥ وفي سنة ١٨٨٢ أي بعد سبع سنوات فقط من من تأسيس عليكرة ، ألقت حكومة الهند لجنة تبحث مسألة التربية في الهند ، فكان رايها الورد في تقريرها أنه « اذا اتبع في الهند مثل عليكرة فستحل مشكلة التربية الوطنية في الهند » . فعليكرة كانت الرائد الذي شق للهند طريق التربية الوطنية ، والذي أعطى الهند فكرتها عن التربية القومية : قال السيد أحمد خان ، ان مناهج التعليم والسياسة العامة في التعليم والتربية ، يجب أن تكون بيد جامعة أو جهات أهلية لا بيد الحكومة ، لكن لابد لمثل جامعة عليكرة الأهلية الإسلامية من الانقاذ بتجارب الجامعات التي سبقها ان كانت تريد أن تحقق الغرض الذي أسست له . وغير المسلمين اتفقوا بتجارب الجامعات الأوروبية فلماذا لا يفتتح المسلمون بذلك أيضا في تحقيق أغراضهم الإسلامية ؟ عندئذ رأى السيد أحمد خان أن يسافر ليزور جامعتي كمبردج وكسفورد ليرى نظامهما بعينه ويختار منه الصالح . ذهب ومعه ابنه القاضي الكبير السيد محمود ، وهو أول من تولى القضاء من الهنود ، ودرس المسألة هناك عن كتب فوجد بعد الدرس والثقة كبير : أن مجرد مرور الامتحانات لا يستحق أن يكون مثلا أعلى للطلاب ، وان مجرد منح الدرجات لا يصح أن يكون غاية عليا للجامعة : لكن تربية الخلق ، تربية الشخصية . تكوين الرجال هو الذي ينبغي أن يكون الغرض والقيامة . وقرر رأيه إذن على أن يجعل غاية جامعة عليكرة تكوين الرجال وتخرج القادة : أي تربية النشء الصالح من المسلمين وتحويلهم الى رجال ينهضون بأعباء الأمة الإسلامية في الهند ، ثم تخرج قادة يستطيعون أن يحسنوا قيادة الهنود المسلمين . هذا كان أهم ما ينقص المسلمين في الهند .

وقر رأي السيد أحد خان على أن يجعل غاية جامعة عليكرة سد هذا النقص . لكن تكون بن الرجال القادة يصعب جدا اذا كان الطالب يفقد خارج الجامعة ما يكسب داخلها ، أو بالأحرى اذا كانت جامعة تلك هي غايتها لا تشرف على الناشئ الا في جزء من يومه وتترك الباقي للظروف والمصادفات ، فقر الرأي على أن تكون الجامعة داخلية يعيش الطالب فيها كما يعيش في بيته ، ويعيش بين أسانذتها كما يعيش بين أهله ، واقبى السيد أحمد من كبردج واكسفورد نظامهما في ذلك ، واستعان بطائفة من كبار أهل العلم والتربية أمثال السيرالى (١) والمستر توماس أرنولد (٢) من الأفرنج ، والدكتور نظير أحمد (٣) ، وشبلى النعماني (٤) وخوجه الطاف حسين حالي (٥) فجاء بهم الى عليكرة ، وأسس فيها الحياة التعاونية التي يعيش الطالب فيها بين أسانذته في الجامعة كما يعيش بين ذويه يعلمونه في ساعات العمل ويهذبونه في ساعات اللعب وينصحونه من قريب ويلحظونه من بعيد قاصدين في ذلك كله الى أن يجعلوا منه رجلا يحسن الجهاد في الحياة . ومن الطبيعي أن لا يقدر على تفقت هذه التربية اجالا الا أبناء الخواص من المسلمين أى أبناء الطبقة الوسطى على الأقل ، أما الفقراء فالنايغ منهم يستطيع دائما أن يحصل من الجوائز المالية على ما يمكنه من القيام بنفقة تلك التربية . وليست ننقنها من الفداحة على ما قد يسبق الى النفس أول الأمر فانها تباع خمسة جنيهات في الشهر وهو مبلغ ليس في الحقيقة كبير اذا قيس بمثله في مثلها من الجامعات

والحياة الرياضية الجامعية كانت أيضا مما اقتبسه مؤسس جامعة عليكرة من الحياة الجامعية في أوروبا . فالألعاب الرياضية المختلفة تلعب فيها . ولاتنسوا ان ذلك كان شيئا جديدا في حياة الجامعات في الهند في القرن التاسع عشر ، وقد تفوقت عليكرة على الخصوص في لعبة الكريكت وظل فريقها خبير فريق في الهند لمدة طويلة

فأتم ترون باحضرات السادة أن جامعة عليكرة لم تهمل ركنا واحدا من أركان التربية ، فهي تقوم على التربية العقلية في أوقات العمل ، وعلى التربية البدنية في أوقات اللعب ، وعلى التربية الخلقية في جميع الاوقات . ترون انها بذلك كله قد أعطت الهند مثالا عاليا في التربية القومية ، ونجت المسلمين من الاندثار المحقق الذي كان يهددهم بما بصرتهم به من أمور الحياة وبما خرجت لهم من قادة وكونت لهم من رجال . وليس من رجل مسلم له مقام أو كلفة مسموعة في الهند الا وكان طالبا في عليكرة أو متصلا بها بطريق ما . فالرحوم مولانا محمد علي كان من طلبتها ومولانا شوكت علي من طلبتها ، وهذا المحاضر الفقير من طلبتها وهي لانجند بين المسلمين رجلا ذامواها الا وتعهدهم وانتفعت بمواهبه بأن يختاره رفيقا لها . مثلا أو تقتضيه عضوا في مجلس شيوخها الذي هو مجلس ادارتها أرمشرفا على ماليتها ، فالقاضي السيد محمود ابن السيد أحمد خان ، أو بالأحرى ابن السير السيد أحمد خان ، قد منح لقب سير اعترافا بخدماته للعلم بتأسيسه تلك الجامعة ، هو من شيوخها والسيد حسين بلجهي عماد الملك هو من المشرفين عليها بفضل الله ، وبمحسن الاخلاص في سبيله نجح ذلك العمل العظيم ولعلكم الآن أقدر على ادراك صدق ما قلت لكم في أول كلامي

(١) كان أستاذ اللغة الانجليزية في اكسفورد (٢) المستشرق المشهور صاحب تاريخ انتشار الاسلام وقد صار بعد سير توماس أرنولد وقد زار مصر منذ عام وأتى فيها محاضراته في الفن الاسلامي ثم توفي بعدها بقليل (٣) كان رحمه الله من أكبر الكتاب في الهند ومن أول من جاهد في سبيل تربية الفتاة الهندية المسلمة كتب كثيرا من الروايات بالأردية

(٤) كان رحمه الله أكبر عمدة في تاريخ المسلمين في الهند ، وهو مؤسس دار المصنفين في الهند وما يتبعها من دور التعليم والثقافة :

(٥) كان رحمه الله أكبر شاعر قومي في القرن التاسع عشر

من انه لولا عليكرة لما كان اليوم في الهند مسلمون . انكم خارج الهند لا تدركون كيف كان يشعر المسلمون بعد أن خرج حكم الهند من أيديهم . ونحن الآن نعرف أن المسلمين كانوا يكونون اليوم في الهند خداما أدلة لولم يقبض الله لهم ذلك الرجل الذي أسس تلك الاكواخ التي صارت بعد كليات (١) ثم صارت بعد جامعة (٢) ان المسلمين أقل عددا من الهندوس لكنهم استطاعوا بفضل الله وحسن توفيقه أن يحتفظوا بوجودهم وأن يكون لهم قول مسموع في شئون الهند وفي شئون الترية في الهند .

لكن السيد أحمد كان يرى بتلك الجامعة الى ما هو أبعد من ذلك . كان يرجو أن تصير يوما ما منار العلم والترية في الشرق الاسلامي كله . كان يرجو أن يكون مثلها كمثل الشجرة الطيبة المذكورة في القرآن « أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها » وكان يرى الى أن تكون رسول العلم والمعرفة والفسح في الشرق تسير فيه وياحدى بينها الفلسفة وبالآخرى العلم الحديث وعلى رأسها تاج لا إله الا الله محمد رسول الله ، تدعو المسلمين الى المجد وتشق لهم طريق العز وتبصرهم بالحياة ، فقد كان رحمه الله كما ذكرت من قبل لا يرى أن الجامعة بعدد طلبتها ولا بما تمنح من درجات ولكن بما توسع من دائرة العلم وتنقص من دائرة الجهل بما تقوم به من أبحاث وما تنشر من ثقافة حقة فذلك الرجل الذي لقبته صحافة لندن لما توفي سنة ١٨٩٨ بنفي الترية كان يريد بتلك الجامعة أن يؤسس مركزا عاما تنتشر منه الثقافة العلمية الاسلامية في الشرق الاسلامي كله . وقد تحقق من حلم السيد أحمد شيء كثير ، فان الكوخ قد صار الآن جامعة ثابتة لكن بقيت مسألة التوسع أي التوسع في الجامعة حتى تصير ذلك المركز الثقافي الاسلامي العالم ، والعقبة القائمة اليوم في سبيل هذا التوسع هي المال ، فقد كانت جامعة عليكرة في صميمها جامعة فنون الى الآن يدرس فيها من العلوم ما لا يحتاج الى مال كثير مثل الرياضة . وليس معنى ذلك أن العلوم لا تدرس فيها ففيها يدرس من العلوم الطبيعة والكيمياء والرياضة والنبات والحيوان لكن جامعة عليكرة ممتازة في الفنون وتريد أيضا أن تمتاز في العلوم ، وهذا يحتاج الى توسيع كبير في المعامل والمعامل كبيرة النفقة تحتاج الى المال والمسلمون اليوم ليسوا من أهل الغنى الذي يجعلهم يستطيعون أن يمدوا عليكرة بالسنت مائة ألف التي تحتاجها من الجنيئات هذه الغاية (٣) لكن على رأس عليكرة اليوم رجل من خبير المسلمين وأبدهم همة (٤) هو الدكتور سيد راس مسعود (٥) أو نواب مسعود يارجنك كما يلقبونه تكريما وهو حفيد السيد أحمد خان وابن السيد محمود وقد استطاع في سنة ونصف أن يدبر لها ثلاثين لكامن الرويات أو نحو ٢٠٠٠٠٠ جنيه

لكن عليكرة على ما هي عليه ورغم حاجتها هذه الى التوسع شيء عظيم . هي على ما هي عليه تستحق أن يؤمها من الطلبة المصريين مالاب الفنون الادبية على الأقل فلماذا لا تؤمونها ؟ ليس في هذا دعوة خطيرة الى الجامعة الاسلامية انما هذا كلام بسيط يصح أن يقوله أي مسلم فان المسلم يجب أن يعرف أخاه المسلم . واذا كان الهنود يأتون الى مصر الى الأزهر ؟ فلماذا لا يأتي المصريون الى الهند الى عليكرة ، انكم اذا أتيتم عليكرة ستجدون شيئا لا تجدونه في مصر . ان في مصر جامعة حقا ، ولكن اسمحوالي أن أقول انها جامعة حديثة والجامعة لا تنفع نفعها الا اذا كان لها تقاليد صحيحة

(١) أسست أول كلية حوالي سنة ١٨٨٠

(٢) في سنة ١٩٢٠

(٣) هذا مبلغ كبير ولكنه يناسب ما يرى اليه الرجال الكبار القائمون بامر جامعة عليكرة

(٤) هو وكيل الجامعة . اما مديرها فهو نواب بهوبال

(٥) حامل درجة الشرف في التاريخ وخرج لندن في المحاماة ودكتور في القانون

ثابتة والتقاليد الصحيحة الثابتة لا تتكون ولا تقوم الا في سنين كثيرة وقدمت على جامعة عليكم هذه السنون الثابتة وقام فيها كل ما ينفع المسلم من التقاليد الثابتة الصحيحة تقاليد تجمع بين الثقافتين : الثقافة الاسلامية التي قامت على القرون والثقافة الحديثة التي جاء بها العلم الحديث ؟ فلماذا لا يأتي اليها المسلمون من مصر بدلا من أن يذهبوا الى أوروبا في طاب ما تستطيع عليكم أن تمدهم به ؟ انى أرجوان يضلوا بعد اليوم . وأرجو على كل حال أن لا نسوا عليكم وأن تكبروا ذكرى عليكم فهي التي نجت الاسلام في الهند وهي التي جعلت من المسلمين في الهند قوما أعزة وأمة مهيبة بعد أن كادوا يكونون أخلاطا عبيدا ولست أجد أولى في وقد فرغت من المحاضرة في عليكم وعملها العظيم في الهند من أن أسألكم أن تقرأوا الفاتحة لروح مؤسسها وأن تسألوا الله المعونة والتوفيق لحفيده القائم على رأسها اليوم . تحت اللطيفة الأولى في قوله تعالى « انا فتحنا لك فتحا مبينا »

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم اعلم أن عصر الصحابة رضوان الله عليهم كان عصر أنوار نبوية ، واشراق نور النبوة عليهم كان يلقى الظلمة في قلوبهم ، وفي كل يوم يزدادون منها بما يرون من مشاهدة الآيات الإلهية ، ظاهرة على يد حضرة الرسول ﷺ ولا جرم أن الله عز وجل معنا أينما كنا « وهو معكم أينما كنتم » وهو الذي ملأ السموات والأرض بجنود تظهر العجائب على أيديها ، وفي كل يوم تظهر للمفكرين في هذه الدنيا أنوار وأنوار ، فالسلم اليوم يزداد إيمانه بنور النبوة الموروث ، وبجانب أم الاسلام من حيث اجتماعها اليوم بعد التفرق وانتشار الدين في أقطار المسكونة بلا حرب ولا ضرب ، ولادولة تحميه ، ولا خوف من أحد ، فهذه كلها تزيد المؤمن إيمانا ، بل إن حال انتشار الاسلام اليوم يضاهي حال انتشاره أيام النبوة ، فهذا وحده يزيد الإيمان ، فأما المفكرون والحكام فانهم يزيدون فوق ذلك إيمانا بما يدرسون من العجائب كالتى جاءت في هذا التفسير ، واذا كانت سكينة بنى اسرائيل وطمأنينتهم أيام طالوت ، إذ التابوت الذي انتهبه منهم أعداؤهم ، وكان فيه بعض مخلفات موسى عليه السلام ، قد رجع إليهم فكانت هذه من أمارات صدق النبوة والوحى الموحى الذي وصل إليهم عن علمائهم ، فهذه لا تورث إلا التصديق المبني على الظواهر من خوارق العادات وما يشبهها ، وهذه مقدمة للباحث الحكيمية التي هي أرسخ قديما ، وأعلى في السكينة كعبا ، فهكذا هنا كانت السكينة في قلوب المؤمنين أولا بما يرون من عجائب النبوة وغرائبها في كل زمان بالمشاهدة ، أو بقراءة الآثار ، ثم يزدادون سكينة وطمأنينة بعجائب الحكم الإلهية التي لاحد لها ولانهاية كالتى في هذا التفسير .

مسامرة

اعلم أن مثل المسلم الذي لاعلم عنده بهذه الدنيا كمثل الطبيب الذي أكعب على التطيب والجراحة ومداداة المرضى ، ونسى المسكين صحة جسمه ، فإتاتته الأمراض ، وأحاطت به مهلكات القوى ، وقواطع الحياة ، وانهاك أعضائه ، فقرأه مصفر الوجه ، خائر القوى ، ضعيفا ، هزيعا ، حامدا .
وسبب ذلك أن علم الطب قسمان : قسم هو علم صحة الأبدان وتديرها ، والمحافظة عليها ، وانعاش قواها ، باستنشاق الهواء النقي ، والتعزير العضلى ، وأفضله باجماع أطباء زماننا المشى في الهواء النقي مع كثرة استنشاق الهواء في الخلاء ، والجلوس في الشمس ، معزى الجسد في بعض الأوقات ، ساتر العورة والرأس ، محافظة عليها ، وأكل ما لم يطبخ من الخضر ، وأكل الفاكهة ، وهكذا مما سبق في هذا التفسير ، وما يأتي قريبا ،

القسم الثاني : هو قسم المداواة ، وهذا يقوم به الطبيب ، فإذا أحمل الانسان صحة جسمه بترك علم تلك القوانين فإنه يقع في المرض ، فيلتقاه الطبيب العالم بالأمراض الباطنية ، أو بالجراحة ، أو بمرض العين ، أو الأذن والأنف وهكذا . فأكثر أطباء زماننا هم من القسم الثاني ، يفسون القسم الأول ويهيمنون بالثاني ، لأنه هو الذي به يكون الربح والسكب والثروة والغنى ، فيفسون أنفسهم وهم غافلون ، ومثل هؤلاء علماء الدين في كل أمة من أمم الأرض ، فهم غالبا كالتقسيم الثاني من الأطباء في زماننا ، فهم دائما لا يعرفون إلا ما كان من الأحكام الظاهرة المقابلة للأدوية ، فكما أن الطبيب في القسم الثاني يقول للمريض : خذ الملح الانجليزي ، أو الصودا ، أو المغنيسيا ، أو ملح القواكه ، لاسهال المعدة ، ولا يذكر قط بالهواء النقي ، ولا بنوع الماء كل التي يجب أن يتعاطاها ولا يخطر بباله ذلك : فهو كالمريض والناتحة المأجورين ، فهذه ترضع ولانبال بالرضيع ، وهذه تبكي وليس في قلبها أدنى سزن على الفقيد ، هكذا عالم الدين غالبا لا هم له إلا أن يحصر أقواله في نواقض الوضوء وأحوال الحيض والنفاس ، وما أشبه ذلك ، ولا يرفع أعين العامة إلى السماء ، ولا يشرح لهم شيئا من مجائب الطبيعة ، لأنه هكذا تعلم ، وهكذا يعلم ، فهو عن العلم بالله محبوب ، وعلى الأعمال الظاهرة مكب ، وأمة تعيش بالعمل وتففل عن العلم أي العلم بالله وبمجائب صنعه ، مثلها كمثل النحل في مساكنها طائعات عاملات ناصبات جاهلات . إن دين الاسلام علم وعمل : السلم هو الذي يقرأ في افتتاح كل صلاة : « إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » فهو يقرأها ، فإن كان من المفكرين أخذ بطريق الاعتبار والنهم انه يكون بمن قال الله فيهم : « يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وفرزنا قررة أعين واجعلنا للمتقين إماما » والامامة الحق لا تكون للقلد الغافل ، وانما الامامة تكون للمفكر الذي يدرس النبوة وعالومها ، ومجائب الحكمة الإلهية ، دراسة محقق ، فيزداد إيمانه كل صباح ، وكل مساء ، إذ يوجه وجهه للذي فطر السموات والأرض ، حتى يرى ما يدهش عقله ، ويبهب من هذه الدنيا التي تظهر لنا عابسة وهي في الحقيقة باسمة ، وينظر في آثار الله فيجد ظواهرها مملوءة بشوك القتاد ، وعند التحقيق لاشوك ولا قتاد ، ورحمة الله تتجلى ، والجمال يهر عقولا وعقولا ، وان آيت إلا الاضاح ، لتسكن نفسك أبها الأخ ، فأعجب مما تراه قريبا في اللطيفة التي بعد هذه من دمايل وقروح في أجسامنا وحى ، فنحن ننظر إليها نظرة المسكين المتألم الذي أصابه الضر ، ولكن علم الطب (كما سيتضح لك قريبا بأجلى بيان) يقول لك : كلا . وهل الدمل إلا قلعة بناها جنود الله القائمة في جسمك ؟ وهي ذوات حياة حقيقية وعقل ، ولما بنت هذه القلعة الخروطية الشكل حصرت فيها المكروبات الداخلة فأهلكتهن وأفتنهم ، فكان القيح والصديد رم الأموات من الفريقين : الفريق الوطني ، والفريق المهاجم ، ويقول : إن الحى تقرب من هذا ، فإن الناس لما جهلوا الحمام الشمسي ، والحمام البخاري ، أو حمام الماء الساخن وللشيء والفمريات الضلية (وكل واحد من هذه يذهب بالمفونات من الجسم) .

أقول لما جهلوا ذلك ، وهو دواؤهم الوحيد ، قال الله لهم : أنا رحيم بكم يا عبادي ، أرحمكم بالحى فأسلط جنودي التي في أجسامكم وهي الكريات البيضاء على جنودي المهاجمة ، وهي الحيوانات النرية التي تمحل في أجسامها السم وتفرغه في أجسامكم فيحتمى الوطيس والقنا تفرع القنا وموج المنايا متلاطم ، فيقع كثير من الفريقين صرعى وتكون الاشلاء منهما هو الصديد كما تقدم ، وهذه جنود الله في أجسامنا المقابلات لجنوده في خارجها ، سأشرحها شرحا وافيا في اللطيفة الآتية ، ولكن أذكر هنا نبذة منها توطئة لما يأتي واجباله ، فأذكر على سبيل التمثيل الأسد والنمر ونحوهما ، فهذا الأسد من جنود الله التي أعدها لاجداث الحياة تارة ولاجداث الملاك أخرى ، فهي لثرتها سبب الحياة ، ولثريته سبب الملاك ، ولن ترضع النبوة

شيلها ، أو تنقض على فريستها إلا بما وقر في نفسها من رحمة في الأول واهلاك للثاني . إذن هنا مجمل ما سأذكره هناك بهذا المثال ، فهنا جيش معنوي نوري وظلماني : أي الرحمة والعذاب ، فهذان الجيشان المعنويان مقدمتان للجيشين الحيين وهما جيش الآساد حين التحفن على ذريتها ، وحين اقتراسها للظباء والأرانب ، فهذا مثل جنود الله في الأرض والسماوات .

جسم الأمة كجسم الانسان

اعلم أنه لافرق بين جسم الانسان وجسم الأمة ، فاذا جهل المسلمون علوم الأمم ، ونسوا الوحدة العاتية كما عفى الجاهل الغافل عن اصلاح جسمه ، وترك قوانين الصحة ، فان الله عز وجل هو الرحيم بهم ، فسلط عليهم الأمم من بين أيديهم ومن خلفهم إذ قال لهم : « أيها الأمم هبوا من رقدتكم ، وحاربوا المسلمين ، وادخلوا خلال ديارهم ، لأنني أريد ليقاتلهم من طريق الشدة ، لأنهم نسوني ، ونسوا أنفسهم بطريق اللين كما نسي الغافل عن جسمه باستعمال الحمام الشمسي ، والشئ في الهواء الطلق ، وأكل الفواكه ، والخضر ، فرجته بالحى ورجته بالأورام ، لأنني أنا رحيم ، ورجتي وسعت كل شئ ، فأنا أرحم الأشخاص ، وأرحم الأمم وان كانوا جميعا يجهلون أتى أرحمهم حين نتابهم الآلام .

خطاب المؤلف لأمم الاسلام

يا المسلمون : هذه والله هي ازدياد الايمان ، بل هذه هي السعادة ، هذا زمان الحكمة والعلم ، هذا هو الزمان الذي قال الله فيه : « سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » وهو الذي قال الله فيه أيضا : « سأوريكم آياتي فلا تستعجلون » وقال فيه : « وقل الحمد لله سبريكم آياته فتعرفونها » وبهذا وأمثله فهم قوله تعالى : « كتب ربكم على نفسه الرحمة » فكيف نوقن بهذه الرحمة إلا بالمراسة ! درسنا ياربنا وفهمنا ، فهمنا أن إيلاكم لنا لمنفتنا ، رحم الله أستاذي (الشيخ حسن الطويل) ، فهو أول من لفت نظري إلى هذه المعاني ، فانه لما عرض في الدرس اسم الله الجبار المنتقم الخ ، قال يافلان : هذه الألفاظ بحسب الظاهر فقط والافلا انتقام ولا غيره ، لأنه منزه عن الغضب كما هو معلوم ، ولكن هذه أفعال رحمة سميت بأسماء مما نعرفها .

وأقول الآن : الله أكبر : بهذا فهم سرا من أسرار القرآن ، ألا وهو قوله تعالى : « إني أخاف أن يمكك عذاب من الرحمن » فهذا عجب أن يكون رحاما وهو معذب ! فبالعلوم اليوم ظهرت بعض أسرار القرآن ومجائبه . اللهم لك الحمد على نعمة العلم .

فلما اطلع صاحبي على هذا . قال : هذا جمال وكمال وحكمة وعلم ، ولكنني أريد أن تفهمني عنوان هذه المقالة ، فانك سميت « مسامرة » ، فأين المسامرة ؟ فقلت : إن ما تقدمت إنما هو مقدمة لتلك المسامرة وان هي إلا نبراس لهذا المقام . فقال : إذن حدثني حتى يتم المقام . فقلت : أعرف طيبيا نطاسيا شهرا يبلادنا المصرية ، فهو في الحكومة المصرية من الأطباء المشهورين ، وله في منزله عيادة خاصة ، وهذا الطبيب لي به علاقة ، وهو أنه كان تلميذي بالمدرسة الحديوية في اللغة العربية قبل أن يدرس علم الطب ، وهذا الطبيب قابلته منذ ستة أشهر في عيادته ، فرأيت ضعيفا هز يلا نحيفا ، فأزججني مارأيت ! ووجهت إليه اللوم الكثير على ترك صحته التي بها يقدر على مداواة المرضى ، فأخذ يقول لي ان أصدقائي يأتونني في وقت فراغي فلا أقدر على ردهم وترك إجابتهم ، فشددت عليه النكير ، وقلت له : لا بد من النظام ، ولا بد من مراعاة صحتك مراعاة تامة ، وقلت له اني بعد مدة لا بد سأناك عن ذلك كله ، فهجبت إذ قابلته منذ ثلاثة أيام في هذا الشهر اكتوبر

سنة ١٩٣١ م وهو قويّ البدن نشط ، فلم على وبادرنى بقوله : هذه نصيحتك ، وأشهد على ذلك طيبيا كان معه ، وقال : ألت تراني أرفض العدل في وقت رياضي ؟ فقال نعم ، فسرتت من ذلك كثيرا وانشرح صغري ، وليس هنا بأول من تصدّيت له من الطبقة المتعلّمة من اخواني المصريين . وبما قلت له في هذه المقابلة : إذن عملت « بالهايجين » كما قلت « بالمدرسين » والأولى كلمة معناها علم الصحة ، والثانية كلمة تدل على علم المداواة . فقال نعم .

وهذه المسامرة هي المتطبقة تمام المطابقة كما قدّمنا آنفا على حال المسلمين الذين لا يعرفون إلا علم الفقه فهؤلاء الآن يقينا قد قاموا من رقبتهم ، واستيقظوا من غفلتهم ، وقرءوا العلوم ، وأنا أجد الله عز وجل إذ أن الأزهر الذي تملئت فيه خطأ خطوات في هذه السبيل ، وهكذا بقية بلاد الاسلام ، وهذا التفسير من مقويات تلك الحركة في عالم الاسلام ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

فقال صاحبي : حسن ، هذا المثال ، وجييل هذا التنظير ، ولكنني أريد أن تربط موضوع السكينة كله بقوله تعالى « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » ، فهل في هذه السكينة فتح ؟ وأي أنواع الفتح هو ؟ فقلت : حياك الله ، أنا ذكرت لك أن الجنود أربعة أقسام : مهنوية وحسية ، وكل منهما جنود للاهلاك وبنود للإحياء ، ولأجرم أنه صلى الله عليه وسلم قد فتح الله عليه فتحا علميا باظهار الحقائق له ، فأفاض على الناس بما يحتملون فهذا جيش معنوي نوراني تبعه جيش حسي وهم الغزاة المجاهدون . ثم إن ما فتح الله به الآن من العلوم لنا نحن الأمة الاسلامية مثل ما اتضح في هذا التفسير وفي غيره من بواهر الجوانب إن هو إلا أنوار المعرفة وبها تطمئن قلوب وقلوب وتسكن للحقائق كمسألة الأمراض التي جعلت لمصالحنا لا لإبذائنا ، فهذه حقائق واضحة لم تكن لتعلم للموم إلا في زماننا ، أما قبل ذلك فانها كانت خاصة بأناس اصطفاهم الله ولم يبيحوا للناس بصلهم لأن الناس لم يكونوا مستعدين ، وهذه جيوش علمية نورية تتبعها جيوش اسلامية حقيقية لقيادة أهل هذه الأرض من أمم الاسلام ، لأنهم خير أمة أخرجت للناس ، ومتى كان اجتماعهم مبينا على ظهور الحقائق لهم كالشمس في رابعة النهار ، فانهم لاجرم تكون قيادتهم لأنفسهم وللأمم أكمل وأتم ، واذن يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر . إذن الفتح العلمي في زماننا كالذي ظهر في هذا التفسير من مضمون قوله تعالى في أول السورة : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » ، « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الثانية والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : والله جنود السموات والأرض وكان الله علما حكما اللهم إني أجدك جدا يوافي نصمك ، وبكافي مزيدك ، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، جل وجهك ، وعز جاهك ، لا إله إلا أنت ، وكيف يكون للعالم إله غيرك ونحن ننظر فترى كلامك في كتابك كفلك في خلقك ، وذاك خلقت من كل شيء زوجين : الذكر والأنثى ، والسالب والموجب ، والقالب والمقلوب والعالم والجاهل ، والحي والميت ، والذكي والغبى ، وهكذا ، لم نجد لهذه القاعدة شاردة وشاذة ، بل هي مطردة أوبس من العجب أن غزوات النبوة كغزوة الفتح وغيرها من الغزوات ، وجميع حروب هذا العالم الانساني لها نظائر في أجسامنا .

يا سبحان الله : إن الله يقول هنا : ليس جنودكم في غزوة الفتح وغيرها هم جندي وحدهم . كلا . بل لي جنود في السموات وبنود في الأرض ، أدبرهم بصلبي ، وأنظمتهم بحكمتي ، وكل هؤلاء قائمون بما عليهم وعملهم نافع لحياتكم وحياة غيركم ، فكما أنكم جنتم إلى هذه الأرض ، وبكم نبيكم ، نحاربون الكفار الجهال

المقصد في الأرض ، الذين لم تكن لهم جامعة تجمعهم ، ولا رابطة تربطهم ، بل هم قوم مشتتون ، فبعضهم تبع بلاد الفرس والأكاسرة ، وبعضهم تبع بلاد الروم والقيصرية ، فارتبم هذه الأمم بارشاد نبيكم وتريدون ادخالهم في جامعكم الاسلامية ، فتصبح الأمم كلها جسما واحدا صحيحا ، فهكذا كان فعلى في أجسامكم ، إن جسم الانسان ممتليئ للجسم العام للانسانية كلها ، فالسكرات البيضاء في الجسم ومماها من جنود الجسم كلها تقاوت وتحارب أعداء هذا الجسم ، وتفتصر عليها وتقتلها ، والا فلا جسم للبشر ، ولا حياة له ولا بقاء .

وما كدت أصل لهذا المقام حتى حضر صاحي العلامة الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير . فقال هذا حسن جدا ، ولكنه كلام غامض ، إن المحاربين في الأرض لهم آلات وقلاع وأعمال هجبية ، وأبن السكرات البيضاء المذكورة ، وأبن الحرب المشهورة بين الأمم ؟ فقلت له : حياك الله وبياك ، إن الحرب في جسم الانسان تشابه الحرب التي تراها بين الأمم سواء بسواء ، والنوع الانساني لا يزال في حوب وضرب حتى يصبح أمة واحدة ، ويصبح كله كتلة واحدة ، يحارب الطبيعة المحيطة به ، لينال منفعتها ، فلنزوات المحمدية فتح باب لرقى الأمم ، والناس الآن يحاربون حريين : حوب مع أنفسهم ، وحوب مع الطبيعة ، والنزوات الاسلامية مبدأ لازالة العناصر الضارة بالجسم الانساني كما تفزوا السكرات البيضاء واللقاوية وضيرهما الحيوانات الطائرة على الجسم الضارة به ، حتى اذا لم يبق في الانسان شقى ولا أئيم أصبحت الانسانية كلها جسما واحدا تحارب الطبيعة حوفا باذن ربها ، فكأنها إذ ذاك في زمن السلم العام الذي بشره القرآن في سورة القتال المتقدمة ، بلعمة واحدة تنلغ غيرها ، ولكن هذا النبر ليس من جنسها .

حينئذ قال صاحي : أنا الآن أصبحت في حجب الكلامك جيل ، وبيانك بذبح ، به عرفنا أن لله جنودا بطاربي السمع ، وأنت فصلت بعضها وهي التي في الجسم البشري ، ولكن القرآن كتاب عربي مبین وكلامك وان كان حسنا فيه التباس من وجهين : الأول أن هذه الجنود التي في جسم الانسان لم تتبين بالفصيل حركات كرها وفرها ، وغدوها ورواحها ، وأسلحتها ومحاصرتها ، وقلاعها ونكباتها ، وانهازمها وانصارها ، وخنادقها ، وسمومها القتالة . الثاني : انك ذكرت البلعمة واللقاوية ، فهذه كلمت ليست عربية والقرآن سهل فاذا لم يكن التفسير أسهل من القرآن فانه لا يكون تفسيرا ، بل تعسيرا ، وقد عهدناك فيما سبق من هذا التفسير تذكرا سهلا على الناس فهمه ، وعظم نفعه ، فقلت له : أيها العزيز ، اني لم أذكر الحرب والضرب والجهاد ، ولا البلعمة واللقاوية إلا وقد أعددت لها عنتها ، وأحضرت معي مقالا أذكره في هذا المقام . فقال : ان كان من مقالك فأنت لست من علماء التشریح ، وان كان من مقال غيرك من علماء التشریح فانهم لا يقدرون أن يصفوا حرب المكروبات والسكرات البيضاء وصفا ينطبق على الحروب المألومة لنا حتى يخرج قارى التفسير من المقال وقد أيقن بأن الله جنودا غير جنود الانسان ، يشاهد كرها وفرها . فقلت : انك حصرت الكلام في مقامين ، وهذا الحصر منقوض بمقام ثالث . فقال بينه لى ؟ فقلت : إن الكلام لطيب مصرى ، وهو الذى وصف تلك الأوصاف التي ذكرتها بعينها في المجمع المصرى للثقافة العامة سنة ١٩٣١ أى سنة طبع هذه السورة ، وهذا حجب ا وهو مجزة جديدة للقرآن ، وكيف لا يكون مجزة والناس عاشوا وماتوا وهم يقرءون : « والله جنود السموات والأرض » ولكن أكثرهم لا يعرفون كيف تكون تلك الجنود ، وكيف غزواتها ؟ حتى ظهرت الآن فيما ستره من قول ذلك الطيب . فقال : إذن تكون تلك الجنود الإلهية أيضا مساعدة على فهم : « وفي أنفسكم أفلات تبصرون » ومساعدة على فهم قوله تعالى : « ما خلفكم ولا بئسكم إلا كنفس واحدة » ففي النفس الواحدة يحصل ما يحصل في جميع نوع الانسان ، فأرجو أن أسمع أولا خلاصة المحاضرة التي ألقاها الطيب . ثانيا نفس المحاضرة . قلت : أما الخلاصة فهي أننا نرى للجسم الانساني عبارة عن مدينة حصينة ، يحيط بها سور متين ، وهذا السور تحاصره جيوش تعد

بالآلاف الآلاف من الأعداء ، تريد دخوله لتعيش عبثة هبثة كما يريد الأورويون أن يعيشوا عبثة هبثة في بلاد الاسلام بظلمها وارهاقها واذلالها ، ولا نجد لها تلك الجيوش بابا تدخل منه إلا المناقد المفتوحة كالقلم فتدخل منه ، وهناك تصل إلى المعدة ، والمعدة فيها عصير معد لا هلاك تلك الحشرات ، وهذا العصير يهضم الطعام ، ويقتل تلك الميكروبات ، ولكن إذا أسرع الغذاء في الانزلاق من المعدة وجرى إلى الامعاء فان تلك الميكروبات لانحوت ، ولكن تسير إلى الامعاء ، لأن مدة إقامتها في المعدة لانكفي لابتها ، وقطع جراثيمها ، وهذه ماتت كاد تصل إلى الامعاء حتى تلتقي حنفها ، لأنها لانجد هناك الاكسوجين الذي لانعيش إلا به ، ولأن الجنود المجنسة من الميكروبات الصالحة تستحوذ على الغذاء ، فهنا خط دفاع أول وهو الجلد ، وخط دفاع ثان وهو العصب الممدى ، وخط دفاع ثالث وهو الامعاء المهلكة لهذه الأعداء ، فهذه الأعداء الداخلات في الجسم أشبه بالأهم الأوروية لما اجتمعت كلها لإهلاك الأمة التركية وقتلها ، وتبديدها ، وقطع دابرها ، وكنم أنفاسها وإبانتها من الوجود ، فلم تمتد السواحل ، ولكن لما أرادت التوغل في البلاد بما أرسلت من عساكر اليونان من جهة ، والفرنسيين من جهة أخرى هلكوا ذبحا وتقطيعا شديدا ، ورجعوا بخفي حنين هكذا هذه الجنود من الميكروبات لما دخلت الجسم ولم يهلكها العصب الممدى أهلكتها الامعاء بقلة الميرة الواصلة إليها وبجسها في مكان مظلم لاهواء فيه فقطع أنفاسها فهلكت ولات حين مناص .

هذا ما كان من جهة الجيوش الجرارة الواصلة من القم ، فاذا وصلت من طريق آخر وتكاثرت كأن وصلت بطريق جرح أو نحوه وتكاثرت بأي طريق كان فانها تتوغل في الجسم ، وتفتك بالخلايا الجسمية ، وتقطعها تقطيعا ، وتتغذى بالمواد الغذائية التي في الجسم ، فهناك يصل الخبر إلى بقية أجزاء الجسم ، فتأتي الجيوش من أطراف المملكة ، وتحاصر المكان ، وتقتل ما فيه من الميكروبات ، وهنا تكون القتل من الجيوش الهاجمة ، والجيوش المدافعة ، والخلايا التي وقعت في ساحة القتال ، فهذه كلها تصبح مادة ساقطة صفراء يبندها الجسم إلى الخارج ، وهذه العملية تراها في أمثال الحمل ، فهو في أثناء حصار الجنود الجسمية للجنود المهاجمة من الميكروبات يبدأ نموه ، فاذا وقعت الواقعة ، وانتهت المعركة ، فهناك تكون المادة الساقطة ، وهو القيح ، وهناك تقوم الجيوش الوطنية بعملية تجفيف الجرح وتنظيم المكان بعد أن تفتح الجلد بأن تأكل منه جزءا فيخرج القيح ، وهو رم الأعداء ومن معهم ، هذه حال هذه المواقع الحربية .

ومن عجب أن الانسان اذا شاكته شوكة في يده مثلا أحس بعد مدة قصيرة أن هناك نحت إبطه وربما فما هو ذلك الورم ؟ وهل ذلك الورم إلا نكتة من نكتات الجنود الوطنية في الجسم التي اجتمعت لتهاجم الجيوش الجرارة التي اجتمعت لتطارده الأعداء الزاحفين على هذه المملكة من ذلك الجرح ، وقد يحصل للمريض حى بسبب تعفن الأخلاط في الجسم ، وهذه الحى إنما جعلت في الجسم لأن الأخلاط المتعفة يعوزها حرارة ترتفع لتخلص منها ودفع شرها ، ولو أن المريض كان من ذوى الإرادة القوية فلم يكثر من الطعام ، أو أكثر منه ولكنه جعل الجسم مترنا بما يفعله من التمزيقات العضلية ، أو المشي في الخلاء ، أو الجلوس في ضوء الشمس مع الاحتراس ، كما هو موضح في أول (سورة برونس) ، أو استحم بالبخار ، أو بلقاء الساخن أي بالكهرباء .

أقول : لو فعل المريض أحد هذه الأعمال لم يقع في الحى ، فهنا حى ودمل وقروح وأورام غيرها ، فهذه كلها لم تكن في الجسم لا يذء الانسان ، بل لاصلاح جسمه ، وما هذه الآلام إلا مذكرات ، فهي سعادة لاشقاء ، ونعمة لاقمة .

فلما سمع ذلك صاحبي . قال : أهذا نوع الكلام الذي يقوله ذلك الطبيب المصرى في خطبه الآتى ذكرها ؟ قلت نعم ، ولكن الذي له إنما هي عناصر الموضوع ، فأما بناؤه فانما هو من هيئة سير التفسير

ونظامه . فقال : أحب أن أسمع خطبته إذن بنصها . فقلت : سيأتي ذكرها قريبا إن شاء الله

إيضاح مختصر لجنود الله في الأرض

من قوله تعالى : والله جنود السموات والأرض

وذلك ما قرأته في كتاب الترجمة في المدارس الثانوية ، ذلك أن الهم عبارة عن سائل لالون له ، وهذا السائل يحتوي على جراثيم صغيرة كثيرة يسمونها الخلايا ، وهذه الخلايا قسمان : قسم أحمر وقسم أبيض ، وكلا القسمين في غاية الصغر ، حتى أننا لو أخذنا قطرة دم صغيرة (وهي لا تكون أكثر من جزء من ٢٠ ألفا من البوصة المربعة) وحللناها لوجدنا ما فيها من الخلايا الحمراء تبلغ خمسة ملايين خلية ، وما فيها من الخلايا البيضاء (٩) آلاف خلية ، ولا جرم أن القطرة المذكورة المحتوية على هذا العدد العظيم لاتعدو أن تكون قدر سنِّ الأبرة لاغير ، فإذا كان هذا العدد العظيم لهذا المقدار فكيف في تلك الأبطال الكبيرة من أعداد هذه الخلايا ، ثم إن وظيفة الخلايا الحمراء تنقسم إلى قسمين : قسم هو جلب المصالح ، وقسم هو دهر المفسد ، فهي من الجهة الأولى أشبه بالعناب والشياطين ، وأصحاب العربات والسيارات الذين يتلقون الواردات إلى المدينة ، وينقلونها إلى أطراف المملكة ، ومن الجهة الثانية أشبه بالزبالين والكسابين ورجال مصلحة البحار بمصر أولئك الذين يصرفون ما ينزل من البراز والمواد الضارة في مواسير تدفعه إلى الخارج دفعا للضرر عن السكان ، فهذه الخلايا الحمراء هكذا تصنع فهي تستقبل مادة الحياة السارية في الهواء المسماة بالأكسوجين فتحملها من الرئتين وتجري بها لتوصلها ، وتوزعها على أطراف المملكة بالسواء ، وهكذا متى فعلت ذلك رأت بقايا حاملة من الأنسجة بعد تفاعلها ضارًا بقاءها بالجسم ، فهذه الخلايا الحمراء تحملها وترجع بها جارية جريًا حينئذ حتى توصلها إلى الرئة وتعطيها للهواء الجوى ، فيقبلها وينبذها خارج الجسم ، ففري أمر ذلك في المرأة إذا تنفسنا أمامها ، فيكون هناك مادة خميرة على الزجاج تمنع رؤية صورنا ، وهذه المادة الفخميرة هي التي نشأت من استراق المواد الغذائية في الأنسجة ، فهذا كله أشبه بما فعل في مدتنا من استقبال النافع ونبذ الضار . هذا ما كان من أمر الخلايا الحمراء ، وهي أيضا تعطى الهم لون الحرة أما الخلايا البيضاء فإن منفعتها أشبه بالجنود المجندة في المدن ، المدافعين عن البلاد ، الساكني السلاح ، الشجعان المحججين ، الأمانت العظماء . فهؤلاء إذا وردت جيوش قتالة من الخارج ، وما أكثرها في الجرح ، وما أسرع وصولها إلى أجسامنا ، فإن هذه الجيوش البيضاء تقاومها ، وتحمي حتى الديار ، وتحامي عن السكان ، وتحفظ البيضة ، وتقارع الأبطال ، ويبان ذلك أنها تصطف صفوفًا ، وتهجم على الجيوش القادمة ، وتخترق أجسامها ، وتكتم أنفاسها ، فتختنق أو تلقى عليها السم فتتموت ، هذا فعل الخلايا الحمراء والخلايا البيضاء .

فلما اطلع صاحبي على ذلك . قال : هذا قول جميل ، لاسيما أنه يعني لأنك ترجمته من كتاب محترم في المدارس ، فليس يعقل أن يكون فيه خطأ ما ، ولكني أريد أن أرى ذلك بعيني فليس الخبر كالعيان ، لأنني لو رأيت ذلك بعيني لكان ذلك من مضمون قوله تعالى : « سأوريكم آياتي فلا تستعجلون » وقوله أيضا : « ولتعلنن نبأ بعد حين » وقوله : « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » . فقلت أما إذا أردت ذلك فهالك نص ما قاله الدكتور ، وهو ما جاء في الكتاب السنوي الثاني للجمع المصري للثقافة العلمية ، فقد جاء فيه تحت العنوان التالي ما يأتي : —

المركبة اليومية في الجسم البشري

الوقاية الطبيعية للجسم

مقدمة . العدوى والمرض . المناعة . الميكروب وقوة أمراضه . العداء
بين الجسم والميكروب . الميكروب في داخل الجسم . الخلايا البالغة .
الحرب بين الميكروب والخلايا . الوقاية النوعية . الخلاصة

سادنى : لانتزع في أن الأمراض المعدية من أهم الأخطار التي يتعرض لها جسم الانسان في حياته ،
وتتأثر بها صحته وهي كما يعرفها كلكم تنشأ عن فعل كائنات حية دقيقة من مملكتي الحيوان والنبات ، ويطلق
عليها الأطباء اسم الميكروبات ، وهذه الكائنات موجودة في كل مكان ، وفي جميع الأوساط التي تحيط بنا ،
انها تعيش في الأرض ، وفي الماء ، وفي الهواء ، وعلى الأغشية المخاطية المبطنة لتجاويف البدن ، وخصوصا
في الامعاء التي تعج بمختلف أنواعها ، وكذلك خارج الجسم على سطح الجلد .

وليس كل الميكروبات خطيرة على الانسان ، فبعضها لا يدخل إلى الجسم وهو على قيد الحياة ولكنه
يتخطى حواجزه الطبيعية بعد الوفاة ، ويتكاثر في رفاته حتى يحوله إلى تراب ، ولكن بعضا منها يمكن خطرا
على الانسان ، وهو على قيد الحياة ، إذ يمكنه أن يخترق موافع الجسم وينفذ إلى داخله فينمو ويتكاثر على
حساب المواد الغذائية الموجودة فيه ، على أنه ليس من الصعب أن نجتنب تلك الضيوف الثقيلة بالابتعاد عن
مواطنها ، أو بإبادةها بواسطة التطهير أو التبخير ، أو بعزل الأصحاء عن المرضى ، ومهما يكن من أمر بعضها
الذي لا يمكن تجنبه نظرا إلى وجوده في داخلنا أو حوالينا ، فإن لدينا من ظاهرات الوقاية الطبيعية ما يحول
دون العدوى .

العدوى والمرض

ولكي يمكننا الوقوف على سر هذه الوقاية الطبيعية يجب علينا أن نعرف أولا ماهي العدوى ؟ فالعدوى هي
عبارة عن الظاهرة التي تنشأ عن دخول الكائنات الحية الدقيقة في الجسم ، أما المرض نفسه أي إصابة الجسم
بالعدوى فهو ما ينشأ عن وجود هذه الكائنات بذاتها ، وما تحدثه من نقت سموها فيه ، سواء أكانت هذه
السموم نتيجة إفرار هذه الكائنات مدة حياتها في الجسم ، أم نتيجة انحلال مادتها بعد موتها ، لذلك يجب
أن نفرق بين العدوى في حد ذاتها وبين المرض ، أي بين دخول الميكروبات في أنسجة الجسم وبين إصابة
الجسم من تأثير سموم هذه الميكروبات ، وتختلف الميكروبات باختلاف درجة سميتها ، فالميكروبات القليلة
السموم يجب عليها أولا أن تتكاثر وتتوالد بدرجة كبيرة حتى يمكنها أن تؤثر على الجسم البشري ، أما
الميكروبات السامة جدا ، فإن القليل منها يكفي للتأثير على الجسم ، ففي العدوى بالمرض الفمحي مثلا كثيرا
ما نرى أن دماء الحيوانات المصابة بالحلي ملأى بميكروبات المرض دون أن يظهر على الحيوان أية أعراض ،
كذلك في ملاريا الطيور ، فكثيرا ما نلاحظ أن أغلب كريات الدم تحمل طفيليات المرض ، في حين أن الطير
لا تبدو عليها أعراض المرض ، غير أننا نلاحظ من ناحية أخرى أن في مرض الكزاز ، أو التيتانوس الناجم
عن عدوى الجروح يكون عدد الميكروبات التي يمكن العثور عليها في بؤرة الإصابة قليلا جدا ، مع أن أعراض
المرض تكون شديدة وقاسية لأبلغ حد .

أعود فألخص هذه الحقائق ، وهي أنه لا يكفي دخول الميكروبات في الجسم ، بل يجب أن تكون
للميكروبات درجة سمية مخصوصة حتى يمكن للعدوى إحداث المرض ، أما الميكروبات القليلة السمية فإنها
تعتاض عن هذا النقص بشدة توالدها في الجسم ، أو بما نسميه فوعتها .

أما الجسم البشري فإنه لكي يتمكن أن يقاوم الميكروبات المرضية يجب عليه أن يبقى نفسه بأحدى الطريقتين الآتيتين : — (أولاً) أن يقاوم دخول الميكروبات فيه (ثانياً) أن يبقى نفسه سميماً ، أو يبطل مفعولها ، أو يجعل نموها صعباً ، إذا عجز عن مقاومة دخولها .
فالعُدوى وظاهرة التسمم من جانب الميكروبات ، والمقاومة ، وإبطال سميومها من جانب الجسم هي العوامل التي يترب عليها ظهور المرض ، أو عدم ظهوره ، وقد تكفي مقاومة الجسم للعُدوى إلا أن هناك ما يساعدها في مهمتها ألا وهي المناعة .

المناعة

وهذه المناعة إما طبيعية وراثية ، أو جنسية ، أو مناعة فردية . فالحيوانات ليست كلها عرضة للأمراض بدرجة واحدة ، فمثلاً الأمراض الطفحجية التي تصيب الإنسان كالحصبة والحجى القرمزية لا تصيب باقي الحيوانات كذلك بعض أمراض الحيوان كإلطاء عيون البقرى ، أو كإلبراء الخنازير ، فإنها لا تصيب الإنسان ولكنها تصيب الحيوان ، وذلك لأن أنواع الحيوانات تمتاز بمناعة خاصة ، وهذا النوع هو الذي يطلق عليه اسم المناعة الطبيعية الوراثية ضد بعض الأمراض ، كذلك هناك ما يسمى بمناعة الأجناس ، فمثلاً الحجى القرمزية لا تصيب الأجناس ذوى البشرة السوداء إلا نادراً بخلاف الجنس الأبيض فهو شديد الاستعداد للعُدوى بهذا المرض ، وكما أن للأصناف والأجناس أحياناً مناعة ، كذلك توجد لبعض الأفراد مناعة ضد بعض الأمراض ولكننا نعرفها ونشاهدها يومياً ، فمن منكم لا بد أن ذكر سنة ١٩١٩ م لما انتشرت الإنفلونزا الخبيثة التي أطلق عليها اسم « الحجى الإسبانية » وكيف أنها كانت تصيب بعض أفراد في بيت واحد ، وتترك البعض الآخر رغمًا عن تعرضهم للمرض واتصالهم المباشر بالمصابين به ، ومن منكم لا يشاهد في أولاده أو أقربائه أن بعضاً من الأطفال يصاب بالسعال الديكي ، أو الجدري الكاذب ، والبعض الآخر يبقى سائماً رغم تعرضه للعُدوى بميكروبات هذه الأنواع .

يبد أن هذه المناعة للأفراد ، والتي نسميها المناعة الفردية ليست مطلقة كما هو الحال في مناعة الأنواع والأجناس ، بل هي مناعة نسبية قد تختلف باختلاف الظروف والطوارئ ، أو بعبارة أخرى أنها مناعة تتوقف على الاستعداد الشخصي للمرض ، أو قوة مقاومته له ، تلك المقاومة التي تتأثر بعوامل خارجية كثيرة كالعرض لدرجة الحرارة ، أو لتأثير الجوع ، أو التعب . هذا في الجسم البشري ، ولنعد بعدئذ إلى ناحية الميكروب :

الميكروب وقوة أمراضه

وكما أن الجسم له استهدافه ومقاومته كذلك الميكروب له أيضاً استهدافه ومقاومته ، فبعض الميكروبات لا يمكنها أن تتكاثر في جسم الحيوان لعدم ملاءمة حرارته الطبيعية لنموها مثلاً كميكروبات المرض الفحشى ، فإنها لا تتكاثر في جسم الدجاج ، أو الضفادع ، لارتفاع درجة الحرارة في جسم الأولى وانخفاضها في جسم الثانية ، ولكنها تنمو وتتكاثر إذا خفضت درجة الحرارة في الأولى بغمس أرجلها في الماء البارد ، وارتفعت الحرارة في الثانية بوضعها في أفران التفرجج ، كذلك سلالات الميكروبات تختلف فيما بينها من حيث قوة أمراضها ، فهي قد تضعف في حداثتها إذا عاشت في ظروف غير مناسبة لها ، وقد تزيد إذا لاءها الوسط الذي تعيش فيه إلى غير ذلك مما لا يزيد أن نتعرض له في كلامنا الآن خشية أن يطول بنا البحث ونبتعد عن موضوعنا ، وإنما أردت فقط أن أبين لكم ماهية العُدوى وما يتبعها من عوامل ومؤثرات . ودعوني الآن أن أنتقل بكم إلى موضوع محاضرتي هذه وهو شرح تلك العداوة الكامنة بين الجسم والميكروب :

العداوة بين الجسم والميكروب

الجسم والميكروب يحكم تنازع البقاء عدواناً لدردان ، كل يطلب الحياة لنفسه دون غيره ، مهما كان ذلك من عناء أو ضحية ، وهو لا يتعفف في سبيل ذلك أن يفرغ مافي جعبته من قوة لابادة الآخر ، كلاهما يتسلح بما وهبته الطبيعة من وسائل الفتك أو المقاومة لكي يفوز بالنصر في آخر الأمر ، تلك سنة حياتهما كما هو الحال مع باقي أم العالم سواء بسواء .

والجسم الانساني يشبه في تكوينه وترتيبه ونظامه إحدى ممالك العالم ، لأنه مكون من خلايا أشبه بالكائنات الحية ، فلاحرج علينا إذن إذا استعملنا اصطلاح « مملكة الجسم البشري » عند الكلام على دفاع الجسم ضد العدوى ، وكما أن لكل مملكة حدودها الطبيعية من جبال وسواحل بحرية وجيوش تعاضد ، ووسائل متنوعة لصد العدو ، أو الفتك به ، كذلك مملكة الجسم لها حدودها الطبيعية التي تفصلها عن عالم الكائنات الأخرى ، وطا وسائلها في الكفاح والقتال ، فالحدود الطبيعية في مملكة الجسم هي الجلد مع ما يتبعه من البشرة القرنية ، والغدد الشحمية ، والغشاء المخاطي الذي يبطن التجاويف الأنفية والحلقية ، والمسالك الرئوية ، والقناة الهضمية .

فالجلد هو ذلك السور الذي يشبه في أهميته ما كان لسور « بكين » بالصين من أهمية في صد غارات الأعداء عليها ، بل هو الدرع الذي تنساق تحته قابل العدو عاجزة عن تحطيه ، ونحن إذا فحصنا تلك الطبقة التي تغطي وتحمي كل جزء في جسم الانسان ، وجدنا على سطحها أنواعا لاتحصى من الميكروبات . منها العاطلة . ومنها المرضية كيكروبات التقيح الصديدي ، وهذه الميكروبات وغيرها من الميكروبات الخبيثة (كيكروب الدرن أو الكزاز) لا يمكنها أن تنفذ من ذلك الدرع القوي طالما لا يوجد فيه أية ثغرة تنسرب منها إلى داخل البدن ، وهذه القوة الدفاعية الخاصة بالجلد ليست قوة ميكانيكية لحسب ، بل هي تتوقف أيضا على بعض عوامل أخرى تتصل بها ، فهناك مثلا العرق المعروف بمحوصته التي لاتلائم حياة الميكروبات وخصوصا الميكروبات المرضية ، وهناك حركة التجديد المستمر في الطبقات السطحية للجلد حيث يقذف هذه الأجزاء أولا بأول ، فيزيل باستمرار ما يجمع عليه من كائنات حية ، خصوصا إذا ساعدناه في أداء مهمته باتباع ما وصلنا إليه من تعاليم النظافة والتجميل ، فأعطيناه حقه من الغسيل والاستحمام .

الميكروب في داخل الجسم

وليت الأمر يقتصر على ذلك ، فإن جسم الانسان أو الحيوان وهو يتنفس أويأكل كل أو يشرب يحتذب إلى داخله هذه الأعداء ، عند ما تكون معلقة في الهواء ، أو مثبتة في الغذاء ، أو صابحة في المشروبات . (وبعبارة أخرى) تفصل هذه الميكروبات مباشرة بالغشاء المخاطي للقم والحلق والمعدة والأمعاء وأعضاء التنفس ، ولو أن الغشاء المخاطي بطبيعته أقل مقاومة لهجوم الميكروبات من الجلد إلا أنه يمتاز عنه بأن مادة مخاطية يفرزها ، وهذه المادة اللزجة التي كثيرا ما تعافها أنفسنا لها أهمية جلية في قنص الميكروبات كما يقتص ورق الصمغ اللزج ، ثم بعد قنصها تنقلها إلى خارج الجسم بواسطة العطس ، أو السعال ، أو المنخط ، ولكي آين لكم شأن هذه المواد المخاطية في طرد الأجسام الغريبة إلى الخارج أدرك لكم أن العلامة (هبس) لاحظ أن العادل الذي يشتغل عشر ساعات يوميا في الأسمت يستنشق في السنة ما يقدر بـ ٣٠٠ جرام من هذا التراب ، فإذا استمر في عمله هذا عشر سن عاما يجب أن يكون قد استنشق نحو

سنة كيلو جرامات من الأسمت أودعت في جوفه كلها ، اللهم إلا اذا تخلص منها بواسطة العطنس أو البعق كما ذكرنا ، وعلى هذا القياس يمكنكم أن تنهقروا المقدار الكبير من الأجسام الغريبة التي يمكن أن يتخلص منها الجسم بواسطة أغشيته المخاطية وعملها العجيب . وليست وظيفة الغشاء المخاطي وظيفة ميكانيكية ، بل ان له أيضا قوة خاصة في إبادة الميكروبات ، فقد دللتنا الاختبارات على أن مخاط الألف ، ودموع العينين ، لها هذه القوة ، لاحتوائها على نوع من الحمائر ، نسمى الحمائر المحللة « ليزوزيمات » تذيب وتحلل الميكروبات فتقتلها اذا ما اختلطت بها ، ورغما من وجود هذين الحازرين : المخاط والحمائر ، فقد تصل الميكروبات مع ذلك إلى القسبة الهوائية وشعبها ، ولكنها لا تبلغ إلى الرئة نظرا لوجود خط آخر من خطوط الدفاع يقف حائلا في طريقها ، ذلك الحائل هو الأهداب الموجودة على سطح الغشاء المخاطي لهذا الجزء من الجهاز التنفسي ذات الحركة الدائمة من أسفل إلى أعلى أي إلى جهة الفم ، طاردة بذلك كل ما يكون قد بلغها من أجسام غريبة ، أو كائنات مؤذية . أما اذا دخلت الميكروبات مع الأكل إلى المعدة فانها تلتقي هناك بالصبر المعدى الذي يحتوي حامض ايدروكلوريك بنسبة ١ إلى ٢ في الألف ، وذلك النسبة كافية غالبا لقتل الميكروبات المرضية ، غير أنه يعوق عمل هذا الحامض (أولا) إن الميكروبات تكون غالبا مغطاة بمخزيات الطعام التي تحول بينها وبينه (وثانيا) ان المعدة قد تكون سريعة العمل في اخراج ماها إلى الامعاء ، فتمر الميكروبات بها سراعا قبل أن تقع تحت تأثير عصيرها المظهر ، ولكي أثبت لحضراتكم قوة الصبر المعدى في قتل الميكروبات أذكر تلك التجربة المشهورة في تاريخ علم البكتريا التي قام بها العلامة (بينيكوفا) وتلميذه (ابرج) التي أرادا بها أن يثبتا تأثير جرثوم الكوليرا على معدة سليمة وأخرى مريضة ، فتناول أولهما عدة ستيجمات مكعبة من مزرعة الميكروبات في المرق ، أي أنه تناول آلاف الملايين من الميكروبات ومع ذلك لم تظهر عليه أية أعراض مرضية مطلقا ، أما تلميذه الذي لم تكن معدته صالحة كعدده أستاذة فانه أصيب بكوليرا حقيقية ، وكاد ياتي حتفه ، وهذا يدل على المهمة الخطيرة لهذا الصبر .

بقى أن نعرف ما يحدث اذا ما وصلت ميكروبات الأمراض إلى الامعاء ؟ وهنا أيضا نجد نفسها أمام عقبات ونهدد حياتها عدة أخطار ، فأولا عدم ملاءمة الجو هناك لمعيشتها ، ففي الامعاء لا يوجد غاز الاكسوجين ، وهذا العنصر الهوى لفالية الميكروبات المرضية والتي لا يمكنها أن تعيش بدونه ، وثانيا التزاحم الذي يلاقيه من الميكروبات الحيدة التي تحيا وتعيش في هذا الجزء من الجسم ، ففي الامعاء يعيش دائما ميكروب هادى ودع سالم يسمى (ميكروب القولون) يعيش من فضلات التغذية كما أنه يقوم بدور ليس بالضئيل في عملية الهضم ، وهذا الميكروب يحكم جويته يحرم الميكروبات المرضية من غذائها ، فيجرمها بالتالى سبيل الحياة . بل هو يعمل أكثر من ذلك ، لأنه يمنعها من النمو والتكاثر بما يفرزه من مستحضات وفضلات . إن هذه الحقائق التي ذكرتها إن هي إلا صورة من الموانع الطبيعية التي تقي مملكة الجسم البشرى ، ولكن الخطر الحقيقي يحدث اذا ما اخترق العدو الحدود ووطأت قدمه أرض هذه المملكة ، هل يعلم أهل البلاد ويلقون سلاحهم أمامه ياترى ؟ أم هناك أسلحة أخرى يدافعون بها عن كيانهم وحياتهم ؟ ذلك ما سأشرح لحضراتكم فيما يجي من الكلام :

الخلايا البالعة

إن الجسم البشرى ككل الكائنات الحية ، يخضع لقوانين الطبيعة ، وكل كائن حي يعمل لحل وهضم كل ما يدخل إليه من مواد صلبة أو سائلة ، وذلك بواسطة عملية الهضم وتحويل هذه المواد الغريبة إلى أنقى تدخل في تركيب أروبياه ، هذه العملية تشاهد في أمعاء صورها في الحيوانات المركبة من خلية

واحدة ، وهي التي نسميها « الاميبا » فهذه الاميبات تزحف بواسطة أرجل تطلق عليها « الأرجل الكاذبة » لتجذب في البحث عن غذائها المكوّن من الميكروبات والطحالب ، فتأخذها في داخلها وتمصمها . ولما كانت عملية الاغذاء هذه قاصرة على الالتئام فالبلع ، فقد أطلقنا عليها اسم الخلايا البالعة ، أو البلعمات ، كما اننا أطلقنا على هذه العملية اسم « البلعمة » .

ولست عملية البلعمة قاصرة فقط على هذه الحيوانات الدنيئة ، بل يكاد يكون في كل حيوان بعض من الخلايا مازال محافظا على هذه الخاصية ، فمثلا توجد في جسم الانسان خلايا الدم البيضاء ، والخلايا المبطننة لتجاويف البطن والسدر والأوعية الدموية والليمفاوية ، وهي خلايا لها قدرة على التهام وبلع الأجسام الغريبة وهضمها . أما وقد عرفنا أنه يوجد بالجسم خلايا لها قوة بلع المواد الغريبة عنه ، فلنعد الآن إلى نقطة دخول الميكروبات إلى الجسم .

دعونا إذن نتصور أن واحدا منا قد وخّزه إبرة ، فإذا كانت الابرة نظيفة فان الانسان يشعر فقط بالألم الوقتي ، ومن ثم يلتئم الجرح ، وينتهي الأمر ، ولكن الحال تختلف اذا كانت ملوثة تحمل بعض الميكروبات التي قدر لها أن تنفذ من الجسد داخل البدن ، فلو كانت هذه من الميكروبات العاطلة الزمالة التي تنفذ على المتخلفات النباتية ، أو الحيوانية طان الأمر ، لأنها تموت أو تنحل بواسطة خلايا الجسم الحية ، أما لو كانت هذه الميكروبات المرضية التي تستدق الدم وتستمره ، وتعرفت حلاوة ما يحتويه البدن من محاسن الغذاء فاستغابته ، وتعفت عن غيره من الطعام ، تقول لو كانت كذلك لكان لها شأن آخر ، إذ لا يمكن لخلايا الجسم أن تتخلص منها بسهولة ، لأنها تتميز عن تلك بسمومها التي تهاجم بها الخلايا فتعطّلها وتشلها عن القيام بواجبها .

الحرب بين الميكروب والخلايا

وصل بنا الحديث إلى أن الميكروبات ، وهي أعداء الجسم قد تمكنت من اختراق الحواجز الأمامية والاستقرار في الجسم ، ولم يبق أمام قوة الدفاع وهي الخلايا إلا أن تمنشق حسامها ، وتخوض غمار حرب ضروس لارحة فيها ولا شفقة ، حرب للحياة أولوت ، لا تختلف في معدتها وآلاتها عن حرب الجيوش البشرية كما أن جنودها لا تنقصهم آيات البطولة والتضحية ، والآل اسمعوا لي أن أروي لكم قصتها كما تراها تحت الميكروسكوب :

تدخل الميكروبات مملكة الجسم ، فتجد نفسها في أرض جديدة غريبة عنها ، فتجمع أمرها ، وتزم شملها ، ثم تسلو على الخلايا المجاورة لها تبتز منها غذاءها ، ثم تنكأ على طريقها بالانفلاق إلى اثنتين ثم أربع وهمّ جوا ، وبعد ذلك الاستعداد لتبدي في هجومها ، فتفت من أجسامها سباعا ترمى به أفراد المنطقة التي احتلتها ، واذ ذاك لا تستطيع الخلايا أن تنف مكتوفة اليدين ، بل تعتمد على الفور إلى الدفاع عن نفسها ، فتقف عليها سيلان المسل الدموي ، يهون من فعل هذا السم ، ويخفف من حدته ، ثم تنجلى المعركة الأولى عن قتلى وأشلأ من خلايا الجسم ، ثم تتحلل هذه الأشياء إلى عناصرها الأولية كما يتحلل كل شيء عند مئاته ، وتحمّلها مياه الوطن إلى كل جهة من جهاتها كأنها نذير بالخطر الذي يتهده ، وبالكلثة التي حلت به ، ولانثب أن نرى الجمأة تخرج من معاقها ، وما تلك الجمأة ؟ وما هؤلاء الجنود ؟ إلا الخلايا البيضاء ، أو البلعمات التي ذكرناها ، والتي يقع عليها عبء الدفاع عن أرض الوطن ، إذ لا يمضي زمن طويل حتى تمتد الأوردة الشعرية فتزبد كمية الدم صوب المنطقة المصابة ، وعند ما اتصل البلعمات السابحة في مجرى الدم إلى تلك المنطقة تنقل إليها وتدخل ميدان القتال زاحفة كما تزحف الاميبا ، فرادى في أول الأمر ، ثم

جهايات بلطات وبالوف ، وعندئذ تصيح الحرب سجالا ، فليكرو بات تنفث سموها ، والجسم يهرقل عملها بسيل من المسل ، فتنفخ المنطقة المصابة ونحمر ، وذلك ما تعرفوه بالالتهاب ، ثم تقترب البلعات رويدا رويدا من العدو ، وتأتيه من أمامه ومن خلفه ، ومن الجناحين ، وتحوطه من كل النواحي ، ثم يأتيها المدد من آن لآخر ، فترداد عددا ، وتشتد حصارا عليه ، ثم تبني سورا منيعا حوله يفصله عن باقي الجسم ، والى هنا تكون قد انتهت المناوشات والمناورات ، وتبتدىء بعدئذ المجزرة البشرية ، فتتقدم كل بلعة إلى الميكروب الذي أمامها تطبق عليه بجسدها حتى تنبلعه في جوفها لتقله ، وقد ينجح الكثير من هذه البلعات في قتاله وقد يموت البعض شهيد الواجب ، ولكن العدو لا يستسلم للبأس ، ولا يسلم بسهولة ، بل يعود إلى تنظيم صفوفه من جديد بعد أن يلاها بمحاربي آخرين ، بدل العشرة مائة ، وبذل المائة ألفا ، هذا من ناحية الميكروب ، أما من ناحية الخلايا فانها أيضا تصلها النجدة والمدد ، وتشتاق المعركة من جديد على أقصى ما يكون من الشدة ، ولكن إلى متى تستمر فرق الجيوش بعضها أمام بعض تتطاحن وتتقاتل : بل إلى متى تتحمل المملكة هذه الحرب ؟ لا يمكن أن تستمر الحال طويلا ، وأذن لامتدوحة عن التعبئة العاتمة لكل محارب ، وكل من يمكنه حمل السلاح .

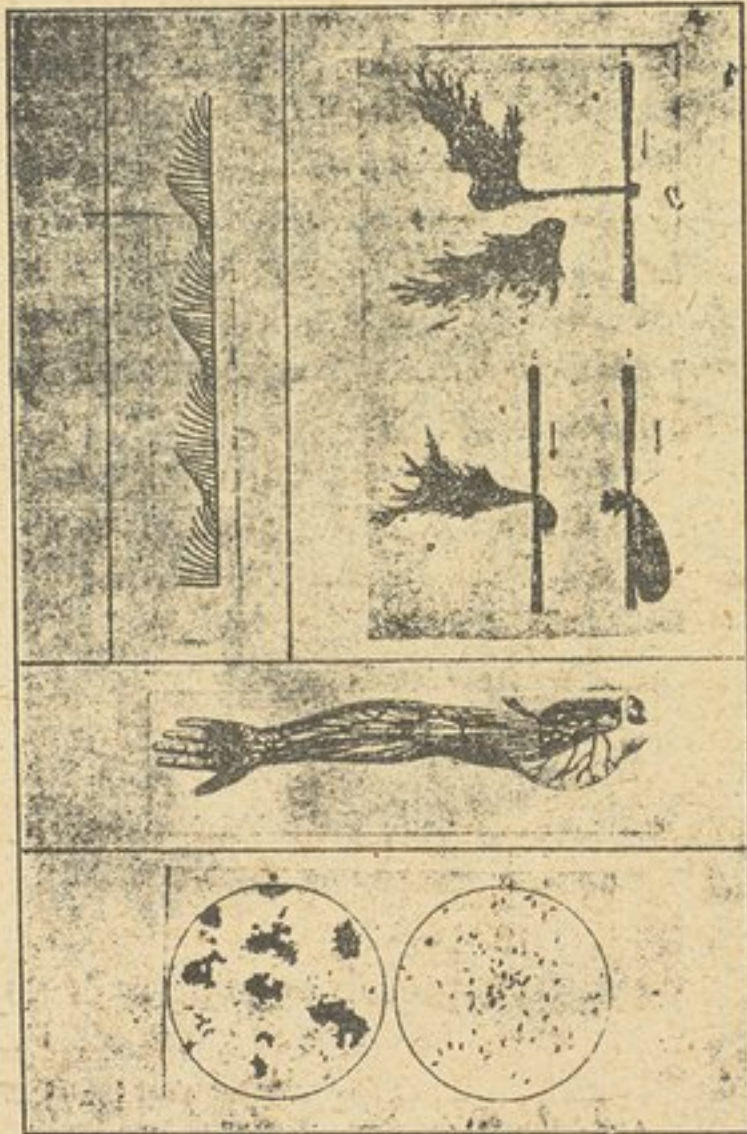
الآن نهرج كل بلعات السم إلى القتال على جناح السرعة ، ونخرج الرديف منهم والمخزون في مستودعات الطحال ونخاع العظام إلى ميدان القتال ، وهنا نسبح دقات ناقوس الخطر « الجسم في حنى » لقد حشد الجسم الآن آخر رجل في ثكناته للقيام بأخر مجهود ، فاما نصر ، واما هزيمة ، وهل يتم له النصر ؟ من يدري ربما كان كذلك ، لأن العدو وإن كان قد زاد عددا إلا أنه لم يتوغل كثيرا في أرض الوطن ، بل أصبح محاصرا في مكانه ، وإذا كانت مملكة الجسم قد جربت حرب الخنادق ولم تفلح فيها كثيرا فلم يبق بئس تغيير خطة الحرب كما يفعل كل قائد ماهر في مثل هذه الأحوال .

الآن تبتدىء المملكة في تضحية جزء منها لكي يسلم المجموع ، ومن ثم يقع تنفيذ هذه المهمة على عاتق البلعات أيضا ، فهي تبتدىء في اتلاف النسيج المصاب أولا بقتل الخلايا وثانيا بهضمها وتحولها إلى عسيدة سائلة ، فينشأ عنه تجويف ملؤه بهذا السائل ، أو تعلمون ماهو هذا التجويف ؟ هو الخراج الذي يظهر في موضع حصار الميكروبات ، والسائل هو ذلك الصديد الأصفر المكوّن من أنسجة مهضومة ، وآلاف من البلعات وملايين من الميكروبات ، ثم يأخذ هذا الخراج في الازدياد ، وكلما ازداد حجما كلما صار أليّن وأميع حتى إذا لمس أحسن الانسان يترجرج السائل فيه ، وليت عمل البلعات يقف عند هذا الحد بل انها تتجه صوب الجلد فتلتفه وتمضمه من أسفل حتى ترقق طبقة وتحدث ثغرة فيه فيندفع الصديد إلى الخارج ومعها الميكروبات .

الآن والآن فقط قد طرد العدو خارج المملكة بعد معركة حامية كان النصر فيها غالبا ، لقد كفنها ثمنا غالبا وتضحيات في أفرادها ، ولكن مهون كل ذلك مادامت المملكة قد أهنت ، وهنا يبدأ بال الجسم على مصيره وكيانه ولكن البلعات هؤلاء الحماة الأشداء لا يهدأ لهم بال وفي الجسم جراح فيعمدون إلى عملية الاندمال لأنهم أبناء المملكة البررة وعقتها في الحوادث والملمات ، ويجب عليهم أن يظهروا ميدان القتال من جيش أعدائها ، ومن أشلاء مواطنيها ، حتى يمكن للجلد أن يتجدد ويسد الثغرة ، ويكون ذلك بأحداث ندبة تبقى على عمر السنين والأعوام كمنصب تذكارى يفخى بمكان المعركة وبالنصر الذي فاز به الجسم ضد أعدائه الخفريين .

سادق : عند ما وصفت لكم المعركة الأولى قلت لكم : ان البلعات تقترب رويدا رويدا من العدو ، وتأتيه من أمامه ومن خلفه ، ومن الجناحين ، وتحوطه من كل النواحي ، وتحاصره إلى أن تبني من نفسها

سورا منيعا حوله ، يفصله عن باقى الجسم ، ولكنه قد يحدث أن يكون العدو من شدة البأس والقوة ما يجتذ من أن يحطم جزءا من هذا السور وتفسد بعض جنوده داخل المملكة ، فما العمل إذن ؟ هل تتركه المملكة يسلب فى أحشائها فيبعث فى البلاد فسادا يودى بحياة كل من يقابله فى طريقه من الأحياء ؟ أم هل اتخذت المملكة أهبتها مثل تلك الكوارث ؟ نعم انها لم تكن غافلة عن ذلك منذ نشأتها ، لأن فى داخلها حصونا وقلعا ملاءى بالجيوش على أتم استعداد لمثل هذا اليوم الصعب ، وتلك الحصون والقلاع هى التمدد اليمفاوية ، فإذا ما اخترق العدو جوانبها الطبيعية ، ونحطى خط الدفاع الأول فان مجرى اليمفا محله إليها فيلاقى حتفه فيها ، وذلك لأنها عبارة عن نكتات ملائى بالبعصات المقاتلة .
ويوضح لك أيها الذكي ما تقدم ما تراه فى هذه الصفحة فى (شكل ١ و ٢) فانظره ترى الجيب الجلب ا
وهناك صورته :



بين — — (فوق) : حركة الأهداب التوجيهية . (تحت) : شكل البعصات لدى خروجها من الأوعية الشعرية
وسط : القدد والجارى اليمفاوية — يسار : تجمع البكتيريا بواسطة اللزنت



(شكل ٢)

فوق : تمتد الأوعية وابتداء انتقال البلعمان إلى المنطقة المطلوبة .

وسط : شكل الأميبا .

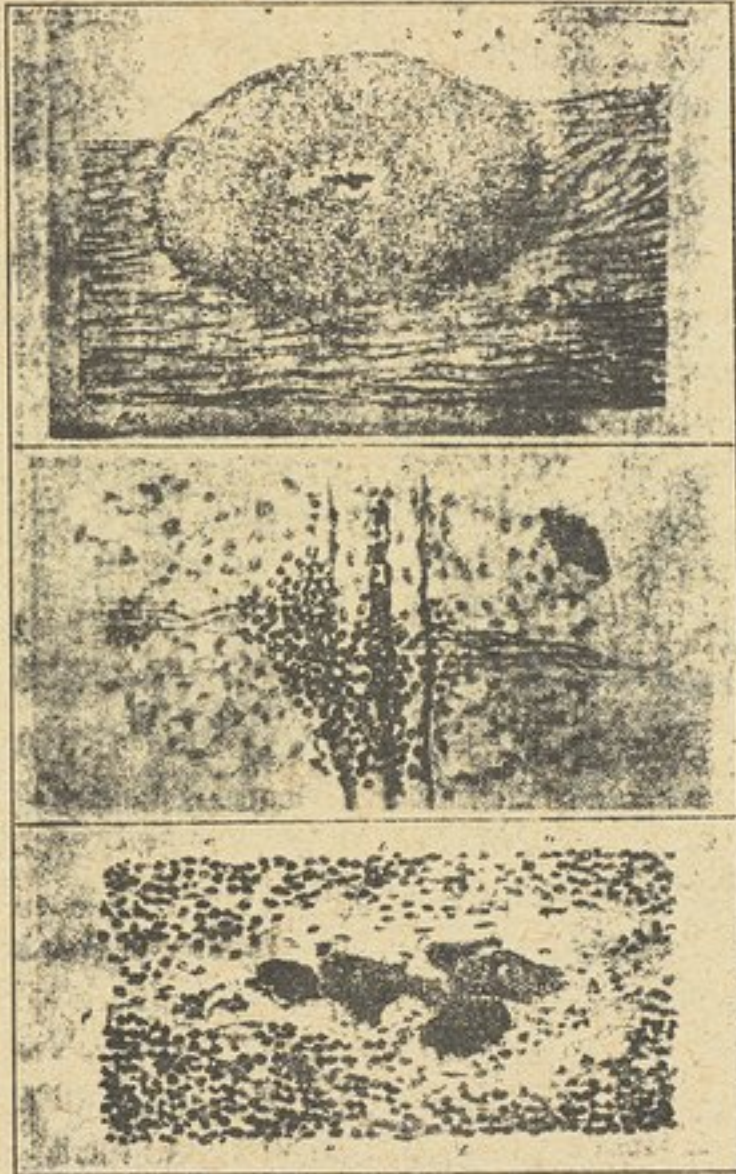
تحت : الخلايا الهدية المبطنة للقصبة الهوائية .

ولكن أقرب ذلك إلى الفهم أقول : إن أغلبكم يعلم أنه عند حدوث بعض الجروح في اليد ، أو الفراع ، ينشأ عن ذلك ورم صغير مؤلم تحت الأبط ، وما ذلك الورم الصغير إلا عبارة عن غدد للجفافية نهي نفسها للدفاع عن الجسم فتملأه بالبلعيمات التي تقف في سبيل الميكروبات المفيرة عليه .

ولكن قد يحدث أن العدو بفضل قوته وضعف مقاوميه قد يتخطى أيضا خط الدفاع الثاني كما يحدث أحيانا في الحروب العادية ، أي أن القلاع (أي الغدد الجفافية) لا تقوى على صد غارات الأعداء المهاجمة فإذا يكون العمل بعد أن أصبح العدو الآن حرا طليقا في حركاته ، لاجنود أمامه تقائله ، ولا حصون تعوقه ؛ بل هو ينسب في البلاد ، سائرا في طرقها الرئيسية ، أي في الأوعية الدموية ، ملتصقا الغذاء والحياة لينمو ويتكاثر فيها ، إذن الويل ثم الويل لهذه المملكة البائسة التي تصبغ فترى أن في كل زاوية من زواياها ، وفي كل مقاطعة من مقاطعاتها أجنبا يذيقها الهلاك والردى .

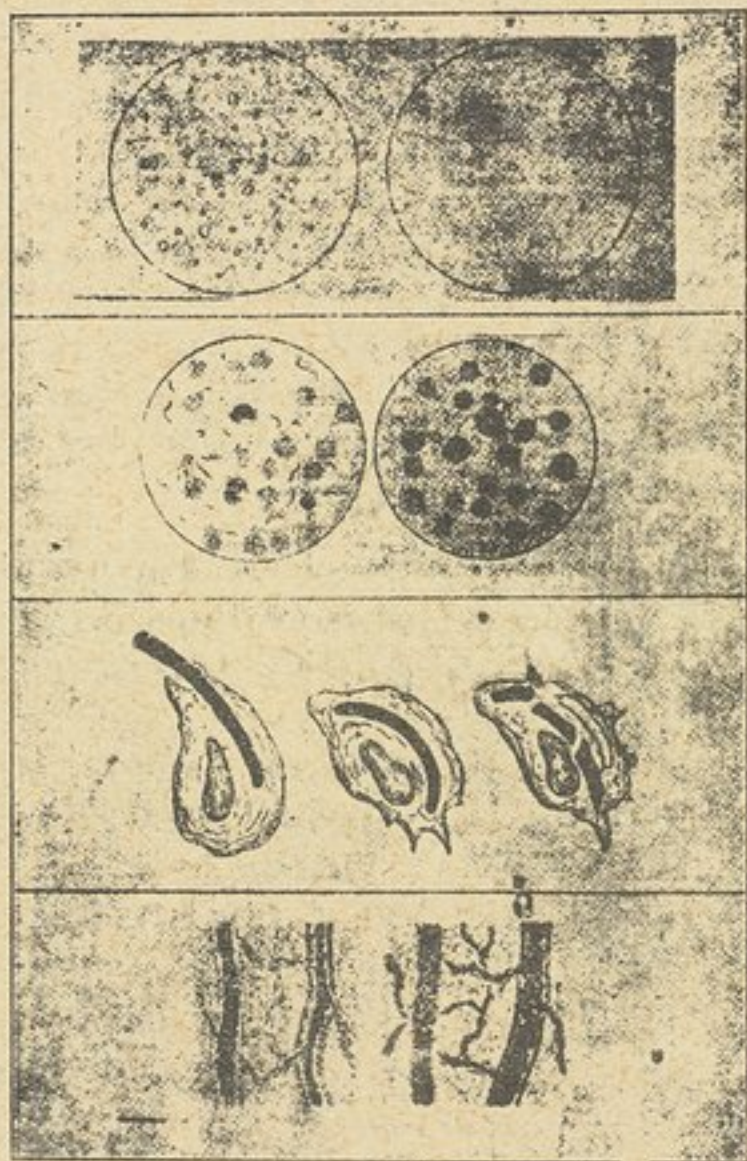
وإذا كان هذا هو الحال في ممالك الأمم فليس هو كذلك في مملكة الجسم البشري القوية المنظمة ، وما ذلك إلا لأنه لم ينضب بعد معين دفاعها ، وما زالت تحتفظ بوسائل أخرى للدفاع ، إن في دمها الذي يجري من قمة رأسها إلى أخمص قدمها ، ومن طرفها الأيمن إلى طرفها الأيسر من الوسائل ما هو أشد قوة وأكثر فضلا من الوسائل الأخرى التي شاهدناها إلى الآن ، وهذه الوسائل المدخرة للأيام العصيبة أي عند ما يتسمم الدم وتفسر النيران فيه . قلت انهم ، والأحرى بنا أن نقول مصل الدم أي ذلك الجزء المنافع منه الذي يمكن فصله بعد تحننه من الجلطة الدموية ، إن هذا المصل الذي يحتوي على مواد مهلكة تبيد الميكروبات سماها العلامة (بوختر) الذي كان أول مكتشف لها ، والتي يمكن أن يعبر عنها بالعريية « بالمواد الداحرة » وبالطبع لا يمكننا مشاهدة عملية قتل الميكروبات كما نشاهد ظاهرة البلعيمات تحت الميكروسكوب ، ولكن يمكن تدعيمها بواسطة التجربة ، وذلك أنه إذا أخذنا جزءا من المصل الدموي ، وأضفنا إليه قليلا من الميكروبات الحية ، ثم أخذنا من هذا الخليط نماذج في فترات متعددة وزرعناها على البيئات الملائمة لنموها الميكروبات رأينا أن عدد الميكروبات النامية على المسبب يقل شيئا فشيئا حتى ينتهي الأمر إلى عدم العثور عليها ، لأنها تكون قد ماتت وأبيدت من جراء تأثير المصل عليها ، كذلك توجد في المصل مواد أخرى أقل فعلا من المواد الداحرة ، فهي لانهالك الميكروبات وقتلها ، ولكنها تسهل حركتها فقط ، وتجدها على بعضها كتلاكتلا مانعة إياها من المرح داخل البدن ، وفي الوقت نفسه تسهل للبلعيمات إلتهاها وتدميرها ، هذه المواد هي التي اكتشفها كل من « جرورير » و « درهلم » و يطلق عليها اسم « الاجلوتينات » أو « الملزبات » سادتي : إلى هنا قد وصل بنا البحث إلى أن وقاية الجسم ضد غارات الميكروبات هي وقاية خلوية خلطية ، أي انها وقاية تستند إلى فعل الخلايا الأكلة ، أو البلعيمات ، وإلى أخلاط البدن ، أو المصل الدموي . (وترى في الشكاين الآتين في الصفحتين التاليتين وهما شكل ٣ و ٤ ما يوضح لك هذا المقام) . بقي أن نتحدث قليلا عن الوقاية النوعية ،





(شكل ٣)

- فوق : اتجاه البلعمان نحو الجلد لضمه .
 وسط : خروج البلعمان إلى ميدان القتال .
 تحت : البلعمان تحاصر الميكروبات .



(شكل ٤)

- فوق : إبادة الميكروبات بالمواد الدائرة .
 تحته : إتهام البلعصات للميكروبات .
 تحته : إتهام البلعصات للميكروبات .
 تحته : البلعصات لدى خروجها من الأوعية الشعرية .

الوقاية النوعية

إن البدن لا يقف حيال العدوى عند حد الاستعانة بوسائله الطبيعية في مكافئها ، بل هو قادر أيضا على تجديد ما فقدته من المواد الواقية ومن البلعمات المسكخة التي تكون قد سقطت في ساحة القتال أثناء الدفاع ولكن عملية التجديد هذه لا تنف عند حد الاستعاضة بحسب ، بل انها تنزع في العادة إلى التعويض المفرط ، وانه لمن أعجب النظم في الكائنات الحية ما شاهدته فيها عند مقاومتها للعدوى كيف انها تتعلم أن تقاوم بنوع خاص صنف هذه العدوى ، فخلا اذا كانت العدوى حصى تيفودية وجه البدن كل قواه إلى تحضير المواد الواقية ضد ميكروب التيفود ، وان كانت العدوى كوليرا مثلا قام البدن بتحضير المواد الواقية ضد ضمات الهيضة الأسيوية وهكذا دواليك أي أن الوقاية تصبح كما يعبر عنها وقاية نوعية .

سادنى : لقد حاولت أن أبسط لكم اليوم بطريقة سهلة كيف يحافظ الجسم على كميانه من غارات الميكروبات وسمومها ، ولست أخفي عنكم انها محاربة ناقصة ، إذ يضيق في المجال لو ذكرت لكم كل الحقائق التي أظهرتها الأبحاث العويصة ، والتجارب العلمية ، التي أجريت في السنوات الأخيرة على مقاومة الجسم للأمراض ، ولكن يكفي أن تعلموا أن البدن يدافع بنفسه عن نفسه .

الخلاصة

والخلاصة أننا حقا مدينون إلى مقاومة وقدرة خلايا الجسم ، وبالحرى إلى الخلايا الأكلة (البلعمات) في الدفاع ضد الميكروبات وسمومها القتالة ، وهذه الخلايا لا تقوم بمعها الجليل الذي وصفناه إلا لأن تلك هي وظيفتها التي اختصت بها بين أفراد مملكة الجسم البشرى ، ولولا هذه الاداة الواقية لاندثرت البشرية منذ زمن طويل .

ولقد عرفتم الآن كيف أن الجسم يبدي في حياته اليومية الملايين من الميكروبات دون أن نشعر بذلك ودون أن يعلن عن نفسه ، أو يفتخر بعمله ، انه في حرب صباح مساء مع أعدائه ، مضحيا بالآلاف من أفرادها في سبيل الحياة ، ولكنني أشعر أنكم تنسألون فيما بينكم قائلين : اذا كان الأمر كذلك فلماذا إذن تحدث الأمراض المعدية بكثرة ؟ ولماذا نقتاب الانسان الأورثية بين حين وآخر ؟ والجواب على ذلك هو انه في بعض الأحيان يكون هجوم الميكروبات بشدة وقسوة بحيث يخر الجسم فريسة أمامها قبل أن تأتيه النجدة من جنوده ، على أنه اذا كان هناك سبب آخر يجب أن تعرفوه وتتخذوا الحيلة له فذلك السبب هو تشيبر الجنود ، وتقص مهمات الدفاع والكفاح ، والمعروف أن تقص وسائل الدفاع يكون عادة في الممالك الضعيفة . وكذلك الحال في مملكة الجسم الضعيفة فان وسائل الدفاع لديها تكون أيضا ناقصة ، أولانا نلاحظون أن نسبة الأمراض المعدية أكثر بين الفقراء منها بين الأغنياء ، ولم ذلك ؟ أليس لأن أفراد هذه الطبقة هم بكل أسف ضعاف في تركيب بنيتهم ، ضعاف في أجسامهم ، لسكاهم في المنازل الضيقة التي لا تتخللها الشمس ولا الهواء ، ضعاف بغذائهم القليل الضئيل ، ضعاف بتعبهم ونصبهم في الأعمال الشاقة المضنية التي يجب أن يقوموا بها لكسب معاشهم ، فاذا عرفنا ذلك ، أصبح لزاما علينا أن تقوى أجسامنا ، ونزيد في مكانة أبداننا كي نعطي جنوده القوة والنشاط للكفاح والدفاع .

فالى العمل بنظام ، والى الراحة بقسط وافر ، والى الخلاء حيث الشمس والهواء ، والى الرياضة البدنية حسب مقتضيات المزاج .

إننا بهذه الوسائل نكون حقا قد قمنا بالواجب علينا نحو أجسامنا ، وهيأناها للدفاع عن أعضائها . انتهى ما أردته من المجلة المذكورة والحمد لله رب العالمين .

فلما سمع صاحبي هذا القول أعجب به أيما إعجاب ، وقال : لله در هذا الطبيب الخطيب ، لقد أجاد وأفاد وأبدع في تصوير هيئة الجسم والجنود المجندة فيه مما لم يسبق له فيما أعلم نظير ، ولكن لما كانت آية : « ولله جنود السموات والأرض » غير خاصة بجسم الانسان ، بل أن الآية عامة ، وقد فتح الله الباب بهذا القول أحييت أن تسمعني ، قولاً عاماً به فهم كيف تكون تلك الجنود المجندة في السموات والأرض بقدر الامكان . فقلت :

فصل في جنود الإحياء والامانة . والظلمة والنور

- (١) بجند الكهرباء السالبة والموجبة .
- (٢) وجند الجوامد ، والسوائل ، والغازات ، والنيران ، والمياه .
- (٣) وجند الميكروبات التي للحياة ، والتي للامانة .
- (٤) وجند الأغذية والسموم للحياة والامانة .
- (٥) وجند الحشرات ، والطيور ، والهُوام ، والبهائم ، والأنعام ، إحياء وإمارة .
- (٦) وجند النوع الانساني إحياء وإمارة .
- (٧) وتبين أن نوعي الجنود المذكورين يكونان ماديين ومعنويين ، فهنا أربعة أنواع من الجنود
- (٨) تبين جنود الامانة في أم الاسلام التي منقت شملهم مادّية ومعنوية قبل زماننا .
- (٩) وجنود إحيائها في هذا الزمان بقسميها : معنوية ومادّية .

مسامرة

فقال : حدثني رعاك الله عن هذه الجنود كلها ، فإن هذا فتح لباب العلم وجمال الحكمة ، ولم يكن ليخطر لي أن الأمر ينفع حتى يصل إلى هذا الحد ، وأن في الأضواء والنيران والمياه جنوداً ، فلفل في الأمر أسراراً وأنواراً .

الكهرباء السالبة والموجبة

فقلت : اعلم أيديك الله بنصره ، وأعزك باعزازه ، ان هذه المادة التي نعيش فيها (كما تقدم في سورة النور عند آية : الله نور السموات والأرض) لوجود لها : فهذه الشمس والأقمار والسيارات والثوابت والأرضون وما عليها من الأحياء والجمادات ، كل هذه لوجود لها ، وما هي إلا ذرات ضوئية ، أبدعتها الحكمة الالهية ، فكان منها السالبة ، ومنها الموجبة ، هذا خبر هذه الدنيا ، وهذا أول الوجود المادى وآخره ، وليس لعماء عصرنا علم فوق هذا ، فهذه العوالم كلها ظواهر لهذه الأنوار سالبة وموجبة (انظر معنى السالب والموجب في « سورة الرعد » فهناك شرح هذا الموضوع شرحاً وافياً عند آية : هو الذي يريكم البرق الخ) ولا يقرب هذا لنا إلا مانعه في نفوسنا .

الله أكبر : نحن نحس في أنفسنا بصور ، وهذه الصور لامادة لها ، وهي تظهر فيها ولا يطلع عليها أحد إلا نحن في مخيلاتنا (وأنت قرأت هذا المقام في « سورة العنكبوت » عند آية : « فاعلم أنه لا إله إلا الله » في رسالة « مرآة الفلسفة » وهذا المقام هو الذي به أمكن الخروج من الورطة التي وقع فيها أمم وأمم عن قبلنا من أيام سقراط وأفلاطون إلى الآن ، وهذا هو المخرج الذي فتحة الله للإنسانية للخروج من مأزقها الفلاني) فهذه الصور التي نحس بها في نفوسنا بلامادة تصور فيها تسهل لنا تصور ما يقوله علماء عصرنا : « إن أصل المادة إنما هو الكهرباء السالبة والموجبة ، فإذا كان الانسان يحس في نفسه بصور لامادة لها

فليس بهيب أن يرى أن هذه الدنيا كلها مكتوبة من كهرباء تشتمل على سالبة وموجبة ، وبالكهرباء السالبة وبالكهرباء الموجبة كانت هذه الدنيا كلها ، فلامادة لهذا الوجود العظيم الذي اخترعه صانع الكون كما لامادة للصورتين محسوس بها في فوسنا ، والتي عليها مدار حياتنا كلها وسعادتنا وشقاتنا في حياتنا .

خطاب الله عز وجل للعالم

ولم أجد قولاً جامعاً لما أريده في هذا المقام مما ألقاه الله بطريق الإلهام على أحد الصالحين الملازمين لقراءة هذا التفسير ولقد كر الله ليلاً ونهاراً ، حضر عندي منذ أيام وقال لي : بينما أنا أذكر الله ليلاً إذ خيل لي كأن الله عز وجل يخاطب العالم مبتدئاً بالكهرباء الأولى وهو يقول : أيتها الكهرباء ، أنت من آثار نوري فلترعى في حركاتك اسراعاً حينئذ ، ولتكن حركاتك في الثانية الواحدة من ٤٠٠ مليون مليون مرة إلى ٧٠٠ مليون مليون مرة ، ولتكن بهذه الحركات أنواع الأنوار الشمسية من الأجر إلى البنفسجي ، ولتكن هناك سبعة ألوان ، ولتكن مزاجاً واحداً ، وهيئة واحدة ، فتظهر للحيوان نوراً للشمس ظاهراً للعالمين .

إطاعة الكهرباء والأنوار لربها

فدارت الكهرباء كما أمرها الله ، وكانت منها الأنوار الشمسية والقمرية والكوكبية .

خطاب الله للأنوار أن تكون أسرع فتكون منها الغازات والسوائل والجامدات

ثم خاطب الله الكهرباء فقال : ها أنت ذرة قد أتيت طائفة وامتلئت أمرى ، فهذه أول خطوة من خطوات مخلوقاتي ، ألا تسمي : جدي السير مسرعة ، ولتكن لك في الثانية الواحدة نحو ستة آلاف مليون مليون حركة ، فليكن منك الهواء والماء والأرض والأحجار وكل نبات وكل حيوان ، ستظهرين أيتها الكهرباء لعون الناس والحيوان بهيئات مختلفات ، يحسونها فيقولون : هذا غاز ، وهذا سائل ، وهذا صلب ، وفي الحقيقة لا غاز ولا سائل ولا صلب ، ماهذه إلا أضواء كهربائية اختلفت سرعة حركاتها فاختلفت أفعالها فسميت حجراً وشجراً وماءً وهواً ، هذا أول الأمر وآخره ، وفي الحقيقة لا شيء ولا مادة ، وما هي إلا الحركات في عالم لا ترويه ، وهذه الحركات متنوعات ، ولهذا التنوع نتائج عجيبات . أيتها الهواء : ليكن فيك جند للأحياء وجند للإماتة فإذا اشتدت صوامفك وقوامفك فأنت إذن جند الملاك ، تهدم القصور والصور ، وتقلع الأشجار ، وإذا كنت خالصاً من الأعراض المؤذية من البرد الشديد ، والحر الشديد ، فأنت رحمة للعالمين . وأنت أيتها الماء : قم بمنافع عبادي ، وكن حياة كل حي ، وإذا أصابك عارض مما ذكرناه فأنت من جند الإبادة والهلاك ، وهكذا قال الله لكل حجر وشجر ونبات وحيوان : إنكن جميعاً تكونون جنودى في حصول الحياة كما تكونون جنودى في إحداث الممات . أيتها المخلوقات اسمي .

هنالك صرخت تلك المخلوقات مرة واحدة وقالت : رباه . لم نكن جند الحياة حسب ؟ ولم جعلتنا للضدين ؟ فقال لها : أيتها المخلوقات : إنكن لانعلمن ما أعلم ، أنتن من المادّة ، والمادّة ضيقة العطن ، قليلة الفطن ، لانسع كل ما أعلم من الصور والأجيال والأحوال ، فعلى يسع من الصور ما لا تحتمله مادّتك كما تفهمه عقولكم ، فأنا إذا جعلتكم جند الرحمة والحياة فقط لم يكن موت ، فيكون بخل في العطية ، ويكون العالم المادّي جيلاً واحداً يتى آلاف الآلاف من السنين ، وملايين الملايين من القرون والأحقاب ، فأنت بخل أظلم من هذا ؟ فلما هجرت مادّتك عن أن تسع هذه الصور كلها ، ولم تتحمل إلا صورة بعد صورة

نطقت فيها وقدرت الموت والحياة ، وأنفذت جندين : جندا للأحياء ، و جندا للإبادة ، لتسع المادة ما تحتمله من صور الأحياء بقدر الامكان ، فماكم أولاء يا عبادى :

(١) هذه الذرات الصغيرات اللاتي تعيش وتتكاثر في الأرض وتوالد بلا حسد ولا عمد ، ونفتت المواد الأرضية التي تصبح غذاء للنبات ، فهذه المادة نبات فطرى يعمل لحياة النبات المعاليم فهذه جنود نباتية أعدتها للحياة .

(٢) وهناك جنود أخرى من هذا النوع تتكاثر في المواد المتخمرة . نغدها للفساد وللهلاك (وهذا تقدم شرحه في بعض أجزاء هذا التفسير)

(٣) ثم انه لا طير ولادابة ولا حشرة إلا ولها عطف على أبنائها ، فهي تبنى العش ، وتطمم الفرخ ، أو ترضعه اللبن إلى آخر ما هنالك ، فهذه بهذا الاعتبار جنود الحياة .

(٤) ولا أسد ، ولا نمر ، ولا فهد ، ولا وحش ، ولا مقر ، ولا شاهين ، إلا وجعلت حياتها موقوفة على أكل الأراب ، والغزلان ، وجميع آكلات الحشائش من الحيوان . فهذه من هذه الناحية جنود الاهلاك .

(٥) ومن جنود الاهلاك الجراد الذى يسطو على المزارع فيأكلها فيجوع الانسان ويموت .

(٦) ومنها النمل الحاربه لئمل آخر فتهلكه بلاشفقة ولارحمة في جميع الأزمان .

(٧) أنا سلطت العنكبوت على الذباب إذ تصطاده بشبكاتها اللطيفات .

(٨) وسلطت طيور (العنز) على الجراد فيكون لها طعاما سائغا نافعا للآكلات (مذكور في سورة آل عمران عند قوله تعالى : بيدك الخبير الخ)

(٩) وألممت نبي آدم أن يأكلوا السمك ، والطير ، والأنعام ، كل هؤلاء جيوش الامانة والاعدام .

(١٠) كل هذه القاتلات المهلكات عاطفات على أبنائها ، وقلدة أكبادها ، فهي جنود السموات والأرض ، جنود الأحياء ، و جنود الاهلاك .

(١١) وهناك جنود لى في نوع الانسان ، وهذه منها الخير ومنها الشر .

(١٢) أنا أوحيت إلى الأنبياء أن يعلموا عبادى العلم والدين ، وأمرت بعضهم أن يستعمل السيف أحيانا ، وأمرت خاتم الأنبياء أن يكون له جنود معنوية ، و جنود حسية ، فالأولى هي المواعظ والحكم ، والمجادلة بالتى هي أحسن ، والثانية هي الجنود المجتدة بالسيف والسنان ، والضرب والطعان ، وأمرته أن لا يستعمل الجنود الحسية المادية الجرمانية إلا بعد أن يرسل الجنود المعنوية النورية ، فتكون تلك الجنود لاهلاك العاصيين ، ولحماية المطيعين ، فالجنود النورية العلمية ، والجنود الحسية المادية الانسانية تكون لانخافة الضالين ، واطمئنان المهتدين .

(١٣) هنالك ظهر في الوجود أمة اسلامية عظيمة ، لها كيان خاص ، وحياة منتظمة ، كأنها هيكل

إنسان حى ، هي أمة كفرد ، هم كالجسد الواحد .

(١٤) ولكنى عدل رحيم حكيم ، وقد سبق اتى قات لكم : ان حكمتى قضت أن هذه المادة يجب أن تسع الصور المختلفة ، فاذا أقيت هذا الهيكل الاسلامى بلا تغير مستمر فيه كان ذلك خطلا في

النظام ، فلا بد من التغير والتبدل ، لتحتمل المادة الأرضية جميع الأوضاع الممكنة .

(١٥) هنالك سلطت الشياطين على قلوب ملوك الأمويين ، والعباسيين ، والاشعديين ، والطولونيين

والسلجوقيين ، والأندلسيين ، والزياريين ، والغزنويين ، والحمدانيين ، والفاطميين ، والمماليك

البرية والبحرية ، والتمانيين وغيرهم ، فوسوسوا إلى كثير منهم بالاسراف في المطاعم والملابس

والنساء والظلم والقتل ، وسلطتهم أيضا على رجال من أهل العلم ، فأخذوا يقذفون في الأمم الاسلامية مقالات تحض على افتراق الكلمة ، وتشعب الرأى ، وذلك بتأويل الآيات ، ووضع الأحاديث ، والجدل والمناظرة ، فكانت (٧٣) فرقة ، وكل فرقة أصبحت فرقا ، كل يدعى أنه هو الحق بالدين وسواه في ضلال مبين ، ها أنذا بعبادى صنعت في هيكل الأمم الاسلامية مافعله في هيكل الحيوان ، هيكل الحيوان تنحل أجزاءه ، وتفترق أعضاؤه ، ولكن عناصر جسمه باقيات في الهواء والماء والتراب ، هكذا أم الاسلام باقيات ولكنها متفرقات ، فلزالت تبعثر وتفتقر قليلا قليلا ، فزالت الدولة الأموية ، ثم العباسية ، ثم الدول الأخرى ، واستقل كل جزء حتى عصرنا الحاضر إذ أصبح الاسلام قطعا متناثرة ، وأجزاء منبوذة ، وقد التهمت الأمم التهاما ، كما هي شأن الفريسة في الصحراء (قبل سنين أما الآن فانها آخذة في الالتئام)

(١٦) أوعزت إلى دولة الروس أن كوني حجرة عثرة في طريق العثمانيين ، وحرارى الصين ، واقعدى لبلاد الشرق بالمرصاد ، فتوغلت فرنسا وانكلترا في بلاد الاسلام ، ومزقتها مزقا شاملا لترجع إلى عناصرها الأولية كما يرجع النبات والحيوان عند هلاكه .

(١٧) ثم كانت الحرب الكبرى ، فقلت لأوروبا كفى عن الشرق والشرقيين ، فقد جاء دورهم ، وهم سيكونون أنفع للعالم منكم أجمعين .

(١٨) فياروسيا دعى النصرانية التي خنقت الاسلام خنقا ، وكوفى شيوعية بلشفية ، ولتم بجانب تركيا الجديدة والصين والعراق والأفغان ويران ، فقم بالشرق ، وكف يا غرب ، واسيقظي يا أمة الاسلام : هذا دوركم أيها المسلمون ، قوموا من رقدتكم ، رقدتم قرونا فاستيقظوا قرونا ، أتم اليوم جيوش للأحياء وللأهلاك ، وفيكم جيوش المعنوية النورية والحسية الجرمانية ، وكفى يا انكلترا ، ويا فرنسا ، ويا إيطاليا عن ظلم عبادى المسلمين ، قد انتهى دوركم أجمعين .

(١٩) ثم أوعزت إلى جميع المسلمين في الهند والصين والأفغان وبلاد جاره والملايو وشمال افريقيا وجميع آسيا وأوروبا أن اتحدوا وكونوا بدا واحدة ، وكونوا خير الأمم أجمعين ، وفي نفس الوقت قلت : أيها الفرنسيون : اجمعوا عود المسلمين في مراكش ، وابلوهم بالشر ، وأتم باطلين اصنعوا شرا في طرابلس ، لأنى أريد بشركم ارتقاء واتحاد أم الاسلام (وههنا قال الاستاذ الصالح لى : فما كادت الأمان تفلان بعض الشر في زماننا حتى قام المسلمون على بكرة أبيهم في سوريا والهند وبلاد جاره يقطعون بضائع الأمتين ، ويحرمون مدارسهم ، ههنا ظهر في الاسلام عالم جديد لم يكن معروفا من قبل ، ههنا ظهرت أمته وهى التى ستكون كما قال الله فيها : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . هذه أمة لم نعرفها من قبل إلا قليلا ، أمة كانت متقاطعة متدايرة (إلا فى العصر النبوى وما يقرب منه) ، أمة هاجها الصليبيون أيام صلاح الدين ، فلم يقم فى وجوههم إلا بعضها ، أما الباقون فاتهم تخلفوا عنها فى شمال افريقيا وغيرها ، أما اليوم فإن الحوادث المزعجت جمت كلتهم ، وسيكون لهذا فى القريب العاجل شأن عجيب) . انتهى كلام الصالح المتخلل خطاب الله الحيالى له .

(٢٠) ثم يقول سبحانه : وأهملت رجلا ورجالا فى بلاد الاسلام أن ينصحوهم بلم الشعث ، وجعلتهم جنودا معنوية نورية ، فتفتح معاقل القلوب ، وتمتلئ النفوس ، وتهزم جنود الشياطين وتطاردهم ، وتقل عروشهم ، وتهزم جوعهم ، فتفضى على النعرات القديمة ، المفرقات للكلمة ، فلانبى تلك السفايف ، ولا تلك السموم الفتاكة الممزقة لهيكل هذه الأمة بأنواع المثبطات المؤسست ،

والبدع ، والانعياز للفرق المتشعبة ، والطوائف المنفرقة ، فلن يسبر هذه الأمة بعد اليوم اختلاف المذاهب والشيع ، وتفرق الأهواء بطرق الصوفية ، وتنازع الرئاسات ، فان نور العلم سيعمهم أجمعين ويرون أن هذا التنوع والاختلاف لبسا في أصل الدين ، بل هتاف عوارض عرضت عليه من خارجه لامن داخله ، فيلتشمون ويتحدون اتحادا جوهريا ، وان اختلفوا اختلافا عرضيا ، وهم يتقون .

(٢١) ومن جنود الأنوار نلسم العلوم التي بها تدرس هذه العوالم المحيطة بالناس في الأرض وفي السماء فهي هي الرباط الجامع للأمم على وجه الأرض ، ولأمة الاسلام ، وبها لا يغيرها يدرك المسلمون سرّ التسبيح والتحميد والتكبير ، ويفهمون سرّ الأحاديث الواردة في فضائلها ، والأقوال الواردة عن الأخيار في محاسنها ، وكيف تكون سبحان الله ملء الميزان ومنتهى العلم ؟ وكيف يكون التسبيح والتحميد غراس الجنة ؟ وما هذه الرموز والأعاجيب ؟ لن يعرف المسلمون تزييه الله في أفضاله الذي يقتضيه التسبيح إلا بإدراك بعض أسرار الطبيعة ، فإذا علم المسلم علما ليس بالظن أن القروح والسمائل (فما تقدم قريبا) وأن الحى وأمشاطه لم تخلق في الانسان إلا لإسعاده ، ولولم تكن تلك الآلام قضى عليه ، فانه هناك يفهم ماهو التسبيح ، وهناك يفهم كيف كان ذلك التسبيح غراس الجنة ، لأنه لا سعادة في دنيا ، ولا في آخرة ، إلا بالاطمئنان وادراك الحكمة في خلق هذا العالم ، فإذا رأى الانسان أنه محوط بعالم كله تنازع ، وكفه مصادمات وأمراض وبلاء وموت وذلة وهلاك ، فانه لا يهنأ له بال ، ولا يستقر له حال ، بل هو في عالم مزعزع الأمن ، لا ثقة فيه ، بل عالم كله قصص وشين ، فلا أمان فيه ولا اطمئنان ، وهنا قال ذلك الصالح : (فلا تكن أما صحيح الجسم ، كثير الخبرات ، تفدق على النعم من كل جانب ، ولكني أجد الناس حولي يموتون ويمرضون ، والحشرات تموت ، والبهائم والطيور ، وكل لكل عدو ، فاني إذ ذاك لا يستقر لي قرار . فإذا أدرك العقل أمثل هذه الأسرار التي ظهرت في هذا الكتاب وفي أمثاله ، فانه يسبح في نفس هذه الدنيا وقد ابتدأت سعادته ، واليه الاشارة بقوله تعالى : « دعواهم فيها سبحانه اللهم » وصرح بالحقيقة الناصعة فقال : « وتحببهم فيها سلام » وفي آية أخرى قال : « إن المتقين في مقام أمين » وفي أخرى : « سلام قولاً من رب رحيم » .

هذه هي الأسرار التي في الاسلام ، وفي آية أخرى يقول : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

لاسلام ولا أمان إلا بالوقوف على الحقائق كالتى في هذا التفسير ، ولن يكون سلام في بلاد الاسلام إلا بحنود الله المجندة المعنوية النورية التي تمتك بحنود الجهل المخيمة على عقول القرون الاسلامية المتشاكسة فنقطع دابرها ، وتفلّ جوعها ، وتلك الجنود إنما هي الحكمة التي يقذفها الله في قلوب المصلحين شرفاً وغرباً ومنهم قرآء هذا التفسير الذين سيكون منهم ملهمون وهم مفلحون ناصحون اه

فلما سمع صاحبى ما قصصته عليه من تلك الخطرات الخطرات لذلك الصالح . قال : هذا كلام حسن ، ولكن من ذا الذى يدعى أن الله يخاطبه في زماننا ؟ وكيف نقل خطابا عن صالح يدعى ذلك ؟ فقلت : انه لم يقل إلا أنه خيال ، ولكن هذا الخيال مبنى على العقل . فقال : ولكن فيه مبالغة في أمر المسلمين وانهم الآن ارتقوا ارتقاء عظيما . هذا ما يفيد هذا المقال . فقلت : سترى في اللطائف الآتية في كلام (لوثروب استودارد) ان الأمم الاسلامية ارتقت اليوم طفرة ، وقد نفقت عبار الكسل واسيقظت ، وضرب الأمثال ، وأتى بما لا حد له من ضروب الحجج في مقالات متتابعة ستضج اتصاها نانا فيها ستره إن شاء الله تعالى كما

قلته لك . فقال : ولكن ما بالناس ترى بعض الأمم الأوروبية تضغط ضغطا شديدا على المسلمين . قلت : ألم يتضح لك في هذا المقال اتضاحا تاما أن ذلك الضغط إنما هو لابقاظ الأمم الإسلامية كما تقدم في ذلك الخطاب الخيالي ، ألم تعلم أن الجيوش المعنوية النورية العالمية هجمت على قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومقاربها فهذبت وتفتحت ، ونبتت الشرور وملأته بالخيرات .

جيوش النور عمت بلاد الإسلام الآن ، وستفتح ما بقى من حصون الجهالة ، وتفتح المعازل والقلاع ، وستحتل كل نكسة ، وكل حصن ، وكل معقل في بلاد الإسلام ، وماضط الأوروبيين على أمثال مراکش وتونس والجزائر وطرابلس وغيرها إلا كما تنكث الميكروبات في الجسم ، فيكون دمل فقيح فيصح الجسم أريكا تكون حمى وهي لم تخفق إلا لصحة الجسم ونظافته وسعادته ، لا لإضعافه وأهاته ، لاشر في الأرض إلا لخبر كما لم تكن الحمى إلا لصحة البدن (كما تقدم قريبا) . وهاهي هذه جيوش النور تغزو القلوب الإسلامية فتصلحها ، وتبعها جيوش الدول فتغزو الأمم الظالمة أولا بالأعراض عن المعاملة ، ثم تستقل وتعلم بين الأمم أجمعين . فليس الضغط ولا الظلم الواقع على الأمم الإسلامية إلا أشبه بعمليات جراحية يجعلها الله لها بابا للشفاء كما جعل الحمى والأورام أبوابا لصلاح الجسم ، إن العلم اليوم كشف الحقائق ، إن هذا هو الزمان الذي ظهر فيه معنى : « سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » .

إذا أيدت أمة من الوجود فذلك لأنها لا معنى لبقائها إلا أن تذل وتخضع كما يموت الإنسان إذا لم يصلح للقاء في الحياة ، وإذا أذلت الأعداء فذلك لتذكيرها فتصلح شأنها .

إن العلوم اليوم قد فتحت أبواب الحقائق على مصراعها « لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب » وما عرفناه من الحقائق القليلة دلنا على باقها ، فأى فرق بين الموت وبين الجرح والحمى ، فإذا كان الجرح لصلاح البدن فهكذا الموت لصلاح الروح وخلصها من أدران البدن كما خلس البدن من المؤذيات ، وشفاؤها بزواله كما شفى المريض بخروج الصديد والدم من بدنه بالقرح لأن البدن الضعيف قرح النفس ، وكشف الأمة من تفرق شملها ، وتشتت جمعها ، بدخول الأعداء بلادها ، فيكون الرقى بلسما لجراحها ، وظلمهم فيها ، وعسفهم لها ، ما هي إلا عمليات جراحية أرادها الله لهم للإصلاح ، وهذه كلها جنود الله عز وجل : « ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما » .

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : صف لي جنود النور إتماما لتفسير الآية ؟ قلت : جنود النور مسموعة ومنظورة ومعقولة ، فكل مخلوق في أرض أو سما له صورة تراها العيون ، فتكون في الخيال ، فيفهمها العقل فتكون علما لأولى الألباب ، وهذه الصور المخالفة في السموات والأرض أبدعت بعلم وإرادة وقدره كما هو معلوم ، وللإنسان لسان وشفقان وحلق والصوت يتردد بينها ، وله عقل وإرادة ومعان في نفسه ، فهو يخرج تلك المعاني بهيئة أصوات تكون حروفا فكلمات ، فهذه الكلمات تعبر عن هذه الصور كلها وتسمها الأذن كما رأت العين صور الموجودات ، والعقل يتقبلها على علانها ، ويبحثها كما يبحث المبصرات ، فهذان جيشان من جيوش النور وهي جيوش الاسماع والابصار ، فكما أخذ النور الصور من الجامد والسائل والغاز فأوصلها إلى العيون هكذا أخذ الهواء الألفاظ التي فيه الواردة من ضغط اللسان والشفقين والحلق وأوصلها إلى الآذان ، وهناك جنود عقلية وهي المعلومات المستنتجات في العلوم جميعها من رياضية وطبيعية وإلهية ، فكذلك جنود عقلية لاحسية ، منيرة ، جميلة ، لاندع شيئا من الجهالة إلا جعلته كالريم ، وقد كثرت اليوم في بلاد الإسلام وكما رأينا أن المادة تختلف اختلافا في صورها لاحد لمرآة ، هكذا الصور اللفظية التي أظهرها اللسان وما حوله من الأعضاء لاحد لمداها ، تنوع في المادة وتنوع في الكلام ، المادة الجلية برعت وأبدعت في الاصلاح عن مكنون الجمال الإلهي وكلامه النفسى الذى لا حرف له ولا صوت ، والأشجار نتحدثنا ، والأزهار تؤنسنا ،

والنجوم تدهشنا ، والجبال تنعشنا ، وكل ذلك آثار لذلك الجمال والكمال ، ما العالم إلا حركات ، فان كان في الأثير فهو المادّة ، وان كان في الهواء فهو الكلام ، الصور المادّية لا تكون إلا بدوران الأفلاك والليل والنهار والصور اللفظية لن تكون إلا بلسان وشفة وحلق ، ويتردد الصوت بالشهيق والزفير بين الحلق والشفتين ، فهنا تنوع ، حروف ، فكلمات ، جمل ، فأمثال وخطب ومواعظ على مقتضى تصور العقول .

تفنن في صور المادّة وتفنن في صور الألفاظ

أحدث الناس بصفاء نفوسهم قصصا وروايات ، وأودعوا فيها حكما وعلمًا ، تقليدا لتلك الحكمة العالية المبسدة في المادّة جمالا وجمالا ، جمال المادّة لحياة التعاليم ، وجمال الكلام لهداية الانسان ، للصور المنظورة ما يبنها من المنفعة والجمال ، أو السطوة والاذلال ، وللصور اللفظية ملاحظته من الهداية والاضلال جنود جوار : تتردد الشمس في أبراجها ، والقمر والكواكب في منازلها ، فتكون صور الموجودات ، ويتردد الصوت بين الخارج كالحاء في الرحمن الرحيم والحد ، والعين في العالمين في ﴿ سورة الفاتحة ﴾ ، والغين في المضروب عليهم ، والهمزة في إياك ، والهاء في الله ، (وهذه حروف حلقيّة) وبين اللام والهمزة وغيرها من حروف شفوية أو نحوها فتكون تلك الحروف ، وتكون تلك الكلمات : كما يتردد النهار والليل ، والصف والشتاء ، فتكون تلك المخالقات .

عجب ! جنود لفظية ، وأخرى نورية ، وثالثة عقلية ، وكلها بالحركات ، واختلافها باختلاف أما كتبها ، واتفقت الغايات ، إن للصوت لدولة وصوله كما ان للطبيعة دولة وصوله .

هاهوذا الزمان الذي ظهرت فيه صولة اللسان وبنود الرحمة لأمة الاسلام ، ناموا أجيالا وأجيالا ، وكانوا في القرون الأخيرة أطفالا وجهالا ، إلا حكماءهم وعلماءهم العظماء الذين كانوا غير آمنين ، أما اليوم فانهم أخذوا يصولون ويجولون ، ويؤلفون وينصحون ، ولقد امتدت صولة القلم النائب عن اللسان بالكتابة وانتشرت الكتب ، وأسرع المسلمون للترحيب بجنود العلم ، جنود النور ، وأخذ المصلحون يضربون لهم الأمثال ، فهبوا من رقبتهم وبعثوا بعنا جديدا من أجدانهم وهم مجتهدون .

فقال صاحبي : إن هذه المعاني غريبة عن هذا الموضوع ، ولكنها دخلت فيه بهيئة أنها من عناصرها فأرجو أن تبين لي كيف خطرت لك هذه المعاني ؟ وفي أي وقت ؟ فقلت : هذه المعاني خطرت لي أمس (يوم السبت ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٣١ م) فاني كنت في مزرعتنا بالرج ، وبيننا أنا راجع وقد جرت عادتي أن أكون في ذهابي وإيابي ماشيا على قدمي ، وذلك ربما يبلغ ١٣ كيلو أو أكثر . ويكون الذهاب والإياب في يوم واحد غالبا ، أوفي يومين إذا بت هناك ، فبينما أنا راجع إذ نظرت مزرعة (ذرة شامية) نحى وألقيت تحتها حشائش تبلغ النراع ارتفاعا ، لها زهر جليل ، وقرون طويلة دقيقة ، وذلك الزهر ذولون أبيض ، يميل للزرقة ، ولها قليل من الرائحة العطرية ، وتلك الحشائش تنزع ذات اليمين وذات الشمال ، تحت أعواد الذرة المائسات القدود ، الجراثعور ، اللاتي تتدلى على « المطر » وهو الذي يسميه العامة الكوز ، وهو الذي فيه الحب ، فأهينني ذلك المنظر ، وكأنتي لم أرهذه الجحائب إلا ذلك الوقت ، وبينما هذه المناظر آخذة بجماع عقلي من طريق البصر ، إذا ظنين النباب ، وغوير الأعشاب ، يطربني من قبل السمع ، فهناك طرب فوقه طرب ، والفلاحون يندون ويروحون حولي ولاهم يفكرون ، فأخيفت بعض تلك الحشائش ، وسأت الفلاحين عن اسمها ؟ فقالوا : هذه لم نرها إلا منذ سنتين اثنتين ، ولا نعرف لها اسما ، وهناك تذكرة حادثة حدثت لي أيام أن دخلت مدرسة « دارالعلوم » ، فبينما أنا مع التلامذة في السنة الأولى ، ولا عهد لي

إلا بالأزهر والحقول ، وقد أنست بها وبجملها ، إذا بالدرسة تصطفى من التلامذة ثلاثة وأنا منهم لسكون مع المرحوم أستاذنا (الشيخ حسن الطويل) في الأوراء الخديوية ، لأن الخديوي توفيق باشا سيكون فيها تلك الليلة ، وهذه أول مرة رأيت فيها التمثيل ، فرأيت إذ ذاك عجبا ما فوقه عجب ! غيراني لأنصوره ، ولكن لما فقت في نفسي عن الجمال الذي كنت أحس به في الحقول ، وطنين الخشرات ، وتمایل الأعصان ، ومنظر النجوم ، أليت أن ذلك التمثيل الطبيعي في الحقول كان أهدى عند نفسي وأجمل ، وخيل لي أن هذا رفقه عند نفسي كرتبة الجمال الصناعي بالنسبة للجمال الطبيعي ، وصرت أنهب من نفسي كيف كان ذلك سكمها ، فهذه هي الفكرة التي خطرت لي عند مشاهدة ذلك النبات في النيرة أمس نحي ، ثم خطرت لي أيضا ما نمت من صور المادّة وصور الألقاظ وجنودهما ، وأن الأمم التي لانهب عقول مصلحتها لإحداث الصور التلقظية لاصلاح شأنها لآحياة لها ، فخدمت الله على ذلك ، وقلت : هاهوذا هذا الكتاب جند من الجنود النورية والحمد لله رب العالمين .

فقال صاحبي : الموضوع طال فهل تسمح لي بتلخيصه لينصوره الأذكيا . قلت نعم :

- (١) نحن في (سورة الفتح) والله قد فتح للنبي صلى الله عليه وسلم فتحا مبينا .
- (٢) هذا الفتح بجنود انسانية مسلمة .
- (٣) ومعلوم أن زمن النبوة ينقضى والباقي إنما هو الدرس والفهم ، فأخذ الله سبحانه يفهم المسلمين ماهي الجنود ؟
- (٤) فذكر أن الجند ليس خاصا بالجنود التي ترونها . كلا .
- (٥) ففي السموات جنود وفي الأرض جنود .
- (٦) ومن جنود الأرض الميكروبات التي تقتحم جسم الانسان فتمرضه أو تهلكه ، وجنود أخرى في نفس الجسم تطاردها في كل أطراف مسكة الجسم .
- (٧) وهناك تكون قلاع ، وحصون ، وحرب ، وخذاق ، وتعبئة الجنود ، إذن هذه من جنود الله المذكورة ، إذن هذا درس عام لخاص بزمان النبوة يدرس على مدى الزمان .
- (٨) وهناك قسمت الجنود أربعة أقسام : حية ومعنوية ، فالحسية لإهلاك الاعداء نارة ، ولإبقاء الأولياء نارة أخرى ، وهذا ظاهر في النمل والجراد والاسود والنمور والسياب والانسان ، ومن الجيوش المعنوية أيضا إصلاح وفساد ، فالاصلاح بالأقوال الجميلة ، والافساد بالقاء الفتن والضلال والافتراء ، فالأولى جنود نورانية ، والثانية جنود ظلمانية .
- (٩) وبيان أن هذه الجيوش كلها من صور تحدثها أضواء الكواكب ، فتنتطح في الأبصار ، فتدركها البصائر فتعقلها وتحدث لها نتائج ، أو من ألقاظ تحدثها الشفتان واللسان والخلق والحكك إلى آخر ما في علم التجويد وفن القراءات ، أو من نفس العقل واستنتاجه ، فهذه كلها جنود مبصرات أو مسموعات أو معقولات .
- (١٠) وأن الأمم الاسلامية اليوم قد أمدها الله بجنود نورية ، فمشوؤها العقل ، ومصورها اللسان والشفتان الخ .
- (١١) وينوب عنها الكتب المنشورة اليوم في بلاد الاسلام مما أقسم الله بها فقال : « ورق منشور »
- (١٢) وهذه الجنود النورية بعينها الله في بلاد الاسلام لتظهرها بما يشبه العمليات الجراحية في أجسام الانسان ، وذلك بصفتهم عليهم واذلالهم ، فهذه الجنود العلمية أشبه بالميكروبات في جسم الانسان الواحد الخي إذ تسطو على الميكروبات القاتلة فتغلبها وتطردها من الجسم على هيئة

قيح وصديد ، وذلك هو الحاصل الآن في بلاد الاسلام ، فان العلم المنتشر اليوم فيها يطرد عدوين :
عدوا معنويا ظلمانيا وهي الحرافات والجهالات والضلالات ، وعدوا حسيبا جرمانيا ماديا وهم الأمم
الاروروبية ، وهذه الأمم لن تبق في أمة ظهر فيها نور العرفان .

(١٣) ولما سألتك عن هذه المعاني الأخيرة متى خطرت لك ؟ ذكرت لي أنها خطرت لك لما كنت
راجعا لمن مزرتكم وأنت متوجه إلى المرح ، وانك إذ ذاك أبهجتك منظر الحشائش التي لم تعرف
لها اسما تحت القرة ، ورازت بين ابتهاجك بمنظر الطبيعة ومناظر الصور المتحركة ، وذكرت
جاءتتك في ذلك أيام دخول « دار العلوم » .

هذا مجمل ما تقدم . فقلت : لله درك ، لقد لحصت فأجبت وأحسنت . فقال الحمد لله رب العالمين ، ثم قال
لي : ولكن لا يزال لهذا المقام بقايا . فقلت : وما هي . فقال : إن الجنود النورية يعوزها إيضاح أتم ، وعلم
أجل ، وحكمة أعم . فقلت : إن الجنود النورية على قسمين : أولهما الجنود النورية الحسية ، وثانيهما
الجنود النورية العقلية ، والقسم الثاني أحق باسم الجنود من القسم الأول . فقال : حدثني رعاك الله عنهما ؟
فقلت : لأقدم مقدمة فأقول :

الناس أضياف ربهم في هذه المادة يحرسهم بجنوده

فقال : إن هذا العنوان غريب جمع بين الضيافة والحراسة بالجنود ، فقلت إن لهذا سببا ، إني أسس
في ليلة السبت التي هي آخر شهر أكتوبر سنة ١٩٣١ كنت في مزرتنا وقد جرى حديث الضيافة وجاء
حديث حاتم الطائي مع مخطوبته (ماريه بنت عفره) وهي من بنات ملوك اليمن ومعه النبيبي والنايفة ،
فهؤلاء الثلاثة لما خطبوا لأنفسهم قالت لهم : سأزوج أكرمكم وأشعركم ، فانصرفوا ثم لبست ملابس مجوز
ومررت عليهم في ديارهم ، وكل منهم قد ذبح ناقة له ، وأخذت تستجد بهم ، فأعطاهم حاتم أحسن ما في الناقة
وأعطاهم الآخرا ذبلي الناقين ، فلما حضر الثلاثة عندها بعد ثلاثة أيام ، وأتوا لها بالهدايا ، ووضعت الطعام
أمامهم ، وجد كل منهم أن ما أمامه هو الذي أعطاه لامرأة شمطاء (هي نفسها) ففجّل الرجلان من فعلهما
فأما حاتم فانه رمى ما أمامهما من الطعام وأعطاهما مما أمامه ، وقال كل منهما شعره قبل الطعام ، وكان
شعر حاتم الأبيات المشهورة وهي :

أماويّ ان للمال غاد ورائح * ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماويّ إني لا أقول لسائل * اذا جاء يوما حلّ في مالي النذر
أماويّ ان يصبح صدأ بقفرة * من الأرض لأماء لدى ولاخر
تري أن ما أنققت لم يك ضرّتي * وأن يدي مما بخلت به صفر
تقد علم الأقوام لو أن حاتما * أراد ثراه المال كان له وفر

فأما أشعار الآخرين فانها كانت كلها نفرا على هذا النحو ، وما فرغا من الطعام حتى قام الرجلان وبقى
حاتم وتزوجها . انتهت الحكاية في المسامرة ليلة أسس .

انتقال نفسي بمد ذلك الى الضيافة الإلهية

وما أتممت هذه المسامرة حتى أخذت نفسي تفكر في هذه الدنيا : الله أكبر : نظرت النخل ليلا أظلم
القرية عند مزرتنا والقمر في السماء ، وهناك طلّ لي وقت في نفسي : عجبا لربنا ! الناس يفرحون ويمدحون
ويحبون ربهم اذنا قتم لهم طعاما ، وأوقد لهم مصابعا ، ومنحهم فراشا ، ويضمضون أعينهم عن كل جلال

في الأرض وبهاء ونعمة ، وينسون الجمال العام في الأرض والسموات ، وهم غافلون ساهون لاهون عن رب دارهم الكبرى ، وقناديله المعلقة في السماء ، وأصناف الأشجار والأزهار والأنهار والبحار الواسعات ، حقا « إن الانسان لظالم كفار » .

بمدح رجلا أجلسه في دار ضيقة محصورة ، وأعطاه بعض طعام وغطاء ، وقد جهل الدار الواسعة ، وهي الأرض والغطاء الأكبر وهو السماء ، والمائدة الواسعة ، وهي هذه المزارع والأشجار والأزهار ذات الرائحة العطرة الجميلة المنظر ، والأنعام ، والقناديل المضيئة ، المشرقة ليلا ونهارا ، فياليت شعري أين الثريا وأين الفانوس وأين الشمعة ، اللهم ! نك حبست هذه الأرواح في الأجسام ففعلت عن جمالك .

الجنود صنفان ، ولا حصر لأفرادها

ولئن كان لربّ الدار خدم وحشم وحرّاس ، فهم قوم محصورون ، ولكن للدار الواسعة ، وهي هذه الدنيا حرّاس لا حصر لهم ، وهم قسمان : قسم هي الأنوار المشرقات المحسوسات ، ذات البهجة والأنوار ، وقسم هي العقول الكبيرة والصغيرة ، وأنواع الالهام والقرائن .

عجبا ياربنا ! أرضنا فيها أنوار جزئية : في شمع العسل ، والبتول ، والغاز المستخرج من الفحم ، وأنوار الزيت المستخرج من الزيتون ، وبذرة القطن ، والسمسم ، والقرطم وأضرابها ، وأنوار الكهر باه . سبحانك اللهم وبمحمدك : ماهذه الأنوار ؟ هي لنا هداية ، لولاها لكاننا في الأرض عجميانا لانرى شيئا ، فهذه الأنوار جنودك الهادية لنا بمساعدة أبصارنا لطرقتنا وأعمالنا ، وهذه الجنود لا حصر لها ولها قائد أعظم وهي الشمس ، لولا الشمس لم يكن شمع العسل ، إذ لولاها لم يكن مطر ولا سحب ولا رياح ، فلانبات بحمل زهرا ، ولا نحل يشتر منه العسل فيأكله فيصير عسلا ، ولولاها لم يكن زيت يستخرج من القرطم والسمسم والزيتون ، إذ لاشجر فلازيت ، ولولاها لم يكن غاز الاستصباح الذي خزن منذ مئات الالوف من السنين ، خزته الشمس في الأشجار بأشعتها فاستخرجه الناس الآن .

الله أكبر : الشمس قائد ، وجميع الأنوار على الأرض جنود ، للشمس ضوء فيه سبعة أضواء : وهي الأحمر والبرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق والبنفسجي ، وهذه كلها تصبح لونا واحدا ، وهو النور المعروف ، وهذه الألوان بعضها تراها في جميع أنوارنا التي نوقدها .

الله أكبر : الجنود الحسية التي تكفل هدايتنا في الحياة الدنيا وهي الأنوار مشتقة من قائدها الأعظم وهي الشمس ، وهذا الصنف من الجنود مثال لما هو أعلى منه وهي :

الجنود المنوية العقلية

جلّ الله : أبان لنا جنودا تراها بأعيننا ، وأظهر لنا أنها مشتقات من قائدها الأعظم ، ثم وهب لنا عقولا وهي الجديرة باسم الجنود ، هي التي تستحق الاعظام والاجلال ، فلئن هددتنا الأنوار إلى سبل الحياة فما ذلك إلا براسطة عيوننا ، وهل لعيوننا عمل إذا لم تكن لنا نفوس وعقول ! كل انسان ، وكل حيوان لهون عقول تدبرها ، وتقوم بأودها ، وتصور حياتها ، وتحفظ كياناتها . فلنعملة عقل ، وللناموسة ، وللسرصار ، بل للخلية الواحدة من خلايا الجسم ، وللخلايا الأولية التي تعيش في الماء الآسن ، ولا يفنيها إلا أن ينقطع عنها الغذاء ، أو يأكلها الأعداء ، فكل هذه لها عقول على مقدار ما تحتاجه . قال الشاعر :

سقى الله أرضا يعلم الضبّ أنها * بعيد عن الآفات طيبة البقل
بني يته فيها على رأس قته * وكل امرئ في حرفة العيش ذوعقل

هذا قول العربي الجاهلي ، وهو نفس ما قرره علماء النفس في عصرنا الحاضر إذ قالوا : « كل قوة إدراكية في حيوان أيا كان فهي عقل ، سواء أكان ذلك الحيوان انسانا أم حشرات ، أم طيرا ، أم ميكروبا » كل ذلك يسمى عقلا ، وهذا الاطلاق نفسه قاله الشيخ الخواص ، وتدد على الناس في جهلهم أن للحيوان عقولا ، إذن الصوفية المسلمون نطقوا قديما بما أتى به العلم الحديث .

الله أكبر : هذه العقول الانسانية ، والعقول الحيوانية ، التي لا يحصرها العد ، ولا يحيط بها حد ، هي جنود الله في أرضنا ، جنود وأى جنود ، جنود تهندس المباني والمسكن والقلاع والحصون ، جنود تهندس أفراس العسل ، وتظهر سجع العنكبوت ، وآجام الآساد ، وأعشاش الطيور ، وحيل الثعالب ، وكرت هادفتها ، وحيلها في جلب قوتها ، وتدير الحرب والضرب ، في حرب الخمل ، وترتيب الجيوش العقلية ، وبناء المدائن المتقنة لحشرة الأرضة .

الله أكبر : هذه جنود الله ، اللهم أنت الحكيم ، أنت العليم ، خلقت هذه الجنود العقلية فينا نحن بني آدم وحيواناتنا ودوابنا .

جنود العقول الانسانية والحيوانية

وما يوازيها من جنود الأنوار السماوية

لك يا الله جنود عقولنا ، وعقول الحيوانات في أرضنا ، أنت هديتها بادراكها بواسطة عيونها الناظرات بأضواء الكواكب ، وأضواء السرج الأرضية ، عقول جزئية ، أوجنود أرضية ، استخرجت الأنوار الأرضية فاستعملتها ، استخرج الانسان من الشمع نورا ، ومن الغاز المستخرج من الفحم ضوئا ، وهكذا من البترول والكهرباء . جنود عاقلة استعانت بجنود محسوسة وهي التي استخرجتها . يا الله عجب لنا ! تحيط بنا أنوار الشمس ونحن لا نحمد عليها ، فهي منسية ، فأخذت نذكرنا بالظلام ؟ وتحكم علينا أن نستخرج من الأرض نورا نستضيء به ، عقولنا اضطرت لاستخراج النور من مواد الأرض ، جزئي استخرج جزئيا ، وهذه الأضواء مشتقات من أضواء الشمس ، أضواء الشمس مركبة من ألوان سبعة ، وهذه مثلها ، لولا الشمس لم تكن أنوار هذه المواد الأرضية ، لأنها سببها .

الاستدلال بالعقول الأرضية الجزئية على العقول الكلية السماوية

وهل يجوز في العقول الانسانية أن يستند الضوء الجزئي إلى ضوء كلي ويكون مشتقا منه ؟ (أي ان أضواء القناديل الأرضية مشتقات من ضوء الشمس في السماء) ثم يكون الضوء المعنوي العقلي مستقلا غير مشتق من عقل أكبر منه ، وهل تكون هناك شمس هي أصل لأنواع الأضواء الأرضية المحسوسة ، ثم لا تكون هناك عقول كلية منها تستمد هذه العقول الصغيرة علومها وإلهاماتها ، هذا لا يكون ، قضى العقل أن للعقول الأرضية حيوانية وانسانية عقولا أكبر منها هي مناط استمدادها ، ومبدا آرائها ، ونسبة عقولنا إلى تلك العقول الكلية كنسبة ضوء المصباح إلى الشمس ، ونسبة آراء عقولنا إلى آراء تلك العقول الكبيرة كنسبة ضياء الشمعة إلى ضياء الشمس .

هذا برهان صادق لا خطأ فيه ، يرجع للقضايا البديهية ، والمعلومات الأولية ، غاية الامر أن النوع الانساني اليوم نوع حيواني ، غافل عن هذه الامور العالية ، جاهل بما حوله ، اللهم إلا انه غارق في الامور العملية ، كأن يطير في الجو ، ويهلك المدن ، ويخرب البلاد ، الناس اليوم في أرضنا أطفال جهال ، عيونهم مغلقة ، لا يحسون بما حولهم ، إن عناصر عقولنا هي عناصر العقول الكبيرة ، كما أن عناصر الضوء في الكهرومغناطيسية والبتروكيميا هي نفس عناصر ضوء الشمس ، وهي الألوان السبعة . وإذا كان في ضوء البترول السبعة الألوان

المعروفة ، ونظيره ضوء الشمس الذي هو أصله ، فهكذا عقولنا فيها ذاكرة وحافظة ومفكرة وخيال وحس مشترك وهكذا ، فهذه كلها عناصر عقولنا تحلل إليها وترجع لها بعد تحليلها ، هكذا تلك العقول الكبيرة ، لا بد أنها تكون لها ذاكرة وحافظة الخ منها استمدت عقولنا هذه العناصر ، ويختلف الأبر والأصغرى عناصرها بحسب صغرهما وكبرهما ونوع علمهما وأحوالهما ، وما هذا إلا مجرد تشبيه لا يطبق تطبيقا تاما ، لأننا نجعل أحوال الأرواح المجرّدة .

النتيجة صادقة لمقدمات أولية محسوسة

إن المقدمات محسوسة ، فغزوة الشمس ، وضوء نحو البترول زاهما ونحاملهما ، وعقولنا وعناصرها التي منها تكوّنت نحس بها ، فهذه أشبه بمقدمات منطقية اثنتان محسوستان وواحدة معقولة بالوجدان ولم يبق إلا الرابع وهو نتيجة الثلاثة ، وما ذلك الرابع إلا العقول الكبيرة ، فإذا كانت عقولنا لا تنتفع بضوء أرضي إلا إذا استخرجته بظفتها ، وما نستخرجه تنتفع به ، هكذا تلك العقول الكبيرة التي منها اشتقت عقولنا تدبر حركات الشمس في عالم الأثير حتى تستكمل وتقوى وتضيء وهي التي تسخرها باذن الله في إيجاد ما أراد الله في هذه العوالم الأرضية بالحركات المنظمة ، كما أننا نحن نصنع طعامنا مثلا على ضوء الكهرباء والبترول الخ .

عقول كبيرة فنشئ شموسا كبيرة ، وعقول صغيرة تصنع منازل وما كل وشعما وعسلا ونسيج عنكبوت ، عقول كبيرة تنتج عقولا صغيرة ، فالأولى للسماوات ، والثانية لأهل الأرض ، شموس عظيمة مصنوعة ومدارة بواسطة تلك العقول الكبيرة تشتق منها أجسام نورية أرضية لأعمال صغيرة أرضية ، أضواء الشمس الكبيرة مشابهة لأضواء المواد الأرضية المضيئة ، عقولنا الصغيرة عرفنا عناصرها وريم ركبت ، فهكذا يجب أن تقول في العقول الكبيرة التي تدبر الشمس ، إن عقولنا على منوالها والاختلاف غالبا يكون بالسكم ، كما أن الاختلاف كذلك في ضوء الشمس وضوء البترول .

نتيجة هذا القول تفسير آية : والله جنود السماوات والأرض

وآيات كثيرة في القرآن

بهذا وبهذا وحده فهم : « والله جنود السماوات والأرض » . الله أكبر : عطف جنود الأرض على جنود السماوات ، لأن التواتر مشتقات من الأواثر ، وتلته إني في أثناء هذه المباحث العقلية ما كان ليخيل لي أن في هذا العطف سره العجيب ، فتم الله جنود السماوات على جنود الأرض ابفتح لنا بذلك بابا كان مطلقا على أكثر الناس : ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

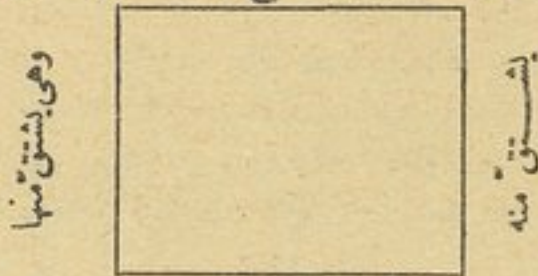
جنود الأرض مشتقات من جنود السماء ، لذلك قدم المشتق منه على المشتق ، وهذه عجائب من أسرار القرآن : فنته جنود في السماوات ، وهي التي نسبها ملائكة ، ثم علماء الأرواح قلوبا نفس هذا القول ، وتقدم ما نقلته في هذا التفسير مرارا أن الاستاذ (أوليفرلودج) يقول : « إن هنا عوالم روحية تحيط بنا نسبتنا إليها كنسبة عقول النمل إلى عقولنا ، وهي تهتم بأمرنا ، وهي تحافظ علينا » .

إيه أيها المسلمون ، إيه أيها المسلمون ، هذا هو كتاب ربكم ، كتاب ربكم نفس العلم الحديث ، إذن هذا القرآن جاء لأمر بعدنا ، ثم هو كلام الله ، وكلام الله أنزل لعباده المساكين في الأرض ، أليس من عجيب أن يقول هذا القول علماء الأرواح في زماننا ، ثم يقوم البرهان الحسي الذي ذكرناه عليه ، نراه في نفس

القرآن ، نسمع الله يقول لنا : أنا لى جنود فى السموات ولى جنود فى الأرض ، فياخذها أكثر من قبلنا
أخذنا مجرداً من البحث ، ومن عرف من آياتنا منها شيئاً اكتبه خوفاً من العقوبة .

هاهوذا أيها المسلمون وضع الدين ، القرآن نزل لفهم ماحولنا وما يحيط بنا والحمد لله رب العالمين .
فقال صاحبي : إن أصل سؤالى لك إنما كان موجهاً لايضاح الأنواع الحسية والمعنوية ، فكيف
حضرت هذه البراهين فى ذهنك ، وهل كانت هذه فى ذاكرتك ؟ قلت نعم . فقال : وكيف ذلك ؟ قلت :
إن أمرنا ليجب أن تسألنى سؤالاً إلا كان جوابه منظماً فى نفسى قبل أن تسألنى ، فكأن هناك بين روى
وروحك وسائل أو رسائل بهاتعلم روى ما ستوجهه أنت إليها ، فترتب السؤال والجواب أولاً ، حتى إذا سألتنى
كان العلم حاضراً فى النفس . قل : أنا لا أفهم هذا ؟ قلت : أريد بهذا القول أنك قبل أن تسألنى مثلاً فى
هذه المرة كنت متوجهاً إلى ناحية الأزهر ، ونفس هذه المسائل كنت كأنى أطلعها أمامى فى صحيفة وكأنى
أقرأها فيها ، أنا أمشى والناس حولى ، ولكن هذه المعانى وأنا فى شوارع القاهرة كانت أمام مخيلتى ،
وهذه صورتها :

(عقل) سماوى يصنع ويدبر (الشمس)



(عقل) أرضى به يستخرج ... سراج ينتفع به

هذا ملخص مامضى كله ، كنت كأنى أطلعها فى صحيفة أمامى ، فلما سألتنى أخذت أكتب لك ما طالعته
هذه هى الحقيقة ، وليست هذه الصحيفة أمام عينى ، بل هى فى مخيلتى ، ومتى كتبت ما طالعته ووضعت فى
الورق نذهب تلك الصحيفة من خيالى ولا رجعة لها بل أندأها ، وإذا أردت استرجاعها صعب على ذلك .
فيا ليت شعرى : ماهذه المعانى ، وما هذه الصحيفة إلا أنها من عوالم يحيط بنا ونفوسنا متملة بها وهى التى
رسمت لنا هذه الخطط ، غاية الأمر أنها لا تعطى العلوم إلا على مقدار استعداد الأشخاص والأهم ، وما تعطى
لنا من العلم الآن قد استعدت له أئمتنا الحالية ، وعقولنا الانسانية ، وبها فهمنا آية : « وثقه جنود السموات
والأرض » وقد قسمنا الجنود إلى مهلكة وحية ، ولا جرم أن قوله فى الآية الأولى : « وكان الله عليها حكيماً »
إنما كان ذلك عند ذكر جنود المؤمنين المجاهدين ، ولكن لما قال : « وثقه جنود السموات والأرض »
وكان الله عزيزاً حكيماً « كما قدمنا كانت العزة مناسبة لجنود النار التى أعدت للتعذيب ، إذن التقسيم الذى
قسمناه للجنود من مقاصد القرآن ، فنفس الآية لتوحد تقسيم الجنود ، جنود ذكرت معها العزة ، وجنود
لم تذكر معها بل ذكر العلم ، وهذا المقام به تفهم : « والمدبرات أمرا » وتفهم : « وإن عليكم لحافظين »
كراما كاتبين « يعلمون ما تعملون » ، وتفهم : « إن كل نفس لما عليها حافظ » ، وتفهم : « ما يلفظ من
قول إلا لديه رقيب عتيد » ، وتفهم : « فاقسمات أمرا » ، وتفهم كيف أمرنا أن نؤمن بالله وملائكته
إلى آخره ، وتفهم : « إن الله وملائكته يصلون على النبي » ، وتفهم : « شهد الله أنه لا إله إلا هو »

والملائكة وأولوا العلم ، فعطف أولى العلم على الملائكة لأنهم كالتخصصين منهم ، وهذا يجب أن يكون ما ذكرناه هنا (من العقول الكبيرة السماوية والعقول الصغيرة الأرضية إنما هي آثار العناية الربانية والله معلم الملائكة وهؤلاء يفيضون الالهام والعلم على الناس والحيوان بأمر ربهم ، فأنه عام العلم ، والملاك يتلقى منه الخ) هو الذي جعله الآية في ثلاث كلمات .

ملخص ماتقدم وما بينى عليه

(١) الله أكبر : في الجسم جنود هي الميكروبات السامة الداخلة فيه ، والخلايا التي في الجسم المدافعة

عنه ، فهذان صفان من الجنود : جند مهاجم ، وجند مدافع .

(٢) وفي العالم المشاهد مثل ما في الجسم جنود مسلمة تحارب جنودا كافرة .

(٣) في العالم كله عوامل الحدوث ، وعوامل الفناء ، فهما جندان كجندى الجسم وجندى الانسان .

(٤) ورد أن قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وأن ما يصل إلى القلب إمامة من الشيطان

وأما إلهام من الملك . إذن هما جيشان أيضا مرسلان للنفوس كالجيشين المرسلين للأجسام ،

فإذا جاء الشرع بالتنوع الأول فقد جاء علم الطب بالثاني أشبه بضرب مثل للأول .

(٥) جيشا النور والظلمة ، والحر والبرد ، كل يعقب الآخر وينظره كجيش الجسم المحسوسة وما تبعها

(٦) جنود النور الكبرى من الكواكب وجنود النور الصغرى التي يصنعها الانسان فيما تقدم كجنود

العقول الكبرى وهي الملائكة وجنود عقول الانسان والحيوان في الأرض .

هذا ما فتح الله به في فهم قوله تعالى : « ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما » .

وقوله : ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما . كتب بعد فجر يوم الثلاثاء ٣ نوفمبر سنة ١٩٣١

لما اطلع على ماتقدم صديقي العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير . قال : لقد اطلعت على حديث

للهايم غاندى ، فوجدت به ما يشبه أن يكون ذبلا لهذا المقام ، فانه ذكر أمرين : حبا وخوفا ، ولينا وشدة ،

وجعلها محور كلامه ، أفلا نلحق هذه الصفات بالجنود . قلت : حدثني بما قاله غاندى . فقال هاك ما جاء في

جريدة الاهرام بتاريخ ١٧ اكتوبر سنة ١٩٣١ م وهذا نصه :

غاندى يصف رحلته

في المياه المصرية

المقاومة للعنف

قال المهاتما غاندى في مقالة نشرتها له جريدة الهند الفتاة ما يأتى : « من محاسن الصدق أن الحديث

بعد صلاة المساء دار على مسألة « المقاومة من غير عنف » وأتيح لأصدقائنا المصريين الذين ركبوا الباص

من السويس فرصة سماع شيء عن هذا الموضوع ، ولأرى بأسا في إعادة بعض ما قلته بهذه المناسبة : اننا

بأعمالنا اليومية تقاوم بعضنا بعضا من غير عنف ، وقد فعل ذلك بعلم منا أو بغير علم ، وكل الجمعيات الصالحة

قائمة على قاعدة اجتناب العنف ، وقد تبين لى أن الحياة مطاردة الوجدان على الرغم من انها محوطة بعوامل

الهدم والهلاك ، وهذا دليل على وجود ناموس أسمى من ناموس الهدم والتدمير ، ولا يمكن لجمعية حسنة

النظام أن تكون قريسة من الفهم إلا اذا كانت تحت ذلك الناموس ومن غيره لقيمة للحياة ، فان كان

هذا هو ناموس الحياة كان حتما علينا أن نطبقه على حياتنا اليومية ، فحيثما تقع الاحتكاكات ، وحيثما نلتقي

بخصم ، علينا أن نطلبه بالتي هي أحسن ، وبهذه الكيفية الساذجة طبقت هذا التاموس على حياتي ، ولست أعني أن جميع مشاكلي قد حلت ، ولكنني وجدت أن تاموس المحبة قد أدى إلى تحقيق الغاية بطريقة لن تتاح بتاموس الهدم والعداء . وقد قننا في الهند بتطبيق هذا التاموس عيانا في أعظم مجال استطاع ، ولست أدعي أن روح اجتناب العنف قد دبت في قلوب ثلثمائة مليون نفس من سكان الهند ، ولكنني أدعي أنها تطلعت في النفوس أكثر من أية رسالة أودعوة وفي وقت وجيز لا يكاد يصدق ، ولم نكن نعلمنا نحن الهنود سواسية في اعتناق هذا المذهب ، بل كان لدى أغلبية كبيرة بمثابة ضرب من ضروب السياسة ، ومع هذا أودّ منكم أن تبينوا هل لم تتقدم الهند تقمنا عجيبا ظاهرا تحت حياية « المقاومة من غير عنف » وفوذها العظيم الشأن ؟

وقلت ردّا على سؤال آخر : « إن الحصول على حالة عقلية للتمسك بمذهب المقاومة من غير عنف يتطلب الشيء الكثير من العناء والتدريب ، ويجب أن يكون بمثابة نظام نسير عليه في حياتنا اليومية وان كنا لانجد من نفسنا رغبة فيه فتقضى حياة حكيمة الجندی ، ولكنني أوافق على رأى القائلين : انه ان لم يكن اعتناق هذا المذهب من صميم القلب والعقيدة التامة كان أشبه بقناع خارجي يضرب بصاحبه وبالآخرين أيضا ، ولا يصل المرء إلى مرحلة الكمال في هذا المبدأ إلا متى خضع له جسما وعقلا ، وسار بموجبه قولاً وفعلًا ، ولكن المسألة هي دائما مسألة كفاح عقلي عظيم ، ليس لأنني غير مطبوع على الفضب ولكنني أنجح في كل مرة قريبا أن أملاك نفسي وأضبط عواطفني ، ومهما تكن النتيجة فاني أشعر على اللوام بكفاح يتنازعني لاتباع مبدأ اجتناب العنف بمحض إرادتي و بلا اقطاع ، وهذا النضال يزيد المرء قوة للظفر ، فالمقاومة من غير عنف سلاح القوي ، أما الضعيف اذا لجأ إليها كانت له بمثابة رياه ، فالخوف والمحبة على طرفي قبيض فالمحبة لاتبالي عند ما تعطى ، ولاتدقق فيما تأخذ بدلا من العطاء ، المحبة تكافح العالم كما تكافح نفسها وفي النهاية تصير صاحبة السيادة على كل شعور ، وقد دلني الاختبار اليومي كما دلّ المشتغلين معي أن كل مسألة يمكن أن تحلّ اذا اعتزنا أن نجعل تاموس الحق واجتناب العنف هما في نظري وجهها عملة واحدة (كذا) أما اذا كان الجنس البشري ينبع تاموس المحبة من حيث يدري فلست أدري ، ولكن هذا لا يجب أن يشغل بالنا ، فهذا التاموس يسرى كتاموس الجاذبية ، سواء أقبلناه أم لم تقبله ، ومثلما يستطيع التبصر في العالم أن يأتي بالهجاب بتطبيق التاموس الطبيعي من عتة وجوه ، كذلك الرجل الذي يطبق تاموس المحبة بدقة علية يمكنه أن يأتي بهجاب أعظم ، لأن قوى المحبة واجتناب العنف هي أعجب كثيرا وأدهى من قوى الطبيعة كالكهرباء مثلا ، فالرجل الذي اكتشف المحبة وأرشدنا إليها هو في مذهبي أعظم من أعظم العلماء . على أن استكشافنا فيها لم يبلغ المدى الكافي ليتسنى للجميع أن يشهدوا مفعولها ومبلغ تأثيرها ، هذا على كل حال هو الهذيان ، أو الهوس الذي أعمل مدفوعا به ، ولكنني أصرّح انني كلما توغلت في تطبيق هذا التاموس ازداد شعوري بمباهج الحياة ، ومباهج مشروع هذا الكون الأعظم ، وهو يعطيني سلاما وطمأنينة ويسر لي حفايا الطبيعة بكيفية لا يسنى وصفها . انتهى

فلما أتمّ حديثه . قلت له : أما الشدة واللين ، والحب والخوف ، فانها من جنود الله ، لأنها من الجنود المعنوية وهي داخلة فيما تقدم . فقال : أنا إلى الآن لم أفهم ما معني قول غاندي :

(١) إن الحياة مطردة الوجدان على الرغم من أنها محمولة بعوامل الهدم والهلاك ، ثم يقول : إن

الجميات يجب عليها أن تسمى لنيل هذه الغاية ، فكيف يكون هدم مجنود الهلاك ، ثم يكون

الحب ساتنا ، فأين هذا الحب إذن في هذه الدنيا ؟

(٢) وكيف يقول ان الحب له السيادة في العالم مع ان العالم كله شقاء وهلاك وتدمير الخ .

(٣) ثم كيف يقول : إن ناموس المحبة يعطيني سلاما وطمأنينة ويضربني خفيا الطبيعة ، فإهذا التفسير ؟
والطبيعة كلها شرّ وبلاء . وأنا اذا سألتك عن هذا فما خرجت عن منطوق الآية ، لأن الآية فيها
أن لله جنود السموات والأرض ، ومن جنوده هذه الجنود للهلكة التي يقوها غاى ، فأين
الحب السائد إذن في الأرض ؟ ولأحب ولاسلام ولأمان في الأرض .

فقلت : قبل أن أجيب عن أسئلتك الثلاثة أشرح قطة هامة : وهى الحب والخوف ، وهذا عجب أن
ينطق بها عالم بوزى لم يدرس الاسلام حقّ دراسته ، ورد في الآثار : « نم الصبد صيب ، لولم يخف الله لم
يصه » أى ان صيبا رجل يحبّ الله ، فهو يعبده حبا له ، لا خوفا منه ، والعبادة الصادرة عن محبة للعبود
هى الجديرة أن تسمى عبادة ، والمحبون أرقى من الخائفين ، قال تعالى : « يحبه ويحبونه » ، فالحب هو
السعادة الحقيقية ، أما الخوف فأنما يجاء به لمن لا يفتقرون الجمال في هذا الوجود ، فهم يخوفون من العقاب
والأم ان لم يكن فيها حكاء عشقون لصانع العالم ، مفرمون برفق عباده ، فثما تكون آيلة للسقوط ، فالحب
الذى يشرسه غاى هو أصل من الاصول العالية في الاسلام . هذا ما أردت ذكره أولا :

(١) أما الجواب عن السؤال الأول فأقول : إن الانسان بنظره إلى هذا العالم نظرا سطحيا يراه كله
هدما واهلا كما وتبيدا وقتلا وحربا وخسفا وزلزلة الخ هذا بحسب ما يظفرنا ، ولكن المفكرون هم الذين
يقولون الحب العالم ، ولن يتسنى لامرئ أن يعرف الحب العلم إلا بدرس الطبيعة دراسة تامة ، فهناك هناك
يعرف أن هذا العالم كله أشبه بجسم واحد وفيه كرات لا يحصرها المد ، وهى كلها في تغير مستمر وحركة
متصلة ، تدار بجنود لانراها كما تدار أجسامنا بأرواحنا ، فالاحتراق في أجسامنا وتبدل صفاتنا رقى لأرواحنا
كما ان قلب عوامل العوالم كلها رقى لنفوس تديرها ، ونفس الاهلك والتدمير مقبلة للتجديد ، وكل ذلك
ارتقاء للنفوس المدبرات الطمات بالحب والعشق لا الخوف وحده ، وهذا العالم كله تتخلله جاذبية من أقصاه إلى
أقصاه ، فهى أشبه برسول المحبة ، أو عامل من عواملها

(٢) أما جواب السؤال الثاني ، وهو أن الحب له السيادة في العالم مع ان العالم كله تديره فاته مقرب
على جواب السؤال الأول وظهر منه .

(٣) أما الجواب عن سؤالك الثالث ، وهو أن ناموس المحبة يعطى سلاما وطمأنينة ويضربني خفيا
الطبيعة ، فهل بعد ما بينت لك بيان ، أليس ما ذكرته من الاجال في الحب العالم ينطبق على جميع الطبيعة :
شمس يتبعها سيارات تجرى وراها أبقار ، أليس ذلك كله محبة ؟ هل الأرض تجرى حول الشمس إلا بما
نسميه جاذبية ؟ أليس أشبه بأثر من آثار المحبة ، فالعوامل والكواكب متجاذبة مرتبطة ، وأى حب بعد
هذا ! فلذا اضمحعل نبات أو حيوان فلن ذلك للمحبة أيضا ، فلذا كان نبات ينفع بورقه أو ثمره لمخل إلى
عناصره ويرجع إلى المصل العالم في الأرض فيكون خلقا آخر ينفع به الانسان والحيوان ، فانه لولا المحبة
الدائمة السائدة في العالم لبق المشيم على حاله لم يخل فلم يكن خلقا آخر فلا تكون الفائدة ، فتكرار المصم
والتجديد تكرار للنافع ، والمدمم والتخريب تابعان للحركة العتمة ، والحركة لا تكون إلا بالشوق ، والشوق
مصاحب للحب ، فالعالم كله في حركة ، والحركة للجاذبية ، والجاذبية محبة ، وبالحرركات تتجدد الثمرات ، فالحب
هو نظام العالم والجد لله رب العالمين . كتب ظهر يوم الخميس ٥ نوفمبر سنة ١٩٣١ م

فقال صاحبي ، هذا حسن وواضح ، وبقي عندي سؤال واحد ، وهو انه اذا كانت المحبة من جنود
الله التي في السموات والأرض والخوف قبيضا وهما يتقسان القلوب ، فقلوب العاقبة للخوف ، والطماسة
للمحبة ، وهذان الجندان بهما انتظام العالم ، فهنا صلوا وهما ، ولكنى أريد أن أنهم موازنة للمها تم غاى
بين المحبة في قلوب الافئدة وبين الجلاية في القلوب ، وأن الثرات للماذبة أطاعت ربها ، وأن الانسان

قد عصبه ، فكيف يكون هذا ؟ قلت : إن النوع الانساني مطور على صفات كثيرة ، ومنها صفة المحبة والفرام بالاجتماع ، والعطف العام غريزة كاملة فيه ، انك ترى الفرة الواحدة التي لانراها قد أجمع العلماء فاطبة على أنها مركبة من قط كهر بانية بعدد معلوم (تقدم شرحه في سورة النور عند آية : الله نور السموات والأرض) سالبها يدور حول موجبها في الثانية الواحدة (٦) آلاف مليون مليون مرة ، ولاجرم أن سرعة الحركة وانطلاقها ، وصدم توقفها ، ودوام ذلك النظام أبدا وأمدا سرمدا ، وراه قوة معنوية عظيمة أصطه هذه الصفات ودوامها ، فلنسم تلك القوة محبة ، لأن الحركات عند الحيوان جميعها لاتكون إلا لمحبة ، فخرى صفار الحيوان لأتمتها ، وسراج الأهمات بالطف نحو أبنائها ، والسير في القلوات للبحث عن الغذاء ، والجرى هربا من عدو مفاجى ، كل ذلك حركات نشئت عن :

(١) حب الصغار لأمهاتها .

(٢) أوجب الأهمات لصغارها .

(٣) أوجب الغذاء الذي أوجبه الجوع .

(٤) أوجب البقاء ، ودوام الحياة الذي تفرض المفاجأة بالهلاك بسبب العدو المفاجى .

فإذا كانت الحركات التي نعرفها كلها صادرات لأجل محبة ، هكذا فلننسى ما لانظم على ماظم ونفسها حبا ، وهذا الحب يوجب ما يضارع حب عطف الانسان على الانسان بظفره ، فانك لن ترى شرقيا ولا غربيا على أى دين كان ، أو أمة ، أو لغة ، إلا وله شفقة ورحمة وعطف على الأطفال الباكين ، أو الفقراء المشاكين ، أو المساكين البائسين ، بل عطفه على الانسان تجاوزه إلى الحيوان ، فله عطف عليه عظيم .

الحركات المنتظمة في كهارب الفترات المسرعات جريا ، للنبتات للتصدمات على قيام هيكل الفرة الواحدة اللواتي منها أنتجت هذه العوالم كلها فصلت شموسا وأرضين لانعرف عددهما كلها : فبدأت تحت حيوانات لاحصرها تمش بالحب ، وحفظ الفرية ، والألنة العتة ، فهذه الحركات المنتظمة في الفرة رأينا من نتائجها الأولى حركات الكواكب والشعوس المنتظمة انتظام حركات الفرات ، ثم انتهى الأمر بعطف وفرام في الحيوان ، فإذا تحول في الحركات الأولى إلا ان جعلها ونظامها ، وأتوارها المشركات ، المكشوفات للضغوطات المتداخلات لم تنتج إلا عن حب عظيم وراهها : أى ان هناك عقولا عظيمة تقدم محبة وفرلما لاحد له وعظما ، وهذه المحبات كانت نتائجها في آخر الأمر محبات عرفناها في الحيوان ، فهي كما تكون الشجرة من حبة فتنتج حبة أيضا ، أما هذا الانسان الذي هو أرق من الحيوان فله خلق من هذه الحبة أيضا ولكن اعترضتها عوائق ، وأحيطت بموانع ، وغشت عليها غواش ، فهو لرواح تصد بلالين ، أرادت أن تنظم الأرزاق والمنافع والأرض ، فضلت في العدل ، ووقفت في الحيرة ، خدمت التحسد والتباغض ، أصل العقول الانسانية انها مضمورة على المحبة ، وهذا شائع ذائع ، يضره عطف الأم والأب على الفرية ، وعطف كل انسان على كل طفل وكل ضعيف ، ولكن العقبات الكثيرات غشت على تلك المحبة فسرتها وغطتها فكان التحسد والحقد ، وغلب الشر وخيم على العقول فنامت المحبة تتر بص الفرض ، ومنى رأيتها وقنن الانسان عليها واستخرجها من قلبه ظهرت فأنارت وجه الأرض ، كما ان العلماء في ألمانيا وغيرها يبحثون عن مكون الفرة وعظيوه ما فيها من القوى المكونة فيها حتى اذا ظهرت أراحت الناس في أعمالهم الدينية ، ولكن هذه الفرة وقواها وان كانت هي أصل خلقنا ليس استخراج ما فيها من القوى كالفارق الانسانية بل هذا رقى مادى لا غير ، وبه ظهور هذه القوى يبقى الانسان على ما هو عليه ، فهو طمغ حسود وقوة جهول طفل غيبى بفضه بعض عدو (وهذا قوله تعالى : « قتل الانسان ما أكفره » وقوله : « إننا لروضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلما جهولا »

فالعالم كلها من النيرة إلى الأرض إلى الشمس تجرى بنظام وعملها متقن ، فهي لم تفسد الأمانة ولم تخن فيها ، فأما هذا الانسان فإنه خان الأمانة ولم يتم بحققها لظلمه وجهله ، انظر تفسير الآية في « سورة الأحزاب » والمعنى الثاني المذكور هناك .

فأما كشف ما في النفوس الانسانية من المحبات فإن هذا اذا انبعث منها وخرجت ككرة أخرى بعد غيبوبتها عنه تصبح الانسانية كلها أشبه بشمس واحدة ، أو ذرة واحدة ، وكل نفس من النفوس الانسانية تكون أشبه بكهرب واحد من كهارب تلك النيرة المسرعات في جريه ، وهذا الاسراع في الجري أنتج ذرة كاملة هكذا هذه النفوس الانسانية الأرضية متى أسرعت في حركتها العقلية والعلمية إلى غرض واحد ، وهدف واحد ، ومقصد واحد ، وهي المصلحة العامة ، فانها لاجرم تأتي إذ ذاك بنتائجها الحقة ، ويكون عالم الانسان إذ ذاك عظيما ، وقوته لاضارعتها قوة ، وتكون نتائج هذه النفوس في انتظام حركتها أبعد مدى ، وأرفع مقاماً ، وأكثر منافع من انتظام حركات كهارب النيرة الواحدة ، وفرق ما بين حركات كهارب وحركات أرواح ، لأن حركات الأرواح الانسانية المنتظمة التي تسرع إلى غرض واحد وهي الخير العام للانسانية ترجع إلى مقاصد العلى الأولى وهي عالم الملائكة « الدورات أمرا » لا إلى نتائجها المادية البحتة . هذا هو السر في قول المهاتما غاندى : « إن الذى يكشف سر المحبة العلية أجدر بالاجلال من كل مخترع ومبتنع » وذلك لأن كل اختراع وابتداع في عصرنا فهو راجع لنفس المادة والنفوس باقية على ما هي عليه ، عليها غواشى التحاسد والطمع الذى يطفى المحبة كما تطفى غواشى المادة من صلابة وبرودة ونحوها ما تحتها من الأنوار التي منها تركيبت بحركات ورامها .

إن النفوس الانسانية يجب أن تكون كنفس واحدة ، وهذا هو تفسير ما يقوله المهاتما غاندى ، وهذا القول منه تفسير لقوله تعالى : « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » . ألم تر أن عدد الانسان مهما كثر على الأرض آلاف الملايين من الأولين والآخرين فإنه كله بالنسبة للعالم من شمس ومجرات أقل من جزء لا يتجزأ ، فإذا جعلناه كله أشبه بكرة واحدة مركبة من كهارب لم يك تشبيها بعيدا ، وهو نفسه تفسير لقوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة » لأن هذه فطرتهم وهي « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » وإذا كان خلق الله لا يغير فأنما يكون التغيير في الظواهر فحصل هناك التحاسد والتخاصم كما حصل في الأرض بعد انفصالها من الشمس اختلاف أجزاءها سيولة وصلابة وأحوالا لاحصر لها ، فلما اختصم الناس أرسل لهم علماء وأنبيا وحكاما ليصلوهم ، لأنهم لم يبقوا على فطرتهم ، فلما علموهم أخذ تابعوا الأنبياء يختلفون ، فكل أتباع نبي يختلفون فيها بينهم ، وبين أتباع كل نبي والآخر اختلاف أشد وأوسع مدى ، وهذا قوله تعالى بعدما تقدم « فبث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم اليينات بيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

وقسارى الأمر أن حال الأمم اليوم هو الاختلاف والاختلاف عارض على المحبة ، وعقلاء الأرض يرون أنه يجب عليهم أن يرشدوا النوع الانسانى أن يرجع إلى فطرته ، وفطرته هي المحبة العامة ، وهذه هي الغاية من خلقنا في هذه الأرض ، فغاية هذه الترية الأرضية التي أرسل لها الأنبياء وخلق الحكما أن يصل هذا الانسان إلى فطرته الأولى ، وكل محاولة حاولها أنبياؤنا وحكماؤنا إنما كان القصد منها أن يعسل إلى هذه الغاية ، وما صنالم نصل إليها فنحن نعيش على هذه الأرض في غاية النلة في أنفسنا وفي دولنا سواء أ كنا أقرباء أم كنا أمتنا .

فليجهد المسنون بعد في قراءة جيع العلوم ، وحوز جيع الصناعات ، وليضارعوا الأمم ، ثم ليثودوهم

إلى السلام العام بقوتهم وعلمهم ، ولذا الفتح العلمي العام أرسل نبينا صلى الله عليه وسلم ، فلئن فتحت مكة وفتحت فارس والروم ، ولئن رجع المسلمون الآن يجتدون قواهم لازالة الخطر عن أنفسهم فهذا مبادئ ولكن غايتها ما ذكرناه وهو الحب العام .

كان النبي صلى الله عليه وسلم يريد أن يجعل الناس أمة واحدة تحت راية الاسلام ، فاول آياتنا الأولى ذلك ففشلوا أخيرا ، لان النوع الانساني لم يكن يحتمل ذلك ، فلنقم نحن الآن بما علينا ، ولنفسكري إسعاد الأم كلها ، ولكن لن ينسى لنا ذلك إلا بعد أن نقرأ كل علوم الأمم وندرسهم هم أنفسهم ، وبعد ذلك قوم بدورنا ، ولكن هذا الدور ليس معناه اننا نحارب الأمم . كلا . بل نكون أقوى قادر على مدافعتهم ونكون أقوى منهم ثم نطغف عليهم ونجعل الانسانية كلها أمة واحدة رجوعا إلى قوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة » .

فلينا نحن المسلمين أن نكشف السرّ المصون الخبوء في عقول الانسانية وهي المحبة العامة ، إن حالتنا الآن أشبه بحال النبي ﷺ وأصحابه وهم في مكة يقودون أنفسهم أولا ، وستأتي حال أخرى أرقى من هذه أشبه بحال الهجرة إلى المدينة وهي آتية لا ريب فيها .

إذن ظهر الآن معنى كلام « الماهاتاغندي » وتطليق عليه بأنه علينا نحن المسلمين أن نكشف هذا السرّ ، فهو يقول : « إن كاشف هذا السرّ أحسن من كل مخترع » وانما كان كشف هذا السرّ علينا لأننا أهل له ، أولا لأن نبينا ﷺ رحمة للعالمين ، ثانيا لأننا وسط بين الشرق والغرب في ديارنا ، فنكشف أوروبا أن تهجم على الشرق الأقصى أو علينا ، ونكشف الشرق الأقصى أن يهجم علينا أو على أوروبا . إذن علينا كشف سرّ المحبة لاعلى غيرنا . إذن يجب على المسلمين أن يفسطوا من الآن لهذا الكشف ، فليجتدوا في العلم كلها من الآن .

إن جنكيزخان منذ بضعة قرون هو والتر الذين معه أوغلا في بلادنا أولا وفي بلاد أوروبا ثانيا ، فهذا هجوم من الشرق على الغرب وما نعه أخيرا إلا المصريون عند حلب ، وهامهم أولاء رجال التتار قبل المسيح بقرون هجموا على أوروبا فكان منهم تلك الأمم الممجيبة التي كانت تحيط بدولة الرومان فأهلكتها وأتتبت أخيرا هؤلاء الاوروبيين الحاليين ، فنحن اليوم نريد أن نكشف سرّ المحبة لتزيل هذه الهجمات عن الانسانية ونوجهها لغرض واحد وهو النفع العام ، نحن جنود الله ، بل أعظم جنوده في الأرض ، فلنقم للعمل كما قام آباؤنا له ، ولنكن خير أمة أخرجت للناس ، نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر ، وهذا هو المقصود من قراءة (سورة الفتح) وفهمها وفهم كوننا خير أمة أخرجت للناس ، وقد ألفت كتاب « ابن الانسان » وستقرأ ملخصه قريبا في (سورة الحجرات) وفيه مبادئ الطرق التي بها انتظام الانسانية كلها ، وقد أحب حكام أوروبا ، وارانحو له ، وهذا من مبادئ اكتشاف سرّ المحبة العاتمة في النوع الانساني ، فليقرأه المسلمون بعدنا ، وليتمموا ما ابتدأناه حتى نكون خير أمة أخرجت للناس ، وحتى نكون نحن الذين نكشف السرّ الذي طلب الماهاتاغندي كشفه .

والى هنا تم الكلام على اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « والله جنود السموات والأرض » والحمد لله رب العالمين . كتب ضحى يوم ٨ نوفمبر سنة ١٩٣١ م



اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق » ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون * محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيئاتهم في وجوعهم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة. وأجرا عظيما»

في هذه اللطيفة أربع جواهر

- الجوهرة الأولى في قوله تعالى : ليظهره على الدين كله .
- الجوهرة الثانية في قوله تعالى : رحما بينهم .
- الجوهرة الثالثة في قوله تعالى : تراهم ركعا سجدا .
- الجوهرة الرابعة في قوله تعالى : كزرع أخرج شطأه الخ .

الجوهرة الأولى في قوله تعالى : ليظهره على الدين كله

مسامرة بيني وبين صديقي العلامة الذي اعتاد مناقشتي في هذا التفسير

اطلع على هذا العنوان فقال : لقد مضى أمثال هذا في سور كثيرة ، وذكرت عموم الرسالة وشرحتها شرحا وافيا . فقلت نعم ، ولكني الآن اطلمت على ما لم يكن لي يدور بخلدني . فما أجل أن أذكره ليطلع عليه المسلمون بعدنا . فقال وما هو ؟ قلت لأفتمم لك مقدمة فأقول : إن العلم الجزئي ضارٌ ولكن العلم الكلي هو النافع . فقال : أنا لأدري ماذا تريد ؟ فقلت : إذا رأينا عالما نبغ في الفلك ، أوفى المهندس ، أوفى جيب الرياضيات ، أوفى العلوم الطبيعية ، أوفى فرع منها كعلم الحيوان ، أوفى العلوم اللسانية ، أوفى فرع منها مثل علم البديع ، هل تقبل شهادته في نظام هذه الدنيا وهجائها ؟ وقبل حكمه ، ونعده حكما ؟ قال . كلا . قلت حسن فناقول أيها الحبيب في أمر أم الاسلام ؟ أنقبل قول أي قائل كان ؟ أم نبحت عن مبتد بقوله بمن أحاط بالأم الاسلامية علما من حيث أخبارها . فقال : أما أنا فلم أفهم ما تر بدون ؟ فقلت : هاهوذا الأستاذ (لوثوب استودارد) العالم الأمريكي الذي لم يعتنق دين الاسلام قد نشر كتابه « حاضر العالم الاسلامي » وقرأه أهل الغرب والشرق ، أفليس يكون هنذا حجة اذا وصف الاسلام من حيث أن الرجل يحيط علما بجلائل المسائل ودقائقها . فقال : أما هذا فكلامه مقبول اذا كان على هذا النظم لأنه اذا صح هـ هذا كان حازرا لشرطين : أحدهما انه عالم بالحوادث . الثاني انه غير متهم ، لأنه غير مسلم . فقلت حسن ، إذن أسمعتك الآن قوله الذي يفيد معنى هذه الآية وهاهوذا قال في صفحة ١٣ وما بعدها في الجزء الأول من الكتاب المذكور مانسه :

« إن نشر الرسالة المحمدية لم يتم به رجال التبشير وحدهم ، ولا قصر الأمر عليهم دون سواهم ، هكذا ، بل شاركهم فيه جماعات عديدة من السياح والتجار والحجاج ، على اختلاف الأجناس . ولا يؤخذ من هذا انه لم يتم في المسلمين مبشرون ارتشفوا كؤوس الحمام في سبيل الدعوة الاسلامية ، فعديد المبشرين الذين هم على هذا الطراز كثير ، وذلك ظاهر بين في أمر الطرق الدينية مما لا يحتاج إلى برهان ، بل أي دليل أقطع من المبشرين السنوسيين ، الحس الغير الذين خرجتهم زوايا الصحراء وهم يعتون بالالوف المؤلفة ،

وما انفكوا يجوبون كل بلاد وثنية ، مبشرين بالوحدانية ، داعين إلى الاسلام ، وهذه الأعمال التي قام بها المبشرون المسلمون في غرب افريقيا وأوسطها خلال القرن التاسع عشر إلى اليوم لهيبة من العجائب الكبرى وقد اعترف عدد كبير من الغربيين بهذا الأمر . فقد قال أحد الإنجليز في هذا الصدد منذ عشرين سنة : « إن الاسلام ليفوز في أواسط افريقية فوزا عظيما ، حيث الوثنية تختفي من أمامه اختفاء الظلام من فلق الصباح ، وحيث الدعوة النصرانية باتت كأنها خرافة من الخرافات » .

وقال مبشر بروستنتي فرنسي : « مابرح الاسلام يسير بقوة منذ نشوئه حتى اليوم ، فلم يثر في سبيله إلا القليل ، وما زال يسير في جهات الأرض حتى بلغ قلب افريقية ، مذلا أشق المصاعب ، ومجتازا أشد الصعاب ، غير واهن العزم ، فالاسلام حقا لا يرهب في سبيله شيئا ، وهو لا ينظر إلى النصرانية منازعته الشديدة فطرة المقت والازدراء ، فلهذا هو حقيق بالظفر والنصر ، إذ بينما كان النصراني يحلمون بفتح افريقية في نومهم ، فتح المسلمون جميع بقاع القارة في يقظتهم ، وأما السبيل الذي يسير فيه الاسلام جنوبا في افريقية فهو من الرائع الغريب ، منذ عدة سنوات عثرت الحكومة الانكليزية على غير المتوقع ، على أن المبشرين المسلمين مخترقون « نياسلندة » دعاة إلى الرسالة المحمدية ، وبعد البحث والاستقصاء ، واذ كاه العيون ، وجدت تلك الحكومة أن المبشرين إنما هم من عرب زنجبار ، وقد بدأوا عملهم هذا منذ سنة ١٩٠٠ م . وانه بعد مضي عقد من السنين على شروعهم في جهاد التبشير ، كانت كل قرية في جنوب « نياسلندة » قد أسلمت وفيها مسجد ، ومدرسة اسلامية ، ومعلمون مسلمون ، ومع أن هذه الدعوة كانت كما هو ظاهر من أمرها وسيلة شديدة لتضعف سلطة المستعمرين وسيطرتهم فلم تجسر الحكومة الانكليزية على مقاومتها خيفة ازدياد انتشارها في الأقطار الأخرى » .

ويقول بعض المفكرين الغربيين في هذا العصر : « انه لا يمضي مدة طويلة منذ اليوم حتى يرى الاسلام قد اجتاز (زيمباري) وانتشر في جنوب افريقية انتشارا عاما فيطبق القارة بأسرها ، وليس ظفر الاسلام في افريقية مقصورا على الوثنية خشب ، بل على النصرانية الافريقية كذلك ، إذ ترى الآن الدين تنصروا في غرب افريقية على يد المبشرين الفريحية يتناقصون عددا تناقصا فاحشا ، وذلك لارتداد غالبهم عن النصرانية ودخولهم في الاسلام . زد على ذلك أن النصرانية في الحبشة ، إنما باتت في خطر شديد من جراء سيول الاسلام الطامية ، من بعدما كانت فيما مضى سدا منيعا في وجه الاسلام ، والغريب في هذا كل الغرابة أن الأعباش أنفسهم غدوا اليوم يدخلون في الاسلام أفواجا متلاحقة ، لاعلى يد فتوح حربية ، بل فتوح سلمية دينية » .

وقال أحد الثقات الغربيين حديثا : « منذ خمسين إلى ستين سنة خلت كنت ترى قبائل الأعباش العديدة لا يكاد يرى فيها مسلم واحد ، أما اليوم فغالب هذه القبائل هم مسلمون مؤمنون بالرسالة المحمدية » . وربما كان ظفر الاسلام في افريقية اليوم أعظم ظفر لاقاه المبشرون المسلمون حديثا ، بيد أن هذا ليس جميع الظفر الاسلامي ، بل هناك غيره مثله في سائر أنحاء العالم ، وقد أتينا في الفصل السابق من هذا الكتاب على ذكر حركة الأحرار السياسية في بلاد التتر الروسية ، بحيث بقي علينا الكلام على النهضة الدينية المحيية التي رافقت تلك اليقظة الثورية ، كان التتر مبرحوا منذ عهد بعيد في الحكم الروسي ، وقد جهدت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية أعظم الجهد لتنصيرهم ، فأدركت في بعض المواضع بعض النجاح الذي لا يذكر ، غير أنه لما انتشرت اليقظة الاسلامية العامة ، ووصل ما وصل منها إلى بلاد التتر في أوائل القرن التاسع عشر ، هبت التتر للحال يستردون إخوانهم المنصرين إلى الاسلام . فلم يمض غير البسير من الزمن حتى عاد جميع هؤلاء فانتحلوا دين الرسالة ، على جميع ما بذلته الكنيسة الأرثوذكسية من العناء الأشق : ولجأت إليه من

مختلف الدرائع والوسائل لتحويل دون ذلك ، فلم تلق شيئا من التحج بالرغم مما اتخذته الحكومة الروسية من أحكام الجزاء والعقاب ، ووسائل القهر والاكراه ، على أن المبشرين المسلمين التزم يقصروا أمرهم على هذا ، بل شرعوا في نشر الاسلام في القبائل التركية الفنلندية الأتية المقيمة في الشمال من بلاد النور ، غير مبالين بمقاومة حكام الروس لهم ولو لاقوا من وراء ذلك من الهول ما لاقوا » انتهى
 فلما سمع ذلك صاحبي . قال : حسن والله ، هذا معنى ظهوره على الدين كله ، وهذا أمر عجب اكيف ينشر الاسلام في تلك البلاد التي يحكمها الفرنجة وهم أخوف الناس وأكثرهم عدواة للإسلام . انتهى الكلام على الجوهرة الأولى في قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » والحمد لله رب العالمين .

الجوهرة الثانية في قوله تعالى : أشدّاء على الكفار رحماء بينهم

في هذه الجوهرة فصول

الفصل الأول في قوله تعالى : أشدّاء على الكفار

ويبان أن هذه الشدة أحسن بها أهل أوروبا في زماننا بعد الحرب الكبرى

فانظر ما جاء في هامش ذلك الكتاب بقلم الأمير شكيب أرسلان ، إذ أبان أن الدول الأوروبية التي ترعد خوفا من البلشفيك ، خافت ان هي استعانت بالمسلمين عليهم أن يهلكوها مصداقا لهذه الآية ، وهذا فسه بالحرف الواحد :

« قد نشر العالم الاجتماعي الكبير (غويظيلمو فريبدو) مقالة في جريدة (الايلاوستراسيون) عنوانها « أوروبا وآسيا » بين فيها أن الحرب العامة أحدثت انقلابات متناقضة ، فباعدت وقرّبت بين القارات ، وأنه من العادة اذا خرجت سلطنة عظيمة ظافرة من حرب من الحروب ، ازدادت هيبتها وانبسط سلطانها عن ذى قبل ، والحال أنه بعد أن خرجت انكلترا ظافرة من أكبر حرب في الدنيا ، ثارت في وجهها أفغانستان والمندم مصر ، وبعد أن كانت تركيا اضمحلت سنة ١٩١٨ عادت فنهضت وردّت انكلترا وحليفاتها على أعقابهن ، وكذلك الصين بالرغم من الثورة التي تمزق أحشائها ، تطلب استرداد البلاد التي احتلت منها وعدم مسّ شيء من استقلالها ، فآسيا تقوم على أوروبا على حين هي آخذة بمبادئ أوروبا وليست تأخذ من أوروبا وأمريكا أسلحة خصب ، بل مبادئ وأفكارا تقاثلها بها . قال : وسبب ذلك هو انهيار الدولة الروسية فان أوروبا كانت سنة ١٩١٤ كتلة متحدة متينة متماسكة بالرغم من جميع المناظرات والمناهضات التي كانت بين أجزائها ، فقد كانت السلطنة الروسية والسلطنة الانكليزية متناظرتين في آسيا ، ولكن من جهة أخرى كنت ترى كل واحدة منهما شاذة إزرا الأخرى ، وكانت أوروبا بأجمعها تستفيد من الرعب الذي تلقه الروسية في قلب آسيا ، فسقوط السلطنة الروسية كان مبدءا خلاص آسيا ، وقد أشارت جريدة الطان بتاريخ (٨) حزيران سنة ١٩٢٣ إلى مقالة (فريبدو) هذه وأيدت رأيه من جهة كون انهيار الروسية هو الذي كان مبدءا تحرير آسيا ، وهذا عين ماورد في مقالة (روجرلابون) التي عربناها عن مجلة باريز ، وكان أحد الروس اقترح علينا سنة ١٩١٩ نشر مقالة في جريدة روسية تصدر في برلين ، غررنا في ذلك الوقت له مقالة نبين بها الأسباب الداعية إلى الاتحاد بين الروس والشرقيين وتلون سياسة الروسية المناهضة التي كانت عبارة عن قهر الشرق وملاشاة الدولة العثمانية لتائدة الدول الغربية ، فكان جعل الحصار بالمال والرجال على الروسية ، ومعظم الخوائد لانكلترا وفرنسا ، لأنه من المحقق لولا نفل جن الروسية على ظهر العثمانيين ، وكونهم أمبحوا من عدواة الروس ، بحالة لا يمكن ان يكون معها قبضا ولا بسطا ، لما كان يمكن فرنسا الاستيلاء على الجزائر ، ولا على

تونس ، ولا إيطاليا دخول طرابلس ، ولا انكلترا احتلال مصر والسودان ، بل كانت الدولة العثمانية بأمنها ناحية الروسية تقدر على حماية هذه البلدان لاسيما في بداية الأمر ، فالروسيا هي التي كانت سبب سقوط الشرق وواسطة تقسيمه بين الدول الاستعمارية ، وتحول الحكومة القيصريّة إلى البلشفيّة هو الذي مكن اليوم الشرق من أن يتنفس : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » فهذا المعنى كنت أوضحته قبل أن ابتداء الكتاب الاوروبون ينفهون إليه .

ثم ان هناك جملة وردت في كلام العلامة (فريدور) فيها معنى كبير ينبغي أن ينعم النظر فيه جميع الشرقيين ألا وهو قوله : « إن روسيا وانكلترا مع تناظرهما وتنافسهما في الشرق كانت كل منهما شاذة إزرا الأخرى » ومعنى ذلك أن روسيا كانت تقم أظفار الأتراك والفرس والسفنيين ، فبملاشاة قوتهم أصبحوا لا يقفرون على إغاثة الهنود والأفغان والمصريين والعرب الذين مدت يدها إليهم انكلترا بالبطش والغصب ، وكذلك انكلترا باستيلائها على هؤلاء قد عطلت منهم كل قوة حربية ، فأصبحوا لا يقفرون أن يؤيدوا الدولة العثمانية ولا الدولة الفارسية ولا تركستان ولا الصين بشيء ، فكانت كل من روسيا وانكلترا قد شدت إحداها إزرا الأخرى بطبيعة الحال ، وكان بينهما تضامن وان لم يكن جرى عليه تواطؤ من قبل فهو جار بالفعل ، ومن الامور التي تؤيد هذا وقوع هذا التضامن بدون تواطؤ ، ليس بين أوروبا والروسيا القيصريّة لحسب ، بل بين أوروبا والروسيا البولشفيكية نفسها مع شدة العداوة التي بين الفريقين ، فان الدول الغربية أثارت على البولشفيك الأمبرال كولتشان والجنرال دنيكين والجنرال يودينيش والجنرال فرانجل ، والمملكة البولونية ، وحاولت إثارة الأرمن والكرج ، وكل قوم ترجو فيهم النهضة لقتال الحكومة البولشفيّة التي ترى فيها الخطر الأعظم على كيان الهيئة الاجتماعية الاوروبية ، وقد بذت انكلترا وفرنسا في تسليح هذه الأقوام وسوقهم على روسيا مئات الملايين ، ولا تزالان إلى هذه الساعة تترصدان الفرص وتتربسان بالبولشفيك الدوائر . لكن قد حذرت هاتان الدولتان كل الحذر من أن تحرك على البولشفيك قوة إسلامية ، فعرض بعضهم الرأي بالاتفاق مع تركيا وتسليحها وسوقها على روسيا من جهة القوقاس حيث ينضم إلى الترك هناك الكرج والطاغستانيون والترك ، فلم يقبل الحلفاء هذا الرأي أصلا ، ولاراق لهم أن تسليح الهنود ، ولا الأفغان ، ولا بخاري ولاخيوة ، ولا فرغانة ، ولا غيرها من تركستان ، ولا رمى البولشفيك بهذه القوت كلها ، وماذا لك إلا لأنهم يرون الخطر الاسلامي أعظم من الخطر البولشفي مهما كان الخطر البولشفي عظيما .

ومن الأدلة البارزة على ذلك أنه لما نفي المرحوم أنور باشا من البولشفيكين ، وبرح موسكو سنة ١٩٢١ إلى باطوم ، ومنها انسل إلى بخاري ، وأثار ثورة تركستان الهائلة التي حشد البولشفيكيون فيالق جرارة لقمعها ، لم يفكر أحد بأوروبا في إمداد أنور على البولشفيك ، بل عند ماسقط أنور شهيدا في أوائل أغسطس سنة ١٩٢٢ فرح بمقتله الحلفاء ، ولم تخف الجرائد الانكليزية سرورها . وفي هذا مقنع لمن يبقى عنده شيء من الريب في شدة تضامن أوروبا بآزاء الشرق . انتهى الكلام على الفصل الأول والجوهرة الثانية فيه والحمد لله رب العالمين

شكيب أرسلان

الفصل الثاني في تحفز المسلمين لتلك الشدة

وظهور المصلحين منهم لايقاد نارها

ولأذكر مصلحا منهم على سبيل المثال وهو الاستاذ المرحوم جمال الدين الأفطاني القمي نشر مبادئ الحرية

وكان حورا على الملوك المستبدين ، ولأجعل الكلام فيه في مبحثين :

المبحث الأول في عداوته للمستبدين

جاء في هامش كتاب « حاضر العالم الاسلامي » المذكور بقلم نفس الأمير شكيب أرسلان مانصه :
 في أحد الأيام قدم على جمال الدين الأفغاني رجل من الحجم ، باقى المذهب ، اسمه رضا آقا خان ،
 صادف أنه وجد مع جمال الدين في حبس واحد في قزوين عند ما اعتقله الشاه ، فحصلت بينهما محبة أكيدة ،
 ثم تقارفا عند ما أخرج جمال الدين من الحبس ونفى إلى بغداد ، ثم أخلى سبيل رضا آقا هذا ، ولما بلغه بحجى
 السيد إلى الاستانة جاء يزوره فيها ، فسر به السيد كثيرا ، وكان دائما يحادثه ، ويتكلمان على شقاء الأمة
 الايرانية بسوء ادارة سلطانها ناصر الدين . فقال رضا آقا خان يوما انه هو مستعد أن يضحي نفسه لتخليص
 أمته . فقال له جمال الدين : ان كان كذلك فأذهب وافعل ، فذهب رضا آقا خان ، وبعد أشهر بينا
 ناصر الدين شاه في جامع عبدالعظيم في طهران إذ دنا منه هذا الرجل وقتله غيلة وقال له : بدى از جمال الدين
 أى خذها من يد جمال الدين ، ووردت الأخبار إلى الاستانة وتحدث بها الناس كما لا يخفى ، فأبدى السيد
 جمال الدين مزيد سروره بهذا الخبر وشرع يقول : « قد تحققت الآن أن الأمة الفارسية لم تمت وانها أمة لم
 تقطع منها الآمال ، لأن الأمة التى يقوم من أبنائها من يأخذ بثأرها ويضك بلطاغى الهوى على رأسها ، لا
 تكون قد فقدت جوانم الحياة » .

وكلاما من هذا القبيل كان يردده ، ثم لما ورد عدد من مجلة « الايلاستراسيون » التصويرية الفرنسية
 وفيها صورة القاتل رضا آقا خان معلقا والناس ينظرون من حوله هتف : علو في الحياة وفي الممات .
 وقال : انظروا كيف علقوه عاليا عليهم حتى يكون ذلك رمزا إلى أنهم كلهم كانوا من دونه ، وكان الجواسيس
 ينقلون إلى السلطان كل كلمة يفوه بها السيد ، فلم يشك عبد الحميد في كون قتل الشاه كان بسبب جمال الدين
 وانه مازال وراء الشاه حتى أنزله في قبره كما قال : ومن الغريب أن الشاه بعد أن خلى سراح جمال الدين ،
 وذهب هذا إلى أوروبا بلغ الشاه أن المترجم كان يسى في تدير مكيدة مع بعض الايرانيين لخلع الشاه أولقتله
 فندم جدا على افلاته ، ويقال انه هو الذى بعث إلى السلطان عبد الحميد يرجونه استقدام جمال الدين إليه
 ووضعه تحت المراقبة أمانا من شر غوائله ، فاستقدمه السلطان بكتاب من قلم أبى الهدى ، ولما بلغ الاستانة
 أمر بالمباينة في بره وإكرامه ، ليليه عن عداوة شاه الحجم ، فكان من ذلك ما كان ، ولا يمنع حذر من
 قدر . فلما تحققت السلطان كيفية قتل الشاه غضب غضبا شديدا ، وأمر بتشديد المراقبة على المترجم ، ومنع
 أى أحد من الاختلاط به إلا بإرادة سلطانية ، فأصبح السيد في قصره محبوسا ، وكانت الحكومة الايرانية
 شرعت في تحقيق حادثة القتل ، فثبت لديها إغراء جمال الدين لرضا آقا خان بالاشترك مع شخص فارسى
 آخر اسمه رضا آقا خان أيضا ، وشخص بغدادى اسمه الشيخ ابراهيم ، فطلبت الدولة الايرانية من الباب العالى
 تسليمها هؤلاء الثلاثة ، فالسلطان عبد الحميد أبى تسليم جمال الدين ، ولكن الشخصين الآخرين بلفى أنه
 جرى تسليمهما ، وقتلا في ابران بحجة اشتراكهما بالمؤامرة ، ثم ان التضييق بلغ حدته على المترجم حتى
 أرسل إلى « فيس موريس » مستشار سفارة إنجلترا يلتمس منه إيصاله إلى باخرة يخرج بها من الاستانة ،
 فحضر « فيس موريس » إليه وتعهد له بما طلب ، واذ ذاك بلغ السلطان الخبر ، فأرسل إليه أحد حجابيه
 يستعطف خاطره باسم الاسلام أن لا يرضى بمس كرامة الخليفة إلى هذا الحد ، ولا يلتمس حماية دولة أجنبية ،
 فتارت في أنه حية الاسلام ، وبعد أن كان زم حقايبه للسفر . قال لفيس موريس : انه عدل عن السفر ،
 ومهما كان فليكن ، ولندن المراقبة كانت لم تزل باقية ، وكل من أراد أن يشاهده فلا بد له من إذن خاص ،
 وبعد أشهر من هذه الحادثة ظهر في حنكه مرض السرطان واشتد عليه ، وصدرت الارادة السنية بأجراء
 عملية جراحية ، يتولاها قبيور زاده اسكندر باشا ، كبير جراحى القصر السلطاني ، وكان هذا مقربا جدا إلى
 الحضرة السلطانية ، فأجرى له العملية فلم تنجح ، وما لبث إلا أياما قلائل حتى فاضت روحه ، رحمه الله

وعنى عنه . والى هنا تم الكلام على المبحث الأول من الفصل الثاني والحمد لله رب العالمين .

لمبحث الثاني من الفصل الثاني في صفاته وفعاليته

وهاك ما جاء بقلم الأمير شكيب أرسلان في هامش الكتاب المذكور أيضا وهذا نصه : -

ولد السيد جمال الدين الأفغاني في مطلع القرن التاسع عشر في « أسد آباد » بالقرب من همذان في بلاد فارس ، وهو أفغاني الأرومة لإفارسى ، يتحدر نسا ، كما يدل لقب سيادته على هذا ، من العرة النبوية الطاهرة ، ويجرى في عروقه الدم العربي البعث الكريم .

كان جمال الدين سيد النابغين الحكماء ، وأمير الخطباء البلغاء ، وداهية من أعظم الداهية ، دامغ الحجة ، قاطع البرهان ، نب الجنان ، متوقد العزم ، شديد المهابة ، كأن في ناسوته أسرار المغناطيسية ، فلهذا كان المنهاج الذي نهجه عظيما ، وكانت سيرته كبيرة ، فبلغ من علو المنزلة في المسلمين ما قل أن يبلغ مثله سواء ، وكان نائما جوبا ، طاف العالم الاسلامي قطرا قطرا ، وجمال غربي أوروبا بلدا بلدا ، فكتب من هذه السياحات الكبرى ، ومن الاطلاع العميق . والتبصر الواسع ، في سبر العالم والأمم ، علما راسخا ، واكتنه أسرار خفية ، واستنبط غوامض كثيرة ، فأعانه ذلك عوننا كبيرا على القيام بجلال الأعمال التي قام بها ، وكان جمال الدين يعامل سجيته وطبعه وخلقه ، داعيا مسلما كبيرا ، فكأنه على وفور استعداده ومواهبه إنما خلقه الله في المسلمين لنشر الدعوة حسب ، فأقادت له نفوسهم ، وطافت متعاقدة من حوله قلوبهم ، فليس هناك من قطر من الأقطار الاسلامية وطئت أرضه قدما جمال الدين إلا وكانت فيه ثورة فكرية اجتماعية ، لا تخجوارها ، ولا يقبده أنوارها ، وكان يختلف عن السنوسي منهاجا ، فجمال انكب على السياسة وشؤونها وذلك على علوم الدين وترقيتها ، غير أن السيد جمال الدين الأفغاني كان أول مسلم يقن بخطر السيطرة الغربية المنتشرة في الشرق الاسلامي ، وتمثل عواقبها فيما إذا طال عهدا ، وامتدت حياتها ، ورسخت في تربة الشرق وأدرك شؤم المستقبل ، وما سينزل بساحة الاسلام والمسلمين من النابسة الكبرى ، اذا لبث الشرق الاسلامي على حال مثل حاله التي كان عليها ، فهب جمال يضحي بنفسه ، ويبنى حياته ، في سبيل إيقاظ العالم الاسلامي وإبذاره بسوء العقبى ، ويدعوه إلى اعداد ذرائع الدفاع لساعة يصبح فيها النفير ، فلما اشتهر شأن جمال الدين خشيت الحكومات الاستعمارية أمره ، وحسبت له ألق حساب ، ففتته بحجة أنه هائج للمسلمين ، ولم تحض دولة جبالا وقسطهده مثل منافته واضطهده الثورة البريطانية ، فسجنته في الهند مدة ، ثم أطلقت سراحه ، فجا إلى مصر حوالي سنة ١٨٨٠ وكانت له يد في الثورة العراقية التي أوقدت نارها في وجه الفرنسيين ، فلما احتل الانجليز مصر سنة ١٨٨٢ ضوا جبالا للعالم ، فزابل مصر وأنشأ يسبح في مختلف البلدان حتى وصل إلى القسطنطينية ، فلتقاء عبد الحميد بطل الجامعة الاسلامية بالبرية والكرامة ، وقربه منه ، ورفع منزلته ، فسحرجال السلطان الداهية بتوقد ذكائه ونفسه الكبيرة ، فقلده السلطان رئاسة العمل في سبيل النهضة للجامعة الاسلامية ، ويفلب أن ماناله السلطان عبد الحميد من النجاح في سياسته في سبيل الجامعة الاسلامية إنما كان على يد جمال الدين ، المتوقد الهمة ، المشتعل العزم ، والتحقى جمال الدين بالرفيق الأعلى سنة ١٨٩٦ شيخا وعاملا كبيرا في سبيل النهضة الاسلامية حتى النفس الأخير من ألقاسه ، وهاك ملخص تعاليم جمال الدين : -

« العالم الافرنجى على اختلاف أيمه وشعوبه عرقا وجنسية ، هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم وللإسلام على الخصوص ، فجميع الدول النصرانية متحدة معا على ذلك الممالك الاسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، الروح الصليبية لم تبرح كائنه في صدور النصراني كيون النار في الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية متلججة في قلوبهم حتى اليوم كما كانت في قلب بطرس الناسك من قبل ، فالنصرانية لم يزل التعصب

مستقراً في عناصرها ، متغلغلا في أحشائها ، و متمشياً في كل عرق من عروقها ، وهي أبداً ناظرة إلى الإسلام
 نظرة العدا ، والحق ، والتنصب الديني المقوت . وحقيقة هذا الأمر ونتيجته واقعتان في كثير من الشؤون
 الخطيرة والمواضع الكبرى ، حيث القوانين والشرائع الدولية لم تعامل فيها الأمم الإسلامية مستوية مع الأمم
 النصرانية ، فتحتل الدول النصرانية أعدارا لها في كرها وهجومها وعدوانها على الممالك الإسلامية واذلالها
 واكراهها بقولها : « إن الممالك الإسلامية هذه إنما هي من الانحطاط والتدلي بحيث لا يستطيع أن تكون
 قوامة على شؤون نفسها بنفسها » وفوق جميع هذا فهذه الدول النصرانية عينا لم تقنأ بعمل هذا من ناحية
 وتنزع بألوف الترائع من نواح أخرى ، حتى بالحرب والحديد والنار . للقضاء على كل حركة حارها المسلمون
 في بلادهم وديارهم في سبيل الإصلاح والنهضة ، جميع الشعوب النصرانية بجمعة متفقة على عداة الإسلام ،
 وروح هذا العداة متمثلة بجهود جميع هذه الشعوب ، جهدا خفيا مستترا متواليا لسحق الإسلام سحقا ،
 تأخذ النصرانية شواعر كل مسلم ، وآماله ، ورجباته ، التي تجول في صدره ، ثم تمثلها بصور الهزء والسخرية
 والبهت والازدراء ، فإن ما يدعوه الفرنجة عندنا في الشرق تعصبا مذموما محرما ، هو عندهم في بلادهم
 وأوطانهم العصبية الجنسية المباركة ، والقومية المقدسة ، والوطنية المعبودة ، وأن ما يدعونه عندهم في الغرب
 إبادة النفس ، والشتم ، والشرف الوطني ، والعزة القومية ، يعدونه في الشرق غلوا مكروها ، وإفراطا في
 حب الوطن ضاراً ، ومقتا ، وشناء للأجنبي الغربي .

جميع هذا يوضح أن العالم الإسلامي يجب عليه أن يتحد اتحادا دفاعيا علما ، متمسك الأطراف وثيق
 العرى ، ليستطيع بذلك الزيادة عن كيانه ، ووقاية نفسه من الفناء المقبل . وللوصول إلى هذه الغاية الكبرى
 إنما يجب عليه اكتتاه أسباب تقدم الغرب ، والوقوف على تفوقه وقدرته . انتهى الكلام على الفصل الثاني
 والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثالث

في شدة المسلمين على الكفار في زماننا هذا وبعض آثاره

في هذا الفصل مبحثان

المبحث الأول في بيان تآزر المسلمين فعلا

جاء في كتاب « حاضر العالم الإسلامي » المذكور مانصه : « في سنة ١٩١١ أغارت إيطاليا معتدية على طرابلس
 الغرب الأفريقية التابعة للدولة العثمانية على غير ما علة سوى الاستعمار ، وفي سنة ١٩١٢ م تألبت الدول
 البلقانية النصرانية ، وأوقدت نار الحرب على تركيا ، ففسرت تركيا في هذه الحرب جميع أملاكها الأوروبية ،
 فلم يبق من جميع ما كان لها في أوروبا غير القسطنطينية معرضة لخطر الغارات عليها ، ومهددة شر تهديد ،
 وفي تلك الضون انفتحت انكلترا وروسيا على خنق الثورة الفارسية ، وكانت فرنسا على أثر معضلة « أغادير »
 تحرق الأرم ، فعضت على مراكش بالنواجذ ، وأقذت فيها الخاب ، وهكذا في خلال سنتين تواتت الحملات
 الأوروبية تترى على العالم الإسلامي ، حملات العدوان والاعتداء المحض ، فزقت ما كان باقيا منه حتى ذلك
 العهد سلما شر مزق ، فنزل ذلك على الأمم الإسلامية قاطبة نزول الصاعقة ، بصم الآذان دويها ، فأخذ
 العالم الإسلامي في المشرق والمغرب يقوم ويقعد مشتتلا غضبا وحقا ، فعادت الجامعة الإسلامية إلى سابق
 حالها تجرئ تجرئ سريها ، وقد تحققت للمسلمين الآن ما كان ينبغي به على انقطاع دعاة الجامعة الإسلامية منذ
 خمسين سنة . الحرب الصليبية الجديدة لك الممالك الإسلامية دكا ، وصدق جميع ما كان يذبه جمال الدين
 الأفضاني الحكيم العظيم ، وأخذت تتأجج الجامعة الإسلامية بتدنى ، في طرابلس الغرب انبرى الترك والعرب
 يقاتلون جنبا إلى جنب بروح محجية تبعثها فيهم دعوة الجامعة الإسلامية من بعد ما كانوا قبيل ذلك على حال

من الاضرار والتنافر شديدة ، فلقى المعتدون العليان امامهم مقاومة مستبسلين ، مل صدورهم ضرم من التصب لبطفاً ، ضرم بزیده العالم الاسلامی وقیدا مما حل ساسة الغرب على الجزع والارتباك شديداً ، فأخذوا يتساملون في الخطب الكبير ، وفي الذي عساه أن ينفجر انفجاراً عالمياً في مشرق العالم الاسلامی ومغربہ . فقال غبريال هانوتو ، وهو وزير فرنسی من وزراء الخارجية السابقين : « بالله لماذا وجدت إيطاليا طرابلس غير المحصنة كوك الزناير الاساعة ؟ أفليس لأنها لا تحارب تركيا وحدها بل العالم الاسلامی أجمع ، فأيطاليا جنت على نفسها وعلينا جناية لا يعلم غير الله عاقبتها ومتهابها » . ولم يكن خنق انكساراً وروسيا لثورة إيران ومحق فرنسا لاستقلال مراکش بأقن استنارة للعالم الاسلامی من حرب طرابلس ، فزادت نار الغضب احتداماً ، غير أنه لما نشبت الحرب البلقانية ، طفق الكيل وبلغت الروح التراقي ، فبات المسلمون من الصين حتى الكونغو يرقبون أبناء الحرب ونتيجتها ، وقلوبهم على أحر من جمر الفضا ، فلما طير البرق نبأ الكارثة التركية في البلقان أجفل العالم الاسلامی للخطب أيما اجفال ، وبلغت صرخاته عنان السماء ، فقال أحد مسلمي الهند في نداء وجهه إلى بني قومه : « بو قد ملك اليونان نار حروب صليبية جديدة ، ويستنصر وزراء بريطانيا تعصب النصرانية على الاسلام ، ويأتمر وزراء روسيا في بطرسبرج لرفع الصليب وشكك على قبة مسجد « آجيا صوفيا » فاليوم هم يأتمرون ويقشاررون في هذا الخطب ، وغدا يفعلون مثل ذلك للاسفلاء على مسجد عمر بن الخطاب (المسجد الأقصى في بيت المقدس) . أيها المؤمنون الاخوة : اتحدوا وكونوا كالبنيان المرصوص بشد بعضه بعضاً ، فان الواجب المقدس ليدعو كل مؤمن بالله ورسوله أن ينضم إلى أخيه المؤمن تحت لواء الخليفة أمير المؤمنين ، ويجاهد في سبيل الترد عن حياض الاسلام والمسلمين » وقال أحد زعماء المسلمين في الهند مخاطباً الدولة البريطانية : « اتنا ننادى الحكومة ألبريطانية بمل أفواها أن تطلع عن سياستها العدائية لتركيا ، إنقاء لانفجار بركان الميث من ملايين المسلمين ، انفجار يجرى البلاء عظيماً » ، وأعجب ما بدا أن أخذ المسلمون بوجهون النداء تلو النداء لغير المسلمين من شعوب آسيا ، يدعونها إلى التنازل والاتحاد إزاء الغرب المعتدى ، فكان هذا الأمر وايم الحق غريباً في باه لم يسبق له مثيل منذ نشوء الاسلام ، فان محمداً وقد جاء بالقرآن مصداقاً للتوراة والانجيل وقال انه خاتم الأنبياء والمرسلين ، بعث الله من قبله موسى وعيسى ، أمر المسلمين باحترام النصارى واليهود ، وسماهم « أهل الكتاب » تمييزاً لهم عن عبدة الأوثان ، وقد اتبع المسلمون ما أمرهم به نبيهم حتى هذا العهد الأخير ، فما كانوا فقط يوماً مبغضين النصارى بعضهم للوثنيين من البراهمة والبوذيين والكنعوشيين سبب أهل الشرق الأقصى . بيد أن هذه الحال شرعت تنقلب وتتحول منذ الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٤ إذ ظفرت اليابان الدولة الشرقية الوثنية (الكافرة) على دولة غربية نصرانية ، ودقت عنقها دقاً ، فهبت غالب المسلمين ينتهجون لانصار اليابان هذا انتهاجا ملؤه للفخر الشرقي والجماسة الاسلامية ، وغنى كثير من رجال الجامعة الاسلامية ودعائها لو يتنحل أبطال اليابان الاسلام وشرع في تحقيق هذا الأمر العظيم ، والنمست وسائل التقرب من اليابان ، ثم أنشئت العلاقات معها ، وأنشئت الصحف العديدة لنشر الدعوة ، واختير المبشرون للقيام بهذا المشروع الاسلامی الكبير ، فأوفد السلطان وفداً إلى اليابان على بارجة حربية ، وأخذ العالم الاسلامی بسبب ذلك يلهج بحديث إسلام اليابان ، ويتناقل الأنباء في هذا الصدد ، ويتباحث فيه ، ويجذبه أشد التجديد . قالت صحيفة مصرية سنة ١٩٠٦ : « إن بريطانيا العظمى وفي حكمها ستون مليوناً من المسلمين لتخشى كل الخشية أمر اسلام اليابان ، الأمر العظيم الذي اذا كان تغير مجرى السياسة الاسلامية العاقمة تغيراً كلياً » . وقال شيخ من شيوخ مسلمي الصين : « إذا شامت اليابان أن تدرك منزلة لم تدرك مثلها دولة فيما مضى وأرادت أن ترفع شأن آسيا على شأن سائر القارات فلا يتم لها ذلك بته إلا باتخاذها الاسلام ديناً » .

فاستقبلت اليابان وفد المسلمين استقبالا جليلا ، وأحلت محل الرعاية والاكرام . بيد أنها لم تكشف عن رغبة في السخول في دين الرسالة ، وكانت النتيجة أن وضع أساس للعلاقات الودية الحية بين الشعوب المسلمة والشعوب غير المسلمة في آسيا ، وبمازاد في ذلك القرب أن أخذت عرى الولاة تتوثق بسبب الحرب البلقانية وما تجلب فيها وما حولها من المطامع الاستعمارية الهائلة ، ويمكن الصلح بحالة شعور المسلمين ومبلغ ما آلت إليه من الاضطراب والاهتياج يومئذ بالوقوف على الصرخات الندائية المتوالية التي أخذ المسلمون يوجهونها نحو الهندويين (الهندوس) .

ومثال من ذلك نداء عظيم الخطر والشأن ، موسوم برسالة الشرق جاء فيه ما يأتي : « ياروح الشرق : الألهي من مرقدك ، وادفني عن الشرق هذا الطوفان الفري ، طوفان عدوان الفرنجة وبغيم واعتدائهم ، يا أبناء هندستان : كونوا لنا عوناً ونصراً بحكمكم ، شدوا أزرنا بمحضارتكم وتهذيبكم ، كونوا لنا نصراً بقوتكم ، قوة الهندويين آبائكم وأجدادكم ، دعوا قوة الأرواح السكينة في قمم جبال هملايا تنبثق فقد حان لها وحق من أوجدتها الانبثاق ، املوا الجوب بصلواتكم إلى إله الحرب لينصر الحق على القوة الفاشية ، ويزهق الباطل : إن الباطل كان زهوقاً ، وارضوا أصوات دعواتكم ، وفي هياكل ربوات آلهتكم أن تهلك جيوش الأعداء المعتدين » .

فن تدبر هذا المآل الذي آلت إليه حالة المسلمين ، ولا سيما تقربهم من الكفرة ، وتوثيق عرى الولاة بينهم وبينهم ، لا يسهل إلا تكبير هذا الأمر وتعظيمه ، والتعجب والاستغرب ، ولم يكن هذا التبذل الهائل مقصورا على مسلمي الهند وحدهم ، بل شمل أيضا مسلمي الصين ، فقد قالت صحيفة اسلامية من صحف تركستان الصينية ، تدعو إلى اتحاد الصينيين قاطبة اتحادا وطنيا منبعا للوقوف في رجة الغرب المعتدي ما يأتي : « إن أوروبا قد بلغت من الطغيان والجور مبلغا لا حد له ، فهي لا تفك تنازعنا على سريرتنا التي هي أقدس شيء لدينا ، وأوروبا ضربتنا الضربة القاضية إذا لم يستنصر بعضنا بعضا ، ونهب في يوم آت هبة المدافعين عن الأوطان دفاع الأبطال » . وفي الدور الأول من أدوار الثورة الصينية ، خلع مسلمو الصين عنهم رداء العزلة ، واصطفوا إلى جانب أبناء بلادهم البوذيين والكنفوشوسيين يقاومون معهم مستبشرين في سبيل الوطن ، وقد أتى الدكتور (من - بات - سن) الزعيم الجمهوري الكبير على مسلمي الصين بقوله : « إن الصينيين لن ينسوا أبدا نصراخوانهم للمسلمين لهم في سبيل تأييد نظام البلاد واستقلالها وحريتها » فلما نشبت الحرب الكونية العظمى كان العالم الإسلامي أجمع مضطربا اضطرابا عميقا ، ومحتدسا حنقا على الغرب المعتدي ، وشاعرا بضرورة اتحاده اتحادا مكينا ، وساعيا جده السعي لعقد المحادثات بينه وبين غيره من الدول الآسيوية ليتسنى له بذلك القيام بمجاهده المنوى في سبيل التحرر من ربة الغرب . انتهى الكلام على الأول ، والحمد لله رب العالمين .

للمبحث الثاني في أن أوروبا نفسها بافئارها صدور المسلمين جمعت كلهم على الشدة عليهم جاء في كتاب حاضر العالم الإسلامي أيضا ما يأتي : « قام ساسة الخلفاء خلال الحرب مئات المرات ينشرون التصريحات الرسمية أن الغاية الكبرى الوحيدة في هذه الحرب الدموية المخوفة الغمار إنما هو إنشاء نظام عالمي حديث قائم البنيان على مكارم الأخلاق ، والأسس الصحيحة ، والقواعد الشريفة ، كإعانة حقوق الأمم المستضعفة ، وإطلاق الحرية لجميع الشعوب والأمم في اختيار حكمتها ، وتقرير مصيرها ، وإملاك مقدراتها فذاعت هذه التصريحات في الشرق أيما ذبوع ، واختزنتها الأمم الشرقية ، لا بل حفظتها عن ظهر قلبها ، وأخذت ترتلها ترتيلا ، فلما وجد الشرق أن الصلح لم يبين على شيء من تلك القواعد والأسس الصحيحة ، ولا على مقتضى مئات التصريحات المحفوظة ، بل على المعاهدات المقطوعة بين الدول بعضها مع بعض سرا

وخفاء معاهدات الجشع الاستعماري والحكم والفتح ، أخذ يحتدم غضبا ، ويكبر نوازل الجور والبني ، ويظم سوم هذا الخسف والذل ، فأخذت مراحل العداة تشتد علينا في كل صقع من أصقاع الشرق ، فاكفهر الجوق ، وقصفت الاعداد ، منذرة بأهوال الصواعق ، ولم يكن هذا بالحادث المستغرب ! إذ قد سبق للكثيرين الخبراء العقلاء الغربيين الراسخين علما بالامور الشرقية ، فأنبذوا النول الغربية المرة تلو المرة قبل انفضاض « مؤتمر فرساييل » بسوء العقبى الواقعة في الشرق ، وانفجار عظيم لا بد منه . من هؤلاء المنذرين (ليون كابتاي دوق سرمونته) وهو ثقة من قات الطليان في شؤون العالم الاسلامي ، فقد قال في سنة ١٩١٩ في مجلة حديث له ذكر في نتيجة الحرب العاتية في الشرق : « إن الحرب الكونية العظمى قد هزت شجرة الحضارة الشرقية ، فاهترت اهتزازا بلغ أقصى الجنور في التربة ، وبشت فيها روحا محيية ، إن الشرق أجمع من الصين حتى أقصى سواحل البحر المتوسط لم يجد ميدانا عنيفا ، ففي كل رقعة وبلد ترى نار العداة للغرب مشبوبة ، ففي مراكش الفتنة ، وفي الجزائر الثورة ، وفي طرابلس الغرب عواصف الاضطراب والهباج ، وفي مصر ، وبلاد العرب ، وليبيا ، وسائر الأقطار الاسلامية ، الحركات الوطنية القومية الكبرى ، جميعها متناهية الصفة العاتية ، وموحدة الغاية ، بتماك العالم الشرق الاسلامي بعضه ببعض ، ومناهضته للحضارة الغربية ما استطاع إلى ذلك سبيلا » انتهى الكلام على المبحث الثاني من الفصل الثالث

الفصل الرابع

في الكلام على الجامعة الاسلامية ، وهل الشدة المذكورة في الآية لاتزال محتملة في هذا

الزمان بعد أن أذاع السلطان عبدالجيد الجهاد العام فلم يفلح

وأن ساسة أوروبا يشهدون بأن الجامعة الاسلامية اليوم أشد منها في كل زمان ، وليس نداء السلطان

المذكور شرعا في نظر المسلمين :

جاء في كتاب حاضر العالم الاسلامي مانسه : « قد هاج تيار الجامعة الاسلامية هياجا هائلا ، وثار ثورانا عجيبا في هذه الآونة الأخيرة ، والباعث على هذا إنما هو الارهاق الغربي ، المتوالي الشدة والزيادة منذ الزمن البعيد ، ثم كانت الحرب العظمى فاستثارت من الجامعة الاسلامية مالم يستمر من قبل ، ثم ولى الصلح الحرب وهو الصلح الذي سبق لنا فأبنا قواعد ، وأركانها الفاسدة ، وما دهم العالم الاسلامي بسببه من النوازل والفواجع ، ولا يعزبن عن البال أن الجامعة الاسلامية على مختلف حالاتها وتطوراتها يجب أن لاتعتبر أنها حركة سياسية دفاعية محمولة على الغرب ، ردا لاعتدائه ، ودفعا لجوره فحسب ، بل ان منشأها الأصلي هو المشاعر النفسانية الوجدانية العميقة في المسلمين لصيانة الوحدة وتوثيق عرى الجامعة العامة ، تلك الجامعة التي قلنا فيها قبلا انها بين المسلم والمسلم لأقوى منها حقا بين النصراني والنصراني ، فان هذه الجامعة ليست دينية فقط ، بل انها بحقيقة المعنى والمراد اجتماعية خلقية تهذيبية ، وأن الفوائن والقواعد التي تتألف منها وتقوم عليها حياة الأسرة الاسلامية على مختلف العادات والأقاليم لاتفسر في موضع عنها في موضع آخر في جميع المعمور الاسلامي . قال السير موريسون : « إن الحق الذي لا يجارى فيه أن الاسلام أكثر من معتقد ديني ، إنما هو نظام اجتماعي تام الجهاز ، هو حضارة كاملة النسيج ، لها فلسفتها وتهذيبها وفنونها ، وقد انقضى ما انقضى من العهد الذي مابرح فيه الاسلام والنصرانية على فضال ونزاع ، فما عرى وهن جانبا من جوانب الاسلام قط ، بل ما أفك على السوام يشتد بعضه مع بعض ، متهاكما متعاضدا ، حتى صار وحدة جامعة نامية نمو الجسم العضوي سائرا سيره بفعل نظامه الذاتي المستقر فيه » . فالمسلمون تربط بعضهم ببعض روابط هذه الحضارة رباطا وثيقا لا انفصام له ، وباعتبار هذا المعنى فان الجامعة الاسلامية إنما هي عامة قائمة البناء في جميع العالم الاسلامي حتى ان المسلمين الأحرار على ما يحبذون من الآراء الغربية التي بردون شرعتها من حيث

لا يرتاحون إلى دعوة الجماعة الإسلامية السياسية لتمشيها على الطرق الرجوعية يعتقدون كل الاعتقاد في وجوب الوحدة الإسلامية الشاملة المبنية على أصول الحرية وقواعدها . قال إمام حرّ من أئمة زعماء المسلمين في الهند ، وهو أغاخان مايباتي : « إن هناك جامعة إسلامية حقة صريحة ، ينضم إلى لواثها الحرّ كل مسلم مؤمن مخلص ، أعني بذلك الرابطة الروحانية الوجدانية ، والوحدة الجامعة بين أتباع صاحب الرسالة الإسلامية ، فهذه الوحدة الإسلامية الروحانية التهذيبية ، يجب أن تتعهد فتتجدد أبدا ، لأنها عند أتباع النبي - أس - الحياة وجوه النفس » . فإذا كان هذا شعور المسلمين الأحرار الواقفين حقّ الوقوف على حضارة الغرب وتقديره ورفقه وعمرانه ، والقائلين بوجود الاقتباس منه والأخذ عنه ، فما أشدّ شعور سواد المسلمين وهم الجاهلون الرجعيون المتعصبون ؟ أضف إلى هذا ما هو معروف في عاتق المسلمين من الشنأة لاعتداء الغرب وحضارته ، الشنأة التي ليس منشؤها في كل موضع سيطرة الغرب السياسية ، بل مجرد الافراط والغلو في التعصب . وقد كان للحوادث السياسية في العالم الإسلامي خلال العقد الأخير تأثير كبير في هذا الافراط والغلو ، فالتعب الثعب التها بالغا الحدّ ، تدفعه دوافع سياسية خلقية دينية ، وتجمعه صفة واحدة متمثلة في نفس كل مسلم ، فباتت السلم العاتمة في العمور الانساني مهددة ، من ناحية العالم الإسلامي ، هذا هو الواقع الذي يجب علينا أن نعترف به ، وأن لا نتخذه نفوسنا فنستفرض أن هذه الحلة العصبية اليوم ، وما يحتمل أن ينجم عنها من المخاطر الكبرى في الغد القريب ، وعلى ذلك ليس من إصابة الحقيقة في شيء . أن يقال ان تركيا قد سبق لها فدعت المسلمين واستصرختهم إلى حرب عاتمة ، وحاولت جهدها اقتداح زبد الجهاد للقدس سنة ١٩١٤ نزولا على أمر ألمانيا ، فلم يكن هناك الابراء المراد فذهب الاقتداح باطلا ، بل كان دليلا على أن الجهاد الحقيقي في العالم الإسلامي بات ضربا من الخيال ، إن من حله الوهم على هذا فهو على خطل شديد ، إذ أن الجهاد لمسكن أبدا كل الامكان . قال ضابط ألماني ، كان من أركان الحرب في الجيش التركي خلال الحرب العامة قولا صريحا ، وهو : « إن الجهاد الذي أعلنته تركيا قد حبط حبوطا ، لأنه في الواقع لم يكن جهادا بحقيقة معنى الجهاد عند المسلمين » . وقد سبق لنا فأبنا كيف هبّ قادة المسلمين خارج تركيا ، فأخذوا يستهجنون دخولها في الحرب ، وبسطنا ما ذهب إليه هؤلاء القادة من الخطط والأعمال ، فلسلة الاعتداءات الفرية الآخذ بعضها برقاب بعض منذ القديم حتى انتهاء الحرب العامة وتقرر الصلح على الأسس والأركان التي ذكرنا صفاتها الفاسدة ، تقريرا كان من شأنه أن بات العالم الإسلامي أجمع خاضعا خضوع الذل والخضوع للسيطرة الغربية ، جميع هذا أثار قلوب المسلمين ، فهبوا هبوب العاصفة ، تقطع كل شيء في سبيلها ، أضف إلى ما تقدم أن الأهب المادية ما برحت تزداد وتستوفي . وقد سبق للسنشرك الكبير العلامة أرمينوس فرباري الخبير حقّ الخبرة بشؤون العالم الإسلامي ، فأندر الغرب انذارا منذ أكثر من عشرين سنة ، قال فيه : « إن السياسة الاستعمارية النهممة لإنماهي السبب في نشوء المخاطر العظمى في الشرق » . واليك بعض ما جاء في مقاله الذي نشره سنة ١٨٩٨ - : « إن الخطر الباعث على حرب كونية عامة يزداد في الشرق ازديادا عظيما على توالي الأيام ، ولا يغيب عن البال أن روح العداة والمقاومة قد اشتدت ، والصدور وغرت ، والحفاظ اتقدت ، أعني بذلك أن الشعور بالوحدة العامة والجامعة الرابطة قد صار شعورا عاما ناميا منشرا في جميع الشعوب الإسلامية ، وقد كان من المساعد على ذلك الوسائل الحديثة للنقل والتواصل ، فباتت الحلة اليوم غير ما منذ عشر سنين إلى عشرين سنة . وليس من المستغرب أن تقدم على تنبيه الصليبيين في أواخر القرن التاسع عشر إلى المنزلة العالية التي أدركتها الصحافة الإسلامية اليوم من الخطورة والشأن ، وإلى عام انتشارها في آسيا وأفريقيا ، وما لعظمتها البليغات ، وانذاراتها الموقظات ، من التأثير الشديد في نفوس قارئها المسلمين ، فلما صحف الوطنية السيرة والدورية في تركيا والهند وفارس وأواسط آسيا وجاوه ومصر والجزائر . فقول عظيم

إذ كل ما فتكر فيه أوروبا ، وتقرّره ، وتقوم على انفاذه على ما ينافي المصلحة الاسلامية ، تنتشر أنباؤه في جميع هذه الأقطار بسرعة البرق ، وتحمل التوافل هذه الأنباء إلى كل جهة شاسعة ، وصوب سحيق في الرقع الاسلامية ، حتى إلى قلب الصين وخط الاستواء ، حيث يهب المسلمون لتأقي مثل هذه الأنباء معظمين مكبرين فالشرارة التي تستطير من مجمع من مجامعنا ، أو ماد من أنديةنا ، أو ولجة من ولائنا ، فما تزال في مستطارها ومسبجها في الفضاء حتى تجوب أفاص العالم الاسلامي فتقع وقوع الرعد القاصف وما نشره صحيفة « ترجان » في القريم مثلا تردده صحيفة « اقدام » في القسطنطينية ويردن صدها عظيما في صحيفة « الحوادث الاسلامية » في كالكتنا في المزد ، فالجامعة الاسلامية اليوم مسترخية العرى بعض الاسترخاء ، غير أن اعتداء الغرب على غير أقطاع ، وعصفه المتوالي يزداد اشتدادا على الدوام ، سيحصلان على استجماع هذه العرى بعضها إلى بعض فتتمسك وترتبط فتصير الجامعة الاسلامية كالبنيان المرصوص منيع الأركان ، فيتوقع حينئذ من وراء ذلك حرب عالية مشبوبة في أنحاء المعمور لتأقي ولا تندر .

منذ نشر فامباري انذاره هذا حتى اليوم ، ما برح الأمر يتفاقم والنعرة الاسلامية تنور في وجه السيطرة الغربية ، وقد زاد في هذا زيادة كبيرة النهضة القومية والحركات الوطنية الاسلامية التي كانت تكاد لا تصرف في القرن الماضي ، وهي قد أصبحت اليوم على أتم ما يكون من النظام والكفاية من أسباب الذبوع والدعاية ، ولنا مثال على هذا وهو صحف الدعوة للجامعة الاسلامية وهي التي أشار إليها فامباري ، فقد تعاظمت تقاضما غير مسبوق المثل ، ففي سنة ١٩٠٠ م لم يكن في العالم الاسلامي أكثر من مئتي صحيفة دعوية ، فبلغ هذا العدد سنة ١٩٠٦ حد الخمسمائة صحيفة ، وأر في سنة ١٩١٤ على الألف صحيفة ، فالمسلمون يرحبون في بلادهم بأسباب النقل والتواصل مثل البرد والبرق والتطارات الحديدية ، وغير ذلك مما يساعد على تطير الأنباء ونقل الأخبار ، وكل بلاد من بلاد المسلمين هي على اتصال دائم مع سائر البلدان الاسلامية إما توا على يد الرسل والسعاة والحجيج والسياح والتجار والبرد ، وأما على يد الصحف الاسلامية والكتب والنشرات والمجلات ، ففي القاهرة ترى صحف بغداد وطهران وبشوار ، وفي البصرة وبومباي ترى صحف القسطنطينية ، وفي المحمرة وكر بلاه وبورت سعيد ترى صحف كالكتنا ، وأما الوسائل الكبرى للدعاية في سبيل الجامعة الاسلامية فهي الطرق الدينية التي سبق لنا الكلام عليها ، وهي حقا كالسيل الطامى فانها ما أدركت أمة مسلمة إلا استولت على مشاعرها وقلوبها ، وسيرتها سهلة الانتياد إلى تعاليجها ، وترى دعاة هذه الطرق يقومون بوظائفهم على أساليب عديدة غريبة ، فهم يجوبون الأقطار بألوف الأزياء المتسكرة تجارا ووعاظا ومرشدين وعلماء ، وطلبة وأطباء ، وعملة ومقسولين ، وقراء ومساكين ، حتى ومشعوذين ودجالين ، وحيثما رماوا ترى المسلمين قد تسارعوا لاستقبالهم على الرحب والسعة ، وأخفوهم عن عيون رقباء الحكومات الاستعمارية .

زد على جميع هذا أن ساد اليوم في العالم الاسلامي سيادة عامة الاعتقاد الذي يؤيده الأحرار والغلاة والمحافظةون وسائر الأحزاب معا ، أن المسلمين اليوم هم في دور النهضة والانتقال والتجدد يستردون مجدهم الاسلامي الفاتح ، ويستعيدون عزهم اللئيد . قال السر نيودر موريسون : « ليس من مسلم يعتقد أن الحضارة الاسلامية فانية ، أو غير متجددة مترقية ، إنما يعتقد أن قد عرنتها قهقري قصيرة غسب ، فقصر المسلمون أمرهم على التطوُّح في الاشادة بمجد الجدود ، وتمصبوا في ذلك ، وغالوا شديدا ، ولكن أمرهم هذا ما كان ليختلف في صفته عن الحال التي كانت سائدة أوروبا في خلال القرون الوسطى ، يوم كان دمجور الجهل مطبقا جميع البلاد النصرانية ، يعتقد المسلم اليوم أن العالم الاسلامي سائر في طريق استئناف الارتقاء يأخذ عن الغرب ما يزيد في استعنته ، ويبعث فيه عزما واقدا ما ونشاطا ، فتطورت الحياة تطورا نسبت

دلالته في كل قطر اسلامي» (١) .

فإذا كان دعاة الجامعة الاسلامية يجهرون بمثل هذه الآراء ، ويصرخون تلك الصرخات في مفتتح هذا القرن ، وقد جاءت الحرب العاتقة مصداقا لما جهروا به السنين الطوال ، فلا جرم أن قويت شوكة الجامعة واتسع لها المجال فاشتدت قوة وانذاعا ، أضف إلى هذا أن القرب قد انقلب بعد الحرب العظمى ضعيف المنة ، واهن القوة المادّية وهنا ككبرا ، مم جاء الصلح مبنيا على أركانه الباطلة ، وطفق الخلاف ينشب بين الغالبين بعضهم مع بعض نشوبا قوض مكاثرهم تفويضا وقضى القضاء الأخير على منزلتهم في عيون الشرقيين ، وقد كان من شأن النزاع والمشاادة بين كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا في الشرق أن ساعد المسلمين مساعدة جلية على زيادة تساندهم وتماسك بعضهم مع بعض . فاشتد إيمانهم بأدراك المبتنى ، ثم إن هذا التعادى الذي قام به الحلفاء في الشرق قد سبب اضطرابا سياسيا عظيما في القرب ، فبعد التباين واتسعت فرجة الخلاف .

قال أحد كتاب الفرنسيين في الآونة الحديثة ينذر أوروبا انذارا شديدا : « إن العالم الاسلامي بات لا يسترغف بحدود أملا كنا الاستعمارية ، والعاقيل الذي يريد اعتبار الحقيقة لا يجيبون من ذلك أقل حجج مادامت الدعوة الكبرى التي نشرها ورفع علمها جبال الدين في المسلمين تسير سيرا دراكيا » .
وأى شيء أدل على هياج الاسلام ، وغليان حراجل حقه من ذلك الثوران المهائل الذي يقوم به السبعون مليونيا من المسلمين في الهند ، احتجاجا على تجزئة المملكة العثمانية ؟ والأمر الأخطر أن هذا الثوران الاسلامي ليس مقصورا على الهند حسب ، بل انه شامل المصمور الاسلامي ، وعلى ذلك فلم ينال (السر تيودر موريسون) بانذاره :

« لقد حان وأيم الحق للامة البريطانية أن تعتبر وتتدبر خطورة ما هو جار في الشرق ، فان العالم الاسلامي أصبح ليمع غضبا ، ويحتمد حنقا ، من جراء تجزئة تركيا ، وما هذه اللوامع النارية التي تبسود في كابل والقاهرة إلا البرق الذي تتلوه الرعود القواصف فالصواعق المزلزلة ، إلى قد أقت في الهند أكثر من ثلاثين سنة عرفت في خلالها المسلمين حق المعرفة ، وأرى من الواجب على الآن أن أنذر أمتي البريطانية بشرتي عقب هذا الثوران الاسلامي الناشئ عن تجزئة تركيا التجزئة المنوية ، فان ساسة مؤتمر فرسايل قد خلوا تركيا في الأناضول منقطعة عن سائر العالم الاسلامي ، فليس من شغب يضرب لها ، ولا من أمة تقارع عليها بما أسوأ هذا الخيال الباطل ، والوهم القاتل ان شاء البرهان فلينظر إلى هذه الوفود الاسلامية المديدة الحائلة بين ظهرانينا في لندن كأنها الاله لا يسطل على به ، فالسامون قاطبة في الهند من بشوارحتي أركوت قائمون قاعدون لما يرونه قد حل بساحة تركيا والمسلمين ، حتى باتت النساء المسلمات يعولن اعوالا شديدا ، ويكفين حالة الاسلام بكاء الأمهات أطفالهن ، وترى التجار وهم أبعد طبقات الأمة عن مزاولة الشؤون السياسية يفرون من حوائثهم ومتاجرهم خفافا إلى حيث ينظمون رقائع الاحتجاج ويظهرونها بالبرق إلى أنحاء العالم وترى الطوائف المديدة من رجال الدين المنتسفين ، المنتسدين ، المضروب بهم المثل في شدة اقتطاعهم عن جارى الحوادث في العالم يخرجون من المساجد مواكب ليشاركوا في القيام بالظواهرات والاحتجاجات ، وأغرب ما في الحالة أن الأسوار قد أخذوا ينظمون أكثر فأكثر في عداد رجال الجامعة الاسلامية ويؤيدونها بما استطاعوا من القوة والحول ، على اعتقادهم بوجوب الأخذ عن القرب واقتباس الآراء والأفكار منه ، وذهابهم مذهبا مخالفا لفلاة الجامعة الاسلامية ، وأرباب الطرق الرجوعية ، والحامل كل

(١) ذكر المؤلف في هذا الموضع كلاما مقتبسا من كتاب « يقظة الشعوب الاسلامية في القرن الرابع

عشر للهجرة » لمؤلفه يحيى صديق ، أضربنا عن ترجمته . شكيب أرسلان

الحامل لهم على ذلك هو اشتداد الضغط والصف الأوربي ، فهم إزاء هذا الخطب الكبير يسعون في رده
بمؤالة الأحزاب الأخرى والتحالف معها ولو إلى حين مع علمهم أن الأحزاب الوطنية المغالية وأحزاب الجامعة
الإسلامية إذا أثارت حرباً عامة باسم الجهاد ، فمن شأن هذه الحرب أن تفتح غوراً بعيد المهوى بين الشرق
والغرب ، وهضى على تلك العوالم والمؤثرات السارية من هذا إلى ذلك وهي التي ترى اليوم دابة في كل عرق
من عروق العالم الإسلامي ، باعثة فيه القوة والعزم ، ومع علمهم أيضاً أن حرباً كهذه تشعل نار التعصب
الرجوعية في المعمور الإسلامي ، ذلك التعصب الذي إذا عاد فاقده أو هن حركة الإصلاح الحديث في الإسلام
إيماناً شديداً فأخرها مدة مديدة . ولعلّ الذي عرف حتى اليوم من نوران للإسلام لا يعدّ أكثر من مقمّة
لما سيحدث في السنين المقبلة ، ولنا دليل على هذا ظهور الدعوتين العظيمتين للإصلاح الديني في الإسلام
اصلاحاً ضاربا إلى التعصب ، أما الأولى فهي دعوة الإخوان التي نشأت منذ نحو عشرين سنة في نجد قلب
بلاد العرب وهي الوهاية حينها التي كانت نشأت منذ مئتي سنة خلت ، وهذه الوهاية الحديثة ما برحت تنتشر
انتشاراً سريعاً حتى طبقت كل نجد ، وعلى رأسها زعيم صحراء بلاد العرب الكبير ، أعني به ابن السعود ،
خليفة سعود الذي كان رأس الدعوة الوهاية منذ مئة سنة ، وأما الإخوان الجدد فعلى تعصب شديد متقطع
النظير ، وخطتهم هي حل الوهاية القديم من الإصلاح الديني العام في العالم الإسلامي ، وأما الأخرى فهي
الدعوة السلفية التي نشأت في الهند منشأ يشابه دعوة الإخوان في نجد ، غير أنها قد انتشرت في هذه السنين
الأخيرة انتشاراً عمّ كل رقعة إسلامية ، وغرضها كغرض الوهاية من حيث الإصلاح المزيج بروح التعصب
وغالب أتباعها من حلقات الدراويش . هذه هي الحالة التي مع ما تنطوي عليه من مختلف العوامل البسيطة
الذكري تنخر نخرًا متغلفًا في سلم الشرق « انتهى ما أردته من كتاب « حاضر العالم الإسلامي » والحمد لله
رب العالمين .

نور على نور

انتشار الإسلام في أوروبا وأمريكا في زماننا

وذكري حادتين اثنتين

من ذلك حادثة أمريكية أسلم ، وحادثة فرنسية عظيم أسلم أيضاً ، وهاتك قصتهما ، فأما الحادثة الأولى فهي
ما جاء في مجلة « جمعية الشبان المسلمين » سنة ١٣٤٩ هجرية وهذا نصه :

كيف أسلم ؟

ترجمة المحاضرة القيمة التي ألقاها بالانكليزية الاستاذ محمد أفندي عز الدين لوما كس الأمريكي الذي
أسلم ، بدار جمعية الشبان المسلمين في ربيع الأول سنة ١٣٤٩ هجرية — ترجمها عبد الجيد سامي يومي
بكلية الحقوق .

بسم الله الرحمن الرحيم

جوهر الإسلام

الإسلام في جوهره قوة وقنرة من الخالق ، وأن الله سبحانه وتعالى زيادة على وحدانيته وأبديته هو
الموجود أولاً ، والموجد لكل موجود : « لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي
يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات
والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو لعلّ العظيم » .

بين روح الاسلام والإله الواحد الأحد صلة وثيقة العرى لا انفصام لها ، فهو الذي يخرج الانسان من الظلمات إلى النور حيث يجد في ضياء الاسلام أول قبس يشع نوره من القرآن الكريم .
 بسم الله الرحمن الرحيم : ففي كلمة الرحمن يشعر المؤمن أن الله تعالى هو الإله الواحد الذي يسبح على عباده التتم في الحياة الدنيا والحياة الأخرى ، وأن المسلم اسلما راسخا يعترف خلائقه في صلواته الخمس بالرضا والنعمة ، وأما كلمة الرحيم فتدلنا أن الله تعالى يشمل برحمته جميع الخلائق ، سواء في ذلك المؤمن والكافر ، لأنه سبحانه وتعالى يعلم قبل أن يجاق الكافر أنه سيكفر ، وأنه لولا لفظ الرحيم لما سمح للكافر أن يكون حيا يرزق في الوجود الانساني ، فن هنا نرى حقيقة لا بدانها الشك أن هذا النور الأعظم وهو نور الإله إنما هو الشفقة والرحمة ، ولذا نجد أن الله الرحيم لا يبيت عبسى ابن مرهم من جوار خطايا هذا العالم الذي .
 إن روح الدين الاسلامي الحنيف تعلمنا أن الله لم يخلق شيئا عظيم النفع جليل القدر لأجل أن يرد إليه تارة أخرى ، وأن تقرب إليه القرايين على سبيل التضحية مقابل اقرار الانسان للسكرات والآثام ومثل هذا كما يأخذ الانسان من أحد جيوبه مبلغا من المال ثم يضعه في أحد جيوبه الأخرى .

أما الآية الأخرى من الكتاب الكريم وهي : « الحمد لله رب العالمين » فتعلمنا أن الحمد في مجموعها وكليتها مرجعها إلى الله مالك الملك ، والمحيط علمه بكل شيء . وأما الآية الرابعة فتدلنا على أن الله تعالى مالك يوم الدين ، لأنه هو المستثنى من الحساب : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » .

لقد أوحى الله سبحانه وتعالى إلى سيدنا محمد ﷺ روح الاسلام الذي جعله يجهر بالقول في تعاليم الشريعة السمعة للذين يقرءون ويكتبون من المسلمين ، ومن هنا نعلم أن من يوحى إليه الله بتعاليمه وأحكامه لا بد وأن يكون منزها ومفضلا عن الناس كافة ، فسلام الرحيم على نبينا محمد صلوات الله عليه وعليه بركات الايمان واليقين .

ولقد فقت روح الاسلام من محمد رسول المسلمين إلى الهداة والمصلحين أمثال عمرو بن العاص ، وسأله ابن الوليد ، وأن هذه الروح القوية الأثر هي التي حدث النبي ﷺ إلى الهجرة من مكة إلى المدينة بينما كان أعداؤه من المشركين يجتهدون في البحث عنه ليذيقوه ريب المنون ، ومن الغريب أن أعداء النبي صلى الله عليه وسلم لم يقتلوا أنفسهم بترك مكة ، بل تعقبوه في هجرته ، وهناك ضربوا على نزاله سياجا من الحيطه لأجل القبض عليه ، ولكن روح الاسلام الدفينة في الأعماق ألهته بأن يقنول قبضة من تراب ويذفها عليهم ، فأخذتهم سنة من النوم تمكن النبي ﷺ من النجاة منهم في الصحراء حيث اختفى في غار هناك ، ولاقل إن اختفاه في الغار يحول دون هلاكه وحتمه ، ولكن الاسلام ومافي تباياه من روحانية وقوة جعل الحمام يبيض على باب الغار ، ولما أفاق أعداء النبي ﷺ من غشايتهم تعقبوا أثره إلى الغار مدهوشين وأخذتهم هواجس الظن لعلمهم أن النبي ﷺ لا يمكن بأى حال أن يكون في الغار فمن يريد أن يؤمن بوحداية الله فعليه أن يشاهد بسهولة يد الله المحركة للكائنات من غير أن تبصرها العين المجردة ، وبخاصة عندما أحيط حياة النبي ﷺ من يد العسوان برعاية الطير الذي اندفع إلى حباية محمد ﷺ بيد الإله الخافية عن الأبصار .

متى وكيف اتصل الاسلام بقلبي وهداني سواء السبيل ؟

ولدت مسيحيا ، وسقط رأسي الولايات المتحدة ، حيث لادين هناك خلاف المسيحية ، وحيث لا يثمر في تلك الجهة على أى نوع من أنواع الأدب التي تقود إلى الدين الاسلامي القيم ، بل إلى هذا الضوء اللامع ، والضياء الساطع ، إلى القوة التي يرمز إليها بروح الاسلام ، وهناك لا يزالون يملون الناس أن المسلمين عبدة أوثان ، ولكن (ولله الحمد) في عام ١٩١٧ ميلادية اعترتني مشاعر قساينة دخيلة ، حركت قلبي ، ودضت

إرادتي إلى اجتياز خمسمائة ميل ، لأقنات من فضلات موائد المسلمين ، ولأخذ من أدبيات روح الدين الاسلامي بنصيب .

لقد كنت قبل الدخول في الاسلام والفتوح من هذا الدين : مدمنا على تعاطي الخمر ، لاهيا بالألعاب الاجتماعية ، أما اليوم فتركت هذه الامور ظهريا ، ولاعلم لي بالدافع الذي حركني لترك هذه العافليات ، ولكنني أقول وأجزم القول بأنني (أنا) وأنكلم هنا بلفظة الاسلام ان الروح الدينية الاسلامية هي التي أوحى إليّ بهذا الخير ، ولقد شعرت في نفسي بأنني على استعداد للخدمة في الكنيسة ، ولكنني إزاء ذلك وجدت أن ما استقرت في نفسي كان يتنافر مع أوضاع الدين المسيحي وتعاليمه ، فانتظرت خارج الكنيسة ولم أندج في سدتها ريثما يفتق دين أحسن من هذا الدين الذي كانت الكنائس في الولايات المتحدة سائرة على منواله ، سالكة سبيله وخطاه .

عام ١٩٢٦ في مدينة شيكاغو انقش الفشاء عن عيني عند ما ابتدأت في مطالعات آداب الاسلام الحقة ، وأن جوهر هذا الدين حرك دكتورا هنديا يدعى ميليك بمدينة لاهور بمقاطعة البنجاب بالهند أن يكتب في مجلته قواعد الدين الاسلامي الخمس التي تعتبر الأركان الأولية الأساسية الجوهرية للاسلام ، وهالك فيها : -

(أولا) : كلمة أشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله .

(ثانيا) : الصلاة : على كل مسلم عريق في إيمانه أن يؤدى الصلوات الخمس يوميا بعد الطهارة والوضوء بالماء النقي الطاهر كي تبقى أرواحنا ، وأجسامنا ، وقلوبنا نقية طاهرة قبل الوقوف أمام الله

(ثالثا) : الصوم : وهي فريضة صيام شهر رمضان من كل سنة حتى تقف بأنفسنا على ألم الحرمان من الغذاء ، وتأخذنا قشعريرة الشفقة ، وحساسة الرحمة على المعوزين من أبناء السبيل والفقراء ممن يتضورون جوعا ، وبذلك نحني من قوة الاسلام وضوذه على الأرواح لإيماننا ثابت الدعائم لا تحركه هزات الأباطيل .

(رابعا) : الحج : وهو فرض على كل مسلم بملك القيام بأداء مناسك الحج في مكة ، وحيث يستشر المؤمن بالعظمة الربانية ، ويشاهد البيت ، ومقام ابراهيم ، وكل الأعمال الجليلة التي أودعها الله بمكة .

(خامسا) : الزكاة : وهي فريضة من اليسر بمكان ، فإذا كان المسلم مولعا باقتناء المال وكنزه ، أي انه كان حائزا للنصاب الشرعي الذي فرضه الله على المسلم ، ومع هذا لم يدفع حق الله المفروض عليه سنويا فقد باء بخسران من الله عقاب ، وحلت عليه الضلالة من بارئته .

هذه الأركان الخمسة التي انطبعت في شخصي الضعيف ، وامتزجت بنفسى امتزاجا قويا شديدا الانتحام من روح الاسلام جعلتني أدين بالعبودية لإله واحد لا ثلاثة آله كما يقول دعاة المسيحية . انتهى

محمد عز الدين : الخادم المطيع للاسلام

المعرب : عبد الجيد سامي ييومي

هذه هي الحادثة الأولى ، وأما الحادثة الثانية فهي أيضا ماجاء في مجلة « جمعية الشبان المسلمين » تحت العنوان الآتي في الصفحة التالية ونصه :



« لكم دينكم ولي دين »

من كتاب الحج إلى بيت الله الحرام

تأليف الحاج ناصر الدين دينه والحاج سليمان بن ابراهيم

الحاج ناصر الدين دينه هو المستشرق الفرنسي المصوّر المشهور ، أول من قدمه لقرّاء العربية في مصر وعرف المسلمين الشرقيين به الاستاذ راشد بك رستم بتعريبه رسالة « أشعة خاصة بنور الاسلام » التي وضعها ذلك الفرنسي المسلم الكبير . وفي سنة ١٣٤٧ هجرية وسنة ١٩٢٩ م لم يقعد به كبرسه عن تأدية فريضة الحج برفقة صديقه الحاج سليمان بن ابراهيم الجزائري ، وبعد عودتهما وضعَا مذكراتهما التي دوّنا فيها رملتهما إلى الأقطار الحجازية المباركة ، وبعد وفاة ناصر الدين في ديسمبر سنة ١٩٢٩ م تولت مكتبة (هاشيت) الشهيرة بباريس طبع ونشر تلك المذكرات جفاهت كتابا وافيا ، يشتمل على مقدمة وسبعة فصول وخاتمة وملحق ذي فصلين ، تقع جميعا في أكثر من مائتي صفحة ، وقد حلاها السيد ناصر الدين بثمان صور من صنع يده ، مثل صورة الكعبة المكرمة ، والحرم الشريف ، ومنظر الحج بعرفات ، وصلاة المغرب حول الكعبة ، وجبل النور الذي تلقى عنده الرسول الأمين الوحي عند نزوله أول مرة ، وجيها آية في فنّ التصوير . وقد رأيت أن أعرب لحضرات قرّاء مجلّتنا الزاهرة خاتمة هذا الكتاب لما ورد فيها من أمور حيوية جدري بالمسلمين أن يتنبهوا إليها لعلّ لهم فيها عظة وذكرى .

لقد استرعت أنظارنا بصفة خاصة أثناء رحلتنا أمور ثلاثة على جانب من الأهمية بالنسبة للمستقبل وهي :
﴿ أولا ﴾ قوّة الحياة الكامنة في اللغة العربية **﴿ وثانيا ﴾** قوّة العقيدة الاسلامية **﴿ وثالثا ﴾** إصرار أوروبا في عداوتها للإسلام إصرارا ظاهرا أو مستترا :

أولاً : قوّة الحياة الكامنة في اللغة العربية

اتخذ بعض اللاتينيين ديدنا لهم إظهار اللغة العربية الفصحى بمظهر لغة ميتة وغير مفهومة عند ثلاثة أرباع المتكلمين بها من العرب ، أما لغة الكلام فهي في نظر هؤلاء اللاتينيين عبارة عن طبقات عامية لا ارتباط بينها ومصيرها الفناء بعد زمن قليل : ولكن حسب الانسان أن يذهب إلى الشرق ، إلى مصر ، أو سوريا ، ليتجلى له البرهان القاطع على أن اللغة العربية التي وثقت قبل أن يحين أجلها هي على عكس ما يذهبون إليه لغة حية بكل ما في الحياة من قوّة ، لمرجة أن جميع الأجانب المقيمين في هذه الأصقاع لا يجدون مفرا من تعلمها ، والا حيل بينهم وبين القيام بتصرف أمورهم ، وفي مكة على وجه التخصيص يشاهد الانسان أكبر مظهر من مظاهر حياة اللغة العربية ، فان لغة الكلام هناك تكاد تكون الفصحى بعينها ، ومن السهل أن يفهمها جميع الناطقين بالضاد في جميع الأقطار . أما الاختلاف الواقع بين اللهجات المتعددة فقديم الأهمية لأنه لا يحول دون تفاهم المرء كشيئين والسوريين واليهود وغيرهم فيما بينهم اذا جمعتهم الظروف في مكان واحد . والعناء الوحيد الذي يلاقيه المتكلم ينحصر في اللهجة المصرية بسبب اختلاف النطق بحرفي الجيم والقاف ، وهناك الألوف من اللجج الأعاجم (غير العرب) الذين يقبلون على تعلم اللغة العربية بشغف زائد ليتسنى لهم قراءة القرآن واستيعاب معانيه ، والكثيرون منهم يقدرون على التعبير بها من غير ما خطأ بالرغم من سقم فطقتهم ، ولقد نسي لنا محادثته بعض الجاويين ، والهنود ، والفارسيين ، والخراسانيين ، وأهالي البوسنة والأتراك ، والالبانيين ، وأهل القوقاز ، والسفّال ، والسودان ، من غير أن تصادفنا صعوبة تذكر .
 أما العرب والبسود من سكان الحجاز ونجد فقد تولت لنا الدهشة من الشبه الكبير بينهم وبين بسود صحراء

أفريقيا الشمالية في تعبيراتهم وفصاحتهم وأفكارهم . واللغة العربية الفصحى تشابه في الواقع اللغة الفرنسية ، وهي مثلها لغة حية ، وتتفق وإياها في طريق التعبير والادلاء ، أما اللغة العامية فلا تختلف لهجاتها عن بعضها بأكثر من اختلاف لغة فلاحي شمال فرنسا عن لغة فلاحي جنوبها ، ويوجد الانسان في دراسة تلك اللغة الجنية ميزة خاصة بها ، فانها (من بين جميع اللغات القديمة) اللغة الوحيدة التي لاتزال حية الآن ، ولو عاد اليوم أحد معاصري النبي ﷺ لما وجد أية صعوبة في التفاهم مع جميع الناطقين بالضاد ، على حين أنه لو عاد أحد معاصري قيصر لما تأنى له إلا أن يتكلم مع بعض الأساتذة المدرسين ، ومع ذلك فن المشكوك فيه أن ينسى له أن يفهمهم كل الفهم ، كما أن أحد معاصري (فرنسا الأولى) لو عاد لوجد صعوبة نامة في التخاطب مع فرنسي اليوم .

وآداب اللغة العربية (دون آداب اللغات الحية) أقلها انتشارا ، لأنها أدق على الفهم ، ولأن الموجود منها بين أيدينا مترجما إلى اللغات الأوروبية معظمه محشو بالأخطاء وعلى جانب من السخافة المزرية ، وفي الواقع لأجل اللام باآداب اللغة العربية وتفهمها للغير يجب أن لا يكون المترجم لها ممن درسوا اللغة العربية حق دراستها خصب ، بل يجب أن يكون شاعرا ، وأن يكون ممن عاشوا بين ظهرائي العرب المسلمين وعاشروهم مدة طويلة ، فأمثال هؤلاء يحدون في آداب العربية كنوزا متخرة قل أن يوجد لها نظير في جاهلها ونوعها ، ولغة العربية ميزة أخرى ، وهي انها منتشرة في أقطار واسعة تمتد من شواطئ الاطلسنطيق إلى بلاد فارس وخليج العجم ، ومن شواطئ البحر المتوسط إلى بلاد السودان ، وكثيرا ما يقابل الانسان جماعات كبيرة من المسلمين يتكلمون العربية في الأقطار الواسعة الواقعة بين بلاد فارس والهند وشواطئ المحيط الهادى ، وان في دراسة اللغة العربية فوائد لاتنكر لاسيا للفرنسيين ، بل هي أكبر أهمية من دراسة اللغة اليونانية القديمة واللاتينية ، وتعادل دراسة اللغتين : الانكليزية والألمانية ، ويجب أن تدرس في جميع المدارس الثانوية في فرنسا والجزائر وتونس والمغرب الأقصى .

ثانياً : قوة العقيدة الاسلامية

وقف القراء فيما أوردناه في هذا الكتاب على مقدار قوة العقيدة الاسلامية الهائلة ، ولذلك لاجابة بنا إلى تكرار ما رأيناه من المعجزات التي تجلت لنا من جراء فعل هذه العقيدة بالنفوس ولكن من باب التذليل على عظمة هذه القوة نقتطف فيما يلي بعض الفقرات الواردة في الكتاب الذى وضعه القس (زويمر) والذى أتى فيه على شرح انتشار الاسلام أيقظته المحن التي نزلت به منذ الحرب الكبرى . قال : « منذ سنة ١٩٠٥ عاد خسون ألفا من الروسيين الذين كانوا يتسمون بأسماء مسيحية إلى حظيرة الاسلام (صفحة ٢١٠) وأن السودان الواسع الأرجاء بكاهه البالغين ٥٠ مليوناً من النفوس ، و قبيلة هاوسا الكبيرة ، وقبائل بلاد النيجر ، والشاطئ الذهبي ، أسلم الكثيرون منهم ، بل هم على وشك أن يصيروا جميعا مسلمين ، ولاريد أن الموج يرفع قهرا دون أن يلقي مقاومة (صفحة ٢٣٥) وفي البنغال (مقاطعة من مقاطعات الهند) أسلم أكثر من ١٠ ملايين نفس ، وكذلك في برمانيا (بجوار الهند) زاد عدد المسلمين بنسبة الثلث في بحر عشرين سنة (١) وأخيرا نثبت هنا ما فات زويمر أن يذكره ، وهو أنه يوجد في جميع أنحاء أوروبا وأمريكا من اعتنقوا الاسلام ، وإذا كان هذا الأمر لا يزال قليل الأهمية بالنظر لقلّة عدد المعتنقين (وان كان عددهم لا بأس به) فانه ذو أهمية كبرى نظرا للمركز هؤلاء المعتنقين الذين ينتمون إلى الطبقات الراقية المتعلمة ، ونذكر منهم على سبيل المثال (اللورد هيدلي) الانكليزي ، وصديقنا المأسوف عليه المرحوم كريستيان شرفس أحد تلاميذ

(١) انظر كتاب « الاسلام » تأليف س . و . زويمر

أوغست كومت ، وأديب من أديباء فرنسا المحدثين ، وفيلسوف من فلاسفتها المشهورين .
 ولو كان الاسلام الحقيقي معروفا في أوروبا لكان من المحتمل أن ينال (أكثر من أي دين آخر) من
 العطف والتأييد من جراء روح الدين التي نجمت عن الحرب الكبرى ، فانه والحق يقال يلام جميع ميول
 معتقيه على اختلاف مشاربهم فهو (ببساطته المتناهية كما يذهب إليه المعتزلة ، وباشتهاله على روح التصوف
 كما يذهب إليه أهل الصوفية) يهدى علماء أوروبا وآسيا إلى الطريق المستقيم ، ويجدون فيه تعزية وسلاوى
 من غير أن يحول بينهم وبين حريتهم التامة في آرائهم وأفكارهم ، كما أنه هدى وتعزية لزنوج السودان الذين
 ينزعهم من أحضان أوهمهم الوثنية ، ويرقى بروح ذلك التاجر الانكليزي رجل العمل الذي يعتبر الوقت
 من ذهب كما يرقى بروح الفيلسوف المتدين ، ويسمو بنفس الشرقى المفكر ذى التأملات والخيال ، كما يسمو
 بنفس العربى الشغوف بالفن والذعر ، بل هو يسحر لآب الطيب العصرى بما قرره من الوضوء المتكرر
 كل يوم ، وبما في الصلاة من حركات منتظمة ، تفيد الجسم والروح معا ، وفي وسع حرة الفكر (وهو
 ليس ملحدًا حتمًا) أن يعتبر أن الوحي الاسلامى عمل من أعمال تلك القوة الخفية التي نسميها (الالهام)
 وأن يعتقد به من غير أية صعوبة بما أنه لا يحتوى على أسرار خفية لا يسيغها العقل .

ثالثًا : عداوة أوروبا للإسلام

إن الكثيرين من القراء يعترضون على ملاحظتنا الخاصة بعداوة أوروبا للإسلام ، فإن هذا الشعور
 السبى لا وجود له في الحقيقة عند عامة الأوروبيين ، بل هناك الكثيرون من غواة الفن وعشاق السياحة
 يشعرون بعطف خالص على الاسلام واهجاب كبير بذلك الدين الجذاب الذي أتى بآيات الإعجاز .
 ولكن مما يؤسف له أن أوروبا متمسكة بتقاليد سياسية يرجع تاريخها إلى عهد الحروب الصليبية ولم تحدد
 عنها لآن ، وكلما حمت بفسيانها قام في الحال أعداء الاسلام أمثال (غلاستون) و (كرومر) و (بلفور)
 ومطران كنتربروري والمبشرين من جميع المذاهب في وجهها ، لصدتها والعودة بها إلى تلك التقاليد العداينة
 (وهنا استعرض المؤلفان بعض الحوادث السياسية مما لا يجهله القراء . وما يخرج بنا عن الخطة التي ارتسمتها
 الجهة لنفسها ، ولذلك لم نبدأ من إغفال ما ذكرناه في هذا الصدد) .

كراهية الاسلام تحت ستار العلم

جرت العادة عند ما يدرس أحد العلماء موضوعا من المواضيع أن يشغف به كل الشغف ، ويرى جميع
 الحسنات مجتمعة فيه ، وما يزال عاقلًا بأذهاننا ما كان يديه أحد أسانذتنا من الحجاسة والإعجاب بأشعار فرجيل
 التي كان يحتم علينا استظهارها ، وكذا الحجاسة التي كان يظهرها أحد علماء التاريخ الطبيعى عند ما يقع نظره
 على الديدان الموجودة في أحشاء كلب ميت .

ولا يوجد لهذه القاعدة سوى استثناء واحد ، والاسلام هو في هذه المرة أيضا محور هذا الاستثناء ، ففي
 الواقع توجد اليوم جماعة من المستشرقين لاغرض لهم من دراسة اللغة العربية والبحث في الدين الاسلامى
 سوى تشويهها والظعن فيها . انتهى ماجاء في « مجلة جمعية الشبان المسلمين » وبهذا تم الكلام على
 الجوهرة الأولى في قوله تعالى : « يظهره على الدين كله » والحمد لله رب العالمين .

الجوهرة الثانية في قوله تعالى : رحماء بينهم

مع قوله تعالى في سورة الحجرات الآتية بعد هذه : إنما المؤمنون إخوة

وفيها فصلان : الفصل الأول

جاء في مقدمة كتاب « حاضر العالم الاسلامي » للعالم الأمريكي (لوتروب ستودارد) ملخص ما يوضح معنى : « رحماء بينهم » ومعنى : « إنما المؤمنون إخوة » وذلك بتدوين تاريخ الرسالة المحمدية ، وبيان أخلاق العرب القدماء وتفرقتهم ، والنصارى وخرافاتهم ، والقيصرة وظلمهم ، والأكاسرة واستبدادهم ، وكيف جاء الاسلام بجمع هذه الأمم على الاخوة الاسلامية ، ثم أبان أيضا كيف أصاب هذه الاخوة ما شئت شملها ، وفترق جمعها ، وذلك بحب الاستبداد بالخلافة والرجوع إلى العصبية الجاهلية في الأمم العربية ، فتبع ذلك أن استبدت الترك الجفافة الفلاظ بالأمم الاسلامية فتفرق الجمع ورجع الاسلام القهقري ، واستعرت نيران الخلاف بين الفرق المتباينة الاسلامية ، ولما كثرت الظلم ، واشتد الحيف وازداد ، وبلغ السيل الزبى ، امتدت نيرانه إلى النصرانية ، فضيق الترك المسلمون عليها الخناق ، في غدوها ورواحها للحجج ، فكانت الحروب الصليبية ، ولولا أخلاق الترك لم تكن هذه الحروب .

ولقد أصيب الاسلام في الشرق بالمغول وعلى رأسهم جنكيزخان ، وأصيب في الغرب في بلاد الأندلس بتفرق كلمة العرب ، فزالت الدولتان الشرقية والغربية ، وهناك ظهر الترك العثمانيون فلكوا أقطار الاسلام كلها بعد أن أحضرت أعظم ديار الاسلام أيام المغول ، وحزبت بغداد ، وبلاد العراق ، ثم إن أوروبا أخذت تسقيظ إذ ذلك فهجمت على بلاد الاسلام واقتسمتها ، فقام المسلمون اليوم وعرفوا الحقائق ، فاستيقظوا من سباتهم العميق ورجعوا الآن إلى آية : « رحماء بينهم » وآية : « إنما المؤمنون إخوة » .

هذا ملخص المقدمة التي كتبها مؤلف « حاضر العالم الاسلامي » الأمريكي ، كل ذلك قصصه على صاحب العلامة الذي يحادثني في هذا التفسير . فقال : هذا كلام جميل في الرحمة والاخوة الاسلامية ، والله انه نور على نور ، وكيف لا يكون ذلك والكتاب « أولاً » حديث العهد « ثانياً » ان كاتبه أمريكي نصراني « ثالثاً » إن فيه ملخص تاريخ النبوة وملوك الاسلام « رابعاً » ان الاخوة الاسلامية التي جاءت في هذه الآية ظهرت في أول تاريخ الاسلام ورجعت تظهر الآن كرة أخرى لاسعاد أهل الأرض ، والله إن هذا التفسير لولم يكن فيه سوى هذا المقال لكفى ، بل لولم يكن للنبي العربي - مبعوثه سوى هذه لكفت ، بل لولم يكن للمسلمين الحاليين نبراس وسلاوة ومنعة وعزة سوى هذه الآراء لكفتهم في رقيبهم ، فإذا أنت قلت نفس هذه المقالة لتسمعها الأمم الاسلامية المنبتة في أقطار المسكونة ، فانك حقا تلهب في قلوبهم نار الهمة الأخوية والهمة الاسلامية ، وتسرع في رقيبهم بها ، ويعلمون ما هم عليه من اليقظة والقوة ، وتذهب تلك الوسوس والخوف والتشاؤم واليأس ، ويحلب في القلوب نور التفاؤل والتقدم والسعادة والصلاح . فقلت : جاء في الكتاب المذكور في المجلد الأول تحت عنوان « تمهيد للمؤلف » ما نصه :

إن العالم الاسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، قد تغلغت فيه عوامل الانقلاب أبعد متغلغل ، وانبتت في عروقه فواعل التبديل أوسع منبت ، حتى كمل اختباره ، وتم استعداده ، فراح يجتاز هذا السور الخطير في التحول ، توار القوى إلى ملاحد له ، فإذا ما سرتحت ببصرك نحو العالم الاسلامي رقعة رقعة ، من مراكش حتى الصين ، ومن تركستان إلى الكونغو ، رأيت الـ ٣٠٠٠٠٠٠٠ من المسلمين قد طورت قوسهم مشتدة الحركة والافعال ، نازعة إلى كل ضرب جديد من ضروب الآراء والافكار ، والاطمح والآمال ، وأن عصبى هذا الانقلاب الشامل لعظيمة جدا ، وستأثر بنتائجها العميمة أم الأرض جمعاء ، والله الأمر من قبل

ومن بعد .

على أن العامل الأكبر في هذا الانقلاب هو الحرب العامة ، ولكن منشأه يراه المستقصى أقدم عهدا وأبعد أصلا ، إذ أن بذوره قد أقيمت في غرب العالم الاسلامي قبل الحرب الكبرى بمائة سنة بل أكثر ، ومنذ ذلك الحين درجت هذه البذور نمو مزدهار الاستعداد والقوة الحيوية ، نمو مستمر المنهج ، بطيء الحركة في أول العهد ، ثم على التوالي صار أوضح سبيلا وأوسع انتشارا ، وما زال الانقلاب الاسلامي على مسراه هذا حتى أدركته الحرب العامة التي قد تضعض منها الكيان ، فكانت عامل الثورة بثأة في المعمور الاسلامي فطلق إشور و بهتاج منتقلا من حال إلى حال ، مر بآء الجوب قام السحب ، لا يسمع فيه السامع إلا القواصف . وان وصف هذا الانقلاب العجيب ، ودور التحول العظيم ، وما إليهما من مختلف الأسباب والعلل والنتائج هو فرضنا الذي قد ابتغيناه من اخراج هذا الكتاب للناس ، وقد كنا في ذلك من الذين يصورون الشيء كاملا تاما ، فأتيينا على بيان كل صور الانقلاب من دينية وتهذيبية وسياسية واقتصادية واجتماعية ، وفي كل من هذه تناولنا الكلام على سببها وتكوتها ، ونشوتها وترقيتها ، وعمومها وانتشارها ، وصفاتها وحالاتها ، وما فيها من قوة انسياق وعامل ، أضف إلى هذا أننا لم نفضل لإيضاح ماني بعض المواضع من الاختلاف بسبب الاقليم والبيئة ، من حيث أننا قد بسطنا تلك المضارعة العامة والصفة الكلية ، مما هو مصاحب لجميع الحركات على اختلافها مصاحبة دالة على ماهناك من وحدة متوخاة في هذا الانقلاب الاسلامي .

إن موضوع الكتاب وان كان مختصا بالعالم الاسلامي في المقام الأول ، غير انه تناول الكلام على غير المسلمين كالعناصر الهندوية (الهندوس) في الهند وسواهم استيفاء للغرض من جميع الوجوه التي لها صلة بالموضوع ، لذلك جعل الكلام كافيا وافيا في شأن الشرقيين الأدنى والأوسط ، أما الشرق الأقصى فلم نتناول الكلام في أحواله مباشرة ، ولكننا قد أشرنا إلى ما هو مشاهد من الشبه والمماثلة بينه وبين العالم الاسلامي في المساجيريات العلة إشارة يفتني للقارئ أن يقيم لها وزنا اه

ونلشرع الآن في ذكر مقدمة الكتاب المذكور ، فقد جاء فيه تحت العنوان التالي مانصه : -

نشوء الاسلام وارتقاؤه وانحطاطه

يفنى البرايا ويأتي الوقت مختلفا * ليخرج الدهر تاريخا من الرم

كاد يكون نبأ نشوء الاسلام النبأ الأعجب الذي دون في تاريخ الانسان ، ظهر الاسلام في أمة كانت من قبل ذلك العهد متضعفة الكيان ، و بلاد منحطة الشأن ، فلم يعض على ظهوره عشرة عقود حتى انتشر في نصف الأرض ، بمزقا بممالك عالية النرى ، مترامية الأطراف ، وهاذما أديانا قديمة كوت عليها الخقب والأجيال ، ومغيرا ما بنفوس الأمم والأقوام ، وبانيا عالما حديثا متراص الأركان ، هو عالم الاسلام .

كلما زدنا استقصاء باحثين في سر تقدم الاسلام وتعاليمه ، زادنا ذلك العجب العجيب بهرا ، فارتدنا عنه بأطراف حاسرة ، عرفنا أن سائر الأديان العظمى إنما نشأت ثم أنشأت تسير في سبيلها سيرا بطيئا ، ملاقية كل صعب ، حتى كان أن قبض الله لكل دين منها ما أراد له من ملك ناصر وسلطان قاهر انتحل ذلك الدين ، ثم أخذ في تأييده والدب عنه ، حتى رسخت أركانه ، ومنعت جوانبه ، بطل النصرانية قسطنطين ، والبوذية اسوكا ، والمزدكية قيا كسرو ، كل منهم جبار أيد دينه الذي انتحل بهما استطاع من القوة والأيد ، إنما ليس الأمر كذلك في الاسلام ، الاسلام الذي نشأ في بلاد صحراوية ، تجوب فيافيها شتى القبائل الرحالة التي لم تكن من قبل رقيقة المسكاة والمنزلة في التاريخ ، فليسرعان ما شرع يتدفق وينتشر وتوسع رقعة في جهات الأرض ، مجتازا أفلس الخطوب وأصب العقبات ، دون أن يكون له من الأمم الأخرى عون يذكر ولا أزر

مشدود ، وعلى شدة هذه المكاره فقد نصر الاسلام نصرا ميينا هجيبا اذ لم يكدر بمضى على ظهوره أكثر من قرنين حتى باتت راية الاسلام خفاقة من «البرينيس» حتى «جلايا» ومن صحارى أواسط آسيا حتى صحارى أواسط افريقيا .

كان لنصر الاسلام هذا النصر الخارق عوامل ساعدت عليه ، أكبرها أخلاق العرب ، وماهية تعاليم صاحب الرسالة وشريعته ، والحالة العاقبة التي كان عليها المشرق المعاصر في ذلك العهد ، إن العرب وإن كان ماضيهم مابرح منذ عهد متناول في القدم حتى عصر الرسالة ماضيا غير مشرق باهر ، فقد كانوا أمة استودعت فيها قوة هيبية ، تلك القوة الكامنة التي بدأت منذ نشوء الاسلام تظهر جليلة إلى عالم الوجود ، فقد ظلت بلاد العرب أجيالا طويلا من قبل محمد ، مباءة يشتد فيها تزخار القوى الحيوية ، وجيشان العوامل الروحانية ، كيف لا وكان العرب قد فاقوا آباءهم وأجدادهم إيفالا في الشرك والوثنية ، واقضى عليهم وهم على هذه الحالة عهد ليس بالقليل حتى استحالت عناصر أمتهم من شدة ذلك كله فساروا تواقين بفعل غرائزهم وأخلاقهم إلى تبديل حالهم ، وتحسين شأنهم ، وهكذا كانت حالتهم العقلية والنفسانية حالة الاستحالة الكبرى والاقبال العظيم ، والاستجداد الكبير ، لما صالح فيهم فخر الاسلام ، أن محمدا وهو عربي من العرب ، وروح قومه متجسدة ، ونفسهم متجسمة ، استطاع وهو يبشر بالوحدانية تبشيرا عاريا عن زخارف الطقوس والأباطيل أن يستثير حتى الاستفارة من نفوس العرب الفيرة الهيبية ، وهي الفيرة الكامنة متمكنة على السوام في كل شعب من الشعوب السامية ، وإذهب العرب لنصرة دعوة ابن عبد الله ، من بعد ما ذهبت من صدورهم الاحن المزمته ، والعداوات الشديدة التي كان من شأنها من قبل القهاب بحولهم وقوتهم ، وانضم بعضهم إلى بعض كالبنيان المرصوص تحت لواء الرسالة في رأسه نور للناس وهدى للعالمين ، أخذوا يتدفقون تدفق السيل من صحارهم في شبه الجزيرة ليفتحوا بلاد الإله الأحد الفرد السمد .

أجل ، هب الاسلام من شبه الجزيرة هبوب العاصف الزعزع ، فلاقى في سبيله جزوا روحانيا خاليا ، في ذلك العهد كانت كاتنا بملكنى فارس ويزنطية باديتين للعيان كأنهما اللحاء الجاف فارق عوده لانحرفيه ولاحياة ، وكان الدين في كل من هاتين المملكتين صاردينا يزرى عليه ويسخر منه ، أماني فارس فقد كان دين المزدكية القديم قد انحط انحطاطا كبيرا حتى أصبح مجوسية باطلة وصناعة خداعة بين أيدي الموايذة يظلمون به الخلق ويضطهدونهم بكل قسوة ، فكره الناس ذلك الدين في الباطن كرها شديدا ، ومقتوه مقتا عظيما .

وأما في القسم الشرقي من المملكة الرومانية ، وهو مملكة يزنطية فقد ألبس الدين فيها لباسا غير لباسه الأول فاستحال إلى الأباطيل الشركية وانتشرت فيه الأوهام والخزصيلات التي كان يقوم بها علماء الدين اليونانيون ذوا العقول السخيفة والآراء الفاسدة ، ففدت النصرانية عبثا وسخرية ، وعلى الجملة فقد كانت البدع والضلالات قد مزقت المزدكية الفارسية والنصرانية اليزنطية شرا ممزقا ، وبذرت في كل منها بذور الاضطهادات الهمجية ، والعداوات الوحشية ، فنمت تلك البذور نموا هائلا ، ولا يعزبن عن البال أنه كان على رأس كل من يزنطية وفارس سلطان مستبد قاهر ، ومملك عات أرهق الرعية إرهاقا لا قبل لأمة باحتيال مثله ، فماتت كل عاطفة من عواطف حب الوطن والاخلاص للدولة ، زد على جميع ذلك أن هاتين المملكتين كاتتا على حال من الضعف شديدة بعيد حروب طاحنة ، التفتت نيرانها بينهما ، خرجت كلاهما منها مفتوتة في عضدها ، منهوكة قواها .

هكذا كانت حالة العالم لما غشيه طوفان الاسلام ، وعلى هذا الاعتبار فإن العاقبة التي رآها العالم بعيد ذلك كانت مما لا بد منه ولا منتدح عنه ، وجميع ما في الأمر أن كتابت المملكة الرومانية الشرقية ومشرقة

فارس ، كانت من قبل خواضة حوب فتاكة ، لم تقو الآن على صد حملة الحاملين عليهما من أمة الصحراء
 المتعصبة ، فسقطت أمام الفاتحين العرب سقوط التلاشي والاعياء ، فلماذا لم يدافع المغلوبون عن أوطانهم
 حيا أبطالاً ، بل ان هذه الأمم التي كانت حتى الفتح الاسلامي مدقوقة العنق من جانب ملوكها ، قبلت
 الفاتحين مستسلمة ، فقام عديد أرباب البدع يتהלون فرحاً وسروراً لتجاتهم من نير المضطهدين المقيوتين ،
 ولم يمس سوى اليسير من الزمن حتى كان السواد الأعظم من هذه الأمم المغلوبة قد دخل في دين النبي العربي
 أفواجا ، إثارة له بحجده وسذاجته على ذنك الدينين الذين صاروا غلبة في الانحطاط والتسدي ، وقد عرف
 العرب بنورهم كيف يستدني الحكم ويوثق السلطان حتى دانت لهم أمور الملك واستقرت نقطة دائرتها في
 أيديهم ، فالعرب لم يكونوا قط أمة تحب إراقة السماء ، وترغب في الاستلاب والتدمير ، بل كانوا على الضد
 من ذلك ، أمة موهوبة بجيل الأخلاق والسجيا ، توافقه إلى ارتشاف العلوم ، محسنة في اعتبارهم التهذيب
 تلك النعم التي قد انتهت إليها من الحضارات السالفة ، واذ شاع بين الغالبين والمغلوبين التزاوج ووحدة
 المعتقد ، كان اختلاط بعضهم ببعض سريعا ، وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة ، الحضارة العربية
 وهي جماع متجدد التهذيب اليوناني والروماني والقارسي ، ذلك الجماع الذي نفخ فيه العرب روحا جديدة ،
 فنضروا زهر ، وألفوا بين عناصره ومواده بالعقيدة العربية والروح الاسلامية ، فآخذ وتماسك بعضه ببعض
 فاشرق وعلا علوا كبيرا ، وقد سارت الممالك الاسلامية طيلة القرون الثلاثة الأولى من تاريخها (٦٥٠ -
 ١٠٠٠ م) أحسن سير ، فكانت أكثر ممالك الدنيا حضارة ورفيا ، وتقدما وعمرانا ، مرصعة الأقطار
 بجواهر المدن الزاهرة ، والخواضر العاصرة ، والمساجد الفخمة ، والجامعات العلمية المنظمة ، وفيها مجموع حكمه
 القديس وعقود علومهم ، يشعان اشعاعا باهرا ، طيلة هذه القرون الثلاثة ما انفك الشرق الاسلامي يضيء
 على الغرب النصراني نورا ، ثم غابت كواكبه ، وأفلت أنجمه ، حتى أدركت ليليه السوداء ، وأجياله المظلمة ،
 لم يكده يستهل القرن العاشر حتى تبدت الظواهر الواضحة فدل على حينونة العهد الذي أخذت فيه الحضارة
 العربية في الانحطاط ، وما كانت تلك الظواهر لتكذب فيما دل عليه ، غير أن تلك الحضارة إنما كانت في
 أوائل عهد الانحطاط تهبط دركة دركة ، وعلى هذه الحال المستمرة ، وانقضاء العصر العربي منذ القرن العاشر
 فقد دامت الحضارة العربية جلدة تنتزع حياتها من مخالب الفناء انزاعا ، وسابقة للغرب النصراني حتى حاول
 النزلة الكبرى التي حلت بساحتها في القرن الثالث عشر ، وكانت الأسباب في انحطاط الحضارة الاسلامية جمة
 أشدها أن روح الشقاق القديمة الأصل ، تلك الروح التي كانت على السوام آفة سياسية تنخر في جسم الدولة
 عادت فظهرت إذ نشأ التنزاع على امارة المؤمنين ، وهذا التنزاع قد أفضى إلى فتن دموية ، وهذه الفتن
 ومآتها من حوادث الاغتيال وسلب الأرواح قد أفنت تلك الحرارة التي عرفت في صدر الاسلام ، فقام مقام
 الأبطال الاول ، مثل أبي بكر وعمر ، حاملي لواء الاسلام الأولين ، أمراء دنيويون ، اتخذوا الخلافة وسيلة
 للعجز والظلم ، والتباهي بمتاع الدنيا وأعراضها ، وكانت الخلافة في المدينة في الحجاز ، ثم نقلت إلى دمشق
 في سورية ، ثم إلى بغداد في العراق ، أما في الحجاز فلم يكن النبي ولا الاستبداد هناك مستطاعا ، لأن عرب
 الصحراء الأشداء ، أهل الاستقلال والحرية ليس من شأنهم الخضوع لحاكم قاهر ، ولا الاقياد لأمر مرهق ،
 وقد أوصاهم النبي بالحرية والشورى فقال لهم قولا مبينا : « إنما المؤمنون إخوة » وقد كانت الخلافة
 في الحجاز شورية قائمة على قواعد الاسلام الصحيحة وأركانه ، فالأمة هي التي اختارت أبا بكر وعمر وولت
 كلاهما عليها خليفة ، وكلاهما كان ينزل على رأي الأمة وحكمها ، وذلك على مقتضى الشريعة التي أوصى
 الله بها إلى نبيه محمد وهي القرآن الكريم . وأما في دمشق ، ولاسيما في بغداد ، فقد تحولت الأحوال ،
 وتبدلت الامور ، ولا يجيب من ذلك والعرب الصحراء الأقحاح ، الجباري في عروقهم الدم العربي البحت ،

الهم المتحتر إليهم من أصلاب أبناء الجزيرة ، إنما كانوا فئة قليلة في أفواج الناس ، وطوائف الخلق الذين لا أعداد لهم من أهل الشام وفارس وغيرهم من سائر المغلوبين المنتهدين الاسلام حديثا ، فامتزج دم الغالب بدم المغلوب ، وجمع الاسلام بين الأجناس المختلفة والنحل المتنوعة ، ولما كانت جميع هذه الشعوب المغلوبة قد شئت النذل من ملوكها السابقين ، فعادت بسبب ذلك لاتقوى على احتمال الارهاق والصبر على المحنة ، لحدثنان مادامت خاضعة مضافة للخلفاء المسلمين الذين أخذوا على التوالي يصطنعون ويستكفون من هذه الرعايا عمالا وحاشية ، وبالتالي جندا لحراسة سياج الملك والذب عن حياض الدولة ، ومازال الأمر هكذا حتى عرا الملك العربي ماعراه من النواب ، فأخذ ظل سلطان العرب ، وقد ولت غرر أيامهم يتقلص إلى الصحراء ، وأنشأت حكومتهم تنقلب إلى مطية من مطايا الاستبداد الشرقي ، ولما نقلت الخلافة إلى بغداد بقيت دولة بني العباس (٧٥٠ م) ازدادت كلمة الفرس نفوذا ، وامتد شأنهم وسلطانهم إلى كل زاوية من زوايا الدولة ، وما الخليفة الأعظم هرون الرشيد بطل ألف ليلة وليلة إلا الملك العربي على شاكلة ملوك الفرس مثل قياكسرو وكسرى أنوشروان ، خلافا لكل الخلاف لما كان عليه أبو بكر وعمر ، وفي بغداد كما في غيرها من سائر حواضر المملكة الاسلامية كان الاستبداد مقوضا لأركان السورلة أيما تقويض ، ففسدوا خلفاء النبي وهم على هذه الحال طغاة موسوسين ، وألعب بين أيدي الخطايا ، لا يستطيعون القيام بعدد بعبء من أعباء السلطان ، ولا القيادة بزمام من أزمة المملكة الاسلامية .

ما انفكت المملكة تهبط وتتهقر حتى تقطعت أوصالها ، وتفككت أجزاءها ، وسلبت منها ، فصارت الوحدة السياسية مما لا يستطيع دوامه لافتقار الدولة إلى قواد محنكين ، ولغفاء ذلك المزاج الاسلامي الصافي الجامع لسجاييا عرب الصحراء الاول ، وقبيل ظهور الاسلام كان أهل كل مصر من الأمصار التي انتشر فيها ظم أكامرة الفرس وقياصرة الروم ، يزعون منزعا قوميا ويحاولون نهضة وطنية ، فجاء الفتح الاسلامي طامبا قاضيا على جميع هذه المنازع ، أما الآن والمملكة الاسلامية محتضرة في الزرع فأني يستطاع المحي . بمثل مايجي به في صدر الاسلام ؟ استطاع الاسلام أن يجعل الملايين من الخلق على اختلاف عناصرهم وأمزجتهم ومعتقداتهم يتنحلون الرسالة المحمدية دينا ، ولكنه لم يستطع أن يحيل هذه الملايين إلى صورة إسلامية متماسكة البنيان ثابتة الصبغة ، فاعترض الازدراد شجا ، وساء الهضم فسامت نديجته ، دعا محمد العرب فلبوا دعوته حقا ، لأنه إنما أناهم بكتاب وآيات وآراء مما كانت عقولهم وطبائعهم مستعدة بالقطرة لقبوله أحسن قبول ، وناداهم استفزا فعرتهم وحيثهم ، وهم اخوان نحوه سجية وخلقا ، فاستجابوا نداءه طائعين ، فلما دخلت شعوب مختلفة غير عربية في الاسلام ، أخذ كل شعب من هذه الشعوب يفسر بموحى غريزته رسالة النبي على مايلام منازعه الشعبية ، ومبولة التقليدية الخاصة ، ويوافق روح التهذيب الذي كان عليه ، فنتج عن جميع ذلك أن الاسلام الحقيقي الذي شاهده العالم في أول منشه قد اعوجج والتوى ، ولنا أجلي دليل على هذا ماحدث في بلاد فارس حيث استعالت الوجدانية التي نادى بها محمد إلى مذهب الشيعة ، فبات أهل فارس الشيعة على صلات واهية تسكاد لارتبطهم بعالم السنة الاسلامي ، واستعالت الوجدانية أيضا عند البربر سكان البلاد المغربية الافريقية وغيرهم إلى حال عبتت معها الأولياء ، وحدث مثل هذا عند المسلمين في الهند ، على أن جميع ذلك لما شدد النبي في تحريره وانهي عنه نهيا قاطعا .

وما كفي ماحدث من الاختلافات الدينية ، وما أصاب صورة الرسالة النبوية ، حتى عمت البلوى بأن مني الاسلام بجزق الوحدة السياسية ، والانشاقات الزمنية ، فأول ماحدث من هذا النوع كان في أوائل عهد السورلة إذ فر أحد المضطهدين من بني أمية إلى الأندلس حيث أنشأ في قرطبة خلافة منافسة لتلك التي في بغداد ، فاعترف مسلموا الأندلس قاطبة بهذه الخلافة حتى وبرارة شمال افريقية ، ومن بعد ذلك بهمدأنشت

خلافة أخرى في مصر هي الخلافة الفاطمية وخلفاؤها متحذرون على ما زعموا من فاطمة بنت الرسول ، أما الخلفاء العباسيون في بغداد فمأرجحوا يهبطون دركات الانحطاط ، ويفقدون من دولتهم وسلطانهم حتى صاروا بعد مدة من الزمن عبيدا مطاوع بين أيدي الترك ، الضعيف الفريب الداخل عليهم .

وقبل أن نشرح في بيان كيفية انتقال العروة من أيدي العرب المهجنة ذوى النسم المزيج إلى أيدي الترك وخطورة ذلك عظيمة في تاريخ الاسلام نؤثر أن نقول كلمة في أسباب انحطاط التهذيب والمدارك العقلية عند العرب ، ذلك الانحطاط الذي رافقه تمزق الوحدة السياسية في جميع الأدوار الأخيرة من العصر العربي .

كان العرب في عصر صاحب الرسالة أمة كريمة الأخلاق ، سليمة الطباع ، نيرة السجيا ، مقادير يركبون كل صب ، تحركهم روح الرسالة بغاية غاياتها ، وتبعث فيهم عزيمة شديدا وغيرة متوقدة ، كانوا أشداء العصية الدينية ، وهي العصية المعروفة في كل جيل من الأجيال السامية ، وعلى شدة هذه العصية فانهم لم يكونوا فيها على غير هدى ، بل كانوا مستبصرين يستنبطون بنور العقل وهدايتهم ، وتمسكين تمسكا شديدا بمعتقدات دينهم وأركانهم وأصولهم ، غير أن دينهم هذا إنما كان ديننا سهل الاكتناء والمأخذ وانحما جليا ، كان جوهر تعاليم محمد الوحداية مع السنة المعلومة ، فالاعتقاد كل الاعتقاد بأن لا إله إلا الله وبأن محمدا رسوله من لسنه كما أنزل في القرآن ، والقيام بالفرائض المسنونة المعينة ، كالصلاة والصوم والحج ، إنما هذا حسب هو جلة الأركان التي تألف منها الاسلام الذي كان عليه العرب يوم أصدعوا في الأرض يفتحون العالم الشرق .

فالاسلام وهو هذا الدين البين الصريح ما كان ليقيد عقل العربي ويلقي عليه سجوبا فوق سجوف والعربي كان قد أدرك حالا ثار فيه جده ، واشتعلت فيه غيرة ، فبات تورا إلى اقتباس العلوم واجتناء ثمراتها والتبسط في شؤون الحياة وتوفير أحوالها ، والتكليف على حديث مقتضياتها والخروج بها عما ألفه أزمانا في فياق الصحراء وكشبانها ، فلما نشر العرب فتوحهم ، ومدوا سلطانهم على الأقطار الأجنبية لم يقصروا نفوسهم على التمتع بالتم المادية واستلذاذ الترف ورخاء العيش حسب ، بل عكفوا جادين على ترقية الفنون والعلوم والآداب وآراء الحضارات القديمة ، فنشأ عن جميع هذا الجهد والترقيات أن أخرج للناس تهذيب عربي سام فأضاعت العقول وازدهرت ازدهارا كان نخر الحضارة العربية ، وواسطة قلاذتها ، ودرية تاجها ، وكان ربح من الزمن كانت فيه هذه الحضارة مشرقة الشمس ، يانعة الثمار ، وارفة الظلال ، فسادت الحرية العقلية ، وابتكرت الآراء والأفكار العلمية ، ووضعت القواعد والاصول واستنبطت الأحكام ، بيد أن عمدا لم يكن من صنيع العرب وحدهم ، بل شاركهم فيه كثير من كانوا متظلمين ظل دولتهم من النصارى واليهود والفرس الذين كانوا في عهد ملوكهم قبل الفتح الاسلامي يذوقون الأمرين ويسامون خسفا شديدا في سبيل آرائهم ومعتقداتهم الدينية التي كانوا يخالفون فيها النصرانية البرنطية والمجوسية الفارسية . على أنه كان لهذا العصر الزاهر حد وقف عنده ، ثم عرا شمس كسوف فظلام مطبق ، فظهرت فرق رجعية ، فما برحت تستقوى وتناهض غيرها من الفرق الخيرة حتى تغلبت عليها ، ثم أنشأت نسود سيادة شديدة متمدة ، واقضت الأيام التي قامت فيها الفرق الخيرة المعروفة على العموم بالمعتزلة متمسكة بلباب الاسلام وجوهره الصحيح ، وذاهبة إلى أن العقل إنما هو مقياس كل شيء ، وقامت الآن الفرق الخلافية المحافظة من بعدها ذاهبة إلى أن النقل والسنة إنما هما مقياس كل شيء ، وأخذ من على هذا المذهب وفيهم كثير من النصارى الذين دخلوا في الاسلام وكانت أمرجتهم ما برحت مشربة روح دينهم البرنطى القديم يفسرون القرآن الكريم ويؤولونه ثم يؤلفون بين هذا التفسير والتأويل وبين السنة التي نقلتها الصحابة عن النبي ، وأوغلوا في ذلك إيغالا بعيدا فتنتج عن ذلك أن أصيب الاسلام بمثل ما أصيبت به النصرانية في الأجيال المظلمة من تلبس الدين عقائد غير عقائده ، ونسبة الآراء الدينية الخافة إليه وهو براء منها ، فلاغرو إذا اشتد الخلاف وانسعت شقته وطال

عهد بين الذين اعتصموا بالسنة والنقل فقاموا عليهما وبين الذين جعلوا العقل نضه مقياسا لكل شيء ،
 وأذ قد انتهى الحال بالاسلام إلى مثل هذا فالغلبة الأخيرة إنما بانت متوقعة وهي غلبة عقيدة السنة والنقل
 على العقل ، وفي الواقع فإن تاريخ السنة والتقاليد في كل بلد من بلاد الشرق إنما هو تاريخ السيرة وأدوار
 الاستبداد وعواقبه المشؤمة ، كانت قد تبدلت في سماء الشرق بسحب سوداء قاتمة ، فلما أشرفت عليها شمس
 الاسلام الأولى من الصحراء حقة من الزمن مزقتها وبدنتها ، وكيف لا تضع على تلك السحب وقد سادت
 الحرية العقلية والفكرية ، غير أنه بعد انقضاء هذا الدور دور النور والحرية ، عادت الغباوة والعقائد والأوهام
 تملأ فضاء الشرق وتنتولى على عقول أبنائه ، وبما ساعد على ذلك استحالة الخلافة الاسلامية من الشورى
 السياسية الصحيحة إلى الاستئثار بالاستبداد .

فلما رسخ الاستبداد في الدولة وجاوز أقطابها بعيدا أخذت آثار ذلك تبدو جلية في موضع موضع والاستبداد
 بطابعه هو عدو الحرية وقاتلها أينما وجدت ، سواء أكانت حرية العقل والفكر أم حرية العمل ، وكان
 بعض الخلفاء من بنى أمية في دمشق ، وقد استهواهم مذهب المعتزلة في بدء الأمر يوسعون في حرية الفكر
 ويرتاحون إليها ، ولكن لما أخذت روح المعتزلة تظهر بمظاهر السياسة أجهلوا منها أيما أجهل وأضرموا لها
 القضاء عليها ، فالمعتزلة حقا لم تقصر أمرها على الآراء الفلسفية حسب بل تحطت ذلك فأنشأت زرع عقيرتها
 منادية بالرجوع إلى حكم مثل حكم الخلفاء الراشدين ، يوم كان أمير المؤمنين ينتخب للإمامة انتخابا ولا يرثها وراثته
 وهو مستقار رأى الأمة ، ونازل على حكمها وشوراها ، وقام الحوارج وهم من قلب شبه الحرية ومن أشد
 العرب عصبية يؤيدون تراثهم من حرية الصحراء ويدعون عنه وينادون بتوسيع نطاقه غير معترفين
 بسلطة الخليفة ، ولما بالين بهيبة أمير المؤمنين . وذاهبين في السلطة إلى أبعد من الحكم الجمهوري نفسه ،
 فنشأ عن ذلك أن الخلفاء أخذوا يستنون أتباع الفرق المحافظة ويقرّبونهم منهم ويعتضدون بهم ويقصرون
 عنهم الفرق الحرة كالمعتزلة ويشددون عليها التكبر ويستعينون بالمشايخين لهم من العرب المهجناء ويشدون
 بهم أزهرهم ، مؤثر بهم على العرب الصحراء من شبه الجزيرة ، حتى باتت الحكومة في الدولة العباسية حكومة دينية
 مستبدة فرسخت عقائد الدين ملبسة لباس التقاليد وقررت حدودها ، واضطهد أتباع مذاهب المعتزلة وقتلوا نقيلا
 وما كاد يكون القرن الثاني عشر من التاريخ المسيحي حتى أمت كل معالم الحضارة العربية وقوضت
 أركانها ، وجف كل عنصر من عناصر الحياة فيها ، وقضى على كل فكر مبتكر ، ورأى مبتدع ، وعاد لا يسمع
 صوت من أصوات المعتزلة ، ولا يرى لأحد منهم أثر ، وهجم العقل الاسلامي هجمته الطويلة ، وما زال مفرقا
 فيها حتى استفاق اليوم استفاقته الكبرى مذهورا .

في أوائل القرن الحادي عشر م تجسم انحطاط الحضارة العربية تجسما تليما ، وبعد أن اختفت الروح
 العربية الأولى التي هبت من الصحراء هبوبها العجيب ، أخذ العرب المهجناء يرون ملكهم السياسي يذهب
 من أيديهم إلى أيدي غيرهم من الدخلاء ، وكان هؤلاء الدخلاء الوارثون للدولة العربية هم الترك ، والترك
 هم المرق الغربي من الجبل الطوراني . جيل القبائل الرحالة التي كانت منذ عهد لا يعرف أوله تجوب انجاد
 أواسط آسيا وشرقها ، ولما كان العرب يفتحون فارس تحاكت قوادهم وبنودهم بالترك الرحالة ، وهؤلاء
 عهدتذ يهوجون المغاور محاولين جوار حدود فارس الشمالية الشرقية ، غير أن العرب وهم في إبان سلطانهم
 ينجح غالب قطين الأرض لند كر خلفاتهم ما كانوا ليرهبوا الترك أو يحسبوا لهم حسابا ، بل رأوا في الترك
 نضاهم ، والترك قوم عرفوا بالجفاء والقسوة ، لا يحسنون شيئا أكثر من طاعة أمرهم والقتال كالمجانين ،
 ولهذا ما كان الخلفاء لينفروا منهم في أول الأمر ، بل أخذوا يستأجرون منهم جندا من الطراز الأول لاهزاز
 الجيش والتمرد عن ذمير الدولة ، ويستكثرون منهم بطانة وحرسا .

قلنا ان العرب ما كانوا ليرهبوا الترك في أول الأمر ، ولكن لما وهن عظم الخلافة وذهبت ربحها تحوّلت الحال فألت غير مائل ، إذ تمكن الترك المستأجرون من الخلول في كل موضع قوى من مواضع الدولة ولاسيما في الجيش العربي ، فأنشأوا يتصرفون تصرف السيد الأمر والحاكم المطاع ، ففتحوا أبواب التخوم العربية الشرقية ، ومهدوا السبيل تمهيدا لأبناء جنسهم ، فأخذ هؤلاء يتدفقون كالوجع وعلى رؤوس لمواقعهم قواد أمراء ، وطفقوا يعيشون في البلاد أحرارا أتي شاءوا ، ويقومون حيث طاب لهم المقام ، ويجرمسون خلال السيل ، ويسلبون وينهبون ، ويفجعون ويفتكون .

ولما شرع الترك يدخلون في الدولة كانوا يقبلون سريعا على الدخول في الاسلام أيضا . بيد أن الاسلام لم يدمث من جفائهم ، ولم يقوم من أودهم كثيرا ، ومتى ما جئنا نعتبر شأن هؤلاء الترك السخلاء يجب علينا أن نفرق بينهم وبين الترك العثمانيين المعاصرين سكان القسطنطينية وآسية الصغرى ، فان الترك العثمانيين اليوم إنما يجري في عروقهم دم مزيج بعضه أوروبي وبعضه الآخر اسيوي غربي ، ويخالط مزاجهم عنصر غربي وعنصر شرقي عربي ، فهم والحلة هذه يختلفون اختلافا كبيرا ، تهذبا وخلقا ، عن آباءهم وأجدادهم الأولين وعلى هذا كله فان العثمانيين المتأخرين ما برحت فيهم السيم الطورانية الخشنه التي تميزها ترك قفقاسيا المعروفين بالتركان عمن سواهم من الترك المقيمين في غربي آسية ، فكيف كان التركي القديم بطباعه وسجاياه ترى ؟ إنما كان في المقام الأول جنديا مجربا ، ومقاتلا باسلا ، وهو لم يكن في ذلك العهد ذا فكر ناقب ، وعقل مبتكر بل كان فيه شيء من حب الاطلاع والاستشفاف ، فلم يقبس غير القليل من الآراء العسكرية في شؤون القتال ، فالطاعة العمياء م الطاعة العمياء وقتال الاستبسال غيب ، هما جميع ما كان عليه التركي يوم تقدم ليتناول قيادة الاسلام من الخليفة العربي المضعف الواهن العظم .

حقا مادهي الاسلام وسائر العالم معا مثل هذه الهادية ، ومازل بالحضارة العربية مثل هذه النازلة ، وكفى الاسلام انه دان لحكم أمة متعصبة مغالية جافة جاسية ، لم يكن الرقي مستطابا في ظل دولتها ، فبات ضرابا من ضروب المستحيل . أجل : لا ينكر أن الاسلام قد اعترت بقوة حربية كبيرة جديدة ، ولكن قد سبى التصرف بهذه القوة حتى جنت على الاسلام جنائيات هائلة ، وجرحته جرحا كبيرا ، فبات زيفا يتقهقر سريعا ، وأول عمل قام به الترك الزاحفون هوا كبتهم آسية الصغرى واستيلائهم على بيت المقدس في أواخر القرن الحادى عشر م . غير أن جانباً من آسية الصغرى ما برح حتى اليوم قسما من العالم النصراني ، ولما أخذ سيل الفتح العربي يتدفق في القرن السابع م من شبه الجزيرة ، فإزال يطمو على سورية حتى بلغ جبال طوروس فصدمه الروم هناك إذ استجمعت الأباطورية الرومانية الشرقية من قواها ما استجمعت واستطاعت أن توقف الفتح العربي هندا حدة عند تلك الجبال على عناء وقب شديد ، أما الآن فاجتاز الترك الحدود البيزنطية ودوخوا آسية الصغرى تدويحا ، وأخذوا يهددون القسطنطينية وهي الحصن الشرقى الحريز للنصرانية ، وكان بيت المقدس في أيدي المسلمين منذ الفتح العربي (٦٣٧ م) وكان الخليفة عمر يرحى حرمة الأماكن المقدسة النصرانية بما رعاية ، وقد سار خلفاؤه من بعده على آثاره ، فلاضيقوا على النصراني ، ولانالوا بمساة طواقف الججاج الوافدين كل عام إلى بيت المقدس من كل فجج من أجناس العالم النصراني . بيد أن الترك بعد فتحهم البلاد لم يجروا على مثل ما جرى عليه العرب من قبلهم ، فالترك لما كانوا لا يرون لذة في غير السلب وكره غير المسلمين أخذوا يستلبون الأما كن المقدسة ويمتهنون حرمة النصراني ويحولون دون الحج فبات مستحيلا .

فأكتساح آسية الصغرى والاستيلاء على بيت المقدس معا إنما زلا نزول الصاعقة على النصرانية فقامت لهذا الخطب وقعدت ، وطفقت أوروبا بتميد من أقصاها إلى أقصاها مشتتة بغضا دينيا ومحتمة غضبا وحققا ،

وقام أوف . وُلغة مثل بطرس الناسك يلهبون الصدور نارا ديفية وبحضون على حياية بيت المقدس وقبر المسيح حتى جنّ الغرب النصراني جنونه الكبير ، والنهبت الغيرة الدينية في كل جوارحه وعرق من عرقه ، وغشى التصب على أبعاره ، فهبّ يبعث البعوث الصليبية ، والجحافل الجرارة دراكا لقتال الشرق الاسلامي في سبيل الصليب .

فداهية الترك ونازلة الحروب المقدسة الصليبية كانتا شرّ طعنة طعن بها صدر العالم وسببا دائما في سوء العلاقات بين الشرق والغرب . ففي سنة ١٠٠٠ م كانت العلاقات النصرانية الاسلامية أخذت تستقيم وتسير سيرا منبثا بالكف عن العداء ومبشرا بازدياد تحسن الحال وخير المسير ، وكانت الأحقاد التي تارت على أثر تدفق الاسلام على حال التلاشي والاضمحلال ، وظهر عهدئذ أن الحدود الجغرافية بين عالم الاسلام وعالم النصرانية كادت تستقرّ فليس أي الفريقين يطمع بمسد في الخروج على الآخر ، ولم يبق ثمة أمر من أمور النزاع شأنه خطير وكبير غير الأندلس ، حيث كان هناك مصطدم الاسلام والنصرانية المصطدم الأخير ، بل على كل كانت الأندلس إذ ذاك قد باتت تعدّ حدّا فاصلا بين العالمين ، وعلى الجملة فقد كانت علامّ ازدياد الوثام والطمأنينة بين الاسلام والنصرانية متجلية واضحة ، وناحية منحى جيدا ، فلو قدر لهذه الحال أن تستمر وتسير بحيث يمكن كل عالم إلى أخيه لكانت أنت بنعمة من النعم الكبرى الباقية على الحضارة والانسانية ، فالعالم الاسلامي كان مابرح حتى ذلك الأوان سابقا لأوروبا الغربية سبعا بعيدا ، وفاقا عليها علما وتهديبا . بيد أن الحضارة الغربية كان قد أخذ الكمد والكف يبدوان عليها في الحين الذي طفقت فيه قس الغرب النصراني نجيش ونهمته تشتدّ للافلات من ربق جهله ، والخروج من ظلمته وبربريته ، فأى خير كان أعظم من ذلك الخير الذي كان يرجى من الوّد الوليد الذي ظهر في القرن الحادي عشرم ، بين الشرق والغرب فيما لوقيض له الفتح أمدا بعيدا ؟ بل ترى أي نفع كان أجلّ من تقارض العالمين بعضهما البعض العون واقتسام السراء والضراء ؟

أجل : لو كان ذلك لكان به نجاة كبيرة ولكانت الحضارة الغربية الاندلسية وفيها علوم اليونان والرومان قد أيقظت نهضتنا من مرقدتها قبل استيقاظها بعهد طويل ، ولكانت روح الغرب التي تمشت في جوارحه في الأجيال الوسطى ، تلك الروح الجبارة هبت فتناولت الشرق وتغلقت في أحشائه متغلغلها في الغرب ، فتجت الحضارة الاسلامية من متخبطها ومتعثرها في ذلك الحلك الداسي الذي طال عهده .

غير انه ما كان ذلك ليكون فقد اختفى العربي الصمت الخلق ، اللين الربكة ، وجاء من بعده الترك المتعصب الخشن القاسي ، فباد الاسلام يشب ويهتاج ، ولكن شتان بين اهتياجه الأول بالأس واهتياجه اليوم ، أما بالأس فقد كانت تحرك الغرب روح الرسالة وفضائلها ومثلها العليا ، وأما اليوم فما بحرك الغرب إنما هو روح الطمع والفتك وحائز الاستيلاء والتصب ، ومن ذلك الحين بدأ العراك يشتدّ ، وثاره تقدي بين الهولة التركية والحضارة الغربية التي كان فشوفا مرجوا لها عهدئذ ، ودام هذا العراك قرونا ، وما كانت الحروب الصليبية سوى ردّ الفارة على الترك الذين أخذوا منذ ذلك العهد يوالون غاراتهم على النصرانية برهة ستامة سنة ، حتى صلحوا الصلحة الكبرى عند أسوار « فينا » سنة ١٠٨٣ م وقد كان من الطبيعي أن تأصل العداء ، واستحكمت الشاة ، واستقرّ التصب بين الاسلام والنصرانية مما مابرحت جرائحه حية ، وسوموم ثماره نامية حتى الآن ، وهذا النضال الذي تتلو انبائه في صحف الأخبار اليوم ، النضال القائم بين مصطفى كمال ومقاتله الوطنيين وبين اليونان في آسيا الصغرى إنما هو حلقة من سلسلة حروب بين الاسلام والنصرانية ، حلقتها الأولى كانت في فلسطين بين الترك والصليبيين منذ ثمانمائة سنة ، وحلقتها الأخيرة إلى اليوم هي هذه الحرب بين الترك واليونان في أغوار الأناضول وأجنادها .

وليس من فرضنا في هذا الكتاب أن نبحت في تاريخ الحروب التي قامت بين الترك والنصرانية إنما
 ما يجب حفظه في البال أن تلك الحروب ظلت إلى اليوم عداة مزمنا ، وعة دائمة بين الشرق والغرب .
 أما الشرق الاسلامي فقد قدر له بعد أن دارت الأيام بمحضارته العربية وحنا عنقه للثبات التركي الثقيل أن
 يلاقى فوق ذلك أموالا أشد وأفدح ، منهالة عليه كغيرها من الجبل الطوراني ، ففي أواخر القرن الثاني عشر
 هبت العروق الشرقية من الجبل الطوراني ، ملتفة ملتزمة حول بعضها بعضا ، مكوتة وحدة دامت مدة ،
 وعلى رأسها زعيم جبار عات هو « جنكيزخان » . اتخذ هذا اللطافية (الطاغية الذي لا ينجب) لقباً له وطلق
 بزحف ناهبا العالم نهبا ، فاكسح في أول أمره الصين الشمالية وأزل بها هولاً شديداً ، ثم اتجه غرباً بازاخا
 مدعماً ، وناهبا محزباً ، فرأى العالم من بلائه مالم ير مثله من عات قبله ، هذا هو النهوض الذي نهضه المغول
 في ذلك العهد ، وهذا اسمهم ما برح حتى اليوم إذا ما جرى على الألسنة وجفت له القلوب واقشعرت منه
 الأبدان ، زحف جنكيزخان بكتائب من الجند لأخصى ، مستصحباً مهرة المهندسين الصينيين لصنع البارود
 في تخريب المدن والحصون ، فكان وفرسانه سيلاً جارفاً ، ونارا آكلة ، وأعظم بلاء حل بالبشرية ، لم تكن
 غاية المغول الفتح والاسيطان ، حتى ولا الغنم ولا الاستلاب لحطب ، بل هراقة السماء ، وتغذيب الأرواح ،
 ودرس البلاد وملاشاة العمران ، فذبخوا الشعوب تذييعاً ، وذكوا المدن ذكاً ، بحيث لم تنج بلاد حل فيها
 المغول من الهول ، وكان شأنهم في قطر شأنهم في سائر الأقطار .

ومات « جنكيزخان » بعد بضع سنوات من زحفه هذا فقام خلفاؤه من بعده واتهبوا نهجه في الزحف
 وتعميم النازلة ، فالمغول حقا طعنوا الاسلام والنصرانية معا طعنة خارقة ، إذ حاق بأقطار شرق أوروبا مثل
 ما بقى بغيرها من الأقطار الآسيوية ، وتلك آثار الهول المغولي في روسيا ما برحت شاهدة على بربرية المغول
 وهمجيتهم . فبر أن الهول الذي نزل بالعالم الاسلامي كان أشد منه في العالم النصراني ، فالمغول بزحفهم على
 روسيا لم يجاوزوا تخوم بولندا قط فنجت بذلك أوروبا الغربية ، لكن ما أريد لأوروبا الغربية من النجاة
 لم يرد مثله لجانب من العالم الاسلامي ، إن العاصفة المغولية بهبوبها من الشمال الشرق في آسيا استطاعت أن
 تطبق العالم طرا من الهند حتى مصر ، مقلتة جارقة كل شيء في سبيلها ، وقد كانت فارس وهي إذ ذلك
 ما برحت منهب الكتاب التركية تحاول النجاة بمحضارته الوليدة فدعمتها الجوارف المغولية غاشية ماحقة ،
 فقلشت قوة فارس وتضعض كيانها أيما تضعض ، ثم تقدم المغول نحو العراق ليصلوا بفسداد مدينة الحضارة
 والتهديب نصيبها من الهول ، وكانت بغداد عهدئذ قد ذهب الكثير الزاهر من عزها ومجدها ، فنوت نصرتها
 من بعد هرون الرشيد ، وتسكر الله مرئلك المليون من السكان ، بيد أن فسداد على كل هذا كانت ما برحت
 مدينة عظيمة من أمتهات المدن الكبرى ، فيها كرسى الخلافة ، ومركز الحضارة العربية ، فاقص عليها المغول
 سنة ١٢٥٨ م وأحملوا فيها أيدي التخريب والتدمير فذبخوا أهلها تذييعاً وكادوا يمحونها محوا من على
 وجه الأرض ، على أن هذا لم يكن جيع البلاء ، كانت فسداد طعنة العراق ، وكانت ما برحت في العراق
 سفود الري العجيبة من بحر التاريخ تمثل مهارة بناتها الأولين وقسوتهم ، وفي البلاد من مهلب أطاسير
 الصحراء ، فكانت العراق على السوام وفيها هذه السدود الكبرى جنة الأرض دهرى العالم ، وقد تصطب
 الفانجون الكثار في البلاد دورا بعد دور ، وعصرا بعد عصر ، فكان من شأن كل فاتح أن يبق على هذه
 السدود ، لابل يعظم شأنها وشأن بناتها ، ويصير كل الاعتبار قدر وضعها وخبرها للبلاد ، فلما غشى المغول
 العراق سرعان ما قوضوا هذه السدود قوضوا بحيث لم يبقوا منها حجرا على آخر ، ضفت أقدم حضارة عرفها
 العالم ، وخرب مهد التهذيب البشري ، وبعثت آثار أعمال جنت في سبيلها البشرية طيبة ثمانية آلاف سنة
 على الأقل ، غطوت العراق خواءها هذا المشهود حتى اليوم ، وباتت مرتبة حلة من الجفاف المحرق ومفتأ

لأبوثة الحى المنتشرة متى ما كان فيضان ، يسكن قراها الخيرة أقولم من الفلاحين ، ويحجوب رحابها رحلة من البدو ، برعون ماشيتهم أرضا كانت من قبل منابت الحضرة والتهديب ، فكانت نازلة التي حلت ببغداد إنما كانت ضربة فاضية على الحضارة العربية ولاسيا في الشرق ، وكانت هذه الحضارة قد أصيبت من قبل نازلة المقول بضربة أخرى في الغرب وهي نازلة الأندلس العربية ، ومومخ ذلك أن الاسلام بعد انقشاره في جميع افريقية الشمالية جاز البحر وطبق اسبانيا من أقصاها إلى أقصاها ، نضقت فيها أعلامه ، وأشرقت شموسه ، وازدهرت الحضارة العربية الاسلامية الأندلسية ازدهارا كد لا يرى مثله في أي قطر آخر من الأقطار الاسلامية الشرقية ، وكانت قرطبة عاصمة الأندلس ، وفيها كرسى الخلافة الفرية ، فبلغت هذه العاصمة من العظمة والمجد مبلغا كبيرا ، حتى لملها كانت تفوق بغداد عينها رقبيا وحضارة ، وقد عاش ملك العرب في الأندلس قرونا عديدة ملكا زاهرا آمنا والعرب حاصرون للنصارى في الكور الجبلية الشمالية من البلاد ، فلما بدأ سلطان العرب يصف وبنى وقوتهم تمن أخذ النصارى يذفون المسلمين جنوبا مستردين منهم البلاد كورة فسكورة ، وكانت معركة (لانقادى طولوزة) سنة ١٢١٣ م نضقت فيها شوكة العرب ، وقت في عضدهم فتا كبيرا ، ثم من بعد ذلك صارت تتوالى انتصارات النصارى على غير عياء حتى سقطت قرطبة في أيدي المستردين من نصارى اسبانيا التصيين ، فبادر هؤلاء إلى استئصال شأفة الحضارة العربية الأندلسية على نحو ما كان يقوم به المقول عندئذ في الشرق ، فذهبت الأندلس من أيدي المسلمين ، فلم يبق لهم من جميع ذلك الملك الذي كان زاهر سوى رقعة صغيرة واقعة في الطرف الجنوبي من البلاد وهي غرناطة التي بقيت في حوزة المسلمين حتى استكشاف كولبوس اماركة ، ثم بعد ذلك طردوا منها ، فانخفت على الأثر معالم الحضارة العربية في الغرب .

وكان الشرق الاسلامي مازال يشقى وتتوالى عليه جماع المقول وأهوالهم ، وأملنا الآن أنوداهية من دواهم ، وهي زحف تيمورلنك في أوائل القرن الخامس عشر ، ففي هذا العهد كان المقول الاول النريون قد صاروا مسلمين ، غير أن الاسلام لم يذهب بالكثير من وحشيتهم وبربريتهم ، واقنق تيمورلنك آثار جنكيزخان في تذييع الخلائق وتدمير البلاد ، فما كانت قسه تقبض بشيء اقتباطها بمنظر الاهرام من جاجم البشر ، وأي هرم أكبر من ذلك الذي شيده تيمورلنك من سبعين ألف جمجمة بعد تخريب مدينة أصبهان في بلاد فارس واقضى عهد المقول المائل في الشرق الاسلامي ، ثم جاء الترك بدورهم زاحفين .

الترك العثمانيون هم من أصل القبائل التركية المدينة التي جاءت آسيا الصغرى من بعد سقوط المملكة الرومانية البيزنطية ، وغالب الفضل في تشييد المجد الذي شيلوه ، وعزهم الذي بنوه ، إنما هو قائم إلى عديد سلاطينهم الذين كانت لهم القلبة على سائر القبائل المجاورة ، فاستطاعوا بذلك أن يوحضوا جميع القوى التركية العظيمة ، ثم طغقت فتوحاتهم تمتد شرقا وغربا ، وفي سنة ١٤٥٣ م ذلك الترك صرح الأمبراطورية البيزنطية دكا ، وفتحوا القسطنطينية ، وخلال قرن تلك فتحوا الشرق الاسلامي من فارس حتى صها كس ، ودونجوا شبه جزيرة البلقان من أقصاها إلى أقصاها ، وقطفوا في أحشاء هضابها حتى بلغوا أسوار (فيينا) واستطاع الترك العثمانيون ما لم يستطعه أبناؤهم المقول من قبلهم ، فنوا بملكة منيعة الأركان ، غير أن ملكهم هذا كان فيه جلف وبربرية ، وذلك إنما كان بعدهم عن رويح التهذيب والتتقيف ، فانهم لم يبرعوا في شيء براعتهم في فنون القتال ، بل كانوا فيها من أشهر الأمم وأشدتها قوة وبأسا ومراسا ، ولما كانوا في إبان مجدهم وسلطانهم كانت خيانتهم ورجالتهم من أفضل طراز الجيوش التي شهدتها العالم ، فأرصبوا بها أوروبا بارصبا شديدا ، وفي هذا العهد كانت أوروبا قد بدأت تتيقظ وتسير سير التقدم الصحيح ونفسى حضارة متدرجة صفرج الرقى والتثبت ، وبينما كان الشرق الاسلامي يئن من الأهوال الموقرية والفتوح التركية كان الغرب

النصراني يشعل مابيح النهضة ، ويعد أسباب استكشاف اماركة وطريق الهند ، ذلك الاستكشاف الخطير الشان ، العظيم النتائج مما لا يخفى على أحد ، وبما يزيد خطورة هي الحالة التي كانت عليها أوروبا في ذلك العهد ، فانه لما كان كولمبوس وفاسكادى غالما يقومان بأسفارهما البحرية قبيل ختام القرن الخامس عشر كانت الحضارة الغربية محاصرة في نطاق ضيق لا يجوز دائرته القسم الغربي من أوروبا الوسطى وهي إذ ذلك في أكره يوم من أيام فضاها وجلادها مع البربرية الطورانية ، كانت روسيا تمزقها سنابل خيول التروانغول وكان الترك وهم نملون بشوكتهم الحربية ، يضيرون متصربين من الجنوب الشرق ، مهددين قلب أوروبا شرق تهديد ، هكذا كانت البربرية الطورانية مطبقة آسيا وشمال أفريقيا وشرقي أوروبا يوم كانت الحضارة الغربية وهي طفلة في المهدي تستقبل حكم القضاء النازل إياها وأما عليها ، وعلى الجلة فقد كانت الحضارة الغربية تنازع في سبيل بقائها أشد منازعة ، مولية ظهرها السور العظيم (سورالاقيانوس) فلذلك لانكاد نستطيع أن نتصور حتى التصور كيف واجه أجدادنا الاوقيانوس ، وشرعوا يمحرون عيابه في تلك الليلة الظلماء ، والفترة الصعبة من الأجيال الوسطى ، لاجرم ، كانت أوروبا في تلك الحقبة إنما تذود عن بقائها بجميع ما كان فيها من قوة وبأس ، وترد عنها غاشية البربرية الآسيوية ، وماهى إلا ليلة ونحماها فاذا بليل الخطر الآسيوي وقد انجلى ، وبالاوقيانوس بات طريقا آمنة ، فصارت أوروبا من بعد ذلك سيدة البحار ثم سيدة العالم بأسره .

قضى الأمر ودارت الأقدار بالشرق والغرب أعظم دورة عرفها الأنسان ، فبعد أن ركبت أوروبا ملان البحار صارت تستهزئ بجبابرة آسيا وعنايتها ، وكانت من قبل بردح ترى النصر عليهم أبعد مثلا من الجوزاء ثم أخذت موارد الثروة تفيض على أوروبا من وراء البحار ، فافتقد نشاط القارة واشتعلت قوتها ، ولا يجهن من ذلك وأوروبا قد كشفت القناع عن أباكر بلدان ، فأخذت تستورد منها خيرات لا تباد لها ، غذاء طيبا لحياتها وصناعاتها ، فباتت والشرق شتان مامها ، فأى موارد كانت للشرق الاسلامي الحرب المهشم إزاء اماركة الجنوبية والشمالية وجزائر الهند ؟ هكذا دبت الحياة ديبها الهائل في الحضارة الغربية ، فانتفضت وهبت من مرقدتها ، وأخفت مخطوط إلى الأمام خطوات الجبابرة ، محطمة أغلال أجيالها الوسطى تحطبا ، وقابضة على طلاسم العالم ، جاذة نحو المصور الحديثة .

وعلى كل هذا فقد ظل الشرق الاسلامي جامدا ساكنا ، ملتا بخلقان الحضارة الغربية التي طال على خواتمها الأمد ، ومفسكا في ديجور الظلام ، ولم يكن ذلك جميع شقائه حتى تضعفت قوته الحربية وبلفت حد التلاشى ، فوهن عظم الترك بعد السنة ، واستغرقوا في انحطاطهم فصاروا لا يستطيعون مجاراة أوروبا اختراعا وارتقاء ، ولا تحصين فن من فنون القتال ، وقد كبرت حجب كان الغرب فيها يقاتل بعضها بعضا قتالا عنيفا ، فلم يستطع الجلة على الشرق ، فلبت منزلة اسم العثمانيين علوا كبيرا ، بيد أنه لما أغرقتك على أسولر فينا سنة ١٦٨٣ م فردوا على أعقابهم خاسرين ، أيقنت أوروبا حينئذ أن هناك انما كان منقلب قوة المملكة العثمانية ، فأخذ جده العثمانيين يفترو ونجمهم يأفل ، ومنذ ذلك الحين شرع الغرب يكر على المملكة العثمانية الكثرة بعد الأخرى ، منتاشا منها ما استطاع ، ولولم تورت نار الحسد بين بعض الدول الغربية بعضا فتقطع كل دولة فيما طمعت فيه غيرها ، أضحى لولم تختلف هذه الدول في اقتسام الغنيمة لمزقت الأمبراطورية العثمانية شررا ممزق منذ عهد عهيد .

ثم تواتت الأليم على العالم الاسلامي وهو حاج لا يمتيقظ حتى كان القرن التاسع عشر ، فتامل في مهجته مستغفلا وطأة الغرب ، وفي خلال القرن الثامن عشر كانت الدول الغربية تحمل على جوانب العالم الاسلامي ونخضع لها الأقطار في شرقي أوروبا وجزائر الهند ، وأما جلة العالم الاسلامي ومعظمه من مراكزه حتى

أواسط آسيا فقد ترك وشأنه ، فما كان ليصبر قدر هذه الفترة الساعية ، بل ظلّ مستغرقاً في هيجته . خبزنا بكفرة أوروبا ، راضياً مسلماً أن شقاه إنما هو بمثابة من الله ، لا يقيم لرقى أوروبا وزناً ، ولا يحسب لاستنبتاتها حساباً ، هكذا كانت حالة العالم الاسلامي لما استيقظ استيقاظه في مطلع القرن التاسع عشر فاذا بأوروبا تقف بزياته مجنونة بثورتها الصناعية ، مدججة بأسلحة العلم الحديث ومجانب الاختراع ، وبين يديها الفاشتين الطبيعية مسخرة مفضوحة أسرارها وآلات حربية جهنمية لم يحلم أحد من البشر بمثلا من قبل ، فكانت النتيجة المتوقعة لما شرعت حملات أوروبا تقضي الشرق الاسلامي أخذت أقطاره تسقط الواحد تلو الآخر في أيدي الحاملين عليه ، فلم يمس غير البشير من الزمن حتى كانت دول أوروبا الكبرى قد انقسمت جميع العالم الاسلامي ، فاستولت بريطانيا على الهند ومصر ، وعبرت روسيا القوقس وبسطت سلطانها على أواسط آسيا ، وفتحت فرنسا شمالي أفريقيا ، وقامت سائر الدول الأوروبية غير الكبرى واستولت بدورها على الأقطار الصغيرة الباقية من الغنمة الاسلامية ، وما زالت الحالة هكذا حتى جاءت الحرب الكونية العظمى ، فكانت شاهداً على آخر دور من أدوار إذلال الشرق الغرب ، ولما وضعت شروط المعاهدات بعيد أن وضعت للحرب العاقمة أوزارها قضى على كيان الدولة العثمانية ، فلم يبق من بعد ذلك دولة اسلامية مستقلة استقلالاً صحيحاً ، فتمّ اخضاع العالم الاسلامي ، ولكن على القربان .

أجل ، ثمّ ذلك على القربان حسب ، والسبب في ذلك أنه لما ظهرت سيطرة الغرب على الشرق هذا المظهر القاهر لسرعان ما هبت عليها عواصف شديدة هجينة لم يسمع بمثلا من قبل ، كان الشرق الاسلامي طيلة هذه المئات من السنين التي كرت عليه وهو حان عنقه للغرب تتطور قواه الباطنية تطوراً عظيماً ويفعل بعضها ببعض امتعاضاً كبيراً حتى آن الأوان فانفجر البركان فكان منفجره هائلاً .

وهذا المدّ ، مد بحر المطامع الغربية الطامى قد غالى في إيلاام الشرق مقفلة شديدة ، فتحرك الشرق الجلمد الساكن أخيراً ، ودار الشرق الاسلامي حول نفسه ، فرأى نعمة حاله وما هو حال بساحته ، فأخذت نفسه يجيش وتضطرب ، ومشاعره تنهتج وتنبعث ، وقواه تورنورانا مجباً بلغ أقصى أعماقه ، واستيقظت روح الاسلام في كل رقعة من رقاع العالم الاسلامي ، فهبّ الـ ٢٥٠٠٠٠٠٠٠ من أتباع النبي محمد من صراكش حتى الصين . ومن تركستان حتى الكونغو ، هبوب العاصفة الزعزع لا يعرف مستقرها فلقح الزناد في صحراء شبه الجزيرة ، مهد الاسلام ثم أخذ الشرر يتطاير إلى كل جانب من جوانب العالم الاسلامي ، إذ في الصحراء هذه نشأت الدعوة الوهابية في مطلع القرن التاسع عشر وهي دعوة الإصلاح الاسلامي ، ثم كان من أمرها أن ترفت واتسعت حتى بلغت في نطاقها دور النهضة الاسلامية ، ثم عرفت بالتالي بالجامعة الاسلامية ، ولم تكن عوامل هذه التبدلات والتحويلات في العالم الاسلامي مقصورة على تلك العوامل الداخلية المنبثقة عنه حسب ، بل إن هناك عوامل وآراء وعقائد ومذاهب سياسية واجتماعية ما انفكت تندفق من الغرب على الشرق ، وجميعها يثّ في الشرق الاسلامي روح الاستيقاظ والثوران : من ذلك عقائد الحكومة النيابية والعصية الجنسية ، والعلام العملية ، وحقوق العمال ، حتى وأكثر من ذلك كحقوق المرأة ، والاشتراكية والبلشفية .

ثوران العالم الاسلامي هذا الثوران ، وشدة التضييق الأوروبي الضارب فيه (من حوله على غير انقطاع ولاحد يزيدان في هيجانه فيشعلان فيه روح الحركة والعمل ، إن الحرب الكونية العظمى قد أنتت بهجائب عظيمة ، وأرت مالم بر من قبل ، فأنشأ الاسلام يمد ويضطرب ويتمخض وتمخضاً شديداً ، منتقلاً من حال حاضر إلى آخر مقبل ، ومجتازاً دوراً غاية تجدد علم اسلامي حديث ، وليبان كيفية هذا الانتقال والتجدد اللذين سترى ثمارهما في عالم اسلام المستقبل قد وضعنا هذا الكتاب . انتهى ما أردته من كتاب «حاضر

العالم الاسلامي » وبهذا تم الكلام على الفصل الأول والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثاني

في قوله تعالى : « رجاء بينهم » أيضا

اهم أن الرجعة بين الأمم الاسلامية اليوم قد تجلت بأجلى مظاهرها ، ولكننا نحن في ديارنا لا قدر أن نصفها ، ولكن القادر على وصفها رجل قد أعطى مفتين : أولا التفرغ للاطلاع . ثانيا عدم التحيز ، وهاتان الصفتان قد ثبتتا في صاحب كتاب « حاضر العالم الاسلامي » ولأقل لك من الجزء الثاني من كتابه فصولا :

الفصل الأول

في أن انكثرا وفرنسا كاتتا جاهلتين حال تركيا والعالم الاسلامي إبان الحرب الكبرى ، ولكن ايطاليا كانت تعرف الحقيقة فركتهما . وهذا نص ما جاء في الكتاب المذكور :

« موت الامور في تركيا مجريها التي سبق لني في رئيس الوزارة الايطالية فتنبأ عنها ، فأكره رجال الخلفاء وهم حينئذ سادة القسطنطينية السلطان على تعيين وزارة مصادفة ، ففعل السلطان ذلك ، فشجعت الوزارة حركة « مصطفي كمال » ورجاله العصاة ، وأوفدت وفدا اختير أعضاؤه اختيارا إلى مؤتمر « سان ريمو » في فرنسا حيث وقصوا بالرضا والتسليم للمعاهدة التي أعدتها الخلفاء الذين استطاعوا بذلك « تأييد مرادهم » على قصاصات الورق لا غير ، وما كان ذلك الأمر الغريب إلا لأن كل انسان فيه مسكة من العقل يتيقن أن جميع هذه الصفقة التي رام الخلفاء عقدها إنما هي ضرب من الخبل والجنون وأن كل فرد من أفراد الحكومة « للمصادفة » من السلطان حتى أحقر الكتبة ماهورا لا كصطفى كمال يتلهب غيرة ووطنية ، وأن العاصمة التركية الحقيقية إنما باتت أقره لا القسطنطينية ، وأن قوة الخلفاء لا تتجاوز في الواقع غاية مرادهم مدافعهم ، أما مصطفي كمال فقد قال في شأن معاهدة سيفر (معاهدة صلح نيك) : « اني مستعد لقتال العالم بأسره مشرقا ومغربا ، فباتت الخلفاء في مأزق حرج لا ريب فيه ، ولا سيما من بعد ما أصبحت كلمة الخلفاء تدل على بريطانيا وفرنسا لا غير ، أما ايطاليا فلم تشارك في إلقاء دلوها في الدلاء ، بل فعلت كما قال (نيق) : ولم ترسل جنديا واحدا ولم تدفع ليرة واحدة » لذلك لم تستطع فرنسا ولا بريطانيا حشد الجنود الكافية لسحق مصطفي كمال في الحين الذي تسكبدان فيه نفقة مائتي ألف جندي (٢٠٠.٠٠٠) لتسكين الحال في الأقطار العربية المهالمة وغيرها ، وما كان سحق القوة الكمالية بالأمر السهل ، إذ قترأركان الحرب الفرنسيون الجيش المقتضى لذلك (٣٠٠.٠٠٠) مقاتل تام الصلته ، على أنه قد بقي في أيدي الخلفاء سلاح آخر هو اليونان ، فتقدم فزيولوس رئيس الوزارة اليونانية وأخذ على نفسه خضد شوكة الترك ودق عنقهم ، وذلك على شريطة أن تنال اليونان في مقابلة عملها هذا امتيازات كبيرة في مناطق آسيا الصغرى ، فقبل ذلك منه ، وبعد حين نزل جيش يوناني إلى برّ أزمير عدده (١٠٠.٠٠٠) مقاتل ، غير أن هذا الجيش قد لقي الخيبة والفشل إذ أن المائة ألف مقاتل على كثرتها كانت أشبه بالفناء ، واجتنب مصطفي كمال الاشتباك في معارك فاصلة ولكنه ثابر على مضايقتهم ، وإيقاع الخيف بهم ، بالحرب غير النظامية كما كان شأنه مع الفرنسيين في كيليكية في الطرف الآخر من الميدان ، فتوغل اليونانيون في البلاد توغلا فاحشا ، ونورتوا تورطاً شديدا ، كاد يقضى عليهم على بكرة أبيهم ، فزادت القضية التركية إعضالا واشكالا ، وعلى مظهر أن فزيولوس ظلّ ينتهي زوال الترك والمضى معهم في الحرب ، وذلك بسفاه كونه المنتدب الثاني من قبل الخلفاء ، لكن الشعب اليوناني أتى عليه ذلك لأن اليونان ما برحوا منذ سنة ١٩١٢ بمخوضون غمار الحرب من ميدان إلى آخر حتى نهكت قواهم أشدّ النهك ، فرأوا الاستراحة ولوقليلا ، فلما كانت انتخابات تشرين الثاني (نوفمبر) أسقطوا فزيولوس

بنحو ٩٩٠٠٠٠٠ صوت إزاء ١٠٠٠٠٠٠ صوت ، ثم دعوا ملكهم قسطنطين الذي كان الحلفاء قد دخلوه منذ ثلاث سنوات ليعود فينبقوا العرش ، فكانت النتيجة الصافية أن اليونان باقت كابلاليا خارجة عن أرباب الصنفة ، أما الملك قسطنطين فقد استأف القتال مع الترك من تلقاء نفسه . فكان عمل اليونان هذا العمل مناقضا لتلك الموقف الذي وقفوه في عهد فزيليوس ، وعلى الجملة فإن الحلفاء باءوا بالخسران ، فردت كيدهم في نحرهم ، وسقطوا دون أمنيتهم التي حسبوها من الهبات الهينات .

في ذلك الحين كان مصطنعي كمال يجهد ليس لتوحيد قوته وسلطته في آسيا الصغرى فقط ، بل لاكتساب أحلاف له في الخارج ، ففي المقام الأول كان ينشئ علاقات وثيقة مع العرب الأمر الذي قد يبدو لأول وهلة من الغرابة بمكان ، إذ يرى أن العرب والترك هما العدوان بعضهم لبعض يتقلب من العداوة المرة إلى الصداقة الحلوة ، ولكن ذلك ليس في الواقع بالغريب ألبتة ، لأن السياسة الفرنسية للبريطانية هي التي قد خلقت هذه الأعبوبة ، وأنت بهذه الحارقة ، والسبب الذي من أجله عاد الاتفاق بين العرب والترك قد جلاه لورانس المعروف « بروح الثورة العربية » - حتى الجلاء ، فقد قال بعد فراغه من الخدمة العسكرية في بيان نشره في الصحف البريطانية : « إن العرب قد ثاروا في وجه الترك خلال الحرب العاتية ، ليس لأن الحكومة التركية كانت فاسدة فسادا شديدا ، بل أنهم ابتغوا نيل الحرية ، وراموا إدراك الاستقلال فلم يخوضوا المصعة لكي يستبدلوا سادة بسادة كأن يخوضوا لبريطانيا أو فرنسا . كلا . بل لكي ينشئوا لهم دولة عربية ، على أن هذه الحقيقة قد أفرغها أحد زعماء العرب وهو قائد من قادة النهضة الوطنية المشتغلين بالقضية العربية في قالب آيين عن القصد ، وأفصح عن الفرض ، وذلك في مقال نشره في صحيفة فرنسية راديكالية جاء فيه ما يأتي .

« ينبغي لفرنسا وبريطانيا أن تعلما علم اليقين أن العرب إنما هم للترك اخوان في الدين وتوحيدوا وإياهم توحدا سياسيا قرونا عديدة بحيث هم لا يرغبون ألبتة في الانشقاق عن اخوانهم المؤمنين ، وشركائهم المسلمين ، الذين هم وإياهم كانوا في الحروب الخالية يقاومون العدو جنبا لجنب وصفا إلى صف انشقاقا ليس من ورائه سوى خضوع أعناقهم ليدولة أوروية مهما كان شكل سلطان الحكم الذي تنقله هذه السولة فلذلك أي جدوى ياترى من القول الذي يقوله المسؤولون : لم يدر في خلدنا قط أن نعتدى بوجه من الوجوه على استقلال الأمة العربية ، فليس أحد من العرب اليوم يمكن إضلاله بمثل هذا التحويه وأخذنه بمثل هذا الخداع ان الهدنة وقعت على حسب الشروط والمبادئ التي أعلنها الرئيس ولسن ، ولكن لما ترضعت ألمانيا وتضعضع أحلافها معها دبت شروط الهدنة وعهودها كما دبت الأربع عشرة مادة بالأقدام ، على أن النكث الذي أصاب اليهود المقطوعة للعرب قطعا جزما لازما في منحهم الاستقلال التام ، تلك اليهود المكررة المؤكدة . نبرات من المرات قد حمل العرب والترك على الاتفاق من جديد واستئناف الإنهاء بحيث لم تمض إلا أشهر معدودات حتى تم ذلك بين الأمتين ، قد نستطيع فرنسا بحفظها جيشا مؤلفا من ١٥٠٠٠٠٠ ألف جندي في سورية ، وتكبدها اتفاق البسلايين من الفرنكات أن تخضع عرب سورية إلى ميقات ، بيد أن ذلك ليس جميع ما في الأمر ، ولا الضامن لسلامة العقبي ، حدود سورية . ترامية إلى مايلها من البلاد التي قطنها عرب وكرد وترك ، وعمدة إلى الصحراء الكبيرة ، فإذا ما شرعت فرنسا في قتال الأربعة ملايين من عرب سورية لم يبق ذلك مقصورا على قتال هؤلاء حسب بل يتناول قتال عدو عدده أكثر من ١٥٠٠٠٠٠٠ مليون عرب في منشترين في جميع الأقطار الشرقية من القبائل المسلحة الشديدة الشكينة ، الصلبة القناة ، هذا ماعدا الأمم الاسلامية الأخرى المجتمعة معهم في الوحدة المترامة الاسلامية ، والحامل على جميع ذلك إنما هو ارهاق الحلفاء وتوالي ضرباتهم الساحقة على غير رجة ، فان قال قائل : إن في هذا غلوا فما عليه إلا أن يواقع الحقائق الواقعة ويراهها عن كذب مستصرا مستغنيا ، ولكن

لعمرى أى نفع يرجى من الندم ولات ساعة مندم بعد أن تجرى السماء في الأقطار العربية أنهارا وغرابا .
وفي الواقع بانت الأدلة على الوفاق التركي العربي مشهودة جلية في مواضع عديدة ، غير أن هذا الوفاق
القاضي بمعاونة هؤلاء هؤلاء لم يعترف به علنا من جانب مصطفى كمال ولا من جانب الملك فيصل الذى أزل
من عرشه ، وجاء من بعد خروجه من دمشق إلى إيطاليا حيث طفق يوالى القيام بمناقشات سياسية ، مع هذا
فقد اصطفت العرب مع الترك جنبا إلى جنب في كيليكية وقائلوا الفرنسيين العدو المشترك ، واشترك الترك
والكرد مع العرب السوريين في إيقاد الفتن السورية التى ظلت تشب في موضع موضع ، وأما ما كان لمصطفى
كمال من اليد في إشعال الثورة العراقية على البريطانيين فظاهر ظهورا يفتى عن البيان . انتهى

الفصل الثانى فيما يقوله ساسة أوروبا وعلمائها

من أن الاسلام دين الحرّية ، وأن المسلمين أوّل الأمم في الحرّية من أى صنف كانوا
قال الحجة الثقة أرمينيوس قامبارى : « كان الاسلام وما برح الدين القاتق سائر أديان العالم شورى
وديموقراطية ، الدين الذى هو على السوام مصدر الحرّية وينبوع العدل وشرعة السواء ، فان كان العالم قد
شهد حقا منذ أوّل عهد العمران البشرى إلى اليوم حكومة شورى دستورية فهى لعمرى حكومة الخلفاء
الراشدين » اهـ

وقال محقق انكليزى كبير خبير في شؤون الشرق الأدنى : « إن بلاد العرب التى يضرب فيها البدو
الرحل هي البلاد الثمة في العالم المشتلة على صحيح الديموقراطية والشورى ، فالعرب فيها أبدا سادة ، حرّينهم
يزودون عن سياجها بشفار سيوفهم ، ومهيج أكبدهم ، وشبه الجزيرة هومنت الحرّية ، فلا تبيش فيها نبتة
الاستبداد » انتهى

وقال العلامة ليبار في شأن ثورة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨ م : « قال بعضهم إن تركيا لم تكن على
استعداد لنجيا الحياة الدستورية النيابية بعد الثورة ، إنما ذلك وهم شديد ، فقد كان لتركيا صران سابق
على الحياة الدستورية وكانت توافقة إلى إنشاء الحكومة النيابية ، وعلى جانب كبير من الاستعداد لذلك .
أجل مم أجل ، إن النظم الشرعية والمدنية التى كانت عليها تركيا إنما هي أفضل أسس بشيد عليه الحكم
النيابى ، كال محمد صاحب الرسالة الاسلامية يحتمل الحكم شورى بينه وبين صحابته ، وقد جرى العلماء
المسلمون وهم أقطاب الدين ، وقادة الشرح الشريف على هذا النهج ، ومارحوا هكذا حتى اليوم يتشاورون
ويستترى بعضهم بعضا في شؤون مصالح المسلمين ، فالشريعة الاسلامية هي ديموقراطية وشورى بطانها
وجوهرها ، وعدو شديد للاستبداد ، وباعتبارها شريعة أساسية ، فن شأنها إذن أن تتمكن الشعوب
الاسلامية كافة حتى أبعدها إغراقا في التدلى من إدراك معنى الشورى والدستور والنظام النيابى » .

ثم بين العلامة ليبار في موضع آخر أن السلاطين القدماء كان لهم « ديوان » وهو مجلس يضم أركان
الدولة والوزراء وأصحاب الحطط العليا والمناصب الكبرى يجتمعون فيه على مقتضى نظام في مواقيت معلومة
لمناقشة السلطان في شؤون الدولة وانداده بالمشورة الحكيمة ، وقد ظلت الحال هكذا أمدا طويلا حتى أنشئ
في العهد الأخير مجلسان : الأوّل يعرف بمجلس الدولة ، والآخى بمجلس الوزراء ، زد على هذا فقد أنشئ
مجلس نواب مرتين : الأولى في سنة ١٨٧٧ م والأخرى في ١٨٧٨ م ومع أن هذين المجلسين لم يعبشا
طويلا إذ قضى عليهما الاستبداد الجيدى ، فقد كانا على كل حال من سوابق المران القانونى والمراس الشرعى
على نظام الدستور والحكم النيابى .

وختم العلامة المذكور كلامه بقوله : « فلذلك يجب أن لا يعتبر اعلان الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ م

أمرا مستحدا مما لم يسبق له مثيل في بلاد اسلامية ، بل يجب اعتباره من النظام الاسلامي المألوف ، كان من قبل على ماهيته هذه ، ولكن نخرج به الآن إلى نطاق واسع وبحال أرحب » انتهى

الفصل الثالث

في أن أوروبا شورية في بلادها مستقلة في غير بلادها
وأهل الشرق والمسلمون لابد فآزرون

جاء في كتاب « حاضر العالم الاسلامي » ما يأتي : « وقد أجاد (ايونل كرنس) الكاتب الانكليزي الذائع الصيت أيضا إجابة في جلاء هذا القول وتصر به في كلام له في شأن الهند بين فيه أن التعليم والتهديب والتخيرات والتجيرات التي جاء بها الحكم البريطاني ليست بكافية بذاتها لإعداد أهل الهند إعدادا صحيحا للقيام بأعيان الحكومة النيابية ، بل الأمر على ضد من هذا ، فالعليم والتهديب ينقلبان خطرا كبيرا وبلية إجمالية مالم يقتربا بمنح الهنود أزمة شؤونهم السياسية وتبعها شيئا فشيئا ، إن الشعب مهما كان مهذبا راقيا لن يستطيع المران على فن الحكومة الذاتية إلا في حيز الخبرة الحقيقية المحسوسة والمباشرة الفعلية لافي حيز النظر والتصور والخيال . قد يقول بعضهم إنى لجوج في طلى الذى بينت فيه أنه يجب علينا الشروع في نقل السلطة شيئا فشيئا تولا صحيحا لاغش فيه من عاتق الحكومة البريطانية إلى عاتق حكومة الشعب ، وأنه يجب على مواطني الحكومة البريطانية في تلك البلاد أن يقوموا بكل مساعده ممكنة وعون مستطاع ومشورة صادقة للحكومة الجديدة التي تطلب منهم هذا بحق ، نعم يجب عليهم أن يسدوا كل حسنة إلى هذه الحكومة الفتية ، وأن يعطفوا عليها عطف الأم الحنون على وليدها وفلذة كبدها ، لا عطف القاتر المأجورة التي سواء عندها أعاش الرضيع أم مات ، وإذا ما أريد حقا تعليم هذه الحكومة الجديدة فن الحكم الذاتي ، وجب أن تكون حرة من كل جانب لامطلقة من ناحية ومصدفة بالأغلال من ناحية أخرى ، فإن لم يكن هذا فليس من سبيل إذن لهذه الحكومة الفتية لأن تشعرحق الشعور بأنها مسئولة لدى الشعب الذى هو من ورائها ، حتى ولا الشعب بمستطيع على هذه الحال أن يعلم وبوقن أنه هو المالك لنفسه من ضرر ونفع ، هذا ليجلبه وذلك ليدرأ عنه ، نعم ان السبيل شاقه ولكن الشعب الذى يذنى بمل إرادته حكما ذاتيا لا يقنى له الوصول إلى غرضه السامى وغبته الكبيرة إلا في الجهاد قائما أبدا ، واجتياز طريق الصعاب التي تشق عندها الأتقى وتركب الأهوال ، وربما إلى عهد طويل حتى يستطيع بعد جميع هذا أن يذوق طعم الاستقلال الصحيح ، ويعلم ماهيته فيطلب منه المزيد ، وكلما وفر نصيبه منه ازدادت عزته حتى تستقر فيه ملكة السيادة على نفسه . إنى لأغفر غمرا كبيرا بما جلبته بريطانيا العظمى إلى الهند من الخير والنفع من إنشاء النظام ونهيبته ، وجل أهل البلاد على العلم بأن الحكومة المنتزعة ما أعظم شأنها وأخطر مكائنها في عمران البلاد ، غير أنى على كل هذا لأعتقد أن النظام الذى أنشأناه وتمشينا عليه حتى اليوم يظل صالحا بعد دون أن ينقلب إلى مجلبة الضرر على أخلاق الشعب كما كان مجلبة الخير من قبل . يجب علينا وقد حان لنا أن نشرع في تأدية هذه الأمانة الكبرى إلى أهل الهند أصحاب البلاد من بعد ما حملناها على عواقتنا حقبة ليست بالقليلة ، تأدية مشفوعة بالصدق والاخلاص . يجب أن يكثر سواد الهنود في دواوين الحكومة من حيث يجب علينا أن نقوى ساعدتهم ، ونزيد حوطينهم ، ونعلى من مبرائهم ، وذلك لانهم إلا اذا مكناهم من التمرن على الواجبات التي تنقل إلى نطاقهم فلا مزيدا ، لأن صرمان الشعب على الحكومة الثانية ليس أمره كأمر الطلبة الذين يتلقون العلوم النظرية جلوسا على المقاعد . لاوصول إلى الغاية التي بينها حديثنا وزير الهند إلا بركوب المشقة ومعاناة الصعب في سبيل وعرة ، الأمر الذى يجب علينا العلم به حق العلم ، ذلك أننا قد استنظما

الوصول إلى هذا البور الحللى من مهمتنا في الهند بعد الغناء الكبير والانتباه إلى هذه الحال انتها. ملتئما كل الالتئام مع ما هو معروف لنا من التقليد ، وما بقى أماننا من القيام بالمهمة فأمر واجب علينا خدمة تاربخنا ولو كان في ذلك بذل لكل عزيز لدينا وقضية حتى لنفوسنا .

إن كلمات المستركرس الأخيرة يتبين معها ما هو واقع اليوم في الهند كما في سائر الأقطار الشرقية ، أن الحرب العمة قد ألحبت العصبية الجنسية الشرقية حتى تركتها لظي شديدا من حيث أوهنت السيطرة الغربية وزلزلتها شرّ زلزال ، ففدا مقبض أوروبا على الشرق مسترخيا استرخاء متواليا بدل على قرب الزوال ، وسواء كانت للعاقبة من بعد ذلك خيرا أم شرا ، فنقلص الظلّ أمر واقع لامرّة له ولا مدافع ، مما يدل على أنه لن ينقضى منذ اليوم جيل بل عقد من السنين حتى يفدو غالب الدول الاسلامية في الشرقين : الأدنى والأرسطا متمتعا بالحكم الذاتي وربما بالاستقلال التام لا عيب فيه ، أما التساؤل أنسى هذه الشعوب التي تصبح حرّة اغتلم الفرصة فتعود تتمتع معثار الاستبداد والفضوى ، أو تصبح حقا عالية الجبين في إنشاء الحكومات الدستورية للنظمة الثابتة فتنبعث هذه في طريق التقدم والارتقاء ، لذلك أمر سيكشفه المستقبل ، وإذ قد بينا لغاية الآن العوامل المختلفة العاملة في أفق تطوّر السياسة ، سألها وموجبها ، ندع القضية متناقة في بحرها الطبيعي بهذه العوامل ، مراقبين قلبها المستمر في هذا الدور دور التحوّل ، ونقتل للكلام على العصبية الجنسية .

الفصل الرابع

في هياج العالم الاسلامى

قال المؤلف المذكور في صفحة ٨٩ وما بعدها مانصه : « كان للعالم الاسلامى (قبل أن أخذ يصطدم بالغرب النصرانى الاصطدام الأكبر خلال القرن التاسع عشر) حاججا هجعت التي قد تقدّم الكلام عليها بعيدا من التنبه القومى ونورة العصبية الجنسية ، وكان غالبه منقسبا إلى امارات متناثرة ، ولكنها قوية المراس شديدة الشكسية ، وأن ما كان في نفوس قطينه وما كنه من العاطفة الوطنية إنما كان متجها نحو السلالات الحاكمة على نحو الحالة التي كان عليها سلاطين الترك العثمانيين ، غير أنه كانت مظاهر العزة القومية ومبادئ الشمم والإباء جلية في قلب العناصر كالأمة العربية (أمة الرسالة) إذ في العرب كانت أسباب العصبية الجنسية على بيان في الظهور وقوة في الاضلال والنمو ولكنها كانت متفرقة وغير منتظمة تنظما كافلا لا تتلاف المزاج الذي تصدوبه العصبية عاملة فعالة ، أما الشعب الاسلامى الذى كان حقا يمتشى في عروقه ما ينبئ لنا تسميته بروح العصبية الجنسية الصحيحة ، فهو الشعب الفارسى حبيب بلاده ، وعاشق موطنه القديم ، وأما سائر الشعوب الاسلامية فقد كانت على شىء من مبادئ الشعور الوطنى واليقظة الجنسية والروح النزاعة إلى الوحدة والتضامن ، وكانت هذه الروح مستعمدة بأسبابها للارتقاء والاتساع حتى تبلغ دور العمل الصحيح والحركة المؤثرة . على أن في الأمر اعتبار آخر ، ان الاسلام قد نهى في مواضع عديدة عن العصبية ، فلما انتهت الشعوب الاسلامية إلى هذا العصر عصر العصبية الجنسية ، بات الفرض الذى يفرضه الاسلام على المؤمنين أن يكونوا إخوة متضامنين متساوين لا فرق بين عربيهم وبين مجهم ، وأصححت للغاية السياسية المقصودة في الاسلام من وحدته الاماحة الكبرى ، أولشورى للشرعية العامة أمرها مقاوما بطبيعة الدور والزمن بسبب إنشاء القوميات المستقلة والعصبيات المتنازعة في الملة الاسلامية كما كانت الحال في مبدأ عصر النهضة في أوروبا إذ كانت للنهضات القومية في مطلع ذلك العصر تصطدم اصطداما عنيفا بالعقائد الدينية الشائعة ، والآراء الدائرة حول وحدة البابوية والملكية الرومانية المقدسة ..

وقال أيضا في صفحة ١٣١ وما بعدها من الجزء الثاني مانه : « غدت الحياة السياسية في أقطار شمال أفريقيا المختلفة العناصر والاصول حياة اضطراب تعثر بها الانشقاقات والانقسامات ، وكانت مراكش ومغربت أكثر الأقطار الافريقية الشمالية وحدة والتثابا ، وثباتا في مجموعها السياسي ، مع أن سلطة السلطان الخالفة حتى النفاذ لم تمتد قط يوما إلى الجبال التي تقطنها القبائل المختلفة ، وأما الممالك المعروفة بالممالك البربرية (الجزائر وتونس وطرابلس) فقد كانت أكبر قليلا من الثغور البحرية تمتد على طول السواحل ، وأما البلاد الوردانية فقد كانت متمتعة بالاستقلال الهدوي التام ، على هذه البلاد للتبليط طفق الفتح الفرنسي يتدفق فبدأ غلغرها الجزائر سنة ١٨٣٠ حتى انتهى بمراكش اليوم ، إن فرنسا قد أرخت على البلاد سيطرة ، وكنيتها نظاما ونجحها ماديا ، غير أن هذه المنافع والفوائد التي أتت بها السيادة الأوروبية في هذه الأقطار الافريقية كما في غيرها من الأقطار الشرقية قد كان من شأنها أن خلقت نوعا حديثا من الوحدة والتضامن والتماسك بين أهل البلاد حتى يندوا جميعا على مستوى متماثل في الاجماع على شناعة الفاعم الأوروبي ، وعلى نيل المطمح العام الذي يطمحون إليه وهو الاستقلال والتمتع بالحكم الذاتي بعزل عن السيادة الأجنبية بنة ، لذلك قد شهد العالم خلال الجبل الماضي نشوء « الجزائر الفتاة » و « تونس الفتاة » . وفيها الأحزاب السياسية يقودها رجال فرنسيون من أهل العلم والتهدب للتشجيع كل التشيع بمقائد الحكم الذاتي والحريية . أما للتصحة التي تتجهه هذه الأقوام في نهضتها فهذه غاية أمل إلى إنشاء الوحدة الافريقية الشمالية الكبرى مم إلى الجامعة الاسلامية العظمى كما تقدم الكلام على هذا منه إلى إنشاء أمة تونسية أو جزائرية منفصلة عن غيرها من سائر الأمم الاسلامية ، ولا يميزون من الببال أن جميع هذه الشعوب والأمم إنما هي على صلات شديدة وروابط متوائمة توائما كبيرا مع السنوسي ، تلك الصلات والروابط التي قد أسلفنا الكلام عليها في قسم الجامعة الاسلامية .

مبجزة جديدة لم تعرف من قبل

مقالا بهما يظهر لنا بوضوح حديث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »
 ويفهمنا حقا معنى : « رحله بينهم » والحق يقال ان هذه أجل مبجزة اسلامية ،
 فلو نزل لأوروبا اذا جهات هذا

قال أيضا في صفحة ١٥٠ وما بعدها مانه : « مما لا ريب فيه أن الحرب العاتقة قد هاجت الجامعة العربية هاجا شديدا ، وبشت فيها قوة كبيرة ، ولا سيما بما قضت به الحرب من إنشاء مملكة عربية مستقلة في الجزائر ، مدلية بحقوق لها في سورية والعراق ، وقد غمر الشعوب العربية المختلفة طوفان من أطماع والاضطراب ، والفرح والمرح هنا وهناك ، وثارت تطلبات الاستقلال ، والتطلبة نحو استقلال السيادة الأجنبية ومحوها محو تاما ، وهي السيادة البريطانية والفرنسية والابيطالية المنتشرة في مصر وسورية والبرلق وطرابلس المغرب وسائر الأقطار العربية بموقد استغرق ليلياج هذه البلدان جميعها لاستفراة يحصل تلك الناية الكبرى المتوخاة من الجامعة العربية وان كانت لم تبرح طملا شديدا غير ظاهرة كما كانت من قبل في صهر البرابج التي في أيدي رجال العرب القاميين بالنهضات القومية الوطنية ، القرائدين عن حوض العصية الجنسية العربية . زد على ذلك أن الجامعة العربية مشبكة الشبيح (كما قلنا قبلا) بمبدأين عظيمين شاملين ، لا يختصان بمصرية أو جنسية دون أخرى ، وهما مبدأ الجامعة الاسلامية وجامعة للسهوات الجنسية الاسلامية ، وأصل هذا المبدأ الأخير يدلونا نحن الغربيين موضع التناقض القريب من حيث هو ليس كذلك عند الشرقيين ، إن الشرق وان استمسك جهده بمبادئنا وأفكارنا في الجنسية والوطنية ، واتعمل ما اتعمل من مقائدها فيما ، فهذه المبادئ والأفكار والمقائده اذا انتقلت إلى الشرق تشرتها القبول الشرقية الملائم بصنف آخر

من المبادئ والعقائد الرامية إلى الوحدة الإسلامية وتآخي جميع المؤمنين على اختلاف الأقسام والفرق بحيث نشأ عن ذلك التلبس الجامع بين القديم والجديد ، وحصل التلون المختلف إلى حد غدا عنده المسلمون متى ما استعملوا الكلمات التي نستعملها نحن مثل « الجفسية » و « الجفس » ذهبوا في فهم معنيهما مذهبا مختلفا لمذاهبنا ، وقص على هذه الاختلافات والفروق التي بيننا وبين الشرقيين ما هو شائع في أفق جميع المبادئ والعقائد السياسية ، فذلك مثلا كلمة « الدولة » فإن الدولة الإسلامية التي يصح اتخاذها مثلا للمقارنة ليست كالدولة الغربية المشتمل بتحديداتها على وحدة معينة من الناس وأرض يسكنونها مقررة الحدود وسلطان ممارس نافذ تمام النفاذ في كل مكان داخل حدود الدولة ، بل إن الدولة في الشرق الإسلامي إنما هي كناية عن كلمة قلت أم كثرت ، غير مستقرة الشكل ولا النصاب ، ولا منتظمة التركيب ، لها نواة مركزية هي مصدر السلطة المنبثقة منها انبعاثا مشتملا على معنى الاستقلال المهم التحديد ، فعزبه آفات الفوضى ويشوبه الاختلال ، ومن المعلوم أن غالب الدول الإسلامية ما برحت منذ نصف قرن تجتدي في تنظيم حكوماتها ، واصلاح شؤونها ، وسائر أحوالها ، ناسجة في ذلك حتى متوال الدول الغربية ، غير أن المنازع التقليدية لم تبرح حية مشهودة المثال كإفغانستان حيث إن القبائل التي عند الحدود الهندية الشمالية الغربية ، وهي قبائل أفغانية تمتلك استقلالها عمليا صحيحا ، كانت تقوم من تلقاء نفسها في المدة بعد الأخرى بشوق غارات عنيفة على الانكليز ، غارات حروب استطاع أمير أفغانستان أن يتصل من تبعها تنصلا انقطع عنده دهاء الانكليز ، والأمر كذلك في الجفسية عند المسلمين ليست الولادة في البلاد ، ولا التجنس على الأصول الرسمية شرطا لمن يريد أن يكون فردا من أفراد أمة إسلامية في قطر من الأقطار . تمتعا حتى تمتع بمقوق الجفسية الإسلامية ، فوطن المسلم هو العالم الإسلامي من أخصاء إلى أخصاء ، لذلك يستطيع الهابط أية بلاد إسلامية أن ينال للعامل أي وقت شاء حقوق الوطني المكرم ذي المقام والمزلة بين ظهرائي القوم ، فالعبارة : « مصر للمصريين » مثلا لا تعني ذلك المعنى بعينه الذي تصوره نحن في الجزائر المتباد ، فإذا ما أقام مسلم جزائري أودمشتي في القاهرة فليس هناك من حائل يحول دون نصرته وسلوكه واعتباره « مصريا وطنيا حرا » بصحيح المعنى والعبارة ، والسبب في ذلك أن من منازع الإسلام على التوام صيانة الوحدة بين المسلمين ، الوحدة الدينية والجغرافية الإقليمية ، جميع الأقطار والممالك والبلدان الإسلامية معروفة عند المسلمين « بدار الإسلام » (وضدها دار الحرب) وهي المواطن التي قاطنها مسلمون يجب عليهم باعتبارهم أمة واحدة متحدة اللب عن سياجها والنياد عن حياضها ، وهذا هو السبب في أننا نرى أنه كلما أصاب اعتداء أجنبي طرفا من العالم الإسلامي هاج الطرف الآخر واضطرب وقام وقعد على غير أن يكون هناك اشتراك في المصلحة المادية بحمله على ذلك كأنما المعمور الإسلامي جسم واحد باعتلال عضو منه تتأثر وتمتل سائر الأعضاء ، ترانا بعد جميع ما تقدم نستطيع أن نفهم كم هناك من المفكرين من المسلمين .

وقال في صفحة ١٥٤ وما بعدها مانعه : « ولعمر الحق ليس من الغرابة في شيء أن نرى الشرق وقد لوتت نفوس شعوبه وأمه بضروب من المطامح القومية والآمال الاستقلالية التي هاجتها الحرب الكونية أعظم هياج فسيرتها تارا ذات طيب أن ينقلب بسبب خاتمة الحرب التي نزلت عليه ويلا عجميا وبلاء شاملا ، مرجلا شديد الفيلان فوزا ، وبركانا ثائرا ؛ من المعلوم البين أنه قد كان من المستطاع عند مصالحت سليمة من النقائص والمشايخ ، وذلك بالجرى على السياسة الصحيحة الشريفة النسيج ، السوية النهج ، لكن مؤتمر فرسابل السلي كان وبالأسف الشديد متجهدا عن كل سياسة رشيدة ، ونسوبة حكيمة ، وحصافة في الرأي ، ونظر بالعواقب ، فنجم عن ذلك أن تلك التسويات الفاسدة التي وضعها هذا المؤتمر قد حبطت همة حبوط ، ليس في ضمان السلم لأوروبا بحسب بل كان من شأنه إناطة اللثام ورفع الحجاب عن موقف الشرق

الحقيقي إزاء الشرق ، ذلك الموقف الراجح الذي عاد فظهرت فيه تلك الروح التي عرفت قبل الحرب ، روح التوسع الإمبراطوري والجشع الاستعماري ، روح استلاب الشعوب وارتهاقها ، واتباع ما بين أيديها وما خلفها واستنزاف دماؤها ، وشدة الأخقة على ماجول رقبتها ، زد على هذا أن الحلفاء الظافرين طفقت بصائرهم قهقهة أشد العمة ، غير معتبرين شيئا من التطورات انفسانية الهائلة التي حدثت في الأمم الشرقية من جراء الحرب فلم يلجئوا إلى تبديل موقفهم بأفضل منه على ما تقتضيه الحال المستجدة ، وإلى انتهاج نهج سياسي خير من ذلك الذي اتبعوه قبلا ، بل ظلوا على الضيق في معاملة الشرق بالخفة والازدراء ، كأنهم يحسبون أن الحرب العظمى التي أتت من فدح عيشها الثقلان ، ومادت من شدة وطأتها وكابوسها هذه السيرة الأرضية ما كانت سوى مسابجة ومناوشة ، وأن آسيا ما برحت ذلك الجبار الذي تعرق في هيجته كما كان منذ قرن خلا .

أجل ، شرع الحلفاء يستهزئون بما كانوا قد نشروه خلال الحرب من أنواع التصريحات التي قرعوا بها أسماع الشعوب مئات من المرات ، وضمنوا بها قواعد الحرية وأساس العدل ، وأقبلوا يخفون بعودهم التي قطعوها لشعوب الشرق الأدنى في تقرير المصير خلال المعمان الأكبر ، وطلقوا ينشرون على الملأ سلسلة من المعاهدات السرية (المقودة بين بعض وبعض منهم في الحين الذي كانوا فيه يصرون بالنياد عن الحرية وتقرير المصير) وأرادوا بمقتضاها تقسيم الإمبراطورية العثمانية ، إشباع لشههم الكلي ونهمهم الوحشية ، متهئين شرّ امتنان إرادة أهالي البلاد ورضيتهم فيما يشتهون أن يكونوا عليه من الحكومة ، وكان مؤتمر فرساي كشافا عن واقع المقاصد السيئة والأغراض الحيثية التي انطوى عليها الحلفاء ، إذ تجلى ذلك بتلك الطريقة الخداعة التي العزم جانبها المؤتمري رفضه قبول وفد إيران الذي أوفدته حكومته لسط القضية الإيرانية (دايران كانت ما برحت مستقلة استقلالاً اسمياً ظاهراً) فكان من الأمر أن جعل المؤتمر الوفد على البقاء في باريس مدة جعل يعطه خلالها بالسراب الذي يراه المسافر فيحسبه ماء بينما كانت الحكومة البريطانية تشد الحناق على عتق حكومة الشاه في طهران إلى أن أكرهتها إكراهها على إبرام اتفاق باتت إيران كلها بمقتضاه بلادا محمية في كنف الإمبراطورية البريطانية ، وأما المصريون (الذين كان دأبهم وديبتهم على الدوام تزجية الاحتجاجات على الحماية التي أعلنتها بريطانيا منفردة من تلقاء نفسها في مصر سنة ١٩١٤) فقد أوفدوا إلى باريس وفدا لسط قضيتهم ، فرفض مؤتمر فرساي الاضاحة لأقوال الوفد ، بل أقههم رجاله أن المؤتمر إنما يعتبر الحماية البريطانية في مصر أمرا قضى وحكما أبرم ، فنجم عن جميع ذلك ماعدة نتيجة من نتائج الحرب وهو أن السيطرة الأوروبية على الشرقين : الأدنى والأوسط قد شدت أطناها ، وتوطدت عمدها ، واتسعت آفاقها ، من حيث كان يجب تهوين خطب الاستعمار وتضييق ظله .

بيان أن فرنسا وانكلترا بعثتا الحماية في نفوس العرب

فأحرق الأتتين نار تورثهم

وقال في صفحة ١٧٣ وما بعدها من الكتاب المذكور مانص : « من المعلوم أن هذه الخدعة الكبرى التي قامت بها بريطانيا وفرنسا على مسرح المسكر من وراء الستار لم يكن للعرب علم بها ، ولا وقفوا عليها بل أبرمت خفية عنهم من حيث ان بريطانيا جهدت كبير الجهد ، وبذلت غاية استطاع طياح الآمال الاستقلالية في صدور العرب واثارة العصبية والمطامح القومية في نفوسهم ، فكان ذلك خير وسيلة ، وأجمع ذريعة ، لاستئثار نفوسهم في الثورة بما يسهرون إلى مجال الحرب ، ويلجئون إلى مقاتلة الترك وخضد شوكتهم ، وأنفذت الحكومة البريطانية إلى العرب عددا من نخبة الضباط المختارين أشهرهم الأمير الای لورانس الذي

التي الوديع النابه الشأن ، التي ما أسرع ما نال من فاذ الكلمة والسلطة على أمراء العرب وزعمائهم
 مما لا حد له ولا غاية حتى دعي « زرع الثورة العربية » لكن هؤلاء الضباط الأكفاه العارفون بشؤون العرب
 والمعروفون بميلهم إليهم وعطفهم عليهم ، إنما قد اختيروا ليقوموا بما اتدبوا إليه من حيث لم يكونوا هم
 أنفسهم قد وقفوا ولا اطعموا على المعاهدات السرية التي عقدت خفية عن العرب ، وكان القصد من ذلك في
 الواقع أن لا يبروهمة هؤلاء المستعربين فنور ولا انكسار ، ولا يثلم وفاؤهم للعرب بينما هم يستغيرونهم عنهم
 ويستوقدونهم نار القتال ، وكلين القواه البريطانيين لا يفتككون عن تزجية الوعود للعرب مودعة في
 المنشورات والتصریحات التي كانوا يذيعونها أخفا بعضها برطب بعض ، ثم تمت خاتمة هذه الرواية عند نهاية
 الحرب فأصدرت الحكومتان البريطانية والفرنسية ، مشتركين معا منشورا أذاعته في جميع الأقطار العربية
 جاء فيه ما يأتي : « إن الغاية التي من أجلها خاضت فرنسا وبريطانيا في معان الحرب في الشرق ، الحرب التي
 أنزلتها على العالم المظلم الألمانية هي أن نضمنا لجميع الشعوب التي طال عليها عهد الجور من الترك محريرهم
 من الاستعباد محررا تاما باقيا ، وأن تنشأ حكومات وإدارات وطنية تستمد سلطانها من رغبات الشعب
 وأرائه المطلقة دون منازع » فلم يلبث أن برح الخفاء ، وبجلى المستور ، وبان الصبح لدى عينين ، فبذلت
 الخلة غير الخلال ، عند ملووضت الحرب أوزارها ، ورجعت السيوف إلى أغمادها ، ومزق المدوشة بمزق
 واتمت الرواية ، وأرخى الستار ، الستار الذي تبنت حقائق نيات الخلفاء ومقاصدهم منقوشة فيه نقشا جليلا ،
 فقرأها العرب وطمسوا الأسرار ، ووقفوا على بواطن الأمور ، بعد أن أخذوا بظواهرها ، وظهرت الجنود
 الفرنسية تحت شاطئ سورية ، وعلم العرب حق العلم كيف خدعوا وختلوا ، وغشوا ، فذعروا وأجفلوا ،
 وقاموا وقعدوا ، وأرغوا وأز بدوا ، واشتمل غضبهم ، وهاجت هائجت الثورة في نفوسهم . ولولا أهل الصحافة
 والروية من زعمائهم ، ولا سجا الأمير فيصل بنجل شريف مكة المكرمة ، الأمير الذي برهن حق البرهان على
 فائق كفايته لقيادة الرجال والقتال في الحروب ، والذي استطاع الآن أن ينزل من بني قومه ، منزلة لا ينازع
 فيها من النفاذ وعزة السلطان لربما انفجر بركان العرب وتطابروا من جمه ما أطب البلاد جميعها ، لكن فيصلا
 كان يعرف مبلغ قوة الخلفاء العسكرية ، فأيقن أن ركوب الحرب معهم إنما هو سركب خشن ، وغاية في
 الاستهداف والمخاطرة ولا سيما في آونة مثل تلك الآونة ، وإذ أدرك حق الإدراك قوة العرب المنوية بالأدوية
 في ذلك الموقف الذي كانوا فيه طلب من أبناء قومه وبلاده أن يقوموا في بسط القضية العربية والدفاع عنها لدى
 مؤتمر السلم الذي كان على وشك الانعقاد ، فقام بهذا الأمر راجيا تنجية البلاد من يوم عصيب ، فظلت الأقطار
 العربية خلال سنة ١٩١٩ هادئة ، ولكن هدوء الانتظار على ارتياب ، والتارحت الرماد ، والأمير فيصل
 بسط لدى مؤتمر السلم قضيبته ببلاغة معنى ووضوح منطق بحيث بموقفه الوقار ، لكنه لقي خيبة في المسعى ،
 إذ اشتمل عهد عصبة الأمم على بيان دال على الرفق والمطف وذلك أن الأقوام المعلومة التي كانت من قبل
 في الحكم التركي ، وقد بلغت من الارتقاء مستوى يستطاع عنده الاعتراف بكيانها أمما مستقلة استقلال معلقا
 عليها أن تتلقى المشورة والمساعدة الادارية من دولة منتدبة حتى يأتي يوم تصبغ فيه هذه الأقوام قدرة على
 السير بنفسها فيطلق حبلها إذ ذاك على غارها . ثم فقه العرب معنى الانتداب واكتهوا ماهيته وسرته ،
 وقد كان من شأن لويد جورج أن يجود ببعض العبارات المنمقة والجل الرائقة مثل قوله : « إن العرب قد
 وفوا حقا بعهودهم ، وبروا بوعودهم ، لبريطانيا العظمى ، فيجب علينا إذن أن نقابل الاحسان بمثله فنتي
 بعهودنا ونبر بوعودنا لهم » غير أن العرب كانوا قد قرءوا المعاهدات السرية واطلموا عليها فبان من العت
 والأفن بعد محاولة اصطيادهم بالأشراك والأحاييل مرة أخرى ، إذ عاد الختل من الذرائع الباطلة ، وأمسى
 الخداح من الوسائل الكاذبة ، وبالتالي علم العرب علما مكينا أنه يجب عليهم الاعتماد على نفوسهم وقوة

صواعدهم ، وساعدهم وبجاهيدهم ، وذلك إما في مجال السياسة ، وإما في مجال الحرب . انتهى ما أردته من كتاب « حاضر العالم الاسلامي » والحمد لله رب العالمين .

نظرة عامة في هذه المقالات

تلك المقالات المنقولة من ذلك الكتاب الذي حرره رجل عالم أمريكي نظر نظرة عامة في الاسلام : « إن أكثر المسلمين يعيشون ويموتون ولاهم يذكرون ، يعيش المسلم غالباً وهو يجهل تركيب أعضائه وجاها ونظام العالم المحيط به ويجهل تركيب جسم الأمة الاسلامية التي هو عضو منها وأن كاتب هذه السطور أحد المسلمين المساكين الذين يجهلون نظام أم الاسلام ، وما أقبح الجهل وما أفضله ، أفليس من المؤلم أن يجهل ونحن في مصر (المشهورة بالعلم) بلاد الاسلام وما حصل فيها ؟ ثم يأتي رجل نصراني قد درس هو وقومه بلادهم وعرفوها ، ثم أخذ يدرس أم الاسلام ، وأنا الساعة أهل عنده ، فكيف نفهم معاشر المسلمين قوله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » ، ماهو هذا الظهور ؟ وما مناه ؟ ثم فهمه الآن يقول رجل بعيد عن الفرض لأنه ليس مسلماً ، فإذا يقول ؟ يقول فيما قدمناه :

(١) - « إن أحد المبشرين الانجليز منذ (٢٠) سنة يقول : إن الدعوة النصرانية باتت خرافة من الخرافات .

(٢) ويقول : إن مبشراً بروستانيا يقول : « إن الاسلام يسير في سبيله منذ بدايته إلى اليوم فلم يثر في سبيله إلا القليل ، وهو لا يثقت المسيحية ، فلذلك فاز فوزاً ميبناً ، النصراني يحمون بفتح أفريقيا في القدم وفتحها المسلمون في العالمة .

(٣) ويقول : « إن نيوزيلانده مبشروها من عرب وتجار ابتداء ذلك منذ (١٩٠٠) سنة) وبعد عشرين سنة أصبح في كل قرية مسجد ، ومدونة اسلامية ، ومعلمون مسلمون ، الانجليز هجروا عن مقاومتهم .

(٤) ويقول بعض المفكرين الغربيين بعدهم بمئة قليلة : « من الآن يجتاز الاسلام زيمباري وينتشر في جنوب أفريقيا فيطبق القارة بأسرها » .

(٥) ويقول : « الاحلام يهجم على المسيحية كما هجم على الوثنية ، إذ أصبح الذين تنصروا في غرب أفريقيا على يد المبشرين يدخلون الاسلام ، بل الحبشة أيضاً تسل بعد أن كانت سداً منيعاً »

(٦) « منذ خمسين سنة ما كنت ترى في الأبحاش مسلماً واحداً ، أما الآن فغاليتهم مسلمون »

(٧) « ظفر الاسلام اليوم في أفريقيا عظيم » .

(٨) « إن التتار بعد أن ظلم الروس بعض المسلمين ونصروهم هبوا فأرجعوا اخوانهم جميعاً للاسلام في القرن التاسع عشر لما استيقظ المسلمون .

(٩) ومقال العالم (فريدو) ملخصه أن الحرب العاقمة لم تصيح ظفراً لأوروبا ، بل صارت ظفراً للشرق وأشار إلى قيام الصين والأفغان والهند ومصر ، وأن روسيا التي كانت سبب إذلال فرنسا وانكسارها للشرق قد أصبحت بعد الحرب الكبرى نصيرته ، أقول : وملخص هذا كله قوله تعالى هنا : « ليظهره على الدين كله » ، فبينما الاسلام ينتشر في أفريقيا شرقاً وغرباً اذا آسيا بزول الكابوس الذي كتم أنفاسها فاتعش الاسلام .

(١٠) ويقول : « ظلم أوروبا أوقد نار الجامعة الاسلامية ، ومثاله ما حصل في طرابلس من اجتماع الترك والعرب على مناوأة الطالبان .

- (١١) ويقول : « الحرب البلقانية زادت تقارب المسلمين » .
 (١٢) « إن مصطفي كمال بعد أن عززت الدولة العثمانية غلب أوروبا بأكملها ، وقال لهم : أنا أحارب العالم كله ففاز ، وهذا نصر للإسلام » .
 (١٣) واتفق العرب والترك سرا ، وحاربا معا في كيليكية ، وإن كانوا لم يظهرها ذلك .
 (١٤) ويقول أرمنيوس : « إن الدين الاسلامي هو الدين الفائق سائر أديان العالم شورى وديموقراطية إلى آخره » . أليست هذه الجلة من حجة ثقة عند أوروبا بأجمعها هو نفسه معنى قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » ، وهذا عجب يارباه ! أعيش في مصر بلادى ، وأجد كثيرا من الطبقة المتعلمة لا يصلون الصلاة المفروضة احتقارا للدين بسبب انتشار البشريين بيننا ، ثم أسمع هذا العلامة في أوروبا يقول : « إن هذا الدين يفوق أديان العالم » أليس أمثال هذا القول وما تقدمه أكبر معجزة للقرآن في هذا الزمان .

- (١٥) ثم يقول أيضا : « إن جزيرة العرب - فظت الاسلام والحريه الخ » .
 (١٦) ملخص كلام المستر (كرتس) : « أن أوروبا لن تبقى طويلا في الشرق ، ولا يعضى جبل بل عقد من السنين حتى تصير الدول الاسلاميه متمتعة بالحكم الذاتي » .

هذه زبدة مستخلصة من هذه المقالات عرضتها عليك حتى يحضرنى عقلك أيها الذكي منظر العالم الاسلامي العجيب ويظهر لي أنك متعجب من هذه الأخبار ! وتراها غريبة عليك كحالي حينما كنت أقرؤها ، نغذا جلية خالصة ، فأنت الآن تقرؤها واخوانك المسلمون في أقطار الأرض يقرؤونها ، وهل بعد هذه الأخبار يبقى ذل لأمة الاسلام ؟ كلا . ثم كلا . أنا أكتب هذا وقد ظهرت لي أمة الاسلام شرقا وغربا كأنهم في خيالي قدر بطنتهم رابطة الاخوية العامة كما قال تعالى « إنما المؤمنون إخوة » ولقد ظهرت الآن ظهورا وانفصا .

خطاب المؤلف

أيها المسلمون : أتم سادة هذه الأرض ، أتم الظاهرون فيها . أيها المسلمون : أوروبا نحن علمناها وهامى ذه تظهر علمنا لنا نغذوه . أيها المسلمون : أتم رجاء ، واعلموا أن الأمم ستبلغ رشدها ، فكونوا أتمم القدوة ، وانثروا السلام ، وهل تنثرون السلام وأتم ضعفاء ؟ ستكونون أقوياء فتهاجم الأمم لقوتكم ، ويحجم لرحمتكم . إياكم أن تكونوا كأوروبا الشرهة الظالمة ، بل كونوا راحة للعالمين .
 أيها المسلمون : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » عجب لأمة الاسلام ، ولدين الاسلام ! هذا الدين الذي نزل من السماء نورا مشرقا ، وما كاد يصل إلى الأرض ويسير قليلا حتى امتزج بالظلام ، وأول هذا الظلام الاختلاف والشجار الذي وقع بين عظماء الأمة لأجل الخلافة ، فقشاجر الأمويون والعباسيون والعلويون أمدا طويلا . ثم ذهبت الدولة كأمس الدابر ، وبقي العلم والمكن في الوقت الذي فيه كانت تختصر المملكة العباسية أخذ العلم يرجع التهقرى ، فرأينا الحكمة نامت نوما عميقا ، وفي بلاد الأندلس وشمال أفريقيا نبي ابن رشد ، وبات الذي يقرأ الحكمة مذموما . مدحورا ، فهرب العلم من وجه المسلمين إلى أوروبا وهاموا رجع إلينا ثانيا .

إن المسلمين اليوم أرقى منهم في كل زمان بمد عصر الصحابة والتابعين

وكيف لا يكونون أرقى من السابقين في ألف السنة الماضية ، وهم اليوم يقبلون كل علم وكل حكمة ، اللهم لك الحمد ، ولك الشكر ، ولك النعمة ، أنت اللهم المتفضل ، أنت تحفظ الجليل والحقير والكبير والصغير

يا أمة : نراك جعلت الجواهر الفرد مملوءة من القوى المدخرة التي لو أطلقت منه لنفعت العالم سمه ، نراك رحمت الخلة وأعطيتها أعينا تعد بالثبات ، والغبابة أعينا تعد بالألوف ، وأبدعت هذه العيون كما أبدعت عين الانسان ونظمتها تنظما بدعا تقدم بعينه ، وسيأتي قريبا ما هو أجل ، فهل بعد هذا وبعد ما جاءنا من الأخبار عن أمم الاسلام يدخل في قلوبنا وهم أوشك أنك ترك هذه الأمم ، فهل الذي برعى تلك الحضرة الحظيرة لا يرعى هذه الأمم الكبيرة ؟ إنك ترمى المسلمين ، إن وعدك حق وصدق ، هاهوذا القرآن ظهرت مجزاته ، هاهم أولاء المسلمون متحفزون ، أليس من أعجب العجب أن يحتفي العلم بعد نفي ابن رشد بالأندلس فيظهر في الشرق وفي الغرب رجال عظام ، فيظهرون باسم الصوفية ويزعمون العلم المشهور ، ويعلمون الناس بقدر إمكانهم كحجي الدين بن عربي رحمه الله وأمثاله ، ونرى نفس ذلك المصير يظهر فيه السيد الرافعي الكبير ، والسيد عبد القادر الجيلاني ، والسيد أحمد البدوي رضي الله عنهم أجمعين الذي تحمفل الأمة المصرية بمولده الآن (جداى الثانية سنة ١٣٤٩ هـ) وهو من ذرية السيد محمد الباقري بن علي زين العابدين ابن الحسن بن علي رضي الله عنهم أجمعين ، وقد ولد في فاس (سنة ٥٩٦ هـ) وتوفي بطنطا ببلادنا المصرية ، قالسيد أحمد البدوي قد اجتمع بالجيلاني والرافعي في بلاد العراق ، أفليس من عجب أن نرى القرن السابع يظهر فيه ابن الفارض ، والرافعي ، والنسوق ، والسيد أحمد البدوي ، وابن عربي ! فهذه ثمان قرون مضت ، وهؤلاء لهم القدح المعلى في الاسلام ، فإذا جرى اذن ؟ أصبحوا هم وأصبح كثير غيرهم لهم عجائب وغرائب وكرامات لم تنقل عن رسول الله ﷺ ولا عن أصحابه ، فهؤلاء الصلحاء العظام أصبحوا بعد موتهم قبة الأمة ، لماذا ؟ لأن كراماتهم لا نظير لها ، فمنهم من يأتي بالأسرى ، ومنهم من يحيى الموتى وهكذا ، قلنا في الصفة ذلك بالقبول ، وسارت الأمة أجيالا وهي فرحة برهبها ، لأن جلاله وحكمته يظهر بخوارق العادات التي يظنون أنها أعظم مظهر للألوهية ، وسججوا عن جلاله الحقيقي ، وهي عجائب السموات والأرض ، ونظام هذا العالم .

إن كل نفس تواقفة إلى الجمال ، والجمال التكويني إنما هي عجائب السموات والأرض بالعلوم ، فلما طمست البصائر ، ونامت الأمة ، حوت عقولها إلى أكاذيب وخرافات تفرح بها الصبيان .
 فيعجب ارباب : دين يفند نذا ، ولا يعرف الناس إلا خرافات منسوبة إليه ، ثم يبقى إلى زماننا هذا ، ثم نراه ينتشر انتشارا مدهشا ، أليس هذا أيضا من العجب اثم نرى ما كتبه الآن في التفسير مقبولا مع أنني لم آل جهدا في مزج الفلسفة به والمسلمون يتقبلونها ، هاتم أولاء أقبلتم على زمان العلم هاتم اقرءوا كتابيه ، أنا أحمد الله عز وجل إذ جعل هذا الكتاب فاتحة خير لأمم الاسلام التي نعطشت العلم ، ولا يحصى لها منه ، بعد أن أحاطت بها أوروبا ، ورأت مخترعاتها وعلومها ، فاسلام بلا عمل لا بقاء لأهله بعد زماننا ، والمسلمون في المستقبل حقا هم « خير أمة أخرجت للناس » .

لقد قرأت في الاحياء ما يفيد أن الامام الغزالي كان يخاطب أهل زمانه كما يخاطب نحن الآن الأطفال ، لا كما يخاطب أنا المسلمين الآن ، فانه لما أراد أن يفهم علماء زمانه أن الأسباب تترتب عليها المسببات لم يأتي بمثال إلا بالوضوء والفصل ، لأنه رأى أن انتهاء زمانه كانوا لا يفرمون إلا بالفقه . وقال هو أيضا : إن ترتيب أجزاء كتاب الاحياء قد جعله هو على ترتيب كتب علم الفقه ليكون ذلك أنسا للنقهاء .

أما نحن الآن فاننا نخاطب أمة استيقظت ، وعقولها ارتقت ، ونفوسها علت ، نحن الآن نخاطب المسلمين علماءهم وعلمائهم ، خطبا صريحا ، ونقل لهم عن الترجمة الحق فيقبلون ، ولقد قال الامام الغزالي رحمه الله تعالى : « إن المسلم الذي لا يقبل العلم إلا عن مسلم ، ويفنده اذا كان عن غيره أشبه بمن قسم له الماء في حجب الحجاب وهو مقبول فلما يقبله بحجة انه كان فيه دم ، فهكذا هؤلاء الأقبياء من المسلمين الذين

لا يقبلون الحقائق اذا وردت من الكفار .

فلما نحن في زماننا فلسنا في حاجة إلى ضرب هذه الأمثال ، لأن أمتنا اليوم قد بلغت الجهل التي بها تستحق أن تتولى زمام العلوم ، وهل بعد البيان بيان : هاأنذا أعين حال المسلمين بما يرد من جيع الأقطار أنهم بكل علم مفرومون ، اللهم لك الحمد إذ خلقتنا في زمان النهضة ، وصرفت عنا سوء ، وعلتنا ، وأنصت علينا بالقبول ، أنت خير النصيرين ، أنت الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين .

فصل في ذكر مثال واحد لرحمة المسلمين لتغير أمم الاسلام من رجال العصور المتأخرة لأنهم رحمة للعالمين

فلما سمع ذلك صديقي العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير . قال : كل ما تقدمت حسن وجبل ، ولكني أريد الساعة أن تذكر لي خبرا عن عظيم من عظماء الاسلام كان نعمة على أمم غير المسلمين ، على شرط أن لا يكون من أمثال عمر وأبي بكر ، ومن معهما من الخلفاء الراشدين ، ولامن غيرهم من المشهورين في سائر الأقطار ، ليكون ذلك مثالا لرحمة المسلم لتغير أمم الاسلام ، لأن ظاهر الآية : « رحمة بهم » ربما يطلق على بعض الناس أن رحمة المسلم خاصة بالمسلمين . فقلت : إن المسلم رحيم بالمسلم ، وبالذمي ، وبكل معاهد ومؤمن ، فإلهي له مالنا ، وعليه ما علينا ، ونحن لا نحارب ، ولا نغادي إلا من حاربنا ، وهم الذين في دار الحرب ، أما المثال الذي تريد فهو ما جاء في هادش كتاب « حاضر العالم الاسلامي » المذكور بقلم الأمير شكيب أرسلان في الجزء الأول ، ولتختتم به الكلام في هذه الآية تحت عنوان « السيد الأجل » . فقد اطلعوا في بيان حل تاريخ محرر في سنة ١٢٤٤م يقال فيه انه لما زحف جنكيزخان إلى القرب جاء السيد الأجل عمر بألف فارس وقدم له الطاعة فأكرمه وجعله من بطاقته (١٢٠٦ - ١٢٢٩) ولما آل الأمر إلى السلطان أوغوتاي (١٢٣٠ - ١٢٤٢) ولاء ثلاث ولايات وهي : (فونغ ، تسينغ ، يون ناي) ثم استدعاه إلى باكين ، وهدهد إليه بمنصب عال ، ثم لما تولى السلطان تانغو (١٢٥١ - ١٢٥٩) عهد إليه بإدارة ستة نظارات بالاشتراك مع (كاؤل هوان) ثم جعله مديرا عاما لمقاطعة (يان كينغ) فأحسن الإدارة جدا ، فهدد إليه بنظارة الاستخبارات ثم لما زحف السلطان إلى بلاد (تسوتشوان) جعله ناظرا ليرة العسكرية ، فقام بها أحسن قيام ، فلما تولى السلطان (قويلاي) أعطاه رتبة الوزارة ، وبجعله عضوا في مجلس أمانة السر لأهلي ، وكان يفتننا بقلده عملا ظهرت فيه فضائله ، وحاز رضا السلطنة . وسنة ١٢٧٤ هـ قدم إليه السلطان في أن يقبل ولاية ينان ، وكانت أحوالها مختلفة ، وكان أهل ينان شديدى الضارة والجهل ، فلما ذهب إلى هناك وجد القيادة في يد أمير من بيت السلطنة ، فخاف هذا منه وأراد أن يجازبه الحيل ، إلا أن السيد الأجل بمكتمته وحسن سياسته استماله إليه وصيره صديقا ، وكانت تلك الولاية في غاية الاضطراب والبلاد خرابا ، فشر السيد الأجل العلم وبنى المدارس واعتنى بتهديب الأخلاق ، وكذلك وجه همه إلى عمارة الأرضين ، بده الطرق ، وبنى للمعابر والجسور والسدود لأجل المياه مما تلاقى به خطر الفيض ، فكانت بعض الأنهار تطنى على الأراضي فتذهب بها زروع الملاحين فجعل لها حواجز تقي من ضرر الطغيان ، وكانت أراضي أخرى تكتس في الصيف من قلة المياه ، فبنى خزانات وحيثما احتياجا من جره للمعاش ، وأزال للمفارم والمظالم ، وأبطل السخرة ، وشيد ملاجى للأيتام والجهزة ، وخفف المكوس ، وأحدث نموذجيات زراعية بمختلفى على مثالها ، وحضر الأكل ، وأقم الأسواق ، وأدب في طاعة المروءة ملايعة ولا يخصى من الأقوام ، وأثناء وجوده في تلك الولاية عمر مسجدا للإسلام ، ولكنه شيد أيضا هياكل لكونفوشيوس ولبوذا ، وكانت ولايته تضم عشرين مقاطعة ، فيحتها من الشرق سوغ ، ومن الغرب بيرمانيه ، ومن الشمال التبت ، ومن الجنوب آنام ، وبجس سياحة للسيد الأجل خضع ملوك لتونكين وآنام لسلطان الصين .

ومن نوادر حكمته أن ملك لوبان ثار على السلطنة ، فصدر الأمر للسيد الأجل بالرحم إليه ، فلما حار
بالجيش رآه العنق حزينا كثيرا ، فمعلوه من سبب كآبته فلجاب : لست كئيبا لكوني ذليلا إلى الخروب ،
بل لكوني أنصورتكم كثيرا سهلكون في هذه الملحمة بدون ذنب اقترفوه وانهم سيقتلون وينهبون أناسا
كثيرين مواعدين لا ذنب لهم أيضا ، ولما وصل إلى مكان الثورة أرسل إلى الثوار يعرض عليهم التسليم ،
فلبثوا ثلاثة أيام لا يجارون ، فهاج العسكر ، وطلب القواد الأذن بالمجموع ، فلم يأذن لهم ، بل راجع رئيس
الثوار في أمر التسليم ، فأظهر الطاعة ولكنه لم يسلم البلدة ، فوثب رؤساء الجند على البلدة ، فضرب السيد
الأجل ، واستدعاهم وقال لهم : إن ابن السماء أمرني أن أتولى بلاد ينان ، وأحكم فيها بالعدل والأمان ،
لا بالقتل والصدوان ، فلا أرضي أن تهاجوا البلد ، مادام الثارون وعدوا بالطاعة ، فإن أيتهم إلا سفك
الدماء جزاؤكم القتل ، ثم أوتى الضباط الذين أرادوا الهجوم خلافا لأمره ، فلما سمع الثوار بما حصل جاءوا
وسلموا ، وسكنت البلاد ، وأطاعت عن بكرة أبيها . وكان سائر العمال يقتدون بسيرة السيد الأجل ويقبضون
بأعماله ، فلمنت السوابل ، واستراحت الرعية ، وساد العدل ، وقاضت الخيرات ، وجمرت البلاد ، وصار يقال
عنينا بلاد ينان ، أما آثاره في الزراعة فلا تزال بقاياها إلى الآن ، وأن كثيرا مما بناه من الجسور لا يزال قائما
إلى يومنا هذا . وكانت بلاد (نشاوتين) تظني عليها الأنهر ، فتحوّل إلى بحيرة ، فخر السيد الأجل نهرا
حضر إليه تلك المياه كلها ، فصرفها عن الأراضي التي كان الماء يضرها من قبل ، وخر نزعها كثيرة ، وخطبها
لسقيا القطع المحتاجة إلى الري ، وجعل يريها مؤلفا من ٣٦٠ قنصا وحواسا بقصرهم يسهرون على السجود
بعث إذا حصل فتق في أحدها أسرعت البرد بأخبار الحكومة ، فحمت الحكومة الأهالي ، ونهضوا لرفق
الفتق .

ومات للسيد الأجل رحمه الله سنة ١٢٧٩ فكان له ماتم عمّ الصين بأسرها ، وبكاه أهل ينان بكاء
بيك الأولاد أباهم ، وعمّ الحدود البلاد المجاورة إلى بلاد (سونغ) و(نبت) وضبرها ، وذبحت القوايين في
البلاد السلطاني ، وخلف خمسة أولاد ١٩٠ حفيدا ، فكان خلفه في الامارة ابنه ، ثم ابن ابنه ، وتداول
أحفاده الامارة ، وكانوا جميعا أعضاء للسلطنة .

وفي أيام دولة (مينغ) راجع السلطان (تاي) نسوكا هوانغ في (١٣٦٨-١٣٩٩) تراجم وزراء الدولة
السابقة ، فلم يجد بينهم في الحكمة والعدل والرفق بالرعية ، ووفرة آثار العمران ، مثل السيد الأجل ،
فأمر بتسجيل سيرته في كتاب خاص بقيد المآثر اسمه (بن تشه شو) وأن يترجم هذا الكتاب للطلبة
ويشرفي المملكة ، وقد ثبت هذا السلطان لقب للسيد الأجل ، وهو : الأمير الأمين المحسن ، وأمر ببناء
عيا كل فيها القوايين من روجه ، سنة ١٤٠٥ مدراس الحكومة الصينية في ألبان سيرة للسيد الأجل
يقم (تسينغ هو) . ويوجد في بلاد ينان هيكل باسم الأمير (هوانغ) وهو لقب السيد الأجل عند
الصينيين . ولا تزال لقب السيد الأجل إلى اليوم ، وأسرته معروفة منذ سنة ٨٥٠ انتهى ما أردته من
كتاب «حاضر العالم الاسلامي» وهذا تم الكلام على قوله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين
الحنفي يظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا » محمد رسول الله والذين معه أشهد على الكفر وجحد
بينهم . كتب ظهور يوم الاثنين ١٩ أكتوبر سنة ١٩٣٩ م والحمد لله رب العالمين .



الجوهرة الثالثة في قوله تعالى : تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا

سيامهم في وجوههم من أثر السجود

اعلم أيها القارئ أن هذا الانسان فوق الأرض مخلوق من الطين في الأعم الأكثر ، هام على وجهه ، جاهل لا يدري لم خلق ؟

الله أكبر : إن الانسان يشبه ماشع وذئب في زماننا ، من أن الجواهر الفردة والنترات الدقيقة أصبحت الآن موضع عناية علماء الألمان خصوصا وعلماء العالم عموما ، إذ يقولون ان فيها قوى كامنة ، تلك القوى الخبوءة يسوزها أعمال عظيمة حتى يمكن استخراجها ، ذلك أن كل مادة فانها مكتونة من مواد كهربائية سالبة وموجبة وهي مكبوسة مكدسة مضغوطة ، فأصغر المادة الذي لا يرى إذا أنزلنا ضغطه وخرجت القوى الكامنة فيه غيرت لنا معالم الحياة ، لأنها قوى لاحد لها ، وقد تقدم هذا كثيرا .

أقول اذا كانت هذه حال النترات التي لانراها في الطين والتراب والماء . الله أكبر : فكيف نكون حال هذا الانسان إذن ؟ الان من نهاية الابداع في أرضنا هذه ، فإذا كانت هذه حال النترات التي منها تركيب طنانا ، فكيف يكون حال الانسان الذي هو نهاية الابداع ؟

الانسان يشبه هذه النرة ، فهو يهيم على وجهه ، ويبش كالحيوان منبوذ كالنرة . والجوهر الفرد ولكن يستخرج قواه أناس منه يحبون على صفات خاصة به خرجوا من هذا الطور الطبيعي وأيقظوه إلى استخراج ماكن فيه من القوى ، ولذلك تجد الرجل المهذب الراق يترسى أو بتعليم يمد أن يؤثر في نوع الانسان كله بأرائه وأفكاره ، ومن أوليات هذه الوجهة التي أتى بها الأنبياء الصلاة والركوع والسجود فإن هذا الانسان الذي يماشر السباع والطيور والأنعام يقف ويقول : « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض الحى » وهذا يجب الجواهر الفرد قواه مادية باستخراجها برفعنا ماديا ، ولكن هذه النفس الانسانية باستخراج ما فيها من القوى ترجع إلى أصل هذا الوجود وهو الله ، فنخاطبه قائلين : « إياك نعبد وإياك نستعين » .

يا أيها هذا الانسان المركب من نترات أرضية وما حولها يركع ويقول : « اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت الحى » ، ويقول : « سجد وجهي للذي خلقه وصوره وخلق سمعه وبصره » .

هذا الانسان الصغير الجسم الضئيل يعاشر الحيوان ، يقف ويحاطب خالق هذا العالم كله وطبقاته التي لم يحرف الناس لها حدا إلى الآن ، وفيها شمس يمدونها بالآلاف الملايين وبعضها كما في الجوزاء أكبر من شمسنا (٢٥) مليون مرة ، وضوء شمسنا بالنسبة لها أمر صغير . سبحان الله : أهذا الانسان هو الذي يخاطب خالق هذه العوالم كلها ، ثم هو نفسه الذي يفكر في الشرق والغرب ، وفي أعلى وفي أسفل ، في ثانية واحدة ثم الانسان هذا وصفه ، وهذه حاله ، أيقظه الأنبياء وهذبوه وربوه ، وغاية الأمر أن الديانات قدما كانت تنزل على الناس بمقتضى استعدادهم ، وكل دين أرق بما قبله ، ولما جاء ديننا رفع تلك الشبهات والمخاوف ، لأن الله يريد أمم أرقى من السابقة موحدتين صادقين ، وقد أمر جميع الأمم أن تتحد به ، وما من دين إلا وقد أمر متبعيه بالسلاة والتوجه لله ، أم ترى إلى غاندى المصلح الهندي الشهير ، فانظر كيف يصف الصلاة في دينه البوذي الذي نزل به بوذا قبل نزول المسيح عليه السلام ، وكيف تراها يوقن بالصلاة ونفسها ، أما لا أتول ان هذا الدين لم يفسخ . كلا . هو مفسوخ بديننا وإنما الذي يهمنى أن أقول ان وجود الصلاة إلى الآن في دين البوذية ، وعلان غاندى أن الصلاة نافعة مجزة لديننا وديننا ، لأن الله يقول : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والتبيين من بعده وأوحينا إلى ابراهيم واسماعيل الحى » ويقول : « ولقد وصينا

الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله » ، ويقول : « وقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم قصص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بأذن الله » .
 فلذا أسمعك ما قاله المهاتماغاندى فى الصلاة فإى أسمعك مجزة ، أسمعك شيئا لم تأت ، أنت تعرف أن اليهود والنصارى لهم صلوات وإن كانت منسوخة بسواننا ، ولكنك فى الغالب لم تسمع إذا كنت تبدأ عن ديار الهند أن هناك صلوات وإن كانت منسوخة بتلوها قوم ويتفنون بها ، لأن الله رب الناس ورب الخيوان ، أما كون الذين منسوخا فشىء آخر ، وإذا كن المهاتماغاندى يتفنى بالصلاة ، فكيف يكون المسلم إذن ؟ وهذا نص ما قاله بالحرف الواحد . جاء فى جريدة الاهرام يوم ٢٥ اكتوبر سنة ١٩٣٦ تحت العنوان التالى مانسه :

الصلاة فى نظر المهاتماغاندى

وقع نظرى على أحد أعداد جريدة « الهند الفتاة » الصادرة أخيرا وفيها فذلكة مختصرة عن رأى المهاتماغاندى فى الصلاة فرأيت ترجمتها لكى أشرك اخواننا (الذين بالاختصاص) فى آراء ذلك الرجل العظيم خصوصا أن الكثير منهم ينظر الى الصلاة نظرة استهزاء وسخرية ويحسب التمسك بها نوعا من الجور قال المهاتما من ضمن أحاديثه على ظهر الباخرة « راجونا » :

« وربما كانت مسرقى عندما أقوم لصلاة المساء تفوق ما أشعر به من التبطة والمنزل دائر ييدى ، ويشترك معى فى صلاة المساء جميع أصدقائى من هندوس ومسلمين وبارسيين وسيخ أمانى صلاة الصبح المبكرة فلا يشترك معى منهم الا القليل ، ولقد سألتى صديق مسلم عن الصلاة وما أراد منى أن أعطيه وصفا نظريا ولكنه سألنى عما شعرت به نحوها من تجارب عملية ولقد رافقتى سؤاله هذا كثيرا وليس غريبا على أن أصرح على رهوس الأَشهاد بأنه لم يكن لى سبيل إلى النجاة إلا بسبب الصلاة كما أنى لا أنكر الناس أنى لو لم آكن أصلى لكات فضمنى الآن إحدى دور المجاذيب . ولقد أتى على حنين من الدهر كثر ما لقيته فيه من حرارة العيش ومن اليأس الوقتى الذى رماى فيه بعض الجاهل ولكن ما كان أسرع نهوضى من يأسى وقنوطى بركة صلاتى وقنوتى .

لم نكن الصلاة فيما مضى جزءا لازما من حياتى ولكنها أتت بنت الضرورة حينما وجدت أنى لن أكون سعيدا بدونها وكلما زاد اعتقاد الناس فى الله زادت رغبتهم فى الصلاة . ولربما اكون قد بدأت حياة الاطلة ولكن قد أتى على نور من الله حينما بدأت أشعر بان لزوم الصلاة للروح أكثر من لزوم الاكل للجسم : لان مرض الجسم يحتاج إلى الحياة لكى يصح ولكن كنا نعلم أنه لا يوجد حياة من الصلاة لكى تصح الروح ، وفى حين أن التخمرة ربما أتى لنا من كثرة الأكل فالتنا لا نجد تخمة صلاة الروح

ولقد ترك لنا ثلاثة رجال عظماء وأعلى بهم بودا ، وعيسى ، ومحمد ، اعترافا بأنهم لم يروا سعادة الحياة الأعلى ضوء مصباح الصلاة كما أن ملايين من الهندوس والمسيحيين والمسلمين الاقبياء لا يجدون لهم سلاوى إلا فى الصلاة وقد يعدهم البعض كذابين ، ولكنى كباحث عن الحقيقة النجسة أحب أن أو من بهنفا الكذب لأنى وجدت أن نتيجة تصديقى له كانت عماد تجاسى ، ومع أنى لا أستبشر خيرا من الحق السياسى ولا أرى فى أفقه إلا يأسا فإى دائما فى غاية الاطمئنان والأمان لدرجة أن الكثيرين صلروا بحسودتى على اطمئنانى هذا ، وما كل ذلك الا من الصلاة .

انى لست رجل تعاليم راقية ولا فلسفة عميقة ولكنى بكل خضوع يمكنى أن أدعى بأنى رجل صلاة ولست مع كل هذا أعلن كبر أهمية على الطريقة التى بها تؤدى الصلاة فالنتيجة فى النهاية واحدة .

بقيت مسألة صعبة ، وهي أن البعض لا يعتقدون بوجود إله لا يمكن أن أقول لهذا البعض إلا أن يرى بتلك
 العلوم التي تريك عقله عرض الحائط ويسلم بأننا نبي البشر ما أوتينا من العلم الاقبيلا فلندرس هذه المسألة
 بمثل طفل صغير وفي الحقيقة اننا نضرب حتى من المرة لأن المرة للتأهية في السفر قواطع قوانين الطبيعة من
 شد وملعب وسفره ونسبحه ونسبحه ونسبحه بين الانسان في كبرياء جهلنا ونهتة لماننا وعجرفة صلفنا تقف وجهها لوجه
 ضد هذه القوانين ونسبحها . ومادمت قد سلمت بوجود إله وكنت به من المؤمنين فلي لأرى ما يمنحك لحظة
 واحدة عن الصلاة ولا أقبل فلسفة من يقضي بان مجرد حياتنا في الدنيا هي نوع من العبادة ، وعلى ذلك لا لزوم
 للصلاة لأن الأبياء أنفسهم وقد كانوا على اتصال دائم بالروح العلوي كانوا يقومون بالصلاة ويعبدون إيمانهم
 كل يوم ، هذا أولانا بين البشر بأن نصلي ونشعر إلى الله بومياء ونجدد إيماننا . إني أيها الاخوان ضامن لكم
 بعد ذلك خلايا الحكم من كل ما يمكن أن يسبب له أقل قناعة أودنى شفاء . انتهى بتصرف .

أ . حلمي مطر

(إستاذ علوم من جامعة منشستر)

فضل الله على الناس

إن لله ذو فضل على الناس ، الناس محبسون في الأرض ، أنا لا أدري كيف كان هذا الانسان قبل
 أن يزل إلى الأرض وإنما أنا أصف الانسان الساعة بما قرأ في نبي ، فأقول :

أني الآن موقن إيقاناً تاماً بأن صانع هذا العالم لا حد لرحمته ، رحمة وعدل وحكمة وجمال وبهاء وابداع
 في الصنع ، لا يسع من يقرأ هذا التفسير وما فيه من العلوم إلا أن يقول ذلك ويستغده ، وليست تعقل نفس
 بعد هذا أن يكون وجود الناس في الأرض لقمصه انتدب . خلا . فكيف عذاب لم يرد به إلا السعادة ، هذا
 لا أشك فيه ، فهو يقين (نعم هناك ما هو فوق علمي وطاقتي ، ولا يقيني لي معرفته ، بل أسلم به ، وأومن به
 وهو عذاب الكفار الدائم ، فهذا آمن به ، ولو أننا عرفنا سره لكننا من عالم أرقى من عالمنا ، فكيفنا ما عرفنا
 الآن ، ونسأل أمر الباقي إلى الله ، حتى يطلعنا على السر بعد الموت إن استحققناه) .

فإذا كان هذا هو اليقين عندي ، فلي أبنى عليه ما يأتي . فأقول : لعل أرواح الناس كانت تقبل نزولها
 إلى الأرض غيبة جاهلة بتفصيل العوالم ، وإن كانت تعرف الكليات فلوها تحيط بالكليات وتجهل الجزئيات
 فبعث الله فيها غريزة حب المادة وعشقها فأعجرت إليها وانفست فيها وحبت . ومن عجب أن يكون هذا
 السجن الأرضي أشبه بستان جميل ، وهو أعظم سجن وأبدعه ، وهو يعطينا درسا كأنه يقول لنا : أنلسجنكم
 في الأرض لأعلمكم ، أرسلت أنبياء وحكاما وعلماء ، وأنزلت ماء ، وأمرتكم بالطهارة والصلاة لتكملوا ،
 ووضعت فيكم غرائز الطعام ، والشراب ، واللباس ، والحرب ، والعداوات ، ليكون ذلك كله مهمازا يدفعكم
 إلى العلم والعمل ، وهذا كله هو الرقي والسعادة ، وأوعزت إلى علماء اسبارطه باليونان أن يمتحنوا الصبيان
 من الصغر على تحمل الضرب ، فيشبون على الشجاعة ، وأوعزت إلى بعض قبائل السودان أن يضربوا
 السباب أمام الفتيات ضربا موجعا قاسيا فلا يصرخ ، فيستحق أن يتزوج الفتاة لشجاعته ، وألمت بعض
 القبائل أن لا يتزوج الشاب فتاة فيها إلا اذا قتل سباعا ، أو نمرا ، أو نحو ذلك ، كل ذلك لاستخراج ما كمن
 في نفوسكم من العجائب والقوى الكامنة ، فلا شجاعة إلا بالتحمل ، ولا أنوار للنفس إلا بالمسلوات
 والحكمة والعلم .

أتم يا أهل الأرض مسجونون ، ولكن الذي سجنكم حكيم ، ولم يرد من السجن ذلكم ، بل أراد
 استخراج كنوز نفوسكم ورقيها واسعادها .

وقد رضع لكم في الأرض أشجارا وأزهارا وأنهارا وجبالا وأودية وبحارا لتكون هذه مكملات لكم ،
 ثمرة بالنصب والتعب في استخراج ما بطن فيها ، وتلوة بتعاطي ما فيها من الأغذية والأدوية والتمرات ، وكل هذا
 تكميل لكم ، واستخراج لقواكم ، وخير السجون ما جمع بين الحبس والعمل والظهارة ، انظر ما كتبه في
 ﴿سورة البقرة﴾ عند قوله تعالى : « إن الله يحب المتطهرين » ، وكيف يقول (بقام
 الانجليزية) في كتابه « أصول القوانين » : « إن النظافة والاستمرار في العمل يقللان الجرائم ، والظهارة
 في الشريعة الاسلامية من محاسنها ، فلن ترى نظيفا عاملا إلا وهو بعيد عن الجرائم ، قليل الأوزار .
 وازن أيها الذكي بين أدنى الحيوان ، وهي تلك الخلايا الصغيرة التي تعيش في الماء ، ولا تموت مطلقا إلا
 بعد ما يفاجئها ، أو باقطاع غذائها ، وكيف تعيش دهورا ودهورا لولا الطوارئ ، كيف كانت حياتها ضئيلة
 من حيث الارتقاء ، وفيها طبعها أرواح ضئيلة ، ثم انظر إلى الحيوانات التي هي أرقى منها وأرقى إلى أن تصل
 إلى الانسان فتجد علما وحكمة ورقيا وشجاعة وقربا إلى الله بالصلاة حتى يقول الله في المسلمين : « تراهم
 ركعوا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا » انتهى الكلام على الجوهرة الثالثة ، والحمد لله رب العالمين
 كتب صباح يوم الخميس ٥ نوفمبر سنة ١٩٣١ م .

الجوهرة الرابعة

في قوله تعالى : « كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع
 ليغيظ بهم الكفار »

صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب رحمة . لك الحمد اللهم ولك الشكر ،
 ما أعظم نعمك ، إن هذا الزمان هو الذي اشتد فيه ظهور المعجزات ، معجزات النبوة المحمدية ، كيف لا ،
 ألم أذكر في السور الأولى من هذا التفسير أن الفرنسيين اقتضوا على بلاد سوريا ففتكوا بأهلها فتكافروا بها
 وقتلوا القوم قتيلا . ألم أقل في ﴿سورة آل عمران﴾ عند قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين أولوا نصيبا من
 الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم » . الآيات ، إن هذه الآيات إنما نزلت لأجل ريقنا نحن
 أبناء المسلمين عموما ، والعرب خصوصا ، وقلت ان (الم) في أول السورة تشير إلى هذه القصة المبتدأة بهذه
 الحروف (الم) وأن اليهود لما انكروا على شفاعت آبائهم ، وعلى تخفيف العذاب عنهم يوم القيامة ذهب
 ملكهم ، وملك المسلمون بلادهم ، وقلت إن المسلمين اليوم قد دخل عليهم من الخرافات والجهل في الدين
 ما أزال نخوتهم ، وفرق جمعهم ، وأبفت هناك أن أبناء العرب من بحر الظلمات ، وهو المحيط الاطلانطي ،
 وبلاد السودان إلى بلاد العراق والموصل وما بينهما متفرقون مع أن بلادهم متلاصقة وتفرقهم إنما جاء من
 الجهل المحيط بهم ومن بعض الشيوخ المخرفين والرؤساء المفرودين السجالين وما أكثرهم في بلاد الاسلام ،
 هذا نموذج لما قلته هناك من أسرار (الم) التي نزلت ليقاظنا نحن الآن ، لأننا نحن الذين حبسنا أي
 الأرض ، ونحن في حاجة إلى الهداية ، فهنا يقاظنا بعضنا عن طريق هذا الرمز العجيب ، كنت أقول
 هذا هناك وأنا واثق برقى هذه الأمة ، ولكن لم يكن ليخطر لي أن هذا الرقى أصبح قلب قوسين . كلا .
 أنا كنت واثقا برقى المسلمين عموما وأبناء العرب خصوصا ولكن هل كان يدور بخدي أي أعيش حتى أقرأ
 ما سئسمه أيها الذكي الآن ؟ بل هل كان بهجس في خاطري ، أو تحذرتي نفسي بأن ما سئسمه الآن يحصل
 ونفس هذا التفسير لا يزال يطبع . كلا . لم يكن ذلك بخدي ، ولكن زماننا هذا زمان انقلاب في كل شيء
 انقلاب في الشرق ، وانقلاب في الغرب حتى أقرأ اليوم في جريدة الاهرام أثناء طبع هذه السورة يوم ٤ نوفمبر

سنة ١٩٣١ تحت عنوان « العراق وعصبة الأمم » وهذا نصه :
 « جنيف في ٢ نوفمبر (روتر) قال السرفرنسيس همفرز المنسوب السامي البريطاني في العراق أمام لجنة الانتداب : « في أيديكم مفتاح الباب الذي لا بد لهذه البلاد الفتية من المرور فيه إلى البلوغ التام والتحرير الكامل ، فأسألکم أن تفتحوا هذا الباب . وقال أيضا : ان العراق برهنت على أنها أهل للقبول في مجمع الأمم المتقدمة الراقية » . انتهى . وعلقت الجريدة على هذا التفرواف بمقال هذا نصه :

العراق وعصبة الأمم

بعد إلغاء الانتداب ، ومستقبل الحالة في سورية
 خطب اسرفرنسيس همفرز المنسوب السامي البريطاني في العراق أمس أمام لجنة الانتدابات الدائمة في جنيف مؤيدا طلب انضمام العراق الى عصبة الأمم بعبارة مؤثرة .
 والذي نعرفه أن مسألة انضمام العراق الى العصبة في السنة المقبلة قد بت نهائيا بين الدول وأنه لم يبق لغيرها رسميا الا بعض معاملات شكائية لا تؤثر في الموضوع ، وانضمام العراق الى العصبة يعني إلغاء الانتداب الذي فرض عليها في مؤتمر سان ريمو فرضا . وقد رفضته منذ إعلانه وتمسكت بهذا الرفض الى النهاية . ولم تشأ انجلترا أن تضيف الى مشاكلها الكثيرة في تلك البلاد مشكلة أخرى بمحاولة اكرامها على الاعتراف رسميا بالانتداب ، بل جعلت علاقتها معها على أساس المعاهدات المقودة في سنة ١٩٢١ ثم في سبتمبر ١٩٢٦ و ١٩٢٨ . وقد كفلت لنفسها في هذه المعاهدات الاشراف على المصالح المشوكة عنها لدى عصبة الأمم بصفتها دولة منتدبة ، ومكنت العراق في الوقت نفسه من عدم الاعتراف بالانتداب وعدم التقييد بنصوصه وأحكامه ، فكانت دولة منتدبة على العراق في نظر عصبة الأمم ودولة مخالفة له في نظر حكومة بغداد . على أن الشعب العراقي الذي رفض الانتداب رسميا لم يسه القبول به ضمنا تحت ستار المعاهدات ، فكان دائما يطالب بتعديل ما يراه ماسا باستقلاله ، من مواده وكانت معظم الوزارات التي توالت في دست الحكم تصطدم بالانجليز من جراء ذلك فتغوز ببعض الشيء أحيانا وتفضل أحيانا الى أن وقع الاصطدام الأخير مع وزارة المرحوم عبد المحسن السعدون ، وهو الاصطدام الذي أدى الى انتحاره بعد ما بددت الآمال التي عقدها على حسن نيتهم وشعر بقوة ضغط الشعب عليه وضياح مركزه لدى الوطنيين من أبنائه .
 ووقع اصطدام آخر أثاره الهاشمي باشا وزير المالية في عهد وزارة ناجي باشا السويدي . وبلغت الأزمة حينئذ أقصى حد من التعقد حتى خيل الى الجمهور أن الملك سيحجز عن تأليف وزارة جديدة .
 ودارت مباحثات خطيرة في تلك الأثناء حملت جلالته على الاقتناع بأنه أصبح في الامكان الوصول الى اتفاق مع الانجليز ، فأقنع نوري باشا السعيد بذلك وعهد اليه في تأليف وزارة اشترك فيها بعض الوطنيين المتطرفين ، وأسفرت المفاوضات التي قامت بها وزارة نوري باشا السعيد عن عقد معاهدة تنص على الجلاء والاستقلال ، ولا تبقى لانجلترا من مظاهر السيطرة غير ثلاثة مطارات اثنان منها غرب الفرات والثالث في جهات البصرة . ولم تقابل هذه المعاهدة على مافيها من مزايا لا يستهان بها بارتياح للمقامات الوطنية لطول مدتها من جهة ، ولأن العراقيين يريدون استقلالا خالصا من كل شائبة من جهة أخرى .
 وقد أبدت انجلترا طلب العراق الانضمام الى عصبة الأمم ، وأعلنت أنه أصبح في حالة من الرقي لا يحتاج معها الى إرشاد دولة منتدبة . وسيدخل العراق العصبة في السنة القادمة على أساس المساواة التامة مع الدول المشتركة فيها ومن دون أقل قيد أو تحفظ يتعلق بالأقليات أو غيرها ، سوى القيود التي تنص عليها المعاهدات التامة ، كما صرح جلاله الملك فيصل لمنسوب الاهرام في أثناء مروره أخيرا بالاسكندرية .

ومنى دخلت العراق عصبة الأمم وخطت هذه الخطوة الواسعة في طريق استقلالها . تصد إبقاء البلاد المجاورة لها ، والتي هي أقرب الى الحضارة منها تحت الانتداب . وهذا ما أدركته فرنسا وصرح به مندوبها أخيرا في عصبة الأمم . فالطريق الذي سار عليه العراق سنير عليه سوريا أيضا إذ لا يعقل أن يقبل السوربون - كما قال ممثل فرنسا لدى لجنة الانتدابات - بنظام أبعد عن الاستقلال من نظام العراق ، مع كونهم لا يقلون عن العراقيين علما وحضارة وخبرة في شؤون الحكم .

وخلاصة القول : أن دخول العراق عصبة الأمم سيكون فاتحة دور جديد في تاريخ الشرق الأدنى ومقدمة لانتخابات سياسية خطيرة قد تكون في مصلحته ومصلحة السلم . انتهى ماجاء في جريدة الاهرام
أقول : هل كان يخطر لي وأنا حتى أرزق ، ونفس هذا التفسير يطبع أن أسمع أن العراق وسوريا على أبواب الاستقلال . اللهم انك أنت الواسع المغفرة ، الحكيم العليم العدل ، أعدت إلى الشرق شرفه وكرامته وعزته بعد أن أدبته ورينته بالنوازل والمحن ، إن كتاب (بالتشديد) زماننا المسلمين خصوصا والشرقيين عموما من أسعد الكتاب (بالتشديد) في الأرض ، لأنهم يرون ما يدعون اليه من الرقي قريب المتال ، سريع الحصول ، وافته هو الولي الحميد . انتهى الكلام على الجوهرة الرابعة والحمد لله رب العالمين .

الفتح الاسلامي في زماننا

وأثار النبوة المحمدية في نهضة الشرق الأقصى

لك الحمد اللهم على نعمة العلم والحكمة ، وعلى الفتح المبين ، اللهم إنك أنت الفتح العظيم ، المحسن المهيمن ، الجليل الرحيم . تالله لم يكن ليخطر لي في الخيال ، ولا في الأمانى ، ولا في الأحلام ، أن أكتب في حياتي قبل أن أموت على ما سمعت به الآن عن بلاد الاسلام من الفتح الاسلامي المبين ، حقا إن هذا زمان الفتح المبين ، الذي ينهض الفتح المبين أيام النبوة ، وأيام عصر الصحابة والتابعين ، نعم هو حق ، هو حق وصديق مبين ، كيف لا وقد كنت قبل اليوم أظن في نفسي أن هذا التفسير ربما تفرؤه أم قراءة جديفة بعد موتي ، وتوربه في وجه الجهالة العمياء ، فتطمس معالمها ، وتزهق روحها ، وتجعلها في خبر كان .

كنت أقول ذلك أشبه بالأمانى والأحلام ، ومعلوم أن الأمانى والأحلام تضليل ، ولكن ماذا حدث ؟ اليوم ، حدث ما لا يهين رأيت إلا قليلا ، ولا أذن سمعت إلا نادرا ، ولا خطر على قلب كثير من المؤلفين ، حدث ما ذكرته في تفسير البسملة في أول هذه السورة من حضور الشاب التركستاني الذي قس على أخبارا ونشرها في الجرائد فوق ما كتبت في أول السورة ، هذا الشاب اليوم أي في شهر ديسمبر سنة ١٩٣١ م قد قبل في كلية الآداب في علم الفلسفة في الجامعة المصرية ، فإذا يقول ؟ يقول : لقد فتحت مدارس في بلادنا التركستان الصينية ، ودرست فيها العلوم الحديثة ، وأنا درست فيها ، وأن السبب في ذلك انتشار كتاب « نظم العالم والأمم » و « التاج المرصع » ، ومثل بلادنا بلاد الصين وسلموها نحو (٧٠) مليونا ، وبعض أهل لبنان أسلموا ، واتصلوا بأخوانهم في التركستان والصين ، واسلام أهل اليابان بسبب رجل من بلاد التتار أحضر لهم « التاج المرصع » مترجما (انظر مقالة تحت عنوان معلومات جديدة في المقطم يوم ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣١) أكتب هذا الآن ذا كرا نعم الله عز وجل ، أكتبه وأنادهش أن بعض الكتب التي سبقته ونشرت قبله قد أدت الغرض المقصود الذي كنت أرجوه منه بعد مفارقتي هذه الدار .

إن هذه الأخبار فيها معان سامية ، ومرام شريفة ، وأسرارها ما بعدها فتح سريع ، وخطوات واسعة . اتصل المسلمون اتصالا لم يهدروه ، وانتشر الاسلام انتشارا عريضا لم يفهمه ، واتصل الأتريقي بالأندلسي والجلادي والسيوطي ، والصيني والياباني ، والأفغاني والهندي . التركستاني ، والتتاري ، والتازاني . اتصل

المسلمون ، اتصلوا اتصالاً لم يهدوه .

هذا من آثار : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » فرحم الله الشيخ البهاغ لأنه هو الذي قرأت عنه أن الفتح
معناه الفتح العلمي ، ذلك الفتح الذي نشر أيام النبوة في سائر الأقطار ، ثم أصبحت بقايا العلم الإسلامي أشبه
ببقايا الماء الآسن في البرك والمستنقعات ، ثم كانت الحركة العلمية الحاضرة ، فانبعث المسلمون ونفضوا غبار
القبل ، وغادروا الكسل ، وأخذوا يجددون مجدداً مضي ، وعضواً قضى ، وسعادة أدبرت وملكاً ذهب ، وأخذنا
نسمع باقترابهم وتواصلهم ، فته المجد وله المنة .

أكتب هذا وسبقوه شباب هم يعيشون الآن معنا في هذه الحياة الدنيا وهم مفكرون ، وآخرون لا
يزالون صبياناً ، وآخرون هم أجنة في بطون أمتهم ، وآخرون هم في ظهور أصلاب آبائهم . كل هؤلاء وهؤلاء
سيقومون ما كتبناه الآن أو يسمعون به فيبعث في قلوبهم من الحياة العلمية الإسلامية ما لا أعلمه أنيلاً أكثر المسلمين
الحاليين ، وسيحدث ذلك في قلوبهم شعوراً قوياً يجعلهم على ركوب الطائرات التي أنا الآن وأنا أكتب هذا
في صباح يوم الأربعاء يوم ٩ ديسمبر سنة ١٩٣١ بعد الفجر ، كأني أراهم فوق طياراتهم راكبين من
بلاد التركستان الصينية ، أو البلاد اليابانية ، أو البلاد الصينية ، وقد وصلوا بها إلى البلاد المراكشية والجزائرية
والتونسية وهم يحلقون فوق رؤس إخوانهم المسلمين ، وقد قابلوهم بالتصفيق والفرح المين ، هذا هو الذي
أخجله الآن ، كأنه حقيقة أراها بعيني ، ولقد أطمعني ما تحقق من انتشار ما أكتبه وذبوعه في بلاد الإسلام
أن هذه الحقيقة قد قرب وقتها ، وأظلم زمامها ، وأقبل حينها : « ولتعلن نبأ بعد حين » وهكذا يقابل
المصري والسوري والمراكشي والطرابلسي جبل شبان الشرق الأقصى بمثله ، فيركبون طياراتهم ، ويردون
إليهم الزيارة قاصدين الأفغان والتركستان والصين واليابان والهند وإيران وبلاد الترك وغيرها من بلاد
الإسلام . كل هذا خيال اليوم وحقيقة الغد « ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً » .

ومالي أذهب بعيداً ، إن زماننا زمان انقلاب إسلامي عجيب ! فيينا يخبرني هذا الشاب التركستاني الناجية
الذي يجيد أربع لغات ، وهو لم يتجاوز الثانية والعشرين بما ذكرت عن الشرق الأقصى ، ونسمع أذن هذه
الأخبار السارة العجيبة ، إذا بالجرائد والأخبار تأتي سراعاً بأخبار مدهشة ، ذلك أن المسلمين اجتمعوا في مؤتمر
إسلامي عام في القدس في ٧ ديسمبر سنة ١٩٣١ وقلقت رئاسة المؤتمر رقيات التأييد من الملك علي بن الحسين
والأمير عبد الله أمير شرق الأردن ، والامام يحيى عامل اليمن ، وخذ يوم مصر السابق ، وقد حضر المؤتمر مندوبو
الموسنة والمهرسك واليوغسلاف والصرب ، وكانوا يكررون مزاراً « الله أكبر ، الله أكبر » عند ذكر
أسمائهم والحضور نحو (٢٠) ألفاً . ثم اشتغل المؤتمر بتأليف لجانه الفرعية ، فقرّر أن يجري تأليف اللجان
الآتية : —

- (١) لجنة المحافظة على الأماكن المقدسة والبراق .
- (٢) لجنة الثقافة الإسلامية وجامعة المسجد الأقصى .
- (٣) لجنة شبكة حديد الحجاز .
- (٤) لجنة الاقتراحات .
- (٥) لجنة العناية والنشر .
- (٦) لجنة الوعظ والارشاد .
- (٧) لجنة المالية والتنظيم .
- (٨) لجنة القانون الأساسي .

هذا ما جاء في الجرائد المصرية يوم ٨ ديسمبر سنة ١٩٣١ أثناء طبع هذه السورة .

اللهم إنا نحمدك ونشكرك ، أحسنت صنعك ، وأجبت نديرك ، وجعلت قدير هذه السورة موافقا في
 زمان طبعه لحادثة حضور الشاب التركستاني إلى البلاد المصرية بحمل لنا نبأ بلاده ، ولحداثة المؤرخ الذي هو
 الآن منقذ في فلسطين ، وقد حضره مندوبون من أكثر أقطار الاسلام .

اللهم إن هذا هو النصر المين ، وهو عينه الفتح الاسلامي . اللهم إن المسلمين اليوم أشبه بالمسلمين أيام
 النبوة قبيل الهجرة ، ففتحهم الآن فتح علمي سلمي تعليمي ، وسيحيطه قريبا الفتح السياسي العظيم ، وسيكون
 المسلمون سياج النظام العام ، ورحمة العدل والرحمة لسائر الأمم والأجناس ، وسيكونون « خير أمة أخرجت
 للناس » يحملون السلام العام لأهل الأرض ، لأن فتحهم فتح علمي ، والأمم الآن سيكون فتحها فتحها
 طمعا ، لأن الناس اليوم يسمعون ويمسقون ، والى هنا تم الكلام على « سورة الفتح » والحمد لله
 رب العالمين . كتب صباح يوم الأربعاء ٩ ديسمبر سنة ١٩٣١ م



تفسير سورة الحجرات

(هي مدنية)

آياتها ١٨ - نزلت بعد المجادلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَامِعٌ عَلِيمٌ *
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ
 بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَمْضُونَ أَسْوَاتِهِمْ
 عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ
 الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ
 إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ
 فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِثَالِهِ فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ * وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ
 اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي
 قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَتْ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْمِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضَلَّ مِنْ
 اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ
 بَقِيَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا
 بَيْنَهُمَا بِالْمَدْلِ وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ
 أَخَوَتِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْخَرُوا قَوْمًا مِنْ قَوْمٍ عَسَى
 أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءِ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ
 وَلَا تَنَابَرُوا بِاللُّقَابِ بَلْ أَسْمَاءُ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتَّبِعْ فَأُولَئِكَ هُمُ
 الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحَسُّوا
 وَلَا يَتَّبِعْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا
 اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَحَمَلْنَاكُمْ

شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ * قَالَتِ الْأَعْرَابُ
 ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمْ
 الصَّادِقُونَ * قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ
 يَكْتُلُ شَيْءٌ عَالِمٌ * يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ
 عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *

هذه السورة ثلاثة أقسام

﴿ القسم الأول ﴾ في تفسير البسملة .

﴿ القسم الثاني ﴾ في آداب المؤمنين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول السورة إلى قوله تعالى

« والله غفور رحيم » .

﴿ القسم الثالث ﴾ في آداب المؤمنين بعضهم مع بعض من قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم

فاثق بئنا فتبينوا » إلى آخر السورة .

القسم الأول في تفسير البسملة

بسم الله الرحمن الرحيم

جرت عادة الشعراء أن يبدؤوا قصائدهم بالفراء ، ليكون ذلك داعية لاستماع القائل ما بعده ، يصف جمال
 المرأة ومحاسنها ، فيصني السامعون للشاعر ، ثم ينتقل بهم إلى المدح ، فالاستجداء ، فيخرج بالجواهر السنية ،
 والهبئات الذهبية ، ولقد تقدم أن الخلفاء الراشدين منوا ذلك ، أما القرآن فان براعته استهله البسملة ،
 والبسملة تصف الله بالرحمة ، رحمة هي مصدر جمال الرجال والنساء ، وجمال النجوم والجبال والشجر والنبوب
 وما جمال الفتيات الساحر إلا أثر من آثار الرحمة ، ولكنه جمال يهيج الشهوات ، والشهوات غريزية في
 الناس ، فليست في حاجة إلى ما يهيجها ، والأمم اليوم في حاجة إلى إثارة ما كمن من صفات الكمال في الناس
 وفي آثار الرحمة من الجمال ملاحظه .

ولقد شرح الله الرحمة فجعل لها سورة بأكلها ، فقال : « الرحمن علم القرآن الخ » ، إذن سورة
 الرحمن الآتية من مفصلات الرحمة في البسملة كإقتدنا في غير هذا المكان ، فصلت الرحمة هناك تفصيلا وانحفا ،
 وفي ﴿ سورة الفتح ﴾ قبل هذه السورة جعلت أصول الرحمة هناك الفتح وهو انكشاف الحقائق الذي ترتب
 عليه كل فتح في الاسلام ، فاذا قيل في ﴿ سورة الرحمن ﴾ : « الرحمن علم القرآن » ففي ﴿ سورة الفتح ﴾
 يقال : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » ، وعلى هذا الفتح دانت أم وأم ، وفتحت بلاد وبلاد ، أما الرحمة
 في هذه السورة ، فاعلموا هي الرحمة العملية ، أي رحمة الفضائل والأخلاق :

- (١) أحب مع النبي صلى الله عليه وسلم وعدم رفع الصوت عنده .
- (٢) وعدم الإصغاء إلى نقل الكلام حتى يحقّ الحقّ ويبطل الباطل .
- (٣) والصلح بين الطائفتين .
- (٤) واحترام الاخوة الاسلامية .
- (٥) واجتناب الاستهزاء والسخرية ، وكل فعل يؤذى الاخوان .
- (٦) وترك المز .
- (٧) والتناوب بالألقاب ، والسباب .
- (٨) واجتناب كثير من الظن .
- (٩) والتجسس .
- (١٠) وترك الفية ونحو ذلك .
- (١١) محم التعارف .
- (١٢) والايمان بالبرهان واليقين .

ولما أتممت هذا المقال ، جاء صاحبي الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير ، فقال : كأنك فهمت أن الرجعة هنا موجهة إلى ماني السورة وهي المطلب الثانية عشرة . فقلت : إن الرجعة عامة ، وههنا جاءت هذه المطلب تذكرة بها ، وأمثلة لها ، وهذه من المطلب التي نقلت عن سيدنا عليّ كرم الله وجهه ورضي عنه إذ قال : « لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً في تفسير البسملة » أو مامعناه فهو من نحو هذا الباب دخوله ، ومن هذه الناحية وجهته ، وبها وصوله ، وإن كان له علم فوق ما عرفناه وحكمة فوق ما ألقناه ، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله . فقال : إنك قد جعلت أكثر السور على هذا النحو ، فأنك قد فسرت البسملة في أكثر السور بالمطلب التي فيها ، فجعلت تلك المطلب مثلاً للرجعة كما هنا ، ولكن يخيل لي أن في هذه السورة طرائف مستحدثة ، وبدائع مستحسنة ، ولكن لأجد في لساني قدرة على التحرير والتصوير ، ولا في جناني قوة على التقدير والتفكير . فقلت نعم ههنا معان شريفة ، ودقائق منيفة ، ولطائف بدیعة ، وعوارف رفيعة ، وجواهر مكنونة ، وطرائف مصونة ، وطرائق مسنونة . انظر رعاك الله إلى هذه الآيات ، ففيها آداب الأمم ، وأحوال اجتماعها وتعارفها ، بحيث لا يكون هناك اختلاف ، ولا اضطراب ، ولا غيبة ، ولا نيمية ، ولا حرب ولا جدال .

وههنا يبدو للخواطر سؤال ، فيقال : إن الله هو الرحمن الرحيم ، ومن أجلّ الرجحات أن لا يجعل في النوع الانساني هذه المثالب ، وأن يخلصهم من تلك الشوائب ، حتى لا يعوزهم النصائح القرآنية ، ولا الزواج الاسلامي ، وهذا السؤال يعوزه بحث هام ، وننقيب عن مصادر هذه العوالم ومواردها ، وأوطأ وآخرها ، حتى نفهم الرجحات ، ونعرف هاتيك الآيات اليبينات .

اعلم أهلك الله الحكمة ، وجنبتك الزلل ، وأماط عنك الفوائل ، وألبسك نوب الوقار ، أن مانراه من هذا الوجود الذي اختلط فيه الخبيث والطيب ، والحسن والقبيح ، ان هو إلا حركات في خيال هذه الأكوام وخطرات فيه كالأوهام .

لقد علمت أيها الأخ الذكيّ بما مرّ بك في ﴿سورة النور﴾ أن الجواهر الفردة والقررات التي وصل إليها التحليل ليست هي بمادة ، وما هذه المسماة بالمادة إلا نقط كهربائية يجرى سالبها حول موجبها ، أما نحو ستة آلاف ملايين الملايين ، ولما أقلّ ، وأما أكثر ، فإن كانت أقلّ ، فلتسكن الأنوار والأصوات ، وإن كانت أكثر فلتسكن الأحجام الصلبة ، والأجسام الثقيلة ، ولقد مرّ هذا غير مرّة في هذا التفسير .

سبحانك اللهم ، وبمحمدك ، أنت القدوس ، جليل جليل ، لا إله إلا أنت ، ان علمك إلا حركات ، فما هذه الحركات ؟ هي حركات في أنير ، وما هو الأثير ؟ وما المحرك لها في ذلك الأثير ؟ إلى هنا وقفت عقول الأمم في زماننا ، وصفوا الأثير بأنه عالم لو جسم لكان أهل من الحديد أضعافا مضاعفة ، انظر هذا المقام في أول (سورة الصافات) ولكنه لا يحجم له ، ولا يحسن به ولا يرى ، ونحن نقول إذن هو كخيالنا .

الله أكبر : إن في خيالنا لحركات ، وتلك الحركات لها وجود حقا ، ولكن حركات خيالنا تتأرجحها معقولات لها نتائج في خارج أجسامنا وأعمالنا في رقى مدتنا ، ونظام أخلاقنا ، إذن هي موجودة وحركات العوالم موجودة ، ووجود مافي أذهاننا ضعيف ، ووجود مافي الخارج قوى ، فالأول سريع الزوال ، والثاني نراه آمادا طويلة ، ولكن الأصل هو الحركات على كل تقدير ، فلتندم الأجلر والجبال والنجوم ، ولتش دهورا ودهورا ، ثم تفتي ، ولكنها معسومة أوفى حكم المقدمة ، فهذا الجبل الذي نراه ، والحجر الذي فيه ، والشمس والقمر ، والشجر واللواب ، كلهن حركات وأضواء مقرا كرات ، ظهرت للعيون بهيئات مختلفات ، ولكن الصم يقول . كلا . ثم كلا . أيها الصيون ، أيها الأسباع ، لا وجود ، لا وجود ، كل هذا حركات ، والمحرك لانراه ، له وجود كامل ، وهو تام الرحمة ، ومن رحته انه أراد أن يصور في هذه الجاهل أرواحا ويلهمها علما ، ونحبه ويحبها ، فاذا يصنع ؟ صنع هذه الحركات ، فأبرز بها نور الكهروبا ، فضغطة ، فتراكم وازدحم وانحصر انحصارا شديدا في الترات والجواهر الفردة ، وبهذا التراكم أصبح مشاهدا محسوسا ، وما عوالمنا إلا تنوع وتجديد ، واختلاف في الصور والأشكال ، واذا كان أصل العوالم سالب الكهروبا وموجبها ، فهكذا نشأت كلها على هذا النقط ، سماه وأرض ، وجاد وحيوان ، أعلى وأسفل ، حي وميت ، أسود وأبيض ، رفيع وروضيع ، كافر ومؤمن ، عالم جاهل ، ملوك وسوقة ، ذكوري وبيد . وهناك تفاعل وتفاعل ، فهذا التفاعل به دوام الوجود وترقى هذه الصور تعيش الأرواح الحيوانية ، وهي لاحياة لها إلا بهذه الصور التي مبدؤها تلك الحركات ، وأقرب شيء إلينا ماسر في (سورة الفتح) من أن في كل قطرة كسن الابرة لاتزيد على جزء من عشرين ألف جزء من البوصة المربعة خمسة ملايين خلية جراه بها يحمر السم ، وهي عاملة ناصبة جاهدة ، وتسعة آلاف خلية بيضاء هي المدافعة عن المملكة الجسمية ، لتحافظ عليها من الترات الباتخلات في الجسم لاهلاكه ، إذن أرواحنا لارتقاء لها إلاق جو مشبع بالمرآك والخلاف ، والاشتبك ، والاختلاط ، والاختلاج ، وكل أم يتبعها ولدها ، فاذا كان هذا هو الأصل البعيد والأصل القريب ، والأخير يشبه الأول فهكذا تكون هذه النفوس ، ففيها تكون الصدوات والشحناء ، والحسد والبغضاء ، كما تكون المحبة والولاء والشوق بالوجدان .

هذه طبائع عوالمنا ما هي إلا حركات ، والحركات متضادات ، وبغير هذا لا وجود للمادة ، والمادة فيها تربي الأرواح (وبعبارة أخرى) ان وجود العالم وجود ناقص والانسان تبع للناقص مستند منه ناهج عنه ، والنتائج على مقتضى المقدمات ، ولقد قدمنا أن الله رحيم ، ومن أجل رحمته انه بخلق خلقا من روحه هو وهي النفوس الانسانية ، وهذه النفوس أيضا ناقصة ، ولا كمال لها إلا بالتطور والتشكل ، والتطور والتشكل إنما يكونا في المادة ، والمادة ناقصة ، فاذا كان هذا طبع الوجود الناقص ، طبعه التناقض ، فلم يبق إلا مرتبة واحدة وهي تصفية هذه الأخلاط ، وازالة هذه الناقص ، لذلك أنزل الأنبياء والحكمة في الأرض ، فأعطوا الناس دروس المحبة والمودة والموعظة الحسنة ، ومنها هذه السورة ، فله (وان كان رجيا) لا يخلق المستحيل ، ومن المستحيل أن تخلق أرواحنا كاملة ، كما كان من المستحيل أن يكون للمادة وجود أولى ، فاذا كان أصل الوجود المادى معدوما فالكمال معدوم من باب أولى ، فمن الرحمة اتهاج خطة ارتقاء الأنفس في مدارج الكمال ، وهذا هو الذي جاء في (سورة الحجرات) .

إن ارتقاء النفوس البشرية لاسبيل له إلا التدرج نحو الكمال ، فليكن الناس في أول حياتهم كالأسود شراسة
وكالأنعام شرارة ، فليرفعهم العلم إلى درجات الملائكة الكرام ، والوجود الكامل لغير صانع العالم مستحيل
فقول القائل : لم خلق الله نفوسنا ناقصة ثم هو يكملها ، وهلا خلقها كاملة من أول وهلة ؟ معناه لم يكن كل
إنسان أصلا للوجود (وبعبارة أخرى) لم يكن كل إنسان إله إلا كمال إله ، فإذا خلقنا نحن كاملين
فمعناه أننا آلهة ، وهذه هي الحقيقة ، كل ما عدا صانع العالم أصله العدم والوجود طارئ عليه وهو لا يقبل
من الوجود الطارئ إلا قليلا قليلا حتى يصل للكمال الذي يليق به (وبعبارة أخرى أيضا) يصل
إلى مرتبة لا يتعداها ، وغيره يصل إلى أقل أو أكثر منه ، هذه هي الحقيقة ، وهذا هو جواب أصل السؤال

جمال في جمال

يخيل لي وأنا أكتب هذا الموضوع أن كل ذرات الوجود مشرقات ، وانها تفتحت أكامها ، وازدهرت
فأشرقت الأنوار المنبوءة فيها التي يحاول علماء الألمان وروسيا استخراجها للانتفاع بها في الأعمال ، وكأنها
كلها الآن مضيئة .

الله أكبر : نعم كلها موسيقى ، ألم تر أن حركاتها منتظمة ، ألم تر أن حركاتها في النور تكون من أربعمائة
مليون مليون في الثانية إلى ٧٠٠ مليون مليون فيها ، أي من ابتداء لون الحرة إلى انتهاء لون البنفسجي .
جبل والله هذه المناظر ، حركات تعد بالملايين في الثانية في ذرات لاحصر لعددتها ، قد حجت روعي عنها ،
روعي التي تعيش في وسط هذه الأنوار وهذه الحركات ، روعي المسكينة المحجوبة بالمنوعة عن أن تسمع تلك
الحركات وت شاهد تلك الأنوار ، نعم حجبها الله ، حجبها عن ذلك الجلال وعن تلك الأنوار رحمة منه بروعي ،
لأنها لو سمعت تلك الموسيقى ، وأرأت تلك الأنوار ، وشاهدت أساليبها في الحديد والنحاس والرصاص والماء
والهواء والجمال ، وشاهدت أفانينها المختلفة ، وضروبها العجيبة ، وسمعت تلك الأغاني ، وأنواع الموسيقى ،
وضروب اللحن الشجية لتدابت من اللذة ، ولطكت من وفرة الجلال ، أنا الآن أعيش في جمال منظور ،
وجمال مسموع ، ولكنني عنه محجوب ، رحمة من الله في .

ومن رحمة بالحيوان أيضا انه غشى على عقله ، وهلى بصره ، وهلى سمعه ، وشغله بتحصيل قوته ،
ومطرودة عنده ، ولولا ذلك لشاهد تلك الأنوار ، ولذهل من جمال الأصوات في موسيقى الترات . ألم تر أن
الجمال تهيم عند سماعها للفناء ، وأن الحيتان في البحار العظيمة تصطاد بالآلات المطربات الشجيات النغمات ،
إذن الجمال محبوب عند كل حيوان كما هو محبوب عند الانسان ، فكان احتجابه عنه رحمة به ، والا لهلك
الأولون والآخرون .

الذرات مركبات من جمال وباختلاف حركاتها وتنوع صورها كان هذا الوجود ، المملوء بالتنافسات
للمؤلمات المؤذيات ، من الحر والبرد ، والحلو والمر ، والخيث والطيب ، ولكن أصل الوجود غلب عليه
وهو الجمال ، الأترى إلى الشجرات المزهرات ، والشموس الطالعات ، ألم تر كيف ترى صباحا قطرات الندى
على الورق وهي أشبه بقطع المس الجيلات ، ألم تر كيف يستبين لك منظر نسيج العنكبوت ، وقد جلله الندى
بهيمة خيمة من الجواهر البديعة والمس المشرق البهيج ، غلب الجمال على ظواهر الطبيعة بعد أن ظهرت بظهور
الغضوب الشموس ، لأنها تريد أن ترجع إلى أصلها ، وتظهر أصل جمالها ، فإذا غاب عنا تنوع حركات
الكهرباء في الترات من حيث جمال ألوان أضوائها ، وبهجة موسيقاها ، فوالله لم يغب عن عيوننا مشاهدة
باهر جمالها في الليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس ، فالجمال باق وان أحاطت به المؤلمات والمزججات ،
والاسان يناهد ذلك ، والعناية الإلهية تريد أن ترقبه ، فإذا تصنع ؟ خلقت فيه قوى متضادة ، وألته

بالحسد والحقد والعداوات والحروب ، وقالت أيها المسلمون : حاربوا كل من يؤذيكتم وأنتم تفسرون دعوة الاسلام ، وياعلماء الألمان والرومان والروسيا وجميع أوروبا اخترعوا المهلكات ، وابتدعوا ماتشامون من المنذرات ، واشغلوا نفوسكم بذلك حتى تغيب عقولكم عما أمامكم من الجبال الذي يتم على أصل الجبال ، وبهذه الشواغل تعيشون أمدا مقترا ، ولوأن الجبال غلب عقولكم مما تشاهدون ولم تشبه شواحب الحسد والطمع والنبارة والمنافسة طلكتم ولصرتم في خبر كان .

وهذه المزيجات جعلت رياضة لكم ، ليكون الكمال الوارد إليكم قليلا قليلا بقدر ما تسمح به قواكم فتستبطلونه استنباطا في أثناء مجادلاتكم . كما ان خير الماء كل في صحة أبدانكم ما كان غير مركز فتأخذ منه الخلايا حظها قليلا قليلا . فأما الأغذية المركزة فانها تظفي على الجسم شر طفيان ، فتكون فيه بشور وقروح وأمراض .

إن كل ما أخذ بلا تعب ونصب ، فهو عند من ناله مرمى منبوذ ، لا تعبده نفسه التفاتا ، ولا له عندها منزلة ، فكل ميدول مطروح ، وأحب شيء إلى الانسان مامع .

فلما سمع صاحب ذلك وهو شديد الاصفاء إلى . قال : إن هذا لون آخر من ألوان العلم ، وصورة محبرة ، ونعمة ونعيم ، وحكمة من الله الحكيم العليم ، لم يرد على نطقها درس فيما درسناه ، ولم تر لها شباها فيما قرأناه . قلت : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات . انتهى الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة ، والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الخميس ١٢ نوفمبر سنة ١٩٣١ م

القسم الثاني من السورة

التفسير اللفظي للسورة كلها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قبل البدء في تفسير هذا القسم ، نذكر صلة هذه السورة بما قبلها ، فنقول : (سورة الفتح) قد ذكرت بعد القتال ، لمناسبة أن الأولى كالقدمة ، والثانية كالنتيجة ، إذ الفتح إنما يكون بعد القتال . أما هذه السورة فهي أشبه بما يعقب الفتح ، فان الأمة اذا جاهدت ثم فتح عليها والنبي ﷺ بينهم وقد استتب الأمر ، فاذن يجب أن توضع القواعد التي تكون بين النبي ﷺ وأصحابه ، وكيف يعاملونه ؟ وما الآداب التي يكونون عليها ؟ فانهم اذا كانوا في الأمثال المضروبة في التوراة والانجيل قد تراخوا فيما بينهم وسجدوا وركعوا وعبدوا ، ثم نموا وعظموا ، وقوّوه ، وغاظوا الكفار ، فليكن البحث بعد ذلك في طريق المعاملة بينه وبينهم ، ثم كيف يعامل بعضهم بعضا ؟ فهذا هو ملخص السورة وترتيبها ونسقتها مع ما قبلها ، ولنشرع في تفسير الألفاظ ، فنقول : قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) أي لا تتقدموا ، من قوالم : مقدمة الجيش لتقدمهم ، ان حقيقة قوالم جلست بين يدي فلان أن تجلس بين الجهتين المسامتين ليمينه وشماله قريبا منه ، فنميت الجهتان يدين مجازا للجواررة ، ومعنى لا تتقدموا بين يديه ، لا تقبلوا أصرا من الامور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة ، وهذا على سبيل الاستعارة التمثيلية صور للمقول بصورة المحسوس (وبعبارة أخرى) لا تقبلوا أصرا دون أن يحكما به ، وفي ذكر الله معه تعظيم له صلى الله عليه وسلم ، والمقصود من هذا المعنى الاحتذاء لأوامره ونواهيه فلا يجولون بقول أو فعل قبل أن يقوله صلى الله عليه وسلم ، أو قبل أن يفعله . فلا يذبحون يوم عيد الأنهي قبل ذبحه ، فان الذبح بعد الصلاة ، ولا يصوم أحد يوم الشك وقد نهى عنه ، ولا ترفع الأصوات عنده كما حصل من الشيخين ، إذ اختلفا في أمر

فارتقت أصواتهما بحضرة لما قدم وفد من بني نعيم ، وهذه أمثلة قد أسند لكل منها أنه سب نزول الآية وهي علمة شاملة لا تخص ما ذكر (واتقوا الله) في التقديم ومخالفة الحكم (إن الله سميع) لأقوالكم ورفع أصواتكم عنده (عليه) بما تعملون ، ولما كان ثابت بن قيس بن شماس جهورى الصوت ، وفي أذنه وقر ، كان يتأذى رسول الله ﷺ بصوته ، فنزل فيه وفي أمثله قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) إذا كلمتموه ، فإذا نطق وفتقتم فليكن أن لا تلبثوا بأصواتكم وراء الحد الذي يلقى بصوته ، وإذا كلمتموه وهو صامت فليكن أن تلبثوا به الجهر الدائر بينكم ، وأن تقولوا يا محمد يا أحد ، بل خاطبوه بالنبوة مع السكينة والتعظيم : وهذا قوله تعالى (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) في الأمرين المنتظمين خشية (أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) ففى الرفع والجهر استخفاف قد يؤدى إلى الكفر المحبط اذا ضم إليه قصد الاهانة وعدم المبالاة ، ولما نزلت هذه الآية تخلف ثابت بن قيس ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله : لقد أنزلت هذه الآية ، وأنى رجل جهر الصوت ، فأخاف أن يكون عملى قد حبط فقال عليه الصلاة والسلام : لست هناك ، انك تعيش بخير وتموت بخير ، وانك فى أهل الجنة . فقال : رضيت يشترى رسول الله ﷺ لا أرفع صوتى على رسول الله ﷺ أبدا . فأنزل الله تعالى (إن الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله) مراعاة للأدب (أولئك الذين استصن الله قلوبهم للتقوى) أى ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الشاقة حتى ظهرت تلك القلوب وصفت بما كابدت من الصبر على المشاق ، وقال عمر رضى الله عنه : أذهب الشهوات عنها ، والامتحان اختبارا بليغ (لم مغفرة) لذنوبهم (وأجر عظيم) لفضهم وسائر طاعتهم :

(١) وروى أن رسول الله ﷺ أخبر ثابتا بأنه سيقتل فى سبيل الله ، فلما كان يوم الجمعة فى حرب مسلحة قتل ، وكان عليه درع فرأه رجل من الصحابة بعد موته فى المنام . فقال له : إن فلانا رجلا من المسلمين نزع درعى فذهب به وهو فى ناحية من السكر عند فرس يستن فى رطيله ، وقد وضع على درعى برمه فأت خالد بن الوليد ، فأخبره حتى يسترد درعى ، وأت أبابكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقل له ان على ديننا حتى يقضيه عنى ، وفلان من رفيق عتيق ، فأخبر الرجل خالدا ، فوجد البرع والفرس على ما وصفه فاسترد البرع ، وأخبر خالد أبابكر بتلك الرؤيا ، فأجاز أبو بكر وصيدا ، قال مالك بن أنس : لا أعلم وصية أجيئت بعد موت صاحبها إلا هذه .

(٢) ولما نزلت الآية الأولى كان أبو بكر لا يكلم رسول الله ﷺ إلا كاخى السرار ، وما حدثت عمر النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ، فسمع النبي ﷺ كلامه حتى يستفهم مما يخفى صوته ، لذلك مدحهم الله بفض الصوت عند رسول الله ﷺ ثم ان العرب كانوا يماثلون النبي ﷺ على عادتهم فيما بينهم

(١) لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى بني العنبر ، وجاءوا ببياهم سببا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رئيس السرية عيينة بن حصن القرظى ، جاء بعد ذلك رجالهم يفتدون القرظى ، فقدموا وقت الظهيرة ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائل فى أهله ، فجعلوا ينادون يا محمد اخرج إلينا ، حتى أيقظوه من نومه ، فخرج إليهم ، وأعتق نصف القرظى ، وقبل فداء النصف الثانى .

(٢) وأيضا لما جاء عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، والزبرقان بن بدر وافدين على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبعين رجلا من بني نعيم وقت الظهيرة ، وهو راقد نادوه : وقالوا يا محمد اخرج إلينا ، وذلك للفاخرة كما هو معلوم فى فن الأدب والحديث ، لذلك ولأمثاله نزل قوله تعالى : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات) من خارجها سواء أكان من خلفها أم من قدامها ، والحجيرة قطعة أرض محجورة بحائط

والمراد حجرات نساته صلى الله عليه وسلم (أكثرهم لا يقاتلون) لأن القتل يقتضى حسن الأدب وحرصاً على
الحشمة ، لا سيما لمن كان في منصب النبوة (ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان) الصبر (خبراً لهم) من
الإستبجال لمأفاه من الأدب (وإنه غفور رحيم) لأنه اقتصر على النصح والترغيع طويلاً للنبئين للأدب .
وبهذا تم الكلام على القسم الثاني من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث من السورة

روى انه صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق ، وكانت بينه وبينهم
احنة في الجاهلية ، فلما شارف ديارهم ركبوا مستبشرين إليه ، فخرج مقابله ، فرجع وقال (رسول الله صلى
الله عليه وسلم : قد ارتقوا ووضوا الزكوة ، فبعث خالد بن الوليد فوجدهم يصلون ، فسلموا إليه الصلوات ورجع
قزلاً : (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ) أى بآى نبأ (فتبينوا) فتوقفوا فيه ، وتطلبوا بيان للأمر
وافكشاف الحقيقة ، ولا تعتمدوا قول الفاسق ، لأن من لا يبالي بالفاسق لا يبالي بالكذب القبيح هو نوح منه .
والفسوق الخروج من الشيء ، يقال فسقت الرطبة عن قشرها ، وفى مقابلهما فسقت أليضة إذا كسرتها
وأخرجت ما فيها ، وأيضاً فسقت الشيء إذا أخرجه من بد مالكه مقتسباً له ، ويستعمل في الخروج من
القصد بركوب الكبائر ، وقوله « فتبينوا » فى قراءة أخرى « فتلبنوا » ، والتثبت والتبين متقربان ،
وهما طلب البيان ، يقول فتبينوا كراهة (لأن تصيبوا قوماً بجهالة) أى كراهة إصابتكم قوماً جاهلين بحالهم
(فتصبحوا) فتصباحوا (على مفضلتم نادمين) مقتضين مما لازموا ، متمنين أنه لم يقع ، وقوله فاسق على هذا
هو الوليد بن عقبة ، وأنت ترى أن الفسوق خروج عن الحق ، وهل كان الوليد كذلك ؟ إن الوليد أخطأ
فى ظنه فليس فاسقاً ، فالأولى والأحق أن يراد العموم أى أى فاسق ، والتقييد بالفاسق يدل على قبول خبر
الجاهل العدل ، إذ لو توقتنا فى خبره لسوينا بينه وبين الفاسق ، ونحلاً التخصيص من الفائدة (واعلموا
أن فيكم رسول الله لو يطعكم فى كثير من الأمر لعنتم) المعنى أن فيكم رسول الله على حال يجب تغييرها وهى
انكم تريدون أن يقع رأيكم فى الحوادث ، ولو فضل ذلك لعنتم ، أى لو قسم فى الصنت ، وهو الجهد والملاكة ،
وكان هذا يشير إلى الرواية السابقة على ما قيل ان بعض المؤمنين زينوا له صلى الله عليه وسلم الإيقاع بين
المصطلق وتسدق قول الوليد ، وأن بعضهم كانوا يتصونون ، ويزعمهم جدهم فى التقوى عن الجسارة على
ذلك ، وهم الذين استثناهم بقوله (ولكن الله يحب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر
والفسوق والعصيان) فحبهم للإيمان إلى آخره جعلهم على ذلك لما سمعوا قول الوليد (أولئك هم الزاحمون)
أى أولئك المستنون هم الذين أصابوا الطريق السوى ، وعن أبى نصره ، قال : قرأ أبو سعيد التبرى
رضى الله عنه « واعلموا أن فيكم رسول الله » إلى قوله « حب إليكم الإيمان » قال هذا فيكم بوسى إليه
وخيار أمتكم لو أطاعهم فى كثير من الأمر لعنتوا فكيف بكم اليوم ؟ أخرجه الترمذى ومصححه ، وقوله (فضلاً
من الله ونعمة) أى حبب إليكم الإيمان فضلاً الخ مفعول لأجله (واقفه عليهم) بأحوال المؤمنين وما بينهم
من الفتن (حكيم) يفضل وينم بالتوفيق على الأفضال (وان طاقن ان المؤمنين اقتتلوا) قتلتوا
(فأصلحوا بينها) بالنصح والعتاء إلى حكم الله (فان بنت إحداهما على الأخرى) تعدت عليها (فقتلوا)
التي تبى حتى تبنى إلى أمر الله) ترجع إلى حكمه ، أو ما أمر به (فان قامت فأصلحوا بينهما وأبدل) فصل
ما بينهما على ما حكم الله (وأصلحوا) وأعدلوا فى كل الأمور (إن الله يحب المتصليين) بحمد فعلهم بحسن
الجزاء ، نزل فى قتال حدث بين الأوس والخزرج فى عهد رسول الله ﷺ بالنصف والنمال ، ولما نزلت قرأها
صلى الله عليه وسلم ، فأصلحوا وكف بعضهم من بعض ، وهذا دلالة انه يجب مطوعة من بهى عليه

تسلمهم النصح والسعي في المصلحة ، وأيضا الباطني مؤمن وإذا قبض عن الحرب ترك ، لأنه طاه إلى أمر الله
(لأنها المؤمنون إخوة) لأنهم منفسون إلى أصل واحد وهو الإيمان الموجب للحياة الأبدية (فأصلحوا بين
أخوتكم) إذا اختلفا واقتتلا ، ذلك أن الإيمان قد عقد الاخوة بين المؤمنين ، نهى كاخوة النسب أو أختى
وقد جرت العادة أنه إذا حصل مثل ذلك بين الآخرين في النسب فانهم يجتهدون في رضىه بالصلح ، فالاخوة
في الدين أختى بذلك ووضع الظاهر موضع المضمرة في أخوتكم مضافا إلى المأمورين بالصلة في التقرير والتخصيص
(واقتوا الله) في مخالفة حكمه والاعمال فيه (لأنكم ترجمون) على تقواكم (بأيها الذين آمنوا لا يسخر
قوم من قوم صبي أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن) أي لا يسخر بعض
المؤمنين والمؤمنات من بعض ، إذ قد يكون المسخور منه خيرا عند الله من الساخر ، والقوم مختص بالرجال
وهو جمع قائم كزائر وزور ، ويقال أيضا انه مصدر نعت به فشاخ في الجلع (ولا تلمزوا أنفسكم) أي ولا يبع
بعضكم بعضا ، فإن المؤمنين كنفوس واحدة ، ويصح أن يقال ولا تضاوا ما تلمزون به ومن فعل ذلك فكأنما
لمز نفسه ، والمز اللطس باللسان (ولا تنازروا بالألقاب) ولا يدع بعضكم بعضا بلقب السوء ، فإن التبرع بقلب
السوء عرفا (بش الاسم الفسوق بعد الإيمان) الاسم هنا الذكر من قولهم طاراسه في الناس بالكرم ،
أو بالثوم ، أي بش الذم المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسوق بعد دخولهم الإيمان واشتبارهم به . يقال ان
الآية نزلت في صفة بنت سبي رضى الله عنها أنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : ان النساء يقطن لى
« يهودية بنت يهوديين » . فقال لها : هلا قلت ان أبى هارون وعمى موسى وزوجى محمد (ومن لم يتب)
عما نهى عنه (فأولئك هم الظالمون) حيث وضعوا العصيان موضع الطاعة (بأيها الذين آمنوا اجتنبوا
كثيرا من الظن) كونوا منه على جانب ، فليتناقل المؤمن وليعتصم حتى يعلم أمن الامور العملية ذلك الظن
فيجب اتباعه ؟ أم من حسن الظن بالله فكذلك ؟ أم في الاهليات والنبوات حيث يخافه الدليل القاطع ؟
فيحرم اتباعه ، أم هو ظن سوء بالمؤمنين فكذلك ؟ أم هو في الامور المعاشية فيباح (إن بعض الظن إثم)
أي ذنب كالثالث والرابع فيما تقدم (ولا تجسسوا) ولا تبجسوا من حورات المسلمين من الجسس ، وفيه معنى الطلب
كالتجسس ، وفي قراءة بلقاء من الجسس الذي هو أتر الجسس ، كما يقال للجواس الجواس . وفي الحديث :
« لا تبعوا حورات المسلمين فإن من تبع عورتهم تبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته » يروى
أن سلمان الفارسي كان مع رجلين موسرين ، وهم مسافرون للجهاد ، فقالا له يوما : انطلق فاطلب لنا طعاما
فانطلق إلى أسامة بن زيد بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو خازن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يجد
عنده طعاما ، فأخبرهما ، ثم أرسله إلى طائفة من الصعابة فلم يجد ، فأخذا يتجسسان هل عند أسامة
ما أمره رسول الله ﷺ فلما جاء إلى رسول الله ﷺ قال : مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما
فقالا والله يا رسول الله ما تناولنا يوما لحما . فقال : نلتها تأكلان لحم سلمان وأسلمة فنزلت هذه الآية (ولا
يتب بعضكم بعضا) ولا يذكر بعضكم بعضا بالسوء في غيبة ، والغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه ، فإن كان
فيه فقد اغتبت ، وإن لم يكن فيه فقد بته (أحبب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا) ههنا تمثيل ونصوير
لما ياله ثقتاب من عرض أخيه على الخس وجه ، والمبالغة في الآية ظاهرة في الاستفهام التقريري واسناد
التسل إلى أحدكم ، وجعل المأكل لجه أنا وهذا الأخ ميت ، وعن قتادة : « كما تكره ان وجدت جيفة
مهلوسة أن تأكل منها كذلك فأكره لحم أخيك وهو حي » (فكرهتموه) أي ان صح ذلك وعرض عليكم
هذا فقد كرهتموه ، ولا يمكنكم إنكار كراهته (واقتوا الله) بترك ما أمرم باجتنابه ، والتدم على ما وجد منكم
منه ، فإذا اتقيتم قبل الله توبتكم ، وأنتم عليكم بثواب المؤمنين التائبين (إن الله تواب رحيم) يا أيها
الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى من آدم وحواء فكيف يعتاب بعضكم بعضا ؟ وكيف يسخر بعضكم من

بعض وتتنازرون الخ (وجعلناكم شعوبا وقبائل) الشعب الجليل العظيم المنسوبون إلى أصل واحد ، وهو يجمع القبائل والقبيلة تجمع الصائير ، فالبطون ، فالأنفاذ ، فالفضائل . فخرجة شعب ، وكثافة قبيلة ، وقرية عمارة وقصى بطن ، وهاشم نخذ ، وعباس فضيلة (لتعارفوا) ليعرف بعضكم بعضا لا للتفاخر ولا للحرب والتميز والتبذ والسخرية ، وظن السوء بالأخ في الدين (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فبال تقوى من العلم والأخلاق والأعمال الشريفة تتفاضل النفوس لا بالأنساب ، فمن أراد الشرف فليبتسمه منها . قال عليه الصلاة والسلام : « من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله » . وقال عليه الصلاة والسلام : « يا أيها الناس إنما الناس رجلان : مؤمن تقي كريم على الله ، وفاجر شقي هين على الله » . (إن الله عليم) كرم القلوب وقولها (خير) ببواطنكم به روى أن قرأ من بني أسد قدموا المدينة في سنة جدية ، وأظهروا الشهادتين ، وكأوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتيناك بالأقال والعيال ، ولم نقاظك كما قاظك بنو فلان ، يريدون الصدقة ويمنون ، فزل : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا) إذ الإيمان تصديق مع ثقة رطماينة قلب ولم يحصل لكم والامنا منتم على الرسول بالاسلام وترك القاطة (ولكن قولوا أسلمنا) فان الاسلام اقياد ودخول في السلم ، واظهار الشهادتين ، وترك المحاربة بشره (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) أى ولكن قولوا أسلمنا ، والحال انه لم تواطى قلوبكم أنفسكم بعد (وان تطيعوا الله ورسوله) بالاخلاص وترك النفاق (لا يتسكم من أعمالكم) لا يتسكم من أجورها (شبيها) يقال لات يليت اذا قصص (إن الله غفور) لما فرط من اللطيفين (رحيم) بالفضل عليهم (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) لم يشكوا ، يقال رابه فارتاب (وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) في طاعته ، والمجاهدة بضمها تطلع للعبادات المالية والبدنية (أولئك هم الصادقون) الذين صدقوا في إيمانهم (قل أنظرون الله دينكم) أى أنظروا بقولكم آمنا (الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله بكل شىء عليم) لا يخفى عليه خافية (يمنون عليك أن أسلموا) أى يمتنون اسلامهم عليك منه وهى النعمة الثقيلة من المرن (قل لا تمنوا على إسلامكم) أى بسلامكم منصوب على نزع الخافض (بل الله يمتن عليكم أن هذا لكم للإيمان) على ما زعمتم مع ان الهداية لا تستلزم الاهتداء (إن كنتم صادقين) فى ادعاء الإيمان فته الله عليكم ، وهذه الجلة جواب ان (إن الله يعلم غيب السموات والأرض) ما غاب فيهما (ولله بصير بما تعملون) فى سرهم واعلانكم ، فكيف يخفى ما فى ضمائرهم . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة والحمد لله رب العالمين .

خاتمة فى مباحث هذه السورة

مباحث هذه السورة قسان : قسم بين النبي ﷺ والأمة ، وقسم بنحس الأمة ، والثانى إما تخيلية بترك الرذائل ، وإما تخيلية بالفضائل ، والقسم الأول هو : —

- (١) لا يقدم المؤمنون على أمر من الامور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة .
- (٢) التيب والاجلال له .
- (٣) لا يتجاوز صوتهم صوته .
- (٤) تكون أصواتهم أخفض من صوته دلالة على الترحيب ومراعاة للأدب .
- (٥) لا يخاطبون باسمه وكنيته كما يخاطب بعضهم بعضا ، بل يخاطبونه بالنبي والرسول .
- (٦) من خفصوا أصواتهم عند رسول الله ، كما كان يفعل عمر وأبو بكر وثابت رضى الله عنهم ، امتحنتم قلوبهم للتقوى وخلمت بالاختبار كما يمتحن الذهب بالنار ليخرج خالصه .

(٧) بنو العنبر الذين نادوه من وراء الحجرات ، وهكذا عينة بن حصن ومن معه من وفد بني تميم إذ قالوا وقت الظهيرة وهو راقد : يا محمد اخرج إلينا أكثرهم لا يقتلون .

(٨) الصبر خير لهم حتى تخرج ونكلمهم .

(٩) ذمّ المؤمن على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإيمان ، وأنّ المؤمن إنما يكون لله إذ هداهم إلى الإيمان إن صحت لهم الهداية .

وهذه المسائل التسع فتعج بابلطامة ذوي العلم وخفض الصوت عندهم ، واحترامهم لشيوخ العلم والنضلاء في السلام .

القسم الثاني في التخلية بتوك الرذائل

(١) لا نسمع كلام الفاسق بل تثبت لتظهر الحقيقة وإلا وقعنا في فتنة جهلا ، وتدنا غما .

(٢) تقبل كلام العدل ، وهو يوجب الطيق لا اليقين .

(٣) إذا اجتمعت طائفة لهم قوة ومنعة ، فاستعوا عن طاعة الامام العادل بتأويل محتمل ، وضربوا

لهم إماما ، فالحكم فيهم أن يبيت لإيهم الامام ويدعوهم إلى طاعته ، فان أظهروا مظلة أزاهبا

عنهم ، وان لم يفرّكروا مظلة وأصروا على البني قاتلهم الامام حتى يفيثوا إلى طاعته ، ثم إن

هؤلاء لا يتبع مدبرهم ، ولا يقتل أسيرهم ، ولا يذبح على جريحهم ، أي لا يجهز عليه . وأتى على

عليه السلام يوم صفين بأسير ، فقال : « لا أقتلك صبورا إني أخاف الله رب العالمين » ، ثم انه

لاضمان في قس أموال على إحدى الطائفتين ، فأما اذا كان البغاة قسمة قليلة لا منعة لها ، أولم

يكن لهم تأويل ، أولم ينصبوا إماما ، فلا يتعرض لهم اذالم ينصبوا قتالا ولم يتعرضوا للمسلمين ، فان

فعلوا ذلك فهم كقطع الطريق في الحكم . هذا ملخص ما جاء عن الأئمة في قتال الباغين .

أما الآية التي نحن بصددنا ، فالكلام عليها أهم ، فليصلح المسلمون بين المتقاتلين قالوا أو كفروا

فان بقت إحدى الطائفتين ، فلتقاتل الباغية ، ومتى قامت فيمكن الصلح بالعدل .

(٤) العدل في كل الامور .

(٥) شوق الله المسلمين وحضهم على الصلح بين اخوانهم ، وحبب إليهم ذلك بذكر الاخوة وتكرارها

(٦) قوى الله وعدم مخالفة أحكامه ليرجعهم بتلك القوى .

(٧) ترك السخرية ، فلا يسخر رجل برجل ، ولا امرأة بامرأة .

(٨) ربما يكون السخور منه خيرا من الساخر ، كما كان الأنبياء يسخر منهم الجهال ثم يملونهم كما

حصل لنوح عليه السلام : « إن تسخروا منا فانا نسكر منكم كما تسخرون » .

(٩) لا يكن لزم من المؤمن للمؤمن ، وهو الطعن والضرب باللسان ، واذا عاب المؤمن المؤمن فكأنما

عاب نفسه ، واذا فعل الانسان ما يستحق به الجزأ بأن عرّض نفسه لذلك ، بسبب الوقوف مواقف

التهم مثلا ، فكأنما لزم نفسه وعابها ، وأيضا اذا عاب الانسان غيره كان ذلك حاملا لذلك على

عيبه فكأنه عاب نفسه .

(١٠) لا يكن تنابز بالألقاب ، فاذا عمل الرجل سيئات ثم تاب عنها ، فان الله نهى أن يعبى بما سلف

من عمله ، وأيضا لا يقول المؤمن لأخيه : يا فاسق ، يا منافق ، يا كافر ، يا جاهل ، يا خنزير ،

وهكذا كل ما يكرهه المنادي به ، أو يفيد ذمّ له ، فأما الألقاب التي صارت كالأعلام : كالأعمش ،

والأعرج ، فلا بأس بها .

- (١١) النهي عن تلقى السوء بالمسلم مع التسكلم به كما قال سفيان وضبره لم يقيد بذلك ، وعن سوء الظن بالله .
- (١٢) لا يبحث المسلم عن السيوب المستورة ، ولا يتبع عورات الناس ، حتى لا يظهر ماستره الله . يقال : « نظر ابن عمر يوما إلى الكعبة ، فقال : ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك » .
- (١٣) لا يذكر بعض المؤمنين بعضا بالسوء في غيبته « روى أن عائشة ، قالت : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : حسبك من صفة كذا وكذا : أى قصيرة . فقال : لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته ، أى ناطقته مخالطة يتغير بها طعمه وريحه ، لشدة نيتها وقبحها . وقال ميمون بن سيار : بينا أنا نائم إذا بجيفة زنجي وقائل يقول : كل يلعبد الله . قلت : وما آكل ؟ قال : كل بما اغتبت عبد فلان . قلت : والله ما ذكرت فيه خيرا ولا شرا . قال : ولكنك استمعت ورضيت فكان ميمون لا يغتاب أحدا ، ولا يدع أحدا يغتاب أحدا عنده .
- (١٤) تقوى الله في أمر النبية ، وفي جميع المنهيات . هذه هي التحلية عن التقايل المذكورة في هذه السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث : التحلية بالفضائل

- (١) إن الناس مخلوقون من ذكر وأنثى ، هم كانوا شعوبا وقبائل ليتعارفوا ، فيكون الناس على هذا كأغصان الشجرة وأوراقها وأزهارها وأثمارها ، فإنها كلها متصلة متحدة مجتمعة على أصل واحد ، وكما أنه لا فضل لورقة على ورقة في الشجرة ، إلا بما امتازت به ، ولا فضل لزهرة على ورقة ، ولا لثمرة على زهرة إلا بما فضلت به الزهرة وفضلت به الثمرة ، هكذا لا فضل لأحد من الناس على آخر إلا بالتقوى ، فالأتقياء كالأزهار والأثمار ، وغيرهم أقل من ذلك ، يقال إن ثابت بن قيس لم يفسح له رجل في المجلس ، فقال فيه (ابن فلابنة) ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : من هذا ؟ قال ثابت : أنا يا رسول الله . قال انظر في وجوه القوم ، فنظر ، فقال : ما رأيت بياضا ؟ قال رأيت أبيض وأحمر وأسود . قال : إنك لا تفضلهم إلا بالدين والتقوى ، فنزلت في ثابت هذه الآية ، ونزل في الذي لم يفسح له : « يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس الخ »
- (٢) قيل لما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله ﷺ بلالا حتى علا على ظهر الكعبة وأذن ، فقال عتاب بن أسيد بن القيس : الحمد لله الذي قبض أبى ولم ير هذا اليوم ، وقال الحرث بن هشام : أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا ، وقال سهل بن عمرو : ان يكره الله شيئا يغيره ، وقال أبو سفيان : لا أقول شيئا ، أخاف أن يغيره رب السماء ، فنزل جبريل فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قالوا ، وسألهم عما قالوا فأقرّوا ، فأنزل الله هذه الآية ، وزجرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال ، والأرزاء بالفقراء ، لأنهم متساوون في النسب ، فلا تفاخر لبعض على بعض ، لكونهم أبناء رجل واحد وامرأة واحدة ، وفي البخاري لما سئل : « أى الناس أكرم » ، قال : أكرمهم عند الله أتقاهم ، فلا زالوا يدققون في السؤال حتى قال في العرب : خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا أى تعلموا » . وعن ابن عمر أن النبي ﷺ طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الأركان بمحجنه ، فلما خرج لم يجد مناسا ، فنزل على أيدى الرجال ، ثم قام فخطبهم

حمد الله وأثنى عليه ، وقال الحمد لله الذي أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتكبرها ، يا أيها الناس :
 إن الناس رجلان : برّ نقيّ كريم على الله ، وفاجر شقيّ هين على الله ، مم تلا : « يا أيها الناس
 إما خلقناكم من ذكر وأنثى الخ » ، ثم قال : أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم . -
 قوله المحجن : عما محنية الرأس كالصولجان ، وقوله عيبة الجاهلية أي كبرها ونفراها اه

تذييل السورة

اعلم أن ترك الرذائل المذكورة مقم على التحلية بفضائل الائتلاف ، ولذلك قدم في السورة على
 تعارف بني آدم ، فأولاً تعظيم الرسول ، وقبول قوله ، ثم الآداب العامة بين الناس ، ثم يكون اتحادهم بالتعارف
 وبالبحث والعلم ، وهذا هو المقصود الأعظم . ألا تعجب من هذا المقام ! ألا تعجب كيف يؤذن بلال على ظهر
 الكعبة وأبناء العرب واقفون ! أنظر إلى هذا مجده رمزاً إلى اتحاد نوع الانسان كله كأنه يقول : ليس الاسلام
 كاليهودية ، إن اليهودية جعلت ديناً خاصاً بجنس واحد وهم بنو اسرائيل ، أما دين الاسلام فلا أبيض ولا
 أحمر ، ولا عربي ولا عجمي ، بل الناس فيه سواء ، أنظر أيها الذكيّ للأُم الحاضرة ، أنظر إلى أمريكا التي مدحت
 اتحادها لك سابقاً ، وذمت الأُم الاسلامية الحاضرة لجهلها وتقاطعها ، أنظر أليس البيض هناك يحقرون أن
 يكونوا مع السود في مركبة واحدة في القطار ، ذلك لمجرد اللون ، انظر كيف سبقونا في العلم والأخلاق ،
 ولكن لاتزال فيهم تلك النقيصة المزرية ، وهي اعتبار اللون فارقاً ، انظر كيف يؤذن بلال على ظهر الكعبة
 والعرب الذين هم أهلها واقفون ، انظر : ان ذلك ناطق بأن هذا الدين هو الذي سيجمع الأُم جمعاً حقيقياً
 لاجتماعها صناعياً ، فليجد النوع الانساني ، فالأُم الاسلامية التي بعدنا ستفهم هذا ، وستقرأ كل العلوم والصناعات
 وتجد ونحو الحكمة ، واذن يقودون أهل الأرض . انظر كيف يقول صلى الله عليه وسلم : « خيارهم في
 الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا » ولم يقيد التفقه بعلم خاص ، ير بدإذا علموا كل ما يجب علمه في أحوال
 الدنيا والآخرة ، ولا جرم أن العرب الذين قال الله فيهم ذلك هم نحن أبناء مصر وطرابلس وتونس والجزائر
 وسواكن وسوريا واليمن ونجد والحجاز وحضرموت والبحرين والعراق والموصل والسودان فهؤلاء خيارهم
 في الجاهلية خيارهم في الاسلام على شرط العلم الذي لم يقيد إلا بعض التفهيم بلا حق ، فهل نحن الآن خيار
 الأُم ؟ أقول نعم على شريطة العلم الذي يلزم للأمة في دينها ودنياها ، ولكننا الآن لسنا خيار الأُم ، لأننا
 جهلاء ، والمخرج من هذا الجهل أن يقوم أهل العلم ببحث هذه الأُم المتجاذرة على العلم كما شرحت في سورة
 ﴿ آل عمران ﴾ فيدرسون العلم في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية ، واذن يتعارفون ، لأنهم تقاطعوا
 بالجهالة الكتمان فصاروا أمماً عمياء متفرقة متناكسة ، فاذا عرفوا وتعلموا جميع العلوم التي درستها أوروبا
 واليابان وأمريكا وزادوا عليها ، ثم اتحدوا مع اخوانهم الترك والفرس والأفغان ، وسائر أُم الاسلام ، فاذن
 يكون خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام ، وهذا الذي أقوله الآن سيكون بعد نشر هذا التفسير وغيره
 وسيعرف أبناء العرب ذلك ، ويعملون به قريباً ، وسيكون قرآء هذا التفسير قاندي تلك الحركة من أُم
 الاسلام . انتهى صيلح يوم الجمعة ٢٦ يونيه سنة ١٩٢٥ م



لطائف هذه السورة

اللطفية الأولى

في قوله تعالى : أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى

اعلم أيها الذكر أن هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ، ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطبع :

في هذا الشهر وهو شهر نوفمبر سنة ١٩٣١ منذ أيام كنت سائرا إلى جهة النيل لمجرد الرياضة حيث القسم حليل ، والجو جميل ، والدنيا مشرقة ، والنيل جار ، والأشجار مزهورات ، والزروع نضرات ، إذا بإمرأة مريضة ، تثنى وهي عرجاء صفراء ، قد ازداد ضعفها ، ونحل جسمها ، فخطر لي أن هذه لا تطلب للزوج ، ولا يرغبها الأزواج ، وما كان أسرع الخاطر إذ ذاك إلى إرخاء العنان ، والخوض في المععان ، والعروج إلى طرائف المعاني ، والوصول إلى درجات المعالي .

هناك هناك أخذ العقل يقول : الناس جميعا في الأرض ممتحنون ، لا يطلب الرجل امرأة لزواجها إلا بعد أن يأنس بجمالها ، ويرتاح لخلاتها ، ويمرر مرآها ، ويروقه بسدوها ومنتهاها ، ثم هذا نوع من الامتحان ، امتحان في الجمال ، امتحان في الأخلاق ، امتحان في القوة الجسمية والقوى العقلية ، فالمشوهة الخلقية ، والقيحة الوجه ، والسبثة الخلق ، والفتية العقل ، لا يرغبها أحد من الرجال إذا أيقنوا بذلك ، ولكن القص قاس ، والطيور على أشكالها تقع ، والكمال درجات .

فيا عجباً لنظرة فائرة ، وخلة ماضية ، أحضرت علما وحكمة ، وأفادت نورا وفهما . القبح ذكر بالجمال والمرض أذكرنا بالصحة والكمال .

خلال ثلاث يجد في طلبها الانسان : خلة الصحة في الجسم ، وخلة انتظام الخلق ، وخلة الكمال في تفكير العقل . هذه هي الخلال الثلاث الالاق قدمناها في (سورة الفتح) وكانت من آيات الله في زماننا ، إذ كانت هذه الثلاث هي كما قدمنا الفتح العلمي : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » والأخلاق الجيلة « ويهديك صراطا مستقيما » وينصرك الله نصرا عزيزا » ومن مقدمات هذا قوة الأبدان ، وهذه الثلاثة هي مقاصد العلم في زماننا كما ترجمته لك من أقوال علماء زماننا .

أفلا تنجب الآن ا نرى الله يقول لنا في هذه السورة : « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » ولا جرم أن هذا الامتحان يرجع إلى علم الأخلاق من حيث تطبيقه عملا وهو إحدى الدعائم الثلاث ، إذن دعائم الحياة الثلاثة هو ذا الامتحان حصل في أحدها ، فالله امتحن قلوب طائفة زمن النبوة ، ولا جرم أن امتحان القلوب أغمض من امتحان الأجسام . الحياة كلها امتحان ، امتحن الله قلوب بعض المؤمنين بالتقوى ليماننا الامتحان في الأعمدة الثلاثة ، لأنه إذا امتحن فيها أغمض ، فالامتحان فيها هو أسهل من باب أولى . وصريح بالامتحان في سورة أخرى سماها باسم « للمتصنة » فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتنوهن الله أعلم بما يهنن فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعهن إلى الكفار لانهن حل لهم ولا هم يحلون لهن » إذن الله امتحن قلوب قوم بالتقوى ، وأمرنا يوما ما أن نمتحن النساء المهاجرات فالأعلم يمتحن من هو دونه ، والرجل أعلم من المرأة ، فهو يمتحنها فيعلم إيمانها .

كل هذه الأوليات الدينية فتتح لنا أبواب الامتحان ، فلنمتحن كل شيء في هذه الدنيا ، وإذا امتحنا عقل الانسان فمتحن جسمه وأخلاقه وامتحان كل صغير وكبير في هذا الوجود من باب أولى ، ومن ترك

الاختبار والامتحان ، وعلت طاعة على المجموع لم يشكر وهو محمول على تفكير غيره وامتحانه فانما هو موفى
بقيم يريه المحسنون .

يتمتع الطبيب للمريض إما بحس نبضه بحاسة اللس ، وإما بسماع عدد الضربات ، وشدتها وضعفها
بسمعه ، وإما بمشاهدة البول في القارورة بحاسة بصره ، وبمشاهدة لسانه أنظف أم عليه طبقة تشبه ،
هكذا علينا أن نتمتع ما نباشر من أعمالنا من جميع وجوهه ، ومن الطرق المختلفة : من أن ناكل على غريزته
فهو أشبه بالحيوان ، والغريزة يجرئها ظاهر الأمور ، ألم ترى إلى الفرائس يرى النار فيتنجح إليها فيحترق ، وإلى
النسب يقع في العسل فيموت . هكذا غرائزنا إذا وقفنا عندها أدخلت بنا في أحوال المواقف وأشد الأزمات ، فننهره
وأنع الجمال واعتز به ، وأودته جهالته ، وأحاطت به خطيئته ، وقامت بجعله قيامته ، فظواهر الجمال ، لا تفتنى
عن دقائق الأهمال ، وزخوف الظواهر وزيفتها تفر الجاهلين ، وتقع بالعاجزين ، وتودي بالناقلين ، وهناك
جوهرة نفيسة ، وزهرة جيلة ، أتم بها هذا المثل ، وهي ما قرأته في كتاب « مسرات الحياة » للورد أفجيري
المولود سنة (١٨٣١ المتوفى سنة ١٩١٣) تحت عنوان « الرجل الكامل » قال : « ماتلك الصفات التي تتوخاها
في الرجل الكامل في هذه الحياة ؟ وما هي المزايا حتى تتمتع بها العصامي العمري وبممتاز عن سواه ؟ ثم أجاب
قال : هي أولاً العقل الرزين المصون ، ثانياً العواطف الشريفة كالبرودة ، والاحسان ، والحب العام ، والكرم
ومكارم الأخلاق ، وثالثاً صدق النظر في قضايا العقل والتثبت في أحكامه ، ورابعاً قوة بدنية تصون هذه الخلال
وتحفظها من الزوال ، وتساعد على تنفيذها في المجتمع العام ، وإذا لم يكن العقل رزيناً صائب الحكم أسرع
في حكمه ، فكان الخطأ حليفه ، والألم نصيبه ، وقد أحاطت به المصيبة ، وإذا لم تكن العواطف نبيلة ،
والأخلاق شريفة ، والنفوس عفيفة ، فإن الانسان يكون عبداً لنفسه ، واقفاً عند حسه ، جاهلاً بحب جنسه ،
بيداً عن الأنس به . وإذا لم يكن الجسم حديدياً والأعصاب قوية متينة ، فإن عمله يكون ضئيلاً ، وضعفه
قليلاً ، ورحمته طويلاً ، لا يذكي ناراً ، ولا يدفع عارا ، ولا يرفع جارا . وإذا كان القصد نبيلاً ، والنية حسنة ،
ولكن قوة الحكم عاجزة عن إدراك الحقائق ، متعثرة الأذيال ، غيبة عمياء ، فإن ضررها يكون أكثر من
نفعها ، وخطؤها أكثر من الصواب .

قال شكيري : « نحن نمدح الرجل فنقول هو عبقري ، هو كامل ، كيف يكون هذا الكمال ؟ أيكون
بالشرف ؟ أم يكون بالظرف واللفظ ؟ أم يكون بالشجاعة والاقدام ؟ أم يكون بالعقل ؟ أم يكون باجتماع
هذه الأوصاف كلها فيه ؟ وظهور أثرها على يديه ، بأسلوب تصحبه الرقة واللفظ والشفقة والعطف والحنان ،
إن الرجل الكامل يجمع ذلك كله ويفوقه هو أندر من الكبريت الأحمر ، وأعز من بيض الانوق ، هو أبعد
عما نلتق . إن الملوك يقدرون أن يسطوا الناس ألقاب الشرف ، وصفات الاعظام والكمال . ولكنهم لن ينسئ
لمن منح نفس الكمال ، فهم يمنعون الأقوال لحسب ، وكل منا ينسئ له أن يكون كاملاً نبيلاً متى أردنا » انتهت
ترجمة تلك القطعة من ذلك الكتاب .

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : هذه القطعة الانجليزية تشبه نظيرتها في « سورة الفتح » وغاية الأمر
لها هناك بجملة وهنا أشبه بتفريع عليها ، ولكن خطرت لي هنا سؤال وهو : إذا كان الامتحان مشروطاً شرعه
الله وقد أس المسلمون وقتاً ما أن يتمتعوا المهاجرات في ظل خاصة ، وهو نفسه امتحن قلوب رجال للتقوى
أفلا تفكر نحن في المسألة المشهورة الاجتماعية ، وهي ان الزوجين يتمتحان عند الزواج ، أمهما صحيحان أم
مريضان ؟ قلت : هذا حسن ولكنه بسورة المتحنته أليق ، فانتظره هناك في تفسيرها إن شاء الله تعالى .
وهذا تم الكلام على الطيبة الأولى في قوله تعالى : « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » والحمد لله
وب العالين . كتب صباح يوم الخميس ١٢ نوفمبر سنة ١٩٣١ م

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » إلى قوله : « إن الله عليم خبير » وفي هذه اللطيفة (أربع مقالات : المقالة الأولى) في قوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بقت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تنفيء إلى أمر الله فان قامت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المتقنين » إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون »

بأمر الله المسلمين أن يصلحوا بين أي طائفتين من المسلمين اقتتلوا ، وليكن الصلح بالعدل ، فلا يتعصب لمن كان من غير أمته ، كما لا يجوز للإنسان أن يشهد لأبيه ، أو أخيه ، أو لفتى ، أو لقبيل الخ كما تقدم في (سورة النساء) .

فإذا بقت طائفة ولم تقبل الصلح فليقاتلها للمسلمون ، ومتى رجعت الباغية فليكن الصلح بالعدل ، ولم يقتصر على الصلح بين المسلمين ، بل جعلهم إخوة ، ثم أمر المسلمين بالتحقيق ، وهذا يقبه الرحمة العامة ، والرحمة هنا في الأرض والأمن والسعادة ، والعز والسودد ، وعظمة الأمم للإسلامية ،

هذه يارب أوامرك ، ولقد علمنا علما يقينا أن نبينا صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين كانوا على هذه الشريطة ، ولكن الخلفاء الأمويون والعباسيون لم يتقوا الله في أمر الخلافة وان كانوا في حكم الرعية غالباً عادلين . عصى المسلمون أمر الله وقصصوا لقبائلهم وأنسائهم . لم يرض عمر رضي الله عنه أن تساق الخلافة إلى ابنه عبدالله بن عمر ، لماذا ؟ لأن الأمر شورى بين المسلمين ، أما ان يأتي خليفة فيقول : إن الخلافة لابني فمننا ليس له ، بل هو حرام عليه ، لأن المسلمين لبسوا قطع غنم يورثون ، فأين الشورى ؟ وأين آية : « وان طائفتان الخ » وآية : « إنما المؤمنون إخوة » ؟ ولقد جاء في كتاب « تاريخ الفتنة الإسلامية » في صفحة ١٠٦ وما بعدها من الجزء الرابع ما يأتي :

« ظهر بنو أمية وتسلطوا واستبدتوا ، وآل علي بن أبي طالب يطالبون بالخلافة ، ويسعون في إدراكها ، وأول من طلبها بعد علي ابنه الحسن ، ثم تنازل عنها لمعاوية سنة ٤١ هجرية ، فضرب أشياخ العلويين في الكوفة من تنازله وهاجوا ، وأمير الكوفة يومئذ زياد بن أبيه المصعب الشهير ، فشد في أجساد الثورة ، وقتل جماعة من أشياخ علي ، فيهم حجر بن عدى وأصحابه ، فترص العلويون ينتظرون موت معاوية لعل انتصاب الأمة يقع على واحد من أبناء علي فترجع الخلافة إلى أهل البيت ، ولم يخطر لهم أن يبايع معاوية لابنه ، فلما علموا بيعته قتموا عليه ، وزادهم قنمة ما علموه من تهتكه وقصفه ، واشتغاله بالمعبد عن أمور الخلافة . ومن قول عبد الله بن هشام السلولي في ذلك :

خشينا الفيظ حتى لو شربنا * دماء بني أمية ما رويها

لقد ضاعت رهيتكم وأنتم * تصيدون الأرناب فافلينا (١)

وكان أوجه العلويين يومئذ الحسين بن علي ، فلما مات معاوية سنة ٦٠ هجرية وتولى ابنه يزيد أبي الحسين أن يبايعه ، على أن أكثر الذين يابصوه من أهل التقوى عدوا بيمينهم خرقاً لحرمة النبي (ص) وكان الحسين في المدينة ، فلما طلبوا منه أن يبايع يزيد فر إلى مكة وأكثر شيعته في الكوفة ، فكتبوا إليه وحثوه على التقدم إليهم لينصروه ، فأطاعهم ، ولما اقترب من الكوفة قعدوا عن نصرته ، وبعت إليه أمير الكوفة يومئذ عبيد الله بن زياد جندا حاربه ، فدافع عن نفسه وأهله حتى قتلته للشهيرة في

كربلاء يوم عاشوراء من سنة ٦١ هجرية ، ثم ندم الشيعة على قعودهم عن مناصرته ، فخرجوا بعد وفاة
 يزيد وبيعة مروان بن الحكم سنة ٦٤ هجرية يطالبون بدمه ، وسموا أنفسهم « التوائين » وأمير
 الكوفة لا يزال عبيد الله بن زياد فأخرجوه منها ، وولوا عليهم رجلا منهم ، فتغلب ابن زياد عليه ، فنهض
 المختار بن أبي عبيد الثقفي ، وهو من جملة الذين طمعوا بالسيادة لا يتراز الأموال في أثناء تلك الفوضى واختلال
 الأحوال ، وكان المختار على الهمة ، جاء الكوفة يطالب بدم الحسين ، ويدعو إلى بيعة محمد بن الحنفية أخى
 الحسين من أبيه ، فقبه على ذلك جماعة من الشيعة سماهم « شرطة الله » وزحف على ابن زياد فهزمه
 وقتله ، وقتل أكثر فئة الحسين ، ولكن محمد بن الحنفية لم يكن راضيا بتلك الدعوة ، فبث إلى المختار تبرأ
 منه ، فحزب المختار دعوته إلى عبد الله بن الزبير ، وكان عبد الله قد نهض عند نهوض الحسين ، لأن أباه
 الزبير بن العوام كان من جملة الطامعين بالخلافة بعد مقتل عثمان كما تقدم ، وأقام عبد الله في مكة يدعو إلى
 نفسه ، على أن المختار لم يخلص النية في دعوته لأحد ، لأنه إنما كان يريد لها نفسه ، فلما علم ابن الزبير
 بفرضه بث أنه مضى على العراق فارب المختار وقتله سنة ٦٧ هجرية . أما الشيعة العلوية فاقسمت بعد
 مقتل الحسين إلى فرقتين : إحداهما تقول ان الحق بالخلافة لولد علي من فاطمة بنت النبي ، والأخرى تقول
 بتعزله بعد الحسن والحسين إلى أخيهما محمد بن الحنفية وهي الفرق الكيسانية ، وأكثرهما ظهورا وتصديقا
 الفرقة الأولى ، فبايعوا بعد الحسين ابنه عليا المعروف بزین العابدين ، وتسلت الخلافة بعده في أعقابها حتى
 صار الأئمة ١٢ إماما وهم : علي ، والحسن ، والحسين ، وزين العابدين ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق ،
 وموسى الكاظم ، وعلي الرضا ، ومحمد التقي ، وعلي النقي ، وحسن العسكري ، ومحمد المهدي . وتفرع من
 من الشيعة العلوية أيضا فرق أخرى غير واحد من أعقاب علي كالزيدية نسبة إلى زيد بن علي بن
 الحسين ، والاسماعيلية نسبة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق ، وفرق أخرى لا يحل ذكرها . وكان بنو أمية إذا
 سمروا بظهور أحد دعاة العلوية بذلوا جهدهم في قتله ، فقتلوا بعضهم وسموا البعض الآخر ، وصلبوا آخرين
 فأصبح دعاة الشيعة يفترون خوف الفتك بهم ، فلاقى العلويون في أيام بني أمية ضنكا شديدا ، وكادوا
 يهلكون جوعا ، وأصبح هم أحدهم قوت عياله ، حتى تولى خالد القسري عامل بني أمية المتوفى سنة ١٢٦
 هجرية ، فأعطاهم الأموال ورفق بهم ، فصاروا إلى طلب الخلافة (١) وذلك هذا غريب الأخلاق ، فمع كونه
 من عمال بني أمية ، فقد كان ينصر العلويين ، ويستعمل أهل القعة كما تقدم . انتهى ما أردته من كتاب
 « تاريخ المختار الاسلامي » والحمد لله رب العالمين .

هذه حال المسلمين بعد العصر الأول ، فأين الصلح ، وأين الحق ، وأين الشورى ؟ معاوية أمر الناس
 بالبايعه بالخلافة لابن ، كيف هذا وأين الشورى ؟ ترى العلويون موت معاوية ، وطسم الحق لأن الأمر
 شورى ، ولكنه أمر ببايعه يزيد ، إذن لا شورى ، إذن هو ملك عضوض ، إذن القرآن لم يعملوا به ،
 ثم هؤلاء الشيعة العلوية بعد مقتل الحسين رضوا الله عنه اختلفوا ، فالكيسانية ساقوها إلى محمد بن الحنفية ،
 وغيرهم جعلوها في ولد الحسين رضوا الله عنه حتى صارت الخلافة إلى محمد المهدي ابن حسن العسكري وهم
 ١٢ إماما ثم كانت فرقة الاسماعيلية وغيرهم ، وكل طائفة تعتقد أن إمامها معصوم ، وهذا ورب العرش هو
 الارتباك . هذه أمور لا توافق القرآن ، بل هي اعتقادات أضرت بالمسلمين .

أيها المسلمون : الشورى بينكم والصلح ، أيجوز في دينا أن نسمع أن طوائف من المسلمين تكفر غيرها
 مجرد شبهة ؟ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحون .

الشيعة العباسية والعلوية

لو كان الأمر شورى بين المسلمين كنص القرآن ، وكفعل أصحاب النبي ﷺ واجماع الصحابة رضوان الله عليهم ، أى لو فصل المسلمون بدليلين يقينيين ، وهما نص الكتاب ، ودليل الاجماع ، لم تكن هناك شيعة عباسية وعلوية يطالبان بالملك ، بل كان أولو الراى مجتمعون ويقررون الخلافة لمن حاز صفاتها ، ولكن المسلمون هربوا من ذلك خيفة ظهور الحقائق ، فالتجأوا إلى العصية وأبدوها بالسيف .

ظلم بنو أمية العباسيين والعلويين ، وقطعوا رحمتهم ، فإذا جرى بعد ذلك ؟ اتحد الفريقان ، وديروا المكائد ، لتبيل الخلافة سراً ، وهما معا من بنى هاشم أعداء بنى أمية من أيام جاهليتهم ، وباجع السفاح والمنصور محمد بن عبد الله بن حسن المثنى ابن الحسن بن علي الملقب بالنفس الزكية لتقدمه عليهم في الفضل ، فالأمر إذن شورى بين الرهطين ، وهذا حسن جدا ، سارت دعوة العباسيين في بلاد القرم وغيرها وسكت العلويون لأن العباسيين بايعوهم ومنهم السفاح والمنصور . وأمر ابراهيم الامام العباسي أبا مسلم الخراساني وهو رئيس شيعتهم أن يقتل كل من يشك فيه ، وقتل مروان بن محمد ابراهيم الامام ، فانتقلت الامامة إلى اخوة الامام المقتول ، والعلويون وأنصارهم لا يعترضون ، لأن عدوهم لا يزال حيا ودولته قائمة ، ولما سقطت دولة الأمويين غدر المنصور بالعلويين ، وقتلهم قتيلا ، ومنهم صاحب البيعة محمد بن عبد الله .

اللهم ليس هؤلاء على سنن القرآن ، استبدت الأمويون بالخلافة ، وتركوا الشورى ، وحاربهم العباسيون ، والأمويون يطاردونهم ، فجازوا ، فيكون الغدر والقتل ، فأبن الآية ، وأبن الشورى ، وأبن القرآن ؟ اللهم إنك عظيم وعلى ، أنت تعلم ضعف أهل هذه الأرض ، وأنهم ضعاف لم يصلوا إلى الكمال ، ولذلك حبستهم في هذه الأرض ، والمجوسون قد اعتادت الحكومات أن ترسل لهم قوما يعظونهم في السجون ، ولكن تغلب عليهم طباعهم ، فهؤلاء غلبت عليهم طباعهم ، ورجعوا إلى الجاهلية في الخلافة ، أما في حفظ العمرة فلا

فلما سمع صاحب ذلك . قال : هذه أمور عظيمة غدتني بالتفصيل في هذا المقام ، فالاجمال لا يفي عن التعميل . قلت بإصاح إن أردت إلا الاضاح ، فاسمع ما جاء في الجزء الرابع من كتاب « تلخيص التمدن الاسلامي » في صفحة ١٠٨ وما بعدها تحت عنوان « الشيعة العباسية » وهذامنه :

« وكان في جبهة المطالبين بالخلافة من أقرباء النبي صلى الله عليه وسلم بنو العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ، لكنهم كانوا لا يتصدون لطلبها ، والأمويون في إبان دولتهم ، وإنما كانوا يدعون إلى أنفسهم سراً ، وكان العلويون والعباسيون في أيام ضيقهم واضطهادهم يتقاربون ، لأنهم من بنى هاشم ، وكلا الرهطين أعداء بنى أمية من قبل الاسلام ، والمضطهدون يتقاربون في أى حال .

وظل العباسيون يسترون في دعوتهم وهم مقيمون في الحيمة من أعمال البلقاء بالشام حتى ضعف شان بنى أمية ، فهموا بالتهوض ، واتفق في أثناء ذلك أن الفرقة الكيسانية دعاة ابن الخنيفة صارت دعوتها بعده إلى ابنه أبى هاشم ، وكان أبو هاشم هذا يفتد على خلفاء بنى أمية من المدينة إلى الشام فيمر في أثناء الطريق بالحيمة ، ففي بعض وفداته على هشام بن عبد الملك آنس هشام منه فصاحة وقوة ورئاسة مع علمه بطمعه في الخلافة ، فخافه ، ففسد إليه في أثناء رجوعه إلى المدينة رجلا سمه في لين ، فشرع أبو هاشم بالسلم وهو في بعض الطريق ، فخرج إلى الحيمة ، وصاحب الدعوة العباسية يومئذ محمد بن علي بن عبد الله بن عباس فترز عنده ، ولما أحسن بدتو الأجل خاف ضياع البيعة وهو بعيد عن أهله ، فأوصى إلى محمد المذكور بالخلافة بعده ، وكان معه جماعة من شيعته سلمهم إليه وأوصاه بهم ، فلما مات أبو هاشم تهوس محمد بالخلافة وأيقن بالنجاح ، لأنه اكتسب حزب الكيسانية جميعا ، فأخذ في بث الدعوة سراً ، ثم توفي وقد أوصى

بالخلافة بعده إلى ابنه إبراهيم وعرف بالامام ، فأخذ إبراهيم الامام في بثّ دعائه ، وبدأ بخراسان لوثوقه بأهلها أكثر من سائر أهل الأمصار ، ولأن الشيعة الكيسانية أكثرهم في خراسان والعراق وقد نصرروا العلويين سرارا ، فبعت إليهم دعاة الكيسانية الذين كانوا مع أبي هاشم وأوصاهم أن يطلبوا بيعة للناس باسم « آل محمد » أي أهل النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يبين العلويين ولا العباسيين ، وكان الخراسانيون قد ملوا الثورة الأموية ، فكان عليهم أن يملأوا لآل محمد ، وهم يحسبون الأمر يكون مشتركا بين العباسيين والعلويين ، وتوفى إبراهيم الامام في أثناء ذلك إلى أبي مسلم الخراساني القائد الحبيب فأنتم أمرهم وسلم لهم الثورة كما هو مشهور .

بيعة المنصور للعلوية ونكته

وكان بنو هاشم العلويون والعباسيون لما رأوا اختلال أمر بني أمية اجتمعوا بمكة وفيهم أعيان بني هاشم هالوهم وعباسهم ، وتداولوا في قرب انحلال دولة الأمويين ، وفي من يحلفهم من آل البيت ، وكان في جملة المنصور أبو العباس السفاح وأخوه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وهو أبو جعفر المنصور وغيرها من آل العباس ، فأجّع رأيهم على مبايعة أوجه العلويين يومئذ وهو محمد بن عبد الله بن حسن الملقب ابن الحسن ابن علي الملقب بالنفس الزكية ، فبايعوه لتقدمه فيهم ، ولما علموا أنه من الفضل عليهم ، وبايعه أبو جعفر المنصور في جنهم (١) ولعل هذه البيعة هي التي أسكت العلويين عن طلب الخلافة في أثناء انتشار دعاة العباسيين في طلبها كأنهم اعتقدوا أن تكون الخلافة مشتركة في أهل البيت ، لأن العباسيين كانوا يطلبون بيعة الناس باسم « آل محمد » وليس باسم الامام إبراهيم لو غيره من بني العباس .

لما دعاه الشيعة العلوية للذين كانوا يدعون للعلويين في العراق وخراسان قبل انتقال البيعة إلى العباسيين فقد رضوا بذلك الانتقال غير مهيئين ، وفي جنهم أبو سلمة الخلال الملقب بالقنزي الشهير ، وكان يقيم في حزم أعيان بضواحي الكوفة ، وكان شديد التحسب بدعوة العلويين ، وقد بذل ماله وجأه في سبيل نشرها ، فلما سمع بانتقال البيعة إلى بني العباس كظم وتر بص لبري ما يقول الناس ، ثم علم أن إبراهيم الامام عين أبا مسلم وأرسله إلى خراسان ومعه الوصية المشهورة « من اتهمته فاقطعه » ، وقد أطاعه النقباء فأظلمه أبو سلمة في جنهم ، وهو يتوقع أن تكون البيعة شورى بين الشيعتين (٢) ولما بلغه أن مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية قتل إبراهيم الامام أضمر الرجوع إلى الدعوة العلوية (٣) ثم جاءه أخوه الامام ، وفيهم أبو العباس السفاح وأخوه وسائر أهل بيته ، وقد انتقلت البيعة إلى أبي العباس للذكور ، فأزلم أبو سلمة عنده ، ورأى فيه عاجزا عن نقل البيعة ، فسكت ، فبقيت لآل العباس ، وكان أبو مسلم وسائر النقباء والقواديمحاربون صاكر للأمويين في خراسان وخراسان والعراق ، فلما غلبهم وملكوا خراسان وما يليها جاءوا العراق وبايعوا أبا العباس ، فسكت العلويون خوفا على أنفسهم من ذلك التيار العظيم ، وهم يتوقعون مع ذلك أن تكون الخلافة شورى بين الرهطين ، وعلم العباسيون بما كان يضمره أبو سلمة من نقل الخلافة إلى العلويين ، فشكوه للحاج أبي مسلم سرا ، فندس إليه رجلا قتله بالكوفة غيلة ، وأشاعوا أن بعض الخوارج قتله ، وقد قتلوا كثيرين غيره ممن شكوا في إخلاصهم حتى تم الأمر لهم .

لما آل الحسن بن علي الذين كانوا قد بايعوا أحدهم محمد بن عبد الله في المدينة ، وبايعه معهم سائر بني هاشم ، ومنهم أبو جعفر المنصور ، فلما علموا بذهاب دولة بني أمية ومبايعة أبي العباس السفاح سنة ١٣٢ جاؤوا إليه

(١) ابن خلدون ٣ ج ٤ وابن الأثير ٢٤٣ ج ٥ والفخرى ١٤٧

(٢) الفرج بعد النكفة ١٢٠ ج ٢ (٣) السعدي ١٥٠ ج ٢

في الكوفة يطالبونه ببيعتهم ، فاسترضاهم أبو العباس بالأموال ، وقطع لهم التطائع ، وكان في جبة القلتين
إليه عبد الله بن الحسن والله صاحب البيعة ، فأكرم السفاح وفادته ، وعرض عليه ما رضاه من المال ، وقال
له : احتكم عليّ ، فقال عبد الله بألف درهم فاني لم أرها قط ، ولم يكن هذا المال موجودا عند السفاح ،
فاسترضه له من رجل سيرني اسمه ابن أبي قرن ودفعه إليه ، واتفق وعبد الله المذكور عند السفاح أن يرض
الناس بجاهه بالجواهر التي كانت عساكر العباسيين قد اغتتمها من مروان بن محمد ، فجعل السفاح يقلب
الجواهر بين يديه وعبد الله ينظر إليها ويبكي ، فسأله عن السبب ، فقال : « هذا عند بنات مروان ، وبنات
بنات عمك مثل قط » ، فجاه به ، ثم أمر السيرني أن يبتاعه منه ، فابتاعه بثمانين ألف دينار (نحو مليون
درهم) وأمر أبو العباس بكرام عبد الله وأزاله على الرعب والسعة ، وهو يتوجس بما في ضميره ، فبث
عليه العيون ، فأنس عنده طعنا ، فزله عطلة ، فعاد عبد الله إلى المدينة مثقلا بالأموال ، فخرقها في أهلها ،
وكانوا أهل ثقة ، فلما رأوا تلك الأموال سرتوا .

ولما عبد الله فخرال مضرا المطالبة بالخلافة لابنه (١) على ما تمت المباينة عليه ، والعباسيون يخافون
ذلك ، والسفاح يسترضيه وسأله أهل الأموال كما رأيت ، فلما توفي السفاح سنة ١٣٦ هـ جرية خلفه أخوه
أبو جعفر المنصور ، وكان رجلا شديد البطش لا يبالي بما يرتكبه في سبيل تأييد سلطانه ، فكان همه قبل
كل شيء أن يتحقق ما في نفس بني الحسن في المدينة ، لأن لهم في عنقه بيعة ، فبث عليهم العيون ، وأراد
اختبارهم ، فبث بعطلة أهل المدينة على جاري العادة من قبل ، وكتب إلى عامله فيها : « أعط الناس في
أبيهم ولا تبت إلى أحد جطانه ، وتفقد بني هاشم ومن تخلف منهم عن الحضور ، ويحفظ بمحمد وإبراهيم
ابني عبد الله بن الحسن » فضل العامل ذلك ، فلم يتخلف عن العطلة إلا محمد وإبراهيم المذكوران ، فكتب
إليه بذلك ، فتحقق المنصور أنهما بنو بيان القيام عليه وقد سكتا في أثناء خلافة أخيه ، لأنه كان يكرهما ،
ويصدق الأموال عليهما ، والمنصور لا يرى ذلك ، فلما رأوا تضييقه عزموا على الخروج ، فبثوا الهدايا في
خراسان وغيرها يدعون شيعتهم إلى بيعتهم ، فلم أبو جعفر بذلك ، فبث من يقبض على كتبهم في الطريق
واحتمل في استطالاع أسرارهم ، وأراد استقدام ابني عبد الله ، وكتب إليه يستقدمه بهما ، فأفكر عبد الله
أنه يعرف مقرهما ، فأصبح هم المنصور التخلص منهما ومن سأرطلاب الخلافة من العلويين ، وخصوصا
بني الحسن وهم يقيمون في المدينة ، فبث إلى عامله فيها أن يقبض عليهم جميعا ، ثم أمره أن ينقلهم إلى العراق
فقتلهم وهم مثقلون بالقيود ، والأغلال في أرجلهم وأعناقهم ، وقد حطهم على محامل بغير رطاء ولكن ليس
فيهم محمد ولا إبراهيم ابنا عبد الله لاستنارهما ، فلما رأوا بيني الحسن وعندهم بضعة عشرة رجلا ، فأمر المنصور
بقتلهم فقتلوا إلا بضعة قليلة . أما محمد بن عبد الله صاحب البيعة ، فلم يقع في الفتح ، فبث المنصور إلى عامله
في المدينة يشدد في طلبه ، فلم ير محمد بدا من القيام ، فظهر بالدعوة ، فبايعه أهل المدينة بعد أن استفتوا
إمامهم مالك بن أنس ، فأقتلهم بالخروج معه . فقالوا : « إن في أعناقنا بيعة لأبي جعفر » . فقال : انكم
بإيتموه مكرهين ، ولئن بيعه محمد بن عبد الله أصبح منها ، لأنها انعدت قبلها (٢) . وكان أبر حنيفة أيضا
على هذا الرأي يقول فضل محمد هذا ويحتج إلى حقه ، فحفظ لهما المنصور هذا القول ، فتأذت إليهما الحنة
بسبب ذلك ، فلما تمكن من محمد وقتله سنة ١٤٥ هـ جرية أصبح من أكبر المضطهدين لما فُضرب مالك
على الفيا في طلاق المكره وحبس أبر حنيفة على القضاء كما هو مشهور . وكان لتلك المنصور بيعة محمد بن
عبد الله تأثير عظيم في أذهان العلويين ، لأنها جاءتهم بقتة ، وكانوا يظنون ذلك لا يسدر من أهل البيت ،
كما صدر من بني أمية فتحسروا على أيام بني أمية وتمنوا رجوعها .

(١) العقد النريد ٢٧ ج ٣ (٢) ابن الأثير ٢٥١ ج ٥ وابن خلدون ٣ ج ٤

ذكروا عن محمد بن عبد الله في أثناء قيامه على المنصور أنه سمع شاعرا يرثي بني أمية ، فبكي فقال له
 هم : أتبكي على بني أمية وأنت تريد بيني وبينهم ما تريد . فقال له : يا عم لقد كنا قمنا على بني أمية ما قمنا
 فما بنو العباس إلا أقلّ خوفاً منهم ، وأن الحجة على بني العباس أوجب منها عليهم ، ولقد كان للقوم أخلاق
 ومكارم وفواضل ليست لأبي جعفر (١) .

سياسة العباسيين في تأييد سلطتهم القتل على التهمة

قد رأيت فيما تقدم أن بني العباس قاموا يدعون إلى أنفسهم وهم بين خطرين عظيمين : الأول أن
 يحاربوا بني أمية ويتغلبوا على أحزابهم . والثاني أن يأمنوا جانب العلويين في مسابقتهم إلى الخلافة . وكانت
 الحوادث قد علمتهم أن الثورة لا تقوم بالدين والتقوى فقط كما قامت في عصر الراشدين ، وكما أرادها بنوعلي ،
 وأن العلويين إنما هجزوا عن نيلها لاعتمادهم في دعوتهم على شرف نسبهم ، وصدق تدينهم ، وأن معاوية لم
 يطلب إلا بالدهاء والحيلة ، وأن عبد الملك لم يستطع استبقاها إلا بالفتك وشدة البطش ، فلما انتقلت البيعة
 من العلويين إلى العباسيين بميامنة أبي هاشم بن محمد بن الحنفية لمحمد بن علي العباسي كما تقدم ، ثم أفضت
 بعده إلى ابنه إبراهيم الامام ، وتوفى هذا إلى أبي مسلم الخراساني ، ورأى فيه الشدة والدهاء جعله قائدا على
 قباته ودعائه ، وأوصاه وصية هي محور سياسة العباسيين في تأييد دولتهم هذا نصها :

« انك رجل منا أهل بيت ، احفظ وصيتي ، انظر إلى هذا الخبيث من الجن ، فآزمهم ، واسكن بين
 أظهرهم ، فان الله لا ينمّ هذا الأمر إلا بهم ، واتهم ربيعة في أمرهم ، وأما مضرّ قتلهم العدو القريب الدار
 واقتل من شككت فيه ، وإن استظمت أن لا تدع بخراسان من يتكلم بالريية فاضل ، وأبما غلام بلغ
 حجة أشبل واتهمته فاقتله » (٢)

فخرج أبو مسلم من عند الامام إبراهيم بهذه الوصية ، وقد عمل بها ، وعوّل عليها ، فكان يقتل كل من
 اتهمه ، أو شكّ فيه ، فبلغ عدد الذين قتلهم في سبيل هذه الدعوة ٦٠٠٠٠٠٠ نفس قتلوا صبورا (٣) بدون
 حوب في بضع سنين ، وفي جلته جماعة من كبار الشيعة ، وفيهم غير واحد من جلة القباء وكبار الدعاة كأبي
 سلمة الخلال الذي نصر الدعوة العباسية بماله كما نصرها أبو مسلم بسيفه ، وكان يقال له وزير آل محمد كما يقال
 لأبي مسلم أمير آل محمد ، فلما استشار السفاح أباسلم بشأنه ، واتهمه بنقل الخلافة إلى العلويين أشار أبو مسلم
 بقتله ، وقتلوه ، وقتلوا عماله على الأطراف ، وفعل نحو ذلك أيضا بسليمان بن كثير ، وهو من أكبر دعاة
 الثورة العباسية قبله وكان شيخا جليلا يدخر وسعا في نصرة تلك الدعوة ، فبعد قتل أبي سلمة بلغ أباسلم
 عنه مثل ما بلغه عن أبي سلمة ، فأحضره إليه ، وقال له : « أمحفظ قول الامام لي من اتهمته فاقتله ؟ » قال
 نعم ، قال : فاني قد اتهمتك ، فخاف سليمان ، وقال : أناشدك الله ، قال : لا تناشدني فأت منطو على غش
 الامام ، وأمر بضرب عنقه (٤) ناهيك بمن قتلهم من غير الشيعة وفيهم الأمراء والقواد ، قتل بعضهم بالحيلة
 والبعض الآخر بالقدح ، ومنهم الكرمان وأولاده وكبار رجاله (٥) وغيرهم بشر كثير حتى سئم الناس فضله ومالوا
 سفك الدماء ، وأصبح المسلمون حتى رجاله لا يدعى أحدهم إلى مقابله الا أوصى وتكفن وتمحط ، وثار من
 ذلك بعض الأمراء من شعبة بني العباس ، وصاح في رجاله : « ما على هذا اتبعنا آل محمد أن تسفك الدماء
 وأن يعمل بغير الحق » فتبعه على رأيه أكثر من ٣٠٠٠٠٠ رجل فوجه إليهم أبو مسلم جندا قاتلهم وقتلهم .

- (١) الأغاني ١٠٦ ج ١٠ (٢) ابن الأثير ١٦٥ ج ٥ (٣) ابن الأثير ٢٢٧ ج ٥
 (٤) ابن الأثير ٢٠٨ ج ٥ (٥) ابن الأثير ١٨٣ ج ٥

المنصور والنبوة العباسية

فهذا وأمثاله مهد أبو مسلم الخلافة لبني العباس فساعدهم أولاً على إخراجها من بني أمية إلى أهل البيت ولم يكتف بيعة أبي العباس ، وقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، ولكنه حرصهم على قتل من بقي من بني أمية بالأغراء أو التخويف على السنة الشعراء ، ويقال أنه هو الذي أوعز إلى سديف الشاعر مولى بني هاشم أن يقول ذلك الشعر في مجلس السفاح وفيه سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وكان السفاح قد آمنه وأكرمه وأمن سائر بني أمية ، فيقال إن سديفاً دخل يوماً على السفاح وعنده سليمان بن هشام ، فأشد سديف قوله :

لا يفرّتك ما ترى من رجال * إن تحت الضلوع داه دوا

فضع السيف وارفع السوط حتى * لا ترى فوق ظهرها أموياً

فتأثر السفاح ، وأمر سليمان بقتل ، ودخل شاعر آخر ، فقال شعراً آخر ، وكان عند السفاح نحو سبعين من رجال بني أمية ، وقتلهم ، وبسطوا النطوع على جثثهم ، فأكلوا الطعام وهم يسمعون أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً (١) . وقيل في كيفية قتلهم غير ذلك ، وأن الذي قتلهم عبد الله بن علي عم السفاح ، وهو مشهور بكرهه لبني أمية ، وشدة ثقته عليهم ، ولكن لاختلاف في أنهم قتلوا غدراً سنة ١٣٣ هجرية وهم آمنون كما قتل الأمراء المالكيين بمصر في أوائل القرن الماضي . والقاب أن أبا مسلم أوعز إلى العباسيين بقتلهم لئلا يقضوا في سبيل دولتهم ، فأشار إلى سديف أن يحرّضهم على ذلك بشعره ، ولم يقل سديف ذلك حينما بني العباس بل كرها لبني أمية ، وانتقاماً لآل علي ، لأنه من الشيعة العلوية ، وهو يظن الخلافة شورى بين الشيعة ، فلما رأى المنصور استقل بها بعد ذلك تم على العباسيين ، وهجأهم بأشعار بلغ خبرها للمنصور فكتب إلى عامله أن يأخذ سديفاً فيدفنه حياً ، فضل (٢) .

وبعد أن قتل العباسيون من كان في قبضتهم من الأمويين عمدوا إلى استئصال شأقتهم من سائر البلاد ولم ينج منهم إلا قليلون ، أهمهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، ففرّ إلى الفرب ، وأسس دولة بني أمية بالأندلس كما سيأتي ، وتولى استئصال شأفة الأمويين من بني العباس عبد الله بن علي ، فبالغ في ذلك حتى نبش قبورهم ، ومثل بجثثهم ، انتقاماً لما فعلوه قديماً بالأمّة من آل علي ، وخصوصاً زيد بن زين العابدين ، فاستخرج جثة هشام بن عبد الملك من قبره ، وهو لم يزل ، فضربه ثمانيين سوطاً ، ثم أسرقه (٣) .

وبعد أن تخلص المنصور من الأمويين لم يدخر أبو مسلم وسعاً في تخطيط النبوة له من أقربائه آل العباس أنفسهم ، وفي جثثهم عبد الله بن علي المنتقم ذكره ، وقد طمع بالخلافة ، فخاربه بأمر المنصور ، وقلبه ، وقبض على ماني عسكره من القنائم والأسلحة ، فأراد المنصور أن يوجهه إلى بني الحسن منافيه في الخلافة ، فاشتغل خاطره بأبي مسلم ، وأصبح خاتمانه على سلطانه بعد ما بلغ إليه من النفوذ والشهرة والرياسة ، ولم يكن همه إلا قتله ليتفرغ للمعويين ، فاتفقه بأنه ينوي إخراج الملك منهم ، فاستحققت القتل عملاً بوصية الامام . وكان المنصور قد خاف أبا مسلم وهزم على قتله من عهد خلافة أخيه أبي العباس ، ولكن أبا العباس لم يرد الأقدام على ذلك ، فلما مات السفاح وخلفه المنصور صمم على قتله ، ولكنه استخفمه في حوب همه عبد الله بن علي ، فضرب عدويه أحدهما بالآخر ، فأبهما قتل صاحبه اتفرد فيسهل على المنصور قتله ، فلما فرغ أبو مسلم من حرب عبد الله بن علي احتال المنصور في استقدامه إليه من خراسان في حديث طويل ، وأخذ عليه دخول الزائر الأمين ، وقد أكن له أناساً بالصلاح وراء السترة فأخذ سيفه منه وحادثه ، وتدرج

(١) الفخرى ١٣٤ والعقد القريد ٢٧٩ ج ٢ (٢) العقد القريد ٣٢ ج ٣

(٣) ابن خلكان ٢٠٥ ج ٢

من العتاب إلى التوبيخ حتى إذا أزفت الساعة صفى المنصور ، ففرج الكمانون بأسلحتهم وقتلوه سنة ١٣٧ هجرية ، فأمر به فلقه بالباط ، ثم دعا بعض رجال خاصته ، وشاورهم في قتله ، ولم يقل لهم انه قتله ، فقال له أحدهم : « ان كنت قد أخذت من رأسه شعرة فقتله ثم اقله » فأشار المنصور الى البساط فلما رأى أباسلم فيه وتحقق موته قال : « عد هذا اليوم أول يوم من خلافتك » (١)

ولما فرغ المنصور من أبي مسلم لبث يتوقع ما يبدو من وجاله الخراسانية لعلمه انه ارتكب بهتله خطرا عظيما فاعلم ان ثار عليه جماعة منهم يعرفون بالروندية وكلدوا يفتكرون به لولم يدافع عنه ممن بن زائدة . فقتل الروندية جميعا ولكنه أصبح لا يأمن على نفسه من مثل هذه الثورة فبنى مدينة بحداد بشكل حصين يقيه غائلة ذلك عند الحاجة : ثم عمد الى تخليص الخلافة من آل علي فخر بن محمد بن عبدالله وقتله . ثم رأى من آل العباس من ينازعه عليها ، منهم عمه عبد الله وكان أبو مسلم قد غلبه ، ولكنه لم يتمكن من قتله فاحتال للمنصور في استقدامه بأمان بعث اليه مع ولديه بقاء فبسه عنده . ثم علم سرا ان ابن عمه عيسى بن موسى ينوي الخروج عن طاعته ، وكان واليا على الكوفة . فتجاهل وبعث اليه ، وقد دبر أمرا كتبه عن رجال بطائته : فلما جاء عيسى استقبله المنصور بالترحاب والاكرام ثم أخرج من مكان في حضرته من الخاشية واستبقاه وحده وأقبل عليه . وقال : « يا ابن الم إني مطلقك على أمر لا أجد غيرك من أهله ولا أرى سواك مساعدا لي على حل قتله فهل أنت في موضع ظني بك وعامل ما فيه بقاء نعمتك التي هي منوطة ببقاء ملكي » فقال له عيسى : « أنا عبد أمير المؤمنين ونفسى طوع أمره ونهيه » فقال للمنصور : « ان عمي وعمك عبدالله قد فسدت بطائته واعتمد على ما بعضه يبيع دمه ، وفي قتله صلاح ملكتنا فذمه اليك واقبله سرا » فأطاعه عيسى فسلم اليه عمه فمضى به الى الكوفة . وأضر المنصور أن ابن عمه عيسى اذا قتل عمه عبد الله أزمه القصاص وسلمه الى أعمامه إخوة عبد الله ليقتلوه به فيكون قد امتراح من الأثنين معا . أما عيسى فكأنه شك في نية المنصور ، والناس يومئذ يتهم بعضهم بعضا خوفا من وصية الامام : فاستشار بعض ذوي مشورته فخنروه من عاقبة ذلك فبس عمه ولم يقتله . ولما طلبه المنصور منه دفعه اليه حيا فقتله في بيت جعل أساسه على الملح (٢) .

وأمنه ما أتاه المنصور من الدهاء والفتك في تأسيس دولته كثيرة . وكان يعطى الأمان ثم ينكث كما رأيت فله بعنه عبد الله وكما فعل ابن هيرة عامل بني أمية على واسط لما يبيع السفاح ، وأرسل أخاه المنصور لخاربه : فحزب السخراء بينهما واتفقا على أن يدخل ابن هيرة في أمان بني العباس : فكتب له المنصور أمانا على ابن هيرة أربعين ليلة وهو يشاور فيه الطاء حتى تحقق صحته ورضى به فبعثه الى أبي جعفر فأفنده أبو جعفر الى أبي العباس فأمره بأمنه . وكان رأى أبي جعفر في بادى الأمر أن يفي بما أعطاه ، ولكن أباسلم (وكان لا يزال حيا) أشار على السفاح أن يقتله قائلا « ان الطريق السهل إذا أقيمت فيه الحجارة فسدت . لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هيرة » فبعد ان جاء ابن هيرة الى أبي جعفر مستأنا غدر به وقتله (٣) لانه اتهمه ثم اتهم أباسلم وقتله بعد ان أمنه كما رأيت ، وشاع نكث الأمان والقدح من المنصور وتحدثت به الناس : فلما قام محمد بن عبد الله العلوي في المدينة خافه للمنصور كما تقدم فبعث اليه يرض عليه للأمان ويعدده خيرا فأجابته محمد : « أي أمان تعطيني أمان ابن هيرة أم أمان عمك عبد الله أم أمان أبي مسلم » (٤)

وظل للمنصور وأبو مسلم فترة لمن جاء بعدهما بالدهاء والفتك . على أنهم لم يكونوا يبطشون أو يفتكرون

(١) السعدي ١٦٧ ج ٧ (٢) المستطرف ٦٣ ج ١ . وابن الأثير ٢٥٧ ج ٥

(٣) ابن خلكان ٢٧٩ ج ٢ (٤) ابن الأثير ٢٥٤ ج ٥

الافى من نازعهم على الخلافة فهنا يقولونه على الشك . أما أحكامهم فيها خلا ذلك ففي نهاية العدل والرفق كما سيأتى . أما من كان في نفسه مطمع في الخلافة أو ما يتعلق بها فحكمه حكم الجرمين : فكل من يطلب الخلافة لنفسه أو يسي فيها لأحد كانت حياته في خطر فإذا دعى لتناول بين يدي الخليفة اغتسل وتحنط استعدادا للوت .

وكان المنصور أيضا فتوة لعبد الرحمن بن معاوية مؤسس دولة بني أمية في الأندلس وقد فرّ من العراق فالتجأ الى المغرب خوفا من القتل فنصره رجاله ، وخصوصا مولى له اسمه بدرسى في تأييد سلطانه مثل سى أبى مسلم في الدولة العباسية ، فلما استتب له الأمر سلبه كل فصة وسبغته : ثم أقصاه حتى مات وفعل نحو ذلك في رؤساء الأحزاب الذين نصره ، وسأبى الكلام على ذلك .

واشتهر فنك العباسيين بالذين ينصرونهم في تأييد دولتهم حتى صار الخلفاء أنفسهم يشيرون الى ذلك اذا أعوزهم الاستدلال به . فالأمين لما رأى طاهر بن الحسين يتقانى في نصرة أخيه المأمون وقد تولى قيادة جند الخراسانيين وغلب على جند الأميين وكاد يذهب بدولته كتب الأمين اليه : « بسم الله الرحمن الرحيم اعلم انه ما دام لنا منذ هنا قائم بحقتنا وكان جزاؤه الا لليف فانظر لنفسك أو دع (١) » وفي الواقع إن المأمون لما استتب له الامر في الخلافة بسيف طاهر المذكور عمل على قتله بحجة مثل حجة المنصور بقتل أبى مسلم فأهدى له خادما كان ربه وأمره أن يسمه فقتل (٢) . أه ما أردته من كتاب التاريخ المتحدن الاسلامي ولله رب العالمين .

فانظر أمرت الله أيها الذكي في هذه الأم الاسلامية ، وكيف :

- (١) يأمر هشام بن عبد الملك سرا بقتل (أبي عاصم) ابن محمد بن الحنفية الذي تدعوه الفرقة الكيسانية
- (٢) ثم إن أبا عاصم لما أحس بالوت أوصى بالخلافة لمحمد بن علي بن عبد الله بن عباس .
- (٣) ولما تولى ابنه ابراهيم الامام أصبح ما كان يأمر به كأنه كتاب منزل ، وكيف يأمر أبا مسلم بقتل كل من يتردد فيه ، وكيف يقتل ٦٠٠٠٠٠ غدرا في منازلهم وفي طرقهم ا والله حرم القتل ا فهل يباح القتل لأجل الملك ؟ فأين السورى ؟ وأين آية : « وان طائفتان اتخا » .
- (٤) وكيف يأمر العباسيون باسم آل محمد ، ثم استبقوا بالملك وقتلوا العالويين ، بأي كتاب ؟ أم بأية سنة ؟ وبأي عقل ؟
- (٥) وكيف يقتل أبو سامة الخلال المرقى الشهير غمرا وظلما المنسك بالملويين ؟

(٦) وههنا أمر عظيم حل بالأمة ، هذا عبد الله بن الحسن والله صاحب البيضة جاء الى السفاح الذى اغتصب الملك من ابنه فأكرمه وحرص عليه المال فأعطاه ألف ألف درهم ، وفي نفس الوقت حضرت جواهر نهبها عسكر العباسيين من مروان بن محمد ، فلما وآما عبد الله أخذ ينظر إليها ويكي الى آخر ما تقدم من أنه بكي لأن هذا كان عند بنات مروان ، وملاوته بنت عمك منه قط ، وأعطاه تلك الجواهر . هل هذه الحكاية وحدها ان سمعت نزل على قبر الأخلاق في بعض آن البيت ، ذلك لأن عصر النبوة كان عصر رجا ا فلما بنا البكاء ، وطاهنا النجيب ؟ إن أخلاق الأمة إذ ذاك تغيرت ، ولأن الأمة نسبت أخلاق النبوة ، وأنس الناس بالتوف والتعم ، وبيت النبوة التى هو النور والمشرق في الأمة أيضا أطلعت ببعض حجراته الظلمة ، النبوة وأبو بكر وهى وغيرهم يحترقون المال ، وظلمة رضى الله عنها تطعن على الرضى ، ثم انا نسع أن عبد الله يبي

للجواهر ويضرح بالمال ، ذلك تغير عظيم في أخلاق الأمة حتى سرى إلى بعض رجال بيت النبوة ،
تغيرت أخلاق الأمة ، فبعد أن كان الخليفة حارسا لمال الأمة كهدم رضي الله عنه أصبح مترافناصا
كالعباسيين والأمويين ، واشترأت لهذا أعناق العلويين . هذا كله لأن الخلافة بعد أن كانت صفيقة
هن مال الأمة أصبحت شرمة على مالها ، وطلبت لذلك ، وكل من وصل إليها اعتبرها غنيمة له ،
وما أصبح هذا الجهل بأمة الاسلام .

(٧) ثم كيف ترى أبا جعفر المنصور يبعث في طلب بني الحسن الذين كانوا نصرانه بالأمس ، وكيف يقتلهم
جميعا بعد أن أحضرهم مثقلين بالقيود والأغلال ؟ وكيف يضرب مالكا على فتواه في طلاق
المكروه ؟ وكيف حبس أبا حنيفة ؟ ذلك لأنهما أفتيا بأنبيعة محمد بن عبد الله صحيحة ولابيعة
للمنصور ، ثم كيف يقتل من كان هو مبايعا له بالأمس من آل بيت النبوة ؟ .

(٨) اللهم انك أنت المهيمن العليم الحكيم ، أمر إبراهيم الامام باذلال العرب على يد أبي مسلم الخراساني
قتل منهم مئات الألوف في منازلهم ، غرمة الله الملك إذ قتل الأمويون ، تولى أخوه السفاح بعده
فلم يشفق على بني أمية لما سم له النصر ، وأهلك القوم ، فلم يدم له الملك ، ومات ولا ذكر لقبه .
فتولى أبو جعفر المنصور ، فأوقع بالطائفتين العلويين من ناحية وأقربه العباسيين من جهة أخرى ،
وقتل أباسلم . كل ذلك مخالف للقرآن وللعقل ، وتولى الخلافة ذرية فلم تطل المدة حتى رأينا ما يأتي :

(٩) اختطف الأمين والمأمون ، ولكل أفسار ، فأفسار الأول العرب ، لأن أمه زبيدة حفيدة المنصور
وأفسار الثاني الفرس ، لأن أمه فارسية ، وكان في خراسان بين أخواله وشيعته فصره الخراسانيون
كما نصره أجداده ، إن الفرس هم الذين أقاموا هذه الدولة ، ولهذا حقروا العرب بعد أن كان
بنو أمية وافى شأنهم ، وههنا زاد امتهان العرب ، فالهولة عربية ظاهرة فارسية حقيقة ، فلما مات
للمأمون سنة ٢١٨ تولى الخلافة أخوه المعتصم ، وأمه تركية من بلاد (الهند) في تركستان ،
نسبة محبا للأتراك ، وصار لا يأمن الفرس على نفسه بعد أن قتلوا أخاه الأمين ، وهي أول مظاهر
جرائيم على الخلفاء ، ولم يكن له ثقة بجند العرب ، لأن العباسيين أذلهم فضغفوا واستكفوا ،
ومن المدهش أن أخاه للمأمون أوصاه بمحاربة العرب ، ولتلك منحوا من أعمال الدولة ، وآخر
عربي تولى مملعة غنيمة بن اسحق الضبي سنة ٢٣٨ هجرية ، ولقد أراد المعتصم كما زهد في
رجال العرب أن يزهد في بلادهم ، فبنى سامرا بالقرب من بغداد ، وأقام فيها جنده ، وأنشأ فيها
لعبة ، وجعل حولها طوافا ، وانحمنى وعرفات ، غر بذلك أسماء كانوا معه لما طلبوا الخلع خشية
أن يظرقوه ، فصر بذلك لفظ عربي مرادفا لأحقرا الأوصاف عندهم . ومن قولهم : « العرب بمنزلة
الكلب الطرح له كسرة واضرب رأسه » . وقولهم : « لا يصلح أحد من العرب إلا أن يكون
عه نبي ينصره الله به » . وأصبح الأمراء والوزراء وسائر رجال الدولة من الفرس والترك والديلم
وغيرهم ، وصار الخلفاء يؤيدون مناصبهم بالأجناد وبذل المال ، وقلت الضاية بالعرب وأحزابهم ،
وهذا سر انك تسمع ابن طولون والاختيد والماليك البرية والبحرية كانوا يحكمون مصر ،
وتلك هي السنة التي سنها العباسيون من التجارهم إلى غير العرب وانحيازهم إليهم ، ناهيك ما فعله
المنصور ، إذ أمر رجاله أن يلبسوا القلائس الفارسية الطويلة ، تدغم بيستان من داخلها بدل
العمام ، أو يعمتوا فوقها بعمامة صفيرة ، وأن يلقوا السيوف في أوساطهم ، وأن يكون اللبس
الاسود عاما فيهم ، وهو شعار العباسيين كما كان اللباس شعار الأمويين ، فلا بد للداخل على الخليفة
العباسي من لبس جبة سوداء يسمونها « السواد » تغطي سائر ألبستهم ، وألبسهم المنصور « لروم

كتب على ظهورها : « فيكيفيكم الله وهو السميع العليم » وبث إلى عماله في سائر الأقطار
أن يأمر ديارها بمثل ذلك .

نتيجة أعمال الأمويين والعباسيين في الاسلام

نحن الآن أيها القارئ لم نكتب هذا جبا في التاريخ ، إن التاريخ لا يحسن له إلا الاعتبار والتدبر
والناسى والله يقول : « أولم يهد للذين يرتون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصنامهم بذنوبهم ونطبع
على قلوبهم فهم لا يسمعون * تلك القرى قصص عليك من أنبأها والآيات .

الله أكبر : نحن الآن في تفسير آية : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » الآيات
التي تأمر بالصلح أولا والاثناء ثانيا ، ولكننا لما قرأنا تاريخ أسلافنا ، أفتيناهم بعد العصر الأول هجروا
الشورى بتاتا ، ورجعوا إلى عادة الجاهلية الأولى ملطفة بالاسلام . فلما ضلوا ذلك أخذوا يتخذون غير العرب
لإذلال العرب .

الله أكبر : إن الغنم بالفرم ، أذل العباسيون العرب ، لماذا ؟ لأجمل الخلافة ، ولم ذلك ؟ لأن الخلافة
نصبتهم الخيرية في الأموال والسولة ، واسكنها لو كانت تلك الخلافة خلافة صادقة بحيث لا يتصرف الخليفة
في مال ولا في حال إلا بالشورى ، لم يتناحروا ولم يقتلوا عليها ولم يبيك عبد الله من فرية الحسن رضي الله عنه
أمام السفاح لأجل الجواهر والمال ، لبس العباسيون ملابس الفرس ، هجروا العرب أمر المنعم بالأياخذوا
من العطاء فماذا جرى ؟ أصبح أولئك الخلفاء تحت امره الفرس تارة والترك أخرى ، فقتلوا من الملوك العباسيين
٣٨ من ٥٥ خليفة ، وبعضهم سملوا عينه ، وأصبح يسأل الناس على أبواب المساجد (اقرأ هذا المقام
موضحا في ﴿سورة الأحقاف﴾ عند آية « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » فهناك ترى
كيف قتل باغر التركي المتوكل وهو في حال سكر ، وكيف قتل غيره وغيره) .

إذن بنو العباس استعانوا بغير العرب لإذلال العرب ، فصاروا هم أول من أذلهم الفرس والترك . كل ذلك
ترك الشورى ، ونسيان القرآن ، وانباع العصبية الجاهلية ، تنصب العباسيون ؟ لمن يتعصبون ؟ لأجل المال
لا غير والسلطان ، فتكون النتيجة الوبال على الذرية . إن ماصنه العباسيون مع العرب بقي أثره إلى الآن ،
لم تركب حدثنا التاريخ بالماليك البرية والبحرية وبالأمه العثمانية التي أذلت المصريين وأكثر بلاد العرب ،
ذلك لأن الأمم العربية ذهبت غالبا عصبيتهم فناموا ولم يظهر فيهم نابضون يذكرونهم مجدهم مثل من ظهوروا
اليوم فناموا نوما عميقا . إن ما فعله العباسيون سرى في بعض أمراء الأندلس ، فانهم كانوا يستعينون بجيرانهم
من الفرنجة على اهلاك المسلمين . وانظر إلى قصة براق في ﴿سورة الأحقاف﴾ أيضا في الآية المذكورة .
وكيف كان يقابل بابا رومة ودوق فينيزيا وبارونات أوروبا . وكيف جاء بوعد من البابا أمير أشيلية (جندل بن
جود) انه هو الذي يكون أميراً على بلاد الأندلس على شرط أن يغير على قرطبة ليخضع شوكة المسلمين ،
فصل بهذه الرصية ، وأغار على قرطبة ، فكان الفرنجة في نفس الوقت مفسرين على أشيلية ، وفضحوا
البكر والراة بحضرة أميها وزوجها ، وقتل ٣٠ ألف لأجل المحافظة على العرض ، ومثلهم وأكثر منهم لأجل
المحافظة على الدين ، كل ذلك وجندل بن جود مغرور بوعد البابا وبارونات أوروبا ودوق فينيزيا ، وقد خاب
ظنه ، فانهم قتلوه في قرطبة غدرا بعد أن ساعدتهم في إذلال المسلمين ، أما عكره فانهم رجعوا فوجدوا
أشيلية مدينتهم قاعا صفصفا ، وقابلهم عسكر الفرنجة بالقتل والاهلاك ، فطلبوا الأمان .

هذا مثل واحد مما ذكرته هناك في ﴿سورة الأحقاف﴾ عند آية : « أذهبتم طيباتكم في حياتكم
الدنيا » إلى آخره .

الله أكبر: إذن أم الإسلام بعد أزمان النبوة قد خالفوا كتاب الله تعالى وستة نبيه واجماع الأمة .
الله أكبر: إذن بعض ما نحن فيه الآن نتائج ما كان من آياتنا . اللهم إني أحمدك حمد كثيرا على قصة
العلم ، وعلى أن وقتي للإمام بما حصل لأمتنا حتى يكون ذلك نبراسا لمن بعدنا ، فنكون أرقى حالا مما نحن
عليه الآن .

اللهم اتنا نحن الآن مغمورون في بحار من الجهالة ورتناها عن بعض أسلافنا للتأخرين . هاهم أولاد
بعض شيوخ الطرق في زماننا ، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ، يحملون الرايات ، ويستنذرون النقباء ،
ويطوفون اليهود ، ويطوفون بالبلاد ، لماذا هذا ؟ هم لا يعلمون سر ذلك ، ولكن سره أظنوه التاريخ
كان العباسيون والعلويون يفعلون ذلك لما فاتتهم الخلافة ، وكان أبو مسلم الخراساني تحت امرته قبله بنو العباس
وبهذه اليهود والمريدين والتلاميذ استرجعوا الخلافة ، وفسكروا بمن هم أحق منهم وهم العلويون ،
فهبث الثورة العربية ، ولكننا لانزال نرى النقباء والتلاميذ في جميع بلاد الاسلام ، وهؤلاء وان كانوا يريدون
التقوى والصلاح كان أمرهم فيما مضى راجعا لطلب الخلافة كما نرى في دولة الفاطميين بمصر ، وحسن بن
الصباح ببلاد القرم في قلعة الموت . هذه فكرة عامة ، وصورة مصفرة ترىنا حاطم لتنتظر في مستقبل بلاد
الاسلام .

اعتراض على المؤلف

فما اطع صديقي العلامة على هذا ، ودوسه حق دراسته . قال : ما أجل هذا البيان ، اتنا كثيرا ما قرأنا
التاريخ ، ودرسنا القرآن وتفسيره ، ولكن تطبيق التاريخ على القرآن نادر عند آياتنا السابقين ، فأنا أحذق
على قصة العلم وانتظام التاريخ مع آي القرآن . ولكن هنا تبدى لي سؤال ؟ وهو انك بهذا البيان قد كسرت
قولا با صححة ، وقوسا برية ، فانه بناء على هذا البيان يكون مجدنا القديم ضلعا ، إذن تاريخنا أسود وآبوا
ظلمون جهلاء ، إن هذا القول يقبض القلب وينكس الرأس ، ثم انك نقلت عن الفرنجة الذين لا يرجي منهم
مودة للسين مدح هؤلاء الملوك فكيف نجتمع بين التمس واللمس ، وهل العقول تقبل الضدين ؟ يا سبحان الله :
إذن جميع للملح إنما هو ظاهر من الملاحين ، لأن مآثره الآن في هذا المقام ظاهر من التاريخ فهو لا شك فيه إذن
الملح هو المنكوك فيه . فقلته : أيها الصديق ان الملح والقبح كلاهما حق . فقال : وكيف ذلك ؟ قلت :
لقد قدمت في هذا التصير في (سورة سبأ) وغيرها أن الأمة أشبه بطفل ، وكل قرن في حياتها يعتبر سنة واحدة
في حياته ، إذن الأمة اليوم كراهق في السنة الرابعة عشرة ، ولكنها اليوم أدركت البلوغ قبل ١٥ سنة كما
يدرك الشاب بالاحتلام قبل السن ، والليل على ذلك انها اليوم تقبل للعلم والحكمة المشورة بعد أن كانت
لا تقبلها ، ولا تعرف لها وزنا ولا طمعا .

إن الطفل في أول أبله يصبه التخطب والجهالة ، لاسيما اذا كان يتيم ، وهذه الأمة لما فقدت الخلفاء
الراشدين بعد النبي ﷺ أخذ المسلمون يتخطبون في ديمجور للظلم ، ونسبت الأمة الشورى ، لأن الشورى
إنما تكون بين البالغين ، فأصبحت الأمة كراهق طرحت بصولة تلقفها الأمويون فله العباسيون فله الخرجون
عليهم وأمره الأندلس ، ثم دلت الثورة ، ولكن بقيت الذكري والذكري تنفع المؤمنين .

ان ما نناق لآياتنا هو الأس الذي نبني عليه نظام مدينتنا ، وكيف تتجه للشورى ونحرم عليها ، ونصطفى
الأمراء ورؤساء الجمهوريات إلا اذا رأينا عبر الدهر في آياتنا الأولين ، والنسب مننا أن نسير على الطريق المستقيم
إنما هو الجهل بالتاريخ وبظلمته وأكلامه وبالشرع نفسه ، أما الآن فقد عرفنا الحقائق ، وأن آياتنا كانوا في زمان لم
ينضج فيه العقل الاسلامي في أمر الخلافة والحكومات فنردوا كل مشرد ، وبأدوا وأصبحوا ذكري فلذا كرى

هذه ذكرى لنا ، ولقد عرفنا اليوم والمعرفة أساس العمل ، فهنا سائق للحكومة المنظمة وتمد ، أما السائق فهي الآلام التي حلت بآبائنا الأولين ، وأما القائد فهو ما تراه من الحكومات المنظمة في جسد أوروبا وأمريكا واليابان وغيرها ، وهؤلاء لم يكن لهم نظراء قبل ظهور نبينا العربي عليه الصلاة والسلام ، هذا ما كان من أمر الحكومات العام .

النظام العام في الاسلام

فأما فيما عدا ذلك من النظام العام فكانت دولهم أعدل دول الأرض ، وقد بقي ملك العباسيين إلى القرن السادس وملك الأندلس إلى القرن التاسع ، فهذه حكومات كان العدل هو الغالب فيها ، وتظهر في تلك الممالك العلماء والحكماء والشعراء والمهندسون ، وجميع من يحتاج إليهم العمران ، بل هم قدوة أوروبا وحاملو لواء العلم في العالمين .

هاهوذا الشرع والمذاهب والقرآن باقية محفوظة ، ها هوذا القرآن والشريعة باقية لم تمسهما يد الخلدان فلم يقدر المنصور أن يمنع الحج بقبته التي بناها لتكون مطلق الحجج بغداد ، ولا المعتصم لما جعل في سامرا مناسك الحج ولا غيرها ، فهما في ذمة مناسك الحج والقرآن باقية ، وهل عرفت تلك الفرق المتشاكسة وهي اثنتان وسبعون فرقة دين الاسلام ؟ كلا ، بل مزقت وحفظ الاسلام .

أشرق دين الاسلام في العرب وانتشر في الأقطار ، وتنتقلت رئاسته من العرب إلى الفرس إلى الترك إلى أمراء في سائر الأقطار ، هذه سنة الله في خلقه ، فنقل الشمس في أبراجها والقمر في منازلها ، والمادة في صور الجهاد والحيوان ، إن المادة خلق الله والبرين لله وهو القاتل : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » فهذا هو العدل وحسن النظام .

إن المسلمين في المستقبل غير المسلمين الماضين ، فهؤلاء يعلم لهم البرين والعلم والحكمة والاعتبار بالتاريخ وسيكون الأمراء والملوك والخلفاء آباء للأمم الاسلامية ، لاذن يافترون المسلمين ، وسيكون أمرهم شوري بينهم . المسلمون السابقون كانوا خير أمة أخرجت للناس في زمانهم ، ذلك أن دولهم كانت خيرا من دولتي الفرس والروم ، ولما ضعف أمرهم ارتقى النظام في ممالك أوروبا ، فنحن الآن لا نكون خيرا من دولتي الفرس إلا إذا اعتدنا في الخلافة والامارة ، وكان أمراءنا أشبه قوم أبي بكر وعمر وعثمان والنبي صلى الله عليه وسلم . هذا من حيث النظام العام في المملكة ، فأما الأفراد فانهم يعملون ما قولوه في هذا التفسير ، ويعملون به عن اعتقاد وإخلاص وصدق ويقين ، وذلك ما قررناه مثبت الثرات من أن القيام بأمر من أعمال الأمة لنظامها فرض من فروض الكفليات ، فهو من جهة عمل نافع للأمة ومن جهة أخرى سعادة للرد في الآخرة بل يقول إمام الحرمين وغيره إن ذلك أفضل من فرض الدين لأن القيام بهذا العمل دفع الحجج عن بقية أمة الاسلام . وأئمة هذا اعتقادها ويقينها لا جرم تكون خيرا من دولتي الفرس ، فإذا كانت الأمم يعمل أفرادها للجهاد والمال مثلا فهنا أمة الاسلام يعملون الأعمال العامة تقربا لله تعالى ، فيكونون أرقى من جميع الأمم . هذه هي أمة الاسلام في مستقبل الزمان . انتهى



جمال العلم . وفرد الحكمة . وأزهار الحدائق العلمية . وبهجة القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحانك اللهم وبمحمدك ، أنت المنعم المتفضل الحكيم ، معلم الحكمة ، وملهم كل حشرة ودابة وانسان وملك كريم .

بينما كنت أكتب في مقالة في سورة (ق) في بيان جمال العلم وبهجة الحكمة وأسرار اليقين في معنى (الم) في قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » وقد استبان بعض أسرار (الم) وأن هذه الحروف في سورة (ق) لها صلة وثيقة بها في أول (سورة البقرة) وانها فيها مفتاح فتحت به أسرار في زماننا كانت مغلقة الأبواب ، وأن الشبان في عصرنا وفيما بعد عصرنا سيقتحون بهذه الحروف خزائن كانت مغلقة على القرون المتأخرة في أم الاسلام الذين أغرقتهم مطامع آباؤهم في أحوال هذه الحياة ، ومطامع الأمم الذين يحيطون بهم ، فألهمهم عما يحيط بهم من العلوم كافة وعلم النبات والحيوان ، فخرجنا نحن في الأرض حائرين لا ندري أين توجه ؟ فألقينا هذه المفاتيح التي أعدها الله لزماننا ، فيأنس بها الشبان الأذكياء ، فينالون منها ما يريدون ، ويضارعون الأمم المحيطة بهم ، بل يكونون أرقى الأمم ، لأنهم إذ ذاك يكون ما يعملون لديناهم هو عين ما يقر بهم إلى ربهم ، وهذه مزية لم يسبقها سابق ، ولن يلحقها لاحق ، وقد فصلت هناك المقام تفصيلا ، واستبان من قراءة التاريخ في ابن خلكان وغيره أن ملوك المسلمين تداولوا هذه الحروف فيما بينهم وجعلوها رموزا في الكتابات الرسمية ، فأدت الفرض الشريف ، وحقت دعاء ، وحفظت ممالك ، ولكن لم يفض ختام تلك الأسرار من الوجهة الإلهية والنظام الاجتماعي إلا في زماننا أي عند الحاجة إليها كما استعملها أوثق الملوك في أغراضهم السياسية ، تمهيدا لما زاولناه في هذا التفسير من المناهج الشريفة ، والمقاصد المنيفة ، واسعاد الأمم ، وإثارة الهمم ، وطمس معالم التفرق والاضلال ، وتشديد حصون الوثام ، ورفع بنود الارتقاء والاتحاد ، واستباق المخبرات في سواه السبيل .

أقول : بينما أنا أكتب ذلك إذ حضر صديقي العلامة الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير . فقال : ما أجل ما وصفت ، وما أحسن ما صنعت ، ولكنني أذكرك بما أبنت في (سورة الحجرات) من تفرق والاضلال ، واختياب واختلال ، وهتان وضلال ، وجهل ووبال ، في الممالك الاسلامية ، وما أحيط بها من كل ضروبية ، فقد ذكرت أنهم كانوا في غيهم يلعبون ، وهم في كل واد يهيمون ، ويقولون ما لا يفعلون .

فما كادت شمس الهذات الحمديّة تقرب من سماء الوجود ، وتلاها الشفق بعد التروب في أزمان أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ ، حتى عسعس الليل ، وعبس الدهر ، وكلح وجه الزمان وبسر ، وأصبحت الخلافة ملكا عضوا ، لافرق فيها بين الأمويين والعباسيين والفرس والترك والأندلسيين ، وكل دولة إسلامية هنا شأنها وذلك دأبها ، ولما كان هذا التفسير لم يقصد به مجرد إرشاد الأمم ، وإثارة الهمم ، بل أريد به ما فوق ذلك من إظهار الحكم الإلهية ، والنظم الحكيمية ، وآثار العجائب الربانية ، أليست هذه الأمم المختلة النظام ؟ في حكوماتها ، الشاردات في أغنيها وشرها ، خلقا خلقه الله بيده ، فليكن تبيان الحكمة في ذلك الاضطراب بعد النظام ، والملك بعد الخلافة .

إن النفس توافقة إلى مناظر أزهار الحكمة في رياضها ، وإلى نمار العلم في حدائقها ، حتى تطمن إلى حقائق التكوين ، وبدائع الابداع ، إن الأمم التي وقفت عند ظواهر التشريع ، ولم تعرف السرّ الصون ،

ولا الجوهر المكنون ، في النظام العام تسمى وتصبح وهي خاملة ، وتصبح ديارها فيما بعد خاوية على عروشها ، وبها مطلة وقصرها غير مشيد . إن القاصرين على ظواهر التشريع مثلهم كمثل « شجرة خيشة اجثت من فوق الأرض مالها من قرار » ، والذين أدركوا سر النظام مثلهم كمثل « شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها » ، فالأولى كشجرة الحنظل ، والثانية كشجرة النخل . إذا تقررت هذا فأنا أرجو أن تبين لنا ما السر ؟ ما هذا الخلاف ؟ والتفرق والانحلال بعد العصر الأول ، وكيف ينزل دين من السماء عظيم ، يزلزل الأرض زلزالا شديدا ، ثم يرفع الانسانية أجيالا ، ثم يخفي وراء الحجاب ، وتلبس الأرض رداء الحداد عليه ، وتلبس الانسانية ثوبا قشيبا من مدينة حديثة ، وحاملها هذا الدين نائمون هائمون . فأنا أود أن تشرح لنا هذا المقام ليتحد التشريع مع التكوين ، وتلتئم الحقائق مع الظواهر ، والعقائد مع القروع ، وهذا به ارتقاء الأمم وسعادتها إلى حين ؟ .

فلما أمم ذلك ، قلت له : لقد أجدت في صوغ عبارات السؤال واصطفيتها بصفاء نفس وجودة قريحة ، حتى تجلت بوضاهة هية للقارئين . فاعلم أيديك الله بالفهم ، وألهمك الحكمة ، وأنا بصبيرتك بالعلم ، أن آية (ق) التي ذكرت : « أفم ينظروا إلى السماء الخ » فيها الجواب عما تقول . فقال : وكيف كان ذلك ؟ قلت : إن فيها ذكر النبات ، والنبات أنواع مختلفات ، ولكم من نبات قد خفيت منافعه حينما عن البصائر ثم ظهرت لجأة إلى الوجود كما حصل في زماننا هذا ، فان امرأة افريقية في مصر نشرت (قبل أواسط سنة ١٩٣١ الفريجية) وهي كثيرة في بلادنا المصرية تقول انها جر بها إذ شربت مائها بعد أن عصرتها وقد كانت مريضة بالسكر وكان السكر ٦٠ في المائة ، فأخذ يقل حتى شفيت تماما . وما كادت تطن هذا في الجرائد حتى صنعت آلات لصنع الرجلة ، ويمت للناس ، وأخذ المرضى يضعون ذلك رجاء الشفاء .

هذا هو الذي تم في أيام كتابة هذا الموضوع في بلادنا المصرية ، وانما ضربت هذا المثل المقيد في علم الصحة بتجربة امرأة أرادت الخبر للناس إلا لأجله نظير ما في القرآن من العلوم ، فلهن نزل من السماء بقول الله : ونظام الزرع بفضل الله ، فاذا رأينا نظامه الذي صنعه يسديه نحني أسرارها على نوع الانسان . ينظر الأشجار والزرع ولا يفتق منها إلا قليلا ، ويسم الزهر في وجوه الناظرين وهو يقول : انظروا إلى جمال ولكن ما أوتيتم من علمي إلا قليلا ، فهكذا يسمع الناس الكلام الموسى به ، ويتهجون بيلافته ، ان كانوا من الأمم العربية ، أو باحترامه وتقديسه ان كانوا من غير الأمم العربية ، ثم يسمعون خطاب الوحي : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ويسمعون أيضا : « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم » فنوع الانسان على الأرض ليس مقياسا لنظام الطبيعة المنظورة ، ولان نظام الكتب السهلوية المسموعة ، لأن السمع والبصر ليسا يقدران على الحكم في قول بليغ ، ولا نظام زهر بديع ، بل الحاكم العقل الانساني ، والعقل الانساني مشغول في حياة الطين ، فهو يسطى من العلم بقدر كما اتفق لهذه المرأة الافريقية في « البقلة الحقاء » وكما يلقي من السكر لأناس يعيشون في زماننا وبعده لا يدرك بعض أسرار الآيات القرآنية كالتفاسيح الآتي ذكرها في سورة (ق) كما قسمناه .

فلما سمع صاحب ذلك . قال : أنا أقارضك التناء ، فأنت أنتيت على تنسيق السؤال وإيضاحه ، وأما كذلك يدورى أمي تناء مستطابا على الاجابة ، ولكنها ليست بكافية ، وانما علمتنا مسألة طبية جاءت للتطير والتشبيه ، ولكن المهم أن نذكر سر اختلاف الأمم الاسلامية التي سبقتنا وقد أوفعتها ، ماسر هذا الاختلاف وهذا الحمود الطويل ؟ وما حكمته التكوينية ؟ ولم أستفد من هذا الجواب إلا أن بعض أولى الألباب يلقي عليهم فهم أمور في الاسلام كما أتى إلى هذه المرأة في الطب .

والمختصة أن أهم الإسلام المتأخرة فتش على عقول كثيرين أكابرها فتاب عنهم كثير من الحقائق ، وبمضها
 لفظ يظهر الآن ، أي أن السر كل السر إنما هو الاستعداد ، فلا استعداد إذا وقف عند حد محدود بما أحيط به
 من ضرائق الظلم داخل وخارجا يلف عن الفهم ، إذن الذين فيه السر للصون ، والجوهر للمكنون ، والصراف
 المستقيم ، ولكن العقول لم تهتد إليه ، وستهتدي الآن وتعلم دول الإسلام . هذا شرح ما أجهته ، فذن
 سر النظام هنا أن الفضائل (وان كانت موجودة فعلا) لا تعطى إلا لمن يستحقها ، فهذا الجواب مع قنائه
 مجمل لا يشق التليل . قلت : حياك الله وبياك ، فإن آيت واضح إلا الإفصاح ، فها أنذا أتق عليك التفصيل
 بعد الاجمل .

الهم منك الجول ، ومنك القوة ، اعلم أيها الأخ الوافي للحكمة ، الفرح بها ، والتمتع لهما ، أن الناس
 إذا لم يفهموا المحسوسات لا يدركون المعقولات ، ومن عجز عن فهم ما أدركته الأبصار فهو من أمراك ما وراءها
 لغبر ، ومن كثرت مدركاته البصرية وكل محسوس وعقلها بربوية كثرت ما وراءها من عالمه الحكيمية . فلا شرح
 الآن لك أيها الذكر خمسة أنواع من العلوم :

- (١) نظام النبات .
- (٢) نظام النطفة العام .
- (٣) نظام الحكومات كحكومةنا المصرية اليوم .
- (٤) نظام الحيوانات العلم .
- (٥) النظام الجمل للمناجيب الانشائية .

وكل ما أسفله في هذا المقام فهمته مما فتح بفتح : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها
 وزيناها وما لنا من فروع * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة
 وذكري لشكل عبد منيب » .

فهذا الذي ذكرته الآن هو نفس هذه التبصرة وهو الذكرى ، فالأذا فكرنا في أمر النبات وبيدناه
 جعله الله المشا كل كلفها . والنبات منظور ، وهذا المنظور مجمل لنا مشا كل المسموع والمقول . قلت :
 إن ما تذكره الآن أشبه بالانجاز ، والتعريف يجب أن يكون أوضح من المرفق ، فأين الإفصاح هنا ؟
 قلت : خلق الانسان من جمل . ههنا خمسة فصول :

الفصل الأول في النبات

إن في النبات فاكهة وجبا وخضرا للإنسان ، وفيه حشائش وتبان للحيوان ، وفيه أعذية لأدنى الحشرات
 ولسلك حيوان ، وكل في الأرض من فضلات نباتية وحيوانية عفة قنرة يبش عليها أدنى الحيوان من خلق
 وهو ونصوها من الحفوات ، إذن النبات ينفذ أشرف حيوان يكاد يلتحق بللا الأعلى وهو الانسان وأخس
 حيوان يكاد يلتحق بالطين اللأزب وهو السود ، وبينهما درجات لا يكاد يحصرها اليد ، وكل حنوبها ما لم يسم
 فرحوس ، فلا السود يبنى فوق ما للهيه ، ولا الانسان ينزل عما أمته به ، فهذه الحيوانات انقسمت النبات
 وأكلته ، وكل يسي لطلب رزقه فيها استعد له وله خلق ، وهو معرض عما وراء ذلك ، وهو بذلك فرح سعيد
 ولم يجد من هذه الأنواع من الحيوان أحدا يلقى نظرة عاقلة على جميع النبات إلا بعض خواص الانسان .

الفصل الثاني في نظام الفلسفة العام

قلنا في الفصل السابق ان السود قد يبش في فضلات النبات والانسان يأكل منه ، وأنهما هما

بينها من أنواع الحيوانات منقسمات أنواع النبات ، وقتنا ان هذا الانسان وحده هو الذي فكر فلاسفته في النظام العام لهذا النبات . إن المفكرين في النبات أيضا ، أي المذكور في جز (الم) في (سورة ق) (وهي الحروف التي هي مفتاح من مفاتيح العلوم الآتي إيضاها هناك) يكونون فرقا شتى ، منهم من يبحث في خشب الصناعة ، ومنهم من يبحث في شجره وزيته للأكل ، أو صفة للتجارة ، أو صفة للطب ، إلى غير ذلك من مباحث لا يستطاع حصرها إلا في مجلدات ، وإذا رغبنا طرفنا إلى طولي ذلك وجهنا هذا النبات إن هو إلا نوع واحد من أنواع الوجود ، ولكل نوع علماء اختصوا به كما رأيت لكل طائفة من النبات حيوانات خاصة تتغاطها وتقتذى به ، تقوم النظر في عموم النبات من حيث تتكونه ونسبته إلى الحيوان ، وقوم يدرسون قس علم الحيوان ونسبته إلى النبات ، وآخرون يدرسون علم المعادن ، وآخرون يدرسون الطبائع العاتية للعوامل كالغناطيس والنور والكهرباء والحرارة والصوت ، وهذه طبائع عاتية لا تخفى بضم من أقسام الطبيعة ، وهذا كله في العالم الأرضي ، وهناك خواص يرتفع بعضها إلى العلويات ويكونون فرقا شتى ، وأعلامهم من ينظرون نظرا كلياً في تركيب النجوم والشموس والأقمار والسيارات والأرضين وذوات الأذئاب والمجرات والسدم ويحصرون العوامل حصراً عاماً . وآخرون فوق ذلك يحصرون العالم العلوياً والسفلي بصدان يكونوا قد أحكموا العلوم الرياضية بقدر طاقتهم وفكروا في النظام العام . هذه نظرات أكار الفلاسفة في الدنيا الذين مثلهم بالنسبة لأصحاب العلوم الجزئية في العوامل السماوية والأرضية كنسبة نوع الانسان بالنسبة للحيوانات الأرضية التي تأسمت الأغذية في التفاوتات النباتية ، فكما كان اليهود متازكا للانسان والمحصرات وغيرها في اقسام الأغذية النباتية ، واختص للانسان بالبحث العلم في النبات ، هكذا المفكرون في الأمم اقتسموا النظر في العوامل العلوية والسفلية ، واختص أكار الحكماء بالنظر العلم في العوامل كلها ، وانتقلوا منها على جهة اليقين والمسرة والبهجة إلى صنائع العالم ، وتعلقوا بالصناعات وروا الصنعة ورواهم ، وقرءوا : « حوائج إلى ربك المنتهى » .

إذا فهمت هذا أيها الصديق فقس عليه نظام الحكومات ، وأضرب لها مثلا نظام حكومتنا المصرية ، لأنه أقرب إلينا في التمثيل ، وهذه الأمثال كلها جعلناها مقدمة لما يريد به الأخ الفكي من إدراك السر في التناقض والاختلال والاختلاف الواضحات في القرون الإسلامية الخالية حتى تلتئم العقائد والنظم العام مع التشريع الظاهري كما طلبته أيها الأخ العليم ، فهذا تفصيل الكلام طي :

الفصل الثالث : نظام حكومتنا المصرية

إن حكومتنا المصرية تراها مكونة من :

(١) قرية لها هيئة ومشايع وبنفراء .

(٢) مركز مكون من قرى .

(٣) مديرية مكونة من صباكر .

(٤) وزارة الداخلية للمكونة من مديرية .

(٥) وزارات العاتية للمكونة من وزارات ، وهذه الوزارات فيها وزارات مثل الداخلية والشاربية والحقانية

والأشغال والزراعة والمالية ، وفيها مصالح كشيرة ، وكل هذه جمع الوزارات العاتية ، وكل جماعة في

وزارة يكون على علمهم ، لا يعرفون إلا قليلا عن عمل غيرهم في الوزارات والمصالح الأخرى كما

لا يعرف حيوان البر عن حيوان البحر إلا قليلا ، وكذا لا يعرف عالم الحيوان الأرضي عن عالم

الكواكب إلا قليلا .

(٦) وفوق هذه الوزارة القوة العليا التي تولى تلك الوزارات التي تستند إلى رجال دارالنبابة الذين تصطفهم الأمة للقيام بمثلها .

فأنت ترى أيها الذكي أن كل طاقة تقوم بعملها وتعرض عملها ، وإذا خالفت ذلك اختل النظام كما تنقسم أنواع الحيوان من أقلها وهو السور مثلا إلى أعلاها وهو الانسان أصناف النبات ، ولكن فريق واحد يكون نظره علما في الأئمة كلها وهو القوة التي تنظر في شؤون الوزارات كلها ولا يتم بمجزئات الأعمال بل أعمالها عامة ، وليس لها أن تنزل عن الكليات كما اختص نوع الانسان دون سائر الحيوان بالنظر العلم في النبات المشترك بينه وبين الحيوان ، وكما اختص الحكيم العظيم في نوع الانسان بالنظر العلم في الوجود وإن شارك غيره في النظر في الجزئيات العلمية ، وقس على حكومتنا المصرية حكومات العالم المتحضر فهذا مثال له مجمل ، وهذا توضيح وشرح لما بعده وهو نظام البيانات العام في الأرض .

الفصل الرابع في نظام البيانات العام في الأرض

اعلم أن في الأرض من أنواع البيانات ما يختلف باختلاف العقول والأفهام اختلافا كاختلاف أنواع النبات باختلاف أصناف الحيوان في التغذية والانتفاع ، فكما رأينا من بقايا النبات المتعض للنبود في الأرض والبرك والمستنقعات ما يعطاه السور وأخص أنواع الحشرات والعنق ، ورأينا منه ما هو فاكهة وحبات نوع الانسان الذي يكاد بعضه يكون من نوع الملائكة الكرام ، هكذا ترى من البيانات ما ينزل إلى دركات الانحطاط لضاوة معتقيه وانهم في نوع الانسان أشبه بالسور في نوع الحيوان ، فأعوزهم ذلك إلى دين يراهم ويسد حاجتهم ، ويكون ذلك الدين على قدرهم لا يتجاوز ما قبله فوسمهم ، وتمثل به أئمتهم ، وهم به فرعون .

ومثال ذلك ما استراه في (سورة البقرة) في الجزء الأخير من القرآن ، إذ ترى هناك في حديث رئيس البعثة الأزهرية الصينية أن عدد البيانات في تلك البلاد نحوون دينا ، وعدد السكان (٤٠٠) مليون انسان ومن البيانات عبادة الجمال والنور والنار والسراب المختلفة ، وكذلك ترى في تفسير نص تلك السورة أن في الجنة من يبسبون الأشجار ويقسونها ، وبعضهم يتقدس الطبيعة ويبسدها ، وترى الذين يبسبون الأشجار يقومون حوفا في كل عام ، ويقومون بواجبهم الذي ، وكيفية ذلك أن يدعوا جذورها بالسن ويقنون حوفا وهم يرقصون ، ويقنون مختلف الأغاني ، ويقصد أهالي قبيلة (اللدون) بعض الجهات التي تنكسر فيها الأشجار ، ويقنولون حوفا بعض المشروبات ، كالخمر والبن وشراب السيل وغيرها .

هذا كل من بيانات هذا الانسان . ماهذه البيانات المختلفة في عالم الانسان إلا نماذج مطابقت لتختلف العقول والمواظف والأسيل على التحولات التي اختلفت فيه أغذية الحيوان في النبات من دود يتغذى بالفتوريات ، وصح حشرات كذلك ، إلى أنعام تأكل الأب ، إلى الانسان يتغذى بالفاكهة والحب ، وما مثل دين الاسلام إلا كتل النوع الانساني فيها مثلنا ، إذ نظر نظرة علمية في جميع النبات فيبحث وفكر فيعبر إلا كتل حكماء الأمم الذين نظروا نظرة علمية في أنواع العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية وبحثوا فيها ، فاختصروا كثيرا من الجزئيات وكلا من الأجزاء ، ونظروا نظرة علمية وتوجهوا به إلى صانع العالم ، وأخذوا يشقون الأمم إلى الوحدة العامة ، والنظام العام ، والى صانع ذلك النظام ، وهذا هو مقصود دين الاسلام ، فهو لا يصر للذين في مصنوع من المصنوعات وإن كان في كل مصنوع سر من أسرار الربوبية ، ولكن دين الاسلام يقول : **وأيها قولوا لله وحده** ، فهذا دين علم يهونه مفكرون يقومون به من نوع الانسان ، تكون نسجهم من هذا النوع الانساني كغسبة الانسان إلى الحيوان من حيث النظر في أصل النبات من حيث عمومته لأن من حيث انقسام أصناف الحيوان لأنساقه المختلفة تغذية ونمتا وحيا ، بل يكون نظره علما لمنفعة الصوم ، وأما **لأنهم** الذين في هذه النصول الأربعة قد وصلنا إلى المقصود من هذا المقال وهو :

الفصل الخامس في النظام الجميل للمذاهب الإسلامية

لاجرم أنك أيها النبي بأدنى الفاتحة لما مضى تصرف سائر المذاهب الإسلامية التي بدراستها فصل إلى مقصودنا من هذا المقال ، فما هذه المذاهب الإسلامية ؟ هي الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، ومذاهب الشيعة المختلفة ، والزيدية ، والاباضية ، وفرق مختلفات متفرقات ، وكل امرئ اتبع مذهباً من هذه المذاهب أكبر على عمله ، غلظاً فيه ، واثقاً به متقرباً إلى الله ، قائماً به على الوجه الذي أراده الله له ، فقري الشافعي مكباً على قراءة الكتب المقررة مثلاً في الجامع الأزهر ، كابن قاسم ، وكتاب الخليل الشريفي على مثل أبي شجاع ، والتحرير ، والمنهج ، وأمثالها ، وقس على ذلك بقية المذاهب ، وكل هذه مستخرجان من الكتب والسنة والاجماع والقياس ، وترامهم يستدلون بالأحاديث المتوعة والأدلة المختلفة ، وكل طائفة تتبع أقوال أئمتها وإن خالفوا أقوال غيرهم في القروع التي لا ضرر فيها على الأصول ، وبدوام ذلك أجيالاً زغروروا أصبح كل مذهب كأنه عقيدة راسخة ، وإن كانوا يتوارثون عن الآباء والأجداد ، احترام المذاهب الأخرى كإبراً عن كبر ، لاجرم أن هذه المذاهب ليست إلا جزئيات لهذا الدين السلي ، فينظر ترى الشافعي والحنبلي والزيدية والامامي ونحوهم يدرسون شروط الصلاة وأركانها ، وواقض الوضوء ، وأركان الحج ، والبيع الصحيح والغسل والطلاق والرجعة ، والعتاوي والينيات ، والشركة والاجارة ونحوها .

ترامهم لا يشكرون ، ولن يشكروا ، بل لن يحطروا بأذهانهم النظام العام لهذا الدين الإسلامي الذي جاء لاقتاد الإنسانية كلها من شر الملوك الظالمين ، والسلاطين القاهرين ، ذلك أن كل فريق من هؤلاء للتصديق المخلصين لا يصدوا أن يكون مثله كمثل عمدة قرية من قرى مصر ، أو شيخ من مشايخها ، أو سامور من مأموري المراكز المصرية ، أو مدير من المديرين ، أو وزير من الوزراء ، ولاجرم أن كل واحد من هؤلاء ليس له أن يتجاوز وظيفته في الحكومة المصرية ، هكذا هؤلاء العلماء قد وضعوا في صرا كثر خاصة فطلبهم أن يقوموا بها حتى القيام ، وليس من حقهم عادة أن ينظروا نظرة عامة في الأحوال العامة للأمم الإسلامية فيكونوا في أم الإسلام أشبه بالقوة المدبرة في الحكومة المصرية التي تولى الوزراء ، وقضى كل ذي حق حقه ، وتظفر نظرة عامة في المسائل المصرية ، أو يكونوا أشبه بالإنسان في مثل النبات ، إذ يختص من بين الحيوان بنظرة عامة لنظام النبات ، أو كمثل دين الإسلام إذ جاء نظرة عامة في جميع الكائنات ، هكذا كانت ولا تزال أحوال أم الإسلام إلى وقتنا هذا ، ولا عيب على الناس في ذلك ، فللوم على حنفي ولا شافعي ولا زيدي ولا مالكي في هذا التصور ، لأنه قصور موروث من أيام أن اضطرت الأمة اضطراباً شديداً ، وزلزلة زلزالها ، وقال المسلمون : ما لهذه الأمة ما لها ، فرجعت الأمة إلى بعض جاهليتها ، وأحيت ما مات من عوائد الصبية والنسب وأرجاع الخلافة للأنساب وحدها ، وأخذ الأموي يناري العباسي ، والعباسي يناري العلوي ، ويناري جميع هؤلاء الأمم الأخرى من ترك وفرس وكرد متقلبين .

وكل يدعي وصلاً ليلي * ويلي لا تقر لهم بهذا كما

أزل الله هذا الدين على محمد صلى الله عليه وسلم وقال : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوها بينهما فإن بقت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبتى الخ » . وقال : « يأبها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأتى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

هذه الزبية هي التي قامت بها النبوة خير قيام ، فما كاد عصر النبوة وأيام الصحابة بعدها تمر حتى عصفت عامفة الأنساب ، ورويت لها الأحاديث ، وقامت الضجة ، وأعجابا ليست الخلافة للمال ، وكل خليفة يجمع المال ولا يكون كأبي بكر وعمر وعلى رضي الله عنهم ، فهو ليس خليفة ، لأن هذا ليس على طريقة ديننا ،

شرب الخمر ، لبسوا الحرير ، كنزوا المال ، هل هذه بخلافة ؟ صدق رسول الله ، فبني ملك عضوض
 لا يجب اذا رأينا أبا حنيفة يضرب ، وبالكايمان ويؤذى ، واستمر اذلال العلماء في أعمار خلت ، ولم
 يكف أحد يرفع بصره إلى النظر في الأمر العام الذي أهداه هذا التفسير حتى يزج في السجن ويؤذى ويهان
 وهامت الأمة على ذلك أجيالا وأجيالا ، وأرباب المذاهب في أمهاتهم دائبون غلظسون إذ لا تغلص لهم ولا
 منقل إلى المستوى الأعلى الذي عليه ينظرون نظرة عامة في دين الاسلام ، وكانوا كلما جاء المسلمين عالم جانا
 لا يهوى أنفسهم لتكبروا خرفا كذبوا و فرقا يقتلون ، ومنهم من كان يكتب ما هرحناه الآن تحت ستار
 التصوف ، ولقوة تحت ستار الفقه ككثير منه شذرات في كتب الفقه في المذاهب الاسلامية المختلفة لأهم الاسلام ،
 ذلك هو الحاصل في أهم الاسلام إلى هذا اليوم .

نظراته حكماء الاسلام للدين أهداهم الله للمسلمين بعد ظهور هذا التفسير

إنه هؤلاء الذين منهم من هم اليوم أسيله بدرسون ، ومنهم من هم في بطون الأهلته ، أوفى ظهور
 الآباء ، فهؤلاء سيكونون مستبشرين بالنور الإلهي ، وذلك بدراسة العلوم المحيطة بنا في الأرض وفي السماء ،
 وهؤلاء تشرق قلوبهم بالأنوار الإلهية ، لأن هذه العجايب مملوءة نورا إلهيا ، وبالبحث فيها يزدادون قويا
 وعلما وحكمة ، وتشرق عقولهم ، فهؤلاء هبتلك الدراسة ينظرون في دين الاسلام فيقولون : ما هذه المذاهب
 إلا تلوام جوية لمن سعى ، وهذا الدين الكلي بموزة حكماء يكررون فيه فيكونون للمذاهب المختلفة أشبه
 بالإنسان المتميز بالنظر العام في النبات مع مشاركته للحيوان في التنفيذ بالنباتات ، وكالقوة الحكومية
 المستمدة من تواب الأمة ومجلس الشيوخ ، والأعيان التي تخصص لكل وزير عمله ، وكل الحكيم الذي ينظر
 للعلم كلها نظرة طيبة ، وقبه شارك علماء الحيوان والنبات والفلك الخ وارتقى عليهم ، وكدين الاسلام الذي
 جاء ومقصده عام لا يتقيد بشجر ولا بحجر ولا بكعبة : « فأينا تولوا فتم وجه الله » . فهذه الطائفة هي
 التي تجعل لأهم الاسلام وحدة عامة للعالم كله ، لأن هؤلاء يقولون للمسلمين : « أيها المسلمون : إن الخلافة
 والرئاسة ليست لبال ، إن هذا خطأ محض وجهل فاضح ، ليس هذا ديننا : قل لا أسألكم عليه أحرا : إن هو
 إلا الذي كرى للطين . إنما نطمعكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا . وإذا كان للعلم رخيص لمكين
 يحتاج إلى اخلاص بلا جزاء ولا شكور كما يرى نور الشمس يصل إلى أهل الأرض ، هكذا يجب أن يكون
 خليفة المسلمين . فإن كل من غير ذلك فهو كاذب ، الخليفة ليس هو ذلك المترف المتم . كلا . فلما أن يكون
 كأي بكر وهو مهين وعثمان ، ولما لا ، نحن لا نطلب خليفة محجبا ولا منعبا ، إن هذه جهالة أعظم الجهالات
 هناك نهدت كل ما بنه الآله من الخلف والشجر الذي شجر بينهم وهم كانوا مجتهدين فيه ، فطمع جينا
 أجروا لمتلفوا فيه ، لأنهم كانوا فيه مخلصين ، وكل منهم كان يعتقد أن الحق في جانبه ، ولا يكف الله قضا
 إلا وسعها ، ذلك هو تحقيق الحق ، وهذا هو الجواب عما سألتني عنه أيها الصديق ، فهذه الأمم الاسلامية لما
 كانت في مبدأ أمرها لم تطلق صبغها على الأخلاق الشريفة بالنسبة وللعمرية والبكرية والملاوية والثمانية ،
 فربعت القهقري درجة فخرية ، فلما حل الله منهم ذلك ، وأهم لا يحملون للائمة كما أدت إليهم ، ولا يتورعون
 عن ذلك سلطة الله على العرب الفرس فدخلوا بينهم والترك وغيرهم ، وقال : أيها الأمم : إن العرب قد أدخلوا
 بشروط النبوة فدخلوا معهم وفرقوا جمعهم ، لأنهم لم يجملوا الخلافة بالشورى ، بل جعلوها للصبية ، فلما
 كان الأمر كذلك فاني أذنت للأمم أن يزاحمهم « جزاء وفاقا » ، فدخل الفرس فزاحمهم ، ودخل الترك
 كذلك ، لم استبقوا بهم ، ذلك هو المصلد الإلهي ، وهاتين أولاه الآن وأنا أكتب هذا وأؤمن بالنسب العرفي
 الصحيح ، أقول هذا هو التاريخ الاسلامي بجملا ، وهذا كل شأننا ، وهؤلاء الحكماء الآتون بسننهم

ما أفسده للزمان ، وأتى به الحدثان ، وسيقولون للأمم الاسلامية كفى كفى :

مامضى فات والمؤمل غيب * ولك الساعة التي أنت فيها

قال صديقي بعد ذلك : هذا حسن وكيف بقي هذا إلى هذا الزمان ، وهذه نيف و١٣٣ قرناً ، وهي زمان طويل ، فلماذا تأخر هذا الإصلاح إلى هذا الزمان ؟ فقلت : أيها العزيز : اعلم أن هذا العلم فيه أمران اثنان أحدهما يعمل في ثانيهما ، فالعامل هو العقل العلم المسلط على ثانيهما وهي المادة التي ملهى إلا حركات في خيال الكون المسمى بالآثير ، وانما سميناها خيالاً لأنه يشبه خيالنا نحن ، نقيالنا نحن فيه بقوة عاقلة منظمة والحركات في الآثير للنبث في هذا القضاء الذي عبرنا عنه بالخيال هي هذه المادة ، فالقوة بجميع حركات منظومات يتصرت فيها عقل ، وأظهر هذه المادة الشمس والأقمار والنجوم الثوابت والسيارات ، تشرق الشمس على الأفق فيكون نبات ، وهذا النبات يأخذ في النمو أمداً على مقدار ما حثه له ، وبعد نضبه وتعبه يظهر فيه أزهار جيلة تحكي أنوار المشرقات وتستمد منها الضوء ، بل تتبعه الشمس عند طلوعها وعند مغيبها تتجلمع ، هكذا تلك العقول الكلية المدبرة لعولنا الأرضية تربي عقولاً جزئية في أرضنا كالعقول الاسلامية ، ولكن زهر تلك العقول لا يأتي إلا في حينه ، ولن يتصدى طوره ، تتدبعا وتأخيراً ، فإذا رأينا أمنا الاسلامية اليوم قد بزغ فيها فجر الإصلاح ، وأخذت أزهار العقول الاسلامية في نباتها تضيء للبلاد فهذا هو التلموس العلم ، فلا زهر لشجر إلا بعد حين يناسبه ، وهذا العلم لم يعض له إلا ١٣٣ يوماً من أيام الله الصغرى وهي القرون بعد أن استعدت الأمة لظهور مصلحين هم أزهارها كما لم بزهر النبات إلا بعد استكمال قوله في أمده للعلم .

هذا جواب ما سألتني عنه أيها الأخ في أمر أم الاسلام من حيث خلاف الأولين وشجارهم ، والنظرة المستحكمة ، ثم اليقظة الحديثة ، ثم الإصلاح الذي بزغ جبره ، وما حكمه الله في ذلك ؟ وما سن النظام ؟ . فقال : لم أكن والله لأتوقع هنا الكشف والايضاح ، ولم يكن ليخطر لي أن أنال هذا الفتح المبين ، ولكن ما نوع التعاليم التي تخص بها طائفة المصلحين في أم الاسلام ؟ فقلت :

بهجة وجمال في ذكر التعاليم الخاصة بالمصلحين من حكماء الاسلام في مستقبل الزمان

اعلم أيها الصديق أن هذه الطائفة في أم الاسلام مثلها كمثل من ذكرناهم في الأمثلة السابقة ، بل كل ما سأفوه الآن يستتج مما قرره لك الآن ، فهم كالملوك الذين يستندون على الشورى بالنسبة لوزرائهم ، وكالحكماء الكبار بالنسبة لعلماء العلماء الجزئية ، وكالأنبياء بالنسبة للجهتهدين كأبي حنيفة والشافعي ، ومجتهدى الشيعة وهكذا ، كالانسان بالنسبة للحيوان في مثال الاغذية النباتية والنظرة العامة فيها ، فهؤلاء علماءهم تكون موجهة للكليات كما ترى في القرآن : إن القرآن والنبوت موجهان للامور العامة ، ولو أن النبوة اختصت بجانب دون جانب من العلوم لم تكن نبوة ، بل هذا الاختصاص لطوائف يخلقون تابعين للنبوة ، ولقد جاء في كتاب « الاتقان » في علوم القرآن « في الجزء الثاني في صفحة ١٧٦ وما بعدها مانصه : — « قال ابن تيمية في كتاب الله في هذا النوع : يجب أن يعلم أن النبي ﷺ بين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه ، فقوله تعالى : « لتبين للناس ما نزل إليهم » يتناول هذا وهذا ، وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرءون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا قلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً ، ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة . وقال أس : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد في أعيننا (رواه أحمد في مسنده) وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثمان سنين (أخرجه

في الموطأ) وذلك أن الله قال: « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته » وقال: « أفلا يتدبرون القرآن » وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن ، وأيضا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحونه ، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم ، وبه نجاتهم وسعادتهم ، وقيام دينهم وديارهم ؟ ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلا جدا ، وهو وإن كان بين التابعين أكثر منه بين الصحابة فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم ، ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة ، وربما تكلموا في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال ، والخلاف بين السلف في التفسير قليل ، وغلب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع ، لا اختلاف تضاد ، وذلك صنفان : أحدهما أن يعبر واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه قدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى كتفسيرهم الصراط المستقيم بعض بالقرآن أي أتباعه ، وبعض بالاسلام ، فالقولان متفقان ، لأن دين الاسلام هو اتباع القرآن ، ولكن كل منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر ، كما أن لفظ صراط يشعر بوصف ثالث ، وكذلك قول من قال هو السنة والجماعة ، وقول من قال : هو طريق العبودية ، وقول من قال : هو طاعة الله ورسوله ، وأمثال ذلك ، فهؤلاء كلهم أشاروا إلى ذات واحدة ، لكن وصفها كل منهم بصفة من صفاتها . الثاني : أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتبنيه المستمع على النوع ، لاعلى سبيل الحد المطابق للحدود في عمومته وخصوصه ، مثاله ما نقل في قوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا » الآية ، فنعلم أن الظالم لنفسه يتناول المضيق للواجبات ، والمتهتك للحرمات . والمقتصد يتناول فاعل الواجبات ، وتارك المحرمات ، والسابق يدخل فيه من سبق فقترب بالحسنات مع الواجبات ، فالقصدون أصحاب اليمين والسابقون السابقون أولئك المقربون ، ثم ان كلامهم يذكر هذا في نوع من أنواع الطاعات كقول القائل : السابق الذي يصلي في أول الوقت ، والمقتصد الذي يصلي في أثنائه ، والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر إلى الاصرار ، أو يقول : السابق المحسن بالصدقة مع الزكاة ، والمقتصد الذي يؤدي الزكاة المفروضة فقط ، والظالم مانع الزكاة ، انتهى ما أردته من كتاب « الاتقان ، في علوم القرآن » والحمد لله رب العالمين .

وقد أطل في ذلك صاحب الاتقان ، ونحن نكتفي بهذه الشفرة استدلالا على ما أردناه وهو أن هذه الطائفة آراؤها عامة موجبة لاسعاد المجموع بما هو عام ، فأما الفروع فلها شأن آخر ، إذن سلف الأمة الذين شادوا مجدها لم يكن نظرهم محمورا في الجزئيات كما هو شأن جميع المذاهب الاسلامية في العصر المتأخرة ، فانهم أفرغوا جهدهم في استقصاء الفروع ، ونسى أكثرهم النظام العام الذي كان ينه النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه في تعليمهم ، أفليس هذا من العجب ! أوليس من العجب الجباب أنهم كانوا اذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل كما قدمناه هنا قريبا ، ويقولون : « تعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا » ، وقد كانوا يقولون مدة في حفظ السورة ، وانظر كيف يقول أنس : « كان الرجل اذا قرأ البقرة وآل عمران جده في أعيننا » ، وكيف يقم ابن عمر على حفظ البقرة ثمان سنين ، وكيف يتزل صاحب كتاب الاتقان : « إن كتب الطب والحساب تشرح وتفهم فكيف بكتاب الله تعالى ؟ » .

عجب وألف عجب يارب ! إذن ما جاء في هذا التفسير موافق ومناسب لما كان عليه الصدر الأول ، إذن هذه سنة اسلامية جيئة ، فاجد الله على العلم والحكمة ، إذن الفكرة العامة وحب العلم ، وحب الله ، وحب الأمة ، نتأج هذا القرآن ، وهو المقاصد العامة التي ينشأ هؤلاء المصلحون الآن في أم الاسلام .

آراء (چون راسکن)

المولود سنة ١٨١٩ المتوفى سنة ١٩٠٠

أفلا نحب أيها الذكي من علماء أوروبا : أولئك الذين شربوا من مناهل علوم أباتنا كيف يقولون ، هذا ، راسكن يقول في قطعة تحت عنوان « التعليم الحقيقي »

« ان التعليم سواء أ كان لأدنى الطبقات أو أعلاها لا عبء فيه بما كثر منه أو قل على شريطة أن يكون مغريا للتعل على الاكباب على العلم ، وأن يعرف كيف يدبر حركة أعماله ويتقنها الخ » اه .

وأوضح منه وأصرح وأنسب لموضوعنا قول غيره تحت عنوان « تعليم الأطفال »

« ان مقاصد التعليم الهامة تنحصر في توجيه همة المتعلم الى الاكباب على القراءة والفهم » ثم قال :

« كما أننا لا نتعاطى جميع ما يعوزنا من الطعام طول النهار وقت الصباح ، هكذا لا نحمل أذهانتنا مشاق تحصيل جميع العلوم في صباح الحياة وأول الصغر : بل العمر كله زمان مهيج لتحصيل العلوم ، ومن ذا الذي يصد الطالب لذلك ، ويحدث في قلبه غراما وعشقا للتحصيل أمد الحياة الا الاساتذة المعلمون والمدرسون الصادقون الخ » .

فهذان الرأيان يجعلان على أن التفرغ بالتحصيل ، والولوع بالعلوم هو الذي يبعث في الأمم رجالا يكونون مصايح يضيئونها ، وقناديل ينبرون سبلها ، وكواكب في دجنات الظلمات ، وحناس دهر الهاربر ، مع معرفة ما يصاؤون ، وادراك كنه ما يزاولون .

ضرب مثل حكماء الأمم الإسلامية في المستقبل يحسب النحل

(١) قال فاضرب لي مثل هؤلاء المصلحين في أم الاسلام بعدنا الذين يصلحون ما أفسدته يد الأيام وحوادث السمر ، ويصلحون أم الاسلام كيف يصلحون بين طاقتين من المؤمنين اقتتلوا ؟ وكيف يقومون بالعمل بآية « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » ويصرفونهم عما رقع فيه أبائهم من الشجار على الخلافة والامارة ، وان ذلك إنما جعله الله تجربة يفتن من مثلها الإبناء فلا تكون الممالك المتحدة ولا اليابان ولا الصين ولا ألمانيا أولى منهم بالانحد والاجتاع وترك الشجار على عرض الدنيا الزائل ، وان كلن لا آباء في ذلك تأويل ، وهم جميعا ناجون ، المخطئ منهم في اجتهاده ، ومن هو على صراط مستقيم .

(٢) ثم ما علامته هؤلاء للمصلحين : قلت . انما مثل هؤلاء الذين يأتون بعدنا من حكماء أم الاسلام كمثل الخشرم : فقال ؟ وما الخشرم : قلت . يحسب النحل وهي الملكة التي تقود الآلاف المؤلفة من النحل في الخلية ، فقال : وما المناسبة بين المشبه والمشبه به : قلت له تلك اطلعت في خلايا النحل على تلك الاشكال المسدسات المنتظمة اللتيمات المجتمعة معا . قال نعم اطلعت ، قلت وهناك ترى من تلك الاشكال المنسوجة من الشمع مائل عسلا ، ومنها ما جعل منزلا ليض النحل يرى في فيصير كورا للنحل أو يصير محلا عاملا (انظر هذا المقام في سورة النحل ، والاشكال هناك مرسومة موضحة) وهناك أيضا ترى منازل أخرى ممتازة بيضاء وهي قليلة بالنسبة لغيرها ، فهذه البيوت ترى فيها تلك الملكات أو اليعاسيب أو الخشرم ، ترى للملكة تأمر أن تفتدى النرية العامة والله كور يصل معتاد : أما اليعاسيب الصغار فانك ترى يصلهن أنتي وأجل وأصني : قد اصطفاها النحل من مواد خاصة حتى تخرج اليعاسيب أو الملكات ذوات أجسام أقوى وغرائز أصني فتدبر

الخلية كلها وتكون حفاظا ونورا للجميع هذا في المثل به : أما الذي ضربنا له هذا المثل ، وهم
 المسلحون في أم الاسلام المستقبل فإهم طائفة نسبتهم في القلة الى أم الاسلام كنسبة الياسيب الى
 الآلاف المؤلفة في الخلية الواحدة ، وهذه الياسيب عند بلوغهن سنا معلومة يتقاتلن ومن غلب
 فهو القائم بنظام هذه السولة النحلية الصغيرة ، وهذه الطائفة الاسلامية التي ضربنا لها هذا المثل
 يقرمون من العلوم أجلها ويضربون في كل علم بسهم ، وتكون تلك العلوم أغذية لنفوسهم كما
 اغتذت الملكات النحلية بأنواع ما جناه النحل من رحيق الزهر الجليل ، وهذا التشبيه حق ، فان
 العلوم زهرات هذه الدنيا ونعمراتها ، والرحيق المختوم الخبوء في تلك الزهرات هو محاسن نظام
 هذه الدنيا الجليل ، وحب صانع العالم ، وحب الام الانسانية ، وارتقاء النفس عن السفساف
 وشوق النفوس ، وعشقها للانسانية ، ورحيقها وسعادتها ، فهذا هو الرحيق المختوم الخبوء في زهرات
 هذه الدنيا ، وزهرات هذه الدنيا : هي العلوم والمعارف .

فما مثل العلماء المتعادين في الامم الذين أغرموا بعلوم اللغات كعلوم اللغة العربية الاثني عشر ، وعلوم
 اللغات الأخرى ، أو بعلوم خاصة من رياضية أو طبيعية أو فرع من فروعها أو صناعة من الصناعات المتفرعة عليها
 أو بعلم القانون في أي أمة من الامم أو بعلوم ظواهر دين من الديانات . أقول ما مثل هؤلاء الاكتل النحل
 العامة في خلايا النحل الاثني عشر عند رؤيتها « وما لنا الاله مقام معلوم » فكل منها عمل خاص ،
 وأعمال الخلية موزعة عليها توزيعا عادلا ، والمللصة ربط الجميع ، فهؤلاء النحللات كلهن اتسمن أعمال
 المللصة ، وغذاؤهن وهن أجنة ليس من العسل المصفي : فهذا الغذاء غير المصفي في الصغر مناسب لأعمالها
 عند ادراكها : فالعمل فرعي والغذاء غير مصفي : أما اليصوب فضادؤها مصفي ، وعملها عام للجميع .
 فاذا رأينا علماء اللغة أو الفقه أو الرياضيات أو صناعة من الصناعات ، فان هؤلاء كالتنحل القائمات
 بأعمالهن في الخلية ، واذا رأينا القرمين بالحكمة العاشقين للعلم الذين يلحون بجميع أطراف هذه العلوم
 ويختصون هم بلئس الأطل قلنا هؤلاء هم حكام هذه الأمة القائمون بتدبيرها بصدنا ، المجدون في
 اصلاحها : هذا جواب سؤالك الأول .

أما علامتهم فأقول : ان لهم « علامتين : العلامة الأولى - تؤخذ من الجواب الأول ، فهم المضمون
 بحاصل هذه الدنيا من العلويات والسفليات ، العاشقون لكل علم ولكل فن ، المكبون على صفوة العلوم
 المحبون لصانع العالم ولعباده الوالطون بأم الاسلام أن ترقى .

« العلامة الثانية » أن الناس يصغون اليهم ، ويميلون الى كلامهم و يستمعون لهم ، وتقبل القلوب
 عليهم ، ويسهل العقلاء بأفهامهم وآرائهم بشوق وتوق : فهانان هما الصلاصتان . فقال : حسن ولكن أي
 الكتب يقرؤها الانسان حتى ينال هذه الدرجة الرفيعة ؟ قلت : السموات والأرضون والبحار والأنهار
 والسحب والجبال ، هذه هي الكتب التي يقرءونها ، وكتاب الله الدال على ذلك . فقال : هذا أجل ان هذه
 لتلك كوراة مبدولة للناس جميعا ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

قلت : فان أردت يا صانع إلا التخصيص فإني أقول : إن هذا التصير واطعامه من الكتب العامة لمؤلفي
 للاسلام في زماننا وفيما قبله منارح تبت فيها وزهر عقول وعقول ، والاستعداد هو الذي به يمتاز الجيد
 من الرديء ، والحديث من الطيب ، والسابق والمقتصد ، والأول والآخو ، « وربك يخلق ما يشاء ويختار
 ما كان لهم نظيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون . وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون » فاذا رأيت
 أيها الصديق أمثال الخلفاء الراشدين وسداد حكمهم وبارع حكمتهم وما وثقوا من ذكاء وفضلة . حتى قال بعض
 حكام أوروبا في محضرنا وهننا عنهم ذلك في هذا التصير : انهم كانوا أذكى من قياصرة الروم وأكسرة

الفرس في زمانهم ، فاذك الامن التعاليم التي كانوا يتلقونها من النبوة عند تلاوة الآيات القرآنية كما تقدم وأنهم كانوا لا يحفظون شيئا حتى يفهموا حقائقه ، وما هي هذه الحقائق ؟ هي التي ظهر لنا نتائجها في أعمالهم فترام يحوطن أهمهم والأهم الخاضعة لهم بعظمتهم ورجوتهم ، لأنهم فهموا معنى آية « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » فصارواهم رحمة للعالمين ، للمسلمين وحدهم ، فهم عدلهم وفهموا أن الضام لتسكن لأجل شهواتهم بل كانت لاصلاح للجميع : فلذلك نبذوا التعم ظهريا ورضوا بالخبر الذي لم ينحل وتركوا عرض الحيلة الدنيا وهكنا ، وهنا نموذج لسفوة العالم التي يمطيقها أئمة المسلمين بعدنا الذين يكون مثلهم في أم الاسلام كمثل الانسان في نوع الحيوان أو كمثل دين الاسلام بالنسبة لسائر الميئات يصلو عليهم . فهؤلاء المنحون بعدنا تسكون وجهتهم للصلحة العلية وقيادة مجموع الأمة يحترمون للمقاهب كلها ويحبون للمسلم كلها ويكونون للمسلمين أباء ، فلذا رأوا الشافية والخفية والمالكية والحنبلية والشيعية والزيدية والاباضية وأمثالهم مكين على فروع زاولوها ، وأحدث تلقوها وعاشوا على ذلك وماتوا فليقروهم وليبرموهم بحمل العوالم ، وحسب المجموع الاسلامي ، وحسب الله عزوجل ، وتوجه هم المسلمين الى المثل الأعلى .

ذلك أيها الأخ جواب ما سألتني عنه . فقال : بقي لسؤال واحد ، وأنا لك شاكر . قلت : وأنا إن شاء الله يجب . فقال : من أين أمتلك هذه الاجابات مع أنك قبل أن أتى السؤال عليك لم يكن لك به علم . قلت : إن الاجابات أحسن بها لقلبي وقت السؤال فيشرح صدرى للإجابة فأجيب . فقال : وهل كل ما يشرح صدرك له يكون علما . قلت : ذلك له ميزان . فقال : وما هو ذلك الميزان . قلت : التوازن هو الدين أولا ، والعقل ثانيه والنظر لحاجة الأمم الاسلامية ثلثا ، فلن وافقها فهو حق ، وإن نال الدين أو العقل أول يمكن له دخل فيما يحتاج اليه المسلمون لم يكن خيرا جواب فلا أجيب به . فقال : لقد أطلت عليك بالأسئلة ، ولقد أفدت خيرا إفادة ، فأنا أحمد الله على هذه التعم . قلت : « ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » . انتهى ظهر يوم الثلاثاء ٥ يناير سنة ١٩٣٢ م النصف الثاني من شهر شعبان سنة ١٣٥٠ هجرية .

نور على نور

في أخلاق عصر النبوة ، وفي الخلافة الاسلامية ، وفي فروع الدولة الباسية المنفصلة عنها ، وفي جميع الممالك الاسلامية من عصر النبوة الى الآن .

حضر صاحب العلامة الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير في اليوم التالي لكتابة هذا المقال : وقال .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله الكرام . أما بعد : فاني اليوم أريد منك أن تبين لمدى أسمرين ، قد أشكلا على فيما تقدم : لما أوطأ فانك ذكرت في الأمر السادس عند تعليقك على أعمال الدولة الباسية أن عبدالله بن الحسن والله صاحب البيعة جاء الى السفاح الذي اغتصب الملك من ابنه فأكرمه وعرض عليه المال فأعطاه ألف ألف درهم الخ ، وأن ذلك يدل على أن أخلاق بعض آل بيت النبوة قد تدهرت في القرن الثاني بعد القرن الأول ، وأن التعريف صار مرغوبا فيه بعد أن كان ميتعا عنه ، فأرجو أن تذكر لي شذرة من أخلاق رجال العصر الأول ليكون تذكرا وتبصرة . قلت : أذكر أن للنبوة (كما ذكرته في بعض هذا التفسير) لما قال له رستم القائد القارمي في أثناء واقعة القادسية « انكم نموتون فيما تطلبون » فقال المنيرة « يدخل من قتل منا الجنة ومن قتل منكم النار ، ويظهر من بيتي هنا

على من بقي منكم » وكقول عبادة بن الصامت للقوقس صاحب مصر . لما أخوفه بجموع الروم وانهم لن يقدروا عليهم وهم محاصرون حصن بابل : فقال عبادة .

« يا هذا لا تفرح نفسك ولا أصحابك . أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم ، وأنا لا أقوى عليهم ، فلمعري ما هذا الذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه . وإن كان ما قلتم حقا فذلك والله أروغ ما يكون في قتالهم وأشد حرجنا عليهم . لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه إن قتلنا عن أنفسنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته ، وما شيء أقر لاصينا ولا أحب لنا من ذلك ، وإنا منكم حيثما لملى إحدى الحسينين أما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرتنا بكم أو غنيمة الآخرة إن ظفرت بنا ، ولأنها أحب للمسلمين إلينا بعد الاجتهاد منا . وإن الله عز وجل قال لنا في كتابه « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » وما منا رجل إلا وبدعوره صباحا ومساءه أن يرزقه الشهادة ، وأن لا يورده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهل وولده . وليس لأحد منا هم فيما خلفه ، وقد استودع كل منا ربه أهله وولده . وانما همنا ما لنا . وأما قولك . اننا في ضيق وشدة من معاشنا ومآلنا فنحن في أوسع السعة : ولو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأتقنا أكثر مما نحن عليه » اهـ

فلما سمع صاحب ذلك قال كفاي ما ذكرت في الأمر الأول . نحن الآن في تفسير آية « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » . هاهو ذا الخلاف المستحكم بين المسلمين في العصور الأولى ما نزلنا : شارياك أنت في الخلافة ؛ نقلت : رأيت ذكرته في بعض أجزاء هذا التفسير . فقال أريد أن تصرح به هنا لأن هذا مقامه فقلت قد كتبت في مجلة « المعرفة » في شهر يناير سنة ١٩٣٣ فقال أرجو إجابته هنا مأخوذا من فرى ما هنا ، فقلت قد جاء فيها تحت العنوان الآتي ما يأتي ، وهذا نصه :

آراء خطيرة في الخلافة الإسلامية

مبحث الخلافة الإسلامية مبحث مهم من المباحث العلمية الإسلامية ، وكل علم لا يعرف الناس أهوار تاريخه يكونون في دراستهم له ، وأحكامهم فيه أشبه شيء بمن يبنى بيته على شفا جوف هار ، ومن يتسمن ذا ورم وينفخ في غير ضرم .

إن الخلافة الإسلامية في العصر القابرة لعبت دورا عظيما مهما ، وشغلت أم الإسلام قلبية ، وظهرت فيها فرقا شتى وأحزابا متباينة ، وبنشأ الناشئون من الأبناء على ما عودهم الآباء . وبنشأ ناشيء الفتیان منا على ما كان عودهم أبوه

وكل حزب بما لديهم فرحون ، وهل ينسى لطفل تربي على مذهب خاص في أمر الخلافة أن يشكر في القرآن وفي الأبياح ؟ بل ينقل على عقيدته حافظا لطريقته لا يتعداها ، جامدا عليها لا يتخطاها . إن أكثر نوع الافسان في الأرض مقاسون ، جدت القرائح وتعارضت الظنون ، ووقفت الحركة العلمية الإصلاحية في جميع الشؤون ، حتى إذا قرمت القارعة ، وأصابت الساعة ، وأحاطت بنا الأمم « وهم من مكل . حذب يسافون » أذقونا سوء العذاب ونحن غافلون . فتعالوا أيها المسلمون اتل عليكم نبأ الخلافة ، وأبدوا بما يجمل يقبل التفصيل والتعوير .

إن أمر الخلافة لن يستقر قراره ويتم الرأي فيه إلا بالبحث في أسئلة الخطباء السابقين والوقوف على أحوالهم حتى نستنتج نتائج منها ، ثم نعتبر بما فعله أسلافنا ، ونبنى على ذلك الأساس عملا بقوله تعالى : « فاصبروا يا أولي الأبصار » وقوله تعالى « أظم يهد للذين يرتنون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصنامهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » .

إن الخلافة إذا كانت مقيدة بالشورى موجهة للمصلحة العامة بأخلاص ، تسبح خدمة عامة لا يتطوع في أمرها عزمان ، ولا يرميها الأبناء عن الآباء ، فإن كانت غير ذلك كانت أداة سوء تقاذفها في أيدي الجهال وتأتي أن يناهها الأبطال . توفى رسول الله ﷺ وخلقه أبو بكر فصر فثمان ضلي رضي الله عنهم . درسنا بحمل أخلاق الخلفاء الراشدين فلم نجد أبا بكر وصي بها لابنه ، واستنكر عمر قول من طلبها لابنه عبد الله ، ثم لم نر أحدا منهم استنكر من الأموال وانبع الشهوات ، ذلك شأن الخلافة في الإسلام . إن أمر الخلافة شورى بين المسلمين ، وشاورهم في الأمر ، وأمروهم شورى بينهم . هذا هو الصراط المستقيم .

مضى عصر الراشدين ، وتولاهم الأمويون وأولهم معاوية فاستبدوا بالأمر فقاومهم بنو هاشم فقتل بهم الأمويون فقتلوا ذريتها ، ثم اشتد العباسيون والعلويون في مقاومة الأمويين ، وساعدتهم شيعةهم الفارسيون وبطلهم أبرهه الخراساني ، وأكثروا من موضوعات الأحاديث ، وما كاد الأمر يتم للعباسيين حتى قلبوا ظهر الجبل للعلويين وقتلوا بهم فقتلوا ذريتها ، وقتل المنصور محمد بن عبد الله ، وهو الخليفة الحقيقي صاحب البيعة الصحيحة .

هنالك أصبح الخليفة العباسي بعد تشريد الأمويين يقتل العلويين باليمين وأبناء عمه العباسيين بالشمال بل كثيرا ما كانوا يقتلون شيعةهم غنما كآبي مسلم الخراساني وجعفر البرمكي وغيرهما كثير . ولقد قتلى العباسيون في إذلال العرب كما قتلى بنو أمية في إعلاء شأنهم على غيرهم ، وما قاله إبراهيم الأنام لآبي مسلم « من ترددت في أمره فاقتله » وحرقه على قتل العرب فقتل منهم ٦٠٠ ألف رجل غدرا وهم آمنون . ماتت رشيد وخلقه الأمين والمأمون وأمّ الأول عربية ، وأمّ الثاني فارسية فنصر الفرس ابن أختهم وشردوا العرب كل مشرد وأذلواهم وسلبهم المنتصم العطاء . ولما كانت أمّ المعتصم تركية من بلاد المسند أصبح مغرما بالترك غير واثق بالعرب ولا بالفرس أجمعين .

هنالك أصبحت الخلافة في العباسيين اسما بلا معنى ، وتنازع القواد من غير العرب الرئاسة وصار الخلفاء آلات صاه في أيديهم فقتلوا منهم ٣٨ من ٥٩ وسموا أعيان بعضهم حتى زالت الدولة على أيدي التتار ، وكل ما حصل للعباسيين تم نظيره في الأندلس ، وقد كانوا يستغيثون بجيرانهم من الأسيان على اخوانهم ، فهلك الفريقان ، فرجما كانوا يقتلون المستجير بهم غدرا كما حصل لجندل بن حود أمير أشيلية إذ وعدة البابا ودوق فيزيار وبعض دوقات أوروبا أن يكون ملك الأندلس كلها إذا ساعدتهم في فتح قرطبة فبرّ بوعده لهم فقتلوه غدرا وخزبوا أشيلية .

هذه شذرة من تاريخ الخلافة وما يتبعها من الامارات في الإسلام . وكان ذلك كله عقابا على ترك الشورى المنصوص عليها في القرآن . والذي أراه :

(أولا) — أنه يجب على كل أمة « عربية أو غير عربية » أن نعمم التعليم للذكور والإناث بقدر الامكان .
(ثانيا) — يجتمع أمراء الإسلام المقوضون من أهمهم في أمر الخلافة ، ليقتضوا أميراً منهم لها ، على شريطة ألا يبرم أمراً إلا بمشورتهم : من صلح أو حرب أو غيرهما كما كان يفعل الخلفاء .
(ثالثا) — أن يكون الانتخاب لسنتين محددة أولدة الحياة ، فإذا انقضت المدة في الأول أومات في الثاني فليقتضوا سواء بالشورى ، فإذا أعيد انتخابه في الحلة الأولى قلد ذلك .

(رابعا) — يجب أن يراعى في الخليفة أمران مهمان وهما (١) أن يكون جيشه أقوى جيوش الاسراء (٢) أن يكون أهل مملكته أعلم من سائر الأمصار ، ولا يكون للنسب فضل إلا في الترجيح اذا تعارض أميران واستوفيا ما ذكرناه . ونستأنس للشرطين المذكورين بقوله تعالى « وزاده بسطة في العلم والجسم » .

(ناسا) - كل أمير تسيطر عليه دولة أجنبية لاحق له في تولى أمر الخلافة ، لأن رأيه تابع لرأى من فوقه ، وهذا ضار بالمسلمين .

(سادسا) - اذا صدر الاجتياح في هذا الزمان «الضعف أو افتراق كفة» فليتر بص المسلمون الوقت المناسب . فأما الخلافة الضعيفة التي يتولاها من لا يحوز هذه الثقة ، فما هي الا شبكة صائدين ، وحية محتالين ، فهل المسلمون عقار يتناولها الابناء عن الآباء ؟ كلا ، إنهم خير أمة أخرجت للناس ، وهم شهداء عليهم فليكونوا بالاولى خلفائهم مصطفين وطم مشيرين وعلى أعمالهم شاهدين ولا عوجاجهم مقومين .

هذالمأراء في شأن الخلافة وفوق كل ذي علم عليم . هذا هو ما كتبته في مجلة المعرفة ، والمجدة رب العالمين . فلما سمع صاحبى هذه المقالة قال : حسن هذا رأى ، ولقد ذكرت فيه : أن الدولة العباسية اضمحلت وضمت واستبد بها عجمها ، فهل من سبيل الى معرفة الفروع التي تفرعت لما تلك السوية أيلم ضمها ؟ قلت نعم جاء في الجزء الاول من تاريخ الجند الاسلامى ما يأتى :

وجعلت سلطة الخلفاء تنقلص حتى وسعها السواديين الفرات ودجلة . ولم يكده يدخل القرن الرابع للهجرة حتى انحصرت سلطتهم في مدينة بغداد ، واليك فروع المملكة الاسلامية على عهد القراضى بلغة في الربع الاول من القرن الرابع للهجرة :

الولايات	حكماها
البصرة	في يده ابن رائق
خوزستان	» البريدى
فارس	» عماد الدين بن بويه
كرمان	» أبى حلى محمد بن الياس
الري وأصفهان والجيل	» ركن الدولة بن بويه وغيره
الموصل وديار بكر ومضربعة	» بنى جندان
مصر والشام	» الاخشيدي
خراسان وما وراء النهر	» السامانية
طبرستان وجرجان	» الديلى
البحرين واليمامة	» القرامطة

استبداد الجند والخدم

ومما زاد الامر استفحالا أن الخدم والاجناد أصبحوا مطلقى الايدى في قصور الخلفاء يستبدون في أعمالها ويسومون الخلفاء صنوف الاهانة وأنواع العذاب . كما فصل جند المغاربة والأتراك في المعتز سنة ٢٥٥ هـ لما خلعه لأنه قصر في عطائهم . فانهم دخلوا حجرتهم وجروه برجله الى باب الحجره وضربوه بالدهابيس وخرقوا قيصه وأوقفوه في الشمس . فكان يرفع رجلا ويضع الاخرى لشدة الحر . وبقى بعضهم يطمه ، وهو يتقى بيده وأدخلوه حجره وأحضروا ابن أبى الشوارب القاضى وجاعة فاشهدوهم على خلعه ثم سلعوه الى من يعذبه ومنعوه الطعام والشراب ثلاثة أيام . ثم ادخلوه سردابا وجصوه عليه فمات (١) . ومع كل ما لحق الخلفاء من الذل والضعف لم يخطر للفارس ولا للأتراك ولا لغيرهم من غير عرب قرىش أن ينزعوا الخلافة من أعناق بني العباس . فما زالت الخلافة العباسية في بغداد حتى جاءها الترمين مفازة الصين فافتتحوها وقتلوا خليفتها

(١) ابن الأثير ٧٧ ج ٧

سنة ٦٥٦ هـ ففر من يقي من أهله إلى مصر والتجأوا إلى سلاطينها المماليك فأقرولهم على الرحب والسعة إلى ان فتح السلطان سليم العثماني مصر سنة ٩٢٣ هـ فاخذ الخلافة منهم . وبلغ عدد الخلفاء العباسيين جميعا نيفا وخمسين خليفة منهم ٣٧ في العراق ، وأولهم السفاح وآخرهم المستعصم والباقيون في مصر .
فلما سمع صاحب ذلك قال ما أحسن التفصيل بعد الاجال ، ولو أننا وقفنا على مجل الدول الاسلامية من أول عصر النبوة إلى الآن : لكان ذلك أشد جلالا وكلا . فقلت هاك جدولاً يبين ذلك وهذا ضمه .

جدول الدول الاسلامية منذ ظهور الاسلام إلى الآن

اسم الدولة	كرسى ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هجرية	سنة انقضاءها هـ
الخلفاء الراشدون	مكة	٠٤	٠١١	٠٤٠
الدولة الاموية بالشام	دمشق	١٤	٠٤١	١٣٢
العباسية	بغداد	٣٧	١٣٢	٦٥٦
الاموية بالاندلس	قرطبة (الاندلس)	١٩	١٣٨	٤٢٢
المجورية	مالقة	٠٩	٤٠٧	٤٤٩
»	الجزيرة	٠٢	٤٣١	٤٥٠
العبادية	اشبيلية	٠٣	٤١٥	٤٨٤
الزيرية	غرناطة	٠٥	٤٠٣	٤٨٣
الجهورية	قرطبة	٠٣	٤٢٤	٤٦١
ذوالنونية	طليطلة	٠٣	٤٢٧	٤٧٨
العاصرية	بلنسية	٠٧	٤١٣	٤٧٨
التوجيبية	سرقوسة	٠٩	٤١٠	٥٣٦
ملوك دانية	دانية	٠٢	٤٠٨	٤٦٨
النصرية	غرناطة	٢١	٦٢٩	٨٩٧
الادارسة	مراكش (افريقيا)	١٠	١٧٢	٣٧٥
الاغالبية	تونس وغيرها	١١	١٨٤	٢٩٦
الزيرية	»	٠٨	٣٦٢	٥٤٣
بنو حجاج	جزائر الغرب	٠٩	٣٩٨	٥٤٧
المرابطون	مراكش وغيرها	٠٦	٤٤٨	٥٤١
الموحدون	شمال افريقيا	١٣	٥٢٤	٦٦٧
بنو حفص	تونس	٢٢	٦٢٥	٩٤١
بنو زيان	جزائر الغرب	١٠	٦٣٣	٧٩٦
بنو مرين	مراكش	٣٥	٥٩١	٩٧٥
الشرطاه	»	٢٨	٩٥١	لا تزال
المطولونية	القطائع (مصر)	٠٥	٢٥٤	٧٩٢
الاشييدية	الفضاط (مصر)	٠٥	٣٢٣	٣٥٨

اسم الدولة	كرسى ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ	سنة انقضاها هـ
الفاطمية	القبروان والقاهرة .. مصر	١٤	٢٩٧	٥٦٧
الايوبية (١)	القاهرة (مصر)	٠٩	٥٦٤	٦٤٨
المماليك البحرية	»	٢٧	٦٤٨	٧٩٢
» الشراكسة	»	٢٣	٧٨٤	٩٢٢
العائلة المملوكية	»	٠٧	١٢٢٠	لا تزال
الزيادية	زبيد (البحرين)	٠٩	٢٠٤	٤٠٩
الصفورية	صنعاء الخ	٠٩	٢٤٧	٣٤٥
النجاحية	زيد	٠٨	٤١٢	٥٥٣
المليحية	صنعاء	٠٣	٤٢٩	٤٩٥
الهمدانية	»	٠٨	٤٩٢	٥٦٩
المهديّة	زيد	٠٣	٥٥٤	٥٦٩
الزيرية	عدن	٠٨	٤٧٦	٥٦٩
الرسولية	البحرين	١٧	٦٢٦	٨٥٨
الطاهرية	»	٠٤	٨٥٠	٩٢٣
الأئمة الرسية	صعدة	١٧	٢٨٠	٧٠٠
أئمة صنعاء	صنعاء	٠٠	١٠٠٠	لا تزال
الهمدانية	الموصل الخ (سوريا)	٠٩	٣١٧	٣٩٤
المرداسية	حلب	٠٧	٤١٤	٤٧٢
العقيلية	الموصل وغيرها	٠٧	٣٨٦	٤٨٩
المروانية	ديار بكر	٠٥	٣٨٠	٤٨٩
الزبيدية	الحلة	٠٨	٤٠٣	٥٤٥
الدلفية	كرديستان (فارس)	٠٥	٢١٠	٢٨٥
الساجية	اذريجان	٠٤	٢٦٦	٣١٨
العاوية (الزبيدية)	طبرستان	٠٤	٢٥٠	٣١٦
الطاهرية	خراسان	٠٥	٢٠٥	٢٥٩
الصفارية	فارس (فارس)	٠٣	٢٥٤	٢٩٠
السامانية	تركستان وفارس	١٠	٢٦١	٣٨٩
خانات ايلك	تركستان	٢٤	٣٢٠	٥٦٠
الزبارية	جوجان	٠٦	٣١٦	٤٣٤
الحسنوية	كرديستان	٠٣	٣٤٨	٤٠٦
بنويويه	العراق وغيرها	٢٠	٣٢٠	٤٤٧

(١) هذه الدولة فروع كثيرة حكمت مدات متفاوتة في دمشق وحلب وبين النهرين وجماء من وبلاد العرب وعددهم كلهم ٣٧ سلطانا

اسم النبوة	كرسى ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ	سنة انقضاءها مبره
الكاكويهية	کردستان	٠٢	٣٩٨	٤٤٣
السلجقة وفردعهم	جنوب آسيا	٥١	٤٢٩	٧٠٠
المانشندية	سيواس وغيرها	٠٥	٤٩٠	٥٦٠
الانابكة البوريون	دمشق	٠٦	٤٩٧	٥٤٩
الزنجيون	سوريا وبين النهرين	٢٠	٥٢١	٦٤٨
البيكتجينيون	اربلو وغيرها	٠٣	٥٣٩	٦٣٠
الارقية	ديار بكر	٢٥	٤٩٥	٧١٢
شاهات ارمينية	أرمينية	٠٨	٤٩٣	٦٠٤
انابكة اذربيجان	اذر بيجان	٠٥	٥٣١	٦٢٢
السفريه	فارس	٠٩	٥٤٣	٦٨٦
المزارسية	لورستان	١٤	٥٤٣	٧٤٠
شاهات خوارزم	خوارزم	٠٨	٤٧٠	٦٢٨
الغانات القتلغية	كرمان	٠٨	٦١٩	٧٠٣ (١)
آل عثمان	الاستانة العلية وغيرها	٣٥	٦٩٩	لا تزال
نانات المغول	زقارية وغيرها	٣٤	٦٠٣	١٠٤٣
مغول الفرس	فارس	١٧	٦٥٤	٧٥٠
نانات المشرق النهية	قاراخيتاي	٤٠	٦٢١	٩٠٧
القرم	القرم	٤٦	٨٢٣	١١٩٧
جاغثاي	تركستان	٢٦	٦٢٤	٧٦٠
الجيلاريون	العراق وغيرها	٠٦	٧٣٦	٨١٤
المظفريون	فارس وکردستان	٠٦	٧١٣	٧٩٥
السربداريون	خراسان	١٢	٧٣٧	٧٨٣
الكرتيون	هراة	٠٨	٦٤٣	٧٩١
التراقبوليون	اذر بيجان وغيرها	٠٥	٧٨٠	٨٧٤
اق قيوطنيون	»	١٢	٧٨٠	٩٠٨
شاهات الججم	ايران وغيرها	٣١	٩٠٧	لا تزال (٢)
التيموريون	تركستان والتر	١١	٧٧١	٦٠٦
الشيانيون	»	١٩	٩٠٦	١٠٠٧
المنجيون	»	٠٦	١٢٠٠	١٢٨٤
نانات خيوا	»	٣٥	٠٩٢١	١٢٨٩
» خوقند	»	١٧	١١١٢	١٢٩٣
الجانيون	استراخان	١١	١٠٠٧	١٢٠٠
الفزوريون	افغانستان وبنجاب	٢٢	٣٥١	٥٨٢
النوريون	» وهنستان	٢٠	٥٤٣	٦١٢

(١) قد أسقطها مصطلح كمال بلشاي، وصارت الآن جمهورية (٢) سقطت أيضا في مصرنا

اسم الدولة	كرسى ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هجرية	سنة انقضاءها هجرية
سلطين دهل	هندستان	٣٨	٦٠٢	٩٦٢
ملوك البنغال وحكامها	البنغال (الهند)	٥٥	٥٩٩	٩٨٤
« جانپور الشرقيون	جانپور	٠٦	٧٩٦	٩٠٥
« مالوا	مالوا	٠٧	٨٠٤	٩٢٧
« بجات	بجات	١٤	٧٩٩	٩٨٠
ملوك خانديش	خانديش (الهند)	١٢	٨٠١	١٠٠٨
البيمنية	الديكن	١٨	٧٤٨	٩٣٣
الشاهات العمادية	برار	٠٥	٨٩٠	٩٨٠
« النظامية	أحمد نجر	١٠	٨٩٦	١٠٠٤
« بريد	بيسر	٠٧	٨٩٧	١٠١٨
« العمادية	بيجاپور	٠٨	٨٩٥	١٠٩٧
« القطبية	كولكندا	٠٧	٩١٨	١٠٩٨
امپراطور والمغول	هندستان	٢٦	٩٣٢	١٢٧٥
امراء افانستان	افانستان	١٥	١١٦٠	لا تزال (١)

وخلاصة ذلك ان السور الاسلامية التي ظهرت من اول الاسلام الى الآن نيف ومائة دولة عدد رؤسائها نحو ١٢٠٠ رئيس فيهم الخلفاء والسلطين والملوك والامراء والاتبكة والاشييدية والمديويون والشرفاء والبايات والدايات وغيرهم . من العرب والفرس والاراك والشراكة والاكراد والهنود والتتر والمغول والافغان وغيرهم . ومن عواصمهم المدينة والكوفة والشام وبغداد ومصر والقبروان وقرطبة والاسنانه وصنماء وعمان ودهلي وغيرها . انتهى ما أردته من كتاب تاريخ التمدن الاسلامي والحمد لله رب العالمين

بهجة الجمال في تاريخ الأمم الإسلامية

في جواب اعتراض على المؤلف في هذا المقام

حضر صديق العالم الذي اعتاد مسامرتي في هذا التفسير . فقال : يخيل لي أن هذا المقام قد خرج عن دائرة التفسير خروجا يؤدي إلى أن يحسب الانسان نفسه في تيهاء المعارف ومفاوز العلوم ، أو كأنه غريب في وسط هذا المعمان العلمي ، فأين آية : « وان طاقنان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بقت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبنى حتى تقى . إلى أمر الله » من هذه السور المشاكلة ، والأحوال المتناقضة التي لا حد لها لانهاية ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أنت بما صنعت هنا خرجت عن دائرة المفسرين جميعا فانهم قليلا ما يتطرقون إلى مثل هذه المشاكل والمشاجرات والحوادث علما منهم بأن كلام الله لم ينزل لمشل هذه الامور ، هو نور ، والنور غير الظلمات .

قلت : حياك الله أيها الأخ ، أنا أعلم انك تعبر بهذا عن آراء كثير من اخواني المسلمين شرقا وغربا ، وهذا القول آثار في نفسي آثارا جيدة صالحة :

وحرك وجدى بعد ما كان ناعما * برأى الضحى مشفوفة بالترم

فأوقبل مبكاهها بكيت صباية * بنعدى شفيت النفس قبل التتم

(١) سقطت وأخرها أمل الله خان

ولكن بكت ليل فهبج لي البكا * بكها فقلت التفضل للحق
أذ كرتني بقول ابن الفارض :

أجد الملامة في هواك لنبذة * حبا لذكرك فليخى القوم
إن ملامتك أيها الصديق إغراء :

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء * ودلوي بالتي كانت هي الماء
صفراء لاتزل الأحزان ساحتها * إن مسها ضجر مسته سرته

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : أخذت في النزول بدل الابانة ، وذكرت المثل المضمومة لها وهرها . قلت :
« وتلك الأمثال فضر بها للناس لعلمهم يتذكرون » ، هاجت بلا بل شوق للباحث الجليل ، والآيات البديعة ،
في هذا الوجود وحكمته ، والعلم وروحه
أيها الأخ الفاضل : سأحدثك الساعة مجيبا عن اعتراضك بما يطلع صدرك ويضربه ، ويصلح بالك ،
فأجمله في ثمانية فصول :

- (١) في النظر في عالم الحيوان .
- (٢) وفي بروز الانسانية من وسط معامع الهيجاء الثائرة في الشهوات اللهيية ، والسطورة السبية ،
وتسلطها على القوتين ، والاعتدال فيهما .
- (٣) وأن هذه النظرات العلمية ظهرت على لسان (كوثيشيوس) الفيلسوف الصيني في القرن الأول
(٤) ثم قفاه (سقراط) في جمهوريته وانتهى نحو آخر في سياسة الأمم ، وهما في النتيجة متآخيان
مقاربان ، وإن لم يصر أحدهما أخاه ، لتباعد الدير ، واقطاع الأخبار .
- (٥) ثم تطبق علوم تلك الأمم البائدة على الأمم الاسلامية في القرون الأولى ، وكيف تطوقوا في
سياستهم على مقتضى ماذكره (سقراط) فكان أوائلهم على النهج الأتم ، ونزل الأبناء عن سنن
الآباء دركة ضيقة إلى أن انحطوا إلى أسفل سافلين في سياساتهم .
- (٦) ثم نبين أن ذلك لم يحققه الله سدى ، بل جعله بصائر ونورا لنا نحن المسلمين في هذا العصر الذي
جاء كالفصل بين أمدين متناقضين : أمد مضى بحواده وتجاربه التي جعلت سلام يصعد عليها
الجبل الخليل والجيل المقبل إلى قه السعادة والهناء .
- (٧) ثم بيان أن تجارب الآباء وحواشيهم لم تظهر آملها أكل إلا في زماننا هذا ، لأن الله يريد أيها
تكون في سعادة وحيور .
- (٨) ثم تبين نعمة الله علينا وعلى الناس بالعلم والعرفان في هذا الزمان .

الفصل الأول : نظري في عالم الحيوان

اللهم ان نورك مشرق علينا ، في كل حين شمس تشرق ، وقر يضي ، وكواكب تزين ، وعجرات
كثيرات الشمس ، وسدم بعيدات الأمكنة ، طويلات الأزمنة ، من حيث وصول أنوارها إلينا .
رباه : جل صنعك ، بهرت حكمتك . رباه : خلقتنا في وسط هذا النور والجمال ، وجعلت فينا قوى
تحثنا على أعمال لنا نحن ، فإذا وجدنا ؟ وجدناك يرباه بعثت في الحيوان نشاطا بقوى ثابتة فيه سميناها
« القوى الشهوية » ، تلك القوى حركته لطلب القوت ، وطلب النسل ، وعيش في هناء وحيور ، رأيناك
منحته غرائز ، تلك الغرائز تكفلت بحفظ الفرد ، وحفظ النوع ، وحفظ السعادة الزوجية ، في مقابلة أحوالنا

المنزلية ، وحفظ الجماعات في مقابلة أحوالنا السياسية .

هذه ياربي حال الحيوان الذي يحيط بنا ، أنت القائم بشأنه ، فالنور الذي يحيط بنا من كل جانب وترواه عيوننا قد أعطى الحيوان في داخله قوى تضيء له طرق الحياة ، مشابهات من حيث حقائقها له مشابهة كما . إن الحيوان بنوره الداخلي للموازي لنور الكواكب الخارجى من حيث الهداية قد كفاه أمر السعادة الشخصية المنزلية والسياسية ، ولكننا من جهة أخرى وجدنا أموراً مجيبة ، وجدنا قوى الفضيحة كحواسر الحيوان أغرته أن يسطو على أمثال الفزلان والأرانب من آكلات الحشائش . تسطو الكواسر من الطير على بقائها ، والسباع والفخور والوحوش على ذوات الطلف والحافر وغيرها ، مجزرة هائلة ، وميدان واسع للقتل والفتك والنهش ، بينما ترى كل نوع من حشرات ، أو طير ، أو زواحف ، أو كواسر ، مسوقاً بفرزته للتعاطف والتوادد والتراسم ، بالعواطف تعارضت واتجهت إلى اتجاه الأهلاك والتدمير والنصر والخوف والعداوة والعدوان ، ملحمة مجزرة مهلكة ، جنازات تبعها جنازات ، ونهايا ورامها نهايا ، في وسط هذه المعامع والمجازر برز خلق جديد .

الفصل الثاني في ظهور الانسان بين أنواع الحيوان

ظهر بين هاتيك المجازر والمعامع خلق جديد هو الانسان ، وما هو ؟ هو حيوان اجتمعت فيه القوة التفضية مع القوة الشهوية ، فهو سبغ وغزال ونمر وأرنب وذئب وطاووس ، هو جاع كل حيوان ، فظهر التنافس في أخلاقه ، والخلط في أفعاله ، كما كان بين الأسد والثور والغزال ، ولكننا رأينا له حالا ثالثة سببها وهؤلاء عقلت القوة الأسيدي أن تطغى ، والقوة الشهوية أن تحيد عن الصراط السوى ، وهناك كان الظن أن يكون هذا الانسان معتدلا ، ولكن * ما كل ما يمتنى المرء يدركه * فإتينا رأينا المجازر والمذابح والفارات التي تشنها الآسد على الفزلان ، تفعل مثلها وأشد منها الأمم القوية مع الضعيفة ، ومن المنجمل أن الكواسر من الطير ، والفقرات من السباع لها العنرفى الفتك بآكلات الحشائش ، فأما الانسان فانه حيوان زاد في شرهه عن كل حيوان ، فهو يغير على غيره ليا كل من تبهه وعرق جبينه ، ليكون التهم له والفرم على غيره بلاعة إلا طيفيه . ولا سبب إلا جهله وخطئه للبين .

هذه صفات أكثر نوع الانسان ، ولقد لرقت عن هؤلاء طاقة منهم فقالوا : قف أيها الانسان قف ، أين عقلك ؟ انك لقوى ميين ، نحن ننزلنا عن الحيوان شرقا ، ونزلنا دركات في طرق الصاية ، ألسنا أشرف منه قفرا ، ألسنا أرفع منه مرتبة ؟ أفلانكون نحن بررة أقبيا ، فطينا أن يجعل المجموع مساعدا للمجموع فلنتم بالقسط ، ولنترك لكل امرئ ما كسب ، بل لنزهد نحن فيما في أيدي غيرنا ، ولنكن آباء رجاء للناس ، هذه منيقتنا لاخير ، قد علمنا بما جربنا أن الله سريع الحساب ، وبهذا نزل الكتاب ، ألم تروا أيها الناس أن الانسان إذا أكل فوق طاقته ، فانه يتحمل تبعه جهله ، ويسطى السواء المرء الكربة ، فيكون التهم بالفرم ، أليست البيطة تذهب الفطنة : بل ألم يظهر في علم الطب حديثنا أن كل ما كول قد طبخناه قص من مادة الحياة فيه مقدار عظيم ، وما لا يطبخ يعطى قوة الحياة لنا كاملة ، إذن أيها الناس نحن غافلون ، أتباع الغدات والشهوات له ردة فعل ، فأنه سريع الحساب لنا في نفس الحياة فضلا عما بعدها ، وأيضا إذا توغلنا في الغدات وجدنا قوانينها ضمنت ، وكل جيل يكون أضغف مما قبله ، والعاقبة مخزية موقعة في السمار والمهلك هذه الطائفة من نوع الانسان قالت . كلا . فلتكن حكومتك ، وليكن نظام ، فانظر :

الفصل الثالث فيما نقل عن كوثشفيوس الفيلسوف الصيني العظيم

بقلم الكاتب الأمريكي (ول. دورانت) مؤلف قصة «الفلسفة وعصور الفلسفة» وقد ذكر أسماء ١٧ عظيماً اختارهم من بين عظماء التاريخ مثل :

- (١) إن التقويم للمصري عثر عليه قد ألف سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد وهذا من عجائب العلم .
- (٢) ومثل بوذا المتوفى سنة ٥٤٢ ق. م .
- (٣) ومثل كوثشفيوس المتوفى سنة ٣٧٨ ق. م .
- (٤) ومثل سقراط المتوفى سنة ٣٩٩ ق. م .
- (٥) ومثل قيصر المتوفى سنة ٤٤ بعد الميلاد .
- (٦) ومثل المسيح .
- (٧) ومثل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المتوفى سنة ٦٣٢ ب. م .
- (٨) ومثل روجريكن المتوفى سنة ١٢٩٤ ب. م . الذى يدعون انه أول من استعمل البلرود (١)
- (٩) ومثل فونتبرج المتوفى سنة ١٤٥٤ ب. م مخترع المطبعة .
- (١٠) ومثل كولبوس كاشف أمريكا سنة ١٤٩٢ ب. م .
- (١١) ومثل (جيمزوط) مخترع الآلة البخارية سنة ١٧٦٩ م .
- (١٢) الثورة الفرنسية .

هذه هي الحوادث التى اختارها ذلك الكاتب الأمريكى التى يبتدأ بحسب نظره هو أنها أعظم ما أثر فى العالم الانسانى ، وأنا الآن لست أريد إلا سيرة كوثشفيوس الفيلسوف الصينى الذى عاصر سقراط ولم يكن بينهما معرفة ولا مواصلة ، فهل لك أن أحدثك عن أولهما ، ثم أحدثك عن ثانيهما ؟ أحدثك عن أولهما فى هذا الفصل ؟ لماذا ، أحدثك عنه ، لأنه شرح المسألة التى أنا الساعة بطريق حلها ، مسألة نظام هذه الدنيا ، هذه الدنيا الجلية فى نظر الفيلسوف ، المرتبة الموحشة فى نظر الجاهلين .

الله أكبر : أنت كبير ، أنت عظيم ، عجبتنا يارب لهذا الإبداع العجيبنا يارب لإبداعك العاليت وارتفعت عنا ، وأرسلتنا إلى الأرض ، وقلت لنا أيها الأطفال اذهبوا إلى الأرض فعيشوا فيها ، وسترون مرثا وحياة ، وعزا وذلا ، وقاهرا ومقهورا ، وغالبا ومغلوبا ، وحيوانات ذرية تسطو على الانسان ، وعلى الأسد ، والأسد يسطو على الانسان ، وانسانا يحارب انسانا بالسيف والنار والحديد والبارود والغازات السامة ، فتذهلون من هذا المنظر ، وتقولون موت وحياة ، وفراق ووصال ، ماهذا ماهذا ؟ ولكنى اخترت منكم طائفة يعيشون بينكم وهم غرباء عنكم ، يعيشون فيكم وأرواحهم فى الحقيقة كأنها مخلوقة منفصلة عن أجسادهم ، وكأنهم فى عزلة عن المادة ، أشهدتهم صنئى ، وأفهنتهم حكمتى ، وأن ما يشاهدونه إنما هو المظهر الذى تشبه مظاهر السبنا (دار الصور المتحركة) يراها المتفرجون صوراً تتبعها صور والنفس باقية بنقلة لن تموت ، وبهذه الصور إلا أحوال مختلفات عارضات على النفس التى لا خلاص لها من هذا البحر المتلاطم وهو المادة إلا بما يمتريها من نحس وسعد وموت وحياة ، فالأهل والأحباب على مريضهم وميتهم يكون ، والنبي والحكيم والفيلسوف يضحكون سرورا لما تجرى به المقادير عليهم وعلى غيرهم ، لأنهم للناس آباء ، والناس كلهم أبناءهم ، وقد أشهدهم الله وأطلعهم على مجمل سره الصون المسكون ، فعرفوا أنه رحيم وماعلمه إلا لتخليص النفوس من الجهالة ورفيقها إلى أن تصل إلى مبدعها الحكيم ، فتشاهد الجلال والجلال ، فهذه لطائفة

(١) وهذا خطأ لأنه اختراع اسلامي .

نهم كنفوشيوس وهو حكيم كبير . قال الكاتب الأمريكي في ذلك مذكورا في « مجلة المقطف » في شهر نوفمبر سنة ١٩٣١ م :

« ولابد لنا من رمز يمثل الصين ، الصين العظيمة التي يدعوها أبناؤها « كل ماتحت الشمس » والصين القديمة التي لازالت تدون تواريخ ملوكها وأعمالهم منذ أربعة آلاف سنة إلى الآن ، واني لأعتم هذه الفرصة لأعرض على نظر القارئ فقرة من كتابات كنفوشيوس ، فانها تحتوي على حكمة خالصة من الثواب وهي من كتاب « المعرفة العظيمة » . قال : - « إن الأقدمين الأجداد كانوا اذا أرادوا أن يوفضوا الفضائل السامية وينشروها بين الناس ينظمون أحوال ممالكهم ، وقبل أن ينظموا أحوال ممالكهم كانوا ينظمون أحوال أسرهم ، وقبل أن ينظموا أحوال أسرهم كانوا يهذبون أخلاقهم ، وقبل أن يهذبوا أخلاقهم كانوا يتقون نفوسهم ، وقبل أن يتقون نفوسهم كانوا يحاذرون أن يكونوا صادقين ومخلصين في تفكيرهم ، متزهين في أغراضهم ، وقبل أن يكونوا صادقين ومخلصين ومنزهين ، كانوا يوسعون معارفهم ، وتوسيع المعرفة كان يحى عن طريق البحث والملاحظة ، شلصوا الأشياء والأفعال فكتلت معارفهم ، ولما اكتملت معارفهم خلصت أفكارهم وتزهدت أغراضهم فهذبت أخلاقهم فتنقت نفوسهم فانتظمت أسرهم ، ولما انتظمت أسرهم انتظمت دولهم وأصبحت الأرض كلها ترحب في القعدة ولولتلم » .

« ولما كنا صرايين في الفكر ، ونرفض أن نرى الأشياء على حقيقتها (كالمبقراتية مثلا والزواج والاستعمار ونظام الطبقات في أوروبا وأمريكا) ، فنحن لسنا مخلصين في تفكيرنا ، ولما كنا غير مخلصين في تفكيرنا فنحن علينا أن نبلغ نفوسنا مراتب الكمال ، وأن ننظم حياتنا ، ولما كنا لانستطيع أن ننظم حياتنا الشخصية لم نستطع أن ننظم أسرتنا ، واذن فدولنا في حالة اضطراب وفوضى » .

هذا هو الفرس البسيط الذي يقيه علينا كنفوشيوس ، انى أحسد أولئك التلاميذ الصينيين الذين كان يفرض عليهم أن يحفظوا أقوال كنفوشيوس عن ظهر قلب ، وقد وجدت كل سطر من سطوره يصل إلى صميم الحقيقة ، وفي الوقت نفسه يمكن تطبيقه ، واذا أدخل إلى نفسى أقول : لو أن بعض هذه الحكم طبع في نفسى من عشرين سنة لكنت فزت بانساق النفس ، والكرامة الروحية ، والفهم الهادئ ، والخلق المتين ، والأدب الخالص ، وهي الصفات التي يتصف بها الصينيون المثقفون الذين عرفتهم ، أنا لا أعرف رجلا طبع أمة بطابعه كما طبع كنفوشيوس أمة الصين ، فلتتخذ تاريخ وقته رحما وحافزا ، إن هذا الرمز ينطوى على القصة الغنائية البديعة التي نظمها شعراء دولة « نانغ » الصينية ، وصور المشاهد الطبيعية المتسمة بسمة التصوف والشرق ، والآنية الصينية الكاملة شكلا وزخرفا ، وحكمة حكماء الصين وفلاسفتها ، إن حضارة من أعظم الحضارات القديمة تلخص في اسم كنفوشيوس . وبهذا تم الكلام على الفصل الثالث والحمد لله رب العالمين .

الفصل الرابع : في آراء سقراط في جمهوريته

لقد عرفت أيها الأخ الذكي أن كنفوشيوس في الصين بنى نظام المدينة والأخلاق كلها على اتساع المعارف واتساع المعارف بناء على البحث والملاحظة ، وبالبحث والملاحظة كتلت المعارف فخلصت الأفكار ، وهذبت الأفراض والأخلاق وصفت النفوس فانتظمت الأسر فلهول .

يا سبطان الله : إذن أم الاسلام لارقي لها إلا بمعرفة المشاهدات واستمعائها بحثا وتقيا ، فيصرفون لغير علوم الكائنات حولهم ، ويطلعونها ، ويحرسون آثار الأمم البائدة التي ورثوا هم أرضهم وديارهم ، ومتى درسوا ذلك عرفوا الخطأ فتحاشوه ، إذن لندرس الآن هذه العوالم المحيطة بنا من صنع الله تعالى ،

ويفرس تواريح أسلافنا من العباسيين والأيوبيين والصحابة والتابعين ، ثم نرى الحسن ففعله ، والتبجح فنجتبه ، لا انتفضي بسطوة الملوك وجبروتهم ، ومنعهم الشعراء أموال الأمة جزافا ، ولنبتذكل ما كان فيه استبداد كبريات الخلافة الإسلامية بالمبايعة القسرية ، وتوارث المسلمين بها كما توارث النعاج والحراف ، كل ذلك لن يكون إلا بالمراسة ، وهذا الاجمال الذي قاله فيلسوف الصين فسله سقراط المعاصر له ، فقد جاء في الجمهورية في الكتاب الرابع حكاية عن (اديمينس) التي تدخل في الموضوع وسأله قائلا : وبماذا تدفع عن نفسك ياسقراط (يريد بذلك أن سقراط حرم على رجال الدولة القائمين بالحكم أن يتمتعوا بالأموال ، بل يجب أن يكونوا زهادا على الهيئة التي رأيناها في أنى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم ، وأن لهم هم سعادة روحية ، وتبتلا ، وصلة بر بهم ، نجعلهم أسعد ألف مرة من المترفين البائسين الجاهلين) اذا احتج أحد عليك بأنك لم تبلغ رجال هذه الطبقة «الحكام» أوج السعادة ؟ مع ان اللوم عليهم في عدم سعادتهم لأن الدولة دولتهم عند التحقيق ، ومع ذلك فليس لهم فيها حظ الذين يملكون الأراضي ويشيدون الأبنية الفخمة ، ويفرشونها فرشاً يتفق مع عظمتها ، ويذبحون الذبايح ، ويولون للأصحاب ، ويملكون الفضة والذهب ، وهل ما هو ضرورى لاسعاد الناس ، وقد يقال انهم كسفار المستخدمين ليس لهم في المدينة إلا الخفارة .

(سقراط) نعم ، بل يظهر انهم يقتصرون على القوت ، ولا يأخذون معه مالا كالأخرين ، فلا يمكنهم السفر هل نفقتهم اذا أرادوه ، ولا تقديم الهدايا للحظايا ، وانفاق الأموال على الرغائب الأخرى ، كما يفعل المحسوبون سعداء ، وأمثال ذلك من الامور مما طويت عنه كسعا .

(اديمينس) فأضيف ذلك إلى شكواى

(سقراط) أفنسلأى أئى دفع أقدم ؟

(اديمينس) نعم .

(سقراط) أطلق انا اذا استأنفنا السير في الجهة نفسها أدركنا الدفع المطلوب ، مع انه لا يستغرب كون هؤلاء الحكام أسعد السعداء حتى في هذه الأحوال ، على اننا لم نؤسس الدولة لجرّد اسعاد قسم من أهلها ، بل لاسعاد الجميع معا على قسر الامكان ، ففرضنا في انشاء الدولة اكتشاف العدالة ، كما اننا في دولة أخرى ساء نظامها نكتشف النعنى ، وبعد اكتشاف هذى وتلك يمكننا البتة في المسألة التي أمامنا ، فمنه جادون في الوقت الحاضر في انشاء دولة سعيدة ، لاني أن نخص أفرادا منها بالسعادة ، بل أن نسعد جميع أفرادها على السواء ، ثم ننظر في دولة هي تقيض هذه أحوالا ، فلنصورنا شخصا بشريا فانقذنا منتقدا بأننا لم نزرين أجل أقسام الصورة بأهسى الألوان ، لأن العيون وهي أجل أعضاء الجسم لم تلوّن بالأرجوانى بل بالأسود فيجب أن تفكر في أنه دفع كاف قولنا له : «أيها الناقد مهلا ، لا تتوقع منا أن نلوّن العيون باللون الجليل بحيث لا تبقى عيوننا ، وهكذا يقال في بقية أعضاء الجسم ، ولكن انظر انا جعلنا الجسم كله جيلا يتلوّن كل عضويه باللون الملائم ، فغريا على الطريقة نفسها في مثلنا الخالى توجب علينا أن نسبح صنوف السعادة على الحكام فيصبرون غير ما هم اه .

وجاء في الكتاب السادس من الجمهورية في صفحة ١٥٥ : « ان هؤلاء الحكام انشلا عن زهدهم في المال ، وانهم آباء الدولة ، يجب أن يدرسوا كل علم ليصلوا إلى معرفة الله عز وجل الذي عبر عنه هو بالخبر ، وعنه الدراسة مفصلة في هذا التفسير ، بجملة في الجمهورية ، وانما طلب ذلك لأن تلك العراسة توجب حب صانع العالم ، ومنى كان هذا الحب تمت السعادة وصلر هؤلاء الحكام خلفاء له في إدارة أمره : « يداود لما جعلناك خليفة في الأرض فاسم بين الناس بالحق ولا تدع الهوى الخ » .

وقسم في الكتاب الثامن من الجمهورية الحكومات إلى خمسة أقسام : (أرستقراطية ، وديموقراطية ، وأوليغارشية ، وديموقراطية ، واستبدادية) فالأرستقراطية حكومة الفلاسفة ، وهي الحكومة العادلة المشروحة شرحا وجيزا فيما تقدم ، ثم يظهر بعد ذلك الخلف على غير طريقة السلف ، فيظهر خلف الفلاسفة غير مراعيين الحكمة ، فيصبح الأمر بيد القواد ، ويقومون بالدولة بدل الفلاسفة ، وهي التيموقراطية ، ثم يظهر بعد ذلك الطمع في المال ، وتذهب الحساسة من الجنود ، ويصبح المال هو المقصود بعد أن كانت الحكمة في الأرستقراطية ، والحساسة في التيموقراطية ، فالمال إذن يكون هو المقصود في الأوليغارشية ، فإذا أصبح هذا مقصودا كبر الأمة فهم إذن مجرمون ، لأنهم يخدمون الشهوة الساقطة ، شهوة البطن والفرج ، وأذن يصبح المال في يد الحكام ، فيقوم الشعب ويحاسبهم حسابا عسيرا ، وتنزع الأمة إلى الثورة ، فتكون الحكومة بالانتخاب ، والانتخاب يرجع فيه إلى الأفراد كلهم وهي الديموقراطية وتكون الحكومة الاستبدادية إذا لم يمكن ضبط الأفراد .

هذه هي الحكومات وأنواعها ، ومن رأى سقراط أن أعلاها أوها ، وآخرها أقلها شأنًا . والديموقراطية وهي الرابعة على حسب زمانه لقلة المواصلات رديئة ، ولكن في زماننا قيمتها عظيمة ، وهذه الحكومات ذكرناها هنا لتبني عليها ما تريد من الكلام في الفصل الخامس .

الفصل الخامس في تطبيق علوم تلك الأمم على أمننا الإسلامية في القرون الأولى

فإذا رأينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يبذل قصارى جهده في التبرئ من مال المسلمين ويكتفي بأقل القوت ، ورأينا أبا بكر قبله والنبي صلى الله عليه وسلم وعليًا وعثمان رضي الله عنهم ، فإنا هول هذه الحكومة فيها اقتراب مما وصفه سقراط ، وإذا رأينا أن العصر الأول لما ذهبت دولته ، ورأينا الأمويين والعباسيين في القرن الثاني يقاتل بعضهم بعضا وإن كانوا مجتهدين والمجتهد له أجر ، ورأينا أمثال عبد الله من ذرية الحسن وقد حضر عند السفاح ، ورأى المال المنهوب من بني أمية ، وهو جواهر وحلى للنساء ، وهو يطلبه من السفاح لأن ابنه كان هو صاحب البيعة فإنا لانك أن هذا الجيل أقل من الجيل في القرن الأول ، لأن بعض آل البيت أحبوا المال وقد كان على رضي الله عنه وعمر يتبرأ من يهربان ، وهذا يأخذ ألف ألت درهم ، ويأخذ جواهر لبنات آل البيت ، وقد كانت تنفر منه وتحقره فأطمة رضي الله عنها ، فالسفاح في المال المتقدم للشروح أنفا قبل هذا المقام في الطبقة الثانية وهي التيموقراطية فهو إلى الحساسة أقرب ، وعبد الله من ذرية الحسن أشبه بالطبقة الثالثة وهي الأليغارشية ، وهي التي مقصد أربابها المال فهو إذن في رتبة شهوية كما كانت التي قبلها حساسية . (وبعبارة أخرى) إن أمثال الخلفاء الراشدين إلى الحكمة أقرب ، وأمثال السفاح إلى الحساسة أميل ، وأمثال عبد الله المذكور إلى دولة المال أقرب ، وهي التي يعقبا الاضطراب

هذا ما استنتجناه من قراءة التاريخ المذكور هنا ، ثم أصبح أبناء الخلفاء بعد ذلك جميعا على نسق واحد ، وهو هذه الطبقة . طبقة المال والشهوة البهيمية ، فأما جنودهم من الترك والفرس وغيرهم فهم أقرب إلى الحساسة ، فأحسب الحساسة أدلوا أصحاب الشهوة : أي الطبقة الثانية أدلت الطبقة الثالثة .

اللهم إنك أنت الحمود على لمة العز ، محمدك انك عرفتنا لماذا انتقمتم من المسلمين بعد العصر الأول رسطت بعضهم على بعض ، وألبستهم شيئا ، وذاق بعضهم بأس بعض ، لأنهم لم يكونوا في الندرة العليا من مقاصد الملك ، وهو العدل والصدق والاخلاص ، واعطاء كل ذي حق حقه ، أي انهم لم يكونوا خلفاءك

أنت على عبادك في الأرض ، وبعضهم أخذ إلى الأرض ، واتبع هراء في الميل إلى عصبية ، وأبناء بيته ،
وتفضيلهم على سواهم ، وأنت ما أرسلت نبيك محمدا صلى الله عليه وسلم إلا للعدل العام ، وهجر العصبية
الجاهلية ، لذلك عاقبتهم بالتخاذل ، وجعلت الملك في أيدي غيرهم ، وجعلتهم خاضعة أعناقهم لتقواهم من
الترك وغيرهم .

هنا ظهرت الحكمة في تسيط بني هاشم بعضهم على بعض : فالعباسي يقتل العاوي ، والعاوي يطالب
بالملك ، والله يقول . كلا . لاملك لأنكم تريدون مطلبا أدى وهذا الدين نزل لما هو أعلى ، فكونوا متعادين
لأسلط بعضهم على بعض ، وذلك جزاء الذين لا يبدلون .

خطاب من المؤلف الى السفاح العباسي وعبد الله الحسني

« أيها السيدان العظيمان : أزلتما دولة الأمويين ، وأخذتما جواهرهم وتقودهم ، لمن هذه التقود ،
ولمن هذه الجواهر ؟ أهي لكما أم للأمة ؟ ستقولان ان لنا في بيت المال كذا وكذا ، وتحتجان بنوع علم
الفقه ، والفقهاء مختلفون ، وعمر رضى الله عنه يرى غير رأيكما ، لنضع فروع الفقه جانبا ، نحن نريد تربية
الأمة ، إن الأمة لا تربي بهذه الطريقة ، لا تربي الأمم بأن تجعل طائفة منها تختص بالمال ، وتجعل غيرها
مسخرة لها ، فهذا مثال العين وصفها بالصبيح الأرجواني الذي ذكره سقراط ضربه مثلا لطبقكم الشريفة
يرى علم الحكمة المدون قبل النبوة أن طبقة الحكام أولى بأن تزهد وترضى كما ترضى الميمن بصنمها البسيط
وتباعد عن أن تزين كما تزين العرائس ، وأن تكون مترفة ، إن المترف لتبيل ، وكثرة المترفين تمسك
الأمم ، الوقوف عند فروع الفقه والجدل فيها إضاعة لجمال الاسلام . يقول الله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك
قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

أليس هذا هودين الاسلام ؟ أيليق بنا أن نجعل جسم امتنا أعضاء مصابة بالشلل ، لنضع الفلسفة والحكمة
العقلية جانبا ، ولترجع الى النبوة ، ماذا رأينا فيها ؟ رأينا إعراضا تاما عن مال الأمة من نبينا ﷺ وخلفائه
فماذا جرى بعد هؤلاء ؟ رأينا كما أيها السيدان تهادبان مال بني أمية : فأنت ياسفاح تواسي به عبد الله
الحسني لانك اغتصبت الخلافة من ابنه وهو يشوق للمال ويفرح ، وأنتما معا نسينا ان المال مال الأمة ان
لم يكن يعلم الفقه ، فليكن يعلم الاخلاق ، وعلم القرآن ، وعلم النبوة ، وسيرة الصحابة ، أين رأى الأمة في
هذا المال ، نحن أيها السيدان نحفظ حقكما وشرفكما ونعد كما مجتهدين ، والمجتهد مخطئا ومصيبا مرحوم
ولكن الاجتهاد شيء وتربية الأمة شيء آخر ، هاهو ذا كوفوشيبوس الفيلسوف الصيني يجعل تقاوة الضمير
وتهديب النفس ، ونظام الأسرات ، ونظام الممالك : كل ذلك موقوف على البحث في المحسوسات وفهمها
ودرسها ، وهاهي ذه النبوة المحمدية الشريفة قد ظهرت أنوارها في الخلق الأربعة : نسمع أصحابه رضى الله
عنهم يقولون : « من حفظ البقرة وآل عمران جد في أعيننا » وهذا هج ، ونسمعهم يقولون : (ما كنا
نحفظ آي القرآن حتى نفهمها) وهذا تقدم قريبا : هذه البقرة ، وهذه آل عمران ، ونحن الآن نحفظها
ونحفظ القرآن كله ، ونحفظ علومنا وعلومنا ، ولكن أين ملائكتنا وحكامنا وقضاتنا الذين أشبهوا أبابكر وعمر
وأمثالهما ، أخبراني أيها الشريضان العظيمان ، وقولالي يقع في خاطري ان النبوة كانت تلقى عليهم تعاليم
تبشهم على النظر في ملكوت السموات والأرض ، حتى ترسخ محبة الله ومحبة الخبير للناس في قلوبهم أولا ،
وتعاليم أخرى تجعلهم يفكرون في الأمم والدول والأخلاق والأحوال ؟ والافلاذا نسمع كما تقدم أن بعضهم
يحفظ السورة في سنين معدودة ، ماهذا الحفظ ، وما هذا العلم إلا بتفهم المعاني التي ذكروا أنهم يتعلمونها من
نبينا صلى الله عليه وسلم .

خطاب المؤلف للمسلمين

أيها المسلمون : نحن اليوم نسل نسلنا قاطعا أن تعاليم الخلفاء الراشدين ومن كان معهم مجهولة عندنا ، وقررت ونشهد كما جاء في الأحاديث السابقة المنقولة عن ﴿ الاقنان ﴾ للسيوطي أن حفظ آيات من القرآن أيام النبوة كانت متبوعة بعمان نجهلها نحن الآن ، بدليل أننا لم نجد رجلا يضارعون الخلفاء الراشدين في تعميم العدل في الأمم ، قررت بهذا ونعترف به ، وقررت بأن التعاليم التي فهمها الصحابة أو أكثرهم لم يعرفها أكثر الناس بعد ذلك وضربوا عنها الذكر صفحا . نعم : الشريعة كلها بلغت هذا لاشك فيه إنما الامور التي وقررت في الصدور ، وهي التي تهذب الأخلاق وتحفظ الدول ، وتحفظ المال للأمة جعلت نسيا منسيا غالبا . أقول : فلعل ما أظننا به في هذا التفسير يحوم حول بعض تلك المعاني الشريفة : ففيه بهجة الجبال السامري والأرضي ، وفيه نظام الدول والممالك ، وكيف يكون زوال الملك تابعا لشره على المال : فلعل هذا الكتاب يكون فاتحا بابا لوجه المسلمون بعدنا ويدخلون منه الحقائق الحقيقية والنظم الدولية ، فلا عجب في ذلك فقد رأينا النيل يجري من خط الاستواء وبين منبعه ومصبه في البحر الأبيض المتوسط ما يربو على ألفي ميل ، ولم تظهر ثمراته الا بالقرب من مصبه في بلادنا المصرية : إنافي السودان ثمرته قليلة ، فلعل دين الاسلام كذلك بالنسبة لزمانه القديم بعد العصور الاولى وزمانه الحديث اليوم ، والله هو الولي الحميد وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

الفصل السادس ، في أن الله عز وجل هو الذي أسس ذلك التاريخ لنا نحن

ذلك أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . والعلم والدين لا تظهر فوائدهم التامة الا بعد التجارب الكثيرة ، وهاتين أولاه رأينا تجارب الآباء سنأخذ اليوم حذرنا عما وقعوا فيه ، ونؤسس للممالك على الشورى ، ولانكون مغرمين بالمال كالطبقة الشهوية ، ولا بالعظمة كالطبقة الجاسية بل نكون مغرمين بالعدل ، سائرين على منهاج الخلفاء الراشدين ، وماعدنا ذلك فنحن ندعه : وهاتين أولاه عرفنا حقيقة التاريخ ، والله بالمرصاد لمن غفل في السياسة ، كما إنه بالمرصاد لمن غفل في تدبير الطعام والشراب فالقصر والمغالي فيهما مخذول مقهور مهان ذليل ، فمن أكثر من الطعام أورثه الأسقام ، وشرب السواء الكربة لمرهكذا من طغى في الملك منع لذيق النوم ، وأصبح خسورا مقهورا .

خطاب الله للأفراد والأمم

بين ما نراه من عقاب للأفراد وللأمم من حيث الاسراف في المأكل والمشرب ، ومن حيث الجهل بالحجة العامة في الأمم يفهمنا فهما علميا ، كأن الله عز وجل يخاطب الأفراد قائلا : أيها الناس . هاأنذا أنزلتكم في الأرض . وأعطيتكم الحب والفاكهة والحضر ، وبؤأتكم في الأرض منازل وقصورا لأنظرا تكفرون بجعل نفسي ووضعها في غير موضعها ، أم تشكرون بالنظام العام ؟ وقد أعددت لكم العتة ، وأقت العدل بينكم ، وأنا سريع الحساب في الدنيا قبل حساب الآخرة ، فمن أكل فوق طاقته ، واتبع شهوته ، فاني أعددت له أمراضا مختلفات فذله ثم قتله ، وإذا أراد البره منها أعددت له أطباء وأمرتهم أن يحضروا له العقاقير المنافية لمرضه ولذوقه ، وأعطيتهم الأسلحة والمشارط ، وقلت لهم : أيها الأطباء من استفت من هؤلاء الجاهلين بنظاي وهو مريض فخر عوه كئوس الأدوية بشرها صبيرا وعلقما ، ومن قوا جلده بأسلحتكم المعدة لتلك ، وأدخلوا تحت جلده مواد تحقونه بها ، زبادة في تصديبه ، ونكالا به ، لأنه جهل نعمتي ، وهذه الأدوية

المرّة ما هي إلا أنواع من السموم التي تحتل أجسامهم تحملها ، وتقدر على أن تسوغها وتمثل بها ، فن عاش من هؤلاء عاش عليلا سقيا ، ومن كثرت أحويته أوردته موارد الملكة ، وهجبت به إلى عالم الأرواح ليصرف مستقره ودرجته في عالم الأموات .

هذا خطاب الله الذي يخيل لنا أنه يخاطبهم به في كل زمان ومكان ، وكأنه عز وجل يخاطب الأمم قائلا : « أيها الأمم : هاأنذا خلقتكم والحشرات وبقية الحيوان حولكم ، وكثير منهم لهما ملك منظمات ، وعبدة مساعدة تامة كالنحل والنحل ، أما أتم فإن أيّ أمة جهلت المحبة العامة وقاطعت ، وأصبح أفرادها بعضهم لبعض عدو كما حصل في أمم العرب وأمم الاسلام المتأخرين ، فوعزتي وجلالي لأسلطن عليهم من هم أكثر منهم التثاما ، وأوصلهم رجاء ، وأقربهم محبة ، وأحسن منهم نظاما في مدنيهم وان كان دينهم أقل من دينهم ، وشرفهم أدنى ، ولكن المودة العامة تامة ، فهؤلاء أسلطهم على هؤلاء المتقاطعين يسومونهم سوء العذاب ، ويفتكون بهم فتكاذر بها ، ويزيدونهم تقاطعا بالوشايات والنكيات ، ويسبرون لهم أشبه بالشمم والصيد حتى يستيقظوا من نومتهم .

فألم العظيمة التي استحك نظامها وان كان كثير من رجالها فاسقين أسلطهم على الأمم المتقاطعة وان كان أكثر رجالها صالحين ، لأنني أريد المودة العامة ، والمحبة الملتزمة ، التي تشمل الأمة كلها نظاما واقانا ، فأىّ أمة قصرت في ذلك فإن من هي أحكم منها نظاما تسطو عليها ، وتهتك سترها ، وتذللها ، وتغير عليها بسلاحها ومدافعها وبارودها وطياراتها ، فتعذب عليها النار من الجوّ ، ومن السفن البحرية ، ذلك جزاء الجاهلين .

هذا ما خطر لي اليوم ١٤ يناير سنة ١٩٣٢ ميلادية - ٥ رمضان ١٣٥٠ هجرية بعد الظهر والحمد لله رب العالمين .

الفصل السابع : في بيان أن تجارب أيامنا هذا زمان ظهورها

إذا رأينا الفارس إذا مات في الهجاء اختص باللحم الطيور ، وبالعظام الوحوش ، وأخذ الخيالة ماعليه من سلاح وكراع ، وهذا هو المسمى (بالسلب) كسب كما يقول عنزة شعرا :

لي النفوس وللطير المحروم وللشوحش للعظام وللخيالة السلب

وإذا دفن في جدته ، فللدود والحشرات تراث لحم وعظامه ، ولورثته ماله وعقاره ، وللأمة والتاريخ حوادثه وأخباره ، لم يخلق الله خلقا عبثا ، فإذا مات أبوانا الأول ، فلنا نحن أفضل ميراث عنهم ، وهي العبرة في التاريخ : لأن السود استوفى حظه ، والورثة نالوا صرادهم ، فلنستوف نحن ميراثنا الآن ، ولنقل أن الأئمة رضى الله عنهم كأي حنيفة ومالك وابن حنبل ومن بعدهم كانوا تحت سلطان قاهر وسيف مسلط ، وماوك مقتضيين ، فأهان المنصور الأول والثاني ، وأما الثالث فقد استحق وأهين في مسألة خلق القرآن ، إذن فلا سبيل إلى إطالتهم في أمر نظام النبوة الا بمقدار : لما أنهم يجسرون على تطبيق القرآن على الملوك والممالك فلا (١) مثل أن يستنجوا من آية « ألم تر إلى الملا من بني إسرائيل من بعد موسى الخ » إن المدار في الملك على قوة جسمه وعلمه : وأما مسألة شرف الآباء فليست مقياس ذلك ، وهامهم أولاد بنو إسرائيل يقولون : أن يكون له الملك علينا ونحن أسقى بالملك منه لاتنا من بيوتهم ، ونسنا أرفع من بيت طالوت ونسبه ، وأيضا ليس عنده سعة من المال والمدار في الملك على المال والنسب ، أي أنهم يريدون الطبقة الثالثة ، وهي التي تملك بسبب سلطان القوة الشهوية ، وهي (الأوليغاركية) أي المالية فيصبح للمدار في الملك على المال : فقال لله لهم . كلا . أيها الناس : المدار على العلم

بدل المال ، واستعداد المرء من حيث ذاته هو لأصله : فهذا رجوع الى أعلى طبقة ، وهو طبقة الأ كبر والحكماء بقدر الامكان : فهذه الآية تهدم الركن الركين في استيلاء العباسيين والأمويين ويرجعون الى الشورى .

(٢) وهل يستطيع أصحاب الشافى ومالك وابن حنبل وأبى حنيفة أن يرفضوا أصواتهم أمام ملوك هذه الدول : فيقولون أيها الملوك : أما سمعتم قول الله « وأمرهم شورى بينهم » وقوله « وشاورهم في الأمر » وقوله من قصة بلقيس : « قالت يا أيها الملأ أفتوى في أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون قالوا نحن أولوا قوة وألوا بأس شديد » الخ وقوله في قصة فرعون اذ يشار الملأ في أمر موسى « إذ قال للملا حولة فاذا تأمرون قالوا أرجه وأناه » الخ : يا عجبا بملككتان شريقتان يذكروهما القرآن ، لمكة تقول « ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون » ، وملك عات « يقول للملا حولة فاذا تأمرون » القرآن صريح في الشورى ، لملك يورث ، ولا مال يؤخذ الا بأمر قواب الأمة أى أهل الحل والعقد : فهذا كله ترك منذ العصور الاولى لأن الحكومات مستبدة وكل من رفع رأسه قتل أو أهدى ، ودرج الخلف على ماسنه السلف ، ورضى الناس بالملوك وعاشوا في ظلامهم وهم كارهون أو غافلون :

أ كتب هذا الليلة : ليلة الثلاثاء ٤ شهر رمضان سنة ١٣٥٠ هـ أ كتبه وأنا مقبل على زمان سعادة وهناء لأمة الاسلام بعدنا ، وسيكون هذا من مقومات النهضات ، وبناء الحكومات على أساس وطيد ، فلا المال ولا النسب ، ولكن الكفاءة والعلم وضبط الملك ، فهنا نحن أولاء جئنا في زمان لاجرح فيه على الكاتبين فظننا في تجارب الآباء فاستنتجنا منها هذه النتائج ، وهى واجبة علينا فأمان قبلنا فقد كانوا في زمان لا يستطيعون فيه أن يرفضوا أصواتهم حتى يرفع السيف على أعناقهم ، وأنا لست أقول إنهم لم يدونوا ذلك هم دوتوه ، ولكنهم لم يطولوا فيه كما أطالوا في البيوع والزكاة والصلاة وما أشبهها ، والعلة هى الخوف مع ان هذه المسألة حفاظ لما عداها : لانه لاصلاة ولا حجاج ولا غيرها والناس غير آمنين في منازلهم ، والأمن يكون أكل إذ أسند الأمر إلى أهله .

الفصل الثامن . في تبيان نعمة الله علينا وعلى الناس في زماننا وبعده

إن الله عز وجل سبأ كل ذى علم عن علمه ، والله سيأتنى عن تقصيرى فى النشر بعد الفهم : يقول الله تعالى « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب لتبيننه للناس ولانكتمونه الخ » ويقول « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا للتواب الرحيم » .

وسيمسح هذا أقوام بعدنا فيرون أن أهم ما فى القرآن متروك ، فلم يستخرج منه الناس علوما فيوجبوا قرامتها (مثال ذلك) علوم الآثار كآثار الآشوريين ، والبابليين ، وقدماء المصريين ، والفرس ، وما أشبه ذلك ، تلك الأمم الخالية التى عثر الناس عليها فى الحفائر والمقابر ، وعلى الألواح والطروس ، والورق ، ورق الغزال ، والبردى ، أ ليست هذه هى التى يقول الله فيها كما قدمناه مرارا « وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال » وقد مكروا مكروهم وعند الله مكروهم وان كان مكروهم لتدول منه الجبال « فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله الخ » ألت ترى أن هذه الآية منطبقة تمام الانطباق على مكر الملوك المستبدين فى الامم الاسلامية الذين ذكرناهم ، وكيف كانوا يكفرون ويحتالون فى

حيازة ملكهم ، وانا نحن يجب علينا أن ندرس ذلك ، ومن المشهس أن علماء الاسلام أجلوا ذلك ،
جعلوا تلك العلوم من فروض الكفايات ، ولكن المسلمون تركوا ذلك كله جهالة كما أوضحتنا .

إن هذا المقال يطول اذا استطرنا فيه بذكر قصص القرآن وحوادث الأمم : كل ذلك ذكر لنظام
القول والممالك ، وانا أجدك يا الله إذ وقت لوضع نبذ في هذا المقام نعدل على البقية وعلى من يأتون بعدنا ،
أن يدرسوا الفلسفة ، ويستخرجوا خلاصتها مع خلاصة القرآن وبرقوا الأمم : إن هذا الزمان مبدأ لأم
أسعد حالا وأرقى شأنًا ، ولتلك أتم الله بهذا التفسير « فالتة خير حافظا وهو أرحم الراحمين » .

كتب ليلة الثلاثاء الساعة ١٢ أى نصف الليل ٤ رمضان سنة ١٣٥٠ هـ - ٢ يناير سنة ١٩٣٢

نظرتى فى عوالم العقول وعوالم الحقول . والمزارع . والثمرات

والتسليم لله لمناسبة ما كتبتة فى هذا المقام

رباه : أمرت نينا صلى الله عليه وسلم أن يسلم وجهه لله ، وأمرتنا بذلك التسليم فى آية : « فان حاجوك
فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن » الآية .

وأمرت المسلم أن يقول فى أول كل صلاة : « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا »
رباه : هانحن أولاء وجهنا وجوهنا لك ، وسلمنا أمورنا إليك ، ورجعنا إلى كتابك ، وانتظرنا الفتح منك .
رباه : هانحن أولاء نزلت أرواحنا إلى هذه الأجسام فى أرضك ، ونظرت فى أحوال الأمم التى نعيش معها ،
والأمم الخالية فألفينا عجبا ! أفيناك فعلت فى عقولنا ما فعلته فى حقوك وحقولنا :

(١) ذلك انك أنزلت المطر مدرارا فى خط الاستواء أكثر أيام السنة ، ولم يعوز الخلوقات الحية هناك
حوت للأرض ، ولا رى للشجر ، فالأرض تجود بالشجر والمطر فوقها والثمار غزيرة ، والخلوقات
الحية قربة العين بتلك الثمرات اللاتى تؤتى أكلها كل حين باذن ربه .

(٢) ثم رأينا أنما أخرى فى مناطق أخرى يعوزها حوت الأرض لاستخراج نباتها ، وقد كفاه المطر السقى
(٣) وأم أخرى كأمنا المصرية يعوزها أمران : حوت لأرضها لتقليب الطين فيها ، واستخراج الماء
من الآبار ومن النيل حتى يكون لها زرع وثمر . هكذا رأينا المواهب العقلية والحكمية :

(١) فهانحن أولاء نرى أنبياء ظهرت الحكمة فى قلوبهم فبشوا للأمم ، وهؤلاء الأنبياء لا يعوزهم
معلمون أرضيون ، ولبسوا فى حاجة إلى دراسة النظريات الفلسفية .

(٢) ونرى حكماء فى الأرض يعوزهم بحث وتنقيب فى مقابلة القسم الثانى فيما تقدم .

(٣) ونرى علماء يعوزهم أمران : تدريب عقولهم بالبحث ، واستخراج العلم من مخزون علوم
الانبياء والحكماء .

هذه أقسام المواهب العلمية المقابلة لمناخ المزارع والحقول والاشجار الارضية : إذن نحن اليوم من
الفريق الثالث ، فعلىنا أن نجد لاستخراج ما كمن فى عقولنا من المواهب فى مقابلة حوت الأرض لاستخراج
الزرع منها ، وأن نقرأ ما نبعث من منبع النبوة من العلم ، فلا ندع عقولنا بلا تفكير لتلا تملك الأمة كما
تملك أمنا المصرية جوعا اذا تركت حوت أرضها ، ولاندع علوم آباءنا الأولين ولا حكماء الأمم ولا علم رسالة
المحمدية ، لتلا تملك أمنا الاسلامية كاتملك الامة المصرية اذا تركت ماء النيل جانبا وأخذت ترقب المطر ،
ولامطر غزير فى بلادها : رباه هذه طريقتنا فى حياتنا الدنيا ، نكتب هذا ، وسيكتب نظيره من بعدنا ،
ونسلم أمورنا إليك ، ونحن نوقن أن هذه المواهب وهذه المعارف ليست لنا ، بل هى منك وهى هبة لعبادك

فكل من كانت لديه أى حكمة من أم الإسلام في زماننا أو بعده : فانه مأمور أن يسلم أمره لله ، وأن يسقى في نشرها في أمته ، وأن يعلم أنه لا فضل له في معرفتها ولا في نشرها : كما لا فضل لأشجار خط الاستواء في غزارة ثمراتها ولا لحقول الزراع المصريين في تغذية عبادك بحبوبها ، فأنت الزارع في الخالين ، وأنت المهيم على الأمم منها : فها أنا ذا أقوض أمرى إليك ، وأقول أسلمت وجهى لله إتباعاً لانياتك ، لاسيما خاتم الرسالة صلى الله عليه وسلم ، وأوقن أن ما أكتبه ماهو الاغيض من فضل رحمتك ، وما عقولنا ولا أبحاثنا إلا كالفلم في يد كاتبه بصرفه كيف يشاء ، أنت منزل الماء من السماء ومحى الأرض بعد موتها ، وأنت منزل الوحي ومصرف العقول ، وهاديها الى ما تشاء من طرق الهداية . بها تحيى أعماراً ، ولعل هذه الطرائق الحديثة في أمنا الاسلامية ، ترجع بالناس الى العصور الأولى النبوية ، وعور التسليم لك والاقنياد لأمرك والسير على نصوص كتابك ، والاهتداء بأثوارك ، وقيام أم ودول ، تصكون أقرب الى عصر النبوة في حبك وفي الاشراف على عبادك بحسن السياسة وانتظام الشمل ، (و بعبارة أخرى) يكون المسلمون في مستقبل الزمان رجة لعبادك لانك رب العالمين اه .

إشراق شمس الاسلام بعد إظلام ليله

تقد أبتا في تضيير هذه الآية : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بقت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تنىء الى أمر الله فان قامت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المتقطين ، إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » اختلاف الأمم الاسلامية في المقرون المتأخرة ، وأفضنا فيه لإفضة كافية وافية ، ومن عادة الله عز وجل أن يجعل بعد العسر يسرا ، وبعد الضيق سعة : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » .

الاهم إنا نحمدك جدا بولافى نعمك ، وبكافى مزيدك ، رباه قد ظننا ما كنا نتمناه في أم الاسلام ، رباه لقد أنلتنى ما كنت أتوق إليه وأنا حى ، نعم نلت ذلك ، فياسبحان الله : هل كان يدور بخلدى أن أعيش حتى أطلع على الاتفاق بين إمام اليمن والملك ابن السعود ، فبذ أيام اختلفا على جبل بينهما ، فوكل الأول الحكم للثاني ، فحكم الثاني للأول ، وفي هذا اليوم جا . في جرائدنا المصرية أى يوم الاثنين ١٨ بنابر سنة ١٩٣٢ الموافق ١٠ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية تحت العنوان الآتى مانصه :

الاتفاق بين جلالة إمام اليمن والملك ابن السعود

« تم الاتفاق بين العاهلين العربيين ، وذلك على عدة نقاط ، النقطة الأولى ان الأربعة المخالف التي كانت تابعة للسيد على بن محمد الادريسي ، والذين اتقوا عليه بهد وفاة والده السيد محمد الادريسي ، والذين أخفوا منه المدافع التي كانت معه من مترايوز والجيشانة ، وقد ظلوا حاكين نفوسهم مدة من الزمن ، غير أنه حصلت الفوضى بينهم ، واختل الأمان والاطمئنان ، ثم أصبحت من غير راع ، فسا كان من كبرائها إلا أنهم اتفقوا على أنهم يسلمون أنفسهم لجلالة الامام يحيى ، وذهبوا الى أقرب نقطة تابعة لحكمه تسمى (ساقين) وطلبوا من عامل تلك الجهة أن يتقدم لينسب أمورها ، ويجرى ضبطها ، قبل استفحال الفوضى بها ، وأرغموه بالحجة ، فطلب منهم تسليم المدافع والجيشانة الموجودة معهم ، وتسليم الرهائن بحسب العادة المتبعة هناك ، فأجيب طلبه ، فأرسل الجيوش المتوكيلة واحتلت الجهة تماماً من غير أى مقاومة ، ولما بلغ الأمر إلى ابن السعود من عامله بصبياء أرسل من طريق جيزان نغرافا لعادل الامام بميدى ، وهو القاضي عبد الله العرشى

الذي منه رفعه إلى جلالة الامام يحيى ، فصلت المخبرات بين المعاملين ، ثم اقترعا إرسال مندوبين من الطرفين كان على رأس مندوبى اليمن حاكم ميدى القاضى العرشي ومعه شيخ مشايخ بلاد خولان راسح ، وشيخ بلاد مجور ، وشيخ بنى جماعة ، واجتمع الوفدان عدة مرات ، ثم قرّر القرار على أن البلاد التي احتلتها جيش الامام نضم إليه ، ويتوقف مؤقتا عن التقدم الى جهة صيدا ومايلها ، ثم ان وفد ابن السعود طلب أن تعين الحدود ما بين عسير واليمن ، فرفض الامام يحيى ذلك ، بحجة أن عسير من أمها اليمن ، وقد أجرى الصلح مؤقتا بهذا وبناء على ذلك تم الاتفاق ، وأمضى الفريقان المعاهدة . اهـ

أفليس من العجب أن يصكون هذان الأبرار ابني تلسم الأم التي لم تعرف إلا المشاجرة والتناهد في القرون المتأخرة ، وقد رجعا لعصر النبوة كرة واحدة ابتاعا آية الصلح بين الطائفتين . هذا ومن عجب أن المسلمين يسرعون في الرقى ، فهل كان يدور بخلدى أثناء طبع ﴿سورة سبأ﴾ التي كمل طبعها في شهر شوال سنة ١٣٤٨ هجرية أى منذ أقل من سنتين (وأنا الآن أكتب هذا يوم الاثنين العاشر من شهر رمضان سنة ١٣٥٠ هـ) أن ماتميتها لبلاد اليمن ، بل ما توقفت يتم قبل مضي سنتين اثنتين . أفليس هذا من عجائب صنع الله تعالى التي توقفتها في هذا التفسير ، سقا حقا ان الله أذن برقى أم الاسلام .

كم ذكرت في هذا التفسير أن هذا زمان رقى أم الاسلام . كم كررت هذه الجملة ، نعم كررتها ، ولادليل عندي إلا دافع نفسي ، وهذا الدافع كان كافيا لما أكتبه ، وليس هذا الدافع برهانا عقليا ، إذ البراهين العقلية غير الامور الوجدانية القاصرة على صاحبها ، ولكم ضل قوم بوجدانهم فكثيرا ما يخطئ الوجدان ، ولكن في هذا المقام صدق الوجدان ، وتم ما كنت أتوقفه لهذه الأمة أوجله ، حتى أصبح ذلك عندي يقينا صدقته الحوادث .

فاظكر كيف كتبت في تفسير ﴿سورة سبأ﴾ المذكورة اني كنت فسرتها تفسيراً أوليا بدون اطلاع على ما كتبه المسلمون والاروبيون عن الآثار في أرجاء اليمن ، ثم عاقت العوائق عشر سنين اطلعت في أثناءها على تاريخ تلك البلاد ، وسبب اضمحلالها ، وأن القوم أهملوا أعمال زراعتهم ، وصيانة سدودهم ، فانهار السد ، ففترقوا شذرمذر ، فكان الاستنتاج الاجالى الأولى هو عين التفصيل التحقيقي بعد ذلك ، وفي هذا التفصيل ظهر الكشف الحديث وفيه آثار بلاد سبأ ، وخريطة «مدينة مأرب» بعد خرابها ، وخريطة «سد العرم» ، وذكر العلماء الذين بقوا عن تلك الآثار ، وما لقوا من الذلة والمهانة ، وهم من أم مختلفة وكيف نشروا صور تلك الآثار في أنحاء أوروبا ، والمسلمون لجهلهم بعلومهم وبلادهم ، وعلوم الأمم حولهم ، ولغائهم خامدون نائمون جاهلون كأنهم "لمون" ، أو كأنهم غير موجودين في هذا الكوكب الذي نعيش عليه ، وختمت المقال هناك ببناء وجهته لأمة الاسلام ، وقلت : إله يا أمة الاسلام ، أهكذا يكون المسلمون ؟ إلى أن قلت : يجمل في دين المروءة والشرف أن يكون الجاهلون يعبرون أرض الله أكثر من المسلمين إلى أن قلت : لا لا إن أمة الاسلام ستأخذ دورها عن قريب . أمة الاسلام النائمة قد اقتضى دورها ، وستأق أمة الاسلام اليقظة التي تحفظ نعمة الله الخ إلى أن قلت : لم ذكرت سبأ ؟ ألقصة تذكر . كلا . والله ذكرت لنا الآن ، ذكرت لمن يتعظون ، دفن الله المال والعلم في السخور والألواح وعلى الجدران ، ثم أخرج ذلك الآن الخ .

هذا قل من كل مما كتبت في ﴿سورة سبأ﴾ . أفليس من العجب أن نرى في صحيفة الجهاد في نفس التاريخ المتقدم تحت عنوان «أخبار اليمن» مانسه :

« تقدمت الجيوش المتوكية شرقا واحتلت وادي سبأ ومأرب والبيضا والسودا والحرا وبنى نوف والمواتق وييجان والمصعين ومراد والجوبة ، والجميع يسلمون البلاد إلى القائد العام السيد عبد الله الوزير من غير

أى مقاومة ، وفى أثناء هذه المدة يجرى التنقيب فى مأرب باهتمام عظيم بواسطة الاختصاصيين الألمانين من ملوك جبر وكنوزهم المدفونة تحت الجبال ، وقد اهتمت الحكومة الجمانية إلى اخراج مدفن بجمة مأرب ، ووجدت فيه كمية واسعة من الكنوز الذهبية والأحجار الكريمة ، وأيضاً وجدت مدفناً آخر بجمة بلد تسمى « النخلة الحمراء » وهى تابعة لبلاد الحذاء ، وتبعد عن صنعاء ٣٠ كيلومتراً ، والمشراف على اخراج ما بها من الكنوز سيف الاسلام محمد بن أمير المؤمنين ، وأيضاً وجد كنز بجمة بلدة تسمى « غيان » وقد وجد بها تمثال ملك من ملوك جبر ، وعدة تماثيل : منها ماهو على صور الخيل ، ومنها ماهو على صور أخرى ، وأما الملكة قريبة الملك فهم ينقبون عنها فى بلد تسمى « سيان » وهى تبعد عن صنعاء ١٠ كيلومترات ، والتنقيب يجرى باهتمام عظيم . انتهى ماجاء فى الجريدة المذكورة والحمد لله رب العالمين .

كل هذا لما كتبه وسمعه صديقى العالم الذى اعتاد مناقشتى فى هذا التفسير سرّاً أيام سرور ، وقال : هذا هو النصر والفتح المبين . هاهم أولاء القوامون على أمر اليمن قد نشطوا لاستخراج كنوزها ، ونحن خير لهم أن يملأوا أهل بلادهم كل علم وكل فن حالاً كما فعلت اليابان ، وهاهم أولاء أمراء الاسلام غيروا طريقة آباءهم فى القرون المتأخرة التى كانت كل ما يحنا وبلاء فالحمد لله رب العالمين .

قلت : إن أم الاسلام اليوم مخطوخطوات واسعات نحو المجد ، وأنا أقول : ستشهد الانسانية مشهدها اسلامياً لا يشابهه إلا عصر النبوة ، وينتشر الرقى الاسلامى انتشاراً لم يعهده له نظيره ، وهذا ابتداء دوره فى أثناء طبع هذا التفسير ، وهذه أمة مقبلة لاحد لكاملها ، ولا منتهى لسعادتها .

فقال صديقى : إن الأمر فوق ذلك ، إن اتسع المعارف أخذ يمتد بين أم الاسلام جميعها ، فليس قاصراً على أمة العرب ، بل المدهش أن الأمم التى ليست بحرية أخفت ترقى طفرة ، لافى الآثار وحدها ، ولا فى الصلح بين الطوائف ، بل فى سائر الشؤون الحيوية ، وهل أتاك حديث « المقطم » يوم الثلاثاء ٢٩ ديسمبر ١٩٣١ تحت عنوان « معلومات جديدة » عن بلاد التركستان وهذا نصه :

معلومات جديدة

عن بلاد التركستان الصينية (كشغر)

نصف ساعة مع السيد منصورخان

كثيراً ما كنت أحسن إلى مصرحين المرضع الرؤوم إلى فطيمها ، وكما زمت حقايبى بقصد السفر فما كنى الظروف وتعدنى الحوادث ، وما فتحت عيني من نوم إلا وأرى صورة الأزهر الشريف ماثلة أمامى ، لا تكاد تفارقنى حتى أراد الله ، وكنت من جملة المدعوين إلى المؤتمر الاسلامى العام ، فلم أربداً من زيارة مصر التى باتت منى قاب قوسين أو أدنى ، وبين عشية وضحاها كنت فى مصر أسير فى شوارعها جيئة وذهاباً ، وفى ذات يوم ضمنى مجلس مع شاب يدعى « السيد منصور أمين خان » من بلاد تركستان الصينية (كشغر) وهو فى العقد الثالث من عمره ، يحسن خمس لغات : التركية ، والفارسية ، والعربية ، والفرنساوية ، وجاتنا من الانكليزية ، وهو أسمر اللون ، معتدل القامة ، طلق الحيا ، يمتلى الجسم ، لا يتكلم اللغة العربية إلا بأسلوبها الفصيح ، حتى أنك اذا مزجت كلامك بكلمة عامية يطلب منك تفسيرها ، وانك تقرأ فى جيبه عنوان الشرف والمبادئ السامية عند ما يقع بعرك عليه ، فطلبت منه أن يتحدثنى بمعلومات عن تلك البلاد النائية ، ففضل علينا بالحديث الآتى :

(س) — ما السبب الذى جعلك على مغادرة الوطن ؟ وهل زرت غير مصر من البلاد الاسلامية ؟

(ج) — كنت تلميذاً فى المدرسة الثانوية فى (كشغر) والعالم المصرية قليلة فى بلادنا جداً بالرغم

من رقى العلوم الاسلامية والآداب العربية والفارسية ، فنجد عصور قديمة كانت بلادى واخوانى المسلمون غرق في لجة الجهالة ، بحيث لا يمكننى تفصيل أحوالهم الاجتماعية في هذه المدة القصيرة ، فهاأنذا أريد الآن أن أرفع من شأن بلادى وشعبى (وهم مسلمو تركستان الصينية) بالعلوم العصرية ، تلك العلوم التى كانت منذ أزمنة متطاولة حتى زماننا هذا معدودة من أسباب الزندقة والخلاد في البلاد بل الكفر ، وأن كل من يتعلم علما عصريا يصده قوى مارقا من الدين ، إلى أن بزغ في آفاق عالم الاسلام شمس احقرت بأنوارها حجب الجهالة ، فتجلى جمال الحقيقة ، وأزيل النطاء عن عيون شباب بلادى جميعا في بضعة سنين ، الأمر الذى هجرت عنه القرون المتطاولة ، والمؤلفات التى كانت صدر آنا فآنا لفلسفة الاسلام ، وما هذه الشمس التى مزقت تلك الحجب وأحرقها إلا مؤلفات فيلسوف الاسلام الأوحده فضيلة الاستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى المصرى الذى سحر عقول بلادنا في مدة وجيزة ، وأبدع قرنا جديدا في الحياة الاجتماعية الاسلامية ، ووفق بين القرآن والعلوم العصرية ، مما لا يدع مجالاً للشك والريب في أن تلك العلوم هى نفس الدين ، وأخص به الله كرم من المؤلفات (التاج المرصع) الذى أهدها ليكادو اليابان و(نظام العالم والأمة) و(تضبير الجواهر) وكتاب (القرآن والعلوم العصرية) . ومن الحجب أى في أى بلاد مردت بها في سفرى إلى تركيا كنت أقابل من يعرف فيلسوف الشرق الشيخ طنطاوى جوهرى وفي يده أثر من آثاره القيمة يريد أن ينتقب به ، أو يثقب به غيره ، والحق يقال إن آثار الفيلسوف على ما اعتقد ستؤثر في عقلية الشعوب تأثيرا يشبه تأثير المصلح في الدين المسيحى «لور» . ولما كنت في بلادى كان شباب تركستان الصينية يتشاورون فيما بينهم أن يشيدوا باسم الفيلسوف الجوهرى جامعة تكون تذكارا لاسمه ، وتقديرا لأهميته ، إن تلك الآثار القيمة أثرت في عقلية شبان تركستان الصينية الذين كانوا ينيهون في يدها آسيا الوسطى حيارى لاسرشد لهم ولادليل ، في عزلة عن الأمم المتقدمة ، فلما رأوها أقبلوا عليها ، وحل في قلوبهم شوق إلى العلوم العصرية ، فسوا إلى منابها في جامعاتها في الممالك المتقدمة الأوروبية والاسلامية ، وأن هذه الكتب الطنطاوية هى التى بستتنا في أقطار الشرق والغرب لدراسة علوم الأمم مما حرم منه جميع أجدادنا وآبائنا ، وأنا واحد من أول وفد قام من البلاد ، وعددنا ثلاثون شابا ، وقام بعدنا وفد آخر ، كل ذلك بتأثير مؤلفات هذا الفيلسوف ، فهاأنذا غادرت بلادى إلى تركيا لاقتباس العلوم العصرية ، وللارتشاف من مناهل حياضها .

(س) ذكرتم أن في بلادكم مسلمين ، فكم عددهم ومن يحكمهم ؟

(ج) عندنا أكثر من عشرة ملايين من الأتراك المسلمين الذين يتكلمون بلهجة قديمة من اللغة التركية ، أما المسلمون في بلاد الصين فانهم أكثر من سبعين مليون مسلم يتكلمون باللغة الصينية ويتأدون العادات والتقاليد الصينية ، ويدينون بالديانة الاسلامية المحمدية ، وأن الذى يحكمهم هى الحكومة الصينية الأبراطورية .

(س) هل تضيق الحكومة عليكم في دينكم ؟ أم هل تقيمون الشار بكل حرية ؟

(ج) نحن أسوار بكل معنى الكلمة .

(س) هل زرت مصر وتركيا ؟

(ج) الأفضان وإيران في طريقى إلى تركيا .

(س) هل مكثتم طويلا في بلاد الأفضان .

(ج) جلت في الأفضان ستة أشهر ، وأن رفيقى أمين أفسدى الكاشغرى دخل في إحدى المدارس الأفضانية مجانا تحت حياية أمان الله خان الملك السابق ، فحينما ذهبت إلى وزارة المعارف الأفضانية أخبرنى معاون الوزير أنه في سدد ترجمة كتاب (نظام العالم والأمة) للاستاذ طنطاوى جوهرى إلى اللغة الفارسية لشبان الأفضان

(ن) قلم ان كتاب (التاج المرصع) لهذا الفيلسوف أهدها صاحبه لأمبراطور اليابان ، فهل لهذا للكتاب أثر في تلك البلاد اليابانية ؟

(ج) إن التاج المرصع لما وصل إلى اليابان أكتب المسلمون اليابانيون الذين أسلموا من ربيع قرن بارشاد للشهور عبدالرشيد إبراهيم السياح على قراءته ، والآن في اليابان على ما سمعت من بعض التفات أكثر من عشرين ألف مسلم ياباني ، فصار هذا الأثر النفيس (دولة) أى تتداوله الأيدي ، وأثر في زيادة محبتهم لدينهم ، والآن ينتشر الدين الاسلامي بتأثير ترجمة هذا الأثر انتشارا واسع النطاق . انتهى ماجاه في الجريدة المذكورة محمد سعيد درويش من سوريا الباب : تزيل مصر

فلما سمعت ذلك وكتبته . قلت : صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، هذا من فضل ربي ليؤتي من يشاء من شكر فأعما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم ، وقرأت : « الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله » . كتب يوم الاثنين ١٠ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية و ١٨ يناير سنة ١٩٣٢ م .

هذا هو نهاية الكلام على المقالة الأولى في قوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بقت إحدىهما على الأخرى فقاتلوا التي تبنى حتى تفيء إلى أمر الله فان قامت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واقوا الله لعلكم ترحمون » والحمد لله رب العالمين .

المقالة الثانية

في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولانساء من نساء عسى أن يكنن خيرا منهن ولا تلهووا أنفسكم ولاتناذبوا بالألقاب بشئ الاسم . الفسوق بعد الايمان ومن لم يقب فأولئك هم الظالمون » يا أيها الذين آمنوا اجتنوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحبه أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واقوا الله إن الله تواب رحيم »

إن ما تضمنته هذه الآيات فيه « مقلدان : للمقام الأول » في غوائل اللسان من السخرية والاستهزاء والجز والتناذب بالألقاب والفتية وما أشبهها « المقام الثاني » في غوائل الأعمال القلبية ، وقد أشير طابا لئسى عن كثير من الظن ، ويقرب منه التجسس ، فهنا أمران خطيران : هما اللسان والجنان . قال زهير بن أبي سلمى :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

إن القلب هو العالم النورى الجليل العالى الشريف ، الذى يجمع صور الصالحين اللذينى والأخرى ، واللسان ينوب عنه في أداء ما كمن فيه من المعاني والعلوم والمعارف ، وكل خير وشر ، إذن أمرها عظيم ، ولا جرم أن فتح المدارس والمعاهد الدينية والكليات والجامعات ، كل ذلك لتكميل العقل وتدريبه . ولقد كانت ضاية الناس باللسان لها مقام عظيم أيضا ، ألا ترى أن العلوم اللسانية كلها في الشرق والغرب ترجع إلى تهذيب اللسان ، وفي لغتنا العربية ١٢ علما : كالنحو والصرف واللغة والمعاني والبيان والبديع والخط والإنشاء والترجيح والاملاء والشعر والخطابة ، كل هذه وما يشبهها إنما جعلت لترقية اللسان ، كما ان العقل يرقى العلوم الرياضية والطبيعية ، والعلم الأعلى وهو العلوم العامة التى تبحث في نظام العالم العلم ، وفي علم النفس وفي علوم الأخلاق والسياسة والله والأرواح والملائكة ، إذن العقل واللسان أمرها عظيم ، لذلك كان لزاما

على في هذه المقالة أن أبين لك أيها الذكي - عجائب العلم والحكمة ، وهذه الثروة العلمية التي ورثناها عن آباؤنا الأولين ، وكيف دفنت هذه الثروة في ثنايا الكتب مئات السنين ؟ وكيف نبقت الأمم اللامبروية في هذه الكثرة الآن ولكن بيهمة غير الهيبة الإسلامية والنتيجة واحدة .

أنا أرى الآن أنك قد نهيأت نفسك أيها الذكي لتبيان ، وشاقها لمسأقوله في هذا المقام ، وإلى سأمجمل لك ذلك الآن فأقول :

يا سبحان الله . اللهم إنك أنت المعلم ، أنت الهادي ، أنت الحكيم ، أنت حصن الظنور في أوكارها ، والوحوش في أوجارها ، والحشرات في أكناتها ، والنرات المكروبية في أطوارها ومستقر حتم ومستودعها ، وكل من هذه له طريقة تناسبه ، وحال تلائمها ، فهكذا نوع الانسان قد جعلته أشبه بتلك الأنواع ، انا أرى أن الكلام في تهذيب اللسان يتخذ طرقاً متباينة ، وأحوالاً شتى ، ونرى ديننا الإسلامي فيه من كنوز العلوم في هذا المقام وغيره ما به ينتفع الصادقون المخلصون ، فهاهونا الامام الغزالي قد ذكر في الجزء الثالث من الاحياء آفة اللسان جلها عشرين ستقرؤها قريباً ، وأبأن مضارها ، والاحتراس منها ، وهامى ذه جعية المباحث النفسية في انكنا تبحر في غوائل اللسان كما بحث علمناؤنا ، ولصكن جاري أنسى ، فانظر ماذا جرى ؟ جهلاً العقل أشبه ببطارية الكهربية ، واللسان أشبه بحارس تلك الكهربية ، فلما حافظ عليها اللسان ولم يعثرها وسكت ، فان تلك الكهربية تكون هونا لساها في جذب القلوب واقبال الناس على الانسان وسهولة المعاملة وجميع مصالح الحياة ، إن هذه الطريقة نالمة لمن يريد المعاجلة ، وطريقة علمنا نالمة لمن يريد الآخرة ، والطريقتان تحيان لغرض واحد ، وهذا أمر عجب إن أسلافنا ظهر منهم الأطباء والحكام والعلماء وأرباب العجا برون أن يوزهم ما ذكره الاوروبيون ، فهم عملوا بما وصى به الله وبنبيه والعلماء قانتفوا ، ولكن علماء المباحث النفسية أدركوا أن الناس الآن لا يهتمون إلا بالنتائج القريبة اللهم إن ظهور نتائج حفظ اللسان عند علماء المباحث النفسية في زماننا من أكبر المجهزات وأعظم الفوائد في ديننا الإسلامي ، فلا ذكر لك أولاً ما سطرته من أقوال علماء جعية المباحث النفسية ، ثم أتبعه بما قاله الامام الغزالي في الاحياء ، وهذان في حفظ اللسان وهو المقام الأول ، ثم أختتم بما ذكرته في كتابي في علم الأخلاق المسمى « جوهر التقوى » في الذنوب القلبية كالحسد والحقد بعد ذكر الذنوب السانية ، وهو المقام الثاني من المقالة الثانية وهالك ما قاله :

جعية المباحث النفسية

المغناطيسية الشخصية

الفصل الأول : معرفة التتوة

إننا كل منا فيه بطارية كهربية ، يؤثر ويتأثر ، فالحب من الناس لتيار منكم وأمت لاتعلم ، وكذلك الغور ، فالله يؤثر ويتأثر طوعاً وكرها .

وجود التيارات العقلية

هناك قوة غير القوة العاقلة تعمل بغير العقل فلنفسها مغناطيسية وإن كانت هي غيرها ، وقد تعمل أعمال الكهربية ، والقصد أن نعرف كيف نحكمها كما حكمنا الكهربية وإن لم نعرف حقيقتها كما جهلت الحياة .

الفصل الثاني

من هو الرجل المغناطيسي ؟ الرجل كالرأة في المغناطيسية

- (١) تطلع لمكثرتة .
- (٢) رزين لا يتأثر بسرعة .
- (٣) الاحساس بقوة خفية فيه (لا في حديثه ولا حركاته ولا مكانه ولا معاملته) بل هي جزء منه .
- (٤) يستولى على جزء من كهر بائنتك فتذهب إليه .
- (٥) ينظر نظرات رحمة بين عينيك في أول الألف بهيمن أن تسهر بأشمتار مع اللطف عند أول كلامه معك .
- (٦) يسعى إلى حديثك دائماً .
- (٧) لا تقف أمامه عقبة ، ولا يتلف على مطالبه ، بل هو واثق بها ، لأنه مشد لا ترككاته على المعرفة ، وانه ينال مقصوده .
- (٨) لا يمدح نفسه ألبتة .
- (٩) يزداد القوي قوة في مغناطيسيته ، والضعيف يزداد ضعفاً ، هذه قاعدة .
- (١٠) لا يفرم بالظهار العلم ، بل حديثه عادي .
- (١١) لا يظهر الرغبة في الحديث وأنت تجيب به لاعتقاده أنه قادر على الاخبار بالجانب وهو لا يريد وتظن أنه لا يعتمد ذلك ، ويظهر لك كأنه فوق للمح والاطراء .
- (١٢) إذا ترقى في هذه السفة لا يسر بأشماره في أصحابه كالأول لأنه أرقى من ذلك .
- (١٣) يترقى دائماً .
- (١٤) مميزات المغناطيسية الشخصية : السطوة ، والتأثير ، والثروة ، والجاه ، والتبول عند الناس ، وهي نتائج منطقية للخدمات السابقة ، ويجب المحبة لجذب الثروة والأفراد .
- (١٥) يمز عليك مفارقتك ، تتلقى به تعلق الطفل بأمه .
- (١٦) يسلب علمك ، وهو يحفظ علمه ، ولو شاء لأسمعك فتحدثه وهو ساكت مصغ آخذ علمك

الرجل غير المغناطيسي

- (١) يخيفك وتكره مصاحبتة .
- (٢) يزيدك حزناً واقباضاً .
- (٣) يكثر المجلس .
- (٤) يشكو القدر ، والأصحاب ، والجور ، وكل شيء .
- (٥) متغير المبدأ ، سريع التقل فيه ، وفي الحديث تهيل عليك ، ولا يقنع بشيء ، عابس الوجه ، خائب ، لا يحب إلا الاطراء الكاذب ، فتخلص منه بالاطراء الكاذب .
- (٦) تفرح عند خروجه من عندك ، ولا مغناطيسية عنده ، هي سائلة ، فقد أخذ منك شيئاً وهو بعض المغناطيسية .
- (٧) سببه أنه لا يعتمد على نفسه ، لا يستقل ، والرجل المغناطيسي لا يشكو ، ولا يبكي ، هو قوة تخضع له الظروف ، ويؤثر في البيئة التي حوله .
- (٨) مسرف في أحواله .
- (٩) منهزم سريعاً .
- (١٠) النتيجة أنه لا يلاق إلا الهدم تبعاً لقوانين الطبيعة السادة .

القاعدة الذهبية

- (١) لانتك لخلاقك ملك .
 (٢) ولانسع وراء اكتساب للمدح ، ولا الشفقة من الناس .
 (٣) وفي كل رغبة قوة مغناطيسية يجب حفظها للانتفاع .

الفصل الثالث : طبيعة التيارات العقلية

- (١) كل رغبة لأي مطلب هي تيار عقلي عملي يحمل قوة مغناطيسية ، يؤثر الرجل المغناطيسي على اخوانه ، ويعمل في هذا المستوى بقانون الجذب والتنافر .
 (٢) استخراج القوة من الرغبة ، هذه الرغبات اذا عصبتها وحفظناها كانت قوة حفظها لأنفسنا وان جرينا وراءها وقلنا مبتغيا فقدناها ، فلنحرص عليها ، لأننا أخرج إليها ذخريتنا .
 (٣) فالأنانية والفخر الكاذب ، وقلة الصبر ، توجب أخلاقا تصرف بها هنا تلك القوة .
 (٤) لا بدع بحالات تيار الرغبة أن يفلت من يديك ، ولا تحقق تلك الرغبة لتكون لك قوة تنضم إلى أخوانها فتكون قوى الجذب لعيرك ، فاذا رغبت أن تدهش اخوانك بأخبار هجية ، ورأيت فيك مطمحا لتلك فاسكت وهذه قوة حفظها ، فان حققت ذلك أضفت مغناطيسيتك .
 (٥) الكتبان : اذا رأيت أن تجرب أحد أسدقائك بخبر ولو كان لا قيمة له فاكتمه ، فهذه رغبة مكتومة حفظت لك مغناطيسية ، وهذه أشبه بالجمام في البرج ، يجلب إليه أخوانه ، وكلما كثرت الأمثال تضاعفت الزيادة ، وهذه تحمك أجل خدمة .
 (٦) إياك أن تظن أن حفظ هذه القوة هو الجود والوفور . كلا . بل كلما زادت حفظا زادت قوة كاتهر كلما علا سنده زاد ضغط الماء عليه فيسهل الانتفاع بها أكثر .
 (٧) إن قوة الرغبة موجودة ، ألم تر أنك قد تحمك الرغبة على المشي وركوب العربلة لاخبار صديقك فاذا حفظت هذه القوة حفظت لك كل قوارك التي كانت ستصرفها .
 (٨) نحن لا يؤثر فينا غرابة الذكاء ، وانما يؤثر فينا نفس الذكاء ، فقابل الخبر المرص بسكون كأنك فوق ذلك ، لا انك لا تميل لساعه . كلا . وكأن نفسك عميقة ، وانما بانها بما يهيم من الأذكياء أقل من اهباننا بأنهم أعمق منا ، اجعل معارفك واخوانك في ظلام داس من جهة أفكارك ، ومتى فلت ذلك جفاة أهب بك أصحابك حالا .
 (٩) الكتبان جعل الأتباع يظنون في المتبوعين قوة فوق طاقتهم ، ولولا الكتبان ماجهلت الحقائق والجهل بها أوردت الأتباع إعظاما لمتبوعهم ، فطمعوا الرجال سادوا بالكتبان .
 (١٠) ممن اتصف بهذه الصفة تشارلس استيوارت الزعيم الأيرلندي وهو فوق نابليون ، وكان كثير من هؤلاء معضلات عند أصحابهم ، وكان استوارت بارنل قليل الكلام جدا ، ولا خشونة في صوته ، ولا يتكلم إلا باللازم ، وكان هادئا في حديثه .
 (١١) الصمت المذكور له أوقات كالأدوية المختلفة ، ومعنى هذا الصمت أن اخبارك بحفظها في نفسك وتعود التفكير فيها فتكون قوة حقة ، أما اذا تكلمت وصرحت بأفكارك فقد ذهبت مغناطيسيتك ، فاذا لم تعلمهم على سررك كنت ذا جاذبية قوية تجذبهم إليك كما يجذب المغناطيس قطع الحديد .

(١٧) لا تخبر اخوانك انك قرأت المغناطيسية فذلك يسقط قيمة عملك ، بل اكنم هذا تكون قوة عظيمة ، أما اذا علموا كانت أعمالك ضائعة ، واجتنب الاطراء ، فالذي يطرى أفعاله يزيد عليه الساكت الحافظ لرغبائه ، فالناس هم المادحون له .

الفصل الرابع

انظر في حياتك الماضية نجد أنك أنت و ٩٩ من المائتين الناس ينهزون القرص لاخبار اخوانهم بما فعلوا لتظهر نباهتهم ، هذه فطرة حب الاطراء والمدح ، وهي تيار من تيارات المغناطيسية الانسانية العقلية في المخ ينسرب من النفس كما تضع الكهربية في الجيوب بدون عمل اذا لم تحفظ ، إن هذه الفرزة فينا حتى تركت وشأنها أضعفت قوانا وأخذت منا منافع لانهاية لها ، وهي تضاد للمنافع الواجبة لنا نحن نحفظها ، فلتحذر هذا ولتجتهد أن تكون منفيها ، فلا تحقق رغبة الاطراء ولو في أبط الأشياء ، فاحفظها تكسب غيرها بلا تعب ، فسوف تشاهد النتيجة محسوسة ، في زمن قصير ترى (أمرين : الأول) أنك بعد أن تقرأ هذه الأخلاق وتعمل بها ترى تغيرا محسوسا في نفسك ، وفي حياتك اليومية ، يزيد احترامك لنفسك وقتك بها ، وتعلو هيبتك ومطرك ، وتحسن بالقوة الحقيقية تسرى في عروقك ، بعد التقلب على كل تيار تشعر به (الثاني) انك ترى اخوانك قد تغيروا تحوكون تغيرا كبيرا ، يزدادون رغبة للبحث عنك ، والمحادثة والبقاء معك ، يمكنك الزيادة في كل وقت اذا اتبعت ما يأتي : « لا تحقق رغبتهم في معرفة شؤونك ، واترك أصحابك حيارى من جهتك ، وإياك أن تظهر أنك تفعل ذلك متعمدا » انتهى الفصل الرابع .

الفصل الخامس : كيف يمكن استعمال القوى المضادة لفاثدتك الشخصية

كل رغبة تيار موجب أو سالب يريد الاتحاد مع ضده فيحدث التبادل وترجع إلى ما كنت عليه كما يجذب القطب الموجب المغناطيسى القطب السالب ، الأثرى إلى الكبير كيف يضرب بالفضائل عرض الحائط ، ويضع نفسه ، ويخالف ضميره ، تلك قوة قاهرة بالمشة ، فلانستفيد منها كما يستفيد المصارع الياباني من خصمه ، وتكون وبالا عليه .

معرفة القوة القابلة للاستعمال

قد علمت القوة المغناطيسية الكامنة في التكم ، وبند الأناية بالنكلم والفخر ، كل دافع للردية نعمة متكررة فليقابلها اللبيب بصدر رجب على أى شكل كانت ، فتزيد القوة المغناطيسية ، فيضيف جاذبية على جاذبية عنده ، فان اتبع هواه رجع كالمادة وتضعف البطارية العقلية . إن العازل الواقى لك من ضياع المغناطيسية هو العلم الذى قرؤه في مثل هذا .

تمرين هام لامتنصاص الطاقة

اذا عرض لك خاطر مزعج مما كان يؤثر فيك سابقا ، فافرح فانك أرقى منه ، وفكر في أنك ستملكه وتنتفع به ، في أثناء التفكير :

(١) خذ نفسك بيط مقدار ٨ نوان وكرر العبارة الآتية : « أسسى حالا بارادنى لامتلاك القوة الكلية طنة الرغبة » .

(٢) بعد ذلك احفظ الهواء في رقبك ٨ نوان ، وكرر الجملة الآتية في أثناء ذلك : « أسسى الآن في

امتصاص هذه القوة التي ستصبح من الآن ملكاً لي .
 (٣) أخرج الهواء من رتيك ببطء نحو ٨ ثوانٍ وردد الجلة الآتية في فمك أثناء ذلك : وأنا الآن
 في هدوء تام ، ويمكنني به أن أحكم القوة المغناطيسية التي أسررتها ، ويمكنك أن تكرر هذا
 التمرين عدة مرات إذا أردت .
 هاأنذا شرحت لك طريقة الامتلاك والامتصاص والهدوء ، وذلك ليس لحفظ القوة فقط ، بل العلماء
 يعتمدون أن هناك صلة بين الرتين ، وبين طبيعة الشعور البشرية .

يتغلب على هوى نفسه

إن هوى نفسك يفقد سلطانه عليك متى اعتقدت وعرفت أنك قادر على التغلب عليه ، وإنك قلبه
 قوته ، وتستعملها لأغراضك ، ففي خطوة واحدة صرت أرقى من الهوى النفسى ، وأعلى من العواطف ،
 والناس يسمون لهذا طول حياتهم ، وقليل منهم الواصل . مثل الرغبة والعواطف كمثل قنبلة فيها فتيلها المحترق
 الذى ينتهى بفرقتها ، فإن تركها الرجل الجاهل تفرقت وقتلته ، أو شوهت جسمه ، وإن رفع الفتيل عنها
 (ولا أخالك إلا فاعلا ذلك) صارت ملكاً حلالاً تنتفع بها في حياتك متى شئت ، فالإنسان تحت العواطف
 هالك ، والمالك لها سعيد . انتهى الفصل الخامس .

الفصل السادس: الوقت اللازم لظهور النتائج

سيقول قائل : هذه الفصول الخمسة لم يحى فيها أمور عالية هي معقدة سر ؟ فنقول : عليك باتباع هذه
 التعاليم ، والنتيجة أشبه بنبيجة الزرع ، والقوانين هنا كالشمس ، الزرع لا يورق ولا يزهر ولا يجمر إلا في زمان
 ملائم ، هكذا هنا فليست النتائج بنت يوم أو بعض يوم .

بعض النتائج في الحال نشاهد

الطالب الجديد يشاهد في ٤ أو ٥ أيام على الأكثر بعض النتائج ، وفي الحال يشعر باحترام نفسه ،
 والثقة بها ، وكلما زدت كعباً للنفس زدت قوة في أعصابك ومخك تزيد في أبحاثك وتقتك بمغناطيسيتك
 الشخصية ، وهي ليست أنانية ، بل هي طمأنينة وراحة بها يتأكد لك عظيم فؤذك وتأثيرك ، وهي لا تدعو
 للباهة ، ولا المغامرة أبداً ، وليتقن كل طالب نفسه بصراحة في كل لحظة ، فلا يقع فيها يقع فيه الناس من
 الخطأ ، فلا تظن أن فقدك الجاذبية من أنانية الأصحاب وذوقهم السقيم ، فالخطأ منك أنت لأنك فقدت الجاذبية .

ضرب مثل

إن زيدا الذى كنت تحب إعجابك بك وهو صديقك قد أقبل ، وقد كنت تستجلب مودته وهو لا يلتذ
 بمحاشرتك ، ولا تسره صحبتك ، سبب ذلك أنك كنت البطارية المرسله وهو البطارية القابلة ، فكنت فأقدا
 شرارتك الكهربية ، فأضعت قوتك وراء الفخر والمباهاة طوعاً أو كرهاً ، وهو ما زقتك واحترامك بلا تعب ،
 يمكنك أن ترجع إلى عقلك الآن ترى أن القوانين المتقدمة تدل على أنه سحب منك ولم تسحب منه .

ما يجب عليك ؟

اسكت الآن قليلاً ، اترك صاحبك ثلاثة أيام أو أربعة ، هل سرتك شئ تجرب به أبحاثك كعادتك ؟ احفظ
 البركة العادة القديمة ، تغلب على تلك الرغبة ، رغبة الاخبار والمباهاة ، هذا التغلب سهل في الأول ، صعب

بعد ذلك ، لتتمكن العادة منك ، ولكنك أنت فوق كل صعب ، لأنك قوى المزيمية ، ولست ممن تقف أمامه العقبات ، ولقد كانت تهرب منك تلك القوة ، وأسفاه : فاحفظ رغائبك المادية والمعنوية لاتفتر منك ، وليس هذا نكران الذات إنما هو القانون العلمى الذى يحكم التيارات ، فاذا عملت بهذه القوانين وطبقها بذكائك لمكتك أن تحفظ قوتك ، وتقاوم رغباتك ، وقوة ذلك تصبر ملكك . انتهى الفصل السادس :

الفصل السابع

لكم قول قبضت على قوى المادية والمعنوية بيد من حديد ، وجعلتها فى بطارىء العقالية ، فالنتيجة ؟
 ﴿ الجواب ﴾ القوة التى ملكتها وحفظتها سوف تجذب إليها ما يضافها من مغناطيسية الآخرين كالصهريج الموجهة تجذب السالبة بدون عمل منك ولا فكر . وجهك يتغير ، وأخلاقك تتغير ، وأعمالك وأنت لا تتغير ، والذى كنت تطلبه فلا تصل إليه يجرى إليك مختاراً بلاسى منك ، يأتى إليك اضطراراً بالقانون والجذب العظيم ﴿ والنصيحة ﴾ أن لا تنسى إذا لم يأت لك نفس ما طلبته بعينه الذى كنت تسمى إليه ، انه سوف يأتى لك يوماً من الأيام .

التغير الطبيعي المشاهد

متى ابتدأت فى العمل والتفكير والتقوية بهذه القوانين :

- (١) فالجسم يتغير .
- (٢) العين أكثر لمعاناً .
- (٣) البشرة تزيد بياضاً .
- (٤) القامة أكثر اعتدالاً .
- (٥) يترك الخوف ، والقلق ، والحزن ، والتأمل ، والسامة ، والتأثر .
- (٦) يكون هادئاً ساكناً .
- (٧) صار الآن ليس هو ذلك الضعيف الذى تلعب به الطبيعة البشرية ، أصبح قوة لا يستهان بها فى الوجود ، تتغير الدنيا فى عينه ، تلبس حلة جديدة ، تنقل أفكاره من جهنمها ، ويستمر فى فهم قوته المعنوية ، فيزيد إيماناً وعقيدة وطمأنينة ، نفسه أصبحت تفهم معنى الحياة ، والعلم قوة ليس بعدها قوة .

يجب الانتباه لأبسط الأشياء ، فاذا ترك فرصة واحدة أضاعت كثيراً من قوته ، هناك ظاهرة طبيعية ، لا يعتد بها صغار العقول ، وتكون سبباً من أسباب اليأس ، وداع من دواعى الخيبة ، اذا سرت فى هذه الأعمال اتقادت لك السعادة ، وأصبح ما كان صعباً عليك فى غاية السهولة ، ولكن ربما تقف عند مانته فاعلم أن القوة لا تنتهى ، فاطلب الأعلى ولا تقف عند ما وصلت إليه ، فليس للسعادة نهاية ، وللحكمة غاية .

الفصل الثامن : اقتراحات نافعة فى الامور العملية

قد عرفت هذه القوانين ، وفهمت كيف تحفظ كهر بائنتك ، وتريد أن تستعمل هذه الموهبة فى أمر ، كأن تتوجه إلى رجل فظ غليظ قاسى القلب ، وتريد أن تخلص منه وتؤثر فيه فيكون لك لاعتبك ، فهذه القوانين تساعدك :

- (١) تظاهر أمامه بمظهرك الأدبى الحقيقى مع الفتور وعدم الاهتمام ، شاعرا انك قادر أن تكون لرقفة

من ذلك والطف في حضرتك ، ولكنتك لا تزيد ذلك . وتبتدىء المحادثة وأنت مقدر لقرنك المحفوظة في بطايرتك حتى قدرها . تكلم بهدوء وطمأنينة . لا يظهر على وجهك علامة التلهف والاشفاق . لا يظهر الملل عليك ، ولا اليأس على وجهك ، اجعل السرور يملأ أسرار بطلعتك مع السكينة والهدوء والثقة بكل نجاح ، وكل حركاتك دالة على ماسبق ، وعند ابتداء الكلام انظر إلى البقعة بين عينيه في أعلى الأذن وتعتقد انها موضع ضعف الرجل ، هؤلاء الخشون ضعاف ، فتنظر عيناه يمينا وشمالا ، ولا تنظر لها بين برائة بل بهدوء وطمأنينة فتبتمد عيناه عنك بقلق زائد ، اجتهدي أن ينظر إليك وأنت تكلم ، وإذا ابتداء في الكلام فارفع عنه فطرك وانظر الى أى قطة أخرى من جسمه ، اصغ إليه باحترام ، فإذا ابتدأت الكلام انظر النقطة بغير وضوح بحيث لا يتنبه ، الهدوء والسكينة مفتاح نجاحك ، وبهدئك لا ينسأك أبدا وسوف يعرف انك أثرت فيه

كيف تحصل على الراحة والطمأنينة والثقة بالنفس ؟

تدرب على الخطابة في الأماكن الخالية ، أوفى حجرتك التي لا يجلس معك فيها أحد ، وخذ النفس بطف وأخرجه بطف هكذا . دقائق ، والادخال والاخراج بالتدرج ، وبعد ذلك قف على قدميك ذاهبا جاثيا ملقيا بكمات ذات رنات في أى موضوع على شخص ، أو أشخاص ، أو صورتك في المرآة ، وقب بصوت جهورى ، مشبرا بأصبعك ، مفكرا في كل جملة قبل النطق بها ، كامل الثقة ، واقفاقة تامة بالقول ، حاصرا فيه فكرك ، وتخرج الألفاظ كدقات الأجواس من أعماق صدرك ، والكلام في أى خاطر يطرأ عليك ، ولو كانت الكلمات غريبة ، أو الأقوال غير معقولة ، وتؤثر على السامع الخيالي وكأن المحادثة حقيقة .

التأثير « قسمان : الأول » زيادة الثقة بالنفس وله نتائج عديدة بأشكال مختلفة مباشرة وغير مباشرة وعلى كل حال سوف تعرفها بنفسك وتشعر بها في حينها : متى شعرت بجل واحتمت إلى زيادة قنك بنفسك فاقض في هذا القرن نصف ساعة من الحب الجلب . واقسم الثاني تأثير العقيدة ، فإذا كان الحديث في قضية ملوية استفاد من هذه القوة العجيبة فائدة ، وحصل على ما يريد على حسب ما طلب في حديثه ، وكان تلك الأشياء ملوية له فلا تلبث حتى تأتي له ، ووجهة تأثير العقيدة نظرية شائعة في أوروبا اليوم . وإلى هنا تم الكلام على لقطة الثانية والحمد لله رب العالمين .

هذا ما أثرت ذكره من آراء مباحث الجمعية النفسية ذكرتها لأريك أن القوم في أوروبا أخذوا يحتلون على حفظ اللسان بمنزل ذلك وإن كنت أعرض في بعض ما جاء فيه ، وأنت ترى أيها التقي أن هذه الجمعية استألت على تهذيب اللسان بالنتائج العاجلة بحسب ظنها . وهذه النتائج اللغوية وصل لها المهذبون من المسلمين سابقا بما أقصه عليك من نبأ الأخبار والآثار التي ذكرها الامام الفزالي في الاحياء . وسترى مجبا من توافق النتائج في الحالين وكيف كانت هذه الثروة المفزونة عندنا ضائعة . وظهر عند غيرنا ما وافقها في نتائجها . فالظر ما سئد ذكره فيما يلي وهو :

القسم الثاني من المقام الأول في المقالة الثانية

فذكرها ما جاء في الجزء الثالث من كتب الاحياء في صفحة ١٠٠ وما بعدها وهذا نصه :

« ونحن بتوفيق الله وحسن تديره تفصل بجماع آفات اللسان ، ونذكرها واحدة واحدة بمجرد ما وأسببها وغوائلها ، ونعرض طرق الاحتراز عنها ، ونورد ماورد من الأخبار والآثار في نتمها ، فنذكر أولا فضل الصمت ونردفه بذكر آفة الكلام فيما لا يضيء ، ثم آفة فضول الكلام ، ثم آفة الخوض في الباطل ، ثم آفة

المراء والجمال ، ثم آفة الخسومة ، ثم آفة التعر في الكلام بالشدق ، وتكاف السجع والفلسفة ، والتسنع فيه ، وغير ذلك مما سرت به عادة المتفحصين للمتبحرين للخطابة ، ثم آفة الفحش والسب وبذاءة اللسان ، ثم آفة اللعن إلهاميون أو جاد أو إنسان ، ثم آفة الفناء والشعر . وقد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الفناء وما يحل فلا نصيده ، ثم آفة المراء ، ثم آفة السخرية والاستهزاء ، ثم آفة افشاء السر ، ثم آفة الوعد والكذب ثم آفة الكذب في القول واليمين ، ثم بيان التعارض في الكذب ، ثم آفة القبية ، ثم آفة الخيعة ، ثم آفة ذم السائين الذي يتعد بين المتعديين ، فيكلم كل واحد بكلام يوافقه ، ثم آفة اللبس ، ثم آفة الغفلة عن دقائق الخطأ في غوى الكلام لاسيا فيما يتعلق بلفظه وصفاته ويرتبط بأصول الدين ، ثم آفة سؤال العلوم عن صفات الله عز وجل ، وعن كلامه وعن الحروف أمي قبيحة أو محدثة ، وهي آخر الآفات ، وما يتعلق بذلك ، وجعلتها عشرون آفة ، ونسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه :

بيان عظيم خطر اللسان وقضية الصمت

أهم أن خطر اللسان عظيم ، ولانجاة من خطره إلا بالصمت ، فلذلك منح الشرع الصمت وحث عليه فقال صلى الله عليه وسلم ^(١) « من صمت نجى » وقال عليه الصلاة والسلام ^(٢) « الصمت حكم وقليل فاعله » أي حكيم موزن ^(٣) وروى عن عبد الله بن سفيان عن أبيه قال قلت لرسول الله : أخبرني عن الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحدا بعدك قال قل أنت بالله ثم استقم قال قلت فما أنتي ؟ فأرأى يده إلى لسانه ^(٤) وقال عقبة بن عامر قلت لرسول الله ما النجاة ؟ قال أمسك عليك لسانك ، وأبصمك بينك ، وأبك على خطيئتك ^(٥) وقال سهل ابن سعد الساعدي قال رسول الله ﷺ : « من ينكفل لي بما بين لحيته ورجليه أنكفل له الجنة » وقال صلى الله عليه وسلم ^(٦) « من وفى شره فقبه وذبحه وقتله فقد وفى الشره سبه » اتفق هو البطن ، والقبض الفرج ، والتلق اللسان ، فهذه الشهوات الثلاث بها يهلك أكثر الخلق ، ولذلك استغلنا بذكر آفات اللسان لما فرغنا من ذكر آفة الشهوتين : البطن والفرج ^(٧) وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكبر ما يدخل الناس الجنة فقال قوى الله وحسن الخلق ، وسئل عن أكبر ما يدخل النار فقال الأجوفان القوم والفرج فيحتمل أن يكون المراد بالقوم آفات اللسان لأنه محله . ويحتمل أن يكون المراد به البطن لأنه منفله ، فقد

(١) حديث : من صمت نجى (ت) من حديث عبد الله بن عمرو بسند فيه ضعف وقال غريب وهو عند الطبراني بسند جيد .

(٢) حديث : الصمت حكمة وقليل فاعله : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف ، والبيهقي في الشعب من حديث أنس بلفظ حكم بدل حكمة وقال غلط فيه عثمان بن سعد والصحيح رواية ثابت ، قال : والصحيح عن أنس أن لقمان قال يورواه كذلك هو وابن حبان في كتاب « روضة العقلاء » بسند صحيح إلى أنس .

(٣) حديث سفيان الثوري : أخبرني عن الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحدا بعدك الحديث (ت) وصححه (ون ٥) وهو عند (م) دون آخر الحديث الذي فيه ذكر اللسان .

(٤) حديث عقبة بن عامر : قلت لرسول الله ما النجاة ؟ قال أمسك عليك لسانك الحديث (ت) وقال حسن

(٥) حديث سهل بن سعد : من يوفى شره فقبه وذبحه وقتله الحديث أبو منصور الديلمي من حديث أنس بسند ضعيف

(٦) حديث : من وفى شره فقبه وذبحه وقتله الحديث أبو منصور الديلمي من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ : فقد وجبت له الجنة .

(٧) حديث : سئل عن أكثر ما يدخل الجنة الحديث (ت) وصححه (وه) من حديث أبي هريرة

قال (١) معاذ بن جبل : قلت يا رسول الله أنؤاخذ بما قول ؟ فقال : شككتك أمك يا ابن جبل ، وهل يكب الناس على النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم (٢) وقال عبد الله التقي : قلت يا رسول الله حدثني بأمر أعظم بهما فقال قل ربى الله مم استقم . قلت يا رسول الله ما أخوف ما تخاف على ؟ فأخذ بلسانه وقال هذا (٣) وروى ابن معاذ قال يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ فأخرج رسول الله ﷺ لسانه ثم وضع عليه أصبعه (٤) وقال أنس بن مالك قال صلى الله عليه وسلم : « لا يستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره بوائقه » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « من سره أن يسلم فليزلم الصمت » وعن سعيد بن جبير مرفوعا إلى رسول الله ﷺ أنه قال (٦) إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكرو اللسان أى تقول : اتق الله فينا فانك ان استقمت استقمنا ، وان اعوجبتنا هوجبتنا (٧) وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى أبا بكر الصديق رضى الله عنه وهو يمد لسانه يده فقال له ما تصنع يا خليفة رسول الله ؟ قال هذا أوردنى الموارد ان رسول الله ﷺ قال : ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى الله اللسان على حده (٨) وعن ابن مسعود انه كان على الصفا يلى ويقول : « يا لسان قل خيرا نضم ، وامسك عن شر » ثم ، من قبل أن تنضم » قيل له يا أبا عبد الرحمن أهنا شيء قوله أو شيء سمعته ؟ فقال لا بلى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أكثر خطايا ابن آدم فى لسانه » (٩) وقال ابن عمر : قال رسول

- (١) حديث معاذ : قلت يا رسول الله أنؤاخذ بما قول ؟ فقال شككتك أمك ، وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم (ت) وحمصه (وهك) وقال صحيح على شرط الشيخين .
- (٢) حديث عبد الله التقي : قلت يا رسول الله حدثني بأمر أعظم به ؟ الحديث رواه (ن) قال ابن عساكر وهو خطأ ، والصاب سفيان بن عبد الله التقي كما رواه (ت) وحمصه (هـ) وقد نضم قبل هذا بخمسة أحاديث .
- (٣) حديث : ان معاذ قال يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ فأخرج لسانه ثم وضع يده عليه ، الخبران وابن أبى الدنيا فى الصمت ، وقال : أصبه مكن يده .
- (٤) حديث أنس : لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، الحديث ابن أبى الدنيا فى الصمت والحرائلى فى مكارم الأخلاق بسند فيه ضعف .
- (٥) حديث : من سره أن يسلم فليزلم الصمت ، ابن أبى الدنيا فى الصمت ، وأبو الشيخ فى فضائل الأعمال والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بسند ضعيف .
- (٦) حديث : إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكرو اللسان الحديث (ت) من حديث أبى سعيد الكوفى رفته ، ووقع فى الأحياء عن سعيد بن جبير مرفوعا وإنما هو عن سعيد بن جبير عن أبى سعيد رفته ، ورواه (ت) موقوف على عمر بن زيد وقال هذا أصح .
- (٧) حديث : ان عمر طلع على أبى بكر وهو يمد لسانه فقال ما تصنع يا خليفة رسول الله ؟ قال بن هذا أوردنى الموارد ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى الله عز وجل اللسان على حده ابن أبى الدنيا فى الصمت وأبو يعلى فى مسنده والبارقضى فى المال والبيهقى فى الشعب من رواية أسلم مولى عمر ، وقال البارقضى ان الرضوخ وهم على أن أوردنى ، قال وروى هذا الحديث عن قيس بن أبى حازم عن أبى بكر ولا حجة له .
- (٨) حديث ابن مسعود انه كان على الصفا يلى ويقول : يا لسان قل خيرا نضم ، وفيه مرفوعا : إن أكثر خطايا بني آدم فى لسانه ، الطحاوى وابن أبى الدنيا فى الصمت والبيهقى فى الشعب بسند حسن
- (٩) حديث ابن عمر : من كفى لسانه ستراقة عورته الحديث ابن أبى الدنيا فى الصمت بسند حسن

صلى الله عليه وسلم : « من كفت لسانه سترافه عورته ، ومن ملك لخصبه وقله الله عذابه ، ومن اعتقر إلى
 لقبيل الله عنده » (١) وروى أن معاذ بن جبل قال يا رسول الله أوصني : قال اعبد الله كأنك تراه ، وهد نفسك
 في الخوف ، وإن شئت أتيانك بما هو أم لك من هذا كله ، وأشار بيده إلى لسانه (٢) وعن صفوان بن سليم
 قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بأمر العباد وأهونها على البدن الصمت وحسن الخلق » (٣)
 وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » (٤)
 وقال الحسن : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « رحم الله عبدا تكلم ففهم ، أو صمت فسلم » وقيل
 ليس عليه السلام : « دلنا على عمل يدخل به الجنة ؟ قال : لا تنطقوا أبدا ، قالوا لا نستطيع ذلك . فقال :
 فلا تنطقوا إلا بخير » وقال سليمان بن داود عليه السلام : « إن كان الكلام من فضة فالصمت من ذهب » (٥)
 وعن البراء بن عازب . قال : جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال : دلتني على عمل يدخلني الجنة ؟ قال :
 أطعم الجائع ، واسق الظمآن ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، فإن لم تطق فكف - لسانك إلا من خير .
 وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « إن لسانك إلا من خير ، فإنك بذلك تطب الشيطان » . وقال صلى الله عليه
 وسلم : « إن الله عند لسان كل قائل ، فليتنق الله امرؤ على ما يقول » وقال عليه الصلاة والسلام (٧) « إذا
 رأيتم المؤمن صموتا وقورا فاذنوا منه فإنه يقين بالحكمة » (٨) وقال ابن مسعود : قال رسول الله صلى الله عليه
 وسلم : « الناس ثلاثة : غام موصوم ، وشاحب ، فالغام الذي يذكر الله تعالى ، والسلام الساكت ، والشاحب
 الذي يخوض في الباطل » وقال عليه الصلاة والسلام (٩) « إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم
 بشيء تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه وأن لسان المنافق أمام قلبه فإذا هم بشيء أمضاه بلسانه لم يتدبره بقلبه »

(١) حديث : ابن معاذ بن جبل قال يا رسول الله أوصني ، قال اعبد الله كأنك تراه الحديث ، ابن أبي الدنيا
 في الصمت وطب ، ورجاله ثقات ، وفيه انقطاع .

(٢) حديث صفوان بن سليم مرغوبا : ألا أخبركم بأمر الصلابة وأهونها على البدن الصمت وحسن
 الخلق ، ابن أبي الدنيا هكذا مرسل ورجاله ثقات ، ورواه أبو النخعي في طبقات الحديثين من حديث
 أبي ذر وأبي السرداه أيضا مرغوبا .

(٣) حديث أبي هريرة : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت ، متفق عليه

(٤) حديث الحسن : ذكر لنا رسول الله ﷺ قال : رحم الله عبدا تكلم ففهم أو صمت فسلم ، ابن
 أبي الدنيا في الصمت واليوق في الشعب من حديث أنس بسند فيه ضعف فله من رواية أساعيل
 ابن عياش عن الحجازيين .

(٥) حديث البراء : جاء أعرابي فقال : دلتني على عمل يدخلني الجنة ؟ قال أطعم الجائع الحديث ، ابن أبي
 الدنيا بسناد جيد .

(٦) حديث : اخرون لسانك إلا من خير ، الحديث (طعن) من حديث أبي سعيد وله في المهجم الكبير
 ولابن حبان في صحيحه نحوه من حديث أبي ذر .

(٧) حديث : إذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فاذنوا منه فإنه يقين بالحكمة (٥) من حديث أبي خنادة
 بلفظ : إذا رأيتم الرجل قد أصبى زهدا في الدنيا وقه منطلق فاقربوا منه فإنه يقين بالحكمة وقد تقدم

(٨) حديث ابن مسعود : الناس ثلاثة : غام موصوم ، وشاحب ، الحديث الطبراني ، وأبو يعلى من حديث
 أبي سعيد الخدري بلفظ الجالس ، وضعفه ابن هدي ، ولم أجده ثلاثة من حديث ابن مسعود .

(٩) حديث : إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ، الحديث لم أجده مرغوبا
 وإنما رواه الخزاز في مكلم الأخلاق من رواية الحسن البصري قال كانوا يقولون .

وقال عيسى عليه السلام : « العبادة عشرة أجزاء : تسعة منها في الصمت ، وجزء في التفرغ من الناس » .
وقال فيينا صلى الله عليه وسلم (١) « من كثر كلامه كثرت سقطه ، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ، ومن كثرت
ذنوبه كانت النار أولى به » .

وعما ورد في الآثار : كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يضع حصة في فيه يمنع بها نفسه عن الكلام ،
وكان يشير إلى لسانه ويقول : هذا الذى أوردنى للوارد . وقال عبد الله بن مسعود : والله الذى لا إله إلا هو
ما شئ أحوج إلى طول سجن من لسان . وقال طلوس : « لسانى سبع إن أرسلته أكنى » . وقال وهب
ابن منبه : في حكمة آل داود : حتى على العاقل أن يكون عارفا بزمانه ، حافظا لسانه ، مقبلا على شأنه .
وقال الحسن : ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه . وقال الأوزاعي : « كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رحمه الله :
أما بعد : فإن من أكثر ذكرك الموت رضى من الدنيا باليسير ، ومن حد كلامه من عمله قل كلامه إلا نيا
بنيه » . وقال بعضهم : « الصمت يجمع للرجل فضيلتين : السلامة في دينه ، والفهم عن صاحبه » . وقال
محمد بن واسع لمالك بن دينار : « يا أبا يحيى : حفظ اللسان أشد على النفس من حفظ الدينار والدرهم » .
وقال بونس بن عبيد : « ما من الناس أحد يكون منه لسانه على بل إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله » .
وقال الحسن : « تكلم قوم عند معارفة ربه الله والأحرف بن قيس ساكت ، فقال له مالك : يا أبا بحر لا تكلم
فقال له أخشى الله أن كذبت وأخشاك أن صدقت ، وقال أبو بكر بن عياش : « اجتمع أربعة ملوك : ملك
الهند ، وملك الصين ، وكسرى ، وقبصر . فقال أحدهم : أنا أنعم على ما قلت ولا أنعم على ما لم أقل . وقال
الآخر : لى إذا تكلمت بكلمة ملكتى ولم أملكها ، وإذا لم أنكم بها ملكتها ولم تملكنى . وقال الثالث :
عجبت لتكلم إن رجعت عليه كلمته ضرته وإن لم ترجع لم تنفعه . وقال الرابع : أنا على ردة ما لم أقل أقصرنى
على ردة ما قلت » . وقيل أقام للنصور بن المعتز لم يتكلم بكلمة بعد المشاء الآخرة أربعين سنة . وقيل ما تكلم
الربيع بن خيثم بكلام الدنيا عشرين سنة ، وكان إذا أصبح وضع دوائه فطرطسا وقلما فكل ما تكلم به كتبته
ثم يحاسب نفسه عند المساء ، فإن قلت فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من
الخطأ والكذب والفتنة والرياء والتفاني والتعشش والمرأه وتزكية النفس والخوض في الباطل والخسومة
والفضول والتعريف والزيادة والتقصان وإيذاء الخلق وهتك العورات ، فهذه آفات كثيرة ، وهى سبابة إلى
اللسان لا تتقل عليه ، ولها حلاوة في القلب ، وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان ، والمخاض فيها ظنا
يقدر أن يسك اللسان فيطلقه بما يجب ويمسكه ويكفه عما لا يجب ، فإن ذلك من غوامض العلم كما سيأتى
تفصيله ، ففي الخوض خطر ، وفي الصمت سلامة ، فلذلك عظمت فضيلته ، هنا مع ما فيه من جع الهم ودوام
الوقار والفراغ للفكر والذكر والعبادة والسلامة من تبعات القول في الدنيا ومن حسابه في الآخرة ، فقد قال
نعالى : « ما يلفظ من قول إلا ليهرب عبيد » . ويدل ذلك على فضل لزوم الصمت أمر وهو أن الكلام أربعة
أقسام : قسم هو ضرر محض ، وقسم هو نفع محض ، وقسم فيه ضرر ومنفعة ، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة ،
أما الذى هو ضرر محض فلا بد من السكوت عنه ، وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تنفى بالضرر ، وأما لا منفعة فيه
ولا ضرر فهو فضول والاشتغال به تضييع زمان وهو عين الخسران فلا يبقى إلا القسم الرابع فقد سقط ثلاثة أرباع
الكلام وبقى ربع وهذا الربع فيه خطر إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء والتصنع والفتنة وتزكية النفس
وفضول الكلام امتزاجا يخفى دركه فيكون الإنسان به مغاطرا ، ومن عرف دقائق آفات اللسان على ما سنذكره

(١) حديث : من كثر كلامه كثرت سقطه الحديث ، أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بسند ضعيف ،
وقد رواه أبو حاتم بن حبان في « روضة العقلاء » والبيهقي في الشعب موقوفا على عمر بن الخطاب

مخطفها أن ما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم هو فصل الخطاب حيث قال (١) : « من صمت بما » (٢) فظن أوتي وافته جواهر الحكم قطعا وجوامع الكلام ، ولا يعرف ما تحت آحاد كلماته من بحر اللسان إلا خواص العلماء ، وفيما سند كره من الآفات وعسر الاحتراز عنها ما يعرفه حقيقة ذلك إن شاء الله تعالى ، ونحن الآن نصد آفات اللسان ونبتدئ بأعضائها ، ونترقى إلى الأغلظ قليلا قليلا ، ونؤخر الكلام في الفية والقيمة والكذب فإن النظر فيها أطول ، وهي عشرون آفة ، فاعلم ذلك ترشد بعون الله تعالى .

الآفة الأولى : الكلام فيما لا يعينك

اعلم أن أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات التي ذكرناها من الفية والقيمة والكذب والراء والجندال وغيرها وتكلم فيها هو مباح لا ضرر عليك فيه ولا على مسلم أصلا لأنك تتكلم بما أنت مستغن عنه ولا حاجة بك إليه ، فانك مضيق به زمانك ، ومحاسب على عمل لسانك ، وتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ، لأنك لو صرفت زمان الكلام إلى الفكر ربما كان يفتح لك من فضائل ورحمة الله عند الفكر ما يحطم جدواه ، ولو هلت الله سبحانه وذكرته وسبحته لكان خيرا لك ، فكم من كلمة بيني بها قصر في الجنة ، ومن قدر على أن يأخذ كنزا من الكنوز فأخذ مكانه مدوة لا ينتفع بها كلن خاسرا خسرانا بينا ، وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى واشتغل بمباح لا يعنيه ، فانه وإن لم يأثم فقد خسر حيث فاته الرج العظيم بذكر الله تعالى (٣) فإن المؤمن لا يكون صمته إلا فكريا ونظيره إلا عبرة ونطقه إلا ذكر كما هكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم ، بل رأس مال العبد أوقاته ، ومهما صرفها إلى ما لا يعنيه ولم يتخير بها ثوابا في الآخرة فقد ضيع رأس ماله ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم (٤) « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » بل ورد ما هو أشد من هذا . قال أنس (٥) استشهد غلام منا يوم أحد فوجدنا على بطنه حجرا مربوطا من الجوع ، فسحت أمه عن وجهه التراب وقالت : هنيئا لك الجنة يا بني ، فقال صلى الله عليه وسلم : وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويمنع ما لا يضره ، وفي حديث آخر (٦) أن النبي صلى الله عليه وسلم فقد كعبا فسأل عنه فقالوا مريض فخرج يمضى حتى أتاه ، فلما دخل عليه قال أبشريا كعب ، فقالت أمه هنيئا لك الجنة يا كعب ، فقال صلى الله عليه وسلم من هذه المتأكية على الله ؟ قال هي أمي يا رسول الله قال وما يدريك يا أم كعب لعل كعبا قال ما لا يعنيه

(١) حديث : من صمت نجبا تقتم .

(٢) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم (م) من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

(٣) حديث : المؤمن لا يكون صمته إلا فكريا ، ونظيره إلا عبرة ونطقه إلا ذكر كما ، لم أجد له أصلا ، وروى محمد بن زكريا السلافي أحد الضعفاء عن ابن عائشة عن أبيه قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله أمرني أن يكون فطقي ذكرا ، وصمتي فكريا ، ونظري عبرة .

(٤) حديث : من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه (ت) وقال غريب (و) من حديث أبي هريرة .

(٥) حديث : استشهد منا غلام يوم أحد فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع الحديث وفيه : لعله كان يتكلم بما لا يعنيه ويمنع ما لا يضره (ت) من حديث أنس مختصرا وقال غريب ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت بلفظ المصنف بسند ضعيف .

(٦) حديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم فقد كعبا فسأل عنه فقالوا مريض الحديث ، وفيه لعل كعبا قال ما لا يعنيه أو منع ما لا يعنيه ، ابن أبي الدنيا من حديث كعب بن هجرة بسناد جيد إلا أن الظاهر انقطاعه بين الصحابي وبين الراوي عنه .

أومنع ما لا يفنيه ومعناه انه انما تنبأ الجنه لايحاسب ، ومن تكلم فيما لا يعنيه حوسب عليه وان كان كلامه في مباح فلا تنبأ الجنة مع المناقشة في الحساب فانه نوع من العذاب . وعن محمد بن كعب (١) قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة ، فدخل عبد الله بن سلام فقام إليه ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه بذلك وقالوا أخبرنا بأوتق عمل في نفسك ترجوه ؟ فقال إني لضعيف وان أوتق ما أرجوه به الله سلامة الصدر وترك ما لا يعنيني » وقال أبو ذر (٢) قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل في الميزان ، قلت بلى يا رسول الله ؟ قال هو الصمت وحسن الخلق وترك ما لا يعينك . وقال مجاهد : سمعت ابن عباس يقول : « خمس لمن أحب الي من الداهم الموقوفة : لا تتكلم فيما لا يعينك فانه فضل ، ولا آمن عليك الوزر ، ولا تتكلم فيما لا يعينك حتى تجده موضعا ، فانه رب متكلم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه فنت ، ولا تمار حليها ولا سفها ، فان الحلیم يقبلك والسفيه يؤذيك ، واذ كرأناك اذا غاب عنك بمأخبة أن يذكرك به ، واهفه بمأخبة أن يفتيك منه ، وعامل أهلك بما تحب أن يعاملك به ، واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازي بالاحسان ، مأخوذ بالاجترام » وقيل للقمان الحكيم ما حكمتك ؟ قال لا أسأل عما كفت ، ولا أنكف ما لا يعنيني . وقال موريق الجهلي : « أمر أنا في طلبه منذ عشرين سنة لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه ، قالوا وما هو ؟ قال السكوت عما لا يعنيني » . وقال عمر رضي الله عنه : « لا تعرض لما لا يعينك ، واعتزل عدوك ، واحذر صديقك من القوم إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشى الله تعالى ، ولا تصحب الفاجر فتعلم من جوره ، ولا تطلع على سررك ، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى » : وحد الكلام فيما لا يعينك . أن تتكلم بكلام لو سكت عنه لم تأثم ولم تستضر به في حال ولا مال ، مثاله : أن تجلس مع قوم فنذكر لهم أسفارك وما رأيت فيها من جبال وأنهار ، وما وقع لك من الوقائع ، وما استحضرت من الأطعمة والطيب ، وما نتجت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم ، فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم ولم تستضر ، واذا بالفت في الجهاد حتى لم يمتزج بحكمتك زيادة ولا نقصان ولا تزكية نفس من حيث التفاخر بمشاهدة الأحوال العظيمة ، ولا اغتياب لشخص ، ولا مذمة لشيء مما خلقه الله تعالى فأنت مع ذلك كله مضيع زمانك ، وأنى تسل من الآفات التي ذكرناها ، ومن جللتها أن نسأل غيرك عما لا يعينك ، فأنت بالسؤال مضيع وقتك ، وقد أبحاث صاحبك أيضا بالجواب إلى التصنيع ، هذا اذا كان الشيء مما لا يتطرق إلى السؤال عنه آفة وأكثر الأسئلة فيها آفات ، فانك تسأل غيرك عن عبادته مثلا فتقول له : هل أنت صائم ؟ فان قال نعم كان مظهر العبادته فيدخل عليه الرياء وان لم يدخل سقطت عبادته من ديوان السر ، وعبادة السر تفصل عبادة الجهر بدرجات ، وان قال لا كان كسارا ، وان سكت كان مستحقرا لك وتأذيت به ، وان احتال للدافعة الجواب افتقر إلى جهد وتعب فيه ، فقد عرضته بالسؤال إما للرياء أو للكذب أو للاستحقار أو للتعب في حيلة الدفع ، وكذلك سؤالك عن سائر عباداته ، وكذلك سؤالك عن المعاصي ، وعن كل ما يخفيه ويستحي منه ، وسؤالك عما حدث به غيرك فتقول : ماذا تقول . وفيه أنت ؟ وكذلك ترى انسانا في الطريق فتقول من أين ؟ فر بما يمنعه مانع من ذكره فان ذكره تأذى به واستحيا وان لم يصدق وقع في الكذب وكنت السبب

(١) حديث محمد بن كعب : ان أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة فدخل عبد الله بن سلام الحديث ، وفيه : ان أوتق ما أرجوه سلامة الصدر وترك ما لا يعنيني ، ابن أبي الدنيا هكذا مرسل وفيه أبو نجيح اختلف فيه .

(٢) حديث أبي ذر : ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن الحديث ، وفيه : هو الصمت وحسن الخلق وترك ما لا يعينك ، ابن أبي الدنيا بسند منقطع .

فيه وكذلك نسال عن مسألة لاجابة بك إليها والمسئول ربما لم تسمع نفسه بأن يقول لا أدري فيجيب عن غير بصيرة ، ولست أعنى بالتكلم فيما لايعنى هذه الأجناس فان هذا يتطرق إلىه إثم أو ضرر ، وانما مثل ما لايعنى : ما روى أن لقمان الحكيم دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعا ولم يكن رأها قبل ذلك اليوم جعل يتجرب مما رأى فأراد أن يسأله عن ذلك فغتمه حكمته ، فأمسك نفسه ولم يسأله ، فلما فرغ قام داود ولبسه ثم قال نعم الدرع للحرب ، فقال لقمان : « الصمت حكم وقليل فاعله » أى حصل العلم به من غير سؤال فاستغنى عن السؤال ، وقيل انه كان يتردد إليه سنة وهو يريد أن يعلم ذلك من غير سؤال ، فهذا وأمثاله من الأسئلة اذا لم يكن فيه ضرر وهتك ستر وتوريط في رياء وكذب وهو مما لايعنى وتركه من حسن الاسلام فهذا حده ، وأما سببه الباعث عليه فالحرص على معرفة ما لاجابة به إليه ، أو المباشرة بالكلام على سبيل التودد أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لافائدة فيها ، وعلاج ذلك كله أن يعلم أن الموت بين يديه وانه مسئول عن كل كلمة * وأن أنفاسه رأس ماله ، وأن لسانه شبكة يقدر على أن يقتنص بها الحور العين ، فاهماله ذلك وتضييعه خسران مبين ، هذا علاجه من حيث العلم ، وأما من حيث الفصل فالعزلة ، أو أن يضع حصاة في فيه ، وأن يلزم نفسه السكوت بها عن بعض ما يعنيه حتى يعتاد اللسان ترك ما لايعنيه ، وضبط اللسان في هذا على غير المعتاد شديد جدا . انتهى الكلام على الآفة الأولى .

الآفة الثانية : فضول الكلام

وهو أيضا مذموم وهذا يتناول الخوض فيما لايعنى والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجة فان من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ويمكنه أن يجسه ويقرره ويكرره ومهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين فثانية فضول : أى فضل عن الحاجة وهو أيضا مذموم لما سبق وان لم يكن فيه إثم ولا ضرر . قال عطية ابن أبي رباح : « إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام ، وكانوا يعدون فضول الكلام ماعدا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ أو أمرا بمعروف ، أو نهيا عن منكر ، أو أن تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها ، أتسكرون : إن عليكم حافظين كراما كاتبين . عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، أما يستحي أحدكم اذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولادنياه » . وعن بعض الصحابة . قال : « إن الرجل ليكلمني بالكلام لجوابه أشهى إلى من الماء البارد إلى الظمان فأترك جوابه خيفة أن يكون فضولا » . وقال مطرف : ليعظم جلال الله في قلوبكم فلانذ كروه عند مثل قول أحدكم للكذب والحمار : اللهم أخزه ، وما أشبه ذلك ، واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر ، بل المهم محصور في كتاب الله تعالى . قال الله عز وجل : « لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس » وقال صلى الله عليه وسلم (١) : « طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه ، وأفق الفضل من ماله » فانظر كيف قلب الناس الأمر في ذلك فأمسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان . وعن مطرف بن عبد الله عن أبيه . قال (٢) : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط

(١) حديث : طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه ، وأفق الفضل من ماله ، البغوي وابن قانع في مجمعي الصحابة والبيهقي من حديث ركب المصري ، وقال ابن عبد البر انه حديث حسن ، وقال البغوي لا أدري سمع من النبي صلى الله عليه وسلم أم لا ، وقال ابن منده : مجهول لا يعرف له صحبة ورواه البزار من حديث أنس بسند ضعيف .

(٢) حديث مطرف بن عبد الله عن أبيه قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط من بني عامر فقالوا أنت والدينا وأنت سيدنا الحديث (دن) في اليوم واليلة بلفظ آخر ، ورواه ابن أبي الدنيا بلفظ المصنف

من نبي عامر فقالوا : أنت والدنا ، وأنت سيدنا ، وأنت أفضلنا علينا فضلا ، وأنت أطولنا علينا طولاً ، وأنت
الجنة القراء ، وأنت وأنت . فقال : قولوا قولكم ولا يستهوينكم الشيطان إشارة إلى أن اللسان إذا أطلق
بالتناء ولو بالصدق فيخشى أن يستهويه الشيطان إلى الزيادة المستغنى عنها ، وقال ابن مسعود : أنذركم فضول
كلامكم ، حسب امرئ من الكلام ما يبلغ به حاجته . وقال مجاهد : إن الكلام ليكتب حتى إن الرجل ليكتب
إبنة فيقول : أتباع لك كذا وكذا فيكتب كذا . وقال الحسن : « يا ابن آدم بسط لك صحيفة ووكّل بها
ملكاً كريماً يكتبان أعمالك فاعمل ما شئت وأكثراً وأقل » . وروى أن سليمان عليه السلام بعث بعض
عقاريته وبعث نضرا ينظرون ما يقول ويخبرونه فأخبروه بأنه مرّ في السوق فرفع رأسه إلى السماء ثم نظر إلى
الناس وهزّ رأسه فسأله سليمان عن ذلك فقال : بحيث من الملائكة على رهوس الناس ما أسرع ما يكتبون
ومن الذين أسفل منهم ما أسرع ما يملون . وقال إبراهيم التيمي : إذا أراد المؤمن أن يتكلم فليقل ما يكتسب
نكماً ولا أمساً ، والقابجر إنما لسانه رسلاً رسلاً . وقال الحسن : من كثّر كلامه كثّر كذبه ، ومن كثّر ماله
كثرت ذنوبه ، ومن ساء خلقه عذب نفسه . وقال عمرو بن دينار (١) : تكلم رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم
فأكثر فقال له صلى الله عليه وسلم « كم دون لسانك من حجاب ؟ فقال شفتاي وأسنانتي ، قال : ألما كان لك
في ذلك ما يردّ كلامك ؟ وفي رواية أنه قال ذلك في رجل أتى عليه فاستهتر في الكلام ، ثم قال « ما أتى رجل
شراً من فضل في لسانه » وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه : إنه ليجني من كثير من الكلام خوف
البهاة . وقال بعض الحكماء : إذا كان الرجل في مجلس فأعجب الحديث فليكت ، وإن كان ساكناً فأعجب
السكوت فليتكلم . وقال يزيد بن أبي حبيب من فتنه العالم أن يكون الكلام أحبّ إليه من الاستماع ، فإن
وجد من يكفيه فإن في الاستماع سلامة ، وفي الكلام تزوين وزيادة وقصان . وقال ابن عمر : إن أحق ما طهر
الرجل لسانه ، ورأى أبو البرداء امرأة سليطة ، فقال : لو كانت هذه خرساً كان خيراً لها ، وقال إبراهيم :
« بهلك الناس خلتان : فضول المال ، وفضول الكلام » فهذه مذمة فضول الكلام وكثرته وسببه الباطل
عليه ، وعلاجه ما سبق في الكلام فيما لا يعني . انتهى الكلام على الآفة الثانية .

الآفة الثالثة : الخوض في الباطل

وهو الكلام في المعاصي ، كحكاية أحوال النساء ، ومجالس الخمر ، ومقامات القساق ، وتتم الأغنياء ،
وتجبر الملوك ، ومراسمهم المذمومة ، وأحوالهم المكروهة ، فإن كل ذلك مما لا يحل الخوض فيه وهو حرام ،
وأما الكلام فيما لا يعني أو أكثر مما يعني فهو ترك الأولى ولا تحريم فيه ، نعم من يكثر الكلام فيما لا يعني لا يؤمن
عليه الخوض في الباطل ، وأكثر الناس يتجالسون للتفريج بالحديث ، ولا يعدو كلامهم التفكك بأعراض
الناس ، أو الخوض في الباطل ، وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وفنتها ، فلذلك لا يخلص منها إلا
بالاقتصار على ما يعني من مهمات الدين والدنيا ، وفي هذا الجنس تقع كلمات بهلك بها صاحبها وهو يستعقرها ،
فقد قال بلال بن الحرث (٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل ليترك بالكلمة من رضوان
الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله به رضوانه إلى يوم القيامة ، وإن الرجل ليترك بالكلمة من سخط
الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة » ، وكان علقمة يقول : كم من كلام

(١) حديث عمرو بن دينار : تكلم رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فأكثر ، فقال : كم دون لسانك

من باب ، الحديث ابن أبي الدنيا هكذا مرسلًا ورجاله ثقات .

(٢) حديث بلال بن الحرث : إن الرجل ليترك بالكلمة من رضوان الله الحديث . وقال حسن صحيح

منه حديث بلال بن الحرث ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم (١) : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعاد من التريا » وقال أبو هريرة : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقي لها بالا يهوى بها في جهنم ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقي لها بالا يرفعه الله بها في أعلى الجنة » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) : « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضا في الباطل » ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : « وكنا نخوض مع الخافضين » وقوله تعالى : « فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إن كنتم مثلهم » ، وقال سلمان : أكثر الناس ذنوبا يوم القيامة أكثرهم كلاما في معصية الله ، وقال ابن سيرين : كان رجل من الأنصار يمر بمجلس لم يسم فيقول لهم نوضوا فإن بعض ما تقولون شر من الحديث ، فهذا هو الخوض في الباطل ، وهو وراء ماسياتي من القبية والغيبة والفحش وغيرها بل هو الخوض في ذكر محظورات سبق وجودها أو تدبر للتوصل إليها من غير حاجة دينية إلى ذكرها ، ويدخل فيه أيضا الخوض في حكاية البدع والمذاهب الفاسدة ، وحكاية ماجرى من قتال الصحابة على وجه يومهم الطعن في بعضهم ، وكل ذلك باطل ، والخوض فيه خوض في الباطل ، نسأل الله حسن العون بلفظه وكرمه . انتهى الكلام على الآفة الثالثة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة الرابعة : المراء والجدال

وذلك منهي عنه ، قال صلى الله عليه وسلم (٣) : « لا تمارأناك ولا تمازحه ، ولا تعده موعدا فتخلفه » وقال عليه السلام (٤) : « ذروا المراء فإنه لا تفهم حكمته ، ولا تؤمن فتنته » ، وقال صلى الله عليه وسلم (٥) : « من ترك المراء وهو محق بنى له بيت في أعلى الجنة ، ومن ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت في روض الجنة » وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت (٦) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أول ما عهد إلى ربي ونهاني عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال » ، وقال أيضا (٧) : « ماضل قوم بعد أن هداهم الله

- (١) حديث : إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعاد من التريا بن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة بسند حسن ، والشيخين (وت) : إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوى بها سبعين خريفا في النار ، لفظ (ت) وقال حسن غريب .
- (٢) حديث : أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضا في الباطل ابن أبي الدنيا من حديث قتادة مرسل ورجاله ثقات ، ورواه هو والطبراني موقوفا على ابن مسعود بسند صحيح .
- (٣) حديث : لا تمارأناك ولا تمازحه ولا تعده موعدا فتخلفه (ت) من حديث ابن عباس وقد تقدم .
- (٤) حديث : ذروا المراء فإنه لا تفهم حكمته ولا تؤمن فتنته (طب) من حديث أبي الدرداء وأبي أمامة وأنس بن مالك ورواه ابن الأسيق بأسناد ضعيف دون قوله لا تفهم حكمته ، ورواه بهذه الزيادة ابن أبي الدنيا موقوفا على ابن مسعود .
- (٥) حديث : من ترك المراء وهو محق بنى له بيت في أعلى الجنة ، الحديث تقدم في العلم .
- (٦) حديث أم سلمة : أن أول ما عهد إلى ربي ونهاني عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال ابن أبي الدنيا في السمات والطبراني والبيهقي بسند ضعيف ، وقد رواه ابن أبي الدنيا في المراسيل من حديث عروة بن رويم .
- (٧) حديث : ماضل قوم إلا أوتوا الجدل ت من حديث أبي أمامة ومحمه وزاد : بعد هدى كانوا عليه ، وتقدم في العلم ، وهو عند ابن أبي الدنيا دون هذه الزيادة كما ذكره المصنف .

إلا أوتوا الجدل » ، وقال أيضا (١) : « لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يندع المرء وإن كان محقا »
 وقال أيضا (٢) : « ست من كثر فيه بلغ حقيقة الإيمان : الصيام في الصيف ، وضرب أعداء الله بالسيف ،
 وتجهيل الصلاة في اليوم اللجن ، والصبر على المصيبات ، واسباغ الوضوء على المسكاره ، وترك المرء وهو
 صادق » . وقال للزبير لابنه : لا تجادل الناس بالقرآن فانك لا تستطيعهم ولكن عليك بالسنة . وقال عمر بن
 عبد العزيز رجة الله عليه : من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل ، وقال مسلم بن يسار : إياكم
 والمرء فانه ساعة جهل العالم وعندها ينتهي الشيطان زلته . وقيل : ما ضل قوم بعد إذ هداهم الله إلا بالجدال .
 وقال مالك بن أنس رجة الله عليه : ليس هذا الجدال من الدين في شيء . وقال أيضا : المرء يقضى القلوب
 وبورث الضمائم . وقال لقمان لابنه : يا بني لا تجادل العلماء فيمقتوك . وقال بلال بن سعد : إذا رأيت الرجل
 لجوجا بماريا مجبا برأيه فقد تمت خسارته . وقال سفيان : لو خالفت أختي في رمانة فقال حلوة وقلت حامضة
 لسي بي إلى السلطان . وقال أيضا : صاف من شئت ثم أغضبه بالمرء فليبرينك بداهية تمنحك العيش .
 وقال ابن أبي ليلى : لا أملرى صاحبي فلما أن أكذبه / واما أن أغضبه ، وقال أبو الررداء : كني بك إنما أن
 لاتزال بماريا ، وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « تكفير كل لحاء ركنان » وقال عمر رضى الله عنه : لاتعلم
 العلم ثلاث ولا تتركه ثلاث : لاتعلمه لغماري به ، ولاتباهي به ، ولاترتأي به ، ولاتتركه حياء من طلبه ،
 ولازهادة فيه ولارضا بالجهل منه ، وقال عيسى عليه السلام : « من كثر كذبه ذهب جلاله ، ومن لاسى
 الرجال سقطت مروءته ، ومن كثر همه سقم جسمه ، ومن ساء خلقه عذب نفسه » ، وقيل ليعمر بن
 مهران : « مالك لا تترك أمناك عن قتي ؟ قال لأنى لأشار به ولأمار به » وماورد في ذم المرء والجدال أكثر
 من أن يحصى : وحد المرء هو كل اعتراض على كلام الغير باظهارخلل فيه إما في اللفظ واما في المعنى واما في
 قصد المتكلم ، وترك المرء بترك الانكار والاعتراض ، فكل كلام سمعته فان كان حقا فصدق به وإن كان
 باطلا أو كذبا ولم يكن متعلقا بأمور الدين فاسكت عنه ، والطمع في كلام الغير تارة يكون في لفظه باظهار خالي
 فيه من جهة النحو ، أو من جهة اللغة ، أو من جهة العربية ، أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم وتأخير
 وذلك يكون تارة من قصور المعرفة ، وتارة يكون بطغيان اللسان ، وكيفما كان فلاوجه لأظهارخلل ، وأما في
 المعنى فبان يقول : ليس كما تقول وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا ، وأما في قصده فمثل أن يقول : هذا
 الكلام حق ولكن ليس قصدك منه الحق وإنما أنت فيه صاحب غرض ومايجرى مجراه ، وهذا الجنس ان
 جرى في مسألة علمية ربماخص باسم الجدل ، وهو أيضا مذموم بل الواجب السكوت أوالسؤال في معرض
 الاستفادة لاعلى وجه العناد والنكارة ، أوالتلطف في التعريف لافى معرض الطعن ، وأما المجادلة فعبارة
 عن قصد اغنام الغير وتجييزه وتنقيصه بالقدح في كلامه ، ونسبته إلى القصور والجهل فيه ، وآية ذلك أن يكون
 تنبيهه لمحق من جهة أخرى مكروها عندالمجادل يجب أن يكون هوالمظهر له خطأه ليبين به فضل نفسه وقص
 صاحبه ، ولانجاة من هذا إلا بالسكوت عن كل ما لا يأنم به لو سكت عنه ، وأما الباعث على هذا فهو الترفع
 باظهار العلم والفضل ، والتهاجم على الغير باظهار قصه ، وهما شهوتان باطنتان للنفس قويتان لها ، أما اظهار

(١) حديث : لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يندع المرء وإن كان محقا ، ابن أبي الدنيا من حديث
 أنى هريرة بسند ضعيف ، وهو عند أحمد بلفظ : لا يؤمن العبد حتى يترك الكذب في المزاحة والمرء
 وإن كان صادقا .

(٢) حديث : ست من كثر فيه بلغ حقيقة الإيمان الحديث وفيه ترك المرء وهو صادق أبو منصور الديلمي
 من حديث أبي مالك الأشعري بسند ضعيف بلفظ : ست خصال من التحير الحديث .

(٣) حديث : تكفير كل لحاء ركنان ، الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف .

الفضل فهو من قبيل تزكية النفس : وهي من مقتضى مافي العبد من طغيان دعوى العاق والسكران ، وهي من صفات الربوبية ، وأما تنقيص الآخر فهو من مقتضى طبع السبعية فإنه يقتضى أن يترقى غيره ويقصمه وبسدمه ويؤذيه ، وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان وإنما قوتهما المراء والجدال ، فالواجب على المراء والجدال مقوطة الصفات المهلكة ، وهذا مجاوز حد الكراهة ، بل هو معصية مهما حصل فيه إيذاء الشبر ، ولاتفك المارة عن الإيذاء وتهيب الغضب وحل المعترض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل ، ويقدم في قائله بكل ما يتصور له ، فيثور الشجار بين المتحاربين كما يثور المراتش بين السككين ، يقصد كل واحد منهما أن يعض صاحبه بما هو أعظم نكابة ، وأقوى في إغنامه وإلجامة ، وأما علاجه فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على اظهار فنه ، والسبعية الباعثة له على تنقيص غيره كما سيأتي ذلك في كتاب ضم الكبر والنهب وكتاب ذم الغضب فإن علاج كل علة بالماطة سببها ، وسبب المراء والجدال ما ذكرناه ثم المواظبة عليه تجعله عادة وطبعاً حتى يتمكن من النفس ويعسر الصبر عنه ، روى أن أبا حنيفة رجة الله عليه قال لداود الطائي : لم آتت الا نزواء ؟ قال لأباعد نفسي بترك الجدال ، فقال احضر المجالس واستمع ما يقال ولا تسكلم ، قال فعلت ذلك فما رأيت مجاهدة أشد علي منها وهو كما قال لأن من سمع الخطأ من غيره وهو قادر على كشفه فعسر عليه الصبر عند ذلك جدا ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « من ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتا في أعلى الجنة » لشدة ذلك على النفس ، وأكثر ما يغلّب ذلك في المذاهب والعقائد فإن المراء طبع ، فاذا نطق أن له عليه ثوابا اشتد عليه حرمة ، وتعاون الطبع والشرع عليه ، وذلك خطأ محض ، بل ينبغي للإنسان أن يكف لسانه عن أهل القبلة ، وإذا رأى مبتدعا تعلق في نصحه في خلوة ، لا يطرأ على الجدال فإن الجدال يخيل إليه أنها حيلة منه في التلبس ، وأن ذلك صنعة يقدر المجادلون من أهل مذهبه على أمثاله لو أرادوا ، فاستمر البسدة في قلبه بالجدل وتناكد ، فاذا عرف أن النصح لا ينفذ اشتغل بنفسه وتركه ، وقال عليه السلام (١) « رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن ما يقدر عليه » ، وقال هشام ابن عروة : كان عليه السلام يردّ قوله هذا سبع مرات ، وكل من اعتاد المجادلة مدة وأثنى الناس عليه ، ووجد لنفسه بسبه عزاً وقبولاً قويت فيه هذه المهلكات ولا يستطيع عنها نزوعاً إذا اجتمع عليه سلطان الغضب والكبر والرياء ، وحب الجاه ، والتعزز بالفضل ، وآحاد هذه الصفات يشق مجاهدتها فكيف بمجموعها . وبهذا تم الكلام على الآفة الرابعة .

الآفة الخامسة : الخسومة

وهي أيضا مذمومة ، وهي زراء الجدال والمراء : فالمرء طعن في كلام الغير باظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير واظهار مزية الكياسة ، والجدال عبارة عن أمر يتعلق باظهار المذاهب وتقريرها والخسومة طجاج في الكلام ليستوفي به مال أو حق مقصود ، وذلك نارة تكون ابتداء ونارة يكون اعتراضا والمراء لا يكون إلا باعتراف على كلام سبق ، فقد عالت عائشة رضي الله عنها (٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن

(١) حديث : رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن ما يقدر عليه ، ابن أبي الدنيا باسناد ضعيف من حديث هشام بن عروة عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية هشام عن عائشة بلفظ : رحم الله امرأ كف لسانه عن أعراض المسلمين وهو منقطع وضعيف جدا .

(٢) حديث عائشة : إن أبيض الرجال إلى الله الأمل الخضم خ وقد تقدم .

أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» وقال أبو هريرة (١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع». وقال بعضهم: «إياك والخصومة فإنها تمحق الدين» ويقال: «ماناصم وريح قط في الدين»، وقال ابن قتيبة: مرّ بي بشر بن عبد الله بن أبي بكر، فقال: ما يجلسك هنا؟ قلت خصومة بيني وبين ابن عمّ لي، فقال: ان لأبيك عندي بدا، وإنّي أريد أن أبزيك بها، وإنّي والله ما رأيت شيئا أذهب للدين، ولا أقص للرومة، ولا أضيع للذة، ولا أشغل للقلب من الخصومة قال فقلت لأنصرف فقال لي خصمي مالك؟ قلت لأناصمك، قال انك عرفت أن الحق لي، قلت لا ولكن أكرم نفسي عن هذا، قال فإني لا أطلب منك شيئا هو لك، فإن قلت فإذا كان للانسان حق فلا بد له من الخصومة في طلبه أوفى حفظه مهما ظلمه ظالم فكيف يكون حكمه، وكيف تدم خصومته؟ فاعلم أن هذا التمس يتناول الذي يخاصم بالباطل والذي يخاصم بغير علم مثل وكيل القاضى فإنه قبل أن يتعرف أن الحق في أى جانب هو يتوكل في الخصومة من أى جانب كان فيخاصم بغير علم ويتناول الذي يطلب حقه ولكنه لا يقتصر على قدر الحاجة بل يظهر اللدد في الخصومة على قصد القسطل، أو على قصد الإبداء، ويتناول الذي يمزج بالخصومة كلمات مؤذية ليس يحتاج إليها في نصرة الحق وإظهار الحق، ويتناول الذي يعمل على الخصومة محض العناد لتفهم الخصم وكسره مع أنه قد يستحق ذلك القدر من المال، وفي الناس من يصرح به ويقول إنما قسدي عناده وكسر عرضه وإنّي ان أخذت منه هذا المال ربما رميت به في بئر ولا أبالي وهذا مقصوده اللدد والخصومة والمهجاج وهو مذموم جدا، فأما الظالم الذي ينصر حجه بطريق الشرع من غير لدد وإسراف وزيادة لجأج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وإبداء فعليه ليس بحرام، ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلا، فإن ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متمسك، والخصومة توغر الصبر وتمسح الغضب، وإذا هاج الغضب نسى المتنازع فيه وبقى الحقد بين المتخاصمين حتى يفرح كل واحد بمساة صاحبه ويحزن بمسرة ويطلق اللسان في عرضه، فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات، وأقل ما فيه تشويش خاطره، حتى أنه في صلاته يشتغل بمحاجة خصمه فلا يبقى الأمر على حد الواجب، فالخصومة مبدأ كل شر، وكذا المراء والجدل، فينبغي أن لا يفتح بابه إلا للضرورة، وعند الضرورة ينبغي أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة وذلك متعزجا، فمن اقتصر على الواجب في خصومته سلم من الإثم ولا تدم خصومته إلا أنه ان كان مستغنيا عن الخصومة فيما خاصم فيه لأن عنده ما يكفيه فيكون تلمكا للأولى ولا يكون آتما نم أقل ما يفوته في الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام وما ورد فيه من الثواب، إذ أقل درجات طيب الكلام اظهار الموافقة، ولا خشونة في الكلام أعظم من الطعن والاعتراض الذي حاسبه إما تجهيل وأما تكذيب، فإن من جادل غيره أوماراه أو خاصمه، فقد جهله أو كذبه فيفوت به طيب الكلام، وقد قال صلى الله عليه وسلم (٢) «يكنسكم من الجنة طيب الكلام والطعام الطعام» وقد قال الله تعالى: «وقولوا للناس حسنا»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه السلام وإن كان مجوسيا إن الله تعالى يقول: وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها»، وقال ابن عباس أيضا: «لو قال لي فرعون خيرا لرددت عليه»، وقال أنس (٣) قال رسول الله ﷺ «إن في الجنة لفرقا يرى

(١) حديث أبي هريرة: من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع، ابن أبي الدنيا والأصفهاني في الترغيب والترهيب، وفيه رجا أبو يحيى ضعفه الجمهور.

(٢) حديث: يكنسكم من الجنة طيب الكلام والطعام الطعام، الطبراني من حديث جابر وفيه من لا أعرفه، ولهم حديث هاتين أبي شرح باسناد جيد: يوجب الجنة إطعام الطعام وحسن الكلام.

(٣) حديث أنس: إن في الجنة لفرقا يرى ظاهرها من باطنها، الحديث (ت) وقد تقدم.

ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أهدتها الله تعالى لمن أطمع الطعام وألان الكلام ، وروى أن عيسى عليه السلام مرّ به فغزير فقال مرّ بسلام ، فقيل : ياروح الله أقول هذا لغزير ؟ فقال : أكره أن أعود لساقى النثر ، وقال نبينا عليه الصلاة والسلام (١) : « الكلمة الطيبة صدقة » . وقال (٢) : « اتقوا النار ولو بشرق تمره فإن لم تجدوا فكلمة طيبة » ، وقال عمر رضى الله عنه : « البرّ شيء هين ، وجه طلق وكلام لين » . وقال بعض الحكماء : « الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة في الجوارح » . وقال بعض الحكماء أيضا : « كل كلام لا يسخط ربك إلا انك ترضى به جليتك فلانك تنكح به عليه بخيلا فانه لعله يعوضك منه ثواب الحسنين » . هنا كلامه في فضل الكلام الطيب وتضاده الخسومة والراء والجدال والمجاج فانه الكلام المستكره الموحش ، المؤذى للقلب ، النقص للعيش ، المهيج للغضب ، الموفّر للصدر ، نسال الله حسن التوفيق بمنه وكرمه . تمّ الكلام على الآفة الخامسة والحمد لله رب العالمين .

الآفة السادسة : التعمر في الكلام والتشدد

التعمر في الكلام بالتشدد ونكف السجع والنصاحة والتصنع فيه بالتشبيبات والمقدمات وما جرت به عادة المتفاهمين المدّعين للخطابة ، وكل ذلك من التصنع المنسوم ، ومن التكلف الممقوت ، الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا وأتقياء أمتي برآء من التكلف » . وقال صلى الله عليه وسلم (٣) : « إن أفضلكم إلى رأبكم منى مجلسا الثرثارون المتفهبون المنتشدقون في الكلام » وقالت فاطمة رضى الله عنها (٤) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شرار أمتي الذين غنوا بالنعيم ، يأكلون ألوان الطعام ، ويلبسون ألوان الثياب ، وينشدقون في الكلام » . وقال صلى الله عليه وسلم (٥) : « ألهلك المنتعنون ثلاث مرات ، والتنفع هو التعمق والاستقصاء . وقال عمر رضى الله عنه : إن شقاشق الكلام من شقاشق الشيطان » ، وجاء عمرو ابن سعد بن أبى وقاص إلى أبيه سعد يسأله حاجة فتكلم بين يديه حاجته بكلام ، فقال له سعد : ما كنت من حاجتك بأبعد منك اليوم ، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (٦) : « يأتي على الناس زمان يتخللون الكلام بالسجعة كما تتخلل البقرة الكلاب بلسانها » وكأنه أنكر عليه ما قدمه على الكلام من التشبيبات والمقدمات المصنوعة المتكلفة ، وهذا أيضا من آفات اللسان ، ويدخل فيه كل سجع متكلف ، وكذلك التفاسيح الخارج عن حدّ العادة ، وكذلك التكلف بالسجع في المحاورات إذ قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقرّة في الجنين فقال بعض قوم الجاني (٧) كيف ندى من لا شرب ولا أكل ولا صاح ولا استهال

(١) حديث : الكلمة الطيبة صدقة (م) من حديث أبى هريرة .

(٢) حديث : اتقوا النار ولو بشرق تمره ، الحديث متفق عليه من حديث عدى بن حاتم وقد تقدم .

(٣) حديث : إن أفضلكم إلى الله وأبعدكم منى مجلسا الثرثارون المتفهبون المنتشدقون ، أحمد من حديث

أبى ثعلبة وهو عند (ت) من حديث جابر وحسنه بلفظ : إن أفضلكم إلى .

(٤) حديث فاطمة : شرار أمتي الذين غنوا بالنعيم ، الحديث ، وفيه وينشدقون ابن أبى الدنيا والبيهقي في الشعب .

(٥) حديث : ألهلك المنتعنون (م) من حديث ابن مسعود .

(٦) حديث سعد : يأتي على الناس زمان يتخللون الكلام بالسجعة كما تتخلل البقرة الكلاب بلسانها ، رواه أحمد .

(٧) حديث : كيف ندى من لا شرب ولا أكل الحديث (م) من حديث المغيرة بن شعبه وأبى هريرة وأصلهما عند (خ) أيضا .

ومثل ذلك بطل ؟ فقال أسجعا كسجع الأعراب ، وأنكر ذلك لأن أثر التكلف والتضع بين عليه ، بل ينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده ومقصود الكلام التفهيم للغرض ولموارء ذلك تصنع مذموم ، ولا يدخل في هذه تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير إفراط وإغراب فإن المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها ، فإرشاق اللفظ تأثير فيه فهو لا يثق به ، فأما المحاورات التي تجرى لقضاء الحاجات فلا يلقى بها السجع والتشدق والاشتغال به من التكلف المذموم ، ولا باعث عليه إلا الرياء ، وإظهار الفصاحة والتعجب بالبراعة وكل ذلك مذموم يكرهه الشرع ويذجر عنه . انتهى الكلام على الآفة السادسة والحمد لله رب العالمين .

الآفة السابعة : الفحش والسب وبذاءة اللسان

يهو مذموم ومنهى عنه ومصدره الخبث واللؤم قال صلى الله عليه وسلم (١) : « إياكم والفحش فإن الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش » (٢) ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن نسب قتلى بدر من المشركين ، فقال : لا نسبوا هؤلاء فإنه لا يخلص إليهم شيء مما تقولون وتؤذون الأحياء إلا أن البذاء لؤم وقال صلى الله عليه وسلم (٣) : « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي » ، وقال صلى الله عليه وسلم (٤) : « الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها » ، وقال صلى الله عليه وسلم (٥) : « أربعة يؤذون أهل النار في النار على ما بهم من الأذى ، يسعون بين الجيم والجيم ، يدعون بالويل والثبور : رجل يسيل فوه قيحا ودما فيقال له : ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى ؟ فيقول : إن الأبعد كان ينظر إلى كل كلمة قد نعت خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرث . وقال صلى الله عليه وسلم (٦) لعائشة « يا عائشة لو كان الفحش رجلا لكان رجل سوء » وقال صلى الله عليه وسلم (٧) « البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق » فيحتمل أن يراد بالبيان كشف ما لا يجوز كشفه ، ويحتمل أيضا المبالغة في الإيضاح حتى ينتهي إلى حد التكلف ،

- (١) حديث : إياكم والفحش : الحديث (ن) في الكبرى في التفسير والحاكم ومصححه من حديث عبد الله بن عمرو ، ورواه ابن حبان من حديث أبي هريرة .
- (٢) حديث : النهي عن سب قتلى بدر من المشركين : الحديث ابن أبي الدنيا من حديث محمد بن علي الباقر مرسلًا ورجالته ثقات والنسائي من حديث ابن عباس بإسناد صحيح أن رجلا وقع في آب للعباس كان في الجاهلية فلطمه الحديث ، وفيه : لا نسبوا أمواتنا فتؤذوا أحياءنا .
- (٣) حديث : ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي (ت) بإسناد صحيح من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب والحاكم ومصححه دروي موقوفا ، قال الدارقطني في العلل والموقوف أصح
- (٤) حديث : الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها : ابن أبي الدنيا وأبو نعيم في الخلية من حديث عبد الله بن عمرو .
- (٥) حديث : أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى : الحديث ، وفيه : إن الأبعد كان ينظر إلى كل كلمة خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرث : ابن أبي الدنيا من حديث شفي بن مأمع ، واختلف في صحبته ، فذكره أبو نعيم في الصحابة ، وذكره (خ حب) في التابعين .
- (٦) حديث : يا عائشة لو كان الفحش رجلا لكان رجل سوء : ابن أبي الدنيا من رواية ابن هبة عن أبي النضر عن أبي سلمة عنها .
- (٧) حديث : البذاء والبيان شعبتان من النفاق (ت) وحسنه (وك) ومصححه على شرطهما من حديث أبي أمية وقد تقدم .

ويحتمل أيضا البيان في أمور الدين وفي صفات الله تعالى فان إلقاء ذلك مجلا إلى أسماع العوام أولى من المبالغة في بيانه إذ قد يشور من غاية البيان فيه شكوك ووساوس فإذا أجملت بادرت القلوب إلى القبول ولم تضطرب ولكن ذكره مقرونا بالبذاء يشبه أن يكون المراد به المجاهرة بما يستحي الانسان من بيانه فان الأولى في مثله الاغماض والتعافل دون الكشف والبيان ، وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) : « إن الله لا يحب الفاحش المتفحش الصباح في الأسواق » ، وقال جابر بن سمرة ^(٢) : كنت جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم وأبي أمامي ، فقال صلى الله عليه وسلم « إن الفحش والتفاحش ليسا من الاسلام في شيء وان أحسن الناس إسلاما أحاسنهم أخلاقا » وقال ابراهيم بن ميسرة : يقال يؤتى بالفاحش المتفحش يوم القيامة في صورة كلب أوفى جوف كلب ، وقال الأحنف بن قيس : ألا أخبركم بأدود الداء ؟ اللسان البذي ، والخلق الذني ، فهذه مذمة الفحش ، فأما حدته وحقيقته فهو التعبير عن الامور المستقبحة بالعبارات الصريحة ، وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الواقع وما يتعلق به ، فان لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه وأهل الصلاح يتحاشون عنها بل يكونون عنها وبدلون عليها بالرموز فيذكرون ما يقاربهما ويتعلق بها . وقال ابن عباس : إن الله حي كريم يعفو ويكنو ، كنى باللس عن الجماع ، فلم يسب واللس والدخول والصعبة كنيات عن الواقع وليست بفاحشة ، وهناك عبارات فاحشة يستحج ذكرها ويستعمل أكثرها في الشتم والتعير ، وهذه العبارات متفاوتة في الفحش وبعضها أخش من بعض ، وربما اختلف ذلك بعادة البلاد وأوائها مكروهة وأواخرها محظورة وبينهما درجات يتردد فيها ، وليس يختص هذا بالوقوع بل بالكناية بقضاء الحاجة عن البول والفاظ أولى من لفظ التفوط والخراء وغيرها ، فان هذا أيضا مما يخفى وكل ما يخفى يستحيا منه فلا ينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة فانه خش ، وكذلك يستحسن في العادة الكناية عن النساء فلا يقال قلت زوجتك كذا ، بل يقال : قيل في الحجرة ، أو من وراء الستر ، أو قالت أم الأولاد ، فالتلطف في هذه الألفاظ محمود والتصريح فيها يفضى إلى الفحش ، وكذلك من به عيوب يستحيا منها فلا ينبغي أن يعبر عنها بصريح لفظها كالبرص والقرع والبواسير ، بل يقال العارض الذي يشكوه وما يجري مجراه ، فالتصريح بذلك داخل في الفحش ، وجميع ذلك من آفات اللسان . قال العلاء بن هرون : كان عمر بن عبد العزيز يتحفظ في منطقه ، فخرج تحت إبطه خراج ، فأثبناه نسأله لئري ما يقول ، فقلنا من أين خرج ؟ فقال من باطن اليد ، والباعث على الفحش إما قصد الابداء واما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث واللؤم ومن عاداتهم السب . وقال اعرابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) « أوصني فقال عليك بتقوى الله ، وان امرؤ عبرك بشيء يعلمه فيك فلا تعيره بشيء تعلمه فيه يكن وباله عليه وأجره لك ولا تسب شيئا » قال فأسببت شيئا بعده . وقال عياض بن حمار ^(٤) قلت يا رسول الله إن الرجل من قومي يسبني وهو دوني هل علي من بأس أن أتصمر منه ؟ فقال للتسابق

(١) حديث : إن الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش الصباح في الأسواق : ابن أبي الدنيا من حديث جابر

بسند ضعيف ، وله للطبراني من حديث أسامة بن زيد : إن الله لا يحب الفاحش المتفحش ،
واسناده جيد .

(٢) حديث جابر بن سمرة : إن الفحش والتفحش ليسا من الاسلام في شيء : الحديث أحمد وابن أبي الدنيا باسناد صحيح .

(٣) حديث : قال اعرابي أوصني فقال عليك بتقوى الله وان امرؤ عبرك بشيء يعلمه فيك فلا تعيره بشيء تعلمه فيه : الحديث أحمد والطبراني باسناد جيد من حديث أبي جزي الهجيمي ، قيل اسمه جابر بن سليم ، وقيل سليم بن جابر .

(٤) حديث عياض بن حمار : قلت يا رسول الله إن الرجل من قومي يسبني وهو دوني هل علي من

شيطانان يتعاونان وينهارجان وقال عليه السلام (١) «سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر» وقال عليه السلام (٢) «المستبان ماقالا فعلى البادى منهما حتى يعتدى المظلوم» وقال عليه السلام (٣) «ملعون من سب والديه» وفي رواية «من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه قالوا يا رسول الله كيف يسب الرجل والديه قال يسب أبا الرجل فيسب الآخر أباه»

الآفة الثامنة : اللعن

إما لحیوان أوجاد أو انسان وكل ذلك مذموم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) «المؤمن ليس بلعان» وقال عليه السلام (٥) «لاتلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بجهمهم» وقال حذيفة ماتلاعن قوم قط الاحق عليهم القول ، وقال عمران بن حصين (٦) «بيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره إذ امرأة من الأنصار على ناقه لها فضجرت منها فلعتها فقال صلى الله عليه وسلم خذوا ما عليها وأعروها فانها ملعونة قال فكأنى أنظر إلى تلك الناقة تمنى بين الناس لا يتعرض لها أحد» وقال أبو برداء مالعن أحد الأرض الاقات لعن الله أعصانا لله : وقالت عائشة رضی الله عنها سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) أبا بكر وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت اليه ، وقال يا أبا بكر أصدقين ولعائنين كلا ورب الكعبة مرتين أولنا فاعتق أبو بكر يومئذ رقيقه وأتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال لأعود ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٨) ان اللعائنين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة ، وقال أنس (٩) كان رجل يسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير فلعن بعيره فقال صلى الله عليه وسلم يا عبد الله لاتسر معنا على بعير ملعون ، وقال ذلك انكارا عليه واللعن عبارة عن الطرد والابعاد من الله تعالى وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من الله عز وجل وهو الكفر والظلم بأن يقول لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين ، وينبغي أن يتبع فيه لفظ الشرع فان في اللعنة حظرا لأنه حكم على الله عز وجل بأنه قد أبعده الملعون وذلك غيب لا يطلع عليه غير الله تعالى و يطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أطلعه الله عليه : والصفات المتقتضية للعن ، ثلاثة الكفر ، والبدعة

بأس أن أتصر منه فقال المستبان شيطانان يتكاذبان وينهاران (د) الطيالسي وأصله عند أحد

- (١) حديث سباب المسلم فسوق وقتاله كفر متفق عليه من حديث ابن مسعود
- (٢) حديث المستبان ماقالا فعلى البادى حتى يعتدى المظلوم (م) من حديث أبي هريرة وقال مالك يعتد
- (٣) حديث ملعون من سب والديه ، وفي رواية من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه : الحديث أحمد وأبو يعلى والطبراني من حديث ابن عباس باللفظ الأول باسناد جيد واتفق الشيخان على اللفظ الثاني من حديث عبد الله بن عمرو
- (٤) حديث المؤمن ليس بلعان تقدم حديث ابن مسعود ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان : الحديث قبل هذا بأحد عشر حديثا وللترمذي وحسنه من حديث ابن عمر لا يكون المؤمن لعانا
- (٥) حديث لاتلاعنوا بلعنة الله : الحديث (ت د) من حديث سمرة بن جندب قال (ت) حسن صحيح
- (٦) حديث عمران بن حصين بيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره إذ امرأة من الأنصار على ناقه لها فضجرت منها فلعتها الحديث رواه (م)
- (٧) حديث عائشة سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضی الله عنه وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت اليه فقال يا أبا بكر لعائنين وصديقين : الحديث ابن أبي الدنيا في الصمت وشيخه بشار بن موسى الخفاف وضعفه الجمهور وكان أحمد حسن الرأي فيه
- (٨) حديث ان اللعائنين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة (م) من حديث أبي برداء
- (٩) حديث أنس كان رجل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير فلعن بعيره فقال يا عبد الله لاتسر معنا على بعير ملعون ، ابن أبي الدنيا باسناد جيد

والفسق، وللعن في كل واحدة ثلاث مراتب: الأولى اللعن بالوصف الأعم كقولك لعنة الله على الكافرين المبتدعين والفسقة: الثانية اللعن بأوصاف أخص منه كقولك لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس وعلى التقديرية والخوارج والروافض أو على الزناة والظلمة وأكلى الربا وكل ذلك جائز ولكن في لعن أوصاف المبتدعة خطر لأن معرفة البدعة غامضة ولم يرد فيه لفظ مأثور، فينبغي أن يمنع منه العوام لأن ذلك يستدعي المعارضة بمثله ويشير زاعا بين الناس وفسادا: الثالثة اللعن للشخص المعين وهذا فيه خطر كقولك زيد لعنة الله وهو كافر أو فاسق أو مبتدع والتفصيل فيه أن كل شخص ثبتت لعنته شرعا فتجوز لعنته كقولك فرعون لعنة الله وأبو جهل لعنة الله لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعا أما شخص بعينه في زماننا كقولك زيد لعنة الله وهو يهودي مثلا فهذا فيه خطر فإنه ربما يسلم فيموت مقربا عند الله فكيف يحكم بكونه ملعونا؟ فإن قلت يلعب لكونه كافرا في الحال كما يقال للسلم رجه الله لكونه مسلما في الحال وإن كان يتصور أن يرتد، فأعلم أن معنى قولنا رجه الله أي ثبته الله على الإسلام الذي هو سبب الرحمة وعلى الطاعة ولا يمكن أن يقال ثبت الله الكافر على ما هو سبب المعنة فإن هذا سؤال للكفر وهو في نفسه كفر بل الجائز أن يقال لعنة الله إن مات على الكفر وللعنة الله إن مات على الإسلام وذلك غيب لا يدري والمطلق متردد بين الجهتين ففيه خطر وليس في ترك اللعن خطر وإذا عرفت هذا في الكافر فهو في زيد الفاسق أو زيد المبتدع أولى ذلعن الاعيان فيه خطر لأن الاعيان تنقلب في الاحوال إلا من أعلم به رسول الله ﷺ فإنه يجوز أن يعلم من يموت على الكفر وتلك عين قوما باللعن فكان يقول في دعائه على قريش (١) اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وذكر جماعة قتلوا على الكفر بيد حتى أن من لم يعلم عاقبته كان يلعبه فنهى عنه (٢) إذ روى أنه كان يلعبن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة في قنوته شهرا فقل قوله تعالى ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون يعني أنهم ربما يسلطون فمن أين تعلم أنهم ملعونون وكذلك من بلن لنا موته على الكفر جاز لعنة وجاز ذمه إن لم يكن فيه أذى على مسلم ذن كان لم يجوز كما روى (٣) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أبا بكر رضي الله عنه عن قبر مرتبه وهو يريد الطائف فقال هذا قبر رجل كان غائبا على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص فغضب ابنه عمرو بن سعيد، وقال يا رسول الله

(١) حديث اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وذكر جماعة متفق عليه من حديث ابن مسعود

(٢) حديث انه كان انه يلعبن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة في قنوته شهرا فقل قوله تعالى ليس لك من الأمر شيء: الشيخان من حديث أنس دعا رسول الله ﷺ على الذين قتلوا أصحاب بئر معونة ثلاثين صباحا: الحديث، وفي رواية لهما قنت شهرا بدعو على رجل وذكوان الحديث ولهما من حديث أبي هريرة وكان يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة ويكبر ويرفع رأسه للحديث وفيه اللهم العن لحيان ورجلا: الحديث، وفيه ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل الله ليس لك من الأمر شيء لفظ (م)

(٣) حديث أن رسول الله ﷺ سأل أبا بكر عن قبر مرتبه وهو يريد الطائف فقال هذا قبر رجل كان غائبا على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص فغضب ابنه الحديث (د) في المراسيل من رواية علي بن ربيعة قال لما افتتح رسول الله ﷺ مكة توجه من فوره ذلك إلى الطائف ومعه أبو بكر ومعه ابنا سعيد بن العاص فقال أبو بكر لمن هذا القبر قتلوا قبر سعيد بن العاص فقال أبو بكر لعن الله صاحب هذا القبر فإنه كان يجاهد الله ورسوله الحديث، وفيه فإذا سبتم المشركين فسوهم جيما

هذا قبر رجل كان أطمع للطعام وأضرب للهام من أبي خافة فقال أبو بكر يكلمني هذا يرسل الله بمثل هذا الكلام فقال صلى الله عليه وسلم اكنف من أبي بكر فانصرف ثم أقبل على أبي بكر فقال يا أبا بكر إذا ذكرت الكفار فعضوا فانكم إذا خصصتم غضب الأبناء والآباء ، فكيف الناس عن ذلك . (١) وشرب نعيان الخمر فذمت في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال بعض الصحابة لعنه الله ما أكثر ما يؤذي به ، قال ﷺ لا تكن عونا للشيطان على أخيك ، وفي رواية : لا تقل هذا فإنه يحب الله ورسوله ، فهله من ذلك ، وهذا يدل على أن لمن فسق بعينه غير جائز ، وعلى الجلبة في لعن الأشخاص خطر فليستفب ولاخطو في السكوت عن لعن إبليس مثلا فضلا عن غيره ، فان قيل هل يجوز لعن يزيد لأنه قاتل الحسين أو آسر به ؟ قلنا هذا لم يثبت أصلا فلا يجوز أن يقال انه قتله أو آسر به ما لم يثبت فضلا عن العنة ، لأنه لا يجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق ، نعم يجوز أن يقال قتل ابن ملجم عليا ، وقتل أبولؤلؤة عمر رضي الله عنهم فان ذلك ثبت متواترا ، فلا يجوز أن يرمى مسلم بفسق أو كفر من غير تحقيق . قال صلى الله عليه وسلم (٢) « لا يرمى رجل رجلا بالكفر ، ولا يرميه بالفسق إلا ارتقت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك » . وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « ما شهد رجل على رجل بالكفر إلا باه به أحدهما ، ان كان كفرا فهو كاذب ، وان لم يكن كفرا فقد كفر بتكفيره إياه » وهذا معناه أن يكفروه وهو يعلم انه مسلم ، فان ظن انه كافر بيده أو غيرها كان عظما لا كفرا ، وقال معاذ (٤) قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنهلك أن تشتم مسلما أو تعصى إماما عادلا ، والتعرض للأموات أشد . قال مسروق : دخلت على عائشة رضي الله عنها فقالت : ما فعل فلان لعنه الله ؟ قلت توفي ، قالت رحه الله ، قلت وكيف هذا ؟ قالت قال رسول الله ﷺ (٥) : « لا تسبوا

(١) حديث : شرب نعيان الخمر فذمت في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض الصحابة لعنه الله ما أكثر ما يؤذي به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تكن عونا للشيطان على أخيك ، وفي رواية : لا تقل هذا فإنه يحب الله ورسوله ، ابن عبد البر في الاستيعاب من طريق الزبير بن بكار من رواية محمد بن عمرو بن حزم مرسل ، ومحمد هذا ولد في حياته صلى الله عليه وسلم وسماه محمدا وكناه عبد الملك ، والبخاري من حديث عمر أن رجلا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبد الله وكان يلقب حمارا وكان يضحك رسول الله ﷺ وكان قد جلده في الشراب فأثى به يوما فأمر به فجلد فقال رجل من القوم اللهم الضمه ما أكثر ما يؤذي به فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تلعنوه فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله من حديث أبي هريرة في رجل شرب ولم يسم ، وفيه : لا تعينوا عليه الشيطان ، وفي رواية : لا تكونوا عون الشيطان على أخيك .

(٢) حديث : لا يرمى رجل رجلا بالكفر ولا يرميه بالفسق إلا ارتقت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك متفق عليه والسياق للبخاري من حديث أبي ذر مع تقديم ذكر الفسق .

(٣) حديث : ما شهد رجل على رجل بالكفر إلا باه أحدهما ان كان كفرا فهو كاذب وان لم يكن كفرا فقد كفر بتكفيره إياه ، أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف .

(٤) حديث معاذ : أنهلك أن تشتم مسلما ، أو تعصى إماما عادلا ، أبو نعيم في الحلية في أثناء حديث له طويل .

(٥) حديث عائشة : لا تسبوا الأموات فانهم قد أفضوا إلى ما قدموا (خ) وذكر المصنف في أوله قصة لعائشة وهو عند ابن المبارك في الزهد والرقائق مع القصة .

الأموات فانهم قد أفضوا إلى ماقتلوا . وقال عليه الصلاة والسلام (١) : « لا تسبوا الأموات فتؤذوا به الأحياء » . وقال عليه السلام (٢) : « أيها الناس : استظفوني في أصحابي وأخواني وأمهاري ولا تسبوهم . أيها الناس : إذا مات الميت فاذكروا منه خيرا ، فإن قيل : فهل يجوز أن يقال قاتل الحسين لعنه الله ، أو الأصر بقتله لعنه الله ؟ قلنا الصواب أن يقال : قاتل الحسين أن مات قبيل التوبة لعنه الله ، لأنه يحتمل أن يموت بعد التوبة ، فإن وحشيا قاتل حزة عم رسول الله ﷺ قتله وهو كافر ثم تاب عن الكفر واقتل جميعا ، ولا يجوز أن يلعن ، واقتل حكيمة ولا تنتهي إلى ربة الكفر . فإذا لم يقيد بالتوبة وأطلق كان فيه خطر ، وليس في السكوت خطر فهو أولى ، وإنما أوردنا هذا لتهادون الناس باللعنة وإطلاق اللسان بها ، والمؤمن ليس بلعان فلا ينبغي أن يطلق اللسان باللعنة إلا على من مات على الكفر ، أو على الأجناس المعروفين بأوصافهم دون الأشخاص المعينين ، فلاشتغال بذكر الله أولى ، فإن لم يكن في السكوت سلامة . قال مكى بن إبراهيم : كنا عند ابن عون فذكر بلال بن أبي بردة جعلوا يلعنونه ويقعون فيه وابن عون ساكت فقالوا يا ابن عون إنما نذكره لما ارتكب منك فقال إنما هما كلمتان تخرجان من مهيئتي يوم القيامة لا إله إلا الله ولعن الله فلانا فلأن يخرج من مهيئتي لا إله إلا الله أحب إلي من أن يخرج منها لعن الله فلانا . وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) أوصني فقال أوصيك أن لا تكون لعانا . وقال ابن عمر : إن أبغض الناس إلى الله كل طعان لعان . وقال بعضهم : « لعن المؤمن يعدل قتله » . وقال جاد بن زيد بعد أن روى هذا : نوقلت أنه صرغ لم أبال ، ومن أبي قتادة قال (٤) كان يقال : من لعن مؤمنا فهو مثل أن يقتله ، وقد نقل ذلك حديثا صرغوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقرب من اللعن الدعاء على الإنسان بالشر حتى الدعاء على الظالم كقول الإنسان مثلا : لا تصحح الله جسمه ، ولا سلمه الله ، وما يجري مجراه فان ذلك مذموم ، وفي الخبر (٥) « إن المظالم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة » . ثم الكلام على الآفة الثامنة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة التاسعة : الفناء والشعر

وقد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الفناء وما يحل فلا نعيد ، وأما الشعر فكلام حسنه حسن وقبيحه

- (١) حديث : لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء ، الترمذي من حديث المفيرة بن شعبة ورجاله ثقات ، إلا أن بعضهم أدخل بين المفيرة وبين زياد بن علاقة رجلا لم يسم .
- (٢) حديث : أيها الناس : استظفوني في أصحابي وأخواني وأمهاري ولا تسبوهم . أيها الناس : إذا مات الميت فاذكروا منه خيرا . أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث عياض الأنصاري : استظفوني في أصحابي وأمهاري وأسداده ضيف ، ولشيوخين من حديث أبي سعيد وأبي هريرة : لا تسبوا أصحابي ، ولأبي داود والترمذي وقال غريب من حديث ابن عمر : اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساوئهم ، وللنسائي من حديث عائشة : لا تذكروا موتاكم إلا بخير ، وأسناده جيد .
- (٣) حديث : قال رجل أوصني قال أوصيك أن لا تكون لعانا ، أحمد والطبراني وابن أبي عاصم في الأحاد والثاني من حديث جرهموز الهجيمي وفيه رجل لم يسم أسقط ذكره ابن أبي عاصم .
- (٤) حديث : لعن المؤمن كقتله ، متفق عليه من حديث ثابت بن الضحاك .
- (٥) حديث : إن المظالم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة ، لم أقبله على أصل ، وللترمذي من حديث عائشة بسند ضعيف : من دعا على من ظلمه فقد انتصر .

قيح إلا أن التجرد له مذموم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « لأن يمتلي جوف أحدكم قيحا حتى يراه خير له من أن يمتلي شعرا » ، وعن مسروق أنه سئل عن بيت من الشعر فكرهه فقيل له في ذلك فقال أنا أكره أن يوجد في صيفي شعر ، وسئل بعضهم عن شيء من الشعر فقال اجعل مكان هذا ذكرًا فإن ذكر الله خير من الشعر ، وعلى الجملة فانشاد الشعر وظلمه ليس بحرام إذا لم يكن فيه كلام مستكره . قال صلى الله عليه وسلم (٢) « إن من الشعر لحكمة » ، نعم مقصود الشعر المسح والشم والتشبيب وقد يدخله الكذب ، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) حسان بن ثابت الأنصاري بهجاء الكفار والتوسع في المسح ، فإنه وإن كان كذبا فإنه لا يلتحق في التحريم بالكذب كقول الشاعر :

ولو لم يكن في كفه غير روجه * لجاد بها فليتنى الله سائله

فإن هذا عبارة عن الوصف بنهاية السخاء ، فإن لم يكن صاحبه سخيا كان كاذبا ، وإن كان سخيا ظالمًا لفة من صنعة الشعر فلا يقصد منه أن يعتقد صورته ، وقد أنشدت أبيات بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم لوتبعت لوجد فيها مثل ذلك فلم يمنع منه . قالت عائشة رضي الله عنها (٤) : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمتلي شعرا وكنت جالسة أغزل فنظرت إليه فجعل جبينه يهرق وجعل عرقه يتولد نورا قالت فهبت فنظرت إلى فقال مالك بهت فقلت يا رسول الله نظرت إليك فجعل جبينك يهرق وجعل عرقك يتولد نورا ، ولورأك أبو كبير الهدلى لعلم أنك أحق بشعره ، قال وما يقول يا عائشة أبو كبير الهدلى ؟ قلت يقول هذين البيتين :

ومبرأ من كل غير حيضة * وفساد مرضعة وداء مغيل

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه * برقت كبرق العارض المتهلل

قال فوضع صلى الله عليه وسلم ما كان بيده وقام إلى وقبيل مابين عيني وقال جزاك الله خيرا يا عائشة ما سررت مني كسروري منك . (٥) ولما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم يوم حنين أمر العباس بن مرداس بأربع قلائص فاندفع يشكو في شعره وفي آخوه :

وما كان بدر ولا حابس * يسودان مرداس في مجمع

وما كنت دون امرئ منهما * ومن نضع اليوم لا يرفع

(١) حديث : لأن يمتلي جوف أحدكم قيحا حتى يراه خير من أن يمتلي شعرا (مسلم) من حديث سعد بن أبي وقاص واتفق عليه الشيخان من حديث أبي هريرة نحوه والبخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي سعيد .

(٢) حديث : إن من الشعر لحكمة ، تقدم في العلم وفي آداب السماع .

(٣) حديث : أمره حسانا أن يهجو المشركين متفق عليه من حديث البراء أنه صلى الله عليه وسلم قال لحسان اهجمهم وجبريل معك .

(٤) حديث عائشة : كان رسول الله ﷺ يمتلي شعرا وكنت جالسة أغزل فنظرت إليه فجعل جبينه يهرق وجعل عرقه يتولد نورا الحديث ، وفيه انشاد عائشة لشعر أبي كبير الهدلى :

ومبرأ من كل غير حيضة * وفساد مرضعة وداء مغيل

فإذا نظرت إلى أسرة وجهه * برقت كبرق العارض المتهلل

إلى آخر الحديث ، رواه البيهقي في دلائل النبوة .

(٥) حديث : لما قسم الغنائم أمر العباس بن مرداس بأربع قلائص وفي آخوه شعره :

وما كان بدر ولا حابس * يسودان مرداس في مجمع

وما كنت دون امرئ منهما * ومن نضع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم اقطعوا عنى لسانه ، فذهب به أبو بكر الصديق رضى الله عنه حتى اختار مائة من الابل ، ثم رجع وهو من أرضي الناس ، فقال له صلى الله عليه وسلم : أهول في الشعر جعل يستتر إليه ويقول بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، إني لأجد للشعر ديبا على لساني كديب النمل ، ثم قرصنى كما يقرص النمل ، فلاجد بدا من قول الشعر ، فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال : لا تلع العرب الشعر حتى تنزع الابل الحنين .
وإلى هنا تم الكلام على الآفة التاسعة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة العاشرة : المزاح

وأصله مضموم منهى عنه إلا قدرا يسيرا يستغنى منه . قال صلى الله عليه وسلم (١) : « لا تمارأناك ولا تمازحه » . فإن قلت الممازاة فيها إيذاء لأن فيها تكديبا للأخ والصديق ، أو تمجيلا له ، وأما المزاح فخطابة وفيه انبساط وطيب قلب فلم ينه عنه ، فاعلم أن المنهى عنه الإفراط فيه أو اللدائمة عليه ، أما اللدائمة فلائنه اشتغال باللعب ، والهزل فيه واللعب مباح ، ولكن المواظبة عليه مذمومة ، وأما الإفراط فيه فإنه يورث كثرة الضحك ، وكثرة الضحك تيمت القلب ، وتورث الضغينة في بعض الأحوال ، وتسقط المهابة والوقار ، فابخلوا عن هذه الأمور فلا ينم كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (٢) : « إني لأمزح ولا أقول إلا حقا » إلا أن مثله يقدر على أن يمزح ولا يقول إلا حقا ، وأما غيره إذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يضحك الناس كيفما كان ، وقد قال رسول الله ﷺ (٣) : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها في النار أبعد من التريا » . وقال عمرو بن لادن رضى الله عنه : « من كثر ضحكك قلت هيئته ، ومن مزح استخف به ، ومن أكثر من شيء عرف به ، ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه » . ولأن الضحك يدل على الغفلة عن الآخرة . قال رسول الله ﷺ (٤) : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » ، وقال رجل لأخيه : يا أخي هل أتاك أنك وارد النار ؟ قال نعم قال فهل أتاك أنك خارج منها ؟ قال لا ، قال فقيم الضحك ، قيل فإرني ضاحكا حتى مات . وقال يوسف ابن أسباط : أقام الحسن ثلاثين سنة لم يضحك . وقيل أقام عطاء السلمي أربعين سنة لم يضحك ، ونظروهيب ابن الوردي إلى قوم يضحكون في عيد فطر ، فقال : إن كان هؤلاء قد غفر لهم فاهذا فعل الشاكرين ، وإن كان لم يغفر لهم فما هذا فعل الخائفين ، وكان عبد الله بن أبي يعلى يقول : أضحك ولعل أكفانك قد خرجت

فقال صلى الله عليه وسلم اقطعوا عنى لسانه الحديث (مسلم) من حديث رافع بن خديج : أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب ، وصفوان بن أمية ، وعيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس كل إنسان منهم مائة من الابل ، وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك ، فقال عباس بن مرداس :

أجعل نهي ونهب العبيد بين عيينة والأقرع

وما كان بدر ولا حابس * يوقان مرداس في جمع

وما كنت دون امرئ منهما * ومن تضع اليوم لا يرفع

قال فأتم له رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة ، وزاد في رواية : وأعطى علقمة بن علاثة مائة ، وأما زيادة : اقطعوا عنى لسانه فليست في شيء من الكتب المشهورة .

(١) حديث : لا تمارأناك ولا تمازحه ، الترمذي وقد تقدم .

(٢) حديث : إني لأمزح ولا أقول إلا حقا ، تقدم .

(٣) حديث : إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من التريا ، تقدم .

(٤) حديث : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، متفق عليه من حديث أنس وعائشة .

من عند القصار ، وقال ابن عباس : من أذنب ذنبا بهو يضحك دخل النار وهو يبكي ، وقال محمد بن واسع :
 إذا رأيت في الجنة رجلا يبكي ألت تهب من بكائه أقبل بلى ، قال فلهذا يضحك في الدنيا ولا يدري إلى
 ماذا يصير هو أعجب منه ، فهذه آفة الضحك ، والمدموم منه أن يستغرق فحسكا ، والمحمود منه التبسم الذي
 ينكشف فيه السن ولا يسمع له صوت ، وكذلك كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) . قال القاسم
 مولى معاوية (٢) : أقبل أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم على قلوب له صعب فلم يجعل كفا دنا من
 النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله يفتر به فجعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون منه ففعل ذلك
 مرارا ، ثم وقصه فقتله ، فقيل يا رسول الله ان الاعرابي قد صرعه قلوبه وقد هلك فقال نعم وأفواهم ملائ
 من دمه . وأما أداء المزاح إلى سقوط الوتر فقد قال عمر رضى الله عنه : من مزح استخف به . وقال محمد
 ابن المنكدر : قالت لى أمى يابن لا تمازح الصبيان فهون عندهم . وقال سعيد بن العاص لابنه : يابن
 لا تمازح الشريف فيحقد عليك ، ولا اللئيم فيجترى عليك . وقال عمر بن عبد العزيز رجه الله تعالى :
 « اتوا الله واياكم والمزاح فانه يورث الضغينة ، ويجري إلى القبيح ، تحدثوا بالقرآن وتجالسوا به ، فان نقل
 عليكم حديث حسن من حديث الرجال » . وقال عمر رضى الله عنه : « أتدرون لم سمي المزاح مزاحا ؟
 قالوا لا ، قال لأنه أزاح صاحبه عن الحق » ، وقيل : لكل شيء بذور وبذور العمدارة المزاح ، ويقال :
 المزاح مسلبة للنهي ، مقطعة للأصدقاء . فان قلت قد نقل المزاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه
 فكيف ينهى عنه ؟ فأقول ان قدرت على ما قدر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو أن تمزح
 ولا تقول إلا حقا ، ولا تؤذي قلبا ولا تفرط فيه ، وتقتصر عليه أحيانا على الدور فلا تجرح عليك فيه ، ولكن
 من الغلط العظيم أن يتخذ الانسان المزاح حرفة يواظب عليه ويفرط فيه ثم يتمسك بفعل الرسول صلى الله
 عليه وسلم ، وهو يمكن بدورنهاره مع الزوج ينظر إليهم وإلى رقصهم ويتمسك بأن رسول الله صلى الله عليه
 وسلم أذن (٣) لعائشة في النظر إلى رقص الزوج في يوم عيد وهو خطأ إذ من الصفات ما يصير كبيرة بالاصرار ،
 ومن المباحات ما يصير صغيرة بالاصرار فلا ينبغي أن يغفل عن هذا ، ثم روى أبو هريرة (٤) أنهم قالوا يا رسول الله
 انك تداعبنا ، فقال اني وان داعبتكم لا أقول إلا حقا . وقال عطاء (٥) ان رجلا سأل ابن عباس : أكان
 رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ؟ فقال نعم ، قال فما كان مزاحه ؟ قال كان مزاحه انه صلى الله عليه
 وسلم كسا ذات يوم امرأة من نساته ثوبا واسعا فقال لها البسيه واحدى وجرتى منه ذبلا كذبل العروس .
 وقال أنس : ان النبي صلى الله عليه وسلم (٦) كان من أفكك الناس مع نساته . وروى (٧) انه كان كثير التبسم

(١) حديث : كان ضحكه التبسم ، تقدم .

(٢) حديث القاسم مولى معاوية : أقبل أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم على قلوب له صعب فلم

يجعل كفا دنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله يفتر به وجعل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم
 يضحكون منه ففعل ذلك ثلاث مرات ثم وقصه فقتله فقيل يا رسول الله ان الاعرابي قد صرعه
 قلوبه فهلك قال نعم وأفواهم ملائ من دمه ، ابن المبارك في الزهد والرفاق وهو مرسل .

(٣) حديث اذنه لعائشة في النظر إلى رقص الزوج في يوم عيد تقدم .

(٤) حديث أبي هريرة : قالوا انك تداعبنا ، قال اني وان داعبتكم فلا أقول إلا حقا ، الترمذي وحسنه

(٥) حديث عطاء ان رجلا سأل ابن عباس : أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ؟ فقال ابن عباس

نعم ، الحديث فذكر منه قوله لامرأة من نساته : البسيه واحدى وجرتى منه ذبلا كذبل العروس
 لم أفك عليه .

(٦) حديث أنس : كان من أفكك الناس ، تقدم . (٧) حديث انه كان كثير التبسم ، تقدم .

وعن الحسن (١) قال : أنت عجوز إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة عجوز
فبكت ، فقال انك لست بعجوز يومئذ ، قال الله تعالى : إنا أنشأناهن إنشاءً فجعلناهن أبكاراً . وقال زيد بن
أسلم (٢) ان امرأة يقال لها أم أيمن جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت ان زوجي يدعوك ، قال ومن
هو ؟ أهو الذي بعينه بياض ؟ قالت والله ما بعينه بياض ، فقال بلى إن بعينه بياضاً ، فقالت لا والله ، فقال صلى
الله عليه وسلم : مامن أحد إلا بعينه بياض ، وأراد به البياض المحيط بالحدقة ، وجاءت امرأة أخرى فقالت (٣)
يا رسول الله اجلسني على بعير ، فقال بل نحمالك على ابن البعير ، فقالت ما أصعب به ؟ انه لا يحملني ، فقال صلى الله
عليه وسلم : مامن بعير إلا وهو ابن بعير فكان يمزح به . وقال أنس : كان لأبي طلحة ابن يقال له أبو عمير (٤)
وكان رسول الله ﷺ يأتيهم ويقول : يا أبا عمير ما فعل النغير ، لتغير كان يلعب به وهو فرخ الصغور . وقالت
عائشة رضي الله عنها (٥) خرجت مع رسول الله ﷺ في غزوة بدر فقال تعالى حتى أسألك فشددت درمي
على بطني ثم خططنا خطا فقمنا عليه واستبقنا فسبقني وقال هذه مكان ذي المجاز ، وذلك أنه جاء يوماً ونحن
بذي المجاز وأنا جارية قد بعثتني أي بشيء . فقال أعطينيه فأبيت وسعيت وسعي في أثرى فلم يدركني ، وقالت
أيضا (٦) ساقني رسول الله ﷺ فسبقته فلما جلت اللحم ساقني فسبقني وقال هذه بتلك ، وقالت أيضا
رضي الله عنها (٧) كان عندي رسول الله ﷺ وسودة بنت زمعة فصنعت حريرة وجئت به فقلت لسودة
كلى فقالت لأحبه فقلت والله لتأكلن أولاً لطنحن به وجهك فقالت ما أنا بذائقة فأخذت بيدي من الصحيفة
شيثاً منه فلطخت به وجهها ورسول الله ﷺ جالس بيني وبينها نفض لها رسول الله ﷺ ركبتيه
لتسقيدمني فتناولت من الصحيفة شيئاً فسححت به وجهي وجعل رسول الله ﷺ يضحك . وروى أن
الضحاك بن سفيان السكلافي (٨) كان رجلاً دميماً قبيحاً فلما بايعه النبي ﷺ قال ان عندي امرأتين أحسن

- (١) حديث الحسن : لا يدخل الجنة عجوز : الترمذي في الشمائل هكذا مرسلًا وأسنده ابن الجوزي في
الوقاه من حديث أنس بسند ضعيف .
- (٢) حديث زيد بن أسلم في قوله لامرأة يقال لها أم أيمن قالت : ان زوجي يدعوك أهو الذي بعينه
بياض ، الحديث الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة والمزاح ، ورواه ابن أبي الدنيا من حديث عبدة
ابن سهم الفهري مع اختلاف .
- (٣) حديث : قوله لامرأة استحملك نحمالك على ابن البعير ، الحديث أبو داود والترمذي وصححه من
حديث أنس بلفظ : أنا حملك على ولد الذئبة .
- (٤) حديث أنس : أبا عمير ما فعل النغير ، متفق عليه وتقدم في أخلاق النبوة .
- (٥) حديث عائشة في مسابقتها صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر فسبقها وقال هذه مكان ذي المجاز ، لم
أجد له أصلاً ، ولم تكن عائشة معه في غزوة بدر .
- (٦) حديث عائشة : ساقني فسبقته ، النسائي وابن ماجه ، وقد تقدم في النكاح .
- (٧) حديث عائشة في لطح وجه سودة بحريرة ولطح سودة وجه عائشة فجعل صلى الله عليه وسلم يضحك
الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة وأبو يعلى بإسناد جيد .
- (٨) حديث ان الضحاك بن سفيان السكلافي قال عندي امرأتان أحسن من هذه الجبراء أفلا أنزل لك
عن إحداهما فتزوجها وعائشة جالسة قبل أن يضرب الحجاب فقالت أي أحسن أم أنت فقال بل
أنا أحسن منها وأكرم فضحك النبي صلى الله عليه وسلم لأنه كان دميماً ، الزبير بن بكار في الفكاهة
من رواية عبد الله بن حسن مرسلًا أو معضلاً ، وللدارقطني نحو هذه القصة مع عبيدة بن حصن
الفلزاري بعد نزول الحجاب من حديث أبي هريرة .

من هذه الجبراء ، وذلك قبل أن تنزل آية الحجاب أفلا أنزل لك عن إحداهما فتزوجها وعائشة جالسة نسمع فقالت أهي أحسن أم أنت فقال بل أنا أحسن منها وأكرم فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم من سؤالها إياه لأنه كان دميما . وروى علقمة عن أبي سلمة (١) أنه كان صلى الله عليه وسلم يدلع لسانه للحسن بن علي عليه السلام فيرى الصبي لسانه فيبش له ، فقال له عيينة بن بدر الفزاري والله ليكون لي الابن قد تزوج وبقل وجهه وما قبلته قط ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن من لا يرحم لا يرحم . فأكثر هذه المطايبات منقولة مع النساء والصبيان ، وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم معاملة لضعف قلوبهم من غير ميل إلى هزل ، وقال صلى الله عليه وسلم (٢) مرة لصهيب وبه رمد وهو يأكل تمرا : أنا أكل التمر وأنت رمد ؟ فقال إنما آكل بالشق الآخر يا رسول الله ، فتبسم صلى الله عليه وسلم ، قال بعض الرواة حتى نظرت إلى نواجذه . وروى (٣) أن خوات بن جبير الأنصاري كان جالسا إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة فطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا عبد الله مالك مع النسوة ؟ فقال يقتلن ضمير الجمل لي شرود ، قال فضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجته ثم عاد فقال يا أبا عبد الله أمارك ذلك الجمل الشراد بعد ، قال فسكت واستحييت ، وكنت بعد ذلك أفررت منه كلما رأيته حيا من حتى قدمت المدينة ، وبعد ما قدمت المدينة قال فرأتني في المسجد يوما أصلي جالس إلى فتولت فقال لا تطول فاني أنتظر ك ، فلما سلمت قال يا أبا عبد الله أمارك ذلك الجمل الشراد بعد ، قال فسكت واستحييت ، فقام وكنت بعد ذلك أفررت منه حتى لحقني يوما وهو على حمار ، وقد جعل رجليه في شق واحد ، فقال أبا عبد الله أمارك ذلك الجمل الشراد بعد ، فقلت والنبي بعثك بالحق ما شرد منذ أسلمت ، فقال الله أكبر الله أكبر ، اللهم اهدنا لهدى عبد الله ، قال حسن إسلامه وهداه الله . وكان نعمان الأنصاري (٤) رجلا مزاحا ، فكان يشرب الخمر في المدينة فيؤتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيضربه

- (١) حديث أبي سلمة عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم كان يدلع لسانه للحسن بن علي فيرى الصبي لسانه فيبش إليه ، فقال عيينة بن بدر الفزاري والله ليكون لي الابن رجلا قد خرج وجهه وما قبلته قط ، فقال إن من لا يرحم لا يرحم ، أبو يعلى من هذا الوجه دون ما في آخره من قول عيينة بن بدر وهو عيينة بن حصن بن بدر ونسب إلى جده ، وحكى الخطيب في المبهمات قولين في قائل ذلك : أحدهما أنه عيينة بن حصن ، والثاني أنه الأقرع بن حابس ، وعند مسلم من رواية الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن الأقرع بن حابس أبصر النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن فقال إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لا يرحم لا يرحم .
- (٢) حديث : قال لصهيب وبه رمد أنا أكل التمر وأنت رمد ؟ فقال إنما آكل على الشق الآخر ، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم ، ابن ماجه والحاكم من حديث صهيب ورجاله ثقات .
- (٣) حديث : ان خوات بن جبير كان جالسا إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة فطلع عليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا عبد الله مالك مع النسوة ؟ فقال يقتلن ضمير الجمل لي شرود ، الحديث الطبراني في الكبير من رواية زيد بن أسلم عن خوات بن جبير مع اختلاف ورجاله ثقات ، وأدخل بعضهم بين زيد وبين خوات ربيعة بن عمرو .
- (٤) حديث : كان نعمان رجلا مزاحا ، وكان يشرب فيؤتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيضربه ، الحديث ، وفيه أنه كان يشتري النبي ويهديه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم يحيى بصاحبه فيقول أعطه ثمن متاعه ، الحديث الزبير بن بكار في الفكاهة ، ومن طريقه ابن عبد البر من رواية محمد ابن عمرو بن حزم مرسل وقد تقدم أوله .

بعله ويأمر أصحابه فيضربونه بنعالهم ، فلما كثر ذلك منه قال له رجل من الصحابة لعنك الله فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لا تفعل فانه يحب الله ورسوله ، وكان لابد دخل المدينة رسول ولا طرفة إلا اشترى منها ثم أتى بها النبي صلى الله عليه وسلم فيقول يا رسول الله هذا قد اشتريتك لك ، وأهديتك لك ، فإذا جاء صاحبها يتقاضاه بالتمن جاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال يا رسول الله أعطه ممن متاعه فيقول له صلى الله عليه وسلم أولم تهده لنا ؟ فيقول يا رسول الله انه لم يكن عندي ثمنه وأحيت أن تأكل منه فيضحك النبي صلى الله عليه وسلم ويأمر لصاحبه بثمنه ، فهذه مطايات يباح مثلها على التدور لاعلى الدوام ، والمواظبة عليها هزل مذموم وسبب للضحك الميت للقلب . والى هنا تم الكلام على الآفة العاشرة والحمد لله رب العالمين .

ونسكتي بذكر هذه الآفات العشرة عن باقيها في هذا المقام اطولها ، ونذكر باقيها ان شاء الله تعالى في ﴿ سورة ق ﴾ عند آية : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » واذن فليكن هذا نهاية القسم الثاني من المقام الأول في آية : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولانساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم » الآيات إلى قوله « إن الله تواب رحيم » .

المقام الثاني من المقالة الثانية

في غوائل الأعمال القلبية

أي المشارها بقوله تعالى : « إن بعض الظن إثم » والتي يشير لها قوله تعالى في ﴿ سورة ق ﴾ بآية « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » وآية « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » .
والأعمال القلبية وهذه الغوائل قد شرحها الامام الغزالي في الاحياء ، وقد اقتصرنا هنا على نموذج لها أجلناه في كتابنا الذي ألفناه لطلبة دارالعلوم وهو « جوهر التقوى » فهناك ما جاء في ذلك الكتاب في صفحة ١١٣ وما بعدها وهذا نصه :

الفضيلة والرذيلة والسعادة

إذا زرعتنا شجرا وتعبنا في إنمائه ففانقنا ثمره ، هكذا إذا نصبتنا في تحصيل الفضائل فالغاية السعادة . السعادة نيل المراد الشريف ، وراحة النفس ، والاستلذاذ بالفضائل ، ولإسعادة لقلود مضطرب ونفس فاجرة ، فما من رذيلة إلا وهما في النفس سوء الأثر ، فالجهل أشد الآلام ، والبلادة شقاء الجهال ، والنسيان والسهو بلية الانسان ، والحجب والكبر يوردان القلب موارد العطب ، ويصرعانه في المنقلب ، بالمحفوظ الحسيسة والشهوات الباطلة ، والتعرض لمت الماقتين ، واستهزاء المستهزئين ، والحسد يودي بصاحبه ويقطع فؤاده ويقلبه في نار السعير ، ويعرضه لمطركبير ، والشرة يعذب صاحبه ويرقمه كل يوم في نائبة ، ومن طلق المال غابة ما اشتهاه ، والسلطان والعز قصرارى مناه ، عذب بها العذاب الأكبر . « ولانجيبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليغيبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم » مما يصيب محبوبهم من الآفات ، وما يمرض له من التكببات ، وهم عادوا الصبر ، قليلا الأجر ، كثير الملمع ، عظيم الجزع ، فأنى يكون الرء من السعداء ، وقد كتب نفسه يديه في ديوان الأشقياء ، فالسعيد من اتبع الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم بالعمرة وما يتبعها ، والشجاعة والحكمة وأقسامها ، أولئك هم السعداء في البارين ، عند ربهم برزقون فرحين إذا اعتادوا ومرنوا على ذلك حتى صار مستلذا معشوقا ، فيأنس بالمعارف العالية ، والطبيعات وأقسامها ، والرياضيات وأفلاكها ، والالهيات وجاها ، ويعلم ما تصله القوة البشرية من المعارف الحكمية ، ويأنس بالصلح في

عمله ، والصدق في منطقه ، والمروءة في أصحابه ، وقد أرضى أشرف العقلاء ، ورضى بما ساقه القضاء ، ولا يطعن في رضاء سائر العالمين ، فان ذلك ليس في حيز الامكان ، وغاية الأمر وقصاره التعالى عن الرعونات الدنيوية والرضاء ثم الطمأنينة : « يأتها النفس المطمئنة ارجى إلى ربك راضية مرضية فادخلني في عبادي وادخلني جنتي » .

من هذا تعلم قول بعض علماء الفرب لبعض شبانا : « لا يضلك المال ، اذا امتلأ قلبك بالفضيلة فاملاً القلب حكمة وفضيلة والجيب فضة وذهبا ، فالعدم معدود الفضائل ، والمثرى واسع المعروف » .
وأنا أقول : ألم تسمع أقوال النبي سليمان عليه السلام : « وأوتينا من كل شيء إن هذا هو الفضل الميين » . انتهى

القدوة الحسنة

مامن نبي أو عالم أو عامل إلا كان قدوة على حسب درجته ، فاصبر واجتهد حتى تكون كالشمس ونهاها والنجم الزاهر في ظلمات الدياجر ، لتكن شمساً يضيء سناها للناظرين ، وسيرتك هدى ، وعلمك نبراساً للسايرين .

أيها الطالب : إن حركاتك وسكناتك وغدواتك وروحانك أساس يبنى عليها ومقدمات لتأخر ، فاحذر الحذر كما أن تكون قدوة سيئة للبينين ، وكن خيراً لقدى لخير المقتدين ، حتى يصدق علينا قول السموهول :
اذا مات منا سيد قام سيد » فتول لما قال الكرام فعول

لا يرين الناس منك إلا كمالاً ، ولا يظلمون منك إلا على ما جل وحلا ، ولا تعن عين منك على قبيح ، وأصلح السريرة ، وأحسن العالنية ، وذرا المباهاة والملاحاة ، وللمشاققة والمرء ، وأظهر البشر ، وقل للناس حسناً ، وآت ذا القربى حقه ، واعف واصفح ، إن الله يحب المحسنين .

علاج الرذائل

إن السبيل الأقوم ، والمنهج الأوضح ، في علاج الرذائل مقاومة كل واحدة بضدها ، والتعود على قبيضها ، ومحاربتها بعدوها ، فالجهل بمزاولة التعليم ، والبخل بتكليف البذل ، ومداومة العطاء ، إلا أن للعادة لتأثيراً على النفوس الحيوانية فضلاً عن الانسانية ، كم من حيوان اقتاده الانسان بالتعود فسخره للركوب واستطاع للحرب ، وذلكه للحلب وسباقه للحرث ، وصيره يسقى الزرع ، وقد كان قبل ذلك لا ذلول يثر الأرض ولا يسقى الحرث ، أفليس الانسان أرقى من الحيوان وقد علم البيان ؟ فكم من جبان ركب هول البحر وهو مضطرب الحركات ، هائج الأمواج ، فألف الصعاب وصار شجاعاً ، وكم من بخيل تمود البذل فأعطى المال وأكرم التزيل ، حتى صار طبعا مستلذاً ، وعادة مأثوقة .

عجب للعادة وأي عجب ! قلب المحبوب مكروهها ، وترد المؤلف مبغضها ، وتجعل السفيه حليماً ، والحليم سفياً ، والجاهل عالماً ، والكاذب صدوقاً ، للعادة في النفوس مجانب ألا ان للجوارح لأثراً في النفوس ، وللنفوس أثراً في الجوارح ، كالبحر يمحطه السحاب والسحاب من البحر ، وغاية التهذيب أن تصير الفضائل لذات الرذائل آلاماً . إلا أن مكثت الفضائل مجاهد ، ومريد لا يزال على الصراط مسافراً ، لم ينل بغيته ، ولم يحظ بنواله ، فانه فضل على القاعد الغافل ، والساهى النائم ، والفضل كل الفضل أن يصير المتكف صرغوباً والمكروه من الطامعات محبوباً ، قال في الحديث الشريف : « وجعلت قرّة عيني في الصلاة » ، ألا وان قولم الأمر وعماده : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى » اه

الغضب

الغضب نوران يغلي به السم ، فيرتفع في أعالي العروق ، فيحمر ظاهر البدن دفعا للأذى قبل وقوعه ، وانتقاما من المؤذي بعد حصوله ، إذا طن القدرة على خصمه ، فان بدا له الضف تبدل الاجرار اصفرارا ، وكثر السم راجعا لأعماق الجسم هاربا من إيذاء الحصم وان تردد بين الاعتقادين ، وشك في الأمرين ، تماقب اللوان ، فأحمر ان قدر ، وأصفر بالخور ، فالدم كالجيش المحارب ، يقدم اقدام القادر ، ويحجم إجماع الخائر : « ماترى في خلق الرحمن من تفاوت » .

والغضب آثار ظاهرة كتغير اللون ، وشدة الرعدة في الأطراف ، وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام ، واضطراب الحركات والكلام ، حتى يظهر الزيد على الأشداق ، ونحمر الأهداق ، وتقلب المناخر ، وتسهيل الخلق ، ولعمرك ان قبح الظاهر أثر لقيح الباطن ، وما الظاهر إلا امرأة تجلت فيها صورة النفس ، وثمرة ظهرت في شجرة أصلها ثابت في القلب ، وفرعها تمتد في الجوارح ، وهل انطلاق اللسان بالشم والفحش من الكلام مع تحجب النظم واضطراب اللفظ والاقدام على الضرب والتهجم والتعزيق والجرح عند التحمك حتى اذا هجرت عن التثني رجع إلى نفسه فترق ثوبه ، ولطم خده ، وضرب يده على الأرض ، وغدا كالواله السكران والمدهوش المتحير ، وربما سقط فأغشى عليه ، وقد يضرب الجواد ويخطب الحيوان ، وربما رفضته دابة فرسها ، أو انكسر القلم فشجه كما يعامل العقلاء .

هل هذا إلا من آثار اضطراب نيران القلب بصورة من قبحه ، وكمله من صور تبرزها الأيام ، وتجليها الحوادث مع الغضب عليه كالحقد ، والحسد ، والشهامة بالمسآت ، والحزن بالسرور ، وافشاء السر ، وهناك الستر ، والاستهزاء ، فهذه ثمرات افراط الغضب .

وأما ما يضافه فالجنية الضعيفة ، وثمرتها قلة الأفة ، واحتمال النلة ، وعدم القيرة على الحرم ، والسكوت عند مشاهدة للسكرات من غيره ، وأن لا يغضب على نفسه فيلومها عند مقارفة الذنوب ، ومباشرة العيوب ، فلا يتوب ، فمن ابتلى بذلك فليترجمه ، فكل الطرفين مذموم ، والوسط مدحوح ، هداانا الله الصراط المستقيم .

ضرب مثل لقلب الانسان بحال الأرض

ألا إنما مثل قلب الانسان كمثل سطح الأرض ، ان خبت أنبتت القناد والشوك والحسك ، وخبت النبات يتقلب على طيبه ، ورديته على جيده ، ومائل الهجر والحسد والشهامة والاحتقار والغبية وهتك الستر وإيذائه بالضرب وغيره ، الناجمة من الحقد ، النابتة في أرض القلب الذي أفسده الغضب إلا مثل شوك السعدان ، وشجر الطرفاء ، ونبات الخنظل والعليق ، إذا نبتت في أرض لم يتعدها ، صلحوها ، ولم يحم عليها أهلها ، إلا وان القلب إما جنة ذات رياض وفاكهة وروح وربحان من علم نافع وحكمة سالحة ، وأما نار تسهر ، وجميم ترمي بشرر ، فيحترق الجنان ، وتنهج الأبدان .

ألقى يبصر في الفضاء ، وتأمل النبات وتجب ، ألم تر إلى ذلك النبات الأبيض المسمى بالهلوك الذي ينبت ما بين شجرات الفول فيمتص غذاءها ، ويبيد أثمارها وحيا ، تشابه هذا العالم ، وكانت الأرض مثل القلوب ، والفول مثل الفضائل ، والهلوك مثل سيئات الأخلاق ، كالحقد والحسد ، ونحن مازرعناه وأما هو النامي بنفسه ، المعتدى على نباتنا ، للميت لمادتنا ، المبيد لأغذيتنا ، ألا وان ماضر الناس نام بنفسه وما تصهم يوزره القيام عليه .

فإذا ابتليت بمن آذاك فلا تجعل للحقد عليك سبيلا ، وأزل الرذيلة من قلبك كما تزيل الحشائش الضارة للزرع بزرقها ، وافصل ما فله أبو بكر السديق رضى الله عنه ، فانه لما حلف أن لا ينفق على مسطح قريبه وقد

تسكلم في واقعة الإفك نزل قوله تعالى : « ولا يأتلر أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤثروا أولى القربى
والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعضوا وليصغفوا ولا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » ،
فوصله بعد القطيعة ، وأنعم عليه بعد الحرمان . انتهى

المعجب وسببه وعلاجه

المعجب استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى النعم ، فأما من كان خائفا وجلا مشفقا من
زوالها ، ومن فرح بها من حيث انها نعمة من الله فليس بمعجب ، أما سببه فالجهل ، وأساسه الوهم الذي
عليه تبنى قصور الطوى ، ومخاريب الجهل ، وتمائيل الفخار . فأما علاجه فأن يعرف للمرء أن ما تباهى به بين
الأقران لا يخلو من أحد أمرين : إما ما يدخل تحت اختياره ويظهر بعمله ويحصل بسعيه كالعبادة والصدقة ،
واصلح الأمة ، وسياسة الجمهور ، وحشد الجنود ، ورفع البنود ، ونظام الموازين ، وتعليم الناشئين ، فهل
جهل ذلك المسكين أنه مخلوق ضعيف ، مركب من عناصر مقهورة ، مؤلف من أمشاج في ماء مهين ، وماذا
عمل ؟ ان هو إلا آلة مسخرة ، وطينة محبرة ، وصورة مجتذرة ، وصنعة مدبرة ، وآية صغرة ، وعظة وقدكرة ،
فضاجر من جفوه ، أو شاكر من بره .

وأما ما لا عمل له فيه فان كان جلالا أو قوة أو نسا أو ميراثا من كل ما لا اختيار له في حصوله ، ولا سبب أوصله
إليه فان الأمر أهون ، والمعجب إذن أشد جهالة ، وأخسر صفقة ، وأقل فكرا ، وأبعد ضللا ، وأسوأ حالا .
ومن أجهل ممن يعجب بما لم يفعل ، وإن المعجب مفتر بنفسه ، آمن زوال نعمته حيث لأمان ، قتل الانسان
ما أجهله . واعلم أن أسباب ذلك ستة أمور وهي : الجلال ، القدرة ، العلم ، النسب ، الميراث ، الملك .

العلاج

التأمل ، والتذكر ، والتدبر ، وادّكار أن الموت شامل ، والاعتبار بمن مضى من الأمم ، فأخولوا النصار
فصارت قاعا صغصفا بعد العز والبأس ، ورسوخ السولة ، وتتمام الزينة .

الأحاديث ووازع الدين

قال صلى الله عليه وسلم : « لولم تذبوا لخشيت عليكم ما هوأ كبر من ذلك ، المعجب » وقيل لعائشة رضى الله
عنها : متى يكون الرجل مسيئا ؟ قالت اذا ظن أنه محسن . وقال الله تعالى : « ويوم حنين إذ أعجبتكم
كثرتكم فلم تمنع عنكم شيئا » . وقال صلى الله عليه وسلم : « ثلاث مهلكات : هوى مطاع ، وشح متبع ،
واعتجاب المرء بنفسه » .

الكبر

الكبر أن يرى الانسان نفسه فوق غيرها يعلم حصوله ، أو عمل اتقنه ، أو أصل نسب له ، أو جمال أطفاه ،
أو مال ألهاء ، أو قوة أعزته ، أو عشيرة نصرته . فهذه أسباب تدعو أولا للاعجاب بنفسه ، واستحسانه صفته
والفرح بما يراه أهلا له من صفة الكمال والجمال ، وقد يكون لحقد ملاً فؤاده ، أو لحسد أغضبه ، أو لرياء
اعتراه ، فهذه أربعة أسباب تدعو للكبرياء ، أما المعجب فقد تقدم ذكره ، وسبق شرحه .

أما من حقد على من آذاه ، وأضر له السوء ، واستبطن له الشر ، فانه يتكبر عليه ويزدر به ، وهكذا
الحاسد على النعمة ، الفاقد للفضيلة ، والمرأى الذي يطلب الرفعة والسودد ، انه لا يقبل العلم أمام الجالس ،
ولا يقتر بالفضيلة للمحسودين ، ولا يسمع النصيحة في ملامن العالين .

الملاج

فليعالج المتكبر نفسه بالعلم والفهم ، وليتذكر أنه مكثور ضعيف صر يوب ، وليواظب على أعمال المتواضعين
وليحذر التزل والمذلة والابتدال ، فإذا تقم لآخوانه وقرنائه فسوى فاعلم وأكرم مشواهم ، وسارهم وسرهم
وغدا إلى باب الدار معهم ، فهو المتواضع وان تنزل إلى أسفل السرجات ، وعامل من تحت درجته معاملة آخوانه
أو أخذ يمتلي ، أو يتدلل ، فقد تنزل إلى الأسفل ، وأنصحي من المتبذلين ، فليعالج المتبذل نفسه برفعها ، ولينف
المتكبر أسباب كبرياته من الحسد القاتل ، والحقد المكين .

ذم الكبر وإيضاحه

الكبر شجرة أصلها ثابت في القلب ، وفرعها في الجوارح ، وثمرتها في الأعمال ، كأن يترفع عن مجالسة
نظيره ، ويأنف من مخالطته ، ولا يساريه في مجالسه ، وإذا ناظره عنف ، وان كلمه أنف ، ويتقدم عليه إن
ماشاه ، ولا يقبل منه نصيحته ان هداه ، وهذا الخلق غائلة العباد والزهاد ، وبلية الوعاظ والعلماء ، فضلا عن
العامة الجهلاء ، وهو أعظم المحن ، وأكبر البليات والآحن ، قال صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من في
قلبه مثقال ذرة من كبر » والآنسان ظلام جهول قد يسوقه الضرور للتكبر على الله فيقول « أنا ربكم الأعلى »
وقد يرى نفسه أحق بالرسالة ، وأولى بالشفاعة ، فيقول : ولم أرسل المرسلون ؟ واصطفى النبيون ، ومنع من
تلك النعمة فلا يتبع نبيا ، ولا يرى له رسولا ، وقد يرى الناس دونه خلا ، والعامة حيرا ، فيعظم خطبه ،
ويشحن ذنبه .

الفرق بين الصجب والكبر

المجرب يرى مدلا بنفسه ، فرحا بسمته ، وان كان غيره أسمى في نظره ، وأعظم في معتقده ، والمتكبر
أعظم جرما ، وأكبر إثما ، فهو يريد أن يرى غيره دونه ، وهو القاهر فوقهم ، وقد ذمته الله تعالى فقال سبحانه
« سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل
الرشد لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل التي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » .
وقال : « والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجبل
في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين » . وقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم إني أعوذ بك من فحشة
الكبرياء » . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ان نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا
ابنيه وقال اني آمركما بانثنتين وأنها كما عن اثنتين : أنها كما عن الشرك والكبر ، وأمركما بإله إلا الله فان
السموات والأرض ومن فيهن لو وضعت في كفة الميزان ووضعت لإله إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرجح
منها ، ولو أن السموات والأرض وما فيهن كانت حلقة فوضعت فيها لإله إلا الله لتقصمها ، ثم أمركما بسبحان
الله وبحمده فانها صلاة كل شيء » وقال صلى الله عليه وسلم : « لا ينظر الله إلى رجل يجر إزاره بطرا » .
وروى عنه عليه السلام انه بصق يوما على كفه ووضع أصبعه عليها وقال يقول الله : يا ابن آدم أنجزني وقد
خلقتك من مثل هذه حتى اذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وجيب جعت ومنعت حتى
إذا بلغت التراقي قلت أتصدق وأني أوان الصدقة اه

ولتقتصر من كتابنا « جوهر التقوى » في علم الأخلاق على هذا المقدار ، ونرجي باقيها إلى تفسير
(سورة ق) عند آية : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد »

إذ يتأثر المتلتبان عن العيين وعن الشمال قعيد « ما يلفظ من قول إلا ليه رقيب عتيد » وبهذا انتهى المقام الثاني الذي هو في غوائل النفس من المقالة الثانية في آية : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تملزوا أنفسكم ولا تنازروا بالألقاب بشس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » .

المقالة الثالثة

في قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » فأذكر هنا كيف تعاملنا أوروبا الآن معاملة قاسية إقظا لنا حتى نرجع مجدنا بهيئة أشرف مما كان عليه أبونا العظيم ، ولأكتف في هذا المقال بما كتبه العلامة (لوثروب استودارد) العالم الاجنماعي الأميركي المترجم إلى العربية في الجزء الأول من كتابه المسمى « حاضر العالم الاسلامي » إذ ذكر السلطان عبد الحميد وكيف نشر الدعوة بين المسلمين ليقوموا ضد أوروبا ، وكيف كانت ثورة تركية الفتاة وثورة ايران تزبدان استيقاظ العالم الاسلامي ، وكيف زادت الحرب البلقانية الطين بلة فزاد المسلمون استيقاظا ، وكيف اتحاد الترك والعرب في قتال الظليان في طرابلس وهكذا اشتد غليان العالم الاسلامي ، وقد تقدم هذا كله في (سورة الفتح) من نحو صفحة ١٤٢ من الكتاب المذكور إلى حوالى صفحة ١٦٤ ولتقتصر من الكتاب على ما لم يذكر هناك من بعد ذلك وهذا نصه : -

وإذ قد بلغنا في الكلام على الجامعة الاسلامية من وجهتها الدينية والسياسية إلى هذا الحد يجدر بنا أن نقول كلمة في الجامعة من حيث وجهتها التجارية والصناعية ، وذلك ما يعرف بالجامعة الاسلامية الاقتصادية . إن السبب في انتشار الجامعة الاسلامية الاقتصادية هو عوامل الاستنزاف ، واحتياز موارد الثروة في الشرق ، فمن قبل خمسين سنة خلت كان العالم الاسلامي ينسكع في أجياله الوسطى ، فكانت الشريعة الاسلامية وما فيها من تحريم الربا مرعية حق الرعاية بحيث لم تكن الحياة الاقتصادية بمعناها الحالي ميسورة ، وما كان هناك من بعض التجارة والصناعة انما كان غالبة في أيدي النصارى واليهود من أهل البلاد ، زد على هذا أن التزامم الغربي جاء فانشر فزلزل الحياة الاقتصادية الشرقية زلزالا هائلا ، إذ أن فتح أوروبا للعالم الاسلامي الفتح السياسي كان بمثابة الفتح الاقتصادي جنبا إلى جنب ، وربما كان هذا الأخير أهم نظاما وأكمل عدة فبات كل صقع شرقي في طوف من البضاعات والحاج البخسة الأثمان المنقولة من أوروبا ، ووراء ذلك رهوس الأموال الغربية متدفقة لا تحصى ، تسرب في البلاد وتنشر بأخدع الصور وأملق الأساليب كالقروض والامتيازات التي من شأنها متى ما عقدت أن تكون تمهيدا لاستقرار السيطرة السياسية الغربية ، فنصر أوروبا الذي نالته في فتحها هذا الفتح السياسي الاقتصادي التام كان باعثا للشرقيين على العداوة والمقاومة ، فاستنجدت خيرات الطبيعة ، فقد رحوله إزاء حول الغرب الجبار العاني فأدرك شفة البعد ، فطلق للحال يجتد في سبيل التحرر الاقتصادي جده في سبيل التحرر السياسي من ربق الذل والاستعباد ، ثم أنشأ حكما للمسلمين وأرباب الدراية فيهم والرأى السديد ، يلتمسون الأسباب الغربية الفضلى ، التي من شأنها أن ترقى بالعالم الاسلامي رقى اقتصاديا جليلا ، ففسخت الأساليب والمناهج الغربية ونسج على منوالها ، وما كانت تحريمات الشريعة لتقف سدا في وجه النهضة ، ولالتحول، دون مجراها ، فتتج عن ذلك تطور عظيم في الحياة الاقتصادية أخذ ينجو ويزداد : ناهجا منهاجا اقتصاديا غربيا ، ولكنه حتى اليوم ما برح يمتاز بالهدور الأول من أدوار ، وهو أظهر وأبين في البلاد التي هي أشد صلة ومساسا بالسيطرة الغربية كالهند ومصر والجزائر ، أما متبها نواهد

في كل قطر اسلامي ، وسنفضل الكلام على هذا في فصل التطور الاقتصادي ، فليحجب اعتباره في هذا المقام هو ندر شأن هذا التطور من حيث صلته بالجامعة الاسلامية وميزته فيها ، وهذا الشأن هو عظيم جداً ، لأن أوثق وحدة وأمن صلة ظهرت في المسلمين حتى اليوم إنما هي الوحدة الاقتصادية بلامراء ، ولا يعزب عن البال أن الروابط الدينية ، والصلات الخلقية التهذيبية ، التي تجمع بين المسلم والمسلم ، ما انفكت تزيد في نواحي المسلمين وتآزرهم ، وتعاطفهم وتضامنهم ، كأنهم في المعمور الاسلامي أمة واحدة بعضها يفار على بعض ، وجانب يساند آخر ، دع ما هو هناك من الأسباب الغربية للنقل والتواصل ، المسهولة على المسلمين القيام بالأسفار إلى كل جهة أرادوا ، فازداد بذلك تعارفهم ، واستمسكت أواصرهم ، فنشأ فيهم نشء جديد ، أبناؤه مقادير ، بعداء الهمة ، أشداء العزم ، فيهم التجار وأرباب السفن البحرية والأعمال التجارية ، والصارفة والسامسة ، حتى وأرباب المصانع والمعامل ، ممن لم ير أمثالهم في المسلمين من قبل بقرن أو نصف قرن خلا ، وأبناء هذا النشء الجديد على غاية من التفاهم والتوافق ، تربط بعضهم ببعض الروابط الاسلامية ، ويحملهم التزامم الغربي المنتشر في بلادهم على شدة التضامن ، فلهم في الواقع من سعة المجال للعمل المنظم والاتحاد الوثيق ما ليس مثله للسامسة المسلمين ، إذ في الأفق الاقتصادي يتلاقى الأحرار ودعاة الجامعة الاسلامية والغلاة وسائر الأحزاب الوطنية على أتم وتام ، فلا خلاف بينهم في هذا الميدان يفضي بهم إلى الانقسام لعدة اتباع إحدى السياسات كسياسة الثورة أو الجهاد انقساماً يحملهم على تهديد أوروبا بالسلحة ، أو يؤدي بهم إلى المجازفة بالنفوس والدماء والأموال ، بل هم جميعاً في نطاق الجامعة الاقتصادية سواء ، متحدو الكلمة ، يجتهدون في سبيل الحياة الاقتصادية الاسلامية ، متوخين في ذلك الطرق والأساليب التجارية التي لا يجرأ الغرب أن يحول دونهم ودونها ولا يقف في وجهها .

فما هي غاية الجامعة الاسلامية الاقتصادية ترى ؟ إنما هي ثروة المسلمين للمسلمين وثمرات التجارة والصناعة في جميع المعمور الاسلامي هي لهم يتعممون بها وليست لنصارى الغرب يستزفونها ، وهي نقض اليد من روس المال الغربية والاستعاضة عنها بروس مال اسلامية ، وفوق جميع هذا هي تحطيم نواجذ أوروبا ، تلك النواجذ العاضة على موارد الثروة الطبيعية في بلاد المسلمين ، وذلك بعدم تحديد الامتيازات في الأرضين والمعادن والغابات وقطر الحديد والجارك ، العقود التي مادامت خارجة من أيدي العالم الاسلامي فهو يظل عالة على الغرب .

هذه هي أغراض الجامعة الاسلامية الاقتصادية وجميعها حديث المنشأ ، وسببه السيطرة الغربية الشديدة في العالم الاسلامي ، السيطرة التي تتسكم عليها في الفصل التالي من هذا الكتاب . وإلى هنا تم الكلام على المثالة الثالثة ، والحمد لله رب العالمين .

المقالة الرابعة في جوهرتين اثنتين

الجوهرة الاولى فيما كتبه لأتم الغرب في مجلة المعرفة في عددها الرابع الصادر في أغسطس سنة ١٩٣١
وعذا نصه : —

صوت صارخ من الشرق إلى الغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

ملكنا فكان العفو منا سجية * فلما ملكتم سال بالدم أبطح
فهذا وذاكم فعلمنا وفعالكم * وكل إناء بالذي فيه ينضح

الانسان نوع واحد من أب وأم فأصبح شعوبا وقبائل فتكاثروا أنغادا وعشارا لتزداد السعادة ويتمّ الهناء في الأمم والأفراد . انتشروا في الأرض شرقا وغربا ، فكان شريقون وغرييون ، الشرق أب والغرب ابنه ، والأب يعطف على ابنه بدافع المحبة والولاء ، إن الديانات كلها شرقية ففيها البوذية والكوفوشوسية واليهودية والنصرانية والاسلام ، زحف إلى الشرق منكم اليونانيون والبطالسة والرومان من قبل وبعديلاذ للمسيح واقسموا السلطة هم والفرس في الشرق الأدنى وهم غاصبون .

هناك قال الأب لابنه : أيها الابن العزيز : لئن رميتني بحجر لأرمينك بالتمر ، لانخرجن من دار أبيك إلا بعد أن أهديك الصراط المستقيم ، وهل ذلك إلا قول المسيح عليه السلام : اعبدوا الله أيها الأبناء وافشوا في الأرض السلام ، لاسلاح ، لاقتال ، لاجدال ، كونوا عباد الله اخوانا .

وهل سبب ذلك إلا انه رأى كم تعبدون غير الله ، فاليونان والرومان كانوا يعبدون الكواكب والأصنام والفرنسيون تشبه عبادتهم عبادة أهل الهند الوثنيين ، والانجليز كانوا يسجدون للسخور وللحجارة ولمايع المياء ، فأما استوريا (النمسا) والبروسية والروسيا واسبانيا والبرتغال وهولاندا والدانمرك والسويد والنرويج وسويسره فدينهم القديم دين من ذكرناهم أولا حذو القذة بالقذة ، فلما رأى كم على هذه الحال دعاكم إلى عبادة الله والى السلام ، فدخلتم في الدين المسيحي أفواجا ، ففرنسا سنة ٤٩٦ م وإيطاليا سنة ٥٥٠ م وانكلترا سنة ٥٩٦ م ويقرب من هؤلاء في التاريخ النصارى والاسبانيون والبرتغال إلى آخر من ذكرنا ماعدا دولة الروسيا فانها لم تدخل إلا في نحو القرن العاشر الميلادي ، ولكن لما دخلتم المسيحية لم تعملوا بما علمه المسيح من السلام العام إذ بقيتم في الشرق وازداد ظلم الرومان للشرقيين ، فماذا كان ؟ ظهرني عربي في صحراء قاحلة وقال كما قال المسيح : « افشوا السلام ، وأديموا الصيام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة ربكم بسلام » ودعاكم إلى الاسلام والسلام العام واستعمل السيف عند الحاجة بشروط خاصة لأن المسيح قبله لم يخضد من شوكتكم ولم تعملوا بنصيحته في السلام فتركوا الشرق للشرقيين الذين هم أسانذة لكم معاصرون ، لم يمض على امتشاق الحسام الاسلامي عشرون سنة حتى عادت المياء إلى مجاريها وتركتم الشرق لأهله ، إذن الاسلام قد أتم ما ابتدأته المسيحية لسلام أهل الأرض ، فسلام المسيح عقائد ، وسلام الاسلام عقائد وأعمال .

هناك أخذ النور يمتد في الشرق ، والظلام يعمّ في الغرب ، واسقبت البابوية الرومانيون بكم ، وقتلوا ، وأحرقوا بالنار أروفا ، وأذلقواكم سوء العذاب ، قال المسيح لكم : « الطوبى للرجاء فانهم يرجون ، الطوبى لصانئ السلام فانهم أحبب الله بدعون » فخالفتم قوله ، ففي سنة ٧٨٢ قبض شارلمان الكبير بإيعاز الخبر الروماني على أربعة آلاف ساكسوني ونيف في مدينة وarden ، وضرب أعناقهم في يوم واحد ، لأنهم أبوا قبول الصناديق ، وفي سنة ١٠٠٧ أحرق في مدينة أورلياء جلة (أراتيكين) وهم أحياء ، وتبع ذلك كثير من القتل والاحراق في سنة ١١٢٤ وسنة ١١٥٥ حتى عمّ الظلم والاهلاك والتدمير ، وأسس ديوان التفتيش في سنة ١١٨٤ وصادق عليه البابا (انيوشفيسوس الثالث) وثبته البابا غريغوريوس ونسلم ماركو مينيكوس وربهانه ادارته ، وسودوا صفحات التاريخ باحراق وقتل الملايين .

هناك ساقتم العناية الإلهية إلى الشرق كما ساقتم في المرة الأولى التي فيها اعتنقتم دين المسيح ، لأن في الشرق نورا اسلاميا ، ومتى أشرق على ربوعكم قل ذلك الظلام ، ان الله هو الذي رحمكم بانبعث فرس رجال الدين إلى اغرائكم على أهل الشرق بحجة المدافعة عن الأماكن المقدسة ، فأترجم الحروب الصليبية ، ودام الصراع نحو مئتي سنة ، فرجتم تحملون في صدوكم نور العلم والاصلاح والحرية والاخاء بسبب معاشره أهل الاسلام ، فلم تملكوا الأماكن المقدسة ولا بلاد الشرق ولكن ملكتم ناصية السيادة وانزعتموها

من رجال الدين الذين أغروكم على محاربة الشرقيين فكانت الهزيمة لأوثك البابوات الذين هم في الحقيقة الجانبون على الدين ومتبعيه لالشرقيون ، رجال الدين أرادوا الانتقام من الشرق بلا حجة وأراد الله انتقام سلطتهم بالعدل « إن ربي على صراط مستقيم » .

فهل ظهر فيكم (لوتر) المصلح العظيم (وفولتير وروسو) وأضربهم الأبعد اطلاعكم على كتب منقولة عن تعاليم الاسلام « وأمرهم شورى بينهم » .

ألم يقل (سدبوالفرسى) في كتابه المسمى (تاريخ العرب) : « إن اللاتينيين استمدوا العلوم الفلكية الأولية من العرب فان (جوربت) الذي كان بابا روما الملقب بسلاستر الثاني أدخل من سنة ٩٧٠ إلى سنة ٩٨٠ ميلادية عند الافرنج العلوم الرياضية التي كسبها من عرب اسبانيا ، وادهيلارد الانكليزي ساح من سنة ١١٠٠ إلى سنة ١١٢٠ ميلادية في كل من اسبانيا ومصر وترجم مبادئ اقليدس من العربية بعد أن ترجمها العرب من اليونانية . وهكذا سارت أم أوروبا مثل الاستاذ (رودلف) من أهالي بروجس البلجيكية إذ ترجم مسائل بطليموس في الفلك ، وبتليون البولندي ترجم كتاب الخازن في علم الضوء والنظر ، وهكذا كثير وكثير جدا .

هأنتم الآن اليوم رجعت مرة ثالثة إلى الشرق بلا حجة إلا اهتمام حقوقه واذلال الشرقيين ، وما مثلكم في ذلك إلا كمثل النمل إذ تحارب جوشه أنواعا أخرى منه ، ويعيش الغالبون من ثمرات كد المنفلوين ، فينقرض الغالبون لكسلهم على مدى الزمان ، فأنتم في ذلك كالتنمل أو كدولة الرومان .

هأنحن أولاء أخذنا نوازن بيننا أيام عظمة ملكنا وبينكم في أيامنا هذه فألتينا عهدونا مع الضعفاء محفوظة فأما أنتم فلاعهد لكم مع الضعفاء ، فماكم أيها الاخوة ماجاء في كتب أشهر مشاهير الاسلام تحت عنوان « جندي سابور وأمان عبد أمضاء جيش المسلمين » وهذا نصه : —

روى الطبري أن أبا سيرة لما فرغ من السوس خرج في جنده حتى نزل على جندي سابور وزر بن عبد الله بن كليب فاصرهم فأقاموا عليها ينادونهم ويرادونهم القتال فلم يفتحهم يوما إلا أبواب البلد فتحت ثم خرج الناس وخرج الأسواق وانبت أهلها خمار المسلمون من ذلك وأرسلوا فسألوهم : أن مالكم ؟ قالوا رميتم إلينا بالأمان فقبلناه ، وأقررنا لكم بالجزية على أن تمنعونا ، فقال المسلمون ما فعلنا ، فقال أهل جندي سابور ونحن ما كذبنا ، فسأل المسلمون فيما بينهم ؟ فإذا عبد يدعى مكنا كان أصله منها هو الذي كتب لهم فقالوا انا لانعرف حركم من عبدكم فقد جاءنا أمان فنحن عليه قد قبلنا ولم نبدل فان شتم فاعذروا ، فأسكواهنهم وكتبوا بذلك إلى عمر فكتب إليهم : إن الله عظيم الرضاء فلانك كونون أوفياء حتى تفوا ما دتم في شك ، جيزوهم وفوا لهم ، فوفوا لهم وانصرفوا عنهم « اه

هذه أخلاق خلفائنا الأربعة مع المستضعفين ، فهل فعلتم ذلك معنا بعد الحرب العظمى ؟ وقد قلتم : ساعدونا ، ونحن ما أترناها إلا لتحرير المستعبدين ، فماكم ما قاله العلامة الطائر الصب (لوتروب استودارد) الأمريكي في كتابه « حاضر العالم الاسلامي » وهذا نصه : —

« مما لامشاحة فيه أن الحرب العظمى الكونية قد أفضت بالحالة إلى المأزق الحرج والساعة العصيبة ، إذ التفت الشرق في سنة ١٩١٤ فرأى الأمم الأوروبية التي كانت ما برحت حافظة لشيء من الوحدة القائمة على اعتبارات عنصرية جبيلة قد انبرت تتناحر في سوق حوب لم يحو التاريخ بين دفتيه مثيلا لها قسوة وفظاعة ، وتتناحر مدفعة بعضها بعضا نحو الجزيرة الهائلة والبيران الجهنمية ، ورأى وحدة الجيل الأبيض قد عصفت فيها ربح للطانع السياسية ، والنقائص الأدبية فزعزعتها وهدمتها تهديما ، فوقفت كل أمة من الأخرى وبينهما غورس حيق ، وهوة بييدة ، ولم يكن للأمة الشرقية من سبب للتأسي والصبر على بلوى الخاطئة

الكبرى سوى ذلك البيان الحرّ الذي تشش ساسة الحلفاء حروفه في أعلام دولهم ورايات جيوشهم ، ولكن لما وضعت الحرب أوزارها ، ونال الحلفاء النظر المبتني أخذت الأسرار تنفض ، فذاع لئلاّ كافة أنه في الحين الذي كان فيه أقطاب الحلفاء وساستهم وقوادهم يطعمون إلى أنحاء العالم قاطبة خطبهم الحرة المعربة عن الغاية التي في سبيلها آثرت دولهم الانغماس في الحرب الزبون وهي تحرير الشعوب المستعبدة ، واطلاق الأسر اللازم المستضعفة في اختيار حكمها ، وتقرير مصيرها ، كان هؤلاء الأقطاب الساسة في الوقت عينه يتفاوضون ويقعدون ويعرمون فيما بينهم سلسلة من المعاهدات السرية لا تقسم الشرق الأدنى ، مدفوعين إلى ذلك بروح الجشع الكلي ، تلك الروح الاستعمارية التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ الانسان ، ولما كان انعقاد مؤتمر الصلح الذي ولى الحرب أتى بطائفة تلك المعاهدات لابتلاك الخطب الحرة التي أذاعها الأقطاب والساسة وجعلت أساسا بنيت عليه التسوية الشرقية ، ومؤدّاها (حبر على ورق) اخضاع الشرق الأدنى والأوسط اخضاعا تاما ، واقتيادها بخزائن الاستعمار والسيطرة السياسية ما أظنها » انتهى ما جاء في الكتاب المذكور في صفحة ٤٢ و ٤٣

أليس هذا تاريخنا وتاريخكم وفيما يمهّد عيد لنا ، ولم تقوا بهمود أقطاب سياستكم ، إذن عالم الانسان اليوم مجرم كذاب .

أيها الاخوة الغربيون : الدهر قلب « وتلك الأيام نداؤها بين الناس » ، الشرق هو الشرق ، وقديما هجمت عليكم أمم من قبل التاريخ المسيحي فأهلكوا الحرث والنسل ، ثم أعادوا الكرة منذ نحو سبع قرون ولا تزال أعقاب التتاري بلاد النمسا إلى الآن ، وهامم التتار المسلمون في قلب روسيا المسيحية ، أليس هؤلاء أمما شرقية سطت على أوروبا !

حذار حذار أيها الغربيون ، إن فلاسفتكم وأكابر علمائكم يعلمون أن عملكم عاقبه خسران لكم مبین ولكم لا تسمعون الناصحين ، لأنّ العاقبة يسوقون توابكم إلى مزاولة الشهوات الزائلة ، وأعينهم في غطاء والجهد يطمس على أبصارهم فلا يدركون سرّ العواقب ، فهل ترضون أيها السوّاس أن تكونوا أسرى العاقبة تابعين لأهوائهم ، ألساء ما تفعّلون .

شرق الشرق أبدى ناجذيه لكم ، آن وقت الحساب ، استيقظ الشرق فهو كزرع دفن تحت الثلج ثم أرسلت الشمس أشعتها فذاب فأسرع الزرع في نمائه ، احذروا غضبة الشرقيين ، اليابان والصين والهند والترك والفرس والعرب والأفغان ومع هؤلاء روسيا كلهم متحفزون أفلا تنقلون ؟ أفلا تنظرون !

فياليت شعري من ذا الذي يصدّ ناموس النشوء والارتقاء عن مجراه ، ألكم قدرة على إيقاف الشمس عن مجراها ، أو اطواء عن مسراه ؟ إذا خطر لكم ذلك فأهون به خاطرا ، وما أضلّ هواه .

أفلا أسمعكم صوتنا نالنا : أفلا تسمعون اليوم أيها الاخوة صوت رجل شرقيّ وهو كاتب هذه السطور ، يقول لكم قولاً بعد الدينين السابقين (المسيحية والاسلام) فلعلكم لما اتبعتم الأول بعد صدوره بخمس قرون واتقتتم بتعاليم الثاني في حروبكم أيام الحروب الصليبية بعد نزوله بقرون تضارعتها في الصد تسمعون هذا عند صدوره بلنا خبير لأنكم اليوم علماء دارسون معلمون ، وليس كتابي دينا بل هو كتاب جعل سياسته على العلوم الطبيعية الكونية والحقائق العقلية . هاموذا كتاب «أبن الانسان» نشرته منذ ٢٠ سنة قبل الحرب الكبرى بأربع سنين ، وبينت فيه قصور الانسان ، مقرّظه علماءكم في ايطاليا وفرنسا وألمانيا وقالوا هذا هو الصالح لرقى نوع الانسان ، إذ يجعل الأمم كلها أشبه بجسد واحد يستمتع الغربيون والشرقيون معا بالحرية والمساواة والاناء ، نحن أمم الشرق الأدنى عموما وسط بين أوروبا والشرق الأقصى فلنكن نحن بين الطرفين المتباعدين واسطة السلام والمحبة والاخلاص ، نحن الآن نطلب السلام . وأنا بلسان ثلاث مئة وخمسين مليوناً من المسلمين أطلب السلام فهل أتممتهون ؟ انتهى ما كتبت في مجلة المعرفة وبهذا تم الكلام على الجوهر الأول

الجوهرة الثانية : وهي خامئة المقالة الرابعة

في ذكر سر من أسرار آية : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا

وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم »

وهي من عجائب القرآن ومجزاته في هذا الزمان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وآله وصحبه أجمعين .

(أما بعد) في أيها المسلمون : هل أناكم نبأ معجزات القرآن الحكيم ، وعجائبها السياسية ، وحلها السنسية ، وحلها الجوهري ، رعوها الدرية ، وحكمها القدسية ، وأنوارها البهية ، وأسرارها الربانية ، وعلاؤها الدنية ، وآياتها العبقريّة ، وآثارها الجليلة .

أحدثكم أيها الاخوان حديثا انه لو تعلمون عظيم ، أحدثكم عن سرّ القرآن ، ونور العرفان ، وبرهان الزمان ، وشرف الانسان ، وجمال الدين ، وفضل رب العالمين . بماذا أحدثكم ؟ أحدثكم عن نبأ السياسة الشرقية والغربية ، في الآيات القرآنية ، سيقول قائل ما هذا التشويق ؟ وللم هذا التثنيق ؟ قل وأوجز ، واقتصر وانجز . فأقول :

لقد خطر لي خاطر منذ عشرين سنة ، إذ قرأت في إحدى الجرائد أن انكثرا لما رأت أن ذكورها يقلون عن أنثاهما في كل ألف نفس ١٥ أي تزيد النساء عن الذكور ١٥ في كل ألف ، وانهم ينادون بالويل والثبور ، ويقولون : لمن نكل أمر هؤلاء النسوة ؟ وذلك في ناديهم الأكبر المسمى (البرلمان) .

فلما سمعت ذلك عجبت كل العجب ! وفكرت في أمر الانسان والحيوان ، فوجدت حقا أن النسبة محفوظة في كل أمة من أمم الأرض ، وفي كل حيوان ، وفي كل قرية ، فهالني الأمر جدا ، وأخذني العجب كل مأخذ ، وقلت في نفسي : ان عناية الخالق الحكيم قد لاحظت كل حامل من حوامل الانسان والحيوان ، وراعت النسبة بين الذكور والاناث ، ولو أن أهل مصر ، وأهل سوريا مثلا ، لم يولد لهم اناث أود ذكور مدة ثلاثين سنة مثلا لا تقرض الأمة اقراضا تاما ، إذ لا يجد الذكور لهم اناثا يلدون لهم . ثم نظرت فوجدت القاعدة مطردة ، أي أتى وجدت في كل قرية وبلدة ومصر قد تساوى تقريبا ذكورها واناثها ، ولم يذرها الله قرية ولا أمة من هذه المساواة ، لافرق بين المتوحشين والمتمدنين ، ثم نظرت في الحيوان فوجدته كذلك فلم يمنع الاناث أو الذكور من البقر في بلدة حتى يحتاج الذكور أو الاناث من بلدة أن يذهبن إلى أخرى ، بل رأيت الله قد حفظ النسبة تامة غير منقوصة . ثم أتى بعد ذلك اطلعت على هذا الاحصاء فأيد قولي وهو :

(١) إن القارة التي يزيد عدد النساء فيها على الرجال على وجه العموم هي أوروبا فان نسبتهم إليهم كنسبة خمس إلى أربع .

(٢) وأن نسبة الرجال إلى النساء في آسيا كنسبة ١٠٠٠ إلى ٩٧٣ وفي افريقيا كنسبة ١٠٠٠ إلى ٩٦٨ وفي استراليا كنسبة ١٠٠٠ إلى ٨٢٢

هذا الاحصاء ربما كان تقريبا ولكنه على كل حال أيد نظريتي . هناك فكرت في أمر آخر :

الصناعات والعلوم

قلت : ها أناذا أنظر فأرى الأمم كلها فيها قادة وفلاسفة وحكام ، وفيها صناعات ، وفيها عمال ، يظهر لي أن الفضول لما خلقت روعيت فيها النسبة ، لأننا نرى أهل أوروبا الذين انشروا العلم بينهم أقلهم مفكرون للمجموع وأكثرهم لأعمال خاصة ، أو علوم تناسبهم ، فهالني الأمر أيضا ، وقلت : يظهر أن الحكمة العاتمة كما راعت

النسبة بين الذكور والاناث بالمساواة راعت النسبة في أعمال الحياة وعلومها على مقتضى الحاجة كلعادن من ذهب وحديد وفضة ، ثم هذه صارت عقيدة عندي ، وقلت : إذن هذا الانسان ظالم جاهل لأنه لم يضع كل عقل فيها خلق له .

الأرض واستعدادها

ثم نظرت الى الأرض التي نحن عليها فوجدتها مختلفة الاستعداد ، ففي بلادنا تزرع القطن وبلاد الانجليز لاتصلح له ، وهم محتاجون لصنع قطننا ، وهكذا كل بلدة من بلاد العالم لها خاصية ، هتتوتت خواص الأرض وخواص العقول ، فأيقنت أن الحكمة عامة ، وأن الانسانية طفلة ، وأنه سيأتي يوم يعرف الناس هذه النظرية ويسخروا كل عقل فيها خلق له كما يستعملون كل أرض فيها خلقت له ، ومستحيل أن يسعد الناس على الأرض إلا اذا فعلوا ذلك أي شغلوا كل العقول في جميع الأرض ، فالأرض عروس ازيفت للناس وهي محبوبة عنهم حتى يهينوا لها جميع العقول في الشرق والغرب ، ذلك هو مهرها الذي ينالون به ثمراتها ، ثبتت هذه العقيدة عندي .

نظرتي في الأمم

ثم نظرت في حال الأمم فوجدتهم في الشرق والغرب جميعا يجهلون هذه الحقيقة ، ومن عرفها منهم لا كما بلسانه ، وقلبه بالظلم والفسح مشغول ، ونظرت في سياسات الأمم شرقيها وغربيها فما نوع الانسان إلا أشبه بالذئب والتمور والصقور ، كل لكل راصد ، وله محارب .

تأليف « ابن الانسان »

هنالك أذنت كتاب « ابن الانسان » وذكرت فيه ان الله يعاقب الأمم على جهلها ولا بد من حرب يجتمع فيه أهل الشرق وأهل الغرب ، واطلع عليه أهل أوروبا سنة ١٩١١ م وذلك قبل الحرب الكبرى بأربع سنين ، ولقد كان عجباً عظيماً حينما اطلعت على تقريرها فقلت العلامة الأستاذ (ساتلانه الطلياني) من فلاسفة ايطاليا وحكامهم ، فقد لخصه في مجلة بلغتهم التي نشرها في أوروبا ، هكذا ورد ذكر هذا الكتاب في تأليف العلامة (كراديفو) الفرنسي في هذه السنة (١٩٢٦ م) وسأذكر لك كلامهما قريباً هنا ، فالكتاب إذن ظهر منذ ١٧ سنة وتأليف التفسير لم يكن بطريق جدي إلا في هذه السنين ، وقد أتممت منذ سنة ونصف وهأنذا الآن أي في أوائل سنة ١٩٢٧ م وقد تم للطبعة ، فانظر ماذا حصل :

توجهت منذ أيام إلى ناحية المرح (كما تقدم في سورة الأنفال) وقابلني عالم بعلم الزراعة ، وأراني حشرة صغيرة هنالك الأشجار ، فإذا جرى ؟ فكرت في أمر الحشرة ، وأن انثها قد تلد بغير ذكر ، وانها أشبه بالنار اذا شبت في بيت أحرقت بقية البيوت ، فهي وجيع الأمراض العامة والطاعون وأمثالها اتخذت الكرة الأرضية كأنها قرية واحدة تنتقل من شجرة إلى شجرة ، ومن حقل إلى حقل ، ومن أمة إلى أمة ، هنالك تفكرت في قوله تعالى : « وأصلحوا ذات بينكم » في سورة الأنفال ، فذلك هو الاتحاد بين المسلمين وفي قوله تعالى هنا : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » .

الذكورة والانوثة اتحدتا في أدنى الحيوان ، وفي أدنى النبات ، ثم أخذ الافتراق الشخص يظهر في الأصناف العالية فيهما ، فإذا جرى ؟ أخذ الصنفان يتعارفان بأنواع المعارف من جبال وأخلاق وآداب ، فاجتمعا وتزوجا وولدا ، هنالك رجعت إلى هذه الآية وتفكرت في كتاب « ابن الانسان » فوجدته

معنى هذه الآية ، لأنها ابتدأت بالذكورة والانوثة ، وهي التي عليها بنيت كتاب **(أبن الانسان)** ، هناك أخذني العجب كل مأخذ ، وعلقت أن كتاب **(أبن الانسان)** الذي أعجب به أهل أوروبا وقالوا في فرنسا وفي إيطاليا : انه ينمش العقول والأرواح هوسر هذه الآية ، فأنا هناك ظننته من آيات أخرى مثل قوله تعالى « وكل شيء عنده بمقدار » الخ ولكن هذه الآية صرحت بمبدأ الفكرة ونهايتها ، فبدؤها الذكور والاناث ونهايتها التعارف العام بعد اختلاف الشعوب والقبايل ، وقد قدمت لك اني قست جميع العلوم والصنائع على الذكور والاناث ، إذن الآية تفسر بالكتاب جميعه ، وعلى هذا تكون هذه الآية خطابا للأمم كلها بدليل انه قال : « يأيتها الناس » ولم يقل أيها المؤمنون ، وانما قال يأيتها الناس لأن هذا السلام مرجعه العقل كما بينته لك ، فاني لما ألفت الكتاب لم أولفه باعتبارانه دين بل هو مبني على العقل ، فهذه الآية وان كانت مقدسة فهي خطاب للعقل الانساني العام ، إذن على المسلمين أن تقوم فيهم طائفة مفكرة تبحث على نحو ما بحثت في كتابي **(أبن الانسان)** وذلك بعد أن يساروا الأمم في العلوم العصرية ، وهذه الطائفة يتمون ما ابتدأته في كتاب **(أبن الانسان)** ويخطبون الأمم بالعقل كما خاطبناهم ، وحينئذ تكون حقيقة : « خيراة أخرجت للناس » فيكون في العالم الاسلامي جامعتان : جماعة تصالح ذات البين بين المسلمين ، وجماعة حكماء مفكرون للتعارف مع الأمم وتسمى « جماعة التعارف » تجنبا بالقرآن ، ويهتمون الأمم أن التعارف مبني على البحث العقلي الذي ابتدئ بالذكور والاناث ، هذا ما سنعلم في هذه الأيام سطرته ليكون تذكرا لمن بعدنا . وهاك ما وعدتكم من ذكر ما كتبه الاستاذ (ستلانه) والبارون (كراديفو) وانما أكتب هذا لك هنا :

(١) ليكون أمامك ملخص الكتاب بقلم فيلسوف أوروبي حتى يقدم الشبان بعدنا على الحكمة والعلم والتعارف بالحكماء في أوروبا والصين كما أمر ربنا .

(٢) لتعلم أن أم الأرض مستعدة للتفاهم والتفعل .

(٣) وأن القرآن حقيقة دين الفطرة .

(٤) وانى مع انه ليس بيني وبين أحد من أهل أوروبا معرفة ولا مخاطبة ، ولم تكن من المسلمين جماعة يشقون أزرى ، بل كان الفضلاء من أهل بلادى يعرضون عنه اعراضا ، بل أكتب وحيدا فريدا لا ناصر لى إلا الله عز وجل الذي سبب الأسباب ، فطبعت الكتب وانشرت بلاقوة تنشرها إلا قوة الايمان واليقين بالنصر .

أقول : انى مع هذا أرى حكماء أوروبا وكبراءها يقرءون كتاب **(أبن الانسان)** ويقرءون هذا التفسير أيضا ، فمن هذا تعلم أن للامم الاسلامية مستقبلا باهرا ، فسيفرءون هذا التفسير وأمثاله ، ويقوم فيهم حكماء وعلماء ، وينون على ما أسناه ، ويشيدون ما بينناه ، ويجدون الأمر عليهم سهلا لطيفا ، إن الله أيدنى ونصرنى نصرا مؤزرا ، وهذا النصر هو للأمم الاسلامية الذين سيقرءون هذا التفسير بعدى ويقرءون كتبى الأخرى ، فسيسبرون في طريق الرقى وهم مجتدون منصورون ، وليفتحن فيهم نافعون ، فلا بدنى بتقريظ الاستاذ (ستلانه) الذي ترجمه المرحوم مصطفى أفندى رياض من الطليانية إلى العربية وهاك نصه : « قال الاستاذ ستلانه : ليس من يجهل بمصر الشيخ طنطاوى جوهرى الممرس بمدسة المعلمين الناصرية فهو ذلك الكاتب النحور ، والمحرر الشهير ، ذلك الانسان ذوالعقل الكبير ، بل هو أحد رؤساء الحركة السياسية الاجتماعية التي انتشرت في كافة طبقات الشعب الاسلامى تحت اسم الجامعة الوطنية ، وتلك الحركة ترى إلى الاستقلال السياسى والاصلاح الدينى طبقا لمنهج مرسوم بيد المدي مشوب بشيء من الاجتهاد ، وذلك بقصد التوفيق بين العلم وبين ما جاء به القرآن الكريم ، وبقصد الرجوع إلى تلك التقاليد الجليلة التي

ازدانت بها حضارة الاسلام في غابر الأيام ، فقد أراد المؤلف أن ينشر هذه الأفكار ويثبثها بين قومه نارة بالخطابة
وأخرى بالكتابة ، فما دون في هذا المعنى كتابان جديران بالذكر ، وهما « نظام العالم والأمم » و « همزة
الأمم وحياتها » وأخر مصدر من مؤلفات ذلك العلامة الكثير الأثر هو كتاب « ابن الانسان » ذلك الكتاب
الحديث الذي انشر منذ عهد قريب ، وهو الذي أردنا التعريف عنه ، كتبه الشيخ أسيما وقال فيه انه يقتمه
لمؤتمر الأجناس العام الذي عقد بلوندره في يوليو وأغسطس سنة ١٩١١ م كهديبة لحكام الخاقين ، وعلما
المشركين ، وفلاسفة الغربيين ، وساسة العالم أجمع ، والحق يقال انه لعمل انساني عظيم في قالب احتجاج
سياسي ، ولم يك كتابه موجها إلى المصريين فقط بل للعالم كله ، لأن المسألة التي يريد حلها هي مسألة العالم
بالاجماع . قال المؤلف : انه بينما كان في ليلة من شهر مايو سنة ١٩١٠ بنظر إلى السماء ليكتشف مذهب هيل
الذي أندر علماء الفلك الناس بعودته في هذا الزمن ، سحبت له سوانح للقارنة بين نظام العالم الجليل ، ونظام
الأمم الضئيل ، فرأى بونا شاسعا مؤلما ، فسأل نفسه : أمن المحتمل أن تكون هذه الأجرام السماوية
محرومة من سكان مثلنا ؟ واذا كانت معمورة فكيف تكون حياة تلك الجماعات ؟ أهي أقل كالأما ؟
وكيف تكون حال الانسانية بعد مرور خمسة وسبعين عاما عند ما يعود المذهب لزيارتنا ، أهناك أمل أن يجد
الناس أقل وحشية ، وأقل ظلما ، وأقل خشونة ، وأقل ظلما ؟

وبينا كان في ليلة ٢٩ مايو سنة ١٩١٠ م تتجاذبه الأفكار وقع في نوم عميق إذ رأى نورا مشرقا
وشابا جيل الطلعة كأنه روح طاهرة تطوف العالم آتية من مذهب هيل لرؤية الأرض ، فقال له : ابن الانسان ؟
فأجاب المؤلف بتأثر وانفعال : نحن أولاد بنو آدم نوع الانسان (وهنا دارينيه وبين الروح حديث دام عتة
أيلم) قالت الروح : أظنون أنكم تتلون الانسانية الحقة ؟ وبأي طريقة يستعمل الانسان هذا الاسم ؟ ألم تقل في
كتيبك انه حتى الساعة لم ير إلا تقدم مادي في المدنية ولكن المدنية الحقة هي المؤسسة على الوجدان والصدقة والعدل
والاحسان ، أفلم تك زهورها نادرة عندكم ؟ فأجاب المؤلف : ان كان للانسانية مساوي فان لها أيضا فضائل
وان كانت أنجبت أشرا فلاها أن تتفخر بمن أخرجتهم من عظام الرجال كالأنبياء والقديسين والفلاسفة
والحكام الذين بشرقونها ، فأجابت الروح : أظن أن ذلك يكفي ؟ أنت لاندرى حقيقة الانسان ، إن للمادة
قابلة لتطورات كثيرة مبتدئة من المعادن للانسان ، هكذا الروح الانسانية لها قدرة غير متناهية من كالات
يظهر أن الانسان يجملها . لوعرف الانسان شرف طبيعته وتعهدها كما يجب لوصل إلى مستوى ما يأمل ،
ولكنه ماذا عمل بفطرته وعقله ؟ فلم يرين الناس سوى المشاكسة والحاربة والظلم تحت ستار من النفاق
والخيانة والفساد ، وهذه القوات هي السائدة على جماعة المتمدينين ، ولإنيبات ذلك نرجع إلى العلم ونسأل
فلسفة (داروين) الذي رأى الأمم القوية تقتك بالضعيفة وتبيدها من الوجود ، حكيم بأن لافلاح إلا بالقلبة
وقوة السلاح ، وكذلك قيل : « إن الأمم التي تأكل اللحم تقهر النباتيين » ، فكذبهم الأفعال وانتصرت
اليابان في حربها مع الروس ، هكذا بينا الحيوانات التي من فضيلة واحدة تعيش براحة بعضها مع بعض فان
الشعوب التي هي أكثر حضارة على العكس من ذلك روابطها قائمة بالظلم والوحشية الدائمة ، فأين الانسان ؟
ثم سألته الروح : لعلكم تفخرون بالسك الحديدية ، والتلغراف الذي لاسلك له ، واتقان السلاح من كل
نوع ، وهذه كلها لفائدة الأمم الغالبة فانها تنزع السلاح من الأمم المقهورة ، وتتخذها خدما وعبدا ابتغاء
مرضاة الشهوات المادية ولزيادة الزهو والمسارح ، وعليه تكون نتيجة تقدم المدنية هو اعطاء الحق للأقوى
فتي يفهم الناس أنهم لم يعرفوا للآن من كتاب الطبيعة الأكبر إلا بعض حروفه ؟ ومتى يفهمون أن لافرق
بين استعداد وكفاءة انسان وانسان وجنس وآخر ؟ واننا كلنا من نوع واحد ومن طبيعة انسانية واحدة ؟
ألم يك أوروبا في اليوم المتمدين هو سلالة أوائك البرابرة التريين الذين سربوا ملك الرومان ؟ من يقدر أن يجزم

بأن زنجي اليوم وهو ذلك الفقير المتوحش لا يكون له مستقبل باهر ؟ واعلم أن القضية العتيقة القائلة بأن القوى - يقاب الضيف لا تنطبق على العصر الحاضر الذي يقضى بأن العقل فوق القوة ، هنا يعصر المستقبل فمن واجب الانسانية المقدس أن تتحد حتى تحكم الطبيعة ، وتستخرج أسرارها ، وتؤهل العقول لمصر جديد في التاريخ حتى لا يصبح فيه أسياد وعبيد ، ولا يقال قاهرون ومقهورون ، ولتكون الانسانية واحدة متحدة في العلم والعمل والمنافع العامة ، فهلا كان من الأمم حولكم أولوبقية ينهون عن الفساد في الأرض بترك زراعتها ، وعن خراب العقول بتعمد اهمالها ، وفي كليهما ضرر عظيم على المجموع الانساني ؟ ذلك أولى من استعمالهم القوة لناواة الضيف واستبعاد من لا يقوى على الدفاع . اعقلوا أيها الناس ! فأين الانسان ؟

عادت الروح للسؤال : ماذا تنفعه النباهة التي وهبها الله له فهو أشبه بطفل أعطاه أبوه سلاحا فضرب به نفسه لجهله استعماله ، وهنا عدت الروح كثيرا من افراط مساوي الجمية الانسانية كالزخرف والزينة والنفاق والسكنب في الحياة الاجتماعية ، وتكلمت على الخداع الذي ساد في الشعوب السياسية ، أولئك الذين يعلنون بأستهم ما يخالف ضمائرهم تبعا لمنافعهم الذاتية ، هنا انقطعت المحادثة حيث اختفت الروح ولم يرها المؤلف إلا بعد ثلاثة أشهر ، وتبع ذلك فصل في الحكم أودع فيه المؤلف الأفكار التي أثرت فيه من منظر الطبيعة وصفاء السماء ، وجمال المنظر ، وتقريد الأطيوار ، وهلم جرا ، كل ذلك قاده لفكر واحد ، وهو : أوجد في العالم جمال كثير ، وروني بهي ، ونظام هكذا كامل ولا يشعر به الانسان وفي نفسه فضائل طبيعية وبشور بديعة من المحبة ، يظهر أن الانسان لا يعرف ذلك لأن شهواته وأمياله أسدلت تقابا على عقله ، فلذلك هو يجهل ذاته والعلم هو الذي ينجي فيه المحبة ويقربه لآخوانه ، فاذا كانت الطبيعة السفلى قادرة على ذلك الروني وكان الانسان ميالا للخير ، أفلم بأن أن يأتي اليوم الذي يرى فيه نفسه حكما مستقبلا بالعلم فيعرف ماله وما عليه ؟ فاليوم يستثنى بعض العلماء كالعلامة (كنت) الألماني و (هربرت سبنسر) الانكليزي وأمثالهم ممن يستخدمون علومهم للتوفيق بين الشعوب ، وازالة البغضاء من بينهم ، وسيأتي يوم تظهر فيه الانسانية بظهر يختلف عن سابقه ، وبيتنا كان المؤلف يفكر في ذلك عادت الروح إليه في ليلة من يوليوسنة ١٩١٠ وعرضت عليه سياحة سهارية فتقبل بالارتياح هذه السياحة في العالم السهاري إذ رآها فرصة جديدة لوصف عجائب السموات ، ومن ثم يهرج على الفكرة الأساسية ويقول : كيف يبعد الانسان الذي يقدر أن يفهم هذا الترتيب العجيب عن المنظمات الاجتماعية ؟ فأجابته مرشده : ذلك لأن الانسان لم يترك طباعه البهيمية ولا أفكاره الأولى ، ثم أذى بهما اللطاف إلى كوكب غير زحل ، كوكب لا يعرفه علماء الفلك ، فوجدوا فيه أربعة آلاف أمة مختلفة ولكنها مجتمعة في شكل حكومة واحدة باسم نادي الأمم العام وهو ذلك الحكم الذي نصبوا إليه نفوس الناس ، ولكن شتان بين اليقظة والمنام ، ذلك النادي هو مجلس مؤلف من أعضاء فوضت الأمم المختلفة إليهم القيام بحكم هذه الجمهورية التاسعة الأجزاء ، فشاهد من مزايا العدل وحسن النظام والصدق في القول ما لا يحلم به أهل الأرض ، وقد سأله بعض أعضاء هذه الجمعية المباركة أن يصف لهم أحوال الانسان الاجتماعية ، فكانت إجابته سببا لخبرتهم ودهشتهم ، حتى أنهم لم يصدقوا أن الأرض مسكونة بالانسان بل سكموا على أهلها بأنهم وحوش ضارية في صورة الانسان ، وهنا انقطع الحلم ، وتبع ذلك فصل في المذكرات لاحظ فيه المؤلف الثريمة السائدة في العالم الطبيعي والكيمائي ، ونسبة المواد الثابتة التي تتصكون منها الأجسام المختلفة ، والنسبة المتعددة في تعداد الاناث والذكور في عالم النباتات والحيوان ، ثم فكرياتنا : أمن الجائر أن الخالق سبحانه وتعالى أعطى للآلة شرائع محكمة ، وأن العالم المعنوي الذي هو أرق منها يتركه لحكم المصادفة ، وكيف انفصت عرى الانسانية ، وقطعت تلك الرابطة التي نشاهدتها في العوالم السفلى ، اذا كان عضو واحد من الأسرة الانسانية ضعيفا جاهلا وحشيا فالأعضاء الأخر تتأثر به ، لأن الانسانية متضامنة

متحدة ، فالشعوب القوية التي نذل الضعيف تربي في نفوس أبنائها عادات البطش والظلم التي يكتسبها الغالبون فيتولد عنها تناجح سبب مستقبلهم الاجتماعي والسياسي ، وسيعاقب كل قريبا أو بعيدا على انتهاك حرمة القوانين الطبيعية ، كيف يسوغ لأمة أن تقول لأخرى لا تتعلمي ولا تفكري ولا يكن منك جيوش ولاقواد ، نحن أعلم منك بما يلزم لحمايتك ومصالحك وأنا عليك لساهرون .

مافائدة الكليات والمدارس مادام السؤاس يقولون مالا يفعلون ، ويعلمون ذلك لسيانهم ، ويفتخرون بأن هذه سياسة ، فلام الكليات اذا كان السؤاس يهدمون البناء ، أليس من العار أن العالم الذي حولنا من الأرض والسماوات معظمه عالم صادق ونحن ظالمون جاهلون كاذبون ، فالجهل يفرق الناس والعلم يزيدهم حبة ، وكلما قل العلم قل الحب ، ولذلك ترى الحكماء أشد حبا للناس ، والجهال والكذابين والسؤاس أقل حبا وأكثر طمعا وجمالا لئلا ، فعلنا ليس بالعلم الصحيح بل هو أبتري كما قال الفزالي : « البلاءة خير من القطانة البتره ، تنبجح بدعوى المعرفة مع اننا لم نزد إلا ما قرأناه في كراسة المعلم وقبلناه بغير تحقيق ، ثم ندعى خدمة الانسانية والمدنية وفي الحقيقة نخدم أنفسنا ، ليس هناك أم حكم عليها أن تعيش للأبد في الانحطاط ، وكما أن في عالم المعادن والنباتات تقل الأشياء الثمينة وتكثر التافهة هكذا تكون العقول البشرية فتري الأذكاء في سائر الأمم يقلون ، وأما الذين يمكن استخدامهم في الامور والأعمال العادية فهم دائما كثيرون » .

وعليه فلا يمكن أن يقال لأي جنس أنت محكوم عليك أن تبقى في مكانك بغير عروج ، فالحكم على أمة بالانحطاط جنابة عليها وعلى المجموع الانساني الذي يخسر بذلك عضوا عاما فرمناشأ فيها من العقول والآراء مايم بركانه الكون أجمع : فنلها والحالة هذه كتل من يستعمل الذهب والفضة لعمل مجلات السكك الحديدية وفي ليلة من شهر يوليو سنة ١٩١٠ أخذت المؤلف سنة الكرى فصادته الروح واستمحيته معها للكوكب الجديد فرأى الناس يرغبون ولا يرغبون ، وبالشوق والحب يعملون ، وسمع الموسيقى ونفمت الآلات تشف الآذان مرحبة بأعمال الحياة ، اذا شيخ جليل القدر ، وهو العالم الاحسانى في علم الأرض والمريخ قد بدأ بسؤال فقال : خبرني ماذا فعلتم بالانسانية ؟ وبماذا ارتقيتم من الحيوان ؟ فأجابه بالصناعات والعلوم ومعرفة استعمالها ، فقال الشيخ : أنت تشرح الحيوان وما يحتاجه الجسد ، ولكني سألتك عن الانسانية : فأى حكومة أسسم ولأى قطة وصلت السداقة والطهارة والحياة الداخلية والمحبة الانسانية ؟ فطلق المؤلف يدافع عن الانسان بتلك الأساليب الخطاوية المعروفة من حيث التضامن ، فذكره ذلك الشيخ بوحدة الطبيعة الانسانية (بصرف النظر عن الفارق السطحي في اللون والعقيدة) وتكوين الحكومات وما أشبه ذلك . وقال : إنما تعاليجكم الناقصة المبثورة هي التي بتغالها في الفوارق أوجدت بين الأمم المظالم والبربرية التي لم تقررها الطبيعة ، وقد استنتج الفيلسوف اليوناني (أبيقور) والعالم الطبيعي الانجليزي (دروين) بأن الأضعف لا بد أن يكون طعمة للأقوى وقاسا نظام الانسان على هذا الحيوان فرجعا بالانسان الى مرتبة دنيئة نابها الفطرة ويحسها العقل ، إلا أنكم يا بني آدم نوع واحد لا أنواع ، ولكم ناموس وقانون خاص لاتعتونه ، فأتم بكسب واحد ونفس واحدة ، فلا يصح أن يعتدى بضعكم على بعض لأن ذلك مضر بمصالح الانسانية العام ، الاتعلمون أن الانسان كلما كثرت أفراده زادت ثمراته على نسبة الأعداد المضاعفة ، فكما زاد العدد كثر للدد ، وبشكال الأمم تتكاثر الخبرات ، وعلى هذا القياس لا يصح أن يقال ان الأمم القوية تتكون أفيد للانسانية ، ولكن الأفيد لها ان كل أمة وكل قبيلة وكل فرد يعيش لما يصلح له ، ويقب الطريق المرسوم له من الطبيعة تبعا للمدل والعلم والفضيلة ، أفما كان الأجدر بدل الاقسام أن تجتمع الأمم فتشكل منها ناديا علما يتمهد بتحسين الجنس البشري ، انه ينقصنا كثير من العمل للحصول على ذلك ، فأى علاج يفيد

لاصلاح سوء النظام السائد ؟

سأل المؤلف ذلك الشيخ الجليل الاصمغاني في علم الأرض ، فأجابه معيدا إليه كلمات الاستاذ (كنت) في علم تربية النفس : « العلاج اثنان علم وعدل ، فهما يساس الملك ، وهما صنوان لا يضرقان ، فنظام العالم يجب أن يؤسس على ما أوجده الطبيعة والانسانية ، انظروا إلى نظام الكواكب الكبيرة والصغيرة ، فكل منها يطور في فلك لا يتعداه ، ولا يطفى كبرها على صغورها ، وهي نظرية محسوسة دلت عليها العناية العالية والجلدية التي هي أساس الطبيعة البشرية ، ولتكن كل أمة منكم كوكبا يحب الأعلى الأدنى ، فلا يطفى بعضها على بعض ، ولتكن الأمة الكبرى لأخواتها الصغيرة كالشمس للسيارات حولها تلتقي عليها أشعة علمها ، لا تبنى منها جزء ولا شكورا ، وليس هناك إلا طريق واحد للوصول إلى هذا الحل الانساني الأخرى المحبوب ، ألا وهو العلم ، ولتكن في جميع الممالك طرق متشابهة للتدريس لتعليم الأطفال منذ نعومة أظفارهم فضائل الحب العام ووزايا الحروب ، وبذلك تصل إلى الحل المرغوب ، ثم بين المؤلف طريقة التعليم التي يلقونها في الكوكب القريب من نبتون بالتفصل الثامن عشر وهي مبنية على مثال الحب في نوعنا العالى الشريف الذي هو بمثابة الكهروباة لا تتور إلا بالفرك ، فالنقاء والموسيقى والتأمل في جمال الطبيعة يثبت في الأطفال عادة اعتبار الانسانية كعائلة كبيرة وأن سائر الأصناف أعضاء لها متضامنون ناضون ، فبرى الانسان انه كائن مقدس نافع أخاه ويتهرب حياته لا تنهى عند ذاتها ، بل كدرسة تربي الأفرح والأزاح ، والمحرمات والمشتبهات ، والانسان فيها يستعد لمستقبل زاهر . وبالفصل التاسع عشر فصل مجلس الحكماء وضرب كثيرا من الأمثال الحسية للأمور العقلية ، وكلها ترمي إلى مبدأ الكتاب الأصلي ، وهو مشروع في صفحة ١٩١ و ١٩٨ و ١٩٩ و ٢٠٠ ، ولولا ضيق المجلة وعدم إمكان التلخيص لكانا أتينا على ترجمته إلى اللغة الطليانية بالحرف الواحد وبالصفحة ٢٠٥ نرى مظاهرات روحانية للنفس ثم لوحة الحياة الانسانية بصفحة (٢٠٠ - ٢٠٤) مأخوذة من لوحة المريح وهو المسمى (لفرقابس) وهو في ذلك يرمي إلى مذهبه السياسي في النظام الذي أشار إليه ، ويصعب جام غضبه على هام التناق والوحشية والجماعات الجنسية المقول عنها متمدنية ، ويقول : ان الذهب والفضة لا يجديان نفعاً ، ولا يفتيان شيئا ، بل هما للبدالة في المنافع وانهما لا قيمة لهما اذا لم يضاف اليهما تجمية النفس والفضيلة ، ومن ثم يذهب المؤلف إلى أن العوامل الخلقية بحسب الفلسفة العاتمة تختلف ، فتارة تكون للخير ، وتارة للشربعا للظروف ، فالتى للخير لا تكذب ولا تمسدى ومركزها الحق ونفس الانسان ، وفيها تكون سعادة الأمم حينما فتعاون الأجناس بعضها مع بعض لفائدة المدينة العاتمة ، وسيصلها نوع الانسان في مستقبل الأزمان ، وبالفصل التتم عشرين خلاصة الكتاب بالسفحة ٢٢٥ في بيان استخراج السلام العام في الأمم من النواميس الطبيعية ، والنظامات الفلكية ، والفطر الانسانية ، وقد سبقت الإشارة إليه ، ثم يلي ذلك فهرست ، وبالصفحة ٢٤٧ تحت عنوان « نغمة من موسيقى الكتاب » ضمنها الأسباب التي دعته لتحريره ثم أوضح ما كان يتخيل نضه من آيات كتاب الله العزيز ، وهي هذه : « وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » (جزء ٢٥ - ٢١) . « وكل شيء عنده بمقدار » (جزء ١٣ - ٩) . « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » (جزء ٢ - ٢٣٣) . « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » (جزء ٢ - ٤٩) . وعليه فان هذه النسبة ، وهذه الشرائع ، وهذه العدالة كلها هي التي تحكم العالم الطبيعي بأبعده ككثرات الاكسوجين والايديروجين الثابتة التي تتكون الماء وتدخل في تركيب سائر المواد في العالم الطبيعي والكيمياء ، وبمقابلة العالم النباتي بالعالم الحيواني معا ، وكذا بمقابلة العالم الحيواني بالعالم الانساني ترى الانسان يشاركهما في الغذاء والتناسل ، ويشارك الحيوان في الحركات الاختيارية والحواس والادراك والفرار والنبات والحيوان يولدان كاملين ، وكل منهما عنده من المدأ جيع ما يلزم لأداء وظيفته الخاصة ،

فالتسكوت تنزل الخيوط ، والنسفة تبنى خليتها بلا حاجة إلى مرشد ، أما الانسان فعلى الصكس محتاج للعلم فيقول
انه وان كانت العقول واحدة ، فالاستعداد الشخصي مختلف ، فوظيفة العلم يجب توجيهها لتربية الأفعال الانسانية
المختلفة ، ولكن التربية الحالية حائدة عن الصراط السوي ، وهؤلاء المتوحشون القاطنون حول بحيرة بناسا
بالسودان تجدهم أقوى أجساما ، وأصح أبدانا ، من المتمدنين كما قال عنهم المستر (كلرينتر) وترى قوة
الأهالي بالسودان عظيمة جدا كما ان بعض حوائدهم طاهرة لا تشوبها شائبة .

واذا قرأنا تاريخ الرومان مثلا نجد ما يدعش العقول ، فتراهم يفتخرون بفضو الأمم وتذرع الممالك ،
فرديلة في التربية الطبيعية التي تجرتها فغذى الأجسام تعطى العقول نماذج مشابهة لتلك التي عند الحيوانات
المفترسة وهي التي تطفئ في الانسان قابلية التقم التي هي هبة الطبيعة ، و بينا ترى الناس يصفون على
بعضهم بالقول تراهم يجهرون بامتداح القواد القائلين كذابيون ، ويشرفون الكذوب من رجال السياسة ،
فترى كل طائفة فرحة بما لديها ، قانصة بما وصلت إليه ، وأن الشعوب بلحبة شامل الجميع ، ولكن رغما
من سائر الموانع ترى حركة في عالمنا الحاضر تدفع الانسانية للأمام ، فالحق كامن في النفوس يجب البحث عنه
في الآفاق لاظهاره للناس على سطح الكرة ، ومتى تجلت الانسانية بهذا المنظر الذي يشده المؤلف ، فهناك
الوقاق والوثام ، الانسان آخر درجات ذلك السلم المتصل أولها بأخرها ، فمن ممدن لا ينجو إلى نبات ينمو
ويتوالد ويتدرج بالترتيب إلى حيوان يترقى فيصل إلى أعلى درجاته من قرد وقيل وأمثالها فيصل الانسان
إلى أعلاه وهو الذي يكسب بالتدرج خصال الكائنات التي تماثله مضافا إليها خصاله وفيه بذور المحبة والرحمة
كما قيل في « اخوان الصفاء » : -

« منذ ستة أجيال قبل الميلاد ظهر (بوذا أو جوطامي) فأوصى بالشفقة والمحبة والرحمة والطف على كافة
الكائنات الحية ، ولما ظهر دين المسيح عليه السلام أوصى بالرحمة والشفقة وحب النوع الانساني ، وكذلك الاسلام
منع القتال في الأشهر الحرم وحرم الصيد في الحرم وقتل المحتسب به ، وأجمعوا أن يقولوا للناس : ارحموا رحوا ، واطمأ
أن للحيوان ادراكا وشعورا ، وانه يتألم كما تتألمون ، ويشعر كما تشعرون ، فإياكم أن تؤذوه ، وهناك أبناء كثيرة
مأثورة عن علماء الانسانية كالحكيم سولون وسقراط وأبيقور والبارون هولباغ دلامتري وهلفينيوس ولكنهم
لم يقولوا على كبح جماح جهل واستبداد الانسان . وهامى طريقة (داروين) خطت خطوة للوراء وهكسلى
أوضح أن لا فرق بين أدنى الانسان وأعلى الحيوان إلا كما بين الحيوانات العليا والدنيا ، بل المسافة في آخرها
أوسع مما في أولها ، فظنوا أنهم وجدوا كنزا وأن الانسان الجاهل في مستوى الحيوان ، وانه يجوز للأمم
القوية احتضام حقوق الأمم الضعيفة باعتبار أنهم أدنى منهم مقاما وانهم ما خلقوا إلا ليكونوا لهم خادمين وعبيدا
مسخرين ، وضم الكتاب بخطاب حماسي للعالم حتى يتخلص الناس من قيود الاستبداد والامتداد ، ويتنسوا
رائحة الحرمة التي سنبها لهم الطبيعة البشرية .

هذا كتاب الشيخ طنطاوي الذي أردنا أن نوسع له في مجلتنا ، وماهى بالعادة المتبعة لديها ، لأن ذلك
الكتاب من الصنف العظيم الدالة في الوقت الحاضر على مبلغ أفكار وشعور الطبقة الراقية الاسلامية ،
وليس لنا عليه ملاحظة إلا تجاهله بالنسبة التاريخي وما يحدث عن العمل برأيه من اضطراب الأمم وارتيابك
الشعوب ، وما يصادفه القراء من صعوبة حل نظرياته ، ومن البديهي كما قال المؤلف انه لا يمكن في أقل من
عشر سنوات (ان أمكن) وضع أساس اصلاح اجتماعي عظيم مثل هذا ، وذلك بواسطة جمع أعقل رجال العالم
فيصليون بالكتب والرسائل لتعليم الأمم ما هو الحبيب العام ، وينشرون تلك المبادئ السامية بالمدارس ويلاحظون
تطبيقها ، ولكن مع ذلك ومع اعترافنا باخلاص المؤلف وعلو مقاصده في هذا الكتاب مع فصاحتها وبلاغته
وتفوق معلوماته التي يندر وجودها في الكتب واتساع جائرة فكره لا يسعنا إلا ان نعش من هدم مراتبه فوق

الأم التي حوله ، وتسلسل تاريخها وهو ما طالما أشارت إليه جرائدنا في العصر الحاضر » انتهى مقاله الاستاذ ساتلانه الطلياني عن كتابي « ابن الانسان » والحمد لله رب العالمين .

وهذا مقاله الاستاذ البارون « كركراديفو » وكلامه في « ابن الانسان » وفي التفسير ، وهذا كانت نشرته جريدة الاهرام في أواخر سنة ١٩٢٦ وقد ابتدأ بالتفسير وختم بكتاب ابن الانسان ، فذكرناهما معا لتشرح صدور أهل العلم في الاسلام ، وليعلموا أن ديننا روح العالم الانساني ، وليشجعهم على العلم والنشر ، وهاك ما قال : -

(١) « مصر الحديثة ، روح الديانة المصرية ، جامعة الأزهر ، الشيخ محمد عبده » .

(٢) « النهضة الاسلامية للشيخ طنطاوي جوهرى » .

(٣) « نشأة مصر الحديثة في عهد محمد علي باشا » .

وانتاسينين الثلاث مظاهر الرئيسية لتطور مصر الحديث وهي : -

(١) الميل الشديد الذي أظهره محمد علي باشا ورفاعة بك إلى التقدم والالتفات إلى معارف ومواهب أهل أوروبا .

(٢) العناية التي أظهرها رجالان من رجال الدين ، وهما الشيخ محمد عبده ، والشيخ طنطاوي جوهرى في تمثيل الدين الاسلامي وتأثيره في النفوس للنهوض بها إلى التطور الحديث .

(٣) الوطنية الحديثة الوهاجة التي مثلها خير تمثيل كل من ممطفي كامل وسعد زغلول .

وهذا ما كتبه المؤلف فيما بين صفحة ٢٧٥ و صفحة ٢٨٤ في الجزء الخامس من كتاب ابن الانسان بعد أن قرأه الاستاذ تفسيره للقرآن الشريف أحسن تقريرا : وقد تقدم ذلك التقريرا في أول المجلد السابع عشر من هذا التفسير فلانبيده هنا ، وقال بعد ذلك مانصه : -

« وقد نشر الشيخ طنطاوي كتاب « ابن الانسان » المطبوع سنة ١٩١١ الذي قرأه الاستاذ ساتلانه الطلياني الكبير في المجلة الشرقية بروما لستها الرابعة ، وللاستاذ كتب أخرى مثل : « نظام العالم والأم » و « نهضة الأمة وحياتها » ، وكتاب « ابن الانسان » هذا وضعه المؤلف بهيئة رواية فلسفية سياسية ، فهو في هذا يشبه الفارابي من حيث أصل الفكرة ، وابن طفيل من حيث الاسلوب والمنهج ، فجمع بين دقة الفكر وجمال الاسلوب وغيرهما .

« الاستاذ في هذا الاسلوب يذكرنا بأساليب علمائنا وأدبائنا في أوروبا مثل توماس موروس وكابانيللا وماصرتا هانوبتر .

« وصف الاستاذ الجمعية الانسانية وصفا لا يشرفها بالكمال ، بل أظهرت قائصها ، وأبان سوء أفعالها ، وأخذ يمدى ناصح ، ويبيد سيج ، لانتقام الأم ، واتحاد الدول ، بل يطلب ما فوق ذلك ، وهو الحب والاخلاص العام والمثل الأعلى في ذلك : ويتمنى (كما تمنى الفارابي) أن تكون الدول جميعها مؤسسة نظامها على الحب العام وتبادل المنافع : ولكن دولنا الآن في الأمم الأرضية وان كانت ارتقت ارتقاء ماديا لم يؤسس بنيانها إلا على تبادل الحرب ، وتخريب المدن ، وصقعة السلاح ، فأما تلك الأفسكار اللذيذة والمجبة العامة فهي مغلوب عليها ، إن الأساس الذي بنت عليه الدول الآن هو مسطره (داروين) الانجليزي ، وفقى على آثاره (نيتشه) الألماني من إبادة الضعفاء وغلبة الأقوياء . إن المؤلف خيالا ساميا غزير المعنى واسع ، فانه بينما كان ينظر إلى السماء في ليلة من ليالي ربيع سنة ١٩١٠ م وهو يبحث في مذنب هالي الذي يرجع مرة بعد أخرى ، أخذ يقول : يا ليت شمسي : اذا كانت هذه السماء الصافية بهجة النجوم منظمة فهل فيها سكان ؟ وهل

سكانها مثلنا في الظلم والقتال ؟ أم هم في هناء وعدل كما ترى في نظم السموات ، وبيننا هومستغرق في تأملاته إذ واقفه روح مشرقة النور ، بهية الطلعة ، في هيئة شاب جيل حسن الشكل ، فأخذت هذه الروح تناقشه ثم اقترحت عليه أن يجول معها جولة في السموات العلاء ، فلي طلبها بشوق عظيم ، وهذه الفكرة الخيالية تذكرنا بأحلام : باستر سيدول سويدنبرج

إلى أن قال : « ومن عجب أن المؤلف طبع هذا الكتاب سنة ١٩١٠ وقتباً فيه بطريقى حكمى شعرى بما جرى بعد ذلك بأربع سنين وهو الحرب الكبرى . إن مقصود هذا الكتابية هه ومافيه من المحاورات التصويرية هونشر التعليم العام ، والحب بين الشعوب والأمم بحيث يمتزج بمخانيهم وأشعارهم وموسيقاهم حتى يكون ذلك إلهاماً للأطفال في أول حياتهم ، وأن يكونوا محبين لجميع الأمم ، كارهين للحرب ، ناظرين بلجال الطيبة ، محترمين الجمعية الانسانية أى احترام .

هذا الكتاب بما فيه من جمال العلم والحكمة يبعث في الشيوخ نشوة الشبان ، ويبعث في النفوس الانسانية غراماً وولوعاً ، ويقلب الطبائع الانسانية بما فيه من السحر الحلال ، وهو يدعو الأمم كلها أن تكون أسرة واحدة ، تامة النظام ، وبيهي الأطفال في الأمم كلها أن يكونوا على نسق الأمم التي زارها والنصيحة التي سمعها من أولئك العلماء .

فقل هذا الكتاب المملوء حكمة وعلماً ، العزيز المادّة ، السامى الفكرة ، الناتج من تفكير عميق ، وبحث بقل نظيره يدعو دعوة حارة إلى سعادة الأمم أجمعين ، ويدعو أيضاً بالحماسة الشديدة إلى التجديد العام ، وهو مفخرة لمصر والاسلام . وقد قدم هذا السفر الجليل إلى مؤتمر الأجناس المنعقد في لندن في شهرى يوليو وأغسطس سنة ١٩١١ م « انتهى كلامه .

بهجة المناظر الخيالية ، وآثارها العلمية

في سرّ قوله تعالى : « إن الله عليم خبير »

في ليلة الثلاثاء ٢٥ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية الموافق أول فبراير سنة ١٩٣٢ م بينا أنا بين اليقظة والنوم إذ خيل لى كأن فى الجوّ رجلاً وليكى لأرى أشخاصهم ، وهم يتسامرون ، وهذا ماوعيت من حديثهم . قال أحدهم : حدثنى رعاك الله ، لم يقول الله تعالى فى آية : « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عندالله أتقاكم إن الله عليم خبير » . عليم خبيراً مع أن العلم والخبر مترادفان ، فقال الآخر : إن كمال العلم الاحاطة بكل شىء ، ظاهره وباطنه ، دقيقه وجليله ، وأوله وآخره ، وهذا على أتمّ الوضوح والكشف على أتمّ ما يمكن فيه . بحيث لا يتصور مشاهدة كشف أظهر منه ثم لا يكون مستفاداً من المعلومات بل تكون المعلومات مستفادة منه ، فأما الخبير فهو الذى لا تعزب عنه الأخبار الباطنة ، ولايجرى فى الملك والملكوت شىء ، ولا يتحرك ذرّة ، ولا تسكن ، ولا تضطرب نفس ، ولا تطمئن إلا ويكون عنده خبر .

فلما سمعت ذلك ، قلت فى نفسى : هذا هو الترادف بعينه ، فأين الجواب ؟ وهناك جاشت نفسى وهى لاتزال فى حال تشبه حال النوم ، وأخذت نسأل نفس السؤال وهواتهما مترادفان ، فما كاد الخاطر يتخاضر لى بذلك حتى سمعته يقول له : إن معنى العليم هومعنى الخبير ، ولكن هناك فرق ، لأن العلم إذا أضيف إلى الخفاء الباطنة سمي خبرة وسى صاحبها خبيراً فهو أشبه بذكر الخالص بعد العلم ، فهناك زاد اضطراب نفسى وقلت فى نفسى : يسبحان الله ، ولم ذكر هذا الخالص ؟ أنسكتة العلم لا المنفعة للمسلمين ذكر هذا الاسم هنا ،

فبالت شمرى هذه الآية المذكورة في أمر نظام النبوة الاسلامية ، ونظامها يقضى أن الناس جميعا متساويون فيبقى تعارفهم ، وأرقامهم هم الذين اتقوا ، وهم الذين يذكرون ربهم فلا يفسقوه ، ويطيعونه فلا يصونه ، وما كذا الخاطرين حتى سمعته يقول له : إن هذا سرّ قول علماء مصطلح الحديث ، إن الجرح مقسم على التعديل ، وهناك استيقظت وأنا في دهش من هذا المثال ! أولا هو يوافق ما أنا بصدده ، ولكن الفائدة لم تتم ، فرجعت إلى معنى « علم خير » في كتاب شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي رحمه الله ، فوجدت هذه المعاني بنصها وفضها ، فلم يبق عليّ إلا أن أفهم ما المقصود من الجرح والتعديل ؟ وما نتائجها هنا في نظام النبوة والممالك ؟ وهنا توجهت لمبدع الكائنات ، وهو الذي علم تلك الأرواح العالية ، فأنا منه أقنيس المعرفة وهو معلم الأولين والآخرين ، ففتح عليّ وتذكرت ما ذكره ابن خلدون في المهدي المنتظر ، وتقدم ذلك في أول « سورة الحج » فقد ذكرت هناك أن ابن خلدون رحمه الله نقل جميع أحاديث المهدي ، وأن في بعض رواياتها طعنا ، وإذا كان في الراوي تعديل وجرح فالجرح مقسم ، وعلى ذلك تكون أحاديث المهدي فيها ما فيها ، وبهذه الأحاديث قامت شيع في الاسلام ودول ، ولكنها عفت آثارها ، ومن آثاره الأمام حسن بن الصباح الذي تقدم ذكره في « سورة الكهف » عند آية : « وما كنت متخذ المضلين عضدا » وكيف أمر أتباعه بشرب الخبيث حتى سماهم المؤرخون حشاشين ، وكيف ظهر لهم بهيئة مقدس معصوم ؟ وكيف اقتادوا له ، وكيف يكون الدرس الذي ألقاه على أتباعه في القرن الخامس الهجري هو نفسه الذي تلقاه محمد بن تومرت وهو معاصر للقرطبي (الذي يقال انه لاقاه) بعده حذوا قلعة بالقذة ، فالأول كان في قلعة الموت بناحية أسبهان ، والثاني بالمغرب الأقصى ببلاد السوس ، وكل منهما ترفع وتعالى على أتباعه ، واعتقدوا فيه العصمة ، وكلاهما أمر فأطع ، ومنعنا الناس العلم ، واستند كل منهما إلى أحاديث المهدي .

محدثات في أمر المهدي وما مناسبتها لاسم الخبير المذكور في الآية ؟

ويبين أن سرّ القرآن بذكر هذه الأسماء قد ظهر الآن ، وأن المسلمين في مستقبل الزمان سينتفعون بهذه المعاني الجليلة البديعة

حضر صديقي العالم الذي اعتاد مناقشتي في هذا التفسير . فقال : هذا مقام غريب ، الآية جاءت لعدم التفاضل بين الناس إلا بالقوى ، ولكن الخبرة إلى الآن لم يظهر المقصود منها ؟ ذكرت المهدي ابن تومرت وذكر حسن بن الصباح ، ولكن لم تظهر المناسبة القائمة بين هذا التاريخ وبين الآية ؟ فقلت بإصاح : أذكرك بأن الأحاديث الكثيرة التي وردت في المهدي جعلت أمره موكولا إلى النسب ، وهؤلاء بتلك الأحاديث مع ماضوهم إليها من الاغراء والتحذير قد رفعوا أنفسهم فوق الأمم ، فاستكان المسلمون أي استكانة ، وخضعوا ، وتركوا العالم بأمرهم ، وحرقوها ، ولانزال آثار تلك الظلمات إلى الآن .

اللهم أقتد المسلمين من ظلم واسارهم ، اللهم أنجز وعدك الذي وعدت أن تكون خیرامة أخرجت للناس اللهم انك أنت اللهم المعلم ، فأقتد أمتنا من الجهالة العمياء . فقال : أي جهالة تريد ؟ فقلت : ألم تعلم ما سرّ سابقا في هذه السورة وما قبلها من أخبار العباسيين والأمويين ، وأن العباسيين قاموا باسم المهديين ، وأن الأرض تملأ عدلا ونورا بعد ما ملئت ظلما وجورا ، هل برؤا بوعدهم الأمة ؟ ألم يقتل السفاح رجالات من الأمويين كانوا في ضيافته ؟ ألم يبنشوا القبور ؟ وإذا كان العباسيون هم الذين جاء الحديث بأنهم يملئون الأرض عدلا ونورا ، مخلصين المسلمين من ظلم الأمويين الذين أهانوا آل البيت ، وظلموهم ، وظلموا المسلمين ، فكيف يخلدون الأمويين في العسف والجور ويبيدون عليهم حتى أن محمد بن عبد الله الحسني الذي كانت له البيعة الصحيحة كما تقدم قريبا يحيى على أيامهم ، فأين العدل ، وأين النور ؟ وأين المهديوية التي جيء بها

للمسلمين ؟ أليس ذلك لاستكافة النفوس ، وتقديم التعديل على الجرح . وجعل النسب في القربة العليا ،
وهدم الاكثرات بالتقوى ، ولا الفضائل الانسانية التي جاء بها نص الآية هنا ، وهي التي يفهمها تمام الدول
ويجهلها نذل ، جهلت الأم الإسلامية آيات القرآن الصريحة ، هاهوذا القرآن يقول على رموس الأشهاد ،
ان الفضل بالقوى ، وهاهي هذه قصة طالوت (في البقرة) ضربت الله كركصفا عن النسب ، وجعلت الملك
تاجا للعلم والقوة ، إذن جعل المهدي تبعا للنسب من أكبر مصائب الاسلام ، لأن هذه العقيدة أخذت تتعالى
بين الناس ، وأخذ الدجل والبهتان والكذب الصراح ينتشر بين المسلمين ، وأخذ أولئك الرؤساء يشنون الجهالة
بين أم الاسلام ، ويرجعون الرموسين إليهم انكالا عليهم واستعاذة بهم غالبا ، وقد تقدم هذا وانحفا في
آخر (سورة ابراهيم) عند ذكر آغا ممنون بالهند ، وفي (سورة الكهف) كما تقدم ، وفي (سورة
الشعراء) عند آية السحر ، وفي (سورة سبأ) عند آية الرؤساء وللموسين ، وفي مواضع أخرى فلا يفيد
هنا ، وهذا كله إنما جاء من عدم البحث في تاريخ المسلمين وأحوالهم حتى يستبينوا آثار التقليد الذي هذ
مجد أمتنا الشائع ، أنا لست أنكر فضائل بعض المهديين في الاسلام ، ولست أنكر اني تعلمت في الأزهر
الشريف الذي هو ثمرة من ثمرات المعز لدين الله الفاطمي ، ولست أنكر أن هؤلاء أفادوا المسلمين ، ولكن
المنفعة إنما جاءت بسبب العقول الكبيرة المودعة في هؤلاء كملك الذي أقامه محمد بن تومرت وأحاطة بالأحوال
المستعبدة للشعب ، فبقى الملك أمدا ثم ذهب وهكذا الفاطميون ، ولقد عاش المسلمون زمانا ليس بالقصير
قرونا رقرونا وهم يتفثون ظلال الألفاظ ، فناموا عليها ، وهكفوا عكيفا أدى للنوم العميق ، إن تعاليم المسلمين
ومنهم أهل الأزهر الذين أنا منهم قد بقيت خاضعة لظواهر الألفاظ ، وتركت جمال الطبيعة ، وجمال النجوم ،
وجمال العقول ، وبهاء الحكمة ، فطمست النفوس ، ورضفت القبول ، وانكسبت الأمة في تلك القرون
حتى وقتنا هذا .

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : لقد طال الكلام فليكن المحجوم على الموضوع ، لأني أريد العلاقة بين
ذكر العليم الخبير ، وبين ذكر تاريخ المهديين الذي ذكرته هنا (وعبارة أخرى) أريد ماهو السر في ذلك ،
وما علاقة هذه الأسماء الحسنی بهذا التاريخ ؟ وبظام أم الاسلام ، فأرجو أولا ذكر حديث واحد من الاحاديث
وان كان قد تقدم في (سورة الحج) لندرس الجرح والتعديل فيه . ثانيا : اذكر نتيجة ذلك لبيان المقصود .
فقلت : جاء في الجامع الصغير مانصه : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا رأيتم الرايات السود قد
جاءت من قبل خراسان فاتبعوهم فان فيهم ولي الله المهدي » (حم لك عن ثوبان) . وقال الشارح : اسمه
محمد بن عبد الله يأتي قبيل عيسى أومعه . قد ملئت الأرض ظلما وجورا فيملؤها قسما وعدلا . وقال بعد
ذلك : قال الشيخ حديث صحيح .

فقال : فاذا ذكر لي أولا ماهذه الرموز ؟ وما تلك الرموز التي تقدمت في تخريج احاديث الاحياء المتقدمة في
هذه السورة فاني لا أعرفها ، وثانيا : اذا كان الحديث صحيحا فكيف تتجارزه وقول إن احاديث المهدي
ضعيفة ؟ فقلت : الجواب عن الأول ان الرموز تبلغ ٣٠ قال فأرجو بيانها . فقلت هاهي ذه :

(خ) البخارى .	(ن) النسائي .
(م) مسلم .	(هـ) لابن ماجه .
(ق) طهبا .	(٤) هؤلاء الأربعة .
(د) لأبي داود .	(٣) لهم إلا ابن ماجه .
(ت) الترمذی .	(حم) لأحد في مسنده .

- | | |
|---------------------------------|--|
| (ع) لعبد الرزاق في الجامع . | (عم) لابنه عبدالله في زوائده أي زوائده مستنديه |
| (ع) لأبي يعلى في مسنده . | (ك) للحاكم . |
| (قط) للدارقطني . | (خد) للبخاري في الأدب . |
| (فر) للدبليسي في مسند الفردوس . | (خج) له في التاريخ . |
| (حل) لأبي نعيم في الحلية . | (حج) لابن حبان في صحيحه . |
| (هب) لليهقي في شعب الإيمان . | (طب) للطبراني سليمان اللخمي في الكبير . |
| (هق) له في الدين . | (طس) له في الأوسط . |
| (عد) لابن عدي في الكامل . | (طمس) له في الصغير . |
| (حق) للعقيلي في الضعفاء . | (ص) لسعيد بن منصور . |
| (خط) للخطيب أحمد بن علي . | (ش) لابن أبي شيبة . |

الجواب عن الثاني : وهو قول شارح الجامع الصغير ان الحديث صحيح فأنا أذكر كما تقدم ، وهو أن الجرح مقدم على التعديل ، أنسيتها ؟ قال نعم هو صحيح قلت ولكن غيره يقول ههنا جرح لبعض الرواة . قال : فأرجو ذكر نتيجة الموضوع بنامه مختصرا . فقلت : بسم الله الرحمن الرحيم « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » . إن الله علم قبل أن يخلق السموات والأرض أن المسلمين ستشتد غفلتهم وينامون نوما عميقا ، ويقلد الأبناء الآباء والتلاميذ الشيوخ ، بلا علم ولا هدى ، ولا كتاب منبر ، فأنزل هذه الآية ، وجعل المدار في التفضل على التقوى ، وعلم أن أمما وأمما سيجمعون أم الاسلام تبع أناس بأحوال خاصة ، ولا يجعلون المدار على صلاحيتهم للحكم ، فقال إنما أنزلت هذه الآية ، لأني أخبر بواطن طباعكم ، ومن بواطنها انها تريد الاثرة والرفعة ، واستعباد الناس باسم النسب لا بالتقوى ، فجعلت التقوى هي الأصل لاني التفضل على الناس ، والحبيب النسب قد يكون جاهلا أوقاسقا ، فيفضل الناس ويتخذهم خولا ، ولذلك فصل رسولي لكم ذلك بأن أمر بلالا أن يؤذن في الكعبة بحضور أشرف قريش تطبيقا على معنى الآية ، فذكر خير هنا انضح في أيامنا هذه ، لأن بواطن الأمم لم تكن معروفة قبل وجودها ، والله يعلمها قبل خلق العالم فأنزل هذه الآية ، وهذان محاسن أسماء الله الحسنى ، والسر كل السر في تلك الأسماء وهي أسماء الله وهذا هو حسننا حسنها هو جمال العلوم وجمال الوجود ، لجمال العلوم هنا ظهر في الخبرة المأخوذة من معنى خبير ، لأن اختبارنا لتاريخ أم الاسلام عرفنا أن هذا المهدي الذي جاء به الحديث المتقدم هو السفاح ، وانسحاق قد تقدم تاريخه وكفى بلفظه دليلا .

فقال صديقي : ولكن ذلك سيكون يوم القيامة . فقلت : هذا الحديث ينطبق عليه فان الرايات السود التي جاءت من قبل خراسان هي التي كانت مع أبي مسلم الخراساني ، وهو الذي قام بها من خراسان لنصرة بني العباس ، وقد عرفت تاريخه فيما تقدم في نفس السورة ، فهو تاريخ ملطخ بالدماء ، فقد قتل من المسلمين على مامرته بك ٦٠٠ ألف مسلم غدرا بأمر ابراهيم الامام ، وهو أخو السفاح ، إذن هذه المهديوية بنيت على سفك الدماء . فقال : وما المانع من أن يكون المهدي يخرج في آخر الزمان ، وتقوم رايته السود من خراسان فقلت : إذن يكون معنى هذا اننا نعيش بلا عقول ، القرينة ظاهرة واضحة ، إن تلك الأحاديث جاءت لأجل هؤلاء ، ولماذا لا يأتي المهدي في آخر الزمان إلا من نفس هذا المكان وتكون رايته سودا ؟ ثم ما هذا المهدي الذي يأتي بالسيف ؟

الله أكبر : إن العلوم كلها كفروع شجرة واحدة ، فدراسة الحديث من غير مراعاة العلوم الأخرى معناه

الجهل والنفلة ، وعدم الفطنة والموت . فقال : وما تقول في قول الشارح : ان اسمه محمد بن عبد الله ، ولما كان الجرح هنا مقدم على التعديل ، وأن التاريخ أيد ذلك ولكن لم ذكر أن اسمه كذلك ؟ قلت : بينما كان العباسيون يخفق رأيهم السود في خراسان كما تقدم آفا ، وكان هذا الحديث ينشر بين المسلمين كانت تنشر أحاديث أخرى مثل حديث : « يخرج رجل من بيني اسمه على اسمي واسم أبيه على اسم أبي بلاء الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما » .

وعبد الله هذا من ذرية الحسن ، وابنه هو النفس الزكية المتقدم في تفسير هذه السورة ، وهو الذي قتله المنصور فيما بعد ، وقد كانت له البيعة الصحيحة ، وأخفى به أبوحنيفة ومالك ، فاضطهدهما المنصور . هذا معنى كلام الشارح ، وحرام على أن أعرف هذا ولا أئنه للمسلمين بعدنا ، لأن عزل التاريخ وبقية العلوم عن القرآن والحديث أضرت أشد الضرر بأمنا الاسلامية العزيزة على ، وهي التي قال الله فيها : « كتم خير أمة أخرجت للناس » . فقال : لقد ظهر سر اسم الخبير في هذه الآية ، وظهر اشراق نور اسم من أسماء الله في علم سياسة الأمم الاسلامية ، فهل تسمح بقول تقيه مختصرا فيما تؤمله لأمة الاسلام من أمثال هذا المقال ؟ قلت : ان أرجو ما أرجوه لأمة الاسلام أنهم بقرأة أمثال هذا التفسير سيكون فيهم محققون عظماء حكياء ، لا يشق لهم غبار ، ذلك انه قد اوضح الآن أن دين الاسلام ليس هو ذلك الدين الذي يبيش على الألفاظ ويعلق عليها أهمية الحياة وحدها . كلا . إن هذا التفسير وما كتبتة قبله قد كشف الستار عن هذه الناحية ، وقد فهم المسلمون فعلا وعملا ، ودفنت الجهالة في قبرها ، وولد في الاسلام جيل جديد فعلا ، بل المسلمون كلهم تأثروا بالفكرة ، فلارجعة للجهالة بعد اليوم ، وأنا اليوم سعيد بأبناء بلاد الاسلام . والآن أقول ﴿ كلمتين اثنتين ﴾ بشارة لشبان المسلمين : الكلمة الأولى ما كتبتة في ﴿ سورة البقرة ﴾ من نبأ لم أوضحه إذ ذاك ، ولكنني أوضحه الآن : وذلك أن ثلاثة من الشبان المصريين تلاميذي بالمدرسة الخديوية توجهوا إلى فرنسا ليتعلموا علم الحقوق ، هناك كفلمهم وراقبهم الاستاذ (لمير) . ذلك ان دانلوب (الذي كان أيام احتلال الانجليز مصر قابضا بيد من حديد على التعليم بها ، منع الشبان في التعليم الثانوي من كل ما يرقى أفكارهم) لم يسر من اعتراض (لمير) الفرنسي المذكور على التعليم الثانوي لتصوره وتقديره ، فليس يعدّ التلاميذ لدراسة الحقوق التي كان برأسها الفرنسي المذكور بمصدر دراسة صحيحة ، فذلك رفته من الوظيفة ، فرجع إلى فرنسا ، وصار يستقبل تلاميذ المصريين ويعطف عليهم .

فلما رجع هؤلاء التلاميذ زاروني وأخبرني واحد منهم قائلا : اتنا نحن الثلاثة كنا نجمع الأزهار من الحديقة ، فدعانا الاستاذ (لمير) وقال : لقد لاحظت فيكم أمرا لم أراه في اخوانكم المصريين ، ذلك انكم تحبون الزهر ، فما السبب ؟ قال : فأجبنا اننا كنا سنة ١٩٠٧ م تتعلم اللغة العربية والمعلم الشيخ طنطاوي جوهرى ، وكان في دروس الانشاء يجينا في الطبيعة ، ويجعل نفوسنا في شدة الشوق إليها . فقال : أفي مصر هذا ؟ فقالوا نعم . فقال : إذا وجد في مصر رجل مثل هذا فلماذا جئتم فرنسا ؟ ليفتح كلية ، وليعلم هو وأمثاله في نفس مصر فانها ترتقي سريعا .

فلما سمعت هذا من أحد الثلاثة لم يتصوره عقلي ، فنظرت إلى الآخرين بدون أن أنكم ، فكانت جوابهما : ان الكلام كان بحضورنا : هذه هي كلمتي الأولى .

كلمتي الثانية

سترى أيها الأخ الذكي في أول ﴿ سورة الحديد ﴾ عند معنى : « سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » ، ما هو رأي (ستانلي هول) وهو أكبر علماء النفس في أمريكا ورئيس إحدى جامعاتها

وملخص كتابه في ذلك أن شروط النجاح ثمانية أشياء ، ومن هذه الثمانية حب الطبيعة ، وقال : يجب على الناس أن يكثروا من المشي في الحقول لرؤية أحسن المناظر ، ثم قال : وغير الوطنية ما كانت نابعة من الحقول ومنها تربية العواطف ، ومنها الصحة ، ومنها كشف ما فيها من القوى الكامنة ، ففي كل منا قوة كلنة ، وهذه لا بد من استخراجها ، وإظهار ما فيها من الجوانب ، ولاجوم أن قرأ هذا التفسير وأمثاله سيحبون الطبيعة حبا جما ، وسيكون فيهم حكماء لانظير لهم في الأمم لأنهم في حال جهيم الطبيعة يؤدون درسا دينيا ، فهنا نجد الدين والعقل ، وسيزول الدجل والتليس من أمم الاسلام بسر اسمه الخير الذي ظهر في هذا المقام وسينفخ في الاسلام خيرا بالعالم بأسراق هذا الاسم ، وتظهر محاسن الوجود المكتسبة من حسن أسماء الله ، واليه الإشارة بآية : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يصطلون » وعن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » وهذه الأمة هي الأمة الاسلامية كما تقدم في تفسيرها فما المناسبة بين ذكر الأسماء الحسنى وبين كون الأمة الاسلامية أمة تهدي بالحق وبه تعدل ؟ لولا أن جمال أسماء الله الحسنى الذي أشرق اليوم فعلا على أمم الاسلام قد ابتداء يكشف لهم الحقائق التي كانت مستورة ، وقد ظهرت لهم نفس الجوانب الإلهية في المخالقات ، وصارت أهم ما في دين الاسلام ، وهذا هو الوعد الذي وعده الله ، فقال : « ليظهره على الدين كله » وقال : « سديهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » .

هذه هي الهداية المستقاة من أسماء الله الحسنى ، ومن محاسن المخالقات المشرقات التي يراها الناس صباحا ومساء وكأولها غافلين ، إن الله تجلى للناس اليوم بالعرفان ، وذلك كله سر قوله : « إن الله عليم خبير » والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الأربعاء ٢٦ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية : الساعة الثانية بعد الظهر .

بهجة هذا المقال

وحكم فيها وجملة وجال

في يوم ٢٧ رمضان سنة ١٣٥٠ هـ بعد العصر حضر صاحبي العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير فقال : لقد كنت أراك أمس وأنت تكتب هذه المقالة تتقدح حاسة ، فإذا خطر لك بعد ذلك لحقتني به ؟ قلت يا أخي كأنك تعلم الغيب ، أتني بعد أن انتهيت من كتابة المقالة السابعة انتحيت جانبا وعلمت ملابسي ساترا العورة ، جالسا في الشمس ، عملا بما كتبت ، واستجلبا للصحة ، إذ تقدم في أول (سورة يونس) عند آية : « هو الذي جعل الشمس ضياء » مقال لبعض الأطباء على الشمس من حيث إفادتها للصحة إذا وقمت أشعتها على نفس الجسم بشروط خاصة ، فهاأنذا أمس عملت بما علمت كما فعلت صرارا ، ولم أكد لأجلس فيها وأضواء الشمس تحيط بجسمي حتى أخذت أفكر في هذا الانسان المسكين المحبوس ، هذا الانسان الذي قتلته العادات ، اكتسى باللباس ، رفا وتنعما وتجملا ، فأصبحت الملابس حلا قبيلا ، وذلا وبيلا ، وشرًا مستطيرا ، وأخذت أقول : يا الله ، يارب السماء ، يا حكم ، يا عدل ، يا حلیم ، أنا أستعذ بك من النذل ، ومن الجهل ، ومن سوء النقلب ، ولرباه قرأنا أسماء الله الحسنى فظننا أن اللفظ هو المقصود ، فأخذ علماء منا يحسبونها بالجل ، وأخذوا يتناولونها لقضاء الحاجات ، وألف فيها البوني [شمس المعارف الكبرى] كأن هذه الأسماء نزلت من السماء لأجل السحر ، لا لأجل ارتقاء الأمم (وبعبارة أطف) لأجل قضاء الحوائج ، وقرأنا القرآن فاكشفنا بالقشور ، ونبذنا الحقائق ، ونسبنا انه يجعل الفضل للقوى لا للنسب ، فوقفنا في ذل وحيرة ، وجهل مشين ، حبس النوع الانساني في عاداته من حيث الملابس والأغذية ، وحبس المسلمون في اعتقادات أذلهم دهورا ودهورا .

تشابهت الأمم في أحوالها

هاهي هذه الانجليز في الهند اليوم في أثناء كتابة هذه المقالة تذيب الوطنيين العذاب لامتناعهم عن شراء الملابس ، لماذا ؟ لأن عمالهم يصنعونها ويبيعونها لهؤلاء ، جهل ولما يارب هذا الانسان الجهول ، صنع فريق من الانسان الملابس ، لماذا ؟ ليجمعها ترفا وتنعما لفريق آخر ، يعيش من كد يده ، ينفق هذا الفريق اليوم ، فقال : أيها الأخ : أنا لا ألبس ، لأن هذه الملابس سجون ، وذل لاعمز ، لأن العلم اليوم يحدثنا أن هذه الملابس ليست ضرورية ، قليلها يفي ، بل تضر بضع الجسم لشمس يزيد قوة ومثانة فنحن كنا جاهلين ، فيقول الفريق الأول : لا بد أن تلبس ، وما أناذا أضربك بقنايل ، وعسى أن أزيد هذا المقام بيانا في (سورة المتحنة) عند قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة » وأن نبين تحريم شراء البضائع التي يصنعها من يؤذي المسلمين من الدول الحاضرة وأسأل الله التوفيق لذلك .

أف هذه الانسانية العمياء ، ومثل هذه الملابس ينطبق على عكوف المسلمين على الدراسة اللفظية ، فاكفوا باللفظ ونسوا المعنى ، نسوا جمال النجوم ، جمال البحار ، جمال الشجر ، جمال الزهر والحقل والغابات .

فليقف المسلم في الحقل ، وليقف في الجبل ، وليقف في ظلام الليل ينظر النجوم ، فليقف وليقف ، فهناك هناك تعجب ، ثم تعجب ، ثم تعجب له معاني هذا الوجود ، يقف أمام عجائب ربه في هذه الدنيا حتى يستعد للقائه بعد الموت ، فهناك تبرز له معاني كتاب الله ، هناك تبرز له معاني أسماء الله الحسنى ، أي يعرف السر في وصفها بأنها حسنى ، وكيف كانت حسنى ؟ وكيف يصفها الله بالحسنى ، لماذا ولماذا ؟ إذن يكون المسلم في فهمه إذ ذاك بعقله مثله كتل جسمى وهو عار مقابل لأضواء الشمس مباشرة ، فتكون صحته أتم ، وهنقل الحيوانات الترية المهلكة للانسان ، وتعدل دورة الدم ، إن مثل المسلم في تلك الأحوال السابقة من حيث العلم والمعرفة كتل جسمى والشمس تشرق عليه .

سيتعلم المسلمون بعدنا من نفس عجائب صنع ربهم ، فيعطهم من العلم ما لا يحصر على حسب استعداد كل امرئ ، وبهذا وحده نزول تلك القويهات القديمة ، والرؤساء الخادعون ، والمعاوي الطويلة العريضة ، وتكون الدراسة موجهة للحقائق لا مجرد الألفاظ ، ويخرج النوع الانساني من الغرام بأصنام مشخصة مزينة ومن الغرام بأشخاص خاربه نفوسهم إلا من الإبهام والجهل ، ومن الاكتفاء بالكتب المنفة .

إن الناس يخضعون لما هو جليل ، فأصنام قدماء المصريين ، ومجولم المنعطة ، وملوكهم ، كل هؤلاء مزينون خير زينة ، وعلى منوال هؤلاء في التزيين والتضليل الأمم التي تفتك بشيها في زماننا الحاضر للفتح والاستعمار ، وقولهم : جئنا لاسعادكم ، فهؤلاء أصنام خاربه كأصنام قدماء المصريين ، وهكذا أكثر من ادعوا الهدوية في الاسلام ، وكثير من الشيوخ الدجالين ، وعلى شاكلتهم العادات المضروبة في نوع الانسان كتلباهي باللباس التي بها استجدت بلادنا المصرية بتدخل الأجنبي .

كل ذلك سيذول من بلاد الاسلام حينما يدرسون نفس الوجود ، ويفهمون الحسن الحقيقي فيه ، ويدركون سر وصف أسماء الله بالحسنى ، فالحسن الذي يجب فهمه لاسعاد الانسانية حسن هذه الأرض ، وهذه السماء ، هذا هو انكشاف النطاء عن أعين المسلمين ، وقد آن أوانه ، وظل ابائه : من الآن ، من الآن ، من الآن ، فليشر الأذلاء بالعرز .

كل ذلك أيها الأخ حضر في نفسي عند ما جلست في الشمس ، لأنني لم أجد فرقا بين حبس لسة ضوه

الشمس عن جسمي وبين حبس العلم عن العقل بالوقوف عند الألفاظ ، أو بأوامر رئيس يقول : « العلم حجاب » أو بالاكتماء بالكتب المصنفة إلى آخر ما تقدم هنا .

هذه هي الخطرات التي خطرت لي أمس وجسمي يتلقى أشعة شمس الشتاء ، وأنا معتقد في نفس الوقت أن هذه من نعمة العلم ، والتي أودى واجبا ، لأن المؤلف إذا لم يعمل بما يكتبه لم يثر التأثير المطلوب ، فأنا والحمد لله في مطمئني ومثري في أن أعمل بأقوال الأطباء ، وهكذا وجدت في لساني ميلا إلى التكلم فيما لا ينفع ، فأنا أجد بقية حياتي في حفظه بقدر ما كانى بعد ماسطرت الكلام على آفات اللسان قريبا ، وليس حتى أن أنال كل مطلوب من مهمات كبرت سني ، ولكن نفس الاجتهاد فعمدة كبرى ، وإن لم ينل الانسان النجاة .
هذه حال الآن أنشرها ذكري لمن بعدنا . فقال : إن هذا حسن ونشره يفيد بعض الأذكياء . فقلت :
أنا موثق بذلك ، وعسى أن يزيد هذا المقام كسفا في أول « سورة الحديد » وفي آخر « سورة الحشر »
والى هنا تم الكلام على « سورة الحجرات » والحمد لله رب العالمين .

(تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الثاني والعشرون من كتاب « الجواهر » في تفسير القرآن الكريم ، وفيه الجزء الثالث والعشرون ، وأوله تفسير سورة : ق)



فهرس

الجزء الثاني والعشرين

من كتاب الجواهر في تفسير القرآن الكريم

صفحة	
٢	تفسير ﴿سورة الفتح﴾ مكتوبة مشككة بالحرف الكبير
٤	هذه السورة أربعة أقسام
٥	القسم الأول في تفسير البسمة، ويبان أن رحمة الله عامة وسعت كل شيء، وهي عامة وخاصة، وهذه الأخيرة تختلف باختلاف الأشخاص، ولقد كانت أمتي في حال صفري أن أقف على الحقائق، ولم أكن لأبالي بالصيت والعلو والعظمة، دخلت (دار العلوم) ودهشت لما رأيت علومها هي التي كنت أبحث عنها في الحقول من ذلك وطبيعة الخ وقد وصل انهامي لنفسي انني كنت أظن أن نعمة الانشاء لا أستحقها، وهنا حكاية المرحوم الشيخ محمود العالم، ولما وظفت في الحكومة طالبت نفسي بمهداها وهو نشر العلم، وهنا ألفت كتابا، وحوادث الدهر تزجيني فلم أعبأ بها، ولقد انتشرت الكتب في جميع أقطار الاسلام شرقا وغربا، حتى ان شابا من بلاد التركستان الصيفية حضر هذه الأيام وقص قصصه في المحافل العامة، وانه كان في حيرة مثل حيرة المؤلف، فأخذ منها هذه الكتب مثل «نظام العالم والأمم» و«التاج المرصع» الخ، ثم قال انه وصل إلى كابل ببلاد الأفغان فوجد الفكرة هناك منتشرة إن المؤلف هنا عرف رحمة الله الخاصة إذ نال أمنيته وهي انتشار الفكرة حتى في بلاد الصين وجميع الشرق الأقصى والأوسط، وهذه هي الرحمة الخاصة التي لم يصل خبرها إلا في تفسير سورة الفتح وهذا هب وهو يقول: انه ما كان ليخطر له وهو يبحث على شاطئ نهر أبي الأخضر في الصفر انه يشارك مسلمي الصين في تلك المباحث وهو حقي.
٨	إن الخمسين سنة الماضية كانت ذات صيغة خاصة، فاجتاز الناس أحوالاً قديمة، وارتقوا، ونالوا سعادات بالركبات المختلفة في الأرض وفي الجوالج. إن سعادات المجموع الانساني ازدادت ولكن الأفراد لم ينالهم شيء من تلك السعادات، فالناس أشبه بقطرات الماء في البحر الملح، هي كثيرة ولكن القطارة فيه نظير القطرة في إناء في منازلنا، ثم تكلم عن الخمسين سنة الآتية فقال: إن الناس سيستعملون قوة المد والجزر، وضوء الشمس، وحرارة جوف الأرض في مصالحهم، وستقوم الكهرباء بأعمال مدهشة مع جهلنا بحقيقتها، وسيبري الناس الخطباء في أقطار بعيدة، ويسمعون كلامهم. ويقول عالم آخر: إن هذه الآراء ليست أضغاث أحلام. كلا. سيمتلي الجوب بالركبات ولا يكون هناك اصطدام، وسيتحول السحاب بواسطة الكهرباء إلى الصحاري والقفار، فينزل عليها المطر فتخرج البركات والخيرات، وسترتقى الجراحة حتى تحسن ما قبح من أشكال الناس، وسيجدد النسل، وربما يولدون الأطفال في المعامل الكيميائية.
١٠	القسم الثاني من السورة، التفسير اللفظي للسورة كلها، من أول السورة إلى قوله تعالى: «فسيؤتيه أجرا عظيما».
١٢	القسم الثالث من السورة، تفسير: «سيقول لك المخلفون» إلى قوله: «عذابا ألما».

- ١٣ يعة الرضوان ، وهي يعة الشجرة .
- ١٥ لطائف هذا القسم ، وهي أربع لطائف : الطيفة الأولى في آية : « قل للخلفين من الأعراب » ، هذه الآية أعطتنا قاعدة كالتى يجبها الأطباء وعلماء الأخلاق ، لأنهم يداورون المرض ، وخالق بضد ما هو عليه كالحرارة في مرض يبرد الخ .
- ١٦ الطيفة الثانية : ليس على الأعمى حرج ، وههنا يوضح الكلام على الاستعداد فليجعل كل امرئ في الأمة في الصل اللاتق لمزاجه وصحته وقوته ، فكل مجاهد على مقدار طاقته ، هذه هي الحقيقة المثلثية الطيفة الثالثة في قوله تعالى : « وتكون آية للمؤمنين » ، ويبان أن الولوع بالعلوم ، والولوع برقى الأمة هما الصفتان اللتان بهما يصل الانسان إلى أعلى سعادة في الدنيا والآخرة ، والله وملائكته يكونون معه ، هذا يؤخذ من هذه الآية : « وتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما »
- ١٧ جهاد الفرد وجهاد الجيش : إن جهاد الفرد أشق من جهاد الجيش ، لأن الجندي في الجيش معه نظراؤه ، أما الفرد فهو يعضى في عمله متكلا على ربه ، والمعونة له أكثر من المعونة للفرد في الجيش ، إن نصر النبي ﷺ في الفار اعظم من نصره وهو في غزوة من الغزوات ، تجرب أيها الذكى نصر الله لك وأنت وحيد كما جربت أنا أيلم هذا التفسير ، فاعلم أن الله مع المجاهد بنفسه في رقى أمته ، وقد جعل قول النبي ﷺ « الله عليه وسلم » ليعجزن إن الله معنا ، وهو في الفار ضرب مثل لكل عالم اسلامي بحبهذه الأمة الاسلامية ويعمل لها ، وقد أدهش المؤلف سرعة قضاء حوائجه وحل مشكلاته الدنيوية والعلمية أثناء هذا التفسير ، ومن أهجها أنه توقف في مسألة تسيير السفن بالكهرباء ، لأنه ليس من علماء هذا الفن ، فحدثه نفسه انه سيطلع عليها حالا ، فاطلع عليها بعد دقائق في مجلة علمية لم يرها من قبل فكتبها في « سورة البقرة » وهو مبتدى في تفسيرها .
- ١٩ تذكرة في موازنة آيات الأحكام بآيات الأعمال الأخرى ، واذا كان الحنفية والشافعية دققوا في أمر ذبح الهدى ، أهوا الحرم أم للمكان الذي أحصر فيه المحصر ؟ وذلك في الوسائل فكيف بالمقاصد وهي ما نحن فيه من الهداية للصراف المستقيم ، إن الأئمة رضى الله عنهم دققوا في الوسائل ليعلمونا أن ندقق نحن في المقاصد وهي أعمال القلوب .
- ٢٠ دفع وهم : إياك أيها المسلم أن تظن أنك بمجرّد الاسلام لا تحيط بك المصائب . كلا . فهذا وهم بل الانسان يرتقى بما يقاسى من الشدائد ، وما يزاول من الأعمال ، وإياك أيضا أن تقول : اذا كان النبي صلى الله عليه وسلم شفيعا لى فأنا سعيد من غير عمل ، فإن الشهداء والعلماء شفاء ، ومن كان مصاحبا لواحد من هؤلاء وهو تارك للأعمال فهو خاسر الدنيا والآخرة ، فالشافعون المذكورون محروكون للعمل لا يطلون إن الشفاعة قد حرقها جهال المسلمين ، إن الشفيح ليس معلما للكسل .
- الطيفة الرابعة في معنى : سنة الله الخ وهي تدل على أن الله مع كل مخلص . الكلام على يعة الرضوان ، وقصة مركز وسهيل بن عمرو ، والمحاورة بين النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم وعلى في محو ذكر الرسالة من الكتاب .
- ٢١ القسم الرابع من السورة . تفسير : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا » إلى آخر السورة .
- ٢٣ المسلمون ضرب الله مثلهم بزرع أخرج شطاء ليقبظ بهم الكفار ، ولكن المسلم الآن يرى أن بعض المسلمين أشبه بزرع هشيم تنروه الرياح ، فهم الأعيب في يد الفرنجة ، فهاهوذا الأمير عبد الكريم يريد أن يحرر صرا كش ، ومولاي يوسف يأمره الفرنسيون أن يذبح منشورا يقول فيه : « إن

عبد الكريم ليس له حق في ذلك ، فهذا موت لحياتة . . قول : وهذا الموت بعده الحياة وبرئتي
المسلمون . اللطائف العامة في السورة وهي أربع لطائف .

٢٤ اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » : كما أن الأرض الطيبة هي التي يخرج
نباتها سهلا بلانصب ولا تعب ، وثمرات زرعها تنفع كل ساكن في الأرض ، هكذا القلوب الشريفة
كقلبه صلى الله عليه وسلم ، فهو يقبل العلم ويعلم النفوس الضعيفة الجاهلة ، وصفاء نفسه يجعله قابلا
للكشف العلمي ، وهو الفتح على الحقيقة ، ويتفرع على هذا الفتح العلمي كل فتح ظاهري كفتح
مكة وصلح الحديبية أرى فتح اسلامي في مشارق الأرض ومغاربها إلى يوم القيامة ، وهذا الفتح
يتقدمه صفاء النفس لقبوله ، ويسبقه تمام النعمة ، وانتشار النبوة في الأرض ، وعلو هذا الدين على
غيره ، فهذه أربعة أمور هي المذكورة في الآية . آثار الفتح النبوي في زماننا ، ويان أن المسلمين
ملؤا الأرض نورا ؟ ثم رجعوا فازرووا وذلوا ، ولكن جيلنا الحاضر سيرجع المجد على يديه ، ودليلنا
مقالة العالم الأمريكي صاحب كتاب « حاضر العالم الاسلامي » الذي يقول : « إن أوروبا في الخمسين
سنة الثانية من القرن التاسع عشر قد أخذت تخنق المسلمين خنقا وتحمل ديابهم ، وهذا العمل أحدث
رد فعل وبغضا شديدا ، وأخذ المسلمون يقرءون علوم أوروبا ، وحصل التفاعل الشديد ، وليس
ارتقاء المسلمين الحديث مجرد محاكاة للغرب . كلا . بل نفس الأمم الاسلامية لها من نفسها آراء
وحكمة ، وبهذا وذلك حصل انقلاب في آراء المسلمين بعيد المدى ، من ذلك آراء خير الدين باشا الذي
ألف كتابا لاصلاح تونس سنة ١٨٦٠ وانشر ذلك الكتاب ثم مات المؤلف واحتلت فرنسا تونس .
قال : وقد أثر كتابه تأثيرا حسنا حتى أصبح كتابا مقدسا عند أهل تونس والجزائر ، وقد جعل محور
الكلام فيه على أن العدل والحريية هما أسس تقدم أوروبا . ثم قال صاحب « حاضر العالم الاسلامي »
مانصه : « إن سيطرة أوروبا على الشرق مبنية على أساس واه ضعيف ، فليس الغربي محبوبا عند
الشرقي ، والاحترام راجع للخوف لا للحبة ، وما يدل على ضعف السيطرة الأوروبية في الشرق
حادثة الحرب الروسية اليابانية ، فاليابان لما غلبت الروس عرف الشرقيون ضعف أوروبا ، وفرح أهل
الشرق جميعا وأيقنوا أن أوروبا خارجة كلاهما من الشرق ، وساعد على استيقاظ الشرقيين زيادة اعتداء
أوروبا اعتداء وحشيا بربريا بجشع ونهم » . وقال أرمينيوس : « اعتداء الغرب على الشرق جعل
الأخير يزداد اتحادا » .

٣٠ ثم قال مؤلف « حاضر العالم الاسلامي » : « إن الخلافة في صدر الاسلام كانت منيعة الجوانب عظيمة
القدر ، وبعد ذلك صارت استبدادية وأخذ المصلحون يحاربونها ليرجعوها إلى الشورى ، ثم ذهبت
الحرية الدينية في خبر كان ، ولكن سيرة الخلفاء الراشدين باقية في الأذهان ، والعرب في شبه جزيرتهم
هم الذين حافظوا على حريتهم إلى الآن ، وأقوال أبي بكر وعمر في الحرية لاتزال تسمع في كل آن ،
إذن ليس الاسلام سبب تضعف المسلمين . كلا . بل السبب كل السبب هو استبداد الأمراء وتأويل
الآيات القرآنية بما يوافق أهواءهم ، فنبذوا الحرية والشورى » .

٣١ « إن اليقظة الاسلامية اليوم تشمل الاصلاح الديني والسياسي لتخلص المسلمين من أمراهم الظلمة ،
ولكن جاء تيار ظلم أوروبا فوق في وجه هؤلاء المصلحين وساعد الظلمة من ملوك المسلمين على اذلالهم
وهذا زاد بغض المسلمين لأوروبا ، إن بعض المصالحين كمحمد طي باشا بمصر والسلطان العثماني محمود الثاني
في تركيا أرادا ارتقاء بلادهم ، ولكنهم أبقوا السلطة في أيديهم فأملحوا الظواهر ولم يتوا على

الأساس ، فإن رجال الدولة ملزمون بالطاعة العمياء ، وهناك أزمات قامت حرة أحسن من سابقهم ، اقتبست آراء أوروبا بمطالمة الجملات ونحوها كالحركة الفكرية في تركيا في آخر القرن التاسع عشر ، فأتمرت ثمرا يافعا ، ولكن الإصلاح الظاهري لأوثك الملوك المستبدين لم يفعل شيئا .

٣٣ مسامرة النجوم ، في عجائب العلوم : بعد ما كتب المؤلف ما تقدم تبدي له شخص خيالي أخذ يحدثه ويقول له : أنت مثل الآيات السابقة بجزرة لها أشعان ، فأصلها هو وكشف العلوم ، وأعضائها ثلاثة : صفاء النفس المعبر عنه بالمغفرة والهداية والنصر ، فهنا قوة جسمية بشرها النصر ، وقوة أدبية تشير لها الهداية ، وكشف نفسى تشير له المغفرة . ثم قال الخيال : أنا جئت لك من الثريا ، لأنك دائما تنظر في النجوم لأنهم لك مقصود الآية ، ولابد من تطبيقها على الأمم الحاضرة وعلى الأمم الإسلامية السابقة ، أما التطبيق الأول فهو أن ملخص تعاليم أوروبا يرجع إلى ما سياتى ، إن التعليم له دعائم ثلاث : دعامة الأدب ، ودعامة الجسم ، ودعامة العقل . فإذا علمنا الصبي صناعة أو علما ولم نعلمه طهارة الضمير فاننا نكون قد أعطينا سلاحا به يضر مجتمعنا ، وإذا برع في العلوم وكان مهذبا ولكننا لم نفق جسمه فلا نفع فيه ، فالقوة البدنية يشارها بالنصر في الآية ، والقوة العلمية يشارها بانكشاف الحقائق وهي الفتح ، والقوة الأدبية يشارها بالهداية . أما التطبيق الثاني فهو ما ذكره ابن خلدون عن أحوال الأمم السابقة ، ذلك أن الأمة إذا تقلص الدين منها ذهبت وراها الشفقة والخنان فالعدل فزوال الملك ، فهنا أصل هو الدين وفروعه تبع له ، والسياسة نتيجة ذلك كله ، فزوال الدين مبدأ ، فالأخلاق فسياسة الدولة ، فالدين ومعه العلم هو القوة العلمية ، والرحمة ومعها الأدب هي القوة الأدبية فأما القوة الجسمية فلها شأن آخر مذكور هناك في ﴿ سورة النمل ﴾ مثل الحديث المقيد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يخاف علينا إلا من كثرة الغنائم والترف والمغيد أيضا تصريح النبوة بأن المسلمين سيفرقون في الترف وهو شر لهم ، وذلك هو ضعف الأبدان المنافي للنصر ، إذن المعاني المذكورة في هذه الآية طبقت على الأمم الحاضرة تعلما وعلى الأمم السابقة اضمحلالا ، أليس هذا من معجزات القرآن ؟ ﴿ تذكرة ﴾ ٣٥ إن حركات الصلاة ، وأعمال الحج ، وكذا الصوم كلها مقويات للأبدان ، وهذه إحدى الدعائم ، وسبق العلم والأدب وهما واضحا في أقوال الصلاة ، ويلحق بما تقدم في تقوية الجسم السبق والرمي ، وهما متروكان في الإسلام الآن .

مسامرتان فيهما ذكر فتاة ألمانية تزوجت مصريا ، فلما رأت أباه وأنه يصليان دهشت وأسلمت ، لأنها عرفت قيمة هذه الحركات ، وسيدة أخرى رأت تاجرا في المرح يتوضأ ويصلى ، وقد أخبرها بأن هذا يتكرر خمس مرات في اليوم . فقالت : إذن لا أحد منكم يمرض .

٣٦ نظرة المؤلف في أمم الإسلام المستقبلية . يقول : إن أمم الإسلام المستقبلية ستكون صلاتهم غير صلاة المسلمين الحاليين ، لأنهم سيفرقون مثل هذا ويعرفون سر هذه الأعمال فتكون صلاتهم يعلم فيرون في الصلاة صحة كما تقدم ، وهداية للأخلاق في : « اهدنا الصراط » الخ وتحريضا على العلم في نحو : « الحمد لله رب العالمين » .

وهنا مسامرة ثالثة لازدياد شرح أن الفتح هو الفتح العلمي ، وذلك أن السيد أحمد خان مؤسس جامعة عليكوفه قدم الفتح العلمي كما في الآية على الفتح العملى . ذلك أن المسلمين كانوا يحكمهم الهند ولما دخل الانجليز الهند انشروا العلم فيها وفض الطرف عنه المسلمون وحقوقه فزال ملكهم في القرن الثامن عشر . وكلما نلروا صودروا في أنفسهم وأموالهم ، والهندرس هم الذين كانوا يتعلمون ، فرأى

السيد أحمد خان أن التعليم مطلوب ، فأسس المدرسة المذكورة وذلك سنة ١٨٥٦ م وجعل لفتها الإنجليزية لأن الأوردية لا تصلح لذلك ، ورضى بالانتقاد الشديد على اختياره اللغة الإنجليزية ، ولكن المعارضون فيها بعد سيعلمون أنه محق ، فالمدار على الغاية لأعلى المبدأ ، وجعل المدرسة أولاً في أكواخ والمال قليل ، واتفق بمواهب علماء أوروبا مثل علماء جامعتي كمبرج وأكسفورد ، وكان معه ابنه السيد محمود حين زارتك الجامعات ، وجعل المدار على الخلق والتربية الشخصية ، فلم يجد مفراً من جعل اللاميد يتعلمون تعليماً داخلياً ليتمّ تربيهم ، وهكذا جعل فيها الفهارس الرياضية ، إذن قامت الكلية بالتربية البدنية والخلقية والعلمية وهي الأركان الثلاثة المتقدمة في الآيات جسمية وخلقية وعلمية يد تعمل ، وقلب يحب ، وعقل يفكر ، لولا كلية « عليكرة » لم يكن للسلمين صوت الآن ، لولاها لكانوا الآن خداماً وعبيداً ، وقد قلت الصحف الفرنسية عن مؤسس الكلية : انه نبي التربية ، وتوفى سنة ١٨٩٨ وقد أنشأها لتنتشر الثقافة منها في العالم الاسلامي كله . إن كلية (عليكرة) تحتاج إلى ٦٠٠ ألف جنيه ، وقد وصلت الآن إلى ٢٠٠ ألف جنيه بتدبير السيد أحمد خان ابن السيد محمود ، ثم قال الخطيب : ليرحل المسلم المصري فليتعلم فيها ، لأن تعليمها لا نظير له ، والأزهر لم يصل إليه الآن .

٤٢ اللطيفة الثانية في قوله تعالى : هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين الخ ان عصر الصحابة كانت السكينة فيه بأنوار النبوة ، أما عصرنا فالعامة وصغار العلماء يطمنون بما يرون من أن المسلمين مع ضنهم وانتشارهم في الأرض محفوظون ، فأما الحكماء فانهم يزيدهم سكينة فوق ذلك ما يعرفون من عجائب الصنعة الإلهية . (مسامرة) جاء فيها أن علماء الدين في زماننا كعلماء الطب ، فكما أن عالم الدين اكتفى بتعليم العامة الوضوء والصلاة وما شابهها من الامور العلمية ، ولم يذكروهم بحمال هذا العالم وعجائبه ، هكذا عالم الطب لا يبنى إلا بالمداراة ، أما حفظ الصحة المقابل لمعرفة عجائب العالم فهو متروك عنده ، فهذه أم تعيش كما يعيش النمل ، عمل ولا علم ، إن دين الاسلام علم وعمل ، فليدرس المسلم الدنيا فانه أولاً يراها عابدة مملوءة من الشرور ، ولكن بعد التروى يرى هذه الشرور مفاتيح النعيم ، ومستحيل أن يحقق هذا غير كبار المفكرين ، مثال ذلك ما ستره من السمايل التي ما هي إلا قلاع تحتها الجرائم القتالة للأعداء الداخلة في الجسم من الذرات المهلكة من الخارج ، فلهما ميل أمراض ولكنها جعلت نعمة لتخليص الجسم من الأذى ، إن الأسد جندي لاحداث الحياة لتبليه ولاحداث الهلاك لغريسته فهذا مثال واحد عرفنا جنود الله المهلكة ، والجنود المعدت للاحداث الحياة .

٤٤ كما أن جسم الانسان يهلك بالعفونات ولكن أمثال السمايل والحي تخلصه ، هكذا الأمة اذا فسدت يسلط الله عليها الأعداء ، فهؤلاء الأعداء كالمساميل ظاهرهم ضرر وباطنهم نفع .
خطب المؤلف لأمة الاسلام يقول : إن الله وعدنا أنه يرينا الآيات في النفس والآفاق وقد أتجز وعده ، في زماننا لأننا عرفنا ما معنى منتقم وجبار ، فإذا كان منتقماً بأمثال الحي والسمايل وحلول الأعداء السيار فهو انتقام ظاهراً رحمة باطناً . وهنا ذكر المؤلف أن طبيبا مصريا مشهورا يداوى الناس ولكنه هو ترك نفسه فلم يبال بصحتها ، فالمؤلف نصحه بأن يقلع عن ذلك ، فليحافظ على صحته ، فسمع النصبحة واتفق ، وهذه الحادثة تنطبق على حال المسلمين ، فهم بالثقفة مولعون وغفلوا عن ترقية العقول كما قد يفتل الطبيب عن صحة جسمه وهو مكب على مداراة الناس . هذا بيان أنواع الجنود ، هي حية ومعنوية ، وكل منهما إما للاهلاك وإما للاحداث الحياة .

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « وقل جنود السموات والأرض وكان الله عليا حكيما » . إن هذه الجنود واضحة في أجسام الناس التي تراها مشاكلة لنظام الأمم مشاكلة تامة ، وبيانه أن جسم الانسان أشبه بمملكة ، وهذه المملكة يحيط بها الأعداء من كل جانب ، ويمكن دخولها إما من الفم وإما من الجلد كما يدخل العدو المملكة من الباب أو من السور ، فإذا دخلت الميكروبات وهي الحيوانات الذرية المهلكة من الفم تلقتها الجيوش التي في المعدة فأهلكتها ، فإذا نجت منها تلقتها جنود أخرى في الامعاء وأيضا لتجد لها الاكسوجين فتموت ، فأما اذا دخلت هذه الجنود المهلكة من الجلد فإن الجنود المدافعة وهي الكرات البيضاء والليمفاوية تقاثلها ، وتكون هناك معركة دموية بسببها تجندل جنود من الأعداء وجنود من المدافعين وخلايا من الجسم ، فتصبح هذه مادة القيح ، ثم تقوم جيوش الجسم بترقيق جلد الورم كاللحم مثلا ، حتى اقتنع أعقب ذلك أنها تحفص الجرح وتصلح الجسم من جديد ، وقد اعتاد العاقبة في مصر أن يسمو ما يرى تحت الابط من ورم « حبلا » أى قوة للجرح الحاصل في اليد مثلا ، وهذا القول عجيب لأن علم الطب الآن أثبت أن هذه نكتة لجنود الجسم نعباً فيها ، لتخث الجسم من الأعداء الداخلين . ومن عجب أن الانسان اذا أهمل الرياضة البدنية والاستحمام بالماء الحار والبخار والتعرض لضوء الشمس وتغذيت الأغذية المتراكمة في الجسم فانه يفسد لولأن الله يسلط على تلك العفونات فيه الحى ، تلك الحى التي تذيب تلك العفونات بدل الشمس وأنواع الحرارة المتتقم ذكراها . إذن يظهر من العلم اليوم أن جميع هذه الامراض نعم لاقم ، وظهر أن هذه المخلوقات جنود الله لافرق بينها وبين جنود الأمم المملومة في كل زمان .

٤٨ إيضاح مختصر لجنود الله في الأرض ، اللهم سائل لالون له ، خذ قطرة دم صغيرة بحيث تكون جزءا من عشرين ألف جزء من البوصة فانك تجد فيها ٩ آلاف من الخلايا البيضاء ، وخمسة ملايين من الخلايا الحمراء ، ونفس هذا الجزء مثل سق الابرة ، ووظيفة الخلايا الحمراء أولا أنها تلون الدم ثانيا أنها تحمل الاكسوجين فتوصله إلى خلايا الجسم ، ثالثا أنها تأخذ البقايا المتخلفة في الجسم فتطهريها إلى الهواء فتخرج معه وهي المادة الكربونية ، ووظيفة الخلايا البيضاء انها تحارب الأعداء ، فهى جيوش مقاتلة مدافعة ، فهى تصطف صفوفا وتحترق أجسام الجيوش الخلة وتكتم أفساسها فتموت .

٤٩ المعركة اليومية في الجسم البشرى ، الوقاية الطبيعية للجسم ، المناعة ، الميكروب وقوة أمراضه ، العداء بين الجسم والميكروب ، الميكروب في داخل الجسم ، الخلايا البالغة ، الحرب بين الميكروب والخلايا ، الوقاية النوعية ، العدوى والمرض .

٥٠ المناعة ، الميكروب وقوة أمراضه .

٥١ العداوة بين الجسم والميكروب ، الميكروب في داخل الجسم .

٥٢ الخلايا البالغة .

٥٣ الحرب بين الميكروب والخلايا .

٥٥ صورة توضح حركة الأهداب المتوجية وشكل البلعمات عند خروجها من الأوعية الشعرية ، وتبين الفئد والمجاري الليمفاوية . وكيفية اجتناع الميكروبات بطرق خاصة .

٥٦ صورة تعرف كيف تمتد الأوعية وتنتقل البلعمات إلى المنطقة المطلوبة ، ويان شكل الاميبا ويان الخلايا الهدبية المبطنة للقصبه الهوائية .

٥٨ صور تبين اتجاه البلعمات نحو الجلد لضمه ، وتبين خروج البلعمات إلى ميدان القتال ، وتبين محاصرة

البلمات ليكروبات .

- ٥٩ وفيه أشكال تبين إبادة الميكروبات بالمواد المهلثة ، وكيف تأكل البلمات الميكروبات ، وكيف تخرج البلمات من الأوعية الشربة .
- ٦٠ الوقاية النوعية . خلاصة ما تقدم .
- ٦١ فصل في جنود الإحياء و جنود الاماتة ، أو الظلمة والنور ، و بيان أنها تسعة أنواع بجنود الكهروباة السالبة والموجبة ، والجوامد والسوائل والغازات والميكروب بقسميه وهكذا .
- ٦٢ خطاب الله عزوجل للعالم ، اطاعة الكهروباة والأنوار لربها ، خطاب الله للأنوار أن تكون أسرع فتكون منها الغازات والسوائل والجامدات .
- ٦٣ ههنا نحو عشرين نوعا من خطاب الله لهذه المخلوقات بخطابه للنترات أن تفتت المواد لنداء النبات ، وللنترات التي في المواد المتفنة وللآساد والجراد والنمل والعنكبوت وبنى آدم ، وكتوبه : قم ياشرق وم ياغرب ، وللسلمين اليوم أن اتحدوا ، وللعلماء منهم أن ينصحوهم .
- ٦٤ تفنن في صور المادة وتفنن في صور الألفاظ و بيان هذا المقام أن هنا شمسا وكواكب تتردد في المنازل طالعة غاربة فتحدث عنها صور شتى من حيوان ونبات وهجائب لاحصر لها ، وههنا نظير ذلك في الانسان هواء يتردد في الخارج فيحدث به صوت فتكون حروف وتلك الحروف تعطى صوراً معنوية تعرفها النفس وهي صور جميع المخلوقات المتقدمة ، وهكذا هناك حركات في التهن تعطى صوراً كلية هي العلوم والمعارف ، إذن ههنا شمس وكواكب تجرى فتحدث صوراً وهواء يعطى صوراً في النفوس بألفاظ وأفكار في العقل تفعل كذلك ، فالجنود إما من صور تحدثها الكواكب ، وإما من ألفاظ يحدثها الهواء في الفم ، وإما من نفس العقل .
- ٦٥ و جنود العلم اليوم في بلاد الاسلام تطرد عدوين : الخرافات والأمم الأوروبية أي المجرمة منها ثم ان الجنود النورية حية وعقلية ، والقسم الثاني أحق باسم الجنود ، ومقدمة إيضاح هذا القسم الثاني ما يأتي : ان الناس ضيوف عند ربهم ، وهذه الضيافة لها مثل وهو أن (ماريه) بنت عفر من بنات ملوك اليمن خطبها ثلاثة من خول الشعراء ، وقدموا لها هدايا ، وأسمعوها شعرا ، فكان أشعروا كرم الثلاثة إنما هو حاتم المشهور بالبكرم ، وهذه الحكاية قصتها على الفلاحين فأذكري أن الأم ضيوف عند ربهم ، نظرت التخيل ليلا والكواكب فتذكرت أن الناس يمدحون من يقتسم لهم طعاما ويضئ لهم سراجا ، والله قدم للناس الكواكب والشموس وجج ماني الأرض ، فهم يفهمون النمل القليلة ولا يفهمون النمل الكثير في السموات والأرض ، فهم ينسون الكثير ويفهمون القليل . الجنود صنفان ولا حصر لأفرادها . الجنود المعنوية العقلية .
- ٧١ جنود العقول الانسانية والحيوانية . الاستدلال بالعقول الارضية الجزئية على العقول الكلية الساجية
- ٧٢ النتيجة صادقة لمقدمات محسوسة . نتيجة هذا القول تفسير آية : « والله جنود السموات والأرض » وآيات كثيرة .
- ٧٣ ههنا عقول انسانية تستخرج سراجا تفتت به ، وهذا السراج إن هو إلا من البنترول أو الفحم أو الشمع أو الكهروباة أو غيرها ، وهل كل ماني الأرض إلا مشتق من الشمس ، إذن الضياء الأرضي مشتق من الضياء السماوي فليكن العقل الأرضي مشتقا من عقل كلي وهو للنبي صنع الشمس والكواكب كما صنعنا نحن أضواءنا في الأرض في قناديلنا ، وماذا العقل الكلي إلا ملك وما أكثر اللامعة وما أكثر

النجوم والشموس .

٧٤ ملخص ما تقدم في سنة جل ، غاندى يصف رحلته في المياه المصرية ، وهذا المقال مناسب لهذا المقال من حيث انه ذكر الشدة واللين ، والحب والخوف ، وقال : إن اللين ينفع في كل حال ، وأن من استعمل اللين لا يكون عمله شريفاً إلا إذا كان قويا لا يخاف ، والمحبة لا تجتمع مع الخوف ، المحبة لا تنال عند ما نسطى : المحبة تكافح العالم ثم تفوز وتفوز ، إن المحبة في الانسان أقوى من الكهرباء في الطبيعة من يكشف المحبة العاتية أقوى عن يكشف الكهرباء ، ولا جرم أن الشدة واللين والحب والخوف من جنود الله المنعوية في هذا المقام ، وههنا مقال ضاف يشرح : —

(١) معنى أن الحياة مطردة الوجدان مع انها محوطة بهوامل الهدم والملاك ، وذلك أن الهدم ما هو إلا اصلاح لما فسد وارجاعه بحال أنفع للوجود من الحال السابقة ، إذن هذا العالم محوط بالحب ، وما الهدم إلا عملية بقاء ذلك المحبوب بعد هدمه .

(٢) وما معنى أن الحب له السيادة في العالم والعالم كله شقاء ، وأن ذلك الشقاء والقلم ما هو إلا ترقية للأرواح في الارض فما يظهر انه ضد الحب هو للعب .

(٣) ثم ما معنى أن ناموس المحبة يعطى سلاحاً وطمأنينة ويفسر خطايا الطبيعة وهذا مفهوم مما سبق

٨٥ العظيمة الرابعة في قوله تعالى : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله الخ » وفيها أربع جواهر : الجوهرة الأولى في آية : « ليظهره على الدين كله » وفيه مقال (لوثروب استودارد) الامريكى تكلم عن الرسالة المحمدية إذ قام بنشرها في زماننا هذا السليح والتجار والحجاج وغيرهم كالطرق الدينية وأهمها جماعة السنوية الذين يدخلون الوثنيين في الديانة الاسلامية في افريقية ، وقد قال أحد الانجليز : « إن الاسلام يفوز فوزاً عظيماً في أواسط افريقيا ونوره ينسخ ظلام الوثنية ، والنصرانية أصبحت خرافة » . وقال مبشر برتستنى : « إن الاسلام يسير سيرا حثيثاً لم يقف إلى اليوم ، النصراني يخلصون بفتح افريقيا في نوبهم والاسلام فتحها في القلطة ، عرب زنجبار من سنة ١٩٠٠ بشروا بالاسلام بلاد (نياسلاند) فأصبح بعد سنين معدودة في كل قرية مسجد ومدرسة والانجليز لم يقدروا على صد هذه الدعوة ، وسيجتاز الاسلام زمبارى ويطبق جنوب افريقيا والقارة كلها ، والاسلام ينسخ النصرانية كما ينسخ الوثنية ، فالذين تنصروا أيضاً يخلصون ، بل النصرانية في الحبشة ينسخها الاسلام في هذا الزمان ، بل ظفر الاسلام في الحبشة أعظم ظفر للاسلام ، والمسلمون المرتدون قهراً في روسيا رجعوا إلى الاسلام .

٨٢ الكلام على آية أشداه على الكفار ، وأن هذه الشدة أحست بها أوروبا في زماننا ، فقد جاء في مقالة عنوانها « أوروبا وآسيا » أن انكلترا وإن خرجت ظافرة من الحرب الكبرى كان هذا الظفر خبيبة لها فقد ثار عليها الأفغان والهند ومصر ، ثم ان تركيا المضمحلة نهضت وطردت انكلترا وحلفاءها ، والصين تطلب البلاد المسلحة منها (وعبارة أخرى) آسيافاً اليوم ضد أوروبا وقد أصبحت روسيا معاونة لأهل آسيا بعد الحرب وقد كانت معادية لهم قبلها ، وأيضاً يقول : ان انكلترا استغادت من بغض روسيا لأهل آسيا ، فكانت روسيا تهرب الصين والدولة العثمانية ، وانكلترا كانت تأخذ ثمرات ذلك ، فاحتلت ما أرادت احتلاله ، وإيطاليا أخذت طرابلس ، وفرنسا أخذت الجزائر وهكذا ، فلما أصبحت الروس بلشفية تنفس الشرق الصعداء وأصبح أمام انكلترا ومن معها وجهها لوجه تحقر المسلمين لتلك الشدة المذكورة في الآية ، وبيان الذى أوقد نار تلك الشدة وهو السيد جمال الدين

- الأفغاني ، وقد حبس معه رجل اسمه « رضا آقا خان » في قزوين ، ولما جاء رجال الدين إلى الاستانة زاره رضا آقا خان المذكور وأوصاه جمال الدين أن يقتل سلطان الفرس ناصر الدين فقتله ففرح جمال الدين وهذه أغضبت سلطان تركيا عليه وهو عبد الجيد ، فعمل الحيلة في قتله ، فقتله بحجة السرطان في لسانه تعاليم جمال الدين معروفة قوية ، ولم يخف أحد من أهل أوروبا مثل ما خافته بريطانيا ، سجنته في الهند ثم أطلقته فجاء إلى مصر ، وله يد في الثورة العراقية ولما دخل الانجليز نفوه ، ثم وصل القسطنطينية فساعدته السلطان على الجامعة الاسلامية .
- ٨٥
- ٨٦ شدة المسلمين على الكفار في زماننا ، واغارة ايطاليا على طرابلس ، وتآلب الدول البلقانية على تركيا غفرت جميع أملاكها ، ثم اتفقت انكلترا والروسيا على خنق الثورة الفارسية ، وعضت فرنسا على مراكش ، فغضب المسلمون غضبا شديدا ، وهذه العداوات جعلت المسلمين يحبون الوثنيين في الشرق الأقصى ، وفرحوا بانتصار اليابان على روسيا فرحا شديدا ، وأحبوا أن تدخل اليابان دين الاسلام ، وأودت السلطان وفدا إلى اليابان .
- ٨٨ إن أوروبا نفسها بايغارها صدور المسلمين جمعت كلهم .
- ٨٩ الفصل الرابع في الكلام على الجامعة الاسلامية ، وأن ساسة أوروبا يشهدون أن الجامعة الاسلامية اليوم أشد منها في كل زمان ، وليس نداء السلطان عبد الجيد للمسلمين بالجهاد شرعيا حتى يتخذ دليلا على وهن تلك الجامعة .
- ٩٠ بيان أن الصحافة الاسلامية اليوم منتشرة انتشارا عظيما ، وقد أيقظت المسلمين هي وغيرها ايقاظا عظيما
- ٩١ في سنة ١٩٠٠ لم يكن في العالم الاسلامي أكثر من مائتي صحيفة للدعوة فبلغ هذا العدد سنة ١٩٠٦ خمسمائة صحيفة ، وزاد سنة ١٩١٤ على ألف صحيفة ، وازدياد التواصل أشعل تلك الحركات .
- ٩٢ يقول عالم فرنسي : « إن المسلمين لا يعتبروننا مالمدين في بلادهم » .
- ٩٣ نور على نور وفيه انتشار الاسلام في أوروبا وأمريكا في زماننا ، وكيف أسلم الاستاذ محمد أفندي عز الدين (لوماكس الأمريكاني) وهما هي رسالته في ذلك ، يقول : « الاسلام في جوهره قوة وقدره الخ » .
- ٩٤ متى وكيف انفصل الاسلام بقلبي وهدائي سواء السبيل ، وههنا ذكر حجة أصول اسلامية كالشهادتين والصلاة والصوم الخ .
- ٩٦ وهكذا الحاج ناصر الدين ديبه المستشرق الفرنسي المصوّر المشهور ومعه الاستاذ راشد بك رستم ، وقد ألف الأول رسالة عربها الثاني اسمها « أشعة خاصة بنور الاسلام » وفيها أن قوة الحياة كاملة في اللغة العربية والعقيدة الاسلامية ، وأن أوروبا مصرة على عداوة الاسلام والمسلمين ، وقد قل عن القس (زويمر) أن خمسين مليوناً من السودان وقبيلة هادسا الكبيرة وقبائل بلاد النيجر والشاطئ الذهبي أسلم الكثيرون منهم ، بل الاسلام سيعمهم جميعا ، وفي البنغال باهتد أسلم أكثر من عشرة ملايين ، وكذلك برمانيا بجمارها زاد عدد المسلمين على الثلث في عشر سنوات ، وفي أنحاء أوروبا وأمريكا أسلم كثيرون .
- ٩٨ شرح عداوة أوروبا للإسلام : وكراهية الاسلام تحت ستار العلم
- ٩٩ الجوهرة الثانية في آية : « رجاء بينهم » مع آية : « إنما المؤمنون أخوة » في (سورة الحجرات) وفي هذه الجوهرة ملخص المقدمة التي كتبها مؤلف « حاضر العالم الاسلامي » .
- ١٠٠ نشوء الاسلام وارتقاؤه واتحاطه ، وههنا أنجب المؤلف بدين الاسلام إعجابا شديدا ، إذ ذلك سلطان

الروم والفرس الخ ارتقى الاسلام ارتقاء مدهشا في زمن الخلفاء الراشدين وفي العصور الأولى ، ثم أخذ يتدلى شيئا فشيئا ، وأول التدلى في أوائل القرن العاشر ، وههنا مزق هذه الدولة الاحن والضعافن بسبب جعل الخلافة ملكا عضوا لاشورية ، فرجعت العصية كرة أخرى ، وهنالك تفككت أجزاء تلك الأمة الاسلامية ، فكان للعباسيين دولة في بغداد ، وللأمويين في الأندلس ، وللفاطميين في مصر ودخل الفرس أولا والترك ثانيا في أمور الدولة ، فزقت الدولة كل بمزق ، وفي القرن الحادى عشر للمسيحي عجت معالم الحضارة الاسلامية .

١٠٦ دخول الترك في الاسلام سراعا لم يندث أخلاقهم ، ولما حكموا أم الاسلام لم يكونوا رجاء بالتصارى الذين يحجون إلى بيت المقدس كما كان العرب من قبلهم فآذوهم فتعصبت أوروبا ، فكان ذلك سببا للحروب الصليبية ، فالترك هم السبب في تعصب أوروبا للنصرانية ضد المسلمين .

١٠٨ خضع المسلمون العرب للترك ، ثم جاء جنكيزخان وخلفاؤه فأهلك العالم الاسلامى وقطع سدود العراق فأصبحت البلاد صراحي للناشية بعد أن كانت مزارع عامرة إلى آخره .

١١٠ الترك العثمانيون هجموا على أوروبا ووصلوا إلى فينا ، ولكن أوروبا ردتهم ، ومن ذلك الوقت أحست بأنها قوية ، وقوتها الأموال الأمريكية الجديدة ، ونام الاسلام قرونا إلى القرن التاسع عشر ، وقد اقتسمت أوروبا أقطاره ، ولكن الآن هب الاسلام من نومه ، وابتدأ يأخذ دوره .

١١٢ الفصل الثانى فى آية : « رجاء بينهم » وبيان أن انكسرتا وفرنسا كاتتا نجعلان حال العالم الاسلامى أيام الحرب الكبرى ، ولكن ايطاليا كانت تعرف الحقيقة .

١١٤ ذكر ما يقوله ساسة أوروبا وعلمائها من أن الاسلام دين الحربية ، وأن المسلمين أول الأمم فى الحربية من أى صنف كانوا .

١١٥ الفصل الثالث فى أن أوروبا شورية فى بلادها مستبدة فى غير بلادها ، وأهل الشرق والمسلمون لا يبق فائزون من كتاب « حاضر العالم الاسلامى » .

١١٦ الفصل الرابع فى هياج العالم الاسلامى .

١١٧ مجهزة جديدة لم تعرف من قبل وهى توضح حديث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » الويل لأوروبا اذا جهلت : من كلام المؤلف الأمريكى المذكور .

١٢٣ مؤلف هذا الكتاب يقول : « إن المسلمين اليوم أرقى منهم أيام الامام الغزالى مبرهنا بما يقرمون من كلامه الفلسفى » .

١٢٤ فصل فى ذكر مثال واحد لرحمة المسلمين لقبير أم الاسلام من رجال العصور المتأخرة ألا وهو السيد الأجل الذى كان حاكما فى مدينة (بنان) من بلاد الصين بأمر ملكها ، وقد أقام العدل ، ونظم الجند ، وحفر الترع ، وأقام الجسور ، وحزمت الأمة كلها عليه لماما ، وبنت له المعابد ، وأبقت اسمه مذكورا فى الكتب على مدى الأجيال إلى الآن .

١٢٦ الجوهرة الثالثة فى آية : « تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا » .

١٢٧ الصلاة فى نظر المهاتماغاندى ، وأنه يرى أنه كلما زاد اعتقاد الناس فى الله زادت رغبتهم فى الصلاة وأن أول حياته إلحاد ثم جاءه نور من الله ، الصلاة للروح ألزم من الغذاء للجسم ، ولاجبة للصلاة وهناك جبة للأكل ، بوذا وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يسعدوا إلا بالصلاة ، لافلسفة عندى ولكن عندى الصلاة .

١٢٨ فضل الله على الناس : يعتقد المؤلف أن عذاب الناس في الأرض لم يقصد به التعذيب وهم محبسون فيها و يجب كيف يكون السجن بستانا وفيه أعمال لتهديب المسجونين ، ولقد ألهم الله أهل اسبارطه أن يمرّوا الاطفال على قبول التعذيب ، وألهم السودانيين الرضاء بالتعذيب أمام العانيات .

١٢٩ الجوهرة الرابعة في آية : كزرع أخرج شطأه الخ . يذكر المؤلف أن الله صدق وعده وأن هذا زمن ظهور المعجزات ويشكر ربه على ذلك ، لأنه ذكر في أوائل هذا التفسير أن الفرنسيين اتفقوا على سوريا ففتكوا بها ، وذكر في آية : « ألم ترى إلى الذين أوتوا نصيبا » الخ أن اليهود امتلكوا على شفاعة آبائهم غلب ظنهم ، وأخرجوا من ديارهم ، وذلك جعل لرقينا نحن وأنه اعتبارنا لاغير ، وأن هذا سرّ (ال م) الخ . يقول المؤلف هذا تقدم ، وهل كان يخطر لي أنني لا يتمّ طبعي للتفسير حتى أرى أن العراق قد صارت مستقلة ، وأن سوريا ستستقل حالا ، وأن ذلك سيكون فاتحة دور جديد في الشرق الأدنى ، وأن أوروبا خاب ظنها .

١٣١ الفتح الاسلامي في زماننا وآثار النبوة المحمدية ، ثم زادت دهشة المؤلف من حضور شب تركستاني من بلاد التركستان الصينية وقد أخبر الناس بمصر وفي الجرائد أن هذه الكتب كانت سبب فتح مدارس في بلاد التركستان والصين وغيرها ، وأن هذه الأمم اقلب نظامها رأسا على عقب ، ومعنى هذا أن الاسلام انتشر انتشارا غربيا مدهشا ، وهذه كلها آثار : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » .

١٣٢ المؤلف يتخيل شبانا يأتون من التركستان والصين في المراكب الهوائية يزورون أهل شمال افريقيا ويردّ هؤلاء الزيارة لهم ، ويجب المؤلف أيضا من أن يكون هذا الزمان قد ظهر فيه مؤتمر اسلامي لم يكن له نظير ، وفيه ثمان لجان لحفظ كيان الأمم الاسلامية .

١٣٤ ﴿ سورة الحجرات ﴾ نص الآيات مشككة .

١٣٥ القسم الأول من السورة تفسير البسطة ، وأن عادة الشعراء أن يبدعوا بالفزل ثم ينتقلوا للمدح ، ولكن براعة استهلال القرآن جاءت بذكر الرحمة والرحمة مشروحة في ﴿ سورة الرحمن ﴾ والرحمة في ﴿ سورة الفتح ﴾ أصولها انكشاف الحقائق ثم فتح البلدان ، والرحمة في هذه السورة عملية وهي الفضائل التي تبلغ ١٢ كالأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم والعمل الصالح واجتناب التجسس الخ وههنا مبحث واسع ، مانخصه أن مقتضى الرحمة أن لا يكون نقص في الانسانية حتى يحتاج الانسان في دفعه إلى الزواج القرآنية ، وأجاب المؤلف على ذلك بأن هذا العالم كله ليس شيئا مذكورا ، وهل هو إلا حركت وتلك الحركات صارت أضواء ان كانت أقلّ وحجرا وحديدا وأرضا الخ ان كانت كثيرة ، إذن هذه الدنيا كلها وكواكبها كهر باه مضموطة ، إذن هذا عالم أشبه بالعدم ، وما أشبه بالعدم فهو ناقص ، والله موجود ، وهو يريد أن يخلق روحا يكملها ، ووسيلة كمالها أن تتفاعل تفاعل الكهر باه السالبة والموجبة حتى يكون لها وجود مستقل ، أو شبه مستقل ، ومن تمام التفاعل العلم والحكمة والأنبياء والعلماء وهكذا .

١٣٨ جمال في جمال : خيال المؤلف يرى أن العالم موسيقي ، ويبين ذلك بأن المادة راجعة فعلا إلى أنوار كهر بائية ، وهذه الأنوار فيها حركات وأنوار ، فالحركات موسيقي والأنوار جمال ، وضروب القسامين لاحت لأفرادها ، فلو تجلّت لنا العوالم على هيئتها الأصلية لفزقت أرواحنا من جمال الصور المشبكة الألوان وسماج الأغاني المدهشة ، فمن رحمة الله أن يحجب هذا كله بالقتال والخصام ، وأنواع الذنوب ، وذيهم الاخلاق لئلا تشتغل بالخروج منها .

- ١٣٩ القسم الثاني ، التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة من أوطلا إلى آية : « والله غفور رحيم »
- ١٤١ القسم الثالث من السورة من آية : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » إلى آخر السورة
- ١٤٣ خاتمة في مباحث هذه السورة وهي ٩ مثل أن لا يتجاوز صوتهم صوته صلى الله عليه وسلم وهكذا .
- ١٤٤ قسم التخلية فيه ١٤ فصلا مثل النهي عن تصديق كلام الفاسق ، ومثل النهي عن الغيبة وهكذا
- ١٤٥ القسم الثالث : التحلية بالفضائل ، مثل ان الناس يتعارفون ، وأن بلالا أذن على ظهر الصخرة وقر يش ترى ذلك على خلاف عادتها .
- ١٤٧ لطيفة في آية : « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » وبيان أن المؤلف رأى امرأة عرجاء صفراء ، فظفر له انها لا تطلب للزواج ، وانتقل من ذلك إلى أن كل امرئ يتمتع لمن يريد زواجها ، فالجاهل يكتفي بامتحن ظاهر الجلال ولكن العاقل يرى أن الامتحان يكون في الخلق والقوة الجسمية والقوة العقلية ، وهذه الخلال الثلاث هي التي تسمى لها جميع مدارس العالم شرقا وغربا كما تقدم في آية ويهديك صراطا مستقيما ، وهنا عجب المؤلف من آية : « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » وهو امتحان في الأخلاق ، وهذه دعامة من الدعائم الثلاث وامتحن الله في إحداها ، وإذا امتحن الله فيها هو أصعب فعلينا أن نمتحن فيها هو أسهل من باب أولى ، إذن لنمتحن كل شيء ، الطيب يمتحن المريض بحسن نبضه لسا ، وبنجاح عدد الضربات ، وبمشاهدة البول واللسان ، فهو يمتحن بالس والسمع والبصر ، هكذا فلنمتحن كل شيء ولا تتسكل على الفريزة ، بل ندقق الامتحان في كل شيء وههنا ذكر المؤلف امتحان الرجل الكامل من كتاب « مسررات الحياة » وانه ذو العقل الرزين ، والعواطف الشريفة ، الصادق النظر ، ذو القوة البدنية ، فإذا لم يكن العقل رزينا وقع في الخطأ ، وإذا لم تكن العواطف نبيلة كان الانسان عاجدا لنفسه ، وإذا لم يكن جسمه حديديا فان عمله يكون ضئيلا وان كانت نيته حسنة ، إن العبقري من الرجال صفاته عظيمة ومقامه فوق كل مقام .
- ١٤٩ اللطيفة الثانية في آية : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » إلى قوله : « علم خير » وفيها أربع مقالات : المقالة الأولى في الصلح بين الطائفتين المقتلتين .
- ١٥١ الشيعة العباسية والعلوية ، وههنا دهش المؤلف من جميع المسلمين في تلك العصور ، فالشيعة العباسية والعلوية قاموا في وجه بني أمية ، ولكنهم بعد انهزام الأمويين لم يحصل منهم عدل لأمم الأمويين فانهم قتلوهم قتيلا في حال الامن ، ولامع بعضهم فان العباسيين اغتصبوا الملك من بعض بني الحسن الذي تمت له البيعة الصحيحة ، فتولى الملك السفاح ثم المنصور الذي قتل صاحب البيعة ، وكان المنصور والسفاح كثيرى القدر بمن يعطونهم الأمان من أقر بهم العباسيين ومن غيرهم من العلويين ومن أشياعهم حتى ان أبا جعفر المنصور قتل أبا مسلم الخراساني ، ذلك الذي قتل ٦٠٠ ألف نفس بلا ذنب إلا الاتهام ، وذلك بأمر ابراهيم الامام .
- ١٥٤ سياسة العباسيين في تأييد سلطتهم .
- ١٥٥ التصور والدولة العباسية .
- ١٥٧ امتحان المؤلف لسيرة هذه الأم مثل أن هشام بن عبد الملك يقتل سرا أبا هاشم بن محمد بن الحنفية غدرا ومثل ان أبا هاشم لما أحسن بالموت أوصى لبني العباس بالبيعة ، ومثل ان العباسيين بايعوا باسم آل محمد ومثل أنهم غدروا بأبي سلمة الخلال المغمى الشهيد ، ومثل ان عبد الله بن الحسن والد صاحب البيعة طلب المال من السفاح ، ومثل ان أبا جعفر المنصور يقتل أهناه الحسن الذين كانوا نصرانه بالأمس ،

فأين الشورى إذن ؟ ومثل اختلاف الأمين والمأمون

١٥٩ نتيجة أعمال الأمويين والعباسيين في الاسلام ، الأمويون أعزوا العرب ، والعباسيون أذلوهم ، واستعانوا بالفرس والترك ، وهذا العمل بقي إلى الآن ، مثل الممالك البرية والبحرية بمصر ، واستعان أمراء الأندلس ببابا رومه ودوق فينيزيا وبارونات أوروبا ، وكيف ذلت هذه الأمة بهذا الجهل .

١٦٠ بيان أن الأمة أشبه بطفل وكل قرن سنة ، فهي الآن في الرابعة عشرة ، إذن قد بلغت بلوغا أشبه ببلوغ الاحتلام ، وكل ما حصل لآبائنا هو عظة لنا ، فهي نعمة لأننا المستقبلية .

النظام العام في الاسلام ، وبيان أن أم الاسلام كانت عادلة في أحكامها بواسطة القرآن والدين ولكن الملك تنقل من دولة إلى دولة « وتلك الأيام ندو لها بين الناس » .

١٦٢ جمال العالم ونور الحكمة وأزهار الخداتى العلمية : يقول المؤلف : انه بينما كان يفكر في تفسير « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم » في سورة ق إذ استبان له بعض أضرار (آل م) وأن هذه الحروف في (سورة ق) لها صلة بها في أول (سورة البقرة) والتي في أول سورة البقرة مفتاح للعلوم التي كانت أبوابها مغلقة قبل زماننا : والدين بعدنا سيفتحون أبواب تلك العلوم بهذه المفاتيح ، وأن النباتات أنواع متفرقات مختلفات ، فبها ما يتغذى به الدود مما هو قدر محقق منبؤذ ، ومنها ما يتغذى به الانسان و بينهما درجات كثيرة جدا ، وليس في الأرض عاقل يعترض على هذا النظام ، فكل عاقل في أرضنا لا يعترض على اتساع عالم النبات لتغذية الحشرات والأنعام والدود والانسان ولا يأخذ من ذلك ، بل يراه أمرا عظيما ، وإذا كان هذا وانحاز في النبات فلنفس عليه ما ليس بشديد الوضوح في غيره مثل دين الاسلام ، فهو تنزيل الله ، وقد فعل الله فيه ما فضل في النبات ، فكما رأينا النبات قبل الدود والحشرات الخ هكذا رأينا هذا الدين قبل أمما ليست في البروة العليا من الانسانية ، ولم تقبل منه تلك الأمم إلا على مقدار همها كما قبل الدود من النبات على مقدار استعدادها ، فهذا نظام عجيب ، وهذه حكمة التكوين الذي هو أمر آخر غير نظام التشريع ، ولا جرم أن نظام الفلسفة العام ونظام الحكومات حكومتنا المصرية ، ونظام الديانات العام ، ونظام المذاهب الاسلامية كلها تقاس على نظام النبات كما تقدم ، فنظام الفلسفة العام لا يختص بعلم من الطبيعيات أو الرياضيات ، بل هو علم لها كلها ، ويشر الفيلسوف آحاد الأمم يفكرون في العلوم الجزئية كما حصل من الدود والحشرات في الاكتفاء من النبات بما يناسبها ولم تفكر كما يفكر الانسان في جميع النبات ، فكما كان الانسان فيلسوف الحيوانات هكذا رأينا قارى الحكمة فيلسوف العلماء بالعلوم الجزئية ، وهكذا صاحب السلطان في الأمة كرجس الجمهورية له الاشراف هو ومجلس النواب على الوزراء ، فهو في الأمة كالفيلسوف المذكور مع العلماء وكالانسان مع الحيوان في أمر النبات ، هكذا علماء المذاهب الاسلامية عموما من الشيعة وأهل السنة ، فكل هؤلاء لا يحظر بيالم نظام الاسلام العام ، بل هم متفرقون في الفروع التي تلقوها كبرا عن كبر ، فهو لا أشبه بحيوان يأكل نباتا خاصا ، أو بشيخ قرية في البلاد المصرية وهكذا ، وليس يقدر أن يرفع بصره إلى أعلى ، وهذه درجته وهو معذور في ذلك ، وسيقوم في المسلمين الآن و بعد زماننا أناس حكياء يقولون : أيها المسلمون على رسلكم : ماذا جرى لكم ؟ ان علماءنا السابقين كانوا معذورين جميعا ، وعلينا نحن أن ندرس القرآن دراسة أخرى .

١٦٩ ألم تزوا كيف كان الصحابة اذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لا يتركونها حتى يفقهوا معناها ، ونحن لانعرف ماذا كانوا يتعلمونه منه ، وما هوذا نور الله في الخليقة ، فلندرس الدنيا ونظامها

وبهذا يتجلى لنا هذا القرآن والا فكيف نرى أن ابن عمر لم يحفظ البقرة إلا في ثمان سنين وما مضى
« ليتبروا آياته » .

١٧١ آراء « جون راسكن » في التعليم وأن المدارس فيه على أن يكون مغريا للتعلم أن يكون مكبا على العلم
أما كثرة المعلومات فلاهمية لها . ويقول غيره : « نحن لاتعاطى طعامنا كله أول النهار هكذا ليس
التعليم خاصا بأول العمر ، الحياة كلها زمان للتعلم ، ولاسبيل لجعل الانسان عاشقا للعلم مدة الحياة إلا
بتعليم المعلمين له ذلك » . إن حكماء الأمم الاسلامية بعدنا سيصلحون ما أفسده سوء التعليم لآبائنا ،
وسيصرفون هذه الأمة عن هذه الذنوب والأخلاق الشائنة ، وسيقولون : إن مارقع لآبائنا جعل نعمة
لنا لنحترس مما وقعوا فيه ، وإذا كانت الأمم المحيطة بالمسلمين قد اتحدت أفلا يكون المسلمون أولى بهذا
الاتحاد ، وعلامة هؤلاء المصلحين في الاسلام أولا ان عددهم قليل كقلة عدد ملكات النحل ، ثانيا :
هم يحبون خلاصة العلوم كلها فتتقذى نفوسهم بها كما تفخذت ملكات النحل بصل أبيض مخالف لفضاء
رعايا هذه الملكة ، ثالثا : انهم مفرمون بجمال هذه الدنيا ، رابعا : ان الناس يميلون إلى تعاليمهم .

١٧٣ نور على نور في أخلاق عصر النبوة ، وفي الخلافة الاسلامية ، وفي فروع السولة العباسية المنفصلة عنها
وفي جميع الممالك الاسلامية من عصر النبوة إلى الآن ، وفي هذا المقام مقالة المفيرة أمام رستم القائد
الفرسي في أثناء واقعة القادسية ، ومقالة عبادة بن الصامت للقوقس صاحب مصر لما خوفه بمجموع
الروم ، وأن المسلم ينال أحد أمرين : إما دخول الجنة بالقتل ، وإما النضر في الدنيا .

١٧٥ آراء خطيرة في الخلافة : وهو مقال للمؤلف ذكره في « مجلة المعرفة » يقول فيه : « إن خلفاء المسلمين
بعد العصر الأول لم يقبوا الشورى ، والخلفاء الراشدون لم يجعلوها بالوراثة ، والمسلمون ليسوا سلما يرثها
الأبناء عن الآباء ، فيجب أن يجتمع الأسماء اليوم ، ويجعلوا واحدا منهم هو الخليفة ، وليكن جيته
أعظم ، وعلم أمته أوسع ، بشرط أن لا يكون لسلطة أجنبية عليه يد .

١٧٦ وههنا ذكر الولايات العشر المفرقة عن الدولة العباسية لما أخذت في الاضمحلال مثل البصرة وخرزستان
وقارس والبحرين والعمارة وهكذا . ذكر استبداد الجند والخلم ، وكيف قتل جند الفارسية والأترک
بالمعز سنة ٢٥٥ هجرية إذ أوقفوه في الشمس وعذبوه ، ثم قتلوه قتلا شديدا .

١٧٧ جدول الدول الاسلامية منذ ظهور الاسلام إلى الآن ، وهي نيف مائة دولة ، وعدد رؤسائها ١٢٠٠
رئيس فيهم الخلفاء والسلاطين والملوك والأسماء والأنابكة والاشيخيدية والحدوية والشرقاء والبابات
والدايات ، ومنهم العرب والفرس والترک والشرراكية والأكراد والهنود والتتر والمغول والأفغان وغيرهم
ومن عواصمهم المدينة والكوفة والشام وبغداد ومصر والقبروان وقرطبة والاسطانة وصنعاء وعمان
ودهلي وغيرها .

١٨٠ بهجة الجبال في تاريخ الأمم الاسلامية وفي جواب اعتراض على المؤلف : يقول المعارض على المؤلف
انك قد ظهرت في هذا المقام بظهور يجعل القارئ في حيرة من دول متشاكسة ، وأحوال متعارضة ، مع
ان آية : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » لاتتعمل ذلك ، وهذا خارج عما درج
عليه المفسرون ؟ فأجاب المؤلف قائلا : لعل الانسان بارزة من وسط الحيوانية الثائرة الشهوات ، وقد
أزادت الاعتدال في القوة الضعيفة والبهيمية ، ثم ظهر فيها مصلحون أمثال (كوفوشوشوس) المصلح
الصيني في القرون الاولى ، وقد ظهرت علامه مرتبة ترتيبا مدهشا منظما بحيث انه جعل تهذيب الفرد
يقبضه نظام الأسرة يتبعها نظام الدولة فيكون العدل العام ، ونظام الفرد الذي هو الأساس مبني على

نظام تهذيب الأخلاق ، وهذا مبنى على التقاوة المبينة على الصدق والأخلاص في التفكير ، المبني على اتساع المعارف ، المبينة على المشاهدة ، إذن كوثوقشوس يحصل المشاهدات مبدأ تمتد منها سلسلة تنتهي بنظام النبوة ، وآراء هذا الحكم تتطرب آراء علماء اليونان مثل سقراط في جمهوريته الذي يقول : « إن رجال الحكومة يجب أن يكونوا منزهين عن المادة منصرفين إلى المثل الأعلى ، وهم آباء للأمة والأمة أبناءهم ، وتعليمهم يجب أن يكون تعلما عاليا على مقتضى ماقوله كوثوقشوس وأن لم يصرف أحدهما الآخر ، ولما طبق المؤلف هذه المعارف على أم الاسلام وجد أن ترتيب الحكومات من أعلاها إلى أدناها في مراتبها الخمس ظهرت في أم الاسلام عصر الصحابة بيئته الوصف الذي وصفه سقراط ، ثم جاء الأمويون والعباسيون ومن معهم ومن بعدهم فأخذوا ينزلون درجة درجة ، فكان المثل الأعلى أيام النبوة وعصر الصحابة وحكومة الجند التي هي أقل منها كانت أيام الدولة الأموية وأول العباسية ، ثم كانت حكومة الثروة والمال ، ثم اضطعلت الدولة فكان الاستبداد ، وذلك ظاهر في بغداد والقاهرة وقرطبة وجميع بلاد الاسلام ، وهذا كله يجب ذكره تطبيقا على آية : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » وكل هذا داخل تحت فصول مثل عالم الحيوان وظهور الانسان وآراء سقراط الخ .

١٨٦

تطبيق علوم تلك الأمم على أئمتنا الاسلامية .

١٨٧ خطاب من المؤلف إلى السفاح العباسي ، وعبد الله الحسني .

١٨٨ خطاب المؤلف للمسلمين ، ويان أن الله أسس ذلك التاريخ لنا الآن ، وخطاب الله للأفراد والأمم .

١٨٩ فصل في أن تجارب أيامنا هذا زمان ظهورها .

١٩٠ الفصل الثامن في تبيان نعم الله علينا وعلى الناس

١٩١ نظرتي في عوالم العقول وعوالم الحقول والمزارع والتمترات

١٩٢ اشراق شمس الاسلام بعد اظلام ليله : الاتفاق بين ملك اليمن ، والملك ابن السمود .

١٩٤ مصداقا لما قلناه من ظهور نور الاسلام في زماننا هذا خاصة بعد عصر الصحابة والتابعين وذكر معلومات

جديدة عن بلاد التركستان الصينية ، وانها أشرقت فيها شمس الأنوار المحمدية ، وأخذوا يقرءون

علوم الأمم التي لم يقرأها آباؤهم بما قرءوا في كتب مؤلف هذا التفسير .

١٩٦ المقالة الثانية : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم » الخ ويان أن هذه الآيات فيها مقامان :

المقام الأول في غوائل اللسان ، المقام الثاني في غوائل القلب ، والمقام الأول يشتمل على مباحث الجمعية

النفسية في أوروبا ، وعلى ما كتبه الامام الغزالي .

١٩٧ أما مباحث الجمعية النفسية ، فهي ترجع إلى أن للانسان مغناطيسية اذا ضغطها ولم يتكلم وكنتم أمور

كان أشبه بكوكب ، وانجذبت إليه الناس ، وارتقى عقله ، وكثر ماله ، وأحبه جيع الناس بلانصب ولا

تعيب ، أما التكلم بكل ما يخطر له فانه يسبح فارغا ويحقره الناس وهو لا يدري لماذا يكون هذا الاحتقار

٢٠٣ أما ماقوله الامام الغزالي في الاحياء فذلك انه جعل غوائل اللسان عشرين نوعا وفصلها تفصيلا ، وقد

ذكرنا هنا منها عشرة ، وسنذكر العشرة الأخرى في ﴿ سورة : ق ﴾

٢٠٤ بيان عظم خطر اللسان وفضيلة الصمت ، وذكر الأحاديث الشريفة مثل حديث : « من صمت نجح »

ومثل : « الصمت حكم وقليل فاعله » وقد كتب على الطامش يان صفة هذه الأحاديث من الضعف

والصحة والحسن الخ .

٢٠٨ ذكر آفة الكلام فيما لا يضي .

- ٢١٠ الآفة الثانية : فضول الكلام والأحاديث الواردة في ذلك مثل : « طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأتقى الفضل من ماله » .
- ٢١١ الآفة الثالثة : الخوض في الباطل ، والأحاديث الواردة في ذلك مثل : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله » الخ .
- ٢١٢ الآفة الرابعة : المراء والجدل .
- ٢١٤ الآفة الخامسة : المحسومة وأحاديثها .
- ٢١٦ الآفة السادسة : التعرض في الكلام والتشدد .
- ٢١٧ الآفة السابعة : الفحش والسب وبذاءة اللسان وأحاديث في ذلك مثل حديث : « الجنة حرم على كل فاحش أن يدخلها » .
- ٢١٩ الآفة الثامنة : اللعن ونحره بأحاديث مثل : « إن اللعائن لا يكونون شفاء ولا شهداء يوم القيامة »
- ٢٢٢ الآفة التاسعة : الفناء والشعر .
- ٢٢٤ الآفة العاشرة : المزاح ، وأن المزاح يحسن تركه ، وإذا مزح الانسان فليكن ذلك قليلا جدا ، والا استخف به الناس نارة وأبضوه نارة أخرى .
- ٢٢٨ المقام الثاني من المقالة الثانية في غوائل الأعمال القلبية ، وبيان الفضيلة والرذيلة والسعادة الخ .
- ٢٣٠ الغضب : ضرب مثل قلب الانسان بحال الأرض .
- ٢٣١ الجب وسببه وعلاجه ، العلاج ، الأحاديث ووزع الدين ، الكبر .
- ٢٣٢ العلاج ، ذم الكبر وإيضاحه ، الفرق بين الجب والكبر .
- ٢٣٣ المقالة الثالثة في قوله تعالى : يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا
- ٢٣٤ المقالة الرابعة في جوهرتين : الجوهرة الأولى ما كتبه المؤلف في مجلة المعرفة تحت عنوان « صوت صرخ من الشرق إلى الغرب » ، وأن أوروبا غدت في عهدها أيام الحرب العظمى ، إذ قالوا : أيها الشرقيون : إنا نحارب لاستقلالكم ، ثم ظهر انهم غير مخلصين ، ونحن أيام قدرتنا في عصر الصحابة وفيما بهد أحد عبيدنا ، وبيان أن المسيح أرسله الله فقال للناس : كونوا اخوانا ومع ذلك لم يسمع تلك التسمية الرومانيون فبقوا في الشرق كما هم تجاه نبينا صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كما هم فقال بالسلام وسبانا مسلمين ، وشعرنا : السلام عليكم ، ولكن الله أمره بالقتال عند الحاجة ، فلم يخرج أوروبا إلا بالقتال ، ثم صارت أوروبا بعد ذلك أمة مخزفة استبدت بها القيسون والرهبان ، وأسرقوا آلافا وآلافا منهم بسبب أمور دينية ، ولما أشعل البابا الحروب الصليبية على المسلمين وبقيت مائتي سنة تنزور المسيحيون وعرفوا من مخالطة المسلمين حقوقهم وحريتهم فرجعوا وأوقفوا رجال الدين عند حدودهم فارتقوا ، وهامهم أولاء جاموا كرة أخرى للشرق ، فلتلم أوروبا أن الشرق اليوم غير الشرق السابق وليتذكروا أمم الشرق لما هجمت على أوروبا في أزمان قديمة فدكتها دكا ، ثم ليتذكروا التتار الذين هجموا عليها منذ نحو ٧ قرون وهذه بقاياهم في الروسيا وغيرها ، فهاهوذا الشرق اليوم يريد أخذ ناره ، فطوبى لأوروبا .
- ٢٣٨ الجوهرة الثانية في ذكر سر آية : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » وأن المؤلف لما صرف أن هذه الدنيا مدهش نظامها ، وأن التذكور والاناث أعدادهما متقاربة في الانسان وفي الحيوان أدهشه ذلك وأخذ يشكر في أن العالم والسناعات حتا يجب أن تكون موضوعة في العقول بنظم كما

أن المنافع موزعت على الأرض بنظم ، إذن الناس جميعا في الأرض جاهلون غافلون ، فيجب عليهم أن يستخرجوا منفعة كل عقل ومنفعة كل أرض ليسعد الانسان الجاهل الآن .

٢٣٩ الأرض واستعدادها ، نظرتي في الأمم ، تأليف أين الانسان ، يقول المؤلف : انه سنة ١٩١١ ألف كتاب أين الانسان ، وأرسله إلى أوروبا ، وملخص هذا الكتاب أن المؤلف تخيل انه ركب مركبة بين اليقظة والنوم وارتقى بها مع انسان روسي حتى وصل إلى كوكب وراه نبتون ، وهناك وجد أربعة آلاف أمة متحدين معا ، ولما رأوا المؤلف أخذوا يهزمون بنظام أهل الأرض ، وعدة كل نظامنا الحالي نظاما حيوانيا ، فما هذه الآلات المهلكة إلا ذرائع للحيوانية لا للانسانية ، وكيف يسى فريق من الناس في قديم أطفال الفريبي الآخر واخضاهه واذلاله ليكون آلة مسخرة له ، فهو ينزل عن الانسانية إلى الحيوانية ، وكيف تبقى الأرض عند طائفة من الأمم لاجمال فيها يستخرجون منافعها ، والأم الأخرى قد اكتظت أرضهم بسكانها . كلا . مم كلا . يجب أن يؤخذ ما زاد من الناس عن أرضهم إلى أرض أمة أخرى يعيشون معهم بسلام ، ويجب أن يوضع كل امرئ فيما استعد له ، ويجب أن يتعلم إلى آخر درجة يستحقها ، والأم كلها ملزمة بذلك ، فطالب كل أمة بتعليم كل فرد ، وباستخراج كل منفعة في الطبيعة ، وليكن كل انسان نافع لكل انسان كأنهم جسم واحد ، وقد لخص هذا الكتاب الاستاذ (سنتلانه) التلياني في مجلته بمدينة رومه ، وأثنى على الكتاب .

٢٤٥ ههنا مبدأ كلام الاستاذ (سنتلانه) وفيه هذه المعاني المقدمة .

٢٤٦ الاستاذ (البارون كرايڤو) وكلامه في أين الانسان ، وهو يذكر أن آراء المؤلف في السلام العام أحسن من آراء (داروين) الانجليزي ، ويتشبه الألماني ، وأن هذين يريدان أن يفك القوي بالضعيف ، أما الشيخ فإنه يريد أن يكون الناس أمة واحدة ، ويقول : انه يجب أن يتعلم التلاميذ ذلك في مدارسهم ، ويسمعون النغمات التي نظمت في محبة جميع النوع الانساني الخ .

٢٤٧ بهجة المناظر الخيالية ، وآثارها العلمية ، في سر قوله تعالى : « إن الله عليم خبير » وبيان سر اسمه الخبير ، وذلك أن الله علم قبل أن يخلق الخلق أن المسلمين سينامون نوما عميقا إذ يظنون أن المدار انما هو على النسب ، حكم الأمم يرجع إلى النسب لا إلى الكفاءة والتقوى وأمثالها فقال لهم بصريح العبارة ان المدار على التقوى ، وختم الآية بأنه عليم خبير والخبرة معرفة بواطن الامور ، ومن بواطن الامور ان أم الاسلام اكتفت بالألفاظ والظواهر ، وقدمت التعديل على الجرح في الأجاديت مع ان الجرح مقدم على التعديل في أمثال أحاديث المهدي الذي جعل مداره على النسب لاعلى التقوى ، وههنا ذكر حديث الرايات السود المقبلة من قبل خراسان ، فهذه تتج عنها تولية السفاح العباسي ، وهل السفاح يكون مهديا ؟ وهل المهدي الذي يملأ الأرض عدلا هو الذي بهلك من بني العباسي وغيرهم رجلا بلاذب بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، والذي ورد أن اسمه على اسم النبي ﷺ واسم أبيه على اسم أبيه هو النفس الزكية ، وأبوه عبد الله ، واسمه محمد ، وقد قتله المنصور والبيعة كانت له ، فاذا قيل ان الذي راياته السود تأتي من قبل خراسان يكون قبل قيام الساعة ، قول إذن يكون معنى هذا اننا لا نقول لنا ، فهل الرايات السود وخراسان ينحصر المهدي فيما مرتين ، وما هذه الهداية التي لا تقوم إلا بالسيف ، إذن ظهر اليوم سر خبير بعد علم لأن الله يعلم بواطن الأمم ، فلذلك جعل المدار على التقوى لعلمه أن ميل الناس قوى جهة النسب ، فلكونه خيرا بذلك صرح بما ذكرناه .

كتب المؤلف :

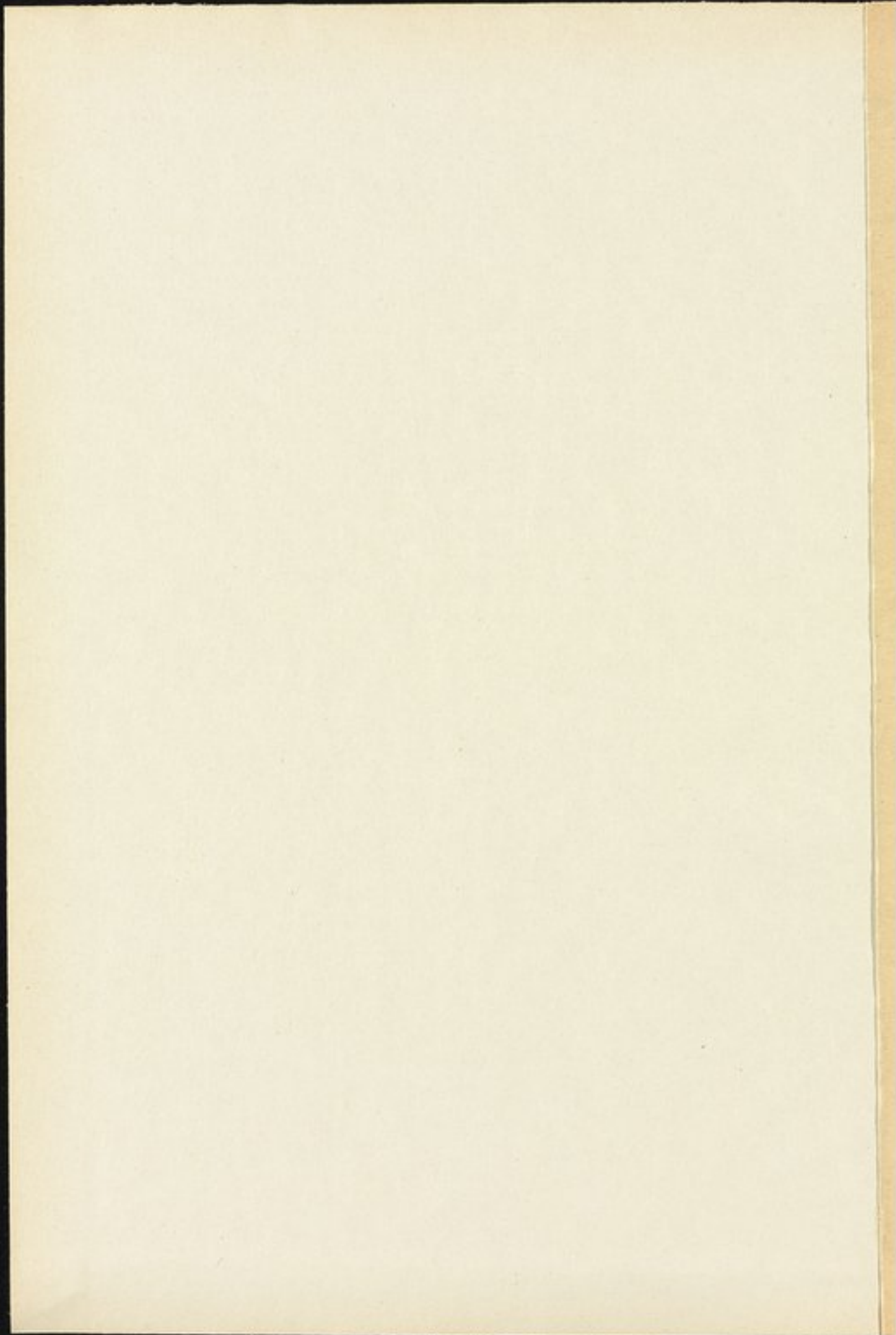
تطلب من مكتبة مصطفى البابی الحلبي وأولاده بمصر
شارع التبليطة رقم ١١ بجوار الأزهر الشريف

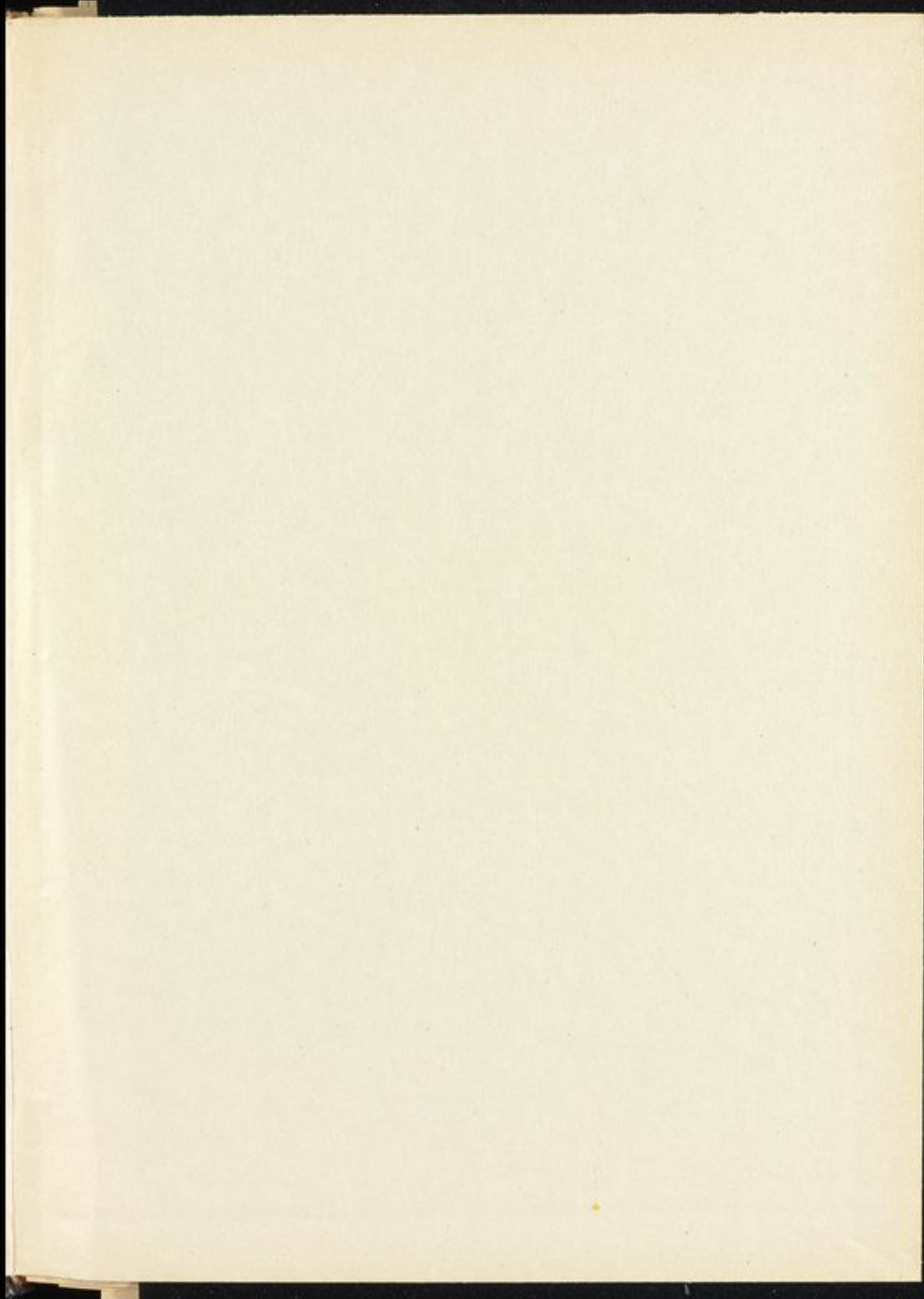
- ١ - برائة العباسة أخت الرشيد .
تحقيق تاريخي على خطير في هذه القضية مع نبذة عن الطوائف والسمرات في أيام
الدولة العباسية .
- ٢ - تفسير سورة الفاتحة (كتاب خاص) .
- ٣ - القرآن والعلوم المصرية .
- ٤ - بهجة العلوم والحكم في الفلسفة العربية ومقارنتها بالعلوم والأفكار المصرية .
- ٥ - جواهر العلوم .
- ٦ - أحلام في السياسة وكيف يتحقق السلام العام .
- ٧ - نهضة الأمة وحياتها .

اطلبوا قائمة بأسماء الكتب من جميع العلوم والفنون وكتالوج بأنواع للمصاحف الشريفية

ترسل هدية لمن يطلبها

المراسلات : صندوق بريد القورية رقم ٧١ مصر







Princeton University Library



32101 079196281